

منشورات اتحاد



القاهرة

# مجلة المؤرخ العربي

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

## المحتويات

٧	كلمة الافتتاح. للأستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع رئيس الاتحاد
٩	كلمة التحرير. للأستاذة الدكتورة زبيدة محمد عطا رئيس تحرير المجلة
١١	د. إيناس أحمد السيد عباس ترجمات المصادر اليونانية وأثرها في ظهور المؤلفات العربية في النبات والفلاحة والعلوم
٣٩	د. عوض سعد محمد عيسى الدور العسكري لأبناء مفرن في صدر الإسلام ٥ - ٢٢ هـ
٨١	د. محمد سعد إسماعيل سياسة الخلفاء الراشدين في اختيار الولاة على البلدان
١٠٥	د. عبد الحكيم عبد الحق محمد أثر المرأة اليمنية في الحياة السياسية في العصر الرسولي
١٢٥	د. سلوي عبد القادر السليمان المطبخ السلطاني في اليمن في عصر بن رسول (٦٢٦-٨٥٨هـ/١٢٢٩-١٤٥٤م)
١٥١	د. منيرة عبد الرحمن الشرقي أثر فتنة قرطبة على الحياة العامة فيها (٣٩٩-٤٢٣هـ/١٠٠٩-١٠٣١م)
٢٠٣	د. أسامة إبراهيم حسيب النظم القضائية والتشريعية في إنجلترا عهد الملك هنري الثاني ١١٥٤-١١٨٩م
٢٤٥	د. محمد طه صلاح صالح بكري المكانة العلمية لمجاوري مكة إبان العصر السلجوقي (٤٢٩-٥٩٠هـ/١٠٣٧-١١٩٣م)
٢٧٩	د. محمد عبد الله المقدم الأسيرات في المشرق العربي زمن الحروب الصليبية
٣٢٥	د. صلاح الدين علي عاشور الأمير الزيادي "عصر المعالي كيكأوس" وكتابه قابوسنامه
٣٦٧	د. حسن أحمد البطاوي المغنيات ودورهن في دولة سلطنة المماليك عصر أبناء السلطان محمد بن قلاوون

٣٩٥	د. سيد محمود عبد العال ثورات العربان وأثرها في الاقتصاد المصري زمن سلاطين المماليك (٦٤٨-١٢٢٣هـ)
٤٤٣	د. محمد أحمد محمد الشحري السلام بين الحقوق والواجبات في الإسلام
٤٧٥	د. محمد عزيز محمد ملك حفني ناصف "باحثة البادية" ودورها في الحياة الاجتماعية المصرية (١٨٨٦-١٩١٨م)
٥١٣	د. أحمد عبد الدايم محمد حسين الهندوس في شرق أفريقيا البريطانية (١٨٨٤-١٩٦٣)
٥٥٧	د. كريمان محمود إبراهيم المستوطنات الإسرائيلية في القدس ودعوى الحقوق التاريخية
٥٨١	د. نادية ماجد عبد الرحمن تطور قضية واحة جنوب (١٩٠٤-١٩٥١)

## ترجمات المصادر اليونانية وأثرها في ظهور المؤلفات العربية في النبات والفلحة والعلوم المتعلقة بها

د. إيناس أحمد السيد عباس(\*)

كان لانفتاح العرب على ثقافات الشعوب، التي انضوت تحت لواء الدولة الإسلامية، أثره في القفزة العلمية التي حققها العرب في شتى العلوم، في فترة أقل مما توصف به أنها كانت وجيزة. وذلك بدءاً بتشجيع العلماء ثم تبني حركة الترجمة إلى اللغة العربية، تزامناً مع الرغبة المتزايدة في اقتناء المؤلفات التي تشتمل على مختلف المعارف، وما استتبع ذلك من إنشاء المكتبات ودور العلم التي ما لبثت أن تعددت مراكزها، في شتى جواضر الدولة الإسلامية، مع اتساع رقعتها شرقاً وغرباً. كما أثبتت اللغة العربية، شيئاً فشيئاً قدرتها على استيعاب هذه المعارف، بحيث صار من الأفضل للعلماء، حتى من غير العرب التعبير عن أفكارهم باللغة العربية.

ومنذ بدأ التعامل مع هذه المعارف التي توفرت عليها جهود الترجمة، اجتذبت المعارف اليونانية إلهيية المفكرين العرب، ثم رأوا في المساهمات الهلنستية ما يلبي حاجات عملية، إلى جانب الحاجات الفكرية المعرفية. ومن ثم تعرف العرب على أنواع العلوم وتقسيماتها عند اليونان، ثم ما لبثوا أن وضعوا تقسيمات للعلوم التي أصبحت شائعة عندهم، وفق نظرية خاصة بهم. وقد كان علم النبات ضمن ما تناوله علماء اليونان من علوم.

سنحاول في هذا البحث أولاً: معرفة موقع علم النبات من هذه العلوم، وكيف تناوله علماء اليونان في مؤلفاتهم التي اطلع عليها العرب، ضمن ما وصل إليهم من ترجمات، وهي التي شكلت الأساس الذي انطلقت منه المؤلفات العربية في هذا العلم، ثم الوقوف على المنحى الذي اتخذته هذا العلم في مؤلفات العلماء العرب. على أن نتابع بعد ذلك: كيف تفرع عن علم النبات فرع آخر هو علم الأدوية والعقاقير؛ القائم على النباتات الطبية. ثم أتى علم آخر في مرحلة لاحقة، ضرب فيه العرب بسهم وافر، وأضافوه إلى أنواع العلوم، وهو علم الفلاحة، الذي ألفوا فيه كتباً وضعوا فيها خبراتهم في نطاق هذا العلم. ومن ثم نعرف كيف أسهم ما أنتج من هذه المؤلفات في طرح أفكار للتطبيق، وما

١(\*) مدرس بكلية الآداب جامعة الإسكندرية.

استتبع ذلك من الحديث عما تعلق بهذا العلم، من علوردت التقنيات، التي أدت إلى تقدم الزراعة عند العرب وتطورها.

تناول علماء اليونان علم النبات مبكراً، فقد تظ إلى طبيعة النباتات، ضمن دراستهم للأشكال المختلفة للكائنات الموجودة في الطبيعة، إذ تناوله أرسطوطاليس (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) في هذا الإطار، في مؤلف منسوب إليه نوانه "عن النبات". قدم فيه أفكاراً منها أن للنبات قدرات ثلاث هي: التغذية، النمو، واثر، بينما تنعدم لديه القدرة على الحركة أو الإدراك. غير أن أهمية أرسطوطاليس بالنه إلى هذا العلم، بوصفه واحداً من موضوعات العلوم الطبيعية، تكمن فيما وضعه نهج للدراسة يقوم على الملاحظة والاستقراء، ثم التحليل والتفسير<sup>(١)</sup>. في حين س Hippocratès أبقراط الطبيب (٤٦٠-٣٧٥ ق.م) تصوره لطبيعة النبات في مراحل نموها، بدءاً بالبذرة ثم النبتة، وذلك على سبيل القياس، أثناء وصفه لمراحل نمو الج.<sup>(٢)</sup>

بيد أن تناول النبات، كموضوع قائم بذاته، تصد له Theophrastus ثيوفراستوس (٣٧٠-٢٨٨ ق.م) أو ثاؤفراستوس حسب اسم العربي، تلميذ أرسطوطاليس؛ إذ أفرده له مؤلفين، يحمل أحدهما اسم "تاريخ النبات"، والآخر "أسباب النبات" أو بالأحرى "أسباب الإنبات"، ردد فيهما بالطبع أفكار مع<sup>(٣)</sup>. ولم تصل من هذين الكتابين إلا شذرات متفرقة، تدل على أنه قدم فيهما مطوم تتم عن ملاحظة شديدة الدقة، عند تمييزه بين أصناف النبات وأنواعه، وكذا عند إيضاح إدراكه لأسس العلاقة بين حالتى الإزهار والإثمار. كما أدرك ما لجغرافية المكان من أثر فى اختلاف النباتات، من حيث الشكل والخصائص. وبذات الدقة وصف أجزاء النبات: من جذر وساق وأوراق وأزهار وثمار. كما وضع تصنيفاً للنبات كشجرونت وعشب<sup>(٤)</sup>. بالإضافة إلى أنه أفرده فصلاً للاستخدامات المختلفة للنبات، سواء كتقير طبية أو فى الوصفات السحرية. وبعد هذا الفصل - فى حد ذاته - أول دليل نانى يتعرض لاستخدامات النبات، تم الاعتماد فيه على معلومات استقاها من خبراء فى الأعشاب، ممن يعرفون فى التراث اليونانى باسم "قاطعى الجذور"، وهم محترفون هذه المهنة، يعتمد عليهم كل من الأطباء والسحرة فى تزويدهم بالنباتات<sup>(٥)</sup> وقد مررت أفكار ثيوفراستوس فى كتابات من تعرض لهذه الموضوعات من بعده؛ إذ يعد أبعلم النبات اليونانى.

أما عن معرفة العرب به؛ فقد تردد اسمه كتلميذ لأرسطوطاليس، وخيفة له على رئاسة المدرسة المعروفة بالـ "ليقيوم" Lyceum فى أثينا. أما مؤلفه فقد ذكر ابن النديم كتابه "أسباب النبات" أو "الإنبات"، وأشار بأن إبراهيم بن بكوس قام بترجمته إبان القرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى. غير أن الترجمة قد ضاعت<sup>(٦)</sup>. هذا ولم يذكر غيره تفاصيل أكثر عن هذه الترجمة، كما لم يعرف عن صاحبها سوى أنه كان طبيباً

بالمارستان العسدى، لما بناه عسء الدولة فى بغداد. وقد نقل كئبأ كثيرة إلى العربية، ثم كف بصره، ولم ترد له ترجمة فى أى من كتب التراجم، حيث أخذت هذه الإشارة عن ابن النديم، ولم يزد أحد عليه شيئاً. (٧)

ويبدو أن آفاق علم النبات لم تتسع، إلا بالكاد، خلال العصر الهلينسى. حقيقة أن كتابات بعينها مما كتب فى هذا العصر لم تصل إلينا بل فقدت، فيما خلا إشارات واقتباسات وردت عند Dioscorides ديسقوريدس من عين زربه (ازدهر حوالى ٦٥م) فى كتابه "مادة (النباتات) الطبية" *Materia Medica*. حيث أشار فى مقدمته إلى أنه جمع من هذه الكتابات وأخذ عنها. وهو الذى تناول النباتات من حيث استخداماتها الطبية، أكثر من تناوله لها من حيث طبيعتها وخصائصها؛ حيث إن ما أورده منها فى كتابه جاء مرتباً من حيث وظيفته كعقار، بمعنى ارتباطه بالعة التى يؤخذ من أجلها. (٨)

وسوف نعود إلى الحديث عن هذا المؤلف وكتابه بالتفصيل، لما له من أهمية لدى علماء النبات من العرب.

ويلى ديسقوريدس فى الأهمية ممن تناولوا النبات، وخاصة النباتات الطبية، Galenus جالينوس الطبيب (١٢٩-٢١٠م)، الذى أقر بأنه أخذ كثيراً من معلوماته من مصادر سابقة، وأنه دائماً ما يحاول ترتيب هذه المعلومات (٩). وقد كان لجالينوس مكانة كبيرة لدى مؤلفى الكتب، ذات المحتوى الطبى النباتى، من العرب؛ إذ كثيراً ما نوقشت أفكاره ومعلوماته من قبلهم - كما سيتضح فيما بعد - خاصة أنه ترجم من كتبه، فى هذا الشأن كتاب الأدوية المفردة وقوى الأغذية، الذى ترجمه اصطفن بن باسيل (الذى عاش فى عهد الخليفة المتوكل العباسى ٢٣٢-٢٤٧هـ) (١٠). كما ترجم حنين بن إسحق (٢٦٤هـ/٨٢٢م) مقالة له بعنوان "فى سر ثمر البلاذر ومنفعته وتدبيره"، وأتبعها حنين برسالة من تأليفه بعنوان "سر البلاذر وبعض أمر استعماله" (١١).

وإذا كان علم النبات قد خبت جذوته بعد هذه الأسماء التى وردت، ولم يستمر الاهتمام به إلا عن طريق ارتباطه بالطب، فإن هذا أمر يثير الدهشة والاستغراب، إذ كانت هناك مادة متوفرة تستدعى الدراسة، كما كانت الظروف مهيأة للطعام. غير أنهم صرفوا جهودهم، التى اقتصر معظمها على تجميع الآراء والتطبيق على الأعمال الموجودة بالفعل، الأمر الذى لم يسجل تطوراً يذكر بعد أرسطوطاليس وثيوفراستوس؛ بحيث لا نجد فى قائمة علماء النبات، منذ العصر الهلينى حتى نهاية العصر الرومانى، سوى هذه الأسماء، يضاف إليهم Plinius Maior بلينيوس الأكبر (كان حياً ٧٧م)، صاحب موسوعة "التاريخ الطبيعى" *Historia Naturalls*، التى تعد من الأهمية بمكان بالنسبة إلى تاريخ العلم فى الغرب، نظراً لأنها الموسوعة الوحيدة المكتوبة باللغة اللاتينية. (١٢)

من هذا العرض يتضح كيف أن أسس التراث الهليني، في علم النبات، قد أرسيت على يد أرسطوطاليس وثيوفراستوس. أما التراث الهليني فقد انصب اهتمامه على موضوع النباتات الطبية واستخداماتها، وارتاد باب علم الأدوية والعقاقير. وإذا كان هؤلاء المذكورون قد شكلوا مزيجاً من هذا العلم؛ فإن تأثيرهم في مساره قد حفظه لنا العلماء العرب من الضياع. وسوف نتابع كيف استلهم العرب هذا التراث بشقيه النباتي والطبي، ثم المنحى الذي اتخذوه عند تناولهم لعلم النبات.

وإذا ما حاولنا تتبع عناية العرب بموضوع النبات، نجد أن اللغويين كانوا أسبق من العلماء في هذا الشأن؛ إذ ألفوا الكثير من علماء اللغة في مؤلفاتهم: إما كتباً أو فصولاً لتناول النباتات. حقيقة أن مدخلهم كان لغوياً بالأساس، لكنه ألصح عن خبرة علمية حيث دلت أقوالهم في هذه المؤلفات عن مصادرها، وعن النهج الذي اتبعوه فيها. وسوف نتوقف عند بعض منهم، وسنقتصر في إيراد الأمثلة على من أورد أفكاراً علمية، أو استحدث منهاجاً في التأليف، أو في عرض مادته.

— أحمد بن داود الدينوري (ت ٢٨١هـ / ٨٩٥م) في كتابه "النبات" أو "أعيان النبات" الذي يقع في ستة أجزاء؛ يتضمن أحدها معجماً لأسماء النبات، في الفصل الخامس منه، وهو جل ما وصل من الكتاب — أبان فيه المؤلف عن المنهج الذي اتبعه في تأليف كتابه، فقال: "قد أتينا فيما قدمنا من أبواب كتابنا هذا على ما استحسنا تقديم ذكره قبل ذكر النبات نباتاً نباتاً، فلم يبق إلا ذكر أعيان النبات. ونحن أخذون في تسميتها، ومحللون كل واحد منها بما انتهى إلينا من صفته أو شأدها. وإن كان في شيء من ذلك اختلاف، عما ينبغي أن يذكر، ذكرناه إن شاء الله. وجعلنا تصنيف ما نذكر منها على أوائل حروف أسمائها. وإن وصف إياها نباتاً نباتاً سيلحق كل واحد منها بجنسه، وإن اختلط، من شجر وعشب وبقل. وإنما آثرنا هذا التصنيف على توالي حروف المعجم، لأنه أقرب إلى وجدان المطلوب، وأهون منونة على الطالب من كل تصنيف سواه". (١٣)

بهذه الكلمات يوقفنا الدينوري على طريقته المعجمية في ذكر أسماء النبات، ونهجه في الاستشهاد بأقوال من سبقوه من الثقات؛ في إيراد ما قالته العرب عن النباتات، وممن نقل عنهم تأييداً لآرائه أو حتى من يختلف معه. ثم اعتماده على ما رآه بنفسه مسترشداً بسؤال أهل البلاد، وما ينتهي إليه من ملاحظاته الشخصية. فكانت محصلة ما أتى في كتابه وصفاً دقيقاً لمئات النباتات، وأسماءً لأدق الأجزاء ومختلف الصور والأنواع، وذلك بناء على رأي من تصدى لدراسة منهجه. حيث وجد أن أهم ما يميز به هو: وجود مفهوم علمي فيما يتطرق بالشكل، أو ما يعرف "بمورفولوجيا النبات". يدل على ذلك التسميات المستخدمة لأجزاء النبات المختلفة، وكذلك إقدامه على إيضاح صور النبات المعقدة بمقارنتها بأشكال معروفة؛ إذ كان يستخدم، لعقد هذه المقارنات، عدداً ضخماً من أنواع النبات كنماذج موضحة. فبلوغه هذه الدرجة؛ يبين أنه

أطلع على معارف ومطومات تجمعت في التراث الذي استفاد منه، الأمر الذي يؤكد - على الرغم من أن وصفه جاء خالياً من التأمّلات النظرية - أن أثر علم النبات وعلم اللغة واضح بصورة عجيبة في كتابه، مما يجعته يناظر كتاب ثيوفراستوس،<sup>(١٤)</sup> يشهد على ذلك كثرة النقول والاقتباسات عنه، في كتب من جاء بعده، سواء من واضعي المعاجم أو علماء النبات.

- وهناك لغوى آخر هو: أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسى الأندلسي، الشهير بابن سيدة (ت ٤٥٨هـ / ١١٦٢م) الذي عالج في كتابه "المخصص" في اللغة، الذي يقع في سبعة عشر جزءاً - كثيراً من الموضوعات التي تتصل بالعلوم الطبيعية. ففي القسم الذي أفرده للنبات وهو مرتب على الأبواب، عني في كل ما عالجته من موضوعات بالأسماء المختلفة، والصفات والأوصاف الدقيقة للكلاً والشجر والعشب. وزاد عليها من الشواهد ما لم يورده من سبقه.<sup>(١٥)</sup>

كتب هؤلاء اللغويون إذن: قدمت الأساس اللغوي العربي الذي يستخدم في التحقيق، والتعريف بأسماء النباتات وأنواعها، ودقائق أجزائها وصفاتها. فصارت معاجم يعتمد عليها من يتصدى لدراسة النبات.

ويلحق باللغويين الرحالة والجغرافيون، وخاصة من أفرد منهم مؤلفات للحديث عن النباتات، سواء في إطارها الإقليمي، مثل أبو عبيد الله البكري (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م)، الذي خصص كتاباً أسماه "أعيان النبات والشجريات الأندلسية"، ينتهج فيه - نظراً لتعدد معارفه - نهجاً علمياً إذ يبدو محققاً، لا يزال يبحث وينقب، حتى يصل إلى آخر شيء في الموضوع، كما تدل على ذلك كتاباته الأخرى. وإن كان هناك من يظل عدم اشتهار أمثال هذه الكتب، وبالتالي نسيانها وفقدانها، بأنه لم يكن ينظر إليها إلا المعنيون بها. فضلاً عن أن التأليف في هذه الفروع كان هواية يأخذها رجل عن رجل، إذا صادفت من نفسه ميلاً.<sup>(١٦)</sup>

أما من عني بدراسة النباتات، في إطارها الأشمل والأوسع، فعول في تأليفه على المعاينة والوقوف بنفسه على أشخاص النبات في أماكنه، مثل الشريف الإدريسي (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٦م) فجاء كتابه "الجامع لأشتات أصناف النبات" يدل على علم واسع بالنبات والأعشاب، يمتاز بدقة في رسم أسمائها ووصف خصائصها.<sup>(١٧)</sup>

يضاهيه في ذلك أيضاً أبو العباس ابن الرومية (ت ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م) الذي جال البلاد الإسلامية والرومية؛ لمعاينة الأعشاب وتمييزها ومعرفة منابتها. إذ أهتم في كتابه الذي عرف "بالرحلة"، أو "الرحلة النباتية" بتحقيق الأسماء العربية للعشب والبقل والشجر، وإثبات أعيانها، معتمداً في ذلك على علمه وعلى المشاهدة العينية، وسؤال أهل المكان، وطاف من أجل ذلك بالأقطار، وقضى في رحلاته زهاء ثلاثين عاماً. فجاء



كتابه دالا على معرفة واسعة وتثبت وتحقق، إذ تمكن من إصلاح الأخطاء التي تردى فيها من سبقه من العلماء.<sup>(١٨)</sup>

حقيقة إن هذه المؤلفات لم تصل منها إلا شذرات، غير أنه بقيت منها فصول ونقول مطولة، في أعمال من تدارس هذا العلم، وصرح الكثير منهم بذلك.

ولا ينبغي أن نختتم هذه الطائفة، ممن أثروا موضوع النبات بمؤلفاتهم، قبل أن نشير إلى من انتهج نهجا أكثر من النهج الوصفى، فعد إلى التصوير، وهو رشيد الدين الصوري (ولد بصور عام ٥٧٣هـ / ١١٧٧م)، الذي اهتم برسم النباتات في بيئتها مسجلا مراحل نموها. وقد قيل إنه كان يصطحب معه رساما يحمل أدوات الرسم، من ألوان وفرش ليرسم له النبات وقت بذره، وبداية إزهاره وإثماره، وحالة يبوسه وجفافه<sup>(١٩)</sup>. وهو النهج الذي استفاد منه وطبقه من سنعرض لهم - فيما بعد - من النباتيين.

وهكذا راق عالم النبات للكثير من المؤلفين العرب، حتى إنه بعد - أن تبين استيعاب اللغة العربية لأدق المصطلحات والتسميات - وجد العلماء، الذين تضمنت اهتماماتهم علوما منها علوم الطبيعة والكون، في اللغة العربية وفرة من المصطلحات والتعريفات، أنى لهم بها لولا جهود اللغويين وواضعي المعاجم، مما أمكنهم خوض مجال هذه العلوم.

ففي إطار دراسة علوم الطبيعة من قبل الفلاسفة، خاصة الموسوعيين والطبيين منهم، عولج علم النبات كأحد موضوعاتها تأثرا بما سار عليه فلاسفة اليونان، خاصة إذا كانت هناك معطومات تشير إلى وصول آراء أرسطوطاليس في النبات، عن طريق كتابه الذي يقال إن له مقتطفا سريانيا وصل إلى العرب مترجما. أما الكتاب فقد أشير إلى أن اسحق بن حنين (ت ٢٩٨هـ) قد ترجمه بعنوان آخر، في حين قام ثابت بن قرة (ت ٢٨٨هـ) بإصلاح كتاب بعنوان تفسير كتاب أرسطوطاليس في النبات لنيقولاؤس<sup>(٢٠)</sup>. مما يعنى أن أفكار أرسطوطاليس إن لم تصل عن طريق الكتاب المنسوب إليه، فقد وصلت عن طريق هذا التفسير المذكور لنيقولاؤس، إذ كان عالم النبات موضوعا أساسيا لكل من تصدى لدراسة العلم الطبيعى. نذكر منهم هنا من يمكن الوقوف على آرائه ونظرياته في هذا العلم.

ففي رسائل إخوان الصفا (الجماعة التي ازدهرت خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى)، التي شكلت في مجموعها موسوعة متكاملة عرضت لنظرة خاصة إلى الكون، استمدت مصادرها من فلاسفة اليونان والفرس والهند. كانت الرسالة السابعة عن الجسمانيات الطبيعيات، وما تحوى الطبيعة من صور الموجودات، وعن أجناس النبات؛ فتكلموا عن تكوينها ونشوتها واختلاف أنواعها، كما تعرضوا إلى

نظرية التطور والارتقاء، واعتبروا النخل آخر المرتبة النباتية. (٢١) وتعد هذه النظرية من النظريات التي أولاها أرسطوطاليس اهتماماً كبيراً. (٢٢)

في حين خصص أبو علي بن الحسين بن عبد الله بن سينا (ت ٤٢٨هـ / ١٠٣٦م)، جريباً أيضاً على عادة المؤلفين الموسوعيين، قسماً لا بأس به من كتابه "الشفاء" لدراسة النبات من منظور العلم الطبيعي، وضمنه نظريات وأفكاراً عن النبات بوصفه كائناً حياً. فذكر أن النباتات مثلها مثل الحيوانات، في التعامل مع الغذاء في امتصاصه وهضمه، وتوزيعه على بقية أجزاء أو جسم النبات. وأوضح أن النبات يحصل على غذائه عن طريق ما ينجذب إليه بفعل قوة طبيعية، وليس عن طريق شهية أو رغبة في الطعام - كما في حال الحيوان - وأنه ليس لديه مقاومة لدفع الضرر أو جلب المنفعة. كما قال بأنه من الخطأ الاعتقاد بأن النبات لديه إدراك أو وعي؛ فالتصرف في الغذاء يدل على الحياة وليس عن إدراك منه. (٢٣) وهنا نلاحظ كيف أنه انطلق من أفكار أرسطوطاليس التي سبقت الإشارة إليها، غير أنه تابعها بالملاحظة والاستقراء والتحليل، وأوجد التفسيرات. كما تحدث عن نظريات تخص تكاثر النبات، وتحدث عن الذكورة والأنوثة في النبات، مما يدخل في باب "فسيولوجيا النبات". أشار أيضاً إلى تنوع النباتات في الطعم والرائحة واللون، أي تعرض لمسألة التصنيف. كما دفعه الاهتمام بالنباتات، من أجل التعرف على خصائصها، إلى دراسة البيئة التي تنمو فيها، سواء أكانت رملية أو مالحة أو رطبة. ويعتبر هذا الجزء، دون شك، دراسة علمية واصل فيها بالبحث والتحقيق، ما ألمح إليه علماء اليونان في هذا الصدد - كما سبق وتبيننا.

ومما يثبت أن علماء العرب قد أدلوا بدلوهم في علم النبات لذاته، إلى جانب دراستهم للنباتات لارتباطها بالطب والصيدلة، أن ابن سينا كان في مقدمة هؤلاء؛ إذ خصص الجزء الثاني من كتابه "القانون في الطب" لدراسة النباتات، حين قسم الشطر الأول منه إلى ستة فصول، تناول فيه التعريف بالنباتات التي تستخدم كعقاقير. فكان في البداية يقوم بوصف كل نبات بدقائقه، بالمقارنة مع نباتات شبيهة أو مماثلة. موضحاً خصائصه العامة عن طريق إيراد ما ذكره الأقدمون عنه، من أمثال ديسقوريدس وجالينوس، ثم يقدم ما خبره بنفسه عن تلك النباتات، من حيث طبيعتها وخصائصها. كما قام بعمل تصنيف للأشجار والأعشاب والنباتات الزهرية والفطريات والطحالب، بعد أن لاحظ اختلاف أنواعها والخصائص المميزة لكل نوع والمتشابهة منها. ويميز بين النباتات البرية والمزروعة. ويعتبر أفضل فصول هذا الجزء ما قدم فيه قائمة بأسماء النباتات المعروفة في اللغة اليونانية، وأضاف إليها التسميات المحلية لها (٢٤).

وقد اعتمد ابن سينا في وصف النباتات على مصدرين رئيسيين، أولهما: النبات في الطبيعة في صورته الطازجة، فكان يصف طولها وسمكها وأشواكها وأزهارها وأوراقها، مما يدخل في باب علم الشكل "مورفولوجيا النبات". أما المصدر الثاني: فكان النباتات

اليابسة أو الجافة، مما يهتم به صانعو العقاقير. فقد وصف من هذه النباتات الطبية أربعمائة نبات، تشمل معظم ما كان معروفاً في عصره. مما يعنى أنه قام بتطبيق المنهج العلمى فى دراسة النبات، القائم على المشاهدة والاستقراء، من خلال ما وضعه أرسطوطاليس كأساس لدراسة الطبيعة. وكذا من خلال دراسته لطريقة عمل الظاهرة الطبيعية، أى دراسة التركيب العضوى للكائن الحى، والتعرف على وظائف أعضائه، وذلك بإخضاعه للملاحظة أثناء حياته. ثم الانتقال إلى التحليل والمقارنة والتصنيف. أى السير فى مسار يؤدى بالانتقال من مرحلة العلم الوصفى، التى سار فيها ثيوفراستوس، إلى مرحلة العلم التجريبى<sup>(٢٥)</sup>.

وبالمنهج ذاته تكلم أبو الوليد بن رشد (ح ٥٥٧م/١١٩٨م) فى الجزء الخامس من كتابه "الكليات" عن النباتات، فى معرض حديثه عن الأدوية والأغذية، من حيث طبيعتها الفسيولوجية، وكذا عن دلالات الطعوم والألوان مستعينا فى ذلك بالعلم الطبيعى. ولم يكن مشايخاً تماماً للأقدمين، - كما هو مطنون - فقد تقدمت عنده الدراية على الرواية؛ إذ تمثل التراث السابق بعين الناقد، وكانت له مرجعية إسلامية عربية، وبخاصة ابن سينا<sup>(٢٦)</sup>.

عندما نحا علم النبات، نحو الاتجاه الطبى، المنحى الذى سار فيه كل من ديسقوريدس وجالينوس، نفت هذا المنحى نظر العلماء العرب الذين أقبلوا على الطوم الطبية، فكان منهم من درس النبات، كتابع لهذه الطوم، وهم الأطباء. بينما تخصصت طائفة منهم فى دراسة النباتات الطبية، فظهر منهم ما يعرف بالعشابيين، الذين حفلت مؤلفاتهم بالأفكار والآراء التى شهدت على إسهاماتهم فى هذا الفرع. وهؤلاء يشكلون قائمة طويلة، تضم أسماء عديدة، سنقصرها على من تعامل منهم مع مؤلفات ديسقوريدس وجالينوس فى النباتات الطبية، للوقوف على منهجهم فى التعامل معهما، وماذا أسفر عنه هذا المنهج من خلال ما ظهر فى مؤلفاتهم.

لقد اعتبر كثير من المحدثين أن الترجمة العربية لكتاب ديسقوريدس، ذى الخمسة أجزاء، الذى يشرح فيه المؤلف، بالتفصيل، حوالى خمسمائة نبات قام بدراستها أثناء خدمته العسكرية، فى الجيش الرومانى، فى آسيا الصغرى، قد شكلت (أى هذه الترجمة) الأساس لكثير من الإنجازات الجديدة التى حققها الباحثون والأطباء العرب فى علم الأدوية والصيدلة. كما أكدوا أثره الكبير فى الممارسات الطبية إبان العصور الوسطى وما بعدها<sup>(٢٧)</sup>.

بيد أن الوقوف على المنهج الذى اتبعه من توفر على دراسته من العرب؛ يوضح هذا الأمر بجلاء. فمنذ أن ترجمه اصطف بن باسيل فى بغداد، على عهد الخليفة المتوكل العباسى (٢٣٢-٢٤٧هـ) وأصلحه أستاذه حنين بن اسحق<sup>(٢٨)</sup>، أثار قصة هذه الترجمة الشهيرة، نظراً لحالتها، فضول الكثيرين للاطلاع على هذا الكتاب. هذا

فضلا عن محتواه وطبيعة موضوعه الذي يهم كل المشتغلين بالطب، حيث حفظت كتب التراجم بأسماء الكتب والمؤلفين الذين تناولوا شرح الكتاب.

ويُلخص الإدريسي، في مقدمة كتابه السابق ذكره، موقع الكتاب ومكنته وموقفه منه، كأنموذج يوضح منهجه في التعامل معه، فيقول: "إني نظرت إلى البحر الذي منه اغترفوا والكنز الذي منه استلّفوا، فإذا هو كتاب ديسقوريدس اليوناني، الذي وضعه في الأدوية المفردة من نبات وحيوان ومعادن، فجعلته مصحفي، وأوقفت عليه نظري، حتى حفظت علمه جملة، بعد أن بحثت ما أغفله". وقد علل الإدريسي عدم ذكر ديسقوريدس لبعض الأدوية بقوله: "إما أنه لم يبلغ علمها، أو لم يسمع عنها، لأن أكثر هذه الأدوية ليست في شيء من بلاده". كما يذكر أنه اطلع على كتاب لصطفتن في المفردات، وكتاب جالينوس في المفردات، وكتاب الأدوية المفردة لحنين، ويقول إنه سيتجنب ما وقع فيه غيره من خلط أو تشويه أو اضطراب. كما استوفى ذكر جميع النباتات التي أغفلها شيخه ديسقوريدس<sup>(٢٩)</sup>.

هذه الفقرة تطلعا على أن تدارس كتاب ديسقوريدس استتبعه ظهور أكثر من مؤلف في الأدوية، ربما لأكثر من سبب، منها عدم الاستفادة الكاملة من الكتاب، نظرا لحالة الترجمة. كما تبين أيضا أن الانتباه إلى إغفال ديسقوريدس، أو عدم ذكره، لنباتات طبية موجودة بين أيدي العرب، فيما يعيشون من مناطق، استدعى الحاجة إلى ضمها إلى ما ذكره.

إذن فإن الاهتمام بكتاب ديسقوريدس، على أهميته، يفصح عن حاجة ملحة، لدى من اطلع عليه من العرب، إلى إجراء مزيد من الدراسة في مجال النباتات الطبية. ومن ثم توالت المؤلفات في هذا الفرع، خاصة بعدما وصل الكتاب بترجمة لصطفتن إلى الأندلس حوالي عام ٣٣٧هـ، ثم وصول نقولا الراهب من القسطنطينية عام ٣٤٠هـ، لترجمة النسخة المهداة إلى الخليفة الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ)، وما قام به، بالاشتراك مع هيئة من الأطباء الباحثين، لتصحيح أسماء عقاقير الكتاب، وتعيين أشخاصها، وتصحيح النطق بأسمائها<sup>(٣٠)</sup>.

نذكر من هذه المؤلفات مؤلف "ابن الرومية" الذي يحمل عنوان "شرح حشائش ديسقوريدس وأدوية جالينوس والتنبيه على أوهام ترجمتها"، بالإضافة إلى كتاب آخر في "الأدوية المفردة"، ولم يصل منهما إلا شذور نقلها تلميذه ابن البيطار<sup>(٣١)</sup>. كما جاء ذكر مؤلف يحمل عنوان "شرح لكتاب ديسقوريدس في هيولى الطب"، جمعه مؤلف مجهول من القرن السادس الهجري<sup>(٣٢)</sup>.

ولذات الغرض؛ أقدم أبو محمد عبد الله بن أحمد ضياء الدين المالقي المعروف بابن البيطار (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م)، بعد أن أخرج كتابا عنوائه تفسير كتاب ديسقوريدس، أقدم على وضع مؤلفه "الجامع لمفردات الأغذية والأدوية" الذي ذكر في

مقدمته أنه استوعب فيه جميع ما ورد في الخمس مقالات من كتاب الأفضل ديسقوريدس بنصه. وكذا فعل أيضا بجميع ما أورده أنفاضل جاتينوتر في الست مقالات من مفرداته بنصه. ثم ألحق بقولهما، من أقوال المحدثين في الأدوية النباتية والمنتزية والحيوانية ما لم يذكره. ووصف فيه، مما قال به ثقات المحدثين والطماء النباتيين، ما لم يصفاه. وأسند في جميع ذلك الأقوال إلى قائلها. وأوضح أن منهجه هو أن ما صح عنده بالمشاهدة والنظر وثبت لديه ادخره حتى يدونه ويثبته. وأما ما كان مخالفا، في القوى والكيفية والمشاهدة الحسية في المنفعة والماهية نبذه. ولم يحاب في ذلك قديما لسبقه، ولا محدثا اعتمد غيره على صدقه<sup>(٣٣)</sup>. لذا جاء كتابه به مئات من النباتات التي تتخذ منها العقاقير، مسهبا في الوصف والشرح، معتمدا على المشاهدة والتجربة وتحري الصدق والدقة في النقل. فقد كان ثمرة دراساته العلمية والعملية، حيث جاب البلاد باحثا عن النباتات في مواطنها دارسا لصفاتهما، ولم يكتب بوصف أكثر من ألف نبات مختلف، لكنه قارن كذلك بينهما وبين تلك التي سجلها من سبقه<sup>(٣٤)</sup>.

وقد غطى بعض الطماء موضوعا لم يلق اهتمام ديسقوريدس، في حين تناوله جالينوس في رسالة بعنوان "الترياق" بترجمة حنين، ثم تبعها تصنيف حنين نفسه الذي اعتمد فيه على كتابات طبية جمعها من مصادر كلاسيكية<sup>(٣٥)</sup>. حيث تمثل الأدوية المضادة للسموم إضافة لمنافع النباتات، فقد صنف ابن جلجل رسالة في هذا الموضوع، وللزهرراوى (ح ٩٣٦هـ / ١٠١٣م) أيضا في كتابه "التصريف" في المقالة الرابعة منه حديث فيه. مما يشهد على تقدم علم السموم عند العرب، حيث كانت حوادث التسمم سواء بواسطة الحيوانات أو الزواحف والحشرات، من الكثرة بحيث دفعت إلى تطوير أنواع عديدة من الأمصال، منها ما هو من مصادر طبيعية نباتية أو حيوانية.

وقبل أن نصل إلى معالجة الموضوع الثاني، الذي تجلت فيه أصالة المؤلفات العربية، وهو كتب الفلاحة، رأينا أن نختم هذا الموضوع الأول، وهو علم النبات، بمصنف أندلسي متفرد في العناية بأعيان النبات وأجناسه وأحواله في منابته، كما يقول محققه<sup>(٣٦)</sup>. إذ تناول مؤلفه الموضوع وعالج فيه مسائل تجعل منه صالحا لأن يوضع بين كل من كتب النبات والفلاحة على السواء. ألا وهو كتاب "عمدة الطبيب في معرفة النبات"، تلك الموسوعة الأندلسية التي ترجع إلى القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، والتي يمكن نسبتها - على ما يرى المحقق - إلى ابن عبدون الإشبيلي.

يدرس مؤلفها النبات من أجل خصائصه الطبيعية والمورفولوجية، ولا يهتم إلا بالنبات، ولا يحفل بما قد يكون فيه من منافع دوائية أو مضار. ومع ذلك انتهج منهجا يعنى بالجانب العملي، فيفسر ماهية العشب ويعدد أجناسها وفصائلها. ويصف كل نبات من جهة شكل جذره وساقه وزهره وبذره وثمره. كما يذكر منابت الأعشاب وبيئتها الطبيعية وأماكن وجودها، فضلا عن عنايته بالجانب اللغوي الصرف؛ إذ اهتم بألفاظ اللغة

ومصطلحاتها الخاصة بأحوال العشب وأطوار نموه وأجزائه، وشرح ما أورده منها شرحا موجزا، كما فسر عددا من المصطلحات غير العربية المتداولة بين العشابين. وهو يمتص أقوال من سبقه من العلماء، وكثيرا ما يعقب عليها لتصحيح خطأ، أو زيادة شرح أو إضافة فائدة؛ لاسيما إذا كان الأمر متعلقا بأعشاب وقف عليها بنفسه، أما ما لم يتعلقه من صفات الأعشاب التي نبتت في غير بلاد الأندلس والمغرب، فإنه يقتصر على إيراد أقوال غيره من النقات العارفين، مع بيان اختلاف الأقوال فيها، وترجيح ما يظهر له أنه الصواب. (٣٧) وقد تردد في الكتاب ذكر ديسقوريدس وجالينوس، فما من عشبة إلا وحرص المؤلف على بيان ما إذا كان قد ذكرها أحد هذين الحكيمين أو كلاهما، أو أنهما لم يذكرها. (٣٨)

وكان غالبا ما يعين بيئة كل عشبة يصفها، إذ يشير إلى بعض ما يجلب من البلاد البعيدة، إلى الأندلس، من بذور لاستنباتها في بساطينها، مشيرا إلى ما أنجب منها وما لم ينجب، مما يوضح اهتمامه بالتجارب الزراعية، وحرصه على التأكد من حقيقة بعض الأعشاب الغريبة عن بلده، وذلك بمعابنتها وفحصها، مما يدل على عناية بشؤون الفلاحة والغراسة، ومزاولة أعمالها بنفسه. (٣٩)

وعليه: يتضح من هذه المتابعة كيف أظهرت كتب الأدوية خبرة العلماء العرب بالنبات، وخاصة موضوع الأدوية المفردة، لأنها تمثل النبات بخصائصه الأولية. كما أظهرت أن البحث عن المزيد من النباتات، ودراسة خصائصها لاستخدامها في العلاج، قد ضاعف من الاهتمام بعلم النبات، على خلاف ما حدث عند اليونان من الاهتمام بالنباتات الطبية على حساب علم النبات. ومن ثم عكست المؤلفات، التي دونت في هذا الشأن مواصلة تدارس علماء العرب لعلم النبات لذاته، إلى جانب ظهور التخصص في الكتابة تحت موضوع النباتات الطبية، لتدوين النتائج.

وإذا كانت العلوم الطبيعية قد شملت علوما أساسية تفرعت عنها فروع، حيث يصاحب نزوج العلوم كثرة المؤلفات في العلوم وفي أجزاء العلوم، بل وفي مباحث متعددة من العلم نفسه، فإن علم النبات قد تفرع عنه علم العقاقير الطبية، أما في جزئه أو شقه التطبيقي نجد علم الفلاحة.

فعندما عالج علماء اليونان النبات مبكرا ضمن موضوعات العلوم الطبيعية، من وجهة نظر فلسفية أو علمية بحتة، وجد أن علم العقاقير قد تفرع عنه في مرحلة تالية، ثم حدث الشيء نفسه في الجانب التطبيقي منه الذي أتى في مرحلة لاحقة. فبعد أن اطلع العرب على كتب النبات، والمؤلفات اليونانية في العقاقير، وجدوا كتب الفلاحة، التي ما لبثت أن لقيت في أوساط علماء النبات العرب اهتماما كبيرا. من هذه الكتب ما كان مترجما إلى اللغة السريانية، ومنها ما ترجم من اليونانية إلى العربية مباشرة، وقد توفرت بعض الدراسات على تتبع هذه الكتب.

وأول ما يظالنا منها، كتاب في الفلاحة، منسوب إلى أبولونيوس التيانى، المعروف عند العرب باسم "بليناس الحكيم"، يحمل تاريخ ترجمته عام ١٧٩هـ / ٧٩٥م، من قبل يوستاسيوس، بالاشتراك مع بطريك الإسكندرية "بوليتيانوس"، لصالح يحيى بن خالد البرمكى عن اللغة اليونانية إلى العربية. وتكمن أهمية الكتاب وتوقيت ترجمته - في نظر البعض - في أنه إشارة إلى أن العرب كانوا في ذلك الوقت مؤهلين، لا للاهتمام بالترجمات المتوافرة باللغة السريانية فقط، وإنما كذلك بالأصول اليونانية<sup>(٤٠)</sup>.

أما ما يهمنا هنا؛ فهو ما جاء به الكتاب، إذ يقول مطلع المخطوطة: "هذا كتاب ألفه بليناس الحكيم، جمعه من حكم الحكماء الذين جربوا الأمور في سائر الدهور، ووضعوا الحكم في التدبير لكل أمر، وهو كتاب ظريف. وقد سمى لك الحكماء الذين اجتمعوا على وضع الكتاب وصنفوه وعملوا بما فيه وجربوه." وقد جاء نص هذا الكتاب في مخطوط يضم كتاباً عربياً في الفلاحة<sup>(٤١)</sup>.

هذه العبارة تدلنا على أن الكتاب يتناول معرفة علمية وعلماً تجريبياً مبنياً على خبرات سابقة، ثم جاء من اهتم بجمع هذه المعرفة والتصنيف فيها.

أما موضوعات هذه المعرفة، فقد أفصح عنها مطلع كتاب آخر يقول "هذا ما وضع ديمقراطيس، الفيلسوف، أدباً للفلاحين، وما جرب من علم الزرع والغرس، وما فيه من دفع الآفات، وكيف تزرع البقول...."<sup>(٤٢)</sup>. وديمقراطيس هذا هو Democritus بولس ديمقريطوس (ازدهر خلال القرن الثاني ق.م) في مصر. ويعرف عند العرب ببولس أو ديمقراطيس.<sup>(٤٣)</sup>

ثم نجد في فاتحة كتاب آخر: "هذا كتاب يوتيبوس بن أناطوليوس (نهاية القرن ٤م)، الذى كان من مدينة بيروت، في فلاة الأرضين. فيه أبواب جمعها من .... وقسم كتابه على أربعة عشرة مقالة .... منها: في الضيعة، ومن يصل في الضيعة، وفي المياه، وفي غرس الأشجار، وفي قسمة أوقات السنة، ومعرفة تغيرات الأرض". ويعد كتاب أناطوليوس هذا كتاباً جامعاً لمجموعة من الرسائل عن الفلاحة. وقد قام بترجمته إلى السريانية سرجيوس الرأس عيني (ت ٥٣٦م)، ثم تمت ترجمته إلى العربية من قبل المترجم المشهور قسطا بن لوقا البعلبكي (ت ٩١٢م)<sup>(٤٤)</sup>.

كما حفظت لنا ترجمة عن اللغة اليونانية كتاباً للمؤلف Cassianus Bassus كاسيانوس باسوس (عاش في القرن ٦م)، حمل عنوان "الفلاحة". هذا الكتاب أشار إليه ابن النديم في باب: ما وجد من الكتب المصنفة في الآداب لقوم لم يعرف حالهم على استقصاء ونسب الترجمة لعلى بن محمد بن سعد<sup>(٤٥)</sup>. وقد عرف هذا الكتاب باسم "الفلاحة الرومية". كما عرف مؤلفه عند العرب باسم قسطوس. حيث أورد حاجى خليفة، بالإضافة إلى اسم المؤلف، أن من ترجمه من اليونانية إلى العربية هو سرجيوس بن هليا الرومى. بالإضافة إلى ثلاثة آخرين من بينهم قسطا بن لوقا.<sup>(٤٦)</sup>

ويتضح من هذه الكتب أنها ترجع إلى إسهامات البيزنطيين، مما يوحي بأن ما تحمله من معرفة قد راج خلال هذه الفترة التاريخية، دون أن نعرف - على وجه اليقين - ما إذا كان لعطاء اليونان قبل هذا العصر فيها تأليف. غير أن المتتبع للمؤلفات العلمية يجد مؤلفات من هذا النوع، ترجع إلى القرن الأول ق.م، منها موسوعة زراعية للمؤلف الروماني "Varro فارو" بعنوان (Rerum Rusticarum Libri، فى الأمور الفلاحية) يرجع تاريخها إلى ٣٧ ق.م. وقد أشار فيها إلى أن أكثر من خمسين عملاً مكتوباً باللغة اليونانية فى ذات الموضوع<sup>(٤٧)</sup>. الأمر الذى يفهم منه أن هناك مؤلفات سابقة قد ظهرت، ربما لم تشتهر، وبالتالي لم تحفظ. أما المؤلفات التى ترجع إلى العصر الروماني لفارو وكولوميليا Columella - الذى أتى بعده بقرن - فقد سبقت تلك البيزنطية التى ذكرناها. غير أنها كتبت باللغة اللاتينية فلم تصل إلى أيدي العرب منها ترجمات أثناء حركة الترجمة.

والجدير بالذكر؛ أن مؤلفى هذه الكتب البيزنطية، التى ذكرناها، كانوا معروفين لدى المؤلفين العرب، إذ كثيراً ما رددوا أسماءهم وأفكارهم - كما سيتضح فيما بعد - عند متابعة كتب الفلاحة العربية.

ومن يتابع المصادر العربية وكتب التراجم؛ يجد كتباً تحمل عناويناً تعالج تلك الموضوعات، التى صادفناها، فى كتب الفلاحة اليونانية البيزنطية. فقد ذكر أن لأبى عبد الله محمد بن زياد الأعرابي (ت ٢٣١هـ) من الكتب: "كتاب النبات والبقل"، و"كتاب صفة الزرع". كما أن لأبى حاتم سهل بن محمد السجستاني (ت ٢٥٥هـ) كتاب عن "العشب والبقل"، وكتاب عن "الخصب والقحط". كما نجد إشارة إلى كتاب يحمل عنوانه: "كتاب الفلاحة والعمارة"، وهو من كتب المتأخرين<sup>(٤٨)</sup>.

وكتاب فى انفلاحة ينقل مؤلفه عن الكشاجم وابن الساعاتى وابن وقيع وابن رافع. أوله: الحمد لله الذى أنزل الماء الفرات.. وبعد فهذا أنموذج طريف الوضع فى ذكر الأشجار والثمار والرياحين، وينحصر المقصود منه فى أربعة كتب...<sup>(٤٩)</sup>

ونستطيع أن نلاحظ هنا؛ أن مؤلفى هذه الكتب فى معظمهم لغويون. وأن أمثال هذه الكتب قد صادفناها عند الحديث عن المؤلفات التى كتبت فى النبات. وبالتالي يمكن أن تعتبر بمثابة المعاجم التى تورد الأسماء المختلفة للعشب والمزروعات وأجناسها.

أما كتب الفلاحة التى تبحث فى النبات من حيث: زرعه ومراحل نموه والأوقات المناسبة لبذره وحصاده، وطرق تسميده، وما إلى ذلك من فنون الزراعة، فأول نص عربى، تضمن شرحاً لها، كان لأبى بكر أحمد بن المختار المعروف بـ"بأبن وحشية النبطى" خلال القرن الثالث الهجرى/أخريات التاسع الميلادى. ويعرف بكتاب "الفلاحة النبطية". الذى يعد مرجعاً أساسياً لكل من تصدى للكتابة فى هذه الأمور. غير أن هناك الكثير من الجدل حول ما إذا كان كتاباً مؤلفاً أم ترجمة عربية لنص قديم<sup>(٥٠)</sup>.



غير أن أثر الأصول اليونانية، في المؤلفات العربية في الفلاحة، يتضح بصورة جلية في التراث الأندلسي الزراعي، الذي يمثل جزءا كبيرا ومهما من التراث العربي الذي نحاول تدارسه في هذا المجال. وذلك لأكثر من عامل: فقد جمعت المدرسة الأندلسية الزراعية كل المعارف السابقة. وكان التراث اليوناني الهليني والهلينستي في النبات والبيزنطي في الفلاحة أحد أهم الروافد التي أمدت هذه المدرسة بمصادر المعرفة في هذا المجال. وهو ما سنناقشه بالتفصيل. أما العامل الآخر فهو: أن ما بقى من مؤلفات هذه المدرسة كفيل بأن يعطينا صورة، غاية في الوضوح، عن أنماط التأليف المختلفة التي تناولتها المؤلفات العربية في الفلاحة. هذا بالإضافة إلى أن هذه المدرسة تتميز بخصوصية الإمام بقرات زراعي متنوع، تعاملت معه بنهج خاص قائم على التوفيق بين المعرفة النظرية والتطبيق العملي. مما يشهد لهذه المؤلفات بإضافة إسهامات جديدة في مجال مؤلفات علم الفلاحة، من حيث الشكل والمضمون.

ويمتد تراث المدرسة الأندلسية، في الفلاحة، من القرن الرابع إلى القرن الثامن الهجري/ العاشر إلى الحادي عشر الميلادي. ويمثل القرنان الخامس والسادس الهجري/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديان؛ أكبر وأهم نشاط لمؤلفي هذه المدرسة<sup>(٥١)</sup>. غير أن ندرة التراجم عنهم جعلت المعلومات عن شخصياتهم محدودة، بالمقارنة بالمؤلفين في مجالات أخرى من العلوم.

وسوف نشير إلى أهم المعلومات المتوافرة عنهم، قبل أن نتطرق إلى مؤلفاتهم ونصنفها حسب أنماط التأليف، ثم نقف على الموضوعات التي تناولوها بالتفصيل.

تصدر أبو المطرف عبد الرحمن بن وافد (ت ٤٦٦هـ / ١٠٧٤م) ويمكن تسمية عمله "المجموع في الفلاحة" الذي ورد في مخطوط متنوع المواد. وهو يعد الأقدم زمنيا بين كتب الفلاحة الأندلسية. وقد حظى بشهرة واسعة<sup>(٥٢)</sup>. والمؤلف أيضا له شهرة كبيرة على عكس أقرانه من مؤلفي كتب الفلاحة، نظرا لكونه طبيبا ووزيرا. أما ما يهمنا هنا؛ فهو أنه كان يشرف على حديقة، أو مئبة، المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة، على ضفاف نهر التاجة<sup>(٥٣)</sup>.

ثم يأتي بعده معاصره أبو عبد الله محمد بن بصال (ازدهر حوالي ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م)، مؤلف كتاب "القصد والبيان" الذي كتبه ليحيى بن ذي النون، حيث خلف ابن وافد على حديقة النباتات للمأمون وابنه، ثم واصل المهمة نفسها في اشبيلية، في بستان صاحبها المعتمد، المسمى "حائط السلطان"<sup>(٥٤)</sup>.

بعد هذين المؤلفين، الذين ينتميان إلى مدرسة طليطلة، تأتي طائفة أخرى من مدرسة تكونت في اشبيلية، بعد وصول ابن بصال إليها، منهم: أبو الخير الإشبيلي، الذي لا يعرف عنه الكثير، عدا أنه كان ضمن من اجتمعوا حول ابن بصال، وقد وصل كتابه المسمى "كتاب الفلاحة" في أجزاء متفرقة<sup>(٥٥)</sup>.

ومن المدرسة نفسها أيضا، يشكل ابن حجاج وكتابه "المقتع في الفلاحة"، الذي ألفه عام ٤٦٦هـ/١٠٧٣م، موقعا خاصا بين هذه المؤلفات، سنتعرض له بالتفصيل.

أما "الطغرى"، الذي يختتم القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى، فقد دون كتابه أوائل القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى، بعد أن انتقل من غرناطة إلى المرية، ليقوم بالإشراف على حدائق القصور الملكية. وقد أهدى كتابه المسمى "زهرة البستان ونزهة الأذهان" إلى حاكم موطنه الأصلى غرناطة، الأمير المرابطى أبى الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين. ولم يصل هذا الكتاب كاملا<sup>(٥٦)</sup>.

وفى القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى؛ خرجت رسالة لابن العوام، الذى نجهل تاريخ ولادته ووفاته، تحمل عنوان "الفلاحة فى الأرضين". وهو أحد المؤلفات القليلة التى وصلتنا كاملة. ولنا معه وقفة، إذ يعد كتابه أحسن ما كتب من كتب الفلاحة<sup>(٥٧)</sup>.

بينما يمثل عمل "ابن ليون" من المرية (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م) آخر الأعمال التى وصلتنا كاملة، وهو عمل يختلف عن المؤلفات السابقة - كما سنوضح فيما بعد.

من هذا الحصر، لهؤلاء المؤلفين، وتسمية أعمالهم التى وصلتنا، نستطيع أن نصنف أعمالهم تبعا لنمط التأليف الذى اتخذوه. فمؤلف ابن وافد يمثل الأعمال الموسوعية، فهو كتاب جامع، النص الموجود منه مكون من مائة فصل وستة، مرتب طبقا للترتيب المتبع فى مثل هذه الكتب. فقد بدأ بتناول الموضوعات الأولية فى كتب الفلاحة مثل: دراسة الأرض والمياه واختيار المزروعات، كما تناول التقويم الزراعى، بالإضافة إلى قسم خصصه للبيطرة<sup>(٥٨)</sup>.

أما ابن بصال، وأبو الخير، والطغرى، فيشتمون بأعمالهم الرسائل المتخصصة، التى يعتمد مؤلفوها بشكل كامل على تجاربهم الشخصية. لا تتداخل فيها أمور أخرى غير ما يخص طرق الزراعة والمزروعات. باستثناء ابن حجاج الذى يبدو نحويا لغويا، أكثر منه مؤلفا مختصا بالفلاحة<sup>(٥٩)</sup>.

بينما يمثل مؤلف ابن العوام نموذجا للأعمال الموسوعية، فهو أشبه بدائرة معارف تاريخية عن الفلاحة<sup>(٦٠)</sup>، غير أنها قائمة على المنهج النقدى؛ إذ تحوى جميع المعارف الزراعية الشائعة فى عصره، يستوعب مؤلفها التراث السابق ويختصره، ثم يحييه ويمحصه.

أما آخر الأعمال، وهو ما كتبه ابن ليون، فهو من الأعمال المتفردة، إذ يعد قصيدة تعليمية تحتوى على معارف زراعية، تضم ٦٣٥ بيتا، يمكن اعتبارها قصيدة الأندلس الزراعية، قياسا على قصيدة فرجيليوس، الرومانية اللاتينية، المسماة ("Georgica" الزراعيات). ومع ذلك فهى تقدم معارف زراعية بحتة استقاها من

كتابات المتخصصين، ليس فيها من المحسنات البديعية الموجودة عادة في الشعر، فيما عدا المواضع التي يتطرق فيها إلى وصف البساتين وما تحويه، فإنه يجنح إلى استخدام أدوات الشعر من ألفاظ وصور بلاغية؛ لذا فهو يعد نموذجا فريدا لهذا النوع من أنماط التأليف<sup>(١١)</sup>.

أما أثر المؤلفات اليونانية، في أعمال هؤلاء المؤلفين، فهو ما يمكن استخلاصه من نصوص هذه الأعمال ذاتها. فمن حيث الشكل تتبع هذه المؤلفات نفس النمط الكلاسيكي، الذي اتبعته المؤلفات البيزنطية، في ترتيب الموضوعات وتوزيعها على أبواب. إذ تبدأ جميعا بالحديث عن التربة فالأسمدة أو المخصبات، ثم يأتي بعد ذلك الحديث عن المحاصيل، وأخيرا تتناول التقاويم الزراعية، ثم تختتم بنصائح عن إدارة المزارع وتنظيم العمل، وكيفية السيطرة على الآفات<sup>(١٢)</sup>.

بينما لوحظ، من حيث التناول، تأثير هذه المؤلفات بنظرية الأخلاط الطبية لكل من أبقراط وجالينوس، حيث طبقت على تصنيف التربة والماء والأسمدة. وكذلك عند الإشارة إلى خصائص أجناس النبات<sup>(١٣)</sup>.

أما إذا ما بحثنا في كل عمل على حدة، فإننا نجد لكل مؤلف شأنًا في مدى تأثيره بهذه المؤلفات، وتعامله مع ما جاء بها من أفكار. فنجد ابن وافد - على الرغم من أنه لم يشر كثيرا إلى أسماء مؤلفين كما هو معهود في أعمال غيره - يشير أحيانا إلى ما يسميهم "الحكماء". غير أنه ذكر بالإسم كلا من أناطوليوس وديمقراطيس. فضلا عن أنه استعمل - مثله مثل المؤلفين الآخرين - أسماء الأشهر الرومية ذات الأصل السرياني مثل تموز وآب. هذا، بالإضافة إلى أن النص الموجود في نسخته القشتالية جاء مرتبا طبقا للترتيب المتبع في مثل هذه الكتب. بل إنه كان غاية في التنظيم، وأكثر تنظيما من المؤلفات اللاتينية<sup>(١٤)</sup>.

أما في كتاب أبي الخير؛ فنجد فقرات جاءت فيها عبارات ترددت فيها أسماء المؤلفين البيزنطيين، حينما يقول على سبيل المثال: ... على مذهب قسطوس اليوناني، ... ذي مقراطيس (ديمقراطيس) الرومي، ... انطوليوس (أناطوليوس) الإغريقي... إلخ<sup>(١٥)</sup>.

بينما ابن حجاج، الذي جمع اقتباسات مثيرة من المؤلفين السابقين، فقد قامت دراسة عن عمله، أظهرت إلى جانب التأثير اليوناني البيزنطي ما يشير إلى تأثير التراث اللاتيني، وخاصة من كولومبلا، وإن كان هذا الأمر لا يزال موضع دراسة<sup>(١٦)</sup>.

في حين سمي ابن العوام المصادر التي استقى منها ورمز لمؤلفيها بحروف كلما أراد؛ فجالينوس (ج)، وقسطوس (ق) وهكذا. ويقول: إنه لم يثبت إلا ما جربه مرارا فصح. ثم يقول: إنه لم يقطع بأن هذا يصح في بلادهم لبعدهم عنا. وقد اتسم

بالأمانة في العرض، فيقول: "لى" وذلك حين يعرض رأيه هو. وفيما عدا ذلك فإنه ينسب الأقوال إلى قائلها، مثل يוניوس وقسطوس. وعندما يرغب في تأكيد آرائه يقول: هذا إجماع من حذاق أصحاب الفلاحة<sup>(٦٧)</sup>.

وعلى هذا، وفي ضوء ما توافر من هذه النصوص، نستطيع أن نؤكد أن كتب الفلاحة تمثل مرحلة التخصص في الكتابة والتأليف، عند العرب، بشكل واضح، حيث صارت من التخصصات التي تحمل سمات عامة، تظهر تقريبا في أغلب مصنفات هذا النوع. فنادرا ما تختلط فيها العلوم، عدا العلوم المتعلقة أو ذات الصلة بهذا النوع.

أما ما لفت انتباه العطاء والدارسين، للمؤلفات المتعلقة بمجال الفلاحة، فهو ما تميزت به هذه المؤلفات الأندلسية من الاهتمام بموضوعات بعينها. ولا يتسع المجال هنا إلا إلى الإشارة في إيجاز عن هذه الموضوعات، فقد ركزت أغلب هذه المؤلفات على التعرض لموضوع استجلاب النباتات، وكيفية زراعتها ومتابعة مدى تأقلمها، والتجارب التي أجراها المؤلفون بأنفسهم في هذا الصدد. وهو موضوع جديد لم تتطرق إليه كتب الفلاحة البيزنطية.

كما احتوت هذه الكتب العربية الأندلسية؛ على معلومات قيمة تخص أنواعاً بعينها من الزراعات، مثل زراعة البساتين والحدائق، وكيفية رعايتها، وطريقة تنسيق أشجارها ونباتاتها، واختيار الأنواع المناسبة لزراعتها في كل جزء من أجزاء الحديقة. واستعانوا في ذلك بالخبرة العملية، من خلال ما أجروه من تجارب، وما استعانوا به من خبرة الممارسين الذين تخصصوا في هذه الزراعات. والأكثر من ذلك أنهم تعرضوا لمسألة تطبيع النباتات البرية، فكانت هذه الموضوعات من الملامح البارزة في كتبهم<sup>(٦٨)</sup>، وقد تفوقوا في معالجتها، نظرا لأنهم مارسوها بأنفسهم في البساتين والحدائق النباتية التي تفردت بها الأندلس.

ولقد كانت موضوعات علم الفلاحة - في مجموعها - تحوى معارف متشعبة يصعب التسليم بأن شخصا واحدا بإمكانه أن يمتلكها جميعا، حتى إن أحدهم، وهو المؤلف الروماني كولوميللا، قد صرح بهذا في مقدمة كتابه ("De Re Rustica" في أمور الفلاحة)<sup>(٦٩)</sup>.

وما كان لهذه الكتب أن تتناول الموضوعات الكبيرة التي كانت تتناولها، مثل الأرض والمياه وأوقات الزراعة، دون أن تستند على معلومات توفرها مؤلفات تختص بهذه الموضوعات. وقد بينت إشارات واضحة، في كتب الفلاحة، أهمية الحصول على هذه المعارف، وعرضت المتوافر منها. لذا كان من الضروري التطرق إلى المؤلفات التي تحوى تلك المعارف، وتقدم التقنيات التي يحتاجها علم الفلاحة لتطبيق الأساليب الجديدة في الزراعة.

وفيما يخص العنصر الأول وهو الأرض، وهي أول مراتب علم الفلاحة، فنجد - بالإضافة إلى ما نقله ابن وافد عن علماء النبات مما تحصلوا عليه من معلومات بشأن تركيب التربة - ثم المعلومات التي ألمح إليها ابن بصال، حين ذكر أنه ليس كل أرض يطلق عليها جيدة ولا رديئة، حتى يعظم ظاهرها وباطنها. وأن هذا كله يعرف بالاختبار والامتحان ودوام الحركة بالعمل فيها". وكذا المعلومات التي جاء بها ابن العوام، في هذا الشأن، حين عرض من أقوال "يونيويس" تجارب بسيطة لمعرفة نوع الأرض، فقال: "إن أنت مارست الطين بيدك فأصبتة شبيها بالشمع يلصق جيدا، فأعلم أنها أرض غير موافقة للقبول، وإن كان طعم التراب عذبا معناه أنها خالية من الأملاح. والأرض الشديدة الغبرة تظهر أن فيها تخلخلا (أي مسامية) ... (٧٠)"، إلى غير ذلك من الإشارات التي تعنى ما يمكن أن يجنيه علم الفلاحة إذا ما توسعت هذه المعرفة.

هذا ولم يظهر هذا الأثر إلا عندما توسعت تلك المعرفة وتم استيعابها، فأخرج رضى الدين الغزى (ت ٨٦٢هـ / ١٤٥٨م)، كتابه المسمى "جامع الملاحاة فى جوامع فوائد الفلاحة"، وعالج فيه باستفاضة نظريات تكوين التربة، وقام بتوضيح الفروق بين التربة السطحية والتربة التحتية، وأى منها يحتوى على المخزون العضوى. كما أشار إلى مسألة تقليب الأرض، وأكد ضرورة مراعاة ذلك عند إنشاء بساتين الفاكهة، فيقول: "تقلب الأرض إذا أريد إنشاء الغراس فيها". والغرض من هذه العملية دفن الجذور بالتراب السطحى أولا، لاحتوائه على نسبة أكبر من المواد الغذائية (٧١). وفى مجال إصلاح الأراضي؛ أشار إلى ضرورة إزالة الطبقة السطحية من التربة، فى أعمال التسوية لكى تظهر التربة التحتية التى تكون ضعيفة الإنتاج، فيقول: "ما يخرج من أعماق الأرض كالأبار والمطامير، لا ينبت أول عام حتى تطبخه الشمس، وتلطف أجزائه، ويكتسب من حرارتها". كما تحدث عن مفهوم التربة المنقولة عندما يحدث انجراف للطبقة السطحية من التربة، بفعل الأمطار الشديدة فى الأرض غير المغطاة بالغابات أو المراعى، فتزيد الطبقة المنجرفة من خصوبة الأماكن التى تترسب عليها، وتضر بالتربة التى انجرفت منها. وقد أفرد فى تصنيف أنواع الأرض، كما أوضح طرقاً متعددة للتعرف على جودة الأرض ومدى تخلخلها ومساميتها (٧٢). وكانت هذه المعلومات - على ما يبدو - أكثر تطورا من تلك التى أوردها السابقون عليه، نتيجة التوسع فى هذه المعرفة.

أما العنصر الثانى، الذى يلاحظ فى جل كتب الفلاحة الدور الحيوى الذى يؤديه، ألا وهو عنصر المياه. فبالإضافة إلى التعريف بأنواع المياه وخصائصها ومعالجة مشاكلها، مما أشار إليه علماء النبات، كان الاهتمام بطرق الحصول عليها. وكان الطغرى هو أحد المؤلفين الأكثر أصالة ضمن أولئك الذين تناولوا موضوع المياه، ولاسيما ما يتعلق بحفر الآبار والتنقيب عن المياه. كما حاول نقل الأساليب التى اطلع عليها خلال أسفاره فى بلاد الشام وشمال إفريقيا (٧٣).

أما فيما يتعلق بطرق الحصول على المياه، فقد عرض الطمء فى مؤلفاتهم طرقاً علمية تعكس الحالة المتقدمة، التى وصلت إليها هذه التقنية، فى مجال استخراج المياه الجوفية والإفادة منها. فكتاب "إنباط المياه الخفية" لأبى بكر محمد بن الحسن الكرخى، الذى صنفه بين سنى ٤٠٦، ٤٢٠هـ / ١٠٢٠م، يتضمن ٢٩ باباً بحثت مختلف المسائل المتعلقة بالمياه الجوفية وهندستها، وعرضت بالتفصيل للإجراءات الهندسية قبل تنفيذ الحفر، واستفاد فى ذلك الصدد من معارفه الهندسية وتطبيقاته العملية. وقد ذكر فى مقدمة كتابه أنه "بدأ يتصفح كتابات القدماء فى هذا الموضوع، فوجدها قاصرة عن الكفاية واقفة دون الغاية..."<sup>(٧٤)</sup>

وفى مقابل هذا القصور؛ الذى بدأ واضحاً فى المؤلفات فى هذا الشأن، أثبتت الدراسات الأثرية تطبيقات لتقنيات متعددة خاصة بالمياه ترجع إلى عهود طويلة. فهو مجال وراءه تاريخ طويل من الممارسة، أسهم فيه المهندسون والمخترعون على مدى كل العصور. فالآلات مثل طاحونة المياه والمضخة الرافعة للمياه، التى جاء ذكرها فى مؤلفات كل من Hero of Alexandria "هيرون السكندرى" وCtesibius "كتيسيبوس" (ما بين القرنين الأول والثانى ق.م)، وعلى الرغم من أهميتها فى وقتها - فإن أيا منها لم يدخل حيز التطبيق العام، ولم تحدث أثراً فى أداء النشاطات العملية التى يمارسها الناس<sup>(٧٥)</sup>.

غير أنه عندما سعى الطمء العرب لتطبيق معارفهم النظرية، للإفادة منها فى كل ما يخدم متطلبات الناس، وجعلوا الغاية من العلم "الحصول على الفعل الكبير من الجهد اليسير"، عملوا على ابتكار المزيد من الآلات، وما أسموه "بالحيل النافعة"، وإجراء التحسينات على ما هو معروف منها، وتطوير استخداماتها.

إذ قدمت حيل بنى موسى (ازدهروا ١٩٨هـ) ابتكارات قابلة للتطبيق، منها خزانات تثبت فى الحقول لكيلا تضيع كميات الماء هدراً، ويمكن بواسطتها السيطرة على عملية رى المزروعات.

أما بديع الزمان إسماعيل بن الجزرى (ت ٦٠٢هـ / ١٢٠٧م) - فى كتابه الذى يعرف "بالجامع بين العلم والعمل النافع فى صناعة الحيل" - فقد عالج موضوع آلات رفع المياه، وقدم تصاميماً منها ما يصلح لرفع المياه من الآبار العميقة إلى سطح الأرض، وكذلك ما يستعمل فى رفع المياه من منسوب النهر، إذا كان منخفضاً، إلى الأماكن العليا بواسطة مضخات.

وكان هؤلاء المخترعون يصنعون منها نماذج مصغرة، ويقدمون شروحا يتم الاستعانة بها فى تركيب الآلات الموصوفة فى تلك المؤلفات<sup>(٧٦)</sup>.

وكذلك قدم أحمد بن خلف المرادى الأندلسى (ق. ٥٠هـ / ١١م) - فى كتابه "كتاب الأسرار ونتائج الأفكار" - أكثر من ثلاثين نوعا من الآلات الميكانيكية قابلة للاستخدام، منها الطواحين، والمكابس المائية، والعجلات التى تستخدم لتدوير الطواحين، والساعات المائية التى تستخدم لقياس كمية الماء، وخاصة فى حالة شح المياه<sup>(٧٧)</sup>.

وبفضل الحصول على هذه المعارف وتطبيق ما بها من تقنيات، تم تطوير نظم ووسائل الري وتحسين أدواتها.

أما العنصر الثالث، من العناصر الأساسية لعملية الفلاحة، وهو ما يتعلق بالأوقات المناسبة لكل زرع، التى تختلف باختلاف البلدان وأجوائها. حيث ترتبط الدورة الزراعية بالمناخ وتغيراته، فهو عنصر يجب الرجوع فيه إلى العلم الذى يختص بدراسة التغيرات الجوية. وهو من العلوم التى قامت على أساس ما قدمته كتب الأوائل من نظريات عن الظواهر الطبيعية المناخية، مثل ما قدمه أرسطوطاليس فى كتابه "الميتورولوجيا" الذى توفر على ترجمته ودراسته سنان بن ثابت (ت ٣٦٠هـ -) <sup>(٧٨)</sup> العالم بالظواهر الجوية. ثم ما قدمته المؤلفات التى اهتمت بالتعريف بهذه الظواهر، وتفسير ما يصاحب حدوثها من تغيرات، مثل كتب "الأنباء". وقد عدد ابن النديم ما يربو على ١٥ كتابا عربيا مؤلفا فى الأنواء<sup>(٧٩)</sup>. مما مهد الطريق لظهور المؤلفات التى اهتمت بدراسة أثر هذه التغيرات فى الأنشطة الحيوية، ومنها الفلاحة. وعلى هذه المعلومات استندت كتب اهتمت بدراسة علاقة الفصول والتغيرات فى أشهر السنة المختلفة وأثرها فى المحاصيل الزراعية. منها المعلومات التى قدمها كتاب "تقويم قرطبة" لعريب بن سعيد (ت ٣٧٠هـ / ٩٨٠م)، الذى أدرج فيه المواد الزراعية المناسبة لكل شهر من شهور السنة، كما أكمل تلك المعلومات نص آخر يرجع تاريخه إلى القرن ٤هـ / ١٠م، لمؤلف مجهول، يحمل عنوان "كتاب فى تاريخ أوقات الغرسة والمغروسات"، جاء فى عشرة فصول، قدم فيها حصرا للأوقات المناسبة لزراعة الأشجار ومزروعات البساتين<sup>(٨٠)</sup>.

وكان لهذه المعارف أثرها فى ضرورة اختيار أنسب البذور التى تلائم هذه الظروف المناخية، وكذا اختيار الوقت المناسب لمراحل إنبات المحاصيل وجمعها وحصادها، والتنبه لمدى مقاومة النباتات للأمراض الناتجة بفعل التغيرات الطقسية؛ التى قد تؤدى إلى هلاك المحاصيل<sup>(٨١)</sup>.

وهكذا؛ نستطيع أن نؤكد أن السعى فى اكتساب هذه المعارف - من العلوم ذات الصلة بالعلوم الطبيعية وتطبيقاتها، والإمام المسبق بالتراث الزراعى، والتعامل معه بالمنهج التجريبي الذى اعتمده مؤلفو كتب الفلاحة - هو العامل الذى أدى إلى التطور الكبير فى الأساليب الزراعية وتقنياتها، وهو الأمر الذى كانت تهدف كتب الفلاحة إلى التعريف به، ومن ثم تطبيقه.

### الخاتمة:

تابع هذا البحث موقع علم النبات، بوصفه واحداً من موضوعات العلوم الطبيعية التي تتناول الكائنات الموجودة في الطبيعة، ضمن ما تناوله مبكراً علماء اليونان من علوم، ثم تابعه العلماء خلال العصر الهلنستي بإسهاماتهم، في المؤلفات التي اطلع عليها العرب ضمن ما وصل إليهم من ترجمات.

ولقد اهتم البحث أولاً بالوقوف على المنحى الذي اتخذته هذا العلم في مؤلفات العلماء العرب، التي تتابعت في شكل موسوعات ودراسات علمية، قامت على عرض نظريات تخص ذلك العلم، تأثراً بما سار عليه علماء اليونان. ثم ظهرت مؤلفات متخصصة في موضوع بعينه، عندما تفرع عن علم النبات علم العقاقير أو النباتات الطبية. وقد صاحبت هذه المؤلفات مرحلة الدراسة وتنقيح الأفكار، والنظريات الموروثة عن اليونان، ثم جاء الاتجاه إلى تأليف أبحاث ورسائل تناقش، أو تطرح، فرضيات جديدة خاصة بالعلماء العرب، قدموها بناء على ما قاموا به من تجارب ومشاهدات.

ثم تابعا بعد ذلك: كيف أن طرح تلك الأفكار لم يستمر داخل الإطار النظري المعرفي فقط، بل انتقل إلى الجانب العملي التطبيقي، فظهرت مؤلفات في الفلاحة. وناقشنا كيف أسهم ما أنتج من مؤلفات في طرح أفكار للتطبيق، أدت إلى تقدم الزراعة وتطور تقنياتها. فكان ما عرف بالثورة الزراعية العربية أحد ثمار الاهتمام العلمي بعلوم النبات والفلاحة، والعلوم التطبيقية التي قدمت وسائل التقنية.

وقد اعتمدنا في تناولنا لهذه المؤلفات، وتصنيف نوعياتها، ومتابعة ما جاء بها من أفكار، على ما كتب عنها من تطبيقات، من مصادر تناولت المؤلفين وإنتاجهم الفكري، إلى جانب ما جاء في مقدمات سطرها مؤلفو هذه الأعمال بأنفسهم، بالإضافة إلى الدراسات التي تناولت تاريخ العلوم.

ولقد استهدف البحث: إظهار الدور الذي قام به علماء العرب في الحفاظ على تراث السابقين، ثم تنقيحه وتأصيله، حتى تمكنوا من وضع إضافاتهم بصورة أسهمت في تطور علم النبات، وعلم الفلاحة الذي أضافوه إلى قائمة تقسيمات العلوم لديهم، بوصفه علماً يمثل الجانب التطبيقي من علم النبات.

وتبين من المتابعة: كيف أن أسس التراث اليوناني الهليني، في علم النبات، قد وضعت على يد كل من أرسطوطاليس وثيوفراستوس. أما التراث الهلنستي فكان ديسقوريدس أبرز ممثليه، حيث انصب اهتمامه على موضوع النباتات الطبية واستخداماتها، وارتاد باب علم الأدوية والعقاقير.



وقد استلهم العرب هذا التراث بشقيه النباتي والطبي. فقدم اللغويون الأساس اللغوي العربي الذي استخدم في التحقيق والتعريف بأسماء النباتات وأنواعها، وحقائق أجزائها وصفاتها.

بينما اهتم العلماء وخاصة الموسوعيون منهم، بعالم النبات من منظور العلم الطبيعي، فانطلق ابن سينا من أفكار أرسطوطاليس، غير أنه طبق المنهج العلمي القائم على الملاحظة، والاستقراء والتحليل والتفسير، وهو المنهج الذي وضعه أرسطوطاليس كأساس لدراسة العلوم الطبيعية. فوصف النبات من حيث الشكل، وصنّفه من حيث الخصائص، ثم قام بمقارنته من حيث أوجه التشابه والاختلاف، فانتقل بذلك من مرحلة العلم الوصفي، التي اقتصر عليها ثيوفراستوس، إلى مرحلة العلم التجريبي.

وعندما نحا علم النبات نحو الاتجاه الطبي، الذي سار فيه كل من ديسقوريدس وجالينوس خلال العصر الهلنستي، لفت هذا المنحى اهتمام العلماء العرب، بيد أن الوقوف على النهج الذي اتبعه من توفر على دراسة علم النبات الطبي، من العرب، يبين كيف أظهرت مؤلفاتهم في مجال الأدوية - خاصة الأدوية المفردة، لأنها تمثل النبات بخصائصه الأولية - خبرة بعلم النبات، كما أظهرت أن البحث عن المزيد من النباتات ودراسة خصائصها لاستخدامها في العلاج، قد ضاعف من الاهتمام بعلم النبات، على خلاف ما حدث عند اليونان، من الاهتمام بعلم النباتات الطبية، على حساب علم النبات. ومن ثم عكست المؤلفات، التي دونت في هذا الشأن، مواصلة تدارس علماء العرب لعلم النبات لذاته، إلى جانب ظهور التخصص في الكتابة تحت موضوع النباتات الطبية لتدوين النتائج.

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

أما عن المحور الثاني من البحث، الذي تابعا فيه الشق التطبيقي من علم النبات وهو علم الفلاحة، الذي تفرع عنه في مرحلة لاحقة بعد ظهور علم العقاقير الطبية، فقد تبين أن العرب عثروا على كتب الفلاحة ضمن مؤلفات اليونان، واتضح لهم أنها ترجع إلى إسهامات البيزنطيين. فتعرف العرب من خلالها على مؤلفيها، ورددوا أفكارهم وناقشوها عندما أقدموا على كتابة مؤلفات في ذات الموضوعات التي تناولتها كتب الفلاحة البيزنطية. وكذلك قدم اللغويون المفردات العربية والأسماء المختلفة للعشب والمزروعات، وأجناسها، وأطوارها المختلفة.

وقد بحثت هذه المؤلفات في النبات، من حيث: زرعه ومراحل نموه، والأوقات المناسبة لبذره وحصاده، وطرق تسميده، وما إلى ذلك من فنون الزراعة. وتبين أن أثر الأصول اليونانية في هذا النوع من المؤلفات، يتضح بصورة واضحة في التراث الزراعي الأندلسي، الذي امتد من القرن الرابع حتى القرن الثامن الهجري/ العاشر حتى الرابع عشر الميلادي. وقد تميزت هذه المؤلفات بإضافة إسهامات جديدة في مجال كتب الفلاحة؛ من حيث الشكل والمضمون، حيث يمكن تصنيفها إلى أعمال موسوعية، إلى

جانب رسائل متخصصة، ثم أعمال قائمة على المنهج النقدي، فضلاً عن أعمال يمكن أن توصف بالأعمال المتفردة. ونقصد بها تلك القصيدة التعليمية التي احتوت على معلومات زراعية، حيث يمكن اعتبارها قصيدة الأندلس الزراعية.

أما عن وضوح أثر هذه المؤلفات اليونانية في كتب الفلاحة العربية التي تناولناها، فقد تبين أنها، من حيث الشكل، تتبع نفس النمط الكلاسيكي، الذي اتبعته المؤلفات البيزنطية، في ترتيب الموضوعات وتوزيعها على أبواب. أما من حيث تناولها فقد لوحظ تأثر هذه المؤلفات بنظرية الأخلاط الطبية عند كل من أبقراط وجالينوس، حيث طبقت على تصنيف التربة والماء والأسمدة، وكذلك عند الإشارة إلى خصائص أجناس النبات.

وعلى ضوء ما توافر من هذه النصوص؛ نستطيع أن نؤكد أن كتب الفلاحة تمثل مرحلة التخصص في الكتابة والتأليف عند العرب. حيث إنها أصبحت من التخصصات التي تحمل سمات عامة، تظهر تقريباً في أغلب مصنفات هذا النوع.

أما عن الموضوعات التي تناولتها هذه المؤلفات الأندلسية؛ فقد تركزت في أغلبها على التعرض لموضوع استجلاب النباتات، وكيفية زراعتها، ومتابعة مدى تأقلمها، والتجارب التي أجراها المؤلفون بأنفسهم في هذا المجال. كما احتوت على معلومات قيمة تتعلق بأنواع معينة من الزراعات، مثل زراعة البساتين والحدائق. وقد استعانوا في ذلك بالخبرة العملية، من خلال ما أجروه من تجارب، إذ كانت هذه البساتين بمثابة مزارع تجريبية لهم. كما كان أبرز سماتها هو المنهج التجريبي؛ القائم على مزج النظرية بالتطبيق. كما كان السعي في اكتساب معارف ذات صلة بالعلوم الطبيعية، وتطبيقاتها، هو الذي أدى إلى التطور الكبير في الأساليب الزراعية وتقنياتها، وكان التعريف بها، ومن ثم تطبيقها، هو الهدف من وراء كتب الفلاحة.

## الحواشي

- (١) Lorande Loss Woodruff, 'History of Biology', The Scientific Monthly, vol. ١٢, No. ٣, ١٩٢١, US, pp. ٢٥٣-٢٨١, pp. ٣٥٣-٥٤.
- (٢) Simon Hornblower & Antony Spawforth, eds. The Oxford Companion to Classical Civilization, Oxford, ٢٠٠٤, p. ١٢٥.
- (٣) Ibid.
- (٤) Charles Singer, Greek Biology & Greek Medicine, Oxford, ١٩٢٢, pp. ٦٠-٦١
- (٥) Simon & Spawforth, op.cit, p. ١٢٥.
- (٦) محمد بن إسحق النديم (٣٧٧هـ/٩٨٧م)، الفهرست، تحقيق وتقديم مصطفى الشويبي، الجزائر، ٢٠٠٧م، ص ٢٥٢.
- (٧) جمال الدين أبو الحسن بن يوسف القفطي (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م)، تاريخ الحكماء، تحقيق جوليوس ليبيرت، ليبسك، ١٩٠٣م، ص ٧٥.
- (٨) Simon & Spawforth, op.cit, p. ١٢٦.
- (٩) Charles Singer, op. cit., p. ٦٩.
- (١٠) ابن النديم، مصدر سابق، ص ٤١٦-٤١٩.
- (١١) القفطي، مصدر سابق، ص ٨٣.
- (١٢) Charles D. Wise, "The Status of Biology in Alexandrian and Greco-Roman Science", The American Biology Teacher, vol. ٢٧, No. ٨, ١٩٦٥, US., pp. ٦٢٣-٦٣١; pp. ٦٢٨-٦٢٩.
- (١٣) أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري، كتاب النبات، أبواب من الكتاب الخامس، نشر محمد حميد الله، حيدر آباد، ١٩٥٦م، المقدمة.
- (١٤) فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، ترجمة عبد الله بن عبد الله حجازي، الرياض، ١٩٨٦م، المجلد الرابع، ص ٥٠٦-٥٠٨.
- (١٥) عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم ونور العلماء العرب في تقدمه، القاهرة، ط ٩، ١٩٩٦م، ص ١٧٩.
- (١٦) حسين مؤنس، الجغرافية والجغرافيون في الأندلس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٦م، ص ١٠٨-١٠٩، ص ١١٩، ص ١٢٣.
- (١٧) نفسه، ص ٢٢٦-٢٢٧.
- (١٨) محمد عبد الله عنان، تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٠م، ص ٣٣٨-٣٣٩.

- (١٩) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، بيروت، ط٢، ١٩٨٢م، ج٢، ص٢١٦-٢١٩.
- (٢٠) جاء ذكر هذا الكتاب في ترجمة نيقولاؤس عند القفطي: مصدر سابق، ص٢٢٠.
- (٢١) عبد الحليم منتصر، مرجع سابق، ص٢٠٠.
- (٢٢) Charles Singer, op.cit., pp.٢٩-٣١.
- (٢٣) Islamic and Arab Contribution to the European Renaissance, issued by:  
Associated Institution for The Study and Presentation of Arab Cultural Values, Calro, ١٩٧٧, pp.١٩٢-١٩٣.
- (٢٤) ابن سينا، القانون في الطب، كتاب الأدوية المفردة والنباتات، شرح جبران جبور، قدم له خليل أبو خليل، تعليق أحمد الشطي، بيروت، د.ت، المقدمة.
- (٢٥) Lorande, op.cit., p. ٢٥٧; p.٢٦٦; p.٢٨١
- (٢٦) ابن رشد، الكليات في الطب، تحقيق سعيد شيبان، وعمار الطالبي، مراجعة أبو شادي الروبي، القاهرة، ١٩٨٩م، مقدمة المحقق.
- (٢٧) هوارد تيرنر، العلوم عند المسلمين، ترجمة فتح الله الشيخ، ومراجعة أحمد عبد الله السماحي، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص١٨٤، ص١٩٠.
- (٢٨) القفطي، مصدر سابق، ص١٧١.
- (٢٩) المكتبة الصقلية، نشر ميخائيل أماري، ليبسك، ١٨٥٧م، ص٥١٢.
- (٣٠) سليمان ابن جلجل (كتب ٣٧٧-٩٨٧م)، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، ١٩٥٥م، المقدمة.
- (٣١) محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، ص٣٤٠.
- (٣٢) محمد العربي الخطابي، الأغذية والأدوية عند مؤلفي الغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠م، ص٢٨.
- (٣٣) ابن البيطار المالقي، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، المقدمة.
- (٣٤) هوارد تيرنر، مرجع سابق، ص١٧٤.
- (٣٥) نفسه، ص١٨٧.
- (٣٦) محمد العربي الخطابي، مرجع سابق، ص٤٢.
- (٣٧) نفسه، ص٤٥.
- (٣٨) نفسه، ص٤٤.
- (٣٩) نفسه، ص٤٨.
- (٤٠) فؤاد سزكين، مرجع سابق، ص٤٣٤.
- (٤١) Emilio Garcia Gomez, "Sobre Agricultura Arabigoandaluza," Al-Andalus, vol.١٠, ١٩٤٥, Madrid & Granada, pp.١٢٦-١٤٦; p.١٤٢, n.I.
- (٤٢) Jose M. Millas Vallicrosa, "La Traduccion Castellana del Tratado de Agricultura

- de Ibn Wafid", Al-Andalus. vol.٨، ١٩٤٣، pp. ٢٨١-٢٩٩; pp.٢٩٥-٢٩٦.  
 (٤٣) فؤاد سزكين، مرجع سابق، ص ٤٦٣-٤٦٦.
- Mustafa Al-Shihabi, s.v. 'Filaha', Encyclopedia of Islam, New Edition, Leiden, ١٩٩١, pp. ٨٩٩ff.; p.٩٠٠ (٤٤)  
 ابن النديم، مصدر سابق، ص ٧٤٩. (٤٥)
- حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت، ٦ مجلدات، ١٩٩٢م، ج٢، ص١٦٠. (٤٦)
- Simon Hornblower & Spawforth, op. cit., p. ١٩. (٤٧)
- ابن النديم، مصدر سابق، ص ٣١٣-٣١٤، ص ٢٦٣-٢٦٥، ص ٦٨٠. (٤٨)
- مختارات من المخطوطات العربية النادرة في مكتبات تركيا، إعداد رمضان ششن، تقديم أكمل الدين إحسان أوغلي، استانبول، ١٩٩٧م، ص ٩٠٦. (٤٩)
- أحمد عيسى، تاريخ النبات عند العرب، القاهرة، ط١، ١٩٤٤م، ص ٩٤-٩٩؛ (٥٠)
- Mustafa Al-Shihabi, op.cit., p.٩٠٠.
- اكسبيراثيون سانشيز، "الزراعة في أسبانيا الإسلامية"، بحث منشور في كتاب "الحضارة العربية الإسلامية"، تحرير سلمى الخضراء الجيوسي، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، المجلد الثاني، ص ١٣٦٨. (٥١)
- نفسه، ص ١٣٧٢. (٥٢)
- أحمد مختار العبادي، "الزراعة في الأندلس وتراثها العلمي"، بحوث ندوة الأندلس - درس والتاريخ - كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٩٤م، ص ١٠٧-١٢٩، ص ١٢٧. (٥٣)
- <http://Archivebeta.Sakhrit.com>
- نفس المكان. (٥٤)
- اكسبيراثيون سانشيز، مرجع سابق، ص ١٣٧٣. (٥٥)
- نفسه، ص ١٣٧٤. (٥٦)
- أحمد مختار العبادي، مرجع سابق، ص ١٢٧. (٥٧)
- (٥٨) Jose Vallicrosa, op. cit., pp. ٢٩٤-٢٩٥.
- (٥٩) Emilio G. Gomez, op. cit., pp.١٣٥-١٣٦; ١٣٩.
- أحمد مختار العبادي، مرجع سابق، ص ١٢٨. (٦٠)
- اكسبيراثيون سانشيز، مرجع سابق، ص ١٣٧٥. (٦١)
- (٦٢) Jose. M. vallicrosa, 'La Traducccion Castellana del 'Tratado de Agricultura' de Ibn Bassal', Al- Andalus, vol. ١٣, ١٩٤٨, pp.٣٤٧-٣٥٥; p.٣٥٣.
- (٦٣) J. Esteban H. Bermejo & Expiracion G. Sanchez, "Economic Botany and Ethnobotany". Al-Andalus", Economic Botany, vol.٥٢, no:١, ١٩٩٨, pp. ١٥-٢٦; p. ٢٠; p.٢٤.

- (٦٤) Jose M. Vallicrosa, op. cit., p. ٢٩٥.
- (٦٥) Emilio G. Gomez, op. cit., p. ١٣٥.
- (٦٦) J. Esteban & Expiracion, op. cit., p. ١٩.
- (٦٧) عبد الحليم منتصر، مرجع سابق، ص ١١٧، ١١٨، ١٢٠.
- (٦٨) John H. Harvey, 'Gardening Books and Plant Lists of Moorish Spain.' Garden History, vol. ٣, no:٢, ١٩٧٥, pp. ١٠-٢١; pp. ١٢-١٣.
- (٦٩) Simon Hornblower & A. Spawforth, op. cit., p.١٩.
- (٧٠) عبد الحليم منتصر، مرجع سابق، ص ١١٧-١١٨؛  
Emilio G. Gomez, op. cit., p. ١٣٦, p.١٣٩.
- (٧١) أحمد فؤاد باشا، أساسيات العلوم المعاصرة في التراث الإسلامي، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ٢٠٨-٢٠٩.
- (٧٢) نفسه، ص ٢١٠-٢١١.
- (٧٣) اكسبيراثيون سانثيز، مرجع سابق، ص ١٣٧٩.
- (٧٤) أبو بكر محمد بن الحسن الكرخي، كتاب إنباط المياه الخفية، تحقيق بغداد عبد المنعم، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٩٩٧م، المقدمة.
- (٧٥) M. I. Finley, "Technical Innovations and Economic Progress in the Ancient World" The Economic History Review, vol. ١٨, no. 1, ١٩٦٥, pp. ٢٩-٤٥; pp. ٣٥-٣٧.
- (٧٦) أحمد فؤاد باشا، مرجع سابق، ص ١٤٦ وما بعدها.
- (٧٧) خوان فيرنيه، العلوم الفيزيائية والطبيعية والتقنية في الأندلس، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٣٠٢.
- (٧٨) Franz Rosenthal, The Classical Heritage in Islam, trans. E & J. Marmorstein, London, ١٩٧٥, pp.١٦٢ ff
- (٧٩) ابن النديم، مصدر سابق، ص ٣١٣.
- (٨٠) اكسبيراثيون سانثيز، مرجع سابق، ص ١٣٦٩.
- (٨١) محمد حامد محمد، الميتورولوجيا، القاهرة، ١٩٤٦م، ص ٣.



## الدور العسكري لأبناء مقرن في صدر الإسلام

٥-٢٢٢هـ / ٦٢٦ - ٦٤٢ م

د. عوض سعد محمد عيسى (\*)

### تمهيد

هذا البحث يلقي الضوء على الدور العسكري لأبناء مقرن ، وينقسم إلى تمهيد: يبين نسبهم ، وموقع ديارهم وحياتهم قبل دخولهم الإسلام ، و مبحثين: المبحث الأول: يوضح عددهم والمكرمة التي نالوها في الإسلام ، ثم اشتراكهم في الغزوات بدءاً من غزوة الخندق ، والمبحث الثاني يتتبع دورهم العسكري في حروب الردة وفتح العراق وفارس.

ينسب أبناء مقرن إلى قبيلة مزينة ، ومزينة هي: أم عمرو بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان<sup>(١)</sup>. وسمي عمرو بن أد باسمها ، وهي مزينة بنت كلب بن وبرة ابن تغلب بن حلوان من قضاة ، وقد أنجب عمرو ولدين: عثمان وأوسا ، فكل من جاء من نسبيهما سمي مزينة ، ومن نسل عثمان جاء حبشية بن كعب ومن حبشية جاء أبناء مقرن<sup>(٢)</sup>.

وكانت مساكن مزينة بين المدينة ووادي القرى ، إلى الجنوب من ديار بلي ، وهي في الشرق من منازل "جهينة" ، وإلى الغرب من ديار سعد ، وإلى الشمال من بلاد خزاعة<sup>(٣)</sup>.

ومن ديارهم وقراهم: فيحة الروحاء - تبعد عن المدينة واحداً وأربعين ميلاً والعمق: وتقع بحذاء سقيا مزينة، والعطش، وهو موضع خلف المدينة وله ذكر في المغازي، وكذلك: فيف، ودهماء مرضوض، والجوار، وألاب، والأكاحل، والأحوص، وكذلك ثبير<sup>(٤)</sup>.

ومن أوديتهم: ثور، وشس، وصوري، وظبر، وقرار، ورنم، وشمس ولاي، ويدوم، وساية وهو واد عظيم به أكثر من سبعين بئراً، وأشهر الأودية هناك: العقيق، حيث كان وادياً كبيراً، وفيه بئر على مقربة منه، وهو مجموعة كبيرة من الأودية شقتها السيول<sup>(٥)</sup>.

(\*) مدرس بقسم التاريخ والحضارة - كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر.



ومن أشهر الجبال هناك<sup>(٦)</sup>: جبل خشوب، وروادة، والعرجاء، وجبل غراب الذي قال عنه ابن هشام<sup>(٧)</sup> في غزوة النبي - ﷺ - لبني لحيان: خرج من المدينة فسلك على غراب وهو جبل من منازل مزينة، وجبل قلس، وآره، وميطان، وقُدس، ونهبان، وعينب<sup>(٨)</sup>.

### حياتهم الاقتصادية قبل البعثة:

هي حياة معظم القبائل في شبه الجزيرة العربية، حياة بدوية قائمة على تربية المواشي، والترحال من مكان إلى آخر تبعاً لوفرة الماء والكلأ لرعاية مواشيهم، بينما تقوم منتجاتهم على ما تنتجه حيواناتهم من: ألبان، وأصواف، ولحوم، حيث كانت تتم المقايضة مع أبناء الحواضر، وهذه الحياة كانت عاملاً مشتركاً لجميع أبناء القبائل في الجزيرة العربية<sup>(٩)</sup>.

وكانت حياة مزينة الدينية في الجاهلية وثنية، وهي حياة معظم القبائل العربية قبل الإسلام، فكانت تعبد الأصنام وأشهرها صنم يقال له "تهم" وبه كانت تسمى "عبد نهم"، وكان سادنه يسمى - خزاعي بن عبد نهم<sup>(١٠)</sup> فلما سمع بظهور النبي - ﷺ - ثار إلى الصنم فكسره، ولحق بالرسول وأعلن إسلامه<sup>(١١)</sup>.

ثم قدم النعمان بن مقرن على رأس وفد مزينة إلى النبي - ﷺ -، وقد بلغ عددهم أربعمائة رجل، ووليد أن أبناء مقرن جميعاً كانوا ضمن هذا الوفد، وهو أول وفد يقد على الرسول من مضر، وتاريخ وفوده في شهر رجب من العام الخامس الهجري<sup>(١٢)</sup> فعن النعمان بن مقرن قال: <sup>(١٣)</sup> "قدمنا على رسول الله - ﷺ - أربعمائة رجل من مزينة، فلما أردنا أن ننصرف قال: يا عمر: "رود القوم" فقال: ما عندي إلا شئ من تمر ما أظنه يقع من القوم موقعا، قال: "انطلق فرودهم"، قال: فانطلق بهم عمر، فأدخلهم منزله ثم أصعدهم الطابق الثاني، فلما دخلوا إذا فيه من التمر مثل الجمل الأورق، فأخذ القوم منه حاجتهم. قال النعمان: فكنت آخر من خرج فنظرت فما أفقد موضع تمر من مكانها.

وكان الرسول - ﷺ - قد جعل لهم الهجرة في دارهم، وقال "أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم". فرجعوا إلى بلادهم وأموالهم.

ولا شك أن هذا الذي حدث في بيت عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لهو إحدى معجزات النبي - ﷺ -، حيث أخذ القوم حاجتهم من التمر وبقي كما هو بشهادة شاهد عيان، وهو الصحابي الجليل: النعمان بن مقرن رضي الله عنه.

وضع مزينة العسكري:

يبدو أن مزينة - قبل البعثة - كان عندها من القوة ما جعلها تدخل في أحلاف عسكرية مع غيرها أثناء الحروب، يتضح هذا من حرب "يوم بعاث"<sup>(١٤)</sup> حين اتضمت للأوس ضد الخزرج، وكان يقودهم آنذاك "مقرن" والد أبناء مقرن<sup>(١٥)</sup> موضوع بحثنا.

### المبحث الأول: دور أبناء مقرن في الغزوات :

#### حول عددهم وفضلهم :

وأبناء مقرن: النعمان بن مقرن<sup>(١٦)</sup>، وسويد<sup>(١٧)</sup>، ونعيم<sup>(١٨)</sup>، وسانان<sup>(١٩)</sup> معقل<sup>(٢٠)</sup> وعقيل<sup>(٢١)</sup> وعبد الرحمن<sup>(٢٢)</sup>.

قال صاحب كتاب الشذا الفياح<sup>(٢٣)</sup> هؤلاء هم بنو مقرن "المزينون، سبعة إخوة هاجروا وصحبوا رسول الله - ﷺ - ولم يشاركهم فيما ذكر ابن عبد البر وجماعة - في هذه المكرمة غيرهم، وقد قيل إنهم شهدوا موقعة الخندق كلهم.

غير أنه - بعد البحث - اتضح أنهم لم يكونوا سبعة فقط، فكان هناك ضرار بن مقرن<sup>(٢٤)</sup>.

وكذلك عبد الله بن مقرن<sup>(٢٥)</sup> وسعيد بن مقرن<sup>(٢٦)</sup>.

هؤلاء عشرة، وزاد ابن حجر العسقلاني اثنين وهما: معاوية بن مقرن<sup>(٢٧)</sup> وسواد بن مقرن<sup>(٢٨)</sup> بينما زاد آخر<sup>(٢٩)</sup> واحداً وهو: هند بن مقرن.

وبهذا يكون آل مقرن أحد عشر رجلاً كلهم صحبوا النبي - ﷺ -، وإنما اشتهر كونهم سبعة لما في صحيح مسلم من حديث سويد بن مقرن، قال "لقد رأيتني سبعاً سبعة من بني مقرن ما لنا خادم إلا واحدة، فلطمها أصغرنا، فأمرنا رسول الله - ﷺ - أن نعقها"<sup>(٣٠)</sup>.

ويحتمل: أن من أطلق كونهم سبعة، أراد من هاجر منهم.

وأعتقد: أن سبب شهرة هؤلاء السبعة من أبناء مقرن، دون غيرهم من الإخوة، اشتهارهم في ساحات المعارك والغزوات والفتوح، فبمجرد دخول هؤلاء السبعة في الإسلام، في العام الخامس الهجري، اشتركوا في الغزوات وأولها "غزوة الأحزاب" التي وقعت في نفس العام الذي أعلنوا فيه إسلامهم، هذا بالإضافة إلى أن معظم فتوحات العراق وفارس كانت على أيديهم، كما سنوضح بعد ذلك إن شاء الله.

أما عن فضلهم: فقد ذكر بعض أصحاب كتب تراجم الصحابة<sup>(٣١)</sup> أن أبناء مقرن إخوة هاجروا وصحبوا رسول الله - ﷺ - ولم يشاركهم في هذه المكرمة غيرهم.

ومما ورد في فضل مزينة - وفيهم آل مقرن - قوله - ﷺ - "مزينة وجهينة وأسلم وغفار؛ خير من بني تميم وأسد وغطفان ومن بني عامر بن صعصعة".

ولقد اجتمع الرسول - ﷺ - بأصحابه من المهاجرين والأنصار، ويبدو أن الاجتماع كان سراً للغاية، لذلك قال لهم "هل فيكم من ليس منكم؟ قالوا: لا إلا ابن أخت لنا، فقال: ابن أخت القوم منهم" والمعنى بـ"ابن أخت القوم منهم": النعمان بن مقرن، والحديث يدل على أن بين النعمان وباقي الصحابة ارتباطاً وقرابة، وسياق الحديث يقتضى أن المراد أنه كالأحد منهم في إفتاء سرهم بحضرته ونحو ذلك، وهذه ثقة كبيرة من الرسول - ﷺ - في النعمان وقال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - "إن للإيمان بيوتاً، وإن بيت آل مقرن من بيوت الإيمان"<sup>(٣٢)</sup>

### دورهم في الغزوات

ارتبط إسلام آل مقرن بقدوم وفد مزينة على الرسول - ﷺ - في العام الخامس الهجري، وبمجرد إشهار إسلامهم بدأوا يشتركون مع إخوانهم المسلمين في العمليات العسكرية ضد الأعداء، وكان أولها كما يذكر معظم المؤرخين<sup>(٣٣)</sup> غزوة الأحزاب في العام الخامس الهجري.

ومما يذكر حول هذه الغزوة: أن الرسول - ﷺ - جعل أربعين ذراعاً من الخندق بين كل عشرة، فوقع نصيب النعمان بن مقرن مع تسعة من كبار الصحابة<sup>(٣٤)</sup>، فلما حفروا عرضت لهم صخرة كبيرة عجزوا عن كسرها أثناء الحفر، فذهب النعمان بن مقرن لاستشارة النبي - ﷺ - في ذلك، وحين حضر ضربها ثلاث ضربات ففتها، وقال إثر الضربة الأولى: الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة، ثم ضربها الثانية، فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض، ثم ضرب الثالثة، وقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا الساعة<sup>(٣٥)</sup>.

### وفي صلح الحديبية وأثناء بيعة الرضوان سنة ٦هـ:

يظهر دور النعمان بن مقرن، فعن عطاء بن أبي رباح قال: قلت لابن عمر: أشهدت بيعة الرضوان مع رسول الله - ﷺ -؟ قال: نعم، قلت فما كان عليه؟ قال: قميص من قطن وجبة محشوة ورداء وسيف، ورأيت النعمان بن مقرن المزني قائماً على رأسه، قد رفع أغصان الشجرة عن رأسه والناس يبائعونه<sup>(٣٦)</sup> وقد انتهى الأمر إلى عقد صلح الحديبية بعد ذلك.

وفي العام الثامن الهجري: أصيبت قريش بحالة جمود في إدارة سياستها؛ جعلتها غير واعية للأحداث الخطيرة التي غيرت مجرى الأحوال في الجزيرة العربية،

وقد جرّها فقدان هذا الوعي إلى حماقة كبيرة أصبح بعدها عهد الحديبية لغواً، وذلك أنها - مع حلفائها من بني بكر - هاجموا خزاعة - وهي مع المسلمين في حلف واحد - وقتلواهم فأصابوا منهم رجالاً، فأمر الرسول - ﷺ - أصحابه بالتجهز للغزو ولم يعظمهم بوجهته، وقد استنفر القبائل التي حول المدينة ومنها مزينة، وكان الذي قام بحشد مزينة: بلال بن الحارث، وعبد الله بن عمرو المزني، بالإضافة إلى النعمان بن مقرن<sup>(٣٧)</sup>.

قال الواقدي: وكان النعمان بن مقرن أحد من حمل أليه رسول الله - ﷺ - لذلك وجدناه يقود مزينة يوم فتح مكة حين دفع إليه الرسول اللواء، وكان تحت لواء النعمان يومئذ حوالي ألف مقاتل، ومائة فارس، ومعهم مائة دارع شاركوا إخوانهم المسلمين فتح مكة.

وبنفس التشكيل العسكري الذي خاضت به مزينة الفتح، دخلت به معركة حنين في العام الثامن الهجري، وكانت بين المسلمين من ناحية وهوازن وثقيف من ناحية أخرى، غير أن النبي - ﷺ - جعل مزينة في مقدمته، يقودهم ويحمل رايتهم النعمان بن مقرن<sup>(٣٨)</sup>.

وفي العام التالي مباشرة - التاسع الهجري - عزم رسول الله - ﷺ - على قتال الروم الذين كانوا يفكرون في غزو المدينة المنورة، لأنهم أقرب الناس إلى حدود دولته، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقبهم إلى الإسلام وأهله، وقد قال الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين"<sup>(٣٩)</sup>.

لذلك: كانت غزوة تبوك، وسميت - أيضاً - بغزوة العسرة، لما أصاب المسلمين من الضيق الاقتصادي وقتها.

وعلى الرغم من تسابق الصحابة للإسهام في تمويلها، إلا أن الأمر بلغ بأناس ممن أقعدهم المرض أو النفقة عن الخروج، إلى حد البكاء شوقاً للجهاد وتخرجاً من القعود حتى نزل فيهم قرآن "... ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون"<sup>(٤٠)</sup>.

فقد رأى بعض المفسرين لهذه الآية أنها نزلت في البكائين الذين قصرت بهم النفقة عن الجهاد، وأن المقصود بالبكائين أبناء مقرن الذين كانوا متشوقين للقتال في هذه الغزوة، وقد كانوا سبعة: النعمان، ومعل، وعقيل، وسويد، وسانان، وعبد الرحمن، ونعيم<sup>(٤١)</sup>.

وقد قال القرطبي: "نزلت في بني مقرن، وعلى هذا جمهور المفسرين وكانوا سبعة إخوة كلهم صحبوا النبي - ﷺ -، وليس في الصحابة سبعة إخوة غيرهم.

ومال بعض المفسرين إلى قول مجاهد بأن البكائين أبناء مقرن، لكن ثلاثة منهم فقط وليس السبعة، والثلاثة هم: معقل بن مقرن، وسويد، والنعمان، سألوا النبي - ﷺ - أثناء الاستعداد لغزوة تبوك أن يحملهم على الخفاف المدبوغة والنعال المخصوصة، فقال "لا أجد ما أحملكم عليه" فتولوا وهم يبكون.

وحين رآهم بعض الصحابة خارجين من عند الرسول وهم يبكون سألوهم عن سر بكائهم، واتضح أن السبب هو عدم استطاعتهم الخروج بسبب الفقر، وهم يكرهون أن تفوتهم غزوة مع رسول الله، فتعاون البعض ووفر لهم الزاد والراحلة فخرج البعض في الغزوة، ولم يستطع الباقون الاشتراك في هذا الجهاد فبقوا في المدينة<sup>(٤٢)</sup>.

والواضح من الروايات المختلفة أن السبعة تسابقوا في الذهاب إلى الجهاد، لكن في النهاية لم يستطع اللحاق بالجيش إلا ثلاثة منهم، وقد خص النبي - ﷺ - هؤلاء المتخلفين المعذورين ممن حسنت نياتهم بقوله "إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم. قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: وهم بالمدينة حسبهم العذر"<sup>(٤٣)</sup>.

إنها لصورة مؤثرة للرجبة الصحيحة في الجهاد، والألم الصادق للحرمان من نعمة أدائه، وإنها لصورة جميلة حفظتها الروايات عن جماعة من المسلمين من أيام الرسول - ﷺ - وأود أن أقول: يمثل هذه الروح انتصر الإسلام، ويمثل هذه الروح عزت كلمته، فلننظر أين نحن من هؤلاء.

ولم لا وقد مدح الله تعالى أبناء مقرن في كتابه العزيز حين قال "ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته والله غفور رحيم".

عن مجاهد قال: المقصود بالممدوحين في الآية من الأعراب هم بنو مقرن، وهم الذين قال الله فيهم "ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت... الآية".

ومما جاء حول هذه الآية<sup>(٤٤)</sup> أن النعمان بن مقرن جاء بغنم يسوقها للنبي - ﷺ - فنزلت الآية.

**المبحث الثاني: دورهم العسكري في حروب الردة وفتح العراق وفارس**

**١- دورهم في حروب الردة :**

### أبناء مقرن أبطال معركة ذي القصة<sup>(٤٥)</sup>:

توقع أبو بكر الإغارة على المدينة من قبل المرتدين، بعد وفاة الرسول ﷺ في الثاني عشر من ربيع الأول سنة ١١هـ/٦٣٢م، فجعل على مداخل المدينة أربعة من كبار الصحابة، وألزم أهل المدينة بحضور المسجد خوف الإغارة من العدو لقربهم، وبالفعل طوق المعتدون المدينة ليلاً وحاولوا اقتحامها من الداخل، إلا أن المقاتلين المسلمين منعواهم من دخولها، ليس هذا فحسب بل أتبعهم أبو بكر على رأس قوة حتى أبعدهم عن المدينة تماماً، وبعد عدة اشتباكات عاد المسلمون للمدينة<sup>(٤٦)</sup>.

ظن الكفار بالمسلمين الوهن بعد انسحابهم إلى المدينة، فقد انضم إلى رجال طليحة الأسدي غيرهم من أصحابه، فبات أبو بكر يعبئ الجيش، ثم خرج ليلاً لقتال الأعداء، وجعل على ميمنته: النعمان بن مقرن، وعلى يسارته: عبد الله بن مقرن أخو النعمان، وعلى الساقة "المؤخرة": أخوهما سويد بن مقرن وخرجوا من آخر الليل، فما طلع الفجر إلا وهم والمشركون في صعيد واحد، ما سمعوا للمسلمين همساً ولا حساً حتى وضعوا فيهم السيوف، فما بزغت الشمس حتى ولوا الأدبار وغلب المسلمون المرتدين على أرضهم، واتبعهم أبو بكر حتى نزل بذي القصة، فوضع فيها النعمان بن مقرن على رأس حامية، ثم عاد إلى المدينة.

وقد كانت هذه الموقعة صغيرة ولكن كان للنصر الذي حدث شأن كبير، ووقع عظيم في النفوس، وقد ازداد المسلمون في المدينة، وفي كل قبيلة، بهذا الانتصار عزا وثباتاً على دينهم، بعد أن كان المرتدون يتحدثون - فيما بينهم - بقلة عدد المسلمين. وعلى أثر هذا الانتصار<sup>(٤٧)</sup> أقبل كثير من وفود القبائل تؤدي زكاتها إلى خليفة رسول الله، معنيين التزامهم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

وحين وثب المشركون في كل قبيلة يقتلون المسلمين الثابتين على دينهم، ويمثلون بهم، حلف أبو بكر ليقتلن في كل قبيلة بمن قتل من المسلمين، لذلك: حين قدم أسامة وجيشه بعد أربعين يوماً من مخرجه - وقيل بعد سبعين - عقد أبو بكر أحد عشر لواء، وجهها إلى المرتدين في مواطنهم في أرجاء شبه الجزيرة، وكان ضمن هذه الألوية: لواء عقد لسويد بن مقرن، وكانت وجهته إلى تهامة باليمن<sup>(٤٨)</sup>.

### ٢- دورهم في فتح العراق

بعد انتهاء حروب الردة سار المثنى بن حارثة الشيباني<sup>(٤٩)</sup> حتى قدم المدينة على أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وطلب منه التصريح بعمليات حربية ضد العراق تنطلق من البحرين موطن المثنى وقبيلته، وهي منطقة قريبة من أرض العراق، وكان المثنى - بمن معه من المسلمين - قد طاردوا المرتدين في هذه المنطقة حتى دخلوا

جنوب العراق، الأمر الذي شجع المثنى على التوغل في تلك المنطقة، وحين قبل أبو بكر ذلك رجع المثنى فجمع قومه وأخذ يغير على أسفل العراق، تارة على نواحي كسكر فيما بين دجلة والفرات، وتارة على أسفل الفرات، ويعد هذا بداية اكتساح المسلمين لجنوبي العراق<sup>(٥٠)</sup>.

وقد نظر أبو بكر - بعد الأخبار التي وصلتته بإحراز المثنى انتصارات هناك - إلى موضوع العراق نظرة أخرى، وأسند قيادة فتحه للبطل/ خالد بن الوليد - رضي الله عنه - وكان أبناء مقرن ضمن جيوش خالد التي فتحت العراق.

### أبناء مقرن في فتح الأبله ٥١٢هـ / ٦٢٢م

كان أمير الأبله "هرمز" من أبرز قادة الفرس، وقد دعاه خالد إلى واحدة من ثلاث: الإسلام، أو عقد الذمة، أو القتال، فكانت الثالثة، واستعد الفرس وربطوا بعضهم بعضاً بالسلاسل حتى لا يفروا، فسميت أيضاً "بذات السلاسل".

وطلب هرمز خالداً للمبارزة، مبيتاً الخيانة والغدر، إذ اتفق مع أصحابه علي الغدر به، وبرز له خالد، وتضاربا فاحتضنه خالد، ولكن حامية هرمز حملت عليه غدرا، فلم يكثر خالد وقتل هرمز وسلبه، فحمل المسلمون وفيهم القعقاع بن عمرو التميمي عليهم، وانهزم أهل فارس وفر الباقون<sup>(٥١)</sup>.

### سويد بن مقرن قائداً لمؤخرة الجيش

وبعد أن سيطر الجيش الإسلامي على "الأبله" وما حولها من القرى<sup>(٥٢)</sup> نظر خالد فرأى أن الأبله التي يريد أن يخلفها وراء ظهره ليتقدم نحو "الحيرة"<sup>(٥٣)</sup> منطقة لها أهميتها الاقتصادية القصوى وخطرها الاستراتيجي، فهي أكبر ثغور فارس البحرية وهي مدخل السفن إلى دجلة وإلى الفرات، فضلاً عن أنها باب يمكن السير منه إلى الحيرة، ومنها يمكن أن تتوغل القوات الإسلامية في باقي قرى فارس، وهذا كله قد يدفع الفرس إلى محاولة استردادها<sup>(٥٤)</sup>.

لذلك وتأميناً لسلامة قواته، وضع خالد حاميات مناسبة تجاه كل تلك المداخل، حتى تكون يقظة لما عسى أن يأتي منها<sup>(٥٥)</sup>.

وتنتهي قيادة هذه الحاميات جميعاً إلى سويد بن مقرن، الذي تولى جباية الجزية وجمع السبي عن طريق عماله الذين انتشروا في المنطقة لأجل ذلك، وكذلك نزل سويد "الحفير" في موقع خلفي متوسط بأطراف الصحراء ليحفظها قاعدة له، وليحمي ظهر جيش المسلمين المتقدم، وعلى الجملة: كانت الحاميات التي تولى قيادتها سويد بن مقرن أشبه بنقط الحدود تشرف على منافذ المنطقة وتقف عليها، وينظر بعضها إلى بعض<sup>(٥٦)</sup>.

ويبدو أن اختيار سويد بن مقرن لهذه المهمة، وهي قيادة مؤخرة جيش المسلمين - ثم تأت من فراغ، فقد سبق أن ذكرنا أن سويداً كان قائداً لمؤخرة جيش المسلمين الذي خاض معركة "ذي القصة" ضد المرتدين مع أبي بكر، وقد أثبت شجاعة في ذلك، مما جعل أبا بكر يختاره قائداً لأحد الفيالق التي تحركت لقتال المرتدين.

وكان لأبناء مقرن إسهام في فتح الحيرة ١٢هـ/٦٢٣م

كان ذلك في سنة ١٢هـ/٦٢٣م، حين وصلها الجيش الإسلامي فوجد أهلها في قصورهم - وكانت أربعة - متحصنين، فأمر خالد بحصارهم، وعين لكل قصر قائداً من قادته على رأس كتيبة من جنده<sup>(٥٧)</sup>.

أوكل لضرار بن مقرن حصار أحد القصور الأربعة وهو "قصر بنسي مازن"، وفيه: جيري بن أكال، وطلب خالد من ضرار - كما طلب من القادة الآخرين - دعوة جيري بن أكال إلى إحدى ثلاث: الإسلام أو الجزية أو القتال، فاختر القتال.

وبعد انتهاء المهلة التي منحها خالد لأهل الحصون - وكانت يوماً - نشب القتال مع كل الحصون، فشدد ضرار بن مقرن في حصاره للقصر، واشتبك مع من فيه، وحين أدركوا أن لا جدوى من المقاومة واستمرار القتال، وانسحاب القوات الفارسية من الحيرة، نادي العرب الموجودون "يا معشر العرب قد قبلنا واحدة من ثلاث فادعوا بها وكفوا عنا حتى تبلغونا خالداً".

بعد توقف القتال: خرج جيري بن أكال من قصر بني مازن وسلم نفسه إلى ضرار بن مقرن، فقام بإرساله إلى خالد، بينما ظل هو ومن معه على مواقفهم محاصرين القصر<sup>(٥٨)</sup>.

ويذكر بعض المؤرخين<sup>(٥٩)</sup> أن معقل بن مقرن - أحد الإخوة للنعمان - كان له أيضاً دور أثناء فتح الحيرة، وهو الذي عين على الأموال والسبي.

وهكذا - بعد أن استسلمت باقي الحصون للمسلمين - فتحت الحيرة أبوابها لهم، وازداد الأمل أمامهم في فتح العراق المحتل من الفرس كله - وضمه إلى الدولة العربية الإسلامية الناشئة<sup>(٦٠)</sup>.

واتخذ خالد الحيرة مقراً لقيادته، فكانت أول عاصمة إسلامية خارج الجزيرة العربية، وأول عاصمة من عواصم الأقاليم التي يحكمها بنو ساسان تسقط في أيدي المسلمين.

وقد أقام خالد - رضي الله عنه - سنة بعاصمته الجديدة، وصفها بأنها "سنة كأنها سنة نساء" فقد كان تواقفاً إلى مواصلة القتال، إلا أن أبا بكر كان قد أمره ألا يبرح



الحيرة، أو يوغل في الفتح، ولذلك بعث خالد بعسال للجباية وبلغ عددهم خمسة، وكان منهم سويد بن مقرن حيث كانت وجهته مدينة "تستر" شرقي دجلة، فأشرف على جبايتها<sup>(١١)</sup>.

أما ضرار بن مقرن فكان أحد أمراء الثغور الذين هم قواد الحاميات ؛ وكذلك أخوه سويد.

ثم أدخل خالد على تنظيم قواته وأمرائه على الثغور بعض التعديلات، فقسم ما فتح من العراق أحد عشر قسماً، سبعة بالحيرة، تولى ضرار بن مقرن قسماً منها، وكان أمراء الأبله أربعة، فتولى سويد بن مقرن إدارة شئون قسم منها<sup>(١٢)</sup>.

وفي معركة القادسية<sup>(١٣)</sup> ٦٣٥هـ / ٦٣٥م

لم تسلط الأضواء على أبناء مقرن في العمليات العسكرية في العراق، التي وقعت بين معركة الحيرة والقادسية<sup>(١٤)</sup> حيث اتجه اهتمام المؤرخين - كعادتهم - إلى القادة المشهورين، ولا شك أن معركة القادسية تقع على قمة المعارك الحاسمة، ليس في تاريخ المسلمين وحدهم، وإنما في تاريخ العالم، فهي التي انفتحت على آثارها أبواب العراق، ومن وراء العراق فارس كلها، فسقطت الإمبراطورية الفارسية من الناحيتين الحربية والسياسية، وسقطت المجوسية من الناحية الدينية، ومن هنا انتشر الإسلام في العالم شرقاً وغرباً.

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

وفي هذه المعركة حشد الفرس حوالي مائة وعشرين ألفاً، يتقدمهم عدد من الفيلة بلغ ثلاثة وثلاثين فيلاً، ويقود هذا الجيش الكبير أشهر قادة الفرس، وهو "رستم".

وفي ذات الوقت: استطاع المسلمون حشد جيش بلغ ستة وثلاثين ألفاً، يقوده الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه -، وعلى الرغم من أن العدد يقل كثيراً عن عدد جيش الفرس؛ إلا أنه يعد أضخم جيش إسلامي عبأه المسلمون لغزو العراق<sup>(١٥)</sup>.

وقبل أن ينشب القتال بين الطرفين، بعث عمر إلى سعد - رضي الله عنهما - أن يرسل وفداً إلى يزيد جرد ملك الفرس يعرض عليه: الإسلام أو الجزية أو القتال "وابعث إليهم رجالاً من أهل النظر والرأي والجلد يدعونهم..."<sup>(١٦)</sup>.

فاختار سعد - رضي الله عنه - أربعة عشر داعية<sup>(١٧)</sup> وقائدهم النعمان بن مقرن، والملاحظ على هؤلاء الناس: أنهم من سادات القوم، كي يستطيعوا دعوة يزيد جرد بالحكمة والموعظة الحسنة، لعل الله يهديه هو وجنده للإيمان وتحقق دماء الطرفين.

ولقد كان هذا الوفد منتقى على درجة عالية من الكفاية والقدرة لما أوفد له، وكان يتمتع بميزتي الرغبة والرغبة التي تتوافر في جسامتهم ومهابتهم وجلدهم وشدة ذكائهم.

وتحرك هذا الوفد الميمون بقيادة النعمان بن مقرن، وأدخلوا على ملك الفرس، فسألهم بواسطة ترجمانه، ما جاء بكم؟ وما دعاكم إلى غزونا؟ فأجابه النعمان مبيناً بعثة الرسول - ﷺ -، وتاريخ الدعوة الإسلامية، وأهدافها وموقف العرب منها، وانضواءهم تحت لوائها، و"أن الرسول أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح كله، فإن أبيتم فأمر الشرير هو أهون من آخر أشد منه: الجزاء، فإن أبيتم فالمناجزة، فإن أجبتهم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله، وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه، ونرجع عنكم وشأنكم وبلاكم، وإن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا منكم وإلا قاتلناكم"، فغضب يزيدجرد وقال "لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم لا شيء لكم عندي"، وهددهم بإرسال رستم إليهم ليدفنهم في خندق القادسية<sup>(٦٨)</sup>.

وجدير بنا أن نلاحظ في هذا البيان الرابع: أن التحرك لبدء الآخرين بالدعوة إلى الإسلام هو خصيصة ذاتية من خصائص هذا الدين، يدل على ذلك قول النعمان بن مقرن الأنف الذكر: "ثم أمرنا النبي - ﷺ - أن نبدأ بمن يلينا من الأمم، فندعوهم إلى الإنصاف" وفيه دليل على أن الحرب في الإسلام ليست دفاعية فقط، ولكنها قد تكون حرباً لإزالة العقبات من طريق الدعوة الإسلامية لتهيئة المناخ المناسب لدخول الناس في دين الله تحقيقاً لسعادتهم الحقيقية في العاجلة والآجلة، وأنه ينبغي أن ينشر المسلمون دعوتهم في إطار من القوة، كما فعل هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم.

وقد خاض النعمان بن مقرن معركة القادسية مع إخوانه المسلمين، واستمرت أربعة أيام، كانت المعارك سجالاتاً بين الطرفين في البداية، إلى أن حسمها المسلمون بعد مقتل القائد الفارسي "رستم" وفرار باقي الجنود، وقد استشهد فيها قرابة ثمانية آلاف من المسلمين، وقتل من الفرس ثلاثون ألفاً.

وقد قال النعمان شعراً بمناسبة هذا النصر العظيم قال:

نزلنا بأحساء العذيب ولم تكن لنا همة إلا اختيار المنازل

لنحوى أرضاً أو نناهب غارة يضح لها ما بين بصري وبابل<sup>(٦٩)</sup>

وفي هذا الصدد؛ يذكر أن النعمان بن مقرن هو الذي قدم على الخليفة عمر بشيراً بنصر المسلمين في القادسية<sup>(٧٠)</sup>.

كذلك شارك أبناء مقرن المسلمين فتح "المدائن" (٧١) :

حيث لم يحدث فيها قتال كثير، فقد انسحب يزيدجرد بعياله وتبعه أهل المدائن، واستسلمت البقية الباقية من الفرس للمسلمين، وقد غنم المسلمون ما تركه الفرس وما في خزائن كسرى من أموال وذخائر كثيرة، فجمعها سعد - رضي الله عنه - وولى أمرها النعمان بن مقرن (٧٢).

هذا وقد وقف المسلمون بحركة الفتح شرقاً عند نهاية العراق العربي (٧٣) وذلك بأمر من الخليفة بعدم التقدم إلى ما وراءها، كي لا يتورط المسلمون فيما لا يعرفون مسالكة من البلاد، وحتى يتمكنوا من توطيد أقدامهم في المناطق التي استولوا عليها من الفرس. وبعد تقسيم غنائم القادسية ولى الخليفة عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص على ما غلب عليه، وولى النعمان وسويد "ابني مقرن" الخراج، سويدا على ما سقى الفرات، والنعمان على ما سقى دجلة، ثم استغنيا وقالوا: اعفنا من عمل يتغول علينا ويتزين لنا فأعفاهما (٧٤).

إلا أن عمر كان مقتنعاً تماماً بقيادة أبناء مقرن، فأسند حكم مدينة كسكر (٧٥) للنعمان، إلا أنه لم يمكث فكتب إليه "يا أمير المؤمنين اعزلني عن كسكر وابعثني في بعض جيوش المسلمين، فإنما مثل كسكر مثل مومسة تعطر وتزين في اليوم مرتين" فعزله، فكان عمر إذا ذكر النعمان بن مقرن بعد موته يقول: "يا لهف نفسي على النعمان" (٧٦).

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

٣- دورهم في فتح فارس:

بعد اشتراك أبناء مقرن في الغزوات - بدءاً من الخندق - ، وفي حروب الردة، وفي فتوح العراق ، اشتركوا - أيضاً - في فتح فارس ، وفي كل هذا كان منهم قادة ميدانيين ، ومن المعارك التي تولوا قيادتها في فارس:

فتح الأهواز (٧٧) سنة ١٧هـ / ٦٣٨م

ويرجع سبب فتحها إلى: أن يزيدجرد، ملك الفرس، كتب إلى أهل فارس يدعوهم إلى التعاون مع أهل الأهواز ضد المسلمين قائلاً "قد رضيتم يا أهل فارس أن قد غلبتكم العرب على السواد وما ولاء والأهواز، ثم لم يرضوا بذلك حتى توردوكم - غزوكم - في بلادكم، وعقر داركم، فتحركوا أهل فارس تنصروا"، فتكاتب أهل فارس وأهل الأهواز، وتعاهدوا على العمل المشترك ضد المسلمين (٧٨).

وحين نقل سعد إلى عمر - رضي الله عنهما - هذه الصورة؛ كتب إليه أن يبعث إلى الأهواز جيشاً كبيراً من أهل الكوفة يقوده النعمان بن مقرن، وجيشاً مثله من أهل البصرة يقوده أبو موسى الأشعري (٧٩).

اتجه النعمان بجيشه صوب الأهواز، حيث يتحصن الهرمزان - حاكم الأهواز - برامهرمز<sup>(٨٠)</sup> فلما سمع بمسير النعمان إليه التقاه على رأس جيش في أربك بناحية رامهرمز واشتد القتال بين الجيشين، وتراجع الهرمزان إلى رامهرمز ثم إلى تستر، فاستولى النعمان على رامهرمز ثم تحول إلى ايزج فهاجمها، فصالحه أهلها عليها، ورجع إلى رامهرمز فأقام بها في انتظار أوامر جديدة<sup>(٨١)</sup>.

وفي تستر تحصن الهرمزان بأسوارها وبروجها، واجتمع جيش الكوفة بقيادة النعمان بن مقرن بجيش البصرة، وعليه أبو موسى الأشعري، وتوجه الجميع لحصار الهرمزان في قلعة تستر، واستمر المسلمون في محاولاتهم لقهر قوة الهرمزان دون فائدة، بل كانوا يتعرضون لخسائر فادحة نتيجة لخروج الفرس من مواقعهم ومهاجمتهم، ثم العودة إلى الحصن، وبلغت المعارك في تستر ثمانين معركة، مرة ينتصر الفرس، وأخرى ينتصر المسلمون<sup>(٨٢)</sup>.

وحيث طال الحرب، وشدت المسلمون حصارهم، جاء رجل من أهل تستر إلى النعمان وطلب منه الأمان لنفسه على أن يدل المسلمين على مكان يكون منه فتح المدينة، ودله الرجل على مدخل الماء للمدينة، فندب أبو موسى مجموعة من جند البصرة، وندب النعمان مجموعة من جند الكوفة، والتقت المجموعتان ليلاً عند مخرج الماء، ودخلوا المدينة من سرب يجرى إلى جانب مدخل الماء، وقتلوا الحراس ثم علوا الأسوار وكبروا، وكبر المسلمون من الخارج وفتحت الأبواب، واشتبكوا مع الفرس وهزمهم بإذن الله. وحين سمع الهرمزان التكبير تولاه الفرز، وتوجه إلى القلعة وتحصن بها وهو يردد جزعاً "ما دل العرب على عورتنا إلا بعض من معنا ممن رأى إقبال أمرهم وإدبار أمرنا"<sup>(٨٣)</sup>.

وفتح المسلمون أبواب المدينة، واضطربت أمور الفرس داخلها، حتى إنهم كانوا يقتلون أولادهم وأهلهم خوفاً من أسرهم على أيدي المسلمين، وأحاط النعمان بالهرمزان في القلعة، ثم سلم نفسه، فبعثوا به إلى عمر في المدينة<sup>(٨٤)</sup>.

وأثناء حصار تستر كان أهل مدينة السوس<sup>(٨٥)</sup> يناوشون المسلمين، وكان يقودهم شهريار أخو الهرمزان، لذلك اتجه النعمان - بعد أن أنهى مهمته في تستر - إلى السوس وحاصرها، وبقي على حصارها حتى نفذ ما بها من طعام، ثم أمر سلاح الفرسان باقتحام أبواب المدينة ففتحت فنادى المشركون: الصلح الصلح، فأجابهم إلى ذلك بعد ما دخلوها عنوة، ثم وصلت أوامر من عمر - رضي الله عنه - بترك مدينة السوس والتوجه بجيشه لقتال الفرس بنهاوند<sup>(٨٦)</sup>.

### أبناء مقرن أبطال معركة نهاوند ٥٢١هـ / ١١٤١م :

بعد هذه الهزائم المتتالية، التي منى بها الفرس، أراد أمراؤهم أن يعيدوا صفوفهم من جديد للوقوف في وجه الزحف الإسلامي، فتجمعوا وكتبوا إلى كسرى ليكون على رأس التجمع الجديد والحشد المنتظر، فوجه رسله إلى البلدان يحثهم على القتال ويثير حماسهم، وكتب إلى جميع الولايات في مملكته يشجعهم على وحدة الصف، واستجاب الناس لدعوته، فبعث كل أمير جندا من عنده إلى نهاوند - منطقة الحشد - حتى أصبح عدد الجند بها مائة وخمسين ألفاً، واستقر الرأي على أن يتولى "الغيززان" قيادة الجيش الذي جمع جنده، وخطب فيهم خطبة ألهمت حماسهم، وضح لهم فيها أنهم فقدوا العراق والأهواز، وأن عمر بن الخطاب لما طال ملكه انتهك حرمتنا وأخذ بلادنا، ولم يكفه ذلك حتى غزانا في عقر دارنا، فأخذ بيت المملكة وانتقصكم السواد والأهواز، وهو آتيكم إن لم تأتوه..."، وحين سمع الجند هذه الخطبة؛ أقسموا أن يبذلوا غاية جهدهم حتى يتم لهم النصر<sup>(٨٧)</sup>.

وتحركت القوات الفارسية من منطقة تجمعها وتابعت سيرها إلى حلوان<sup>(٨٨)</sup>، وبلغت أخبار التحرك عمر بن الخطاب حين وصلتته رسالة تصف له التجمع والمسير، وكان لزاماً عليه أن يطلع الناس في المدينة على خطورة الأمر، لذلك: صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وبين لهم فضل الإسلام عليهم، وأن أهل فارس حشدوا قوات ضخمة واستعدوا لقتال المسلمين، بل اجتياح أملاكهم أيضاً<sup>(٨٩)</sup>.

### اختيار النعمان بن مقرن قائداً للمعركة:

قرر الخليفة عمر مواجهة الفرس، وبدأ اختيار القائد المسلم الذي تسند إليه هذه العملية الخطيرة، وعرض الأمر على أصحابه قائلاً "أشيروا على برجل أوله أمر هذه الحرب"، فقالوا له "أنت أفضل رأياً وأحسن مقدرة، وأبصر بجنديك"، ففكر ملياً ثم قال: "أما والله لأولين أمرهم رجلاً يكون غداً لأسنة القوم جزراً" في إشارة إلى أن استئصال الجيش الفارسي سيكون على يديه، ولم يكن هذا سوى: النعمان بن مقرن، الذي ما سمع الصحابة ترشيحه حتى كبروا وقالوا "هولها"<sup>(٩٠)</sup>.

كان النعمان في هذا الوقت محاصراً لمدينة السوس بالأهواز، فكتب إليه عمر يبلغه أن جموعاً من الفرس كثيرة قد استعدوا لقتال المسلمين بمدينة نهاوند، وأمره بالتحرك بمن معه من الجنود صوب العدو، على أن يوافيه باقي جيش الكوفة بعد ذلك، وقال له: وإن حدث بك حدث (يقصد النعمان) - فعلى الناس حذيفة بن اليمان، وإن حدث بحذيفة حدث فعلى الناس نعيم بن مقرن<sup>(٩١)</sup>.

ثم استنفر عمر رضي الله عنه قوات الكوفة، وأمر عليهم حذيفة بن اليمان حتى ينتهي بهم إلى النعمان، وكتب أيضاً إلى أبي موسى الأشعري أن يتحرك على رأس قوات البصرة حتى ينتهي إلى النعمان، وأمر قواد الأهواز ألا يبرحوا مكانهم قائلين "أشغلوا فارس عن إخوانكم، وحوطوا بذلك أمتكم وأرضكم، وأقيموا على حدود ما بين فارس والأهواز حتى يأتيكم أمري" (١٢).

ولا شك: أن هذه الإجراءات التي اتخذها الخليفة تدل على خطورة وأهمية اللقاء القادم، لذا تم حشد قوات الكوفة والبصرة لها، وقد علم عمر أن قائد الجيش الإسلامي لا يكون بعيداً عن أرض المعركة، لكنه يعيش في الصفوف الأولى، ويتقدم جنده والمعركة القادمة ستكون معركة فاصلة بالنسبة للقتال الدائر في بلاد فارس، لهذا لم يأمن عمر - رضي الله عنه - أن يظل النعمان قائداً للجيش الإسلامي طوال المعركة، لأنه يعرف عنه بسالته وشجاعته منذ أن دخل الإسلام، وشارك الرسول - ﷺ - وباقي الصحابة خوض الغزوات، ولهذا قدر عمر أن يقتل النعمان خلال الاشتباك مع العدو، ولأجل هذا جعل القيادة للنعمان، ثم لحذيفة، ثم لأخي النعمان: نعيم بن مقرن، ولا شك أن هذا الإجراء يجعل المقاتلين في اطمئنان نفسي، فلا ينزعجون إذا ما استشهد قائدهم.

على مشارف نهاوند تجمعت قوات المسلمين وقد بلغت ثلاثين ألفاً، وما أن تولى النعمان قيادتها حتى بعث بالعيون تأتيه بأخبار فارس وحين جمع معلومات مهمة، أمر بالتحرك إلى هناك، وكان قائد مقدمة جيش النعمان، أخوه: نعيم بن مقرن، بينما كان أخوه الثاني: سويد قائداً لإحدى المجنبتين، وما إن وصلت القوات إلى قرب مواقع الفرس حتى أمر رجاله أن يكبروا ثلاث تكبيرات، فلما كبروا اهتزت لها قلوب الأعداء (١٣).

### المعركة:

أمر النعمان بحصار المدينة، فتقدمت القوات وحاصرتها، فحدث اشتباك كان سجلاً بين الطرفين، وأحاط الفرس أسوار المدينة بحسك الحديد، فتعذر على خيل المسلمين اجتيازه، بينما ترك الفرس فرجاً يخرجون منها فيهاجمون المسلمين، ثم يعودون إلى داخل الأسوار (١٤).

وحينئذ عقد النعمان مجلساً مع مستشاريه، بعد أن رأى خوف المسلمين من إطالة مدة الحصار وقال لهم "قد ترون المشركين واعتصامهم بالحصون، وأنهم لا يخرجون إلا إذا شاعوا، وقد ترون الذي فيه المسلمون من التضايق من هذا الموقف، فما الرأي الذي نستخرجهم به إلى المنايذة وترك التطويل؟"، واتفق المجتمعون على خطة فحواها: أن يتظاهر المسلمون بالانسحاب، بحجة أن أمير المؤمنين مات، فإذا رأى الفرس ذلك فسيظنون أنها فرصة كبيرة للقضاء على المسلمين أثناء انسحابهم، فيتركون

حصونهم للحاق بهم ، وبالفعل نجحت الخطة، فاندفع الجيش الفارسي خلف المسلمين، وتركوا المدينة خالية من حماتها، كما تركوا حسك الحديد وراءهم<sup>(١٥)</sup>.

وقع الاشتباك بين الطرفين خارج المدينة ثلاثة أيام - من الثلاثاء إلى الخميس - دون حسم، بينما كان يوقع أحدهم بالآخر جراحات، فلما كان يوم الجمعة اقترب الفرس من المسلمين فرموهم بالسهم حتى قبيل وقت الزوال، والمسلمون في مواقعهم لا يتحركون، فإن النعمان لم يأذن لهم بالقتال انتظاراً لزوال الشمس، وهي الساعة التي كان الرسول - ﷺ - يقاتل فيها، فقال له المغيرة بن شعبه: إن القوم قد أسرعوا فينا فاحمل، فقال النعمان: إنك ذو مناقب، ولكني شهدت مع رسول الله إذا لم يقاتل أول النهار أصر القتال حتى تزول الشمس وتهب الرياح، وينزل النصر<sup>(١٦)</sup>.

وفي هذا يقول ابن حجر العسقلاني<sup>(١٧)</sup> يظهر أن فائدة التأخير لكون أوقات الصلاة مظنة إجابة الدعاء، وهبوب الريح قد وقع النصر به في "الأحزاب" فصار مظنة لذلك.

ومر النعمان بين الصفوف، وتحدث إلى جنده فقال: كل رجل منكم مسلط على ما يليه، فإذا قضيت أمري فاستعدوا، فإني مكبر ثلاثاً، فإذا كبرت الأولى فليتهياً من لم يكن تهباً، وإذا كبرت الثانية فليشد عليه سلاحه وليتأهب للنهوض، وإذا كبرت الثالثة فإني حامل إن شاء الله فأحملوا معاً، ثم اتجه النعمان إلى ربه وقال "اللهم أعز دينك وانصر عبادك واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك"<sup>(١٨)</sup>. وهكذا يكون النعمان قد حدد ساعة الصفر وحث الناس وأعدهم للمعركة. ونظر الناس إلى الراية، وحين كبر النعمان الثالثة اندفع واللواء في يده، وانقض على الفرس، والمسلمون من خلفه تشد عليهم، ففوجئوا بالهجوم، وسقطوا يتخبطون في دمائهم، والمسلمون يطيحون بالرؤوس، وعندما زال عن الفرس أثر المفاجأة، هاجموا هم أيضاً المسلمين، واشتد القتال، وكثر القتل في الفرس لكثرة عددهم، وانهمرت الدماء، فلما رأى النعمان أن الله قد استجاب له، ورأى الفتح جاءتته نشابة فأصابته خاصرته فوقع، فجاءه واحد من قبيلته وبه رمق، فصب على وجهه ماء حتى غسله من التراب، فقال له النعمان: ما فعل الناس؟ فقال له: فتح الله عليهم، فقال: الحمد لله اكتبوا بذلك إلى عمر وفاضت نفسه<sup>(١٩)</sup>.

وحين رأى معقل بن مقرن أخاه النعمان قد قتل غطاه بثوب، وتقدم الجنود ثم قال: تقدموا رحمكم الله، فتقدموا يقاتلون. أما أخوهما سويد: فقد حمل أخاه النعمان إلى فسطاطه وخلع ثيابه فلبسها، وتقلد سيفه، وركب فرسه، واتفق مع حذيفة بن اليمان أن يخفيا خبر استشهاد النعمان حتى لا يؤثر على معنويات المقاتلين، فلم يشك أكثر الناس أنه النعمان، وأكمل المسيرة، وثبتوا يقاتلون عدوهم حتى أكملوا النصر، فتراجع الفرس

منهزمين بعد أن أصابهم الإعياء، فإذا بحسك الحديد يوقف تراجعهم، وهذا أعطى المسلمين فرصة أن يمعنوا فيهم القتل، وهوى كثير من الفرس بخيلهم في خنبي لم يروه من شدة الظلام، فهلك منهم في الخندق ثمانون ألفاً، وقتل منهم ثلاثون ألفاً، وفر الباقون، ولما انتهت المعركة اجتمع الناس وقالوا: أين الأمير - يعني النعمان؟ فقال معقل: هذا أميركم قد أقر الله عينيه بالفتح وختم له بالشهادة، واغتبط المسلمون بالنصر العظيم وسموه "فتح الفتوح". وكان عمر أشد الناس اغتباطاً وتقديراً وإعجاباً، إلا أنه حين جاءه خبر مقتل النعمان نعاه على المنبر، ووضع يده على رأسه وهو يبكي<sup>(١٠٠)</sup>.

وبسبب انتصار المسلمين على الفرس في نهاوند انحطت مغويات الفرس، وفقدوا العودة بدولتهم إلى ما كانت عليه، بل واهتم كل وال من الولاة الفرس بولايتهم التي من الممكن أن يزحف عليها المسلمون في أي وقت للاستيلاء عليها، وانقطعت صلتهم بكسرى، بل انقطعت صلتهم بعضهم ببعض، وترك كل منهم أيضاً أمره للقدر يفعل به ما يشاء.

وعلى الجانب الآخر: ارتفعت مغويات المسلمين بعد النصر العظيم الذي أحرزوه، فقرروا أن يكونوا سلاحاً طبعاً في يد الخليفة بوجهه أينما شاء، ولهذا قرر الخليفة أن يقضى على ما تبقى من الإمبراطورية الفارسية<sup>(١٠١)</sup>.

**إخوة النعمان يكملون مسيرة الفتح:**

لم يجتمع ملكان فاتفاقاً حتى يخرج أحدهما صاحبه<sup>(١٠٢)</sup> بهذه الكلمات توجه الأحنف بن قيس<sup>(١٠٣)</sup> إلى عمر بن الخطاب بعد انتصار المسلمين في نهاوند، ثم أكمل حديثه قائلاً "...فنسيح في بلادهم ونزيل ملكهم ونخرجه من مملكته وعز أمته، هنالك ينقطع رجاء أهل فارس ويسكن جأشهم"<sup>(١٠٤)</sup>.

ولقد آمن الخليفة عمر بكلامه، وقرر أن يفتح باقي ملك الإمبراطورية الفارسية، لأن هذا سيحمي ظهر المسلمين، ويؤمن خط رجعتهم، ويعطيهم فرصة للسيطرة على طرق الإمداد من شبه الجزيرة العربية والعراق (العراق العربي).

وعلى الرغم من استشهاد النعمان بن مقرن في معركة نهاوند؛ إلا أن باقي إخوته استلموا راية القيادة بأمر الخليفة عمر، وشاركوا باقي إخوانهم المسلمين في معارك الاستيلاء على ما تبقى من أملاك الفرس، ومن هذه المعارك:

**معركة همذان<sup>(١٠٥)</sup> ٥٢٢هـ/٦٤٢م:**

ارتبط فتح همذان - أولاً - بفتح نهاوند، وذلك أن الفيرزان ومن بقى معه حياً من الفرس في نهاية معركة نهاوند، هربوا يريدون النجاة صوب همذان، فشاهده، نعيم بن مقرن فمال إليه بقوة إسلامية، وأمر القعقاع بن عمرو التميمي - قائد المجردة وهي



قوة من الفرسان - بمطاردته وتعقبه، فأدركه في ثنية همذان، حيث سدت بعض الدواب من الحمير والبغال الطزريق أمامه، فترجل يريد الهرب في الجبال، فتبعه القعقاع راجلاً، وأدركه وقتله، وأطلق المسلمون على هذه الثنية اسم "ثنية العسل" وقالوا حين عرفوا أن الدواب كانت تحمل عسلاً "إن لله جنوداً من عسل".

وأما الفارون من الفرس: فقد لجأوا إلى داخل همذان، فأسرع وراءهم نعيم، وحاصرهم فيها، فلما علم أميرهم ما أصاب القوم، عند مدخل همذان، بعث يطلب الصلح فوافق المسلمون على أن يضمن لهم همذان، وألا يخونوا المسلمين، فأجابوهم إلى ذلك<sup>(١٠٦)</sup>.

ولكن لم يدم هذا الصلح طويلاً، ففي الوقت الذي كانت تدور فيه معركة أصبهان<sup>(١٠٧)</sup> تجمعت أعداد ضخمة من الفرس تحت قيادة اسفنديار الراجزي، شقيق رستم، وعلم أهل همذان بأخبار هذا التجمع؛ فتشجعوا ونقضوا صلحهم مع المسلمين فأمر عمر رضي الله عنه نعيم بن مقرن بالسير إليهم، وحين رأى أهل همذان القوات الإسلامية، عادوا وندموا، وحين حاصرهم نعيم طلبوا الصلح، فوافق نعيم بشرط أن تبقى قوة من المسلمين في المدينة يقوم أميرها باستلام الجزية<sup>(١٠٨)</sup> لذلك بقيت قوات نعيم كاملة غير مجعدة حتى تلقى القوات المتجمعة تحت قيادة اسفنديار.

#### نعيم بن مقرن في مواجهة اسفنديار في "واج رود"<sup>(١٠٩)</sup> ٥٢٢هـ / ٦٤٢م

لما تزايدت القوات التي حشدتها اسفنديار، وبدأت تتقدم نحو نعيم من جهات مختلفة: الديلم وعلى رأسهم أمير يسمى "موتا"، وأهل الري يقودهم الزينبي أبو الفرخان، وأهل أذربيجان وعليهم اسفنديار، وكانت هذه الجيوش تتجه إلى واج رود، بعث نعيم بن مقرن بجماعات استطلاع تأتيه بأخبار التجمعات المعادية وتحركاتها، ثم غادر همذان - بعد أن ترك فيها حامية - وتحرك بقواته حتى أصبح في مواجهة مباشرة مع جيوش الفرس التي لم تمنحه فرصة للراحة، حيث سارعت بشن هجوم مفاجئ صمد له المسلمون، واشتد القتال، ولم يأت المساء إلا وكانت قوات الفرس قد انهزمت بعد أن قتل المسلمون منهم عدداً كبيراً، وبعث نعيم بأنباء الانتصار إلى عمر بالمدينة<sup>(١١٠)</sup>.

وقال ابن الأثير<sup>(١١١)</sup> "وكانت وقعة عظيمة تعدل نهاوند، فانهزم الفرس هزيمة قبيحة، وقتل منهم مقتلة كبيرة لا يحصون. وقتل ملك الديلم موتاً، وتمزق شملهم، وانهزموا بأجمعهم فكان نعيم بن مقرن أول من قاتل الديلم من المسلمين، وقد كان نعيم كتب إلى عمر يعطيه باجتماعهم فهمه ذلك، واغتم له، فلم يفجأه إلا البريد بالبشارة، فحمد الله وأثنى عليه، وأمر بالكتاب فقري على ناس ففرحوا وحمدوا الله عز وجل".

وبمناسبة هذا الانتصار العظيم في واج روز قال نعيم بن مقرن شعراً منه<sup>(١١٢)</sup>:

ولما أتأني أن موتاً ورهطه	بني باسل جروا جنود الأعاجم
نهضت إليهم بالجنود مسامياً	لأمنع منهم ذمتي بالقواصم
إلى أن يقول:	
تبغضاهم حتى أوا في شعارهم	فقتلهم قتل الكلاب الجواجم
كأنهم في واج روز وجوه	ضنين أصابتها فروج المخارم

### نعيم يزحف إلى الري<sup>(١١٣)</sup> ٥٢٢/٦٤٢م

"أما بعد: فاستخلف على همذان وسر حتى تقدم الري، وتلقى جمعهم ثم أقم بها، فإنها أوسط تلك البلاد وأجمعها لما تريد"<sup>(١١٤)</sup> بهذه الأوامر بعث الخليفة عمر إلى نعيم بن مقرن حيث تجمعت قوات الفرس والديلم، المنهزمة في واج روز، في الري، وكان ملكها - سياوخش بن مهران - قد أيقن أن المسلمين سيهاجمونه بعد أن يفرغوا من معركة واج روز، لذلك: طلب المدد من ولايات فارسية أخرى<sup>(١١٥)</sup> فأمدوه بقوات كبيرة حتى أصبحت قواته ضعف قوات نعيم عدداً وعدة، وتحصنت القوات داخل الري وهي ذات مناعة وقوة.

وحين انسحب الزينبي بقواته منهزماً في واج روز، اتجه إلى الري وانضم للقوات الفارسية المتمركزة هناك بقيادة سياوخش. وقد حدث خلاف بين الزينبي وسياوخش ملك الري، إذ عنف الأخير الزينبي لانتهزاه أمام المسلمين، وعزله عن عمله، فغضب الزينبي وقرر الانضمام إلى نعيم وحالفه<sup>(١١٦)</sup>.

وبدأ القتال واشتد، حتى مضى يوم دون حسم بسبب الحصون، فدل الزينبي نعيماً على طريق يدخلون منه المدينة، فقامت معه كتيبة فرسان ودخلت المدينة ليلاً، وأخذت المدافعين عن المدينة على غرة، فانهزموا، فدخل نعيم المدينة، وأمعن المسلمون في قتل أهلها، وفر ملك الري، وصالح نعيم الزينبي وعينه ملكاً مكان سياوخش، وهدم قلاع المدينة، وخرّب حصونها، ثم كتب إلى الخليفة عمر بالفتح<sup>(١١٧)</sup>.

ثم مال نعيم بقواته إلى دنباوند - تقع على جبل قريب من الري - فلما علم ملكها - اسمه مراد نشاه - بمسير نعيم إليه راسله في الصلح على شيء يفتدى به منهم، من غير أن يسأله النصر والمنعة، فقبل منه، وكتب بينه وبينه كتاباً على غير نصر ولا معونة<sup>(١١٨)</sup>.

نعيم بن مقرن يتمركز وأخوه سويد يجتاح باقي المدن:

نعيم بن مقرن يتمركز وأخوه سويد يجتاح باقي المدن:

بعد استيلاء نعيم بن مقرن على همذان وواج روذ والري وديباوند وما حولها، استقر بجنوده في هذه المناطق في انتظار أوامر جديدة.

وبالفعل: فقد كتب الخليفة عمر، رضى الله عنه، إلى نعيم أن قدم سويد بن مقرن إلى قومس<sup>(١١٩)</sup> وكان سويد في جيش أخيه نعيم في الفتوحات الأخيرة، فترأس جيشاً وترك الري متوجهاً إلى قومس، فلم يجد مقاومة تذكر، وبعد حصار سهل لقومس؛ أخذها سلماً وعسكر بها، وكتب لهم كتاب صلح<sup>(١٢٠)</sup>

سويد يفتح جرجان<sup>(١٢١)</sup> وطبرستان<sup>(١٢٢)</sup> ٦٤٢/٢٢ م:

تقدم سويد بقواته وعسكر في بسطام<sup>(١٢٣)</sup>، وبعث إلى ملك جرجان يدعوه إلى الصلح أو القتال أو الإسلام، فبعث إليه ملك جرجان يطلب الصلح، فصالحه سويد على جزية يؤديها أهلها، ولهم الذمة والمنعة والأمان على أنفسهم وأموالهم وشرائعهم<sup>(١٢٤)</sup>.

وبمناسبة إنجاز هذا الصلح، قال أحد المسلمين شعراً منه<sup>(١٢٥)</sup>:

بلغ أسيداً أن عرضت بأننا	بجرجان في خضر الغياض النواضر
فلما أحسونا وخافوا صوالنا	أتانا بن صول راغماً بالجرائر
وأدى إلينا الخرج عن كل كورة	أقامت بها أخرى الليالي الغواير
وهل لكم في العيش غضا فإبني	أرى العيش قد ولى بتلك الحظائر

ولاحظ ملك طبرستان أن المسلمين قد أحاطوا به من الجنوب والشرق، فقد استولوا على الري، وصالحوا أهل جرجان، فأثر مصالحتهم، وراسل سويداً في الصلح على أن يتوادعا، ويجعل له شيئاً على غير نصر ولا معونة على أحد، فقبل ذلك منه، وكتب له كتاباً<sup>(١٢٦)</sup>.

انتهت - إذن - حروب العراق وفارس في عهد عمر بن الخطاب - رضى الله عنه -<sup>(١٢٧)</sup> وانتهت معها الإمبراطورية الفارسية على أيدي المسلمين.

وهكذا: كان المسلمون يواجهون، في قتالهم الفرس، عدواً فاقهم في كل نواحي المعركة فناً وعدداً وممارسة سابقة، على مستوى لم يعهده المسلمون من قبل، وبرغم هذا الفارق الكبير، فقد خاض المسلمون فوق أرض العراق وفارس المعارك، وواجهوا جيوش الفرس على كثرة عددها ووفرة عدديتها، وانتصر المسلمون ودانت لهم كل بلاد العراق وفارس.

## الخاتمة

وبعد استعراضنا لهذا البحث يمكن استنتاج بعض النقاط، منها:

أولاً: أن النعمان بن مقرن وإخوته عاشوا داخل قبيلة مزينة، وهي العيشة التي لم تكن تختلف عن عيشة بقية القبائل في الجزيرة العربية.

ثانياً: أن عددهم لم يكن سبعة فقط، وإنما أثبت البحث أنهم كانوا أكثر من عشرة، وإن لم يشتهر منهم إلا البعض فقط.

ثالثاً: نال أبناء مقرن مكرمة في الإسلام لم ينلها غيرهم، كإخوة عشرة أسلموا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله، وكانوا ضمن أول وفد من مضر يشهر إسلامه.

رابعاً: وبمجرد إشهارهم الإسلام انخرطوا في العسكرية الإسلامية، وبدأيتهم معركة الخندق.

خامساً: تميز بعضهم بأنهم من الذين حملوا ألوية رسول الله، فأسند إليهم قيادة قبيلتهم في الغزوات لكفاءتهم، وكان يعز عليهم أن تفوتهم غزوة من الغزوات، فقد كانوا حريصين على متابعة القتال في سبيل الله.

سادساً: قاد النعمان بن مقرن وإخوته جيش المسلمين - تحت إشراف الخليفة أبي بكر - في التصدي للمرتدين والمنتبئين الذي أغاروا على المدينة عقب وفاة الرسول مباشرة، وأوقعوا بهم الهزيمة في معركة عرفت "بذي القصة".

سابعاً: ولثقة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - في قيادة أبناء مقرن بسبب كفاءتهم، فقد أسند قيادة أحد الألوية التي وجهها لقتال المرتدين، في مواطنهم في أرجاء شبه الجزيرة العربية لواحد منهم وهو: سويد بن مقرن الذي كانت وجهته إلى مرتدي تهامة باليمن.

ثامناً: وحين أنشب الخليفة أبو بكر القتال على جبهتي الفرس والروم في وقت واحد، كان قدر أبناء مقرن أن يكونوا ضمن الجيش الذي توجه للعراق بقيادة: خالد بن الوليد رضي الله عنه، وشهدوا معه فتح العراق العربي، وكان لهم أثر عسكري واضح في فتح مدنها.

تاسعاً: كذلك كان لهم دور دبلوماسي أثناء فتح العراق، حيث وقع الاختيار على النعمان بن مقرن من قبل سعد بن أبي وقاص، ليقود وفد الدبلوماسية الإسلامية إلى ملك الفرس، وقد أجاد في مهمته أثناء حديثه مع يزجرد.

عاشراً: وعلى الرغم من الفتوحات الإسلامية الكثيرة التي جاءت على أيدي النعمان وإخوته، إلا أنهم زهدوا في تولى مناصب إدارية حتى لا تجعلهم يركنون للدنيا، فقد كانت ساحات القتال رغبتهم.

أحد عشر: دفع الخليفة عمر بأبناء مقرن كقادة عسكريين لفتح بلاد فارس، فقاد كل من النعمان جيشاً، وأخوه نعيم جيشاً للاشتراك في فتح مدن الأهواز مع باقي القادة الآخرين.

ثاني عشر: وحين أعاد الفرس تنظيم صفوفهم بالقرب من نهاوند لخوض معركة فاصلة مع المسلمين، لم يجد عمر - ومعه كبار الصحابة في المدينة - أفضل من النعمان بن مقرن لقيادة المسلمين في هذه المعركة، والتي سميت 'بفتح الفتوح' بعد انتصار المسلمين.

ثالث عشر: عمل تحت قيادة أبناء مقرن كبار الصحابة في معارك فتح بلاد فارس - مثل حذيفة بن اليمان، وعمار بن ياسر، وعبد الله بن عمر - وهذه منقبة عظيمة لهم.

رابع عشر: وعلى الرغم من مقتل النعمان في معركة نهاوند - بعد أن قرت عيناه بالفتح - إلا أن باقي إخوته، كنعيم وسويد، أكملوا عملية الإنسياح في بلاد فارس كقادة ميدانيين، ونجحوا في فتح أجزاء عدة منها.

خامس عشر: ويتضح من عهود الأمان التي كتبها القادة من أبناء مقرن لأهالي البلاد المفتوحة، أن الإسلام دين عدل وإنصاف في ضوء: فرضت الجزية لحماية المغلوبين في أموالهم وعقائدهم وأعراضهم - لم تفرض جزية على الأطفال والنساء والمرضى - لا يدفع الجزية من يشترك مع المسلمين في عمل عسكري - وضمنت هذه العهود حرية العقيدة والتنقل والأمان للمغلوبين.

وأخيراً...

إن كفاءة أبناء مقرن التي ظهرت في الغزوات أيام الرسول - ﷺ - هي التي رشحتهم لأبي بكر ليسند إليهم قيادة جوانب من حروب الردة بعد وفاة الرسول، وهي التي رشحتهم لعمر بن الخطاب فأسند لهم قيادة الجيوش في معارك كبرى في فتح العراق وفارس - كمعركة نهاوند مثلاً - وقد أجادوا في ذلك وجادوا بأرواحهم في سبيل رفعة الإسلام ونشره، وستظل العسكرية الإسلامية تتذكر النعمان بن مقرن وإخوته بكل فخر واعتزاز.

## الهوامش

- (١) ابن حزم "أبو محمد علي بن أحمد بن سعد" - جمهرة أنساب العرب - دار المعارف - مصر سنة ١٩٤٨م ص ٤٨٠، السمعاتي "أبو سعد عبد الكريم بن محمد" - الأنساب - تحقيق/ عبد الله عمر البارودي دار الجنان - بيروت ط (١) ١٩٩٨م ح ٥ ص ٢٧٧.
- (٢) الوزير المغربي "الحسين بن علي بن الحسين" - الإيناس بعلم الأنساب تحقيق: المرحوم حمد الجاسر - الرياض ١٩٨٠م ح ١ ص ١٢، ابن خلدون "ولي الدين عبد الرحمن بن محمد" - العبر وديوان المبتدأ والخبر - بيروت - لبنان سنة ١٩٦٨م ح ٢ ص ٣١٨.
- (٣) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٦١م ح ٥ ص ٣٥٧.
- (٤) ياقوت الحموي "ياقوت بن عبد الله الرومي" - معجم البلدان - دار الفكر - بيروت - لبنان - بدون تاريخ ح ٢ ص ٧٢، ٢٩٢، ١٦٤، ٢٥٧، ٤٤٧، ح ٣ ص ٢٥٤، ٣٤٦، ٣٤٩، ح ٤ ص ١٥٦، ٢٨٥، وثبير هذا: هو الموضع الذي أقطعه النبي - ﷺ - شريحاً بن ضمرة المزني، وهو أول من حمل صدقته للنبي.
- (٥) ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ٢ ص ٨٧، ح ٣ ص ١١٤، ٤٣٢، ٣٤٢، ووادي العقيق: أقطعه النبي - ﷺ - بلالا بن الحارث المزني.
- (٦) ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ٢ ص ٣٧٤، ٣٤٥، ح ٣ ص ٧٥، ٢٦٦، ٢٧٧.
- (٧) "عبد الملك بن هشام بن أيوب" - السيرة النبوية - دار الفجر للتراث - القاهرة مصر ط (٢) ٢٠٠٤م ح ٣ ص ١٦٥.
- (٨) وجبل "عينب" هو الجبل الذي أقطعه النبي - ﷺ - لمعقل بن سنان المزني. ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ٤ ص ١٧٤.
- (٩) محمود عرفة محمود: العرب قبل الإسلام - أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حضارتهم - دار الثقافة - مصر سنة ٢٠٠٤م ص ٢٨١. وقد امتلك أهل مزينة بئرا في المدينة يبيعون للناس مياهها وهي بئر رومة، وكانت رومه امرأة منهم تبيع الماء للناس فنسبت إليها، ثم اشتراها عثمان بن عفان رضي الله عنه بأربعمائة دينار فتصدق بها على المسلمين، فدعا له النبي ﷺ فقال "اللهم أوجب له الجنة" ابن شبة "أبو زيد عمر بن شبة البصري" تاريخ المدينة المنورة - تحقيق/ فهمي محمد شلتوت - دار الأصفهاني للطباعة - جدة سنة ١٩٧٤م، ح ١ ص ١٥٤.

- (١٠) خزاعي بن عبد نهم بن ربيعة بن عدى بن نؤيب المزني، أخو عبد الله ذي البجادين لأبويه، وعم عبد الله بن مغفل بن عبد نهم، أسلم مع وفد مزينة في العام الخامس الهجري، ودفع له رسول الله - ﷺ - لواء مزينة يوم الفتح ابن سعد: الطبقات الكبرى ح ١ ص ٢٩١.
- (١١) الكلبي "أبو المنذر هشام بن محمد السائب" - كتاب الأصنام - دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٤م ص ٣٩، ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ٤ ص ٢٦٢، ابن قيم الجوزية "شمس الدين محمد بن أبي بكر" - زاد المعاد في هدى خير العباد - مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان - سنة ١٩٨٢ ح ٣ ص ٥٤٥، ابن حجر الصقلاني: الإصابة ح ٢ ص ٢٧٦.
- (١٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ح ١ ص ٢٩١، السيوطي "جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر" - الخصائص الكبرى - دار الكتب العلمية - بيروت - سنة ١٩٨٥م ح ٢ ص ٣٨.
- (١٣) ابن الجوزي "عبد الرحمن بن علي بن محمد" - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم تحقيق/ محمد عبد القادر مصطفى، وعطا عبد القادر مصطفى - دار الكتب العلمية - بيروت ط (١) ١٩٩٢م ح ١ ص ٣٤٢، ابن قيم الجوزية: زاد المعاد ح ٣ ص ٥٤٥، ابن كثير "إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي" البداية والنهاية - مكتبة المعارف - بيروت - بدون تاريخ ح ٥ ص ٤١.
- (١٤) بعث: هو حصن لأوس على ليلتين - ٨٩ كيلو متراً تقريباً - من المدينة وكان يوم بعث آخر العداة والقتال بين الأوس والخزرج، وكان ذلك قبل الهجرة بثلاث سنين، فلما هاجر النبي - ﷺ - ظهر الله به قلوبهم من هذه الإحن، وأنعم عليهم بأخوة الإسلام ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ١ ص ٤٥١.
- (١٥) ابن خلدون: العبر ح ٢ ص ٢٨٩، جواد علي: المفصل ح ٥ ص ٢٣٠.
- (١٦) النعمان بن مقرن بن عائذ بن ميجا بن هجير بن نصر بن حبشية أبو عمرو المزني، كان صاحب لواء مزينة يوم فتح مكة وحنين، وقائد معركة نهاوند حيث استشهد بها سنة ٢١هـ/٦٤١م.
- ابن سعد: الطبقات الكبرى ج ٦ ص ١٨، ١٩، ابن عبد البر: الاستيعاب ح ١ ص ٤٧٥.
- (١٧) سويد بن مقرن بن عائذ أبو عدى المزني، أخو النعمان بن مقرن بطل الإسياح في بلاد فارس، فتح همذان، والري، وجرجان، ابن سعد: الطبقات الكبرى: ح ٦ ص ١٩، ابن حجر الصقلاني "أحمد بن علي بن حجر" - الإصابة في تمييز الصحابة - تحقيق / علي محمد البجاوي - دار الجبل - بيروت ط (١) ١٤١٢هـ - ح ٣ ص ٢٢٩.

- (١٨) نعيم بن مقرن: أبو عمارة المزني، أخو النعمان، خلف أخاه النعمان حين قتل بنهاوند، وكانت على يديه فتوح، وهو وأخوه من جلة الصحابة وكانوا من وجوه مزينة، وكان عمر بن الخطاب يعرف لنعيم والنعمان موضعهما ابن عبد البر: الاستيعاب ح ١ ص ٤٧٦، ابن حجر العسقلاني: الإصابة ح ٣ ص ١٩٩.
- (١٩) سنان بن مقرن المزني أخو النعمان، له صحبة، قال ابن مندة: له ذكر في المغازي. ابن عبد البر: الاستيعاب ح ١ ص ١٩٩ ابن حجر العسقلاني: الإصابة ح ٣ ص ١٩٠.
- (٢٠) معقل بن مقرن أبو عمارة المزني أخو النعمان، أثناء فتح خالد بن الوليد للعراق أرسله إلى "الأبلة" ففتحها، وجمع الأموال بها وسبى ابن سعد: الطبقات الكبرى: ح ٦ ص ١٩ ابن عبد البر: الاستيعاب ح ١ ص ٤٥٠.
- (٢١) عقيل بن مقرن أبو حكيم المزني، قال ابن حجر العسقلاني: ذكره البخاري في الصحابة، وذكره الواقدي فيمن نزل الكوفة الإصابة ح ٤ ص ٥٣٢، وينظر أيضاً: ابن سعد: الطبقات الكبرى ح ٦ ص ١٩، وابن عبد البر: الاستيعاب ح ١ ص ٣٢٢.
- (٢٢) عبد الرحمن بن مقرن المزني، قال ابن سعد: له صحبة، ويقال: كان اسمه عبد عمرو بن مقرن، فغيره النبي ﷺ - الطبقات الكبرى ح ٦ ص ١٩، ابن حجر العسقلاني: الإصابة ح ٤ ص ٣٣٥، ٣٦٣.
- (٢٣) الأبناسي برهان الدين إبراهيم بن موسى بن أيوب الشذا الفياح من علوم ابن الصلاح، تحقيق/ صلاح فتحي هليل - مكتبة الرشد الرياض - السعودية ط (١) ١٩٩٨ م ح ٢ ص ٥٤٨.
- (٢٤) كان مع خالد بن الوليد أثناء فتح الحيرة سنة ١٢٣هـ / ٦٣٣ م ، وقال ابن حجر العسقلاني: ... وأن خالد بن الوليد أمره لما حاصر الحيرة، وكانوا لا يؤمرون إلا الصحابة ابن الأثير (أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم) - أسد الغابة في معرفة الصحابة - تحقيق د. محمد البنا - ود. محمد عاشور - دار الشعب - مصر ١٣٩٣هـ - ح ٢ ص ٣٢، ابن حجر العسقلاني: الإصابة ح ٣ ص ٤٨٥.
- (٢٥) كان على مسيرة جيش أبي بكر في ذي القصة، روى عنه ابن سيرين، وعبد الملك بن عمير. ابن الأثير: أسد الغابة ح ٢ ص ١٧٨، ابن حجر العسقلاني: الإصابة ح ٣ ص ٤٨٥.
- (٢٦) قال ابن حجر العسقلاني أحد الإخوة، ذكره الطبري في الصحابة، أمره خالد بن الوليد على شن من العراق حين توجه إلى الشام في خلافة أبي بكر. الإصابة ح ٣ ص ١١٥.
- (٢٧) لم يزد ابن حجر العسقلاني على قوله: ومعاوية بن مقرن المزني معروف هو وأخوته. الإصابة ح ٣ ص ١٠٦.



(٢٨) أحد الإخوة، له ذكر في الفتوح، بعثه أخوه نعيم بن مقرن إلى 'قومس' ففتحها صلحاً، وكتابه صاحب جرجان فصالحه على الجزية، وقد رجح ابن حجر أن 'سواد' هذا هو 'سويد' لعله لقب بالتصغير. الإصابة ح ٢ ص ٢٢٦.

(٢٩) العصامي 'العصامي بن الحسين بن عبد الملك' - سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي - بغاية: قاسم درويش فخرو، القاهرة ١٣٧٩هـ - ح ١ ص ٣٥٧.

(٣٠) مسلم 'أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم' - الجامع الصحيح دار الجبل - بيروت ودار الآفاق الجديدة - بيروت - بدون - ح ٥ ص ٩١.

(٣١) ابن عبد البر: الاستيعاب ح ١ ص ٤٧٦، الأبناسي: الشذا الفياح ح ٢ ص ٥٥٣، ابن حجر العسقلاني: الإصابة ح ٣ ص ١٩٩.

(٣٢) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري - دار المعرفة - بيروت سنة ١٣٧٩هـ - ح ٦ ص ٥٤٣، ٥٥٢.

(٣٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى ح ٦ ص ١٨، ١٩، ٢٠، الحاكم 'محمد بن عبد الله بن محمد' - المستدرک علی الصحیحین وبهامشه تلخیص المتشابه للذهبي - تحقيق/ مصطفى عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية - بيروت ط (١) ١٩٩٠م ح ٣ ص ٣٣٢، ابن الجوزي: المنتظم ح ٢ ص ٣٢، الذهبي 'محمد بن أحمد بن عثمان' - سير أعلام النبلاء - تحقيق/ شعيب الأرنؤوط وآخرين - مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان ١٩٨١م ح ١ ص ٤٠٣.

(٣٤) منهم: سلمان الفارسي، وحذيفة بن اليمان، وعمرو بن عوف المزني، بالإضافة إلى ستة من الأنصار.

(٣٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى ح ٤ ص ٨٣، الطبري: تاريخ ح ٢ ص ٩٢، ابن الجوزي: المنتظم ح ٢ ص ٣٢، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ح ١ ص ٣٠٤، ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ج ٧ ص ٢٧٩، ٢٨٠.

(٣٦) الطبراني 'سليمان بن أحمد بن أيوب' - المعجم الكبير - تحقيق/ حمدي عبد المجيد السلفي - مكتبة العلوم والحكم - الموصل ط (٢) ١٩٨٣ ح ١١ ص ٦٠، الذهبي: سير أعلام النبلاء ح ١ ص ٤٠٣، الهيثمي 'تور الدين علي بن أبي بكر' - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد - دار الفكر - بيروت - لبنان. سنة ١٩٨٨م ح ٦ ص ٢١٦.

(٣٧) الواقدي 'أبو عبيد الله محمد بن عمر' مغازي رسول - تحقيق/ د. مارسدن جونس - عالم الكتب - بيروت - لبنان ط (١) ٢٠٠٦م ص ٥٤٠، ابن الجوزي: المنتظم ح ٢ ص ١٩٤.

(٣٨) المصدر السابق. ص ٥٤١، ٥٩٨، ٥٩٩.

- (٣٩) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج ٣ ص ٢١٨ ، ابن حجر الصقلاني: فتح الباري ج ٨ ص ٨٧ ، ابن كثير: البداية والنهاية ج ٢ ص ٥ ، والآية من سورة التوبة رقم ٢٣
- (٤٠) أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة - محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية - مكتبة العبيكان - الرياض ط (٥) ٢٠٠٣ م ، ج ٢ ص ٥٢٤ ، وذكر أن تبوك تبعد عن المدينة المنورة ٧٧٨ كم حسب الطريق المعبدة في الوقت الحاضر والآية من سورة التوبة رقم ٩٢ .
- (٤١) الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن - تحقيق/ أحمد محمد شاكر مؤسسة الرسالة - بيروت ط (١) ٢٠٠٠ م ج ١٤ ص ٤٢١ ، ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير المكتب الإسلامي - بيروت ط (٣) ١٤٠٤ هـ - ج ٣ ص ٢١٨ ، البغوي 'أبو محمد الحسين بن مسعود' - معالم التنزيل - تحقيق/ عثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الخراشي - دار طيبة ط (٤) ١٩٩٧ م ج ٤ ص ٨٦ ، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم - تحقيق/ سامي بن محمد بن سلامة - دار طيبة للنشر والتوزيع ط (٢) ١٩٩٩ م ج ٤ ص ١٩٩ ، السيوطي: لباب النقول في أسباب النزول - دار إحياء التراث - بيروت - بدون ، ج ١ ص ١٩٥ .
- (٤٢) 'محمد بن أحمد الأنصاري' - أحكام القرآن - تحقيق/ محمد البيلوي وآخرين - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان - بدون ، ج ٨ ص ٢٢٨ ، ويراجع أيضا: الواحدى 'أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري' - أسباب النزول دراسة وتحقيق/ السيد الجميلي - دار الريان للتراث - مصر - بدون - ص ٢١٠ ، الرازي 'محمد بن عمر بن الحسن' - مفاتيح الغيب - دار الفكر - بيروت - ط (٣) ١٩٨٥ م ج ٨ ص ١٢١ ، أبو السعود 'محمد بن محمد بن مصطفى' - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم - دار إحياء التراث - بيروت - بدون تاريخ ج ٣ ص ٦١ ، وقد استطاع يامين بن عمير النضري، والعباس بن عبد المطلب، وعثمان بن عفان - رضوان الله عليهم - تمويل بعضهم فخرجوا مع النبي - ﷺ - الواقدي: مغازي ص ٦٥٨ ، ابن سيد الناس 'أبو الفتوح محمد بن محمد' عيون الأثر في فنون المغازي والشمايل والسير - دار الفكر ودار الآفاق مصر ١٩٨٢ م ج ٢ ص ٢٥٤ ، ابن قيم الجوزية: زاد المعاد ج ٣ ص ٤٦٠ .
- (٤٣) ابن حجر الصقلاني: فتح الباري ج ٨ ص ١٢٦ .
- (٤٤) الطبري: تفسير ج ١٤ ص ٤٣٣ ، البغوي: معالم التنزيل ج ٤ ص ٨٦ ، القرطبي: أحكام القرآن ج ٨ ص ٢٣٥ ، ابن حجر الصقلاني: الإصابة ج ٣ ص ١٩٥ ، والآية من سورة التوبة رقم ٩٩ .

- (٤٥) ذي القصة: موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً - ٤٤ كيلومتراً تقريباً - وهو طريق الربذة ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ٤ ص ٣٦٦.
- (٤٦) الطبري: تاريخ ح ٢ ص ٢٥٥، وذكر أن الأربعة الصحابة هم: علي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم جميعاً
- (٤٧) عن موقعة ذي القصة يراجع: الطبري: تاريخ ج ٢ ص ٢٥٥، ابن الجوزي: المنتظم ج ١ ص ٤٧٧، ابن الأثير: الكامل ح ٢ ص ٢٤٣، ابن خلدون: العبر ج ٢ ص ٦٦.
- (٤٨) الطبري: تاريخ ح ٢ ص ٢٥٧، ابن كثير: البداية والنهاية ح ٦ ص ٣١٥، ابن خلدون: العبر ح ٢ ص ٦٩.
- (٤٩) المثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضم... ابن شيبان، صحابي فاتح، من كبار القادة، أسلم سنة ٦٣٠هـ/٦٣٠م، وغزا بلاد الفرس أيام أبي بكر، وشهد عدة وقائع في أيام عمر، وتوفي متأثراً بجراحه سنة ١٤هـ/٦٣٥م، ابن سعد: الطبقات الكبرى ح ٧ ص ٢٣٩، ٢٩٧، ابن الأثير: أسد الغابة ح ١ ص ٩٧٢، ابن حجر العسقلاني: الإصابة ح ٥ ص ٧٦٦.
- (٥٠) الطبري: تاريخ ح ٤ ص ١٩، ابن عبد البر: الاستيعاب ح ٣ ص ٤٩٧، البحرين: اسم جامع لبلاد على ساحل الخليج العربي، بين البصرة شمالاً وعبان جنوباً. ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ١ ص ٣٤٦.
- (٥١) الطبري: تاريخ ح ٢ ص ٣١١، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ح ١ ص ٣٨٣، ابن كثير: البداية والنهاية ح ٦ ص ٣٧٩، والأبلة: في موقع البصرة الحالية، وكانت الأبلة مرسى السفن الوافدة من الهند والسند، وقد كانت أعظم موانئ فارس شأنًا. ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ١ ص ٧٧.
- (٥٢) مثل: المذار، والولجة، وأليس، وأمغيشيا.
- (٥٣) نشأت إمارة الحيرة سنة ١٦٥م أو ٢١٢م مع قيام الدولة الساسانية في فارس، وكانت على حافة سواد العراق وحافة البادية تبعد عن موضع الكوفة نحو فرسخ = ٥,٥ كيلو متر. ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ٢ ص ٣٢٨.
- (٥٤) أحمد عادل كمال: الطريق إلى المدائن - دار النفائس - بيروت ط (٢) ١٩٧٣م ص ٢٢٦.
- (٥٥) خلف خالد سويد بن قطبة الذهلي على ناحيته من منازل بني ذهل من جهة البصرة، وقطبة بن قتادة بن جرير السدوسي على جهته، وشريح بن عامر بن قين من بني سعد بن بكر بن هوازن على الخريبة. البلاذري. فتوح البلدان - تحقيق/ صلاح الدين المنجد

- مصر سنة ١٩٥٦م ح ٢ ص ٤١٨. ابن عبد البر: الاستيعاب ح ٣ ص ٢٤٧، ابن حجر العسقلاني: الإصابة ح ٥ ص ٤٤٥.

(٥٦) الطبري: تاريخ ح ٢ ص ٣١٢، ابن كثير: البداية والنهاية ح ٦ ص ٣٤٥، أحمد عادل كمال: الطريق إلى المدائن ص ٢٢٧، والحفير أول منزل لمن يريد مكة من البصرة، ويبعد عن البصرة أربعة أميال - حوالي سبعة كيلو مترات - ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ٢ ص ٢٧٧.

(٥٧) حاصر ضرار بن الأزور الأسدي 'القصر الأبيض'، وحاصر ضرار بن الخطاب الفهري 'قصر العدسيين'، وحاصر ضرار بن مقرن 'قصر بني مازن'، وحاصر المثنى بن حارثة الشيباني 'قصر ابن ببيعة'.

(٥٨) الطبري: تاريخ ح ٢ ص ٣١٦، ابن الجوزي: المنتظم ح ١ ص ٤٥٠، ابن الأثير: أسد الغابة ح ٢ ص ٣٢.

(٥٩) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ح ١ ص ٣٨٣، ابن خلدون: العبر ح ٢ ص ٧٩.

(٦٠) محمد فرج: الفتح العربي للعراق وفارس - تقديم/ أحمد حسن الباقوري - دار الفكر العربي - مصر ١٩٦٦م ص ٩١.

(٦١) البلاذري: فتوح البلدان ص ٦٠٧، وتستمر: مدينة كبيرة ذات أسوار منيعة وأبراج، وكانت أعظم مدينة بالأهواز. ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ١ ص ٤١٣.

<http://Archivebeta.Sakhrif.com>

(٦٢) الطبري: تاريخ ح ٢ ص ٣١٢، ٣١٦.

(٦٣) القادسية: موقع شرقي نهر الفرات جنوبي الكوفة، على سيف الصحراء، جرت فيه معركة القادسية سنة ١٤هـ / ٦٣٥م. ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ٤ ص ٢٩١.

(٦٤) مثل: معركة الأنبار، وعين التمر، والفراض، وبابل، والجسر، والبويب، وسوق الخنافس، وتكريت.

(٦٥) الطبري: تاريخ ح ٣ ص ١٤.

(٦٦) الكلاعي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء - تحقيق/ محمد كمال الدين عز الدين علي - عالم الكتب - بيروت ط (١) ١٤١٧هـ - ح ٤ ص ١٥٦.

(٦٧) وهم: النعمان بن مقرن، وبسر بن أبي رهم، وحملة بن جوية الكناني، وحنظله بن الربيع التميمي، وفرات بن حيان العجلي، وعدى بن سهيل، والمغيرة بن زرارة بن النباش بن حبيب، وعطارد بن حاجب التميمي، والأشعث بن قيس الكندي، والحارث بن حسان الذهلي، وعاصم بن عمرو التميمي، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي، والمغيرة بن شعبة

الثقفي، والمعنى بن حارثة الشيباني. الطبري: تاريخ ح ٣ ص ١٧، ابن الأثير: الكامل ح ١ ص ٤١٠.

(٦٨) الطبري: تاريخ ح ٢ ص ٣٩١، ٣٩٢، ابن الجوزي: المنتظم ح ١ ص ٤٧٣، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ح ١ ص ٤١٠، الكلاعي: الاكتفاء ح ٤ ص ١٥٦ ابن كثير: البداية والنهاية ح ٧ ص ٤١، ابن خلدون: العبر ح ٢ ص ٩٣.

(٦٩) الطبري: تاريخ ح ٢ ص ٤٢٧، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ح ١ ص ٤١٥، الكلاعي: الاكتفاء ح ٤ ص ١٤٦.

(٧٠) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ح ٩ ص ٤٢٧.

(٧١) المدائن: عبارة عن مدينتين متقابلتين إحداهما على الشاطئ الغربي لدجلة وهي المدائن الدنيا أو بهرسير، وقد بناها السلوقيون خلفاء الإسكندر المقدوني وكان يسكنها طبقة العامة من الفرس، والثانية على الشاطئ الشرقي لدجلة وهي المدائن العليا وقد بناها ملوك الفرس وبها إيوان كسرى (القصر الأبيض). ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ٥ ص ٧٤، لسترنج كي: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة: بشير فرنسيس وكوركيس عواد - مؤسسة الرسالة - بيروت ط (٢) ١٩٨٥ م، ص ٣٤.

(٧٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ح ١ ص ٤٣٣، الكلاعي: الاكتفاء ح ٤ ص ٢٥٢.

(٧٣) تعد مدينة حلوان في العراق هي حد العراق العربي الذي كان محتلاً من الفرس، وكان المسلمون قد احتلوا حلوان، وتمكنوا من الاستيلاء على تكريت والموصل من أرض الجزيرة. ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ٢ ص ٢٩٠، لسترنج: بلدان الخلافة ص ٩٧، ٩٨.

(٧٤) الطبري: تاريخ ح ٣ ص ١٣١، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ح ١ ص ٤٣٤.

(٧٥) كسكر: كورة واسعة في العراق العربي كانت مدينة واسط قصبته، قيل سميت بكسكر بن طهمورت الملك الذي هو أصل الفرس. فتحها النعمان بن مقرن صلحاً سنة ١٤هـ / ٦٣٥م. من قبل سعد بن أبي وقاص. البكري 'أبو عبد الله بن عبد العزيز'. معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع - القاهرة سنة ١٩٥٤م ح ٣ ص ٤٨٢، ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ٣ ص ٤٨٢.

(٧٦) ابن المبارك 'عبد الله بن المبارك بن واضح' - الزهد - تحقيق/ حبيب الرحمن الأعظمي - دار الكتب العلمية - بيروت - بدون تاريخ - ح ١ ص ١٧٢، الطبري: تاريخ ح ٢ ص ٥٢٤.

- (٧٧) تقع الأهواز إلى الجنوب الشرقي من العراق، ويجري فيها من فروع دجلة نهير دجيل وكارون، وتفصلها بعض المرتفعات عن العراق العربي، واسمها مختصر من 'سوق الأهواز' وهي قاعدة الإقليم، وهي منطقة خوزستان الآن في إيران. ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ١ ص ٢٨٥، كى لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص ٢٦٧، ٢٦٨.
- (٨٧) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ح ١ ص ٤٤٤.
- (٧٩) الطبري: تاريخ ج ٢ ص ٣١١.
- (٨٠) سميت بذلك نسبة إلى الملك هرمز حفيد أردشير بابكان، وأحياناً كان يختصر اسمها إلى رامز، كان يكثر في أرجائها القمح والقطن وقصب السكر، وهي إحدى مدن إقليم خوزستان في إيران الآن. ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ٣ ص ١٧، لسترنج: بلدان الخلافة ص ٢٥٨.
- (٨١) الطبري: تاريخ ح ٢ ص ٣١١، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ح ١ ص ٤٤٥، وأيدج: بين خوزستان وأصبهان، كثيرة الزلازل والمعادن، وهي وسط الجبال، وكان بها بيت نار قديم كان يوقد إلى أيام الرشيد. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ١ ص ٢٨٨.
- (٨٢) الطبري: تاريخ ج ٣ ص ١٨٠.
- (٨٣) المصدر السابق ج ٣ ص ١٨٢.
- (٨٤) الطبري: تاريخ ح ٣ ص ١٨٢، ابن الجوزي: المنتظم ح ٢ ص ٤٦، الكلاعي: الاكتفاء ح ٤ ص ٢٩٠، ابن كثير: البداية والنهاية ح ٧ ص ٨٥.
- (٨٥) السوس: بلدة بالأهواز، كانت المقر الشتوي لملوك فارس، كما كانت عاصمة لملوك عيلام من قبل، هدمها آشور بانيبال ملك الأشوريين سنة ٦٤٠ ق.م. ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ٣ ص ٢٨٠، لسترنج: بلدان الخلافة ص ٢٧٤.
- (٨٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ح ١ ص ٤٤٦، ونهاوند: مدينة عظيمة تقع شرقي مدينة همذان، بينهما أربعون ميلاً - ٧٤ كيلو متراً -، كان يحمل خراجها مع خراج البصرة، وكانت مدينة جليلة منذ أيام الساسانيين. ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ٥ ص ٣١٣، لسترنج: بلدان الخلافة ص ٢٣٢.
- (٨٧) أبو حنيفة الدينوري 'أحمد بن داود بن وند' - الأخبار الطوال - تحقيق/ عبد المنعم عامر - مطبعة عيسى البابي الحلبي - القاهرة ١٩٦٠ ح ١ ص ١٣٤.
- (٨٨) حلوان: وهي آخر سواد العراق مما يلي إقليم الجبال ليس للعراق مدينة بقرب الجبل غيرها، فتحها جرير بن عبد الله البجلي صلحاً سنة ١٦هـ / ٦٣٧م. ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ٢ ص ٢٩٠، ٢٩١.

(٨٩) الدينوري: الأخبار الطوال ح ١ ص ١٣٤، وذكر أن الذي بعث الرسالة: الصحابي الجليل عمار بن ياسر رضي الله عنه فقد انضم مجموعة كبيرة من الصحابة تحت لواء النعمان خرجوا من المدينة ليحضروا موقعة نهاوند، وكان أميرهم: عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

(٩٠) الدينوري: الأخبار الطوال ح ١ ص ١٣٥، الطبري: تاريخ ح ٢ ص ٥١٢. الكلاعي: الاكتفاء ح ٤ ص ٣٠٢.

(٩١) كتب عمر رضي الله عنه إلى النعمان رضي الله عنه: 'بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإنه قد بلغني أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين، ولا توطنهم وعرأ فتونهم، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم، ولا تدخلهم غيضة، فإن رجلاً من المسلمين أحب إلى من مائة ألف دينار، فسر في وجهك هذا حتى تأتي ماه (يعنى نهاوند) - فإني كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافقوك بها، فإذا اجتمع إليك جنودك فسر إلى الفيرزان ومن جمع معه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم'. الطبري: تاريخ ح ٢ ص ٥١٨، ابن كثير: البداية والنهاية ح ٧ ص ١٠٨.

ARCHIVE

(٩٢) الطبري: تاريخ ح ٢ ص ٥٢٥.

(٩٣) الطبري: تاريخ ح ٣ ص ٢١٤، الكلاعي: الاكتفاء ح ٤ ص ٣٠٤، ابن كثير: البداية والنهاية ح ٧ ص ١٠٩، وقد اعتمد النعمان في جمع المعلومات الحربية على: عمرو بن معدي كرب وطلحة بن خويلد، وجريز بن عبد الله البجلي، وعلباء بن الهيثم، وعمرو بن أبي سلمى المزني، وكانوا أيضاً مستشاريه في الحرب فقط. الطبري: تاريخ ح ٢ ص ٥١٣، ابن حجر العسقلاني: الإصابة ح ٤ ص ٦٨٩.

(٩٤) الدينوري: الأخبار الطوال ح ١ ص ١٣٦، الطبري: تاريخ ح ٣ ص ٢٠٣ والحسك من الحديد: ما كان يلقي حول العسكر ويبث في مذاهب الخيل فينشب في حوافرها، وهو يشبه ما يسمى الآن بالأسلاك الشائكة. ابن منظور 'محمد بن مكرم المصري' - لسان العرب - دار صادر - بيروت - ط (١) - بدون تاريخ - ح ١٠ ص ٤١١، مجمع اللغة العربية بمصر - المعجم الوجيز - طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم بمصر سنة ١٩٩٧ م ص ١٥٠.

(٩٥) الدينوري: الأخبار الطوال ح ١ ص ١٣٦، الطبري: تاريخ ح ٣ ص ٢٠٣.

(٩٦) الحاكم: المستدرک ح ٤ ص ٤٥١، الطبري: تاريخ ح ٣ ص ٢٠٤، وقال ابن حجر العسقلاني: وفي الحديث منقبة للنعمان، وفيه فضل المشورة، وأن الكبير لا نقص عليه

في مشاورة من هو دونه، وأن المفضل قد يكون أميراً على الأفضل، لأن الزبير كان في جيش النعمان، والنعمان أميره، والزبير أفضل منه باتفاق: فتح الباري ح ٦ ص ٢٦٦.

(٩٧) فتح الباري ح ٦ ص ٢٦٦.

(٩٨) الطبري: تاريخ ح ٢ ص ٥٢٧.

(٩٩) الحاكم: المستدرک ح ٣ ص ٣٣٢، وذكر أن الذي جاءه من قبيلته هو: معقل بن يسار المزني.

(١٠٠) ابن سعد: الطبقات الكبرى ح ٦ ص ١٨، البلاذري: فتوح البلدان ص ٣٧٣، الدينوري: الأخبار الطوال ح ١ ص ١٣٥، الطبري: تاريخ ح ٢ ص ٥٢٧، ابن عبد البر: الاستيعاب ح ١ ص ٤٧٥، ابن الجوزي: المنتظم ح ٢ ص ١٣.

(١٠١) محمد فرج: الفتح العربي ص ٢٤٠.

(١٠٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ح ١ ص ٤٤٧.

(١٠٣) الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المرى السعدي المنقري التميمي، سيد تميم، وأحد العظماء الدهاء الفصحاء الشجعان، الفاتحين، يضرب له المثل في الحلم، ولد في البصرة وأدرك النبي - ﷺ - ولم يره، شهد الفتوح في خراسان، واعتزل الفتنة يوم الجمل، ثم شهد صفين مع علي، وولى خراسان، ومات سنة ٧٢هـ/٦٩١م، والأحنف لقبه، واسمه الضحاك. ابن سعد: الطبقات ح ٧ ص ٩٣، الزركلي: الأعلام ح ١ ص ٢٧٦.

(١٠٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ح ١ ص ٤٤٧.

(١٠٥) همذان: إحدى محافظات إيران الآن، وتقع على خط العرض الشمالي ٥٣٥، في الطرف الغربي من جبال زاغروس، إلى الشرق من كرمنشاه، وإلى الغرب من قم، وهي على بعد مائتين وتسعين كيلو متراً للعاصمة طهران، وعلى ارتفاع ١٨٠٠ متراً فوق سطح البحر - يحيى الخشاب: موسوعة المدن العربية الإسلامية - دار الفكر العربي - لبنان ط (١) سنة ١٩٩٣م ص ٢٨١.

(١٠٦) الطبري: تاريخ ح ٤ ص ١٣٤، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ح ٣ ص ١٧.

(١٠٧) أصفهان - أصفهان - مدينة عظيمة من أعلام المدن، من نواحي إقليم الجبال، قيل سميت بأصفهان بن فلوج بن سام بن نوح فتحت في عهد: عمر بن الخطاب سنة ٢٣هـ/٦٤٣م - علي يد عبد الله بن عتبان وقيل علي يد أبي موسى الأشعري، وهي إحدى محافظات إيران الآن. ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ١ ص ٢٠٦ - ٢١٠، لسترنج: بلدان الخلافة ص ٢٣٨.



- (١٠٨) الطبري: تاريخ ح ٤ ص ١٣٤، ١٤٦، ابن الجوزي: المنتظم ح ٤ ص ٣٢، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ح ٣ ص ١٧، ٢٢.
- (١٠٩) واج روذ: موضع بين همذان وقزوين، جرت فيه وقعة بين المسلمين والديلم لا تقل في أهميتها عن وقعة نهاوند. ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ٥ ص ٣٤١.
- (١١٠) الطبري: تاريخ ج ٢ ص ٥٣٧، ٥٣٨، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٧ ص ١٢١.
- (١١١) الكامل في التاريخ ح ٧ ص ١٢١، ويراجع أيضا الطبري: تاريخ ج ٢ ص ٥٣٧، ٥٣٨.
- (١١٢) الطبري: تاريخ ح ٢ ص ٥٣٧، ٥٣٨، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ح ٧ ص ١٢١، ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ٥ ص ٣٤١.
- (١١٣) الري: مدينة تقع في الطرف الشمالي الشرقي من إقليم الجبال، واسمها عند اليونان 'راكس'، وفي المائة الرابعة للهجرة/العاشرة للميلاد خرب أكثرها وتحول أهلها إلى طهران القريبة. ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ٣ ص ١١٦، لسترنج: بلدان الخلافة ص ٢٤٩، ٢٥٠.
- (١١٤) الطبري: تاريخ ح ٣ ص ٢٣٠.
- (١١٥) مثل: دنهاوند وطبرستان وقومس وجرجان.
- (١١٦) الطبري: تاريخ ج ٣ ص ٢٣١.
- (١١٧) الطبري: تاريخ ح ٣ ص ٢٣١، وكتب نعيم لأهل المدينة عهد أمان جاء فيه بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى نعيم بن مقرن، الزينبي بن مهران، أعطاه الأمان على أهل الري ومن كان معهم من غيرهم على الجزاء - الجزية - طاقة كل حال في كل سنة، وعلى أن ينصحوا ويدلوا، ولا يغلوا ولا يسلوا وعلى أن يقرؤا - يضيفوا - المسلمين يوماً وليلة، وعلى أن يفخموا المسلم فمن سب مسلماً، واستخف به استحق عقوبة، ومن ضربه قتل، ومن بدل منهم فلم يسلم بذمته. الطبري: تاريخ ح ٣ ص ٢٣٢.
- (١١٨) كتب نعيم كتاباً لمراد نشاه جاء فيه أنت آمن ومن دخل معك على الكف أن تكف، وتتقى نفسك بمائتي ألف درهم وزن سبعة في كل سنة، لا يغار عليك ولا يدخل عليك إلا بإذن ما أقيمت على ذلك حتى تغير، ومن غير فلا عهد له. الطبري: تاريخ ح ٣ ص ٢٣٢.
- (١١٩) قومس: منطقة واسعة تمتد بين الري ونيسابور، بها مدن وقرى ومزارع وتفصلها عن بحر قزوين جبال طبرستان التي تقع في شمالها. ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ٤ ص ٤١٤، لسترنج بلدان الخلافة ص ٤٠٤.

(١٢٠) جاء في هذا الكتاب 'بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى سويد بن مقرن أهل قومن من الأمان على أنفسهم ومللهم وأموالهم على أن يؤدوا الجزية على كل حال - بالغ - بقدر طاقتهم، وعلى أن ينصحوا ولا يغشوا، وعلى أن يدلوا وعليهم نزل من نزل بهم من المسلمين يوماً وليلة من أوسط طعامهم، وإن بدلوا واستخفوا بعهدهم فالذمة منهم بريئة'. الطبري: تاريخ ح ٣ ص ٢٣٢، ٢٣٣.

(١٢١) جرجان: هي المنطقة الواقعة إلى الجنوب الشرقي من بحر قزوين وتحتوي على عدة مدن أهمها جرجان التي سميت المنطقة باسمها. ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ٢ ص ١١٩، لسترنج: بلدان الخلافة ص ٤١٧.

(١٢٢) طبرستان: هي المنطقة الجبلية التي تحيط بجنوب بحر الخزر 'قزوين' وتضم بلداناً واسعة وحصوناً كثيرة، ومن أعيان مدنها آمل، ويطلق على طبرستان اسم 'مازندران' أيضاً وكان اسمين مترادفين. ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ٤ ص ١٣، لسترنج: بلدان الخلافة ص ٤٠٩.

(١٢٣) بسطام: من مدن إقليم قومن وثاني مدينة فيه بعد الدامغان على جادة الطريق إلى نيسابور. ياقوت الحموي: معجم البلدان ح ١ ص ٤٢١، لسترنج: بلدان الخلافة ص ٤٠٦.

(١٢٤) نص الكتاب 'بسم الله الرحمن الرحيم من سويد بن مقرن لرزيان صول بن رزيان وأهل دهستان وسائر أهل جرجان، إن لكم الذمة وعلينا المنعة على أن عليكم الجزاء في كل سنة على قدر طاقتكم على كل حال ومن استعنا به منكم فله جزاء في معونته عوضاً، ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم ولا يغير شيء من ذلك، هو إليهم ما أدوا وأرشدوا ابن السبيل، ونصحوا وقرروا المسلمين، ولم يبد منهم سل ولا غل ومن أقام فيهم فله مثل ما لهم، ومن خرج فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، وعلى أن من سب مسلماً بلغ جهده، ومن ضربه حل دمه'. الطبري: تاريخ ح ٣ ص ٢٣٣، السهمي 'حمزة بن يوسف أبو القاسم' تاريخ جرجان - تحقيق/ محمد عبد المعيد خان - عالم الكتب بيروت ط (٣) ١٩٨١ م ص ٤٤، ٤٥.

(١٢٥) الشعر لسواد بن قطبة، السهمي: تاريخ جرجان ص ٤٥.

(١٢٦) جاء فيه 'بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من سويد بن مقرن للفرخان اصهبذ خراسان على طبرستان وجيل جيلان من أهل العدو، إنك آمن بأمان الله عز وجل، على أن تكف لصوتك وأهل حواشي أرضك، ولا تؤوي لنا بغية وتتقى من ولي فرج أرضك بخمسمائة ألف درهم من دراهم أرضك، فإذا فعلت ذلك فليس لأحد منا أن يغير عليك، ولا يطرق أرضك، ولا يدخل عليك (إلا بإذنك، سبيلنا عليكم بالأذن آمنة، وكذلك سبيلكم، ولا

تؤوون لنا بغية، ولا تسلون لنا إلى عدو ولا تغلون، فإن فعلتم فلا عهد بيننا وبينكم".  
الطبري: تاريخ ح ٢ ص ٥٣٨.

(١٢٧) انتهت بعد أن أتم باقي الفاتحين الاستيلاء على بقايا فارس ففتح عتبة بن فرقد، وبكير بن عبد الله أنريجان، وفتح عبد الرحمن بن ربيعة فرضه والجبال المجاورة لها على بحر قزوين، وفتح عثمان بن أبي العاص الثقفي ولاية فارس، وفتح مجاشع بن مسعود سابور وأردشير وفتح سهيل بن عدى كرمان، وعاصم بن عمرو سجستان، والأحنف بن قيس خراسان كلها، ووقف المسلمون عند حدود الترك.



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhr.it.com>

## قائمة المصادر والمراجع

### أولاً: المصادر:

- الأبناسي 'برهان الدين إبراهيم بن موسى بن أيوب' ت ٨٠٢هـ -
- (١) الشذا الفياح من علوم ابن الصلاح - تحقيق/ صلاح فتحي هلل - مكتبة الرشد - الرياض - السعودية ط (١) ١٩٩٨م.
- ابن الأثير 'علي بن أحمد بن أبي بكر' ت ٦٣٠هـ -
- (٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة - تحقيق د/ محمد البناء، و د. محمد عاشور - دار الشعب - مصر سنة ١٣٩٣هـ -
- (٣) الكامل في التاريخ - بيروت - لبنان - سنة ١٩٧٨م.
- البغوي 'أبو محمد الحسين بن مسعود' ت ٤٣٦هـ -
- (٤) معالم التنزيل - تحقيق/ عثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الخراشي - دار طيبة للنشر - السعودية ط (٤) ١٩٩٧م.
- البكري 'أبو عبد الله بن عبد العزيز' ت ٤٨٧هـ -
- (٥) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع - القاهرة ١٩٥٤م.
- البلاذري 'أحمد بن يحيى البغدادي' ت ٢٧٩هـ -
- (٦) فتوح البلدان - تحقيق/ صلاح الدين المنجد - مصر ١٩٥٦م.
- ابن الجوزي 'عبد الرحمن بن علي بن محمد' ت ٥٩٧هـ -
- (٧) زاد المسير في علم التفسير - المكتب الإسلامي - بيروت ط (٣) ١٤٠٤هـ -
- (٨) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - تحقيق/ محمد عبد القادر وعطا عبد القادر مصطفى - دار الكتب العلمية - بيروت ط (١) ١٩٩٢م.
- الحاكم 'أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد' ت ٤٠٥هـ -
- (٩) المستدرک علی الصحیحین، وبهامشه تلخیص المتشابه للذهبي تحقيق/ مصطفى عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية - بيروت ط (١) ١٩٩٠م.
- ابن حجر العسقلاني 'شهاب الدين أحمد بن علي' ت ٨٥٢هـ -

- (١٠) الإصابة في تمييز الصحابة - تحقيق/ على محمد البجاوي - دار الجيل - بيروت - ط(١) ١٤١٢هـ.
- (١١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري - تحقيق ومراجعة/ محب الدين الخطيب وآخرين - دار الريان للتراث - مصر (١) ١٩٨٦م.
- ابن حزم 'أبو محمد على بن أحمد بن سعيد' ت ٤٥٦هـ.
- (١٢) جمهرة أنساب العرب - دار المعارف - مصر سنة ١٩٤٨م.
- أبو حنيفة الدينوري 'أحمد بن داود بن وند' ت ٢٨٢هـ.
- (١٣) الأخبار الطوال - تحقيق/ عبد المنعم عامر - مطبعة عيسى البابي الحلبي - مصر ١٩٦٠م.
- ابن خلدون 'ولي الدين عبد الرحمن بن محمد' ت ٨٠٨هـ.
- (١٤) العبر وديوان المبتدأ والخبر - بيروت - لبنان سنة ١٩٦٨م.
- الذهبي 'محمد بن أحمد بن عثمان' ت ٧٤٨هـ.
- (١٥) سير أعلام النبلاء - تحقيق/ شعيب الأرنؤوط وآخرين - مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان ١٩٨١م.
- <http://Archivebeta.Sakhrit.com>
- الرازي 'محمد بن عمر بن الحسن' ت ٦٠٦هـ.
- (١٦) مفاتيح الغيب - دار الفكر - بيروت ط(٣) ١٩٨٥م.
- الزبيرى 'أبو عبد الله المصعب بن عبد الله' ت ٢٣٦هـ.
- (١٧) كتاب: نسب قريش - دار المعارف - مصر سنة ١٩٥٣م.
- ابن سعد 'محمد بن سعد بن منيع' ت ٢٣٠هـ.
- (١٨) الطبقات الكبرى - تحقيق/ إحسان عباس - دار صادر - بيروت سنة ١٩٨٥م.
- أبو السعود 'محمد بن محمد بن مصطفى' ت ٩٨٢هـ.
- (١٩) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم - دار إحياء التراث - بيروت - بدون تاريخ.
- السمعاني 'أبو سعد عبد الكريم بن محمد' ت ٥٦٢هـ.
- (٢٠) الأنساب - تحقيق/ عبد الله عمر البارودي - دار الجنان - بيروت ط(١) ١٩٩٨م.
- السمهودي 'على بن عبد الله بن شهاب' ت ٩١١هـ.

(٢١) وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى - مطبعة الآداب والمؤيد - مصر سنة ١٣٢٦هـ.

• السهمي "حمزة بن يوسف أبو القاسم" ت ٤٢٧هـ.

(٢٢) تاريخ جرجان - تحقيق/ محمد عبد المعيد خان - عالم الكتب - بيروت ط(٣) ١٩٨١م.

• ابن سيد الناس "أبو الفتح محمد بن محمد" ت ٧٣٤هـ.

(٢٣) عيون الأثر في فنون المغازي والشمايل والسير - دار الفكر ودار الآفاق - مصر ١٩٨٢م.

• السيوطي "جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال بن محمد" ت ٩١١هـ.

(٢٤) الخصائص الكبرى - دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٥م.

(٢٥) لباب النقول في أسباب النزول - دار إحياء التراث - بيروت - بدون تاريخ.

• ابن شبة "أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري" ت ٢٦٤هـ.

(٢٦) تاريخ المدينة المنورة - تحقيق/ فهم محمد شلتوت - دار الأصفهاني للطباعة - جدة ١٩٧٤م.

• الطبراني "سليمان بن أحمد بن أيوب" ت ٣٦٠هـ.

(٢٧) المعجم الكبير - تحقيق/ حمدي عبد المجيد السلفي - مكتبة العلوم والحكم - الموصل ط(٢) ١٩٨٣م.

• الطبري "أبو جعفر محمد بن جرير" ت ٣١٠هـ.

(٢٨) تاريخ الرسل والملوك - دار الكتب العلمية - بيروت - بدون تاريخ.

(٢٩) جامع البيان في تأويل القرآن - تحقيق/ أحمد محمد شاكر - مؤسسة الرسالة - بيروت ط(١) ٢٠٠٠م.

• ابن عبد البر "أبو عمر يوسف بن عمر القرطبي" ت ٤٦٣هـ.

(٣٠) الاستيعاب في معرفة الأصحاب - دار الكتاب العربي - بيروت - بدون تاريخ.

• العصامي "العصامي بن الحسين بن عبد الملك" ت ١٢٦٣هـ.

(٣١) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي - بغاية/ قاسم درويش فخرو - القاهرة ١٣٧٩هـ.

- القرطبي "محمد بن أحمد الأنصاري" ت ٦٧١هـ.
- (٣٢) أحكام القرآن - تحقيق/ محمد الببلاوي وآخرين - دار إحياء التراث العربي - بيروت - بدون تاريخ.
- ابن قيم الجوزية "شمس الدين محمد بن أبي بكر" ت ٧٥١هـ.
- (٣٣) زاد المعاد في هدى خير العباد - مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٨٤م.
- ابن كثير "إسماعيل بن عمر القرشي" ت ٧٧٤هـ.
- (٣٤) البداية والنهاية - مكتبة المعارف - بيروت - بدون تاريخ.
- (٣٥) تفسير القرآن العظيم - تحقيق/ سامي بن محمد بن سلامة - دار طيبة للنشر والتوزيع - السعودية ط (٢) ١٩٩٩م.
- الكلاعي "أبو الربيع سليمان بن موسى" ت ٦٣٤هـ.
- (٣٦) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء - تحقيق/ محمد كمال الدين عز الدين علي - عالم الكتب - بيروت - ط (١) ١٤١٧هـ.
- الكلبي "أبو المنذر هشام بن محمد السائب" ت ٢٠٤هـ.
- (٣٧) كتاب الأصنام - دار الكتب المصرية ١٩٢٤م.
- ابن المبارك "عبد الله بن المبارك بن واضح" ت ١٨١هـ.
- (٣٨) الزهد - تحقيق/ حبيب الرحمن الأعظمي - دار الكتب العلمية - بيروت - بدون تاريخ.
- مسلم "أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم" ت ٢٦١هـ.
- (٣٩) الجامع الصحيح - دار الجيل - بيروت - بدون تاريخ.
- ابن منظور "محمد بن مكرم المصري" ت ٧١١هـ.
- (٤٠) لسان العرب - دار صادر - بيروت - الطبعة الأولى.
- ابن هشام "أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري" ت ٢١٣هـ.
- (٤١) السيرة النبوية - دار الفجر للتراث - القاهرة - مصر ط (٢) سنة ٢٠٠٤م.
- الهيثمي "تور الدين علي بن أبي بكر" ت ٨٠٧هـ.
- (٤٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد - دار الفكر - بيروت ١٩٨٨م.

- الواحدى "أبو الحسن على بن أحمد النيسابورى" ت ٤٦٨هـ.
- (٤٣) أسباب النزول - دراسة وتحقيق/ السيد الجميلى - دار الريان للتراث - مصر - بدون تاريخ.
- الواقدى "أبو عبيد الله محمد بن عمر" ت ٢٠٧هـ.
- (٤٤) مغازى رسول الله - - تحقيق/ مارسدن جونز عالم الكتب - بيروت ط(١) ٢٠٠٦م.
- الوزير المغربى "الحسين بن على بن الحسين" ت ٤١٨هـ.
- (٤٥) الإيناس بعلم الأنساب - تحقيق المرحوم/ أحمد الجاسر - الرياض - ١٩٨٠م.
- ياقوت الحموي "ياقوت بن عبد الله الرومى" ت ٦٢٦هـ.
- (٤٦) معجم البلدان - دار الفكر - بيروت - لبنان - بدون تاريخ.
- ثانياً: المراجع:
- أحمد عادل كمال.
- (١) الطريق إلى المدائن - دار النفائس - بيروت ط(٢) ١٩٧٣م.
- أكرم ضياء العمري.
- (٢) السيرة النبوية الصحيحة. محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية - مكتبة العبيكان - الرياض ط(٥) ٢٠٠٣م.
- جواد على
- (٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - المجمع العلمي العراقي - سنة ١٩٦١م.
- الزر كلى "خير الدين"
- (٤) الأعلام - دار العلم للملايين - لبنان ط(٤) ١٩٧٩م.
- لسترنج كى.
- (٥) بلدان الخلافة الشرقية - ترجمة: بشير فرنسيس وكوركيس عواد - مؤسسة الرسالة - بيروت ط(٢) ١٩٨٥م.
- مجمع اللغة العربية.
- (٦) المعجم الوجيز - طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم مصر سنة ١٩٩٦م/١٩٩٧م.



• محمد فرج

(٧) الفتح العربي للعراق وفارس - تقديم/ أحمد حسن الباقوري - دار الفكر العربي -  
مصري ١٩٦٦م.

• محمود عرفة محمود.

(٨) العرب قبل الإسلام - أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حضارتهم - دار  
الثقافة مصر ٢٠٠٤م.

• يحيى الخشاب.

(٩) موسوعة المدن العربية الإسلامية - دار الفكر العربي - لبنان ط(١) ١٩٩٣م. و



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhr.it.com>

## سياسة الخلفاء الراشدين في اختيار الولاة علي البلدان

د. محمد سعد إسماعيل (\*)

إن الحاكمية في الدولة الإسلامية ومجتمعها هي لله تعالى، فهو المختص بوضع التشريعات التي ينبغى على المسلمين الالتزام بأحكامها، وقد تمثلت هذه الشريعة في القرآن الكريم، ومن ثم فقد اقتصر دور الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده على تنفيذ هذه الأحكام والاجتهاد في فهمها أو تفسيرها، ولقد كان لتوقف نزول الوحي بعد وفاة الرسول فرصة كبرى منحت الخلفاء وقادة المسلمين حرية واسعة في الاجتهاد وبشكل خاص في مجالي السياسة والإدارة العامة.

كان الرسول والخلفاء من بعده قد أخضعوا إدارة الدولة والمجتمع وفق الأهداف والأحكام التي جاء بها القرآن الكريم، وكانت من أهم الأعمال التي ظهرت لتحقيق ذلك إمامة المسلمين في الصلاة في المسجد وتنظيم السرايا والغزوات للجهاد، وتعيين العمال أو الولاة على المدن التي تدخل في إطار الدولة العربية الإسلامية كمكة والطائف وغيرها لإدارة شئونها، أما المدينة فكان يتولى إدارتها الرسول مباشرة والخلفاء من بعده وكذلك الإمارة على موسم الحج في مكة وإرسال العمال إلى مختلف القبائل والأمصار لأخذ الصدقات والقضاء بين الناس وحسم المنازعات التي تنشأ بينهم من قبل الرسول أو أحد الصحابة.

وبعد اتساع حركة الفتوحات الإسلامية ظهرت هناك حاجة ماسة للاستعانة بالولاة لحكم البلاد المفتوحة، وفي هذه الفترة المبكرة كان يتم اختيارهم من الصحابة ومن قواد الجيش الفاتحين جريا على سنة الرسول صلى الله عليه وسلم. ودراسة سياسة الخلفاء الراشدين ونظمهم في اختيار الولاة والنظام الذي سار عليه الولاة في إدارة أعمالهم والمهام التي كانت التي توكل إليهم لها جديرة بالاهتمام، وإدارتها من أهم الملامح التي تبرز سلطان الخلفاء الراشدين وترسم شخصيتهم وتستحق البحث، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال واقع ملموس تمثله قائمة الولاة الذين تعاقبوا على ولايات الدولة المختلفة، فكانوا هم الأداة التي وقع عليها عبء تنفيذ هذه السياسة نجاحها أو فشلها في ولايات الدولة المختلفة.

(\*) مدرس بكلية آداب بورسعيد جامعة بورسعيد.

### الولايات قبل الاسلام :

يقصد بالولاية الامارة على البلاد فيولي السلطان أو الملك من يقوم مقامه في حكومة الولايات، وهي الاعمال في اصطلاحهم، وكانت الشام لما فتحها المسلمون واحدة من ولايات الروم ويسمونها ولاية الشرق، وقد قسمت إلى ١١ اقليماً تحت كل اقليم عدة بلاد ولكل اقليم قصبه، وكان لكل اقليم حاكم أو عامل سماه الروم بطريقاً و هو لقب جماعة من اشراف المملكة الرومانية، وبعد انقسام الدولة قل شأن البطريق ولم يعد له عمل في الحكومة ولكن لما امتد شأن الرومان إلى أفريقيا وسائر المشرق أعادت الحكومة التفكير في الاستفادة من هذه الولايات البعيدة فولوا البطريق حكومة تلك المستعمرات وفي جملتها الشام ومصر. (١)

فكان علي كل اقليم من اقاليم الشام حاكم يقيم في قصبته ومعه الجند في القلاع، وكان علي كل من هذه الاقاليم حاكم عام يقيم في انطاكية ولهذا الحاكم أن يولي ويعزل من يشاء من حكام الاقاليم كما يتولي أيضاً جباية الخراج والانفاق علي الجند وسائر أعمال الولاية. (٢)

### الولايات في الاسلام :

لما ظهر الاسلام ونهض المسلمون للفتح، كانوا إذا أرسلوا قائد إلى فتح بلد ولوه عليه قبل خروجه، أو شرطوا عليه إذا فتحه فهو أمير عليه وكان ذلك شأنهم من أيام النبي، وجاءت كتب الاحاديث لتوضح وجهة نظر النبي في هذا الأمر، في باب تأمير الامام الأمراء علي البعوث ووصيته اياهم : " كان رسول الله إذا أمر أميراً علي جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوي الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال (أغذوا باسم الله وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله اغذوا ولا تغزوا ولا تغدروا ولا تمثلوا... ) كما قال أيضاً (إن والله لا نولي علي هذا العمل احدا سألته ولا أحد حرص عليه). (٣)

وقال النبي "صلي الله عليه وسلم" (ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة )، كما قال أيضاً في هذا الشأن (اتقوا الله وسودوا أكبركم ) جاء رجل للنبي فقال : أنت سيد قريش، فقال النبي: السيد الله تبارك وتعالى، قلنا وأفضلنا وأعظمتنا طولا فقال.. قولوا لقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان) سؤل رسول الله من السيد ؟ فقال يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم عليهم السلام قالوا : فما امتك من سيد قال : بلي من اتاه الله مالا ورزقه سماحة فأدي شكره وقلت شكايته في الناس. (٤)

ولما تولى أبو بكر الخلافة وبعث البعوث لفتح الشام، كان إذا عقد لأحدهم لواء علي بلد أو إقليم ولاه قبل ذهابه بفتحه، فعقد لواء لعمر بن العاص وأمره أن يسلك طريق ايله عامدا فلسطين، وعقد لواء آخر ليزيد بن سفيان وأمره أن يسلك طريق تبوك إلى دمشق، وولي كل واحد منهم البلد الذي هو سائر لفتحه وقال لهم : " إذا كان بكم قتال فأميركم الذي تكونون في عمله، ولما تولى عمرو بن الخطاب الخلافة ولي ابا عبيده بن الجراح أمر الشام كله وأمرة الأمراء في الحرب والسلم فتشابه في عمله هذا

علي ما كانت عليه الشام قبل فتحها، وهي أن يكون علي كل إقليم عامل، وعلي عمال الأقاليم وال عام، وهكذا كان العمال في عهد الخلفاء الراشدين قواد الجند اللذين افتتحوا تلك الاعمال وتركز عملهم في مراقبة سير الأحكام في البلاد التي فتحوها وأقامة الصلاة وجمع الخراج<sup>(٥)</sup>

### النظام المركزي في إدارة الدولة الإسلامية:

كانت السلطة المركزية تتكون من الرسول الكريم الذي جمع بين صفتي الرسول والحاكم، وكان اصحابه أشبه بحكومته يشاورهم في الأمور العامة والخاصة وحل مشاكل المسلمين وعلي رأسهم أبو بكر وعمر ومن باقي أفراد حكومته من العمال الذين كان يختارهم من الأكفاء القادرين علي القيام بالعمل علي خير وجه<sup>(٦)</sup>

كانت المدينة عاصمة الدولة الإسلامية قد خضعت إدارتها وإدارة المناطق المجاورة لها لسلطة النبي، أما بلاد العرب فقد قسمت إلى مقاطعات هي المدينة وتيماء والجند، ومقاطعة بني كنده، ومكة ونجران اليمن وحضرموت، وعمان والبحرين، وعين علي كلا منهما واليا عهد إليه بإقامة الحدود وتنفيذ الأحكام فضلاً عن حفظ النظام وإعداد الترتيبات الخاصة بالقضاء ومن أمثلة هؤلاء عتاب بن أسيد علي مكة وعثمان بن أبي العاص علي الطائف وعمرو بن حزم الانصاري نجران، وزباد بن لبيد من بني بياضة من الأنصار حضر موت، وخالد بن سعيد بن العاص بن اميه صنعاء والمهاجر بن أميه المخزومي كنده والصدف، ومعاذ بن جبل الانصاري الجند والقضاء وتعليم الاسلام وشراعة وقراءة القرآن وقبض الصدقة من عمال اليمن<sup>(٧)</sup>.

والى جانب هؤلاء الولاة اختار النبي عمالاً علي كل قبيلة لجمع الزكاة (الصدقات) وقد تميز هؤلاء بالنزاهة والخلق الكريم فضلاً عن خبرتهم في ذلك لان النبي دربهم علي القواعد الخاصة بجباية الزكاة، ومن أمثلة هؤلاء عبد الرحمن بن عوف علي صدقات كلب، وعدى بن حاتم علي الحليين طيء وأسد، وعباد بن بشر الانصاري صدقات بني المصطلق من خذاعة والأقرع بن حابس التميمي صدقات بني دارم بن مالك بن حنظلة<sup>(٨)</sup>.

وقد حدث تطور إداري بعد الفتوحات واتساع رقعة الدولة ومبايعة القبائل للنبي علي الطاعة والولاء، حيث أسند النبي إدارة المناطق الخاضعة لبعض القبائل لرؤساء القبائل بها كما استخلف نواباً عنه في المدينة حينما كان يخرج عنها كما عين عمالاً علي المناطق الأخرى من الأمراء والملوك علي أعمالهم سواء من أسلم منهم أو من قبل دفع الجزية، وقد نجح هؤلاء العمال في إنشاء نظام عامة للمراقبة وجباية الضرائب وذلك لحماية الدولة الناشئة من أي خطر يهدد بانفصال هؤلاء عنها<sup>(٩)</sup>.

حرص النبي علي الرقابة الإدارية علي عماله أو ولاته بصورتها سواء كانت علي أشخاصهم أو علي أعمالهم ، فمن صور مراقبته علي الولاة حيث كان يمتلك سلطات تعينهم وتوقيع السلطات التأديبية عليهم، فقد ولي عثمان بن أبي العاص علي

الطائف، كما قام بعزل العلاء الحضرمي أميره على البحرين لأن وفد عبد قيس شكاه وتبين صحة ما نسب إليه<sup>(١٠)</sup>.

كما مارس النبي الرقابة على أعمال هؤلاء الولاة أو العمال ومن وسائله في ذلك: توجيه النصيحة والإرشاد والتوجيه وإصدار التعليمات سواء في صورة دوريات أو إرسال مفتش لإعداد تقارير عن ذلك، ومن أمثلة ذلك قوله لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن "وعلمهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم" كما سبقت الإشارة إلى قيام النبي بالتفتيش على الولاة والتحقيق في الشكاوى المقدمة ضدهم مثلما فعل وعزل العلاء الحضرمي أميره على البحرين<sup>(١١)</sup>.

ومن الملاحظ أن النبي أعلا من شأن بني أمية بعد أن اخلصوا في إسلامهم وفي زودهم عن العقيدة والدولة فولاهم الولايات فعين عتاب بن أسيد بن أمية علي مكة وخالد بن سعيد بن أمية علي صنعاء وصدقات اليمن وابان بن سعيد بن العاص علي البحرين وعمر بن سعيد بن العاص علي تيماء وخيبر تبوك وفدك وأبا سفيان بن حرب علي نجران، وهكذا عمل النبي علي القضاء علي عوامل النزاع والتنافس بين بني هاشم وبني أمية، فإذا كانت النبوه ورئاسة الدولة في يد بني هاشم أيام الرسول، فقد ولي الرسول بني أمية الولايات وأعلا من شأنهم واختارهم لأنهم كانوا أهل جزاء وغناء وكفاية ودراية بالحكم والادارة والسياسة<sup>(١٢)</sup>.

وكان الرسول لا يستعمل الرجل إلا لمصلحة راجحة وخبرة ودراية معينة لا توجد في غيره ومثال ذلك : تأميره لعمر بن العاص في عمان لأنه كان يعرف ان عمرو أعلم من غيره ممن كان معه من كبار الصحابة، كما ولي عتاب بن اسيد علي مكة بعد فتحها وكان سنه لا يتجاوز الثالثة والعشرين ، كما ولي معاذ بن جبل منصب القضاء في اليمن وعمره دون العشرين<sup>(١٣)</sup>.

وكان الرسول قد ربي هؤلاء الرجال من الأمراء أو العمال علي أساس ان يحكموا بين الناس حسب الكتاب والسنة وألا يشقوا علي الرعية وان يشاوروا الناس خاصهم وعامهم فيما يعرض عليهم من أمور ليس فيها نص صريح من كتاب أو سنة، وأن يقبلوا رأي الأغلبية وكان الرسول مثلهم في ذلك يعظهم ويضرب لهم الأمثلة كما رباهم، علي ان يحكموا الناس بالعدل ( فالظلم ظلمات يوم القيامة ) كما علمهم ألا يمدوا أيديهم لأموال الرعية فحرم الرشوة وجعل ( هدايا العمال غلول )<sup>(١٤)</sup>

وهكذا قامت الدولة الجديدة علي أساس مبادئ الإسلام في كل شيء، في إدارتها وسياستها وحربها وسلمها وصلاتها بالأفراد والجماعات، واتخذ المسلمون حاكمين ومحكومين من القرآن وسنة الرسول دستوراً لهم ينظم شئونهم، ويهيمن علي شئون الحكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع والتشريع، وهكذا جمع الرسول صلى الله عليه وسلم بين التشريع والتنفيذ والقضاء.

مركزية الحكم في الدولة الإسلامية زمن الراشدين

لم يخرج الخليفة أبو بكر في مدة خلافته القصيرة التي تولى خلالها أمور المسلمين عن الخطه التي رسمها رسول الله، فكان نهجه علي غرار النهج النبي في طراز حكومته وأسلوب إدارته، فكان هو الخليفة (الرئيس الاعلي للدولة) المسيطر علي جميع الأنظمة السياسية والادارية والمالية والحربية والقضائية في الدولة، أقر الخليفة أبو بكر عمال الرسول ولكن قام بتعديل أماكن هؤلاء فولي زياد بن لبيد كنده والصدق إلي حضر موت وولي المهاجر بن أبي أمية صنعاء مكان خالد بن سعيد فولي عتاب بن أسيد مكة والطائف ثم ولي عثمان بن أبي العاص الطائف ثم أقر عتاب بن أسيد علي مكة فقط<sup>(١٥)</sup>.

فاستمر أبو موسى الأشعري واليا علي زبيد ورفع، كما عينه الخليفة عمر بعد ذلك علي الكوفة والبصرة وفتحت علي يده عدة أمصار<sup>(١٦)</sup>. وولي الخليفة أبو بكر العلاء الحضرمي أميراً علي البحرين وكان له أثر عظيم في قتال أهل الردة<sup>(١٧)</sup>.

وجعل أبو بكر يعلى بن منبه التميمي علي اليمن في عام ١٣ هـ / ٦٣٤ م كما عمل واليا لعمر بن الخطاب في اليمن والطائف وصنعاء<sup>(١٨)</sup>.

وجعل أبو بكر الصديق عمرو بن العاص احد قادة الفتح أميراً في بلاد الشام ثم عينه عمر بن الخطاب علي فلسطين وسيرة في جيش إلى مصر لفتحها وعين أميراً عليها بهد ذلك وأستمر فيها لعدة سنوات من خلافة عثمان بن عفان، وانحاز عمرو بن العاص بعد ذلك إلى معاوية بن أبي سفيان في صراعه مع الإمام علي بن أبي طالب<sup>(١٩)</sup>. سار أبو بكر علي سياسة الرسول فقام بتولية بعض بني أمية الولايات<sup>(٢٠)</sup> كما ولى بعضهم قيادة الجيوش ثم أقرهم بعد ذلك أمراءً وحكاماً علي البلاد التي فتحوها ومن أمثلة هؤلاء خالد بن سعيد بن العاصي ولاة علي مخاليف اليمن، واستمر عثمان بن العاص والياً علي الطائف منذ أن عينه النبي وكذلك في عهد أبي بكر، كما احتفظ بعتاب بن أسيد وأبقاه أميراً علي مكة وعلي موسم الحج، وعين يزيد بن أبي سفيان قائداً لأحد الجيوش التي أنفذها لفتح بلاد الشام في بداية عام ١٣ هـ - ٦٣٤ م، وأرسل أبا سفيان بن حرب في جيش اليرموك يسير بين المقاتلين يحمسهم علي القتال ويذكرهم بأخبار الوقائع والفروسية والأمم وشجاعته وانتصاراتها<sup>(٢١)</sup>.

ولما أخذت حركة الفتح في التوسع لجأ أبو بكر رضي الله عنه إلى تعيين ولاة جدد أمثال المثني بن حارثة علي الكوفة، وعياض بن غنم الفهري إلي دومة الجندل كما عين سليط بن قيس والياً علي اليمامة وسويد بن قطبة علي البصرة، وحذيفة بن اليمان في عمان والبحرين<sup>(٢٢)</sup>.

وهكذا كان عمال أبي بكر هم قادة جيوشه وقد جمعوا بين ولاية الجهاد وولاية الخراج والجزية والقضاء علي اقاليمهم بل تولوا تعيين عمالاً من قبلهم في الأرض التي يفتحونها وأصبح هؤلاء لا يشغلهم مراجعة الخليفة في كل الأمور وتمتعوا بنسوع من الاستقلال الذاتي ويبدو من النظرة الأولى للباحث أن سياسة الخليفة أبي بكر الصديق

في اختيار الولاية كانت امتداداً لسياسة الرسول صلى الله عليه وسلم فالكفاية والصحة كانت من أبرز الخصال فيمن اختارهم، كما جعل أهل الحنكة والدراية والسن من أهل قريش على العراق والشام وهو بذلك أراد أن يظهر للناس بولايتهم إمرة البيت القرشي على البيوت في مكة والمدينة ولاسيما وقد استقرت الخلافة في قريش، وأراد أن يضبط بالولاية من قريش أمور العراق والشام ويأمن ثورتهم لاستمرار ملكهم، ومن جهة أخرى أراد أبو بكر أن يضبط بالولاية من بني أمية أمور الحجاز بغرض السيطرة عليه وضبط أموره لما لهم من خبرة سابقة ودراية بالحكم والإدارة والسياسة حيث سبق أن استعان بهم الرسول بعد أن أخلصوا في إسلامهم وفي دورهم عن العقيدة والدولة<sup>(٢٣)</sup>.

لم يحدث الخليفة أبو بكر تغييرات جوهرية واضحة بالنسبة لنمط الرقابة الإدارية فإدارته الحكومية على نهج الرسول فلم تكن بحاجة إلى نظام غير النظام الذي أنشأه الرسول من قبل فكان أبو بكر هو الرقيب الذي لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا تتبعها كي يعرف مدى تنفيذ أحكام الشريعة في العدل والمساواة والإخاء بين المسلمين، وكان الخليفة يحرص على إنصاف المظلوم ورد الحق إلى أصحابه وذلك من خلال سؤاله لرعيته : هل من أحد يشتكى ظلامه<sup>(٢٤)</sup>.

وتعد الإدارة في عهد عمر بن الخطاب استمراراً لما وضعه الرسول وخليفته أبو بكر من أسس وتنظيمات في هذا المجال إلا أنه نظراً للمستجدات العسكرية التي حدثت في هذا العهد في ميدان حروب التحرير والفتوحات وما ترتب عليها من توسعات كثيرة في مساحة الدولة مما دعى الخليفة عمر بن الخطاب إلى تطوير هذا النظام والقيام ببعض التعديلات التي تمكن الدولة من تلبية احتياجاتها الجديدة<sup>(٢٥)</sup>.

وقد اتبع الخليفة عمر بن الخطاب أسلوب المركزية في الحكم والتنظيم الإداري وذلك بأن حصر الوظيفة الإدارية في يده وفي العاصمة، وفي يد ممثلي الحكومة المركزية في الأقاليم، وهكذا جمع الخليفة في يده السلطة التنفيذية فكان هو رئيس الحكومة في الدولة الإسلامية، كما مارس سلطاته الرئاسية على عماله وولاته من حيث تعيينهم أو نقلهم، كما كان يصدر لهم التوجيهات والأوامر الإدارية<sup>(٢٦)</sup>.

وكان الوالي أو العامل يحرص على أن يكون قيامه بمهام عمله في إطار خضوعه لمركز الخلافة محرراً بذلك شكلاً مثالياً للحكم المركزي الذي شاع آنذاك، وتأتي الرسائل المتبادلة بين الخليفة عمر بن الخطاب وعسرو بن العاص عاملة على مصر في شأن مصالح أهل مصر مقابل أدائهم للجزية دليلاً وشاهداً على ذلك<sup>(٢٧)</sup>.

وتأتي إشارات المصادر تؤكد حرص الخليفة عمر بن الخطاب على تحقيق هذا الشكل المثالي في الحكم فلا يترك عماله وشأنهم، بل كان يسعى إلى مراقبة أحوال الولايات عن كثب وذكر عنه قوله ( لئن عشت إن شاء الله لأسير في الرعية حولاً فإنني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني إما أعمالهم فلا يرفعونها إلي وأما هم فلا يصلون إلي فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين إلى البحرين فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين... والله لنقم الحول هذا )<sup>(٢٨)</sup>.

كان عمر إذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم فيقول إني استعملكم علي أمة محمد علي أشعارهم ولا علي أبقارهم إنما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة وتقضوا بينهم بالحق وتقسموا بينهم بالعدل .. وكان يقتص من عماله إذا شكى إليه عامل له جمع بينه وبين من شكاه (٢٩).

وكان عمر بن الخطاب يستدعي ولاته من آن لآخر، لمعرفة ما يدور في الولاية فكان قدوم عمرو إلى عمر، ليتعرف على ما طرأ على حياته من تغيير حتى إنه كان يحتم على عماله أن يدخلوا المدينة نهراً (٣٠).

فأبقى الخليفة عمر بن الخطاب بعض الولاة في أماكنهم مثل عتاب بن الأسيد في مكة كما غير أماكن البعض منهم كيطلق بن منية على الطائف وعثمان بن العاص على اليمامة والبحرين وحذيفة بن محصن على عمان وكان لهؤلاء خبرة ودراسة في بعض الإدارة والحكم اكتسبوها منذ فترة سابقة (٣١).

واحتفظ بيزيد بن أبي سفيان وعينه أميراً على دمشق بعد فتحها كما ولي أخاه معاوية على الأردن ولما مات يزيد في طاعون عمواس عام ١٨ هـ - ٦٣٩ م اسند لمعاوية ما كان لأخيه فاجتمع لمعاوية حكم بلاد الشام كلها وفي نفس الوقت لم يعهد عمر بن الخطاب لأحد من بني هاشم بإمارة الجند أو إمارة البلدان سواء في بلاد العرب أو في البلاد المفتوحة وأبقاهم بجواره في المدينة لمشاورتهم في أمور المسلمين أو لخوفه من افتتان الناس بهم إذا سمح لهم بالهجرة إلى الأمصار الإسلامية الجديدة (٣٢).

وكان عمر بن الخطاب يختار ولاته من العرب بناء لمقدرتهم في فهم أصول الشريعة الإسلامية وفهمهم لأصول الدين وليس تعظيماً لعرقهم أو جنسهم لأن عليهم أن يقيموا للناس الصلاة ويقضوا بينهم بالحق ويقسموا الغنائم والفيء والعشور (٣٣).

لقد تولى الخليفة عثمان بن عفان الخلافة بعد مقتل عمر بن الخطاب وألزم الخليفة نفسه بإتباع كتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين أبي بكر وعمر وقد اتبع أسلوب المركزية في تنظيم وإدارة شئون الدولة، ففي البداية كان الخليفة على رأس الجهاز الإداري وبأسر سلطاته الإدارية وجاء ولاته وعماله وذلك بالإبقاء عليهم في أعمالهم لمدة عام كما أشار عليه الخليفة عمر بن الخطاب بذلك لأنه كان يشفق أن يتعجل الإمام من بعده في عزلهم وتولية غيرهم مما يؤدي إلى تعطيل ما بدأه هؤلاء في أعمالهم، فيضطرب أمر المسلمين والأمصار والثغور، وقد عمل عثمان رضي الله عنه بهذه الوصية وألزم هؤلاء بسياسة ما اتبع سلفه في اختياره لعماله من العرب الذين حسن إسلامهم وثبت كفايتهم (٣٤).

ولم تمضي سنة كاملة على خلافة عثمان حتى أسرع وعزل ولاة عمر بن الخطاب وعين رجالاً من قريش على الأقاليم بدلاً منهم لأنه كان يريد التقرب من قريش على عكس ما كان يتبعه عمر من إبعاده لأهل البيت وذوي العصبية من قريش من إدارة الأقاليم والتحكم في الناس وحتى الرسول نفسه كان يرى مثل عمر في ذلك، ولكن



عثمان رضى الله عنه فضل قريش دون العرب وأثر أقاربه بل وأثر فريقاً منهم على البقية<sup>(٣٥)</sup>.

ولكن عثمان بن عفان سار على نفس المنهج العمرى فقام بعزل عمرو بن العاص رغم مكانته وفضله ويولى بدلاً منه عبد الله بن سعد وقام بمراقبة هذا الوالى كما كان يستدعيه للمدينة فى موسم الحج، ويحاسبه نفس الحساب الذى كان يقوم به عمر من قبل وذلك حتى يتسنى له القيام بعمله فى إطار خضوعه لمركز الخلافة<sup>(٣٦)</sup>.

عمل الخليفة على بن أبى طالب على قيادة الدولة وفق المبادئ التى فهمها من رسالة الإسلام والتى جاهد من أجلها وكان بحاجة إلى قدر كبير من الاجتهاد لكى يتمكن من إدارة الدولة بصورة حسنة، لكنه تولى وسط ظروف صعبة لم تساعده على تحقيق أهدافه، كما فقد أهل المدينة من المهاجرين والأنصار امتيازهم فى إدارة شئون الدولة واختيار الخليفة بحكم تميزهم بصحبة الرسول والجهاد فى سبيل الله فأتى أهل الأمصار وبقوة لمشاركتهم فى هذا الأمر، وحرص الخليفة على إتباع أسلوب المركزية فى تنظيم وإدارة الدولة، وبأشر سلطاته الإدارية من خلال عزله وتعيينه لعمال وولاة جدد<sup>(٣٧)</sup>.

حرص الخليفة على بن أبى طالب فى إتباع سياسة جديدة فى اختياره لولاته وعماله على الأمصار فقام أولاً بعزل ولاة عثمان وعين بدلاً منهم آخرين يتمتعون بثقته الكاملة ويدركون أبعاد سياسته فى إدارة شئون الدولة رغم نصيحة بعض أنصاره والمقربين له أمثال المغيرة بن شعبة وابن عباس بإبقائهم على ولايتهم حتى تستقر الأمور وتؤخذ له البيعة فى الأمصار، ولكنه رفض أن يداهن فى دينه حسب قوله وعزلهم<sup>(٣٨)</sup>.

وفى سنة ٣٦ هـ أرسل الخليفة ولاته إلى الأمصار فبعث عثمان بن حنيف إلى البصرة، وعمارة بن شهاب على الكوفة وعبيد الله بن عباس على اليمن، وقيس بن عباد على مصر، وسهل بن حنيف على الشام، ويلاحظ على ولاة على بن أبى طالب أن ثلاثة منهم كانوا من الأنصار وأن الاثنين الآخرين كانا من قريش مما يدل على حرص الخليفة على تقريب الأنصار والاعتماد عليهم فى إدارة الدولة ولم يول أحداً من الخارجين على الخليفة عثمان<sup>(٣٩)</sup>.

ونظراً لتطور الأحداث والصراع المستمر فى البلاد بين الخليفة على ومعاوية فدعا ذلك علماً إلى الاعتماد على بعض أقاربه فى تولى أمر الولايات فعين قثم بن العباس والياً على المدينة ثم عاد وعينه على مكة والطائف فى أعوام خمس وثلاثين ثم سبع وثلاثين حتى سنة أربعين من الهجرة<sup>(٤٠)</sup>.

كما عين بعض الولاة استجابة لرأى أقاربه فقد أشار عليه ابن عباس بتولية زياد بن أبية بلاد فارس فوافق على ذلك، كما استعان ببعض مشاهير الصحابة وأبنائهم فى تولى بعض الولايات، فولى مالك بن الحرث بن الاشر ولاية مصر ثم وليها بعد ذلك محمد بن أبى بكر الصديق<sup>(٤١)</sup>.

ومما يلفت النظر في اختيارات الإمام علي في الولاة والعمال والتي جرت على وجه السرعة كانت على مبدأ القرابة والكفاءة والمعرفة والدراية بأمور الحكم والسياسة فضلاً عن مشاهير الصحابة والشرف والشجاعة ولم تختلف كثيراً عما سبقه من الخلفاء.

ويبدو مما سبق أن السياسة الإدارية في عهد الراشدين تميزت بالمركزية الشديدة فكان الخليفة في المدينة المنورة بيده الأمر كله سواء في الأمور الدينية أو الدنيوية فهو الذي يسير الجيوش وينظم أمور الولايات ويحل مشاكل التشريع. وتنفيذ هذه المركزية تتطلب أن يكون للدولة منهج خاص في تعيين الولاة أو عزلهم ورقابتهم حيث لم يكن هؤلاء حكاماً عاديين بقدر ما كانوا دعاة إلى الإسلام وعنواناً للمثل العليا والدولة الجديدة، وكان يتم اختيار هؤلاء في البداية من الصحابة أصحاب الجهاد الأكبر والمكانة السامية في الحياة الإسلامية، ولم تكن للقرابة اعتبار، بقدر ما كان الاعتبار الأول هو للمصلحة العامة للمسلمين فقط، وكان اختيار الوالي إذا ما تم وفق ذلك كان لا بد أن تراقبه الدولة وتلزمه بتنفيذ هذه السياسة وإذا ما ثبت مخالفتهم في أي شيء كانوا يعزلون على الفور ولأنفه الأسباب.

**اختيار الولاة في ضوء تطور الأماره علي البلدان في زمن الراشدين**

١- في عهد أبي بكر الصديق

ومن الأمور التي استحدثت على النظام الإداري للدولة العربية الإسلامية في عهد أبي بكر تمتع نوابه وأمراء الجند في أقاليم الدولة لسلطات واسعة منها تعيين نواب لهم، وعقد معاهدات مع أهالي الإقليم أي ما يطلق عليه الاستقلال الإداري وظهر ذلك واضحاً في العراق والشام نظراً لبعدهم عن قاعدة الخلافة، فقد كان أكثر الولاة أحراراً في تصريف شئون ولاياتهم الإدارية بما يرونه ويخطر عليهم الخليفة بما يظن أنهم من عظام الأمور، فلم يكن الأمر قد استقر في تلك النواحي استقراراً نهائياً، ومن الأمثلة الدالة على ذلك ما فعله خالد بن الوليد في العراق حيث صالح أهل الحيرة واشترط عليهم شروطاً، كما عقد المعاهدات مع أهل عين التمر وأهل اليس بل وصل الأمر به أن كتب إلى رؤساء أهل فارس يدعوهم إلى الدخول في الإسلام<sup>(٤٢)</sup>.

كما باشر الخليفة أبو بكر توقيع السلطات التأديبية بالقدر المناسب لدرجة المخالفة فقد أنب خالد بن الوليد لزوجاه من ابنة مجاعة بن مرارة بأرض اليمن، نظراً لما ترتب عليه من انشغاله عن أمور المسلمين بتلك البلاد، كما وصلت صلة التأديب إلى حد العزل، كما فعل أبو بكر حين عزل خالد بن سعيد عن صنعاء وصدقات اليمن وعين مكانه شرحبيل بن حسبه لأنه أصلح للأمر وأقوى منه عليه، وعزل عامله علي كندة زياد بن لبيد نظراً لسوء تصرفه فأدى ذلك إلى هياج الأهالي ورجوع بعضهم عن الإسلام ومنعهم الزكاة، فأرسل بكتاب إلى الأشعث ابن قيس ومن معه من قبائل كنده أعلن فيه عزل هذا العامل وأن يولى عليهم من يحبون<sup>(٤٣)</sup>.

٢- في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه

لما وتولى عمر بن الخطاب الخلافة سار على نهج النبي صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنه فى الحكم والإدارة ومن ثم فهو يتحمل مسئولية حكم وإدارة من يعيشون فى حضرته بصورة مباشرة، أما الذين يعيشون بعيداً عنه فى المدن والأمصار فإنه مسئول عن تعيين ولاية قادرين على إدارة شئونهم بنفس الطريقة من أهل القوة والأمانة<sup>(٤٤)</sup>.

قسم عمر بن الخطاب الدولة العربية من الناحية الإدارية إلى ثمانى ولايات وهى مكة والمدينة والشام والجزيرة (وهى بلاد ما بين النهرين) البصرة والكوفة ومصر وفلسطين، وأبقى على الأقسام الإدارية التى كانت قائمة فى عهد الدولة الفارسية وهى: فارس وكرمان، وخراسان ومكران وسجستان، وأذربيجان، وكانت الدولة الفارسية بأسرها جزءاً من الإمبراطورية الساسانية القديمة<sup>(٤٥)</sup>.

كما أتخذ العديد من الأعمال والتغييرات الإدارية التى كان لها أكبر أثر فى تطور الأوضاع الإدارية فى الدولة من بعده ومن أهم تلك الأعمال والتى تقع ضمن مفهوم الإدارة بمفهومها الواسع، تمصير الأمصار، ووضع التقويم الهجري، وتنظيم القضاء.

وقد طرأت عدة تغيرات فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب على من سبقوه فى اختيار الولاية أو العمال خاصة فى ولايتى البصرة والكوفة وطريقة محاسبتهن نظراً لاضطراب أمورهما وكثرة القلاقل فضلاً عن كثرة شكاوى الأهالى بهما، وانطلاقاً من حرص الخليفة على استقرار الأمور بالبلاد فكان يختار لهما رجلاً من صحابة رسول الله والمشاهير فضلاً عن كفاءتهم فى أمور الحكم والإدارة، وفى سنة ١٥م / ٦٣٦م عين المغيرة بن شعبة والياً على البصرة ثم عاد وعزله بعد شكوى الأهالى منه، ولما استدعاه وحضر معه الشهود وواجههم فلم تثبت عليهم التهم فعاقب الشهود، ثم عاد وولاية الكوفة فى سنة ٢٢هـ / ٦٤٣م كما عاد إليها بعض الوقت فى خلافة على بن أبى طالب، ووقف هذا الوالى على الحياد فى الأحداث التى جرت بعد ذلك بين على وخصومه<sup>(٤٦)</sup>.

ومن ولاية عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى الكوفة سعد بن أبى وقاص على الكوفة فى عامى ١٥، ١٤هـ / ٦٣٧، ٦٣٦م، فاخطت الكوفة ثم حدث وأن شكاه الناس فجمع الخليفة بينه وبينهم فثبتت براءته ومن ولاية الكوفة أيضاً عمار بن ياسر فى أعوام ٢٢، ٢١، ١٨هـ / ٦٤٣، ٦٤١، ٦٣٩م ثم حدث وأن اشتكى أهلها وذكروا للخليفة بأنه لا يصلح للإمارة فأمره بالقدوم إليه مع وفد من الكوفة فلما سأله لم يحسن الإجابة فى بعض ما وجه إليه فعزله ثم أراد أن يسترضيه بعد ذلك فرفض أن يعود للعمل كأمير للولاية<sup>(٤٧)</sup>.

ومن ولاية الخليفة عمر بن الخطاب فى ولايتى الكوفة والبصرة أبو موسى الأشعري فى أعوام ٢٢، ١٨، ١٧هـ / ٦٤١، ٦٣٩، ٦٣٨م ويذكر أن هذا الوالى استأذن الخليفة وأخذ معه تسعة وعشرين رجلاً من المهاجرين والأنصار وكان منهم أنس بن مالك، وقد

فتحت على يده عدة أمصار، كما عمل واليا لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه ووقف على الحياد في الخلاف الذي نشأ بين الخليفة علي ومعاوية وأخيراً كان الحكم لعلي بن ابي طالب في واقعة التحكيم<sup>(٤٨)</sup>.

ويبدو من خلال ما سبق أن هناك عدة تغيرات ظهرت على الإدارة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب كان من أهمها :

١- كان إمام الخليفة مهمة كبيرة عليه انجازها وهي مواصلة سياسة التحرير والفتح في جبهات العراق والشام ومن ثم فقد شغل قادة الجيوش بمهامهم الأساسية في التحرير والإدارة في تلك البلاد مما أدى إلى صعوبة الفصل في هذه المرحلة بين أعمال كل من قائد الجيش أو العامل أو الوالي فكثيراً ما كان القائد الأعلى للجيش في المنطقة منوطاً بمسئولية الإدارة كما هو الحال بالنسبة لعمر بن العاص في مصر وأبو عبيدة بن الجراح في الشام.

٢- استعان ولاة الأقاليم بالأنظمة الإدارية السابقة في إدارة أمور البلاد نظراً لانشغالهم بأمور الحرب والجهاد ولكن في ضوء ما يتفق مع روح الشريعة الإسلامية سواء في بلاد العراق وفارس أو مصر وبلاد الشام.

٣- شهدت الدولة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب توسعاً كبيراً أو تغيرات واسعة مما دعاه إلى إجراء تغييرات دائمة في أوضاعها الإدارية مما أدى إلى كثرة تغيير الولاية مع عدم استقرار تلك الولايات عند حد معين<sup>(٤٩)</sup>.

٤- عندما أستقر النظام الإداري في البلاد حصر الخليفة سلطة عماله فأصبح إلى جانب العامل، القاضي وصاحب الخراج، وأعتبر العمال أقل سلطة من الولاية فلم تكن لهم أية صفة سياسية وانحصرت طبيعة عملهم في الشؤون الموضوعية.

٥- ويلاحظ على الولاية والعمال الذين استعان بهم الخليفة في أقاليم الدولة لم يكن كلهم من قريش ولم يوجد فيهم أحد من بني عدى رهط عمر، ولم يقتصر في التولية على حي من العرب وإنما كان الأساس في الاختيار عنده حسن إسلامه وكفايته في العمل فضلاً عن ضميره الديني اليقظ الذي امتلأت به صدور الرجال من صحابة الرسول ومثل هؤلاء أداة الحكم في عهدي أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فكان منهم الخليفة والقواد والولاية والعمال.

٦- كان عمر بن الخطاب عندما يعين والياً فإنه كان يعطيه عهد تعيين يحتوى على أمر تنصيبه وتحديد ما يخول له من سلطات، ويحمل هذا الأمر خاتم الخليفة ويشهد عليه جماعة من المهاجرين والأنصار ويقرأ على الملاء حتى يعرف كل فرد حقيقة سلطات الولاية والعمال<sup>(٥٠)</sup>.

وراقب الخليفة عمر بن الخطاب الولاية مراقبة مالية دقيقة بحيث كان على كل منهم أن يقدم عند تعيينه قائمة بكل ما يملك ثم يراقب أية زيادة تطرأ عليه ثم يتخذ إجراء ضده، وكان يحرم عليهم العمل بالتجارة مع عملهم الأصلي ومن أمثلة ما فعله في هذا الصدد : ومصادرتة لمال عتبه بن ابي سفيان والى كنانة عندما زاد ماله من خلال

التجارة، وكذلك الثروة الطائلة لكل من أبي هريرة وعمرو بن العاص والياه على البحرين ومصر<sup>(٥١)</sup>.

٧- سن الخليفة سنة جديدة في تعيين الولاة وهي أن يعين بعضهم بموافقة ورضاء أهل الإقليم، كما حدث وسمح لأهالي البصرة والكوفة اختيار جباة الضرائب بهما، كما أن بقاء الوالي كان مرهونا برضاء أهل الإقليم مثلما حدث وشكا أهل الكوفة من سعد بن أبي وقاص ثم من عمار بن ياسر فقام بعزلهم ثم أقر عليهم أبا موسى لما أرادوا ذلك<sup>(٥٢)</sup>.

٨- اتبع عمر بن الخطاب عدة أساليب للرقابة الإدارية للولاة لم يكن معروفه من قبل منها السؤال والتحري عن ولاته وذلك بسؤال أهل البلد عن حالهم معه وكذلك إرسال مفتشين عليهم ثم يرفعوا إليه تقرير بنتيجة هذا التفتيش كما كان أسلوب الرقابة يتم بإجراء التفتيش بمعرفة الخليفة بنفسه<sup>(٥٣)</sup>.

### ٣- في عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه

بادر الخليفة عثمان بن عفان فور توليه الخلافة بكتابة رسائل إلى عماله وولاته وإلى عامة الناس حدد فيها المبادئ التي سيمضى عليها في إدارة الدولة ومما جاء فيها :

أ- بأن يكون هؤلاء رعاة لمصالح الأمة وحذرهم أن يكونوا جباة وإلا سينقطع عنهم الحياء والوفاء والأمانة.

ب- أشار عليهم بأن يسيروا بالعدل في كافة الأمور سواء للمسلمين أو غيرهم مع إعطائهم كافة الحقوق وإلزامهم بما عليهم من واجبات.

ج- أكد الخليفة عثمان تمسكه بسياسة سلفه عمر بن الخطاب وبخاصة في مجال حروب التحرير كما حذرهم من أي تغيير أو تعديل على ما وضعه لهم عمر بن الخطاب في ذلك، ووجه كتاباً إلى عامة الناس دعاهم فيه إلى اليقظة والحذر من المتغيرات التي بدأت تواجه مجتمعهم والتي قد تهدد وحدتهم بالخطر<sup>(٥٤)</sup>.

وبدأ الخليفة عثمان بن عفان في تنفيذ سياسته الجديدة وقد تحقق في عهده ضم إقليم أرمينية في الشمال وبلاد الهضبة الإيرانية وخراسان في المشرق، وطرابلس وتونس في المغرب، كم تابع حركات التمرد والثورات في خراسان والإسكندرية فنجده يجند الأجناد ويعبئ الجيوش فاستطاع القضاء على التمرد والثورات وإعادة البلاد إلى الطاعة وذلك بفضل مساعدة الولاة وقادة الجيوش في هذه المناطق<sup>(٥٥)</sup>.

وسار الخليفة عثمان بن عفان على طريق الخليفة عمر في سياسة اختيار الولاة ومراقبتهم مراقبة دقيقة، ففي الكوفة أقر عليها المغيرة بن شعبة ثم عزله وولى عليها سعد بن أبي وقاص حيث أوصاه عمر رضى الله عنه بأن يستعين به من بعده، حيث أنه لم يعزله عن سوء ولا عن خيانة، ولكن سرعان ما عزله الخليفة لخلاف ثار بينه وبين عبد الله بن مسعود صاحب بيت المال لأنه عجز عن سداد قرض أخذه منه، وولى الوليد بن عقبة فاستمر في عمله لمدة خمس سنوات وكان محبوباً من الناس ثم

سرعان ما عزله، عندما بلغه أشياء ذكرها عليه بعض أهل الكوفة فأشاعوا أنه يشرب الخمر وصلى بالمسلمين أربع ركعات وهو سكران، وولى بعده سعيد بن العاص<sup>(٥٦)</sup>.  
 أما البصرة فقد أقر عليها أبا موسى الأشعري ثم عزله عنها عام ٢٧ هـ - ٦٤٨ م وذلك لكثرة خروجه عن البلاد غازياً واستخلافه عليها برجال آخرين أمثال: عمران بن حصين، وأحياناً زياداً وأخيراً غيلان بن خريشه فلم يرض الخليفة عن ذلك وعزله وعين عليها عبد الله بن عامر، وجمع له جند أبا موسى وجند عثمان بن العاص الثقفي من عمان والبحرين افتتح بهم بلاد فارس ثم بلاد خراسان في سنة ٣٠ هـ - ٦٥١ م<sup>(٥٧)</sup>.

وأقر على بلاد الشام معاوية بن أبي سفيان وكانت سلطته تقتصر على عهد عمر بن الخطاب على ولايتي الأردن وفلسطين فأقره عليهما ثم ضم إليه حمص وقنسرين وجمع له قيادة الأجناد الأربعة بل وأطلق يده على تلك الجهات وذلك أصبح معاوية والياً على بلاد الشام كلها<sup>(٥٨)</sup>.

أما مصر فأقر عليها عمرو بن العاص حتى سنة ٢٧ هـ - ٦٤٨ م ثم عزله نتيجة لمؤامرة دبرها عبد الله بن سبأ لأنه كان يخشى من قوة عمرو ودهانه ويرى إنه لن تنجح مخططاته مادام عمرو على مصر فاتفق مع بعض رؤساء العرب أمثال كنانة بن بشر و سودان بن حمران، على عدم زراعة الأرض كلها فتقل الجباية وينكسر الخراج فيؤدي ذلك لقلّة دخل البلاد فيتشكك الخليفة في عمرو بن العاص فتتهدأ الفرصة للدس لعمر بن العاص مما يؤدي إلى عزله فيتولى شخص آخر ضعيف لا يقف ضد أهدافهم فنجحت المؤامرة وقل الخراج فعين الخليفة عبد الله بن سعد على الخراج وجعل عمرو على الصلاة والحرب ثم استمرت المؤامرة للتخلص من عمر ونهائياً فأوقعوا بينه وبين عبد الله بن سعد فتشاجرا وتشاحنا فاعفى عثمان رضى الله عليه عمرو من عمله وجمع لعبد الله جميع أمور مصر صلاتها وخراجها وحربها<sup>(٥٩)</sup>.

ويلاحظ على العديد من ولاة البلاد السابق ذكرهم أمثال سعد ابن أبي وقاص، وأبو موسى الأشعري ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص سبق وأن استعملهم النبي صلى الله عليه وسلم وآخرين من جنسهم ومن نفس قبيلتهم كما استعان ببعضهم أبو بكر الصديق ثم جاء عمر بن الخطاب واستعان ببعضهم أيضاً في الإدارة، فالخليفة عثمان بن عفان وإن استعان بهؤلاء الرجال فلم يكن بمغير أو بمجدد عن سبقوه ولكنه سار في نفس الاتجاه والسياسة السابقة.

ولقد تشابه الخليفة عثمان بن عفان مع سلفه عمر بن الخطاب في بعض النواحي الإدارية منها: مراعاته لرأي أهل الإقليم إذا ما أرادوا تعيين والياً عليهم وأصبح بقاءه في منصبه مرهون برضاهم عليه، مثلما حدث وغضب أهل الكوفة على واليهم سعيد بن العاص وأخرجوه فمضى إلى الخليفة وأخبره بأنهم يريدون أبا موسى الأشعري أميراً عليهم بدلا منه فوافقهم عثمان رضى الله عنه على ذلك<sup>(٦٠)</sup>.

ومنها إتباع الخليفة عثمان سياسة إدارية تتمتع بمقتضاها ولايته في الأقاليم بسلطات واسعة وبدرجة كبرى من الاستقلال عن السلطة المركزية بل وأطلقت أيديهم على هذه الأقاليم ومما يدل على استقلال الوالى ما فعه مروان بن الحكم واليه على المدينة في أول خلافته فكان يجمع أصحاب رسول الله ويستشيرهم ويعمل برأيهم، وهذا دليل على استقلال الوالى بسلطة البت النهائية في بعض الأمور دون الرجوع إلى الخليفة<sup>(٦١)</sup>.

أما عن سياسة الرقابة الإدارية التي مارسها عثمان بن عفان على عماله وولاته فقد تحققت ولكن بصورة مختلفة جدا عن سلفه عمر بن الخطاب مما نتج عنها عواقب وخيصة، فكتب إلى الأمصار أن يوافيه العمال في كل موسم ومن يشكوهم، كما كتب إلى الأهالي في الأمصار أن يأمرؤا بالمعروف ويتناهوا عن المنكر وسار الناس على ذلك إلى أن اتخذ أقوام وسيلة لتفريق الأمة<sup>(٦٢)</sup>.

ولما كثر الدس على الولاة للتقليل من شأنهم كما دس بعض الولاة من يمدحونهم عند الخليفة، اكتفى عثمان بن عفان بمواجهة هذا الخطر بتحذير الولاة والعمال من خطر الانحراف وترك هؤلاء يباشرون أعمالهم الإدارية دون التدخل فيها والتحقق من صحة الاتهامات، كما باشر الخليفة سياسة الرقابة الإدارية للولاة والعمال عن طريق الاستفسار عن هؤلاء من الوفود، كما بعث العيون للكشف عن أحوالهم، فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأسامة بن زيد إلى البصرة وعمار بن ياسر إلى مصر ولما عاد هؤلاء وأخبروه بأن ما وصله مجرد إشاعات لا أساس لها من الصحة<sup>(٦٣)</sup>.

كما اتخذ عثمان سلطته الرقابية على ولايته وأعمالهم متخذاً بعض أسلوب التوبيخ كما فعل سلفه عمر، وقد حدث ذلك عندما فوض عبد الله ابن عامر في توزيع الأموال والكسوة على قريش والأنصار فأرسل إلى علي بن أبي طالب ثلاثة آلاف درهم وكسوة فاعترض على ذلك ولما بلغ عثمان ذلك وبخ عبد الله بن عامر وأمره بإرسال عشرين ألف درهم واسترضاءه، كما كان العزل وسيلة من وسائل الرقابة الإدارية على نحو ما سبقت الإشارة لعزلة سعد بن أبي وقاص عن ولاية الكوفة لعلمه بارتكابه خطأ مالياً وعجزه عن تسويته<sup>(٦٤)</sup>.

#### دور الولاة في مواجهة الفتنة في عهد الخليفة عثمان بن عفان

تعرضت الخلافة في عهد عثمان بن عفان لأزمة حقيقية بدأت بوادرها في الظهور منذ عام ٣٠ هـ ثم تطورت واستمرت حتى سنة ٣٤ هـ، ولما شعر الخليفة بخطورة الموقف أرسل إلى بعض ولايته المقربين للحضور لمناقشة الوضع الراهن فحضر كل من معاوية بن أبي سفيان والى الشام وعبد الله بن سعد بن أبي سرح عن مصر وسعيد بن العاص عن الكوفة وعبد الله بن عامر عن البصرة واختلفت وجهة نظر هؤلاء وأبدى كل منهم رأيه في هذا الأمر خاصة بعدما عرض عليهم الخليفة ما وصل إليه من شكاوى الناس ومطالبتهم إياه بعزل ولايته وتبديل سياسته العامة<sup>(٦٥)</sup>.

وأشار عليه المجتمعون أن هذه الشكاوى لا أساس لها من الصحة وأن أصحابها هم دعاة فتنة، ثم عرض عليه المجتمعين ما يمكن عمله لمواجهة الموقف والقضاء على أسباب النقد والخلاف على نحو ما أشاروا عليه بعدة حلول للأزمة. نجح دعاة الفتنة والمعارضة في كل من مصر والكوفة وفي غيرهم في خلافة عثمان بن عفان، وفشل ولاته بالرغم من كفاءتهم الإدارية في مواجهة هؤلاء والقضاء عليهم وأصر الثوار على مطالبهم والتي تركزت على عدم قصر الوظائف على قريش بل يجب أن يتولوها وعدم قصر العطاء على المحاربين فقط، وأدت في النهاية إلى قيام الثورة على عثمان بن عفان، وذهب الثوار إلى المدينة المنورة وقاموا باغتيال الخليفة<sup>(٦٦)</sup>.

#### ٤- في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

وتشير المصادر في البداية إلى امتناع علي بن أبي طالب عن قبول الخلافة نظراً لما كان يتوقعه من ظهور الفتن والاضطرابات من بني أمية، وخلصه من المقيمين منهم في المدينة ومن فر منهم إلى الشام أو إلى مكة، لكن نجح أحد زعماء الكوفة وهو الأشتر النخعي في النهاية في إقناعه، وقد شجع ذلك على دعوة الناس للاجتماع به ومبايعته<sup>(٦٧)</sup>.

عمل الإمام علي بن أبي طالب على إتباع سياسة جديدة في اختيار الولاة وكان منها استبعاد الولاة من بني أمية لقناعته بأن هؤلاء لا يصلحون لهذا الأمر وشرع في تنفيذ ذلك وقد خالف في ذلك سياسة من سبقوه ولكن جاءت اختياراته على وجه السرعة نظراً لتطور الأحداث بينه وبين معاوية من ناحية وبينه وبين طلحة والزبير والسيدة عائشة من جانب آخر فعين عبد الله بن عباس والياً على اليمن، وقتل بن العباس على المدينة ولم يولى أحداً ممن خرج على عثمان رضي الله عنه<sup>(٦٨)</sup>.

كما أبقى علي بن أبي طالب على بعض الولاة أمثال والي مكة بعبد الله بن عامر الحضرمي وأبقاه في مكانة ظناً منه أن يمنحه ولاءه ولكن لم يلبث وأن خاب ظنه وأظهر وقوفه إلى جانب المعارضين، فقام بعزله وعين قثم بن العباس بدلاً منه<sup>(٦٩)</sup>.

واختار علي بن أبي طالب أفضل رجاله لتولي أمر الولايات وقيادتها من ذوي الرأي والبأس أمثال قيس بن سعد ثم الأشتر النخعي على ولاية مصر ولكن ساءت اختياراته في نهاية عهده، مثلما حدث وعين محمد بن أبي بكر والياً على مصر، وكان غلاماً حدثاً ليس بذى تجربة للحرب ولا بمجرب للأشياء مما أدى إلى قتله<sup>(٧٠)</sup>.

ولقد تشابه علي بن أبي طالب مع سلفه عثمان بن عفان في مزاجاته لأهل الإقليم إذا ما أرادوا والياً عليهم ففي سنة ٣٦ م بعث عمارة ابن شهيد والياً على الكوفة فلقية طلحة بن خويلد وذكر له أن أهلها يتمسكون بأبيهم موسى الأشعري الذي لزم الجماعة وأرسل بالبيعة للخليفة الجديد<sup>(٧١)</sup>.



وتشابه مع سلفه عمر بن الخطاب في كتابته كتابا يسمى التقليد أو العهد يحدد فيه للوالي مهمة ويوصيه بالآداب التي ينبغي له التجميل بها والسياسة التي يلزم إتباعها فقد كتب إلى الأشتر النخعي "هذا ما أمر به علي أمير المؤمنين الحارث بن مالك في عهده إليه حين ولاة مصر جباية خراجها وجهاد عدوها وإصلاح حالها، وعمارة بلادها، أمره بتقوى الله، وإيثار طاعته وإتباع ما أمر به من فرائضه وسننه التي لا يسعد أحد إلا بإتباعها<sup>(٧٢)</sup>."

واتبع علي بن أبي طالب أسلوباً خاصاً في الرقابة الإدارية عن طريق السؤال والتحرى عن وولاته عن طريق جواسيس، كما حدث وعزل واليه عن مصر قيس بن سعد لما نما إلى علمه أن قيس من شيعة معاوية، كما عزل واليه علي الكوفة أبو موسى الأشعري عندما علما بعدم تعبته للناس وتجهيزهم للخروج لمعاونته في قتال المعارضين له<sup>(٧٣)</sup>.

كما اتبع علي بن أبي طالب الرقابة العامة على الولاة من خلال كتاب التولية الذي كان يقدمه لهم ومن أمثلة ذلك كتاب التولية الذي أنفذه الخليفة علي بن أبي طالب إلى قيس بن سعد واليه علي مصر.

جاء فيه " من عبد الله علي بن أبي طالب أمير المؤمنين إلى من بلغه كتابي هذا من المسلمين والمؤمنين سلام عليكم أما بعد قد بعثت إليكم بقيس بن سعد عبادة أميراً فأزروه وعاشروه وأعينوه علي الحق، وقد أمرته بالإحسان إلي محسنكم... وأرجو صلاحه ونصيحته.."<sup>(٧٤)</sup>

ويبدو ومما سبق أن الإدارة المركزية في عهد الخلفاء الراشدين تأثرت كثيراً بسياسة الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن طرأ عليها تغيرات طفيفة في عهد أبو بكر وبشكل واسع في عهد كل من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، وجاءت اختيارات الخلفاء الراشدين للولاة والعمال على نمط سياسة الرسول وتركزت في العنصر العربي بشكل واضح لأنهم كانوا أكثر فهما للشريعة الإسلامية وقواعدها فضلاً عن خبرة الكثير منهم في النواحي الإدارية بالإضافة إلى الخبرة الحربية التي اكتسبوها من كثرة الحروب التي خاضوها.

## الهوامش

- ١- جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي، دار الهلال، ١٩٦٨ ص ١٥٠
- ٢- جرجي زيدان : المرجع السابق: ص ١٥١
- ٣- الامام مسلم : صحيح مسلم، حديث رقم ١٧٣١ : ١٧٣٣، ج ٢ ص ٩٢٢، ٩٨١
- ٤- الامام مسلم صحيح مسلم، حديث رقم ١٨٢٩، ج ٢، ص ٩٨٤، حديث رقم ٢٣٧٨، ج ٣ ص ١٢٥٠ - ١٢٥١، ابي داود.. سنن ابي داود، ج ٤ مج ٤ ص ٢٥٥.
- ٥- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٣ ص ٦١٧، جرجي زيدان: المرجع السابق، ص ١٥١-١٥٣
- ٦- مسعود أحمد : أقاليم الدولة الاسلامية، ص ٨٦
- ٧- ابن خياط : تاريخه، ص ٤٨، مولوي -ان. الإدارة العربية، ص ٤٨ - ٤٩
- ٨- ابن خياط : تاريخه ص ٤٨، البلازري : أنساب الأشراف، الجزء الأول ص ٣٠، مولوي: المرجع السابق ن ص ٤٩
- ٩- ابن خياط: المصدر السابق، ص ٤٨-٤٩، مسعود أحمد : المرجع السابق، ص ٨٧
- ١٠- ابن خياط: المصدر السابق، ص ٤٨، ابن الأثير الكامل في التاريخ، ص ٢ ص ٢٨٩، مسعود أحمد: المرجع السابق، ص ٩٠-٩١
- ١١- ابن خياط: المصدر السابق، ص ٤٨، مسعود أحمد : المرجع السابق، ص ٩١-٩٢
- ١٢- البلازري : أنساب الأشراف، ج ١، ص ٥٢٩، رجب محمد : تاريخ عصر النبي والخلافة الراشدة، ص ٣١١
- ١٣- البلازري : أنساب الأشراف، ج ١، ص ٥٢٩ - ٥٣٠
- ١٤- الدرامي : سنن الدرامي، ج ٢، ص ٣٤٠، ٢٢٤، رجب محمد : المرجع السابق ص ٢٦٤
- ١٥- البلازري : المصدر السابق، ج ١ ص ٥٢٩
- ١٦- ويذكر أن أبا موسى كان قد أسلم بمكة وهاجر إلى ارض الحبشة ثم قدم مع أهل السفينتين ورسول الله بخيبر كما بعثه الرسول هو ومعاذ إلى اليمن، وسبق أن عينه الرسول على عدن، ابن خياط: تاريخه، ص ١٨١، الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ص ٢ ص ٤٦٤ ص ٥٣٢، الذهبي : العبر، ص ٥٢، ابن خلدون : تاريخه، مج ٢، ص ٤٩١، الخميس : تاريخه، ص ١٤٣ - ١٤٤.
- ١٧- كان العلاء الحضرمي من سادة الصحابة وقد بعثه النبي إلى المنذر الساوي العبدى ملك البحرين وكتب إليه كتابا دعاه فيه إلى الإسلام فأسلم، كما كان أمير الرسول على البحرين. الطبري: تاريخ الرسل، ج ٢، ص ٦١٧ - ٦٦٠، ابن الجوزي: المنتظم، ج ٣، ص ١٩.
- ١٨- ومنه هي امة واسم أبيه أمية التميمي كان إسلامه يوم الفتح ثم شهد حنين وكان الرسول قد ولاه أميرا على الجند في مارب ثم تولى في عهد أبو بكر خولان ثم اليمن كلها.
- ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٣٨٨، ٣٤٠، ٣٥٤، ج ٣، ص ٤٠.

- ١٩- وكان الرسول قد سبق وان عينه واليا على عمان وأعمالها ثم عينه أبو بكر أميرا على الجند في بلاد الشام، ابن خياط: تاريخه، ص ٤٨-٨٩
- ٢٠- كان الرسول قد عين عتاب بن أسيد بن أبي العاص على مكة وخالد بن سعيد على صنعاء وصدقات اليمن وإبان بن سعيد على البحرين وعمر بن سعيد على تيماء وخيبر وتبوك وفدك وأبا سفيان بن حرب على نجران وذلك من منطلق القضاء على عوامل النزاع والتنافس بين بنى هاشم وبنى أمية، فإذا كانت النبوة والرياسة في يد بنى هاشم أيام الرسول فقد ولى الرسول بنى أمية الولايات وأعلى من شأنهم الطبري: المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٣٢ - ٥٣٤، رجب محمد: عصر النبوة، ص ٣١١.
- ٢١- الطبري: المصدر السابق، ج ٢، ص ٦١٧ - ٥٣٢، ٥٣٤، ٦٦٠، ابن الجوزي المنتظم، ج ٣، ص ١٩، الخميس: تاريخه، ص ١٨١
- ٢٢- كان المثنى بن حارثة من زعماء بنى شيبان كان أبو بكر استعمله على من أسلم من قومه وعياض هذا هو فاتح الموصل والقرى المحيطة بها وكان أبو عبيدة قد استخلفه على عمله بحمص وقنسرين ببلاد الشام فاقره عمر كما عين بعد ذلك والياً على الجزيرة، وكان حذيفة بن اليمان قد كلفه عمر بمسح ارض العراق وتحديد مقدار الخراج عليها، ابن خياط: تاريخه، ص ٦٥، الطبري: تاريخ الرسل، ج ٣، ص ٦٦٠، ٦١٧، اليعقوبي: تاريخه، مج ٢، ص ١٣٨ - ابن الأثير: الكامل، ط ٣، ص ٤٠ - ٤٥، ابن خلدون: تاريخه، مج ٢، ص ٥٣١، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٩٧ القلقشندي: مآثر الأناقة، ج ١، ص ٩٢ - ٩٣، الخميس: تاريخه، ص ٢٨١ - ٢٤٢.
- ٢٣- رجب محمد: تاريخ عصر النبوة، ص ٣١١ - ٣١٢
- ٢٤- مسعود أحمد: أقاليم الدولة، ص ١١٦ <http://Archivebeta.org>
- ٢٥- هاشم يحيى: الوسيط، ص ٣٩٠
- ٢٦- مسعود أحمد: المراجع السابقة، ص ١١٨
- ٢٧- محمد أحمد: تقليد عمرو بن العاص ولاية مصر، ص ١٤١
- ٢٨- الطبري: المصدر السابق، مج ٢، ص ٤١١
- ٢٩- الطبري: المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٠٤
- ٣٠- أحمد مجاهد مصباح: دراسات في تاريخ مصر الإسلامية، ص ١٨٩
- ٣١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٣٥٤
- ٣٢- ابن خياط: تاريخه، ص ٨٩، ابن الأثير: الكامل، ج ٣، ص ٤٠
- ٣٣- حسين الحاج حسن: النظم الإسلامية، بيروت، ١٩٨٧، ص ٢٠٨
- ٣٤- اليعقوبي: تاريخه، مج ٢، ص ١٦١، ابن الأثير: الكامل، ج ٣، ص ٤٠، محمد الخضري: محاضرات في التاريخ الإسلامي، ج ٢، ص ٢٧
- ٣٥- مسعود أحمد: المرجع السابق، ص ١٠٨ - ١٢٨
- ٣٦- ابن الأثير: الكامل، ج ٣، ص ٤٧
- ٣٧- هاشم يحيى: الوسيط، ص ٤٢٩ - ٤٣٠

- ٣٨- الطبري : تاريخ الرسل، ج ٤، ص ٣٨، محمد الخضري : المرجع السابق، ج ٢، ص ٥١، إبراهيم أحمد العدوي، التاريخ الإسلامي، ص ٤٢٩
- ٣٩- كان قيس بن سعد من أعيان الصحابة ومن ذوى الرأي والبأس وصاحب راية الرسول مع الأنصار، كما كان عمارة بن شهاب من المهاجرين، ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ١٠٣ - ١٠٥، ١٣٦، أبو الفدا : تاريخه، ج ١، ص ١٧٢، المقرئ : الخطط، ج ٢، ص ٣٠٠، ابن إياس : بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ١١٤١
- ٤٠- ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ١٠٣، ١٧٧، ١٨٨، ١٩٤، ٢٠٠
- ٤١- ابن خياط : تاريخه، ص ١٢٢، ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ١٣٩ - ١٧٧، ابن إياس : بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ١١٤ - ١١٦
- ٤٢- مسعود أحمد : أقاليم الدولة، ص ١١٦
- ٤٣- مسعود أحمد أحمد : المرجع السابق، ص ١١٦ - ١١٧
- ٤٤- ابن سعد : الطبقات الكبرى، ج ٣، من ٢٥٥، الطبري : المصدر السابق، ج ٣، ص ٤١٤، هاشم يحيى : المرجع السابق، ص ٣٥٨ - ٣٦٢
- ٤٥- مولوى : الإدارة العربية، ص ٨٠ - ٨١
- ٤٦- كان المغيرة بن شعبه من دهاة العرب وعقلائها وأشرفها، ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٣٥٤ - ٣٤٠، ج ٣، ص ٤١، ١٩، ١٦، ٩، الذهبى : دول الإسلام، جزءان، ص ٥١ - ٥٢، أبو الفداء : تاريخ أبو الفداء، مج ١، ص ٢٧٧، ابن خلدون : تاريخه، مج ٢، ص ٥١٥ - ٥١٦
- ٤٧- كان سعد بن أبي وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة كما دعى له النبي فكان مستجاب الدعوة فضلاً على أنه كان فاتح القانسية، أما عمار بن ياسر كان من أصحاب النبي وبشره كذلك بالجنة، ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ١٦، ٩، ج ٢، ص ٣٧٨، الذهبى : العبر، ص ٢٥، القلقشندي : مآثر الأنافة، ج ٢، ص ١٢
- ٤٨- الطبري : المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٧٧ - ٤٨٧، ابن الأثير : المصدر السابق، ج ٣، ص ١١٦ - ١١٨، الذهبى : المصدر السابق، ص ٥٢، ابن خلدون : تاريخه، مج ٢، ص ٥٢٣ - ٥٢٤
- ٤٩- هاشم يحيى : الوسيط، ص ٣٩١ - ٣٩٢
- ٥٠- مولوى : الإدارة العربية، ص ٨٢ - ٨٣، إبراهيم العدوي : التاريخ الإسلامي من ١٧٣ - ١٧٤، أحمد إبراهيم : دور الحجاز، من ٣٦٢
- ٥١- الذهبى : دول الإسلام، ص ٥١ - ٥٢، محمد الخضري : محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية، ج ٢، ص ١٣
- ٥٢- ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٣٧٨ - ٣٨٨، ص ١٦ - ١٩، مسعود أحمد : المرجع السابق، ص ١٢٣
- ٥٣- كان الخليفة يسأل أهل البلد فان اثنوا عليه حمد الله، وان قالوا لا استدعاهم للقوم كما كان يرسل محمد بن مسلمة كمفتش من قبله على ولاته، كما فتش عمر بنفسه على حذيفة

- بن اليمان عامله على المدائن، الذهبي : العبر، ص ٢٥، القلقشندي : مآثر الأنباقة، ج ١  
ص ٣٤٣، مسعود أحمد : المرجع السابق، ص ١٢٤ - ١٢٥
- ٥٤- الطبري : المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٤٤ - ٢٤٥، ٤١٧، ٢٤٣، رجب محمد : تاريخ  
النبوة، ص ٣١٥، هاشم يحيى : الوسيط، ص ٤٠٣ - ٤٠٤
- ٥٥- مسعود أحمد : أقاليم الدولة، ص ١٠٦، صالح أحمد : الإدارة، ص ١١٥
- ٥٦- كان الوليد بن عقبة بن أبي معيط وهو أخ لعثمان من أمه أروى بنت كرز وأمه البيضاء  
بنت عبد المطلب ( أخت لعثمان من الرضاعة ) فأم الوليد عمه رسول الله، وكان الوليد  
والياً على عرب الجزيرة وعلى بنى تغلب وغيرهم من العرب، ابن الأثير : الكامل، ج ٣،  
ص ٤١ - ٤٣، أبو الفداء : تاريخه، مج ١، ص ٢٣٣، ابن خلدون : تاريخه، مج ٢،  
ص ٥٤٦.
- ٥٧- كان عبد الله بن عامر بن كرز ابن خال الخليفة، ولكنه لم يولى عليها لأنه كريم العمات  
والخالات ولكنه كان شجاعاً وشهماً، ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ٤٩ - ٩٥، الذهبي  
: العبر، ص ٣٠، ابن كثير : البداية والنهاية، ج ٧، ص ٥٥١، ابن خلدون : تاريخه،  
مج ٢، ص ٥٥١
- ٥٨- كان معاوية بن أبي سفيان من كتاب الوحي لرسول الله، وأخ أم المؤمنين أم حبيب بنت  
أبي سفيان زوج الرسول، ابن خياط : تاريخه، ص ٨٩ - ١٠٦، اليعقوبي : تاريخه، مج  
٢، ص ١٧٦، ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ٩٥
- ٥٩- ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ٤٥، الذهبي : دول الإسلام، ص ٥١ - ٥٢، المقرئ :  
الخطط، طبعة بولاق، ج ٢، ص ٢٩٩، ابن آياس : بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ١١٢ -  
١١٤، رجب محمد : تاريخ عصر النبوة، ص ٣٤٠.
- ٦٠- الطبري : المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٦٨، ابن كثير : المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٧٢
- ٦١- مسعود أحمد : المرجع السابق، ص ١٢٩
- ٦٢- مسعود أحمد : نفس المرجع والصفحة
- ٦٣- مسعود أحمد : نفس المرجع والصفحة
- ٦٤- ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ٤٢، ابن خلدون : المصدر السابق، مج ٢، ص ٥٤٦
- ٦٥- الطبري : المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٣٢ - ٣٣٤
- ٦٦- المسعودي : مروج الذهب، مج ٢، ص ٢٣٦ - ٢٣٧، ابن كثير : تاريخه، ج ١٠، ص  
٢٧٠ - ٢٧٧، صابر محمد : المرجع السابق، ص ٧٣
- ٦٧- ابن قتيبة : الإمامة والسياسة، ص ٤٦، الطبري : المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٣٣ -  
٣٣٤
- ٦٨- ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ١٠٤ - ١٠٥، أبو الفدا : تاريخه، ج ١، ص ١٧٢،  
القلقشندي : مآثر الأنباقة، ج ١، ص ١٠٤
- ٦٩- ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ٢٠٠
- ٧٠- ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ١٣٩، ١٧٧

- ٧١- ابن الأثير: الكامل، ج٣، ص١٠٣، أبو الفدا تاريخه، ج١، ص١٧٢
- ٧٢- الطبري: تاريخه، ج٥، ص٩٥-٩٦، ابن آياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص١١٤.
- ٧٣- الطبري: تاريخه، ج٤، ص٤٧٧-٤٩٩، طبعة دار المعارف، ابن الأثير: الكامل، ج٣، ص١٣٦-١٣٩، المقرئ: الخطط، ج٢، ص٣٠٠
- ٧٤- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٤، ص٥٤٧-٥٤٨ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١، ص٩٧، محمود عرفة: الرقابة الإدارية والمالية في الدولة العربية في القرنين الأول والثاني الهجريين مجلة البحوث والدراسات العربية جامعة الدول العربية- العدد السادس عشر، ١٩٨٨، يصدرها معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة، ص٢٠-٢١



# ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

## المصادر والمراجع

### أولاً: المصادر

- ١- ابن الأثير (٥٥٥ - ٦٣٠ هـ / ١١٦٠ - ١٣٣٨ م): أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري الملقب بعز الدين.  
أ- الكامل في التاريخ - دار الكتاب العربي - بيروت.  
ب- أسد الغابة في معرفة الصحابة.
- ٢- الامام مسلم (٢٠٤-٢٦١هـ) ابي الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، طبعة مميزة بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار بن رجب مصر، ط٢، ١٤٢٧/٢٠٠٦م ج٢، ج٣.
- ٣- البخاري (١٩٤ - ٢٥٦ هـ): أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم المغيرة الجعفي البخاري. صحيح البخاري حققه: محمد زهير بن ناصر الناصر المجلد الثالث ج٥، ج٦ المدينة المنورة - دار طوق النجاة.
- ٤- الدرامي (ت ٢٥٥م/٨٦٩هـ) الامام أبو محمد عبدالله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام سنن الدرامي، دار الكتب العلمية، مصر بدون جزء ٢٩ .
- ٥- أبي داود (٢٠٢ - ٢٧٥هـ): أبي داود : أبي داود سليمان ابن الأشعث السجستاني الاردي، سنن أبي داود، دار الخيل - بيروت ١٤١٢هـ/١٩٩٢، المجلد الرابع)
- ٦- البلاذري (ت ٤٧٩ هـ / ٨٩٢ م) : أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي فتوح البلدان - حققه وشرحه وعلق على حواشيه واعد فهرسه عبد الله أنيس الطباع - عمر أنيس الطباع ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ مؤسسة المعارف بيروت.  
<http://Archiwebat.Sakhrif.com>  
انساب الاشراف، تحقيق د/ محمد حميد الله، دار المعارف مصر بدون.
- ٧- ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ / ١٣٣٢ - ١٤٦٣ م) : عبد الرحمن المغربي  
أ- المقدمة - مقدمة ابن خلدون - الجزء الثاني، ج٢، مكتبة الأسرة ٢٠٠٦ م  
ب- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر تاريخ ابن خلدون المسمى بديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب ومن عاصرهم من ذوى الشأن الأكبر - دار الكتاب اللبناني، ج٢ بيروت ١٩٨٦ - ط١ - ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
- ٨- ابن خلكان (٦٠٨ - ٦٨١ هـ / ١٢١١-٢٨٢م): أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان ج١-٨ حقق د/ يوسف علي طويل د/مريم قاسم طويل - دار الكتب - بيروت - لبنان ط١ ١٤١٩ هـ ١٩٩٨ م.
- ٩- ابن خياط (ت ٢٤٠هـ) : أبي عمرو خليفة بن خياط بن أبي هبيرة الليثي العسفرى الملقب ب- شباب، تاريخ ابن خياط - راجعه وضبطه ووضع حواشيه د. مصطفى نجيب فواز د. حكمت كشملي فواز - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.
- ١٠- الذهبي (٧٦٣ - ٧٤٨ هـ / ١٢٧٤ - ١٣٤٧ م) : الإمام أبو عبد الله شمس الدين

أ- كتاب دول الإسلام وقد اختصره من كتاب تاريخ الإسلام وطبقت المشاهير والإعلام المسمى بتاريخ الإسلام الكبير حقق فهم محمد شلتوت - محمد مصطفى إبراهيم جزءان.

ب- العبر في خبر من غير دول الإسلام تحقيق د/ صلاح الدين المنجد - الكويت ١٩٦٠.

١١- ابن سعد (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٥ م) : أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع القرشي الهامشي ولاء البحري البغدادي، الطبقات الكبرى - طبعة الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م - تحقيق د/ علي محمد عمر - مكتبة الخانجي - القاهرة.

١٢- الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ / ٨٣٨ - ٩٢٢م) : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك : راجعه نخبة من العلماء تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - بيروت - لبنان.

١٣- ابن قتيبة الدينوري (٢١٣-٢٧٦هـ / ٨٢٨ - ٨٨٩م) : (أبو محمد عبد الله مسلم ابن قتيبة الدينوري) الإمامة والسياسة - المعروف بتاريخ الخلفاء لابن قتيبة، المعارف القاهرة ١٩٣٤.

١٤- القلقشندي (ت ٨١١ هـ - ١٤١٨م) : أبو العباس أحمد بن علي، مآثر الأنباقة في معالم الخلافة ج١ تحقيق عبد الستار أحمد فرج - عالم الكتب.

١٥- ابن كثير القرشي (٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م) : عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي. البداية والنهاية في التاريخ، ج٦، ٥، المجلد الثالث ج٧، (المجلد الرابع) دار الفكر العربي، ط٢، سنة ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

١٦- ابن منظور : لسان العرب، المجلد الخامس عشر، دار صابر - بيروت

١٧- أبو الفداء : عماد الدين إسماعيل بن تاريخ أبو الفداء، المؤيد ج١

١٨- الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) : جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي المنتظم في تواريخ الملوك والأمم، العصر الراشدي حققه د. سهيل زكار - الجزء الثالث دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م.

١٩- الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) : الأحكام السلطانية، القاهرة، ٢٠٠٥

٢٠- الديار بكري (ت ٩٩٦ هـ) : حسين بن محمد بن الحسن.

تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، بيروت، مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع، (د.ت).

٢١- المسعودي (ت ٣٤٦ هـ) : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي.

مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج١، ج٢، قدم له مفيد محمد فتيحة - دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦.

٢٢- المقرئزي (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١م) : تقى الدين أبو العباس أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقرئزية، طبعة بولاق.

٢٣- النوبختي : أبو محمد بن الحسن بن موسى، فرق الشيعة، بيروت، دار الفكر - بدون



٢٤- اليعقوبى (ت ٢٨٤هـ - ١٩٧م) : احمد بن ابى يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب المعروف بابن واضح. تاريخ اليعقوبى ج٢ - دار صادر بيروت بدون تاريخ.

### ثانياً المراجع

٢٥- إبراهيم احمد العدوى، التاريخ الإسلامى - منابعه العليا وفروعه العظمى دار الفكر العربى - ١٢٩٤.

٢٦- احمد إبراهيم الشريف، دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة فى القرنين الأول والثانى للهجرة، دار الفكر العربى.

٢٧- احمد مجاهد، دراسات فى تاريخ مصر الإسلامية، القاهرة، بدون.

٢٨- جرجى زيدان : تاريخ التمدد الإسلامى، دار الهلال، مصر، ١٩٦٨

٢٩- حسين الحاج حسن، النظم الإسلامية ط١ الأولى بيروت ١٩٨٧.

٣٠- رجب محمد عبد الحليم - دراسات فى تاريخ عصر النبوة والخلافة الراشدة - دار النهضة العربية.

٣١- صالح احمد العلى، الإدارة فى العهود الإسلامية الأولى شركة المطبوعات للتوزيع والنشر.

٣٢- مسعود احمد مصطفى : أقاليم الدولة الإسلامية، بين اللامركزية السياسية واللامركزية الإدارية تقديم الإمام جاد الحق على جاد الحق - الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

٣٣- الشيخ محمد الخضرى : محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة الأموية - الجزء الأول - الجزء الثانى.

٣٤- مولوى س. ا ت - حسينى، الإدارة العربية - ترجمة د. إبراهيم احمد العدوى راجعه عبدالعزيز عبد الحق.

٣٥- هاشم يحيى الملاح - الوسيط فى السيرة النبوية والخلافة الراشدة، العراق بدون.

٣٦- عبد السميع البراوى : لغة الإدارة فى صدر الإسلام، بدون، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب بدون.

### ثالثاً: الدوريات

٣٧- مجلة البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية العدد السادس عشر، ١٩٨٨ - معهد البحوث والدراسات العربية.

٣٨- مجلة الدارة، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، العدد الثالث، السنة الثامنة عشر، ربيع الآخر - جمادى الأولى - جمادى الآخرة، ١٤١٣ هـ.

## أثر المرأة في الحياة السياسية في العصر الرسولي في اليمن

د. عبد الحكيم عبد الحق محمد سيف (\*)

يعالج هذا البحث أثر المرأة في الحياة السياسية، في العصر الرسولي، في اليمن، وهو يجيب، في الوقت ذاته، عن بعض التساؤلات التي أثارها بعض الكتابات، ذلك أن أقلاماً كثيرة حاولت النيل من التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، فقللت بداية من وجود فكر سياسي إسلامي، ثم حاولت تسطيح ما اعترفت بوجوده، فقصرت الحياة السياسية في التاريخ الإسلامي على المؤامرات والاغتيالات والتنافس على السلطة، إلى جانب المعارك والحروب والأسر الحاكمة، ولم توغل إلى عمق الفكر السياسي الإسلامي، ولم تعرض لما ألف فيه من مصنفات، في الفقه السياسي، ملأت المكتبات، وما قدمته من مفهوم للسياسة التي لا تعدو حسن التدبير، لا المراوغة والكذب، وعن محددات العلاقة بين الراعي والرعية.. وغير ذلك من القضايا.

وفي الوقت ذاته؛ صورت هذه الكتابات المرأة في التاريخ الإسلامي مجرد سلعة للتسلية، ودمية يتم تحريكها من خارجها، ليس لها رأي ولا دور في حياة مجتمعها، بل حتى فيما يتعلق بشأنها وحياتها الخاصة، متجاهلة التطور الضخم الذي أحرزته المرأة فيما يتعلق بحقوقها، ودورها في مجتمعها بظهور الإسلام، والمكانة الكبيرة التي حظيت بها في مجتمعها، والتأهيل المستمر الذي نالت، والأدوار الكبيرة التي قامت بها لتنمية مجتمعها.

إذا، فقد ارتبط حضور المرأة في التاريخ العربي باعتمادها للإسلام، الذي انتشلها من حياة الذل والظلم والاضطهاد، ثم صنع وعيها بنفسها وبمجتمعها، ومكنها من دورها الطبيعي في حياة مجتمعها، فمكناها من حقوقها الكاملة: حق الحياة بعد أن كانت موؤدة، وحق التملك بعد أن كانت تملك، وحق الاختيار للدين والزواج بعد أن كانت تختار، دون أن تختار..<sup>(١)</sup>

وبمرور العصور الإسلامية؛ كانت مكانة المرأة تتمكن، وأثرها يتزايد في الحياة وحضورها يتكثف في مجتمعها.

والمرأة في اليمن كان لها أدوار مشهودة، عبر مراحل التاريخ، في ميادين السياسة والعلم والأدب، لاسيما في الحقبة الرسولية التي شهد اليمن فيها استقراراً سياسياً واضحاً، ونهضة علمية لافتة، لم تكن المرأة الرسولية بمعزل عنها، لا بل كان

(\*) أستاذ مشارك التاريخ الإسلامي بجامعة تعز.

لها دور مهم فيها، سواء في ميادين السياسة أم في مجالات العلوم، فكان للمرأة اهتمامات ومشاركات في الحياة السياسية، سواء في صنع القرارات أو في اختيار الملوك، أو في تقديم الاستشارات والآراء، وكذا حضوراً في الحياة العلمية، سواء في بناء المدارس والإنفاق عليها من الأوقاف التي كانت تخصصها نساء بني رسول لهذا الغرض، أو في تحصيل العلوم أو في التعليم.

### التمهيد:

الأوضاع العامة التي ساعدت على بروز دور المرأة في الحياة السياسية في العصر الرسولي :

حدّدت وضع المرأة في اليمن، ودورها في الحياة العامة، مجموعة من العوامل، منها ما كان داخلياً، ومنها ما ارتبط بوضع المرأة في البلاد الإسلامية، في عصر بني رسول وما قبله.

ولنبداً بوضع المرأة ومكانتها في الحياة العامة في بقية الأقطار الإسلامية: فالواضح أن المرحلة التي عاصرت الدولة الرسولية، وما قبلها، قد شهدت حضوراً واضحاً للمرأة في الحياة العامة، فنساء العباسيين شاركن في الحقبة الأخيرة من عصر الدولة العباسية، في السياسة والإدارة، **وكن يباشرن الحكم نيابة عن أبنائهن أو معهم،** لاسيما الأطفال، وكان للمرأة في عصر الدولة الأيوبية - التي سبقت وعاصرت جزءاً من العصر الرسولي - دور في الحياة السياسية توجّج بمشاركة شجرت الدر زوجة الملك الصالح أيوب له في الحكم، ثم قيامها بأمر الدولة بعد وفاته. واستمرت مشاركة المرأة في الحياة العامة في العصر المملوكي، سواء في السياسة أو في مجالات الحياة العلمية، أو في غيرهما.

وفي اليمن؛ حظيت المرأة قبل العصر الرسولي بمكانة مهمة في المجتمع، وشاركت بناءً على ذلك في الحياة السياسية، فكانت الملكة بلقيس تحكم اليمن في مراحل تاريخية موغلة في القدم، قال تعالى علي لسان هدهد سليمان: "إني وجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ" حتى وصلت - قبيل العصر الرسولي - نساء إلى مراكز مرموقة في قيادة الدولة، فلمعت نساء مثل السيدة (أسماء الصليحي)<sup>(٢)</sup>، و(السيدة أروى بنت أحمد الصليحي)<sup>(٣)</sup>، وغيرهما ممن لم يأخذن حقهن في الذكر، ومما تجدر الإشارة إليه، أن هذه المكانة التي تمتعت بها المرأة في اليمن قبل العصر الرسولي، وتلك الأدوار التي قامت بها في الحياة السياسية، قد هيأت الأرضية المناسبة للمرأة في العصر الرسولي لأن تقوم بأدوار مهمة في الحياة العامة، والحياة السياسية على وجه الخصوص، وقدمت ثقافة عامة تتقبل مشاركة المرأة في إدارة الدول، أو المشاركة فيها على الأقل.

وهكذا انطلق الرسوليون في تعاملهم مع المرأة، وفي تمكينها من دورها في الحياة العامة، وفي إشراكها في إدارة الدولة، من معطيات خارجية وداخلية، فهم منذ البداية أتوا من خارج اليمن، فكانوا يعملون لدى العباسيين، ولا شك أنهم قد احتكوا بهم، ثم عملوا لمدة مع الأيوبيين ولا ريب أنهم قد تأثروا بتعاملهم مع المرأة، في تمكينها من المشاركة في الحياة العامة، ثم استمروا في التعاطي مع المماليك طوال عصر دولتهم. ومن المؤكد أن التأثيرات قد تحركت هنا وهناك فيما بينهما، وكان لأسلوب التعامل مع المرأة نصيب من ذلك التأثير والتأثر.

وكان للمعطي الداخلي دوره الواضح في تهيئة المجتمع، في اليمن، لتقبل مثل هذه الأدوار من المرأة من ناحية، وفي تشجيع بني رسول في إتاحة مجالاً لمشاركتها في الحياة العامة، وفي تشجيعها على الولوج إلى ميادين الحياة العامة، والقيام بأدوار في الحياة السياسية والاقتصادية والعلمية، وهي تحمل في خواطرها ذكرى بلقيس وأسماء، وأروى.

### مكانة المرأة في العصر الرسولي :

حظيت المرأة بمكانة فائقة وباحترام كبير في عصر الدولة الرسولية، ووضّح ذلك من أكثر من جهة، فأول ما يجد الباحث، بل والقارئ العادي، في مصادر تاريخ الدولة الرسولية، الألقاب التي تحلت بها المرأة الرسولية، التي تدل على التقدير الكبير والمكانة العالية للمرأة، من هذه الألقاب (الملكة)<sup>(٤)</sup>، و(أم الملوك)<sup>(٥)</sup> والجهة الكريمة، والدار الكريمة<sup>(٦)</sup>، وذات الشرف، والشريفة، وصاحبة القدر العالي، وذات المقام الرفيع والستر العالي، والحررة، وغيرها من الألقاب التي وصفت بها نساء بني رسول، ودلت على مكانة المرأة في العصر الرسولي، بل إن بعض المصادر تشير إلى أن بعض النساء، في العصر الرسولي، كن يتمتعن باحترام كبير في مجتمعهن، كان منهن مريم بنت محمد بن الحسن بن مرزوق، التي كان لها كرامات، وكانت من عالمات عصرها<sup>(٧)</sup>.

وكان من مظاهر اهتمام ملوك بني رسول بالمرأة؛ اصطحابها في رحلاتهم، سواء داخل اليمن أو خارجها، بما في ذلك معاركهم التي كانوا يخوضونها لتثبيت أركان حكمهم، في بداية عهد الدولة، أو في مواجهة الخارجين عليهم، وفي تنقلاتهم بين عواصم الدولة مثل تعز وزبيد، وغيرها، فكان الملك المظفر يصطحب بعض نساءه في زيارته لبعض المواقع في دولته، مثل المدن والمدارس وغيرها، وهو ما أكدته المصادر حيث يقول (ابن حاتم)<sup>(٨)</sup> : "ثم سار (الملك المظفر) إلى المدرسة المنصورية فجعل نزوله بها هو والجهات التي معه"، أو في رحلاتهم الخارجية لاسيما رحلاتهم إلى الحجاز - التي كانت جزءاً من الدولة الرسولية - للحج والعرة، سواء كانت زوجاتهم أو بناتهم أو أمهاتهم.

وتشير المصادر التاريخية إلى صور من إجلال بني رسول للمرأة، من ذلك أن الملك المظفر حج بوالدته، وكان يطوف حاملاً لها على ظهره<sup>(٩)</sup>، وكان الملك المجاهد يصطحب أمه في رحلته للحج<sup>(١٠)</sup>، ويجل أخته (الدار الفائزة)<sup>(١١)</sup> إجلالاً عظيماً.

وثمة مجموعة من المظاهر الأخرى دلت على المكانة الكبيرة التي تبوأتها المرأة في اليمن، في العصر الرسولي، تتضح في أسلوب تعامل السلاطين معهن، وطريقة مخاطبتهن، وتنفيذ طلباتهن، فهذا الملك المظفر يخاطب عمته (النجمية)<sup>(١٢)</sup> بعد أن ظفر بالسلطان، وهي (بحصن التعكر)<sup>(١٣)</sup>، بلغة كلها أدب ولطف بالرغم من أنها كانت تعمل لتحويل السلطان عنه: "إن رأيت أن تنزلي تلقي أخويك فافطي"<sup>(١٤)</sup>. وكان من مظاهر الاهتمام بالمرأة في العصر الرسولي، لاسيما نساء بني رسول، بناء المدارس بأسمائهن ومساعدتهن على القيام بغير ذلك من أعمال البر، فقد أسس الملك الظاهر مدرسة باسم أمه، بعد وفاتها، في المكان الذي دفنت فيه بزبيد، ووقف عليها الأوقاف<sup>(١٥)</sup>.

وكان اهتمام المؤرخين بالمرأة، في العصر الرسولي، أحد مظاهر المكانة التي حظيت بها، فذكر عدد من المؤرخين المعاصرين أدواراً للمرأة في مجريات الحياة في عصرها، وسجلت تراجم للنساء، وفعاليات الحياة العامة للمرأة، ومن ذلك النساء اللواتي كن يعتنقن الإسلام من اليهود وغيرهم، فيذكر (الخرجي)<sup>(١٦)</sup> في أحداث سنة ٧٩٦هـ - وهو مؤرخ الدولة الرسولية - أن امرأة من اليهود أسلمت، وأن القاضي فرّق بينها وبين زوجها اليهودي. ويذكر المؤرخون أن (بدرية بنت محمد)<sup>(١٧)</sup> كانت من المشاركات في سياسة عصرها.

وبالرغم من الاهتمام اللافت بالمرأة، في العصر الرسولي، فإن هناك بعض المظاهر تشذ عن هذا الاتجاه، من ذلك استخدام النساء رهائن لضمان تنفيذ المعاهدات والاتفاقات السياسية، بين السلاطين والأمراء والمعارضين السياسيين، ومع ذلك فقد كانت المرأة المرهونة تحاط بالعناية والرعاية، وتفرض شروط لضمان سلامتها، فقدم الملك المظفر كريمته رهينة لدى أم قطب الدين، لضمان وفائه بعدم إيذاها وابنها<sup>(١٨)</sup>. وكان يحدث أحياناً ما يسمى (بالزواج السياسي) فتستخدم المرأة للتقريب بين القوى المتصارعة، ولعقد التحالفات بين القوى المختلفة، فتذكر (المصادر)<sup>(١٩)</sup> أنه لما تقرر، في سنة ٧٧٨هـ، الصلح بين الإمام وهمدان، دبر الإمام الحيلة في أخذ صنعاء من أيدي الأشراف فخطب والدة الأمير (إدريس بن عبد الله بن داود)<sup>٢٠</sup>، فأجابه الأمير إدريس إلى مطلبه، وتزوج (صلاح بن علي)<sup>٢١</sup> بالشريفة (فاطمة بنت الحسين)<sup>٢٢</sup> التي كانت تحكم صنعاء وما حولها من البلاد<sup>(٢٣)</sup>.

### أثر المرأة في تولية السلاطين في العصر الرسولي:

لم يكن حضور المرأة في العصر الرسولي، في الحياة السياسية، مجرد حضور ترفي شكلي لإكمال المشهد، وإنما كان حضوراً مؤثراً في توجيه الأحداث، وترجيح بعض القوى والشخصيات المتنافسة على السلطة على بعضها الآخر، فأسهمت بعض النساء في اختيار السلاطين، سواء كانوا من أبنائهن أو من إخوانهن، أو من أزواجهن،

وفي تهيئة الظروف لاعتلائهم كرسي السلطة، أو في الحفاظ على سلطاتهم في أوقات الأزمات والاضطرابات.

فكان لـ (بنت جوزة)<sup>(٢٤)</sup> زوجة السلطان نور الدين، أثر في تفضيله ولديها المفضل والفائز على أخيهما المظفر، وعقد ولاية العهد للأفضل، بالرغم من أن المظفر أكبر منه، كما حملته على خلع ابن أخيه (أسد الدين)<sup>(٢٥)</sup> عن صنعاء وتولية ابنها المفضل مكانه<sup>(٢٦)</sup>.

وكان لأخت الملك المظفر (الدار الشمسي)<sup>(٢٧)</sup> دور مهم في تهيئة الظروف لتوليه حكم بني رسول، بعد مقتل والده الملك المنصور، سواء في التلّاف العسكر والأتباع<sup>(٢٨)</sup>، أو في شراء بعض القلاع، أو في كف بعض المناوئين<sup>(٢٩)</sup>، قبل أن يصل المظفر إلى دار ملكه زبيد<sup>(٣٠)</sup> إذ كان حينذاك بعيداً في (المهجم)<sup>(٣١)</sup>، ولما مات مالت إلى ابنه الملك المؤيد، وعملت على ترجيح كفته على أخيه الأشرف، وعندما عجزت عن ذلك خرجت معه من تعز إلى (الشحر)<sup>(٣٢)</sup>،<sup>(٣٣)</sup> وإن كان الأشرف لم يدم في الحكم أكثر من عام واحد، وآل الحكم من بعده إلى أخيه الملك المؤيد.

وكان لوالدة الملك المجاهد دور كبير في ترجيح كفته، في النزاع الذي نشأ على الحكم بينه وبين عمه المنصور بن المظفر، بعد وفاة أبيه الملك المؤيد، بعد أن مال المماليك مع عمه المنصور، وقبضوا المجاهد وأودعوه دار الأدب في حصن تعز، فتدخلت والدته المعروفة بـ (جهة صلاح)<sup>(٣٤)</sup>، واستخدمت الرجال وبذلت لهم المال حتى أخرجوه من سجنه، واستولى على الملك<sup>(٣٥)</sup>.

ولم تقف أم المجاهد عند هذا الحد، بل عملت على تثبيت أركان الحكم لابنها بشراء الحصون، والتلّاف المعارضين، فأشترت (حصن الدملة)<sup>(٣٦)</sup>، وأغدقت الأموال والهدايا على القائمين عليه، لاستمالتهم إلى ابنها المجاهد<sup>(٣٧)</sup>.

وعملت (جهة صلاح) أم الملك المجاهد، على استخلاصه من الأسر، عندما أسره المماليك في الحجاز واقتادوه إلى مصر، وأعادته إلى ملكه من جديد، بعد أن نابت عنه في إدارة اليمن في فترات غيابه<sup>(٣٨)</sup>.

وكان لوالدة السلطان الأشرف إسماعيل بن العباس، المعروفة بـ (جهة طغي)<sup>(٣٩)</sup> دور مهم في وصوله إلى حكم اليمن، بعد وفاة أبيه الملك الأفضل، عندما استدعت الأمراء وقادة الجند ووجوه الأشراف والمشايخ، وأغدقت عليهم الأموال، ووعدتهم بالتمكين لهم في دولة ابنها، إن هم أيدوه وانقادوا له، فكان لذلك أثر كبير في تهيئة الملك لابنها<sup>(٤٠)</sup>.

وهكذا قدمت لنا النصوص التاريخية، التي تعاملنا معها في هذه السطور، صورة واضحة للدور الأساسي الذي كانت تقوم به المرأة، في العصر الرسولي، في تولية السلاطين أو عزلهم.

### مباشرة المرأة للحكم في العصر الرسولي :

لم تقف مشاركة المرأة، في العصر الرسولي، في الحياة السياسية، عند التأثير في اختيارات الحاكمين وترجيح بعضهم على بعض، وإنما تعدته إلى المشاركة الفاعلة في الحكم، بل في أحيان كثيرة: الانفراد بحكم اليمن، أو أجزاء منه. وتشير المصادر إلى مناسبات عديدة باشرت فيها بعض نساء بني رسول حكم اليمن، فنصت اليمن في تلك الفترات بالعدل والاستقرار، ونالت إدارتهن للبلاد القبول ورضا الناس.

فباشرت أم الملك المجاهد حكم اليمن، في فترة غياب ولدها الملك المجاهد في مصر<sup>(٤١)</sup> مدة خمسة عشر شهراً، ضبطت فيها البلاد، ودوخت فيها الجبابرة من المناوئين، حتى وصل السلطان المجاهد من مصر<sup>(٤٢)</sup>، فنصت بالعدل والإحسان والأمن والاستقرار<sup>(٤٣)</sup>.

وكان لبعض النساء، من خارج البيت الرسولي، مشاركة في الحياة السياسية، فحكمن بعض أقاليم اليمن، سواء كان تحت مضلة الدولة الرسولية أم خارج سلطاتها، فتذكر (المصادر)<sup>(٤٤)</sup> في أحداث سنة ٧٤٠هـ، أن الملك المجاهد وليّ على (المعازبة)<sup>(٤٥)</sup> في تهامة امرأة تعرف بـ(بنت عاطف)<sup>(٤٦)</sup> فانقادوا إليها وامتروا بأمرها. وحكمت صنعاء امرأتان من خارج البيت الرسولي، ففي سنة ٧٩٤هـ استخلف (الإمام المنصور) والدته (فاطمة بنت أسد الدين) على صنعاء، عندما توجه إلى (جهران)<sup>(٤٧)</sup> لمواجهة بعض خصومه، فحفظت صنعاء وغيرها من دولة ابنها حتى صعدة، وأرسلت بالمدد إلى ابنها في (جهران)<sup>(٤٨)</sup>. وبعد ما يقرب من نصف قرن حكمت صنعاء امرأة أخرى، هي الشريفة (فاطمة بنت الحسين بن صلاح الدين)<sup>(٤٩)</sup> وما تبعها من أقاليم، بعد وفاة أهل بيتها الذين كانوا يحكمون صنعاء سنة ٨٤٠هـ<sup>(٥٠)</sup>.

وهكذا تتضح مكانة المرأة اليمنية في مجتمعها، والمؤهلات التي تمتعت بها، والأدوار التي قامت بها في توجيه الأحداث في عصرها، من خلال هذه الصور التي قدمناها، فهي تحكم باستقلالية تامة، وتقف على رأس هرم السلطة في بعض الأحيان.

### مشاركة المرأة في بعض القضايا السياسية في العصر الرسولي :

كان للمرأة، في العصر الرسولي، حضور واضح في مراكز صناعة القرار، وفي المداولات التي تسبق اتخاذ القرارات المهمة في الدولة، وكان يعد برأيها ويؤخذ به في كثير من الأحيان، فهي جزء من الهيئات الاستشارية التي يرجع إليها في اتخاذ بعض القرارات المصيرية، مثل اختيار الحكام، والولاة، وفي إدارة الدولة، حتى في بعض المواجهات العسكرية، وفي غير ذلك من القضايا. ونورد في هذا السياق بعض النماذج التي تبين استشارة المرأة، في بعض القضايا، في شؤون للدولة، وهي على سبيل المثال لا الحصر: استشارة الملك المظفر اخته "الدار الشمسية" في قضايا الحكم والدولة، وكان لا يخالف رأيها<sup>(٥١)</sup>.

بل كانت المرأة، في عهد بني رسول، تستشار في تعيين السلاطين، وهو أمر يبين المكانة المرموقة للمرأة، لأنها تشارك في تحديد رأس الدولة؛ وهو دور بدأ بالضمور والاختفاء في المراحل التاريخية اللاحقة، فعندما توفي الملك الأشرف عمر بن يوسف، سنة ٦٩٦هـ<sup>(٥٢)</sup>، كان لبعض نساء بني رسول دور في ترشيح خليفته، الملك المؤيد، للحكم، وهو ما يشير إليه (ابن عبد المجيد)<sup>(٥٣)</sup> في قوله: "لما دخلت سنة ٦٩٦هـ توفي السلطان الملك الأشرف، فأجمع أراء من (بالحصن)<sup>(٥٤)</sup> من الخاصة والعامه و(الستور)<sup>(٥٥)</sup> المصونة، على تولية السلطان الملك المؤيد.

### شفاعة المرأة لدى السلاطين:

من الثابت أن الشفاعة لا تكون إلا من الشخصيات التي تتمتع بنفوذ كبير لدى من يشفع عنده، لكن المرأة الرسولية كانت تقوم بمثل هذا الدور، فكانت تشفع للمذنبين ولبعض المعارضين السياسيين - الذين كانوا يقعون تحت طائلة العقاب - لدى السلاطين، وهو أمر يشير إلى الحضور المكثف للمرأة في الحياة السياسية، وإلى مكانتها لدى السلاطين، وإلى وعيها بالقضايا السياسية التي تعتمل في مجتمعها، وإلى السياسة العامة، للدولة الرسولية، التي اتسمت باللين والمدارة وغيض الطرف، وترك هامش كبير للآراء الأخرى، وهي أمور أطالت من عمر الدولة، وسمحت بالتنوع السياسي والمذهبي، والأهم من ذلك، في سياق هذا البحث: إعطاء المرأة مساحة للقيام بمثل هذه الأدوار، لتخفيف العقوبات أو إيقافها، للتقليل من خصوم الدولة ومناوئتها، ولحفظ كبرياء السلاطين وهيبة الدولة.

وتقدم المصادر التاريخية صوراً لقيام بعض نساء بني رسول في الشفاعة للناس، سواء كانوا من الخاصة أم من العامة، لاسيما المعارضين السياسيين، أو بعض من يعمل في الجهاز الإداري للدولة، فشفت الدور الكريمة (بنت أسد الدين) لدى زوجها الملك المؤيد، في إطلاق القاضي (حسان بن أسعد بن محمد العمراني) وابن أخيه (عمران بن عبد الله بن أسعد)، وبعض أهلها، فأطلقهم، ثم إنه قبض عليهم وأودعهم السجن بعد وفاة زوجته بنت أسد الدين<sup>(٥٦)</sup>، فمات القاضي حسان في السجن، ومكث الباقون حتى قدمت (ماء السماء) ابنة الملك المؤيد من (ظفار الحبوطي) فشفت له عند والدها قائلة: "اجعلهم ضيافتي"، فأمر السلطان بإطلاقهم من السجن<sup>(٥٧)</sup>، وكانت (جهة معتب)<sup>(٥٨)</sup> كثيرة التوسط للناس لدى السلاطين، سواء زوجها السلطان الأشرف إسماعيل أو لدى ابنها السلطان أحمد الناصر، وهو ما يؤكد (الخزرجي)<sup>(٥٩)</sup> في قوله: "وكانت (جهة معتب) واسطة خير إلى السلطان لكافة الناس".

وفي المقابل، كان العطاء يشفعون لبعض نساء بني رسول لدى السلاطين، فشفع (الشيخ الزين) (جهة شقيق) أخت السلطان الظاهر، لدى ابن أخيها (الأشرف بن الظاهر) فقبل شفاعته فيها، ولو أنه اغتالها بعد عودتها إليه<sup>(٦٠)</sup>.

### تدخل المرأة لتسوية الخلافات داخل البيت الرسولي :



ومما يدل على مستوى الوعي السياسي لدى المرأة الرسولية، وحرصها على حفظ سلطان بني رسول ودوام دولتهم - وإدراكها نتائج الخلافات الداخلية، وما يمكن أن تؤدي إليه من صراعات في قمة السلطة، تؤدي في نهاية الأمر إلى زوال السلطان عنهم - أنها كانت تتدخل، في كثير من الأحيان، لتسوية الخلافات بين السلاطين وإخوانهم، أو بين الأمراء الرسوليين وأعوانهم، فكان لزوجته الملك المنصور المعروفة بأم قطب، دور في إنهاء الخلاف بين الملك المظفر، الذي خلف والده الملك المنصور، وبين إخوته من أبنائها الذين تمردوا عليه في حصن الدمولة، فنزلت من الحصن المحاصر، وطلبت مقابلة الملك المظفر، وجرى بينهما حوار كان مما قالت له فيه: "سبحان الله أما هؤلاء إخوتك فكيف تحاصرهم؟ فقال لها أنت الذي أردت هذا الأمر، وطلبت الاستيلاء على المال، ولم يخلفه الوالد لنقتل عليه بل نستعين به على خارجي يخرج علينا وننقله على من يحمي عنا، فقالت: قد جرى ما جرى ونعود إلى ما يعاد إليه، فقال ذلك إليك ولا خلاف مني"<sup>(١١)</sup>.

بهذا الحوار العقلاني؛ الهادئ استطاعت هذه المرأة أن تنهي خلافاً كان من الممكن أن يؤدي إلى اهتزاز في قمة السلطة، وسينتهي بقتل أحد الأخوين، وسيكون لهذا الحدث ما بعده من تأثير سلبي داخل البيت الرسولي، وعلى سلطانهم في اليمن. وعندما رجع الملك المجاهد من مصر؛ طلبت منه أمه المعروفة بجهة صلاح، أن يطلق جميع من في السجن (من يعرفون اليوم بالسجناء السياسيين)، من بني رسول<sup>(١٢)</sup> فأطلقهم وأسكنهم قرية السلامة<sup>(١٣)</sup>.

### مشاركة المرأة في إدارة المواجهات العسكرية:

قد تبدو مشاركة المرأة في إدارة المواجهات العسكرية، غريبة لدى بعض المطلعين على التاريخ الإسلامي، خصوصاً أولئك الذين رسخت في تصوراتهم صورة نمطية للمرأة، في أنها مجردة من أي دور في الحياة السياسية لمجتمعها، وأنها هضمت وصودرت حقوقها في إبداء الرأي، والمشاركة في صنع القرارات المهمة.

لكن مصادر التاريخ الإسلامي تقدم ما يؤكد على أن المرأة المسلمة كانت مؤثرة في مجتمعها، وأن مجالات عديدة أسهمت فيها، من بينها المواجهات العسكرية، سواء في تقديم العون للمقاتلين، أم في المشاركة الفعلية في المعارك بالسلاح إلى جانب الرجل، لكن مصادر التاريخ اليمني؛ في العصر الرسولي، تقدم لنا أدواراً للمرأة في المعارك العسكرية، تخطيطاً، وإدارة.

فكان (لبنت جوزة) أربعمائة فارس تسيطر بهم على قلعة الدمولة، وتغزو بهم إلى (الحوبان)<sup>(١٤)</sup> بعد مقتل الملك المنصور<sup>(١٥)</sup>. وفي الوقت ذاته عندما علمت (الدار الشمسي) بمقتل والدها الملك المنصور، استولت على مدينة زبيد، بمساعدة الخدم، ومنعت (فخرالدين) والمماليك من دخولها، حتى أتى أخوها الملك المظفر<sup>(١٦)</sup>.

وثمة أدوار للمرأة في إدارة الحروب والمواجهات العسكرية، خارج البيت الرسولي، فقد جمعت إحدى الشريفات وتعرف (بامرأة أبي سفين) عدداً من القبائل

اليمنية لاستنقاذ زوجها (أبا سفين) وولدها من أمير حرص، بعد أن وقع في أسره<sup>(١٧)</sup>، ومنعت (أم إدريس) زوجها الإمام من دخول صنعاء، سنة ٧٨٣هـ، فخرج منها إلى حصن (الفص)<sup>(١٨)</sup>، وساندت فاطمة بنت الأمير أسد الدين ولدها علي بن صلاح عسكرياً ضد خصومه، سنة ٨٠٢هـ، في جهران، فأرسلت إليه المدد من المقاتلين والعتاد<sup>(١٩)</sup>.

### الخاتمة :

وهكذا يتضح لنا، من خلال هذه الدراسة المتواضعة، لدور المرأة في الحياة السياسية، في عصر الدولة الرسولية - أن المرأة حظيت بمكانة مرموقة في مجتمعتها، وأنها كانت حاضرة في الحياة السياسية، مشاركة في مجمل فعاليتها، بدءاً من تنصيب السلاطين، ومروراً بالمشاركة في الحكم والافتراء به أحياناً، وتسوية النزاعات التي كانت تنشأ بين أفراد البيت الرسولي، وانتهاءً بإدارة المواجهات العسكرية.

### نتائج الدراسة :

- ١- أن القيم الإسلامية لا تعارض مشاركة المرأة في الحياة السياسية، فكان رسول الله يستشير بعض نساءه في بعض القضايا السياسية. وأن الذي أعاق المرأة في مراحل لاحقة بعض التقاليد القبلية.
- ٢- أن المراحل السابقة للعصر الرسولي، سواء في اليمن أو في الدولة الإسلامية قد هيأت لتقبل الدولة والمجتمع، في اليمن، دوراً للمرأة في الحياة السياسية في العصر الرسولي.
- ٣- أن سلاطين بني رسول كانوا يدفعون المرأة دفعاً للمشاركة في الحياة السياسية.
- ٤- أن مشاركة المرأة في الحياة السياسية في العصر الرسولي - كما تقدمه المصادر - ارتبطت بشرائح محددة، فاقترنت على نساء بني رسول، ونساء بعض الولاة والمشايخ والأشراف.
- ٥- أن كثيراً من زوجات الملوك الرسوليين كن من بنات العلماء والفقهاء، وهو أمر يشير إلى درجة إجلال ملوك بني رسول للعلماء، وعلى التظيم والوعي الذي أحرزته بنات الفقهاء.

## الهوامش

- ١ - انظر : المقدم. محمد أحمد إسماعيل. المرأة بين تكريم الإسلام وإهانة الجاهلية، دار الإيمان، الإسكندرية، ط١، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.
- ٢ - زوجة الداعي علي بن محمد الصليحي، وقد كانت امرأة شريفة عفيفة عاقلة، وهي والدة المكرم أحمد بن علي بن محمد الصليحي، وكل إليها زوجها التدبير فلم يكن يخالفها في غالب الأمور، وكانت إذا حضرت مجلساً لا تستر وجهها عن الحاضرين، وقد عملت على تولية أخيها التهام (الخرجي). العقد الفاخر الحسن، ج٥، ص ٢٤٨٥، انظر: عفت وصال حمزة. نساء حكمن اليمن، ص ١٣٥، ١٥٢، دار ابن حزم، بيروت، ط١٤٢٠، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م).
- ٣ - الحرة الملكة (سيدة) بنت أحمد بن محمد بن جعفر بن موسى الصليحي، اختلف في اسمها، فذهب بعضهم إلى أن السيدة صفة وليست اسماً، مثل محمد بن إسماعيل الكبسي في كتابه اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية، ص ٣٦، والحبشي في معجمه ص ١١، بينما ذهب آخرون إلى أن اسمها سيدة وليس أروى، بمعنى أن السيدة اسم وليس صفة، ولدت سنة ٤٤٠هـ وتولت أسماء بنت شهاب كفالته وتأديبها، كانت كاملة المحاسن تجيد القراءة والكتابة وتحفظ الشعر، راوية للأخبار عارفة بالأنساب والتواريخ، وكانت توصف ببلقيس الصغرى لرجاحة عقلها وحسن تدبيرها للملك، تزوجها المكرم أحمد بن علي بن محمد الصليحي سنة ٤٥٨هـ، في حياة أبيه، فلما توفي علي بن محمد الصليحي ورجع المكرم بوالدته إلى صنعاء بعد الاعتقال فوض أمور مملكته كلها إلى زوجته أروى، فاستبدت بالأمر، وانتقلت من صنعاء إلى جبلة بجيش جرار، توفيت بجبلة سنة ٥٣٢هـ وقد بلغت بضعا وتسعين سنة. (الخرجي). العقد الفاخر الحسن، ج٥، ص ٢٤٩٠، ٢٤٨٨، ٢٤٩٧، عمارة بن أبي الحسن الحكمي اليمني، تاريخ اليمن (المعروف بـ تاريخ عمارة اليمني)، ص ١٧٢، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٢، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م، انظر : عفت وصال حمزة، نساء حكمن اليمن، ١٥٥، ٢٠٢).
- ٤ - أطلق على الدار الشمسي أخت السلطان الملك المظفر لقب الملكة الشمسية، وقد كان لها دور كبير في ترجيح كفة أخيها الملك المظفر بالحكم بعد أبيها الملك المنصور، بنت عدداً من المدارس، توفيت سنة ٦٩٤هـ، قال عنها الإمام المطهر عندما بلغه موتها " ماتت بلقيس الصغرى" ( ابن عبد المجيد. عبد الباقي ت ٧٤٣هـ. بهجة الزمن في تاريخ اليمن، ص ١٤٤، ١٤٥، تحقيق عبد الله محمد الحبشي ومحمد أحمد السنباني، دار الحكمة اليمنية، صنعاء، ط١، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، الحمزي. عماد الدين إدريس بن علي. تاريخ اليمن من كتاب كنز الأخبار في معرفة السير والأخبار، ص ١٢١، تحقيق: عبد المحسن المدعج، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، ط١، ١٩٢٢م).

- ٥ - أم الملوك : هي أم الملك الظاهر يحيى بن إسماعيل، جهة الطواشي جمال الدين فرحان، لها مآثر بمكة وبتعز وبزبيد، منها المدرسة الفرحانية بزبيد، بنتها سنة ٨١٥هـ، ماتت سنة ٨٣٦هـ. ( ابن الديبع الشيباني. بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد، ص ١٠٢، تحقيق : عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٢، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م، بامخرمة. أبو محمد الطيب بن عبد الله بن أحمد ت ٩٤٧هـ، قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، ج ٣، ص ٣٥٤٦، تحقيق محمد يسلم عبد النور، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، السخاوي. شمس الدين محمد بن عبد الرحمن. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج ١٢، ص ١٥٥، دار الجيل الجديد، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ).
- ٦ - ابن حاتم. السمط الغالي الثمن، ص ٥٦٦.
- ٧ - الشرجي. أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف ت ٨٩٣هـ. طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص، ص ٣٠٥، الدار اليمنية، صنعاء، ط١، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
- ٨ - الأمير بدر الدين محمد ( ت بعد ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م )، السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن، ص ٣٤٨، تحقيق ركس سمث، لوزاك، لندن، ١٩٧٤م.
- ٩ - ابن حاتم. السمط الغالي الثمن، ص ٣٥٠.
- ١٠ - المقرئزي. السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ١٨٤.
- ١١ - الدار الفائز : ابنة السلطان الملك المؤيد داود بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول، تعرف بالدار الفائز نسبة إلى الطواشي كمال الدين فائز بن عبد الله المؤيدي، شقيقة السلطان الملك المجاهد، عرفت بعلو الهمة وسمو النفس، بنت مسجداً في زبيد قبالة باب سهام، وعدداً من المرافق العامة مثل أسبلة الماء للناس وللدواب، وأوقافاً للفقراء والمساكين في وادي زبيد، توفيت سنة ٧٦٨هـ ( الخرجي. العقد الفاخر الحسن، ج ٥، ص ٢٥٠٣).
- ١٢ - بنت الأمير شمس الدين علي بن رسول، أما نسبتها الدار النجمي فإلى زوجها الأمير نجم الدين أحمد بن أبي بكر، أحد الأمراء الذين جاؤوا مع الأيوبيين من مصر، عرفت بالصلاح والإحسان، بنت عدداً من المدارس مثل المدرسة النجمية نسبة إلى زوجها، وبنت مدرسة أخرى نسبتها لأخيها شمس الدين الذي توفي بمصر، وكانت تنفق على من بالمدرسة من طلبة وفقهاء وأيتام، كانت غالباً تلبس القطن من غزل يدها، توفيت ودفنت بذي جبلة، الخرجي. العقد الفاخر الحسن، ج ٥، ص ٢٥٠٨، ٢٥١٠، ٢٥٠٩.
- ١٣ - التعكر. جبل مطل على جبلة، وفيه قلعة عظيمة مكيئة في مخلاف جعفر، والمؤرخون على خلاف في ضم التاء وفتحها، فيورد ياقوت الحموي في معجم البلدان التعكر بضم الكاف، فيما يورده الحجري بفتح الكاف، ويوجد في عدن حصن يعرف بالتعكر (الحجري. مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج ١، ص ٣٦، ٣٧، تحقيق إسماعيل الأكوع، وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء، ط١، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م).

- ١٤- الجندي. السلوك في طبقات العلماء والملوك، ج٢، ص ٥٤٦، الخزرجي. العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، ج١، ص ٩٥.
- ١٥- زبيد مساجدها، ص ٩٠-٩١.
- ١٦- العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، ج٢، ص ٧٨٦.
- ١٧- بدرية بنت محمد بن علي بن صلاح، كانت زوج الناصر بن محمد ثم قرر الفقهاء فسخ عقد زواجها منه أثناء غيابها، فتزوجها الإمام المظهر بن محمد بن سليمان، كانت موجودة سنة ٨٤٩هـ ( كحالة. معجم النساء، ص ٣٤).
- ١٨- ابن حاتم. السمط الغالي الثمن، ص ٢٩٥-٢٩٦.
- ١٩- يحيى بن الحسين. غاية الأمان في أخبار القطر اليماني، ج٢، ص ٥٢٧، ٥٢٩، تحقيق. سعيد عبد الفتاح عاشور ومحمد مصطفى زيادة، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.
- ٢٠- إدريس بن عبد الله
- ٢١- صلاح بن علي
- ٢٢- فاطمة بنت الحسين
- ٢٣- يحيى بن الحسين. غاية الأمان في أخبار القطر اليماني، ج٢، ص ٥٧٣.
- ٢٤- ابنة الأتابك سيف الدين، وأرملة الملك المسعود الأيوبي آخر ملوك الأيوبيين في اليمن، لكنها تعرف ببنت جوزة، ثم تزوجها الملك نور الدين عمر بن علي بن رسول، فولدت له المفضل والفائز ( الحداد. التاريخ العام لليمن، ج٢، ص ٤٥٤، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م ) [http://Archiv\(ba2004/](http://Archiv(ba2004/)
- ٢٥- الأمير أبو الحسن محمد بن الحسن بن علي بن رسول الجفني الغساني، يلقب بأسد الدين، أحد قادة بني أيوب العسكريين، ابن أخ السلطان نور الدين عمر بن علي بن رسول، ولاء صنعاء وكلفه ببسط سيطرة الدولة على اليمن العليا، فاستولى على صنعاء وحكمها حكماً شبه مستقل، ولما ولي المظفر تقرب منه أسد الدين، وزوج السلطان المظفر ابنته، توفي سنة ٦٧٧هـ، وعمره نيف وستون سنة (الخرجي. العقد الفاخر الحسن، ج٤، ص ١٨٥٥، ١٨٥١).
- ٢٦- العقد الفاخر الحسن، ج٤، ص ١٨٥١، انظر الأكوخ. إسماعيل بن علي، الدولة الرسولية في اليمن، ص ٣٢، دار جامعة عدن، عدن، ٢٠٠٣م، الفيضي. الدولة الرسولية في اليمن ( دراسة في أوضاعها السياسية والحضارية ) ص ٤٧، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م.
- ٢٧- الدار الشمسي نسبة إلى أخيها الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر، ابنة السلطان الملك المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول، كانت من أعيان النساء وأعقلهن، عفيفة حازمة، كان لها دور كبير في وصول أخيها الملك المظفر إلى عرش الدولة الرسولية بعد وفاة والده الملك المنصور، لها مآثر كثيرة في نواحي اليمن من مدارس

ومساجد وأوقاف، توفيت سنة ٦٩٥هـ، وأوصت بأملاتها لابن أخيها المؤيد ( الخزرجي. العقد الفاخر الحسن، ج ٥، ص ٢٤٩٧، ٢٤٩٨، عبد الباقي. بهجة الزمن، ص ١٤٤، الجندي. كتاب السلوك، ج ٢، ص ٤١، الحمزي. تاريخ اليمن من كتاب كنز الأخيار، ص ١٠٠، هامش العطايا السنوية، ص ٢٤٩).

٢٨ - لما بلغ الملكة الدار الشمسي موت والدها أخرجت خادمها تاج الدين بدر من السجن وأنفقت على من بزبيد من الصكر وغيرهم من العوارين من أهل المدينة وحفظت المدينة من المماليك الذين أتوا مع فخر الدين للاستيلاء على المدينة ( عبد الباقي. بهجة الزمن، ص ١٤٤، ١٤٥، الجندي. بهاء الدين محمد بن يوسف، السلوك في طبقات العلماء والملوك، ج ٢، ص ٤١، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط ٢، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م، الحمزي. تاريخ اليمن من كتاب كنز الأخيار، ص ١٠٠، هامش العطايا السنوية، ص ٢٤٩).

٢٩ - الحمزي. عماد الدين إدريس بن علي. تاريخ اليمن من كتاب كنز الأخيار في معرفة السير والأخبار، ص ١٠٠، تحقيق: عبد المحسن مدعج، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، ط ١، ١٩٩٢.

٣٠ - دخل الملك المظفر زبيد وملوكها في ذي القعدة سنة ٦٤٧هـ ( الوصابي. وجيه الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن محمد الحبشي ت سنة ٧٨٢هـ، تاريخ وصاب، ص ١٤٨، تحقيق: عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط ٢، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م، مجهول. تاريخ الدولة الرسولية في اليمن، ص ٢٧، تحقيق: عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م).

٣١ - المهجم: إحدى مدن تهامة قبالة ساحل اللحية شرق مدينة الزيدية على ضفاف وادي سررد، كانت ثاني مدن تهامة في العصر الرسولي، بها جامع كبير جدد بناءه الملك المظفر ( الهمداني. الحسن بن أحمد بن يعقوب. صفة جزيرة العرب، ص ٩٧، تحقيق: محمد بن علي الأكوغ، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط ٢، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م، ابن الديبع. قرّة العيون، ص ١٧١).

٣٢ - الشحر: بكسر الشين وسكون الحاء المهملة - كما قال ياقوت - الساحل الضيق، فيما يعزي با مخرمة سبب التسمية إلى أن سكانها كانوا جيلاً من المهرة يسمون الشحراء بفتح الشين، وهي الآن مدينة معروفة على ساحل حضرموت، وإليها ينسب اللبان الشحري، وهي بلاد كثيرة الآبار والنخيل. ( ياقوت شهاب الدين أبو عبد الل الحموي. معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٢٧، ٣٢٨، دار الفكر، بيروت، د. ط، د. ت. الحجري. مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج ٢، ص ٤٤٧، المقحفى، معجم المدن والقبائل اليمنية، ص ٢٢٧).

٣٣ - ابن الديبع، قرّة العيون في أخبار اليمن الميمون، ص ٤٠٣.

٣٤ - جهة صلاح أو الدار الصلاحي، اسمها آمنة بنت الشيخ إسماعيل بن عبد الله الحلبي المعروف بالنقاش، زوجة السلطان المؤيد داوود، وأم ابنه السلطان الملك المجاهد علي بن داوود، كانت، كما تصفها المصادر، شريفة النفس عالية الهمة رفيعة الأخلاق حسنة التدبير سديدة الرأي لبيبة رشيدة عاقلة، كثيرة الصدقات تحب العلماء وتقربهم، تقوم بالوافدين والمنقطعين، تدور على بيوت الفقراء وتتفقدهم وتواسيهم بالعطايا، أنشأت عدداً من المدارس والخانقوات والمساجد، منها المدرسة الصلاحية بزبيد، ومدرسة ومدرسة في قرية المسلب بوادي زبيد وأخرى في قرية السلامة، وخانقاه أمام المدرسة الصلاحية، ومسجد في قرية التريبة، وآخر في المجلية بتعز، توفيت في مدينة تعز سنة ٧٦٢هـ (الخرجي). العقد الفاخر الحسن، ج ٥، ص ٢٤٩٩، الحبشي. عبد الله محمد. معجم النساء اليمنيات، ص ١٨، ١٩، دار الحكمة اليمنية، صنعاء، ط ١، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م، عبده علي هارون. الدر النضيد في تحديد معالم وآثار مدينة زبيد، ص ٧٠٤، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م).

٣٥ - لما توفي الملك المؤيد داود بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول واستولى ولده المجاهد علي المملكة اليمنية بأسرها تأمر عليه المماليك واستمالوا عمه المنصور أيوب بن المظفر يوسف وأطمعوه في الملك، فلزموا المجاهد في قصر ثعبات وحملوه إلى عمه المنصور فأودعه دار الأدب من حصن تعز، واستولى المنصور على الملك، ثم أن والدته المجاهد المعروفة بجهة صلاح استخدمت رجالاً وبذلت لهم الغرائب الجزيلة فقصدوا الحصن ليلاً وطلعوا من ناحية الشريف بمساعدة جماعة من داخل الحصن، فلما صاروا في الحصن دخلوا على المنصور، وساروا به إلى مجلس المجاهد، ثم سجنوه وأخرجوا المجاهد من سجنه، وبذلك استولى على الملك مرة ثانية بمساعدة والدته (الخرجي). العقد الفاخر الحسن، ج ٥، ص ٢٤٩٩، با مخرمة. تاريخ ثغر عدن، ص ١٤٥، ١٤٦، انظر كذلك الحبشي. معجم النساء اليمنيات، ص ١٨، ١٩).

٣٦ - الدملوة : بضم أوله وسكون ثانيه وضم اللام وفتح الواو، حصن عظيم باليمن بمحافظة تعز في عزلة الصلو، فيه قلعة في أعلى قمة في جبال الصلو، كان يسكنه آل زريع، وتسمى القلعة كذلك بقلعة أبي المغلس، يصعد إلى الحصن بسلمين، وفي الحصن مسجد وبركة للماء (الحجري). مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج ١، ص ٢٣٦، ٢٣٧).

٣٧ - با مخرمة. تاريخ ثغر عدن، ص ١٧٧.

٣٨ - المقريري. السلوك لمعرفة نول الملوك، ج ٢، ص ١٨٤.

٣٩ - ابنة الشيخ جمال الدين محمد بن عبد الله البركاتي من ناحية لحج أبين، والدته السلطان الأشرف إسماعيل بن العباس، عرفت بجهة طغي نسبة إلى الطواشي جمال الدين طغي بن عبد الله الأفضل، عرفت بالعقل والحزم، لما مات الأفضل قامت وشمرت عن ساعد الجد، واستدعت الأمراء وأعيان العسكر ووجود الأشراف ومشايخ العرب وأمرت بالنفقة على سائر العسكر، وعلى الكافة في القيام بطاعة الله، ولولدها السلطان الأشرف، ووعدهم بما

تطبيب به نفوسهم فاتضوا جميعاً تحت طاعته وانقادوا له، وكان لها دور في إنشاء المرافق العامة مثل المدارس والمساجد والسقايات، والإنفاق على الفقراء والمساكين، كثيرة العتق للعبيد والجواري، توفيت سنة ٥٧٨٤هـ ( الخزرجي. العقد الفاخر الحسن، ج ٥، ص ٢٥٠٢، الحبشي. معجم النساء اليمنيات، ص ٥٥).

- ٤٠ - الحبشي. معجم النساء اليمنيات، ص ٥٥.
- ٤١ - المقرئزي. السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ١٨٤، ١٨٧، ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٣، ص ١٦٤ انظر كحالة. عمر رضا، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، ج ١، ص ٥، مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ط، د.ت.
- ٤٢ - الخزرجي. العقد الفاخر الحسن، ج ٥، ص ٢٥٠٠.
- ٤٣ - الخزرجي. العقد الفاخر الحسن، ج ٥، ص ٢٥٠٠، كحالة. أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، ج ٣، ص ٥.
- ٤٤ - ابن الديبع. قرّة العيون في أخبار اليمن الميمون، ص ٣٣٨، يحيى بن الحسين. غاية الأمان في أخبار القطر اليماني، ج ٢، ص ٥١٣، الحبشي. معجم النساء اليمنيات، ص ٣٩.
- ٤٥ - هم بعض سكان تهامة بلادهم بين حيس وزبيد
- ٤٦ - كانت شيخة على قبيلة المعازبة، تقود قومها على دابة أو جمل وتتقدمهم سنة ٥٧٤٠هـ، وكانت من النساء العاقلات ( الحبشي. معجم النساء اليمنيات، ص ٣٩ )
- ٤٧ - جهران : سهل فسيح على بعد (٦٦) كيلو متر إلى الجنوب من صنعاء، من أعمال آنس محافظة نمار، ينسب إلى جهران بن يحصب بن دهمان بن مالك، من ولد سبأ الأصغر، ويعرف بقاع جهران ( المقحفي. إبراهيم أحمد، معجم المدن والقبائل اليمنية، ١٢٥، ١٢٦، دار الكلمة، صنعاء، ١٩٨٥م).
- ٤٨ - الحبشي. معجم النساء اليمنيات، ص ١٥٢.
- ٤٩ - فاطمة بنت الحسين بن صلاح الدين
- ٥٠ - يحيى بن الحسين. غاية الأمان، ج ٢، ص ٥٧٣.
- ٥١ - الخزرجي. العقود اللؤلؤية، في تاريخ الدولة الرسولية، ج ١، ص ٢٤٦، الزركلي. الأعلام، ج ٢، ص ٣٢٩، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٥، ٢٠٠٢م.
- ٥٢ - ابن الديبع. قرّة العيون في أخبار اليمن الميمون، ص ٤٠٩.
- ٥٣ - بهجة الزمن، ص ١٧٦.
- ٥٤ - المقصود به حصن تعز ( قلعة القاهرة الآن ) كان اسم الحصن تعز، فيما كانت المدينة التي يطلق عليها الآن تعز تعرف بذي عدينة، وشيئاً فشيئاً بدأ اسم الحصن ينسحب على المدينة، فأطلق اسم الحصن على المدينة، وكان الحصن مقراً للحكم في العصر الرسولي، وفي العصور التالية، على أن أول من أقام فيه كما تشير المصادر عبد الله الصليحي، وفيه دار للأدب (سجن) للمعارضين السياسيين ( الحجري. مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج ٢، ص ٦٤٦، المقحفي. معجم المدن والقبائل اليمنية، ص ٦٩، ٣٢٢).



- ٥٥- الستور : لقب للمرأة المجلة المحتجبة عن الناس، كان مستعملاً في العصر الرسولي للدلالة على نساء بني رسول لاسيما زوجات السلاطين والأمراء.
- ٥٦- الخزرجي. العقد الفاخر الحسن، ج٢، ص ٦٧١، ٦٧٢، با مخزومة. تاريخ ثغر عدن، ص ٨٠، انظر : الحبشي. معجم النساء اليمنيات، ص ٣٧.
- ٥٧- الخزرجي. العقد الفاخر الحسن، ج٢، ص ٦٧٣.
- ٥٨- جهة معتب : هي جهة الطواشي جمال الدين معتب بن عبد الله الأشرفي، والد الملك الناصر أحمد بن السلطان الملك الأشرف إسماعيل بن العباس بن علي بن داوود بن يوسف بن عمر بن علي رسول، اجتمعت فيها صفات الحلم والعفة والكرم، لها كثير من المآثر الدينية، لعل أهمها المدرسة المعتبية في ناحية الواسطة بمدينة تعز، وقد رتبت فيها فقهاء ومحدثين وطلبة، ومعيدا، وأيتاما، والمدرسة ما زالت إلى الآن وان اقتصررت وظيفتها على أداء الصلوات الخمس، وكانت مهتمة بالمرافق العامة مثل إصلاح الطرقات العامة، وتقديم الخدمات للمارة فيها مثل أسبلة الماء وتمهيد الطرقات، توفيت بدار النصر بزبيد سنة ٧٩٦هـ ( الخزرجي. العقد الفاخر الحسن، ج٥، ص ٢٥٠٤، ٢٥٠٥).
- ٥٩- العقد الفاخر الحسن، ج٥، ص ٢٥٠٥.
- ٦٠- البريهي. عبد الوهاب بن عبد الرحمن، طبقات صلحاء اليمن، تحقيق : عبد الله الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٢، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م
- ٦١- ابن حاتم. السمط الغالي الثمن، ٢٩٥ - ٢٩٦.
- ٦٢- هم ابن عمه محمد بن المنصور بن المظفر، وأحمد بن الناصر بن عمر الأشرف، وعمر بن حسن بن داوود بن يوسف المظفر (يحيى بن الحسين. غاية الأمانى في أخبار القطر اليماني، ج٢، ص ٥١٦).
- ٦٣- يحيى بن الحسين. غاية الأمانى، ج٢، ص ٥١٦. <http://ArchiveShiba.com>
- ٦٤- إلى الشمال من مدينة تعز، وهو سهل فسيح فيه مدينة الجند ومسجد معاذ بن جبل، وكان الجند في العصر النبوي وما بعده أهم مخاليف اليمن ومقر لإدارة ولاية اليمن (المقحفي. معجم المدن والقبائل اليمنية، ص ١٣٢).
- ٦٥- ابن عبد المجيد. بهجة الزمن، ص ١٤٧.
- ٦٦- الحمزي. تاريخ اليمن من كتاب كنز الأخيار، ص ١٠٠.
- ٦٧- ابن حاتم. السمط الغالي الثمن، ص ٤٣٦، ٤٣٧.
- ٦٨- يحيى بن الحسين. غاية الأمانى، ج٢، ص ٥٢٩.
- ٦٩- يحيى بن الحسين. غاية الأمانى، ج٢، ص ٥٥٤، ٥٥٦، الحبشي، معجم النساء اليمنيات، ص ١٥٢.

## قائمة المصادر والمراجع

### أولاً المصادر :

- با مخرمة. الطيب بن عبد الله بن أحمد (ت ٥٩٤٧هـ / ١٥٤٠م).
- ١- تاريخ ثغر عدن وتراجم علمائها، تحقيق علي حسن الحميد، دار الجيل، بيروت، ط ٢، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م.
- ٢- قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، ج ٣، ص ٣٥٤٦، تحقيق محمد يسلم عبد النور، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.
- البريهي. عبد الوهاب بن عبد الرحمن.
- ٢- طبقات صلحاء اليمن، تحقيق : عبد الله الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط ٢، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.
- ابن تغري بردي.
- ٣- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة الجندي. بهاء الدين محمد بن يوسف.
- ٤- السلوك في طبقات العلماء والملوك، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط ٢، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م.
- ابن حاتم. الأمير بدر الدين محمد (ت بعد ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م)
- ٥- السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن، ص ٣٤٨، تحقيق ركس سمث، لوزاك، لندن، ١٩٧٤م.
- الحمزي. عماد الدين إدريس بن علي.
- ٦- تاريخ اليمن من كتاب كنز الأخبار في معرفة السير والأخبار، تحقيق : عبد المحسن مدعج، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، ط ١، ١٩٩٢.
- الخرزجي. أبو الحسن علي بن الحسن ت ٨١٢هـ.
- ٧- العقد الفاخر الحسن في طبقات أكابر أهل اليمن، تحقيق عبد الله بن قائد العبادي وآخرين، الجيل الجديد، صنعاء، ط ١، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م).
- ٨- العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط ١، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م).
- ابن الديبع. عبد الرحمن بن علي الشيباني الزبيدي ت ٩٤٤هـ.
- ٩- بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد، ص ١٠٢، تحقيق : عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط ٢، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.
- ١٠- قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد بن علي الأكوع، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط ١، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.
- السخاوي. شمس الدين محمد بن عبد الرحمن .
- ١١- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل الجديد، بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ.
- الشرجي. أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف ت ٨٩٣هـ.

- ١٢- طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص، ص ٣٠٥، الدار اليمنية، صنعاء، ط١، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.  
ابن عبد المجيد. عبد الباقي ت ٧٤٣هـ.
- ١٣- بهجة الزمن في تاريخ اليمن، ص ١٤٤، ١٤٥، تحقيق عبد الله محمد الحبشي ومحمد أحمد السنباني، دار الحكمة اليمنية، صنعاء، ط١، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.  
عمارة بن أبي الحسن الحكمي اليمني.
- ١٤- تاريخ اليمن (المعروف بتاريخ عمارة اليمني)، ص ١٧٢، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٢، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م).  
المقريري.
- ١٥- السلوك لمعرفة دول الملوك،.  
ابن منظور. جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي. (ت ٧١١هـ / ١٣١١هـ).
- ١٦- لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرين، دار المعارف، القاهرة.  
وجيه الدين عبد الرحمن بن محمد الوصابي ت ٧٨٢هـ.
- ١٧- تاريخ وصاب، ص ١٤٨، تحقيق: عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٢، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م  
الهمداني. الحسن بن أحمد بن يعقوب
- ١٨- صفة جزيرة العرب، تحقيق، محمد بن علي الأكوغ الحوالي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٢، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.  
ياقوت. شهاب الدين أبي عبد الله الحموي
- ١٩- معجم البلدان، دار صادر، بيروت. <http://Archivebeta.Sakr.org>  
يحيى بن الحسين.
- ٢٠- غاية الأمان في أخبار القطر اليمني، تحقيق. سعيد عبد الفتاح عاشور ومحمد مصطفى زيادة، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.
- ثانياً: المراجع:**  
الأكوغ. إسماعيل بن علي
- ٢١- الدولة الرسولية في اليمن، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.  
الحبشي. عبد الله محمد.
- ٢٢- معجم النساء اليمنيات، ص ١٨، ١٩، دار الحكمة اليمنية، صنعاء، ط١، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م.  
الحجري. محمد بن أحمد
- ٢٣- مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج٢، ص ٤٦٢، تحقيق: إسماعيل بن علي الأكوغ، وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء، ط١، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.  
الحداد. محمد يحيى.

- ٢٤- التاريخ العام لليمن، ج ٢، ص ٤٥٤، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م الزركلي.
- ٢٥- الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٥، ٢٠٠٢م. عبده علي عبد الله علي هارون.
- ٢٦- الدر النضيد في تحديد معالم وآثار مدينة زبيد، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م). عفت وصال حمزة.
- ٢٧- نساء حكمن اليمن، دار ابن حزم، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م) كحالة. عمر رضا.
- ٢٨- أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ط، د.ت. الفيفي. محمد بن يحيى.
- ٢٩- الدولة الرسولية في اليمن ( دراسة في أوضاعها السياسية والحضارية )، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط ١، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م. المقحفي. إبراهيم
- ٣٠- معجم المدن والقبائل اليمنية، دار الكلمة، صنعاء، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م). المقدم. محمد أحمد إسماعيل.
- ٣١- المرأة بين تكريم الإسلام وإهانة الجاهلية، دار الإيمان، الإسكندرية، ط ١، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.



## المطبخ السلطاني في اليمن في عصر بني رسول

( ٦٢٦-٥٨٥٨هـ / ١٢٢٩-١٤٥٤م )

د. سلوي عبد القادر السليمان (\*)

كان للاستقرار السياسي الذي عرفه اليمن في عصر الدولة الرسولية<sup>(١)</sup>، انعكاس واضح على الجوانب الحضارية التي وجدت كل الاهتمام والعناية من سلاطين هذه الدولة، حيث أولوا اهتماماً خاصاً بالتنظيم الإداري والمالي، وأوجدوا وظائف ودواوين متعددة، وشهد الجانب الاقتصادي نمواً وازدهاراً كبيراً، نتيجة للاستقرار السياسي والتنظيم الإداري والمالي، وكان التطور الثقافي والعمرائي من أهم ثمار هذا الاستقرار، وأدى كل ذلك إلى مظاهر الرفاهية التي عاشها سلاطين آل رسول.

فقد حرص هؤلاء على بناء القصور والدور والحدائق، وتوفير كافة وسائل الترفية والرفاهية لهم ولنسائهم وأبنائهم<sup>(٢)</sup>، وكان من ذلك المواد السلطانية، وما تحتويه مما لذ وطاب من الأطعمة والأشربة للسلطان وعائلته، وضيوفه على اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم الاجتماعية، وهذا ما يجعلنا نطرح العديد من التساؤلات حول المطابخ السلطانية وأنواعها، وموظفيها وإدارتها وطريقة تموينها، وأنواع الوجبات الغذائية والأشربة التي كانت تقدم في مختلف المناسبات.

وذلك للوصول إلى هدف الدراسة وهو: إبراز دور المطابخ السلطانية في تنوع الوجبات اليمنية وكيفية إعدادها، والطريقة التي يتم فيها تنظيم المواد السلطانية، وأهم عادات تلك المواد.

### أولاً: أنواع المطابخ السلطانية وملحقاتها:

تنوعت المطابخ السلطانية وفقاً للمكان والتخصص، ومن تلك المطابخ، المطبخ الذي يتموضع داخل القصر السلطاني، وله عدة تسميات هي: المطبخ الكبير أو المطبخ داخل، أو المطبخ، وإن تعدد ذكره بصفات مختلفة فإن المقصود واحد، وهو أنه المطبخ الخاص بتحضير الطعام للسلطان وعائلته، داخل القصر.

(\*) أستاذ مساعد بقسم التاريخ كلية الآداب جامعة الدمام.

كما عرف المطبخ العام أو المطبخ الخارجي<sup>(٣)</sup>، وهذا المطبخ تخصص في تحضير الطعام الذي يوزع على الناس المتواجدين في الأبواب السلطانية.

وعرف نوع آخر يسمى مطبخ شكر، وهو أحد المطابخ السلطانية الملحقة بقصر السلطان "الملك المظفر الأول يوسف بن عمر" (٦٤٧-٦٩٤هـ/١٢٤٩-١٢٩٥م)، ويبدو أن هذا المطبخ كان مخصصاً لإعداد المشروبات والمزة الخفيفة مثل السلطة والمخللات التي تعد من بعض الخضروات، وسمي مطبخ شكر باسم الطباخ المسئول عن إدارته. كما ورد اسم مطبخ البوارد، ويبدو أنه مخصص لطبخ وجبة غذائية بنفس الاسم<sup>(٤)</sup>.

وهناك نوع من الخيم مخصصة لأعمال المطابخ، فيها يتم طهو الطعام، وبها تحفظ القدور والصحون وأدوات المائدة المختلفة، وحاجات الطباخة من الدقيق والزيت والسمن وغيرها<sup>(٥)</sup>، ومن الواضح أنها مطابخ متنقلة للرحلات.

وكانت هناك مطابخ أصغر، أو ما يسميه كتاب نور المعارف "بيت"، وهو مكان ملحق بالمطبخ، مخصص لإعداد الحلويات الخاصة بالسلطان والحاشية الملكية، كما أعتبر المساقى مكاناً مخصصاً لإعداد المشروبات يتبع المطبخ السلطاني، ويسمى أيضاً بيت المشروبات أو الشرايخانة السعيدة<sup>(٦)</sup>، والمخبز وهو المكان المخصص لإعداد الخبز بأنواعه المختلفة، وبيت اللحوح، وهو المكان المخصص لإعداد اللحوح وهو أحد الوجبات المشهورة في اليمن حتى عصرنا الحالي، وبيت التحويج<sup>(٧)</sup> وهو المكان المخصص للتوابل والبهارات، وهو تابع للمطبخ السلطاني، وتصرف فيه الحوائج أي التوابل للطباخين وفقاً للمقادير المطلوبة والمحددة لكل وجبة<sup>(٨)</sup>.

### ثانياً: أدوات المطابخ السلطانية:

تنوعت أدوات المطبخ السلطاني في عصر الدولة الرسولية، إلى أدوات معدنية من نحاس وفضة، وخزفية وفخارية وخشبية وزجاجية وبلورية وحجرية، وفيما يلي نذكر بعض تلك الأدوات:

- الكراسي: وتصنع من الخشب خصيصاً للجلوس عليها عند تقطيع الخضار أو الطبخ على الموقد، وهي مقاعد واطئة يبلغ ارتفاعها شبراً تقريباً<sup>(٩)</sup>.

- المناسف: طبق كبير من سعف النخيل لتنقية الحبوب<sup>(١٠)</sup>.

- المناخل: لنخل الدقيق وتنقيته، والغرابيل لغرلة الحبوب، وتكون فتحتها أكبر من المناخل.

- الثياب الخام: وهي أقمشة بيضاء غير مصبوغة، كانت تستعمل بكثرة في المطابخ السلطانية مثل (بيت الحلوى، والمخبز، والشرابخانة... وغيرها) (١١)، ونرى أن هذه الأقمشة كانت تستخدم لتغطية القدور والأطباق، إلى جانب استخدامها في مسح الأيدي وإزالة العرق من قبل العاملين في المطابخ.

- الملاكد: المكلد هو الوعاء الذي تدق فيه البهارات، والحبوب ومواد أخرى عديدة، ولا تعرف له في بلاد اليمن إلا هذه التسمية، بينما يسمى في بعض البلاد العربية الهاون، وهو مصنوع من الخشب أو النحاس أو الحديد (١٢).

- المهارس: ومفردها مهراس آلة الهرس، وهو الهاون، يهرس به وفيه الحب (١٣).

- القدور: وهي آنية للطبخ مصنوعة من أحجار مخصوصة غالباً، وهي ذات ساعات وأحجام مختلفة عديدة، منها الزخميات وهي نوع من القدور الضخمة يطهى بها اللحم، حيث يستوعب بعضها ثلاثة من الأغنام (١٤).

- المقالي: المقلى إناء يخرط من الحجر مازال معروفاً بنفس الاسم في اليمن إلى يومنا، تطبخ فيه على النار الوجبات الشعبية، وميزت المقالي عن غيرها من أواني الطبخ بأنها تظل محتفظة بسخونتها مدة طويلة. وهي تختلف من حيث أحجامها، فمنها الصغير ومنها الضخم ويسمى مقلى الزخمي (١٥).

- المشافة: آنية من الحجر، مازالت معروفة، وإن كانت في عصرنا تعمل من الفخار، وهي أصغر من الملحمة (آنية اللحوج) ويتم عمل نوع من الأرغفة الإسفنجية الشكل على سطحها، وهي ما يعرف بـ (القطايف) وهي المعروفة أيضاً في عصرنا، وخاصة في شهر رمضان، وجاء ذكر هذه الآنية باسم المشوفة وهو نفس النوع الذي ينضج عليه الخبز (١٦).

- الصحون و الزبادي: وجدت الصحون في عصر الدولة الرسولية من مواد مختلفة، كالفخار والصحون والزبادي الصيني، ويحدد من هذه الصحون ما يستخدم لطعام السلطان أثناء سفره، فتكون مفروزة وحدها ولا تستعمل إلا أثناء سفره، فإذا استقر به المقام استعملت أطباق وأوان من الصيني الخاص بطعام الملك، مخصصة لطعامه عند إقامته سواء في عاصمة الدولة أو المدن التي يزورها.

وتحفظ الأواني والأطباق الخزفية الصينية في الخزانة العامة للدولة، ومنها تصرف للمختصين لاستعمالها في الموائد الملكية، وحفظها في خزانة الدولة التي تحتوي على الأموال العامة يدل على قيمتها النفيسة، وعلى قصر استعمالها كامتياز على الأسرة المالكة وحاشيتها (١٧).



وهناك نوع من الصحون يصنع من الحديد والنحاس، بمقاسات مختلفة، منها ما يسمى المعاشير (جمع معشرة) وهي طبق من النحاس كبير الحجم، توضع داخله أطباق الطعام. ويستخدم بعض أنواعه الصغيرة كإتاء للطعام، وتقدم بالمعاشير الصغيرة من النحاس مشهيات الطعام (المقبلات) ولا يزال هذا المصطلح مستخدم عند أهل اليمن، كما استخدمت صحون مخصصة للحلوى أطلق عليها البقلدانية، وهي مخصصة لتقديم البقلوة<sup>(١٨)</sup>. إلى جانب ما يسمى قِصاع (حُب) بأحجام مختلفة للحلوى.

- الملحّات: مفردا ملحّة وعاء من الفخار، ومازال معروفاً بنفس التسمية، يستعمل لتحضير الخبز الهش المسمى "اللحوح"<sup>(١٩)</sup>.

- المعاجن: مفردا معجنة، وهي أوعية فخارية مازالت معروفة في مدينة زبيد<sup>(٢٠)</sup> وهي ذات شكل دائري سميكة القاعدة، وعمقها يختلف تبعاً لاختلاف مقاساتها، وبها يعجن الدقيق ويهيا ليكون خبزاً.

- الأقمشة: أوعية فخارية خاصة بالخضروات .

- السفرة: جمع سفرة تتخذ من خوص النخيل، تفرش على الأرض وتقطع عليها اللحوم.

- القرامى: جمع (قرمة) وهي قطعة من الخشب تقطع عليها اللحوم<sup>(٢١)</sup>.

- التور: جمع (تورة) طبق مصنوع من خوص النخيل، يستخدم لأغراض متعددة، مثل وضع بعض الأطعمة لنقلها إلى المائدة مثل الخبز واللحوم، كما تحفظ فيه أطعمة أخرى<sup>(٢٢)</sup>. وتستخدم في زماننا وب نفس الاسم.

- قصور الحلوى: هي عبارة عن تشكيلة خشبية تصمم على هيئة قصر، ترتب عليها صحون الحلوى في المآدب السلطانية، وربما تخيلنا شكل هذه القصور لتقريب فهمها للأذهان، بما يماثل النظام المتبع في ترتيب أنواع الحلوى في أفخم الفنادق في عصرنا، مع فارق الزمن وتغير نوع المواد الحاملة لأصناف الحلوى<sup>(٢٣)</sup>.

هذه هي أهم أدوات المطابخ السلطانية، بالإضافة إلى الملاعق أو السكاكين، والجرار التي تنقل المياه و الأقداح التي يشرب فيها الماء، أو أنواع الشراب المختلفة، والقناني وهي الأنية الزجاجية التي كان يوضع فيها ماء الشرب أو الخل، والمغارف التي تغرف بها السوائل والمواد الجافة<sup>(٢٤)</sup>.

### ثالثاً: موظفي المطابخ السلطانية:

ضمت المطابخ السلطانية، بمختلف أنواعها، عدداً من موظفي الدولة العاملين فيها، حيث يتولون إعداد الموائد الخاصة بالسلطان وأفراد أسرته، وكبار رجال الدولة المقيمين في قصوره، والأطعمة التي تجهز لضيوف السلطان والوافدين إليه في الدار السلطانية المعروفة بدار الضيف<sup>(٢٥)</sup>.

الطباخون: انقسم الطباخون إلى قسمين: قسم ارتبط بالسلطان ومطابخه، وهم الطباخون الدائمون، أو المستمرون في الخدمة داخل المطبخ السلطاني لا يغادرونه، سواء بقي السلطان في مقر إقامته أم غادره إلى دار أو موضع آخر. ومما يؤكد لنا ذلك الارتباط؛ ما كان يطلق عليهم في زمن السلطان الملك المظفر "يوسف ابن عمر الرسولي" الذي اضيف إليه لقب الخليفة إلى جانب تسميته بالسلطان والملك، وأطلق على الطباخين الخاصين بمطبخه السلطاني (الخليفة) <sup>(٢٦)</sup>.

أما القسم الثاني فكان تحت تصرف السلطان، ينتقل معه حيثما ذهب أو سافر، وعرفوا بطباخي الطوارئ، وقد يكلفون بمهام خاصة كمرافقة قوات السلطان عند غزو أي منطقة، وقد يخرجون إلى بعض المناطق ضمن وفود السلطان التي تكلف باستقبال بعض كبار الشخصيات من الأشراف وغيرهم، إذ يتولون عملية الطباخة في خيمة تنقل معهم، تكون مخصصة لأغراض الطباخة وإعداد الأطعمة، وتخزين الحوائج وأدوات المطبخ<sup>(٢٧)</sup>.

— السبائرية: يطلق هذا اللقب على الطباخ المشرف والمسئول الأول عن المطابخ السلطانية (كبير الطباخين)<sup>(٢٨)</sup>.

— الشواء: هو الذي يعمل على إعداد اللحم وتحويجه (إضافة التوابل) وشويه.

— الشرائحي: هو من يعمل على تجهيز اللحم وتقطيعه إلى شرائح.

— المهرّس (الهراثسي): هو من يتولى إعداد وجبة الهريسة التي تتكون من القمح واللحم<sup>(٢٩)</sup>.

— الخبازون: ضمت المطابخ السلطانية عدداً من الخبازين (ذكور و إناث) ممن يصنعون أنواع الخبز التي يتم وضعها إلى جانب الأطعمة<sup>(٣٠)</sup>، أو التي قد تكون من المقادير الرئيسية لوجبات يمنية شعبية، كخبز الرقاق الذي يعتبر العنصر الأساسي لأكثر من وجبة غذائية، وخبز اللحوح الكعك اليمني الذي يدخل في إعداد بعض الأطباق أيضاً.

— الكماخي "المخلاتي": هو الذي يعد ما لذ وطاب من (الكوامخ) وهي المخللات التي تقدم كمشهيات للطعام<sup>(٣١)</sup>. (ما يسمى في عصرنا الحالي المقبلات).

- القنبريسي: وهو الذي يتولى إعداد القنبريس، وهو من الحليب الطبيعي الحيواني المجمد (اللبنة في عصرنا الحالي)<sup>(٣٢)</sup>

- الحلواني: هو الذي يتولى إعداد الحلويات.

وإضافة إلى هؤلاء الطباخين؛ ضمت المطابخ السلطانية عدداً من الموظفين والحرفيين ممن لا دخل لهم في الطبخ وإعداد الطعام مثل:

- الكتاب: الذين يعملون على تسجيل الداخل والخارج من هذه المطابخ، وتسجيل كل ما يحتاج إليه الطباخون من حبوب وخضار وفواكه، وحوارج وأوعية وأدوات.

- الوزانون: الذين يعملون على وزن الأشياء من متطلبات المطابخ، وتحديد مقاديرها بشكل يومي، وجاء ذكر أحدهم في عصر السلطان المظفر الأول وهو (صبح الوزان)<sup>(٣٣)</sup>.

- القمّاط: وهو الموظف المختص بشراء الأغنام والحيوانات بالجملة، وإيصالها إلى المطابخ السلطانية، ويكون ذلك بتكليف من المسئول الأول عن هذه المطابخ بعد إعطائه مبالغ مالية لهذا الغرض، للحصول على لحوم طازجة بشكل يومي؛ ومن هؤلاء شخص يعرف بأبي بكر بن مزي القمّاط<sup>(٣٤)</sup>. وما زال هذا اللقب (القمّاط) يطلق على كل من يجلب الحيوانات والحبوب، ويبيعها في القرى والأسواق الأسبوعية أو في أسواق المدن.

- الجزارون: الذين يقومون بذبح الأغنام وتنظيفها وتقطيعها في المسالخ التابعة للمطابخ السلطانية، ومن عرف منهم في عصر السلطان "المظفر الأول" شخص يعرف بمقبل الجزار. وتضم هذه المسالخ عدداً من الغلمان المعروفين بقلمان السلخانة<sup>(٣٥)</sup>. ويبدو أن مهمتهم تقتصر على أعمال التنظيف والحمال.

- المرقدار: الذي يتولى الإشراف على إعداد المائدة الملكية ( السماط) وترتيب الأطباق والأطعمة عليها، ويكون مسئولاً عن كافة الأواني والأوعية من الصحون والزيادي والأطباق، وعن طرق حفظها وتخزينها<sup>(٣٦)</sup>.

- الساقى: هو الذي يتولى بسط المائدة ( السماط) وتقطيع اللحم عليها، ثم سقي المشروبات بعد رفعها. وإلى جانب هؤلاء؛ عمل عدد من الموظفين والمتخصصين في صنع أنواع المشروبات والعصائر التي تجهز للسلطان، فيما يسمى بالشراب بخانه، وهو بيت المشروبات، ويحتوي مختلف أنواع المشروبات، وما يحتاج إليه من مواد لتحضيرها مثل: السكر والمرببات والحلوى والفواكه والطور، إلى جانب أدوات المشروبات من أنية زجاجية، وخزف صيني، ومحلي، وكيزان، وصحاف وصحون من نحاس<sup>(٣٧)</sup>.

- الخرافون: وهم من يتولون غرف الأطعمة في الصحون والآنية المختلفة<sup>(٣٨)</sup>.
- الخواج كاش: وهو الموظف المختص بشراء كافة احتياجات الخواج خاتما<sup>(٣٩)</sup>.  
التابعة للمطابخ السلطانية، وتكون تحت يده مبالغ مالية سائلة، بصورة دائمة  
تمكّنه من الحصول على ما يريد. ولفظ (كاش) يعني دفع القيمة نقداً<sup>(٤٠)</sup>.
- المَبْرُصَح: لقب لشخص يعمل في المطابخ السلطانية ومهمته غير معومة،  
واللفظ ليس له ذكر في العربية، وهو من الألفاظ الخاصة المستعملة في بلاد  
اليمن، ويطلق لفظ (المبرصاح) وجمعه (براصح) على الموضع الفسيح الذي  
يكون ملحفاً بالحقل، ترمي فيه الأحجار وغيرها، وتبعاً لهذا ربما كانت مهمة  
(المبرصاح) هي نقل الأدوات والأشياء وتنظيمها في المطابخ لإيجاد فسحة  
واسعة في المكان، تتيج حرية الجلوس والحركة للعاملين به من الطباخين  
والمشرفين وغيرهم<sup>(٤١)</sup>.
- الصكار: وهو من الحرفيين العاملين في المطابخ السلطانية، ومهمته العناية  
بالقدور النحاسية المستعملة في تلك المطابخ<sup>(٤٢)</sup>.

#### رابعاً: أنواع الموائد السلطانية (السماط):

- السماط لفظ يطلق على مائدة الطعام الخاصة بالسلطان، ونستطيع أن نطلق  
عليها بلغة عصرنا: المائدة الملكية وكانت تنقسم إلى:
- السمات العام: ويسمى (الخرجي) أو المائدة الملكية العادية غير الفخمة، والتي  
يمكن أن يأكل منها أي كان من الناس المتواجدين في الأبواب السلطانية.
- السمات الكريم: هذا هو السمات السلطاني، أو المائدة الملكية التي تُعد للسلطان  
في الدار المخصص للضيوف<sup>(٤٣)</sup>.
- السمات الطّاري: السمات الخاص الذي يعمل للسلطان يومياً، بعد السمات الأول  
الذي يمد أول النهار لا يأكل منه السلطان، ثم السمات الثاني ويسمى السمات  
الخاص، قد يأكل منه السلطان وقد لا يأكل ثم ثالث بعده يسمى الطّاري ومنه  
مأكل السلطان<sup>(٤٤)</sup>.
- سمات القُدوم المبارك: هو أول سمات يمد للسلطان بعد وصوله مباشرة إلى ثغر  
عدن أو غيره، وهو يمتثل في عصرنا (مأدبة استقبال حاكم البلاد ورئيسها عند  
زيارته لعاصمة محافظة من المحافظات)<sup>(٤٥)</sup>.

- الممات الكبير: خيمة كبيرة كانت تنصب للسلطان ومن معه، من أجل أن تتسع للناس في المناسبات الكبيرة مثل العدا، أو زياره السلطان لبعض المدن<sup>(١٠١)</sup>.

وقد يطلق سباط على (بدل تغذية) أو (مقابل طعام الجندي) وكان يخصم من مرتب الجندي السنوي؛ مرتب شهرين مقابل حصوله على تغذية لمدة عام، في الموقع الذي يقم فيه<sup>(١٠٢)</sup>.

#### خاصة: مناطق تصوين المطبخ السلطانية:

عرف اليمن زراعة أصناف عديدة من حبوب الطعام، اختلفت أنواعها حسب المواقع التي زرعت بها، والظروف المتوافرة لها، إضافة إلى فترات زراعتها، وبذلك وفر لنفسه ولماثيته الغذاء خلال أغلب فترات السنة، كما غرس أصنافاً عديدة من الأشجار المثمرة كالتوز والتين والعنب في اليمن الأعلى والنخيل في اليمن الأسفل، فوفر لنفسه غذاء إضافياً. وإلى جانب ذلك سمحت له الظروف الطبيعية، أو تحمت عليه، تربية أنواع مختلفة من الدواب، مكنته من إثراء غذائه النباتي بغذاء حيواني أساسه الحليب واللحم، أما البحر فوفر مصادر للرزق والغذاء، تمثلت في أصناف عديدة من الأسماك.

وتعتبر الذرة بأنواعها المختلفة، البيضاء والحمراء، من أهم المحاصيل في اليمن قديماً وحديثاً، وتسمى عند أهل اليمن "الخبث" أو "التعام"، وأهم مناطق زراعتها هي الأراضي التهامية والأراضي الجبلية<sup>(١٠٣)</sup>. وغالباً ما يكون الحديث عن الذرة مصحوباً بالحديث عن الدخن الذي يدخل في صناعة أصناف عديدة من الوجبات كالذرة<sup>(١٠٤)</sup>، وتكثر زراعته في كل من تهامة ولحج<sup>(١٠٥)</sup> وابين<sup>(١٠٦)</sup>، وتنتشر زراعته في الجبال أكثر، وخاصة في الأراضي المتوسطة الخصوبة مثل: تعز<sup>(١٠٧)</sup> وإب<sup>(١٠٨)</sup>، والضالع<sup>(١٠٩)</sup>، وياق<sup>(١١٠)</sup> وشبوة<sup>(١١١)</sup>، ووصاب<sup>(١١٢)</sup> وحجة<sup>(١١٣)</sup>. ويعرف أهل اليمن مايسمى (الطهف) وهو حب من نفس فصيلة الدخن لكنه أصغر منه حجماً، ويصنع منه حجاماً، ويصنع منه ومن الدخن الخبز اليمني، ويزرع في نفس ظروف زراعة الدخن<sup>(١١٤)</sup>.

أما القمح، فهو من المحاصيل الزراعية التي تحتل الموقع الثاني بعد الذرة، وكان ينتشر في اليمن الأعلى بمختلف مناطقها وخاصة المرتفعات. ويحتل الشعير مكانة متميزة ضمن محاصيل اليمن قديماً وحديثاً، وبعد من المحاصيل الهامة، خاصة واته يمثل طعاماً للإنسان وعلفاً للحيوانات المختلفة، ويزرع في المناطق الباردة والمرتفعات. والقمح من المكونات الرئيسية لصناعة الخبز وبعض الحلويات.

وللجلجلان (المسمم) أهمية في المطبخ السلطاني، وهو نبات حولي زراعي دهني يزرع ليزوره المأكولة والتي تشكل عنصراً هاماً من عناصر بعض الأطعمة.

والحلويات اليمينية<sup>(١٠١)</sup>، ويستخرج من بذوره السبج، وهو دهن السمسم بعد تحويله في معاصر خاصة. هذا الدهن له استعمالات عديدة - فإلى جانب الغذاء والاستعمالات الطبية مثل زيت السمسم - فهو مادة أولية في صناعة الصابون، أما مناطق زراعته فهي المناطق الحارة لذلك نجده في أودية تهامة، وعلى الأخص الكدراء<sup>(١٠٢)</sup>، والمحالب<sup>(١٠٣)</sup>، ولحج، وأبين، وأحور<sup>(١٠٤)</sup>، وتعر والجند<sup>(١٠٥)</sup>، ولخدير<sup>(١٠٦)</sup>، وجبأ<sup>(١٠٧)</sup>. وقد استخدمت المطبخ نوعان من السكر الأبيض المنتج في زبيد، والآخر المصري المنسوب إلى البلاد المصرية، واشتهرت مدينة جبلة<sup>(١٠٨)</sup> بصناعة تكرير السكر واستخراجه من قصبه.

ولا تخلو المائدة السلطانية من أنواع التمور والربط التي تنتجها زبيد<sup>(١٠٩)</sup>، وفشال<sup>(١١٠)</sup>، والقصة<sup>(١١١)</sup>، والكدراء، ولحج، والشحر<sup>(١١٢)</sup>. أما الجوز فهو من الأطعمة المعروفة في المطبخ السلطاني حيث تؤخذ ثماره فيشرب عصيرها، ويؤكل لحاؤه الداخلي أو يقشر، ويضاف على الحلويات لإعطائها مذاقاً طيباً، وتكثر زراعته في بعض بلاد تهامة وبعض بلاد حضرموت<sup>(١١٣)</sup>.

أما تموين المطبخ السلطانية باللحوم فكانت مهمة يتولاها القمّاط، وهو الموظف المسئول عن شراء الثوب، وخاصة الأغنام التي تحتل لحومها المرتبة الأولى ضمن اللحوم المستهلكة في اليمن قديماً وحديثاً. وكان يتم جلبها من عدة مناطق وأهمها: أصال وادي رنح<sup>(١١٤)</sup> بتهامة. حيث تعد لحوم أغنامها من أجود اللحوم في اليمن ويمثلها في الجودة: لحوم أغنام حج وأبين وبلاد حضرموت والمهرة<sup>(١١٥)</sup>. وبلاد ردمان<sup>(١١٦)</sup> التي يكثر فيها رعي الأغنام، لأن طباع أهلها تميل إلى البداوة<sup>(١١٧)</sup>.

هذا إلى جانب ما يجلب من أغنام الصومال التي يطلق عليها البرابر<sup>(١١٨)</sup> وهي معروفة إلى يومنا في سائر أرجاء الجزيرة العربية.

أما الأبقار فكانت من اللحوم الحاضرة في الموالد والمأبد السلطانية، وذلك للأهمية الغذائية للحومها وأهلها. وامتلك المزارعون ما أمكنهم من الأبقار في الكثير من المناطق الزراعية، من ذلك ما امتلكنه قبيلة المعالبة<sup>(١١٩)</sup>.

ويأتي تموين المطبخ السلطانية، من الأسماك الطازجة، من مدن السواحل التي اشتهر أهلها بانهم يزاولون حرفة صيد الأسماك، كاهل عدن الذين قال عنهم ابن بطوطة<sup>(١٢٠)</sup> إنهم كانوا مابين تجار وحمّالين وصيادين للسمك، أما ابن الجاور<sup>(١٢١)</sup> فذكر أن صيد السمك هو حرفة أهل عدن الأولى، وكذلك الشأن بالنسبة لسكان غلافة<sup>(١٢٢)</sup>، الذين كانوا يزودون مدينة زبيد بخيرات البحر<sup>(١٢٣)</sup>.

كما أكد الكثير من الرحالة على مهارة الصيادين في الشحر، وفي ذلك قال أحدهم: ' وهؤلاء الناس صيادو أسماك مهرة، يصيدون التونة بمقادير ضخمة'<sup>(١٢٤)</sup>.

أما توابل وبهارات المطابخ السلطانية، فهي من الواردات التي تصل إلى ميناء عدن من الهند والصين. وقد تعددت أصناف التوابل وكان أهمها القفل، والقرنفل، والدار صيني القرقة والزنجبيل وجوز الطيب، والهال الهول، والكرم (الهرد) والزعفران وغيره<sup>(٨٤)</sup>.

سادساً: أصناف الأطعمة التي يعدها المطبخ السلطاني :

أولاً: أصناف اللحوم والطيور والأسماك:

- شراح ممرح: هي وجبة غذائية كاملة الأساس فيها إعداد شرايح من لحم الأغنام، وأهم مقاديرها الصل، التمش، الزعفران، الخل، الودك، (السمن)، الجبن، السليط (الزيت) القفل، الكزبرة، القرقة، الملح<sup>(٨٥)</sup>.

- شواء: وهي وجبة الأساس، فيها لحم الغنم المشوي، وأهم مقاديرها إبي جنب اللحم: الزعفران، الخبز، السليط (الزيت)، والملح، العوز، الشقر (الريحان)، الليمون، الدقيق<sup>(٨٦)</sup>.

- شوي مدقوق: وجبة شواء من لحم أغنام مفروم أو (مدقوق)، وكان اللحم - قبل ظهور المفارم اليدوية أو الآلية في عصرنا - يدق يدوية خشبية في مدقات ضخمة مخروطية من الأحجار أو الأخشاب، وكان اللحم يدق بها حتى يصير ناعماً، ثم يشوي إما على هيئة كرات توضع في الزيت وتغلي فيه، أو يجمع على أسياخ من الحديد ويشوي على نار الفحم، فيما يعرف في أيامنا بـ (الكباب) و(الكفتة). وأهم مقادير هذه الوجبة الأغنام عربية، الزعفران، السليط، الخل، الباذنجان، العوز، الشقر (الريحان) الليمون، الملح<sup>(٨٧)</sup>.

- الكروانات: وجبة غذائية من طيور الكروان، جنس من فصيلة نجاجيات الأرض طوال الساق، وهي طوال المناقير دقاقها، تعيش حول الأكوام والمنافع وشطوط البحار، وأهم مقادير هذه الوجبة هي جنب الطيور، الأرز، والحمص، والزيت، والسليط (زيت السمسم)، والدقيق<sup>(٨٨)</sup>.

- السمحور: وهي وجبة غذائية تتكون من لحم الأغنام البربرية، والأغنام الكسوب وهي الأثني من الأغنام المحلية، وأغنام عربية<sup>(٨٩)</sup>، والودك<sup>(٩٠)</sup>، والسليط، والزيت والقفل والكزبرة والجوز، والبصل اليابس، والبصل الأخضر، والحمص والقرقة والكمون والزنجبيل والمصطكي، والسماق، والكرابيا، والزعر، والثوم والأرز والقنبريس<sup>(٩١)</sup>.

- المسألة: وجبة غذائية قوامها مكون من: القم والسكر الأبيض، والدجاج والحمام والارز، والفستق، والحمص، والسليط، والجوز والبندق، والزعفران، واللوز، والمصطكى والفلفل، والكزبرة، والزنجبيل، والكمون، والجبن، والشفر (الريحان)، والعسل، والقرفة والبصل، والتشا<sup>(١٠٦)</sup>.

- الرُمّانية: وجبة منسوبة إلى فاكهة الرمان لدخولها في قوام الوجبة، هي وجبة اخذت من المطبخ اليمني وليس لها وجود في عصرنا، وأهم مقوماتها لحم القم، السكر الأبيض، الدوك (الدهن) الرمان، خضار ورقية، بصل أخضر<sup>(١٠٧)</sup>.

- الكُدك: وجبة غذائية قوامها لحم القم، دقيق البُرّ، الدوك (الدهن)<sup>(١٠٨)</sup>.

- المُحشّشة: وجبة غذائية معدة من اللحوم، وما يطلق عليه مُحشّش في اليمن هو (اللحم المحشش) وقيل له ذلك لأنه يطبخ مقلبا بالزيت مع المواد المضافة إليه، ولا يتم إنضاجه إنضاجاً كلياً، بل يكون إنضاجه متوسطاً، ليس بالثني وليس بالمطبوخ غاية، وأهم مقومات هذه الوجبة لحم القم، الدوك (الدهن) الفلفل، الكزبرة، البصل، خضار ورقية.

- الهريس: هي وجبة غذائية مكونة من خليط من القمح المجروش خشناً، أو المسمن واللحم الخالي من العظم، يطبخ الجميع في قدر بعد خلطها ببعض<sup>(١٠٩)</sup>، ومزالت معروفة. وتسمى بالنس التسمية في اليمن وباتد الجزيرة العربية، وخاصة في شهر رمضان.

- السميط: نوع من الشواء، حيث يشوى الحيوان بعد نلف صوفه بالماء الحار<sup>(١١٠)</sup>.

- السميط: وجبة قوامها الأساسي لحم القم ويضاف اليه السليط (زيت السمسم) والفلفل، والكزبرة، والملح، والدقيق.

- قديد العس: وجبة مكونة من قطع لحم أغنام بربرية مفيدة، أي جافة، تخلط بحبوب العس، ويضاف اليها الدوك (الدهن) والسليط، والجبن، والفلفل، والزعر، والزعفران، والمصطكى، والقرفة، والسماق، والكزبرة، والجوز، والزنجبيل والخضار الورقية، والبصل اليابس والأخضر، والثوم، والزيت، والكمون.

- المصونص: وجبة مكونة من لحم الأغنام العربية، والسكر الأبيض، والخل، والبصل، والزعفران<sup>(١١١)</sup>.

- رأس غم: وجبة قوامها رأس غم، بيض، سكر أبيض، عسل تمر، أرز، سماق، خشخاش، زبيب، حب رمان، زعفران مصطكى، قرقة، جوز، طحينة،



نشا، ودك (دهن) سلوط، فلفل، كزبرة، كمون، ثوم، زنجبيل، بالانجان، يقطين، جزر، قفاس، خضار ورقية، كتيريس، جبن، ملح<sup>(١٤٤)</sup>.

- البوارد: وجبة غذائية من الوجبات التي تعد وتجهز في المطابخ السلطانية وقوامها لحم غنم، بيض، عسل، تمر، سلوط، زعفران، بالانجان، يقطين، عصفر، جبن، موز، نشأ، طحينية، شفر (ريحان)، خردل<sup>(١٤٥)</sup>.

- الملوحات: وجبة غذائية قوامها الأسمن السمك، وسمك الطيراك على وجه الخصوص وهو الاسم القديم لسمك نيزك، ويعد من أجود أنواع الأسماك في بلاد اليمن، وهو ما يسمى سمك الكند في الكثير من البلاد العربية. وإعداد هذه الوجبة في المطابخ السلطانية يضاف إليها الثفت، الجبن، البصل، السلوط، الخردل، الكراويا، الزعتر، الخليب، الزيت، المسكر الأبيض، الجوز، الفلفل، الكزبرة، الثوم، الزنجبيل، الزعفران<sup>(١٤٦)</sup>.

#### ثانياً: أطعمة صنوعة :

- الفسيل: وجبة غذائية تتكون من الأرز، المسكر الأبيض، الزعفران، المصطكي، السمق، القرطم (العصفر)، خب رُمان طري (طارج)، الفلفل، الكمون، الكزبرة، الحمص، الثوم، البصل اليابس والأخضر، بالانجان، اليقطين، الجزر، القفاس، الترمس، السلوط، الفل، التيم (التيمون) الزيت<sup>(١٤٧)</sup>.

- العجة: هي البيض المغلي بالزيت<sup>(١٤٨)</sup>.

<http://ArchWebeta.Sakhril.com>

#### ثالثاً: أصناف الخبز :

- خبز الرقاق<sup>(١٤٩)</sup>: هو عبارة عن أقراص هشة تخبز على قرص حديدي، ويتم مراعاة السرعة في تحضيره حتى لا يحترق، فهو هش جداً، وما زال هذا النوع من الخبز من أكثر الأكلات الشعبية في البلاد العربية، وبعض الدول في شرق آسيا وهناك وجبة يدخل الرقاق في أهم مقاديرها، وهذه الوجبة تسمى فُت: وهو ما يلت من خبز الرقاق، ومعنى الفت هو تقطيع الخبز قطعاً صغيرة في وعاء أو نست من نجان أو غيره، وإضافة المرق واليمن إليه، أو اليمن والعسل وخلطه بهما ويقدم للمائدة<sup>(١٥٠)</sup>.

- والتختير: هو وضع أقراص الخبز في القدر، بعضها فوق بعض، ثم يسكب السمن أو غيره من الدهون عليها، وتقدم إلى المائدة على هذه الصورة.

- الخمير: نوع من الخبز يسمى (خمير) ما زال معروفاً باسمه إلى يومنا<sup>(١٥١)</sup>.

- خبز الكك: صنف من الخبز معروف، وينقل أهل اليمن في غنله وإعداده، ويدخل الشمار والكزبرة والحبة السوداء في إعداده، وهو ما يزال معروفاً

وينفس الاسم. وهناك نوع من الكعك الحلو يسمى الهستود، والكعك اسم آخر للكعك المحلا، لم يعد له وجود في عصرنا<sup>(١٠٠)</sup>.

- **خبز اللحوح:** جمع لَحْوَحَة، ويعمل من دقيق الذرة أو البر مع الخميرة، ويكون لينا رقيقا يكاد يشف عما وراءه، وتنتهي الخبز الكاملة منه حتى تصير بحجم الكف وأصغر<sup>(١٠١)</sup>. ولا يزال اللحوح من أهم الأكلات الشعبية في بلاد اليمن؛ حيث يؤكل مع العرق أو اللبن أو الحلبة اليمنية. وما زال سقاء اللحوح مصاحبا لصلية إعداد خبز اللحوح، إذ يتم صب كمية من الزيت على خرقه من القطن، تسمى (المنسنة)، يمسح بها سطح العلجة بعد قلع اللحوح عن سطحها وقبل عمل اللحوح الجديدة.

#### رابعاً: المخبلات :

- **الكوامخ :** وهي المخلات التي تستعمل كمشبهات للطعام، والكماخي هو لقب لمن عمله في المطبخ السلطاني إعداد الكوامخ<sup>(١٠٢)</sup>.

- **المكثورة :** من مشبهات الطعام (أشبهه بطبق السلطنة) وهو عبارة عن السليط، والودك (الدهن) والثوم، والزنجبيل، والبصل، والفلفل، والكزبرة، والمصطكى.

- **القنبريس المخبوج:** وهو من القنبريس (الثابتة) والزنجبيل والبصل

#### خامساً: الحلويات الشعبية اليمنية :

- **الحنوى الصابوني:** نسبة إلى أن شكلها يشبه الصابون من حيث النعومة والشكل، وهي مكونة من السكر، والبصل، والنشا، والسليط، أو البيض.

- **الأسطوطية:** حنوى مكونة من السكر الأبيض، والبصل، والفسق، والبندق، والخشخاش، والزعفران، والسليط، والدقيق<sup>(١٠٣)</sup>.

- **هريسة الفستق:** نوع من أنواع الحنوى الممزوجة بلحم صدور الدجاج والفستق ومحتواها هو صدور الدجاج، والفستق، والسكر الأبيض، والبصل، والنشا، والسليط<sup>(١٠٤)</sup>.

- **حلاوة الدجاج:** وهي حنوى مقاومتها: الدجاج والسليط والبندق والجوز، واللوز، والخشخاش، والسكر، والنشا، والرجلة<sup>(١٠٥)</sup>، والزعفران والهيل والقرنفل والقرقه<sup>(١٠٦)</sup>.

- **سنيوسك محلا:** هو نوع من الحنوى وقوامه: الدقيق والدهن، واللوز، والسكر الأحمر<sup>(١٠٧)</sup>. ولا يزال معروفاً في اليمن وغيرها من البلاد العربية.

- **الغانيد:** هو نوع من الحنوى يصل بالنشا، وهو من أصل فارسي<sup>(١٠٨)</sup>.

-المستنوح : هو صنف من الحلويات قوامه السكر الأبيض، العسل، والسليط، والزعفران، والبيض، والخل<sup>(١١٤)</sup>.

-النأطف: نوع من الحلوى المصنوع من العسل أو الدبس.

-التهمينة: نوع من الحلوى لسره الزبيدي<sup>(١١٥)</sup> على أنه الشعير يات بالزيت أو في السمن، وهو يشبه الفتوت أو الفتيت، في عصرنا الحالي، ومازالت البسيمة معروفة في مصر إلى يومنا.

-القطايف: نوع من الأرزلة الإسفنجية وهي الحلوى المعروفة بنفس الاسم في العصر الحالي<sup>(١١٦)</sup>.

-مربى الزنجبيل: يصنع من العسل والزنجبيل<sup>(١١٧)</sup>.

-الفرعية: يصنع من الفرع والسكر، أو الفرع والعسل، وهو معروف حتى عصرنا.

-المشبك: يصنع من الدقيق، والزيت والنشا، والهيل والزعفران، والسكر، وهو من الحلويات المعروفة في عصرنا<sup>(١١٨)</sup>.

#### سادساً : الأطعمة الخاصة بالمناسبات الدينية :

طبق المكسرات في الشعباتية: وهي لون من الأضحية يحمل التسمية المذكورة، ويبدو أن هذا الطبق كان يعد خصيصاً للسلطان بمناسبة الاحتفال في شهر شعبان، والشعباتية اسم يطلق في اليمن، إلى يومنا هذا، على ليلة منتصف شهر شعبان، وهذا الطبق يحتوي على المشائش وهو الموضع الثين الواقع في راس العظام والذي يمكن مضغه ولونه يكون أبيضاً أو مائلاً للصفرة، وهو يكون في الركبتين والمرفقين وما بين الكتفين في الحيوان والإنسان، ويتضح من هذا الوصف، أن الموضع اللينة من أطراف العظام كانت تنتزع من مواضعها، وتسلق وتوزع على كامل الطبق وتقطع حبوب الليمون دولتر وأقرصا، وتوضع في وسط المشائش مع بعض ثمر فاكهة الأجناس والرطب والملفوف (الكرب). وقراص حلوى من نوع خاص سبق وأن عرفناه بسمى نأطف<sup>(١١٩)</sup>.

#### سابعاً: المشروبات السلطانية :

-الخلأية: شراب يتكون من ماء وسكر يمزج بماء حب الليمون ( يشبه الليموناضة في عصرنا)، ويطلق لفظ الخلأية في اليمن على ما يتم تناوله، من مشروبات أو حلويات، بعد وجبة الطعام.

- الففّاق: شراب يتخذ من الشعير، ويسمى بهذا الاسم لما يرتفع في رأسه من الزيت (الصفعات) أي أنه يشبه البيرة.

- السويبا: هو شراب ناتج عن نقع الحنطة أو الأرز<sup>(١٢١)</sup>. ويوضع معه أحياناً الزبيب وغيره من المنكهات، وهو من المشروبات الشعبية في رمضان، في عصرنا احتل في اليمن والحجاز، وقد عرفه البعض على أنه نوع من أنواع النبيذ<sup>(١٢٢)</sup>، وربما كانت هذه حالته عند زيادة أيام نقع المواد السابق ذكرها

- الفضيخ: هو نوع من أنواع النبيذ، اشتهرت زبيد بصناعته لوفرة التمر فيها، حيث يصنع هذا الشراب من التمر والبر والرتب، ويستغرق صنعه يوماً وليلة، وشاع تناوله في ميوت النخيل، وهو الإحتفال المشهور في زبيد يوم السبت من كل أسبوع<sup>(١٢٣)</sup>، وذلك للاحتفال بنضج التمر، كنوع من التشجيع على زراعة النخيل، وقد واجهت تلك الإحتفالات الكثير من المعارضة من فقهاء اليمن لما يحدث فيها من الاختلاط والمجون.

وهناك إشارة إلى نوع آخر من النبيذ، وهو نبيذ الزعفران، يصنع في عدن، إذ كان بها يزرع مستخرج منها الماء خصوصاً لصنع النبيذ، يعرف ببيز الزعفران، فيقوم أهل عدن باستخراج مائه، ومزجة بشمرة الكلابي ذات الرائحة النفاذة، ويترك في الشمس حتى يحمز، ويتحول بعدها إلى نبيذ كامل لا يحتاج إلى غسل. ويتم حمل هذا النبيذ وتصديره إلى كافة أرجاء اليمن<sup>(١٢٤)</sup>.

سابعاً: ترتيب المائدة الملكية (السماط):

جرت العادة أن تنقسم الأسمطة التي يأمر الملوك والسلاطين بتقديمها إلى طعامين، طبقاً لما ذكره ابن بطوطة<sup>(١٢٥)</sup> وهما "طعام العامة وطعام الخاصة" فأما الطعام الخاص، فهو الطعام الذي يأكل منه السلطان وقاضي القضاة، والغلات المرموقة في المجتمع اليمني وعلى رأسهم كبار الأشراف، وذلك لتمسبهم الشريف العائد إلى آل البيت، فمؤزمه سلاطين بني رسول، ومن ذلك مشاركتهم للسلاطين في المناسبات والإحتفالات والأعياد الخاصة بهم، حيث كانوا يجلسون، في أثناء قيام مراسم هذه الإحتفالات، على مائدة طعام السلطان الخاصة، إلى جانب كبار رجال دولته من القضاة والفقهاء والضيوف<sup>(١٢٦)</sup>.

أما الطعام العام فيأكل منه سائر الأشراف والفقهاء والقضاة والمشايخ والأمراء ووجوه الأجناد، ومجلس كل إنسان للطعام معين لا يتعداه، ولا يراحم أحد منهم أحداً. ويطلق ابن بطوطة على هذا الترتيب بقوله إن هذا الترتيب شبيه بترتيب ملك الهند في طعامه، ولا يطم أي منهما أخذه عن الآخر<sup>(١٢٧)</sup>.

ويختلف عدد الصحون والدسوت الكبار، والزبادي الصغير والكبار، بحسب إختلاف المناسبة والضيوف، فيحدد عدد الأبقار والأغنام ونوعها، وعدد الصحون لكل وجبة من الوجبات، وعدد أرغفة الخبز وصحون الحلوى<sup>(١٢٨)</sup>، وتزين العائدة الملكية أخيراً بالورود والرياحين والأطياب الفاخرة<sup>(١٢٩)</sup>.

### الخاصة :

تبين لنا من خلال الدراسة النتائج التالية:

- تنوعت المطابخ السلطانية وفقاً لأماكنها، وتخصصها، فمنها مطابخ القصور السلطانية الدائمة، ومطابخ متنقلة، ومنها ما هو مختص بإعداد الوجبات الرئيسية، وأخرى تهتم بالخبز، وثالثة تهتم بالحلويات والمشروبات.
- يظهر اهتمام المطابخ السلطانية بإعداد الوجبات الغذائية المتنوعة؛ والتي تقوم على لحوم الحيوانات أو الطيور والأسماك.
- أهمية إعداد أنواع الخبز المصنوعة من الذرة، أو الدخن أو القمح.
- حرص سلاطين الدولة الرسولية على تزويد المطابخ السلطانية بعدد ضخم من الموظفين منهم الطباخين، ومن يقوم بتأمين المطابخ بما تحتاجه من مواد غذائية للمطبخ، وألوان وأوعية وأدوات للمطبخ.
- للعائدة السلطانية أدب خاصة؛ يلتزم بها جميع من يشاركون السلطان العائدة (المعاط)

## الفواصش

- (١) تنسب الدولة الرسولية إلى السلطان نور الدين عسر بن علي بن رسول ت ٦٤٧هـ/١٢٥٠م وقد قامت على أنقاض الدولة الأيوبية حيث كان عسر بن علي من قواد الدولة الأيوبية، وكان نائباً لآخر ملوكها في اليمن الملك المسعود ثم استبد بالأمر ودعا لنفسه ثم توالى أبنائه وأحفاده في الملك وامتدت دولته من حضرموت إلى مكة بل في بعض الأحيان من ظفار إلى مكة وامتد حكمهم من سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م إلى سنة ٨٥٨هـ/١٤٥٤م، للمزيد عن قيام الدولة الرسولية أنظر: الخرجي ' علي بن الحسن ت ٨١٢هـ/١٤١٠م: العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تصحيح محمد الأكوخ، القاهرة، مطبعة الهلال، ١٩٨٣م، ج١، ص ٥١-٨٥.
- (٢) الجندي ' بهاء الدين محمد بن يوسف ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م: السلوك في طبقات العلماء والملوك، تحقيق: محمد بن علي الأكوخ، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ١٩٩٥م، ج٢، ص ٦٥-٦٦.
- (٣) مجهول: نور المعارف في نظم وفرائين وأعراف اليمن في المهد المعظري السوارف، تحقيق: محمد عبدالرحيم جازم، صنعاء، المعهد الفرنسي للأثار والعلوم الاجتماعية، ٢٠٠٣م، ج١، ص ٣٧.
- (٤) المصدر السابق، ج١، ص ٥٣؛ ج٢، ص ٢٢.
- (٥) المصدر السابق، ج١، ص ٢٠١.
- (٦) مجهول: نور المعارف، ج٢، ص ٨٩، ٩٠.
- (٧) التحويح: في لهجة أهل اليمن يقصد به إضافة للتوابل والبهارات إلى المأكولات، أنظر: المصدر السابق، ج٢، ص ١٥، هامش (١).
- (٨) المصدر السابق، ج١، ص ١٥.
- (٩) المصدر السابق، ج١، ص ١٣١ طه حسين هديل: الحياة الاجتماعية في اليمن عصر الدولة الرسولية، عدن، دار جامعة عدن، ٢٠١٠م، ص ٤٦١.
- (١٠) المرجع السابق، ص ٤٦١.
- (١١) مجهول: نور المعارف، ج٢، ص ٥.
- (١٢) مجهول: المصدر السابق، ج١، ص ٥٤؛ طه حسين هديل: الحياة الاجتماعية، ص ٤٦١.
- (١٣) الزبيدي ' محمد مرتضى ت ١٢٠٥هـ/١٧٩١م: تاج العروس في شرح جواهر القاموس، تحقيق: علي شيري، بيروت، دار صادر، ١٩٩٣م، ج٤، ص ٢٧١.
- (١٤) طه حسين هديل: الحياة الاجتماعية، ص ٤٦١.
- (١٥) مجهول: نور المعارف، ج١، ص ٥٠.

- (١٦) المصدر السابق، ج١، ص ٥٠.
- (١٧) الخرجي: العقود للزواوية، ج٢، ص ١١٩٥ مجهول: المصدر السابق، ج٢١، ص ١١٦.
- (١٨) مجهول: المصدر السابق، ج١، ص ٢٩٩.
- (١٩) الخرجي: المصدر السابق، ج٢، ص ١٢٥.
- (٢٠) زبد: تقع في سهل تهامة اليمن، للمزيد عن المدينة وتاريخها انظر: ابن السديع عبدالرحمن بن علي ت ٩٤٤هـ / ١٥٧٢م: بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبد، تحقيق: عبدالله محمد الحنسي، صنعاء، ٢٠٠٦م، ص ١٧٥ إبراهيم المقطفي: معجم المدن والقبائل اليمنية، صنعاء، دار الكلمة، ١٩٨٥م، ص ١٨٩.
- (٢١) مجهول: نور المعارف، ج١، ص ١٤٦ ج٢، ص ٧ هامش (٧) (٨).
- (٢٢) المصدر السابق، ج٢، ص ١٣ هامش (٥).
- (٢٣) مجهول ' ت بعد ٨٣٠هـ / ١٤٣٦م: تاريخ الدولة الرسولية في اليمن، تحقيق: عبدالله الحنسي، صنعاء، دار الجول، ١٩٨٤م، ص ٢٧٩.
- (٢٤) الخرجي: العقود للزواوية، ج٢، ص ٤١٩٥ طه حسين هديل: الحياة الاجتماعية، ص ٤٦٢.
- (٢٥) مجهول: نور المعارف، ج٢، ص ١١٦ طه حسين هديل: المرجع السابق، ص ١٢٦.
- (٢٦) المصدر السابق، ج١، ص ٥٦٩.
- (٢٧) ابن حاتم الأمير بدر الدين محمد ت ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م: السمع الغالي الثمن في أخبار الملوك من الفز في اليمن، تحقيق: زكيا سميت، جامعة كمبردج (د.ت)، ص ص ٣١٢، ٥١١، يحيى بن الحسين ' ابن القاسم بن محمد ت ١١٠٠هـ / ١٦٨٩م: غاية الأملاني في أخبار قطر اليماني، تحقيق: سعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٨م، القسم الأول، ص ٤٤١.
- (٢٨) القلقشندي ' أحمد بن علي ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م: أصبح الأعشى في صناعة الإنشاء، شرح وتعليق، محمد حسين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م، ج٤، ص ١١٢ طه حسين هديل: الحياة الاجتماعية، ص ١٢٦.
- (٢٩) مجهول: نور المعارف، ج١، ص ٥٣٨.
- (٣٠) الخرجي: العقود للزواوية، ج٢، ص ٢١١-٢١٢.
- (٣١) مجهول: نور المعارف، ج٢، ص ١٤٨.
- (٣٢) الزبيدي: تاج العروس، ص ٢٧٦.
- (٣٣) مجهول: نور المعارف، ج٢، ص ١٢٨.
- (٣٤) مجهول: المصدر السابق، ج٢، ص ٥١٣.
- (٣٥) الخرجي: العقود للزواوية، ج٢، ص ٣٤ مجهول: المصدر السابق، ج٢، ص ١٤٨.

- (٣٦) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص ٤٧٠؛ محمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، بيروت، دار الفكر المعاصر، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٠م، ص ١٣٧.
- (٣٧) المصدر السابق، ج٥، ص ٤٥٤؛ مجهول: نور المعارف، ج١، ص ١٩٧؛ ج٢، ص ١٨٩؛ محمد دهمان: المرجع السابق، ص ٩٧.
- (٣٨) مجهول: المصدر السابق، ج١، ص ١٢٢.
- (٣٩) الحوائج خانا: هو المكان أو المستودع الذي يخزن فيه جميع المشتريات الخاصة بالمطبخ السلطاني من الحبوب، والبهارات والتوابل والأوعية وكافة الأدوات، أنظر: مجهول: المصدر السابق، ج١، ص ٥٤٨.
- (٤٠) المصدر السابق، ج٢، ص ١١٥.
- (٤١) المصدر السابق، ج٢، ص ١٢٨، هامش (٨).
- (٤٢) المصدر السابق، ج٢، ص ٩٥، ٩٩، ١٤٨.
- (٤٣) المصدر السابق، ج٢، ص ٢٣.
- (٤٤) ابن فضل الله العمري: تهاب الدين أحمد بن يحيى ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م: مسالك الألبان في مسالك الأضرار، تحقيق: أيمن فوزان السيد، القاهرة، دار الإحصاء، ١٩٨٧م، ص ٤٠؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج١، ص ٥٦؛ محمد دهمان: معجم الألفاظ، ص ٩٢.
- (٤٥) مجهول: نور المعارف، ج٢، ص ١٠٨.
- (٤٦) المصدر السابق، ج٢، ص ٦٤.
- (٤٧) المصدر السابق، ج٢، ص ٤٨.
- (٤٨) ابن فضل الله العمري: مسالك الأضرار، ص ١٥٤؛ مجهول: ارتفاع الدولة المؤيدية، ص ٣١، ٩٨.
- (٤٩) البريهي: عبدالوهاب بن عبدالرحمن ت بعد ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م: طبقات صنعاء اليمن، المعروف بتاريخ البريهي، تحقيق: عبدالله الحبيشي، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ١٩٩٤م، ص ٢٠٤.
- (٥٠) لحج: مخلاف كبير في الشمال الغربي من عدن، انظر إبراهيم المعجلي: معجم المدن، ص ٣٥٥.
- (٥١) أبون: مخلاف مشهور على ساحل البحر الهندي شرقي عدن، أنظر: المرجع السابق، ص ٨.
- (٥٢) نزع: مدينة مشهورة في سفح جبل صنبر الشمالي؛ بينها وبين صنعاء جنوباً ٢٥٦ كم. أنظر: المرجع السابق، ٦٩.
- (٥٣) إب: مدينة في الجنوب من صنعاء بمسافة ١٤٠ كم. أنظر: المرجع السابق، ص ٥.
- (٥٤) الضالع: بلدة على بعد ٩٦ ميلاً من عدن، انظر: المرجع السابق، ص ٢٥٧.
- (٥٥) يافع: بلدة في الشمال الشرقي من عدن، أنظر: المرجع السابق، ص ٤٦٩.



- (٥٦) شيرة: منطقة أثرية بين مأرب وحضرموت، أنظر: المرجع السابق، ص ٢٢٥.
- (٥٧) وصاب: جبل متسع بالغرب الجنوبي من صنعاء بمسافة ١١٢ كم. أنظر: المرجع السابق، ص ٤٦٥.
- (٥٨) حجة: مدينة كبيرة في الشمال الغربي من صنعاء بمسافة ١٢٧ كم. أنظر: المرجع السابق، ص ١١٠.
- (٥٩) محمد سعيد: الحياة الاقتصادية في اليمن في عهد بني رسول، رسالة دكتوراه، تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، بجامعة تونس الأولى، ١٩٩٨م، ص ٦٢٩.
- (٦٠) مجهول: نور المعارف، ج ١، ص ١٠، ٣١٠؛ أسامة حماد: مظاهر الحضارة الإسلامية في اليمن في العصر الإسلامي 'عصر تولتي بني أيوب وبني رسول'، الإسكندرية، مركز الإسكندرية للكتاب، ٢٠٠٤م، ص ٢٥٩.
- (٦١) الكنداء: من مدن تهامة القديمة تقع في وادي سهام. أنظر: إبراهيم المقحفي: معجم المدن، ص ١٤.
- (٦٢) المحالب: قرية تهامية خربة تقع في وادي مور على مقربة من (الزهرة)، أنظر: المرجع السابق، ص ٣٤٦.
- (٦٣) أحور: وادٍ فيه فرى شرقي **بين**، أنظر: المرجع السابق، ص ٣٦٤.
- (٦٤) الجند: بلدة مشهورة بالشرق الشمالي من مدينة تعز بمسافة ٢٢ كم، أنظر: المرجع السابق، ص ٩٥.
- (٦٥) خضير: تقع في الشرق الجنوبي من تعز بمسافة ٤١٦ كم، أنظر: المرجع السابق، ص ٧٨.
- (٦٦) جبا: مدينة خربة غربي جبل صبر المطل على تعز، أنظر: المرجع السابق، ص ١٤٢.
- (٦٧) جبلة: مدينة مشهورة بالجنوب الغربي من إب بمسافة ٧٧ كم، أنظر: المرجع السابق، ص ٨١. وللمزيد عن مسالك تكرير السكر في اليمن، أنظر: مجهول: سحر المعارف، ج ٢، ص ١٠٢-١٠٥.
- (٦٨) ابن مجاور: جمال الدين يوسف بن يعقوب ت ٦٩٠هـ/١٢٩١م؛ صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تاريخ المستنصر (اعتنى بتصحيحها: أوسكر لوفقرين، بيروت، دار التنوير، ١٩٨٦م، ص ٤٥).
- (٦٩) لسان: بلدة تهامية خربة من أعمال ربيع، شمالي زبيد، صمرت معنها قرية الحسينية، أنظر: المرجع السابق، ص ٣١٦.
- (٧٠) القعنة: قرية تهامية خربة في الشمال الشرقي من زبيد، أنظر: المرجع السابق، ص ٣٢٤.
- (٧١) لشحر: ميناة لحضرموت، أنظر: المرجع السابق، ص ٢٢٧.
- (٧٢) حضرموت: مدينة كبيرة تُعرف باسم الأحقاب، بها مركز المحافظة الخامسة من محافظات الشطر الجنوبي من اليمن، أنظر: المرجع السابق، ص ١٢٢.

- (٧٣) وادي رَمَح: وادي مشهور إلى الشمال من وادي زبيد؛ أنظر: محمد الحجري: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، تحقيق: إسماعيل الأكوخ، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ٢٠٠٩م، ص ١٠٠، ص ١٣٧٠ إبراهيم المقطفي: معجم المدن، ص ١٨١.
- (٧٤) الغمزة: من قبائل قضاة في حضرموت، أنظر: محمد الحجري: المرجع السابق، ص ٢٠٢، ص ١٧٢٥ إبراهيم المقطفي: المرجع السابق، ص ٣٥٥؛ عبدالرحمن السيفاني: معجم بلدان حضرموت المسمى (إدام القوت في نكر بلدان حضرموت)، تحقيق: أحمد المقطفي، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ٢٠٠٢م، ص ١٠٩.
- (٧٥) رَمَان: اسم مشترك بين عدد من الأماكن والقبائل، بلدة من رداح، وبنو ردمان من قبائل أرحب، وبنو ردمان يوادعة حاشد عرفوا ببنى الزرقفة، أنظر: إبراهيم المقطفي: المرجع السابق، ص ١٧٦.
- (٧٦) مجهول: ارتفاع الدولة المؤيدية، ص ٣٦١.
- (٧٧) مجهول: نور المعارف، ج ٢، ص ٨.
- (٧٨) الخرجي: العقود اللؤلؤية، ج ٢، ص ٢٢٠ محمد سعيد: الحياة الاقتصادية، ص ٦٨٥.
- (٧٩) تحفة النظار، ص ٢٥١.
- (٨٠) صفة بلاد اليمن، ص ١١٦.
- (٨١) غلافقة: قرية تهامية شمال غربي مدينة زبيد، وهي مرسى زبيد، أنظر: ياقوت الحموي: تهذيب اللين أبو عبد الله ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م؛ معجم البلدان، بيسروت، دار صادر، ١٩٨٤م، ص ٢٠٨؛ إبراهيم المقطفي: معجم المدن، ص ٣٠٦.
- (٨٢) ابن مجاور: صفة بلاد اليمن، ص ٢٤٣.
- (٨٣) ماركوبولو: رحلات ماركوبولو، ترجمة للإنجليزية؛ وليم مارسدن، ترجمة للعربية: عبدالعزيز جاويد، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٦م، ج ٣، ص ٩٤.
- (٨٤) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٣٢٣؛ ماركوبولو: الرحلة، ج ٣، ص ٦٩-١٧٢ سونيا هاو: في طلب التوابل، ترجمة: محمد عزيز رفعت، القاهرة، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٧م، ص ٣٣، ١١٥.
- (٨٥) مجهول: نور المعارف، ج ٢، ص ١، ٨٤.
- (٨٦) المصدر السابق، ج ٢، ص ١١ أسامة حماد، مقارن الحضارة، ص ٥٣٠.
- (٨٧) المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٥.
- (٨٨) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٨٥ أسامة حماد، المرجع السابق، ص ٥٣٠.
- (٨٩) مجهول: نور المعارف، ج ٢، ص ٨٧.
- (٩٠) الودك: السمك والدهن الحيواني.
- (٩١) القبريس: هي لبنة حليب الماعز الطبيعي غير المبستر والمصنعة في الجيزة

- (٩٢) مجهول: نور المعارف، جـ٢، ص ٨٨.
- (٩٣) المصدر السابق، جـ٢، ص ٩١.
- (٩٤) المصدر السابق، جـ٢، ص ٩١.
- (٩٥) مجهول: نور المعارف، جـ٢، ص ٩١؛ جـ١، ص ٣٠٨.
- (٩٦) الزبيدي: تاج العروس، جـ٥، ص ١٦٠.
- (٩٧) مجهول: نور المعارف، جـ٢، ص ٨٧.
- (٩٨) المصدر السابق، جـ٢، ص ٩١.
- (٩٩) مجهول: نور المعارف، جـ١، ص ٤.
- (١٠٠) المصدر السابق، جـ٢، ص ٨٦.
- (١٠١) المصدر السابق، جـ٢، ص ٩.
- (١٠٢) المصدر السابق، جـ٢، ص ٩٧.
- (١٠٣) مجهول: نور المعارف، جـ١، ص ٦١.
- (١٠٤) المصدر السابق، جـ٢، ص ٩٢؛ أسامة حماد: مظاهر الحضارة، ص ٥٢٩.
- (١٠٥) المصدر السابق، جـ٢، ص ١١١.
- (١٠٦) المصدر السابق، جـ٢، ص ١١٢؛ جـ١، ص ٦١.
- (١٠٧) الخرجي: العقود اللؤلؤية، جـ٢، ص ١١٣؛ مجهول: المصدر السابق، جـ١، ص ٥٣٩؛ أسامة حماد، المرجع السابق، ص ٥٢٨.
- (١٠٨) الزبيدي: تاج العروس، م٢، ص ٢٧٦؛ مجهول: نور المعارف، جـ١، ص ١٠.
- (١٠٩) مجهول: المصدر السابق، جـ٢، ص ٨٦.
- (١١٠) المصدر السابق، جـ٢، ص ١٠٠.
- (١١١) الرجلة: وتسمى الرجلة في كل من عدن وتغر وإب ومن اسمائها 'البقلة' يؤكل ورقها مطبوخاً أو على شكل سلطة، أنظر: مصطفى الشهابي: معجم الشهابي في مصطلحات العلوم الزراعية، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٧٨م، ص ٥٨٦.
- (١١٢) مجهول: نور المعارف، جـ١، ص ١٠١.
- (١١٣) المصدر السابق، جـ٢، ص ١٠١.
- (١١٤) الخرجي: العقود اللؤلؤية، جـ٢، ص ١١٥؛ الزبيدي: تاج العروس، جـ٢، ص ٤٥٥.
- (١١٥) مجهول: نور المعارف، جـ٢، ص ٢٣.
- (١١٦) تاج العروس، جـ٢، ص ١٣٧.
- (١١٧) مجهول: نور المعارف، جـ١، ص ١١٦-٢٥٨؛ أسامة حماد، مظاهر الحضارة، ص ٥٢٨.
- (١١٨) المصدر السابق، جـ٢، ص ١٠٦.
- (١١٩) الخرجي: المصدر السابق، جـ٢، ص ١٩٥.

- (١٢٠) مجهول: نور المعارف، جـ٢، ص١٣٧.
- (١٢١) المصدر السابق، جـ٢، ص ص ١٤-١٦؛ أسامة حماد، مظاهر الحضارة، ص٥٢٢.
- (١٢٢) الزبيدي: تاج العروس، جـ٢، مادة سوية.
- (١٢٣) ابن الجاور: صفة بلاد اليمن، ص ص ٨٠-١٨١ ابن بطوطة: تحفة النظائر، ص١٢٢٤؛ أسامة حماد، مظاهر الحضارة، ص٥٠٥.
- (١٢٤) ابن جاور: المصدر السابق، ص ١٣١؛ أسامة حماد، مظاهر الحضارة، ص٥٢٢.
- (١٢٥) تحفة النظائر، ص٢٢٦.
- (١٢٦) الملك الأشرف \* عمر بن يوسف بن رسول ت ٦٩٦هـ / ١٢٩٧م: طريقة الأصحاب في معرفة الأنساب، تحقيق، ك وسترسين، صنعاء، دار الكلمة، ١٩٨٥م، ص١٠٣؛ الخزرجي: العقود اللؤلؤية، جـ١، ص ص ١١٥، ١٢٦، جـ٢، ص ١٩٢؛ أسامة حماد، مظاهر الحضارة، ص٥٠٢.
- (١٢٧) الملك الأشرف: المصدر السابق، ص٢٢٦.
- (١٢٨) مجهول: نور المعارف، جـ٢، ص ٩٢-٩٣.
- (١٢٩) الخزرجي: العقود اللؤلؤية، جـ٢، ص ١١٥؛ مجهول: تاريخ الدولة الرسولية، ص ٩٤.



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhr.it.com>

## قائمة المصادر والمراجع

## أولاً: المصادر المطبوعة:

١. البريهي، عبدالوهاب بن عبدالرحمن ت بعد ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م: طبقات صلحاء اليمن، المعروف بتاريخ البريهي، تحقيق: عبدالله الحبشي، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ١٩٩٤م.
٢. ابن بطوطة - محمد بن عبدالله ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م: تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، مراجعه: نرويش الجويدي، بيروت، المكتبة العصرية، ٢٠٠٧م.
٣. الجندي - بهاء الدين محمد بن يوسف ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م: الملوك في طبقات العلماء والملوك، تحقيق: محمد بن علي الأكوخ، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ١٩٩٥م.
٤. ابن حاتم الأمير بدر الدين محمد ت ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م: السمع الطيالي الثمن في أخبار الملوك من القز باليمن، تحقيق: ركس سميث، جامعة كامبردج (د.ت).
٥. الخرجي - علي بن الحسن بن أبي بكر ت ٨١٢هـ / ١٤١٠م: العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تصحيح ضحمة الأكوخ، القاهرة، مطبعة الهائل، ١٩٨٣م.
٦. ابن التبيح - أبو الشياخ عبدالرحمن بن علي ت ٩٤٤هـ / ١٥٧٢م: بغية المستفيد في تاريخ مدينة زيدا، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي، صنعاء، ٢٠٠٦م.
٧. الزبيدي - محمد مرتضى ت ١٢٠٥هـ / ١٧٩١م: نوح العروس في شرح جواهر القاموس، تحقيق: علي شويري، بيروت، دار صادر، ١٩٩٣م.
٨. ابن فضل الله العمري - شهاب الدين أحمد بن يحيى ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: أيمن فؤاد السيد، القاهرة، دار الإحصاء، ١٩٨٧م.
٩. القلقشندي - أحمد بن علي ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، شرح وتحقيق، محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م.
١٠. ابن المجاور جمال الدين يوسف بن يعقوب ت ٦٩٠هـ / ١٢٩١م: صفة بلاد اليمن ومكة وبعض البحار المسماة تاريخ المستعصر، اعتنى بتصحيحها: أوسكار لوفلين، بيروت، دار التنوير، ١٩٨٦م.
١١. مجهول - ت بعد ٨٣٠هـ / ١٤٣٦م: تاريخ الدولة الرسولية في اليمن، تحقيق: عبدالله الحبشي، صنعاء، دار الجيل، ١٩٨٤م.
١٢. مجهول: نور المعارف في نظم وأقوالين وأحرف اليمن في العهد العثماني الوارف، تحقيق: محمد عبدالرحيم جازم، صنعاء، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية، ٢٠٠٣م.

١٣. مجهول: ارتفاع الدولة المرينية، تحقيق: محمد عبدالرحيم جازم، صنعاء، المعهد الفرنسي للأثار والعلوم الاجتماعية، ٢٠٠٩ م.
١٤. الملك الأشرف \* عمر بن يوسف بن رسول ت ٦٩٦هـ / ١٢٩٧م: طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب، تحقيق: ك وسترستين، صنعاء، دار الكلمة، ١٩٨٥م.
١٥. ياقوت الحموي شهاب الدين أبو عبدالله ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م: معجم البلدان، بيروت، دار صادر، ١٩٨٤م.
١٦. يحيى بن الحسين \* ابن القاسم بن محمد ت ١١٠٠هـ / ١٦٨٩م: غاية الأمل في أخبار القطر اليماني، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٨م.

#### المراجع العربية:

١٧. إبراهيم المقحفى: معجم المدن والقبائل اليمنية، صنعاء، دار الكلمة، ١٩٨٥م.
١٨. أسامة حماد: مظاهر الحضارة الإسلامية في اليمن في العصر الإسلامي \*عصر تولتي بني أيوب وبني رسول \*، الإسكندرية، مركز الإسكندرية للكتاب، ٢٠٠٤م.
١٩. طه حسين هديل: الحياة الاجتماعية في اليمن عصر الدولة الرسولية، عدن، دار جامعة عدن، ٢٠١٠م.
٢٠. عبدالرحمن السقاف: معجم بلدان حضرموت المسمى إدام القوت في نكر بلدان حضرموت، تحقيق: إبراهيم المقحفى وعبدالرحمن السقاف، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ٢٠٠٢م.
٢١. محمد الحجري: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، تحقيق: إسماعيل الكوع، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ٢٠٠٩م.
٢٢. محمد دهمان: معجم الألفاظ لتاريخية في العصر المملوكي، بيروت، دار الفكر المعاصر، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٠م.
٢٣. مصطفى الشهابي: معجم الشهابي في معجم مصطلحات العلوم الزراعية، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٧٨م.

#### المراجع المغربية:

٢٤. سونيا هار: في طلب التوابل، ترجمة: محمد عزيز رفعت، القاهرة، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٧م.
٢٥. ماركو بولو: رحلات ماركو بولو، ترجمه للإنجليزية: ولیم مارسدن، ترجمه للعربية: عبدالعزيز جاويد، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٦م.
- رسائل علمية:
٢٦. محمد سعيد: الحياة الاقتصادية في اليمن في عهد بني رسول، رسالة دكتوراه، تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، بجامعة تونس الأولى، ١٩٩٨م.



## أثر فتنة قرطبة على الحياة العامة فيها

٢٩٩-٤٢٢هـ/١٠٠٩-١٠٣١م

د. منيرة بنت عبد الرحمن الشراي (٩)

### تعريف الفتنة وتسميتها :

عرف علماء اللغة الفتنة بكسر الفاء بمعاني كثيرة منها: الابتلاء والاختبار والامتحان، وأصلها مأخوذ من الفتن وهو إذابة الذهب والفضة بالنار، لتميز الردي من الجيد. ومنها القتل والحروب، والاختلاف بين فرق المسلمين، إذا تحزبوا، وهو ما ينطبق على موضوع البحث. (١) وقد وردت كلمة الفتنة بمعنى القتل في عدة مواضع في القرآن الكريم منها قوله تعالى ﴿إِن خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (٢). وقوله تعالى ﴿على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم﴾ (٣). **وقد أشار الرسول صل الله عليه وسلم إلى الفتنة بمعنى القتل بقوله** «هل ترون مالي؟» **إني لأرى مواقع الفتن من خلال بيوتكم كمواقع القطر»** (٤) وقوله **«يكونون فتن القاطن فيها خير من العالم والعالم خير من العاشي»** (٥). وبذلك يكون القتل والحروب هو المنلول اللغوي للفتنة.

أما المنلول التاريخي للفتنة، فقد أطلق المؤرخون مسمى الفتنة على الأحداث والثورات والحروب التي شهدتها قرطبة، في مطلع القرن الخامس الهجري/الحدادي عشر الميلادي، وفي الوقت الذي لكتفى بعض المؤرخين بتسميتها بالفتنة، نسبة البعض إلى البربر، فسميت بفتنة البربر. فمن النوع الأول: ابن بسام (٦) والأبلائي (٧) وابن بكسين (٨) وابن عذاري (٩) ومن النوع الثاني الذي ينسبها للبربر ابن حبان معاصر الفتنة الذي وصفها بقوله «الفتنة البربرية الشنعاء المدلثة، المفارقة للجماعة، الهادمة للملكة المؤتلفة» (١٠)، ويعرفها كل من: ابن الخطيب (١١) وابن سعيد (١٢) بالفتنة البربرية، ويطلق التباهي عليها اسم فتنة البرابر (١٣) ولعل تسمية الفتنة بفتنة قرطبة، نسبة للمكان الذي حدثت فيه، أكثر دقة من تسميتها بفتنة البربر حيث أن الصراع الحاصر في قرطبة وشارك في هذا الصراع سكان قرطبة من البربر، وعمامة أهل قرطبة، ولم تكن قاصرة على البربر وحدهم.

(٩) أستاذ مشارك بقسم التاريخ كلية الآداب جامعة الملك سعود.



### الحدود الرضبية والمكانية للفتنة :

تمتد الحدود الزمانية للفتنة، من الثورة على عبدالرحمن ابن أبي عامر المعروف بشنجول بزعامة محمد بن هشام المعروف بالمهدي، في جمادى الآخر عام ٣٩٩هـ / فبراير ١٠٠٩م (١٠)، وحتى إعلان الوزير أبو الحزم بن جهور عزل آخر خلفاء بني أمية، وإسقاط الخلافة الأموية في الأندلس في ذي القعدة عام ٤٢٢هـ / فبراير ١٠٣١م (١٥). أي أن الفتنة امتدت لمدة اثنين وعشرين عاماً.

أما الحدود المكانية للفتنة فقد تركز الصراع في هذه الفترة على قرطبة، والتي تقع وسط الأندلس، وتمتد في سهل متسع على الضفة الشمالية لنهر الوادي الكبير، وعلى سفح جبل العروس (١٦) بطول ثلاثة أميال من الغرب إلى الشرق، وعرض ميل من الشمال إلى الجنوب (١٧) وتتكون قرطبة من خمسة أقسام، وتضم واحداً وعشرين ربضاً (١٨)، وهي قرطبة العاصمة في الوسط، وشقطة جنوباً، والزهارة شرقاً، والرسالة شمالاً، والزهراء غرباً (١٩)، وكان يحيط بقرطبة سور، أما البقية لها فلم تحيط بها الأسوار إلا في الفتنة (٢٠)، أما الأرباض فكانت رياضان في الوسط تابعة لقرطبة، وستة أرباض في الجانب الشرقي تابعة (للزهارة) وتسع أرباض في الغرب تابعة (للزهراء) وثلاثة أرباض في الشمال تابعة للرسالة، وربض واحد في الجنوب تابع لشقطة (٢١).

### الفتنة وأسبابها وأحداثها

كان تعيين عبدالرحمن بن محمد بن أبي عامر، المعروف بشنجول، ولياً لعهد هشام المؤيد، في ربيع الأول ٣٩٩هـ / نوفمبر ١٠٠٨م (٢٢). الشرارة التي أدت إلى اندلاع الفتنة والثورة على هشام المؤيد، وحاجبه عبدالرحمن شنجول، وأظهرت رفض سكان قرطبة نقل الخلافة من بني أمية القرشيين إلى بني عامر المعافرين الغططانيين. وعلى الرغم من محاولة عبدالرحمن شنجول إضفاء الشرعية على ذلك التعيين، معتمداً على الأثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم: " لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق العرب بعصاه. " وقد ضمن ذلك الكتاب التعيين لولاية العهد (٢٣).

وإذا كان التعيين لولاية العهد هو السبب المباشر لاندلاع الثورة، فقد وجد عدد من الأسباب التي أدت إلى حدوث هذه الفتنة ثم استمرارها، وتمثلت تلك الأسباب برفض بني أمية تحجيم مكانة الخليفة، وعزل الخليفة هشام عن الناس، ومسحح الصلاحيات منه (٢٤)، وقتل الكثير من المؤهلين للخلافة من بني أمية على يد المنصور بن أبي عامر (٢٥) وفي المقابل زيادة مكانة الحاجب على حساب الخليفة، واتخاذ الألقاب السلطانية واستبداده بالحكم والدولة، وظهور ذلك مع المنصور بن أبي عامر وابنه المنظر (٢٦). كما كانت تغيرات المنصور بن أبي عامر في الجيش وتقريبه للبربر والصقالبة - الفتيان العامرين - سبباً في حقد عامة أهل قرطبة على بني عامر، وتطلعهم للقضاء عليهم (٢٧). وكان الحدا بين بني عامر أنفسهم سبباً في الفتنة، وتمثل

ذلك في حقد "الذلاء" ووالدة عبدالملك المظفر، على عبدالرحمن شنجول، لاعتقادها أن لشنجول دورا في موت ابنها المظفر(٢٨)، كما أن عبدالرحمن شنجول لم يكن بحسبة والده المنصور وأخيه المظفر السياسية، فكان ضعف الشخصية ميالا للهو والمجون وشرب الخمر، ولم يغير سيرته وأخلاقه بعد توليه الحجابة وولاية العهد، مراعاة لمكائنه السياسي وكسب رضى السكان عنه، بل على العكس؛ استعجل باتخاذ الانقلاب السلطانية التي لم يكن أهلا لها ومنها: المأمون وناصر الدولة، دون أن يحقق أمجادا لتبلاك تزهله لتلك الانقلاب، فكرهه الناس(٢٩). ولم يكن كره شنجول قاصرا على العامة، بل تعداه إلى رجال الدولة عندما أساء معاملتهم، وأمرهم بطرح قلائصهم الطويلة الملونة المميزة لهم، وأمرهم بلبس العمام، فاعتبر رجال الدولة ذلك إهانة لهم، ونقلوا لمكانتهم لتأثيركائنتهم عند العامة(٣٠). علاوة على حقد محمد بن هشام، الذي عرف بالمهدي، على عبد الرحمن شنجول لقتله والده هشام بن عبدالرحمن الناصر، بأمر من أخيه عبدالملك المظفر(٣١) وكان خروج عبدالرحمن شنجول للفرار إلى جليقية، فسي تتسرف غير مناسبة، حيث خرج في فصل الشتاء ببرده القارص وأمطاره الكثيرة، اضالة إلى عدم ولاء كثير من الرجال المصلحين له(٣٢) قد مكن أهل قرطبة التساقين عليه من إعلان ثورتهم، حيث قدمت الذلاء الأموال لمحمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبدالرحمن الناصر، التي مكنته من جمع المؤيدين حوله من عامة أهل قرطبة، وأعلن الثورة ضد هشام المؤيد وحاجبه عبدالرحمن شنجول(٣٣).

ونجح محمد بن هشام بثورته، وقتل عبدالرحمن شنجول وعزل هشام المؤيد عن الخلافة، وبيع له بالخلافة وتلقب بالمهدي في ١٧ جمادى الآخرة ٣٩٩هـ/ ٦ فبراير ١٠٠٩م. وبدأت مناطق الأندلس ترسل البيعة للمهدي، وبذلك عادت الخلافة لهني أمية، وقضى على بني عامر(٣٤)، وكانت ثورة المهدي أن تعيد الأمور إلى نصابها، بعد إعادة الخلافة إلى بني أمية، وتحافظ على استقرار الأندلس ووحدةها، إلا أن المهدي لم يكن الشخص المؤهل للخلافة، فكان لجهله السياسي، وعدم قدرته على الموازنة بين الأعراف والقوى السياسية في قرطبة، وحفده على بنسى عامر، واضطهاده للبربر والصفاوية - ساعدي بني عامر - الأثر البالغ في اندلاع الفتنة في قرطبة، والتي فشلت جميع خلفاء بني أمية في عصر الفتنة في إخمادها، وكانت نتيجتها سقوط خلافة بنسى أمية. ونظرا لسوء معاملة محمد المهدي للبربر، ورغبة البربر في المحافظة على مكانتهم السياسية، فرروا الثورة على المهدي وطالبوا بالخلافة باسم سليمان بن الحكم بن عبدالرحمن الناصر، وتلقب بالمستعين بالله وبدأ الصراع ظاهريا بين اثنين من بنسى أمية محمد المهدي، وسليمان المستعين وجوهريا بين عامة قرطبة مساندي المهدي والبربر مؤيدي المستعين واستجد كل منهم بالتصاري فاستجد المستعين، والبربر بملك قشتالة سانشو غريسه، وطلب المهدي العون من بوريل الثالث Borell صاحب برشلونة وأرمنغول Ermangol صاحب اورخل(٣٥)، وحدثت بين الطرفين معركة قشتيش(٣٦) وعقبه البقر(٣٧)، وعانت قرطبة وسكانها الأمرين من هذا الصراع، والذي نتج عنه قتل

المهدي عام ٤٠٠هـ/١٠١٠م، وإعادة هشام المؤيد للخلافة حتى عام ٤٠٣هـ — ١٠٣١م، ولم يكن سليمان المستعين بأفضل سياسية من المهدي، فأساء إلى سكان قرطبة، كما أنه أقطع زعماء البربر جنوب وغرب الأندلس وجنوب المغرب للإفتراد بحكم قرطبة. وكانت نتيجة تلك السياسة أن زادت قوة البربر على قوته، وتطلع بنو حمود إلى الخلافة، ففرروا خلع المستعين، فدخل علي بن حمود قرطبة، وأدعى أن هشام المؤيد قد ولاء ولاية العهد وقتل سليمان المستعين في ٢٢ محرم ٤٠٧هـ/يونيو ١٠١٦م، وبذلك خرجت الخلافة من بني أمية إلى بني حمود الصنبيين، لمدة سبع سنوات، حتى خلع القاسم بن حمود في جمادى الثاني عام ٤١٤هـ/١٠٢٣م (٣٨). وقد تضرر سكان قرطبة من سياسة بني حمود التنصيفية معهم، وكان ذلك سبباً في خلع سكان قرطبة للقاسم بن حمود، وإعادة الخلافة إلى بني أمية، وذلك بمبايعة عبدالرحمن بن هشام المستظهر عام ٤١٤هـ/١٠٢٣م (٣٩). إلا أن الأوضاع السياسية لم تتحسن بعودة الخلافة إلى بني أمية، فاستمر التدهور العام في قرطبة، وتحكم العامة في الخلافة والخلفاء، يقتل هذا ويخلع الآخر، حتى سلم السكان من هذه الأوضاع المتدهورة، وتقبلوا رأي الوزراء بزعمارة الوزير أبي الحزم بن جهور، بإسقاط خلافة بني أمية في الأندلس، في ذي القعدة ٤٢٢هـ/١٠٣١م، وعزل آخر خلفاء بني أمية: هشام بن محمد المعتد بالله، وتعيين أبو الحزم بن جهور على قرطبة (٤٠).

كانت السمة البارزة للأحداث في قرطبة، في عصر الفترة ٣٩٩-٤٢٢هـ/ ١٠٠٩-١٠٣١م، هي الصراع على منصب الخلافة، والحصار الصراع على قرطبة وتدخل العديد من الأطراف في هذا الصراع. وخرجت الخلافة لفترة من الزمن من بني أمية إلى بني حمود، وتولى الخلافة لشخص غير كفاء لمنصب الخلافة. وكان لهذا الصراع أثر كبير على الحياة العامة في قرطبة، في جوانبها المختلفة، وهذا ما سنحاول التعرف عليه في بحثنا هذا.

#### أولاً: الآثار السياسية للفتنة:

لقد كان للفتنة أثر جسيمة على الأوضاع السياسية داخل قرطبة، ومدى قدرة خلفاء الفتنة على فرض قوتهم وتفويضهم داخل الأندلس، والمحافظة على حدود دولتهم الخارجية. وعند النظر في الآثار السياسية داخل قرطبة، يتبين لنا كثرة من تولى منصب الخلافة، فقد تولى الخلافة تسعة خلفاء، تولى أربعة منهم مرتين في مدة لا تتجاوز اثنين وعشرين عاماً (٤١). ومن الآثار السياسية أن جميع الخلفاء في الفتنة وصلوا إلى الخلافة، إما بالثورة أو باختيار سكان قرطبة لهم، فمن وصل إلى الخلافة بثورة: محمد المهدي وسليمان المستعين، وعلي بن حمود، وعبدالرحمن المستظهر بالله (٤٢). وممن وصل إلى الخلافة بدعوة من سكان قرطبة - سواء أكانوا من البربر أو من العامة - القاسم بن حمود ومحمد المستكفي بالله وهشام المعتد (٤٣). وكانت جميع الشخصيات التي وصلت إلى الخلافة غير مؤهلة لهذا المنصب فاتهموا بالضغط وقلّة الخبرة

والحنكة السياسية، فعجزوا عن ضبط الأوضاع في قرطبة، وإعادة الاستقرار السياسي لها. ونتج عن الضعف السياسي للخلفاء: ضياع هيبة الخلافة، ومكانة الخليفة الروحية لدى العامة، فُلغ الخلفاء في فترات وقتوا في فترات أخرى، وتولى خليفان في وقت واحد أحياناً أخرى، وظل منصب الخلافة شاغراً فترة من الزمن. فمعن انتهت خلافته بالخلع: هشام المؤيد الذي خلع عام ٢٩٩هـ/ ١٠٠٩م (١٤) وخلع محمد المستنكبي بالله في ٢٥ ربيع الأول ٤١٦هـ/ ١٠٢٥م (١٥) كما خلع هشام المعتد بالله في ذي القعدة عام ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م (١٦). ومعن انتهى حكمه بالقتل محمد المهدي، الذي قتل في ذي الحجة عام ٤٠٠هـ/ ٢٣ يوليو عام ١٠١٠م (١٧) وسليمان المستعين، الذي قتل في ٢٢ محرم ٤٠٧هـ/ ١٠١٧م (١٨) وعبدالرحمن المستظهر بالله الذي قتل في ٣ ذي القعدة ٤١٤هـ/ ١٠٢٤م (١٩). وشهدت الأندلس، ولأول مرة منذ قيام حكم بني أمية فيها، وجود خليفين في وقت واحد ومكان واحد ولكل منهما اتصاره ومؤيدوه وهما محمد المهدي، وسليمان المستعين (٥٠). وبعد مقتل محمد المهدي عام ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م وإعادة هشام المؤيد للخلافة أصبح هناك خليفان وهما: هشام المؤيد وسليمان المستعين، واستمر الوضع حتى عام ٤٠٣هـ/ ١٠١٣م، عندما نجح سليمان المستعين في دخول قرطبة وقبض على هشام المؤيد، وأصبح هو الخليفة الأوحده (٥١). وقيل منصب الخلافة شاغراً في قرطبة، عندما هرب يحيى بن علي بن حمود، المعروف بالمعتلى بالله وترك تدبير أمور قرطبة لوزيريه: أحمد بن موسى، ولوناس بن أبي روح في محرم عام ٤١٧هـ/ ١٠٢٥م وطرد الوزيران منها في ربيع الأول من السنة نفسها (٥٢) وقيل المنصب شاغراً حتى قدم هشام المعتد بالله إلى قرطبة في ذي الحجة عام ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م، على الرغم من أن أهل قرطبة كانوا قد أرسلوا بيعتهم لهشام المعتد في مقره بالبوئت، في ٢٥ ربيع الأول ٤١٨هـ/ ١٠٢٦م (٥٣). ولعل هذا الفراغ السياسي لمدة عامين وسبعة أشهر، وضعف الخلفاء، وضياع هيبة الخلافة حيث كان الخليفة صورياً يعزل ويقتل ويتناول عليه، ونس له من الخلافة سوى الاسم من العوامل التي ساعدت على تقبل سكان قرطبة إسقاط خلافة بني أمية عندما أعلن الوزير أبو الحزم بن جهور وذلك في عام ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م، مقارئة بمعارضتهم وثورتهم على عبدالرحمن شنجل عندما حاول نقل الخلافة من بني أمية لبني عاصم، بتوليه ولاية العهد لهشام المؤيد.

ومن الآثار السياسية: أن السياسة لم تعد نخبوية يسيرها الخاصة من الخلفاء والوزراء، بل تدخل الجميع في السياسة، على اختلاف أعرافهم ومكانتهم الاجتماعية، من البربر والصقالبة والسودان، ومن الفقهاء والجند العامة وغيرهم (٥٤).

ومن الآثار السياسية: تقلص نفوذ بني أمية داخل الأندلس وخارجها، ففي داخل الأندلس، تحصر الصراع على قرطبة، وعلى منصب الخلافة، فشهدت بذلك الأندلس بداية التشرذم والتمزق السياسي، والإسلاخ عن الخلافة، حيث لم تتجاوز سلطة الخليفة العاصمة قرطبة. وكان ذلك الإسلاخ إما بإقطاء من بعض الخلفاء، كما فعل سليمان

المستعين عندما قطع قبائل البربر جنوب وجنوب غرب الأندلس، ليحكم قرطبة منفرداً بعيداً عن سيطرته(٥٥). أو استقطاعاً وخروجاً عن الطاعة، كما فعل الصقالبة في شرق الأندلس(٥٦) أو أفراداً بحكم مناطقهم، كما فعل بنو عباد في إشبيلية وبنو تحيب في سرقسطة، وبنو الأفلح في بطليوس(٥٧) وفي عصر الفتنة هذه بدأت بنور دول الطوائف في التشكيل والظهور.

وظهر تقلص نفوذ بني أمية خارج الأندلس بخروج الجزء الغربي من المغرب الأقصى عن سيطرة بني أمية، إذ كان بنو أمية قد نجحوا في مد نفوذهم على تلك المنطقة منذ عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر، واستمرت سيطرتهم على تلك المنطقة حتى بداية عصر الفتنة، حيث استغل سكان المغرب إشغال بني أمية بصراعهم على الخلافة، واستقلوا بحكم منطقتهم، وبذلك خرجت المغرب من تبعيتها لبلاد الأندلس(٥٨).

ومن الآثار السياسية لهذه الفتنة: استغلال ملوك وأمراء النصارى للأحداث السياسية، وبدأوا في التدخل في الصراع، فلعب سانشو غريسه ملك قشتالة دوراً في إيصال سليمان المستعين إلى الخلافة وشارك كل من بوريل الثالث صاحب برشلونة وأرمغول صاحب أورخل، في إعادة محمد المهدي إلى الخلافة(٥٩) ونتج عن تلك المساعدات التي بذلها ملوك وأمراء النصارى، لخلقاء الفتنة، أن أقدم العمسون في الأندلس أجزاء من مناطق الحدود في الشمال عندما تعهد سليمان المستعين بالتنازل لسانشو غريسه عن بعض الحصون والقلاع على نهر الدوير(٦٠) كما تعهد محمد المهدي بمساعدة النصارى بالاستيلاء على مدينة سيلم، وإن يخليها لهم من المسلمين(٦١). وعندما رأى النصارى مدى الضعف الذي حل بالمسلمين، أخذوا يهددون بني أمية ويطالبونهم بالتنازل عن عدد من المناطق في الشمال، كما فعل سانشو غريسة ملك قشتالة؛ عندما أرسل لهشام المؤيد يتهدهده، ويطالبه بالتنازل عن الحصون الواقعة على الحدود بينهم، والتي افتتحها المسلمون منذ عهد الحكم وحتى عهد المنصور بن أبي عامر وابنه المظفر فأضطر هشام المؤيد إلى قبول ذلك وتنازل عن ٢٠٠ حصن، ووقعت معاهدة بذلك بحضور الفقهاء(٦٢) وبذلك بدأت حركة الاسترداد النصراني في الازدياد، مستغلين الصراع الدائر في قرطبة خاصة، وفي الأندلس عامة، لمصالحهم.

مما سبق يتبين أن للفتنة آثاراً جسيمة على الأوضاع السياسية داخل الأندلس وخارجها، فمن آثارها: سقوط حكم بني أمية في الأندلس، بعد أن دام قرابة الثلاثة قرون، ولقدت الأندلس وحدتها السياسية، وبدأ معها عصر التشرذم وملوك الطوائف، كما تقلصت حدود دولة بني أمية جنوباً وشمالاً ففي الجنوب خرج الجزء الغربي من المغرب الأقصى عن حكم بني أمية وفي الشمال تراجعت الحدود بسيطرة النصارى على العديد من المناطق والحصون وكان ذلك دافعا للنصارى لضرب المسلمين بعضهم بعض، والتقدم في حركة الاسترداد النصراني للأندلس.

ثانياً : أثر الفتنة على الإدارة :

لقد تأثرت الإدارة بالفتنة، فاختلفت بعض المناصب التي كان لها دور رئيسي في إشعال الفتنة وهما: منصب الحجابة، وولاية العهد، فاختلف منصب الحجاب في بداية عصر الفتنة على الرغم من أن محمد المهدي كان قد عين ابن عمه، عبد الجبار بن المغيرة، في منصب الحجابة (٦٢) إلا أن المصادر لا تذكر أي دور سياسي لعبد الجبار بن المغيرة ولعل في هذا دلالة على تجسيم هذا المنصب. وكانت هناك محاولة فاشلة لإعادة منصب الحجابة مع واضح الصقلي الذي تولى الحجابة على هشام المؤيد بعد مقتل محمد المهدي في ذي الحجة ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م، ولكنه لم يستمر طويلاً في منصبه هذا، حيث قتل في عام ٤٠١هـ/ ١٠١١م، على يد أهل قرطبة الذين رفضوا السيطرة على الخليفة من قبل الحجاب (٦٤). ولعل اختفاء هذا المنصب يوضح كره السكان لسيطرة متولي هذا المنصب على الخليفة، والذي ارتبط بالسيطرة العائرية على الخليفة والخلافة.

وتأثر منصب ولاية العهد في الفتنة، فلم يظهر إلا في حالات ثلاث: الثمان بالتعيين وولادة بالإنعاء، وظهرت الحالة الأولى عندما عين محمد المهدي ابن عمه سليمان بن هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، ولما لعهد، إلا أنه لم يستمر طويلاً في منصبه، حيث سجنه المهدي ثم قتله، عندما ثار والده هشام بن سليمان على المهدي لسوء سياسته، وادعى أنه أحق منه بالخلافة، وقتلت محاولات ابن هزم وابن ذكوان في إعادة له للثورة (٦٥) أما الثانية، فكانت عندما ادعى علي بن حمود أن هشام المؤيد قد ولاه عهده عام ٤٠٥هـ/ ١٠١٥م، وأظهر كتاب نسبة إلى هشام المؤيد، وجعل ذلك مسبباً للثورة على سليمان المستعين، ونجح في دخول قرطبة عام ٤٠٧هـ/ ١٠١٧م، وسياسته بالخلافة (٦٦) وكانت الثالثة عام ٤١٥هـ/ ١٠١٥م، عندما عين محمد المستنفي ابن عمه سليمان بن هشام بن عبدالله بن الناصر ولماً لعهد، إلا أن هذا التعين لم يوصله إلى الخلافة، لأن من ولاه العهد خلع من الخلافة، عام ٤١٦هـ/ ١٠١٦م (٦٧).

كما تأثر منصب الوزارة بالفتنة، وظهر ذلك جلياً بوصول طبقة غير مؤهلة للوزارة، وكان السبب الرئيس لوصولها هو: مساندتهم للخليفة لإيصاله إلى الحكم، كما حدث مع محمد المهدي، عندما ولي الوزارة لبضعة عشر رجلاً من أراذل العامة من الحجامين والخزازين والزبائين والكفالفين. لمساندتهم له في القضاء على بنو عامر (٦٨) على الرغم من أنه لم يكن لهم أي معرفة بالإدارة أو السياسة، وكان الحسين بن يحيى التجيبي ممن تقرب إلى المهدي وكان أحد دعاة فولاه الوزارة ثم ضم له المظالم (٦٩) فجمع له بين وظيفتين مدنية ودينية، وهذا يدل على مدى الاختلال والقوضى الذي عانت منه الإدارة في عصر الفتنة. واستمر صغار الناس في الوصول إلى منصب الوزارة، مع محمد المستنفي، الذي ولي الوزارة لأحمد بن خالد وهو رجل حائك ليس له دراية بالسياسة، فأساء إلى السكان (٧٠). وجعل عبد الرحمن المستنظر القرابة والتأييد هما الأساس للتعين في الوزارة بعد أن أعيدت الخلافة لبني أمية فعين عدداً من بنو

مروان من صفار السن ولم يكن لهم معرفة بالسياسة، فاستبدوا بالحكم عن غيرهم ممن كان لهم دراية سياسية، فكان ذلك سبباً في خلع المستظهر وقتله (٧١). وبلغ الأمر غاية السوء مع هشام المعتد، الذي ولي الوزارة ابن القزاز وأطلق يديه في الحكم، فحجر ابن القزاز على الخليفة واستبد بشلون الدولة وأساء إلى جميع السكان كما أساء إلى بقية الوزراء والجنود، فأخر أعصابهم مما كان سبباً في تحالف الجنود مع الوزراء، وأتساروا العامة على ابن القزاز، فكانت سياسته سبباً في قتله ومن أسباب إسقاط حكم بني أمية في الأندلس (٧٢).

وبلغ من اضطراب الأوضاع الإدارية، في عصر الفتنة، أن المناصب كانت تشتري وتنتج عن ذلك أن وصل للإدارة أشخاص لم يكن لهم دراية بالسياسة، من العامة والفقهاء (٧٣). وليس أدل اضطراب الإدارة في عصر الفتنة، من تباين صلاحيات وقوة الوزراء، ففي الوقت الذي كانت سلطة بعض الوزراء محدودة، واستبد الخلفاء في الأمور دونهم كما حدث مع أبي عبيدة حسان بن مالك بن أبي عتبة، وزير عبدالرحمن المستظهر فقد كان المستظهر يبت في كثير من الأمور دون الرجوع إليه (٧٤). وقد فاقت صلاحيات وقوة البعض الآخر قوة الخلفاء أنفسهم، كما حدث مع أحمد بن خالد الحائك وزير محمد المستكني (٧٥) وابن القزاز وزير هشام المعتد (٧٦) وبلغ من قوة بعض الوزراء أن نقضوا أحكام الخلفاء، كما حدث في عصر عبدالرحمن المستظهر، عندما سجن بعض شيوخ قرطبة لرغبتهم في تولية الخلافة سليمان المرتضى، فكتبوا صاحب المدينة الذي أخرجهم من السجن مخالفاً لرأي المستظهر (٧٧). وكان من استقلال الوزراء لمناصبهم وتسلطهم على العامة، أنهم هم الذين قاموا بالسلب والنهب في عهد محمد المهدي دون رادع لهم (٧٨). وبلغ استقلال بعض الوزراء لمناصبهم أن استولوا على بعض ممتلكات الخلافة، كما فعل ابن منا ذو الوزيرين، وزير هشام المؤيد عندما رأى تردي الأوضاع السياسية عام ٤٠٢هـ/١٠١٢م، فأخذ كل متاع رفيع من قصر الخلافة، وحمله لبلبا وهرب إلى بطليوس (٧٩).

وبلغت قوة الوزراء، في بعض الأحيان، أن تولوا تعيين وعزل الخلفاء، وظهر ذلك جلياً عندما قاد الوزراء الثورة على القاسم بن حمود، وفرروا إعادة الخلافة إلى بني أمية (٨٠). ووصلت تلك القوة ذروتها في اجتماع الوزراء، بزعامة أبو الحزم ابن جمهور، عندما فرروا عزل هشام المعتد، وإسقاط خلافة بني أمية، واتصاع لقرار الوزراء هذا الخليفة هشام المعتد، وجميع سكان قرطبة، وبذلك قطعت خلافة بني أمية بأمر من الوزراء (٨١). ولعل هذا التباين في أوضاع الوزراء وقوتهم، جعل الكثير يتنافسوا على منصب الوزارة وغيره من المناصب الإدارية، على الرغم من أن بعضهم لم يحصلوا على مرتبات من تلك المناصب (٨٢). ومن اللافت للنظر إيجاد عدد من الخطط والمناصب الجديدة في عهد عبدالرحمن المستظهر مثل خطة المدينتين الزهراء والزاهرة - على الرغم من تدميرها وكتابه التعطيل المحاسبية، وخطة الحشم، وخطة مواريث الخاصة وخطة الطراز وخطة المعالي وخطة خزنة الطب والحكمة وغيرها. ووصف ابن حبان

هذه المناصب بأنها عبث، ومراتب نصبت لغير طائل(٨٣). والجدير بالذكر، أن هذه القوة التي وصل إليها بعض الوزراء لم تكن استمرار قوتهم ونفوذهم، بل تغيرت أوضاعهم بتغير الخلفاء، كما فعل المهدي عندما نكب وزراء بني عامر، بعد أن قضى على حكمهم(٨٤). ونكب سليمان المستعين مؤيدي المهدي، ومنهم الوزير الحسين بن حي بن عبد الملك التجيبيني(٨٥). وتعرض الوزراء من بني حزم للنكبة عدة مرات، ونهبت منازلهم وممتلكاتهم، وكانت أول نكبة تعرضوا لها على يد المهدي عندما نكب احمد بن حزم، لأنه من وزراء بني عامر، ونهبت منازلهم في شرق الزاهرة، فانتقلوا إلى بلاط مغرب في الجانب الغربي لقرطبة فماكان من احمد بن حزم الا أن نقل ولاءه لمحمد المهدي، ليضمن استقرار وضعه. وبعد قتل المهدي وعودة هشام المؤيد للخلافة، كان احمد بن حزم من وزراء المهدي الذين امتحنهم المؤيد وسجنوا وأغرموا وظل احمد بن حزم مسجوناً حتى مات عام ٤٠٢هـ/ ١٠١٢م(٨٦). وعند وصول المستعين للخلافة المرة الثانية، استمر في الإساءة إلى بني حزم، حتى اضطروا إلى الهرب من قرطبة عام ٤٠٤هـ/ ١٠١٤م(٨٧). كما نكب محمد المستكفي علي بن حزم وابن عمه أبا المغيرة الذين عادوا إلى قرطبة في عام ٤٠٩هـ/ ١٠١٩م، لأنهم كانوا من وزراء عبدالرحمن المستظهر(٨٨)، كما اضطهد علي بن حمود عدداً من وزراء المستعين، منهم احمد بن برد وأبو الحزم بن جهور، فأعتقلهم وصار أموالهم(٨٩).

وكان للفتنة تأثير على الجيش، وكان الجيش في عهد بني عامر جيشاً قوياً وضم نوى الخبرة العسكرية من البربر والصفانية، وقد بلغ عدد الصفانية في جيش المنصور ١٠٥٠٠(٩٠). ونظراً للعداء بين المهدي وبني عامر، فقد غير المهدي بعد وصوله إلى الخلافة في الجيش، فتمن إليه الألقاب من عامة قرطبة، من مسألة الناس، من المهن المختلفة، ولم تكن لهم خبرة ولا دراية في الحرب والقتال فكانوا عبثاً عليه أكثر من كونهم دعماً له(٩١). وأخذ العامة في التطوع في جيش المهدي فرساناً ومشاة ووزعت عليهم الأسلحة رغبة في الحصول على الأموال والعطاء والقسائم في حروب المهدي(٩٢). ولم يقتصر وجود العامة في الجيش على الجند في جيش المهدي بل تعداه إلى القادة، فمن قادة المهدي: الفضل بن الطيب وابن الوكيل، وغيرهما من الحوالتين والجزائريين وأشباههم(٩٣). وتضخم جيش المهدي من العامة حتى بلغ عدد جيشه في عام ٤١٠هـ/ ١٠١٠م، ثلاثين ألفاً في حربه لسليمان المستعين عندما دعى كل من بلغ الحلم وأدر على حمل السلاح إلى الانضمام للجيش(٩٤). وأصبح هذا العدد الكبير من الجند عبئاً على خزينة الدولة(٩٥). معاً دفع المهدي إلى إخراج سبعة آلاف من جنده وقطع أرزاقهم(٩٦) وعندما عجز المهدي عن ضبط الأوضاع في قرطبة؛ فكر في الاستعانة بالجند من خارج قرطبة لذا دفع إلى واضح الصقلي ٥٠ ألف دينار ليوفرها في جند مدينة سالم للانضمام إليه إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل(٩٧).

وفي الوقت الذي استكثر فيه المهدي من العامة في جيشه، أماء إلى البربر والصفانية، وهما عماد جيش بني عامر فغلب جماعة من الصفانية العامريين إلى خارج



قرطبة، فأتجهوا إلى شرق الأندلس (٩٨). كما أساء إلى البربر عندما أسرههم بوضع السلاح، وحاول إخراجهم إلى المغرب وإعادةهم للعمل بالزراعة (٩٩). ولعل محاولة المهدي إخراج البربر من الجيش، وسحب صلاحياتهم العسكرية والمالية، من أهم الأسباب التي دفعتهم للثورة ضده، ومبايعة سليمان المستعين بالخلافة.

وقد اضطرب وضع الجيش كإضطراب الأوضاع السياسية، ففي الوقت الذي اعتمد فيه المهدي على العامة، جعل سليمان المستعين البربر صاعد جيشه، كما حاول استقطاب الجند الصقلية وجذبهم إلى صفه، رغبة في تقوية مركزه ضد مناوئيه، فأرسل إليهم يدعوهم إلى الانضمام إليه والدخول في الطاعة، مع استمرار سيطرتهم على مناطقهم وزيادة العطاء لهم، إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل (١٠٠).

ولقد توفقت قوة الجند، في عصر الفتنة، على قوة الخلفاء، وحرصوا على المحافظة على تلك القوة، لذا ثار الجند من عامة قرطبة على واضح الصقلية، وقتلوه عندما فكر في مصالحة البربر، حفاظاً على وجودهم وقوتهم (١٠١). وبلغ من نفوذ الجند أن أوكل إليهم هشام المؤيد، عام ٤٠٢هـ/١٠١٢م، تسيير أمور الدولة، وتولى الصراع مع البربر، بالتعاون مع وزيره ابن مناو دون الرجوع إليه (١٠٢). ونظراً لزيادة قوة البربر في جيش سليمان المستعين، وهم الذين ساعدوه للوصول إلى الخلافة، ورغبة من سليمان المستعين في إبعادهم عن العاصمة قرطبة ليخلص من نفوذهم وليسنى له حكم قرطبة منفرداً، قام بإلحاقهم بمناطق في جنوب وجنوب غرب الأندلس (١٠٣). وعندما وصل علي بن حمود إلى الخلافة ٤٠٧هـ/١٠١٧م، ورأى ما وصل إليه كل من العامة والبربر في الجيش، قرر أن يحدث تغيير في الجيش وبدأ بإدخال السودان في الجيش لإضعاف نفوذ البربر وسار أخيه القاسم بن حمود على نهجه فزاد من السودان في الجيش (١٠٤). وبلغ من قوة الجند قتلهم كل من حاول التصدي لأطماعهم من متولي الوظائف العامة كما حدث في عام ٤٠٣هـ/١٠١٣م، عندما قتل البربر كل من تولى الشرطة في قرطبة زمن هشام المؤيد لمعارضتهم مصالحهم، فقتلوا كلا من محمد بن قاسم الأموي المعروف بالجالطي، وعبدالله بن حسين بن إبراهيم بن حسين بن عاصم (١٠٥). كما لعب الجند دوراً في قتل الوزير ابن القزاز وزير هشام المعتد، عندما أكره أعطيتهم (١٠٦).

لقد تأثرت الوظائف الدينية بالفتنة كتأثر الوظائف المدنية، ومن أبرز الوظائف التي تأثرت في الفتنة: خطة القضاء، وعلى الرغم من أهمية هذا المنصب الدينية والاجتماعية، فقد تأثرت أوضاع القضاة بالأحداث السياسية، فأسقطت عن بعضهم الألقاب ونفي البعض الآخر، وسجن البعض، وبلغ الأمر بتعطيل خطة القضاء في بعض الفترات. فبعد نجاح محمد المهدي بالقضاء على بني عامر، أسقط لقب قاضي القضاة عن القاضي أبي العباس أحمد بن ذكوان، وأصره على قاضي الجماعة، لغرب ابن ذكوان من بني عامر وتوليته القضاء في عهدهم. واكتفى المهدي بإسقاط اللقب عنه، ولم يستطع عزله أو إيداعه لمكانته من الخاصة والعامة (١٠٧) وتعرض القاضي ابن ذكوان

هو وجميع أسرته للنفي إلى المغرب عام ٤٠١هـ/ ١٠١١م، لمناصحته لهشام المؤيد، وحاجبه واضح الصقلي، في حربهم مع البربر واتهم بعمله للبربر (١٠٨). واكتفى سليمان المستعين بسجن القاضي يحيى بن واقد اللخمي، عند دخوله قرطبة عام ٤٠٣هـ/ ١٠١٣م، بعد استنطاق الكثير من الناس عليه حيث كان ينوي قتله لأن ابن والده كان من مؤيدي هشام المؤيد، ومعارضاً لسليمان المستعين وظل ابن والده مسجوناً حتى مات عام ٤٠٤هـ/ ١٠١٤م (١٠٩). ولعل خوف سليمان المستعين من قوة القضاة وتأثيرهم على الناس، كان سبباً في تعطيله خطة القضاء طوال حكمه الذي دام ثلاثة أعوام وثلاثة أشهر، وبذلك تعطل مذهب القاضي حتى أعاده علي بن حمود وعندما عين عبدالرحمن بن بشر على القضاء، واستمر قاضياً حتى عزله في خلافة هشام المعتد عام ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م لسعاية بعض الفقهاء ضده لسوء معاملتهم له (١١٠).

ومن اللافت للنظر تدخل القضاة، في عصر الفتنة بالسياسة كثيراً، ومن ذلك: أن هشام المؤيد أشهد القضاة والفقهاء، على خلع نفسه لمحمد المهدي (١١١)، وأرسل محمد المهدي قاضيه ابن ذكوان مع وزيره ابن حزم، لإعادة هشام بن سليمان للطاعة، ومنعه من الثورة ضد المهدي (١١٢). كما أرسل محمد المهدي القاضي ابن ذكوان إلى البربر يدعوهم للطاعة على أن يعيد هشام المؤيد للخلافة ويكون نائباً عنه (١١٣). وشارك القاضي والفقهاء في صياغة المعاهدة التي وقعت بين هشام المؤيد والنصارى، على تسليم جميع الحصون الشمالية التي استعادها الحكم والمنصور والمظفر، مقابل عدم تهديدهم لأراضي المسلمين (١١٤). ولعب القاضي ابن ذكوان دوراً في الصراع الذي دار بين هشام المؤيد وواضح الصقلي وسليمان المستعين والبربر، فشجع القاضي ابن ذكوان على محاربة البربر وتعهده بتأمين ٥٠٠٠ فرس من مال الأحياس، ليجعل عليها مرتجلة العبد (١١٥). وترغم القاضي ابن ذكوان وفد الفقهاء إلى سليمان المستعين ورؤساء البربر، عام ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م، لتأمين سكان قرطبة بعد انتصارهم عليهم (١١٦).

ولعل الغماز القضاء بالسياسة، وتداول الخلفاء عليهم، كان سبباً في ضياع هيبتهم أمام العامة، الذين تناولوا بدورهم عليهم، وهذا ما حدث مع القاضي ابن ذكوان، الذي رفض طلب العامة بدفع أموال الأحياس للنصارى اتقاء لشركهم فتناولوا على القاضي وكسروا مقصورة الجاسع وأخذوا الأموال دون موافقته ودفعوها للنصارى (١١٧). وفي عصر الفتنة، لم يعد العزم والكفاءة هما المعيار الرئيس لتسولي منصب القضاء، بل كان التأييد للخلفاء والثوار هو الأساس لتولي هذا المنصب، فكان هذا سبباً في أن وصل البعض إلى القضاء مع قلة علمهم (١١٨). ولعل اضطراب الأوضاع السياسية، والتناول على القضاة وعدم مقدرتهم على إضفاء أحكامهم، وخوفهم على أنفسهم وأموالهم من الأسباب التي دفعت البعض للاستعفاء أو رفض منصب القضاء، فمن طلب الاستعفاء: عبدالرحمن بن أحمد بن أبي المطرف المعافري الذي استغنى من هشام المؤيد عام ٤٠٢هـ/ ١٠١٢م بعد توليه القضاء مدة سبعة أشهر وثلاثة وعشر

يوماً(١١٩)، ورفض القضاء كل من: أبي العباس احمد ابن ذكوان، وأخيه أبي خاتم، بعد عودتهم من نفيهم في المغرب، بعد قتل واضح الصقلي، كما رفض عبدالله بن احمد الجذامي القضاء، عندما عرضه عليه محمد المستكفي(١٢٠). وفي الوقت الذي رفض البعض القضاء، نجد أن هناك من استفاد من القضاء واستغنى بعد فقر، مثل يونس بن مغيث بن الصغار آخر قضاة بني أمية(١٢١).

ولقد تأثرت بقية الوظائف الدينية بالفتنة كتأثر القضاء، منها خطة الرد والمظالم والشورى والشرطة. وليس أدل على اضطراب تلك الوظائف من زيادة محمد المستكفي للمشاورين من خمسة إلى أربعين(١٢٢). كما وثى محمد المستكفي خطة الشرطة لبعض العامة، والتجار الذين استغلوا مناصبهم دون رادع، وأسأوا إلى السكان(١٢٣)، وانتهت حياة بعض متولي تلك المناصب بالقتل، كما حدث مع راشد بن إبراهيم بن راشد، متولي خطة الرد، الذي قتل عام ٤٠٤هـ/١٠١٣م(١٢٤). ومن الملاحظ في هذه الفترة الجمع بين الوظائف الدينية والمدنية كالجمع بين القضاء والوزارة، كما حدث مع عبدالرحمن بن محمد بن لطيس وعبدالرحمن بن بشر(١٢٥)، وجمع الحسين بن حي بن عبدالملك التجيبي بين المظالم والوزارة(١٢٦).



#### أثر الفتنة على العمران :

بلغت قرطبة أوج ازدهارها العمراني في عصر الخلافة، في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وتلوقت على سائر المدن الأندلسية(١٢٧) وكانت قرطبة في عصر الخلافة تتكون من خمسة أسما وإحدى وعشرين ريباض(١٢٨)، وقد استحدث الثقلان منها في عصر الخلافة وهما: الزهراء التي أسسها الناصر، والزاهرة التي أسسها المنصور بن أبي عامر(١٢٩). وبلغ من توسع العمارة في قرطبة، أن اتصلت العمارة فيها وامتدت بطول ضفة نهر الوادي المسمى الوادي الكبير، وعليه الرصيف المعروف بالأسواق والبيوع. وامتدت الأرياض حتى تلاصقت ببعضها، حتى إن الزاهرة في الجانب الشرقي اتصلت عمراها بالزاهرة في الجانب الغربي المقابل مروراً بقلب المدينة. وبلغ من ازدهار عمارة قرطبة وتطورها، أنه كان يمشي فيها بالأنوار بالسرج مسافة عشرة أميال(١٣٠). وقد صور المؤرخون والجغرافيون المسلمون، تطور قرطبة العمراني، بإحصاء لإعداد مراقفها العامة فبلغ عدد مساجدها ١٣٨٧، وقول ١٨٦٧، وفي رواية ٢٨٧٧(١٣١) وعدد دور العامة أو منازلهم ١١٣٠٧٧ داراً، أما منازل الأمراء والوزراء والقادة فبلغت ٦٠٠٣٠٠ دار وكانت الرصافة هي مساكن الخاصة، أما العامة فكانت مساكنهم في أرياض قرطبة(١٣٢)، وبلغ عدد الحمامات ٣٧١١ حماماً(١٣٣)، وعند الخانات والفنادق ١٦٠٠ فندق(١٣٤) ووصل الازدهار والتطور العمراني إلى الأسواق، حيث وصلت أعداد الجوانب إلى ٨٠٤٥٥(١٣٥). علاوة على القصور والمنزلجات، فمن قصور قرطبة: قصر الخلافة، وقصر الزاهرة، والكامل، والمجدد، والحائر، والروضة، والزهرة، والمعشوق، والمبارك، والرشيق، والتاج، والهديع(١٣٦). ومن منزهات قرطبة:

المستندرة مقر المرافق شمال قرطبة، ومنزله المد، ومنزله قصر الرصافة الذي زرع فيه غراب الغروب والأشجار والمنية المصاحفية، والمنية العامرية (١٣٧).

ونتيجة لاهتمام خلفاء وحجاب بني أمية بالعصارة، أصبحت قرطبة تتنافس العواصم الإسلامية الأخرى، بالتخطيط والتنظيم وفخامة العسرة وتنوعها، إلا أن هذا التطور لم يقدر له أن يستمر، حيث تأثرت العسرة كثيراً بالفتنة التي حصلت بقرطبة في مطلع القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وكانت الزاهرة - مقر بني عامر - أول مناطق قرطبة العسرية تأثراً بالفتنة، فبعد وصول محمد المهدي إلى الخلافة عام ٣٩٩هـ/١٠٠٨م، أطلق يد مؤيديه من العامة في الزاهرة فنهبت الممتلكات، وأمر بنقل الأموال والأختار الخاصة إلى قصر الخلافة. وقيل إن المهدي نقل منها ٥ ملايين و ٥٠٥ آلاف درهم ومثيون و ٥٠٠ ألف دينار، واستخرج من الدفائن ٢٠٠ ألف (١٣٨). واستمر نهب الزاهرة لمدة يومين، وقيل لأربعة أيام. وبعد أن فرغ المهدي من نقل الأموال والأختار أمر بهدمها، وتدمير قصورها واقتلاع أبوابها ثم إحراقها، ونجح في طمس أثرها فلم يترك حجراً فوق حجر فلم يعد للزاهرة أي أثر سوى اسمها، ليمحو بذلك كل أثر لبني عامر (١٣٩).

ولم يقف التدمير العسري، في عصر الفتنة، على تدمير الزاهرة وإزالتها، وإنما استمر التدمير والتخريب لقرطبة، **طوال الفتنة** وبدأت الزهراء تتعرض للتدمير بعد هزيمة سليمان المستعين في عقبه البقر عام ٤٠٠هـ/١٠١٠م، وخروجه من الزهراء - حيث كان قد اتخذها قاعدة له ولأتباعه من البربر، ليهبذ عن أهل قرطبة - فهاجم عامة قرطبة الزهراء ويهيبوا ما وجدوا من آلات البربر، ودخلوا المسجد الجامع ونهبوا حصره وقناديله ومصاحفه وصفائح أبوابه (١٤٠). وتعرضت الزهراء للتدمير مرة أخرى، بعد خروج المستعين منها للمرة الثانية، عام ٤٠١هـ/١٠١١م، بعد حصار دام ثلاثة أيام، وأشعلت النيران في المسجد الجامع فيها، وكان المسجد الوحيد الذي دمر في الفتنة (١٤١). كما تعرضت الزهراء للتدمير مرة ثالثة في عام ٤١٥هـ/١٠١٥م، في عهد محمد المستنكفي الذي كان بحاجة إلى الأموال فتطلع إلى قصور الزهراء التي تضم ثروات معسرية هائلة، فالتفتعت أبواب النحاس والرصاص والمرمر والأخشاب الجديدة (١٤٢). كما تعرضت الرصافة للتدمير والتخريب على يد واضح الصقلبي عام ٤٠١هـ/١٠١٠م، عندما أطلق يد العامة فيها فخربوها وقطعوا أشجارها وأحرقوها، ليحول دون دخول البربر إلى قرطبة من جهتها (١٤٣). واستمر التدمير لقرطبة، فدمر سليمان المستعين طرق المواصلات بين الزهراء وقرطبة، محاولة منه للضغط على سكان قرطبة ثم أخذ في تدمير أرباض قرطبة ففي عام ٤٠١هـ/١٠١٣م بدأ البربر أتباع سليمان المستعين في تدمير أرباض قرطبة وعاثوا فيها فساداً (١٤٤)، واستمر تدمير تلك الأرباض حتى عام ٤٠٣هـ/١٠١٣م. كما تعرضت أرباض قرطبة للتدمير ومنه ربهضها الغربي - بلاط مغبت - فخربت مهانيتها ودمرت حتى هجرها سكانها (١٤٥). واستخدم سليمان المستعين، وأتباعه من البربر، التدمير العسري للضغط على أهل

قرطبة لتسليمه المدينة، وذلك بتخريب بنائها وقطع مرافقها (١٤٦). وعندما تمكن سليمان بن عبد الحميد بن المهدي من دخول قرطبة، عام ٤٠٣هـ/١٠١٣م، أخذ في تدمير وإحراق أي منطقة تقاومهم (١٤٧). واستمر تدمير قرطبة مع علي بن حمود الذي هدم نذر بعض أهل قرطبة بعد إيسائه لهم (١٤٨). كما تأثرت أسواق قرطبة بالثورة، فبعد قيام محمد المهدي أخيراً، سوق السراشق (١٤٩). وفي عام ٤٠١هـ/١٠١١م أحرق عدد من أسواق قرطبة، منها سوق السراجين وسوق الخشابين (١٥٠).

ولم تكن الحروب هي السبب الأوضح للتدمير التوسعي الذي حل بقرطبة، فقد تعرضت قرطبة، في عام ٤٠١هـ/١٠١١م، لفيضان نهر الوادي الكبير والذي استمر لمدة ثلاثة أيام وكان سبباً في هدم ألفي دار وعدد من المساجد والقناطر، وهدم معها أجزاء السور الجنوبي لقرطبة (١٥١).

كما تأثرت طرقات قرطبة بالفئنة فعندما خاف محمد المهدي، عام ٤٠٠هـ/١٠٠٩م، من البربر قام بحفر الخنادق حول فحص السراشق، وفي أرباض قرطبة، ليحول دون تقدم البربر إلى قرطبة (١٥٢). وبعد عودة محمد المهدي لقرطبة، في ثلاثين الثانية، أمر ببناء سور يدور حول أرباض قرطبة جميعاً، حيث كان السور في السابق للمدينة دون أرباضها، وأحيط السور بخندق وجعل للسور ثلاثة أبواب وهي: باب عباس وباب الحديد وباب الفرج (١٥٣). ولقد تأثرت شوارع قرطبة، فخربت الشوارع من جراء الصراع داخل قرطبة، ومن حرقيات الخنادق حتى كواقت كوام التراب والحجارة على جوانب الشوارع (١٥٤). ونتيجة للتدمير فقد تراجعت مرافق قرطبة العاصمة، فقتلصت حماستها من ٣٧١١ إلى ٧١١ حصاناً (١٥٥). وأحرقت الأسواق وقتل أعداد المنازل لهدم الكثير منها (١٥٦). وقد دمرت بعض المساجد، ومنها مساجد الزاهرة والزهراء، وتعرضت أجزاء من المسجد الجامع في قرطبة للتدمير حيث كسروا ودمروا باب مقصورة الجامع، عندما رفض القاضي ابن ذكوان إعطائهم أموال الأحياس (١٥٧). كما تحولت المنزهات الخاصة إلى منزهات عامة لجميع الطبقات، ولم تعد تلقى الاهتمام والعاية من الخلفاء كالسابق (١٥٨).

#### أثر الفئنة على الحياة الاقتصادية :

نتيجة للاستقرار السياسي في القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي، اهتم خلفاء بني أمية وحجابها بالاقتصاد بأشكاله المختلفة، فزادت موارد الدولة، وسكت العملة الذهبية وبرز إثر الاقتصاد بازدهار التواحي الحضارية المختلفة، من العسارة وغيرها، إلا أن الاقتصاد تدهور تدهوراً واضحاً، في عصر الفئنة، لعدم قدرة خلفاء الفئنة على المحافظة على أموال الدولة العامة والإسراف في العطاء في بداية الفئنة، وتحول ملكيات الدولة إلى ملكيات شخصية، واستنزاف الأموال في الحروب، ونقل أموال الأندلس إلى خارجها، وتوقف مناطق الأندلس عن إرسال الخراج السنوي إلى قرطبة،

لخروج سكانها عن طاعة خلفاء بني أمية، وإطلاق يد أتباع الخلفاء في السلب والنهب والمغارم والمصادرات التي فرضت على العامة.

وبدأ أول تأثير على الاقتصاد مع انتصار محمد المهدي؛ على عبدالرحمن شنجول وقتله عندما أسرف في العطاء لكل من تبعه، فانضم إليه عامة أهل قرطبة من الخماء والتجار، فأغدى عليهم العطاء (١٥٩). كما أطلق يد أتباعه في نهب ممتلكات بنى عامر في الزاهرة، وشارك محمد المهدي بنهب الأموال من الزاهرة، ونقل بيت المال من الزاهرة إلى قصر الخلافة في قرطبة، وحوله إلى ملكية خاصة. وبلغ مقدار ما استولى عليه ٥ ملايين و ٥٠٠ ألف دينار فضة، ومليون و ٥٠٠ ألف دينار ذهب، ومن السفائن ٢٠٠ ألف دينار (١٦٠). كما سمح المهدي بنهب منازل بعض الخاصة من البربر فأثر ذلك على أوضاعهم الاقتصادية، ودفعهم إلى مساندة سليمان المستعين (١٦١).

ولقد استغذت مشغرات بني أمية وأموالها، وأموال الخاصة، في الحروب الدائرة على منصب الخلافة (١٦٢) وفي جمع المؤيدين كما فعل محمد المهدي عندما أعطى "واضح الصقلي" ٥٠ ألف دينار، ليوزعها على جنود مدينة سالم لينضموا إليه (١٦٣) وفي دفع الأموال للنصارى طلباً لمساعدتهم، كما فعل محمد المهدي عندما طلب العون من النصارى ضد سليمان المستعين، مقابل الكثير من الأموال، فتعهد لبرويث الثالث صاحب برشلونة وارانجول صاحب أورخل بدفع مائة دينار لكل منهما عن كل يوم ولكل جندي من جنودهما دينارين في اليوم، طوال مساندة لهم ضد سليمان المستعين، إضافة إلى إطلاق أيديهم في القناتم (١٦٤): وزاد نفاذ الأموال باستيلاء النصارى والبربر على الكثير من الأموال والأمتعة لأهل قرطبة، في حروبهم معهم، مثل معركة وادي آرة عام ٤٠٠هـ/١٠١٠م، حيث بلغ مقدار ما استولى عليه الوزير اليهودي لملك قشتالة ٣٠ ألف مثقال علاوة على ما استولى عليه بقية الجند النصارى الذين امتلأت مناطقهم بالدراهم والدينارين (١٦٥). وبذلك أخذت أموال من قرطبة في الانتقال إلى الخارج إلى النصارى. وبلغ من قلة الأموال لدى الخلفاء، أن اضطر سكان قرطبة لجمع الأموال، إضافة إلى أموال الأحياس، لدفعها للنصارى ليخرجوا عن قرطبة (١٦٦).

ونتيجة لقلة الأموال في أيدي خلفاء بني أمية، فقد عمدوا إلى فرض المغارم والضرائب والمصادرات على سكان قرطبة، ليوفروا الأموال للإساق على الحروب والجنود، ففرض محمد المهدي، عام ٤٠٠هـ/١٠١٠م على سكان قرطبة المغارم والضرائب التي عرفت باسم "الفريضة" ليتمكن من تجهيز الجيوش لمحاربة البربر وسليمان المستعين (١٦٧). كما فرض هشام المؤيد، وحاجبه واضح الصقلي الكثير من المغارم على التجار عام ٤٠١هـ/١٠١١م (١٦٨). وزاد هشام المؤيد بفرض الضرائب والمغارم على سكان قرطبة وأجحف عليهم عام ٤٠٢هـ/١٠١٢م (١٦٩). وكان من نتائج معارضة عامة قرطبة لسليمان المستعين، أنه فرض عليهم المغارم والضرائب، عندما دخل قرطبة عام ٤٠٣هـ/١٠١٣م، والتي لاقى طاقهم، حتى إنه أضرهم، وبدعى ابن السرح، مائة ألف دينار (١٧٠). وصارت البربر، بتأييد وموافقة من سليمان المستعين،

ممتلكات وأموال عامة قرطبة حتى اضطر البعض إلى الهرب، تاركين أموالهم وديارهم، حفاظاً على أرواحهم(١٧١). وأسرف على بن حمود عام ٤٠٧هـ/١٠١٧م مع سكان قرطبة، بعد محاولة عبدالرحمن المرتضى الثورة بشرق الأندلس بتأييد من أهل قرطبة ففرض عليهم المغارم وشاطرهم أموالهم وأسلحتهم ودورهم حتى خافه الناس واضطروا إلى التخلي في الأغلبية تحت الأرض(١٧٢). كما صادر على بن حمود أموال عدد ممن خدموا سليمان المستعين وسجن البيض الآخر حتى اقتدوا أنفسهم بالأموال، ومنهم أبو الحزم بن جهور، وأحمد بن برد الأكبر وغيرهما(١٧٣). وعند عودة الخلافة لبني أمية، من بني حمود، لم تتحسن أحوال سكان قرطبة المالية، بل استمروا في فرض الضرائب والمغارم، حيث فرض عبدالرحمن المستظهر المغارم على علية القوم، من السوزراء والمشيخة، ليسد حاجات الدولة وبغ مرتبات الجند ومتطلبات القصر(١٧٤). وصادر ابن القزّاز، وزير هشام المعتد، أموال التجار ليخفق بها على البربر(١٧٥). ولعل تأثر سكان قرطبة ماليًا بالمصادرات وقلة دخلهم، من بين الأسباب التي جعلتهم يتقبلون إسقاط خلافة بني أمية، رغبة منهم في عودة أوضاعهم الاقتصادية إلى سابق عهدها.

وبلغ من قلة الأموال، في عصر الفتنة، أن توقفت مرتبات الجند في بعض الفترات، أو أن مرتباتهم لم تعد تكفي متطلباتهم، ويشير إلى ذلك ابن عذاري عن وضع الجند في عصر هشام المؤيد بقوله: \* الجند فقراء (١٧٦)، كما يشير ابن حزم إلى قلة موارد الدولة وأن مرتبات الجند كانت تكف عن الضرائب المفروضة على المواد الغذائية في الأسواق، من الدقيق والزيت والخبز(١٧٧). وليس أدل على قلة الأموال ونفادها عنه منبجعة هشام المؤيد للمرة الثالثة، من اضطاره إلى بيع مقتنيات قصره من الحلي الثمينة والخنازير، وأواني الذهب والفضة والثياب، وبلغ الأمر ببيع الكتب والأدوية(١٧٨). كما لجأ محمد المستنكي إلى تدمير قصور الزعماء وبيع ثرواتها المعمارية، من أبواب النحاس والمرمر والأخشاب ليحل المشكلة المالية التي واجهته(١٧٩). وأجبر الوزير ابن القزّاز، وزير هشام المعتد، كبار تجار قرطبة على شراء الرصاص والحديد المطلوب من قصور بني أمية، ليحل المشكلة المالية(١٨٠). ولم تكن الحروب وحدها هي التي أثرت على الأموال بل كان للسيول التي تعرضت لها قرطبة عام ٤٠١هـ/١٠١٠م، واستمرت لمدة ثلاثة أيام أثر على الأموال، فذهب كثير من أموال سكان قرطبة وأمتعهم في تلك السيول(١٨١).

وعلى الرغم من التدهور الاقتصادي وقلة الأموال في قرطبة، في عصر الفتنة، فقد أثرى البعض في هذه الفتنة، ومنهم الحاجب واضح الصقلي، الذي وجد معه بعد قتله عام ٤٠١هـ/١٠١٠م الكثير من الأموال، وكان عازماً على الهروب بها إلى خارج قرطبة(١٨٢)، وأثرى ابن ملو- ذي الوزارتين- أحد وزراء هشام المؤيد، في خلافته الثانية، وهرب إلى بطليوس عام ٤٠٢هـ/١٠١٢م، بعد أن استولى على الكثير من الأموال والأمتعة(١٨٣). وأثرى زاوي بن زيري في الفتنة، حيث استولى على الكثير من الأموال وخرج بها من الأندلس إلى المغرب، عام ٤١٦هـ/١٠١٦م(١٨٤)، كما أثرى

الوزير ابن القزاز عندما أطلق هشام المعتد يده في الأموال (١٨٥). كما أصبح ابن باسه من أكبر الاغنياء من خلال تدميره لقصور بني أمية، ونهب كل ما تحويه تلك القصور (١٨٦).

وعلى الرغم من التدهور الاقتصادي التي شهدته قرطبة، في عصر الفتنة، فقد استمر سك العملة في الفتنة، ولعل ذلك لكون العملة شارة من شارات الخلافة، فوجدت دناير لكل من: محمد المهدي، وسليمان المستعين، وهشام المؤيد في خلافته الثانية، وبني حمود ومحمد المستكفي وسليمان المستعين إلا أن التزييف كان ظاهرة في عملة هذه الفترة ولعل ذلك لقلّة الذهب والفضة ولضعف الرقابة (١٨٧).

ولم يقل تأثير الفتنة على الاقتصاد، على قلة الأموال والمغارم، بل تعاد إلى التأثير على النشاط الاقتصادي لقرطبة، بكافة أشكاله من زراعة وصناعة وتجارة. ولقد كان للفتنة أثر سلبي على الزراعة، وذلك لانشغال الخلفاء بالصراع والحروب وإهمالهم الاهتمام بالأراضي الزراعية ونهجر بعض الزراع مناطقهم، وتركوا العمل في الزراعة وشاركوا في الحروب رغبة في الحصول على الأموال. وتعدى الأمر ذلك عندما استخدم الخلفاء التدمير الزراعي من بين أساليب الضغط على السكان، ففسي عام ٤٠١هـ/١٠١٠م، فخرّب واضح الصقلي مدينة الرصافة وقطع لمارها (١٨٨)، واستخدم كل من محمد المهدي، وسليمان المستعين أسلوب التدمير الزراعي لقرطبة (١٨٩)، ولم يقل التدمير على المدن بل تعاد إلى القرى والبوادي، من ذلك استخدام البربر أسلوب التدمير من عام ٤٠١هـ/١٠١٠م، وحتى عام ٤٠٣هـ/١٠١٣م، لقرى قرطبة، ففسدوا زروعهم وفتيت مواشيتهم (١٩٠). وكان من سبب الضغط على القرى والبوادي، انه في عام ٤٠١هـ/١٠١٠م، عندما شدّد سليمان المستعين والبربر الحصار قرطبة أن خرج السكان إلى السواحل والبوادي فاتجه البربر إلى تدمير تلك المناطق للضغط على السكان ومنع سكان قرطبة من الخروج عنها فخلت تلك البوادي والقرى من السكان (١٩١).

كما تأثرت الصناعة بالفتنة، فهجر الكثير من الصناع الحرفيون حرفهم، فأنضم بعضهم للجند، في الفتنة، في حين أن البعض الآخر هاجر من قرطبة إلى أماكن أكثر استقراراً حاملين معهم أصول صناعتهم فانتقل بذلك عدد من الصناعات، ذات الشهرة في قرطبة إلى المدن الأندلسية المختلفة. كما تأثرت الصناعة بإحراق الأسواق وتدمير المنشآت، وظهر تأثير الصناعة بإحراق الأسواق، مثل سوق السراجين والخشابين، فخلت حوايت الحرفيين من أصحابها والتي كانت مدارس لتعليم الصبيان أصول الصنعة. كما تأثرت صناعة المنسوجات بتدمير دار الطراز عام ١٠١٠م (١٩٢). ومن الصناعات التي انتقلت من قرطبة: صناعة الحرير والوشى، حيث انتقل إلى المرية (١٩٣) والتي أصبحت من أفضل مدن الأندلس بتلك الصناعة (١٩٤). كما انتقلت صناعة نسج الكتب والتفسير بعد شلت هذه الصناعة في قرطبة، إلى مدن الأندلس المختلفة، بسبب المنافسة العنيفة لدى ملوك الطوائف (١٩٥)، وانتقلت صناعة العاج إلى طليطلة بعد تدمير دور



صناعة العاج فهاجر بعض صناعها إلى طليطلة (١١٦) حيث شجعهم المأمون بن ذي النون، فبرزت فونكة (١١٧) كمركز بارز في صناعة العاج بالأندلس (١١٨).

وقد ظهرت صناعة الخمر، في عصر الفتنة، والتي حاول خلفاء بني أمية، في عصر قوة الخلافة، منعها والحد منها في قرطبة، وذلك عندما فكر الحكم المستنصر بقطع أشجار العنب من قرطبة لمنع صناعة الخمر والتبذ (١١٩). ولعل شيوخ شرب الخمر بين خلفاء الفتنة، وجنود النصارى، شجع على ظهور تلك الصناعة، والتي قيسل إنها تصنع سراً (٢٠٠).

ولقد تأثرت التجارة بالفتنة نتيجة للظروف السياسية وضرب الحصار على قرطبة، وقطع المواصلات حولها (٢٠١)، فتوقفت التجارة الداخلية والخارجية بين قرطبة وبقية مناطق الأندلس وبينها وبين العالم الخارجي، ففقدت قرطبة دورها التجاري الهام، حيث أنها كانت مركزاً للتبادل التجاري وكان التجار الأجانب يقدمون إليها تجاراتهم المختلفة (٢٠٢).

كما تأثرت التجارة المحلية بالفتنة، فأحرق عدد من الأسواق مثل: سوق السراق، وسوق السراجين، والخشابين وغيرها (٢٠٣). ودمرت السيول بعض أسواق قرطبة عام ٤٠١هـ/١٠١١م (٢٠٤)، وتعرضت الأسواق للنهب بأمر بعض الخلفاء، كما حدث عام ٣٩٩هـ/١٠٠٩م عندما أسر محمد المهدي بنهيب سلاح الصيالة والتراسين (٢٠٥)، كما تأثرت التجارة عظاماً بحر البيض تجاراتهم وانضموا إلى المهدي بثورته (٢٠٦)، وكان للظروف التي أشاعها البربر، إتباع المستعين، أثر على حركة البيع والشراء (٢٠٧)، وبلغ الأمر بالفقهاء أن أفتوا للتجار بجوار الصلاة في حوانيتهم، حفاظاً على أملاكهم من السرقة (٢٠٨)، وظهر أثر الفتنة على التجارة خلت الأسواق من الناس في خلافة علي بن حمود نتيجة لسوء معاملتهم للناس وللتجار (٢٠٩). كما تعرض التجار للمصادرات المالية من قبل الخلفاء والوزراء، كما فعل محمد المهدي والوزير ابن الغزاق وزير هشام المعتد (٢١٠). وحاول هشام المؤيد في خلافته الثانية، وحاجبه واضح الصقلي، الاستفادة من أموال التجار لمواجهة سليمان المستعين والبربر، إلا أن التجار رفضوا لتعرضهم للمصادرات وعدم توفر الأموال لديهم (٢١١)، كما فرضت الضرائب على المواد الغذائية في الأسواق (٢١٢).

وكان للاضطراب السياسي والتدهور الاقتصادي، والسيول والأمطار، أثر على الأسعار فعانى سكان قرطبة من الغلاء، ففي عام ٤٠١هـ/١٠١٠م، بلغ الأمر بارتفاع الأسعار وعجز السكان عن الشراء أن أكلوا العينة والدم (٢١٣). واستمر الغلاء في عصر سليمان المستعين وقلت المؤن في عهده (٢١٤)، وبلغ من ارتفاع الأسعار أن وصل سعر مد القمح ٣٠٠ دينار (٢١٥). وتحسنت الأسعار قليلاً في بداية حكم علي بن حمود ولحسن معاملته للسكان فرخست الأسعار إلا أن ذلك لم يستمر طويلاً، حيث تغيرت معاملته بعد ثورة المرتضى في شرق الأندلس، فتشدد مع السكان فتأثرت الأسعار والتجارة في عهده (٢١٦).

مما سبق يتبين أن الفتنة أثرت على الاقتصاد كثيراً، فبعد الازدهار الاقتصادي والثراء في عصر الخلافة، في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي حدثت الفتنة في أوج ثراء بني أمية بعثر خلفاء الفتنة تلك الأموال وألقت على الحروب، ومحاولة جمع المؤيدين والأتباع داخل قرطبة وخارجها. كما تدهور النشاط الاقتصادي في قرطبة بالنواحي المختلفة من زراعة وصناعة وتجارة.

#### أثر الفتنة على الحياة الاجتماعية :

كان المجتمع القرطبي، في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، يتكون من عدد من الأعراق وهم: العرب والبربر والمولدون والصفالبة. في أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي بدأ العرب والبربر الدنخلون إلى الأندلس مع الفتح بالتآرج مع المولدين مكونين ما عرف بالأندلسيين. على الرغم من محاطة بعض العرب على أصولهم (٢١٧). وفي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، بدأ أعداد من البربر في الدخول إلى الأندلس بأمر من الحكم المستنصر، والمنصور بن أبي عامر الذي اعتمد عليهم في الجيش، وقد حافظ هؤلاء الوافدون حديثاً على الأندلس - على أصولهم ولعبوا دوراً سياسياً وعسكرياً (٢١٨). كما دخل أعداد من الصفالبة إلى الأندلس مع المنصور بن أبي عامر، عندما **أرك تغير - صفالبة بني أمية -** حتى إنهم أصبحوا يعرفون بالفتيان العامرين. وقد بلغ عددهم ثلاثة عشر ألفاً ومبعضة وخمسمائة (١٢٧٥٠/٢١٩). ونظراً لأن البربر والصفالبة كانوا ساهدي بني عامر، فقد تآلروا بالفتنة.

وعند قيام الفتنة في قرطبة، شاركت جميع الأعراق فيها، وكان لهذه المشاركة أثر على التركيبة الاجتماعية، فعندما وصل محمد المهدي إلى الخلافة، تعسف مع الصفالبة وأمرهم بالخروج عن قرطبة، ففرروا النزوح إلى مناطق شرق الأندلس المختلفة، وتمكنوا من تأسيس مناطق لحكمهم هناك، مثل مجاهد العامري الذي اتجه إلى دانية (٢٢٠) وتمكن من تأسيس حكم هناك. وأسس خيران حكم في المرية والجزائر الشرقية، واتجه مبارك إلى بنساسة مؤسساً حكماً هناك (٢٢١). إلا أن هذا لا يعني خروج جميع الصفالبة، بل خرج جثهم وبقي البعض، بدليل تأييد واضح للصفالبي لهشام المؤيد، وأن علي بن حمود قتل على يد جنوده من الصفالبة (٢٢٢). كما أساء محمد المهدي إلى البربر الذين فرروا المحافظة على مكانتهم العسكرية والسياسية في قرطبة، فأتجهوا إلى تأييد سليمان المستعين فأيدوه ونجحوا في إيصاله إلى الخلافة، فزاد المستعين من البربر، واستقدم أعداد منهم من المغرب. وعندما نجح سليمان في القضاء على هشام المؤيد، وأراد الإفراق بالحكم في قرطبة لقطع قبائل البربر مناطق جنوب وجنوب غرب الأندلس (٢٢٣) وأخرجهم بذلك عن قرطبة، وبذلك أعطاهم فرصة للسيطرة على مناطق في الأندلس، وتأسيس حكم لهم هناك. وعلى الرغم من استقرار

جل البربر في الأندلس، إلا أن البعض قرروا العودة إلى المغرب، مثل زاوي بن مناد  
 أئسنهاجي الذي خرج إلى المغرب عام ٤١٦هـ/١٠١٦م، حاملاً معه أهله وماله (٢٢٤).  
 لقد أثرت الفتنة على التركيبة الاجتماعية، حيث خرج أعداد كبيرة من سكان  
 قرطبة إلى خارجها، وكان ذلك الخروج إما بأمر من الخلفاء، كما حدث مع الصقلية  
 الذين أخرجهم محمد المهدي، أو البربر الذين أخرجهم سليمان المستعين بإبطاعهم  
 مناطق جنوب وجنوب غرب الأندلس، أو هرباً من قبل بعض السكان أنفسهم، للمحافظة  
 على أرواحهم، سواء أكانوا من مؤيدي الخلفاء السابقين، مثل بني حزم الذين خرجوا  
 إلى شرق الأندلس بعد اضطهاد المستعين لهم (٢٢٥). وكما فعل الوزير أبو عامر بن  
 شهيد (٢٢٦)، أو من العلماء أو العامة ممن رغبوا في المحافظة على أرواحهم وعلومهم.  
 ونتيجة لقلّة أعداد السكان في قرطبة لهجرة البعض إلى خارجها، زاد سكان بعض مدن  
 الأندلس، كما حدث في المرية التي زاد سكانها لتقوم الفارين إليها من قرطبة  
 وغيرها (٢٢٧). ولم يكن اللغى أو الهجرة من قرطبة لداخل الأندلس وخارجها هو السبب  
 الوحيد لقلّة سكان قرطبة، بل كانت الحروب من الأسباب التي أدت إلى قتل أعداد كبيرة  
 من سكان قرطبة، فقد قيل إن عدد من قتل في كل من معركة: عقبة البقر، وقتشيش،  
 يتراوح بين ٢٠ ألفاً و٣٥ ألفاً (٢٢٨). وعلى الرغم مما في هذا العدد من مبالغة إلا أن له  
 دلالة على كثرة القتلى. واستمر القتل طوال عصر الفتنة حيث قتل البربر أعداداً كثيرة  
 من سكان قرطبة، عندما نجحوا في السيطرة عليها عام ٤٠٣هـ/١٠١٢م (٢٢٩). كما  
 أساء علي بن حمود، عام ٤٠٧هـ/١٧-١٦م، إلى سكان قرطبة بعد ثورة المرتضى،  
 فقتل أعداداً كبيرة من السكان وعزم على إبادةهم وإخلائها من السكان (٢٣٠). وبلغ من  
 كثرة القتل أن الناس تقاتلوا في المسجد الجامع، في عهد عبدالرحمن المستظهر (٢٣١).  
 وكانت السيول من أسباب قلّة السكان فغرق في السيل الذي تعرضت له قرطبة عام  
 ٤٠١هـ/١٠١٠م، خمسة آلاف شخص (٢٣٢)، وتناقصت أعداد من سكان قرطبة بسبب  
 الأمراض والأوبئة، مثل الطاعون الذي تعرضت له قرطبة عام ٤٠١هـ/١٠١٠م (٢٣٣).  
 وكما كان الجوع وقلّة الغذاء من الأسباب التي أدت إلى موت أعداد من سكان  
 قرطبة (٢٣٤)، ولعل السبي من أسباب قلّة السكان، حيث سبى النصارى أعداداً من سكان  
 قرطبة، وخاصة النساء، وبلغ الأمر أن سببت حرم الخلفاء، كما حدث مع حرم  
 عبدالرحمن بن هشام الملقب بالظافر بالله (٢٣٥). وكان لهذه الأسباب مجتمعة أثر على  
 أعداد سكان قرطبة، فلم يبق منهم إلا أعداداً قليلة (٢٣٦). وفي الوقت الذي خرج فيه  
 الكثير من السكان إلى قرطبة قدم بعض الأعراق إليها من السودان الذين اعتمد عليهم  
 بنو حمود وجعلوهم جنداً لهم (٢٣٧). كما دخل أعداد من النصارى إلى قرطبة، سواء  
 أكانوا من ممثلة قشتالة أو أرجون أو برشلونة (٢٣٨). ونتيجة للفتنة، فقد خلست بعض  
 المناطق من السكان فأخذ الناس ينتقلون من منطقة إلى منطقة أخرى بحثاً عن مناطق  
 أكثر أمناً، كما حدث مع آل حزم الذين انتقلوا إلى بلاط مغرب في الرض الغربي في عام

٣٩٩هـ/١٠٠٩م، بعد أن حارب الجانب الشرقي من الزاهرة (٢٢٩)، ثم دمر كل من بلاط  
مغوث والرسافة وخلصت من السكان (٢٣٠).

ومن الآثار الاجتماعية للفتنة: قلة الأمن لكثرة السلب والنهب، وتعرضت منازل  
الخاصة للنهب في الرسافة وقرطبة، مثل منازل بني زيري، وبني حزم (٢٣١). وبلغ من  
قلة الأمن وانتشار الخوف أن قتل كل من خرج منفرداً، وبلغ الخوف في سكان قرطبة  
في عصر علي بن حمود أن اختفوا في الإنفاق في ساطن الأرض (٢٣٢). ونتيجة لقلة  
الأمن كثرت السبي وبيع الأحرار، وفقد البعض حرياتهم وهنكت الأعراض (٢٣٣). وبلغ من  
شدة الخوف وانتشار العصابات أن تأخر دفن الأموات إلى ثلاثة أيام، وكان بعض الموتى  
يدفنون دون تغسيل أو تكفين أو صلاة، وبلغ الأمر أن دفن البعض قرب منازلهم وليس  
في المقابر وامتنع السكان عن أداء صلاة الجنائز (٢٣٤). كما جمعوا بين صلاتي المغرب  
والعشاء (٢٣٥).

كما أثرت الفتنة على مظاهر الحياة الاجتماعية العامة، فقلل الزواج نتيجة  
للخوف وقلة الأموال، وقتل الشباب والشيوخ (٢٣٦)، وانشغلت النساء عن الاهتمام  
بالتزيين والتي جلبت المرأة عليها، فأصبحت المرأة تبدو أكبر من سنها (٢٣٧). وتوقفت  
الاحتفالات بالأعياد لتوقف الاحتفال بآخر رمضان وبعد الفطر، ولم يخرج الناس إلى  
المصلى خارج قرطبة، واكتفوا بأدائها في المسجد الجامع (٢٣٨). ومن آثار الفتنة انتشار  
الخمور والفجور والزنا والتواطؤ والمعازف والبقاء، وكان شرب الخمر منتشرًا بين  
خلفاء الفتنة، فكان لمحمد المهدي مائة كابية من الخمر ومائة بوق للزمر، ومائة عود  
للعرف، وكان له فتى صديقاً يطفئه، وكان مجاهرًا بالسق وشرب الخمر والزنا حتى  
تعرض الشعراء لمسيرته (٢٣٩). والفنس محمد المستكفي بالشهوة والسماة والشرب،  
وبلغ الأمر أن لميس ثياب المغنيات عندما أراد الهرب من قرطبة (٢٤٠)، وانصت هشام  
المعدن بالنساء والشرب والمنهيات، بتدبير من الوزير ابن العزاز ليشتغله عن  
الحكم (٢٤١). ولم يكن سوء الأخلاق قاصراً على طبقة الخاصة من الخلفاء وجلسائهم،  
بل أصبح قاهرة في قرطبة في عصر الفتنة (٢٤٢). وأشار ابن بسام إلى أن تأثير الفتنة  
وصل حتى الغناء والملاهي فقد قتل فني الفتنة كلبوط المهلي وزربوط المغني  
(الظنبري) (٢٤٣).

ومن آثار الفتنة ظهور المتأولين للإسلام من النصارى، ومجاهرتهم بسب الدين  
وسب الرسول صلى الله عليه وسلم، وحدث في عام ٤٠٠هـ/١٠١٠م أن وقف رجل  
نصراني في أعظم شوارع قرطبة، وسب الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يوجد من  
ينكر عليه أو يمنعه من فعله (٢٤٤) وكان النصارى إذا سمعوا الأذان يتلفظون بكلام بسئ  
ولا يعترض عليه أحد بشيء (٢٤٥).

ومن الآثار الاجتماعية للفتنة: زيادة الفوارق المالية في المجتمع، ففي الوقت  
الذي أثرى فيه البعض من الوزراء والخاصة، المقربين للخلفاء، عانى جل السكان من  
الفقر والمصادرات والجوع، حتى اضطروا إلى أكل الميتة والسرقة لسد الجوع (٢٤٦).

كما أثرت الفتنة على المهن الحرفية، فهجر أصحاب الحرف مهنتهم وانضموا إلى الجيش، رغبة في تحسين أوضاعهم المالية(٢٥٧).  
 مما سبق يتبين أن للفتنة أثراً على الحياة الاجتماعية، فقد تغيرت التركيبة الاجتماعية بخروج عدد من الأعراف من قرطبة، وقل عدد السكان لأسباب متعددة، وانتشر الكثير من العادات السيئة، وظهرت الفوارق المالية بين السكان، وهجرت بعض الحرف .

#### أثر الفتنة على الحياة العلمية :

كانت قرطبة المركز العلمي الأوحده، دون منازعة، في الأندلس في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، نتيجة لجهود خلفاء بني أمية، وخاصة الحكم المستنصر الذي قام بجهود كثيرة لتشجيع العلم والعطاء، فأصبحت لقرطبة مكانة علمية متميزة في الأندلس خاصة وفي العالم الإسلامي عامة، وقدم إليها الراحون لطلب العلم من داخل الأندلس وخارجها(٢٥٨). إلا أن هذه المكانة العلمية المتميزة لقرطبة تأثرت بالفتنة، نتيجة للاضطرابات السياسية وكثرة الحروب وقلّة الأمن والتدهور الاقتصادي، حيث إن الاستقرار السياسي وما يترتب عليه من الأمن والرفاهية الاقتصادية، مطلبان أساسيان لازدهار العلم. ولم يول خلفاء الفتنة أي اهتمام للعلم أو العطاء، على الرغم من أن بعض خلفاء الفتنة كانوا شعراء وأدباء مثل سليمان المستعين، وعبد الرحمن المستظهر(٢٥٩) لاندخالهم بالصراع السياسي. ولم يكتف بعض الخلفاء بإهمال العلم والعطاء بل تعدوا ذلك إلى اضطهاد العلماء: فقتل بعض العلماء بأمر الخلفاء، أو في الحروب والمعارك التي شاركوا فيها، وسجن البعض وصودرت أملاكهم ونكس البعض الآخر(٢٦٠) واضطر البعض إلى الهرب والخروج من قرطبة بحثاً عن أماكن أكثر أمناً واستقراراً، كما توقفت عطايا الشعراء الذين كانوا يتكسبون بالمدح، مما دفعهم للخروج عن قرطبة بحثاً عن الأمن والعطاء(٢٦١).

لقد أثرت الفتنة على أعداد العلماء، فتناقصت أعدادهم تناقصاً واضحاً، نتيجة لقتلهم أو هجرتهم، وقتل الكثير في معركة قنتش، مثل احمد بن مطرف بن هاني المكتب(٢٦٢)، وسعيد بن سعد بن أبي سعيد(٢٦٣)، وعمرو بن عثمان بن خطار بن بشر(٢٦٤)، ومحمد بن عبد السلام الأديب(٢٦٥). وبلغ من تأثير معركة قنتش على التعليم أن قتل فيها من المؤيدين أكثر من ستين مؤدياً، ويشير ابن حيان على أثر قتلهم بقوله ' وأعريت سفائفهم في غداة واحدة منهم وتعلت صبيبتهم لعدمهم '(٢٦٦)، وقتل أعداد من العلماء في معركة عقبة البقر، مثل سليمان بن هشام ابن الوليد بن كليب المقرئ(٢٦٧)، وعبد الله بن احمد بن قند اللغوي(٢٦٨)، ومحمد بن احمد بن يحيى المعروف بابن الفصائل(٢٦٩)، وقتل الكثير من العلماء على يد البربر عند دخولهم قرطبة، مثل أبي الوليد ابن الفرضي(٢٧٠)، واحمد بن محمد بن مسعود(٢٧١)، وخلف بن مسلمة بن سليمان ابن خميس(٢٧٢)، ومسعود بن منذر بن سعد البلوطي(٢٧٣)، ومحمد بن سعد

السري الأموي (٢٧٤)، وحمد بن قاسم بن محمد الأموي (٢٧٥)، وعبدالله بن حسين بن إبراهيم بن حسين بن عاصم (٢٧٦). ومات بعض العلماء في الأمراض والأوبئة التي تعرضت لها قرطبة مثل أحمد بن محمد بن أحمد بن سعيد بن الجباب بن الجصور (٢٧٧)، وعمر بن حسين بن محمد بن نابل الأموي (٢٧٨). وهاجر عدد من علماء قرطبة إلى داخل الأندلس وخارجها، بحثاً عن مناطق أكثر استقراراً، فأتجهوا إلى إحدى المدن واستقروا بها، وتناقل البعض بين عدد من المدن بحثاً عن أفضل مكان (٢٧٩)، وخرج عدد من العلماء من قرطبة هرباً من الاضطهاد وسوء المعاملة التي لحقت بهم، مثل علي بن أحمد بن سعيد بن حزم حيث تعرضت دورهم للنهب، وسجن لفترة من الزمن (٢٨٠)، وكذلك الحال مع أبي عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد، الذي سعى به للمعتلي يحيى بن حمود، فسجنه وخرج من قرطبة بعد سوء معاملة هشام المعتد ووزير ابن القزاز (٢٨١)، وخرج راشد بن إبراهيم بن عبدالله بن راشد فاراً من سوء معاملة البربر (٢٨٢)، وكذلك الحال مع أبي عبدالله محمد بن يحيى بن الحذاء (٢٨٣)، وخرج محمد بن عمر بن يوسف المالكي لكونه من البربر (٢٨٤).

ولم يقتصر تأثير الفتنة على العلماء أنفسهم الذين تعرضوا للقتل أو السجن والمصادرة والهجرة، فتعطلت مجالس العلم، وترك تعليم الصبيان، بل تعداه إلى الكتب والمؤلفات فكانت قرطبة تضم عدداً من المكتبات العامة والخاصة، ومن أبرزها مكتبة الخليفة الحكم المستنصر، ومكتبة الجامع بقرطبة ومن المكتبات العلماء الخاصة: مكتبة القاضي عبدالرحمن بن فطيس، وعائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم (٢٨٥)، وتأثرت تلك المكتبات بالفتنة فتهبت الكتب وبيع بعضها، ونقل بعضها الآخر إلى داخل الأندلس وخارجها من المغرب والشرق، وأُحرق البعض (٢٨٦)، وكانت حاجة الخلفاء للأموال سبباً في بيع الكتب والمؤلفات من مكتبات بني أمية، كما فعل هشام المؤيد (٢٨٧)، وبذلك تراجعت مكانة قرطبة العلمية تراجعاً واضحاً، نتيجة التدهور السياسي وإهمال الخلفاء للعلم، وقلة أعداد العلماء لقتلهم أو لهجرتهم، كما فقدت الكتب والمؤلفات فنوقفت الرحلة العلمية إلى قرطبة، بعدما كانت هي الوجهة الأولى للعلماء. ونتيجة للتراجع العلمي لقرطبة وهجرة كثير من علمائها إلى مناطق الأندلس المختلفة برزت مراكز علمية في الأندلس لترحب حكام تلك المناطق بالقدامين إليهم من العلماء وتوفير الجو المناسب لنشر علمهم، فتعددت المراكز العلمية وتنوعت العلوم التي اشتهرت بها تلك المناطق تبعاً لرغبة الحكام، فبرزت دانية بالعلوم الدينية والفقه، وطرطوشة في الفراءات، وإشبيلية في الأدب والشعر، وطليطلة ومرقسطة في العلوم العلمية (٢٨٨).

مما سبق يتبين أن الفتنة أثرت على الحياة العلمية في قرطبة، ففقدت مركزها العلمي الرائد في الأندلس، ودمرت مكتباتها، وأتلفت الكتب وأخرجت من قرطبة، وقل علماءها يقتلهم أو بهجرتهم، وتوقفت الرحلة إليها، وبرزت مراكز علمية منافسة لها في الأندلس.

### الخاصة :

حدثت فئنة قرطبة في الفترة من ٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م إلى ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م، وكان السبب المباشر لهذه الفئنة هو معارضة عامة قرطبة تعيين عبدالرحمن شنجول ولياً لعهد هشام المؤيد، لأن ذلك يعني انتقال الخلافة من بني أمية إلى بني عامر، فشهدت قرطبة سلسلة من الحروب، والتي تدخل فيها عامة أهل قرطبة والبربر، وكان الصراع منصباً على منصب الخلافة ومنحصرأ في قرطبة. وتولى خلال هذه الفترة تسعة خلفاء، تولى أربعة منهم مرتين.

حدثت الفئنة في فترة كانت قرطبة في أوج استقرارها السياسي داخلياً وخارجياً، وازدهارها الحضاري في كافة مجالاته، فأثرت الفئنة على الحياة العامة في قرطبة. فقد النظر في أثر الفئنة على الناحية السياسية داخل الأندلس وخارجها، تبين أن أبرز آثارها في داخل الأندلس هو: إسقاط خلافة بني أمية بالأندلس، بعد أن دام حكمهم قرابة ثلاثة قرون ولقدت الأندلس وحدتها وبدأ عصر التشرذم وملسوك الطوائف. وكما أشرت الفئنة على حدود الدولة فقدت الأندلس سيطرتها على الجزء الغربي من بلاد المغرب، ونجح التصاري في الشمال بالقتاع العديد من المناطق، وبدأت حركة الاسترداد النصراني في التقدم. كما أثرت الفئنة على الإدارة، سواء أكانت مناصب مدنية أو دينية فاختفى منصب ولاية العهد والحجابه، وكان تأييد الخليفة هو السبب الرئيس للوصول إلى الوزارة، مما كان سبباً في وصول أشخاص غير مؤهلين لهذا المنصب. وتأثر الجيش بالفئنة فأبعدت القوادت العسكرية السابقة، وأصبح العلامة هم الجند، ولم تكن لهم خبرة عسكرية. وتأثر منصب القضاء بالفئنة، فقد القاضي مكانته المتميزة، والغصن القضاء بالسياسة، وعطل منصب القضاء في بعض الفترات.

كما تأثرت العمارة بالفئنة، فمرت مناطق بأكملها، مثل الزاهرة، أو أجزاء كبيرة منها مثل الزهراء والرصافة، ووصل التدمير للقصور والمنازل والمساجد، وقطعت المواصلات بين مدن قرطبة المختلفة، وخربت الشوارع، وحفرت الأنفاق والخنادق، وأقيمت الأسوار حول قرطبة وأرباضها المختلفة. كما أثرت الفئنة على الاقتصاد، فقلت الموارد المالية للدولة واستنفد الخلفاء مخدرات بني أمية، حتى اضطروا إلى المصادر والمعارف وبيع الممتلكات لسد حاجاتهم وتوفير المال. وتأثرت الحياة الاقتصادية بأشكالها المختلفة فتدهورت الزراعة وتوقفت التجارة الداخلية والخارجية، واضطربت التجارة المحلية، وتأثرت الصناعة بالتفكك عدد من صناعات قرطبة إلى مناطق الأندلس المختلفة، حاملين معهم صناعاتهم فبرزت مراكز صناعية جديدة في الأندلس، مثل الريسة التي اشتهرت بصناعة الحرير والوشى. كما أثرت الفئنة على الحياة الاجتماعية، فتغيرت التركيبة الاجتماعية بخروج البعض مثل الصقالبة، وقدم عناصر جديدة مثل البربر الذين قدموا من المغرب والسودان. وقُل عدد سكان قرطبة لكثرة القتل والهجرة منها. وتأثرت العادات الاجتماعية فانتشر الفساد وقُل الزواج، وتعطلت بعض الاحتفالات، وساد الخوف، وزادت القوارق المالية بين السكان. كما أثرت الفئنة على الحياة العلمية،

لقدت قرطبة مركزها العلمي الرائد في الأندلس، ودمرت مكتباتها وأتلفت واحرققت، وأخرجت بعض الكتب من قرطبة، وقل علماء قرطبة بقتلهم أو هجرتهم داخل الأندلس وخارجها، وتوقفت الرحلة العلمية إلى قرطبة، وبرزت مراكز علمية منافسة لقرطبة، لخروج علماء قرطبة لتلك المناطق، مثل دالبسة، السبيلية، طليطلة، سرقسطة .. وغيرها.





ملحق رقم (١)  
خلفاء الفتنه وفترات حكمه

رقم	الخلافة	فترة حكمه
١	محمد بن هشام بن عبدالجبار بن عبدالرحمن الناصر المنقب بالمهدي	١٧ جمادى الآخرة ٣٩٩هـ / فبراير ١٠٠٩م إلى ١٣ ربيع الأول ٤٠٠هـ / نوفمبر ١٠٠٩م (خلافته الأولى)
٢	سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبدالرحمن الناصر المنقب بالمسعين بالله	١٥ ربيع الأول ٤٠٠هـ / ٧ نوفمبر ١٠٠٩م إلى شوال ٤٠٠هـ / مايو ١٠١٠م (خلافته الأولى).
٣	محمد بن هشام المهدي	شوال ٤٠٠هـ / مايو ١٠١٠م إلى ذي الحجة ٤٠٠هـ / يوليو ١٠١٠م (خلافته الثانية).
٤	هشام بن الحكم المؤيد بالله	شوال ٤٠٠هـ / يوليو ١٠١٠م إلى ٢٧ شوال ٤٠٠هـ / مايو ١٠١٣م (خلافته الثانية)
٥	سليمان بن الحكم المستعين بالله	٢٧ شوال ٤٠٣هـ / مايو ١٠١٣م إلى ٢٢ محرم ٤٠٧هـ / يوليو ١٠١٦م (خلافته الثانية)
٦	علي بن حمود بن حمود بن حمودة الحسني المعروف بالناصر	٢٢ محرم ٤٠٧هـ / ١٦ جمادى الآخرة ٤٠٨هـ / مارس ١٠١٨م (خلافته الثانية)
٧	القاسم بن حمود بن يمام بن حمود الحسني المعروف بالمامون	٨ ذي القعدة ٤٠٨هـ / مارس ١٠١٨م إلى ٢٣ ربيع الأول ٤١٦هـ / أغسطس ١٠٢٢م
٨	يحيى بن علي بن حمود الحسني المعروف بالمعتلي بالله	جمادى الأولى ٤١٦هـ / ٢٢ فبراير ١٠٢٣م
٩	القاسم بن حمود الحسني المعروف بالمامون	ذي القعدة ٤١٣هـ / فبراير ١٠٢٣م إلى جمادى الثاني ٤١٤هـ / سبتمبر ١٠٢٣م
١٠	عبدالرحمن بن هشام بن عبدالجبار بن عبدالرحمن الناصر المعروف بالمستظهر بالله	١٦ رمضان ٤١٤هـ / يناير ١٠٢٤م إلى ٤ ذي القعدة ٤١٤هـ / يناير ١٠٢٤م
١١	محمد بن عبدالرحمن بن عبدالله بن الناصر المعروف بالمستكفي بالله	٣ ذي القعدة ٤١٤هـ / يناير ١٠٢٤م إلى ٢٥ ربيع الأول ٤١٦هـ / مايو ١٠٢٥م
١٢	يحيى بن علي بن حمود الحسني المعتلي بالله	٢٥ ربيع الأول ٤١٦هـ / مايو ١٠٢٥م إلى محرم ٤١٧هـ / مارس ١٠٢٦م
١٣	هشام بن محمد بن عبدالله بن عبدالرحمن الناصر المعروف بالمعتد بالله	٢٥ ربيع الأول ٤١٨هـ / يونيو ١٠٢٧م إلى ٤ ذي القعدة ٤٢٢هـ / نوفمبر ١٠٢١م

- انظر ابن عذاري ، ابن الخطيب ، النويري ، المقرئ .



## ملحق رقم (٢)

## علماء قرطبية الخارجين منها إلى داخل الأندلس وخارجها

المنطقة	اسم العالم	المنطقة التي توجه إليها	المصدر
	أبو لمية بن هشام	تطيلة	ابن بسام ، ج ١ ، ص ١٨٢
	أحمد بن محمد بن هشام الأندلسي	الذغر	ابن بشكوال ، ج ١ ، ص ٦١
	أحمد بن إبراهيم بن أبي سليمان الغافقي	البيرة	عياض ، ج ٨ ، ص ٢٢ ، ابن بشكوال ، ج ١ ، ص ٦٣
	أحمد بن قاسم بن عيسى بن فرج بن عيسى اللخمي	طليطلة	ابن بشكوال ، ج ١ ، ص ٦٦-٦٥
	أحمد بن عفيف بن عبدالله بن مريول الأموي	لمرية	عياض ، ج ٨ ، ص ٩ ، ابن بشكوال ، ج ١ ، ص ٧٤-٧٥
	أحمد بن خلف بن عبدالله اللخمي	الشبيلية	ابن بشكوال ، ج ١ ، ص ٩٧-٩٦
	أحمد بن يحيى بن أحمد بن واصل	طليطلة	المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٠٢
	أحمد بن عبدالله بن مزارع الأموي	الشبيلية	المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٠٤
	إسماعيل بن زيد بن محمد الأنصاري	الشبيلية	المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٧٠
	أحمد بن كصيب بن أحمد الأندلسي	الشبيلية	المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٠٧
	حكم بن منذر بن سعيد بن عبدالله حماد بن عمار بن هشام الزاهر	مدية سالم طليطلة	المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٣٩-٢٤٠ ، عياض ، ج ٧ ، ص ٢٩٨ ، ابن بشكوال ، ج ١ ، ص ٢٥١
	خلف بن سعيد بن أحمد بن محمد الأزدي	الشبيلية	ابن بشكوال ، ج ١ ، ص ٢٢٣
	خلف بن مروان بن أحمد التميمي	الشبيلية	المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٧١ ، الذهبي ، ص ٢٢٥-٢٢٦
	خلف بن محمد بن ياز القيسي	الشبيلية	ابن بشكوال ، ج ١ ، ص ٢٧٠-٢٧١
	خلف بن غصن بن علي الطائي	مورقة	ابن بشكوال ، ج ١ ، ص ٢٦٥ ، الذهبي ، ج ٤ ، ص ٥٧٨
	خلف مولى جعفر القتي	طرطوشة	ابن بشكوال ، ج ١ ، ص ٢٦٦-٢٦٧
	سليمان بن محمد المعروف بابن الشيخ	طليطلة	المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣١٥
	سليمان بن بيطر بن سليمان بن ربيع	مالقة	عياض ، ج ٨ ، ص ١٥



م	اسم المؤلف	المنطقة التي توجه إليها	المصدر
٢٠	سلمه بن سعيد بن سلمه بن حفص الأنصاري	الشبلة	ابن بشكوال ، ج ١ ، ص ٢٥٠-٢٥١
٢١	سراج بن سراج بن محمد	سرقسطة	المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٥٢
٢٢	عبدالله بن عمر بن عبدالله بن عمر القرشي	سرقسطة	المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٠٦
٢٣	عبدالله بن أحمد بن غالب بن زيدون المغزومي	البيرة	عياض ، ج ٧ ، ص ٢٨-٢٨٥ ، ابن بشكوال ، ج ٢ ، ص ٤٠٠
٢٤	عبدالرحمن بن مخلد بن عبدالرحمن بن أحمد بن يحيى بن مخلد	طليطلة	ابن بشكوال ، ج ٢ ، ص ٤٨٨-٤٨٩
٢٥	عبدالرحمن بن أحمد بن نصر بن خالد القرشي	الشبلة	ابن بشكوال ، ج ٢ ، ص ٥٢٧
٢٦	عبد الوهاب بن أحمد بن سعيد بن حزم	طليطلة	المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٥٥
٢٧	عالم بن إبراهيم بن عامر بن عروس الحميري	طليطلة	المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٦٢٤
٢٨	الثيث بن أحمد بن عريش الحميري	شمرية	عياض ، ج ٨ ، ص ١٢ ، المقريز ، ص ٤٣٩
٢٩	محمد بن نعان النسائي	مالقة	ابن بشكوال ، ج ٢ ، ص ٧٢٤
٣٠	محمد بن يحيى بن أحمد بن محمد التميمي	الثغر الأعلى	المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٤١-٧٤٢
٣١	محمد بن يوسف بن محمد الأموي	الثغر الأعلى	المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٦١
٣٢	محمد بن عبدالله بن مزين	الشبلة	المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٦٧
٣٣	محمد بن عبدالرحمن بن عيسى الحميري	الشبلة	المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٧٠
٣٤	محمد بن عيسى بن محمد الأموي	الشبلة	المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٨٣-٧٨٤
٣٥	محمد بن عبدالرحمن بن يحيى القرشي	طليطلة	المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٨٠-٧٨١
٣٦	وليد بن عبدالله بن عيسى الأصبحي	طليطلة	المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٢٩
٣٧	محمد بن عبدالله بن أحمد البكري	مرسية	المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٧٠-٧٧١
٣٨	يحيى بن سعيد بن يحيى بن بكر الرضائي	ثبيلة	المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٥٧-

المصدر	المنطقة التي توجه إليها	اسم المؤلف	م
ابن الأبرار : الصلوة ، ج ١ ، ص ١٢٦	سرقسطة	إسحاق بن الحسن	٢٩
المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٤٤	غرناطة	أصبع بن محمد بن أصعب بن النصح	٤٠
ابن الأبرار : الصلوة ، ج ٢ ، ص ٢٨٤	بلمسية	عبد الرحمن بن غالبون	٤١
المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٨٥	بلمسية	عبد الرحمن بن أحمد بن مثنى	٤٢
الضبي ، ص ٧٠ ، ابن الأبرار :	بلمسية	محمد بن سعيد التكرافي	٤٣
المختصر ، ص ٢٠١-٢٠٢			
الحديد ، ج ٥ ، ص ٥٨٦ - ٥٨٨ ، الضبي ، ص ٤٧٤-٤٧٦	شامبية	يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البر	٤٤
الذهبي ، ج ٢ ، ص ٦١١	الشيبلة	سعيد بن أدهم السلمي	٤٥
ابن بشير كوكال ، ج ١ ، ص ٦٩	تنقل بين الشيبلة	أحمد بن محمد بن أحمد الأديب	٤٦
المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٧١	والعرية		
الذهبي ، ج ٢ ، ص ٥٨٢-٥٨١	تنقل بين الشير ومورقة	أحمد بن مطرف	٤٧
عياض ، ج ٨ ، ص ٣٣-٣٢ ، ابن بشير كوكال ، ج ١ ، ص ٨٥-٨٢	تنقل بين العرية ومرسية	أحمد بن حمد بن عبدالله بن أبي عيسى المعالي	٤٨
ابن بشير كوكال ، ج ١ ، ص ٢٠١-٢٠٠	وسرقسطة تنقل بين مرسية	تمام بن غالب بن عمر اللغوي	٤٩
المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٩٢-	والعرية		
٥٩٢ ، الذهبي ، ج ٢ ، ص ٦١٧	تنقل بين سرقسطة و	عثمان بن سعيد الأموي	٥٠
ابن بشير كوكال ، ج ١ ، ص ٣٥١-٣٥٠	دانية طنجة	محمد بن معالي بن جميل	٥١
المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٩٢٧	وسرقسطة غرناطة والشيبلة	هشام بن غالب بن هشام الغافقي	٥٢

المصدر	المنطقة التي توجه إليها	اسم المؤلف	رقم
المصدر نفسه : البيصار : البيصار ، ج ١ ، ص ١٧٥	بشبية والحزبية	حسن بن عبدالعزيز بن حسن بن أبي عدي	٥٣
المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٠٥	لقوران	أحمد بن خصيب الأنصاري	٥٤
المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٧١	صقلبية	صاعد بن الحسن بن عيسى التميمي	٥٥
المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٤٦-٧٤٥	العدوة	محمد بن عبدالله بن نصر بن أبوش الأموي	٥٦
المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٨٨٩-٨٨٨	بونة في القريفة	مروان الأسدي القطان	٥٧
المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٨٩٣	مغارة	مفرج بن عبدالله المالكي	٥٨
المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٧٣	مغارة	أحمد بن عيسى بن أسيد بن عبدالعزيز	٥٩
المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٧٤	البيصار	لهمداني	٦٠
المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٨٠	البيصار	أحمد بن عبدالرحمن بن غالب بن حزم	٦١
المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٨١	البيصار	أحمد بن محمد بن عيسى بن أسيد بن عبدالعزيز	٦٢
المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٨١	البيصار	أحمد بن محمد بن عيسى بن أسيد بن عبدالعزيز	٦٣
المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٨٦	البيصار	أحمد بن محمد بن عيسى بن أسيد بن عبدالعزيز	٦٤
المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٨٦ - ٨٥	سرقسطة - الحزبية	أحمد بن يحيى بن أحمد بن واصل	٦٥
المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٠٧ ، ١٠٢	دخول الإنس دون	أحمد بن الحسين بن حم بن عبد الملك	٦٦
المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١١٠ ، ١١١	تعدية مدينة غرب الأندلس	أحمد بن يحيى بن يحيى بن محمد التميمي	٦٧
المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٤٩	الحزبية	حبيب بن أحمد بن محمد بن نصر	٦٨
المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٥٠	الحزبية	صام بن أحمد بن عبدالله بن محمد	٦٩
المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٥١	الحزبية	خلف بن مروان بن أمية بن حيوية	٧٠
المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٥١	الحزبية	عبدالله بن محمد بن سليمان	٧١
المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٥١	الحزبية	عبدالله بن عبدالله بن الوليد بن محمد	٧٢
المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٥١	الحزبية	بن يوسف	٧٣
المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٥١	الحزبية	عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن القيسي	٧٤

٢٤ - ٢٥	لورقة	عبدالله بن سئمة بن حزم اليحصبي	٧٥
٤٠٥ ، ج ٢ ، ص ٤٠٥	الشبيلة - المشرق	عبدالمك بن احمد بن محمد بن عبدالمك	٧٦
٤٠٦ -	بلنسية	بن الاصمغ	٧٧
٤١٢ ، ج ٢ ، ص ٤١٢	الاندلس دون	عثمان بن سعيد الاموي المقرئ	٧٨
٤١٢ ، عياض ج ٨ ، ص	تحديد وجهة	علي بن خلف بن عبدالمك بن يغال	٧٩
٢٦ - ٢٧	مرسية	محمد بن عبدالرحمن بن عثمان بن سعيد	٨٠
٤١٥ ، ج ٢ ، ص ٤١٥	غرناطة - الشبيلة	الغولاني	٨١
٢ ، المصدر نفسه ، ج ٢	بجاية	محمد بن عمر بن يوسف المائكي	٨٢
٤٥٥ - ٤٥٦	اوربولة	محمد بن فتوح بن مكرم اللبيني	٨٣
٢ ، المصدر نفسه ، ج ٢	غرناطة	محمد بن عبدالله بن لحد البكري	٨٤
٥٢٧ ، ابن فرحون ، ج ٢	سرقسطة	هشام بن غالب بن هشام الخاققي	٨٥
١٨ ، ص ١٨	بلنسية - المرية	يحيى بن لحد بن محمد بن عبدالله	٨٦
٥٩٢ ، ج ٢ ، ص ٥٩٢	سرقسطة	التميمي	٨٧
٥٩٣ ، ابن فرحون ، ج ٢		ابراهيم بن محمد بن احمد بن عبد الله	٨٧
٨٤ ، ص ٨٤	الجزائر الشرقية	اصمغ بن محمد بن اصمغ بن اسمع	٨٨
٦٠٢ ، ج ٢ ، ص ٦٠٢	بلنسية	المهري	٨٩
٢ ، المصدر نفسه ، ج ٢	بلنسية	اسحاق بن الحسن	٨٩
٧٢٩ ، ص ٧٢٩	بلنسية	حسن بن عبدالعزيز بن حسن بن ابي	٩٠
٢ ، المصدر نفسه ، ج ٢	الشبيلة	عبد	٩٠
٧٤٧ ت ٧٤٨ ، عياض ،	المرية	محمد بن الحسن بن الحسين المذموني	٩١
٢٨٩ - ٢٨٩ ، ج ٧ ، ص ٢٨٩	تتلق في عدد من	محمد بن عبدالرحمن بن عمر الثفوي	٩٢
٧٥٨ ، ج ٢ ، ص ٧٥٨	مناطق الاندلس	عبدالرحمن بن غابون	٩٣
٢ ، المصدر نفسه ، ج ٢		عبدالرحمن بن احمد بن مثنى الكاتب	٩٤
٧٧٠ - ٧٧١		محمد بن سعيد التتكراتي	٩٥
		سعيد بن فريسن السلمي	٩٦
		علي بن احمد بن سعيد بن حزم	٩٧
		ابو عامر احمد بن عبدالمك بن شهيد	٩٨



ملحق رقم (٢)  
علماء قرطبة الذين قُتلوا في الفسنة

المصدر	اسم العالم
ابن بشكوال ، ج ١ ص ٤٧	١ احمد بن مطرف بن هاني الجهلي المكنب
المصدر نفسه ج ١ ص ٥٠ - ٥١	٢ احمد بن بربل المقرئ
المصدر نفسه ج ١ ص ٥٩	٣ احمد بن محمد بن مسعود
المصدر نفسه ج ١ ص ٢٢٩ - ٢٣٠	٤ الحسين بن حمي بن عبدالمثله بن هي التوجيب
المصدر نفسه ج ١ ص ٢٦٠	٥ خلف بن سلمه بن سليمان بن خميس
المصدر نفسه ج ١ ص ٢٩٦ - ٢٩٥	٦ رشاد بن ابراهيم بن عبدالله بن ابراهيم بن رشاد
المصدر نفسه ج ١ ص ٣٠٩ - ٣١١	٧ سليمان بن هشام بن وابد بن كليب المقرئ
المصدر نفسه ج ١ ص ٣٢٧ - ٣٢٩	٨ سعيد بن عثمان بن ابي سعيد بن محمد بن سعيد
المصدر نفسه ج ١ ص ٣٤٣	٩ سعيد بن مئزر بن سعيد
المصدر نفسه ج ١ ص ٣٢٤ - ٣٢٥	١٠ سعيد بن احمد بن خالد بن عبدالله الجبالي
المصدر نفسه ج ١ ص ٣٨٩	١١ عبدالله بن احمد بن قننه الشافعي
المصدر نفسه ج ١ ص ٣٩١ - ٣٩٢	١٢ عبدالله بن محمد بن يوسف الأزدي المعروف بابن القرشي
المصدر نفسه ج ٢ ص ٦٥٠	١٣ عمرو بن عثمان بن عثمان بن بشور بن عمرو بن يزيد
المصدر نفسه ج ٢ ص ٦٥٤ - ٦٥٥	١٤ غريب بن مطرف بن غريب
المصدر نفسه ج ٢ ص ٧١٥	١٥ محمد بن عبدالمعالم اللخبيبي
المصدر نفسه ج ٢ ص ٧١٥ - ٧١٦	١٦ محمد بن احمد بن يحيى المعروف بابن الفصالح
المصدر نفسه ج ٢ ص ٧١٧	١٧ محمد بن سعيد المرعي الآموي
المصدر نفسه ج ٢ ص ٧١٨ - ٧١٩	١٨ محمد بن قاسم بن محمد الآموي
ابن الأبار ، للكلمة ، ج ٢ ص ٢٠٨	١٩ عبدالله بن حسين بن ابراهيم بن حسين بن حاسم

## الفهرست

- الفهرست
- ١ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي (ت ٧١١هـ) : **لسان العرب**، القاهرة، دار الحديث، ٢٠٠١م، ج ٧، ص ١٨ - ٢٠، لفرزباني، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ) : **لقالوين المحيط**، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م، ص ١٥٧٥، لقريني، السيد محمد مرتضى بن محمد الحسيني (ت ١٢٠٥هـ) : **تاج العروس من جواهر القاموس**، وضع هوشه عبدالمنعم خليل إبراهيم وكريم سيد محمد محمود، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧م، ص ٢٥١ - ٢٥٢.
  - ٢ سورة النساء آية ١٠١.
  - ٣ سورة يونس آية ٨٣.
  - ٤ مسلم أبو الحسين بن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ) : **صحيح مسلم**، الرياض، دار المعنى، دار ابن حزم، ١٤١٩هـ - ص ١٥٤١.
  - ٥ المصدر نفسه، ص ١٥٤٢.
  - ٦ ابن بسلام، أبو الحسن علي بن بسلام الشترين (ت ٥١٢ هـ) : **الخطبة في محاسن أهل الجزيرة**، تحقيق إسماعيل عيسى، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٨ - ١٩٧٩م، ق ٣، ج ١، ص ٩.
  - ٧ الإبلاني، أبو عني صالح بن عبدالعظيم (ت بعد ٧١٢هـ) : **مفاخر القيروان**، تحقيق عبدالقادر بوباية، الرباط، دار ابن رزق، الطبعة الثانية، ٢٠٠٨م، ص ١٤٧.
  - ٨ ابن بلكين، عبدالله بن بلكين بن زيري (ت ١٨٣هـ) : **مذكرات الأمير عبدالقاسم المسماة بكتاب التبيين**، نشر وتحقيق ليلي برونسل، مصر، دار المعارف، ٥٦ - ٥٨.
  - ٩ ابن عذاري، أبو تيمان احمد (في نهاية القرن السابع الهجري) : **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق كولان وليلي برونسل، بيروت، دار الثقافة، ١٩٨٢م، ج ٣، ص ٢٧ - ٤٢.
  - ١٠ ابن بسلام، نقلًا عن ابن خيaban، ج ١، ص ٥٧٦.
  - ١١ ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن سعد بن عبدالله قرطبي (ت ٧٢٦هـ) : **تاريخ أسبانيا الإسلامية الجزء الثاني من أعمال الأعلام لمن يبيع فينا الأخطام من ملوك الإسلام**، تحقيق ليلي برونسل، بيروت، دار المشرف، ١٩٥٦م، ص ٩٨.
  - ١٢ ابن سعيد، نور الدين أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد (ت ٦٨٥هـ) : **المغريب في رحى المغرب**، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الثالثة، ١٩٧٨م، ج ١، ص ١٥٥ - ١٥٦.

- ١٢ **النهاي** ، أبو الحسن عبدالله بن الحسن النهاي المالقي (ت بعد ٧٩٢هـ) : تاريخ قضاء الأندلس المسمى العريفة علينا فمن يستحق القضاء والفتيا ، تحقيق لجنة إحياء التراث الإسلامي في دار الأوقاف ، بيروت ، دار الأوقاف الجديدة ، للطبعة الخامسة ، ١٩٨٢م ، ص ٨٨ .
- ١٤ ابن الأثير ، أبو الحسن علي بن أبي بكر محمد بن عبد الكريم الشيباني (٦٣٠ هـ) : الكامل في التاريخ ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٩٨٢م ، ج ٧ ، ص ٨٤ ، ابن طاري ، ج ٣ ، ص ٤٨-٤٩ ، النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم (ت ٧٢٢هـ) : تهذيب الأريب في فنون الطب ، تحقيق : أحمد كمال زكي ومحمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨١م ، ج ٢٣ ، ص ٤١٠-٤١١ ، ابن الخطيب ، ص ١٠٩ ، ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١١٤٩-١١٥٠ ، المعري ، شهاب الدين أحمد بن محمد المعري القنسلي (ق ١٠٤١هـ) : تلخيص الخطيب في ضمن الأندلس ، الطبعة وذكر وزيرها سليمان الدين ابن الخطيب ، تحقيق : يوسف الشيخ محمد البقاعي ، بيروت ، دار الفكر ، ١٩٨٦م ، ج ١ ، ص ٤٠٩ .
- ١٥ ابن الأثير ، ج ٧ ، ص ٤٩٠ ، ابن طاري ، ج ٣ ، ص ١٥٠-١٥١ ، النويري ، ج ٢٣ ، ص ٤٢٧ ، ابن الخطيب ، ص ١٣٨ ، ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٥٢ ، المعري ، ج ١ ، ص ٤٢٠ .
- ١٦ باقوت ، شهاب الدين أبي عبد الله باقوت بن بن عبد الله الحموي قرومي (ت ٦٢٦هـ) : معجم البلدان ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٧٩م ، ج ٤ ، ص ٢٢٤ ، ابن الشهاب ، محمد بن علي بن محمد المصري لتوزري ، (ت ٦٨١هـ) : وصف الأندلس ، وهو جزء من صلة البسيط وسبط العرط ، تحقيق : أحمد مختار العبادي ، مدريد ، معهد الدراسات الإسلامية ، ١٩٧١م ، ص ١٤٢ ، أحمد فكري : قرطبة في العصر الإسلامي ، تاريخ وحضارة ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٦٩ .
- ١٧ الإبريسي ، أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله بن ليريس الحموي الحسني (ت ٥٦٠هـ) : زهرة المشتاق في اختراق الألقاب ، بيروت ، عالم الكتب ، ١٩٨٩م ، ج ٢ ، ص ٥٧٥ .
- ١٨ كلمة ريش المقصود بها : الضاحية وهي المكان المحيط بالمدينة خارج مركز المدينة السكني ومنها تشتقت لكلمة الإسبانية (أربال) arrabal وترد في معظم المعاجم العربية بمعنى الكلمة الإسبانية . نفسها نظر : كزبيدي ، ج ١٨ ، ص ١٧٤ ، لوبولدو نورس بالباس : العلم الإسباني الإسلامي ، ترجمة : شيودوردي لالينا ، مراجعة : لدية محمد جمال الدين وعبد الله بن إبراهيم الصغير ، الرياض ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ٢٠٠٢م ، ٢٥٧ .
- ١٩ الإبريسي ، ج ٢ ، ص ٥٧٥ .

م	المؤلف
٢٠	ابن حوقل ، ابو القاسم محمد بن علي الموصلي الحوقلي البغدادي ( ت نحو ٣٦٧هـ - { صورة الأرض ، بيروت ، مكتبة تحفة ، ١٩٧٩م ، ص ١٠٨ ، المقري ، ج ٢ ، ص ١٥ .
٢١	المقري ، ج ٢ ص ١٤ ، أحمد فكري ص ١٧٢-١٧٣ ، محمد عبد الوهاب خلاف : قرطبة الإسلامية في القرن الحادي عشر الهجري - الخامس الهجري تحفة الاقتصادية والاجتماعية ، تونس ، دار التونسية للنشر ، ١٩٧٨م ، ص ١٨-١٩ .
٢٢	ابن عازي ، ج ٣ ص ٤٢ ، ابن الخطيب ، ٩٠-٩١ ، محمد عبد الله علان : دولة الإسلام في الأندلس العصر الأول - القسم الثاني للخلافة الأموية والدولة العائرية ، القاهرة ، مكتبة الختاجي ، الطبعة الرابعة ١٩٩٧م ، ص ٢٢٦-٢٢٧ .
٢٣	ابن عازي ، ج ٣ ص ٤٥ ، ابن الخطيب ، ص ٩٢ ، احمد جبرون : الفكر العباسي في المغرب والأندلس في القرن الخامس الهجري في تشكيل الهوية السياسية في المغرب وتكرس الفتنة في الأندلس ، الرباط ، دار ابن رقرق للطباعة والنشر ، ٢٠٠٨م ، ص ٢٢٨ .
٢٤	ابن عازي ، ج ٢ ص ٢٧٢ ، النويري ، ج ٢٣ ، ص ٤٠٤-٤٠٥ ، مصدي عبد المنعم حسين : تاريخ وحضارة المغرب والأندلس ، الإسكندرية دار المعرفة الجامعية ص ٥١٠ - ٥١١ ، عبد السيد لطفى : تاريخ الدولة الأموية في الأندلس - التاريخ السياسي ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٥م ، ص ٤٢٣-٤٢٤ .
٢٥	النويري ، ج ٢٣ ص ٤٠٦ ، ابن الخطيب ، ص ٧٦-٧٧ .
٢٦	ابن عازي ، ج ٢ ص ٢٨١ ، ج ٣ ، ص ٤٠٣ ، النويري ، ج ٢٣ ، ص ٤٠٤ ، ابراهيم بيضون : <u>إندولة العربية في إسبانية من الفتح حتى سقوط الخلافة</u> ، بيروت ، دار النهضة العربية ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٦م ، ص ٣٢٦ ، صالح محمد فهاض أبو ديانك : توضيح في تاريخ المغرب والأندلس من الفتح إلى بداية العصر المرابطي وملوك إطالفا دراسة سياسية وحضارية ، الأردن مكتبة ككتاني ، ١٩٨٨م ، ص ٣٨٠- ٣٨١ .
٢٧	ابن عازي ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ ، ٢٧٩-٢٨٠ ، ابن الخطيب ، ص ٨٩ ، ديهرت نوزي : المعشرون في الأندلس الجزء الثاني إسبانيا الإسلامية ، ترجمة : حسن حسين الهبة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٤م ، ص ١١١-١١٢ ، ١٦٠ .
٢٨	ابن عازي ، ج ٣ ص ٥٢ ، محمد عبدالله علان ، ص ٦٣٠-٦٣١ ، حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، القاهرة ، دار مطابع المستقبل ، ١٩٨٠م ، ص ٣٥٧-٣٥٤ ، إبراهيم عبد المنعم سلامة ، ص ٤٩٦ ، scois, (pater): the fall of caliphath of cordobu, P260 , Leiden-NewYork, 1994,P.40, Arodo, Bleye(p.P Manual de la Historia de Espana, Madrid 1947 p.441

م	المصادر
٢٩	ابن الأثير ، ج ٧ ، ص ٨٤ ، ابن عثري ، ج ٣ ، ٤١٤٧ ، ٣٩٠ ، محمد عبد الله خان ، ص ٦٢٤ .
٣٠	ابن عثري ، ج ٣ ، ص ٤٨ .
٣١	المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٤-٢٥ ، ٣٥٢ .
٣٢	ابن الخطيب ، ص ٩٦ .
٣٣	ابن عثري ، ج ٣ ، ص ٥٠ ، ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت ٨٠٨ هـ) - <u>العصر وديوان المنصور الناصر في أيام العرب والعجم والديار ومن عاصمهم</u> من <u>بني السلطان الناصر</u> ، بيروت ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، ١٩٧٩ م ، ج ٤ ، ص ١٥٠ .
٣٥	ابن الأثير ، ج ٧ ، ص ٨٤ ، ابن عثري ، ج ٣ ، ص ٦٦-٦٧ ، ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٥٠ . ابن عثري ، ج ٣ ، ص ٩٤ ، المقرئ ، ج ١ ، ص ٤١١ ، عبد المجيد نغص ، ص ٥٠٨ . شكيب أرسلان : <u>الخط السليمانية في الأخبار والآثار الأندلسية</u> ، القاهرة ، دار الكتاب الإسلامي ، د.ت.ن. ، ص ٢١٤-٢١٩ ، إبراهيم عبدالمعتمد سلامة : <u>العلمية في الأندلس</u> في <u>عصر الدولة الأيوبية</u> ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب جامعة الإسكندرية ، ١٩٩٧ م ، ص ٥٤ .
٣٦	معركة قتيبيش حدثت في ١٢ ربيع الأول عام ٤٠٠ هـ (٩ يونيو ١٠٠٩ م) في سفح جبل قتيبيش بين محمد المهدي وأتباعه وعلامة قرطبة وسليمان المستعين وأتباعه من البربر وانتهت بانتصار سليمان المستعين وقتل فيها الكثير من سكان قرطبة قبل حوالي ١٢٠ ألف وبهذه المعركة بويع سليمان المستعين بالخلافة في خلافته الأولى نظر : ابن الأثير ، ج ٧ ، ص ٨٤-٨٥ ، ابن عثري ، ج ٣ ، ص ٩٢ ، عبدالوحد المرالشي ، محيي الدين أبو محمد (ت ٦٤٧ هـ) : <u>المعصية في تلخيص أخبار المغرب</u> ، تحقيق : محمد سعيد العربي ، القاهرة ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، ١٩٦٣ م ، ص ٨٨-٨٩ ، ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٥٠ ، المقرئ ، ج ١ ، ص ٤١ ، محمد عبد الله خان ، ص ٦٤٧ ، أحمد إسماحيل أحمد الجمال : <u>برايست في تاريخ الإنس وتواتر الصفات العارفين في شوق الأندلس</u> ، الإسكندرية ، مركز الإسكندرية للكتاب ، ٢٠٠٧ م ، ص ١٢٧ .
٣٧	معركة عقبة البقر حدثت في شوال ٤٠٠ هـ / مايو ١٠١٠ م في شمال قرطبة على بعد ٢٧ كيلو و ١٧ ميلا بين محمد المهدي وأتباعه من النصارى وسليمان المستعين وانتهت بانتصار محمد المهدي وبيع له بالخلافة للمرة الثانية نظر : الحميدي ، أبو عبد الله محمد أبو نصر الأزدي ، (ت ٤٨٨ هـ) : <u>جذوة العقبين في ذكر ولاية الأندلس</u> ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، القاهرة - بيروت ، دار الكتاب المصري - دار الكتاب اللبناني ، ١٩٧٥ م ، ص ٤٨-٤٩ ، الضبي ، أحمد بن يحيى بن أحمد بن صيرة ، (ت

- ٥٩٩ هـ) : بغية المتكسب من تاريخ جمال الدين ، مدريد ، مطابع روخس ، ١٨٨٤ م ،  
 من ٢٠-٢١ ، ابن عذاري ، ج ٣ ، من ٩٤-٩٥ ، عبد الواحد المرکشى ، من ٨٩ ، شكيب  
 ارسلان ، ج ٢ ، من ٢١٨-٢١٩ ، محمد عبد الله خان ، من ٦٤٨ .
- ٣٨ ابن عذاري ، ج ٣ ، من ١٢٠ ، ابن الخطيب ، ١٢١ ، ابن خلدون ، ج ٤ ، من ١٥٢ ،  
 لويس سيكردي لوثينا : الجمهورية مملكة مملكة الجزيرة الخضراء ، ترجمة : عدنان  
 محمد في طلحة ، دمشق ، مطبعة الشام ، ١٩٩٢ م ، من ١٩-٢٠ .
- ٣٩ ابن عذاري ، ج ٣ ، من ١٢٨ ، ابن الخطيب ، من ١٢٤ ، التويري ، ج ٢٣ ، من ٤٣٥ ،  
 حمدي عبد المنعم حسين ، من ٥٦٤ ، عبد المجيد نعمي ، من ٥٢٣ .
- ٤٠ ابن عذاري ، ج ٣ ، من ١٥٠-١٥١ ، ابن الخطيب ، من ١٢٨ ، التويري ، ج ٢٣ ،  
 من ٤٢٧ ، ابن خلدون ، ج ٤ ، من ١٥٢ ، ابراهيم بيضون ، من ٣٤٦ ، حمدي عبد المنعم  
 حسين ، من ٥٦٧ .
- ٤١ نظر الملحق - اعداد ونشرات من تولى الخلافة بقرطبة .
- ٤٢ ابن عذاري ، ج ٣ ، من ٥٢ ، ٨٢ ، ١١٥ ، ابن الخطيب ، من ١٠٩ ، ١١٣ ، ١١٧ ،  
 ابن خلدون ، ج ١ ، من ١٤٩-١٥٠ ، ١٥٢ ، المقري ، ج ١ ، من ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١٣ ،  
 صالح محمد فياض أبو بسكك ، من ٣٩٠-٣٩٢ ، ابراهيم بيضون ، من ٣٤١ ، ٣٤٣ ،  
 لويس سيكردي لوثينا ، من ١٩-٢٠ .
- ٤٣ ابن عذاري ، ج ٣ ، من ١٤٢ ، ١٤١ ، ١٤٦ ، ابن خلدون ، ج ٤ ، من ١٥٢-١٥٣ ،  
 لويس سيكردي لوثينا ، من ٢٣ .
- ٤٤ ابن الأثير ، ج ٧ ، من ٨٤ ، ابن عذاري ، ج ٣ ، من ٥٩ ، المقري ، ج ١ ، من ٤٠٩ ،  
 محمد عبدالله خان ، من ٦٢٤ .
- ٤٥ ابن عذاري ، ج ٣ ، من ١٤٣ ، التويري ، ج ٢٣ ، من ٤٢٦ ، محمد عبدالله خان ،  
 من ٦٦٦ .
- ٤٦ ابن عذاري ، ج ٣ ، من ١٥١ ، التويري ، ج ٢٣ ، من ٤٢٧ ، ابن خلدون ، ج ٤ ،  
 من ١٥٢ .
- ٤٧ ابن الأثير ، ج ٧ ، من ٨٥ ، ابن عذاري ، ج ٣ ، من ١٠٠ ، المقري ، ج ١ ، من ٤١١ .
- ٤٨ الأثير ، ج ٧ ، من ٢٨٥ ، ابن عذاري ، ج ٣ ، من ١١٧ ، ابن خلدون ، ج ٤ ، من  
 ١٥٢ .
- ٤٩ الأثير ، ج ٧ ، من ٢٨٧ ، ابن عذاري ، ج ٣ ، من ١٢٨ ، ابن الخطيب ، من ١٣٥ .
- ٥٠ الأثير ، ج ٧ ، من ٨٤ ، ابن عذاري ، ج ٣ ، من ٩١ ، ٩٥ ، التويري ، ج ٢٣ ، من  
 ٤٢٤ ، ٤١٩ .
- ٥١ ابن عذاري ، ج ٣ ، من ١٠٠ ، ١١٣ ، ابن الخطيب ، من ١١٦ ، ١١٩ ، التويري ،  
 ج ٢٣ ، من ٤٢٦ ، ٤٢٩ .
- ٥٢ ابن عذاري ، ج ٣ ، من ١٤٣-١٤٤ ، محمد عبدالله خان ، من ٦٦٨ ، لويس  
 سيكردي لوثينا ، من ٣١ .

## الهوامش

- ٥٣ ابن الأثير ، ج ٧ ، ص ٢٩٠ ، ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ ، التويري ، ج ٢٣ ، ص ٤٢٦ - ٤٢٧ ، المعري ، ج ١ ، ص ٤٢٠ ، محمد عبدالله خان ، ص ٦٦٨ .
- ٥٤ ابن سعد ، ج ١ ، ص ٢١٥ - ٢١٦ . السيد عبدالعزيز سالم : فرقة حضرة الخلافة في الأندلس ، دراسة تاريخية ، صراتية ثرية في العصر الإسلامي ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ص ١٩٨١م ، ص ٧٦ . محمد عبدالوهاب خالفا : تاريخ القضاء في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، القاهرة ، المطبعة العربية الحديثة ، ١٩٩٢م ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .
- ٥٥ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٧٧ ، ٨٢ - ٨٣ ، ١١٥ ، ابن أبي زرع ، أبو الحسن علي بن عبدالله (ت ٧٢٦هـ) : الأنيس المطرب بروض القرطوس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، مراجعة عبدالوهاب منصور ، الرباط ، المطبعة الملكية ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٩م ، ص ١٤٩ ، عبدالعزيز فيلالي ، علاقات سياسية بين دولة الأيوبيين في الأندلس ودول المغرب الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٣م ، ص ٢٦٠ - ٢٦١ ، عبدالله بلنح : ترق في بلاد المغرب والأندلس ، بيروت ، دار الانتشار العربي ، ٢٠٠٤م ، ص ٥٣١ ، ٥٤٥ ، محمد عبدالله خان ، ص ٦٥٨ .
- ٥٦ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٨٢ - ٨٣ ، محمد محمد اسماعيل أحمد جمال ، ص ١٦٥ - ١٦٦ ، ١٦٥ ، البير حبيب مطلق : الفرقة الأيوبية في الأندلس من الفتح العربي حتى نهاية عصر ملوك الطوائف ، بيروت ، المكتبة العصرية ، ١٩٦٧م ، ص ٢٥٢ - ٢٥٣ ، كمال السيد أبو مصطفى : تاريخ مدينة بطرطوشة الإسلامية وحضارتها في عصر دولات الطوائف في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ، الأندلس قرون من الثقافات والعطاء ، الرباط ، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦م ، ص ١٧٢ ، لاسي فيصل فروالده : الحياة العلمية في مرسية الإسلامية في القرن الخامس الهجري إلى القرن السابع الهجري ، الأردن ، مؤسسة حمدة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع ، ٢٠٠٤م ، ص ٤٠ .
- ٥٧ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٧٥ ، ١٩٣ ، ٢٣٥ - ٢٣٦ ، التويري ، ج ٢٣ ، ص ٤٤٢ ، ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٥٦ ، ١٦٣ ، عبدالرحمن علي الحجري : التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط طرابلس ، بيروت ، دار القلم ، الطبعة الثانية ، ١٩٨١م ، ص ٣٣٢ - ٣٣٣ ، سحر السيد عبدالعزيز سالم : تاريخ بطليوس الإسلامية وغرب الأندلس في العصر الإسلامي ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٩١م ، ص ٣٥٦ - ٣٦٠ .
- ٥٨ الإبلاني ، ص ٤١ - ٤٢ ، عبدالعزيز فيلالي ، ص ٢٧١ .

## المصادر

- ٥٩ ابن عذاري، ج ٣، ص ٨٣، ٩٤، ابن الخطيب، ص ١١٣، صر مصطفى لطف: تاريخ الصقلية في الأندلس دراسة تاريخية جديدة، القاهرة، د. م. ن.، ٢٠٠٣ م، ص ٦٨-٦٩، إبراهيم عبدالمعتم سلامة، ص ٥٠٥، Scales, (Peter): The Handing over the Duero of fortreses- 1009- 1002 AD Al Qantar, Mudrid, 1984. p.112-112, Alfonso Elsabio: primeracornica General despan, TTTpor Ramom, Mendendas, plided, Madrid, 1933. p.436
- ٦٠ ابن عذاري، ج ٣، ص ٨٦، التويري، ج ٢٢، ص ٤٢٥، عبدالمجيد لنعلي، ص ٥٠٦، محمد عبدالله عنان، ص ٦٤٧-٦٤٦، السيد عبدالعزيز سالم، ص ٨٦.
- ٦١ ابن عذاري، ج ٣، ص ٩٢-٩٤، عبدالمجيد لنعلي، ص ٥٠٨، محمد عبدالله عنان، ص ٦٤٨، رجب محمد عبدالمعتم: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأشبانيا النصرانية في عصر بن أمية وملوك الطوائف، القاهرة، بيروت، دار الكتاب المصري - دار الكتاب اللبناني، د. ت. ن.، ص ٩٦٥، حمدي عبدالمعتم حسين، ص ٥٥٤.
- ٦٢ ابن الأثير، ج ٧، ص ٢٤٨، ابن عذاري، ج ٣، ص ١٠٢-١٠٤، التويري، ج ٢٢، ص ٤٢٧، ابن خلدون، ج ٤، ص ١٥١، رجب عبدالمعتم، ص ٢٦٧، عبدالمجيد لنعلي، ص ٥١٢-٥١٣، السيد عبدالعزيز سالم، ص ٨٧، حمدي عبدالمعتم حسين، ص ٥٥٦.
- ٦٣ محمد عبدالله عنان، ص ٦٢٣، إبراهيم عبدالمعتم سلامة، ص ٥٠٠، LeVI Provençal, L' Espagne Musulmane au xesiede. Paris, 1932, P.49
- ٦٤ ابن عذاري، ج ٣، ص ١٠٥-١٠٤، ابن الخطيب، ص ١١٧-١١٨، محمد عبدالله عنان، ص ٦٥٠.
- ٦٥ ابن عذاري، ج ٣، ص ٧٩-٧٨، محمد عبدالله عنان، ص ٦٤٥، احمد جبرون، ص ٢٣٩-٢٤٠.
- ٦٦ ابن عذاري، ج ٣، ص ١١٦، ١٢٠.
- ٦٧ المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٤٢-١٤٣.
- ٦٨ المصدر نفسه، ج ٣، ص ٧٤، احمد فكري، ص ١٢٢، حمد صالح السحبياتي: الحالة الأندلسية في قرطبة خلال الفتنة البربرية (٢٢٩-٤٤٢هـ/١٠٠٩م-١٠٣١م).
- الرياض، الجمعية التاريخية السعودية، ١٩٩٩م، ص ٩١.
- ٦٩ عياض، عياض بن موسى بن عياض السبتي (ت ٥٤٤هـ): ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق سعيد احمد أحراب، الرباط، مطبعة فضالة، ١٩٨٢م، ص ١٩٩-٢٠٠، محمد عبدالوهاب خلاف: القضاء في الأندلس، ص ٥٥٢.



٧٠. عبد الوالد المراكشي، ص ١٠٧، عبد المجيد نغمي، ص ٥٢٦، حمد صالح السحيباني، ص ٨٩-٩٠.
٧١. ابن عذاري، ج ٣، ص ١٣٧.
٧٢. المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٤٧-١٤٩، السيد عبدالعزيز سالم: قرطبة، ص ١٠٧.
٧٣. محمد عبد الوهاب خالاف: الفضاء في الأندلس، ص ١١٦، عبد المجيد نغمي، ص ٥٢٦.
٧٤. الفتح بن حقان، أبو النصر الفتح بن محمد بن عبد الله القرسي (ت ٥٢٩هـ): مطبخ الأندلس ومسرح التنكس في مطلع أهل الأندلس، القاهرة، تحقيق محمد شوابكة، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٣م، ص ٢١٢-٢١٤.
٧٥. عبد الوالد المراكشي، ص ١٠٧، حمد صالح السحيباني، ص ٨٩-٩٠.
٧٦. ابن عذاري، ج ٣، ص ١٤٧-١٤٩، السيد عبدالعزيز سالم: قرطبة، ص ١٠٧.
٧٧. ابن عذاري، ج ٣، ص ١٣٧، حمد صالح السحيباني، ص ٧٩.
٧٨. ابن عذاري، ج ٣، ص ٢٧، حمد صالح السحيباني، ص ٩٠.
٧٩. ابن عذاري، ج ٣، ص ١٠٩.
٨٠. المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٣٥-١٣٦، السيد عبدالعزيز سالم: قرطبة، ص ١٠١-١٠٣.
٨١. ابن عذاري، ج ٣، ص ١٠٥-١٥١، ابن خلدون، ج ٤، ص ١٥٢.
٨٢. ابن يسم: ج ١، ص ١٠٢، ابن عذاري، ج ٣، ص ١٣٦.
٨٣. ابن يسم: ج ١، ص ١٠١، محمد عبدالله خالاف: ١٩٨٦.
٨٤. ابن عذاري، ج ٣، ص ٢٤، <http://Archivwebeta.com>.
٨٥. حياض، ج ٧، ص ١٩٩-٢٠٠، ن ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨هـ): الصلة - تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة، بيروت، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٩م/ج ١، ص ٢٢٩-٢٣٠. محمد عبد الوهاب خالاف: الفضاء في الأندلس، ص ٥٥٢.
٨٦. ابن حزم، أبو عبدالله علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي (ت ٤٥٦هـ): طوق الحمامة في الألفاظ والآثار، تحقيق حسين كامل الصيرفي، القاهرة، مطبعة الاستقامة، ١٩٦٤م، ص ١١١، محمد حسن قجة: مخطوطات أندلسية دراسات في التاريخ والأدب العربي الأندلسي، جدة، دار السعودية للنشر والتوزيع، ١٩٨٥م، ص ١٣٢، عبدالرحمن عبدالرؤوف الخالجي: أثر قننة قرطبة على المراكز الشخصية والأخلاقية لأن حزم الأندلس في كتابه طوق الحمامة - الأندلس: قرون من الثقافات والعطامات - الجزء الأول، الرياض، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٩٩٦م، ص ١٢٨.
٨٧. ابن حزم، ص ١١١، عبدالرحمن الخالجي، ص ١٣٩.
٨٨. ابن حزم، ص ١١٢، ابن سعيد، ج ١، ص ٥٤-٥٥، عبدالرحمن الخالجي، ص ١٤٢، محمد حسن قجة، ص ١٣٢.

## الهوامش

- ٨٩ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٢٢-١٢٤ ، أحمد محمد اسماعيل الجمال ، ص ١٤٦ .
- ٩٠ ابن بلكين ، ص ١٦-١٧ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٢٦ ، وفاء عبدالله سليمان المزروع ، نقلاً عن تصفية في الأندلس في عصر الإمارة أو الخلافة ، الإنديس قرون من إنكليات والعطامات - القسم الأول ، ١٩٩٦م ، ص ١١٥ .
- ٩١ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٧٤-٧٥ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٣٨ ، عبدالمجيد لعلي ، ص ٥٠٢-٥٠٤ ، كمال السيد أبو مصطفى ، ص ١٧٢ .
- ٩٢ محمد عبدالله عنان ، ص ٦٣٤ ، شكيب أرسلان ، ج ٢ ، ص ٢١٨-٢١٩ .
- ٩٣ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٨٨ .
- ٩٤ المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٩٦-٩٨ ، ابن الخطيب ، ص ١١٣ .
- ٩٥ عبد العزيز نعفي ، ص ٥٠٤ .
- ٩٦ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٧٨ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٤٤-٦٤٥ ، إبراهيم عبدالمعظم سلامة ، ص ٥٠١ ، Guichard ، Le'vi - Provençal p.436 ، (Pierre) Al-Andalous Estrectura Antro Polgica de una sociedad Islamica en occidente, Bordeon, 1976, P.109
- ٩٧ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٩١ .
- ٩٨ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٧٧ ، ٨٢-٨٣ ، كمال السيد مصطفى ، ص ١٧٣-١٧٤ ، عبدالعزيز فياض ، ص ٢٦١-٢٦٢ ، أمير مطلق ، ص ٢٥٢ ، عبدآله بتمليح ، ص ٥٢٩-٥٤٥ .
- ٩٩ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٨٣ ، <http://Archivebeta.Blog>
- ١٠٠ ابن بسام ، ج ١ ، ص ١١٠-١١٢ ، عبدآله بتمليح ، ص ٧٤٨-٤٨٠ .
- ١٠١ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٠٤ .
- ١٠٢ المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١١٢-١١٤ .
- ١٠٣ المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٠٨-١٠٩ ، السيد عبدالعزيز سالم : قرطبة ، ص ٨٥ ، لويس سيكودي لوثيليا ، ص ١٩ .
- ١٠٤ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٣٠ ، السيد عبدالعزيز سالم : قرطبة ، ص ٩٤ ، عبدالعزيز فياض ، ص ٢٦٦ .
- ١٠٥ ابن بشكوال ، ج ٢ ، ص ٧١٨-٧١٩ ، ابن الآبار ، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القاضي (ت ٦٥٨هـ) : تكملة لكتاب الصلاة ، ضبط وتعليق جلال الاسويدي ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ٢٠٠٨م ، ج ٢ ، ص ٢٠٨ ، حمد صالح لسعبياني ، ص ٦٤ .
- ١٠٦ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٤٩-١٥٠ .
- ١٠٧ عياض ، ج ٧ ، ص ١٧١ ، البهاهي ، ص ٨٦ ، محمد عبد الوهاب خالاف : إفضاء في الإنديس ، ص ١٠٥ .

م	المسؤولين
١٠٨	عياض ، ج ٧ ، ص ١٧٣-١٧٤ ، لنهاي ، ص ٨٦-٨٧ ، حسين مؤنس : <u>شيوخ العبير في الأندلس</u> ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦م ، ص ٧٩ .
١٠٩	عياض ، ج ٧ ، ص ١٧٨-١٧٩ ، ابن سعيد ، ج ١ ، ص ١٥٥-١٥٧ ، لنهاي ، ص ٨٨ ، حمد صالح السحيباني ، ص ٥٠ ، حسين مؤنس : <u>شيوخ العبير في الأندلس</u> ص ٧٩ .
١١٠	عياض ، ج ٧ ، ص ١٠-١١ ، لنهاي ، ص ٨٩ ، محمد عبدالوهاب خلافا : <u>القضاء في الأندلس</u> ، ص ٧٩ .
١١١	ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٦٠ ، محمد عبدالوهاب خلافا : <u>القضاء في الأندلس</u> ، ص ١٠٤ .
١١٢	ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٧٩ ، محمد عبدالوهاب خلافا : <u>القضاء في الأندلس</u> ، ص ١٠٧ .
١١٣	ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٨٩ ، محمد عبدالوهاب خلافا : <u>القضاء في الأندلس</u> ، ص ١٠٥ .
١١٤	ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٠٣ .
١١٥	المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٠٤ ، محمد عبدالوهاب خلافا : <u>القضاء في الأندلس</u> ، ص ١٠٥ .
١١٦	ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١١٢ ، محمد عبدالوهاب خلافا : <u>القضاء في الأندلس</u> ، ص ١٠٥ .
١١٧	ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٩٨ ، محمد عبدالوهاب خلافا : <u>القضاء في الأندلس</u> ، ص ٢٢١ ، حمد صالح السحيباني ، ص ٤٩ .
١١٨	محمد عبدالوهاب خلافا : <u>القضاء في الأندلس</u> ، ص ٢٢١ ، حمد صالح السحيباني ، ص ٥٥ .
١١٩	ابن بشكوال ، ج ٢ ، ص ٤٧٢ ، حمد صالح السحيباني ، ص ٥٧ .
١٢٠	لنهاي ، ص ٨٧ ، حمد صالح السحيباني ، ص ٥٧ .
١٢١	عياض ، ج ٨ ، ص ١٧٩-١٧٧ ، ابن سعيد ، ج ١ ، ص ١٥٩ .
١٢٢	ابن بسام ، ق (١) ج ١١ ، ص ٤٢٥-٤٢٦ ، محمد عبدالوهاب خلافا : <u>القضاء في الأندلس</u> ، ص ٢٦٣-٢٦٤ .
١٢٣	ابن بسام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٤٣٥ ، محمد عبدالوهاب خلافا : <u>القضاء في الأندلس</u> ، ص ٥٠١ .
١٢٤	ابن بشكوال ، ج ٢ ، ص ٢٩٥-٢٩٦ ، محمد عبدالوهاب خلافا : <u>القضاء في الأندلس</u> ، ص ٥٢٢ ، حمد صالح السحيباني ، ص ٦٨-٦٩ .
١٢٥	ابن بشكوال ، ج ٢ ، ص ٤٧٢ ، لنهاي ، ص ٨٩ ، محمد عبدالوهاب خلافا : <u>القضاء في الأندلس</u> ، ص ١١٣ ، حسين مؤنس : <u>شيوخ العبير في الأندلس</u> ، ص ٧٩ .
١٢٦	عياض ، ج ٧ ، ص ١٩٩-٢٠٠ ، ابن بشكوال ، ج ١ ، ص ٢٢٩-٢٣٠ ، محمد عبدالوهاب خلافا : <u>القضاء في الأندلس</u> ، ص ٥٥٢ .
١٢٧	ابن بسام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٢٢ ، يوسف احمد بلي ياسين : <u>بلدان الأندلس في أخصال باقوت الحموي</u> ، جغرافية دراسية مقارنة ، الامارات المتحدة ، دار زايد للتراث والنشر ، ٢٠٠٤م ، ص ٢٤١-٤٢٢ ، محمد كمال شبله : <u>الأندلس دراسة تاريخية حضارية</u> ، القاهرة ، دار العالم العربي ، ٢٠٠٨م ، ص ١٢٤ ، ليوبولدو نورس بالياس ، ص ١٧٤ .

- ١٢٨ نظر الحدود المكتوبة .
- ١٢٩ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ ، ٢٧٥ ، السوري ، ج ٢٢ ، ص ٣٩٩ ، ٤٠٦ ، ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٤٤ ، ١٤٨ .
- ١٣٠ مؤلف مجهول : وصف جديد لقرطبة الإسلامية ، مدريد ، ١٩٦٥-١٩٦٦م ، ص ١٦٨ ، المقرئ ، ج ٢ ، ص ٧-٦ ، البيبر مطلق ، ص ٢٥٣ ، يوسف أحمد بن ياسين ، ص ٤٢١ . محمد عبدالوهاب خالفا : قرطبة الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي - الخامن الهجري لحماية الاقتصادية والاجتماعية ، تونس ، السدار التونسية للنشر ، ١٩٧٨م ، ص ٢٥-٢٦ ، محمد عبدالله الصادق : التخطيط العمراني لمدينة الإسفلس الإسلامية ، الانلس قرون من الكتلبيات والعطاءات - القسم الثالث الحضارة والعسارة والفنون ، الرياض ، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة ، ١٩٩٦م ، ص ١٦١ .
- ١٣١ المقرئ ، ج ٢ ، ص ٧٩ ، البيبر مطلق ، ص ٢٥٣ . محمد عبدالوهاب خالفا : قرطبة ، ص ٤٦-٤٧ .
- ١٣٢ مؤلف مجهول : وصف حديث لقرطبة ، ص ١٦٩ ، المقرئ ، ج ٢ ، ص ٨٠ ، البيبر مطلق ، ص ٢٥٣ . محمد عبدالوهاب خالفا : قرطبة ، ص ٢٦ ، احمد فكري ، ص ١٨٥ ، محمد عبدالله الصادق ، ص ١٦٠ .
- ١٣٣ مؤلف مجهول : وصف جديد لقرطبة ، ص ١٩٦ ، احمد فكري ، ص ١٨٥ ، البيبر مطلق ، ص ٢٥٣ محمد عبدالوهاب خالفا : قرطبة ، ص ٢٦ ، محمد عبدالله الحماد ، ص ١٦٠ ، البيبر مطلق ، ص ٢٥٣ ، محمد عبدالله الحماد ، ص ١٥٩ .
- ١٣٤ المقرئ ، ج ٢ ، ص ٨١ ، البيبر مطلق ، ص ٢٥٣ ، السيد عبدالعزيز سالم : قرطبة ، ص ٨٢ ، محمد عبدالله الحماد ، ص ١٥٩ .
- ١٣٦ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٥٧ ، المقرئ ، ج ٢ ، ص ١٢-١٣ ، محمد عبدالوهاب خالفا : قرطبة ، ص ٢٣ ، احمد فكري ، ص ١٨٠ ، ليوبولد تورن بالباس ، ص ١٠٠ .
- ١٣٧ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٧٧ ، المقرئ ، ج ٢ ، ص ١٥ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢ ، محمد عبدالوهاب خالفا : قرطبة ، ص ٢٤ ، السيد عبدالعزيز سالم : قرطبة ، ص ١١٢-٢١٣ ، احمد فكري ، ص ١٨٢-١٨٣ .
- ١٣٨ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٦٢-٦٤ ، ابن الخطيب ، ص ١١١ ، التويري ، ج ٢٣ ، ص ٤١٤ ، محمد عبدالله خان ، ص ٦٣٥ ، احمد بن عبود : جواليبيد من الواقع الاندلسي في القرن الخامس الهجري ، تطوران ، مطبعة النور ، ١٩٧٨م ، ص ٥٥ .
- ١٣٩ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٦٢-٦٤ ، التويري ، ج ٢٣ ، ص ٤١٤-٤١٣ ، المقرئ ، ج ٢ ، ص ١٢٢-١٢٣ ، ابراهيم بيضسون ، ص ٣٤١ ، السيد عبدالعزيز سالم : قرطبة ، ص ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ليوبولد تورن بالباس ، ص ١٠١ ، محمد احمد اسماعيل جمال ، ص ١٢٤ ، محمد عبدالوهاب خالفا : قرطبة ، ص ١٢٤ .

## الهــولاء

- ١٤٠ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٩٥ ، أحمد فكري ، ص ١٢٣ ، السيد عبدالعزيز سالم : قرطبة  
 ، ص ٢٥١ ، أحمد بن عيود : جوانب من الواقع الأندلسي ، ص ٥٥ .
- ١٤١ القاضي ، ص ١١٤ ، ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٠٢ ، ١٠٧ ، الحميري ، ص ٢٩٥ ، أحمد  
 فكري ، ١٢٤ ، السيد عبدالعزيز سالم : قرطبة ، ص ٢٥٢ ، محمد عبدالوهاب خشاف :  
قرطبة ، ص ١٥٣ .
- ١٤٢ ابن بسام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٤٣٦ ، ابن سعد ، ج ١ ، ص ٥٤-٥٥ ، ابن عذاري ، ج ٣ ، ص  
 ١٤٢ ، السيد عبدالعزيز سالم : في تاريخ حضارة الإسلام في الأندلس ، الإسكندرية ،  
 مؤسسة شباب الجامعة ، الطبعة الثانية ، ١٩٩١م ، ص ٤٧ ، أحمد عيود : التبسيط  
 الاقتصادي في الأندلس خلال عصر الطوائف ، المغرب والأندلس دراسات في التاريخ  
 والآثار لوجبة تطوان ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، ٢٠٠٦م ، ص ٤٨-٤٩ .
- ١٤٣ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٠٢ ، أحمد فكري ، ص ١٩٦ ، السيد عبدالعزيز سالم : قرطبة ،  
 ص ١١٢-١١٣ .
- ١٤٤ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١١٢ ، أحمد محمد اسماعيل الجمال ، ص ١٣٠ ، حمدي  
 عبدالمنعم حسين ، ص ٥٥٦ .
- ١٤٥ ابن حزم ، ص ٩٤ ، مؤلف مجهول : أخبار الأندلس ، ص ٢٣٩ ، ابن الخطيب ، ص  
 ١٠٧-١٠٦ ، يوسف أحمد بن ياسين ، ص ١٢٦-١٢٧ ، محمد كمال شيبان ، ص  
 ١٢٧ ، السيد عبدالعزيز سالم : قرطبة ، ص ١١٢ ، ١١٤-١١٦ ، محمد عبدالوهاب  
 خشاف : قرطبة ، ص ٢٩ .
- ١٤٦ عباس ، ج ٧ ، ص ١٧٦-١٨٠ ، ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٠٤ ، ليوبولد توريس  
 بالباس ، ص ١٢٤ .
- ١٤٧ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١١٥ ، حمدي عبدالمنعم حسين ، ص ٥٥٨ .
- ١٤٨ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٢٣ ، أحمد محمد اسماعيل الجمال ، ص ١٤٦ ، أحمد بن  
 عيود : التبسيط الاقتصادي ، ص ٥٤ .
- ١٤٩ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٨٠ .
- ١٥٠ المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٠٧ ، ليوبولد توريس بالباس ، ص ١٤١ .
- ١٥١ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٠٥ ، أحمد فكري ، ص ٢٩٦ ، محمد عبدالوهاب خشاف :  
قرطبة ، ص ٢٩ ، ٧٥ .
- ١٥٢ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٨٧-٨٨ ، محمد عبدالوهاب خشاف : قرطبة ، ص ٢٩٨ .
- ١٥٣ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٩٩ ، محمد عبدالوهاب خشاف : قرطبة ، ص ٢٩٨ ، السيد  
 عبدالعزيز سالم : قرطبة ، ص ١٧١ .
- ١٥٤ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٨٧ ، محمد عبدالوهاب خشاف : قرطبة ، ص ٢٩٨ .

## الهـ

- ١٥٥ مؤلف مجهول : وصف جند قرطبة ، ص ١٧١ ، محمد عبدالوهاب خالفا : قرطبة ، ص ٢٢-٢٣ .
- ١٥٦ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٠٧ ، ١٢٣ .
- ١٥٧ المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٩٨ ، محمد عبدالوهاب خالفا : القضاء في الأندلس ، ص ١٠٥ ، حمد صالح المسحوبتي ، ص ١٤٩ .
- ١٥٨ محمد عبدالوهاب خالفا : قرطبة ، ص ٢٥ .
- ١٥٩ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٦١-٦٢ .
- ١٦٠ المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٦١ ، ٩٥ ، ابن الخطيب ، ص ١١١ ، محمد عبدالوهاب خالفا : قرطبة ، ص ٨٢-٨٤ .
- ١٦١ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٨١ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٤٥ .
- ١٦٢ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٨٤ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٤٦ .
- ١٦٣ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٨٥ .
- ١٦٤ المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٩٤-٩٦ ، عبدالمجيد نععي ، ص ٥٠٨ ، شكيب أرسلان ، ج ٢ ، ص ٢١٨-٢١٩ .
- ١٦٥ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٩٨ .
- ١٦٦ المصدر نفسه ، نفس الجزء والمسفة ، محمد عبدالوهاب خالفا : قرطبة ، ص ٤٤ ، احمد بن عبود : إثنية الاقتصادية ، ص ٩٩ .
- ١٦٧ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٩٩ ، النويري ، ج ٢٢ ، ص ٢٢٤ ، عبدالمجيد نععي ، ص ٥١٠ ، احمد بن عبود : إثنية الاقتصادية ، ص ١٦٠ .
- ١٦٨ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٠٤ ، <http://Archivebeta.5.194> .
- ١٦٩ المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٠٩ ، محمد عبدالوهاب خالفا : قرطبة ، ص ٨٣ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٥١-٦٥٢ .
- ١٧٠ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١١٢ ، النويري ، ج ٢٣ ، ص ٤٢٩ ، محمد عبدالوهاب خالفا : قرطبة ، ص ٨٤ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٥٣ .
- ١٧١ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١١٥ .
- ١٧٢ ابن بسلام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٩٩ ، ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٢١ ، ١٢٣ ، ابن الخطيب ، ص ١٢٩ ، احمد محمد اسماعيل الجسار ، ص ١٤٦ ، احمد عبود : إثنية الاقتصادية ، ص ٧٥ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٦١ .
- ١٧٣ ابن بسلام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ١٠٠ .
- ١٧٤ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٣٧ ، ابن الخطيب ، ص ١٢٣ ، عبدالمجيد نععي ، ص ١٢٥ .
- ١٧٥ ابن بسلام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٩٨ ، ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٤٦ ، محمد عبدالوهاب خالفا : قرطبة ، ص ٨٥ ، حمد صالح المسحوبتي ، ص ١٧ .
- ١٧٦ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٠٥ .

- ١٧٨ ابن الخطيب، ص ١١٧، السيد عبدالعزيز سالم: قرطبة، ص ١١٤، محمد عبدالله طلس، ص ٦٥١.
- ١٧٩ ابن بسلام، ق ١، ج ١، ص ٤٢٦، ابن سعيد، ج ١، ص ٥٤-٥٥، احمد فكري، ص ١٢٦، احمد بن عيون: التبصرة الاقتصادية، ص ٤٨-٤٩.
- ١٨٠ السيد عبدالعزيز سالم: قرطبة، ص ١١٦.
- ١٨١ ابن عذاري، ج ٣، ص ١٠٥.
- ١٨٢ المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٠٥.
- ١٨٣ المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٠٩، وبطلوس تقع في اقليم ماردة وتبعد عنها أربعين ميلاً على نهر وادي أنه وقد بنيت تلك المدينة على يد عبدالرحمن بن مروان الجليكي بموافقة الأمير عبدالله بن محمد انظر الحميري، ص ٩٢، شعر السيد عبدالعزيز سالم، ص ١٦١.
- ١٨٤ ابن بسلام، ق ١، ج ١، ص ٤٥٨، ابن عذاري، ج ٣، ص ١٢٨.
- ١٨٥ ابن عذاري، ج ٣، ص ١٤٧.
- ١٨٦ احمد بن عيون: التبصرة الاقتصادية، ص ٧٢-٧٤.
- ١٨٧ محمد عبدالوهاب خلافة: قرطبة، ص ١٧٢-١٧٣، ١٨٥-١٨٦، ١٩٠.
- ١٨٨ ابن عذاري، ج ٣، ص ١٠٢، رجب محمد عبدالحميد، ص ١٨٠، محمد عبدالوهاب خلافة: قرطبة، ص ٢٣١.
- ١٨٩ عبدالحميد لغزي، ص ٥٠٩-٥١١.
- ١٩٠ ابن عذاري، ج ٣، ص ١٠٢، رجب محمد عبدالحميد، ص ١٨٠.
- ١٩١ ابن عذاري، ج ٣، ص ١٠٦-١٠٧، ابن خلدون، ج ٤، ص ١٥١ المقري، ج ١، ص ٤١١، محمد عبدالوهاب خلافة: قرطبة، ص ٢٣١.
- ١٩٢ ابن عذاري، ج ٣، ص ١٠٧، محمد عبدالوهاب خلافة: قرطبة، ص ١٣٠.
- ١٩٣ ألمرية مدينة بشرق الأندلس من كورة البيرة وهي مرسى ميناء الأندلس في الشرق نظر بالقوت، ج ٥، ص ١١٩.
- ١٩٤ الأندلسي، ج ٢، ص ٥٦٢، بالقوت، ج ٥، ص ١١٩، محمد عبدالوهاب خلافة: قرطبة، ص ١٠٤، ١٠٦، السيد عبدالعزيز سالم: في تاريخ وحضارة الأندلس، ص ٢٧٥-٢٧٧، ليلي بروفانسال: أندلس وتاريخها، ترجمة محمد عبدالهادي شعيرة مراجعة عبدالحميد العبادي، القاسرة، المطبعة الأميرية، ١٩٥١م، ص ١٠٤.
- ١٩٥ محمد عبدالوهاب خلافة: قرطبة، ص ١٧٠، إبراهيم بن عبدالمنعم سلامة، ص ١٨٨.
- ١٩٦ طليطلة مدينة خصبة في وسط الأندلس على ضفة النهر الكبير وتشتهر بالزراعة وتربية الحماتي التي تصدر إلى المناطق المختلفة نظر الحميري، ص ٣٩٢-٣٩٤.
- ١٩٧ فونكة مدينة وسط الأندلس من أصال شنتيرية نظر بالقوت، ج ٤، ص ٤١٥.
- ١٩٨ السيد عبدالعزيز سالم: في تاريخ وحضارة الأندلس، ص ٢٦٥.

- ١٩٩ المغربي ، ج ٤ ، ص ٢٠٤ .
- ٢٠٠ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ١٠٦ ، محمد عبد الوهاب خلافاً : قرطبة ، ص ١٦٢ ، إبراهيم سلامة ، ص ١٨٢ - ١٨٦ ، Levi-Provençal, P200
- ٢٠١ عبدالمجيد لعلمي ، ص ٥١١ ، محمد عبد الوهاب خلافاً : قرطبة ، ص ٩٨ ، ١١٨ .
- ٢٠٢ أوليفيا ريمي كونستول : التجارة والتجار في الأندلس ، ترجمة فوميل عبدالله ، الرياض ، مكتبة العبيكان ، ٢٠٠٢م ، ص ١١٢ ، محمد عبد الوهاب خلافاً : قرطبة ، ص ٢٢١ .
- ٢٠٣ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٥٧ ، ٨٠ ، ١٠٧ ، محمد عبد الوهاب خلافاً : قرطبة ، ص ٢٩٧ ، لويولسد تورس بالباس ، ص ٤٤ ، إبراهيم عبدالمعتم مسالمة ، ص ٢٠٠ ، L'œvi-Provençal, P44
- ٢٠٤ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٠٥ .
- ٢٠٥ المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٥٧ .
- ٢٠٦ المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٥٦ ، ٦٢ .
- ٢٠٧ المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٩٢ .
- ٢٠٨ حمد صالح السحيباني ، ص ٩٨ .
- ٢٠٩ ابن بسام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ١٠٠ ، ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٢٢٣ .
- ٢١٠ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٩٩ ، ١٤٦ ، محمد عبد الوهاب خلافاً : قرطبة ، ص ٨٥ ، حمد صالح السحيباني ، ص ١٧ .
- ٢١١ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٠٤ .
- ٢١٢ احمد بن عهود التنبؤ الانساني ، ص ٤٤ .
- ٢١٣ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ١٠٦ ، محمد عبد الوهاب خلافاً : قرطبة ، ص ٨٤ ، ٢٣١ ، حمد صالح السحيباني ، ص ٩-١٠ .
- ٢١٤ النويري ، ج ٢٣ ، ص ٤٢٨ .
- ٢١٥ المصدر نفسه ، ج ٢٣ ، ص ٤٢٧ .
- ٢١٦ ابن بسام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٩٨ .
- ٢١٧ محمد عبد الوهاب خلافاً : قرطبة ، ص ٢٣٥ ، عصمت عبداللطيف وندس : الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين في عصر الطوائف الذي ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٨٨م ، ص ٢٤٧-٢٤٨ ، عبدالمسام بن المخاز شعكور : اليونان الأندلسية بحث في المكونات والضوابط والنتائج : الأندلس فزون من التفتيات والعباء ، الرياض ، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة ، القسم الأول للتاريخ وفلسفة ، ١٩٩٦م ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .
- ٢١٨ ابن بلكين ، ص ١٦-١٧ ، الإبلاتي ، ص ١٤٧ ، محمد عبد الوهاب خلافاً : قرطبة ، ص ٢٣٧-٢٣٩ ، ٢٥٤ ، محمد حفي : البربر في الأندلس ، دراسة التاريخ مجموعة آتية من الفتح إلى سقوط الخلافة الأموية ، الدار البيضاء ، شركة النشر والتوزيع ، ٢٠٠١م ، ص ٢١٨-٢١٩ .
- ٢١٩ وقاء المزروع ، ص ١١٥ ، عمر مصطفى لطف ، ص ٥٥ ، حسن يوسف نويدار ، المجتمع



- الأندلس في العصر الأموي ، القاهرة، مطبعة الحضرة الإسلامية ، ١٩٩٤م ، ص ٢٨٩ .
- ٢٢٠ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٦٠-١٦١ ، أحمد محمد اسماعيل الجمال ، ص ٢١٦-٢١٧ ، صر مصطفى لطف ، ص ٦٧ .
- ٢٢١ ابن الخطيب ، ص ١٢٢-١٢٣ ، أحمد فكري ، ص ١٢٢ ، عبدالعزيز فيلاشي ، ص ٢٥٢ - ٢٥٣ ، محمد حقي ، ص ٩٠-٩١ ، رجب عبدالحليم ، ص ١٨١ .
- ٢٢٢ ابن بسام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ١٠٠ ، محمد عبدالوهاب خلافت : قرطبة ، ص ٢٥٥ .
- ٢٢٣ ابن الخطيب ، ص ١١٩ ، محمد حقي ، ص ٥٣ ، محمد عبدالله عثمان ، ص ٦٥٤ .
- ٢٢٤ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٢٨ ، محمد حقي ، ص ٢١٨-٢١٩ .
- ٢٢٥ ابن حزم ، ص ١١٢ ، ابن الأثير ، ج ٧ ، ص ٢٤٨-٢٤٩ ، محمد حقي ، ص ٥٣ ، عبدالرحمن الختجي ، ص ١٣٩-١٤٠ .
- ٢٢٦ ابن بسام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٣٠٥ .
- ٢٢٧ ليوبولد نورس وبناش ، ص ١٢٦ ، إبراهيم عبدالمنعم سلامة ، ص ١٣٩ .
- ٢٢٨ ابن بسام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٤٣-٤٤ ، ابن خلكان ، أبو العباس أحمد بن محمود (ت ٦٨١هـ) : وليات الأعيان ووليات الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، ٥٠ ت . ن ، ج ٢ ، ص ١٠٦ ، ابن الأثير ، ج ٧ ، ص ٨٤-٨٥ ، عبدالوحد المراكشي ، ص ٨٨-٨٩ ، المقري ، ج ١ ، ص ٤١١ ، شكيب أرسلان ، ج ٢ ، ص ٢١٨-٢١٩ ، حمد صالحي السحبي ، ص ٩٤ ، رجب عبدالحليم ، ص ٢٦٤-٢٦٨ .
- ٢٢٩ ابن الأبار : الخطبة ، ج ٢ ، ص ٧ ، ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٢ ، عبدالوحد المراكشي ، ص ٨٧ ، مؤلف مجهول ، ص ٢٤٠ ، محمد حقي ، ص ٢١٨-٢١٩ ، محمد عبدالوهاب خلافت : قرطبة ، ص ٦٥-٩٦ .
- ٢٣٠ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٢١ .
- ٢٣١ ابن بسام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٥٤ .
- ٢٣٢ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٠٥ .
- ٢٣٣ ابن بشكوال ، ج ٢ ، ص ٥٧٦-٥٧٧ ، عبدالرحمن الختجي ، ص ١٤٤ ، محمد عبدالوهاب خلافت : قرطبة ، ص ٥٥ .
- ٢٣٤ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٠٢-١٠٣ ، النويري ، ج ٢٣ ، ص ٤٢٧ .
- ٢٣٥ ابن الخطيب ، ص ١٣٥ ، عبدالعزيز فيلاشي ، ص ٢٥٨-٢٥٩ ، محمد عبدالله عثمان ، ص ٦٤٥ .
- ٢٣٦ أثيريس ، ج ٢ ، ص ٥٧٩ ، بالقوت ، ج ٤ ، ص ٣٢٤ ، الحميري ، ص ٤٥٨ .
- ٢٣٧ عبدالعزيز فيلاشي ، ص ٢٦٥ ، Levi Provencal P.481 .
- ٢٣٨ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٩٤ ، كمال السيد أبو مصطفى ، ص ١٧٠ ، رجب عبدالحليم ، ص ١٨١ .
- ٢٣٩ ابن حزم ، ص ١١١ ، عبدالرحمن الختجي ، ص ١٣٨-١٤٠ .
- ٢٤٠ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٢ ، أحمد فكري ، ص ١٩٦ ، السيد عبدالعزيز سالم : قرطبة ، ص ١١٢-١١٣ .

- ٢٤١ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٨١ ، محمد حقي ، ص ٢١٨ ، عبدالرحمن القسبي ، ص ١٢٩ ،  
اسعد بن عبيد : جوانب الواقع ، ص ٢١ .
- ٢٤٢ ابن بسام ، ق ١ ، ج ١ ص ١٠٠ ، ابن الأثير ، ج ٧ ، ص ٢٤٨-٢٤٩ ، محمد حقي ، ص ٢٠٩ ،  
إبراهيم عبدالمنعم سلامة ، ص ٥٠٩ ، Al-Fonso P.462
- ٢٤٣ ابن بسام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٥٤ ، ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٩٧-٩٨ ، اللويري ، ج ٢٢ ، ص  
٤١٩ ، مؤلف مجهول ، ص ٢٢٩ ، حمد صالح السحيباني ، ص ٩٤ .
- ٢٤٤ ابن بشكوال ، ج ٢ ، ص ٤٠٤-٤٠٤ ، ابن الأثير : المصلة ، ص ٢٠٨ ، محمد عبدالوهاب  
خلاف : قريظة ، ص ٢٢٠-٢٢١ .
- ٢٤٥ حمد صالح السحيباني ، ص ٩٣ .
- ٢٤٦ محمد عبدالوهاب خلاف : قريظة ، ص ٢٧٢ .
- ٢٤٧ ابن حزم ، ص ١١٢ ، محمد عبدالوهاب خلاف : قريظة ، ص ٢٧٢ ، حمد صالح السحيباني ،  
ص ١٠٤ .
- ٢٤٨ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٠٧ ، حمد صالح السحيباني ، ص ٩٣ .
- ٢٤٩ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٨٠ ، ٩٩ ، محمد عبدالوهاب خلاف : قريظة ، ص ٣١٢ .
- ٢٥٠ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٤١ ، ١٤٢ ، محمد عبدالوهاب خلاف : قريظة ، ص ٣١٢ .
- ٢٥١ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٤٩ ، محمد عبدالوهاب خلاف ، ص ٣١٢ .
- ٢٥٢ ابن حزم ، ص ١١٩ ، عبدالرحمن القسبي ، ص ١٤٩-١٥١ .
- ٢٥٣ ابن بسام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٤٤ .
- ٢٥٤ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٩١ .
- ٢٥٥ المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٩٧-٩٨ ، حمد صالح السحيباني ، ص ٨١-٨١ .
- ٢٥٦ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ١٠٦ ، ١٤٦ .
- ٢٥٧ المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩١ .
- ٢٥٨ محمد عبدالله خان ، ص ٧٠١-٧٠٤ ، وفاة عبدالله سليمان المزروع : الخطوة الأولى الحكم  
المستعصر ، ج ٥ ، دار السعودية للنشر والتوزيع ، ص ٥٠ ، ن . ن ، ص ١٢٢-١٤٥ .
- ٢٥٩ ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٠٥ ، ١٠٩ ، اسعد بن عبيد : البنية الاقتصادية ، ص ٧٣-٧٥ .
- ٢٦٠ عياض ، ج ٧ ، ص ٢٩٧ ، ج ٨ ، ص ١٠ ، ابن سعيد ، ج ١ ، ص ١٥٥-١٥٧ ، النباهي ،  
ص ٤٨٨ ، حسين مؤنس : شيوخ العصر ، ص ٧٨-٧٩ .
- ٢٦١ ابن بسام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٦٧ .
- ٢٦٢ ابن بشكوال ، ج ١ ، ص ٤١ .
- ٢٦٣ المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٢٧-٣٢٩ .
- ٢٦٤ المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٦٥٠ .
- ٢٦٥ المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧١٤-٧١٥ .
- ٢٦٦ ابن بسام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٤٤ .
- ٢٦٧ ابن بشكوال ، ج ١ ، ص ٣٠٩-٣١١ ، الذهبي ، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن احمد بن

- علمان (ت ٧٤٨هـ) : طبقات القراء ، تحقيق احمد خان ، الرياض ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ١٩٩٧م ، ج ٢ ، ص ٥٧٢-٥٧٤ .
- ٢٦٨ ابن بشكوال ، ج ١ ، ص ٣٨٩ .
- ٢٦٩ المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧١٥-٧١٦ .
- ٢٧٠ ابن حزم ، ص ١١٩ ، ابن بسام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٦١٤-٦١٥ ، ابن بشكوال ، ج ١ ، ص ٣٩١-٣٩٢ ، ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ١٠٦ ، ابن سعيد ، ج ١ ، ص ١٠٢-١٠٤ .
- ٢٧١ ابن بشكوال ، ج ١ ، ص ٥٩ .
- ٢٧٢ المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٦٠- .
- ٢٧٣ ابن حزم ، ص ٤٤-٤٥ ، ابن بشكوال ، ج ١ ، ص ٣٢٢ .
- ٢٧٤ ابن بشكوال ، ج ١ ، ص ٧١٧ .
- ٢٧٥ عياض ، ج ٧ ، ص ٢٠٥ ، ابن بشكوال ، ج ٢ ، ص ٧١٨-٧١٩ ، الضبي ، ص ١١٤ .
- ٢٧٦ ابن الأثير : المصيبة ، ج ٢ ، ص ٢٠٨ .
- ٢٧٧ الصدوي ، ج ١ ، ص ٢٧٢ ، ابن بشكوال ، ج ١ ، ص ٥٤-٥٥ ، الضبي ، ص ١٤٣ .
- ٢٧٨ ابن بشكوال ، ج ٢ ، ص ٥٧٦-٥٧٧ .
- ٢٧٩ انظر ملحق رقم (٢) عمام قرطبة الخارجين منها إلى داخل الأندلس وخارجها .
- ٢٨٠ ابن حزم ، ص ١١٨ ، احمد بن حبرون ، ص ١٤٥ ، عبدالرحمن الخالجي ، ص ١٢٩-١٤٢ .
- ٢٨١ ابن بسام ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٣٠٩-٣١٠ ، ابن الأثير ، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر (ت ٦٥٨هـ) : أطباق العباب - تحقيق صلاح الأثر - دمشق ، مجمع اللغة ، ١٩٦١م ، ص ٢٠٣-٢٠٥ . <http://Arch/febeta.Sakhr.it.com>
- ٢٨٢ ابن بشكوال ، ج ١ ، ص ٢٩٥-٢٩٦ .
- ٢٨٣ عياض ، ج ٧ ، ص ٧ ، ابن بشكوال ، ج ٢ ، ص ٧٤١-٧٤٢ .
- ٢٨٤ عياض ، ج ٧ ، ص ٢٨٦-٢٨٩ ، ابن بشكوال ، ج ٢ ، ص ٧٤٧-٧٤٨ .
- ٢٨٥ حامد الشافعي دياب : كتيب وكتيب في الأندلس ، القاهرة ، دار إباء للطباعة والنشر ، ١٩٩٨م ، ص ١٠١ ، ١١٠ ، وفاء عبدالله المزروع : الحكم المستنصر ، ص ١٢١-١٢٢ .
- ٢٨٦ حامد الشافعي دياب : كتيب وكتيب في الأندلس ، ص ١٢٤ .
- ٢٨٧ ابن الخطيب ، ص ١١٧ ، السيد عبدالعزيز سالم : قرطبة ، ص ١١٤ ، محمد عبدالله عنان ، ص ٦٥١ .
- ٢٨٨ البير مطلق ، ص ٢٥٩ ، محمد عبدالوهاب خلافا : قرطبة ، ص ٢٣٧ ، محمد عبدالوهاب خلافا : القضاء في الأندلس ، ص ٨٥ ، كمال السيد مصطفى ، ١٨٩-١٩٠ ، احمد محمد اسماعيل الجصال ، ص ١٦٠-١٦١ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، محمد بن عبود : جوانب من الواقع الأندلسي ، ص ٢٧ .

**النظم القضائية والتشريعية في إنجلترا**  
**عهد الملك هنري الثاني ١١٥٤ - ١١٨٩ م**  
 د. أسامة إبراهيم حسيب (\*)

**مقدمة:**

لفظ القانون Law ليس يعرّفه ويجمعه قوانين ومفردة قسّانون، والقوانين هي الأصول<sup>(١)</sup>، وكتب في عهد الملك هنري الثاني Henry II الذي تأثر بدوره بالعديد من القوانين السابقة منها القانون الروماني وقوانين جستنيان والآنجلوسكسون والنورمان. ويُعد القانون الروماني أساساً للعديد من النظم القانونية السائدة في العالم اليوم والمعروفة بالنظم القانونية اللاتينية، وترجع القيمة العلمية لدراسة القانون الروماني إلى ما يحتويه من مفاهيم ونظريات قانونية تبلورت عبر مئات السنين وما زالت راسخة في عمق القانون حتى اليوم<sup>(٢)</sup>.

ولعب العرف Mores Majorum دوراً مهماً في نشأة القانون الروماني وتطوره، سواء كان ذلك بشكل صريح أم مستتر، والعرف بمثابة قاعدة للقانون الذي يستند إلى عادات الناس، مادام التشريع يستمد قوته من قبول الشعب لحكمه، فإن ما يرتضيه الشعب نون أن يكون مدوناً ينبغي أن يكون ملزماً للجميع<sup>(٣)</sup>.

ولقد تصدى رجال الدين لمهمة تفسير القانون والإفتاء وظل القانون يقوم على مجموعة من الأعراف والتقاليد الدينية التي ينفرد رجال الدين العلم بها، وبذلك يعد القانون تقنياً للأعراف المتبعة، حتى وإن كان لا يتناول بالتنظيم كافة تفاصيل النظم والمعاملات القانونية، والقتصر تفسير القانون في البداية على رجال الدين، ثم ظهرت طائفة من المدنيين شاركوا رجال الدين في تفسير القانون<sup>(٤)</sup>.

ومن القوانين التي استفاد منها الملك هنري الثاني قوانين الإمبراطور جستنيان التي أسفرت جهوده عن تقسيم القانون الروماني إلى أربع مجموعات، المجموعة الأولى وهي مجموعة الدساتير أو الشرائع Institutions ٥٢٨-٥٢٤ م، وقسمه إلى اثني عشر كتاباً وينقسم كل كتاب إلى عدد من الأجزاء، ويضم كل جزء منها عدداً من الدساتير الإمبراطورية ويحمل كل دستور اسم إمبراطور بداية من تراجان (١١٧-١٣٨ م) حتى جستنيان (٥٢٧-٥٦٥ م)، ثم المجموعة الثانية وهي الموسوعة القانونية

(\*) مدرس بكلية الآداب - جامعة سوهاج.

الديجستنا Digest ٥٢٠ - ٥٢٢ م ، ثم المجموعة الثالثة وهي النظم وتتكون من أربعة كتب ينقسم كل منها إلى عدة أجزاء يبلغ عددها تسعة وتسعين جزءاً ، وكانت محل إعجاب القانونيين ، وتمثل المجموعة الرابعة في التجديدات Novella Leges وبلغ عدد الدساتير مائة وثمانيه وستين دستوراً ، أصدر منها جستنيان مائة وأربعة وخمسين والباقى في عهود لاحقة<sup>(١)</sup>.

وكانت مجموعة القوانين المدنية Corpus Juris Civilis والتي تعد أكبر مجموعة قانونية جمعت وقد جعلت قوانين جستنيان المطلقة المطلقة في إصدار القوانين وتنفيذها رهناً بمشيئة الإمبراطور أو القانون الملكي Lex Regia<sup>(٢)</sup>.

وكانت إنجلترا هي البلد الأوروبي الوحيد التي لم يخضع نظامها القانوني لتأثير قوانين جستنيان خضوعاً كاملاً ، فهنما كان القانون قد بدأ يتسرب داخل النظم القانونية في ألمانيا وفرنسا في القرن الثاني عشر ، كان القانون الإنجليزي يسير في اتجاه آخر ، ويطور النظم والمؤسسات والمبادئ التي كانت تختلف اختلافاً بيناً عن الأسس النظرية والإجراءات التي يقوم عليها القانون الروماني ، ولا يمكن تجنب الموضوع الذي يطرح نفسه في أن إنجلترا قد طورت نظامها القانوني الخاص بمنأى عن النظام القانوني الروماني<sup>(٣)</sup>.

وليس حقيقياً أن مجموعة قوانين جستنيان لم تكن معروفة في إنجلترا فقد كان هناك واحد من أبرز العلماء البولونيين وهو إيرنيريوس Irnerius يقوم بالتدريس في إنجلترا في أربعينات القرن الثاني عشر ، كما أن كثيراً ممن عملوا في الجهاز الإداري والملكي في الشطر الأخير من عهد هنري الأول (١١٠٠-١١٣٥ م) تلقوا تعليمهم في فرنسا وإيطاليا ، كما كانت غالبية القضاة في عهد هنري الأول والثاني من رجال الكنيسة الذين تلقوا الدراسات التمهيدية المعتمدة في الإجراءات القانونية الخاصة بالقانون الروماني والقانون الكنسي ومبادئ كل منهما ، ومن المؤكد أنهم كانوا على درجة كافية من الدراية بالقانون الروماني بحيث يدخلونه إلى إنجلترا ، والقانون الجرمانى الذي يرجع أصلاً إلى الفترة الانجلوسكسونية كان من النقاء والقوة بحيث لم يكن أمام القانون الروماني الدارج في إنجلترا إلا التأثير به ، بحيث صار النظام القانوني الجرمانى هو الذي يحكم الممارسات والمذاهب القانونية الإنجليزية خلال فترة ما قبل الغزو النورمانى ، ولم يكن الحكام الانجلو-نورمان بعد الغزو ليهتموا بالحفاظ على القانون الروماني. وقد فرض هنري الثاني القانون المدني الروماني على إنجلترا لأنه يتلاءم مع ميوله العامة مثلما كان مناسباً لألمانيا وفرنسا. وينبغي في النهاية أن نشير إلى وجود قانون جرمانى بسيط في الإمبراطورية لم يمنع الحكام الألمان من تطبيق القانون المدني الروماني في بلادهم ، أما سلطنة هنري الثاني في إنجلترا فكانت أعظم كثيراً<sup>(٤)</sup>.

واستعان الملك هنري الثاني بالقوانين التي منها الملوك الانجلوسكسونيون مثل قوانين الملك ألثبرت Athelbert (٥٥٠-٦١٦ م) ملك كنت Kent ، والملك أيسن Ine (٦٨٨-٧٢٦ م) ملك وسكس Wessex ، والملك أوفسا Offa (٧٥٨-٧٩٦ م) ، والملك

الفرد Alfred (٨٧١-٨٩٩م)، والملك إدوارد Edward (٨٩٩-٩٢٤م)، والملك  
إيثلمستان Ethelstane (٩٢٥-٩٣٩م)، والملك إدموند Edmund (٩٢٩-٩٤٦م)،  
والملك إيدجار Edgar (٩٥٩-٩٧٥م)، والملك إيثرد Ethelred (٩٧٥-١٠١٦م)،  
والملك كانتو Canute (١٠١٦-١٠٣٥م)، وكذلك قوانين سجلات الأراضي Land  
Book، كل هذه القوانين استفاد منها الملك هنري الثاني في تشريعاته القانونية  
بالإضافة إلى القوانين النورمانية<sup>(١١٠)</sup>.

والتنظيم القانوني والقضائي عند الإنجوسكسون ينقسم إلى قسمين: قوانين  
القضاء المحلي، وقوانين القضاء الملكي، فالقسم الأول: لم تكن توجد محاكم خاصة في  
البلديات الصغيرة Township أو القرى نظراً لصغر حجمها، ولكن توجد محكمة تسمى  
المائة Hundred Court وتعد كل شهر، كما توجد محكمة المقاطعة Shire  
Court وتعد مرة أو مرتين في العام<sup>(١١١)</sup>.

ولم تضم هذه المحاكم قضاء متخصصين يطبقون القانون عن دراسة وعلم،  
ولكنها كانت أشبه باجتماع يعقد للنظر في المنازعات بين الأفراد، حيث كانت اختصاص  
المحاكم تشريعياً وتنفيذياً وقضائياً ويقتصر الحضور على الأحرار فقط<sup>(١١٢)</sup>.

والقسم الثاني، القانون الملكي أو مجلس شورى الملك وWitan<sup>(١١٣)</sup>، وكان  
يتكون من كبار رجال المملكة من النبلاء والأساقفة وكبار مسلك الأرض، وكانت  
اختصاصاته محدودة للغاية، فبإخذ رأيه في المراسيم والقوانين التي يصدرونها، كما  
يفصل في النزاع بين أفرادها فقط، وليس له حق الفصل في المنازعات التي تنشب بين  
العامّة، أو الحق في التدخل في أحكام المقاطعات ومحاكم المائة<sup>(١١٤)</sup>.

ولقد وجه الملوك الإنجوسكسون اهتماماً كبيراً لضمان سير العدالة وتطبيقها  
على جموع المواطنين دون تمييز، فراجع الملك الفرد الأحكام التي صدرت من القضاة،  
وإن جاءت بها أخطاء تعرض القضاة للتوبيخ، ويجبرونهم على الاستقالة أو يقبلوا على  
دراسة المزيد من القانون بإتقان، وعاش المواطنون في جو من العدالة والطمأنينة  
فأمنت البلاد، لعلم اللصوص والقتلة والخارجين عن القانون أنهم لن يفلتوا من  
العدالة<sup>(١١٥)</sup>.

أما القانون النورماني فكانت محكمة المقاطعة تُعد تحت رئاسة الشريف<sup>(١١٦)</sup>،  
مرتين كل عام، أما محكمة المائة فتعقد برئاسة شخص يتم تعيينه من قبل الشريف  
لإدارة إقليم المائة يسمى المعاون Bailiff واختصاصات المحكمتين إدارية وتنفيذية  
وقضائية. وتصدر قراراتها بالأغلبية، وكان الاختصاص التسوعي لكل من محكمة  
المقاطعة ومحكمة المائة في كافة المسائل المدنية والجنائية، وللمدعي حرية رفع دعواه  
أمام أي من المحكمتين<sup>(١١٧)</sup>.

وقد تبلور النظام القانوني في إنجلترا وفي عهد الملك هنري الثاني، فاستحق  
بجدارة أن يطلق عليه لقب مؤسس القانون الإنجليزي، فبدأت الدولة في عهده تيسر  
سيادتها ممثلة في سيادة القانون على كافة أرجاء المملكة، وانحصار سلطان القانون

الديني والأعراف المحلية التي كانت سائدة، ولم يكن تطور القانون يتم فجأة بل كان يحدث تدريجياً إلى أن تطور النظام القانوني الإنجليزي<sup>(١٧)</sup>.

يذكر بعض المؤرخين أن هنري الثاني يعد من أعظم شخصيات العصور الوسطى على الإطلاق وحاكم ذو عقلية قانونية إنشائية، بلغ بقوة عقله ومضاء عزمته مبلغ العاقبة، وأعطى للقرن الثاني عشر أعظم نموذج للملكية القوية المستبدة، وكان هو الدولة حقاً، وأقاد إنجلترا في نقوية قواعد الحكم القانونية<sup>(١٨)</sup>.

وكان الملك هنري الثاني هو رأس الحكومة المركزية في البلاد ويعاونه مجلس البلاط Curia Regis ويتكون من رجال الحاشية المقربين والقواد العسكريين وكبار الإقطاعيين وكبار رجال الدين فضلاً عن كبار الموظفين، ويجتمع ثلاث مرات في العام<sup>(١٩)</sup>، أما مجلس البلاط لا يجتمع إلا مرات قليلة في العام. وإدارة شئون البلاد اليومية تم تقسيم مجلس البلاط إلى مجلسين؛ الأول يسمى المجلس الكبير Magnum Concilium، والثاني يسمى المجلس الصغير Regis Concilium ومع مرور الزمن أصبح المجلس الكبير نواة البرلمان الإنجليزي والمجلس الصغير نواة المحاكم القضائية<sup>(٢٠)</sup>.

ويؤكد هلدروث Holdsworth<sup>(٢١)</sup>، أن مجلس البلاط هو الهيئة القضائية العليا في البلاد، وقد كان له في هذا العصر نوعان من الاختصاصات فهو بوصفه محكمة إقطاعية تضم كبار الإقطاعيين، كان ينظر بالنظر في المنازعات التي تنشأ بين الإقطاعيين والمتطفة بالأراضي والمجلس بوصفه مجلساً للعرش يجمع أعيان المملكة، فكان ينظر في القضايا العادية، واختصاصه الأخير ذو شقين، شق ابتدائي، ينظر بوصفه محكمة من الدرجة الأولى في كافة القضايا الجنائية التي تمنع أمن المملكة.

ويؤكد جلافيلد Glanvill<sup>(٢٢)</sup>، أن محاكم أمن الملك Kings Peace كان ينظر إليها بوصفها محكمة استئنافية في الطعون التي ترفع إليه من أحكام المحاكم المحلية أو الإقطاعية، وكان الطعن يقدم من المتضرر من الحكم، ثم يصدر المجلس أوامر إلى المحكمة الدنيا بإرسال ملف الدعوة مصحوباً بمذكرة الدفاع، وما هو مطلوب منها بصحة أربعة من أعضائها يتولون الدفاع عن حكمها أمام مجلس البلاط، ولمجلس البلاط أن يؤيد حكم المحكمة أو يعيد القضية إليها بطلب إعادة النظر أو التصدي للنظر فيها، وفي الحالتين الأخيرتين يحكم على المحكمة بغرامة يدفعها أعضاؤها.

ويمكن الطعن في الحكم بعد صدوره عندما يتظلم أحد الخصوم إلى مجلس البلاط، ويكون لديه أسباب تدفع إلى التمسك في حيدة المحكمة ونزاهتها. فيصدر الملك أوامره بإحالة الدعوى إلى مجلس البلاط، أو يحذر المحكمة التي تنظر القضية بتسويحي الحذر والحيدة، وللملك الحق في أن يصدر أمر استحضار Writ of Certiorari تسحب عن طريق الدعوة إلى محكمة مجلس البلاط، وكان للمحاكم اختصاصات في القضايا، وللملك الحق أن يصدر أوامره للمحكمة بالامتناع عن الاستمرار في نظر الدعوى Writ of Prohibition إن كانت المحكمة غير مختصة، أو يصدر أمراً بنظر الدعوى Writ of

من الواضح أن امتيازات الملك في القانون الإنجليزي في تلك الحقبة كانت واسعة حتى الأوامر الملكية التي يصدرها لم يكن منحها بمثابة حق للخصوم، وغالبا كانت هذه الأوامر تشتري نظير مبلغ من المال يدفعه طالب الأمر إلى الملك.

وساعد الملك هنري الثاني في أحكام قبضته القانونية ثلاثة موظفين، الأول هو نائب الملك ويحل محله عند غيابيه، وينوب عنه في رئاسة مجلس البلاط، ويقوض عنه في إصدار القوانين<sup>(٢٨)</sup>. ونائب الملك في النظام القانوني وهو المسئول عن تنفيذ المهام الصعبة مثل تحصيل الضرائب وقبادة الجيش، والمسهر على الأمن Watch and ward وتعقب المجرمين الفارين من وجه العدالة Hue and Cry. فضلا عن أنه يرأس الإقليم Shire Moot الذي يجتمع فيه الملاك الأحرار على فترات معينة لتصريف الشؤون القانونية. وكان القضاة المتقلون Justices in Eyre، يقومون من آن لآخر بزيارة تلك الأقاليم - كما يفعل المبعوثون أمام الفرنجة - لسماع الشكاوى ضد الملك وللتنفيذ على الإدارة ومحاكمة المجرمين، ولتنظر القضايا المدنية وخاصة القضايا المهمة التي رؤى حفظها لإصدار حكمهم فيها، وفولاء القضاة المتقلون يختارون من بين هيئة محكمة الملك وهي محكمة مقسمة إلى ثلاث محاكم للقانون العام ومقرها وستمنستر<sup>(٢٩)</sup>.

وثاني هؤلاء الموظفين المستشار Chancellor وقد لعب دوراً مهماً للغاية في تطور النظام القانوني الإنجليزي، ونظرا للطابع الديني المتعاكس، كان المستشار هو كبير قساوسة القصر، ثم أصبح فيما بعد مدنياً ذا اختصاصات مدنية، وكانت أسرار الملك ورئيس ديوانه، ويُعد المرجع القانوني الأول في البلاط، وكثيراً ما كان يوفده المجلس الملكي إلى بعض أرجاء المملكة للفصل في القضايا المهمة<sup>(٣٠)</sup>.

وثالث هؤلاء الموظفين هم الحكام Justices وكان لقب الحاكم يُطلق على كل عضو من أعضاء مجلس البلاط، ثم أصبح يُطلق على الموظفين الذين يرسلهم الملك إلى أرجاء المملكة للفتيش على إدارة البلاد والحكم في الدعاوى<sup>(٣١)</sup>.

قانون كلاريندون Assise Clarendon ١١٦٤م:

لم يصادف الملك هنري الثاني توفيقاً في حل المشاكل المترتبة على ازدياد سلطة رجال الدين، الذين أرادوا الاستقلال بالكنيسة عن السلطة العثمانية ومضاعفة نفوذها وممتلكاتها في ضوء الحرب الأهلية التي أعقبت وفاة هنري الأول، وساعدهم في ذلك ازدهار القانون الكنسي في القرن الثاني عشر، مما زاد من سلطان المحاكم الدينية، حتى أصر رجال الدين على ألا يحاكموا إلا أمام المحاكم الكنسية وحدها<sup>(٣٢)</sup>.

والحقيقة أن الكنيسة ورجالها تمتعوا بنفوذ عظيم منذ حكم الإنجوسكسون، فكان لهم الحق في تتويج الملك عن طريق رئيس أساقفة كاتدربري، ولهم كذلك صلاحيات قانونية عديدة، فهم الذين يشارفون على المحاكمات وتنظيم القسم والشهادة والعديد من



الامتيازات<sup>(٣١)</sup>، وكانت الكنيسة حسب القانون تتقاضى جزءاً من أموال الغرامات التي تقع على المواطنين، وتحصل غرامات عديدة على مرتكبي الجرائم كل حسب جرمه، وكان القانون الكنسي يخص رجال الدين من التعدي عليهم من قبل أي مواطن<sup>(٣٢)</sup>.

لذلك قرر الملك هنري الثاني اختيار صديقه الحميم ومستشاره توماس بيكت Tomas Becket لمنصب رئيس أساقفة كاتدريري، الذي درس القانون المدني في بولونيا، أملاً أن يؤدي اختياره إلى إحكام سيطرته على رجال الدين، على أن بيكت تمسك بقوة بحقوق الكنيسة وسموها، وأصبح المدافع الأول عن حقوق الكنيسة وتمسك بعدم محاكمة رجال الدين، ومن هنا كان الصدام مع الملك<sup>(٣٣)</sup>.

ومما يستوجب الالتفات إليه في سياسة هنري الثاني أنها اصطدمت اصطداماً عنيفاً مع الكنيسة. لأنها كانت الهيئة الوحيدة دون غيرها من الهيئات العامة التي اتفردت بالوقوف في وجهه وناقضة الحساب في أعماله، حين عمد إلى الحد مما تمتعت به من حصانة قانونية Benefit of clergy كي يجعلها خاضعة لسلطة المحاكم الملكية، وقد لاحظ الملك أن تطبيق القانون الكنسي على المتهمين من رجال الدين أخف وطأة من القانون المدني، مما جعل الناس تفضل في عرض قضاياهم المدنية أمام المحاكم الكنسية، حيث يمكنهم استئناف أحكامهم أمام المحاكم البابوية في روما، وأصبح من حق البابا عن طريق الاستئناف أن يتدخل في سلطة القضاء الإنجليزي، وإن كان هناك الآلاف من رجال الدين وأتباعهم في إنجلترا ارتكب الواحد منهم العديد من الجرائم ولم يندل أحكاماً رابعة من المحاكم<sup>(٣٤)</sup>.

وكان الملك هنري الثاني يرى بسط سلطانه على جميع الطبقات بما فيهم رجال الدين، خاصة عندما وجد أن المحاكم الكنسية تتواطأ مع رجال الدين ولا تعاقبهم على ما يرتكبونه من جرائم<sup>(٣٥)</sup>، وانتهز الملك الوضع السياسي المتردي للبابوية في ضوء النزاع على العرش البابوي بعد وفاة البابا هارديان الرابع سنة ١١٥٩م بين البابا اسكندر الثالث (١١٥٩-١١٨١م) في ليون الفرنسية والبابا المضاد فيكتور الرابع (١١٥٩-١١٦٤م). وقرر حسم جميع القضايا القانونية المتعلقة بالإصلاحات الكنسية بدون الرجوع إلى روما، ومنها عرقلة الانتماسات البابوية، وإعادة حقوق التاج على الأسقفيات الشاغرة، وتأكيد حقه في محاكمة رجال الدين المذنبين، وفرض ضريبة على الكنيسة وأصدر تحريماً عاماً على رئيس أساقفة كاتدريري ثيوبالد ورجال الدين بالاعتراف بأي من البابوين المتنازعين<sup>(٣٦)</sup>.

وكانت أولى مراحل النزاع بين الملك ورئيس الأساقفة توماس بيكت أوائل أكتوبر ١١٦٢م في المجمع الذي عقد في وستمنستر، وطلب الملك فيه بوضع قانون لمحاكمة رجال الدين المذنبين في حضور القاضي الملكي، وإذا تمت إدانتهم بجردوا من مناصبهم الدينية ويسلموا للمحكمة المدنية للعقاب مرة أخرى على جرائمهم. ورفض بيكت هذا القانون الذي من شأنه تقييد سلطة الكنيسة في الحل والعقد، ورفض إزال عقوبتين عن إهانة واحدة طبقاً للقانون<sup>(٣٧)</sup>.

وتعارضت رغبة بيكت المدافع عن الحقوق الكنسية وامتيازاتها على رأسها عدم محاكمة رجال الدين أمام المحاكم المدنية، ورغبة الملك هنري الثاني الذي يطمح في بسط سلطانه على كافة الطبقات، وانقسم رجال الدين بين مؤيد ومعارض رغم إعلان احترامهم للحقوق والتقاليد الملكية الموروثة، ومنهم هيلاري أسقف شستر Hilary of Chester الذي وعد باحترام التقاليد، وارتولف ليسيوس Arnulf of Lisieux، وريتشارد أسقف رومستر Worcester وأسقف وينشستر Winchester الذين صمموا على تأييد البابا<sup>(٣٧)</sup>، في المقابل نجد أساقفة سالسبوري ونوريتش Norwich ارتفضوا الوقوف مع بيكت ووقفوا في صف الملك خوفاً من بطشه، كما أنهم حاولوا إقناع بيكت بتسوية الأمر مع الملك<sup>(٣٨)</sup>.

وجاء رد الفعل البابوي على غير المتوقع، فقد طلب البابا من بيكت الاعتذار وعدم الدخول في نزاع معلن ومباشر مع الملك، ويرجع بعض المؤرخين وعلى ذلك لعدة أسباب منها : أن البابا في منغاة في فرنسا ولا حول له ولا قوة، وتأيد الإمبراطور الألماني فردريك الأول بقوته للبابا المضاد، وخوفاً من انضمام حليف قوي مثل هنري الثاني إلى مصفر فردريك الأول، وفي هذا الصدد لم نتوقع من البابا أكثر من ذلك، وأصاب أسقف بواتيه كيد الحقيقة ١١٦٢م بقوله : ' لا نتوقع المساعدة من البابا في أي شيء يمكن أن يؤدي إلى الإساءة إلى الملك.'<sup>(٣٩)</sup>

وفي غضون ذلك، أرسل الملك سيجوثيه إلى إنجلترا وهما : فيليب رئيس دير إيمون L. Aumone وروبرت ميلون R. Melon حاملين تعليمات البابا ورسائله لحث توماس على طاعة التقاليد الملكية القديمة الموروثة، وردا على رسائل البابا أعلن الملك احترامه لأية توصية يتم التوصل إليها<sup>(٤٠)</sup>.

واستدعى الملك هنري الثاني أشراف إنجلترا وفرنسائهم وأساقفتهم في اجتماع عقد في مدينة كلارندون Clarendon - الواقعة في الجنوب الشرقي لسالسبوري - في الثالث عشر من يناير ١١٦٤م، لإقرار القانون الخاص بالتقاليد الملكية والذي تمت صياغته باسم قانون كلارندون Assize of Clarendon<sup>(٤١)</sup>.

ولجبر الملك هنري الثاني الحاضرين على التوقيع على القانون الذي يقضي على المزايا التي تمتع بها رجال الدين لغترات طويلة، ووقع العديد من الأسماء البارزة في المملكة بالموافقة على القانون<sup>(٤٢)</sup>.

وبعد هذا القانون ذو أهمية فائقة في تاريخ القانون الإنجليزي ، نظرا لما تضمنه من تغيرات في إدارة العدالة سواء في القانون الكنسي أو القانون العثماني ، التي مهدت الطريق أمام الحكم النهائي في إنجلترا.

**وأهم بنود هذا القانون :**

(١) إذا اندلع نزاع بين العثمانيين أو بين رجال الدين والعثمانيين أو حتى بين رجال الدين أنفسهم بخصوص أملاك أو تركات فإنه ينظر في ذلك من خلال محكمة الملك.

٢) تعد الكنائس إقطاعاً تابعاً للسيد الملك، ولا يمكن أن تُمنح لأحد دون موافقته أو التنازل منه .

٣) في حالة ثبوت الاتهام على رجال الدين يتم استدعاؤهم بواسطة محكمة الملك، وإرسال قاضي ملكي إلى محكمة الكنيسة المقدسة للإشتراف على المحاكم دون تدخل وإذا ثبتت إدانة رجل الدين أو اعترافه بالإثم لا يحق للكنيسة حمايته .

٤) لا يحق للأساقفة ورؤسائهم وكبار رجال الدين مغادرة المملكة بدون إذن من الملك نفسه، وفي حالة موافقة الملك على مغادرتهم، يجب أن يقدموا ضماناً للملك بعدم إحقاق الأذى بالملك والمملكة.

٥) لا يحق للأشخاص المحرومين كنسياً أن يُعطوا عهداً أو يؤدوا قداساً أو قسماً، ولكن عليهم فقط التعهد بالمشول أمام محكمة الكنيسة لئتم تبرئتهم.

٦) المتهمون العلمانيون لا يجب اتهامهم إلا من خلال القانون وشهود في حضور الأسقف، وإذا أُلقيت التهمة على أحدهم حينئذ ليس من حق أحد آخر أن يجرؤ على اتهامهم، وعلى الشريف حاكم المقاطعة بناءً على التماس يقدم للأسقف أن يدعو اثني عشر من الرجال والقائمين من المناطق المجاورة أو المدينة التابع لها هؤلاء للتمس في حضور الأسقف (المحتالين) الذين يستطيعون التوصل إلى الحقيقة.

٧) لا يحق لأي شخص حرمان أي فرد من إتياع الملك، وعدم وضع أحد منهم تحت طائلة عقوبة الخريان الكنسية إلا إذا عرض ذلك على الملك سواء كان المحروم داخل المملكة أم خارجها، أما فيما يتعلق بحقوقي المحكمة الكنسية فيجب إرساله إلى هناك لتسوية الأمور. <http://Archivbeta.Sak>

٨) وينظر في الإلتزامات إذا استدعت الضرورة، حيث إن الإلتزامات يجب أن تصدر من رئيس الشمامسة للأسقف، ومن الأسقف إلى رئيس الأساقفة وتُنظر القضية أمام محكمة الملك، وبناءً على أمره يصمم النزاع في محكمة رئيس الأساقفة، ولا يجب اتخاذ إجراء آخر بدون إذن الملك.

٩) عند حدوث نزاع بين رجل دين وآخر علماني بخصوص أحد الأبنية، ما يرى رجل الدين أنه يتعلق بالممتلكات الكنسية، وفي المقابل يرى العلماني أنه إقطاع دينوي، حينئذ يتم تحكيم اثني عشر رجلاً من الدول، ويصمم الأمر عن طريق القاضي الرئيسي الذي يصدر حكمه في القضية الرئيسية الخاصة بالبناء المتنازع على ملكيته، وإذا رأى القاضي أن البناء خاص بممتلكات الكنيسة في هذه الحالة تستأنف القضية أمام محكمة الملك. وفي حالة عدم التحقق من ملكية الإقطاع أمام المحاكم العلمانية أو الكنسية فإن الذي يمتلك البناء في البداية لا يفقده حتى يتم إثبات ذلك من خلال الاستئناف (يبقى الحال على ما هو عليه).

١٠) إذا تم استدعاء أي فرد يعمل في المدينة أو القلعة أو الضيعة الإقطاعية التابعة للسيد الملك، من الكنيسة ممثلة في رئيس الشمامسة أو الأسقف عن إهانة

اقتربها أو غير ذلك عليه الاستجابة فوراً، وإذا رفض يتم وضعه تحت طائلة عقوبة اللعنة وليس الحرمان الكنسي، حتى يقوم التابع الرئيسي للملك في التنفيذ، ويضع نفسه تحت رحمة عقوبة الملك الصارمة، ويكون من حق القاضي الملكي والأسقف زيارة المتهم.

(١١) يطبق القانون الملكي علي رؤساء الأساقفة والأساقفة، وكل الأشخاص في المملكة الذين يحوزون أملاكاً بوصفهم من مستأجري أراضي الملك Tenants in cheif مثلهم مثل سائر البارونات عليهم الحضور لسماع أحكام الملك، والالتزام بالحكم سواء كان في صالحهم أم ضدهم.

(١٢) للملك الحق في اختيار رئيس الأساقفة أو الأسقف أو رئيس الدير عندما يصبح هذا المنصب شاغراً (التقليد العثماني في المناصب الكنسية) ويحصل الملك علي جميع الإيرادات المرتبطة بهذه المناصب الكنسية الشاغرة، يقوم الملك باستدعاء أكثر رجال الدين نفوذاً في الكنيسة، ويتم الانتخاب في كنيسة الملك وبموافقة رجال الدين في المملكة، يقدم رجال الدين فروض الولاء والطاعة لسيدهم الملك بوصفه سيدهم الإقطاعي الأعلى، ويتعهد رجال الدين بذلك قبل رسامتهم.

(١٣) إذا أقدم أحد النبلاء في المملكة علي سلب اختصاصات رئيس الأساقفة أو أحد الأساقفة أو حتى رئيس الشماسة، يقوم الملك برد الحق لأصحابه وإرغامه علي تنفيذ العدالة، وإذا ما تجرأ أحدهم علي انتهاك حق من حقوق الملك الأصلية، يحق لرؤساء الأساقفة والأساقفة ورؤساء الشماسة إرغامه علي تقديم التعويض للملك حسب القانون.

(١٤) الذين توقع عليهم عقوبة فقدان إقطاع الملك، لا يحتفظ هؤلاء بملكية الكنيسة أو المقبرة، لأن ممتلكاتهم صودرت وأصبحت من حق الملك، سواء كانوا داخل الكنائس أم خارجها.

(١٥) تنظر الالتماسات الخاصة بالديون في دائرة اختصاص الملك وليس الكنيسة.

(١٦) من المعروف أن رسامة الأشخاص من اختصاص الكنيسة ورجال الدين، ولكن الملك نهى عن ذلك، فلا يجب أن تتم رسامة أبناء الريفين بدون موافقة سيد المنطقة التي ينتمون إليها لمعرفة بمواليد المنطقة وهو كذلك فصل إقطاعي للملك<sup>(٤٢)</sup>.

من الواضح أن هذه البنود القانونية قضت علي كثير من الحصانات التي تمتع بها رجال الدين، وأدت إلى تفاقم النزاع بين الملك ورئيس أساقفته بيكت، الذي رفض التوقيع علي هذه القوانين المهينة، ورفض ختم الوثائق بخاتم أسقفية الكبرى<sup>(٤٣)</sup>. وأرسل الملك هذا القانون للبابا الكسندر الثالث الذي رفض الموافقة عليه رغم صعوبة موقفه في فرنسا، ومن الواضح أن إصرار بيكت وعناده علي عدم التوقيع علي القانون يرجع إلى اتفاق مسبق بين البابا وبيكت علي عدم مراعاة أي وعد علماني من

شأنه الحط من حرية الكنيسة أو حقوق الأسقفية الكبرى.

وفي غضون ذلك، أجبر الملك هنري الثاني الحاضرين علي التوقيع علي قانون كلارندون، غير عابئ برفض رئيس الأساقفة، وقدمه إلى المحاكمة ليحاكم أمام المحكمة الملكية وليس أمام المحكمة الكنسية، وجاء بيكت وعارض في هدوء أساقفته الذين أعلنوا مع الملك انه مذنب لخروجه علي قوانين سيده الإقطاعي الأعلى ملك البلاد، وأعلن بيكت من جانبه انه سيستأنف القضية أمام محكمة البابا ثم خرج سالماً من القاعة بثيابه الأسقفية التي لم يجرؤ أحد علي لمسها<sup>(٤٤)</sup>.

وفي محاولة من جانب الملك لإذلال بيكت وتشويه سمعته طالبه بدفع ثلاثمائة جنية إسترليني إيراد قلاع آي وبركهامستيد Eye and Berkhamsted أثناء عمله مستشاراً للملك، وخمسمائة جنية إسترليني اقترضها من اليهود بضمان الملك، وإيرادات جميع الإقطاعيات التي بقيت شاغرة أثناء عمله مستشاراً للملك، مما دفع بيكت للهرب سرا إلى فرنسا<sup>(٤٥)</sup>.

واستقبله البابا بترحاب وأعلن علي الفور إدانته ثانية لقانون كلارندون، وأعاد ترسيم بيكت رئيس أساقفة كانتربري، وألغى البابا العقوبات التي فرضها الملك علي رئيس الأساقفة في نورثهامبتون، وأعلن البابا إذا ظل الملك علي عناده حتى ١١٦٦م سوف يكون لبيكت مطلق الحرية في توقع العقوبات الكنسية عليه وعلي أتباعه الكنسيين<sup>(٤٦)</sup>.

ونتيجة لعناد الملك قام البابا بتعيين بيكت في ابريل ١١٦٦م مبعوثاً بابوياً في مقاطعة كانتربري، وأصدر له تفويضاً بمعاقبة الذين اغتصبوا ممتلكات أسقفية كانتربري، وإعلان عقوبة الحرمان الكنسي ضد ما يقرب من ثلاثين من خصومه في إنجلترا وعلي رأسهم رئيس أساقفة لندن وسالسبوري، ولذلك مال رجال الدين في إنجلترا إلى التزامهم بطاعة مبعوث البابا بيكت، وأصبح وضع الملك صعباً بسبب فقدان ولاء رجال الدين، وعاد الملك ليؤكد من جديد للبابا أن قانون كلارندون لا يتضمن أي شيء من شأنه أن يؤدي للاستياء الحقيقي للأسقفية المقدسة<sup>(٤٧)</sup>.

وباعت المفاوضات بين الملك من ناحية والبابا ورئيس الأساقفة والأساقفة من ناحية أخرى بالفشل، وخوفاً من وقوع المملكة تحت عقوبة اللعنة اتخذ الملك شروطاً صارمة تضاف إلى قانون كلارندون وهي :

١. يعاقب بالخيانة العظمى للملك والمملكة كل من يحاول إحضار عقوبة اللعنة والحرمان الكنسي للمملكة سواء من البابا أم من رئيس الأساقفة.
٢. لو وافق أي شخص من أتباع الكنيسة أو حتى العثمانيين علي مثل هذه العقوبة، يتم نفيه هو وأقاربه من المملكة ويجردوا من مناصبهم وممتلكاتهم.
٣. من يثبت تعاطفه مع البابا أو رئيس الأساقفة بكتابة التماس أو غير ذلك يعاقب كخائن للملك والمملكة، وعلي رجال الدين عدم مغادرة المملكة بدون إذن من الملك.

٤. من يثبت ترده علي البابا أو رئيس الأساقفة يُعرض ممتلكاته للضياع. وأقسم الجميع علي مراعاة ذلك، وتم جمع بنس القديس بطرس للخزانة الملكية<sup>(٤٨)</sup>. وفي الرابع عشر من يونيه ١١٧٠م أقدم الملك علي تتويج ابنه هنري ملكاً نكايه في رئيس الأساقفة، وطلب الملك تتويجه في كنيسة ويستمنستر علي يد روجر رئيس أساقفة يورك، وعلم البابا بالتتويج الوشيك فأرسل رسالة إلي روجر لمنع التتويج، إلا إذا قام الملك هنري الثاني بإلغاء قانون كلارندون<sup>(٤٩)</sup>. وقام البابا في التاسع من أكتوبر ١١٧٠م بإرسال عدد من رجال الدين لحثه علي تنفيذ وعده بإلغاء قانون كلارندون، وفوض البابا بيكت بأخذ ما يتراءى له في حالة عدم موافقة الملك<sup>(٥٠)</sup>. غير أنه تم اغتيال توماس بيكت في التاسع والعشرين من ديسمبر سنة ١١٧٠م علي مذبح كاتدرائية كانتربري، وبعدها تم إصدار مرسوم من البابا بموافقة الملك يقضي ببطلان قسم الأساقفة في اجتماع كلارندون وأن التوقيع علي هذا القانون يعد باطلا ولاغياً<sup>(٥١)</sup>.

من الواضح مع نهاية عهد الملك هنري الثاني بدأ انحسار الأمور القانونية الدينية، فبدأ بفصل الشؤون الدينية للكنيسة عن الشؤون الدنيوية للدولة، وهذا واضح من خلال عرض قانون كلارندون.

والدليل علي انحسار القانون الديني في عهد هنري الثاني وهو اختصاص المحاكم الكنسية في عهده بالدعاوي الدينية دون غيرها من الزندقة والحنث باليمين، ودعاوي تأديب رجال الدين، ودعاوي الأحوال الشخصية مثل الزواج والطلاق في الكنيسة والمواريث وغير ذلك من الأمور التي ترتبط بالدين، ولذلك أصبح نظر تلك الدعاوي يدخل في اختصاص محكمة الأسقف بدلاً من محاكم المئات كما كان متبعاً من قبل<sup>(٥٢)</sup>. ومع اتساع اختصاص المحاكم الملكية التي تنظر في القضايا المدنية وأحياناً الكنسية، قابل ذلك عدم إقبال واضح من المواطنين علي السلطة القضائية في الكنيسة، وفضلوا التقاضي أمام محاكم الملك، الذي قام بتشكيل هيئة قضائية استئنافية لكل مقاطعة تسمى محكمة المفوضين<sup>(٥٣)</sup>. ولعل هذا يدل علي ضعف السلطة القضائية الكنسية في الانتقال التدريجي لاختصاصاتها إلي المحاكم الملكية، وأصبح اختصاصاتها في القضايا الجنائية والمدنية ضئيل.

#### قانون نورثامبتون Assize of Northampton ١١٧٦م:

أن تأثير كل من القانون الروماني والقانون الكنسي علي القانون الإنجليزي قد توقف عن هذه المرحلة وعند ذلك الحد، واتسم هذا القانون الأخير في عهد هنري الثاني بعدة سمات من أهمها العدالة والإنصاف Equity التي سن لها الملك هنري الثاني قانوناً خاصاً.

ولم يكن هذا القانون له بنود مثل سابقه، ولكنه مجموعة من القواعد القانونية والأحكام المنتقاة التي ذهبت بانجلترا إلي مصاف الدول الأوروبية في التطور الدستوري، وبذلك أصبحت أول دولة برلمانية في أوروبا، ومن هذه الأحكام والقواعد الإجرائية في

المحاكمات، وتعديل نظام التقاضي في المحاكم، وتوسيع نظام المحلفين في التقاضي، ووضع سلطة للقضاة الملكيين المتنقلين، ومحاولة إرساء العدالة عن طريق الأوامر الملكية والابتعاد عن محاكم السادة الإقطاعية غير العادلة إلى غير ذلك من القواعد القانونية المهمة<sup>(٥٤)</sup>.

### القواعد الإجرائية:

القانون الانجليزي في عهد الملك هنري الثاني تم التمييز فيه بين الدعاوي الخاصة والعامة، فالخاصة تتعلق بحقوق الأفراد القانونية سواء كانت مدنية أم جنائية، أما العامة فتتعلق بمصلحة الملك بصورة مباشرة سواءً بالجرائم الخطيرة المتعلقة بأمن الملك أم بالإيرادات العامة، وترفع الدعاوي الخاصة بطلب من المدعي، أما العامة فيدعي فيها موظف ملكي للملك<sup>(٥٥)</sup>.

وكانت المحاكمات في عهد هنري الثاني قد تطورت، فعند نظر أي قضية تُحدد الجلسة، ويحضر المدعي والمدعي عليه، ويقوم المدعي بعرض قضيته ويحلف يميناً على صدق دعواه ويذكي اليمين بحضور عدد من الشهود لا تنصب شهادتهم على صحة وقائع الدعوى كما ذكرها المدعي، بل على صحة يمين المدعي لثقتهم فيه واشتهاره عندهم بالصدق والأمانة، ويستغني عن التزكية يمين المدعي بالشهود إذا توفرت دلائل دامغة على صحة دعوى المدعي كالدليل الكتابي في المسائل المدنية أو حالة التلبس في المسائل الجنائية. ثم يجيء دور المدعي عليه، إذا أقر حكم المدعي، وإن أنكر يحلف يميناً على عدم أحقية المدعي فيما يطلب، وفي هذه الحالة تلجأ المحكمة للإثبات على طريق ما يلي: التزكية Compurgation من المدعي عليه، والبينة، والمحنة أو الاختبار الإلهي Chanery والتقاتل Battle<sup>(٥٦)</sup>.

والتزكية هي أن يذكي المدعي عليه بيمينه بإنكار الدعوى بعدد من الشهود - ضعف شهود المدعي عليه - يشهدون لا على وقائع الدعوى ولكن على ثقتهم في المدعي عليه حسب العرف القانوني، وعادة يكون المزكون اثني عشر شخصاً وقد يقل العدد إلى ثلاثة، ويزيد إلى اثنين وسبعين شخصاً<sup>(٥٧)</sup>، وقد يكون المزكون أقارب للمدعي عليه، وهم عادة يحلفون على الكتاب المقدس أو أثر مقدس مهم يجلبه السكان في المقاطعات، وتختلف قيمة اليمين باختلاف صاحبه فاللورد يوزن أضعاف يمين الرجل الحر، ولا يمين لغير الأحرار<sup>(٥٨)</sup>.

ووجدت فئة من الرجال تحترف التزكية، لا يرددهم العقاب عن الحنث في اليمين مقابل المال. مما دعا إلى إنكار عمل هذه الفئة وتحريمها في بنود قانون كلارندون ١١٦٦م<sup>(٥٩)</sup>.

وثاني طرق الإثبات البينة - شهادة الشهود - وهي شهادة على صحة الوقائع التي يذكرها المدعي والمدعي عليه، وشهادة الشهود من أدلة الإثبات الشكلية بمعنى أنه بمجرد قسم الشهود ثم النطق بالشهادة يُقيم أركانه، ولا سلطة للمحكمة على الشهود في

مناقشتهم أو وزن أقوالهم. وليس للمحكمة من سلطة في التقدير إلا إذا تعارضت أقوال المدعي والمدعي عليه في واقعة واحدة، وفي هذه الحالة فقط يجوز للقاضي الملكي أن يُقدر شهادة الشهود لكل طرف منهما علي حده للتوصل للحقيقة، وإظهار علي من تكون البينة<sup>(٦٠)</sup>.

أما الإثبات الثالث فهو المحنة Ordeal أو الاختيار الإلهي، وهي إرادة إلهية لا تدخل للبشر فيها، وتصدر في كل قضية علي حدة، فالإدانة والبراءة كانت تحدد بتدخل الآلهة إلي جانب البريء وضد الجاني، ولهذا تم اللجوء إلي الاختبارات القضائية الغيبية والتي يطلق عليها المحنة مؤمنين أن الآلهة ستقف إلي جانب العدل وكانت أكثر تلك الاختبارات شيوعاً واستخداماً النار والماء والسم، فكان يطلب من المتهم لعق حديدة مُحماة فإذا ظهر به أثر النار كان كاذباً مذنباً، أو يُلزم بغمس يده في الماء المغلي لالتقاط قطعة حديد يُلقي بها في الإناء، أو يُلقي به في النهر مكبلاً بالأغلال علي اعتبار أن الماء مقدس<sup>(٦١)</sup>. أو استعمال نظام البشعة ومفاده أن أهل القتل إذا ما أعوزهم الدليل، فإنهم يلجئون إلي المَبْشَع الذي يثبت ما إذا كان المتهم بريء أم مذنب، بإحماء إناء من النحاس علي النار ثم يطلب من المتهم أن يلغقه ثلاث مرات، ثم يرد للحاضرين فإذا وجد أن هناك أثر للنار علي لسانه حكم بإدانته، وإلا فيقضي ببراءته، أو أن يُطعم لقمة من الخبز عليها التعاويذ من قبل الكنيسة لتقف في حلقة<sup>(٦٢)</sup>.

من الواضح أن سلطة تقدير الأدلة كانت رهناً بوسائل الغيب، ولكن كان ضرورياً وجود جهاز قضائي يعتمد علي قواعد العقل والمنطق في دراسة الأدلة للحكم بالعدل علي الأفراد.

وإن كانت طريقة الحكم في المحنة تختلف باختلاف الجرم في عهد هنري الثاني أو باختلاف شخصية المتهم. ففي جرائم ممارسة السحر والشعوذة، يُقذف بالساحر في النهر. أما المتهمون من المثقفين ورجال الدين - الهراطقة - فكانوا يُطعمون اللقمة المقدسة في ساحة الكنيسة، أو إشعال نار ضخمة ويُقذفون فيها أو يمسون قضيباً محمياً من النار، أو يُغمس ذراعهم في ماء مغلي<sup>(٦٣)</sup>.

وظل نظام المحنة مطبقاً فعلياً في إنجلترا حتى ١٢١٥م عندما قرر مجمع اللاتيران Lateran بإدانته ومنع الأساقفة من المشاركة في إجراءاته<sup>(٦٤)</sup>.

ورابع طرق الإثبات التقاتل - ادخله النورمان عند فتح إنجلترا سنة ١٠٦٦م - وفي عهد هنري الثاني أصبح من ركائز القانون الإقطاعي، فأصبحت المبارزة وسيلة إثبات رئيسية، وهي معركة حقيقية تتم أمام المحكمة وفق إجراءات معينة، والمنتصر هو صاحب الحق، فكان انتصار المتهم دليلاً علي براءته والعكس صحيح، وجوهر هذه الطريقة هو وقوف عدالة السماء إلي جانب الحق، وتتبع المبارزة في دعاوي الأراضي والدعاوي الجنائية، ولم يكن يسمح بالمبارزة إلا بين الرجال البالغين الأقوياء، أما النساء المسنونات والأطفال والمعوقون فيحق لهم بموجب القانون أن ينيبوا أحدا عنهم،



ومع مرور الزمن أصبح الشهود هم الذين يتبارزون من أجل إظهار الحق، فاستأجر الأغنياء الشهود الأكثر قوة لينالوا الحق بالقوة لا بالعدل<sup>(١٥)</sup>.

ومع مرور الوقت اتسع اختصاص المحاكم الملكية وبخاصة في تكاثر القضايا بإشكالاتها المختلفة أمام مجلس بلاط الملك، ونظرا لكثرة مشغوليات الملك وتعدد انتقالاته الخارجية تفرع مجلس البلاط إلى عدد من المحاكم المختصة وكانت كالتالي:

#### ١- محكمة الطلبات العامة Court of Common Pleas :

اختصت هذه المحكمة بنظر المنازعات التي لا تتعلق بحق الملك، وهي الدعاوي المدنية ودعاوي الأراضي، وتتشكل هذه المحكمة من عدد من أعضاء مجلس البلاط وهم الشريف والمستشارون وأمين الخزانة العامة بالإضافة إلى كبار القساوسة وحكام المقاطعات<sup>(١٦)</sup>، وقد انفصلت هذه المحكمة تماما عن مجلس البلاط، في أواخر القرن الثاني عشر.

وكانت هذه المحكمة قبل انفصالها عن مجلس البلاط تنتقل مع الملك حيث يُقيم، ولما كثرت أعمالها عين لها رئيساً من القضاة Chief Justice واستقرت في العاصمة لندن بعد انفصالها واستقلالها<sup>(١٧)</sup>.

#### ٢- محكمة منصة الملك Court of the King's Bench :

دعاوي هذه المحكمة تتعلق بمصلحة الملك ودعاوي الجرائم الماسة به، وهذه كلها من الدعاوي العامة، وبالطعون التي تُرفع أمامها في أحكام المحاكم الدنيا، وفي بداية الأمر لم يكن تشكيل هذه المحكمة يختلف عن تشكيل مجلس البلاط، فمجلس البلاط ينظر في القضايا التي لم تخرج عن اختصاصه بعد. ولما درج الملك على عدم حضور اجتماعات مجلس البلاط لأسباب مختلفة، وأصبحت محكمة منصة الملك تعقد جلساتها للنظر في الدعاوي المرفوعة إليها، مما أدى إلى تمييزها عن مجلس البلاط من ناحية، وإلى عدم اعتبار حضور الملك جلساتها أمراً رئيسياً من ناحية أخرى. وكان يساعد هذه المحكمة الملكية لجنة من القضاة الملكيين Circuits<sup>(١٨)</sup>.

#### ٣- محكمة بيت المال Court of Exchequer :

وقد تفرعت هذه المحكمة من ديوان الخزانة العامة أو ديوان بيت المال، وكان يتكون من عدد من أعضاء مجلس البلاط، فكانت تختص بكل ما يتعلق بالأحوال العامة من رقابة على الإيرادات والمصروفات وضبطها، ودعوة شريف كل مقاطعة للحساب مرتين في العام<sup>(١٩)</sup>، وقد استقل هذا الديوان من مجلس البلاط وأصبح له رئيسه الخاص به بدأ من ١٢٣٤م.

وكانت طبيعة عمل ديوان بيت المال تحتم عليه أن يفصل في المنازعات المتعلقة بحسابات الدولة، كمنازعات الضرائب وجباية الأموال وهي منازعات تقوم بين الملتزمين ودافعي الضرائب بشأن تقدير قيمة الضريبة وأصل استحقاقها.

وتميزت محكمة بيت المال ببساطة الإجراءات وتيسيرها التي كانت تنقيد بها المحاكم الأخرى. ولقد ابتدعت محكمة بيت المال مبادئ جديدة على النظام القانوني في

عهد هنري الثاني، ومنها إلزام الخصم بتقديم دليل لديه ولو لم يكن في صالحه<sup>(٧٠)</sup>. ونظراً لسهولة إجراءات محكمة بيت المال ولجونها إلى مبادئ العدل والإنصاف، فقد تحايل الأفراد على عرض قضيتهم أمامها حتى ولو لم تكن القضايا متعلقة بالأموال الملكية، ويتم ذلك بأن يدعو أنهم مدينون بأموال عامة ويعجزون عن سدادها، وسميت هذه الدعوة المقدارة Quo Minus أي الدعوة المقدرة في حدود الدين المزعوم للخزانة العامة<sup>(٧١)</sup>، وتوسعت محكمة بيت المال حتى أصبحت تنظر أحياناً الدعاوي المدنية التي تدخل في اختصاص محكمة الطلبات العامة أو محكمة منصة الملك.

#### القضاة المكيون المتنقلون Itinerant Justices :

هم قضاة يوفدهم الملك هنري الثاني للتفتيش على الإدارة والمحاكم، وفي البداية كانت إقامتهم محددة في المحاكم الملكية في العاصمة الإنجليزية لندن، بحيث تنظر فيما يدخل في اختصاصها على قواعد قانونية، إلا أنه كان لابد أن يمتد سيادة قضاء الدولة (القضاة المكي) إلى كافة أنحاء إنجلترا ومن هنا ظهرت فكرة نظام القضاة المتنقلين في كل أرجاء البلاد<sup>(٧٢)</sup>.

ومع مرور الوقت أصبح الملك هنري الثاني يرسل مندوبين عنه للتفتيش على المقاطعات تفتيشاً إدارياً ومالياً وقانونياً، وكانت لجان مندوبي الملك تدعو شريف المقاطعة وأعيانها وجميع رجالها الأحرار وزعماء المدن والقرى وتباشر في حضورهم الاختصاصات المنوطة بها، ومنها نظر المظالم والتفتيش على المحاكم الأهلية لتطبيق القانون، وكانت أعلى سلطة في إنجلترا في عهد هنري الثاني هو المجلس القضائي The Caria regis<sup>(٧٣)</sup>.

واعتماد الملك هنري الثاني على إرسال قضاة متخصصين ليست لهم أي اختصاصات سوى القانونية فقط في الفصل في المنازعات، وانقسم هؤلاء القضاة إلى لجنتين في المملكة، واحدة تفصل في القضايا المدنية والأخرى في القضايا الجنائية التي يكون المتهمون فيها محتجزين رهن المحاكمة، وتسمى بلجنة الاستماع والحكم Commission of yet and terminer واللجنة الأخرى تنظر في الدعاوي الجنائية التي يكون المتهمون فيها محجوزين رهن المحاكمة، وهي التي أطلق عليها لجنة إخلاء السجون Commission of Goal Delivery<sup>(٧٤)</sup>.

وظهر في عهد هنري الثاني نظام قاضي الحيازة المتنقل الذي حل بالتدريج محل اللجان القضائية، وكانت دعاوي الحيازة تدخل في اختصاص المحاكم الإقطاعية، التي تتبع وسائل الإثبات كالتقاتل، فاستحدث هنري الثاني نظام القاضي الملكي (فرد أو هيئة) تطوف البلاد للفصل في المنازعات المتعلقة بالحيازة. ويلجأ القاضي الملكي في إثبات الدعوى إلى أهل المقاطعة أو الاسترشاد برأي أربعة من الأعيان يجلسون إلى جواره في المحكمة، ومارسوا دورهم على قدر كبير من الكفاءة والعدل، وكان يتم إرسال هؤلاء القضاة مرة واحدة كل عام، وعرفوا باسم قضاة الشرع Justices in Assize<sup>(٧٥)</sup>.

#### نظام المحلفين في إنجلترا Jury :

كلمة محلف مشتقة من الحلف باليمين، لأن المحلفين يقسمون علي أن يؤديوا مهمتهم بالأمانة والحياد التام<sup>(٧٦)</sup>، ويعد من النظم التي تميز بها القانون الانجليزي وبنية هذا النظام أن يجلس في هيئة المحكمة مع القضاة عدد من المواطنين بتطبيق حكم القانون في الوقائع حسبما انتهى إليها المحلفون<sup>(٧٧)</sup>.

ويرى بعض المؤرخين أن أصل هذا النظام يرجع إلى النورمان، حيث رأى الفاتحون النورمان أن عليهم إشراك الأهالي في تمحيص وقائع الدعوى، واتخذ النظام طريقاً أفضل من الطرق البدائية المتبعة لدى الانجلوسكسون والغالب أن هذا النظام يرجع أصله إلى لعام ٨٢٩م حين أمر الإمبراطور لويس التقى (٨١٤-٨٤٠) Louis le Pieux ألا تثبت حقوق الملكية إلا بإقرار من جيران موثوق بهم بعد أن يحلفوا اليمين، ويعتقد بعضهم أن أصله انجلوسكسوني وضعه الملك اثلرد<sup>(٧٨)</sup>.

في حين يؤكد المؤرخ ستبس أن نظام المحلفين أصله نورماني ويرجع بالتحديد إلى عهد الملك وليم الفاتح (١٠٦٦-١٠٨٧م) في محاولة منه لتحسين الوضع القانوني في إنجلترا، فادخل نظام الاستجواب الفرنجي وكلف القضاة أن يستخدموه في الدعاوي التي تخص المقاطعات في البداية مثل الضرائب والأراضي الملكية، ثم أصبح اللجوء إلى هذا الاستجواب امتيازاً يمنحه الملك لمن يشاء وغالباً بمقابل مادي، ثم استخدم في فض المنازعات بين كبار البارونات، وخولت محاكم المقاطعات حتى استجوب بعض الرجال الذين يقسمون اليمين من سكان المناطق المجاورة، وكانت شهادتهم من عوامل الحسم في القضايا القانونية المتعلقة بالثغنون المدنية، وفي إطار إصلاحات هنري الثاني القضائية استخدم نظام المحلفين - صار أساس العملية القانونية في إنجلترا - في القضايا المدنية<sup>(٧٩)</sup>.

أما الدعاوي الجنائية فيرجع تاريخ نظام المحلفين فيها إلى قرار قانون كلارندون سنة ١١٦٦م، الذي أوجب أن تنتخب كل مقاطعة اثني عشر في كل إقليم، فيها أربعة من كل قرية يحلفون علي إخبار القضاة المتنقلين، عن كل ما ارتكب من جريمة قتل أو سرقة أو نهب أو إيواء مجرمين، ويحاكم المتهمون أمام الشريف في حالة غياب القضاة المتنقلين وبمرور الوقت انتقل الاختصاص الجنائي من الشريف إلى قضاة الأمن<sup>(٨٠)</sup>، وأصبح هؤلاء القضاة يطلبون من الشريف اختيار اثني عشر من المشهور عنهم بالصدق يقومون بالفصل ما إذا كان الشخص مذنباً أمر بريئاً<sup>(٨١)</sup>.

ولقد مكن ذلك الملك هنري الثاني من تنظيم إجراءات الإثبات ومبادئه، وقام المحلفون بالحكم في الدعاوي المدنية والجنائية، وهو نظام يترك تقدير الأدلة لسلطة المحلفين طبقاً لقناعتهم<sup>(٨٢)</sup>، وإن كان القانون الفرنسي المعاصر للانجليزي في عهد الملك هنري الثاني قد أنعش الأدلة القانونية، فأصبح الاتهام من شأنه أن يؤدي مباشرة إلى إدانة الشخص، كما أن شهادة شخصين علي المتهم دليل علي إدانته.

وامتد نظام المحلفين ليشمل اكتشاف الجرائم والمجرمين إلي جانب المسائل المدنية، وكان المحلفون في الأصل يقضون بما يعملون، وتتكون هيئة المحلفين من اثني

عشر محلفاً ويجب أن يصدروا حكمهم بالإجماع، ثم أدخلت تعديلات علي نظام المحلفين فأصبح لا يشترط الإجماع واكتفوا أن يصدر القرار بموافقة عشرة فقط من العدول الانجليزي<sup>(٨٣)</sup>.

وأكد المؤرخون علي أن عنصر جماعة المحلفين Local Juries هم الفئة المختارة من أعيان انجلترا والمقيمون فيها، والعارفون لجميع المواطنين والملمون بالقانون العام، ويستعين بهم القضاة المتجولون في تحقيق الجنايات والدعاوي ومعرفة أسرار الأمن ومخالفتي القانون من اللصوص والأشرار وقطاع الطرق، والتبليغ عنهم وتقديمهم للمحاكمة، وبذلك أحل هنري الثاني نظام المحلفين محل النظم البدائية الشائعة وقتذاك في تحقيق الجنايات والدعاوي المدنية، كامتخا ن المدعي عليه بالنار أو الماء الساخن أو البارد أو تأدية اليمين علي من أنكر، والاحتكام إلى السيف، وغير ذلك من الوسائل التي اعتمدت علي القضاء والقدر للوصول إلى الحق<sup>(٨٤)</sup>، واقتضى نظام المحلفين أن ترسل كل مدينة أربعة رجال من أبنائها وكل مائة مزرعة اثني عشر رجلاً للمثول أمام الشريف للتبليغ - بعد أداء القسم - عن ارتكاب جريمة قتل أو سرقة في دائرتهم. ثم يدعي المتهم فوراً أمام المحكمة بحضور المحلفين، وتجري الاختبارات البدائية السابقة الذكر، فإن دلت علي براءته وأصر المحلفون علي إدانته، أخذ هنري الثاني بوجهة نظر المحلفين وأمر بنفي المتهم<sup>(٨٥)</sup>.

وكانت المحاكم المألوفة عند الانجليز وسائر القبائل الجرمانية ادعاء ودفاعاً بين المدعي والمدعي عليه أمام القضاة، وكان الحكم يبني إما علي الشهادة أو الامتحان التعذيبي أو علي الامتحان في القتال، ولكي يتنجي هنري الثاني ملك الأراضي الأحرار من خطر المجازفة في هذه الامتحانات، قرر أن تبني الأحكام علي الحقائق فجرى ذلك أولاً: في الدعاوي المدنية ثم في الدعاوي الجنائية، وذلك كان بداية المحكمة التي تدعي الآن مجلس المحلفين، وأما كيف نشأت طريقة المحاكم فمسألة مختلف عليها، ولم يستتبطها هنري الثاني ولكن أجراها وعممها في القضاء الانجليزي<sup>(٨٦)</sup>.

**وكانت محكمة المحلفين في عهد هنري الثاني نوعين:**

**أولاً: محلفو التحقيق في القضايا المدنية :**

مثال: إذا نازع زيد قطعة ارض لعمر تجري المقاضاة هكذا: يستحصل عمر من المجلس القضائي علي أمر بإيقاف كل عمل شرعي، وأما زيد فينتدب أربعة فرسان محلفين من مقاطعته وهؤلاء ينتدبون اثني عشر فارساً محلفين آخرين ينظرون في ما إذا كانت الأرض له أو لعمر، ويؤيدون رأيهم بالإيمان الصادقة، وحينئذ يمثل كل من زيد وعمر أمام المحلفين الستة عشر لدى القضاة، حالما يتفق القضاة علي أحد وجهي القضية يصدرون حكمهم، وإذا تعذر اتفاق المحلفين الستة عشر ينتخب محلفون آخرون<sup>(٨٧)</sup>.

**ثانياً: المحلفون العظام:**

كان المتقاضون يلجئون إليهم في القضايا الجنائية وهؤلاء ينتخبون محلفي

التحقيق، وكان عددهم محدوداً كعدد هؤلاء - ستة عشر أو علي الغالب اثني عشر - وكانوا شهوداً محلفين يشهدون بما يعلمون من حقائق القضية. وكانوا يختلفون عن المحلفين في الوقت الحاضر بأنهم لا يصدرن حكماً. وظلت الأحكام وقتاً طويلاً تبني علي نتائج الامتحانات التعذيبية، وفي أول الأمر كان الشريف (أي رئيس محكمة الولاية الثاني) هو الذي ينتخب المحلفين، ولكن بعد ذلك صارت المحكمة الجزئية تنتخبهم، لأنها تعد ممثلة للمقاطعة كلها، فلها هي أحق بانتخابهم، ولا يخفي أن من شروط الانتخاب أن يكون المحلفون من جيران المتداعي<sup>(٨٨)</sup>.

وهكذا أصبح المبدأ الانتخابي هو السائد، وشمل أنواع الحكم الانجليزي من قضاة وغيرهم، فالمحلفون تنتخبهم المحاكم الجزئية المؤلفة من نواب ينتخبهم الشعب. وسرعان ما ألف الناس ذلك النظام واطمأنوا إلى عدالته مع قلة تكاليفه، وبذلك وضعت أسس القانون العام الانجليزي، ولقد تطور نظام المحلفين، فيجلس اثنا عشر رجلاً في منصتهم جنباً إلى جنب مع أعضاء المحكمة العادية، ويصدرون رأيهم في القضية سراً قبل أن يعين رئيس المحكمة حكمه<sup>(٨٩)</sup>.

#### الأوامر الملكية Writs :

بدأ الملك هنري الثاني حقيقة نسج الموارد الحكومية في انجلترا لتكون قوة موحدة، ويبرز هذا بوضوح أكثر في مجال العدالة، فقد كان إرساء العدالة هو الواجب الأول المتوقع من المحاكم في القرن الثاني عشر. ولم يشهد عهد هنري الثاني جهداً كبيراً للتحقيق في الجرائم والسيطرة عليها فحسب، ولكنه شهد أيضاً سعياً حثيثاً لكي يقدم للمجنى عليهم وسيلة سريعة وفعالة لتعويضهم، وقد أمكن تحقيق ذلك من خلال الأوامر القضائية، وهي عبارة عن خطابات رسمية باسم الملك توضح الإجراءات التي يتم اتخاذها بمقتضى القانون لتصحيح الأخطاء التي كان الأفراد قد شكوا منها<sup>(٩٠)</sup>.

واستعانت المحاكم الملكية في بسط سلطتها وتحقيق سيادتها علي كافة أنحاء المملكة بوسيلة هذه الأوامر الملكية، وكان الملك هو رأس السلطة القضائية في المملكة، فالشخص الذي يتعدى علي حقه يقدم تظلمه للملك، أو حكم عليه في محكمة دنيا، يصدر الملك أوامره للمحكمة الدنيا يبين فيها موضوع الطلب وما يجب علي المحكمة عمله، وبهذا الأمر تنشأ دعوى جديدة تمثل سابقة قضائية علي المحاكم ويجب الأخذ بها في المستقبل، ونظراً لكثرة التظلمات أصبح مستشار الملك هو الذي يصدر هذه الأوامر ويختتمها بخاتم الملك<sup>(٩١)</sup>.

وعندما يتعلق الأمر الملكي بموضوع الدعوى كان يأمر الملك المحكمة أن تجيب الشاكي إلى طلبه، وقد يتعلق الأمر بالإجراءات القضائية الخاصة بإرسال ملف الدعوى أو إحالة الدعوى إلى المحكمة الملكية أو الرد علي التظلمات وفحصها بدقة، وكل ذلك كان من اختصاص محكمة الملك بعد الاطلاع علي الأوامر الملكية<sup>(٩٢)</sup>.

وثمة نوع آخر من الأوامر الملكية القضائية، مثلاً، كان علي شكل خطاب موجه إلى المقاطعة يأمره إذا رأى أن رجلاً قد أساء لآخر عمداً بالاستيلاء علي أرضه أو

بضاعته أو اتهامه زورا، بأن يتخذ الخطوات اللازمة لتعويضه، أو يحضر إلى بلاط الملك ليشرح السبب في عدم قيامه بذلك، وكل ما كان علي كتبه الملك أن يقوموا به، إذا اشتكى رجل من ضرر لحق به هو أن يسجلوا اسمه علي الأمر الملكي القضائي المناسب ويرسلوه إلى الموظف المختص. وكان الملك يرسل القضاة من بلاطه بانتظام إلى المقاطعات لتتناول القضايا المرفوعة بهذا الشكل، ولكي يحكموا فيها باسمه. وعندما كانت الضرورة توجب تأكيد حقائق القضية، كانت الأوامر الملكية القضائية تطلب من حكام المقاطعات ممن يعرفون الحقيقة أن يحضروا أمام القضاة للإدلاء بها<sup>(١٣)</sup>.

كان مستشارو الملك هنري من الرجال القانونيين، إذا أبدوا من خلال ممارستهم روح المدارس القانونية السائدة آنذاك، وكانت الأوامر الملكية القضائية لديهم تصنيف الأخطاء الواجب تصحيحها بيد الملك، والتفريق بين الضرر الواقع علي الأفراد أو الممتلكات والأضرار بالسمعة الطيبة وتقديم الوسيلة المناسبة للتعويض في كل الحالات<sup>(١٤)</sup>.

وبمرور الزمن قننت الأوامر الملكية وأصبح هناك قياس علي الأوامر الملكية السابقة. وبسبب كثرة الأوامر الملكية تم صدر "قانون ويستمنستر" سنة ١٢٨٥م حظر بمقتضاه إصدار أوامر جديدة وقضى بالقياس علي الموجود. ومن ثم زاد عدد المتقاضين الساعين إلى تحقيق العدالة بشكل أساسي مما كان متاحا قبل ذلك. وخاصة بين أبناء الطبقات الدنيا أي المستأجرين في غير الضياع الملكية، وهكذا بدأت السيادة الملكية تصبح شيئا ذا معنى بالنسبة لقطاع من الناس أكبر من ذي قبل، حينما كانت الحماية التي وفرها الملك من خلال الأوامر الملكية والقضائية في محاكمة بدأت تشكل قانوناً عاما للبلاد كلها<sup>(١٥)</sup>.

#### قانون حمل السلاح لسنة ١١٨١م Assisa de Armis :

أصدر الملك هنري الثاني قانون السلاح في العقد الأخير من فترة حكمه، وبمقتضاه يسمح به لرجال الدين الأحرار في المملكة من جميع الطبقات إحراز السلاح وحمله للدفاع عن البلاد، وخاصة وأن الأخطار قد أحاطت بها من الداخل في ثورات أولاده عليه أو من الخارج من ملوك فرنسا، وأمر الملك نوابه في كل المقاطعات بجمع أولئك المسلحين في عاصمة الإقليم ثلاثة أو أربعة مرات سنويا لتدريبهم وإعدادهم إعدادا عسكريا قويا ليكونوا في أهبة الاستعداد لمساعدة الملك<sup>(١٦)</sup>.

وأهم بنود هذا القانون الاتني عشر هي:

١- يحق للفرسان الحائزين علي الإقطاع امتلاك الأسلحة من خوذة ودرع وترس ورمح، ويحق لهم ملكية هذه الأدوات كل حسب سعة الإقطاع الذي يملكه، فكلما زاد الإقطاع كان من حق الفارس زيادة حيازته من الأدوات الحربية.

٢- من حق كل رجل حر لديه ممتلكات منقولة أو إيجار ستة عشر مارك أن يمتلك خوذة ودرع ورمح، وأن كان لديه منقولات أقل أو إيجار يبلغ عشر ماركات يملك غطاءً للرأس ورمحا وخنجرا فقط.

٣- يسمح لكل الأحرار في المملكة في امتلاك صدره واقية وغطاء للرأس

ورمح.

٤- يجب أن يقسم كل رجل حر في المملكة قبل عيد القديسة هيلاري . St Hilary علي أن يمتلك الأسلحة السابقة كل حسب وضعه ويكونون في خدمة الملك إخلاصاً وولاءً لشخصه والمملكة. ولا يحق لهؤلاء الذين يملكون تلك الأسلحة أن يبيعوها أو يرهنوها أو إهدائها لأحد المقربين لهم، كما لا يحق لأي سيد إقطاعي مهما كانت سلطته أن يحرم رجاله الأحرار من امتلاك تلك الأسلحة، التي ترفع من شأن الملك والمملكة في مواجهة الأعداء.

٥- إذا توفي أحد حائزي هذه الأسلحة يحصل الوريث عليها كاملةً وان كان دون السن القانوني - أي غير مؤهل لاستخدامها - حينئذ يتعين علي الوصي لهذا الوريث أن يكون وصياً علي أسلحته أيضاً، حتى يبلغ السن القانونية ويستخدمها في مصلحة الملك والمملكة.

٦- وحدد قانون الملك هنري نوع الأسلحة وعددها التي يمتلكها كل رجل حر، وغير مسموح بموجب هذا القانون أن يمتلك أسلحة أكثر من المسموح بها، وإذا حدث وامتلك أكثر فعليه أن يقوم ببيعها للأشخاص الذين حددهم الملك وهم الأحرار، أو منحها لأي رجل يحتفظ بها لخدمة سيده الملك.

٧- لا يجوز لأي يهودي أن يمتلك درعاً أو سيفاً وإذا أحدث فعليه التخلص منها فوراً، لأي شخص بحيث تبقى في خدمة الملك، وذلك لأنهم ملكية خاصة للملك.

٨- لا يُسمح لأي شخص مهما كان بحمل السلاح خارج المملكة إلا بأمر مباشر من الملك، وكذلك لا يجوز لأي فرد أن يبيع الأسلحة لشخص يستخدمها خارج المملكة، ومن يفعل ذلك يُعرض نفسه للمساءلة.

٩- يتعين علي القضاة حسب القانون أن يجعلوا البارونات والفرسان وكبار الإقطاعيين أن يقسموا بإعطاء أسماء كل الرجال الأحرار في مقاطعتهم، ممن يمتلكون دخل ستة عشر مارك سواء إيجار أو أملاك أو ما قيمته عشرة ماركات، ويقوم القضاة بتسجيل أسماء الذين أقسموا في السجلات الملكية Close Rolls، ويتلى عليهم بنود قانون السلاح، ويقسمون علي الحصول علي تلك الأسلحة طبقاً لقيمة الممتلكات الشخصية لهم، وتكون رهن خدمة الملك والمملكة، وإذا تصادف عدم وجود احد الأشخاص المتملكين لهذه الأسلحة داخل المملكة أثناء وجود القضاة، يحدد له القضاة ميعاداً آخر للمثول أمامهم للقسم، وإذا تخلف للمرة الثالثة فيحدد مكان معلوم في مدينة وستمنستر ووقت معلوم في الثامن من عيد القديس مخائيل St. Michael للقسم، حتى يحوز الأسلحة قبل عيد القديسة هيلاري، وإلا سيُعرض حياته وممتلكاته للخطر.

١٠- علي القضاة أن يعطوا في كل أنحاء المملكة بأن كل الذين لا يملكون الأسلحة طبقاً للشروط سالفة الذكر، فإن الملك سوف يأمر بالقبض عليهم، وسوف يعرضون أنفسهم للقتل أو مصادرة أراضيهم ومنقولاتهم.

١١- لا يجب أن يقسم أحد في المملكة مهما كانت مكانته نيابة عن رجل حراً آخر وأعظم سيد إقطاعي من الذين يملكون ستة عشر ماركاً أو حتى العشرة ماركات سواء إيجار أو ملكية.

١٢- يتعين علي القضاة بأمر من الملك أن يصدرُوا الأوامر في كل أنحاء المملكة بأن لا يُسمح لأي شخص إذا كان حريصاً علي حياته وممتلكاته، بأنه لا يحق له شراء سقينة أو بيعها لأعداء المملكة في الداخل والخارج أو تصدير الألواح الخشبية الخاصة بها خارج المملكة، ومن يخالف يعارض نفسه لعقوبات مملكة قاسية<sup>(٩٧)</sup>.

وفي النهاية يأمر الملك بعدم قبول القسم علي قانون السلاح إلا من الرجال الأحرار فقط.

والحقيقة أن مثل هذا القانون كان ضرورةً عسكرية ملحة، فعلى المستوى الداخلي كانت هناك شحنة دائمة بين الملك هنري وزوجته الياتور - وضعتها في عزلة زهاء ستة عشر عاماً - التي دائماً كانت تحرص أولادها ضده، حتى أن الملك ريتشارد أكبر أولاده لم يتورع عن التحالف مع الملك الفرنسي ضد والده، والخطر الخارجي يتمثل في أسرة آل كابيه في فرنسا التي تنتظر أي فرصة للانقضاض علي الملك والمملكة.

وأدرك الملك هنري الثاني تماماً أن النظام الإقطاعي في تكوين الجيش لا يتناسب مع هذا العصر لأنه بموجب هذا النظام كان علي الأفاضل أن يخدموا في جيش الملك أربعين يوماً فقط في السنة، وهو الأمر الذي لم يجد الملك هنري له حلاً في الحملات العسكرية الطويلة ضد أعدائه من ملوك فرنسا. وأمر الملك هنري الثاني السماح للأفاضل بإرسال الفرسان للخدمة في الجيش الملكي الإقطاعي لقاء مبلغاً يتم تقديره حسب حجم إقطاع الفصل، وعُرف هذا النظام باسم البدنية أو الاسكوتاج Scutage<sup>(٩٨)</sup>.

وأصبح النظام الإقطاعي الذي كرهه هنري الثاني ومحاكمه إلى زوال، فكان للمحاكم الإقطاعية اختصاص عام في منازعات الأراضي التي تنشب بين أواسط الحائزين وصغارهم ونوع من الاختصاص الجنائي الذي كان يُعد منحة من الملك، أما المنازعات المدنية ومنازعات الأراضي بين كبار حائزي أرض الملك، وكذلك الجرائم التي تمس أمن الملك تدخل في اختصاص المحاكم الملكية، وانتشر أمر هذه المحاكم الملكية وطغى علي المحاكم الإقطاعية حتى تلاشت، وأصبحت المحاكم الملكية في عهد هنري الثاني لها السيادة<sup>(٩٩)</sup>.

ويرجع السبب في كراهية المواطنين للمحاكم الإقطاعية إلى تحيزها وعدم تحري الدقة والعدل في أحكامها، وفي تخلف إجراءاتها البالية، ولجوءها إلى الوسائل البدائية، وقصور مبادئها القانونية التي تطبق علي المجتمع، وقد تقلص اختصاص هذه المحاكم الإقطاعية في عهد الملك هنري الثاني، وخاصة بعد إدخاله أمر الإحقاق Writ of Right في المحاكمات وهو أمر ملكي يوجه من الملك إلى المحكمة الإقطاعية إذا لم يسبقها أمر الإحقاق<sup>(١٠٠)</sup>.



فقد كان أمر الإحقاق هو أول خطوة في الابتعاد عن المحاكم الإقطاعية، وكانت الخطوة الثانية هي نظام المُحلفين بدلاً عن المحنة، التقاتل، وفي هذه الحالة تحال الدعوى وجوباً إلى المحاكم الملكية لنظرها، أما الثالثة هم قضاة الشرع وهم ملكيون، ويطلق عليهم القضاة المتنقلين الملكيين، وكانت مهمتهم الفصل في المنازعات التي من اختصاص المحاكم الإقطاعية<sup>(١٠١)</sup>.

وكان هناك بديل آخر أمام الملك هنري الثاني وهو الاستعانة بالمرتزقة واثبت هذا النظام فشله، وكرهه الانجليز كراهية شديدة بسبب معاناتهم منه، عندما احل الملك ستيفن (١١٣٥-١١٥٤م) المرتزقة محل الجيوش الإقطاعية، وخاضت البلاد حروباً إقطاعية طاحنة استمرت عشرين عاماً دمرت وخربت الأراضي الزراعية وإصابتها حالة من الركود، وانتشرت المجاعات والأوبئة المدمرة بين الفلاحين، وهذه الحروب تعني ضياع الإيرادات وخسارتها وتكررت هذه الأفكار والمبادئ الفوضوية في عهد هنري الثاني ١١٧٤م في حروبه مع أولاده<sup>(١٠٢)</sup>.

ولم يكن أمام الملك هنري الثاني بديلاً عسكرياً سواء لإحياء النظام القانوني الانجلوسكسوني القديم Fyrd أم المقاومة الشعبية إلا من خلال إصدار قانون السلاح ١١٨١م، الذي بمقتضاه يسمح ولكل الرجال الأحرار في المملكة بحمل السلاح والدفاع عن المملكة ضد أي خطر في الداخل أو الخارج، وذلك عن طريق إعدادهم إعداداً عسكرياً ليكونوا عوضاً له عن الجيش النظامي<sup>(١٠٣)</sup>.

#### قانون الإنصاف Law of Equity

سن الملك هنري الثاني هذا القانون لاعتبارات إنسانية و لرفع الظلم عن كاهل المواطنين وتطبيق ما يسمى بروح القانون، وخاصة بعد ظهور العديد من حالات الظلم الصارخ، ويبدو فيها تقيد القضاء بالمبادئ القانونية علي حساب المصالح الاجتماعية، وتطبيق قانون الشريعة العامة وأحكام محاكمها، لذلك كثرت الشكاوى والتظلمات التي تقدم إلى الملك لرفع الظلم، فكون الملك محكمة المستشارية Chancery Court للنظر في تظلمات المواطنين، وحكمها يبني علي اعتبارات العدالة وليس علي السوابق القانونية والقضائية التي تقيد المحاكم الملكية، وأصبح بجانب قانون الشريعة العامة قانون يسمى قانون الإنصاف Equity Law وابتدع مبادئ قانونية طورت من النظام القانوني الانجليزي<sup>(١٠٤)</sup>.

ولقد أنشأ في البداية مكتباً للمستشار Chancery office سواء ملكي أم لأحد الأمراء، يمثل ذلك المكتب النواة الأساسية لظهور المحكمة المستشارية التي كان المستشار فيها هو رأس القضاء فكانت عادة الملوك والأمراء أن يتخذوا لهم مستشاراً يكون عمله الأساسي صياغة الوثائق كالمواثيق والمراسلات الدبلوماسية كالخطابات والمعاهدات وغير ذلك، وتمهر هذه الوثائق بخاتم الملك ثم يعهد بها للمستشار لحفظها<sup>(١٠٥)</sup>.

وكان الملك إدوارد المعترف (١٠٤٣-١٠٦٦م) أول من اتخذ لنفسه مستشاراً،

وأول من اصطنع خاتماً وكان يتحتّم علي الملك اختيار أفضل من تلقى قدراً عالياً من العلم والثقافة، لذلك اختار رجال الدين والقساوسة فهم أفضل علماً وجمعوا بين العلوم الدينية ودراسة القانون ، فكان المستشار الأمين الأول لسر الملك، والقائم علي الأحكام القضائية ويتمتع بنفوذ هائل في البلاد<sup>(١٠٦)</sup>.

ومع اختفاء وظيفة قاضي القضاة حل محلها المستشار الذي أصبح بالفعل هو الذي يشرف علي العمل القضائي في المملكة كلها، فكانت تخرج من تحت يده الأوامر الملكية Writs التي توجه مباشرة إلى محكمة شريف المقاطعة أو أتباعه الإقطاعيين الذين يقومون بالفصل في أي نزاع مدني أو جنائي، ولعبت هذه الأوامر الملكية دوراً مهماً في تطور التقاضي أمام المحاكم الملكية، وكانت هذه الأوامر الملكية تكتب بواسطة المستشار وأتباعه وتختتم بدون مراجعة من الملك، بخاتمه، فأصبح المستشار من الناحية القانونية هو الشخص الأول في إنجلترا ويمارس عمله باستقلال تام دون تدخل من أحد<sup>(١٠٧)</sup>.

وأصبح المستشار الملكي في عهد هنري الثاني يمثل حلقة الوصل بين محاكم الشريف العامة التي كان لها وجود مستقل عن الإدارة المركزية القضائية وبين مجلس البلاط الملكي، فكان المستشار هو أمين سر الملك وناصحه الأمين، وبالتالي أصبح أكثر الأعضاء في مجلس البلاط أهمية، وبخاصة أن الأوامر الملكية كانت تخرج من تحت يده، فأصبح علي صلة وثيقة بمحاكم الشريعة العامة<sup>(١٠٨)</sup>.

وفي نهاية عهد الملك هنري الثاني تحول هذا الجهاز القضائي وعلي رأسه المستشار إلى محكمة قضائية تفصل في المنازعات وليس مجرد جهاز قضائي يصوغ الأوامر الكتابية، وسار العمل في القضايا التي يكون فيها أحد موظفي جهاز المستشار طرفاً في القضية يفصل فيها بنفسه، ثم أضيف اختصاص قضائي آخر للجهاز وهو النظر في القضايا التي ترفع ضد الملك<sup>(١٠٩)</sup>، وكان علي المستشار أن يطبق القانون العام أو قواعد الشريعة العامة في أحكامه القضائية.

وبعد دخول نظام المحلفين في القانون العام الإنجليزي أدخلها المستشار علي جهازه، وأصبحت من الأنظمة المهمة للفصل بين وقائع الدعاوى المختلفة ولقد كان الرأي الأخير في الفصل في القضايا يرجع إلى هذا المستشار نفسه ليطبق الحكم والقانون<sup>(١١٠)</sup>.

لقد كانت أحكام الشريعة العامة الانجليزية جامدة وتطبق كما هي ، ولم تعدم نهائياً وسائل إكسابها طابع المرونة ولكن في حدود ضيقة، فقد كفلت الصلة بين المحاكم الملكية وبخاصة محكمة منصة الملك وبين مجلس البلاط تحقيق بعض المرونة لتكون هناك روح للقانون يطبق علي من يرى القاضي أنه مظلوم فيرفع الظلم عنه، ولا يطبق نص الشريعة العامة وإن كانت هناك أوامر ملكية تصدر لقضاة بذلك لتحقيق مبادئ العدل<sup>(١١١)</sup>.

وكانت الطبقات الفقيرة هي التي يقع عليها الظلم، ومن الصعب رفع هذا الظلم

بسبب التكلفة المادية، فكان علي الفقراء أن يستصروا دعوة من محكمة الشريعة العامة ويدفعون مبلغ كبيراً استصدار إعلان للدعوى المرفوعة أمام القضاء، ويمكن للمحكمة قبوله أو رفضه، فكانت العملية صعبة لذلك لجأ هؤلاء المعدمون إلى المحكمة الملكية يطلبون إنصافهم لا علي أساس قواعد الشريعة والقانون، ولكن علي أساس العدل لرفع الظلم، ومن ثم تقدم الالتماسات مباشرة إلى الملك أو مجلس الملك<sup>(١١٢)</sup>.

وأصبح المستشار بعد ذلك هو الذي ينظر في الالتماسات مكان الملك وكانت تذهب له من مجلس الملك وخاصة أن المستشار كان أحد أعضاء المجلس الملكي البارزين، ثم أصبح بعد ذلك المستشار هو صاحب الحل والعقد فيها وحده وبدون الرجوع إلى الملك<sup>(١١٣)</sup>.

ولقد تجاوزت المحكمة الاستشارية القائم علي رأسها المستشار الملكي أحكام الشريعة العامة، وأصدرت أحكاماً تتفق ومبادئ العدل، وقضائها يتسم بالغموض أحياناً لاعتقاد المستشارين أن يصدرها في أحكامهم بوازع من الضمير، متأثرين بالقانون الكنسي، فاهتموا برفع الظلم أكثر من اهتمامهم بتشريع القوانين، وأدى ذلك إلى ظهور نظم ومبادئ تشريعية جديدة<sup>(١١٤)</sup>.

مثال ذلك اشترط تكاليف مؤيده علي مشتري الأرض مثال: يبيع الشخص أرضه ويشترط علي المشتري أن يحتفظ البائع بطلتها مدى حياته، أو تخصص لورثته أو للغير، فكانت محاكم الشريعة العامة تحكم البيع وانتقال الملكية من البائع إلي المشتري مع بطلان الشرط وإعفاء المشتري من تنفيذه، وكان هذا البيع شائعاً في إنجلترا بقوة وبخاصة مع خروج الحملات الصليبية من إنجلترا، فكان المواطنون يبيعون أراضيهم قبل التوجه للأراضي المقدسة، ويشترطون علي المشتري أن يخصص ريعها لهم في حال حياتهم إذا عادوا من الحرب، ولورثتهم أو للكنيسة إن قتلوا في الحرب، وهذا النظام يشبه الوقف، يقتصر حق المالك فيه علي مجرد الإدارة، وكان المالك يسمى المؤتمن Owner in trust ومنها جاء نظام الترسر Trust الانجليزي<sup>(١١٥)</sup>.

واتبعت محكمة المستشار نظام التنفيذ العيني للالتزام إذا كان التعويض عن الإخلال بالالتزام أو التعهد فلا يقوم مقام الوفاء به عيناً، إذا كان مبدأ التنفيذ العيني الجبري غير معروف في الشريعة العامة، وفي الوقت الذي كانت هذه المحاكم لا تملك الحكم بالأمر بالامتناع عن فعل معين سيجلب ضرراً محققاً كل ما تفضله محكمة المستشارين هي أن تأمر هذا الشخص بالامتناع عن الفعل لأنه سيلحق ضرراً بالآخرين، وحتى يكون الالتزام ملزماً للمدين فلا بد من سبب قانوني<sup>(١١٦)</sup>، لو تعهد شخص بمبلغ قرض لم يحصل عليه فهو تعهد ملزم له أمام محاكم الإنصاف وليس أمام محاكم الشريعة، وكذلك لو تعهد شخص بدفع ثمن بضاعة وثبت انه لم يتسلم الشيء المباع في محكمة المستشارية كأن شيئاً لم يكن، أما في الشريعة العامة تدفع المبلغ الذي تعهد به رغم انه لم يتسلم البضاعة.

ومن الواضح أن المحكمة الاستشارية كان لا بد أن يطلق عليها محكمة الإنصاف

لأن أحكامها كانت تتميز بالعدل والإنصاف وروح القانون حتى أنها اعترفت باستقلال الزوجة ومن حقها التصرف في أموالها بحرية تامة، في حين أطلقت الشريعة العامة يد الزوج في أملاك زوجته<sup>(١١٧)</sup>.

وكانت هناك نظرية العقد الناقل للملكية Writ of debt في عهد هنري الثاني كان يطلق عليها أحيانا دعوى الدين وكانت هذه الدعوى كغيرها من الدعاوى التي يمكن الحصول على أمر ملكي بشأنها بدفع مبلغ من المال إلى الديوان الملكي موجه إلى المحكمة الذي يلجأ إليها من له حق برفض المدين الوفاء به<sup>(١١٨)</sup>.

وقد حددت محاكم الشريعة العامة بموجب كتابة العقود في القانون لإثبات الحق، فلا دعوى على المدين في هذه العقود إذا لم يكن ثمة سند كتابي، ولكن المحكمة المستشارية - عملاً بمبدأ رفع الظلم - انتهت إلى إلزام المدين بتعده في مثل هذه العقود إذا اعترف بالعقد أو أخفى السند<sup>(١١٩)</sup>.

واستحدث الملك هنري الثاني دعوى تحقيق استلاب الحيازة Assize of Novel desseisin فلم تعرفه إنجلترا لفترة سابقة على الغزو النورماني، وظهرت دعوى تحقيق استلاب الحيازة عن طريق الشراء Writ من الملك أو من ديوانه لحماية الملاك من اغتصاب حيازتهم، وكانت الدعوة في هذه الأنظمة تحمي الحيازة في ذاتها، حتى ولو لم يكن الحائز الذي استلبت حيازته هو المالك الحقيقي على العكس من دعوى ذلك نجد دعوى تحمي المالك نفسه<sup>(١٢٠)</sup>.

وطبقاً لما ذكره أحد المؤرخين فإن الملك هنري الثاني هو الذي أدخل دعوى تحقيق استلاب الحيازة في الفترة من ١١٥٥م إلى ١١٦٦م حتى يسمح للمالكين الذين نزعوا منهم حيازتهم قهراً وقسراً، وبدون رضاهم من استعادة ما يملكون وكانت هذه طريقة قانونية تحقق كثيراً من الفاعلية وأكثر ملاءمة من استخدام طريق المبارزة التي تؤدي إلى الموت<sup>(١٢١)</sup>.

وفي النهاية تعلم الانجليز بعد وفاة هنري الثاني أن الإجرام جريمة ضد الدولة وتفصل فيه محكمة الملك، وتعلموا كذلك وجود قانون واحد يسري على جميع البلاد، وتقوم محكمة الملك بتطبيقه عن طريق قضاتها المتنقلين، وكذلك التعاون في شئون الحكم وتضامن المواطنين عامة في القبض على الفارين من وجه العدالة وقيام المحلفين بتقدير الضرائب، وتجريم المجرمين أو تبرئة البريئين أمام الدوائر الجنائية، فضلاً عن الفصل في القضايا المدنية في المحاكم المركزية<sup>(١٢٢)</sup>.

الخاتمة ، تعود جذور النظم البرلمانية الانجليزية وفكرة حكم القانون إلى غابات ألمانيا وأحراشها حيث تعيش القبائل الجرمانية، وأن شجرة اللبرالية الباسقة لا بد وأن تكون نمت من بذرة القانون الجرمانى، ولكن التطور القانوني في تاريخ إنجلترا يسير في اتجاه الحكم المطلق، واستغرق الأمر عدة قرون من التجريب والنضال السياسي قبل أن تنتصر سيادة الشرعية القانونية. ولكن الحقيقة أن إنجلترا أخذت عن القانون الجرمانى تقاليد سيادة الجماعة القانونية على الملك. وكان من الممكن أن ترث كل بلدان

أوروبا الغربية التقاليد القانونية نفسها، إلا إن ما حدث هو مبدأ الحكم المطلق الذي عرفه القانون الروماني وقد ساد أنحاء أوروبا سنة ١١٠٠م، علي حين كانت إنجلترا وحدها هي التي حافظت علي الفكرة الجرمانية الباكرة عن أن القانون يوحد بين أفراد الشعب وليس مرهوناً بإرادة الملك<sup>(١٢٣)</sup>.

لم يكتف الملك هنري الثاني بإصلاح مبادئ القوانين الجرمانية والنورمانية القديمة التي ورثها عن الملوك السابقين عليه، ولكنه جاء بأفكار قانونية راديكالية جديدة ليس لها مثيل من قبل في أي قانون أوروبي آخر ومعاصر له.

لقد ساعد القانون في عهد هنري الثاني في القضاء علي النظام الإقطاعي القضائي السائد، وحلت محله محاكم لا ترتبط بالسلطة المركزية، ولذا كانت تعد نوعاً من القضاء الخاص الذي يحكم قضاته في منازعات الأرض وأحياناً امتد ليشمل المسائل الجنائية التي تنشأ بين حائزي الأرض.

ولقد شهدت إنجلترا تغيرات قانونية أساسية راعت متطلبات الوضع، والتغيرات كانت بارزة في النظم القانونية والقضائية السائدة، وهي تغيرات حدثت في نظم الإدارة والحكم من ناحية وفي نظام القضاء من ناحية ثانية، وفي القواعد المطبقة من ناحية ثالثة.

لقد أسهم القانون بشكل كبير في تطوير مجال اللغة الإنجليزية في العصور الوسطى نحو ما يمكن أن يسمى "الدولة"، إذ أولاً: حفز التفكير السياسي إلى حد كبير من الاشتباكات بين الملوك والكنيسة علي السلطة النسبية. وثانياً: قدمت دراسة القانون الروماني والكنسي في القرن الحادي عشر حتى وقت متأخر كثيراً من اللغة والعديد من الأفكار القانونية الخاصة في الدولة، وثالثاً: كثيراً ما يستخدم القانون لاختبار وجود الدولة هو انه ينبغي أن يكون لها احتكار العنف المشروع في العصور الوسطى - كما هو الحال في جميع الدول - وكان القانون هو الطريق الوحيد لتسوية المنازعات، وبدلاً عن اللجوء للعنف، وسعى الحكام للحد أو منع العمل المباشر من هذا القبيل، لتوجيه النزاعات من خلال قانون الملكية، ورابعاً: كان القانون مهماً في إقامة علاقة بين الملك وشعبه في إطار من القانون.

وفي النهاية تبلور النظام القانوني والقضائي في عهد الملك هنري الثاني في إنجلترا، وتتلخص ملامحه في أن الدولة بدأت تدريجياً تبسط سيادتها ممثلة في سيادة قضائها علي كافة أرجاء المملكة، وهذا يعني سيادة القضاء الملكي، وانحسار القضاء الديني والمحلي والإقطاعي، وسيادة القواعد القانونية التي يطبقها هذا القضاء، وهي ما تسمى بقواعد الشريعة العامة، ولم يكن التطور هذا يتم فجأة بل يحدث تدريجياً إلى أن تبلور النظام القانوني ليصل إلى الصورة التي عليها الآن.

## المصادر والمراجع

## أولاً : المصادر :

1. Asser, Life of king Alfred (ed.) E.H.D., 2vols, London , 1968.
2. Glanville R ., The Law and Customs of the Kingdom of England (ed.) John B.E, London , 1812.
3. Heinrich B., The Sources of English Law, The Jury of presentment and Assize of Clarendon, vol.56, No.223, Boston,1908.
4. Henderson, Select Historical Documents, London,1916.
5. Incipit Assisa de Clarenduna facta a rege Henrico, scilicet Secund in Stubbs (ed.) select charters , Oxford , 1921.
6. Materials for the history of Thomas Becket, (ed.) Robertson in (R.S.), 1965.
7. Roger Wendover , Flower history, trans. Gilles, London, vol.1, 1849.
8. Stubbs W., select charters, oxford, 1921.
9. The Laws of Alfred (ed.) E.H.D, vol.1, London , 1968.
10. William of Newburgh, Historical rerum Anglicarum, in chronicles of the reigns of Stephen , Henry II and Richard I , ed., R. Hewlett, 2 vols, (R.S), 1884-1885.

## المراجع الأجنبية :

1. Adams G.B, The history of England from the Norman conquest to the death of John (1066-1216), London , 1905.
2. Arthuy Ogle M.A., The Canon Law in Mediaeval England , London , 1912.
3. Belloc H., A shorter history of England , London , 1934.
4. Coilint P. et Ciffard A., Precis de Droit Romain, T.1, Paris , 1926.
5. Crook A., Law and life in Rome, London, 1971.
6. Cross A.L., A History of England and Greater Britain, New York , 1921.
7. Davis H. W, England under the Normans and Angevins,

- London, 1930.
8. Doroth Whitelok, *The Beginning of English society*, Penguin Book, 1984.
  9. Frederick P. & Maitland F.W, *History of English Law*, press, 1953.
  10. Gastonmay ,*Elements de Droit Romanain* , paris , 1932.
  11. George Duby, *Feodalite Encyclopedia*,vol.9,Paris, 2002,
  12. Henry Hallam, *view of state of Europe during the Middle Age*, 2 vol , London, 1855.
  13. Holdsworth, *history of England law* , London , 1903.
  14. Hume D., *The History of England, from the invasion of Julius Caesar to Revaluation* , London , 1930.
  15. Knowles, *Tomas Backet*, Stanford , 1970.
  16. Lord Mackenzie, *Studies in Roma Law*, London , 1876.
  17. Maitland F.W, *The constitutional history of England*, London , 1919.
  18. Maitland F.W, *Law Renaissance* , Press, 1953.
  19. Melville R.D., *A manual of principles of roman law*, Edinburgh, 1918.
  20. Petit-Dutaillis C.H., *La Monarchie Feodale en France et en Angleterre*, Paris , 1933.
  21. Radcliff G.R.Y & Cross G., *The England legal system* ,London , 1946.
  22. Stenton, *English society in the early ages (1066-1307)*, penguin book, 1959.
  23. Stephenson G., *Mediaeval history*, New York , 1943.
  24. Stubbs W, *The constitutional history of England*, oxford, 1873.
  25. Trevelyan G.M.,*A short end history of England*, New York,1942.
  26. Vinogradoff P., *English society in the Eleventh century*, oxford, 1908.
  27. Willson D.H., *A history of England*, London, 1972.
  28. Whitelok D, *The Beginning of English society*, Penguin Book, 1984.

## المراجع العربية والعربية:

- ١- موريس كين : حضارة أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: قاسم عبد قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ١٩٩٤.
- ٢- هـ . و. ديلز : أوروبا العصور الوسطى، ترجمة: عبد الحميد حمدي محمود، منشأة المعارف، ط١، ١٩٥٨.
- ٣- نظير حسان سعادوي: تاريخ تجلثا وحضارتها في العصور القديمة والوسيطه، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٥٨.
- ٤- دلك واطمن رائى : تاريخ أساس الشرائع الاجلثيزية ، ترجمة نقولا حداد، المكتبة الشرقية، ١٩٢٢.
- ٥- نورمان فـ . كالتور: التاريخ الوسيط، ترجمة : قاسم عبده قاسم، ج٢، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٧.
- ٦- ولي ديورالست : قصة الحضارة ، م ١٥- ١٦، عصر الإيمان ، ترجمة: محمد بدران، مكتبة الأسرة، ٢٠٠١.





## الهوامش

- (١) المختار من صحاح اللغة، محمد محي الدين وآخرون، دار الكتب للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨، ص ٤٣٧.
- (٢) Walton , Historical introduction to the Roman Law, London , 1916, p.255.
- (٣) Glanville R., The law and customs of kingdom in England (ed.) John B. E, London , 1812, p. xxxviii ; Crook A., Law and life in Rome, London, 1971, p. 21.
- (٤) Melville R.D., A Manual of principles of Roman law, Edinburgh, 1918,p. 35.
- (٥) Lord Mackenzie, Studies in Roma Law, London, 1876, pp.28-29; Roly H., Roman Law in C.M.H.(ed)Bury, vol.11,p.59.
- (٦) نورمان ف. كاتنور: التاريخ الوسيط، ترجمة: فاسم عبده فاسم، ج ٢، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٧، ص ٤٢٠.
- CF: Waitton, Historical introduction to the Roman Law, London, 1916,p.292; Gaston May, Elements de Droit Roman, paris, 1923, p.9.
- (٧) نورمان ف. كاتنور: المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٣٨.
- CF. also. Lord Mackenzie , op.cit, pp.25-26.
- (٨) نورمان ف. كاتنور: المرجع السابق، ج ٢، ص ١٢٨ - ١٢٩.
- Radcliff G.R.Y & Cross G., The English legal system, London, 1990, pp.2-3.
- (٩) الواقع أن البدايات الأولى لنشأة القانون الإنجليزي وتطوره تبدأ مع الغزوات الالانوسكونية في القرن الخامس الميلادي، مروراً بالفتح النورمانى، حتى تبلور الشكل القانوني، وتطورت القواعد الموضوعية للقانون من خلال تطور المحاكم وطبيعتها واختصاصتها وتشكيلها على يد الملك هنري الثاني، انظر:
- Asser . Life of king Alfred (ed.) E.H.D., vol.1, London , 1968, pp. 264-265; Frederick P. & Maitland F.W, History of England Law, press, 1953, p.64 ; Cross A.L., A History of England and Greater Britain , New York , 1921, p. 80 ;

Trevelyan G.M., A shortend history of England, New York, 1942, p. 118.

(10) قُسمت البلاد إلى مقاطعات Shires والمقاطعات إلى وحدات أصغر تسمى ثلثات Hundred والثلثات إلى وحدات أصغر تسمى عشرات Tenth. ويذكر البعض أن المائة تشير إلى مساحة الأرض وهي مائة هاید Hide (٢٢٠ ياردة) بشرط أن تكون وحدة واحدة، ومنهم من أرجعها إلى عدد ملاك الأراضي في المقاطعة الواحدة، ومنهم من ذكر أنهم عدد العائلات الأرستقراطية في المقاطعة. انظر :

Roger Wendover , Flower history, Tr.Gilles, London, vol.1, 1849, p.227; Henry Hallam , view of state of Europe during the middle Age , London, 1855, vol.2, pp. 280-281.

(11) Vinogradoff P., English society in the Eleventh Century, oxford, 1908, pp.28-29.

(12) يكون الملك ومجلس اللوردات محكمة عليا للقضايا المدنية والجنائية، مما يعني أن مجلس الحكماء كانت له اختصاصات تشريعية وتلغرافية وقضائية في المراسيم والقوانين التي تصدر. انظر:

- Willson D.H., A history of England, 1972, p.58; Gross, op.cit p.79; Stanton, English society in the early Ages (1066-1307), penguin book, 1959, p.209.

(13) White Lack D., The Beginning of England society, penguin, 1959, p.149; Hume D., The History of England , from: the Invasion of Julius Caesar to Revolution of 1688 , London , 1930, p.52.

(14) Laws Alfred (No.33) , 43; Roger of Wendover, vol.1, pp.227-228.

(15) بعد الشريف هو الحاكم العثماني الرئيسي للمقاطعة، ويرأس محكمة المقاطعة، والمختص بالأمن وتنفيذ العدالة والقانون وفقاً لتوجيهات المحاكم، ويتمتع بنفوذ هائل وسلطة واسعة، وكانت تعقد جلسات المحكمة برئاسة في الأقاليم المختلفة، وأصبحت هذه المحاكم تسمى طوائف الشريف Court of sheriffs tour نظراً لطوقه بإقليم ثلثات إقرار العدالة، ويشرف على تنفيذ الأحكام وخاصة الإعدام. انظر:

- Stubbs , The constitutional history of England , oxford , 1873, vol.1, pp.225-226 ; the Cambridge historical

- encyclopedia of great Britain and Ireland, London , 1985, p.62.
- (16) Glanville, op.cit, pp. 277-278; Maitland F.W, The constitutional history of England , London , 1919 . p.45.
- (17) Holdswoth, History of England law , London , 1903, vol.1,p.5.; Petit-Dutaillis C.H., La Monarchie feodlie France et en Angleterre , Paris, 1933, p.123.
- (18) بظير حسان سعادي: تاريخ إنجلترا وحضارتها في العصور القديمة والوسطية، دار النهضة العربية، القاهرة ، ١٩٥٨، ص ٧٨.
- (19) Maitland , The constitutional history of England, p.61.
- (20) Holdswoth, op.cit, vol.1,p.42.
- (21) History of England , op.cit, vol.1,p.27.
- (22) بعد راتولف جلاتفيل من أبرز القضاة في إنجلترا، ولد في نورماندي، وانتقل إلى إنجلترا فعيّنه هنري الثاني رئيس قضاء وستمنستر ثم سوهوك، ثم خازن لبيت المال، وعين شريفاً لمقاطعة يورك سنة ١١٦٢م حتى موت هنري الثاني. وأبقى عليه الملك ريتشارد وعينه كبير قضاة إنجلترا سنة ١١٧٦م، ثم رئيساً للقضاة سنة ١١٨٠م، وتوفي في بلاد الشام سنة ١١٩٠م.
- The law and customs, op.cit, p. x-xiii; Holdswoth, op.cit, vol.1,pp.21-22.<http://Archivebeta.Sakhr.it.com>
- (23) Holdswoth, op.cit, vol.1,p.22.
- (24) Maitland , The constitutional history of England, p.61
- (25) هـ . و. ديلز : أوروبا العصور الوسطى، ترجمة: عبد الحميد حمدي محمود، منشأة المعارف، ط١، ١٩٥٨، ص ١٦٨ - ١٦٩.
- Dorothy Whitlok, The Beginning of English society Penguin book, 1984,p.67.
- (26) شغل المستشار وضاعاً مهماً في المملكة باعتبارها الأمين الأول لسر الملك، وأصبح له دور قضائي مهم في البلاد، وكان يطلق عليه اسم القضاء اللاتيني Latin Jurisdiction لأن سجلات الأحكام Reports تكتب باللاتينية، وأصبح بعد ذلك القضاء الإنجليزي England Jurisdiction لأنه كتب بالإنجليزية ، وكان يرأس كل موظفي القصر، وكان له دور كبير في القضاء الإنجليزي في عهد هنري الثاني-أنظر:-

Glanvill, op.cit , p. 98 ; Stubbs W. Historical introduction to the (R.S) , New York , 1902, p. 139 ; Radcliff & Cross , op.cit , p. 110.

(27) Glanvill, op.cit , p.205 ; Holdsworth, op.cit, vol.1.p.32.

(28) Stephenson G., Mediaeval history, New York , 1943, p.422.

(29) Laws of Alfred (No.33).8.

(30) كانت هناك حماية لرجال الدين من خلال اللقانون، فمن يعتدي على رئيس الأساقفة بغرم بثلاثة جنيهات، وإذا اعتدي على الأسقف أو القس أو أي رجل دين أغرم بغرم بجنيهين، ولرجال الدين الحق في تحصيل الغرامات على مرتكبي الجرائم.  
-Laws of Alfred (No.33).5.

وإذا اتعم شخص ببت رئيس الأساقفة يدفع غرامة تسعون شلن، وإذا حدث مع الأسقف أو القس ستون شلنًا.

-Laws of Alfred (No.33).40.

(31) Paniter S., A History of the Middle Ages , New York , 1954, p.251.

(32) نظير حسان سعدي: المرجع السابق، ص ٨٩.

(33) كانت محاكمة رجال الدين تتم في الكنيسة بشكل صوري على سبيل المثال، عندما قتل احد رجال الدين قارس من لتكولن، حكمت عليه المحكمة الكنسية بالبراءة، وأراد أهله الانتقام وعرضت القضية على محكمة الملك، فلم يجد بديلا سوى الموت، وفي اللقانون الإنجليزي:  
- إذا اتهم رجل الدين بقتل أو إثم خطير يطرد من رحمة الكنيسة، ويذهب للحج ويقرر مصيره إليها.

- وإذا أذلي رجل الدين بشهادة زور أو ساعد في جريمة لتواطوء في سرقة يحم من منصبه الكنسي.

CF: Knowles, Tomas Backet, Stanford , 1970, p. 78.

(34) Knowles , op.cit, p.63 ; Adames , op.cit, p.280.

(35) Materials for the history of Thomas Becket, (ed.) Robertson in (R.S.), 1965, vol.1, p.12 ; Knowles , op.cit, p.78 ; Lunt, History of England , London , 1928, p. 203.

(36) Adams , op.cit, pp. 280-281 ; Lunt, op.cit, p.212.

(37) Materials , op.cit, vol.1 . p.16.

(38) Adams , op.cit , p. 282 ; Knowles , op.cit , pp.86-87 ; Lunt , op.cit, p. 204.

(35) Belloc H., A shorter history of England , London , 1934, pp. 135-136 ; Davis H. W, England under the Normans and Angevins, London,1930, p.212.

(40) Assize تعني مرسوم أو قانون أو إقرار استعملها جلايفيل Glanvill كبير قضاة هنري الثاني، وكلمة assize نسبة إلى assideo الجلوس المشترك في مجلس واحد، وتطلق الكلمة على قرارات المحلفين والأحكام الصادرة عنهم، ويذكر أن القانون صدر لتخفيف صرامة الإجراءات ضد المجرمين المئنين، ونص في احد بنوده على السماح للمتهمين بجرائم خطيرة ولم يعد أمامهم سوى اللقي من البلاد، ولعجزهم عن تطهير أنفسهم أن يبقوا في البلاد أربعين يوماً للتكبير من مدمم بما يحتاجون إليه في المنفى . انظر:

-Holdsworth , op.cit, vol.1 , p. 153 – p. 441.

(41) حضر التوقيع على القانون الملك هنري الثاني والتوردات والبارونات وروساء الأساقفة ورجال الدين والقضاة والعديد من أشراف المملكة منهم من وافق ووقع ومنهم من رفض ولم يوقع وعلى رأسهم رئيس الأساقفة بيكت، ومن الحضور: الملك ورئيس أساقفة كاتربري وروجر Roger رئيس أساقفة يورك، وجيلبرت Gilbert رئيس أساقفة ويتشيسر، ولينجل Nigel أسقف الاي Ely، ووليم أسقف نورثن، وروبرت أسقف هيرفورد Hereford، وروبرت أسقف لنتون وهيلاري اسقف شستر وجويشيل Jocelyn أسقف سالسبوروي، وريتشارد أسقف تشستر، والتوردات، منهم: روبرت إيرل المستر، وريجنالد إيرل كورنول Reginald of Cornwall وكونان Conan إيرل بريتانى، وروجر إير كثير Clare، وإيرل جيفري دي ماندفيل Geoffrey de Mandeville، وريتشارد دي وسي R.Luci وريجنالد دي موبراى R.Mowbray وليم مالك W. Malet، وروبرت دي دنستفيل R. de Dunsterville، وجودفري دي فير G.Vere، وليم هاستنجز W. Hastings، هيو دي مورفيل H.Moreville، آلان دي نيفل Alan de Nevill، وليم تشامبرلين W. Chambrlain (الحاجب)، وجون مارشال وبيتر دي ماريا P. de Mara، والعديد من العلماء والتبلاء على حدأ سواء من رجال الدين والعلمانيين . انظر:

- Henderson, Select historical of documents, London, 1916, p. 11; Materials, op.cit , p. 18.

(42) عن بنود قانون كلاندون . انظر:

Incipit A assica de Clarenduna facta a rege Henrico, scilicet in stubbs (ed.) select charters , Oxford , 1921, pp. 170-173 ; Henderson . Select historical , pp. 11-16 ;

Materials for the history of Thomas Becket , vo.,1 , pp. 18-23 ; Knowles , op.cit , pp.87-90.

(٤٣) Davis , op.cit , p. 215 | Belloc H. , op.cit , p.136.

(٤٤) ولي ديورانت : قصة الحضارة ، مج ١٥-١٦ ، عصر الإيمان ، ترجمة، محمد بدران، مكتبة الأسرة، ٢٠٠١، ص ١٩٠.

(٤٥) الجدير بالذكر أن الفترة القاتونية المسموح بها لبقاء عرش الكنيسة شاغراً هي ثلاثة أشهر ويتم خلالها انتخاب راع لها، وأكد على ذلك مجمع اللاتيران في نوفمبر ١٢١٥م، ويتمتع الملك خلال تلك الفترة ببيع الكنيسة وممتلكاتها ، حتى يحصل جماعة الرهبان في الكنيسة على رخصة من الملك للانتخابات، وكان الملك يمد المدة أصول فترة ممكنة ليتمتع ببيع الكنيسة. انظر:

- Roger of Wendover, Flowers of history , trans: Gilles, London , 1849, vol.2, p. 345 ; Knowles , op.cit, p. 104 ; Adams , op.cit , pp. 287-288.

(٤٦) Davis , op.cit, p. 218; Knowles, op.cit, p. 105-106; Belloc H., op.cit, 136.

(٤٧) Adams , op.cit, p.293 ; Knowles, op.cit, pp.212-213.

(٤٨) كانت ضريبة بندس القديس بطرس بجمعها رجال الدين، وتقل إلى رؤساء الكهنة والموظفين والأساقفة أو جامعي الضرائب البابوية ، ثم ترسل الأموال إلى روما حوالي ثلاثمائة مارك فقط، ويحتفظ جامعي الضرائب من رجال الدين بالجزء الأكبر الذي يقدر بنحو ألف مارك، ولكن الملك هنري الثاني أصدر قرار بجمعها لحساب الخزانة الملكية. انظر :

-Knowles , op.cit, pp.124; Davis, op.cit, p. 220; Adams, op.cit, p.293 ; Lunt, op.cit , p. 213.

(٤٩) William of Newburgh, vol.1, p.160; Davis, op.cit, p. 220 ; Lunt, op.cit, p. 213

(٥٠) Knowles , op.cit, pp.. 106- 107.

(٥١) يذكر المؤرخون في هذا الصدد أن الملك هنري وهو في نورماندي وصلته أخبار بصورة محرفة من بعض رجال الدين من حرمان لرجال الكنيسة وأتباع الملك، وأثناء مآبة للطعام وجه هنري حديثه لمن حوله قائلاً: ' عجبا أيجرؤ رجل يطعم خبزي ... على أن يهين الملك والمملكة، ولا يأخذ بحقي واحد من أولئك الكسالى الذين يطعمون على مانتني '، فأتجه أربعة فرسان دون علم الملك ونهبوا رئيس الأساقفة أمام مذبح كنيسة كانتربري. انظر:

- William of Newburgh, vol.1, p. 160; Knowles, op.cit, pp.139; Adams, op.cit, pp. 294 - 295.
- (32) Holdsworth , History of English law , vol.1, pp. 371-372.
- (33) Holdsworth , History of English law , vol.1, pp. 373.
- (34) Holdsworth , op.cit, p. 21 ; Heinrich B., The Sources of England , pp. 26-27 ; George Duby , Feodalite Encyclopedia , Paris , 2002, vol.9, p. 308.
- (35) Frederick P. & Maitland F.W., op.cit, vol.1, p.138 ; Mchugh W. D., English law courts , pp. 9-10.
- (36) Glanville, op.cit, p.346 ; Stubbs W., Historical introduction , pp. 139-140
- (37) Fredric P. & Maitland , F.W, op.cit , vol.1, p.601.

- نظير حسان سعداوي: المرجع السابق، ص ٨١.

- (58) Maitland , The constitutional history of England , p. 117.
- (59) Holdsworth , op.cit . vol. 1, p. 153.
- (60) Stubbs W., Historical introduction , pp. 142.

(61) كانت المحاكمة عن طريق المياه الباردة هي الوسيلة المفضلة في إنجلترا، حيث يوجد عدد كبير من الأنهار والبحيرات. فكان يلقي بالمتهم في الماء وهو مقيد اليدين والقدمين، فإذا غاص كان بريئاً، وإذا طفا على سطح الماء يكون مذنباً على أساس أنهم يعتبرون الماء عنصراً مقدساً يرفض قبول الشخص المذنب. النظر :

حسان سعداوي: المرجع السابق، ص ٨١؛ نورمان كانتور: المرجع السابق، ج ١، ص ١٨٠-١٨١.

- (62) Holdsworth, op.cit, vol. 1, p. 142; Stubbs W., Historical introduction, pp. 142
- (63) Holdsworth , op.cit . vol. 1, p. 142 ; Naomi D., Hurnard , The English historical review , pp. 396-397.

(64) أولى لهايا الوسطى الثالث (١١٩٨-١٢١٦م) مجمع اللاتران الرابع اعترافاً كبيراً، فنجده يحضر له قبل انعقاده بعامين تقريبا، وفي نوفمبر ١٢١٥م انعقد المجلس وحضره كل مندوبي الكنيسة اللاتينية واليونانية ومندوبي الملك والأمراء، وتناقش عدد من القضايا الدينية المهمة، وقام بإلغاء نظام المحاكمة بالنار والماء، ويقال في هذا الصدد أن رئيس حركة الفرانسيسكان أراد مقابلة الملك الكامل أثناء الحملة الصليبية الخامسة على دمياط ( ١٢١٩ - ١٢٢١م ) ، وحاول إقناعه

بالمسيحية وعرض عليه امتحان اللار أو الماء المغلي، ولكن الملك رفض، وكان ذلك في فترة انعقاد مجلس اللاتران الذي أُنشئ نظام المحنة، ولم يكن الخبر قد وصله عن قرارات مجمع اللاتران النظر:

Roger of Wendover , op.cit , vol. 2, p. 345 ; Matthew of westminster , The Flowers of history , Tr. Yong , London , 1853, vol.2, pp. 121-122 ; Thatcher , A source book for , Medieval history , New York , 1905, pp. 538-539.

(65) لم يتوفر العدل المقس في الإليات عن طريق النزول، لأن الإبدانة أو البراءة تتقرر وفقاً لقوة الخصم، فكان يوسع الرجل الثري أن يستأجر أضخم رجل في البلد ليحل محله، وبذلك يستطيع أن يتخلص من أعدائه بتلقي التهم لهم، فلم تقدم الحل الكافي للعدل، والغريب أن هذه الطريقة ظل معمولاً بها في إنجلترا حتى عام ١٨٦٩. انظر: نورمان كاتنور: المرجع السابق، ج ١، ص ١٨١.

-Stubbs W., Historical introduction, pp. 142-143 ; Naomi D., Hurnard , The English historical review , pp. 397

(66) Glanville, op.cit , p.33; Holdsworth , op.cit , vol. 1, p. 34-35; Stubbs W., Historical introduction , pp. 139-140.

(67) Glanville, op.cit , p.223; Naomi D., Hurnard ; The English historical review , pp. 398 ; Holdsworth , op.cit , vol. 1, p. 35.

(68) Holdsworth, op.cit, vol.1,p.78; Stubbs W., Historical introduction, pp. 132.

(69) يطلق عليه ديوان المعاسبة ويشرف على أعمال نواب الملك والقضاة من الناحية المالية وتسلم إليه إقرارات نواب الملك التي يقومون بإعدادها كل ستة أشهر، كما تعد فيه المواد التي ستكون موضع تحقيق القضاة المستقلين وديوان المالية - في الأصل فرع من المحكمة المالية وخزينة لأموال الملك - ظل دائما على اتصال وثيق بالنظام القضائي طالما أن إحدى محاكم القانون الثلاثة تخصص أصلا بنظر القضايا التي تنصل بالإقرارات الملكية. انظر : هـ. و. ديلوز: أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: عبد الحميد حمدي محمود، منشأة المعارف، ١٩٥٨، ص ١٦٩-١٦٨.

(70) Holdsworth , op.cit , vol. I, p.28-29 ; Naomi D., Hurnard , The English historical review , pp. 390.

(71) Stubbs W., Historical introduction, pp. 131-132 ; Henrich B., The source of England law , p. 23.



(72) Holdsworth , op.cit , vol. 1, p.22-23.

(73) Henrich B., The source of England law , p. 26-27 ; Naomi D., Hurnard , The English historical review , pp. 398 ; Stubbs W., select charters , p. 99.

(74) Holdsworth , op.cit , vol. 1, pp. 112-123.

(75) كلمة Assess بالانجليزية تعني يفرض الشخص أو يقدر شيئاً ، الاسم Assessor يفرض أو يقرر ، ويبدو أنها مشتقة من الفعل الفرنسي Assesoir وتعني جلس ، واصطلاح Courd Assises تعني بالفرنسية القضاء الجالس ويقابلها الوقف Parquet وكانت الكلمة في عهد هنري الثامن Assize وتعني قاتون وتم تحريفها كما سبق. انظر في ذلك:

- C. Oxford Dictionary , pp. 68-69 .

معجم القاتون المصري، ص ٥٧ ا المعجم القاتوني: حارث سليمان الفاروقي، ج ١، ص ٥٩.

(76) المحفلون هم مساحون شعبيون لا يتمتعون بنفس التكوين القانوني والمهني للقضاة، وبالتالي ليس لديهم الإلمام الكافي بالقوانين حتى يصدروا آرائهم بناء على الأدلة القانونية التي ينص عليها القاتون في ظل نظام الإثبات المعقد هذا من جهة، ومن الجهة الثانية فإن المحفلين يطالعون على وقائع القضايا التي يبدون رأيهم فيها أثناء الجلسة، بينما القضاة يمكنهم الاطلاع على وقائع القضية أثناء دراستها وتحضيرها للجلسة، لذلك فإن المحفلين يبدون حكمهم بما يعنيه عليه ضميرهم وقناعاتهم الشخصية في ظل مبادئ العدالة. انظر:

Naomi D. Hurnard , The English historical review , p. 374 ; Stubbs W ; The constitutional of England , p. 681; Lunt , op.cit, p. 213.

(77) Pellock & Maitland , op.cit, p.138 .

(78) يذكر بعض المؤرخين أن نظام المحفلين أصله إسلامي، وكان معروفاً في شمال إفريقيا بداية إنتشار الإسلام بها ويسمى " التليف " ، أي مجموع الناس الذين يعيشون في المنطقة ويستعين بهم القضاء في أحكامهم. انظر : حسان سعادي: المرجع السابق، ص ٨١.

Stubbs W ; The constitutional of England , p. 681.

(79) Stubbs W; The constitutional of England, p. 681-682; Lunt, op.cit, p. 213.

(80) قضاء الأمن Justices of the peace ، كان اختصاصهم معظمه مدني، أما الجنائي فكان مقتصرأ على الجرائم التي تتدخل في المحاكم الملكية، وتحقيق الأمن

من اختصاص الشريف في المقاطعة، فهو الذي يحقق في الحوادث الجنائية، ويستمع إلى رأي المحلفين، ويجس المتهمين، ويتولى إدارة السجن، وأصبحت لهم هيئة قضاة الأمن، وتم توسيع اختصاصها على حساب اللجان القضائية وقضاة الشرع المتنقلين. انظر:

Holdsworth , op.cit , vol. 1, p.131-133 ; Maitland , The History English Law , vol.1 , pp. 206-207.

(61) Stubbs W., select charters, p. 99 ; Stubbs W ; The constitutional of England , p. 223.

(62) Stubbs W., select charters , p.100.

(63) Glanville , op.cit, p. 240 ; Stubbs W ; The constitutional of England , p. 681-682

(64) Adams G.B. The history of England from the Norman conquest to the death of John (1066-1216). London , 1905, pp.322-323.

(65) دافد واظمن راني : تاريخ أساس الشرائع الإنجليزية ، ترجمة نقولا حداد، المكتبة الشرقية، ١٩٢٢، ص ٢٩.

(66) دافد واظمن راني: المرجع السابق، ص ٢٩ - ٤٠.

(67) دافد واظمن راني: المرجع السابق، ص ٤٠.

(68) Glanville , op.cit, p. 240 ; Stubbs W., select charters , p.99.

(69) نظير حسان سعداوي: المرجع السابق، ص ٨٠.

Stubbs W., select charters , p.100.

(70) موريس كين : حضارة أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: قاسم عبد قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ١٩٩٤، ص ١١٧.

(71) Glanville , op.cit, p. 293 ; Maitland , The constitutional history England , vol.1 , pp. 172-173

(72) من الأوامر الملكية المختصة التي نقلت من اختصاص مجلس البلاط إلى محكمة منصة الملك:

أ- أمر استحضار الأوراق من المحاكم.

ب- أمر الامتناع الذي تصدره محكمة الملك إلى المحاكم الدنيا بالامتناع عن نظر الدعوى.

ت- أمر يصدر لمحكمة أدنى أو موظف عام بالقيام بعمل مفروض عليه قانونياً.

ث- أمر تحقيق للبحث والتفتيش عن الأساس القانوني.

ج- أمر الإحضار للمحكمة الحق في إحضار الشخص لتتظر في قانون حبسه.

موريس كين : المرجع السابق، ص ١١٧.

Maitland , The constitutional history England , vol.1 , pp. 172 ; Holdsworth , op.cit , vol. 1, p. 92-93.

- (93) Radcliffe & Cross, The English legal system, p. 20 ; Holdsworth , op.cit, vol. 1, p.95.

(94) موريس كين : المرجع السابق، ص ١١٧ - ١١٨.

- (95) Mchugh W.D, English law Courts , p. 23 ; Stubbs W ; The constitutional of England , p. 130.

(96) نظير حسان سعادي: المرجع السابق، ص ٨٨.

- (97) Roger Hovden, Chronicles (ed.) Stubbs W., vol. II, (R.S), London , 1816, p.261; Stubbs select charters, op.cit, pp.183-184; English historical documents,1042-1189(ed.)David G. Douglas, pp. 416-417; Basic Documents of English history (ed.) Stephen B. Baxter , Boston , 1968, p. 22.

(98) استحدث الملك هنري الثاني ضريبة البتلية. وهي رسم يدفعه إقطاع الملك الإقطاعيين إذا ما رغبوا بدلا من تقديم الخدمة العسكرية المفروضة عليهم تجاه ملكهم، وفرض هذه الضريبة ولحقا للحاجة. ويذكر العزخ جروس، أن الملك هنري الثاني فرضها سنة ١١٦٢م لأغراض خيرية لمواجهة الثلقات، وتولى الملوك الانجليز بعده في فرضها. انظر:

جوزيف داهموس: سبع معارك فاصلة في التاريخ، ترجمة محمد فتحي لشاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٩٢، ص ١٢١ - ١٢٢.

-Cross , op.cit, p. 81.

- (99) Stubbs W. , Historical introduction , p.141; Belloc, op.cit , p.132.

(100) كان أمرا الإحتقاق ضروري للتمتازعين قبل رفع الدعوى أمام محكمة الإقطاعي خوفاً من ظلم الإقطاعي الذي يحكم حسب السطوة والمال، فيطلب الملك منه الحكم بالعدل، وهو أمر الإحتقاق، وإلا أحيلت الدعوى إلى محكمة الشريف، وأصبح أمر الإحتقاق في عهد هنري الثاني ضرورياً قبل انعقاد المحكمة الإقطاعي. انظر:

- Glanville m op.cit, p. 239 ; Maitland , the constitutional history of England , pp. 111-112.

- (101) Glanville m op.cit, p. 240.

(102) Sayles G. O., *The medieval foundation of England*, press , 1950, p. 323.

(103) المقاومة الشعبية كان لها دور بارز في الحروب، وكان أعضائها يمثلون ملاك الأراضي الأكثر ثراء، ولديهم قواتهم الخاصة، والذين يدفعون بهم في وقت الحروب، وتحول نظام المقاومة الشعبية إلى قانون الخدمة العسكرية الإجباري فإذا لم يكن هناك في العائلة أحد يصلح عليهم أن يستأجر شخص من خارج الأسرة ليتقدم إلى الخدمة العسكرية. انظر:

- جوزيف داموس: المرجع السابق، ص ٨٩ - ٩٠.

Stubbs , op.cit, p. 181 ; Trevelyan , op.cit, p. 144.

(104) Glanville , op.cit, p. 55 ; Holdsworth , op.cit , vol. 1, p. 398 ; Stubbs W. , *Historical Introduction* , pp. 139.

(105) Holdsworth, op.cit, vol.1, pp. 398-399; Radcliff G. R. Y & Cross, op.cit, pp.109-110; Petit. T. Datalilis, op.cit, p. 123.

(106) Derry , *Great Britain History from Earliest times to present day*, oxford , 1962, p. 55.

(107) Glanville , op.cit, p. 293 ; Maitland , *The constitutional history England* , vol.1 , pp. 172 ; Holdsworth , op.cit , vol. 1, pp. 96- 97.

(108) Stubbs W. , *Historical introduction* , pp. 139-140.

(109) Radcliff G. R. Y & Cross, op.cit , pp. 111.

(110) Radcliff G. R. Y & Cross, op.cit , pp. 113-114

(111) Holdsworth , op.cit , vol. 1, p. 399

(112) Radcliff G. R. Y & Cross, op.cit , pp. 113-114

(113) Radcliff G. R. Y & Cross, op.cit , pp. 113-114.

(114) Holdsworth , op.cit , vol. 1, p. 399.

(115) كان نظام الترمست من النظم الشبيهة بالوقف في الإسلام، ويقال انه مأخوذ منه، والوقف هو نقل ملكية المال الموقوف إلى شخص آخر يتصرف فيه لمصلحة المستفيدين، ففي شمال إفريقيا يسمى الوقف بالحجوس وهو حصص المال على ذمة حكم الله، فينقل الملكية من الواقف إلى حكم الله، وبالتالي يصبح المال غير قابل التصرف فيه ، وفي الترمست إذا انتقلت الملكية من دير أو كنيسة كمؤسسة يكون استثمار هذا المال وتصريف غلته طبقاً لنص الترمست المنشئ عليه. انظر:

- Monica Gaudiosi ; *The Influence of the Islamic Law and The Development of the trust in England* , 1988, p.55 ; Holdsworth , *op.cit* , vol. 1, pp. 239-240

<sup>(116)</sup> Holdsworth , *op.cit* , vol. 1, p. 400 ; Stubbs W. , *Historical Introduction* , p. 139 ; Mchugh W.D. *English law Courts* , p. 23 .

<sup>(117)</sup> Holdsworth , *op.cit* , vol. 1, p. 400.

<sup>(118)</sup> Gianville , *op.cit*, p. 249 ; Holdsworth , *op.cit* , vol. 1, p. 424.

<sup>(119)</sup> Gianville, *op.cit*, pp. 205-206; Holdsworth , *op.cit* , vol. 1, pp. 196 - 197

<sup>(120)</sup> Holdsworth , *op.cit* , vol. 1, pp. 196 - 197.

<sup>(121)</sup> Holdsworth , *op.cit* , vol. 1, pp. 196 - 197.

<sup>(122)</sup> انظر ، حسن سعديوي: المرجع السابق، ص ٩١

<sup>(123)</sup> نورمان فـ. كاتوز: المرجع السابق، ص ١٨٣.

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhr.it.com>

## المكانة العلمية لمجاوري مكة إبان العصر السلجوقي

(١٤٢٩هـ/١٠٣٧م - ١١٩٢م)

د. محمد طه بن صلاح بن صالح بكري (\*)

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل الله فلا شريك له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.... وبعد

فقد تمتعت مكة المكرمة بمكانة سامية بين جماهير المسلمين في شتى بقاع العالم الإسلامي الذين تولفوا عليها طلبا لجوار بيت الله الحرام، تبركا بها، واستجابة لدعوة الخليل إبراهيم عليه السلام: في سورة إبراهيم "رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَهْلَهُ مِنْ تَحْتِهَا أَهْلًا مُبَارَكِينَ" (٣٧) .

ومصادقا لقول الرسول الكريم ﷺ: "والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنك أخرجوني منك لما رجعت"<sup>(١)</sup>

وعلى أرض مكة الطاهرة، وبجوار بيت الله الحرام الذي جعله الله مثابة للناس وأمانا، فضل كثير من الناس لاسيما العلماء والأئمة منهم، وأهل الفكر والرأي. بعد أداء فريضة الحج - الإقامة بها، مفضلها على بلادهم .

والمجاورة في اللغة هي الاعتكاف في المسجد، أما المجاورة بجوار الحرمين الشريفين في مكة والمدينة، فيراد بها الإقامة بهما، بغیر الالتزام بشروط الاعتكاف الشرعي<sup>(٢)</sup>.

وكانت المجاورة، على مر عصور التاريخ الإسلامي، هدفا يسعى إليه كثير من أئمة العلماء والمفكرين، حتى إن الإمام الشافعي جعلها قرية يتقرب بها إلى الله والإمام "أحمد بن حنبل" (رحمه الله) روي عنه أنه قال: "ليت لي الآن مجاورة بمكة"<sup>(٣)</sup>.

وتعتبر المجاورة، في رحاب بيت الله الحرام، ظاهرة دينية واجتماعية، أملتها رغبة بعض المسلمين، من جميع طبقات المجتمع الإسلامي، في قضاء فترة صفاة روحي وذهنى بجوار مكة المكرمة<sup>(٤)</sup>.

(\*) أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة أم القرى

والحق أن هجرة العلماء والأنباء إلى مكة، ومجاورتهم لبيت الله الحرام، اختلفت دوافعها وأسبابها المحركة لها خلال فترة البحث.

### الرحلة العلمية وأثرها في دفع حركة المجاورين:

كانت الرحلة معلما قويا حرص عليه طلاب العلم في العصر السلجوقي، ودأبوا عليه، لاسيما الراغبين في مجاورة بيت الله الحرام، إذ كانت المجاورة الرائدة الذي يغتربهم بمختلف المعارف والعلوم آنذاك.

والواقع أن الحج إلى بيت الله الحرام، وزيارة المدينة المنورة، مما زاد المسلمين إقبالا على الأسفار، ولهذا ارتحل العلماء إلى البلاد القاصية لطلب العلم وإلقاء الشيوخ، إذ كان البعض منهم ينتهز موسم الحج فيعرج على الشيوخ أثناء سفره، للسماع منهم، ويكتفون بذلك جهدا كبيرا وأموالاً طائلة خلال تلك الرحلات.

وكان الخلفاء العباسيون وسلاطين السلاجقة<sup>(١)</sup>، يعنون عناية فائقة بتنظيم طرق الحج وتعبئها وتوفير آبارها، كما فعل السلطان السلجوقي "ملكشاه بن ألب أرسلان"، عندما أمر بحفر الأبار في طريق مكة، كما فعلت منارة القرون في طريق مكة، في يجتدي بها للحجاج المتجهون إلى بيت الله الحرام<sup>(٢)</sup>.

ويؤكد ابن الجوزي<sup>(٣)</sup> (وهو من مؤرخي القرن السادس الهجري) على بقائها واستمرار تداية مهمتها حتى عصره، بقوله: "وهي باقية إلى الآن، وتسمى منارة القرون"<sup>(٤)</sup>.

وتعتبر الرحلة من أهم وسائل المسلمين في طلب العلم، إذ كان العلماء يحثون الطلبة عليها، فكان الطالب يترك بلدته بعد أن يحصل ما لدى علمتها، فيتوجه إلى مراكز العلم المنتشرة في أنحاء العالم الإسلامي، ويكابد مشاق السفر وأخطاره التي يعجز عن وصفها آنذاك، ولم يقف بعد المشقة، وتلك الأخطار حائلًا دون تلك الرحلات، التي ماكنت أخبارها بطون الكتب، لاسيما بعد أن وفرت لهم السلطات السلجوقية الأمن على الطرق المؤدية لمكة المكرمة.

وبفضل هذه الرحلات استمر تبادل الأفكار بين سكان مختلف الأقطاب الإسلامية، مما أبقى على الوحدة الثقافية للعالم الإسلامي، وزاد من تماسكها بعد تقسيمها سياسيا، حين ضعفت الدولة العباسية في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجريين، ولكن هذا الانفصال لم يكن إلا تقصلا سياسيا وحسب، ذلك لأن الدول التي التسلخت عن الجسم العباسي، كانت كلها ذات طابع واحد، هو الطابع العربي الإسلامي، وكانت الحياة العلمية والمأذاب التربوية وحدة متسقة تمام الاتساق، وكان العالم الإسلامي في أية بقعة من بقاع العالم، يجوب الديار، فيحاضر وينقلش

وينظر، وهو بين قوم يفهمونه ويلهمهم، لا فرق بين العراقي والفارسي، والمصري والمغربي، والأندلسي والحجازي، فكل بلد يدرس في ذلك واحد، ويسيرون إلى هدف واحد، ويدرسون برنامجاً تعليمياً واحداً، وربما اختلفت الصور والأشكال والهيئات والأساليب، أما حقائق الأمور وطابع الأثياء فثابتة متحدة، حيث استمر هذا النشاط العلمي في دار الإسلام، من أقصى المشرق الإسلامي إلى أقصى المغرب الإسلامي.

وهكذا كان للعلماء المسلمين أثر كبير في ربط أجزاء العالم الإسلامي المترامية الأطراف من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، إذ كانوا يعتبرون كل بلد يحلون به في هذه الأقطار الشاسعة بلدهم، وأهلهم، ويقومون بينهم ويرتحلون ولا يشعرون بالاختراب، وكان مهمهم الأكبر منصبا حول تحصيل المعرفة والاعتراف منها، يلخّضون أصولها على علمائها، ثم يعودون بعد أن يتزودوا بكل نعيم، فيقيدون بما تعلموا أبناء البلاد التي يحلون بها، كما أن العلماء المسافرين كانوا يعقدون مجالس الدرس للطلبة من أهل المدن التي يعرون بها، كذلك يحضرون مجالس المناظرة التي تعقد مع علمائها.

ومن أجل هذا سار العلماء الارتحال إلى البلاد القصية في طلب العلم ولقاء الشيوخ، فلم يكن ينبغ علم أو فقيه أو أديب، ويركن إلى علمه حتى يظوف في الأقطار، يلقي كبار العلماء وأجله الشيوخ، ويحصل العلم من شيوخ كثيرين في بلاد مختلفة.

وقد عقد "ابن خلدون" في مقبلة الشهيرة، فصلا عن الرحلة في طلب العلم، يشير فيه إلى أن الرحلة في طلب العلوم، ولقاء المشيخة، لا بد منها في طلب العلم، لاكتساب الفوائد والكمال بقاء المشايخ ومباشرة الرجال، فيحصل الطالب على منة علمية أقوى مما لو درس على شيخ واحد، ويعلم ذلك بأن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلون به من المذاهب والفصائل، تارة عما وتعلما وإلقاء، وتارة محادثة وتلقينا بالمباشرة، إلا أن حصول المنكبات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا، فطى قدر كثرة الشيوخ، يكون حصول المنكبات ورسوخها، فأرحلة لا بد منها في طلب العلم، لاكتساب الفوائد والكمال بقاء المشايخ ومباشرة الرجال<sup>(١)</sup>.

وكان العلماء في العراق والمشرق الإسلامي في رحلات دائمة، وأسفر غير منقطعة، فهم ينتقلون من بلد إلى بلد آخر دون أن تكون ثمة حواجز أو موانع تعوق تنقلهم بين مدن خراسان، وما وراء النهر، والعراق، والشام، ومصر، ونيار المغرب والأندلس، ومنهم من يجاور بركة، وكان هؤلاء العلماء يلقون الحفاوة والتقدير من أعيان وأبناء البلد الذي يحطون فيه.

#### التخصص والمنازح المذهبية وانعكاساته الاجتماعية :

كان في الحجاز لهذا العصر إمارتان، إمارة مكة وإمارة المدينة<sup>(٢)</sup> وكانت إمارة مكة لتحصين<sup>(٣)</sup> من أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب، في حين كانت إمارة المدينة للحميين<sup>(٤)</sup>



من أحفاد الحسين بن علي بن أبي طالب، وكانت الإماراتان تدينان بولاء للخلافة الفاطمية في مصر<sup>(١١)</sup>.

وقد شجع البويهيون مبعوثي الفاطميين، غير أن هدفهم من ذلك لم يكن تمكين الخليفة الفاطمي من تولي الخلافة على المسلمين أجمعين ؛ لأنهم كانوا يريدون خليفة مستووب القوي، لتتحقق لهم السيطرة عليه، ولذلك لم يصلوا على خلق الخليفة العباسي، غير أنهم وإن كانوا قد أبقوا على الخليفة السني، إلا أنهم عملوا على التتكيل به ويتباعه<sup>(١٢)</sup>.

ومن العجيب، في العصر البويهي، أن يكون السلطان الشيعي حاميا للخليفة السني. وإن كان هذا السلطان لا يعتقد في صحة خلافة العباسيين، حمله علي ذلك رغبته في المحافظة على مكتسباته السياسية، وذلك بناء على نصيحة أحد مستشاريه بالإبقاء على الخليفة السني الضعيف آنذاك، وعدم الاعتراف بسلطان الخليفة الفاطمي الشيعي لأن ذلك خطر عليه. ويحدثنا ابن الأثير عن الحوار الذي دار بينهما بقوله : إنك أنت اليوم مع خليفة عباسي تعتقد أنت وأهلك أنه ليس من أهل الخلافة، ولو أمرت بقتله لقتلوه مستحلين دمه، ومتي أجشست بعض العويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأهلك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لقتلوه ، فأعرض عن ذلك (١٤) .

وكان من جراء هذه السياسة أن تركزت الأمور بين الفريقين أكثر من مرة، حتى إن عصر البويهيين كان يعرف بأنه عصر اضطهاد لأهل السنة، واضطر كثيرون منهم إلى الرحيل عن ديارهم، احتجاجا على ما كان يقع أيها من أمور تشين كرامتهم .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

### ظهور السلاجقة :

بقيت البلاد التي كان يسيطر عليها البويهيون على هذه الحق زهاء قرن من الزمان، إلى أن ظهر السلاجقة لأول مرة في خراسان حوالي سنة (٤٢٦هـ/١٠٣٤م)<sup>(١٥)</sup>، واستتب لهم الأمر حوالي سنة (٤٢٩هـ/١٠٣٧م) وكفوا بشعون المذهب السني، واتجهت أنظار التابعين للمذهب إليهم، مما مهد لهم المسيل للسيطرة على الولايات المجاورة لخراسان رويدا رويدا.

غير أن ظهور السلاجقة في المشرق الإسلامي، وزيادة نفوذهم فيه، لم يقض على الفتن المذهبية التي كانت قائمة في ذلك الوقت، والتي كانت تسفر، في كثير من الأحيان، عن حوادث دامية يذهب ضحيتها كثير من الأهلين<sup>(١٦)</sup>.

وكانت سنة التولة السلجوقية بمكة والمدينة وثيقة منذ قبليهما، لأنهما المنبع الأصلي للإسلام، حيث كان لإمارة مكة العكالة الأولى في العالم الإسلامي، إذ كان المسلمون - ولا يزالون - يذمونها سنويا من بقاع الأرض قاصبيها ودانيها لأداء فريضة الحج، وكان من يدعو لنفسه من الخلفاء على منارها - سواء من الخلفاء العباسيين، أو الفاطميين - يعد نفسه خليفة للمسلمين قاطبة .

والواقع أنه لم يوجد عالم من علماء المسلمين - في الغالب - إلا وشهد الرجل إلى مكة لأداء فريضة الحج، ووجد من العلماء من استهواه بريفها، فظل يدرس بها ويقتي، ومنهم من كان ينتهز فرصة وجوده هناك ليأخذ من الشيوخ ويسمع عنهم، ويقطف من جناهم أطيب الثمار وأشهى الأكل من مختلف العلوم والفنون.

ومن الأمور التي تلفت النظر، في العصر السلجوقي، أن هناك عددًا غير قليل من كبار المتفكرين، كالقفاه والأبناء وعلماء النحو واللغة، قد تركوا ديارهم ونزحوا إلى مكة، ومن غير الممكن أن يكون هؤلاء قد تركوا بلادهم ولديهم أسباب الحياة الكريمة، فلا يعقل أن رجالاً بهذه الدرجة من الثقافة والعلم يهجروا أوطانهم دون أسباب وجيهة، مع العلم أنهم لم يهاجروا في طلب العلم، لاسيما وأن كلا من العراق والمشرق الإسلامي، في العصر السلجوقي، كانا منارة للعلم والمعرفة، يحج إليهما طلاب الثقافة من كل فج عسيق. إن لماذا تركت هذه الصقوة المختارة بلادها واتجهت إلى الأراضي المقدسة؟

والواقع أن العصر البويهي عرف بأنه عصر اضطهاد لأهل السنة، مما اضطر كثيرًا من العلماء إلى الرحيل عن ديارهم احتجاجًا على ما كان يقع من أمور تشين كرامتهم، إلا أن ظهور السلاجقة في المشرق الإسلامي، واستتب الأمر لهم في العراق، وكثروا يتبعون المذهب السني، فتوجهت لظفر الثمانين للمذهب إليهم.

غير أن ظهور السلاجقة في المشرق الإسلامي أولاً، ثم في العراق ثانياً، لم يقض على الفتن المذهبية التي كانت قائمة بين أصحاب المذاهب الإسلامية في ذلك الوقت، والتي كانت تسفر في كثير من الأحيان، عن حوادث نامية يذهب ضحيتها الكثير.

ولم يكن العراق وحده مرتعًا للحوادث العنيفة، بل امتدت تيران الفتنة إلى غيره من مدن المشرق. وكانت "نيسابور" مسرحًا لفتن كثيرة، منها ما حدث في عصر السلطان "طغرل بك"، عندما أمر بلعن الرافضة الشيعة على منابر خراسان أيام الجمع، فاستقل وزيره "صيد الملك الكندري" (١٦) هذه الفرصة وقرن اسم الأشاعرة - لما كان بينه وبين الشافعية من عداة - بأسماء أرباب البدع والأهواء (١٧).

ولما كان معلم الأشعرية (١٨) شافعية، فقد غلف الكندري طعنه على الشافعية بغلاف الأشعرية، حتى لا يتهم بالتصيب لمذهبه (١٩).

ولم يقف الأشاعرة مكتوفي الأيدي، فقاموا بأصناف عطف وشغب احتجاجًا على ما تقوم من المحنة، عندئذ أمر السلطان طغرل بك بالقبض على زعماء الأشاعرة، وعلى رأسهم الإسلاميين "أبي القاسم القشيري" و "أبي المعالي الجويني"، ولكن إمام الحرمين أحسن بالأمر فاختفى، بينما كان "أبو سهل بن الموق" بعيدًا عن خراسان فلم يقبض عليه، وإنما قبض على القشيري

وآخرين، إلى أن عاد أبو سهل إلى نيسابور فجمع أحواله وهاجموا السجن، وأخرجوا من فيه من الأشاعرة، بعد أن ظلوا في السجن أكثر من شهر<sup>(٢١)</sup>.

ويذكر السبكي<sup>(٢٢)</sup> أن الوزير الكلندي صار يقصد الأشاعرة بالإهانة والأذى والمنع من الوعظ والتكريم، وعزلهم عن الخطبة، وأخرى السلطان السجوقي "مطرل بك" بمذهب الشافعي عموماً، وبالاشعرية خصوصاً، حتى طار شرر هذه الفتنة في الأقالق، وطل ضررها وعظم خطبها.

كانت هذه المحنة سبباً في مغادرة كثير من أعلام المذهب الشافعي منطقة خراسان، فمنهم من ذهب إلى العراق، ومنهم من جاء إلى الحجاز<sup>(٢٣)</sup>، فمن ذهب إلى الحجاز الإمام "البيهقي"<sup>(٢٤)</sup> و"القشيري"<sup>(٢٥)</sup> و"إمام الحرمين الجويني"<sup>(٢٦)</sup>، حتى قيل إن عدد من خرج من خراسان بسبب هذه الفتنة، أكثر من أربع مائة من فقهاء الشافعية<sup>(٢٧)</sup>.

وتختلف المصادر بصدد الدافع الذي أدى إلى خروج الإمام الجويني من نيسابور : يذكر عبد الغافر الفارسي- ويوافقه على ذلك السبكي وابن العباد<sup>(٢٨)</sup> - أن عبد الملك اضطر إلى النزوح عن نيسابور مع بعض المشايخ من بينهم أبو القاسم القشيري وذلك بعد أن ظهر التعصب بين الفريقين، ويذكر ابن خلكان<sup>(٢٩)</sup> أنه سافر إلى بغداد، ولقى بها جماعة من العلماء، كما يذكر ابن الجوزي<sup>(٣٠)</sup> أن الإمام تنقل في كثير من البلاد، وتلقى العلم في بغداد على أبي محمد الجوهري وأخيراً قال ابن تغري بردي إنه سجع بابل، وجاور بمكة، ثم عاد إلى نيسابور<sup>(٣١)</sup>.

هكذا نجد أنه باستثناء عبد الغافر - ومن نقل عنه - لا يشير المترجمون للإمام إلى أن قيام التعصب، بين فريق أهل السنة والشيعة، يعتبر سبباً من أسباب خروج مشايخ الأشاعرة من نيسابور، وهم - إذ لا يذكرون التعصب المذهبي كدافع للنزوح مشايخ الأشاعرة عن هذه البلدة - يرون أنهم سافروا ليلتقوا العلم عن كبار العلماء وأجلة المشايخ، بمختلف البلدان على عادة القوم في ذلك الحين.

غير أننا نرجح ما نكره عبد الغافر الفارسي تلميذ الإمام، فقد كان أعلم بظروف حياة أستاذه من غيره من المترجمين، ويكون نزوح الإمام عن نيسابور بسبب ما كان قائماً من الفتنة المذهبية، خصوصاً وأن المؤرخين للحوادث العلمية يشكون ما يزيد قول عبد الغافر الفارسي، على نحو ما تبين لنا ذلك من سرد حوادث العصر في ذلك الحين. وسواء كان خروجه بسبب هذه الفتنة أو غيرها، فقد استغل فترة ابتعاده هو ورفاقه عن هذه البلدة أحسن استغلال، فقصودوا كبار العلماء وجلسوا معهم للمناظرة وتثبيت أمور العقائد.

على أية حال، تذكر المصادر أن الإمام الجويني نزح عن نيسابور واتجه إلى بغداد، وقد ذاع صيته أثناء وجوده ببغداد، واشتهر أمره، وبعد أن أقام فترة بها رحل بعدها إلى الحجاز، وأقام بمكة أربع سنوات يناظر ويفتي وينشر العلم، حتى صار مقصد الطلاب والمتعلمين من كل قطر، بعد

أن تلقى نجمة وعقد له نواء الزعامة بين علماء مكة، وقد بلغ من فضله أن حرص المسلمون على تلقيه أيام الحرمين تكريماً له، واعتراقاً منهم بجهوده في نشر العلم<sup>(٢٦)</sup>.

ويقول السبكي<sup>(٢٧)</sup> في ذلك "وجاور بمكة أربع سنين يدرس ويفتي ويجتهد في العبادة ونشر العلم، شرف به ذلك النادي، وأشرفت فلاح ذلك الوادي، وأسبلت عليه الكعبة ستورها، وأقبلت عليه وهو يطوف بها كلما أسود جنح الليالي، بيض نيجورها وصفت نبته مع الله، فلو كانت الصفا ذات لسان لشافته جهراً، وشكر له المسعى بين الصفا والمعروة إقبالاً وإبصاراً".

ولم يلبث أن عاد إمام الحرمين إلى نيسابور، وذلك بعد وفاة السلطان "طغرل بك"، وتولي من بعده ابن أخيه "ألب أرسلان" سدة الحكم، الذي اتخذ لنفسه وزيراً شافعياً هو "أبو الحسن بن علي" المنقلب بنظام الملك، فأمر بعودة علماء الشافعية الذين هاجروا من قبل، وأكرمهم وأحسن إليهم وأسقط نكرهم من السب، والانتصار على لعن الرافضة<sup>(٢٨)</sup>.

ومن العلماء الذين سطوا الرجال في مكة، العالم الجليل "طراد بن محمد الزينبي" مسند العراق، وتقيب التقياء الهاشمي البغدادي، الذي كان حنانياً من جنة الناس وكبرائهم، ثقة ثباتاً، سد الدهر رتبة وعلواً، وفشلاً، ومتع بسمعة طيبة حتى إنه ذهب إلى أصفهان وحدث بها، وأصبح له في مكة مكانة عظيمة بارزة نظراً لتبوه<sup>(٢٩)</sup> وتلقوه، وكان له مجلس علم في رحاب الحرم، وكان يحضر مجلس إمامه جميع أهل العلم<sup>(٣٠)</sup> ثم ذهب إلى مكة والمدينة وأملى بهما<sup>(٣١)</sup> حتى قال عنه الأذهبي<sup>(٣٢)</sup>: "الحق السلفي بالكيف".

فضلا عن "أحمد بن عثمان النيسابوري" الذي سافر الكثير وتلقى المشايخ ووقف نيافاً وثلاثين موقفاً بمكة، وكانت له علاقة طيبة مع شيخ الحرم بمكة المكرمة<sup>(٣٣)</sup>.

ويذكر عبد الغافر الفارسي<sup>(٣٤)</sup> أن "أحمد بن علي بن محمد النيسابوري" تبوأ مكانة سامية في مكة حتى إنه أصبح قاضي الحرمين، وكان يكرم كل من دخل مكة من المعارف والبلديين (أهل بلده) والأصدقاء، إلى جانب "القاسم بن الفضل بن أحمد" رئيس أصفهان وابن رئيسها، يقول عنه عبد الغافر الفارسي<sup>(٣٥)</sup>: "صدر التجار في وقته، أسر أهل عصره ثروة ونعمة وتجارة وبضاعة، سمع ببلده وبمكة من "ابن تظيف"، وعقد له مجلس الإملاء بأصفهان فملئى سنين".

ولهذا لا تعجب إذا رأينا الحافظ الكبير والمحدث الشهير أبا طاهر السلفي الأصفهاني المعروف بـ"الحافظ السلفي" يترك موطن رأسه في أصفهان، ويتجه إلى مكة المكرمة، ويتخذها دار إقامة<sup>(٣٦)</sup>.

والحقيقة أن التعطش لطلب العلم هو الدافع الأكبر للسلفي ليطوف في البلاد ويرحل إلى أماكن عدة، يلتقي فيها بالشيخ فينهل من علمهم في كل مكان يحل فيه، فذهب إلى بغداد حاضرة البلاد وكعبة القصد، ولما أرجأها ازدهر العلم واستوى على سوقه، فقبل السلفي على علماء بغداد ينهل من علمهم، فدرس عدة علوم لا يمكن أن يستغنى عنها دارس الحديث، فدرس الفقه

الشافعي على كبار فقهاء بغداد، ودرس اللغة والحديث على فطاحل الأئمة الأفاضل<sup>(١٧)</sup> ثم غادرها إلى الحجاز ليؤدي فريضة الحج وسمع بها من علماء الحديث، ولم يترك عالماً بارزاً من علماء العراق والحجاز إلا اتصل به وأخذ عنه<sup>(١٨)</sup>، ثم اتجه إلى الشام وقدم دمشق فإقام بها فترة، ثم وصل إلى الإسكندرية بعد أن حصل من العلوم الكثير، فاشتغل بالتدريس، وتدريس الحديث بوجه خاص، وقصد طلاب الحديث من جميع أنحاء مصر وخارج مصر<sup>(١٩)</sup>.

ولم يمكث السلفي في مكة إلا قليلاً حتى عرف واشتهر، وجذب الطلاب والعلماء إلى حلقته درسه، وتكثر طلابه وأقبلوا على دروسه وأحبهوه، حتى أصبح مقصد الطلاب والمتعلمين من كل قطر، وأصبح مرحولاً إليه بعد أن كان راحلاً، فلم يكن في ألق من الألقاق في عصره من هو أسند ولا أحفظ منه<sup>(٢٠)</sup>.

ومن رحل إلى الحجاز فلما من المشرق لنشر العلم "أبو نصر البغدادي" المعروف بـ"فقيه الحرم" لأنه جاور بمكة أربعين سنة ينشر العلم، وكان من كبار أصحاب الشيخ أبي إسحاق الشيرازي<sup>(٢١)</sup>، من كبار محدثين والفقهاء، ولا شك أنه قد بث بمكة قدرًا كبيراً من علمه العزيز الذي حصله في المشرق، حتى قيل إن الشيخ "أبا إسحاق الشيرازي" كان يتبرك به، ويحضر مجالس علمه<sup>(٢٢)</sup>.

الواقع أن عدداً من العلماء المجاورين، العراقيين والمشرقيين، قد فرضوا تعويضهم العلمي وثقافتهم الواسعة باختلاء رئاسة بعض العلوم في مكة حتى إن بعضهم أصبح مفتي مكة ومحدثها الأول بلا منازع.

<http://Archivwebeta.Sakhr.it.com>

ومن كان له جهد تأليفي وتعليمي بالحجاز الإمام "أبو عبد الله الحسين بن علي الطبري" الشافعي مفتي مكة ومحدثها، كان من كبار الشافعية، تلقه عليه جماعة كبيرة من أهل مكة حتى كان يدعى بإمام الحرمين؛ لأنه جاور بمكة نحواً من ثلاثين سنة يدرس ويفتي ويسمع<sup>(٢٣)</sup> وكان قد سافر إلى بغداد، ولزم الشيخ أبا إسحاق الشيرازي، حتى تولى للتدريس بنظامية بغداد ثم غادرها إلى مكة، بعد أن حصل من العلوم الشيء الكثير، وقل مقيماً بها حتى وفاته<sup>(٢٤)</sup>.

والملاحظ أن العلوم الشرعية بفروعها المختلفة من "الفقه" و"التفسير" و"الحديث" وما يرتبط بها من علوم ومعارف إسلامية أخرى، مثل: "علوم اللغة العربية وآدابها" و"السيرة النبوية والتاريخ" كانت تلك العلوم هي محور التدريس، ومن أجلها تشد الرحل إلى جوار مكة المكرمة<sup>(٢٥)</sup>.

لعل هذا يفسر لنا كثيراً من مظاهر الحياة الثقافية في العصر السلجوقي، وكيف اتجهت هذه الحياة في معظمها إلى العناية بالعلوم النبوية بجميع فروعها، وفي مقدمتها علم الحديث، حتى قال بعضهم: "من لم يكتب الحديث لم يتفرغ بحلوة الإسلام"<sup>(٢٦)</sup>.

الجدير بالملاحظة أن الإقامة بمكة، أو ما اصطح عليه بالمجاورة، لم يكن يلزم صاحبه بقضاء فترة محددة فيها، سوى الإقامة بجوار الحرم مدة قد تطول وتقتصر ولقاء العلماء والمشايخ، أو نشر العلم والفكر.

كما كان "عني بن يوسف بن محمد الجويني" النيسابوري، من العلماء الذين يشار إليهم بالبنان، جاور بمكة مدة، حتى صار يطلق عليه "شيخ الحجاز"، وهو آخر ركن الإسلام أبي محمد الجويني، ثم عاد إلى بلده، وكان يعقد له مجلس الإملاء في مسجد "المطرز" بنيسابور<sup>(٢٦)</sup>.

وأحمد بن محمد بن عبد الله الهروي الحافظ، من أهل الحديث، ومن المجاورين بمكة، وكان من كبار مشايخ الحرمين. كان ورعاً زاهداً عالماً، لا يدخر شيئاً للغد، حتى أصبح يشار إليه بالتصوف<sup>(٢٧)</sup>.

وكان من أبرز هؤلاء "الزمخشري" الذي كان يكنى بأبي القاسم ويلقب "بجار الله" وشهر بالزمخشري نسبة إلى بلدة "زمخشر"، فقد كان محباً للعلم والمعرفة، نشأ في عصر ازدهرت فيه الحياة العلمية، وانتشرت في كل ركن من أركان البلاد، حتى كان يضرب به المثل في علم الأديب والنحو واللغة<sup>(٢٨)</sup>.

درس الزمخشري سبباً في خوارزم، ثم رحل إلى بخارى لطلب العلم، لأنها كانت على حد قول الثعالبي<sup>(٢٩)</sup> "مثابة المجد وكعبة الملك ومجمع أفراد الزمان ومطبخ نجوم أنباء العصر" وهناك لقي الزمخشري الطغاة والأفاضل وأعد منهم الكثير، وساعده على ذلك حفظة الكثير للأدب واللغة، حتى صار يضرب به المثل في هذين العنوين<sup>(٣٠)</sup>.

وبعد أن ارتوى الزمخشري من العلم والأدب ومن فنون المعرفة الأخرى، قرر الرحيل إلى خراسان، وورد العراق، ثم عاد إلى خوارزم، قال عنه القفطي<sup>(٣١)</sup>، "كان علامة الأديب ونسابة العرب، أقام بخوارزم تضرب إليه أمجاد الإبل، وتحط بقفاه رجل الرجال".

بيد أن كثرة التابيهين المشهورين في شتى صنوف المعرفة، في العصر السلجوقي، صار من المعتاد على أي عالم، مهما عنت منزلته العلمية، أن يلفت الأنظار إليه وسط هذا الحشد الهائل، فشرع قسم من هؤلاء التوايع أن سبل العيش الرغيد ليست ميسورة، فضلاً عن أن الكثرة بطبيعتها تؤدي إلى التحاسد والتباغض بين أصحاب الحرفة الواحدة، فصار الغنى والجاه العريض من نصيب قوم، على حين كانت الأثرية تشكو الفقر وضيق ذات اليد.

وتشير المصادر إلى أن "الزمخشري" دفعه طموحة إلى الاتصال برجال الدولة السلجوقية، محاولاً أن يبين لهم أنه على الرغم من علمه وفنانه، لم يقدر بالمعكفة اللاتقة به، بينما ظفر من هم دونه بذلك ويظهر ذلك من خلال أبيات أنقاهها يتباهى فيها بنفسه ويمجسه وعظه حينما قال:

ألم تر أني حينما كنت كعبة  
يحفون بي كالمطافين طوائفا  
فشرقهم يهوى إلى النور قايما  
وغربهم يسعى إلى البحر عارفا<sup>(٢٢)</sup>

ولكن يبدو أن رجال الدولة السلجوقية أعرضوا عنه ؛ لأن الزمخشري كان معتزياً بمجاهراً باعترافه<sup>(٢٣)</sup>، ولذلك قرر الرحيل إلى مكة المكرمة، وفي طريقه إليها مر بالعراق ومكث فيه حقبة من الزمن، سمع فيها الكثيرين من علمائها ومناظرها، حيث التقى بالشيخ الشريف ابن الشجري، الذي منحه بقصيدة طويلة، مهتلاً بكنومه ومثباً عليه، كما اجتمع في بغداد بالفقيه الحنفي "الدامغاني" والشيخ "أبي منصور الجواليقي"، ثم سافر إلى مكة<sup>(٢٤)</sup> فوجد بها الشريف السيد القاضل الكامل "أبا الحسن علي بن عيسى بن حمزة الحصري"<sup>(٢٥)</sup> الذي عرف محله وفضله فرجع من قدره، وقدمه على كثير من أقرانه، وأكثر الاستفادة منه، وأخذ عن الزمخشري، وأخذ الزمخشري عنه، وكان له دور كبير فيما ألفه من مصنفات، حتى قيل إن الزمخشري ألف تفسيره الكشاف من أجله<sup>(٢٦)</sup>.

قل الشريف مائحاً الزمخشري:

جمع قرى الدنيا سوى القرية التي  
تبوأها داراً فسءاء زمخشراً  
وأخبر بأن تزهي زمخشري بامرئ  
إنما عد في أسد الشري زمع الشري<sup>(٢٧)</sup>

وكان الشريف عيسى بن حمزة جليل القدر من علماء مكة وشرائها وأمرائها، وكان ذا فضل غزير وله تصانيف مفيدة وأريحية في النظم والنثر مجيدة، قرأ على الزمخشري بمكة حتى قاله وبلغ عليه<sup>(٢٨)</sup> يقول عنه ياقوت<sup>(٢٩)</sup> الحموي "وصرقت أناة طلب العلم إليه" كما كان محباً للعلم والعطاء يقربهم إليه ويخلق عليهم، ولهذا جمعت الصداقة بينه وبين الزمخشري فأشاد بذكره في عدة أبيات.

بقي الزمخشري مجاوراً لبيت الله الحرام حتى لقب بجار الله، وعلى الرغم من حبه لمكة، وهدوء نفسه بتلك المجاورة، لم يستطع البقاء هناك طويلاً ؛ لأنه اشتاق إلى موطنه وأهله، فترك مكة وسافر إلى خوارزم، ولكنه ما إن وصلها حتى حنت نفسه إلى مكة ثانية وندم على تركه إياها، وأخذ ينظم القصائد المليئة بالشوق إليها، وعندما سئل عن ذلك قال: "القلب الذي لا أجده ثم أجده هاهنا"<sup>(٣٠)</sup>، ولم يلبث أن عد مرة ثانية إلى مكة ليستأنف سيرته الأولى ولينفرغ للعلم والتعليم<sup>(٣١)</sup>.

ويبدو أن الزمخشري كان راضياً عن نفسه بذلك الإرتحال الذي تآى به عن الضيم الذي رآه في بلاده، وعدم وضعه في المكتبة الثلاثة به، وعدم إصابته منزلة التدريس، أو حطوة عند الأمراء والوزراء، فقلبت في البلاد لطلب العلم والبحث اللذين لقي في سبيلهما التعب.

ومع ذلك لم تنقطع علاقة الزمخشري، أثناء وجوده بمكة، بعلماء المشرق ورجله، فقد كتب إليه منتخب الملك "أبو جعفر محمد" أحد كبار السلاطين "سجدر بن ملكشاه" رسالة ولصيدة وسيرها إليه إلى مكة عند مقدمه بها، توضح مدى العلاقة بينهما، "فتنبي إلى جار الله العلامة عن سلامة كمل الله أسبابها، ونعمة أوظف بلرغائب سبحانه والحمد لله رب العالمين والصلاة على نبيه محمد وآله الطاهرين (٢٤)

وتسأى لوصولك الانتظار (٢٥)

بعد المثلثي وشط المزار

ولا نغفل أيضاً عن ذكر المراسلات الفكرية التي كانت متصلة بين الزمخشري والحافظ السلفي، مما يدل على عمق الصلات العلمية بين العلماء من أجل الحصول على المعرفة وتنمية الفكر (٢٦)

ومن العلماء الذين رحلوا إلى الحجاز، وأقاموا به ينشرون العلم، الإمام الفقيه المعتزلي مسند خراسان وأقيه الحرم "أبو عبد الله القراوي" النيسابوري الشافعي المعروف بفتاويه الحرم، لأنه أقام بالحرمين مدة طويلة، ينشر العلم ويسمع الحديث ويخط الناس وينكرهم، وكان من تلاميذ إمام الحرمين الجويني، نقله عليه حتى صار من جملة المتكلمين من أصحابه (٢٧)، حتى يقال إنه قد أملى أكثر من ألف مجلس، وحكي عن بعضهم أنه قال القراوي: "ألف راوي" (٢٨).

ولاشك أن امتزاج ثقافة هؤلاء الواقفين من بلدان المشرق الإسلامي بتقاليد أبناء علماء مكة، كان له أثر جلي، لا سيما بعد أن حلوا إلى بلادهم، وقد نهضوا من منابع ثقافتهم التي طوّروا بها. ومن أمثلة هؤلاء "الزمخشري" الذي جاور بمكة سنين كثيرة، واستفاد من علم وأدب الأمير "ابن وهاس" وغيره (٢٩).

كان "ابن وهاس" يحترم الزمخشري ويحبه، ويتضح ذلك من خلال أبياته التي منحه بها عندما قال:

وكم للإمام الفرد عدوى من يد      وهاتيك مما قد أطاب وأكثرها

فليس شاد بالعراق وأهله      بأعرف منه بالحجاز وأشهرها

وقد منحهم الزمخشري بنمبهم لرسول الكريم، ومساندتهم للدين الإسلامي، كما يمنحهم بالشجاعة والكرم، ويبرهن فيها مقدار حبه وتقديره له، كما يتضح فيها فضل هذا الأمير عليه في قوله:

بمكة أخيت الشريف وفتوة      حواليه من آل النبي عطارفا (٣٠)

وكان ابن وهاس لجنتي حرساً      كما تفعل الأم الحطية لاحقاً (٣١)

وكانت الرغبة الملحة لدى كثير من علماء المسلمين في الاطلاع على شئون تلك البلدان، التي تربط بينها وشائج الدين والقريب، ودرس أحوالها عن كثب هي الحافز المهم لشد الرحال



للمطر والتجوال بين تلك البلدان المتباعدة شرقاً وغرباً، فمنهم من كان يرحل للعلم، والوقوف على جغرافية المعارك الإسلامية، والتعرف على أحوال إنارتها ودرجة رفاهة أهلها وخيرات بلادها، مثل الرحلة الفارسي "ناصر خسرو" الذي قام برحلة زار فيها بلاد خراسان وأرمينية والشام ومصر والحجاز، وصف فيها أحوال أهل تلك البلدان وعاداتهم وتقاليدهم، وما شهد فيها من أراض وبلاد وأمم ودول وملوك وعماء وعادات والأخلاق<sup>(٤٦)</sup>، وكتب كتاباً سماه "سفرنامه" الذي يعد مرجعاً رئيساً للتعرف على أحوال بلاد إيران في العصر السلجوقي، بما احتواه الكتاب من معلومات قيمة في التاريخ والجغرافيا وأحوال المجتمع<sup>(٤٧)</sup>.

ويحدثنا "ناصر خسرو" عن زيادة أعداد الوافدين إلى مكة لأداء فريضة الحج، وزيادة الرسم أو الضريبة التي كانت السلطات الفاطمية تفرضها على الحجاج والمعتمرين القادمين مكة<sup>(٤٨)</sup> وكان الحجاج والمعتمرين يؤدون هذا الرسم في مدينة جدة - وأميرها تابع لأمر مكة -، ويذكر لنا "ناصر خسرو" من خلال رحلته المشهورة، قصة قدومه إلى مكة، وكيف أن أمير جدة أكرم وفادته، وأعداه من نفع المعس المفروض عليه ولم يطلبه منه شيئاً، بل إنه كتب إلى أمير مكة آنذاك "تاج المعالي بن أبي الفتح"<sup>(٤٩)</sup> (الذي هو أمير المدينة أيضاً) يقول له: "هذا رجل عالم فلا يجوز أن يؤخذ شيء منه"<sup>(٥٠)</sup>.

وقد زار الرحلة "ناصر خسرو" مكة أربع مرات، ومكث بها مجالوا ما يقرب من عام، وصف لنا خلالها مشاهداته الكثيرة التي تختلف من الوثائق القديمة التي تحكى لنا عن مكة في ذلك العصر، إذ يذكر لنا أنه يوجد خمسة آلاف مفونة من مدن خراسان - وما وراء النهر، والعراق، منازل، ولكن أغلبها كان خراباً وقتئذٍ، وقد بنى بها خلقاً بغداد عشرات كثيرة وأبنية جميلة، وكان بعضها وأنا هناك خراباً، والبعض الآخر تشتتاه الناس (أصبح ملكاً خاصاً)<sup>(٥١)</sup>.

ويحدثنا أيضاً أن آبار مكة لم تكن صالحة للشرب لملوحة مياهها، لذلك أنشئ بها كثير من الأحواض والمصانع الكبيرة، بلغت تكاليف الواحد منها أكثر من عشرة آلاف دينار، وهي تعلى من ماء الأمطر الذي يتدفق من الأودية.

ويذكر أنه رأى بمكة "الخباز" و"الأترنج" و"البانجان"، وكانت كلها بائجة، وكانت الفاكهة متوفرة طوال الشتاء لم تنقطع قط<sup>(٥٢)</sup>.

والواقع أن مذهب الاعتزال قد انتشر في إقليم خوارزم انتشاراً كبيراً، وهو مذهب يؤمن بسطوان العقل، ولذلك نشطت عندهم الدراسات البلاغية، وهي دراسات متأثرة بالفلسفة والمنطق، حتى أصبحت لفظة الخوارزمي مرادفة لللفظة المعتزلي من حيث العقيدة، يؤكد ذلك ما نكره بالقوت الحموي، عندما سأل الأديب الشاعر القاسم بن الحسين الخوارزمي عن مذهبه، فقل: حنفي، ولكن لست خوارزمياً. ينفي عن نفسه أن يكون معتزلياً<sup>(٥٣)</sup>.

وقهر كثير من علماء هذا الإقليم في العديد من المجالات، عرف عنهم المقردة، والتحرر في فنون مختلفة، منهم الزمخشري المتوفى سنة (٤٣٨هـ/١١٤٣م) وشهرة الزمخشري، وخاصة في التفسير، لا تحتاج إلى إشارة، فقد شهد له معاصروه بالعظم والفضل والأدب، وأثنى عليه معظم مؤرخيه، قال عنه ياقوت الحموي<sup>(٤٤)</sup> : كان إماما في التفسير والنحو واللغة والأدب، واسع العلم كبير الفضل متفقتا في علوم شتى" وقال ابن خلكان<sup>(٤٥)</sup> : كان إمام عصره من غير مدافع، تشد إليه الرحل في فنونه، وصنف التصانيف البديعة .

أما القطفي<sup>(٤٦)</sup> فقد قال عنه: نماية العرب، تضرب إليه أكباد الإبل، وتحط بقائه رحل الرجال، وكان أعلم فضلاء العجم في زمانه بالعربية، وأكثرهم أنسا وإطلاعا على كتبها، وبه ختم فضلاؤها".

وهذا السيوطي<sup>(٤٧)</sup> يقول فيه: كان واسع العلم كثير الفضل غاية في النكاه وجودة القرحة، متفقتا في كل علم، معتزليا قويا في مذهبه .

#### المجاورون المتصوفون ومكانتهم العلمية في المجتمع المحلي:

تخذ التصوف أشكالا متنوعة تتلخص في الانقطاع عن ممارسة كل النشاطات الاجتماعية، والتفرغ لممارسة الشعائر الدينية وحدها، مع قهر النفس وترويضها على تحمل أشق حالات الزهد في الحياة، وحرمانها من كل مشتبهات العيش<sup>(٤٨)</sup> .

وقد اتسعت في العصر السلجوقي موجة التصوف، لاسيما بعد أن انتشرت فلسفة الفخر بين الناس، وانكفاء العديد من رجال الدين والعلماء بحجوج على الوضع الاجتماعي، والأوضاع السائدة على المسرح السياسي، والذين راحوا يدافعون عن فلسفتهم الجديدة، معتلين تكسبهم بمبادئ الإسلام الأساسية، زاهدين في الدنيا، حتى فاضت تلك النزعة على البلاد من أقصاها إلى أقصاها .

وهذا القولا مختلفة في اشتقاق كلمة "صوفي" وهل هي من الصوف، لأن المتصوفين كانوا يلبسونه تمييزا لهم عن أهل الزهقة والتشم، أم هي من صفاء النفس، ونقاء الروح ؟ أو هي من الصفة نسبة إلى "أهل الصفة" الذين كانوا ينقطعون للعبادة في مؤخرة مسجد الرسول ﷺ ؟ والذين كان الرسول الكريم يسبغ عليهم برده ورحمته، وبه اتدى مسائر القادرين من أصحابه . والواقع أن نسبة صوفي إلى أهل الصفة لا تجد قبولا عند كثير من المؤرخين والباحثين، لأنه لو كان الانتساب إلى أهل الصفة، لقبيل "صلي" بضم الصاد وتشديد الفاء بغير واو بينهما<sup>(٤٩)</sup> . والأقرب إلى الحقيقة أنها مشتقة من لبس الصوف، لأن كثيرا من الزهاد بداية من القرن الثاني الهجري (٨م) كانوا يلبسونه، ثم شاع لبسه بين المتصوفة بعد ذلك<sup>(٥٠)</sup> .

وكان لجوء المسلمين في ذلك العصر إلى علم المنطق، ثم تحويله إلى علم الكلام، رديفاً طبيعياً لتلك الظواهر التي أصبحت أكثر بروزاً في هذا العصر، والذي كان التصوف أحد رواده وفنونه<sup>(١١)</sup>.

والواقع أن بزوغ تلك النزعة الفلسفية، في ذلك العصر، كان انعكاساً طبيعياً لفرضته محطات فكرية واجتماعية فرضت نفسها على المجتمع الإسلامي آنذاك، لاسيما بعد اطلاعهم على ذلك الكم الهائل من التراث العلمي والأدبي، الذي خلقته حركة الترجمة من الكتب اليونانية بجميع فروعها، من طب ومنطق وطبيعة وكيمياء، وبخاصة بعد أن ترجمت الكثير من الكتب الهندية والفارسية والسريانية، ونتج عن هذا التلاقح الفكري، والمزج بين الثقافات المختلفة، أن تفتحت آفاق جديدة للمعرفة أمام المسلمين، فتكونت نزعة زاهدة لاحتها التقوى وسادها الورع والتكين، حمل لواءها أعلام كرام عرفوا بالصلاح وحب الحق والتمسك بأهداب الدين .

وكان تنافس محبي الخير على إقامة العديد من "الربط"<sup>(١٢)</sup>، وتخصيص مسكنات مختلفة في أزقة مكة وشوارعها ، لإقامة الطلاب والطعام الذين يرحلون في تلقي العلم من مفكري عصرهم، لاسيما ذوي الدخل المحدود<sup>(١٣)</sup>.

ويذكر ابن الجوزي<sup>(١٤)</sup>: **أن أمير الحاج "خلتغ بن سنكين" المتوفى سنة (١٠٨٦هـ/١٠٨٦م) لبث في إمرة الحاج إلى عشرة سنة، كان حسن السيرة، محافظاً على تصلوات في جماعة، يهتم القرآن كل يوم ويختص به الطعام والقراء، وله أثر جميلة في المشاهد والمساجد والمسبحة بين مكة والمدينة.**

ومن هذا المنطلق فقد شلخص إلى مكة عدد كبير من الطعام من أجل التزود بالعلم على أيدي متلقي مكة، فضلاً عن نشرهم العلم، وراغبين في المجاورة .

وقد ساعدهم على تلك المجاورة كثرة "الربط" التي أنشئت في مكة من ذوي اليسار، والتي أسهمت بدورها في إيجاد سكن مناسب لهؤلاء المجاورين<sup>(١٥)</sup>.

ومن هذه الربط التي كانت قائمة آنذاك في مكة "ربط المسرة" والذي يرجع بناؤه إلى مطلع القرن الخامس الهجري (١١م) ويقع بالجانب الشرقي من المسجد الحرام على مسار الداخل من باب بني شيبه، وكان من شروطه والقيه أن يكون لسكنى المجاورين المنقطعين للعبادة<sup>(١٦)</sup>.

وربط القاضي "صدر الدين أبي بكر المراغي" ويقع بجوار باب الجنائز بمكة، وقد جاء في وصية والقيه سنة (١١٧٩هـ/١١٧٩م) أن يكون لإقامة الغرباء الواصلين إلى مكة والتأويل فيها<sup>(١٧)</sup>.

كما وجدت "ربط" بمكة اشترط والقيوها أن تخصص لسكنى المتصوفين والزهاد من المجاورين، مثل ربط "أم الخليفة الناصر العباسي" وتاريخ واقعه سنة (١١٨٣هـ/١١٨٣م)، وربط

الختون "فاطمة بنت محمد بن أنوشروان" والتي أولقته على الصوفية والرجال الصالحين سنة (٥٧٧هـ/١١٨١م) (١٠٩).

ولما كانت الغاية الكبرى لمعظم هؤلاء المجاورين الانقطاع للعبادة، والاحتساء بحرم الله، وابتغاء فضله ورضوانه (١١٠) جاور عدد غير قليل من العلماء المشرقين، لاسيما المتصوفين منهم، الذين ألزموا أنفسهم الزهد في متاع الحياة الدنيا، كما ألزموا أنفسهم ضروباً من المجاهدات والرياضات التي قصد بها تصفية النفس وتقوية الروح .

ومن الملاحظ أن هناك العديد من المجاورين، سواء من العراق أو المشرق الإسلامي، قصدوا مكة من أجل حياة الزهد والورع التي كانت سائدة في ذلك العصر، واتخذوا من التصوف مسلكتهم .

وتحدثنا المصادر التاريخية (١١١) أن "أبا نصر محمد بن هبة الله البندنجي" المتوفى سنة (٤٧٩هـ/١٠٨٦م)، على الرغم من كونه ضريباً، إلا أنه كان عالماً مبرزاً، مضى إلى مكة مجاوراً بها أربعين سنة، متشاقلاً بالعبادة والتكريس والفتيا، ورواية الحديث .

ويذكر أن "أبا المعالي الجويني" جاور بمكة أربع سنوات، يناظر ويقتي وينشر العلم، محاولاً أن يدخل الطمأنينة إلى النفوس التي اعتراها القلق، بسبب سياسة بائلة العقول التي اتخذها البويهيون، وقد بلغ من اجتهاده في ذلك أن حرص المسلمون على تلقينه بمام الحرمين تكريماً له، واعترافاً منهم بجهوده .

ويبدو أن إمام الحرمين قد بلغ من التماسه في العلوم الإسلامية أنه كان يواصل ليله بنهاره في الانشغال بها، كل ما هنالك أنه كان يبقي نهاره للناس يفتيهم ويناقشهم ويهديهم إلى سواء السبيل، معتمداً في ذلك على البراهين والحجج العقلية، ويكرس ليله للتعب والتجهد للتقرب إلى الله عز وجل، فقد ورد عنه أنه كان يقضي ليله طافاً متعبداً في الكعبة الشريفة، حتى علا قدره، وصفت ليلته، فكان من الواصلين.

يقول السبكي في ذلك: "وجاور بمكة أربع سنين يدرس ويقتي ويجتهد في العبادة، ونشر العلم حتى شرف به ذلك التادي، وأشرفت نلاع ذلك النوادي، وأسبغت عليه الكعبة ستورها، وأقبلت عليه وهو يطوف بها، كلما أسود جنح الليلي يبيض بجورها، وصفت ليلته مع الله، فلو كانت الصفا ذات لسان لشافهته جهارا، وشكر له المعنى بين الصفا والمروة إقبالا وإقبالا" (١١٢).

وهكذا تبين كيف كانت فترة وجود إمام الحرمين في مكة فترة مجاهدة لنفسه، ومراجعة لها ليردها عن الدنيا وظلالها الزائف، وليخلصها من المادة وشوائبها وأدرانها، وذلك لكي تصفو ليلته، فيصل إلى التحلق بالمعرفة السنية.

وقد ورد عنه أيضاً أنه كان في مجالسه الصوفية، التي كان يمارس فيها رياضته الروحية، يبقي الحاضرين بكنهه، لاحتراقه في نفسه، وتحققه بما يجري من دقائق الأسرار، فكان

الفترة التي أمضاها في مكة (بين الصفا والمروة) فترة ممارسة لأحوال الصوفية ليرتقي بنفسه بين مقاماتهم، وما يترتب عليها من أحوال .

والحقيقة أن ما ورد عن تصوف إمام الحرمين قليل، لا يعدو تلك العبارات التي نكرها السبكي وأثبتناها في معرض حديثنا، ولم يرد عنه أنه كتب في علوم الصوفية، أو أرخ لهم على نحو ما فعل معاصروه ورفيقه أبو القاسم القشيري في رسالته، التي تعرف باسم "الرسالة القشيرية" غير أنه يكفينا أن يكون القشيري من بين مرافقيه في رحلته هذه لفرج صدق مذلول إشارات السبكي التي تتبين عن ممارسته لأحوال الصوفية، وليكون لدينا إثبات على أن إمام الحرمين كان من الذين خاضوا في هذه الأحوال عن علم ثابت، وطريقة قديمة في تحصيلها .

وبعد قضاء فترة الأربع السنين بمكة رجع إمام الحرمين إلى نيسابور، ونكر السبكي أنه رجع بعد انتهاء نوبة التصبب بين أهل السنة والشيعه، باعتلاء الملك "ألب أرسلان" كرسى الحكم بنيسابور، وعلمه على إرجاع شيوخ الأئمة الذين هاجروا من قبل عن ديارهم .

ومن المجاورين المتسوفين "سعد بن علي بن الحسين الزنجلي" المتوفى سنة (٤٧١هـ/١٠٧٨م) كان إماما حافظا ورعا متعبدا متقيا، انقطع أواخر عصره بمكة، قال عنه ابن الجوزي<sup>(١٠٦)</sup>: " كان الناس يتبركون به، فَبِمَا جَرَجَ يَطْلُوفَ قَبَلُوا يَدَهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَقْبَلُونَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدَ " . ويقول أيضا: " لما علم سعد علي الإمامة بالحراب؛ عزم على نصه نيفا وعشرين عزيمة أنه يلزمها من المجاهدات والعبادات، ومات بعد أربعين سنة، ولم يخل منها بعزيمة واحدة"<sup>(١٠٧)</sup>.

<http://Archivebeta.Sakhr.it.com>

ومما يجدر تذكرو أن المجاورة، في العصر السلجوقي، لم تكن قاصرة على الرجال فقط، بل شاركت المرأة فيها مشاركة واضحة، فقد ترجمت كتب التراجم والطبقات للعديد من النساء المستغلات بالعلوم الدينية، وفي مقدمتهن محدثة كبيرة اسمها "كريمة بنت أحمد المروزية" من أهل "مرو"، اشتهرت برواية الحديث، طافت البلاد والأقطار لسماح الحديث وروايته، وأخذ عنها الكثير من علماء عصرها<sup>(١٠٨)</sup>.

كما كانت بارعة في كثير من العلوم، لاسيما الحديث والوعظ، قرأ عليها عديد من الأئمة البارزين كالخطيب البغدادي وأبي سعد السمعتي صاحب الأنساب، ونقلت تلقي العلم حتى توفيت في مكة وهي مجاورة لبنت الله الحرام سنة (٤٦٣هـ/١٠٧٠م)<sup>(١٠٩)</sup>.

كما كانت إسهامات المرأة السلجوقية عظيمة في مكة لاسيما أصال البر والخير، كان من أبرزها ما بنته الخاتون<sup>(١١٠)</sup> ابنة صاحب أصفهان<sup>(١١١)</sup> يقول عنها "ابن جبير" وقد شاهد موكبها أثناء وجوده في مكة أثناء فريضة الحج<sup>(١١٢)</sup>: " وهي كبيرة القدر عظيمة الشأن مناسة في أفعال البر ... " .

كما يصف لنا ابن جبير<sup>(١٠٠)</sup> جانباً من الأفعال الخيرية التي كان يقوم بها نساء سلاطين السلاجقة في مكة لاسيما في موسم الحج بقوله : " ولهؤلاء النسوة الخواتين في كل عام، إذا لم يحججن بأنفسهن، نواضع مسيلة من الحاج يرسلتها مع ثقات يسقون أبناء السبيل في العواضع المعروف فيها الماء، وفي الطريق كفه، وبعرفات، وبالمسجد الحرام، في كل يوم وأيلة، فلهن في ذلك أجر عظيم ... فتسمع المنادي على التواضع يرفع صوته بشماء للسبيل، فيهطع إليه المرملون من الزاد والماء بقرهم وأباريقهم فيمئتونها، ويقول المنادي في إشارته بصوته : أبق الله الملكة خاتون لبنة الملك الذي من أمره كذا، ومن شأنه كذا، ويحنيه بحلاه، إعلاناً باسمها وإظهاراً لفضلها، واستجاباً للدعاء لها من الناس" .

### التلاحق الفكري بين علماء العراق والمشرق وعلماء مكة :

لم تكن العواجز السياسية أو الحدود الجغرافية لتكلف حجر عثرة دون أماني العراقيين والمشرقيين الراغبين في المعرفة، والطمحين إلى علم غرهم من إخوانهم المكيين، حيث لم يمنع العداء السياسي من تدفق العلماء إلى مكة يعملون معهم تراثهم العلمي . وبقينا نمتع المجاورون العراقيون والمشرقيون بكرم أهل مكة الذين أحسنوا استقبال جوار هؤلاء الغرباء، بحسن أحوالهم ومكازمهم .

ومن الأمور التي تسترعي النظر ما ذكره "ابن بطوطة"<sup>(١٠١)</sup> من أن أهل مكة بلغ بهم الكرم وحسن الضيافة أنهم متى صنع أحدهم طعاماً، أو وليمة، إلا دعاه إليها أولئك المنقطعون المتعبدون، ويتوخي أن يستدعيهم يرفق، وحسن خلق، ثم يطعمهم، كما كان أهل مكة يجودون بالصنقات الكثيرة على المجاورين، والمحتاجين في الليالي المباركة<sup>(١٠٢)</sup> .

وهكذا فتحت مكة أبوابها ، وذراعها للعديد من العلماء والأنبياء، من الذين تفتت أنفسهم إلى المجد والشهرة في هذا البلد المضيايف، وفي جوار المسجد الحرام أمن هؤلاء العلماء على أنفسهم، وأحشوا بها نهضة علمية كبيرة أثرت في مسيرة الثقافة والفكر الإسلامي.

وكان لاشتداد النزاع بين الفرق الإسلامية المختلفة، أن ساد الحياة السياسية اضطراب وتشتت ومنازعات، مما أدى إلى ضعف مركز الخلافة العباسية، في وقت نقت فيه حجاجل الحروب الصليبية أبواب العالم الإسلامي<sup>(١٠٣)</sup>، واستخدم العلم والفلسفة أداة للمجالات المذهبية .

ولما كانت الحياة العقلية جزءاً لا يتجزأ من الحياة الاجتماعية، فقد كان من الطبيعي أن تتأثر بما تأثرت به الحياة العامة من ضعف وتخاذل، وينعكس ذلك على سلوك الناس، مما أدى إلى تزلزل الروح المعنوية من تردى تلك الأوضاع، ودعا العلماء والمفكرين للبحث عن واحة أمان يفرجون إليها بضمهم وفكرهم، فحطوا رحلتهم في مكة المكرمة مجاورين لبيت الله الحرام .

ويبدو أن العلاقات الميادية الطيبة، التي جمعت بين أشراف مكة والخلفاء العباسيين، كان لها نور كبير في ارتحال هؤلاء العلماء في جو من السكينة، فيذكر ابن الجوزي<sup>(١١٧)</sup>؛ أن "جعفر بن يحيى التميمي" كان من ذوى الهبات النبلاء و العلماء الأفاضل الذين يشار إليهم في عصرهم، والذي رحل في طلب العلم ولاسيما الحديث إلى كل من الشام، والعراق، وفارس، كان يتمثل (رسول) عن ابن أبي هانم أمير مكة إلى الخلفاء والأمراء، ويتولى ما يوقع له من مال وكسوة .

وكان أبو حامد الغزالي<sup>(١١٨)</sup> من الذين ارتحلوا إلى مكة، حيث قضى لأخصب فترات حياته العلمية، إذ برع في المنطق والمحاورة، وعرف مناهج الفلاسفة وطرق الرد عليهم، وبدأ يكتب ويؤلف حتى قيل إن إمام الحرمين كان يغاز منه، وإن حرص على الأبيدي له شيئا من ذلك<sup>(١١٩)</sup>.

وكانت شهرة الغزالي العلمية وقوته العقلية قد بلغت مسامع الوزير "نظام الملك"<sup>(١٢٠)</sup> فدعاه إلى مجلسه، وأظهر له احترامه وتقديره، وعينه أستاذاً في المدرسة النظامية في بغداد<sup>(١٢١)</sup>.

وفي سنة (١٠٩٤/١٤٨٧م) كلفه الخليفة "المستظهر بالله"<sup>(١٢٢)</sup> العباسي، أن يكتب له كتابا يدهش فيه آراء الشيعة الإسماعيلية<sup>(١٢٣)</sup>، فلجأه إلى سؤاله، وكتب ثلاث رسائل حمل فيها على آرائهم ومعتقداتهم حجة قاسية، كل على كسفه في دراسة مذاهبهم واستبطن خلفها عقائدهم<sup>(١٢٤)</sup>.

غير أنه بعد هذا العهد الذي أحرزته في سبب التكريم والتكليف، لم يلبث أن أحس بحاجة ملحة إلى العزلة، والتخلّي عن جميع مشاغل الحياة الدنيوية، فترك كرسى التكريم، كما هجر أسرته، وارتحل إلى مكة فبأنى فريضة الحج، ثم عاد إلى ميسقط رأسه في مدينة "طوس" ثم أكب على تأليف أهم كتبه وأرقاها وهو كتاب "إحياء علوم الدين" الذي كان قد سلفه إبان رحلته<sup>(١٢٥)</sup>.

ويبدو أن نزوح ملكات الغزالي العلمية قد اكتملت في هذه المرحلة من مراحل حياته، حتى يقال إن تلك الرحلة كانت لها انعكاسات قوية في تصنيفه للكثير من مؤلفاته، التي امتدت إلى الفقه والفلسفة والجدل والخلاف، إلى غير ذلك .

ومن العجيب أن الإمام "أبا بكر البيهقي" المتوفى سنة (١٠٦٥/١٤٥٨م) الحافظ الفقيه الدين الورع وأحد زمانه في الحفظ والإتقان والضبط، كانت له رحلة إلى بلاد الحجاز سمع خلالها من مشايخ مكة وتلقى العلم على أيديهم<sup>(١٢٦)</sup>.

وعبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الصيدلاني يقول عنه عبد الغفار<sup>(١٢٧)</sup> : " من أولاد الميادين سمع ببغداد والحجاز، ومن المشايخ الذين سمع منهم: أحمد البيهقي، والإمامين : أبي محمد الجويني، و"أبو القاسم القشيري"، وسمع من "ابن نظيف" في مكة .

وعبد العزيز بن محمد الحافظ، كان ثقة ورعاً مجتهداً طاب ثراه وحج . سمع القاضي أبا الحسن محمد بن علي بن صفر بمكة<sup>(١٢٨)</sup> .

ومحمد بن منصور السمعاني، سليل الأسرة السمعانية بمرور، كان عالماً بالحديث والفقه والأدب والوعظ، وبلغ من شهرته أنه جلس للوعظ بالمدرسة النظامية ببغداد، رحل إلى مكة لتلقي الحديث على علمائها، وعقد له مجلس التدريس هناك<sup>(١٢٤)</sup>.

ومن هؤلاء "محمد بن أحمد بن جعفر الحكيم العدل الشافعي، من وجوه العلماء النيسابوريين ومن وجوه المشايخ، سمع بمكة على كبار العلماء<sup>(١٢٥)</sup>.

ومحمد بن أبي سعيد بن سفيويه الأسفرائني، من العلماء الكبار، حدث بصحيح البخاري بمكة، وظل مجاوراً بها إلى أن توفي<sup>(١٢٦)</sup>.

ومحمد بن علي بن صير القهنتزي من أهل هراة، سمع بها، ثم رحل إلى مكة، ونيسابور، وسجستان، قال عنه ابن الجوزي<sup>(١٢٧)</sup>: "كان مثقفاً فهماً فقيهاً فاضلاً خيراً دينياً ورعاً زاهداً، حدث بالكثير".

ومن الذين كان لهم جهد تعليمي بمكة "أطراف بن محمد الزينبي" نقيب العباسيين ببغداد المتوفى سنة (٤٩١هـ/١٠٩٧م) من بيت معروف بالرياسة، وكان يرسل من ديوان الخلافة إلى الملوك والأمراء، كان يحضر مجلسه جميع المحنثين والفقهاء، وأولى بمكة والمدينة<sup>(١٢٨)</sup>.

والذي تجمع عليه المصادر التي ترجمت للزمخشري، أنه قضى الفترة التي عاشها في الحجاز يعلم الناس، فأكبلوا عليه وأحبوه وأقبلوا منه فعلاً اسمه، وبعد صيته، كما أجمعت على وصفه بأنه أستاذ الدنيا وفخر خوارزم ومن أئمة الأئمة التي إنية العلوم أطراف الأئمة، وجمع بجوار بيت الله الحرام بين الفضائل والمحاسن<sup>(١٢٩)</sup>.



## الهوامش

- (١) ابن زهيرة : الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف ، ص ١٥١ ، ط٢، القاهرة ١٩٢٨ م .
- (٢) ابن منظور : لسان العرب ، ج ٢ ص ٢٥٩ ، دار الحديث للطباعة والنشر ، القاهرة ، ٢٠٠٢ .
- (٣) عبد العزيز بن راشد السندي : المجارون في مكة وأثرهم في الحياة العلمية خلال الفترة (٥٧٠-٦٦٠هـ/١١٧٤-١٢٦١م) ص ٧ بحث مقدم إلى ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٢٦هـ .
- (٤) السلاجقة : هم مجموعة من القبائل التركية التي عرفت باسم "الغز" ، ونظراً لسوء الأحوال الاقتصادية في تلك المنطقة هاجرت إلى شرق العالم الإسلامي. وقد أطلق على هذه القبائل اسم السلاجقة نسبة إلى زعيمهم "سلجوق بن دقاق" الذي وحدهم تحت زعامته فأصبحت تعرف باسمه. واحتلت الإسلام وفق مبادئ المذهب السني. وأخذ التاريخ يذكر اسم السلاجقة بعد أن جلس أول سلاطينهم "طغرل بك" على عرش السلطنة في مدينة نيسابور سنة (٤٢٩ هـ/١٠٣٧ م). الحسبي: زبدة التاريخ في أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ص ٢٣ ، تحقيق د. محمد نور الدين ، دار اقرأ ببيروت ١٩٨٢ م . عبد النعم حسنين: سلاجقة إيران والفرار ص ١٦ - ١٨ ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٩ م .
- (٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٩، ص ٥٦ ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد تميم العرقموسي ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، بيروت ١٩٨٤ .
- (٦) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم : طبع دائرة المعارف العثمانية، ج ٩ ص ٣٥ ، ط١ حيدر آباد ١٣٥٩ هـ .
- (٧) ينكر أن السلطان "ملكشاه" خرج للصيد ، فاصطاد هو وصعده ألوفاً من الأتباع . بنسى من حوافرها تلك المنارة ، حتى قيل إنه كان فيها أربعة آلاف رأس . ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٩ ص ٣٥ .
- (٨) ابن خلدون: المقدمة ، ص ٥٤١ ، دار الكتاب اللبناني، بيروت ، ١٩٨٠ م .
- (٩) ظل العباسيون يتمتعون بالسيادة والنفوذ على مكة والمدينة لا ينازعهم في ذلك منازع حتى أقام الفاطميون خلافتهم في إفريقيا فأخذوا يتطلعون إلى بسط نفوذهم على الأراضي المقدسة في الحجاز حتى يكسبوا خلافتهم قوة أمام العالم الإسلامي، وقد تحقق لهم ذلك في خلافة المعز لدين الله حتى أقيمت الخطبة الفاطمية في كل من مكة والمدينة سنة ٣٥٨ هـ، وأصبح الحجاز خاضعاً للنفوذ الفاطمي ومنذ ذلك الحين احتدم النزاع بين الخائفتين العباسية في بغداد والفاطمية في القاهرة على السيادة الرسمية على بلاد الحجاز، وقد تمخض هذا الصراع عن محاولات عدة من كلا الطرفين على هذه السيادة إذ أن ذلك سوف يكسبها سمعة طيبة في نظر العالم الإسلامي وينظر إليها في نظر عموم

المسلمين على أنها الخلافة الشرعية الواجب اتباعها. أحمد عمر الزينلي: مكة وعلاقتها الخارجية (٢٠١-٤٨٧هـ) ص ٢٢ . محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص ٢٣، دار الفكر العربي، ط١، القاهرة ١٩٧٣م.

(١٠) كان يحكم مكة لهذا العصر من الحسينيين أسرة الهواشم وهم ينسبون إلى محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبد الله بن أبي الكرم بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن بن علي بن أبي طالب وكان يتكلم بالحكم آنذاك من الهواشم محمد بن جعفر بن أبي هاشم الذي عظم ذكره بين قومه فحارب بني سليمان بمكة سنة ١٥٤هـ للاستيلاء على الحكم وأوقع بهم الهزيمة وأخرجهم من الحجاز وقد بدأ عهده بإقامة الخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر بالله تعبيراً عن ولائه للفاطميين في مصر. القلقشندي: فلاح الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ص ١٦٦، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار الكتب الحديثة، ط١ القاهرة ١٩٦٣ م .

(١١) كان يحكم المدينة آنذاك الحسينيون وهم فرع من بني الحسين بن علي الذين صلوا على تأسيس دولة لهم بزعامه رجل علوي يدعى ظافر بن مسلم من أحفاد الحسين بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي حتى نجحوا في ذلك سنة ٣٦٠هـ، والذي أعلن ولاءه للخلافة الفاطمية في مصر. القلقشندي: فلاح الجمان، ص ١٦٣، محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين ، ص ٢٢ .

(١٢) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، ج ٥، ص ١٢، دار المعارف، ط١ القاهرة ١٩٧٣ م

(١٣) حدث رد فعل قوي في مطلع القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وبدأ المذهب السني يسود من جديد ، بعد أن ضعفت الدولتان "الفاطمية" و "البرهية" (الشيعةتان) بظهور دولة سنية كبيرة في المشرق الإسلامي ، كان هدفها القضاء على الدول والمذاهب الشيعية في كل مكان، بل وكان سلاطينها مهتمين بالمحافظة على المذهب السني ونفوذه، ويرون ضرورة التخلص من كل الحركات الهدامة في العالم الإسلامي ، وإعادة الوحدة الإسلامية من جديد على أساس مثنى-لوقية حسين محمود : الجويلي إمام الحرمين ، ص ٣٢ . سلسلة أعلام العرب ، العدد (٤٠) الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٤ م .

(١٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٧ ص ٢٠٨، راجعه وصححه: د / محمد يوسف النقل دار الكتب العلمية ط ٣ بيروت ١٩٨٨م.

(١٥) ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ ، ج ١٢، ص ٣٩ ، دار الفكر العربي، ط١، القاهرة ١٩٣٢م .

(١٦) لعبت الغلات المذهبية دورا كبيرا في احتكان الوضع السياسي في العراق ، فقد حدث في بغداد سنة (٤٤٣هـ) أن كتب أهل الكرخ (محلة الشيعة ومكان تجمعهم) بأحرف من ذهب على أبراج باب السماكين 'محمد وعلى خير البشر' ؛ وهنا قامت الفتنة ، وتشابك فريقان. وحدث أن قتل هاشمي وحمله أهله وطافوا به على في المدينة، وأتار هذا

الحادث نفوس أهل السنة فتوجهوا إلى قوبر الملوك والوزراء من بني بويه ونهبوها وسلبوها، فإزداد بذلك الاضطراب والفوضى. وهذه حادثة أخرى تتم عن مدى تأزم الأمور بين الفريقين لتتابع حوادث التصامم: حدث سنة (٤٤٤ هـ) أن اختطفت جماعة القواد الأتراك السنين رجالا شعيبا من أهل الكرخ وذهبوه على سرأى من نساءه، فصرخون وثرثن شعورهم. فأثار ذلك شعور العامة من أهل الكرخ وتشابكوا بعنف مع أهل السنة فما كان من القواد الأتراك إلا أن أحرقوا أسواق الكرخ وتكبد كلا الفريقين خسائر فاحشة، ولم يتوقف القتال إلا بعد أن انسحب القواد الأتراك، وتأسفوا على ما بدر منهم. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل قامت فتن سنة (٤٤٧ هـ) بين فقهاء السلفية والحابلة عندما قال الأخيرون بمنع الجهر بسم الله الرحمن الرحيم، والتراجع في الأذان والقنوت، إذ غضب فقهاء السلفية لذلك، وقيل أن يتطور الأمر إلى أكثر من ذلك رجوع الحابلة عما قالوا. ولم تكن بغداد وحدها مرتعا للحوادث العنيفة، بل امتدت نيران الفتنة إلى غيرها من البلدان، وكانت نيسابور مسرحا لفتن كثيرة. لمزيد من التفاصيل حول الصراعات الدامية بين السنة والشيعنة أنظر: ابن الجوزي: المنتظم في أكثر من جزء.

(١٧) عميد الملك الكندري: محمد بن منصور الكندري، ولد سنة (٤١٥ هـ/١٠٢٤ م) في كندر، إحدى قرى نيسابور، بدأ حياته العلمية بدراسة الفقه، حتى وصل فيه إلى درجة عالية من الاتقان والشهرة، فلفت نظر السلطان تغول بك، فقبه وجعله مشيره، ثم أعطاه حكومة «خوارزم» إلا أن عميد الملك حاول التمرد على السلطان في خوارزم، فما كان من السلطان إلا أن تحرك ضده وتحرك بجيشه، ثم قبض عليه وأمر بخصمه. ويقال إن سبب هذه العقوبة البغية أن تغول بك أرسله ليخطب له امرأة، فزوجهها لنفسه وعصاه، فلما ظفر به أقره على خدمته بعد أن خصاه. الباهرزي: دمية القصر وعصرة أهل العصر، ج ١ ص ١٢٠، تحقيق ودراسة د/ محمد التولجي، دمشق ١٩٧٢ م.

(١٨) ابن الجوزي: المنتظم ج ٨، ص ١٥٧، السبكي: طبقات السلفية ج ٣، ص ٢٥٥.  
 (١٩) الأشاررة: هم أصحاب أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري المتوفى سنة (٣٢٤ هـ/٩٣٥ م) وهو من جنة العشاء الذين يثبتون الصفات لله تعالى، وأيد عقائد السلف بحجج كلامية متخذة من سلطان العقل وسيلة للإقناع، ولكنه اتخذ مذهباً وسطاً بين المعتزلة والسلف الصالح وهو الذي حارب المعتزلة بسلاحهم من منطق وفلسفة، وأصبح من مؤسسي تركة علم الكلام في الإسلام، وهي التركة التي تحاول التقريب بين تعاليم الدين وبين ميادئ الفكر اليوناني. والمعتزلة من أهم الفرق الدينية التي ظهرت في العالم الإسلامي، ولاسيما في عصر الخليفة المأمون العباسي الذي وافق المعتزلة على القول بخلق القرآن، واستخدم نفوذه في إقرار هذه الفلسفة في آذان الناس. شهريزادي: المعالي والنحل، ص ٧٣ مؤسسة ناصر للثقافة، ط ١، بيروت، ١٩٨١ م. عبد التعم حسنين: سلاجقة إيران، ص ١٧٤ - ١٧٧.

(٢٠) عبد المجيد أبو الفتح بدوي: التاريخ السياسي والفكري للذهب المنفي في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد . ص ١٠٩ . دار الوقاء للطباعة والنشر . ط ٢ المنصورة ١٩٨٨ م .

(٢١) السبكي: طبقات الشافعية، ج ٢، ص ٢٧١ .

(٢٢) طبقات الشافعية، ج ٢، ص ٢٧١، ٢٧٢ .

(٢٣) عملت التغيرات السياسية التي مرت بها بلاد الحجاز آنذاك على تشجيع مجموعة من العلماء وطلاب العلم للقدوم إلى مكة والمجاورة فيها . والمتمثلة في الصراع بين العباسيين والفاطميين على الأماكن المقدسة في مكة والمدينة . ولما بسط العباسيون سيطرتهم الكاملة على مكة ، وأصبحت الطرق آمنة ، كان ذلك حافزاً مغرياً لمجموعة كبيرة للمجاورة لاسيما بعد تهيأت لهم الأجواء العلمية المناسبة . عبد العزيز بن راشد : المجاورون في مكة ، ص ٤٤ .

(٢٤) الإمام البيهقي: هو أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي الثقفي الشافعي الحافظ الكبير المشهور واحد زمانه، وفرد أقرته في الظنون رجل كثيراً وحصل علماً واسعاً بالحديث وطلب إلى نيسابور للكثيرين فله الشافعي . ابن خلكان: وفيات الأعيان وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ١ ص ٧٦، ٧٥ . تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨ م. ابن عساکر: تبیین کذب المغتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ، ص ٢٦٥ . مطبعة التوفيق بمشلق ١٣٤٧ هـ .

(٢٥) أبو القاسم القشيري: هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك بن طلحة بن محمد القشيري النيسابوري الثقفي الشافعي . شيخ خراسان في عصره ، علامة الفقه والحديث والتفسير والأصول والأدب وعلم التصوف . وكان ثقة حسن السمع وله تصانيف مشهورة منها "الرسالة القشيرية" و"التيسير في علم التفسير" وسوفي مسنة (١٤٦٥ هـ/ ١٠٧٢ م). ابن عساکر: تبیین کذب المغتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ص ٢٧٤ . ابن الجوزي: المنتظم، ج ٨ ص ٢٨٠ .

(٢٦) أبو المعالي الجويني: هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني أبو المعالي الملقب بإمام الحرمين أعم المتأخرين من أصحاب الإمام الشافعي على الإطلاق، المجمع على إمامته المتفق على غزارة علمه وتفننه في العلوم من الأصول والفروع والأدب وهو من أهل نيسابور رحل إلى بغداد ولقي بها جماعة من العلماء وذهب إلى الحجاز وجاور بمكة أربع سنين ولذا قيل له "إمام الحرمين" ثم عاد إلى نيسابور فهنئ له الوزير نظام الملك المدرسة النظامية التي درس فيها، وحضر دروسه الأکابر والأئمة وله مصنفات كثيرة منها "العقيدة للنظامية في الأركان الإسلامية" و"الإرشاد" و"الورقات" وغير ذلك وتوفي الجويني سنة (١٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م). ابن عساکر: تبیین کذب المغتري، ص ٢٧٨ . السبكي: طبقات الشافعي ج ٢، ص ٢٤٩، ٢٩١ .

(٢٧) ابن عساکر: كذب المغتري، ص ١٠٩، السبكي: طبقات الشافعية، ج ٢، ص ٢٧٢ .

- (٢٨) ترجم عبد الغفار الفارسي تلميذه أمام الحرمين في طبقات الشافعية الكبرى ج ٣ ص ٣٥٨.
- (٢٩) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٦١.
- (٣٠) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٨ ص ١٨.
- (٣١) ابن تغري بردي: التجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٥ ص ١٢١. دار الكتب المصرية، ط١، القاهرة، ١٩٣٥ م.
- (٣٢) ابن عدوية: طبقات الشافعية، ص ١٧٤، ١٧٥ تحقيق. د. عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة ط٣، بيروت، ١٩٨٢ م.
- (٣٣) طبقات الشافعية، ج ٢، ص ٢٥٢.
- (٣٤) ابن صاكر: كذب المفترى، ص ١٠٨.
- (٣٥) أبو طاهر السلفي: معجم السلف، ص ٢٧١. تحقيق: عبد الله عسر السارودي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣ م. ابن الجوزي: المنتظم ج ٩، ص ١٠٦.
- (٣٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ١٥٥. الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج ٤، ص ١٢٢٨. دار الكتب العلمية بيروت ١٣٧٤ هـ.
- (٣٧) سير أعلام النبلاء: ج ١٩، ص ٣٩.
- (٣٨) عبد الغفار الفارسي: المنتخب من السائق لتاريخ نيسابور، ص ٩٩. دار الكتب العلمية بيروت ١٣٧٤ هـ.
- (٣٩) المنتخب من السائق، ص ٩٧.
- (٤٠) المنتخب من السائق، ص ٤٢٢. <http://Archivebeta.S>
- (٤١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٠٥.
- (٤٢) السيوطي: طبقات الحفاظ، ص ٤٦٩.
- (٤٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٠٦.
- (٤٤) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٣٥٤.
- (٤٥) جمال الدين الشيال: أعلام الإسكندرية ص ١٢٦.
- (٤٦) ابن قاضي شهبه: طبقات الشافعية ج ١ ص ٢٧٢. تحقيق د/ عبد العليم خان، عالم الكتب ط١ بيروت ١٩٨٧ م.
- (٤٧) ابن الأثير: التلخيص، ج ١، ص ١٤٧. دار صادر بيروت، ١٩٨٠ م.
- (٤٨) ابن قاضي شهبه: طبقات الشافعية، ج ١ ص ٢٦٢، ٢٦٤.
- (٤٩) السكبي: طبقات الشافعية، ج ٣، ص ١٥٢.
- (٥٠) عبد العزيز بن رائد: المجاورون في مكة، ص ٤٥.
- (٥١) الذهبي: تذكرة الحفاظ ج ٣، ص ١١٢١. السيوطي: طبقات الحفاظ، ص ٤٢٩، أبو المحاسن: التجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٥١.
- (٥٢) عبد الغفار الفارسي: المنتخب من السائق، ص ٣٨٤.
- (٥٣) السابق: ص ٤٠٠، ٤٠١.

- (٥٤) ياقوت الحموي: معجم الأبناء، ج ٥، ص ٤٨٩، دار الكتب العلمية، ط ١ بيروت، ١٩٩١م.  
ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ١٦٨.
- (٥٥) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر : ج ٤، ص ١١٥. تحقيق د. مفيد محمد متمية، دار الكتب العلمية ط ١ بيروت ١٩٨٣.
- (٥٦) ياقوت الحموي: معجم الأبناء، ج ٥، ص ٤٩٠، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ١٦٩.
- (٥٧) إنباء الرواة: ج ٣، ص ٢٦٦ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار الفكر العربي ط ١ القاهرة ١٩٨٦ م.
- (٥٨) هند حسين طه: الألب العربي في إقليم خوارزم منذ الفتح العربي ٩٣هـ، حتى سقوط الدولة الخوارزمية ٦٢٨هـ، ص ٢٢٠، منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٧٦م.
- (٥٩) نثر المعتزلة تأثراً شديداً بالفلسفة الإغريقية ، فلقبتسوا منها ، وأجهدوا أنفسهم في أن يضيفوا إلى المعاني الإسلامية التي جاء بها القرآن ، جميع ما احتوته الثقافة اليونانية من أفكار علمية وفلسفية وأن ياتلمذوا بنها ، ويخرجوا منها مزيجاً جديداً يتفق وتعاليم الإسلام وأصوله . ونظر المعتزلة لقرءاءة لا ينالزهم بلزاع حتى تصدى لهم أبو الحسن الأشعري الذي حمل عليهم وحاربهم حرباً شعواء ، وراق أهل السنة في كثير مما ذهبوا إليه . ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ١٦٨. عبد النعيم حسنين : سلاجقة إيران ، ص ١٧٥ ، ١٧٦ ، <http://Archivwebeta>
- (٦٠) القفطي: إنباء الرواة، ج ٣، ص ٢٦٦، ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢١٩.
- (٦١) علي بن عيسى الحنصلي: علي بن عيسى بن حمزة بن وهان، ويعرف بابن وهان من ولد سليمان بن الحسن بن علي بن أبي طالب، كان شريفاً جليلاً من أهل مكة وشرفاتها وأمرائها وكان ذا فضل عزيز وله تصانيف مفيدة وقريحة في النظم والنثر مجيدة قرأ علي الزمخشري بمكة وتوفي في سنة ثيف ولحمسين وخمسائة. ياقوت الحموي: معجم الأبناء، ج ٤، ص ١٩٧، ابن الأثير: نزهة الألباء، ص ٢٩٠. الألباء تحقيق د/ إبراهيم المسارني مكتبة المنار ط ١ الأردن ١٩٨٥ م.
- (٦٢) ياقوت الحموي: معجم الأبناء، ج ٤، ص ١٩٧، القفطي: إنباء الرواة، ج ٣، ص ٢٦٨.
- (٦٣) القفطي: إنباء الرواة، ج ٣، ص ٢٦٨.
- (٦٤) ياقوت الحموي: معجم الأبناء، ج ٤، ص ١٩٧.
- (٦٥) معجم الأبناء: ج ٤، ص ١٩٧.
- (٦٦) القفطي: إنباء الرواة، ج ٣، ص ٢٦٦، هند حسين طه: الألب العربي في إقليم خوارزم، ص ٢٢٨.
- (٦٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ١٦٩.
- (٦٨) القفطي: إنباء الرواة، ج ٣، ص ٢٧١.

- (٦٩) القلطي: إنباه الرواة، ج ٤، ص ٢٧١.
- (٧٠) ابن خلكان، وفيات الأعيان ج ٥، ص ١٧٠.
- (٧١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ١٩، ص ٦١٥، ابن عساكر: كذب المفترى، ص ٣٢٢.
- (٧٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٩، ص ٦١٩، ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢١١.
- (٧٣) ياقوت الحموي: معجم الألقاب، ج ٥.
- (٧٤) غطارفا: جمع غطريف، وهو السيد الشريف.
- (٧٥) الحطية: كناية عن المباغة في الكرم.
- (٧٦) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السليبي، ج ٤، ص ٥٨٢.
- (٧٧) ياقوت الحموي، معجم الألقاب، ج ٥، ص ١٢٢، ١٢٣.
- (٧٨) ابن جبير: رحلة ابن جبير المسماء (تكررة بالأخبار من تفارقات الأسفار) ص ١٢٨، بيروت ١٩٨١ م.
- (٧٩) تاج المعالي بن أبي الفتح: هو أبو الفتح الحسن بن جعفر بن الحسن بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب الحسيني العلوي أمير مكة تولى إمارة مكة سنة (٣٨٤هـ / ١٩٤م) واستمر في حكمها حتى سنة (٤٢٠هـ / ١٠٢٨م) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٨ ص ٢٢١.
- (٨٠) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ١٣٧. ترجمة د/ يحيى الخشاب، الهيئة المصرية للعلماء للكتاب، القاهرة ١٩٩٢م.
- (٨١) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ١٤١.
- (٨٢) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ١٤١.
- (٨٣) معجم الألقاب: ج ٥ ص ٥٨٢، ٥٨٣. الغزويني: آثار السجادة وأخبار العباد، ص ٥٢٠. دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٤م.
- (٨٤) معجم الألقاب: ج ٥ ص ٤٨٩.
- (٨٥) وفيات الأعيان: ج ٥ ص ١٦٨.
- (٨٦) إنباه الرواة: ج ٣ ص ٢٦٥.
- (٨٧) بغية الوعاة: ج ٢ ص ٢٧٩. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة المصرية، بيروت، ١٩٦٤م.
- (٨٨) كان في صدر الإسلام الإقبال على الدين والزهد في الدنيا غالباً على المسلمين، ولم يكونوا في حاجة إلى وصف يمتازون به عن غيرهم، وإنما كان يشار إليهم بمسلم ومؤمن، ثم تطور الاسم إلى زاهد وعابد، ومن رحم تلك النزعة نشأ ألقوام تعطفوا بالزهد والتعب، واتخذوا تلك طريقة تميزوا بها، وكان ذلك ردة فعل لما زاد إقبال الناس على الدنيا، وجنوحهم إلى مخالطة المتاع السفهوي. مريزن سعيد مريزن عسيري: الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي، ص ١٤٤. مكتبة الطالبي الجامعي، مكة المكرمة، ط ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧ م.

- (٨٩) أمانة محمد نصير: أبو الفرج ابن الجوزي (٥١٠هـ/١١١٧م) وآراؤه الكلامية والأخلاقية، ص ١٩٦. دار الشروق، ط ١، القاهرة ١٩٨٧ م.
- (٩٠) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الثاني) ص ١٠٦.
- (٩١) عبد المنعم حمادة: من رواد الفلسفة الإسلامية، ص ١٢٨. مكتبة الأنجلو المصرية، ط ١ القاهرة ١٩٧٣.
- (٩٢) الربط: والرباط والمرابطة هي ملازمة العدو، وربما سميت الخيل نفسها رباطا، مصداقا لقوله تعالى في سورة الأنفال: 'وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمَنْ رِبَاطًا أَنْغَدُوا ثَرْمِيْنَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ' والرباط في الأصل الإقامة على جهاد العدو بالحرب. وفي هذا العصر أصبحت الكلمة تطلق على الأماكن التي يرئدها المتصوفون والزهاد للعبادة والانقطاع إلى الله، ومجاهدة النفس، كما أصبحت تلك الربط تؤذي خدما اجتماعية ودبلية وثقافية في الوعظ والإلقاء والتحديث، ومسح الإجازات العظمى، وتصنيف الكتب. ابن منظور: لسان العرب، ج ٤ ص ٤١. مريزن مسعود مريزن: الحياة العلمية، ص ٢٣٩.
- (٩٣) عبد العزيز بن رشد: المجاورون، ص ٤٦.
- (٩٤) المنتظم: ج ٩ ص ٣١.
- (٩٥) حسين سيد عبد الله مراد: المجاورون المصريون، ص ١٢١.
- (٩٦) القاضي: شفاء الغرام، ج ١ ص ٣٢-١٢١. حسين سيد عبد الله مراد: مرجع سابق ص ١٢٢.
- (٩٧) القاضي: العقد الثمين، ج ٢ ص ٦٧. حسين سيد عبد الله مراد: مرجع سابق، ص ١٢٢.
- (٩٨) القاضي: العقد الثمين، ج ١ ص ١١٩.
- (٩٩) حسين سيد عبد الله مراد: المجاورون المصريون فسي الحرميين الشريفين (٥٦٧-٦٤٨هـ/١١٧١-١٢٥٠م) ص ١٠٨، المجلة التاريخية المصرية، تصدرها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد (٣٨) ١٩٩٥ م.
- (١٠٠) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٩ ص ١٣٣.
- (١٠١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٣ ص ٣٥٢.
- (١٠٢) المنتظم: ج ٨ ص ٣٢٠.
- (١٠٣) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٨ ص ٣٢٠.
- (١٠٤) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٨، ص ٢٧٠.
- (١٠٥) السابق: ج ٨ ص ٢٧٠.
- (١٠٦) الفخاوي: معناها السيدة الجليلة القدر في اللغة التركية، وهو ما يتسق بهذا اللفظ الملوكي من نساء الملوك والأمراء في العصر السلجوقي. ابن جبير: الرحلة، ص ١٤٧.



(١١٠) لم يذكر لنا ابن جبير اسم الخاتون المشار إليها في رحلته ، ولكنه قال ابنة السدروس ، ولعله يذكر السلطان خوارزمشاه . الرحلة ص ١٤٤ .

(١١١) ابن جبير : الرحلة ص ١٤٥ .

(١١٢) الرحلة ص ١٤٧ .

(١١٣) رحلة ابن بطوطة المسماه (نظرة النظر في غرائب الأمصار) ص ١٦٨ ، شرحه وكتبه هوامشه : ملال حرب ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، بيروت ١٩٨٧م .

(١١٤) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٦٩ .

(١١٥) الحروب الصليبية : هي الحروب التي جرت وقائعها في الشرق العربي الإسلامي خلال الفترة من (٤٨٩ - ٦٩٢ هـ / ١٠٩٥ - ١٢٩١م) بين المسلمين وبين جيوش الغزوات الأوربية ، التي جاءت على شكل حملات متعددة بقيادة بعض ملوك أوروبا الغربية وبعض أمراءها الإقطاعيين ، مستغلين حالة التمزق السياسي المقيم على الشرق الإسلامي حتى نجح الصليبيون في زرع إمارتهم وممتلكاتهم ومحو الإمارات العربية والإسلامية الصغيرة في بلاد الشام واحدة تلو الأخرى . ولم يمض قليل من الوقت حتى نجحت الحملة الصليبية الأولى في تأسيس إمارات أربع: ثلاث منها في الشام واحدة في شمال غرب الجزيرة . ستيغن رنسيمن: تاريخ الحروب الصليبية ج ١ ص ٢٩١ ، ترجمة د/ السيد الباز العربي، دار الثقافة ط ١ ، بيروت ١٩٦٧م . فاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية ص ١٤ سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٩٠م .

(١١٦) المنتظم : ج ٩ ص ٦٤ - <http://archive.ub.edu/Beirut/>

(١١٧) القرظي : أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد القرظي ، المتلقب بحجة الإسلام ، الفقيه الشافعي لم يكن للطائفة الشافعية في آخر عصره مثله ، كان صديقا للوزير نظام الملك وهو الذي فوض إليه التدريس في نظامية بغداد ، وله التصانيف الكثيرة ولد سنة (٤٥٠ هـ / ١٠٥٨م) وتوفي سنة (٥٠٥ هـ / ١١١١م) . السبيكي : طبقات الشافعية ج ٤ ص ١٠١ - ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢١٦ . ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ .

(١١٨) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ص ٢١٦ . ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٩ .

(١١٩) الوزير نظام الملك الطوسي : هو أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي ولد بقرية من نواحي طوس سنة (٤٠٨ هـ / ١٠١٧م) عمل في بداية حياته فسي دولابن الدولة الغزنوية بخراسان فلما قتل نجهم وسقطت دولتهم على أيدي السلاجقة ، انتقل إلى خدمتهم ، ثم ما لبث أن اتخذته نائب أرسلان وزيراً له ، ولما قتل نائب أرسلان عام (٤٦٥ هـ / ١٠٧٢م) اتخذته ملكشاه بن نائب أرسلان وزيراً له . قتل على يد اتباع الحسن الصباح سنة (٤٨٥ هـ / ١٠٩٢م) . ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٩ ص ٦٤ . الحسيني : الزبدة ، ص ١٤٠ - ١٤٥ . ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ١٦١ . السبيكي : طبقات

- الشافعية الكبرى، ج ٣، ص ١٣٥. حوالته: مسكور السوزراء، ص ٢٤٥. ترجمة: د/ حري أمين سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠ م.
- (١١٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤ ص ٢١٦.
- (١١٨) الخليفة المستظهر بالله: هو أبو العباس أحمد بن المعتدي بأمر الله، تولى الخلافة بعد وفاة أبيه المعتدي بأمر الله، وكان عمره ستة عشر سنة. وكان كريم الأخلاق لسين الجانب سخي النفس، متصفا بالعدل والإحسان، وكان حسن الخط جيد التوقعات لا يقاربه فيها أحد، يدل على فضل عزيز وعلم واسع. ابن الجوزي: المنتظم ج ٩ ص ٨١، ٨٢ - السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٤٧٦ - ٤٨٠.
- (١١٩) الفرقة الإسماعيلية: هم الفرقة التي أدعت أن الإمام: جعفر الصادق قد نص على إمامة ابنه إسماعيل، وقد ظهرت هذه الفرقة في القرن الخامس الهجري، وهي مزيج من فرق غالبية معظمها من الشيعة. البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٦٢.
- (١٢٠) الشهرستاني: الملل والنحل ص ٨٢، ٨٣.
- (١٢١) السبكي: طبقات الشافعية، ج ٤ ص ١٠١.
- (١٢٢) عبد الغافر الفارسي: المنتخب من السياق، ص ١٠٢.
- (١٢٣) المنتخب من السياق، ص ٢١٥.
- (١٢٤) عبد الغافر الفارسي: المنتخب من السياق، ص ٣٤٨، ٣٤٩.
- (١٢٥) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٩ ص ٢٨٨.
- (١٢٦) عبد الغافر الفارسي: المنتخب من السياق، ص ٢٩.
- (١٢٧) السابق، ص ٤٦.
- (١٢٨) المنتظم، ج ٩ ص ١٠١.
- (١٢٩) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٩ ص ١٠٦.
- (١٣٠) ياقوت الحموي: معجم الأنباء، ج ٥ ص ٤٨٩ - ٤٩٠.

## قائمة المصادر والمراجع

### أولاً - المصادر:

- ابن الأثير: *على بن أبي الكرم* (٦٣٠هـ).
- ١- *الكامل في التاريخ*، دار الكتب العلمية ط ٣، بيروت، ١٩٨٨م.
- ٢- *التبليغ في تهذيب الأسماء*، دار صادر بيروت، ١٩٨٠م.
- ابن الأثير: *أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد* (٥٧٦هـ).
- ٣- *نزهة الأبناء في طبقات الأئمة*، تحقيق د/ إبراهيم السامرائي مكتبة المنار ط ١، الأردن ١٩٨٥م.
- الباهرزي: *على بن الحسن بن أبي الطيب* (٤٦٧هـ).
- ٤- *دمية العصر وعصرة أهل العصر*، تحقيق ودراسة د/ محمد التونجي، دمشق ١٩٧٢م.
- ابن بطوطة: *محمد بن عبد الله اللواتي* (٧٩٧هـ).
- ٥- *رحلة ابن بطوطة السماه* (تحفة الناظر في غرائب الأمصار)، شرحه وكتب هوامشه:
- طلال حرب، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت ١٩٨٧م.
- البغدادي: *عبد القافرة بن طاهر بن محمد البغدادي* (١٢٩هـ).
- ٦- *الفرق بين الفرق وبيان الفرق الناجية منهم*، تحقيق: محمد عثمان الخشب، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ١٩٨٨م.
- الثعالبي: *أبو منصور بن عبد الملك بن محمد النيسابوري* (٤٢٩هـ).
- ٧- *بثيمة الدهر في محاسن أهل العصر* تحقيق د/ مفيد محمد قمبحة، دار الكتب العلمية ط ١ بيروت ١٩٨٣.
- ابن جبير: *محمد بن أحمد* (ت ٦١٤هـ).
- ٨- *الرحلة* (تذكرة بالأخبار عن تغاللات الأسفار) بيروت ١٩٨١ م.
- ابن الجوزي: *جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي* (٥٩٧هـ).

٩- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دائرة المعارف العثمانية، ط ١ حيدر آباد ١٣٥٩هـ.

-الصيوني: صدر الدين علي بن ناصر (٦٢٢هـ).

١٠- زبدة التاريخ في أخبار الأمراء والملوك السلجوقية: تحقيق: د/ محمد نور الدين،

دار الفراء، بيروت، ١٩٨٢م.

-ابن خاوند شاه: محمد بن خاوند شاه بن محمود (٩٠٣هـ).

١١- روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، ترجمة: د. أحمد عبد الغفار

الشاذلي، دار المصرية للكتاب ط ١ القاهرة، ١٩٨٨م.

-ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (٨٠٨هـ).

١٢- العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٠م.

-ابن خلدون: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (٦٨١هـ).

١٣- وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق: د. إسماعيل عيسى، دار صادر، بيروت،

١٩٦٨م.

-خواتمير: غياث الدين خواتمير (٩٤٢هـ).

١٤- دستور الوزراء، ترجمة: د/ حريز أمين سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب،

القاهرة، ١٩٨٠م. <http://Archivebeta.Sakhr/>

-الذهبي: أبو عبدالله شمس الدين بن محمد الذهبي (٧٤٨هـ).

١٥- تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية بيروت ١٣٧٤هـ.

١٦- سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوس، مؤسسة

الرسالة، ط ١، بيروت ١٩٨٤.

-المسكي: تاج الدين بن تقي الدين المسكي (٧٧١هـ).

١٧- طبقات الشافعية الكبرى، دار المعرفة، ط ٢ بيروت (د.ت).

-المسمعاتي: أبو سعد بن محمد بن منصور (٥٦٢هـ).

١٨- الأسماء، وضع حواشيه: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط ١ بيروت

١٩٩٨.

١٩- التصبير في المعجم الكبير، تحقيق: منيرة ناجي سالم، بغداد ١٩٧٥ م.

-السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ).

٢٠- بغية الوعاة في طبقات الثغرين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،

المكتبة

المصرية، بيروت، ١٩٦٤م.

٢١- طبقات الحفاظ، دار الكتب العلمية ط١، بيروت، ١٩٨٢م.

-الشهرستاني: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (٥٤٨هـ-).

٢٢ - الملل والنحل، مؤسسة ناصر للثقافة، ط١، بيروت، ١٩٨١م.

-أبو طاهر السلفي: أحمد بن محمد السلفي (٥٧٦هـ-).

٢٣- معجم السفر، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، دار الفكر، بيروت ١٩٩٣م.

-عبد الغافر الفارسي: إبراهيم بن محمد بن الأزهري الصيرفي (٦٢٢هـ-).

٢٤- المنتخب من السواق لتاريخ نيسابور، تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز، دار

الكتب

العلمية، بيروت ط١ ١٩٨٩م.

-ابن عسكرا: أبو القاسم علي بن الحسين (٥٧١هـ-).

٢٥- تبیین كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، مطبعة التوفيق،

دمشق ١٣٤٧هـ-

-الفاسي: تقي الدين محمد بن أحمد (٨٣٢هـ-).

٢٦ - شفاء الغرام بأخبار البلدة الخرامية مكة المكرمة ١٩٥٦م.

٢٧- العقد الثمين بأخبار البلد الآكسين، تحقيق: لوفا سيدة القاهرة ١٩٦٧م.

-ابن قاضي شهبه: أبو بكر أحمد بن محمد (٨٨١هـ-).

٢٨ - طبقات الشافعية تحقيق د/ عبد المليم خان، عالم للكتب ط١ بيروت ١٩٨٧م.

-القزويني: زكريا بن محمد بن محمود (٦٨١هـ-).

٢٩- آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٤م.

-القفطي: جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف (٦٤٦هـ-).

٣٠- إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار الفكر

للعرب،

ط١ القاهرة ١٩٨٦م.

-الغفشتدي: أبو العباس أحمد بن علي (٨٢١هـ-).

٣١ - قلائد الجمان في التعريف بغائل عرب الزمان، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار

الكتب الحديثة، ط١ القاهرة ١٩٦٣م.

-ابن كثير: عماد الدين أبي الفدا إسماعيل بن عمر (٧٧٤هـ-).

٣٢- البداية والنهاية في التاريخ، دار الفكر العربي، ط١، القاهرة، ١٩٣٢م.

-أبو المحاسن: جمال الدين بن تفرج بردي الأتابكي (٨٧٤هـ-).

٣٣- التجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، ط١، القاهرة،

١٩٣٥م.

- «ابن منظور: محمد بن مكرم المصري (٧١١هـ) -  
 ٣٤- لسان العرب، دار الحديث، القاهرة ٢٠٠٦ م.  
 «ناصر خسرو: ناصر خسرو علوي (٤٨١هـ) -  
 ٣٥- سفرنامه، ترجمة: د/ يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة  
 ١٩٩٢ م.  
 «ابن هداية: أبو بكر بن هداية الله الصيلى (١٠١٤هـ).  
 ٣٦- طبقات الشافعية. تحقيق: د/ عادل نويهض، دار الأفاق الجديدة ط٣، بيروت،  
 ١٩٨٢ م.  
 «ياقوت الحموي: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (٦٢٦هـ).  
 ٣٧- معجم الأنباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأئيب، دار الكتب العلمية، ط١  
 بيروت، ١٩٩١ م.

### ثانياً. المراجع:

- «آمنة محمد نصير (دكتور)  
 ١- أبو الفرج ابن الجوزي (٤١٠هـ/١٠١٧م) وآراؤه الكلامية والأخلاقية، دار  
 الشروق،  
 ط ١، القاهرة ١٩٨٧ م.  
 «حسن إبراهيم حسن (دكتور)  
 ٢- تاريخ الإسلام السياسي، دار الجيل، ط ٨ بيروت ١٩٩٦ م.  
 «ستيفن رسيمايان  
 ٣- تاريخ الحروب الصليبية ترجمة د/ السيد الباز العريش دار الثقافة، ط ١ ١٩٦٧ م.  
 «شوقي ضيف (دكتور)  
 ٤- تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الثاني)، دار المعارف ط٣، القاهرة،  
 ١٩٧٣ م.  
 ٥- تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات) دار المعارف، ط٣ القاهرة ١٩٨٣ م.  
 «عبد المجيد أبو الفتوح بنوي (دكتور)  
 ٦- التاريخ السياسي والفكري للمذهب المنى في المشرق الإسلامي من القرن  
 الخامس  
 الهجري حتى سقوط بغداد، دار الوفاء للطباعة والتشريع، ط٢، المنصورة ١٩٨٨ م.  
 «عبد المنعم حمادة (دكتور)  
 ٧- من رواد الفلسفة الإسلامية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط١ القاهرة ١٩٧٣ م.  
 «عبد التعم حسنين (دكتور)

- ٨- سلاجقة إيران والعراق، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٩ م .  
 -طوقية حسين محمود (دكتور)  
 ٩- الجويني إمام الحرمين، سلسلة أعلام العرب، العدد (٤٠) إدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٤ م .  
 -قاسم عبده قاسم (دكتور)  
 ١٠- ماهية الحروب الصليبية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الأعلى للثقافة والفنون

- والآداب، الكويت ١٩٩٠ م .  
 -مريز بن سعيد مريز بن عسيري (دكتور)  
 ١١- الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، ط١ ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧ م .  
 -مهد حسين طه (دكتور)  
 ١٢- الألب العريبي في إقليم خوارزم منذ الفتح العريبي ٩٣هـ، حتى سقوط الدولة الخوارزمية ٦٢٨هـ، منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٧٦م.

### ثالثاً، الدوريات:

- حسين سيد عبد الله مراد (دكتور)  
 ١- المجاورون المصريون في الحرمين الشريفين (٥٦٧-٦٤٨هـ/١١٧١-١٢٥٠م)  
 المجلة التاريخية المصرية، تصدرها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية،

المجلد

- (٣٨) ١٩٩٥ م .  
 -عبد العزيز بن راشد المشيخي (دكتور)  
 ٢- المجاورون في مكة وأثرهم في الحياة العلمية خلال الفترة (٥٧٠-٦٦٠هـ/١١٧٤-١٢٦١م) بحث مقدم إلى ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية .  
 ١٤٢٦هـ .

## الأسيرات في الشرق الأدنى الإسلامي زمن الحروب الصليبية

د. محمد عبد الله المقدم (\*)

### مقدمة :

اندلعت الحروب الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي / أواخر القرن الخامس الهجري واستمرت في أدوارها النشطة طيلة القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين/ القرنان السادس والسابع من الهجرة وتوسعت من بلاد الشام لتشمل أجزاء من مصر والعراق وبلاد الجزيرة الفراتية، ورافقتها عمليات أسر واسعة، شملت النساء جنباً إلى جنب مع الرجال والأطفال.

في البداية ينبغي التنويه إلى أن موضوع دراسة تكتفه بعض الصعوبات، مثل ندرة الإشارات المصدرية وتتارها، وكلة المعلومات الإحصائية، كما أن غالبية مؤرخي ذلك العصر تجاهلوا العصر النسوي، وأبواره الهامة في الحرب والسلام. فمن المعلوم أن الدوافع التي حركت الصووع الصليبية كانت مزيجاً من البواعث الدينية والدنيوية، فقد نأجج الحماس الديني مصحوباً بالمطامع المادية، والمطامع السياسية، والرغبات الشهوانية، والأحلام الرومانسية بنساء في غاية الحسن والجمال، فحب النساء، ومفانن المرأة الشرقية استثار سائر فئات المجتمع الأوربي، الذين تصوروا أن البلاد الشرقية مليئة بالمتع والملاذات الحسية<sup>(١)</sup>.

ومن المفارقات أن الرجل الغربي الذي راودته المتع والشهوات في بلاد الشرق، خشي على المسيحيات الغربيات من أهل تلك البلاد الذين ذابت الكتابات المسيحية على وصمهم بالتهو والانحسار في الشهوات، واغتصاب الأسيرات المسيحيات<sup>(٢)</sup> ونتيجة لتلك المخاطر المحتملة، لم تتحسّن البابوية لمشاركة النساء في الحملات الصليبية، وأوصت بمكوّثهن في ديارهن<sup>(٣)</sup> لكن الوصايا البابوية لم تلق استجابة كاملة، حيث اندلعت نساء من مختلف فئات المجتمع الغربي للمشاركة في الحملات الصليبية، فقمّن بخدمة أهلهن، وإعداد الطعام والشراب، ومداواة المرضى، وتضميد الجرحى، والتضرع للرب، وتحفيز المحاربين على القتال، وحملت بعضهم السلاح، وساهمت أخريات في توفير وسائل الترفيه للمحاربين الصليبيين<sup>(٤)</sup>.

(\*) أستاذ مساعد بجامعة نجر.



وفي هذا السياق يميز الفقه الإسلامي بين النساء العجائز والفتيات والشابات، فلا يُجيز خروج الشواب بصحبة الجيوش الإسلامية، خشية الخلطة والفتنة، وخوفاً من وقوعهن سبايا بأيدي الأعداء، ويسمح للنساء المسنات بمرافقة المحاربين للقيام بأعمال الخدمة والطبخ والسقي والمداواة<sup>(٤١)</sup>.

ولم يكن لتمييز الفقه الإسلامي إي أثر عملي في أرض الواقع، فالمسلمون كانوا في مرحلة جهاد الدفع وليس جهاد الطلب، فقد اتسمت الحروب الصليبية في بواكيرها الأولى بطابع هجومي استهدف المسلمين في منتهم وقراهم، وبالتالي وقعت سائر الفئات العسرية النسوية بأيدي الفرنجة، فالقس فوشيه الشارترني يفاخر بأن قومه ذبحوا رجالاً أنطاكية، وأبقوا على "زوجاتهم وعائلاتهم"<sup>(٤٢)</sup>.

ومع توالي تساقط المدن الإسلامية، وقع كثير من النساء المسلمات أسيرات في أيدي الغزاة الصليبيين في الكثير من المدن الشمالية والجزرية والمصرية<sup>(٤٣)</sup> والغريب أن عبيد أوروبا الذين تافقوا للتخلص من قيود القنينة وأصفاد العبودية، فرضوا العبودية على نساء المسلمين في الشرق الأدنى الإسلامي.

وشملت قائمة الأسيرات المسلمات فئات متنوعة، ويأتي على رأسها نساء من أصحاب الشوكة والسنان، كزوجة قنق أرسلان الأول سلطان سلجقة الروم (٤٨٥-٥٠١هـ/١٠٩٢-١١٠٧م) التي أسرتها القوات البيزنطية الصليبية في عام ٤٩١هـ/١٠٩٧م<sup>(٤٤)</sup> كما أن باغي بيان صاحب أنطاكية فر من مدينته عام ٤٩٢هـ/١٠٩٨م تاركاً زوجته سبية بأيدي الفرنجة<sup>(٤٥)</sup> ووقعت أميرة سلجوقية من عوائل<sup>(٤٦)</sup> الأمير جكرمش في أيدي تاتكرد الذي صد هجوماً سلجوقياً على الرها في عام ٤٩٨هـ/١١٠٤م<sup>(٤٧)</sup> ووجدت زوجات بك بن بهرام أنفسهم أسيرات بعد احتلال الأسرى الفرنج في الاستحواذ على قلعة خربت<sup>(٤٨)</sup> عام ٥١٧هـ/١١٢٣م<sup>(٤٩)</sup> وداهم الفرنجة في عام ٥٢٧هـ/١١٣٢م حصن القبة<sup>(٥٠)</sup> وأسروا حريم خلف بن ملاعب وبنات سالم بن مالك العقيلي صاحب قلعة جعبر<sup>(٥١)</sup>.

ومع أن المسلمين تعرضوا لهزائم مريرة في البواكير الأولى للحروب الصليبية، إلا أنهم استعانوا زمام المبادرة، ووقعت كثير من نساء الفرنج سبايا في أيدي المسلمين<sup>(٥٢)</sup>، فعقب فتح بيريوس مدينة أنطاكية عام ٦٦٧هـ/١٢٦٨م تقاسم الناس السوان والبنات<sup>(٥٣)</sup> وتمكنت أسرة قلاوون من طرد البيقايا الصليبية من بلاد الشام، وسيفت كثير من الأسيرات الصليبيات إلى ديار الإسلام<sup>(٥٤)</sup>.

وتضم قوائم الأسيرات الصليبيات فئات عسرية واجتماعية متنوعة، فكما أن هناك أسيرات كثر من الشرائع الدنيا، كذلك وجدت أسيرات نبيلات، حيث يُعتقد أن الكونتيسة إدا النمساوية Ida of Austria التي شاركت في صليبية ٤٩٥هـ/١١٠١م وقعت أسيرة بأيدي المسلمين<sup>(٥٥)</sup> وإذا كانت الشكوك تحوم حول قتل أو أسر إدا النمساوية، فإنه من المؤكد أن زوجة رينيه بروس Renier Brus صاحب بنيناس وقعت مع العديد من النساء الصليبيات أسيرات في أيدي قوات شمس الملوك إسماعيل

بن بوري أمير دمشق (٥٢٦ - ٥٢٩ هـ / ١١٣٢ - ١١٣٥) الذي استطاعت قواته فتح مدينة باناس سنة ٥٢٧ هـ / ١١٣٢م<sup>(١٠)</sup>.

وجرت العادة على معاملة الأسيرات بحسب أهميتهن السياسية، ومكانتهن الاجتماعية، وجاذبيتهن الجمالية، وقدراتهن العقلية، وخبرتهن العملية، ومردودتهن المادية<sup>(١١)</sup> وينسحب هذا الأمر على عصر الحروب الصليبية، والعصور الوسطى بشكل عام.

فقد اندهش الفرنجة من المعاملة الكريمة التي حظيت بها زوجة قلج أرسلان من قبل الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين<sup>(١٢)</sup> وبالطبع كانت الجموع الصليبية تتسوق لإرضاء غرائزها الإنتقامية، وإشباع رغباتها المادية، فالمؤرخ الصليبي وليم الصوري يشير إلى وليم William رفيق كونت تولوز ريموند الصنجولي Raymond de Saint-Gille الذي كان من 'حسن طالعاه'<sup>(١٣)</sup> أن وقعت زوجة ياغي سيان في قبضته مع طفلين صغيرين لأنها شمس الدولة، لم يتكلى وليم عن تلك الغنيمة إلا 'بقدر كبير من المال'<sup>(١٤)</sup>.

ومما يؤكد حقيقة التهم الصليبي للأموال أن الأمير جكرمش عرض فداء أميرة سلجوقية، إما بمبادلتها بكونت ارها الأمير بلدوين دي بوج، أو ببلغ فدية كبيرة، فضل بوهيمند وتاتركه الأموال على رفيقهما الذي ظل قابعا في محبمه<sup>(١٥)</sup> ولا ريب أن هذه الواقعة تكشف حقيقة أولئك الأشتات المتنازعة الذين لا تجمعهم وشائج أمسية، ولا روابط اجتماعية، ولا قيم دينية أصيلة.

بل كثيراً ما دبت الغيرة والكراهية بين الصليبيين نتيجة الأموال التي يحصلونها من الفداء الأسيرات المسلمات ذوات المكانة العالية في المجتمع المسلم<sup>(١٦)</sup> غير أن ذلك لا يعني انعداماً تاماً لتجوانب الإنسانية في الشخصية الصليبية، فالملك الصليبي بلدوين الأول الذي هاجم إحدى القبائل العربية في الأردن عام ٤٩٥ هـ / ١١٠٢م، تعامل بروح إنسانية رفيعة مع زوجة أحد كبار شيوخ القبيلة، والتي كانت تعانى من آلام المخاض، حيث أطلق سراحها، ووفر لها كل ما تحتاجه من الفرائش والزاد والشراب، وخصص لها وصيفة تقوم بخدمتها ورعايتها<sup>(١٧)</sup>.

وبالطبع كان ذلك التعامل الإنساني يمثل حالة استثنائية في الجانب الصليبي، بينما تعامل المسلمون برفق ورحمة مع سائر الأسيرات الفرنجيات، ففي أثناء فتوحات صلاح الدين وقعت كثير من النساء الصليبيات سبايا بأيدي المسلمين، وعاملهن صلاح الدين بفاية الإجلال والاحترام، ومنح الأمان لنساء كبار الأمراء الفرنجة، وأذن لهن بالخروج من بيت المقدس بكرامة<sup>(١٨)</sup>.

وإذا كانت سيدات المجتمع الأسيرات قد حظين بمعاملة كريمة سواءً من قبل المسلمين أو الصليبيين، فإن ذلك لا ينسحب غالباً على الأسيرات اللاتي يحدرن من الفئات الدنيا في المجتمعين الصليبي والإسلامي، فهؤلاء النعمة عاتين من سلسلة

الحروب والهزائم، وما يتلوها من مناعب ومعاقب، وحياة ذل وعبودية، وعيش في الغربة والمنافي بعيداً عن الأهل والديار.

إذ تعرضت الأسيرات للقتل والضرب والتعذيب والتمثيل والاعتصاب، واعتاد الفرنجة في فجر الحروب الصليبية على قتل الأسرى والأسيرات، لكنهم غيروا من سياستهم في المراحل الزمنية التالية، حيث خفت حماستهم الدينية، وهدأت رغباتهم الانتقامية، وأصبحت حروبهم ذات طابع توسعي، وازدادت حاجتهم للأيدي العاملة<sup>(٣١)</sup>.

وتجدر الإشارة إلى أن احتمالية بقاء الأسيرات على قيد الحياة كانت أكبر بكثير من بقاء الأسرى الرجال، ويعود ذلك للأعراف والتقاليد المساندة في تلك العصور، ومساهمة المرأة المحدودة في الحروب، وكذلك مطامع الرجال في إشباع رغباتهم وغرائزهم.

لذلك كانت فرص بقاء الأسيرات على قيد الحياة تتفاوت بحسب مظهرهن الجمالي، فالأسيرات الجميلات كن أكثر حظاً في البقاء على قيد الحياة، مقارنة بالأسيرات الأقل جمالاً، فالمغول اقتروا مذبحة مروعة عند اجتياحهم لبغداد، لم يسلم منها سوى البنات الحسان<sup>(٣٢)</sup>.

وكما أن للجانبيّة الجمالية دوراً في الإبقاء على حياة الأسيرات، فكذلك يرتبط الأمر بلبائهنّ العصرية، فكثر ما أدم الغزاة الفرنجة والمغول على قتل العجائز واستحياء الفتيات الصغيرات والشابات<sup>(٣٣)</sup> وهذا التوجه يتسجم مع ما ورد في الكتاب المقدس من حضي على قتل النسوة اللاتي سبق لهنّ مضاجعة الرجال والإبقاء على حياة الفتيات العذرى<sup>(٣٤)</sup>.

وكان يتم قتل الأسيرات والتمثيل بجنثهنّ أحياناً، فالتقى فوشيه الشارترى بفاخر ويتنذ بوحشيه رفاقه الصليبيين الذين اجتاحتوا أنطاكية ولم يؤذوا النساء الأسيرات ولم يقتلوا شراً معيناً بحسب قوله 'ولم يقتلوا بطونهنّ' بحسب<sup>(٣٥)</sup>.

ولم تقتصر الوحشية الصليبية على الأسيرات المسلمات فقط، بل تعدتها أحياناً إلى المسيحيات الشريقات، فلم تتورع إحدى كتالبيهم عن نزع نهدي امرأة مسيحية كانت تدافع عن دارها أثناء صليبية عام ٤٩٥هـ/١١٠١م<sup>(٣٦)</sup> وبدورها تستهم الكتابات الصليبية الخوارزمية باستباحة بيت المقدس عام ٦٤٢هـ/١٢٤٤م، وتشريح صدور الأسيرات الفرنجيات، ونزع أذنانهنّ من أماكنهنّ وهنّ ما زلن على قيد الحياة<sup>(٣٧)</sup>.

ولا شك أن الأسيرات تعرضن للإذناء والضرب<sup>(٣٨)</sup> كما كان يتم توثيقهن بالحبال والقيود، ويتم اقتيادهنّ وهنّ مكبلات بأصفاد الحديد، فتدع لرويتهنّ العيون، وتتفطر لاكتسارهنّ الأكباد، وتذوب لمواجههنّ القلوب بحسب تعبير ابن جبير<sup>(٣٩)</sup> وإجمالاً فقد تعرضت الأسيرات للتركيب والإذلال، وكان يتم سوقهنّ إلى المدن والأسواق كما سماق المواشي والأغنام<sup>(٤٠)</sup>.

فالتساء الأسيرات غالباً ما يتحوّلن إلى إماء، يبعن في أسواق النخاسة، في حين يفضل بعض الأسرى الاحتفاظ بسباياهم للقيام بالخدمات المنزلية، بالإضافة طبعاً إلى

الخدمات الترفيهية لسادتهن، وهذا الأمر كان شائعاً لدى المسلمين والصلبيين، مع الفارق أن هذا السلوك له مبرر شرعي ضمن قواعد الفقه الإسلامي، بينما قام به السادة الفرنج تجاوزاً للقواعد الكنسية.

وكان يتم فرز وتصنيف الأسيرات حسب قدرتهن البدنية، ومحاسنهن الجمالية، وما يُحسن من الحرف والأعمال، فالأسيرات ذوات القدرات البدنية يستخرن للقيام بالأعمال الشاقة، والأعضاء المنزلية، فالفرنجة الذين قاموا بمذابح لسكان المدن الإسلامية في فجر الحروب الصليبية<sup>(٦٣)</sup> احتفظوا بأسيرات قيسارية<sup>(٦٤)</sup> في رجب ٤٩٤هـ/مايو ١١٠٩م لتدوير الطواحين اليدوية<sup>(٦٥)</sup> ومن المؤكد أن كثير من الأسيرات قمن بالخدمة في بيوت سادتهن المسلمين والصلبيين كطباخات وغسالات، وفي كافة الشؤون والأعمال المنزلية، والأشغال اليدوية<sup>(٦٦)</sup>.

أما الأسيرات ذوات الفطنة والذكاء، فكان يعنن كمديرات للقصور، ومربيات لأطفال سادتهن، كما يستخدمنهن القادة الصليبيين في أعمال الجاسوسية<sup>(٦٧)</sup> وبالنسبة للأسيرات ذوات الطباع الرقيقة، والتي يتسمن بقدر عال من الحسب والجمال، فقد تم استغلالهن للقيام بالحرف والرقص والغناء والطرب، وفي كل ما يتعلق بالترف والرفاهية، فقد استخدم فرنج بالأسيرات المنتميات في الحانات للتمسيلة وإشباع رغبات السادة الفرنج<sup>(٦٨)</sup> وهذا الأمر يدل بوضوح على تعرض المرأة الأسيرة للامتهان والإذلال.

ولعل أظلم ما تكتمه المرأة هو وقوعها في أسر الأعداء، وكان هذا الهاجس يفرغ آهاتهن وإخواتهن وأزواجهن، فقبيل هجوم تساترد على الأنبار<sup>(٦٩)</sup> سنة ٥٠٢هـ/١١٠٠م قام أهالي البلدة بترحيل نسائهم إلى حلب<sup>(٧٠)</sup> وهو إجراء يبدو الغرض منه الحرص على سلامتهن، وتجنبيهن أي فظائع وتجاوزات قد يقرنها الفرنج. كما أن أهالي مدينة صور المحاصرين من قبل الصليبيين عام ٥١٨هـ/١١٢٤م هبوا بقتل نسائهم وأطفالهم "غيرة من تملك التصاري لهم"<sup>(٧١)</sup> لكن فقهاء المدينة زجروهم عن القيام بذلك المذبحة<sup>(٧٢)</sup>.

ولا شك أن أهالي صور خافوا على نسائهم من السبي والفضيحة، وهذا النوع من التفكير يذكرنا بنحر اليهود لنسائهم وأطفالهم في مدن حوض الرابن خلال الصليبية الأولى.

ويتجسد خوف المرأة على شرفها وعفتها في قصة الفتاة الكردية رفول بنت أبي الجيش (ت.ق. ١٢٠٦هـ/١٢٠٦م) والتي أسرها الفرنجة، لكنها تمكنت من الفرار من فوق قوس أسرها، وألقت بنفسها في النهر<sup>(٧٣)</sup> حرصاً على عفتها، وفضلت الموت على ذلك، وحافظت على شرفها وشرف أهلها وعشيرتها، وذلك أورد الفارس والشاعر أسامة بن منقذ قصتها في سياق مدحه لنخوة النساء الشريفات وشجاعتهن.

كما أورد أسامة قصة أمه مع أخته أثناء قيام النزارية بالهجوم على شيراز - شمال غرب حماة - حيث وضعت الأم ابنتها في شرفة البيت، لتكف بها إلى الوادي إذا

ما وصل النزارية إلى الدار، مفضلة موت ابنتها على أن تراها مسبية بأيدي الفلاحين الأجلاف من النزارية<sup>(٩٠)</sup>.

ومن جهة أخرى، كان الفرنجة يتخوفون من وقوع لسمائهم أسيرات بأيدي المسلمين، فالحشود الصليبية التي تجمعت قبيل حظون، أسرعت لإقلاق الكونتيسة إشييفا Eschiva أميرة الجنيل وزوجة ريموند الثالث Raymond III صاحب طرابلس التي حاصرها صلاح الدين في مدينة طبرية<sup>(٩١)</sup>.

وأثناء حصار صلاح الدين للقدس، عزم الفرسان الفرنجة على القتال مهما كانت النتائج، لكن البطريرك الصليبي للقدس فرقل Heraclius (١١٨٠ - ١١٩١ م) نصحهم بالتفاوض مع صلاح الدين، بهدف إنقاذ النساء الفرنجيات من الوقوع في برائن العبودية، مع ما قد يترتب على ذلك من تغيير دينهن، والتهاك شرفهن<sup>(٩٢)</sup>.

وعاشت سيدة فرنسا الأولى الملكة ماجريت دي بروفاتس Marguerite de Provence زوجة لويس التاسع Louis IX (١٢٢٦ - ١٢٧٠ م) أياماً عصيبة في دمياط، حيث كانت تكشى الوقوع في شباك الأسر بعد أسر زوجها أثناء الحملة الصليبية السابعة<sup>(٩٣)</sup>.

وتعكس قصة نور الدين ومريم النزارية ضمن قصص ألف ليلة وليلة، مضافاً الأمهات من امتهان بلاتهن، فيد أن عادت مريم بعد فترة أسر طويلة، بادرتها أمها بالسؤال إن كانت ما زالت بكرًا، فاندفعت مريم من سؤال أمها، إذ كيف يمكن للمرأة أن تحافظ على موطن شرفها بعد سبيها وبيعها، وأخبرتها بأن التاجر الذي اشتراها هدها وتوعددها وضربها وأكرهها واقتض بكراتها<sup>(٩٤)</sup>.

ومن الطبيعي أن تتعرض الأسيرات الصناعات للاغتصاب بشكل أكبر من الأسيرات الأقل فطنة وجمالاً، فخلال الحملة الصليبية الرابعة، غطي البيزنطيون وجوه نساءهم الجميلات بالطين والأوساخ والأوحال، لمنع استنارة الفرنج الذين كانوا يبحثون عن النساء ذوات الهيئة الجميلة والوجوه المليحة<sup>(٩٥)</sup>.

وكان من الصعوبة أن تستطيع المرأة الأسيرة الحفاظ على عفتها وشرفها في ظل الظروف الصعبة للأسر، وإزاء ذلك فقد اعتقد كل من المسلمين والفرنجة واليهود أن أسر المرأة العفيفة النظيفة أسوأ من الموت، فخلال اندفاع حملة الرعاع الصليبية باتجاه الشرق، تعرضت نساء يهوديات للاغتصاب في مدن حوض الرين، وهذا الأمر أدى إلى حالة من الذعر في أوساط يهود تلك البلاد، فأقدمت يهوديات على الانتحار، بينما قامت أخريات بشد الأحزمة بقوة على مواضع عوراتهن، وذبحن بنساتهن خشية تعرضهن للاغتصاب<sup>(٩٦)</sup> ولم يكف الفرنجة باغتصاب يهوديات شمال فرنسا وحوض الرين، بل واصلوا اقتراصهم للأسيرات اليهوديات عند اجتياحهم للقدس ومدن الشرق الأدنى الإسلامي<sup>(٩٧)</sup>.

كما تعرضت الأسيرات المسلمات للاغتصاب عند احتلال الفرنجة لأنطاكية والقدس، حيث لتنابت الفرنجة شهوة عارمة للأتراش ومضاجعة الوثنيات بحسب

توصيف الكتابات الفرنجية<sup>(١٤١)</sup> واتَّهكت حرمة نساء الأمير بك بن ارتق أثناء استيلاء الفرنجة على قلعة خرتبرت عام ٥١٧هـ / ١١٢٣م<sup>(١٤٢)</sup> ووقع الأمير جوسلين الثاني Joscelyn II في الأسر أثناء انتهكه حرمة أسيرة تركمانية ٥٢٥هـ / ١١٥٠م<sup>(١٤٣)</sup> .  
ولوث الفرنجة شرف الأسيرات المسمات خلال اقتحامهم لمدينة نيباط في عام ٦١٤هـ / ١٢١٩م ، حيث باتوا في المسجد الجامع يفجرون بالنساء ويفتضون البنات<sup>(١٤٤)</sup> وتكررت الانتهاكات الصليبية للأسيرات المسمات أثناء مباحثة القبارصة الصليبيين مدينة الإسكندرية عام ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م<sup>(١٤٥)</sup> .

والحقيقة أن النساء الأسيرات تعرضن لعصبات اغتصاب فردية وجماعية، كنتيجة متوقعة للإباحة التي تعقب الانتصارات والفترات، حيث يُطلق المنتصرون غزائرهم المكبوتة، وشهواتهم الجامحة، وتكون الأسيرات ضحايا لتلك الرغبات المسعورة، والمشكلة أن تلك التجاوزات والانتهاكات التي تعرضت لها الأسيرات لم تكبحها أي ضوابط دينية أو أخلاقية أو إنسانية، بل صارت جزءاً من ثقافة الحرب في العصور الوسطى.

وفي المقابل ينهم الفرنجة المسلمون بأنهم لم يحترموا حرمة الأسيرات الصليبيات<sup>(١٤٦)</sup> فالمؤرخ الصليبي وليم الصوري أشار إلى أن زوجة رينيه دي بروس فشلت في الحفاظ على عفافها خلال فترة أسرها عام ٥٢٧هـ / ١١٣٢م<sup>(١٤٧)</sup> كما أن الكتابات الصليبية اتهمت الجنود المعانك بالتحرش بفرجيات عكا عام ٦٩١هـ / ١٢٩١م<sup>(١٤٨)</sup> .

ومن المفارقات المؤلمة سبي النساء المسمات من قبل المسلمين أنفسهم، فهناك بن بهرام بن ارتق الذي خسر مدينة سروج لصالح الفرنجة، توجه في عام ٤٩٧هـ / ١٠٩٧م إلى مدينة عانة<sup>(١٤٩)</sup> الإسلامية، وسبى نساءها<sup>(١٥٠)</sup> كما أن الخوارزمية عاثوا فساداً في المدن الشامية عام ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م وسبوا نساء المسلمين، وارتكبوا الموبقات بحقن في الجوامع<sup>(١٥١)</sup> مع أنه لا يجوز في الفقه الإسلامي سبي المسمات، فالمسلمة لا تسبى ولا تسترق من قبل إخوانها المسلمين<sup>(١٥٢)</sup> ناهيك عن اغتصابها، كما أن التشريعات الكنسية الصليبية لا تجوز للصليبي سبي المسيحية الكاثوليكية واسترقاقها<sup>(١٥٣)</sup> .

وكما اغتصبت النساء المسلمات، فقد اغتصبت النساء المسيحيات على أيدي الصليبيين، فالعصابات الصليبية انتهكت حرمة المسيحيات في البلقان أثناء الحملة الشعبية<sup>(١٥٤)</sup> كما أن القائد الصليبي رينو دي شاتيلون Renauld de Chatillon وجنده عاثوا فساداً في جزيرة قبرص عام ٥٥١هـ / ١١٥٦م، واغتصبوا نساءها<sup>(١٥٥)</sup> وأثناء الحملة الصليبية الرابعة انتهكت أعراض النساء البيزنطيات في بيوتهن وأديرتهن وكناسهن<sup>(١٥٦)</sup> .

وبالرغم من كل ضروب المعاناة التي تعرضت لها الأسيرات، إلا أنه كان يتم أحياناً مراعاة بعض الجوانب الإنسانية، كزيارة الأسرى وتفقد أحوالهم، وكان هذا

السماح يتم بشكل شخصي أو بطرق رسمية، فقد سمح للحكام المسلمون للفرنجة بتفقد أسراهم في دمشق في عهد كل من مجير الدين أبق وصلاح الدين الأيوبي<sup>(٣١)</sup> كما تعاطف أفراد من المجتمع الإسلامي مع محنة الأسيرات الصليبيات بعد معركة حطين، وسمحوا لهنّ بالفداء والتزاوج لتخفيف مصائبهنّ وأحزانهنّ<sup>(٣٢)</sup>.

وفي المقابل سمحت بعض القنات الصليبية الرسمية والشعبية للمسلمين بتفقد أحوال أسراهم لدى الجانب الصليبي<sup>(٣٣)</sup> ولم يكن سماح الجانبين الإسلامي والصليبي بزيارة الأسيرات ذا جانب إنساني صرف، بل تداخلت عوامل دينية ومادية فسي هذا الجانب، فأهالي الأسيرات خافوا على نسايتهم من التحول الديني، كما تطلع الآسرون أحياناً للفدية المالية، وسمحوا بالزيارات من أجل تحقيق هذا الهدف.

ونتيجة للمخاطر الجمة التي تتعرض لها النساء الأسيرات، أولت المجتمعات الإسلامية والمسيحية واليهودية عناية خاصة لتحرير الأسيرات، فقدمت الأسيرات فدية الفدية على الأسرى الرجال، وبالطبع كانت الأولوية في الفدية للأسيرات حتى لا يفسدن حريتهنّ، وتنتهك عفتهنّ، ويكفن في دبتهنّ.

وتجدر الإشارة، إلى أن طرق تحرير الأسيرات كثيرة ومتنوعة، فالمن والتبادل والفداء، كانت من أبرز الطرق والوسائل التي تحرر من خلالها الكثير من الأسرى والأسيرات<sup>(٣٤)</sup> ففي بعض الأحيان **تطوع الملوك والأمراء وبعض القنات الاجتماعية في المنّ على الأسيرات وعقتهنّ بدون فدية، ومن المحطات التاريخية التي تجسد فيها هذا النهج، قيام الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين بإطلاق زوجة السلطان قنج أرسلان وحاشيتها بدون فدية مالية<sup>(٣٥)</sup> وإطلاق بتكوين الأول سراج زوجة أحد الأعراب مع وصيقتها في رجب ٤٩٥هـ/مايو ١١٠٢م<sup>(٣٦)</sup> وبرزت هذه الطريقة بجلاء أثناء فتوحات صلاح الدين، وخصوصاً عند تحرير بيت المقدس، حيث أطلق سراح كثير من الأسرى والأسيرات الذين عجزوا عن اقتداء أنفسهم<sup>(٣٧)</sup>.**

كما نظمت العديد من الهدن والمعاهدات والمفاوضات الدبلوماسية بين الدولات الإسلامية والصليبية عملية تبادل الأسرى بين الجانبين<sup>(٣٨)</sup> وبذلت جهود فردية ومجتمعية من أجل تحرير الأسيرات واقتداهنّ بالأموال، فسأزوج كان ملزماً دينياً وأخلاقياً وأديباً باقتداء زوجته، فالكثير من الأفراد المسلمين والمسيحيين واليهود سعوا بهمة من أجل اقتداء زوجاتهم، حتى مع احتمال عدم استمرارية الحياة الزوجية، نتيجة للانتهاكات التي تعرضنّ لها أثناء فترة الأسر<sup>(٣٩)</sup>.

فكوهين اليهودي الذي زوجته الأسيرة لدى الفرنجة<sup>(٤٠)</sup> والتبيل الصليبي رينيه دي بروس Reinier de Brus افك زوجته الأسيرة لدى الدماشقة<sup>(٤١)</sup> والحقيقة أن أي نقائص عن اقتداء الأسيرات، وخصوصاً المتزوجات مهنّ، يعني تحلل العلاقات الزوجية، وتفكك الروابط الأسرية، ويبدو أن المسلمين كانوا أكثر تسامحاً وتماسكاً في تسببهم الاجتماعي والقيمي من الصليبيين.

فنتيجة لتروابط الإجتماعية والأسرية الوثيقة لدى المسلمين، ونتيجة أيضاً لتفوق الجانب الأخلاقي لديهم، اهتم رجال مسلمون ليس في إطلاق سراح زوجاتهم فحسب، بل والسعي لافتداء طليقاتهم، فسلطان بن منقذ عم الفارس أسامة بن منقذ اقتدى طليقته التي أسرها الفرنجة بخمسائة دينار قالوا " ما أدع امرأة تزوجتها وانكشفت علي في أسر الفرنج"<sup>(٤٥)</sup>.

ومثلما كان الأرواح ملزمين بغداء زوجاتهم، فلا شك أن الآباء اهتموا بغذاء بناتهم، واهتم الإخوة بغداء أخواتهم وصناتهم وخالاتهم، وسائر قريباتهم وأرحامهم، بل إن النساء اللاتي لا عائل لهنّ يئثن ما في وسعهنّ لافتداء قريبتهن<sup>(٤٦)</sup>.

كما رأى الميسورون وأهل الثراء من المسلمين والصليبيين واليهود أن من واجبهم إنفاق أموالهم في الفكاك الأسرى والأسيرات، فالأثرياء المسلمون ضخوا الكثير من أموالهم في الوقيفات التي خصصت لافتداء الأسرى والأسيرات<sup>(٤٧)</sup> كما أن الصليبيين الأغنياء في الشرق والغرب أنفقوا بمخاء على الجمعيات المهتمة بالأسرى والأسيرات<sup>(٤٨)</sup>.

وأسهم الأمراء والحكام في شراء حرية الأسيرات، فيقبل كل من معين الدين أمر ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي وأخوه العادل وتقي الدين عمر الأيوبي وغيرهم أموالاً طائلة سواءً من ممتلكاتهم الخاصة، أو من الخزائن العامة لإسارتهم ودونهم في عملية افتداء الأسرى والأسيرات<sup>(٤٩)</sup>.

كما أسهم ملوك وأمرء أوروبا وندبلاد غربي أوروبا والديوليات الأسبانية، بالإضافة إلى ملوك وأمرء الصليبيين في الشرق في دعم أنشطة المنظمات الدينية المسيحية المههومة بشئون الأسرى في مشرق الوطن العربي ومغربه<sup>(٥٠)</sup>.

وشاركت الخواتين<sup>(٥١)</sup> وسيدات المجتمع أيضاً في عمليات تحرير وافتداء الأسرى والأسيرات<sup>(٥٢)</sup> كما أن نساءً من الفئات الدنيا والوسطى كنّ يبدون مهم في شراء حرية الأسيرات المختطفات لدى الفرنجة<sup>(٥٣)</sup>.

وإذا كانت البابوية قد وقلت بقوة من وراء تأسيس المنظمات المهتمة بالأسرى والأسيرات، فقد اقتصر دور المؤسسات الإسلامية على تشجيع الأثرياء والحكام ورعاياهم في دعم الوقيفات التي رُصدت لافتداء الأسرى والأسيرات<sup>(٥٤)</sup> مع الأخذ بعين الاعتبار أن الجهد المسيحي لتحرير الأسرى كان منظماً ومنسقاً عبر جمعيات وهيئات خصصت جزءاً من نشاطها أو كل اهتماماتها لقضية الفكاك الأسرى، بينما اكتفى المسلمون بحسب الأوقاف دون إنشاء أي منظمات متخصصة في افتداء الأسرى .

ومن نافذة القول أن الفئات التي اهتمت بالافتداء الأسرى والأسيرات، كان لها مزيج متداخل من الأهداف الدينية والإنسانية والدعالية والسياسية، فكل الشرائع السماوية حضت على الفكاك الأسرى والأسيرات لتخليصهم من حياة الرق والعبودية، وجعلت جزءاً ذلك المغفرة وتكفير الخطايا<sup>(٥٥)</sup> ولا شك أن أناس كثر من الشرائع المهتمة بافتداء الأسرى حركتهم الدواع الدينية.



وإلى جانب الدوافع الدينية نجد الدوافع السياسية، فالملوك والأسراء والحكام جنوا مكاسب سياسية ودعائية من وراء عمليات اقتداء الأسيرات، إذ أصبح هذا الأمر ميداناً للتباهي والاستعراض في أوساط مجتمعاتهم وبين رعاياهم، فشاع ذكرهم، وازدادت مكانتهم، وتغزل حكمهم وسلطانهم.

كما أن مبادرة الملوك والأمراء بإطلاق سراح أسيرات الأعداء، قد خفف من حالة العداء بين المتحاربين، وقارب بين الخصوم، وسمح بقيام نوع من العلاقات بين الدول قائمة على الاحترام، ولم يقتصر الكسب الدعائي على السمامة بل تعداه إلى المنظمات التبشيرية المهمة بالأسرى، إذ ارتفعت أسهمها في الغرب الأوربي، وذاع صيتها في عوالم المسيحية برمتها، نتيجة لتنافسها وتقاتلها في اقتداء الأسيرات والأسرى المسيحيين، فلفتت الأنظار إلى نشاطاتها، وجذبت الانتباه لمنظماتها وقادتها ومبشرها، كما ضخت الكثير من الأموال في خزائنها، وبالطبع لا يعنى هذا غياب البعد الإنساني في عمليات تحرير الأسرى.

ويقودنا الحديث عن اقتداء الأسيرات إلى الكلام عن أثمانهن والاتجار بهن، فقد تراجعت أسعار الأسيرات وفقاً لمواصفات الأسيرات وكنيتجة طبيعية للعرض والطلب، إذ ارتفعت أسعارهن في أوقات السلم، وانخفضت أسعارهن بعد اجتياح المدن ذات الكثافة السكانية، وفي أعقاب المعارك الكبرى بين المسلمين والصليبيين، ولا ريب في أن العكس الاجتماعي، والمواصفات الجسدية والعقلية والبدنية لعبت دوراً مهماً في تحديد قيمة الأسيرات.

ونتيجة لكثرة الأسرى والأسيرات بعد معركة حطين، كان يباع الأمير الصليبي في أسواق دمشق بثلاثة دنانير<sup>(١٠٠)</sup> وبما أن المرأة الأسيرة يتم شراؤها عادةً بنصف سعر الرجل، فمن المفترض أن يتحدد سعرها بدينار ونصف.

وسمح صلاح الدين لصليبي القدس بمغادرة المدينة عام ٥٨٢هـ — ١١٨٧م، على أن تغدي المرأة نفسها بخمسة دنانير، والرجل ضعف فدية المرأة<sup>(١٠١)</sup> وفي العصر المملوكي انخفضت أسعار الأسيرات الصليبيات بشكل لافت، فغلب فتح السلطان بيبرس لمدينة أنطاكية عام ٥٦٤هـ — ١١٦٨م، انخفض سعر الأسيرة إلى خمسة دراهم<sup>(١٠٢)</sup> وازداد انخفاض أسعار الأسيرات مع طرد البقايا الصليبية من عكا عام ٦٩١هـ — ١٢٩١م إذ تدنى سعر الأسيرة الصليبية إلى درهم واحد فقط<sup>(١٠٣)</sup>.

لكن كانت هي أسعار الأسيرات العاديات، أما الأسيرات ذوات الجمال والخمسة، فلم يبالي الناس بشرائهن مهما ارتفع سعرهن<sup>(١٠٤)</sup> كما أن الأسيرات التنبيلات لم يكن يعرضن في أسواق النخاسة، وإنما يقومن سعرهن، ويتم التفاوض، فقبيلة الأمير جكرمش تم اقتناكها بخمسة عشر ألف دينار<sup>(١٠٥)</sup> كما تم شراء حرية زوجة ياغي سيان بمبلغ كبير من المال<sup>(١٠٦)</sup>.

وتجدر الإشارة؛ إلى أن عكا كانت من أهم أسواق الرقيق لدى الجانب الصليبي، في حين اشتهرت القاهرة ودمشق وحلب بهذه التجارة لدى الجانب الإسلامي<sup>(١٠٧)</sup> وتلحق

البنائفة والجنوية على غيرهم في تجارة الرقيق زمن الحروب الصليبية<sup>(١٠١)</sup>، وتعجب ابن جبير من التجارة النشطة بالمبايا بين المسلمين والصليبيين، وعد ذلك نوعاً من الاعتدال في السياسة<sup>(١٠٢)</sup>.

وكما تم بيع وشراء الأسيرات، تم أيضاً إهداؤهن، فبعد القضاء غبار المعارك، كان يتم تقسيم المبايا بين المنتصرين، وتتلقى الأسيرات الجميلات، ويتم إهداء بعضهن للقادة الذين أسهموا في الفتوحات والانتصارات، وتهدى أخريات للأصدقاء ولذوي الحظوة والسultan<sup>(١٠٣)</sup>.

وإضافة إلى فقدان الأسيرات تحريتهن، وانتهاك عفتهن، والانتقاص من إنسانيتهن، فقد تعرضت الأسيرات لمخاطر تحويلهن عن دينهن، فقد حاول السادة الصليبيين إغراء الأسيرات اليهوديات والمسلمات باعتناق المسيحية مقابل تدويرهن لحياة العبودية<sup>(١٠٤)</sup>.

ومثما استخدم الفرنجة أساليب الإغراء، استخدموا أيضاً أساليب الإكراه لإجبار الأسيرات على الولوع في عالم المسيحية، فقد اختطف صليبيو صور فتاة مسلمة ونصروها بعد أن كانت أمها قد نجحت في اقتادها من أسرهم عام ١٢٦٧هـ/١٢٦٨م<sup>(١٠٥)</sup>، وبدورهم شجع المسلمون الأسيرات الصليبيات على الدخول في الإسلام كجوابة لتليل الحرية والكرامة، والاندماج في المجتمع الإسلامي ببسر ومهولة<sup>(١٠٦)</sup>.

لما كان الزواج دليلاً على الاندماج والتفاعل الاجتماعي، ونتيجة لقلّة النساء في صفوف المستوطنين الصليبيين<sup>(١٠٧)</sup>، لفظ تزواج الخليفة من الملوك والأسراء والنسلاء الفرنجة بمسيحيات شرقيات، بينما ارتبط بعض فرنج القادات الدنيا بأسيرات مسلمات اعتنقن المسيحية<sup>(١٠٨)</sup>.

ومع أن الكتاب المقدس يرفع بالزواج من المبايا الحسان<sup>(١٠٩)</sup> إلا أن حاجز العقيدة كان يقف حائلاً دون التزاوج بين الفرنجة والأسيرات اللاتي لم يتعلمن بماء المعمودية<sup>(١١٠)</sup> لكن من المعلوم أن الفرنجة اتخذوا لهم مخطبات من بين الأسيرات الحسنات، إذ شاع لدى الفرنجة التمري بالأسيرات المسلمات، والتمتع بهن تحت غطاء الخدمات المنزلية في تحد واضح للقواعد التشريعية الكنسية<sup>(١١١)</sup>.

وكانت الأسيرات الصليبيات يقسمن على المجاهدين المسلمين ضمن الغنائم، فيصبحن ملك يمين لهم<sup>(١١٢)</sup> ولم توجد عواقب دينية لدى المسلمين تحول دون زواجهم من حرائر صليبيات، لكن المانع العقدي وجد لدى الفرنجة، إذ ترفض المؤسسات الكنسية زواج المسيحية من مسلم، كما يتضح ذلك جلياً من خلال مقررات مجلس نابلس لعام ٥١٤هـ/١١٢٠م التي حرمت الارتباط بأهل عقيدة مخالفة<sup>(١١٣)</sup>.

وكان لسياسة النساء تأثيرات سياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية، ودينية وثقافية ونفسية في زمن الحروب الصليبية، إذ أدى أسر النساء أحياناً إلى قيام تحالفات عسكرية جديدة، فابن عمر صاحب حصن عزاز - شمال حلب - تحالف مع القائد

الصليبي جودفري عام ٤٩١هـ/١٠٨٩م ضد سيده رضوان الملجوقي صاحب حلب، بتأثير من أسيرته الفرنجية التي أحبها<sup>(١١٧)</sup>.

وكما أن أسر النساء أسهم أحياناً في إعادة ترتيب شبكة العلاقات والتحالفات بين المتحاربين، فكذلك أدى تحويل الأسيرات عن دبتهن إلى تداعيات عسكرية في بعض الأحيان، فالسلطان بيبرس شن في عام ٦٦٧هـ / ١٢٦٨م هجوماً عسكرياً على صليبي صور الذين خطفوا إحدى الأسيرات المحررات وفتتوها عن دبتها<sup>(١١٨)</sup>.

ويتضح جلياً أن خشية من وقوع النساء في الأسر، سواء في ميادين المعارك الحربية، أو أثناء حصار المدن، مثل عامل ضغط على المحاربين، فدفعهم أحياناً إلى الحرب حتى النهاية، وأجبرهم على الاستسلام في أحيان أخرى، وفي كلا الحالتين كان ذلك من أجل الحفاظ على سلامة وحرية النساء، فمن المتصور أن النساء المرافقات للجيوش المتحاربة ألهين حماسة المحاربين، ودفعهم للقتال بكفاءة عالية لخشيتهم من رؤية نساءهم مكبات في سلاسل العبودية.

كما أن وجود النساء داخل المدن المحاصرة كان عامل ضغط آخر على القوى المدافعة، فقبل معركة حطين الدفع الفرنجة بمغامرة عسكرية للحفاظ على مدينة طبرية من سقوط بأيدي صلاح الدين، وإغناذ صاحبها الشيفي من الأسر<sup>(١١٩)</sup> كما أن فرنج بيت المقدس فضلوا الاستسلام بدون قتال لنصالح الدين خشية وقوع نساءهم في الأسر<sup>(١٢٠)</sup>.

ومما لا شك فيه أن أسر النساء كان له آثار وتداعيات سياسية، فالأسيرات المحظوظات صرن زوجات وأمهات لقادة وحكام في عصر الحروب الصليبية، وأصبح لهن دور في الحياة العامة، وفي تدبير شؤون الحكم، فالأسيرة الفرنجية التي صارت ملك يمين لشهاب الدين مالك بن سالم بن مالك صاحب قلعة جعير، سيطرت على مقاليد الأمور بعد وفاة زوجها، وأصبحت هي الأميرة الناهية<sup>(١٢١)</sup> في دولة ابنها بدران<sup>(١٢٢)</sup>.

ويبدو أن تلك الأسيرة الفرنجية كانت أثرية في حياة زوجها، حيث استقلت سحرها وحظوتها في ارتقاء ابنها بدران إلى ولاية العهد، وحكم قلعة جعير، وهو أمر يبدو أنه قد أوغر صدر أخيه علي بن مالك الذي تأمر على حياة بدران، وملك القلعة سنة ٥٢٣هـ / ١١٣٨م<sup>(١٢٣)</sup>.

كما أن أسر النساء وإطلاق سراحهن فيما بعد استخدم أيضاً لتحقيق مكاسب سياسية، فالإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين أطلق سراح زوجة قسج أرسلان كبادرة حسن نية، ورغبة في اكتساب مودة الترك<sup>(١٢٤)</sup> ونزع فتيل التوترات المستقبلية بين البيزنطيين وسلاجقة الروم.

وبالإضافة إلى التداعيات السياسية والعسكرية لسبي النساء، فكذلك كان لأسرهن آثار اقتصادية واجتماعية، فاستخدمت الأسيرات في زمن الحروب الصليبية كأيد عاملة، فمنهن من عمل في الخدمة المنزلية، وقامت أخريات بالأشغال اليدوية وتدوير

الطواحين<sup>(١٢٢)</sup> ولا شك أنهم نقلن مهارتهن الحرفية وخبرتهن الاقتصادية التي اكتسبتهن في مواطنهن الأصلية إلى مجتمعاتهن الجديدة.

ونشطت تجارة السبي في كبريات المدن الإسلامية والصليبية، كنتيجة طبيعية لاتساع دائرة الحروب الصليبية واستمراريتها لفترة زمنية طويلة، وأصبحت المتاجرة بالأسيرات مصدر دخل لغزاة البر والبحر، وحقت الدول والمدن والأفراد أرباحاً وفيرة من وراء هذه التجارة، كما أن تجار السبي راكموا أموالاً طائلة نتيجة لشغف بعض الفئات الاجتماعية بشراء الأسيرات الحسنات بأسعار مغرية<sup>(١٢٣)</sup> حيث مثل استلاك الجوارى في ذلك العصر عنواناً للثروة والرفعة.

وقدت الفئات الدنيا الشرائح العليا في شراء الأسيرات والتسري بهن، ومن المتوقع أن ذلك قد انعكس سلباً على الاقتصادات الأسر الفقيرة التي تكاثرت عدد أفرادها وقتل مداخيلها، ولا شك أن اتفاق عليّة القوم على شراء الأسيرات أو اقتداتهن بأموال هائلة، قد أزهق الاقتصاد، وأضاف أعباءاً جديدة على العامة ومصادر رزقهم المحدودة، إذ إن تلك الكلفة الاقتصادية الثقيلة يتحملها في النهاية المجتمع وليس النخب الحاكمة.

وكما كان للأسيرات تأثيرات على الحياة الاقتصادية، كان لهن أيضاً تأثيرات على شتى الجوانب الاجتماعية، كالزواج والطلاق والروابط الأسرية والأمراض الاجتماعية، فمن المتصور أن الأسيرات العازبات كن مرغوبات لدى أمريهن أكثر من الأسيرات المتزوجات، ومن المتوقع أن فرض الزواج بالأسيرات العازبات قد قلت بعد إطلاق سراحهن، كنتيجة متوقعة لمشكوك التي ترواها أبناء مجتمعاتهن في سلوكهن، واحتمال انتهاك عفتهن أثناء محنة الأسر.

وبالنسبة للأسيرات المتزوجات، فهالغهم من أن الفقه الإسلامي يحكم بالقطع الرابطة الزوجية للأسيرات غير المسلمات الثلاثي يقعن بأيدي المسلمين، واستمرارية رابطة الزوجية للأسيرات المسلمات الثلاثي يقعن بأيدي أعدائهم<sup>(١٢٤)</sup> إلا أن الزواج ينقطع عملياً بوقوع الأسيرة المتزوجة بأيدي الأعداء بغض النظر عن ديانتها، مع الافتراض بإمكانية استمرار الرابطة الزوجية عند إطلاق سراح الأسيرات المتزوجات، لكن هذا الأمر يعتمد على أوضاع المرأة الأسيرة أثناء فترة الأسر، ومدى رغبة زوجها في استمرارية عقد الزوجية.

فلا شك أن تحراف المرأة الأسيرة اختياريّاً أو انتهاك حرمتها جبرياً يقلل من احتمالية عودة المرأة المنحرفة من الأسر إلى زوجها، وخصوصاً في الحالة الأولى، حتى وإن حافظت المرأة الأسيرة على طهرها، فإن كلاً من المسلمين والصليبيين واليهود نظروا بريية وتوجس إلى الزوجة الأسيرة، وافترضوا مسبقاً عدم قدرتها المحافظة على عفتها<sup>(١٢٥)</sup>.

وبينما يجد المسلمون واليهود الحل في طلاق الزوجة المنحرفة من الأسر، والارتباط بأخرى لم تظنها قيود الأسر والعبودية، فإن الصليبيين لا يستطيعون الارتباط بزوجة ثانية، بل هم ملزمون بموجب القانون الكنسي بالاستمرار في عقد الزوجية حتى

وفاء الزوجة<sup>(١٢١)</sup> ولكن يجب التنويه إلى أن استمرار عقد الزوجية بين الصليبي وزوجته المحررة من الأسر لا يعني بأي حال من الأحوال استمرارية الحياة الزوجية الطبيعية بين الزوجين، فالنبل الصليبي رينيه دي بروم هجر زوجته بعد أن تبين له أنها لم تحافظ محافظة المرأة الشريفة على فرائض الزوجية<sup>(١٢٠)</sup> أثناء فترة الأسر، فلم يبدعها في أحد أنيرة القدس، وانضمت بشكل قسري إلى زمرة الراهبات، لكنه لم يتمكن من الزواج إلا بعد موتها<sup>(١٢٢)</sup>.

ومن النتائج الاجتماعية لاستمرارية الحروب الصليبية، واكتظاظ الأسواق بالمسيابا، عزوف الشباب عن الزواج بالحرار<sup>(١٢٣)</sup> طالما كان بإمكانهم إشباع غرائزهم ورغباتهم مع النساء الأسيرات بدون تحمل الكثير من التكاليف المادية والالتزامات الأسرية.

كما لا يستبعد أن يكون الرجال المتزوجون قد فضلوا معاشرة الأسيرات والتمتع بهن على حساب الزوجات اللاتي فترت علاقتهن بأزواجهن، وأصبحت حياتهن الزوجية رتيبة كنتيجة طبيعية لمزاحمة الأسيرات للزوجات الحرار، مع ما ترتب على ذلك من وهن الأسر وتصدها. والخلاصة أن كساد الزواج من الحرار، وتفكك العلاقات الزوجية ساهم في تعمس الحرار في اللهو والمجون والمتع الحرام، وكل ذلك أدى إلى انحطاط الأسري وتفكك الاجتماعي.

ولا يستبعد أن تكون الجرائم الأسرية التي شاعت في المجتمعات الصليبية، والتي أشار إليها رجل الدين الصليبي جيسمن الفوتري Jacques de Vitry<sup>(١٢٤)</sup> نتاجا للتفكك الأسري الذي ساهمت الأسيرات في تلبية جذوره ومنابعه. كما أن كثرة الأسيرات أدى إلى انتشار الدعارة ودور البغاء بشكل سافر أحيانا، وتحت ستار الفندقة والخانات<sup>(١٢٥)</sup> ودور القيان والخسارات في أحيان أخرى<sup>(١٢٦)</sup>.

ومما تجدر ملاحظته، أن الإسلام ينظم الأوضاع الاجتماعية للأسيرات، إذ يحرم موافعة الأسيرة الحامل<sup>(١٢٧)</sup> ولا يجيز التفريق بينها وبين أبنائها وأخواتها وأقربها<sup>(١٢٨)</sup> كما يمنع بيع الأسيرات اللاتي صرن أمهات أولاد<sup>(١٢٩)</sup>.

فلا مرأه بأن زواج الأسيرات من رجال أحرار يعني فيما يعني تكريمهن ورفع شأنهن، إذ كان هذا الزواج بمثابة رافعة نقلتهن من طور العبودية إلى طور الزوجية، وتعاطفت مكانة الأسيرات وزادت رفعة وعلوا بعد أن صرن أمهات أولاد حيث نصن بالحرية والمزلة الاجتماعية الرفيعة<sup>(١٣٠)</sup>.

وأدى التمرد بالأسيرات مع تعدد الزوجات إلى كثرة الأبناء من أمهات مختلفات، ونتج عن ذلك اختلاف توجهات الأبناء وتنوع مشاربهم<sup>(١٣١)</sup> ومن المتوقع أن بعض الفئات الاجتماعية دأبت على التفارقة بين أبناء الأسيرات وأبناء الحرار، إذ تلقى أبناء الحرار معاملة تفضيلية من قبل بعض الآباء، كما أن أبناء الحرار كانوا ينظرون بدونية لإخوانهم من أبناء الأسيرات، وهذا الأمر أوجع الصدور، وأثار الشحنة وكان له انعكاسات سلبية على الصلات بين الأبناء.

ومما تجدر ملاحظته، أن أسر الفتيات الصغيرات<sup>(١١١)</sup> كان له آثار اجتماعية بعيدة المدى، إذ تكاثبت على تلك الأسيرات الصغيرات، حياة الغربة عن الأهل والديار، مع الشعور بالحرمان، وتجرع مرارة اليتيم، والافتقار لدفء الحياة الأسرية والعائلية، فعُشن حياة يعترها العذاب والنكد والبؤس والشقاء.

ومن المعلوم أن مجتمعات الشرق الأندلسي الإسلامي كانت غنية بأعراقها وأجناسها وطوائفها، وازدادت هذه التركيبة الاجتماعية غني، بتزاوج المسلمين من أسيراتهم الصليبيات من فرنسيات وإيطاليات وإنجليزيات وألمانيات وأسبانيات، ومن سائر أجناس أوروبا، كما عاشر الفرنجة أسيراتهم المسلمات من عربيات وتركيات وكرديات وبربريات وفارسيات، ولا شك أن كل ذلك الإخصاب والتجهين والتلاخ كان له تأثيرات اجتماعية عميقة، حيث تفاعلت الأعراق والمختلطة الدماء، وتمازجت الأجناس، وهذا الأمر وفر للمنطقة ثراءً عرقياً نادراً، وسببولة اجتماعية غير مسبوقه، مما جعل منها مجتمعاً عالمياً مصغراً.

وبقي أن نشير إلى التأثيرات الدينية للأسيرات، فمن المعروف أن الحاجز بين الإسلام والمسيحية قد تم لكثرائه، وخاصة من قبل الأسرى والأسيرات، فلي هذا الوسط وقعت تحولات دينية قسرية واختيارية، فيعض الأسيرات تشرين دين الإسلام<sup>(١١٢)</sup> كما أن أسيرات مسلمات ويهوديات **حولن أو تحولن إلى المسيحية الكاثوليكية**<sup>(١١٣)</sup> ولا يستبعد أن يكون لهؤلاء الأسيرات تأثيرات بليغة على أسريهن، كما لا يستبعد أيضاً قيام الأسيرات بمحاولات لتحويل أزواجهن وأهلهن إلى ديارهن الأصلية.

ومن نافذة القول أن الأسيرات كان لهن تأثيرات ثقافية ومعرفية، فمن غير المستبعد أن يكون من بين الأسيرات نساء على درجة عالية من الخبرة والمعرفة في كلا الجانبين الإسلامي والصليبي، ولا شك أنهن أسهمن في نقل تجاربهن الكثيرة وخبرتهن المتراكمة وثقافتهن الأصلية إلى مجتمعاتهن الجديدة.

ومن المؤكد أن الأسيرات قد واجهن صعوبة في التواصل والتفاهم مع أسريهن في المراحل الأولى لأسرهن، بسبب الحواجز اللغوية والثقافية، ومن المتصور أن الصعوبات التي واجهت الأسيرات الصليبيات كانت أكبر بكثير من العوائق التي واجهت الأسيرات المسلمات، لأن بعض اللغات الصليبية حرصت على تعلم اللغة العربية، بينما لم تكثر الغالبية العظمى من المسلمين بتعلم لغات ولهجات المستوطنين الصليبيين<sup>(١١٤)</sup>.

ومن المحتمل أن تكون الأسيرات قد أسهمن في التفاعل الثقافي والتأثير اللغوي بين الجانبين الإسلامي والصليبي، وخصوصاً الأسيرات المسلمات، فمن المعهود أن بعض الألفاظ والمصطلحات العربية تسربت إلى اللغات الأوروبية في عصر الحروب الصليبية<sup>(١١٥)</sup> ولا يستبعد أن يكون للأسيرات دور في نقل الكلمات المتعلقة بالشئون المنزلية والأطعمة والأشربة وشلون الطبخ والفن والغناء والطرب إلى اللغات الأوروبية.

ومن المحتمل أن يكون لبناء الأسيرات قد تعلموا لغات أمهاتهم، وتشرّبوا أسلوب حياتهن، ونهلوا من ثقافتهن وحضارتهن، وبالتالي كانوا قناة للتواصل الثقافي

بين المسلمين والفرنجة، خصوصاً وإن كتب التراجم والطبقات تُطلق مصطلح "ابن الفرنجة" على العديد من الفقهاء والوجهاء المسلمين<sup>(١١٦)</sup>.

ولا ننسى أيضاً تأثير سبي النساء وأسرهن على الحياة الأدبية، إذ كان الأسر من الموضوعات الأدبية لكتاب وشعراء ذلك العصر، والذين حرصوا على استشارة همم المسلمين وغيرتهم لمجاهدة الفرنجة الذين انتهكوا حرمة الأسيرات المسلمات<sup>(١١٧)</sup>، وتصور قصص من ألف ليلة وليلة أحوال الأسيرات ومعاناتهن في قالب قصصي جميل، كقصة مريم الزنارية، ولصصة السعودي وزوجته الفرنجية<sup>(١١٨)</sup>، ولا ريب أن كل تلك الكتابات الشعرية والقصصية قد أسهمت بشكل أو بآخر في إثراء الأدب العربي في عصر الحروب الصليبية.

أما تأثير الأسيرات في مجالات التغذية والصحة والنظافة والجودة، فقد كان تأثير الأسيرات في غاية الوضوح، حيث أسهمت الأسيرات المسلمات في نقل تقاليد وعادات وفنون الطهي الشرقي إلى المطبخ الصليبي، فتمتعت بعض الفئات الصليبية بطعام لذيّ غاية النظافة والجودة<sup>(١١٩)</sup>.

ويبدو أن بعض الصليبيين قد تكيفوا مع أساليب الحياة الشرقية، فهم بحسب وصف أسامة قد تبنوا وعاشروا المسلمين<sup>(١٢٠)</sup> وهؤلاء القوم تبنوا طرائق المعيشة الشرقية، وتشربوا أنوالها وفنونها ورغباتها في مجالات الأطعمة والأشربة، وطرق تقديم الطعام، وترتيب المائدة وترتيبها، حيث يهاهي أحد الصليبيين بأن لديه طباقسات مصريات لا يأكل إلا من طهيهن<sup>(١٢١)</sup>.

ولم تثر المصادر إلى تأثير المسلمين بالأطعمة الفرنجية وفنون الطهي المجنوبة من أوروبا عن طريق الأسيرات الصليبيات، لكن لا يستبعد تلاقق بعض الفئات الإسلامية تقوالم الأطعمة الغربية، مع الإشارة بالطبع إلى تواضع فنون ومهارات المطبخ الفرنجي مقارنة بنظيراتها الشرقية.

وتعتبر المؤثرات النفسية من أخطر المؤثرات التي انعكست على المرأة الأسيرة، فطالما دغدغ منظر النساء الأسيرات أحلام رجال الشرق والغرب، ولكم كانت هذه الأحلام المجنونة تثير الذعر في نفوس النساء، فقد عاشت النساء في زمن الحروب الصليبية في قلق وتوتر وخوف خشية وقوعهن في الأسر، فزوجة القديس لويس عاشت في دمايط في رعب بعد أسر زوجها، وكان يخيل إليها أن حجرتها مليئة بالمسلمين، وكانت تقوم من نومها مغزوعة، وهي تصرخ التجدة التجدة، ولم تعد قادرة على النوم لوحدها في حجرتها<sup>(١٢٢)</sup> وعاشت الأمهات أياماً وإيالتي عصبية خوفاً وفرحاً على بناتهن الشابات من الوقوع في الأسر<sup>(١٢٣)</sup>.

وعانت الأسيرات الكثير من المتاعب النفسية إذ عشن في ذل وهوان وعبودية، مع ما رافق ذلك من الحرمان والآلام والأحزان، وتعاطمت الصدمات النفسية للأسيرات بتركيبةهن واستهاتهن، وتكرار عمليات اغتصابهن، ويكون الاغتصاب أكثر إيلاً للنفوس عندما يحدث أمام أبائهن وأزواجهن وأقاربهن<sup>(١٢٤)</sup> ويشعر الأهل بالخزي والعار لانتهاك

حرمة قربياتهم الأسيرات مع ما يسببه ذلك من جروح نفسية غائرة، فوالد رقول الكردية انتابه الذعر والاضطراب عندما علم بأسر الفرنج لابنته، لكن حاله تبدل عندما تأكد أن ابنته فضلت الموت على انتهاك عفتها، فهذأت نفسها، وطمئن قلبه، وسكنت لوعته<sup>(١٠٠)</sup>.

**والخلاصة أن النساء في عصر الحروب الصليبية عشن في رعب وخوف وهلع وضغط نفسي رهيب، وسادت في أوساطهنّ مشاعر القلق والتوتر، والشعور الدائم بالخوف والتهديد المستمر، وقلة الطمأنينة، ولا شك أن كل تلك المشاعر السلبية قد ألمت حياتهنّ الطبيعية، وحطمت معنوياتهنّ، وضغطت على أعصابهنّ، وهو أسر أدى بلا ريب إلى انتشار الأمراض النفسية والعصبية في أوساط النساء العائشات في مصعّة الصراع الإسلامي الصليبي.**

وأخيراً نحب أن ننوه إلى جنسية الأسيرات وهويتهنّ الدينية، والأطوار الزمنية لأسر النساء، والتوزيع الجغرافي للأسيرات، وأماكن أسرهنّ، فهانسة لجنسية الأسيرات وديانتهنّ، فقد وقعت أسيرات من جميع الأعراق الإسلامية القاطنة في الشرق الأدنى الإسلامي، كما أن أسيرات من شتى أجناس غرب أوروبا وقعن في شباك الأسر، وتنوعت ديانة الأسيرات ما بين الإسلام والمسيحية واليهودية، وحتى الوثنية التي جلبتها القبائل المغولية من جوف آسيا.

أما بالنسبة للأطوار الزمنية لعمليات المسبي، فيلاحظ تصاعد عمليات المسبي في فجر الحروب الصليبية التنبّطية وفي كواتيمها، بينما تراجعت عمليات المسبي في مراحل توارن القوى الإسلامية الصليبية، وبحول التوضيح الجغرافي للأسيرات، فقد وقعت أسيرات في أيدي الفرنجة من كل البلاد التي هاجموها أو احتلّوها، ويُعتقد أن أكثر الأسيرات تعود جذورهنّ للبلاد الشامية وتليها الديار المصرية والجزرية، فبلاد الشام تعتبر البؤرة الأساسية للصراع الإسلامي الصليبي، وقد استمر الاحتلال الصليبي لبعض أجزالها مدة تقارب القرنين من الزمان.

ومن المنطقي أن أكثر الأسيرات الصليبيات كن من مملكة بيت المقدس، مقارنة بإمارات الرها وأنطاكية وطرابلس، باعتبار أن مملكة بيت المقدس كانت الجبهة الرئيسية للصراع، وفيها أبرز الكتل الاستيطانية الصليبية.

وتنوعت الأماكن التي أخذت منها الأسيرات، في البر أو البحر، من خلال الرحلات البحرية أو أثناء سفر القوافل التجارية، من داخل المدن والقلاع الحصينة أو من الأماكن المحيطة بها، وأخذت الأسيرات من البيوت والمساجد والكنائس والحمامات، أثناء اقتحام المدن أو بعد المعارك الفاصلة أو خلال الغارات الخاطفة.

ولا نعرف على وجه الدقة أو التقريب أعداد الأسيرات في عصر الحروب الصليبية، سواء تلك التي أطلق سراحهنّ بعد أسرهنّ، أو اللاتي مكثن في قيود الأسر طوال حياتهنّ، كما لا نعرف إلا أسماء قليل من الأسيرات التيبليات، أما أسماء أسيرات الفئات الدنيا فقد طواهنّ النسيان.



وفي الختام نشير لأهم نتائج البحث:-

- يُعد عصر الحروب الصليبية من أكثر العصور التاريخية التي بسزت فيه ظاهرة الأسيرات، وأصبحت سمة من السمات المميزة له، نظراً لتوسع الحروب الصليبية واستمراريتها.

- تعرضت الأسيرات للاستعباد والتحول الديني عند كلا الجانبين الإسلامي والصليبي.

- تعرضت الأسيرات لثتى صلوف الضل والهوان، وخصوصاً الأسيرات المسلمات، نظراً لقسوة الفرجة ووحشيتهم، وقلة احترامهم للتشريعات والقوانين الكنسية.

- كان المسلمون أكثر رفقاً ورحمةً في تعاملهم مع الأسيرات مقارنةً بالصليبيين، وهذا يعود بالدرجة الأولى لامثالهم لتعاليم الدين الإسلامي ووصايا.

- ساهمت جل الفئات الإسلامية والمسيحية واليهودية في فداء الأسيرات، لكن الجهد المسيحي اتخذ طابعاً مؤسسياً ومنظماً.

- كان للأسيرات تأثيرات ايجابية وسلبية على كلا المجتمعين الإسلامي والصليبي في شتى جوانب الحياة العامة والخاصة.

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

## المواهب

( 1 ) - عن ذلك، انظر : نأ كومتينا، أكسياد ، ترجمة : حسن حبشي ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٤ م ، ص ٢٨٩ ، علي محمد عودة لغامدي : الرؤية الأوروبية للعرب والإسلام خلال العصور الوسطى ، منشورات اتحاد المؤرخين العرب ، ١٩٩٩م، ص ١٦١ وانظر أيضاً

Brandt :The Recovery of the Holy Land,New York,1956,p.124.

( 2 ) - عن صورة المسلمين في المخيلة الغربية، انظر : جيمس أ. برونديج : « الزنا (الدعارة) واختلاط الأجناس والتطهير الجنسي في الحرب الصليبية »، ترجمة وتحرير: حسن عبد الوهاب حسين، ضمن مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٧ م، ص ١٧٩-١٨٠، وانظر أيضاً

Jeusset:François d'Assise et les Musulmans, Abfdjan, 1986, p.59.

Munro : The Western Attitude toward Islam during the Period of the Crusades Speculum, Volume 6, Issue 3(Jul., 1931), p.342.

( 3 ) - ميشيل بالاز، الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر، ترجمة: بشير السباعي، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ط ١ ، ٢٠٠٣ م، ص ٦٦٥، برونديج : مرجع سابق، ص ١٧٢-١٧٣ وانظر أيضاً

Strayer and Others:The Middle Ages 395-1500, New York,1970 , p..229.

Strayer : op. cit, p.229.

( 4 ) - عن الأثوار التي نالت بها المرأة الصليبية ، انظر : ميشيل بالاز : مرجع سابق ، ص ١٦٦ ، برونديج : مرجع سابق، ص ١٧٣ - ١٧٤ ، ول ديورانت : قصة الحضارة .. عصر الإيمان ، ترجمة : محمد بنران ، مكتبة الأسرة ، القاهرة ، ٢٠٠١ م ، مج ٨ ، ص ١١٩ جوزيف شالمت و كليغورد بوزورث : تراث الإسلام ، ج ١ ، ترجمة : محمد زهير السهوي و حسين مؤنس ، تعليق وتحقيق : شاهر مصطفى ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ٢٢٣ ، يناير ١٩٧٨ م، ص ٤١، وانظر أيضاً

Krijnie and Others: East and West in the Crusader States, leuven,1999 , pp.136- 137.

( 5 ) - أبي الحسن علي عبد الجليل الرشداني ، ٥٩٢هـ / ١١٩٦م : لهذهاية شرح بداية المبتدى، المكتبة الإسلامية ، صان ، ( د. ت ) ، ج ٢ ، ص ١٣٧ ، وانظر أيضاً

Thorau: *The Lion of Egypt Sultan Baybars I and the near East in the Thirteenth Century*, Translated by p.m. Holt London, 1992, p. 165.

(6) - فوشيه لشارلري : تاريخ الحملة إلى بيت المقدس الاستيطان الصليبي في فلسطين ، ترجمة ودراسة وتعليق : قسم عده قسم ، دار الشرق ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠١م ، ص ١١٢٤ وانظر أيضاً

Hay : « Gender Bias and Religious Intolerance in Accounts of the 'Massacres' of the First Crusade, » in : *Tolerance and Intolerance: Social Conflicts in the Age of the Crusades*, ed. by : M. Gervers and J. M. Powell, Syracuse, 2001, p.9.

(7) - عن الأسيرات المسلمات ، انظر : فوشيه لشارلري : مصدر سابق ، ص ١١٢٤ أولفر أوف بانريون : الاستيلاء على دمياط ، ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة : سبيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٥م ، ج ٢٤ ، ص ٥٢ ، محمد صلاح وبني يونس و عيسى محمود العزام : دور سكان الشام في مقاومة لقرى الفرنج حتى نهاية الحصة للفرنجية الأولى ١١٩٠ - ٥١٢هـ / ١٠٩٦ - ١١٤٦م من خلال المصادر العربية ، ضمن مؤتمر بلاد الشام ، ج ١ ، نوفمبر ١٩٩٩م ، ص ٤٢٣ ، ٤٢٢ ، ٤٢٧ ، وانظر أيضاً

Hitti : « The Impact of the Crusades on Moslem Lands, » in : *A History of the Crusades*, volume. V, ed. by : Setton, London, 1985, p. 48.

Hadia : « Natives and Franks in Palestine Perceptions and Interaction, » in : *Conversion and Continuity : Indigenous Christian Communities in Islamic Lands eighth to eighteenth Centuries*, ed. by: M. Gervers and R. J. Bikhazi, Toronto, 1990, p.171.

(8) - ولهم السوري : الحروب الصليبية ، ترجمة حسن حشيش الهيئة العامة ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، (ط ١٩٩١م) ، ج ١ ، ص ٢٢٢ ، سكين راسيمان : تاريخ الحملات الصليبية ، ترجمة : نور الدين خليل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٩٤م ، ج ١ ، ص ٢٩١ .

(9) - ولهم السوري : الحروب الصليبية ج ٢ ، ص ١٣٣ ، وانظر أيضاً  
Gabriell : *Arab Historians of the Crusades*, selected and translated from the Arabic sources translated from the Italian, by: E.J Costello, New York, 1989, p.16.

ويذكر ابن الأثير أنها ابنته وليمت زوجته ، عن ذلك ، انظر : عز الدين أبي الحسن علي بن الكرم محمد بن محمد عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير ، ت : ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م : الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ، ط ٦ ، ١٩٩٥م ، ج ٩ ، ص ٥٦ ، ويشير في موضع آخر إلى تدم بأبي سنان لتركة أهله وأولاده في قبضة الفرنج ، انظر : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٥ .

( 10 ) - العبقلة : هي المرأة النفيسة ، كريمة الأصل ، والعبقلة جمعها عقال ، ويطلق هذا المصطلح على سيدات النساء وبخارهن ، عن ذلك ، انظر : محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري ، ت : ٧١١هـ / ١٣١١م : لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، ط ١ ، ( د ، ت ) ، ج ١١١ ص ١٤٧٢ ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرزالي ، ت : ٧٢١هـ / ١٣٢١م : مختار الصحاح ، تحقيق : محمود خاف ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٥٠ ، ج ١ ، ص ١٨٧ .

( 11 ) - قلظة عبد التلطف سيد أحمد الشنولي : معاملة المسلمين الأسرى الصليبيين في بلاد الشام ومصر ١١٣٧ - ١٢٩١م / ٥٣١ - ٦٩٠هـ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٩٧م ، ص ١١١ ، علي عبد السميع الجزلوري : إمارة إرغا الصليبية ، سلسلة تاريخ المصريين ( ٢١١ ) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٠١م ، ص ٢٢٤ ، علي السيد علي : العلاقات الانصارية بين المسلمين والصليبيين ، عن الدراسات ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٩٦م ص ١٢٧ - راسيمان : مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٧٥ ، وانظر أيضاً Oldenbourg: The Crusades, Translated from the French, by: Anne Carter, New York, 1967, p.234.

( 12 ) - غريرت : يُسمى حصن زيد ، ويقع في أقصى نبار بكر ، انظر : باقوت بن عبد الله الحموي ، ت : ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م ) : معجم البلدان ، دار الفكر ، بيروت ، ( د ، ت ) ، ج ٢ ، ص ٤٥٥ .

( 13 ) - راسيمان : الصلوات الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٩٦ .

( 14 ) - حصن القبة : حصن يقع في أطراف حلب في الطريق ما بين حلب والمسلمية ، ويُطلق عليه لقبه ابن ملاح ، لأن الذي بناه هو خلف بن ملاح الأشهب ، عنه انظر : كمال الدين أبي القاسم عمر بن هبة الله ابن العديم الحلبي الحنفي ، ت : ٦٦٠هـ / ١٢٦١م : بغية الطالب من تاريخ حلب ، تحقيق : سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٨٨ ، ج ٧ ، ص ٢٢٥١ .

( 15 ) - كمال الدين أبي القاسم عمر بن هبة الله ابن العديم الحلبي الحنفي : زبدة الحلب من تاريخ حلب ، وضع حواشيه : خليل منصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٦م ، ص ٢٠٨ .

- (16) - عن الأسيرات الصليبيات، انظر : ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٨٧ ؛ شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدس المعروف بابي شامة ، ت : ٦٦٥هـ - ١٢٦٧م : الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، تحقيق : إبراهيم الزبيق ، مؤسسة لرسالة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٧م ، جـ ٤ ، ص ٢٤١ ؛ وإيم الصوري ، الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ١٢٢ ، وانظر أيضاً  
Hitti : op. cit, p.48.; Duggan: The story of the Crusades 1097-1291, London, 1963,p.161,Pernoud: The Crusades, London, 1962 . p. 110.
- (17) - محي الدين ابن عبد الظاهر ، ت : ٦٩٢هـ/١٢٩٢م : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، تحقيق ونشر : عبد العزيز الخويطر ، (د.ن.) ، الرياض ، ط ١ ، ١٩٧٦م ، ص ١٣٢٤ ، وانظر أيضاً . Pernoud : op. cit, . p. 280.
- (18) - راسيمان : المصالحات الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٤٦٩.
- (19) - تحكي الأساطير الغربية أن صلاح الدين زكي يجرى في جواره لأصول مسيحية، فهو ابن لتكوتنيسة أمها ، عنها : الطر : مكسيم رولنسون : جلاية الإسلام ، ترجمة : إلياس مرقص ، دار التنوير ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٩٨م ، ص ٢٩ ، وانظر أيضاً  
Cate : « The Crusade of 1101 », in : A History of the Crusades, volume I ed. by : Setton, London, 1969, p. 362 ; Munro : op. cit, p. 339.
- (20) - وإيم الصوري ، الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ١٢٥ ، وانظر أيضاً  
Friedman : « Women in captivity and their ransom during the Crusader period, » in : Cross Cultural Convergences in the Crusader Period, ed. by : M.E. Goodich , New York, 1995, p . 83.
- وبانياس: هي مدينة الجولان الحالية، وتبعد عن دمشق حوالي ستين كيلو متر مربع. وهي تختلف عن بانياس الساحلية التي تقع شمال مدينة طرطوس، لذلك تسمى الأولى بانياس الداخلية. انظر : الحصري : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٢٤ .
- (21) - عن معايير معاملة الأسرى و الأسيرات ، انظر : محمد مؤنس عوض : « دراسات لتاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية الصادرة في الخمس والعشرين سنة الأخيرة » ، ضمن كتاب علم الحروب الصليبية بحوث ودراسات ، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٥م ، ص ١٧٢ ؛ شادي إبراهيم عبد القادر : المسي في مصر الإسلام ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة النجاح ، ١٠٠١م ، ص ٧٣ - ١٧٤ علي السيد علي محمود ؛ نور الأسرى الأتاليب في المجتمع المصري في

- عصر سلاطين المماليك ، مجلة لتاريخ والمستقبل بكلية آداب المنيا ، لعدد ٢ ، ص ٢٠١٨٨ ، ص ١٣٨ ، وانظر أيضا
- Hay : op. cit. p.9 ; . Lev : « Prisoners of War During the Fatimid-Ayyubid Wars with the Crusaders, » in : Tolerance and Intolerance: Social Conflicts In the Age of the Crusades, ed. by: M. Gervers and J. M. Powell, Syracuse, 2001,p.16.
- ( 22 ) - وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٢١ ، وانظر أيضا Runciman: « The First Crusade : Constantinople to Antioch », In: A History of the Crusades, volume. I, Ed. by: Setton, London,1969, p.291.
- ( 23 ) - وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٢٢ .
- ( 24 ) - المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣ .
- ( 25 ) - فلطمة الشناوي : مرجع سابق ، ص ١٢١ ؛ علية الجزوري : مرجع سابق ، ص ٢٢٤ ؛ وانظر أيضا Oldenbourg : op. cit, p.234.
- ( 26 ) - متى لباريسي ، ت : ٦٧٢هـ/١٢٧٣م : التاريخ الكبير ، ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة: سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٥م ، ج ٤٠ ، ص ١١٧٢ .
- ( 27 ) - وليم الصوري : الحروب الصليبية : ج ٢ ، ص ٢٦١ - ٢٦٢ . وانظر أيضا Friedman: Captivity and Ransom in the Latin Kingdom of Jerusalem, Leiden, 2002, p.81
- ( 28 ) - ابن الأثير: الكامل، ج ١٠ ، ص ١٥٧ ؛ أبو شامة : مصدر سابق ، ج ٤ ، ص ١٠٣ ، ول نيورانت : مرجع سابق ، ص ٨ ، ص ٢٨ ، وانظر أيضا Baldwin: «The Decline and fall of Jerusalem, 1179-1189 », in : A History of the Crusades, volume. I, ed. by: Setton, London, 1969 , p.617 ; Lev: op. cit, p . 24; Lamp: The Crusades The Flame of Islam, London, 1930,p.80.
- ( 29 ) - عن حادثة القرعة لأيدي لعامة المسلمة ، انظر : سعيد البوشاري : الاستيطان الفرنجي في بيت المقدس والمناطق المحيطة بها ١٠٩٩ - ١١٨٧م ، ضمن كتاب بحوث في تاريخ العصور الوسطى ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠٠٤م ، ص ٢٩١ ؛ راض حاتم البكر : الاستيطان لفرنجي في القدس ، ضمن مؤتمر بلاد الشام ، نوفمبر ١٩٩٩م ، ج ٢ ، ص ٦٢١ ؛ حسين محمد عطية : « المسلمون في الإمارات الصليبية في بلاد الشام » ، حوليات كلية آداب عين شمس ، ص ٢٧ ، لعدد ٢ ، ١٩٩٩م ، ص ٦٧ ؛ عبد المجيد بهيني : أوضاع المسلمين

- لمت الإدارة الصليبية من خلال رحلة أين جيبير ، لتتضمن التاريخ الواقع التاريخي  
 مجلة لتاريخ العرب ، العدد ١١ ، صيف ١٩٩٩م ، ص ١٩٠ ، وانظر أيضا
- Mayer «Latins, Muslims and Greeks in the Latin Kingdom of  
 Jerusalem», In: Problem des lateinischen Königreichs  
 Jerusalem, ed. by: H.E. Mayer, London, 1983, p.180.
- ( 30 ) - راسيمان : الحملات الصليبية ، ج ٢ ، ص ٣٥٧ .
- ( 31 ) - تقي الدين أحمد بن علي المقرئ ، ت : ٨٤٥هـ / ١٤٤١م : السلوك لمعرفة دول  
 الملوك ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ،  
 ١٩٩٧م ، ج ١ ، ص ١٤٧٧ ؛ ولهم الصوري ، الحروب الصليبية ، ج ٢ ،  
 ص ٢٢٢ .
- ( 32 ) - ورد في كتاب المقدس ' اقتلو كل ذكر من الأطفال وكل امرأة عرفت رجلاً  
 بمضاجعة ' عد ٣١ : ١٧ .
- ( 33 ) - فوشيه الشارترى : مصدر سابق ، ص ١٢٢ .
- ( 34 ) - بروديج : مرجع سابق ، ص ١٨٠ .
- ( 35 ) - قاسم عده قاسم : المسلمون وأوروبا لتطور التاريخي لسورة الآخر ، عين للدراسات  
 : القاهرة ، ٢٠٠٩م ، ص ١٣٧ ، ميدائل روتليدج : الأثلي ، ضمن كتاب تاريخ  
 أوكسفورد للحروب الصليبية ، ترجمة : قاسم عده قاسم ، عين للدراسات ، القاهرة  
 ، ط ١ ، ٢٠٠٧م ، ص ١٥٩ .
- ( 36 ) - عن ضرب الإمام ، انظر : ناجلا محمد عبد القيس : المسلمون في مملكة بيت المقدس  
 الصليبية ، مجلة بحوث كلية آداب ملوقية ، العدد ٢٤ ، يناير ١٩٩٦م ، ص ٧٩ ،  
 سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، دار النهضة  
 العربية ، القاهرة ، ١٩٩٢م ، ص ١٤٩ .
- ( 37 ) - أبو الحسين محمد بن أحمد بن جيبير بن محمد أين جيبير ، ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م :  
 رحلة أين جيبير ، ضبطه ووضع فهرسه : محمود زينهم ، دار المعارف ، القاهرة :  
 ٢٠٠٠م ، ص ٢٤٤ ؛ علي السيد : ثعلقات الألكساندية ، ص ٦٦ ؛ محمد عبد الله  
 المقدم : الجهود التبشيرية للكنيسة الكاثوليكية في عصر الحروب الصليبية ، رسالة  
 دكتوراه غير منقورة ، كلية الآداب ، جامعة المنصورة ، ١٠١٠م ، ص ١٧٦ .
- ( 38 ) - أبو شامة : مصدر سابق ، ج ٤ ، ص ٣٤ ؛ عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ،  
 ص ٥٠٧ .
- ( 39 ) - ابن العديم : زبدة العلب ، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ ؛ ريموندجيل : تاريخ الفرنجة غزاة  
 بيت المقدس ، نقلة إلى الإنجليزية جون هيوم هيل و نوربتال هيل ، نقله إلى  
 العربية : حسين محمد عطية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ط ١ ، ١٩٩٠م  
 ، ص ١٦٣ ، ٢١٧ ؛ بطرس توديبيد : الرحلة إلى بيت المقدس ، نقله إلى العربية

وعلى عليه ، حسين محمد عطية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠٠١م ،  
ص ١٨٤ ، ٢٥٧ ، ٣١٨ ، فوشيه الشارثي ، مصدر سابق ، ص ١٢٨ وانظر  
أيضاً

Hay : op. cit. , p.4.

( 40 ) - قيسارية : مدينة على الساحل الفلسطيني ، تقع بين مدينتي نابا وحيفا ،  
الحموي مصدر سابق ص ٤ ، ص ٤٢٦ .

( 41 ) - فوشيه الشارثي : مصدر سابق ، ص ١٧١ ، حسن عبد الوهاب حسين : تاريخ  
قيسارية الشام في العصر الإسلامي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠٠٠  
م ، ص ١٧٢ على السيد: العلاقات الاقتصادية ، ص ١٩ محمود محمد الحوري :  
الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد  
(عصر الحروب الصليبية) ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ م ص ٨٧ ، وانظر  
أيضاً

Mayer : op. cit. , p. 187; Hay : op. cit. , p.8.

( 42 ) - مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مظفر بن أسد الكنتي الشيزوري ، ت :  
٥٨٨هـ/١١٨٨م : الإعتبار ، حرره : فؤاد حتى ، دار المتحدة للنشر ، بيروت ،  
١٩٨١م ، ص ١١٠ ، جان ريتشارد : « وضع المرأة في الشرق اللاتيني » ،  
ترجمة وتحرير : حسن عبد الوهاب حسين ، ضمن مقاربات وبحوث في التاريخ  
الاجتماعي للحروب الصليبية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٧ م ، ص  
ص ١٦٤ عطية : المسلمون ، ص ٢٧ ، على السيد: العلاقات الاقتصادية ، ص  
١٦٥ سفير محمد إبراهيم تونج : التأثيرات الحضارية المتبادلة بين المسلمين  
والصليبيين في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد ، ضمن  
ندوة العرب وأوروبا عبر العصور ، منشورات اتحاد المؤرخين العرب ، حصاد ( ٧ )  
١٩٩٩م ، ص ١٨٥ ، وانظر أيضاً

Husseln : Knowledge of Arabic in the Crusader States in the  
twelfth and thirteenth Centuries, Journal of Medieval History,  
Volume 25, Number 3, September 1999 p.208, Holmes :  
«Life Among the Europeans in Palestine and Syria in the  
Twelfth and Thirteenth Centuries, » in : A History of the  
Crusades, volume, IV, ed. by : Setton, London ,1975, p . 22  
، Lev : op. cit. , p . 17..

( 43 ) - حسين محمد عطية : مجلس نابلس ٢٣ يناير ١١٢٠م \* وأحوال مملكة بيت  
المقدس الصليبية ، حولية للتاريخ الإسلامي والوسط ، مع ١٠١ ج ١ ، ٢٠٠٠ /  
٢٠٠١م ، ص ٥٠ ، أحمد رمضان أحمد : المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في



- عصر الحروب الصليبية ، الجهاز المركزي للكتب الجامعية ، القاهرة ، ١٩٧٧م ، ص ٩١ .
- ( 44 ) - ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ، ص ٢٩٢ ، يوشع راوير : عالم الصليبيين ، ترجمة وتعليق : قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حسن ، عين للدراسات ، القاهرة ، ١٥ ، ١٩٩٩م ، ص ١١٥ ، علي السيد : العلاقات الاقتصادية ، ص ٢٠ ، الحوري : مرجع سابق ، ص ٢٤٣ ، مهدي نعينع : مرجع سابق ، ص ١٨٩ .
- ( 45 ) - الأثراب : قصة واقعة بين حلب وأنطاكية ، وهي إلى حلب أقرب ، انظر : الحموي : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٨٩ .
- ( 46 ) - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص ٢٥٢ - ٢٥٣ ، وانظر أيضاً Azhari: The Salguqs of Syria, Berlin , 1997, p.130.
- ( 47 ) - ابن جبير : رحلة ابن جبير ، ص ٢٤٣ .
- ( 48 ) - المصدر السابق ، ص ٢٤٣ ، يونس : مرجع سابق ، ص ٤٤ .
- ( 49 ) - ابن منقذ : مصدر سابق ، ص ١٤٩ - ١٥٠ ، عوض : دراسات لتاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية ، ص ١١٧ ، وانظر أيضاً Friedman: Captivity , p 84
- ( 50 ) - ابن منقذ : مصدر سابق ، ص ١٢٥ ، وانظر أيضاً Friedman: aptivity , p . 84.
- ( 51 ) - أبو شامة : مصدر سابق ، ج ٣ ، ص ٢٧٩ ، القديمان : الحملات الصليبية ، ج ٢ ، ص ٥١٤ ، وانظر أيضاً Stevenson: The Crusaders in the East, Beirut, 1968, p.242.
- Hindley : Saladin, London, 1976 , pp. 132- 133.
- ( 52 ) - مؤرخ مجهول : دليل وأيام الصوري ، ترجمة : حسن حيشي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٤م ، ص ١١١ ، جيمس رستون : مقاتلون في سبيل الله .. صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد والحملة الصليبية الثالثة ، تعريب : رضوان السيد ، مكتبة العبيكان ، ليريدس ، ط ١ ، ٢٠٠٢م ، ص ١١٦ ، وانظر أيضاً Lamp : Islam, p.79.
- ( 53 ) - مذكرات جولفيل : القديس لويس حياته وحملته على مصر والشام ، ترجمة وتعليق : حسن حيشي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٦٨م ، ص ١٤٩ .
- ( 54 ) - محمد سيد كيلاني : الحروب الصليبية وأثرها على الأندلس العربي في مصر والشام ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٤٩م ، ص ١٢٧-١٢٨ ، عاشور : معاليك ، ص ١٤٨ .
- ( 55 ) - فايز لجيب اسكندر : نيكتاس خونياتس واعتزاله بتسامح المسلمين وبيروية الصليبيين قراءة نقدية لتجاوزات الحملة الرابعة سنة ١٢٠٤م / ٦٠٠هـ - ضمن كتاب صفحة من تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، المكتبة العلمية ، المنصورة ، د . ت ، ص ٦٥ .

- ( 56 ) - عن مخاوف النساء اليهوديات من الاغتصاب، انظر : محمد مؤنس عوض : «  
الإضطهادات الصليبية لليهود في حوض الراين بألمانيا عام ١٠٩٦م / ٤٩٠هـ - من  
خلال حولية اربي ايجلر بن ناثان » ، ضمن كتاب علم الحروب الصليبية بحوث  
ودراسات ، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٥م ، ص ١٩ ، ١٢٣  
كاسم عبده كاسم : الإضطهادات الصليبية لليهود أوروبا من خلال حولية يهودية  
القاهرة ومقارناتها ، ضمن ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط ، دار المعارف ، القاهرة  
، ١٩٨٢م ، مج ١ ، ص ١١٥٠ المقدم : مرجع سابق ، ص ٣٥ .
- ( 57 ) - كلود كاهن : الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ، ترجمة: أحمد الشيوخ ، سينا  
للتنشر ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٥م ، ص ٢٨٧ ، هانس ابرهارد ماير : تاريخ الحروب  
الصليبية ، ترجمة وتعليق : عبد الدين خانم ، منشورات مجمع الفتح للجامعات ،  
طرابلس لغرب ، ١٩٩٠م ، ج١ ، ص ٨٩ - ٩٠ .
- ( 58 ) - حسن عبد الوهاب حسين : « الجريمة والعقوبة في المجتمع الصليبي في بلاد الشام »  
١٠٩٥ - ١١٨٧ / ٤٨٨ - ٥٨٢ هـ . « ضمن كتاب دراسات في تاريخ الحضارة  
الأوربية في العصور الوسطى ، (المجتمع الصليبي في بلاد الشام) ، دار المعرفة  
الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠٠٠م ، ص ١٤ ، ماير : مرجع سابق ، ج١ ، ص  
٨٩ - ٩٠ .
- ( 59 ) - رانسيمان : الجماعات الصليبية ، ج١ ، ص ١٢ ، ١٩٦ .
- ( 60 ) - أبو شامة : مصدر سابق ، ج١ ، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ ، عبد الوهاب : الجريمة  
والعقوبة في المجتمع الصليبي ، ص ٢٩ <http://Archive.org>
- ( 61 ) - جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي ، ت : ٨٧٤هـ/١٤٩٩م  
: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، مطبعة وزارة الثقافة ، القاهرة ، ( د  
ت ) ، ج١ ، ص ٢٢٨ .
- ( 62 ) - سهير لعين : مرجع سابق ، ص ١٨١ .
- ( 63 ) - عن ذلك ، انظر :
- Cate : op. cit. p. 357.
- ( 64 ) - واهم الصوري ، الحروب الصليبية ، ج٣ ، ص ١٢٥ ، عبد الوهاب : الجريمة  
والعقوبة في المجتمع الصليبي ، ص ٣٠ ، وانظر أيضاً  
Friedman: Women , p 83.
- ( 65 ) - رانسيمان : الصلوات الصليبية ، ج٣ ، ص ١٨١ ، وانظر أيضاً  
Pernoud : op. cit., p. 284.
- ( 66 ) - عائلة : مدينة في أعالي الفرات، وتقع حالياً في غرب العراق، عنها، انظر : الصوري  
: مصدر سابق ، ج٤ ، ص ٧٢ .
- ( 67 ) - ابن الأثير : الكامل ، ج١ ، ص ٧٠ .

- (68) - ابن النديم : زبدة الطب ، ص ٥٠٤ ؛ المقرئ : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٤٠٦ .
- (69) - علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري الشافعي ، ت : ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م ؛ الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي وهو شرح مختصر المزني تحقيق : الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٩م ، ج ٩ ، ص ٢٤٤ ؛ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحرشي ، ت : ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م ؛ كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق : عبد الرحمن محمد التجدي ، مكتبة ابن تيمية ، (د.ب) ، ج ١٨ ، ص ٢٤٥ .
- (70) - عن ذلك ، انظر :
- Prawer : « Social Classes in the Crusader States: The "Minorities" ,  
 » in : A History of the Crusades, volume, V, ed. by : Setton,  
 London ,1985, pp.111- 112.
- (71) - قاسم : المسلمون وأوروبا ، ص ١٢٤ ؛ وانظر أيضاً
- Pernoud : op. cit. , p. 31.
- (72) - والسيهان : الصلوات الصليبية ، ج ٢ ، ص ٤٤٢ .
- (73) - إسكندر : مرجع سابق ، ص ٦٢ ؛ ديورانت : مرجع سابق ، مج ٨ ، ص ٥١-٥٢ .
- (74) - أبو شامة ، مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٣٠١ ، على السيد : العلاقات الاقتصادية ، ص ١٩ .
- (75) - ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ١١٥١ ؛ وانظر أيضاً
- Pernoud : op. cit. , p. 173. [chivebeta.Sakhr.it.com](http://chivebeta.Sakhr.it.com)
- (76) - ابن منلق : الاعتبار ، ص ٨٢ ؛ ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ، ص ٢٤٧ ؛ وانظر أيضاً Kedar : Crusade and Mission, New Gersey, 1984, p.153.
- (77) - عن أبحاث وأساليب تحرير الأسرى والأسيرات ، انظر : المقدم : مرجع سابق ، ص ٢١٤ ؛ وانظر أيضاً
- Friedman : Captivity , p. 77 ; Prawer : op. cit, p.111.
- (78) - وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢١١ ؛ وانظر أيضاً
- Runciman : op. cit, p.291.
- (79) - وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٢١١-٢١٢ ؛ عثور : الحركة صليبية ، ج ١ ، ص ٢٩٧-٢٩٨ ؛ وانظر أيضاً
- Friedman : Captivity , p. 81 ; Duggan : op. cit, p.88 ;
- Lamb ; The crusades, Iron Mien & Saints, London, 1934, P.246.
- (80) - أبو شامة : مصدر سابق ، ج ٣ ، ص ٤٠١ ؛ ديورانت : مرجع سابق ، مج ٨ ، ص ٣٨ ؛ وانظر أيضاً Baldwin : op. cit, p.617; Lamp : Islam, p.80.

- (81) - أبو شامة : مصدر سابق ، جـ ٤ ، ص ٤٣ .
- (82) - ولیم الصوري ، الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ١٢٥ ؛ فاطمة الشناوي : مرجع سابق ، ص ١٢٢ ؛ عتبة الجزوري : مرجع سابق ، ص ٢٢٤ ؛ علي السيد : لعلاقات الاقتصادية ، ص ١٢٧ ؛ راسيمان : الحملات الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٧٥ .
- (83) - عن فداء كوهين اليهودي لزوجته ، انظر :  
Friedman : Captivity , p . 81- 82 .
- (84) - ولیم الصوري ، الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ١٢٥ .
- (85) - ابن منقذ : الاعتبار ، ص ٧١ .
- (86) - ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ، ص ٣٤٧ .
- (87) - عن دور الأترياق المسلمين في الفداء الأسرى والأسيرات ، انظر : ابن منقذ : مصدر سابق ، ص ٨٢ - ٨٣ ؛ ابن جبير : مصدر سابق ، ص ٢١٤ ، صلاح الدين خليل ابن أبيك الصفي ، ت : ٧٦٤هـ/١٣٦٢م : لواقف بلوقيات ، تحقيق : أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، دار إحياء التراث ، بيروت ، ٢٠٠٠م ، جـ ١٨ ، ص ٢٠٢ ، ٢٠٨ ، وانظر أيضاً
- Selim : « Captives Waqf in Syria and Egypt (491-589h/1097-1193ad) » - in : La liberazione del 'captiv' tra cristianità e Islam : oltre la crociata e il gihad, tolleranza e servizio umanitario, ed. by : Giulio Cipollone, Vatican, 2000, p.560..
- (88) - عن جهود الأخفاء الصليبيين ، انظر :  
Vasilescu : « Even more special Sons ? : the importance of the Order of the holy Trinité to Pope Innocent III, » In : La liberazione del 'captiv' tra cristianità e Islam : oltre la crociata e il gihad, tolleranza e servizio umanitario, ed. by : Giulio Cipollone, Vatican, 2000, p . 722 .
- (89) - عن دور الحكام المسلمين في الفداء الأسيرات ، انظر : أبو شامة : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ١٧١ ؛ ابن منقذ : الاعتبار ص ١٨٢ ؛ ابن جبير : مصدر سابق ، ص ١٢١٤ وانظر أيضاً : Lev: op. cit, p . 27 ; Selim : op. cit, p.561 .
- (90) - عن دعم الحكام المسيحيين للمنظمات المهتمة بالأسرى ، انظر : المقدم : مرجع سابق ، ص ١٢٢ ، وانظر : Vasilescu : op. cit, p . 722 .
- (91) - الحكواتين جمع حكاون، وهي المرأة الجليلة الشريفة، ويُطلق المفحول والترك هذا اللقب على زوجات وبنات الملوك والأمراء والسلاطين ، عن ذلك ، انظر : محمد بن

- يعقوب الفيروز آبادي ، ت : ٨١٧هـ / ١٤١٤م : القاموس المحيط ، ( د ب ) ، ج ١ ، ص ١٥١٠ .
- ( 92 ) - ابن جبير : مصدر سابق ، ص ٢١٤ .
- ( 93 ) - ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ، ص ٢٤٧ .
- ( 94 ) - عن الأوقاف ودورها في تحرير الأسرى ، انظر : أبو شامة : مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ١١٠٤ . ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ، ص ٢٤٧ ، المعري : مصدر سابق ، ج ٧ ، ص ١٩٩ ، وانظر أيضاً
- Selim : op. cit, pp.559 -570. Lev: op. cit, p. 27.
- ( 95 ) - شمس الدين السرخسي ت : ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م : الميسوب ، دار المعرفة ، بيروت ، د ١ ، ج ١٠ ، ص ١٢٩ ، عبد للتطيف عامر : أحكام الأسرى أسبانيا في الحروب الإسلامية ، دار لكتاب الإسلامية ، للقاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٦م ، ص ٣٨٨ ، شئ ١١ : ١ ، وحث الإسلام على التفكك الرقاب ، قال تعالى ' فلا اقْتَحِمِ الْعُقَبَةَ وَمَا تَرَكْنَا مَّا فَلَاحَةً فَلَاحَةً ' سورة البك ١١ : ١٣ .
- ( 96 ) - أبو شامة : مصدر سابق ، ج ٣ ، ص ٢٩٩ ، عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٢٧ ، وانظر أيضاً
- Duggan : op. cit, pp.160 - 161; Baldwin : op. cit, p.614.
- ( 97 ) - ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ١٥٦ ، وانظر أيضاً
- Baldwin : op. cit, p.616; Lamp : Islam, p.79; Pernoud : op. cit, p. 172. <http://Archivebeta.Sakhril.com>
- ( 98 ) - الرسيمان : الحملات الصليبية ، ج ٣ ، ص ٣٧٩ ، وانظر أيضاً
- Stevenson : op. cit, p. 341.
- ( 99 ) - الرسيمان : الحملات الصليبية ، ج ٣ ، ص ٤٨١ .
- ( 100 ) - عن أسعار الجوازي والأسيرات ، انظر : عاشور : العماليك ، ص ١٤٦ ، هايد : التجارة في الشرق الأدنى ، ج ٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩١م ، ج ٤ ، ص ٥٨ .
- ( 101 ) - فاطمة الثناوي : مرجع سابق ، ص ١٢١ ، علية الجنزوري : مرجع سابق ، ص ٢٢٤ ، وانظر أيضاً Oldenbourg : op. cit, p.234 .
- ( 102 ) - وليد المصري ، الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٣٣ .
- ( 103 ) - ناجلا : مرجع سابق ، ص ٨٠ ، سهر نعينع : مرجع سابق ، ص ١٧٦ ، عاشور : العماليك ، ص ١٤٧ .
- ( 104 ) - سهر نعينع : مرجع سابق ، ص ١٧٦ ، علي السيد : العلاقات الاقتصادية ، ص ٦٢ .
- ( 105 ) - ابن جبير : مصدر سابق ، ص ٢٠٩ ، وانظر أيضاً

Small: *The Crusaders in Syria and the Holy Land*, Printed in Great Britain, 1973, P.78.

(106) - ابن منقلا : الاعتبار ، ص ١٢٠ ، وانظر أيضاً  
Hitti: op. cit. , p.47; Pernoud : op. cit., p. 110.

(107) - علي السيد: علاقات الاقتصادية ، ص ١٦٥ ، وانظر أيضاً  
Mayer : op. cit. , p.187.

(108) - ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ، ص ١٢٤٧ وانظر أيضاً  
Kedar : « The Franks in the Levant, 11th to 14th Centuries », in  
: The Franks in the Levant, 11th to 14th Centuries, ed. by :  
B.Z. Kedar, London , 1993, .p163.

(109) - جمعة محمد مصطفى الجندي : الاستيطان الصليبي في فلسطين ١٩٢ - ١٩٩٠ هـ /  
١٠٩٩ - ١٢٩١ م ) ، مكتبة الأجلو المصرية ، القاهرة ، ٢٠٠٦ م، ص ١٢٧٦ ،  
وانظر أيضاً Friedman : Women, p.85 ; Hitti : op. cit., p.49.

(110) - عن فئة النساء الصليبيات في الشرق ، انظر: جاك دي لوتري، ت :  
١٢٤٠ هـ / ١٢٤٠ م : تاريخ القدس ، ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب  
الصليبية ، ج ٣٤ - ترجمة: سهيل زكي ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٨ م ، ص  
١٢٨٧ ، وانظر أيضاً

Prawer : « Social Classes in the Latin Kingdom: The Franks, » in  
: A History of the Crusades, volume. V, ed. by : Setton,  
London , 1985 , p.120.

(111) - فوشيه الشارترى : مصدر سابق ، ص ٢٨١ ، عوض : دراسات التاريخ  
الاجتماعي للحروب الصليبية ، ص ١٦١ ، وانظر أيضاً  
Prawer; Franks, p.120; Lamp: Crusade, p.262; Hadia: op. cit, p.170.

(112) - ثلثية ٢١ : ١٠.

(113) - عطية : نائس ، ص ٥١ ، عطية : المسلمون ، ص ٨٥ ، وانظر أيضاً  
Friedman : Captivity, pp.141 - 142; Zeitler : op. cit., p.33.

(114) - بالاز : الحملات ، ص ١٦٦ ، برونديج : مرجع سابق ، ص ١٧٨ ، وانظر أيضاً  
Holmes : op. cit., p.18.

(115) - ابن منقلا : الاعتبار ، ص ١٢٠ ، عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم ابن شداد ،  
ت : ١٢٨٤ هـ / ١٢٨٥ م : الأخطى الخطيرة في نكر أمراء الشام والجزيرة ، حققه  
: يحيى زكريا عبادة ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩١ م، ج ١ ، ص  
١٢١ ، فاطمة الشناوي : مرجع سابق ، ص ١٤٤ ، وانظر أيضاً

Hitti : « The Impact of the Crusades on Moslem Lands, » In : A History of the Crusades, volume. V, ed. by : Setton, London ,1985 .p.47.

( 116 )- عن المواقف الكنسية لزواج مسيحية بأهل عقيدة مخالفة، انظر : عطية : نايلس ، ص ٥١ ، سهير محمد ملوحي: المرأة الصليبية في بلاد الشام ١٠٩٨-١٢٦٨م، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية البنات ، جامعة عين شمس ، ٢٠٠٢ . م، ص ٢٢٥ ، وانظر أيضاً

Zeitler : Sinful Sons, Falsifiers of the Christian Faith: the Depiction of Muslims in a 'Crusader' Manuscript, Mediterranean Historical Review, (MHR ) Vol. 12. no. 2. (1997,p.33, Friedman : Captivity,p.141.

( 117 )- علي السيد: لغات الاقتصافية ، ص ١٧ - ١٨ ، راسيمان : الحملات الصليبية ، ج ١ ، ص ٣٩٢ .

( 118 )- ابن عبد الظاهر : مصدر سابق ، ص ٢٤٧ ، وانظر أيضاً Kedar : Mission,pp.153- 154.

( 119 )- عن ذلك ، انظر : Friedman : Captivity,p. 82.

( 120 )- مؤلف مجهول (أين) ولهم السوري ، ص ١١١ ، اسقون : مرجع سابق ، ص ١١٦ .

( 121 )- ابن منقذ : الاضواء ، ص ١٣٠ .

( 122 )- عن أم بدران القرظية، انظر : الصفاوي : مصدر سابق ، ج ١٠ ، ص ١٦١ محمد مؤنس عوض : الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ، ١٩٩٥م، ص ٢٥٢ ، وانظر أيضاً Hillenbrand: The Crusades Islamic perspectives, Edinburgh, 1999,p.377.

Lamp : Crusade,p.299 : Holmes : op. cit,p.23.

( 123 )- عن مقتل بدران ، انظر : ابن شداد : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ١٢١ .

( 124 )- ولهم السوري ، الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٢١ .

( 125 )- أوثيه قشارتي : مصدر سابق ، ص ٧١ ، حسن عبد الوهاب: قيسارية ، ص ٧٢ ، عطية : المسلمون ، ص ١٩٠ ، وانظر أيضاً

Lev : op. cit,pp.18 - 19 : Mayer : op. cit,p.187.

( 126 )- عن المتاجرة بالأسيرات، انظر : ابن جبير : مصدر سابق ، ص ٢٠٩ ، علي السيد علي : المرأة المصرية وللشامية في عصر الحروب الصليبية ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٢ م، ص ١٩ ، علي السيد: الأسرى الأجانب ، ص ١٣٠ - ١٣٦ ، عاشور : المعالمك ، ص ١٤٦ - ١٤٧ .

- ( 127 ) - ( الماوردي : مصدر سابق ، جـ ٩ ، ص ٢٥٦ ، علم : مرجع سابق ، ص ٢٣٠ ، ٣٨٠ - )
- ( 128 ) - ( عن شكوك المسلمين والنصارى واليهود بالأسيرات المتزوجات ، انظر :  
Friedman : Captivity, p.83.
- ( 129 ) - ( عن القيود التي يفرضها القاتون لكنسي ، انظر : وليم لصوري : الحروب الصليبية  
جـ ٢ ، ص ١٢٥ )
- Friedman : Captivity, pp.82 - 83 .
- ( 130 ) - ( وليم لصوري ، الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٢٥ ، وانظر أيضاً  
Friedman : Women, p.83.
- ( 131 ) - ( وليم لصوري ، مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ١٢٥ )
- ( 132 ) - ( عن كساد أزواج بالحرار عند وفاة الأسيرات والجواري ، انظر : عبد السلام  
الترماتيني : الرق ماشيه وحاضره ، سلسلة علم المعرفة ، جـ ٢٢ ، نوفمبر  
١٩٧٩م ، ص ١٢٧ .
- ( 133 ) - ( عن جرائم القتل بين الأزواج الصليبيين ، انظر : محمد مژاس عوض : الحروب  
الصليبية والعلاقات بين الشرق والغرب في القرنين ١٢ - ١٣ م / ٦ - ٧ هـ ،  
عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٩٩م / ٢٠٠٠م ، ص ١٢٤ ، وانظر  
أيضاً
- Holmes : op. cit, p. 26.
- ( 134 ) - ( العائلات ومفرداتها النحوي وهي كلمة فارسية الأصل ، وتنتقل على نزل ميبت  
المسافرين والترحلة والتجار ، كما تنتقل أيضاً على الحوايت والعتاجر ، وأقيمت  
الحوايت عادةً في مفارق الطرق ومدخل المدن ، عنها ، انظر : ابن منظور : مصدر  
سابق ، جـ ١٠ ، ص ٣١٢ ، قراري : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ٨١ .
- ( 135 ) - ( عن تدعارة ودور البغاء ، انظر : عوض : الحروب الصليبية ، ص ١٢٢ ،  
الترماتيني : مرجع سابق ، ص ١٢٧ ، ريتشارد : مرجع سابق ، ص ١٦٩ -  
١٨٢ ، براور : علم الصليبيين ، ص ١١٥ - ١١٨ .
- ( 136 ) - ( ابن تيمية : مصدر سابق ، جـ ٢٢ ، ص ٣٢٨ ، شادي : مرجع سابق ، ص ٣٨ .
- ( 137 ) - ( عبد الله بن أحمد بن حنبل ، ت : ٢٩٠ هـ / ٩٠٢ م : مسلك أحمد بن حنبل رواية  
ابنه عبد الله ، تحقيق : زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط ١ ،  
١٩٨١م ، جـ ١ ، ص ٢٥٥ ، علم : مرجع سابق ، ص ٢٢٠ ، علي السيد :  
الاسرى الأجانب ، ص ١٢٦ .
- ( 138 ) - ( الماوردي : مصدر سابق ، جـ ١٨ ، ص ١٣٠٩ ، شادي : مرجع سابق ، ص ٣٨ .



- (139) - عن زواج الأسيرات وارتفاع مكانتهن، النظر: الماوري: مصدر سابق، جـ ١٨، ص ٣٠٩، قاطعة الشلوي: مرجع سابق، ص ١٤١ - ١٤٤، شادي: مرجع سابق، ص ٣٨.
- (140) - عن علاقة الإخوة من أبناء الأسيرات والحرار، النظر: الترماليني: مرجع سابق، ص ١٣٠.
- (141) - عن الأسيرات الصغيرات، النظر: وليم بصوري، الحروب الصليبية، جـ ٢، ص ٢٢٢، راسيمان: الصلوات الصليبية، جـ ٣، ص ١٨٩ - ١٨٨.
- (142) - جمعة: مرجع سابق، ص ١٢٧، والنظر أيضاً Friedman: Women, pp.85 - 87: Hitti: op. cit. p.49.
- (143) - عن ذلك، النظر: أين عبد الظاهر: مصدر سابق، ص ٢١٧، قوشيه الشارترى: مصدر سابق، ص ٢٨١، والنظر أيضاً Kedar: Mission, pp. 153 - 154: Hadia: op. cit, p. 170.
- (144) - عن تعلم فئات الصليبية للغة العربية، النظر: عبد الله بن عبد الرحمن الربيعي: أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوربي، الرياض: ط ١ - ١٩٩٤م، ص ٥١، والنظر أيضاً Kedar: Mission, p 137 Hussein: op. cit, p.206.
- (145) - عن المصطلحات العربية في اللغات الأوربية، النظر: عرض: الحروب الصليبية، ص ٣٦٥، الجهوري: مرجع سابق، ص ٥٤، و٥٦، والنظر أيضاً Hitti: op. cit, pp.40-44. [www.archivebeta.sakhr.it.com](http://www.archivebeta.sakhr.it.com)
- (146) - عن أبناء الفرنجة، النظر: زين الدين عمر بن مظفر الشهير بابن الوردي، ت: ٧٤٩هـ/١٣٤٩م: تاريخ ابن الوردي، دار لكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٦م، جـ ٢، ص ١٩٩، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، ت: ٩٠٢هـ/١٤٩٦م: الضوء للامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت، ج ٢، ت ١١، ص ٦١٤.
- (147) - عن شعر الجهاد، والشعر الذي يصور مصائب النساء الأسيرات، النظر: أبو شامة: مصدر سابق، جـ ١، ص ٣٦٥، ابن الأثير: الكامل، جـ ٩، ص ٢٠، ابن تغري بردي: مصدر سابق، جـ ٥، ص ١٥١ - ١٥٢، محمد علي الهرقي: شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام، دار المعامم الثقافية، الأحساء، ١٩٧٩م، ص ١٢٢ - ١٢٧، يونس: مرجع سابق، ص ١٤٣، والنظر أيضاً Hillenbrand: op. cit, pp.166- 167.
- (148) - كياتي: مرجع سابق، ص ١٢٧، والنظر أيضاً Hitti: op. cit, p.49.
- (149) - ابن منقذ: الاعتيار، ص ١٤٠، الربيعي: مرجع سابق، ص ١١٣، والنظر أيضاً

Holmes : op. cit, p 22.

( 150 ) - ابن منقذ: مصدر سابق ، ص ١١٠ ، والنظر أيضاً

Lamp: Crusade, P.262.

( 151 ) - ابن منقذ: مصدر سابق ، ص ١١٠ وعن تكيف الفرنجة مع البيئة الشرقية

واكتسابهم لتقاليد الطهي الشرقي، النظر : سهير تهنين : مرجع سابق ، ص ١٨٥ ،

الحويزي : مرجع سابق ، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ برابور : عالم الصليبيين ، ص ١١١

، يوشع برابور : الاستيطان الصليبي في فلسطين ( مملكة بيت المقدس ) ، ترجمة:

عبد الحافظ البنا ، عين للدراسات ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠١م ، ص ٦١٦ ، والنظر

أيضاً

Krijnje: op.cit, p 131; Hitti: op. cit, p.45; Smal: op. cit. P.182.

( 152 ) - جواتفول : مصدر سابق ، ص ١٤٩ .

( 153 ) - عن خوف النساء من الأسر، النظر : ابن منقذ : الاعتبار ، ص ١٢٥ ، جواتفول :

مصدر سابق ، ص ١٤٩ .

( 154 ) - عن مداويف الناس من اكتساب لباسهم أمام أهلهم ، نظر : أحمد بن محمد

المعري التلمساني ، ت : ١٠٤١هـ / ١٦٣١م : فحج التليب في ضمن الأكلس

لرطيبه ، تحقيق : إحصان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٢م ، ج ٤ ، ص

٤٥٠ ، استنكر : مرجع سابق ، ص ٦٤ .

( 155 ) - ابن منقذ: مصدر سابق ، ص ١٤٩ ، عوش : دراسات لتاريخ الاجتماعي

للعروب الصليبية ، ص ١٧٢ والنظر أيضاً Friedman : Captivity, p.84.

## قائمة المصادر والمراجع

## أولاً: المصادر العربية

## القرآن الكريم - الكتاب المقدس

- ابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) : عز الدين أبي الحسن علي بن الكرم محمد بن محمد عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٩، ١٠، دار صادر، بيروت، ط ٦، ١٩٩٥م.
- ابن تغري بردي (ت: ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م) : جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي؛ التجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٥، ٦، ٧، مطبعة وزارة الثقافة، القاهرة، (د.ت).
- ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م) : أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحرانسي: كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ج ١٨، ٢٨، ٣٢، تحقيق: عبد الرحمن محمد قاسم النجدي، مكتبة ابن تيمية، (د.ب).
- ابن جبير (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) : أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير بن محمد أبين جبير: رحلة ابن جبير، ضبطه ووضع فهرسه محمود زينهم، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- ابن حنبل (ت: ٢٩٠هـ / ٩٠٢م) : عبد الله بن أحمد بن حنبل، ت: ٢٩٠هـ / ٩٠٢م: مسائل أحمد بن حنبل رواية ابنة عبد الله، ج ١١، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٩٨١م.
- ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م): أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحرانسي: كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ج ١٨، ٢٨، ٣٢، تحقيق: عبد الرحمن محمد قاسم النجدي، مكتبة ابن تيمية، (د.ب).
- ابن عبد الظاهر (ت: ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م): محي الدين عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر: عبد العزيز الخويطر، (د.ن)، الرياض، ط ١، ١٩٧٦م.
- ابن العديم (ت: ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م) : كمال الدين أبي القاسم عمر بن هبة الله ابن العديم الحلبي العنقي: بغية الطلب من تاريخ حلب، ج ٧، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨.
- ابن العديم: كمال الدين أبي القاسم عمر بن هبة الله ابن العديم الحلبي العنقي: زبدة الطلب من تاريخ حلب، وضع حواشيه: خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٦م.
- ابن منظور (ت: ٧١١هـ / ١٣١١م): محمد بن مكرم بن منظور الأفریقی المصري، : لسان العرب، ج ١٠، ١١، دار صادر، بيروت، ط ١، (د.ت).
- ابن منقذ: مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد بن منقذ الكتفاني السبؤري، ت: ٥٨٨هـ/ ١١٨٨م: الاعتبار، حرره: فيليب حتى، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٨١م.

- ابن الوردي : زين الدين عمر بن مظفر الشهير بابن الوردي ، ت : ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م : تاريخ ابن الوردي ، ج ٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٦م .
- أبو شامة ( ت : ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م ) : شهاب الدين عبد الرحمن المقدس المعروف بسلي شامة : الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية . ج ١ ، ٢٠٣ ، ٤ . تحقيق : إبراهيم الزبيق ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٧م .
- الحموي ( ت : ٦٦٦هـ / ١٢٢٨م ) : الفوت بن عبد الله الحموي : معجم البلدان ، ج ١ ، ٢٠٤ ، دار الفكر ، بيروت ، ( د . ت ) .
- الرزازي ( ت : ٧٢١هـ / ١٣٢١م ) : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرزازي ، : مختار الصحاح ، ج ١ ، تحقيق : محمود خاطر ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٥٠ .
- الرشداني ( ت : ٥٩٣هـ / ١١٩٦م ) : أبي الحسن علي بن عبد الجليل الرشداني : الهداية شرح بداية المبتدى ، ج ٢ ، المكتبة الإسلامية ، صان ، ( د . ت ) .
- السخاوي ( ت : ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م ) : شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع - ج ١١ ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د . ت .
- السرخسي ( ت : ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م ) : شمس الدين السرخسي : المبسوط ، ج ١٠ ، دار المعرفة ، بيروت ، د . ت .
- الصلبي ( ت : ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م ) : صلاح الدين خليل ابن أبيك الصلبي : الوافي بالوفيات ، ج ١٠ ، ١٨ ، تحقيق : أحمد الأرناؤوط وقرن مصطفى ، دار إحياء التراث ، بيروت ، ٢٠٠٠م .
- الفيروز آبادي ( ت : ٨١٧هـ / ٤١٤م ) : محمد بن يعقوب الفيروز آبادي : القاموس المحيط ، ج ١ ، د . ت .
- الماوردي ( ت : ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م ) : علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري الشافعي : الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي وهو شرح مختصر المعنى ، ج ٩ ، ١٨ ، تحقيق : الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٩م .
- المغربي ( ت : ١٠٤١هـ / ١٦٣١م ) : أحمد بن محمد المغربي الثلثاني : نفع الطبيب في غصن الأندلس الرطيب ، ج ٤ ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٣م .
- المغربي ( ت : ٨٤٥هـ / ١٤٤١م ) : تقي الدين أحمد بن علي المغربي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ٧ ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٧م .

#### ثانياً : المصادر الأجنبية المترجمة

- آنا كورنيينا : أكسياد ، ترجمة : حسن حبشي ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٤م .

- أولغا أوف بانديون : الإستيلاء على دمياط ، ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢٤ ، ترجمة : سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٥ م ، ص ٧ - ١١٩ .
- بطرس توديبود : الرحلة إلى بيت المقدس ، ترجمة : حسين عطية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠٠١ م .
- جاك دي فيتري ، ت : ٦٣٨هـ / ١٢٤٠ م : تاريخ القدس ، ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢٤ ، ترجمة : سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٨ م ، ص ١٢٧ - ٢٤٦ .
- جوافيل : القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام ، ترجمة : حسن حبشي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٦٨ م .
- ريموندجيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ، نقلة إلى الإنجليزية جون ميسوم هيسل و لوريتال هيل ، نقلة إلى العربية : حسين محمد عطية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ط١ ، ١٩٩٩ م .
- فوشيه الشارترى : تاريخ الحملة إلى بيت المقدس (الإستيطان الصليبي في فلسطين ، ترجمة ودراسة وتعليق : قاسم عبيد قاسم ، دار الشروق ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠١ م .
- مؤرخ مجهول : قبل ولیم الصوري ، ترجمة : حسن حبشي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٤ م .
- متى الباريسي ، ت : ٦٧٢هـ / ١٢٧٣ م : التاريخ الكبير ، ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ترجمة : سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٥ م .
- ولیم الصوري : الحروب الصليبية ، ترجمة حسن حبشي الهيئة العامة ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، جـ ١ ( ط ١٩٩١ م ) ، جـ ٢ ( ط ١٩٩٢ م ) ، جـ ٣ ( ط ١٩٩٤ م ) ، جـ ٤ ( ط ١٩٩٥ م ) .

#### خاتمة المراجع العربية

- أحمد رمضان أحمد ( دكتور ) : المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية ، الجهاز المركزي للكتب الجامعية ، القاهرة ، ١٩٧٧ م .
- جمعة محمد مصطفى الجندي : الإستيطان الصليبي في فلسطين ٤٩٢ - ٦٩٠هـ / ١٠٩٩ - ١٢٩١ م ، مكتبة الأجلو المصرية ، القاهرة ، ٢٠٠٦ م .
- حسن عبد الوهاب حسين ( دكتور ) :
- ١ - « الجريمة والعقوبة في المجتمع الصليبي في بلاد الشام . ( ١٠٩٥ - ١١٨٧ / ٤٨٨ - ٥٨٢ هـ » ، ضمن كتاب دراسات في تاريخ الحضارة الأوربية في العصور الوسطى ، ( المجتمع الصليبي في بلاد الشام ) ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠٠٠ م ، ص ٣ - ٦١ .

- ٢- تاريخ قيسارية الشام في العصر الإسلامي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠٠٠ .  
 \*  
 - سعيد البشاوي ( دكتور ) : الإسطبان الفرنجى فى بيت المقدس والمناطق المحيطة بها ١٠٩٩ - ١١٨٧م ، ضمن كتاب بحوث فى تاريخ العصور الوسطى ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠٠٤م ، ص ٢٨١ - ٣٢٦ .  
 - سعيد عبد الفتاح عاشور ( دكتور ) :  
 ١- الحركة الصليبية ، صفحه مشرفه فى تاريخ الجهاد الإسلامى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط ٤ ، ١٩٨٦ م .  
 ٢- المجتمع المصري فى عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة ، ١٩٩٢م .  
 - سهيل زكار ( دكتور ) : الموسوعة الشامية فى تاريخ الحروب الصليبية ، تأليف وتحقيق وترجمة : سهيل زكار ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ، ١٩٩٥م .  
 - عبد اللطيف عامر ( دكتور ) : أحكام الأسرى السبأيا فى الحروب الإسلامية ، دار الكتب الإسلامية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٦م .  
 - عبد الله بن عبد الرحمن الربيعى ( دكتور ) : أثر الشرق الإسلامى فى الفكر الأوروبى، الرياض، ط ١ ، ١٩٩٤م .  
 - على السيد على ( دكتور ) :  
 ١- العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، عين للدراسات، القاهرة، ط ١ ، ١٩٩٦م .  
 ٢- المرأة المصرية وأنشأيتها فى عصر الحروب الصليبية ، المنشأ للأطى للثقافة ، لقاهرة ٢٠٠٢م .  
 - عليا عبد السمیع الجنزوري ( دكتور ) : إسارة الرها الصليبية ، سلسلة تاريخ المصريين ( ٢١١ ) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٠١ م .  
 - فايز نجيب اسكندر ( دكتور ) : نيكولاس خوليانس واعترافه بتماسح المسلمين وبربرية الصليبيين قراءة نقدية تتجاوزات الحملة الرابعة سنة ١٢٠٤م / ٦٠٠هـ ، ضمن كتاب صفحة من تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، المكتبة العلمية ، المنصورة ، د . ت ، ص ٥٥ - ٧٦ .  
 - قاسم عبده قاسم ( دكتور ) : المسلمون وأوروبا التطور التاريخي لصورة الآخر، عين للدراسات ، القاهرة ، ٢٠٠٩م .  
 - محمد سيد كيلانى : الحروب الصليبية وأثرها على الأدب العربى فى مصر والشام ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٤٩م .  
 - محمد على الهرملى ( دكتور ) : شعر الجهاد فى الحروب الصليبية فى بلاد الشام ، دار المعلم بالأخصام ، ١٩٧٩م .  
 - محمد مؤنس عوض ( دكتور ) :

- ١- الحروب الصليبية والعلاقات بين الشرق والغرب في القرنين ١٢-١٣م / ٦-٧ هـ ، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٩ م / ٢٠٠٠م .
- ٢- « الإضطهاد الصليبي لليهود في حوض الراين بألمانيا عام ١٠٩٦م / ٤٩٠هـ سن خلال حولية الريس اليغلز بن نائلن » ، ضمن كتاب عالم الحروب الصليبية بحوث ودراسات ، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٥ م ، ص ٧ - ٥٢ .
- ٣- «دراسات التاريخ الإجتماعي للحروب الصليبية الصادرة في الخمس والعشرين سنة الأخيرة » ، ضمن كتاب عالم الحروب الصليبية بحوث ودراسات ، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٥ م ، ص ١٢٩ - ١٧٧ .
- ٤- محمود محمد الحوزي (كتور) : الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميالك (عصر الحروب الصليبية ) ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ م

#### رابعاً: المراجع المترجمة

- جان ريتشارد : « وضع المرأة في الشرق اللاتيني » ، ترجمة وتحرير : حسن عبد الوهاب حسين ، ضمن مقالات وبحوث في التاريخ الإجتماعي للحروب الصليبية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٧ م ، ص ١٥٥ - ١٦٨ .
- جوزيف شاخف وكليفورد بوزورث : تراث الإسلام ، ترجمة : محمد زهير السموهري وحسين مؤنس ، تعليق وتحقيق : شامر مصطفى ، مشاية عالم المعرفة ، العدد ٢٢٢ ، يناير ١٩٧٨ م <http://Archwebeta.Sakhrif.com>
- جيمس أ. برونديج : « الزنا ( الدهارة ) واختلاط الأجناس والتكفير الجنسي في الحروب الصليبية » ، ترجمة وتحرير : حسن عبد الوهاب حسين ، ضمن مقالات وبحوث في التاريخ الإجتماعي للحروب الصليبية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٧ م ، ص ١٦٧ - ١٨٨ .
- جيمس رستون : مقاتلون في سبيل الله .. صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد والحلة الصليبية الثالثة ، تعريب : رضوان السيد ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ط ١ ، ٢٠٠٢ م .
- ستيفن راسيمان : تاريخ الحملات الصليبية ، ٣ أجزاء ، ترجمة : نور الدين خليل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٩٤ م .
- كلود كاهن : الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ، ترجمة : أحمد الشيخ ، سينا للنشر ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٩٥ م .
- مكسيم رونسون : جاذبية الإسلام ، ترجمة : إلياس مرصع ، دار التنوير ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٩٨ م .
- ميخائيل رونتيديج : الأطلنسي ، ضمن كتاب تاريخ أوكسفورد للحروب الصليبية ، ترجمة : قاسم عبده قاسم ، عين للدراسات ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٧ م ، ص ١٢٧ - ١٦٥ .

- ميشيل بالاز : الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر ، ترجمة : بشير السباعي ، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٣ م .
- هانس ابرهارد ماير : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة وتعليق : عصام الدين شحام ، منشورات مجمع الفتح للجامعات ، طرابلس الغرب ، ١٩٩٠ م .
- هايد : التجارة في الشرق الأدنى ، ج ٤ : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩١ م .
- ول ديورانت : قصة الحضارة .. عصر الإيمان ، ترجمة : محمد بنران ، مج ٨ (ج١-١٥ ، ١٦) ، مكتبة الأسرة ، القاهرة ، ٢٠٠١ م .
- يوشع برأور :
- ١- عالم الصليبيين ، ترجمة : قاسم عهده قاسم ومحمد خليفة ، عين للدراسات ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٩ م .
- ٢- الأساقفة الصليبيون في فلسطين ، ترجمة : عبد الحافظ البنا ، عين للدراسات ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠١ م .

#### خاصاً : الرسائل العلمية

- سهير محمد ملبهي علي : المرأة الصليبية في بلاد الشام ١٠٩٨-١٢٦٨ م . رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية البنات ، جامعة عين شمس ، ٢٠٠٢ م .
- شادي إبراهيم عبد القادر : السيد في سطر الإسلام ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة النجاح ، فلسطين ، ٢٠١٠ م . <http://Archivwebeta.Sakhril.co>
- فاطمة عبد اللطيف سيد أحمد الشناوي : معاناة المسلمين الأسرى الصليبيين في بلاد الشام ومصر ١١٣٧ - ١٢٩١ م / ٥٣١ - ٦٩٠ هـ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٩٧ م .
- محمد عبد الله المقدم : الجهود التبشيرية للكنيسة الكاثوليكية في عصر الحروب الصليبية ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة المنصورة ، ١٠١٠ م .

#### سادساً : الدوريات

- حسين محمد عطية (الدكتور) :
- ١- « المسلمون في الإمارات الصليبية في بلاد الشام » ، حوليات كلية آداب عين شمس ، مج ٢٧ ، العدد ٢ ، ١٩٩٩ م ، ص ٦١-١٠٤ .
- ٢- مجلس نابلس ٢٣ يناير ١١٢٠ م \* وأحوال مملكة بيت المقدس الصليبية ، حولية لتاريخ الإسلام والوسيط ، مج ١ ، ج ١ / ٢٠٠٠ ، ٢٠٠١ م ، ص ٣٦ - ٦٩ .
- راجب حامد البكر (الدكتور) : الإنستيطان الفرنجي في القدس ، ضمن مؤتمر بلاد الشام ، ج ٢ ، نوفمبر ١٩٩٩ م ، ص ٦١٧ - ٦٢٧ .



- مهير محمد إبراهيم نعينع ( الدكتور ): التآثيرات الحضارية المتبادلة بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد ، ضمن ندوة العرب وأوروبا عبر العصور ، منشورات اتحاد المؤرخين العرب ، حصاد ( ٧ ) ، ١٩٩٩م ، ص ١٦٩ - ٢٠٧ .
- عبد السلام الترماليني ( الدكتور ): الرق ماضيه وحاضره ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ٢٣ ، نوفمبر ١٩٧٩م .
- عبد المجيد بهيني : أوضاع المسلمين تحت الإدارة الصليبية من خلال رحلة ابن جبير ، النصوص التاريخية الواقع التاريخي ، مجلة التاريخ العربي ، العدد ١١ ، صيف ١٩٩٩م ، ص ١٧٧ - ١٩٨ .
- علي السيد علي محمود (الدكتور): دور الأخرى الأخرى في المجتمع المصري في عصر سلطنة المماليك ، مجلة التاريخ والمستقبل بكلية آداب المنيا ، العدد ٣ ، مج ٢ ، ١٩٨٨م ، ص ١٢٣ - ١٤٨ .
- علي محمد عودة الفامدي (الدكتور): الرؤية الأوربية للعرب والإسلام خلال العصور الوسطى منشورات اتحاد المؤرخين العرب ، ١٩٩٩م ، ص ٥٩ - ٨٧ .
- قاسم عبده قاسم (الدكتور): الإنشهادات الصليبية ليهود أوروبا من خلال حوالة يهودية الظاهرة ومغزاها ، ضمن ندوة للتاريخ الإسلامي والوسط ، دار المعارف ، القاهرة ، مج ١ ، ١٩٨٢م ، ص ١٣٥ - ١٦٦ .
- محمد صلاح بني يونس و عيسى محمود الغزالي: دور سكان الشام في مقاومة الفرس الفرنجى حتى نهاية الحملة الفرنجية الأولى ١١٩٠ - ١٢٤٢م / ١٠٩٦ - ١١٤٦م من خلال المصادر العربية ، ضمن مؤتمر بلاد الشام ، ج ١ ، نوفمبر ١٩٩٩م ، ص ٤٢٧ - ٤٦١ .
- ناجلا محمد عبد النبي ( الدكتور ): المسلمون في مملكة بيت المقدس الصليبية ، مجلة بحوث كلية آداب المنوفية ، العدد ٢٤ ، يناير ١٩٩٦م ، ص ٥٣ - ٩٦ .

#### سابقاً : المراجع الأجنبية

- Baldwin M.W. : « The Decline and fall of Jerusalem, 1179 - 1189 », in : A History of the Crusades, volume. 1, ed. by: Setton, London, 1969 .pp. 590 - 619.
- Brandt W.I. : The Recovery of the Holy Land, New York, 1956.
- Cate J.L.: « The Crusade of 1101, », in : A History of the Crusades, volume I ed. by : Setton, London , 1969, pp.343 - 367. .
- Duggan A. : The story of the Crusades 1097-1291, London, 1963.
- El- Azhari T.K. : The Salguqs of Syria, Berlin , 1997..

- Friedman Y. : « Women in captivity and their ransom during the Crusader period, » In : *Cross Cultural Convergences in the Crusader Period*, ed. by : M.E. Goodich , New York, 1995,pp .75 – 89.
- Friedman Y. : *Captivity and Ransom in the Latin Kingdom of Jerusalem*, Leiden, 2002.
- Gabriell F. : *Arab Historians of the Crusades*, selected and translated from the Arabic sources translated from the Italian, by: E.J Costello, New York,1989
- Hadia D.S.:«Natives and Franks in Palestine Perceptions and Interaction,» In: *Conversion and Continuity : indigenous Christian Communities in Islamic Lands eighth to eighteenth Centuries*, ed. by : M. Gervers and R. J. Bikhazi, Toronto, 1990,pp. 161- 184.
- Hay D.: « Gender Bias and Religious Intolerance in Accounts of the 'Massacres' of the First Crusade, » In : *Tolerance and Intolerance: Social Conflicts in the Age of the Crusades*, ed. by : M. Gervers and J. M. Powell, Syracuse, 2001,pp. 3- 10.
- Hillenbrand C. : *The Crusades Islamic perspectives*, Edinburgh, 1999. -
- Hindley G. : *Saladin*, London, 1976.
- Hitti P.K.:«The Impact of the Crusades on Moslem Lands,» in : *A History of the Crusades*, volume. V, ed. by : Setton, London ,1985,pp .33 – 58.
- Holmes U.T.: « Life Among the Europeans in Palestine and Syria in the Twelfth and Thirteenth Centuries, » in : *A History of the Crusades*, volume. IV, ed. by : Setton, London ,1975,pp .3 – 35.
- Hussein M.T. : *Knowledge of Arabic in the Crusader States in the twelfth and thirteenth Centuries*, *Journal of Medieval History*, Volume 25, Number 3, September 1999 , pp. 203-213.
- Jeusset G. : *François d'Assise et les Musulmans*, Abidjan, 1986 -
- Kedar B.Z. : *Crusade and Mission*, New Jersey, 1984.
- Kedar B.Z. : « The Franks in the Levant, 11th to 14th Centuries », in : *The Franks in the Levant, 11th to 14th Centuries*, ed. by : B.Z. Kedar, London , 1993, pp. 135 – 174..
- Krey A.C. : *The First Crusade The Accounts of Eye Witnesses and Participants*, Princetan, 1958 .

- Krijnie C. and Others: *East and West in the Crusader States*, Ieuven, 1999.
- Lamp H.: *The Crusades The Flame of Islam*, London, 1930.-
- Lamb H.: *The crusades, Iron Men & Saints*, London, 1934.-
- Lev Y. : « Prisoners of War During the Fatimid-Ayyubid Wars with the Crusaders, » in : *Tolerance and Intolerance: Social Conflicts in the Age of the Crusades*, ed. by: M. Gervers and J. M. Powell, Syracuse, 2001, pp. 11-27.
- Mayer H.E.: « Latins, Muslims and Greeks in the Latin Kingdom of Jerusalem », in: *Problem des lateinischen Königreichs Jerusalem*, ed. by : H.E. Mayer, London , 1983, pp. 175 - 192.
- Munro D.C. : *The Western Attitude toward Islam during the Period of the Crusades*, *Speculum*, Volume 6, Issue 3 Jul., 1931, pp. 329-343..
- Oldenbourg Z.: *The Crusades*, Translated from the French, by: Anne Carter, New York, 1967. -
- Pernoud R. : *The Crusades*, London, 1962 -
- Prawer J.: « Social Classes in the Crusader States: The "Minorities", » in : *A History of the Crusades*, volume V, ed. by : Setton, London , 1985, pp .59 - 115.
- Prawer J.: « Social Classes in the Latin Kingdom: The Franks, » in : *A History of the Crusades*, volume V, ed. by : Setton, London , 1985, pp .117 - 192.
- Runciman S. : « The First Crusade : Constantinople to Antioch », in : *A History of the Crusades*, volume I, Ed. by: Setton, London, 1969, pp. 280-307.
- Selim H.A.W.: « Captives Waqf in Syria and Egypt 491-589h/1097-1193ad, » in : *La liberazione dei 'cattivi' tra cristianità e islam : oltre la crociata e il ġihād, tolleranza e servizio umanitario*, ed. by : Giulio Cipollone, Vatican, 2000, pp. 559- 570.
- Small R.C.: *The Crusaders in Syria and the Holy Land*, Printed in Great Britain, 1973 .
- Stevenson W.B. : *The Crusaders in the East*, Beirut, 1968 -
- Strayer J.R. and Others: *The Middle Ages 395-1500*, New York, 1970 -

- 
- Thorau P. : *The Lion of Egypt Sultan Baybars I and the near East in the Thirteenth Century*, Translated by p.m. Holt London ,1992-
- Vasilescu M. : « Even more special Sons ? : the Importance of the Order of the holy Trinity to Pope Innocent III. » In : *La liberazione del 'cattivi' tra cristianità e Islam : oltre la crociata e il ḡihād, tolleranza e servizio umanitario*, ed. by : Giulio Cipollone, Vatican, 2000,pp. 721- 736.
- Zeltler B. : *Sinful Sons, Falsifiers of the Christian Faith': the Depiction of Muslims in a 'Crusader' Manuscript*, *Mediterranean Historical Review*, MHR Vol. 12, no. 2, 1997 pp. 25-50.





## الأمير الزبيري "عنصر المعالي كيكلوس" وكتابه قابوسنامه (قراءة تاريخية تحليلية)

د. صلاح الدين علي عاشور (\*)

### مقدمة :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وبعد...  
فقد خلف لنا أسلافنا تراثاً ضخماً، وكنزاً ثميناً من العلوم العربية والإسلامية، جنبر بالإجلال والإعجاب. ومن هذا التراث الخالد كتاب 'قابوسنامه' لصاحبه الأمير الزبيري 'عنصر المعالي كيكلوس' وهو من الكتب التي شهرت في التاريخ الفارسي باسم كتب التصالح، والتي تزخر بالروائع الفكرية الشاسعة التي تلف مرفوعة لهامة أمام روائع الآداب الإسلامية.  
ولما كانت قيمة أي عمل عثماني مرموقة - إلى حد كبير - بما يضيفه إلى الفرع الذي ينتسب إليه من إراء، كلما كان الإسهام في تلبية 'مباحثه' وكشف غوامضه، صلا جديراً بالبحث والتنقيب، لا سيما وأن 'عنصر المعالي' من الكتابات التي تركت الحياة بعد أن خلفوا لنا أثراً خلد ذكراه، بعدما أحسن في تمثيل عصره، وأظهر ما كانوا يتباطون من قنون المعرفة، وما كانوا يدعون.

ولاشك أن لكل كتاب منهجاً، ولكل مصنف مضمناً، ومنهجاً يخصص به، وإن شاركه غيره في بابيه، فكتب التصالح كثيرة، ولكن لا تكمل الاستفادة منها إلا بالوقوف على أفكار مصنفها باختصار نخائلها حتى تصح عن كنه جوهرها. وكتاب هذه شهرته جدير بأن نتعرف منهجه لتقف على شهرة صاحبه، وحقيقة المادة التاريخية الفاهمة بين دفتيه، وبهذا لتجلى تراثنا غرسة الأئوان كذا واجتهادا، وتعهده من بعدهم لحفظه وتميمته.

وقد حاولت أن أدرس حياة هذا الرجل بمقدار ما أمكنتني به المصادر، وما أسعفتني به تراجمه، وهي قصيرة بوجه عام، جعلت من الصعب التوسع في تفاصيل تطوينا صورة والية عن حياته، ولكن من خلال استقراء ما ورد في كتابه، وبعض أقواله وأرائه، وحال العصر الذي عاش فيه، أمكن الوصول إلى ما يشبه الحقيقة من شأنه، ولذلك عنيت بشرح أفكاره وتصالحه وأمانيه، وحاولت الوقوف عند بعض التصوص كلما استطعت.

(\*) أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي بجامعة الأزهر.

وقد بهرني من الرجل أنه كان مثلاً بليغاً لتبيل الخلق، فلم تورثه مكاتته السياسية زهواً ولا غروراً، لذلك لا نلمس في كتابه ما يشير إلى شيء من الفخر والكبرياء.  
 والمتصفح لكتاب 'قابوسنامه' يتبين أن صاحبه قد هاله تحراف ابنه عن الدين، وعدم النظر في أخبار الرسول وصحابته، فأخذ ينكر عليه تلك النزعة البشرية اللاهية، فأخذ يعرض عليه نماذج خلقية رفيعة، ليعلمه آداب المعاشرة والسلوك والتقاليد، وكسب الفضائل وتهذيب الخصال، وكيف يعيش ويحكم، وتجنبت تلك التصالح من خلال القصص التاريخية التي يستشهد بها في حكاياته، ويمكن اعتباره واحداً من الكتب ذات الأطروحات الأخلاقية.  
 وهكذا نرى الكتاب متنوع المعارف، لا يستغنى عنه من غشى مجالس أهل العلم، ولعل اسم النصيحة يشير في غير خفاء إلى ما يضمه الكتاب بين لفتيه من كل ما من شأنه أن يثقل العقل، ويهذب النفس، ويكون الرجل المستشير.

وقد استمد 'عنصر المعالي' مادة الكتاب من مصادر متعددة أشار إليها في مواطن متعددة من كتابه، والتي يبدو فيها رجلاً واسع الأفق لا يستكف أن يلمظ الجوهرة من الرجل - كما يقال - فلا يضيره أن يأخذ عن الحديث سناً لحديثه، ولا عن الصغير قدراً لخساسته، ولا عن الأمة الوعكاء لجهلها. والكتاب بصفة عامة يعد دستوراً وضعه 'عنصر المعالي' في تهذيب ابنه كيلاشاه ونصحه، ليكون نبراساً له، يردده متى شاء إلى أفق الإصلاح، لاسيما بعدما حوى نجم الخير وكسدت سوق الثور، وبارت بضائع أهله، وصارت النفوس عرا على صاحبها، والفضل نقصاً، وتكالب الناس على شهبوات النفوس.

وإذا كان لنا أن نرد الفضل إلى ذويه؛ يجب علينا ألا نفلت النداء 'عنصر المعالي' بتصالح النبي لخصان لابنه، وما ورد في السياق القرآني، وكذلك الأعمال الفارسية الخالدة مثل: 'تهذبات الفردوسي'، ورسالة الصحابة لابن المقفع، التي كانت بمثابة منتج لكل قاصد من المفكرين والعلماء الذين شادوا عليها مؤلفاتهم، حتى أوصلها هو إلى ذريتها.

وقد زانني إقبالاً على دراسة هذا الرجل أنه لم يأخذ حظه من عناية الباحثين، فوجدته جديراً بالدرس الواعي الممتد، ورأيت أن أكتب عنه دراسة مستقلة، بلا جنوح إلى الغلو، ولا إلى التفسير، وهي أيضاً دراسة تعنى باستقامة المنهج، والبعد عن الميل والانحراف في تناول الحدث التاريخي.

وعلى كل حال؛ فالدراسة تهدف إلى الغوص في شخصية الأمير 'عنصر المعالي' وتحليل سادته التاريخية التي حواما كتابه قابوسنامه، مع تقديم فكر صاحبه على نحو أكثر رؤية وتلصيقاً، والتعقيب على أفكار الكتاب من خلال استعراض بعض نصوصه، لتسبين خصائصه ومميزاته، فضلاً عن مدى قدرة الدراسة على منحا الحقيقة التاريخية الصادقة.

ومن الله أرجو التوفيق والسداد، إنه على كل شيء قدير، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

### عصر المؤلف ومعطياته السياسية والثقافية والاجتماعية

يميز عصر الأمير 'عصر المعالي' بخصائص ومعطيات عديدة، تجلت في كافة جوانب الحياة، ولما كان المفكر ابن عسرو، ونتاجاً من لتأمله، يتأثر به سلباً أو إيجاباً، وجب على كُتُف وتوضيح لروح العصر الذي عاش فيه، لأن ذلك يعيننا على تفهم العوامل المختلفة التي صبغت عصر المؤلف بلوناً خاصة، وضحت من خلال تجلياته الفكرية، وأرائه التربوية والأخلاقية، والتي تبنت في بيئته السياسية، والجغرافية، والثقافية، والاجتماعية.

#### أولاً. المعطيات السياسية:

الدولة الزييرية هي إحدى الأسر التي استقلت جزءاً من أراضي الدولة العباسية في شرق الدولة الإسلامية<sup>(١)</sup>. وتنسب هذه الأسرة الزييرية إلى رجل يلمى يدعى 'مرداويج بن زيار'، الذي بدأ نجمه في الظهور حينما التحق بخدمة الأئمة العلويين في طبرستان<sup>(٢)</sup>، لاسيما بعد أن اعتنق هؤلاء الديانة الإسلام، عقب دخول الحسن بن علي العلوي المنقب بـ 'الأطروش'<sup>(٣)</sup> بلاد الديلم<sup>(٤)</sup> في حدود سنة (٢٨٩هـ/٩٠١م) وأقام فيها نحو ثلاث عشرة سنة يدعى الديلم إلى ترك المجوسية واعتناق الإسلام، حتى كسبهم إلى جانبه، ثم دعاهم للخروج معه إلى طبرستان سنة (٣٠١هـ/٩١٣م) فسيطر عليها منتزعا إياها من السامانيين<sup>(٥)</sup>.

ولما مات الحسن بن علي الأطروش تنازع لثلاثة وهم: 'مأكان بن كالي' و'تيلي بن التعمان' و'أسفار بن شيرويه' و'مرداويج بن زيار' (وكلهم من الديلم) على إمارة الجيش<sup>(٦)</sup>، ولاسيما بعد أن قام 'الحسن بن التميمي' (خليفة الأطروش) بتسليم شعبة من قادة الديلم (تشكبه في نواياهم تجاهه) مما حصل اليأس على القرار، وتشكيل جنود خاصة بهم<sup>(٧)</sup>.

وقد عرف هؤلاء الديالمة بروح المغامرة العسكرية، فأخذوا يتغلغلون إلى احتلال مناصب عسكرية لهم في ظل الإمارة العلوية التي كانت تحتضر آنذاك<sup>(٨)</sup>.

ولما قتل تيلي بن التعمان الديلمي (وهو أشهرهم) وهو يقود جيش الديالمة ضد الإمارة السامانية، تولى مكانه 'مأكان بن كالي' القيادة، ولكن أحد قواد 'مأكان' ويدعى 'أسفار بن شيرويه' خرج عليه، وتعاون مع قائد آخر وهو 'مرداويج' فأحرز نصراً مؤزراً ضد 'مأكان'<sup>(٩)</sup>. ولكن سرعان ما وثب مرداويج على 'أسفار' وقتله عام (٣١٦هـ/٩٢٨م) وملك البلاد، مؤسساً لأمرته إمارة في 'جرجان'<sup>(١٠)</sup> و'طبرستان' و'عمدان'<sup>(١١)</sup> وأصلهان<sup>(١٢)</sup> جنوبي بحر قزوين أو ما يسمى بحر الخزر، وحالها هذه البلاد باسم الخليفة العباسي<sup>(١٣)</sup>. وكانت الثغرة الأساسية في حكم 'مرداويج بن زيار' أن الجيش الزييري كان يتكون من عدة عناصر رئيسية، منها: الجبل، والديلم، والأتراك، والأكراد. وكان من تعدد عناصر الجيش واختلاف كل عنصر عن الآخر في اللغة، والوطن، وتفضيل بعض العناصر على الأخرى، أثر واضح في قيام بعض النزاعات الداخلية، حيث فضل 'مرداويج' عنصري الديلم والجبل على غيرهم، مما أدى في النهاية إلى قتله على يد غلمانه الأتراك<sup>(١٤)</sup>.

وبعد مقتل 'مرداويج' أخذ شأنهم يعظم لاسيما في عهد أخيه، وخليفته 'وشمكير بن زيار' (٣٢٣-٣٥٦هـ/٩٣٤-٩٦٦م) ويقال إنه ركب فرساً وشباً وهو شائل عنه، فسقط



مينا<sup>(١١)</sup>، فخلقه ابنه قابوس بن وشمكير<sup>(١٢)</sup> (٣٥٦-٤٠٣هـ/٩٦٦-١٠١٢م) وكان كاتباً وشاعراً<sup>(١٣)</sup>. وفي عهده تعرض سلطان الزياريين إلى خطر شديد، عندما علا شأن الأمراء البويهيين الذين تطلخوا إلى أملاك الزياريين، حتى الحصر ملك بني زيار في 'جرجان' وطبرستان.

وفي أيام قابوس بن وشمكير، أثار 'عضد الدولة' البويهى على أملاك الزياريين سنة (٣٧١هـ/٩٨١م) وانتزعها من يد قابوس، ولكن قابوس عاد واستردها سنة (٣٨٨هـ/٩٩٨م) بمساعدة السامانيين<sup>(١٤)</sup>، ووسع من ملكه حتى إنه ضم بلاد 'جبلان' (كيلان). ولم يلبث قابوس أن عتا وتجرر في أواخر إمارته، فأجمعت حاشيته على خلعه، وأجبرت ابنه 'منوجهر' (٤٠٣-٤٢٦هـ/١٠١٢-١٠٣٤م) أن ينزل على إرثتها، وحبس قابوس في إحدى القلاع حتى مات من شدة البرد<sup>(١٥)</sup>.

وقد ازدهت السنوات التي أعقبت وفاة قابوس بن وشمكير بالاضطرابات بين أبناء البيت الزيارى، من أجل الوصول إلى سدة الحكم.

والواقع أن عصر قابوس كان بمثابة حد فاصل بين عصرين؛ عصر القوة، وعصر الضعف والتفكك، فهذا 'منوجهر بن قابوس' يسارع إلى توطيد علاقته بالسلطان 'محمود الغزنوي' ويعدك معه معاهدة صلح ثلثة استرضاء للغزنويين<sup>(١٦)</sup>، فأتاحت فرصة للتدخل في شؤون الإمارة الزيارية، وفرض هيمنتهم عليها، فضع استقلالها وسط هذا الزخم من التنازلات، والتي أدت بها في النهاية إلى الضعف ثم الإنيهار<sup>(١٧)</sup>. ولم يلبث أن توفي 'منوجهر' فخلقه ابنه 'كوشروان' (٤٢٦-٤٣٧هـ/١٠٣٤-١٠٣٨م) الذي تسير في حكم بلاده موالياً للغزنويين<sup>(١٨)</sup>. وكانت أمواج السلاجقة<sup>(١٩)</sup> قد بدأت في مدها، ولم يستطع أحد وقفها، فاستولوا على جرجان، وطبرستان سنة (٤٣٣هـ/١٠٤١م) من يد 'كوشروان' الزيارى الذي لم يحرك ساكناً أمام جحافل القوات السلجوقية الفتية<sup>(٢٠)</sup>.

ومنذ ذلك التاريخ، ظل الأمراء الزياريين يحكمون بتفويض من السلاجقة، ويقال إن آخر أمراء هذه الأسرة، وهو كيلان شاه بن عنصر المعالى كيكاس<sup>(٢١)</sup> (ابن صاحب قابوسنامه) الذي انحصر حكمه في مدينة 'جبلان' حتى خلعة السلطان 'ملك شاه بن آلب أرسلان'<sup>(٢٢)</sup>، ثم لم يلبث أن توفي سنة (٤٧١هـ/١٠٧٨م)، ويوفاته انقضت الأسرة الزيارية كان لم تكن شيئاً مذكوراً.

### ثانياً - المعطيات الجغرافية:

إذا كان يقال إن الإنسان ابن بيئته، فمن الجائز أن يقال أيضاً إنها أيوه، ولا تصدق هذه المقولة بشقيها على أحد بقدر ما تصدق على 'عنصر المعالى' الأديب الفيلسوف، فهو ابن للظروف الاجتماعية، والسياسية، والعقلية، والجغرافية، التي حكمت بيئته وعصره، التي لم يستطع أن يكون بمنأى عنها، فقد كان لها بالغ الأثر في تشكيل نفسه وتكوين شخصيته، وظهر ذلك جلياً من خلال كتابه 'قابوسنامه' ومن خلال القضايا التي تناولها في نصابه.

وتعتبر منطقة الديلم (أو بلاد جيلان) هي الموطن الأصلي للزياريين<sup>(٣١)</sup>، وصفها بقوت الحموي بقوله<sup>(٣٢)</sup>: 'بلاد واسعة يشتملها هذا الاسم' ومن أشهر مدنها 'طبرستان' والتي تعرف أيضا بـ'مازندران'<sup>(٣٣)</sup>.

وقضى عنصر المعالي عصره في مدينة طبرستان التي شهرت - على مر التاريخ - بملحتها وقوة شكيمة أهلها وحصانة موقعها الجغرافي الذي جعل منها دائما حجر عثرة أمام القوات الإسلامية في عصري الأمويين والعباسيين، من أجل إقرار نفوذهم هناك<sup>(٣٤)</sup>، وقل الأمر على هذا الحال حتى استولى عليها 'حسن بن زيد العلوي' المعروف بالداعي الكبير سنة (٢٥٠هـ/٨٦٤م) وطرد منها عمال الخلفاء العباسيين<sup>(٣٥)</sup>.

وشهرت طبرستان بطبيعتها الساحرة، وخصب أراضيها، ووفرة مياهها، وكثرة ثمارها وخيراتها، وصناعتها الزاهرة، ومنها الحامرة، وتجارتها الواسعة<sup>(٣٦)</sup>.

ويصف ابن أَسْتَدِيهَار<sup>(٣٧)</sup> طبيعة طبرستان بقوله: 'متاخها معتدل، وشتاؤها خريف، وصفها ربيع، وكل أرضها رياض وحدائق، لا تقع العين فيها إلا على الخضرة، ومنها وقراها متصلة بعضها ببعض، وهوؤها معتدل لطيف...'

كل هذا الرخاء جعل من طبرستان موطناً لأهل العلم والفضل. والشعابي<sup>(٣٨)</sup> الذي كان يحمل إجلالا صافيا لتلك المدينة جده **يخصها بفضل في بيتته** بعنوان: **فضل في ذكر شعراء طبرستان** يذكر فيه **قابوس بن وسعكيك** جد مؤلف **قبوسنامه**.

كما أن صاحب كتاب **تاريخ طبرستان**<sup>(٣٩)</sup> نزه يتحدث عن أهل العلم والفضل من شعراء وكتاب وزهاد وأطباء وحكماء، مع ذكر أسماء الكثير منهم وتبدأ من سيرهم وأخبارهم.

و'جرجان' مدينة شهيرة وصفها بقوت<sup>(٤٠)</sup> بقوله: 'مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان، وهي أكبر مدينة بنواحها، وهي أقل تدي وعطرا من طبرستان، وأهلها أحسن وقارا، وأكثر مروءة ويسارا... وخرج منها خلق من الأبناء والعلماء والفقهاء والمحدثين، ولها تاريخ ألفه حمزة بن يزيد السهمي... حتى وصفها البعض بأنها جنة الدنيا'<sup>(٤١)</sup>.

ولاشك أن هذه البيئة كان لها أكبر الأثر في ظهور كثير من الأقداد الذين لا يسبق لهم غبار في الفكر، والثقافة، واللغة، بل وفي كل فن من فنون المعرفة. وكان الأمير 'عنصر المعالي' رائدا من الرواد الذين ولجوا أبوابها، بعد أن وجد الأرض مهيبة، والزرع مضطرا، والشجرة المورقة بدأت تؤتي ثمارها حلوة المذاق. وبالرغم من تربيته على كرسى الإمارة، إلا أنه ناله من علو المكانة، ورفعة الشأن الكثير؛ لأنه كرس حياته للدرس والتحصيل، والتزود بالعلم.

كل هذه العوامل ساعدت الرجل على ظهوره كشخصية عبقرية قوية، استطاعت أن توفق بين العلم والعمل، وتكون فكره وثقافته، وهو ما ظهر جليا في مؤلفه.

### ثالثاً - المعطيات الثقافية:

ورث القرن الخامس الهجري جهود أربعة قرون بذلتها الحضارة في الدرس والتحصيل والإنتاج، وتعددت منابع الثقافة بين عربية خالصة، تتمثل في الكتب التي ترجمت عن اليونانية والفارسية والهندية، وثقافة تجمع بينهما في إنتاج هؤلاء الذين جمعوا بين الثقافتين. كما ورث المذاهب الدينية والعقيدة، من أهل سنة يختلفون القرآن الكريم والسنة النبوية إماماً لهم، ومعتزلة يحكمون العقل في مسائل العقيدة، وأشاعرة يحاولون أن يوفقوا بين السنة والعقل، وروافض. وكثيراً ما كان يحتدم النزاع بين المعتزلين لهذه المذاهب.

وإذا كان ترويض تلك الفترة مصبوهاً بالدماء، إلا أن كثيراً من العلماء رأى أن الحياة الهائلة إنما تكون في ظلال العلم؛ فأخلص لها، وعكف عليها؛ وذلك حفظاً لنا لتاريخ أسماء كثير من العلماء المخلصين في فروع العلم المختلفة في ذلك الوقت<sup>(١٣١)</sup>.

وقد يبدو غريباً أن تزدهر العلوم والآداب في عصر سادته الفن والفلافل، وغلبت عليه أحداث عصفت بالوحدة السياسية، بيد أن الوضعين السياسي والثقافي يختلفان في كثير من الأدبيات، ولا يحدث السجم بينهما، فعلى الرغم مما ساد من فوضى واضطراب سياسي، فإن الأمر كان على العكس تماماً بالنسبة للحياة الحسية، إذ كان من العصور التي ازدهرت فيه العلوم، وانتشرت الثقافة<sup>(١٣٢)</sup>.

وكانت الدولة الزيارية قد شهدت في عهد الأمير شمس المعالي قلوبس بن وشمكير<sup>(١٣٣)</sup> (جد المؤلف) نشاطاً ثقافياً وأدبياً واسعاً، وذلك بفضل تشجيعه للعلماء والشعراء، لذا فقد كان بلاطه يزخر بالكثير منهم، هذا في الوقت الذي كان فيه قلوبس شاعراً ماهراً، وكتابياً بارعاً، له في التراث العربي روايع، ورسائله في البلاغة في مرتبة رسائل العرب.

وعلى الرغم من كونه غير عربي، ولا ينحدر من أرومة عربية، إلا أنه له نظم ونثر بالعربية، ولم يكد ينظم بالفارسية إلا أهبكتا محدودات، فاستحق بذلك أن يعتبر من شعراء العربية وكتابها<sup>(١٣٤)</sup>.

وقد أعجب مؤرخوه بعلمه وخلقه، إذ لم تمنع المعاصرة بينه وبين الثعالي<sup>(١٣٥)</sup>، أن يعترف بشدة إعجابه بقلوبس، والذي كان يحمل إجلالاً عميقاً له، حتى يصفه بأنه كان أئيب الملوك، ومليك الأئماء<sup>(١٣٦)</sup>، ويقول في حقه في بيتيمته: 'أنا أختم هذا الجزء بذكر خاتم الملوك، وغرة الزمان، وينوع العدل والإحسان، ومن جمع الله سبحانه وتعالى إلى عزه بسطة العلم، وإلى فضل الحكمة نفاذ الحكم، فأوصاله لا تترك بالمعبرات ولا تسفل تحت العرف والعادات... وأن لي أن أصل كتابها في أخباره وسيره، وذكر خصائصه، ومآثره التي تفردها عن ملوك عصره...'<sup>(١٣٧)</sup>

وكان الشعراء ينظمون فيه مدائح بالفارسية والعربية، إلا أنه كان يكره منهم أن ينشدوا تلك المدائح في حضرته، ويقول إنه لا يحب سماع الأكتائب، وذلك لعلمه بأنه في حقيقته حتى غير ما يذكرون في مدائحهم، فهو يتحرر من أن يخدع نفسه<sup>(١٣٨)</sup>.

وكانت حاضرة الزيارين مرثد الشعراء الذين تنفقوا عليها من كل فج لبشهدوا منافع لهم، ولبعرضها ما تجود به قرانهم من روائع النظم في قصور الأمرء والكبراء. والذي يدعو للإعجاب، وبين مدى ازدهار العلوم والآداب في ذلك العصر، ما كان بين الأمرء من تنافس في أن يهدي إليهم الكتاب مؤلفاتهم، وحرصهم على أن تصر ندواتهم بالأدباء والفلاسفة. وقد امتاز هذا العصر بتقدير الأمرء لرجال الأدب، والسعي إلى إرضائهم وخطب دهم، فقد كان كل أمير يريد أن يتلوق على أقرانه وخصومه بكثرة من يحوطه من رجال العلم والأدب.

وكان من عادة الشعراء ورجال العلم والأدب في ذلك الزمان أن يتنقلوا بين قصور الأمرء وينظموا القصائد، أو يؤلفوا الكتب، ويهدونها إلى الأمرء والحكام، فنجد المعالي يهدي كتبه إلى الأمير قابوس بن وشمكير في طبرستان مثل : كتاب 'المبهج' ولتمثل والمحاورة'. وكذلك فعل العلامة الكبير 'أبو الريحان البيروني' (١) فقد اتكل إلى قصر شمس المعالي، وهناك أدى إليه كتابه الآثار الباقية عن القرون الخالية.

ويذكر بالقوت (٢) أن شمس المعالي قابوس أراد أن يستخلصه لنفسه، ويرتبطه في داره على أن يكون له الإمرة (أي الولاية) المطاعة في جميع ما يحويه ملكه، فأبى عليه ولم يطاوعه، ويقال إنه بلغ من منزلته عنده أنه أسكنه معه في داره، وأزله معه في قصره (٣). أما الأديب الكبير 'بديع الزمان الهمذاني' (٤)، فقد اتصل بالأمير قابوس أثناء إقامته بخراسان وتبولنت بينهما مراسلات، إذ كان يبعث الزمان أحد المصنفين من فضله. وقد حفظت لنا المصادر جانباً من تلك الرسائل المتبادلة منها ما كتبه بديع الزمان إلى شمس المعالي وقد ورد حضرته: 'لم تزال الآمال تعشني هذا اليوم، ولا مطمح إلا حضرته الرفيعة، وسنته المرمية، وقد سررت بين إثبات لتوابع، وتجنست حول الموارد، وسحت أطراف المراحل، حتى حضرت الحضرة البهية أو كنت، وبلغت الأمنية أو زدت' (٥). والواقع أن قرض الشعر ونظمه أصبح تقليداً متبعاً في ذلك العصر عند حكام ذلك الزمان فمن مشهور ما ينسب إلى قابوس من شعر :

خطرات ذكرك تستثير مودتي      فأحس منها في الفؤاد ديبيا  
لا عضو لي إلا وفيه صباية      فكان أعضائي خلقن قلوبيا

ويذكر صاحب كتاب 'جهاز مقالة' (٦) أن الطبيب الشهير 'ابن سينا' كان يمارس مهنة الطب أثناء وجوده بخرجان على عهد الأمير قابوس بن وشمكير، حتى إن الناس بخرجان كانوا يحضرون إليه للداوى.

وقد استطاع ابن سينا أثناء إقامته هناك أن يشفى أحد أقرب قابوس، فاستدعاه الأخير ناحيته ليحبر له عن إعجابه بمهارته، ثم استبقاه في بلاطه مكرماً، وفي أثناء إقامته بخرجان انتهى ابن سينا من تأليف أجزاء عديدة من كتابه القانون في الطب<sup>(٧)</sup> والواقع أن ابن سينا لم يخدم الأمير قابوس، ولم يره طيلة حياته، بل إن قابوس قد حبس وقتل قبل بلوغ ابن سينا بخرجان، إذ يقول ابن سينا في ترجمته لحياته (تقلاً عن القفاي،

وإبن أبي أصيبعة): " ثم دعت الضرورة إلى الانتقال إلى خراسان، ومنها إلى جرجان، وكان قصده الأمير قابوس، فلما تلقى في أثناء هذا القبض على قابوس وحجسه في بعض القلاع وموته هناك".

وعلى الرغم من أن بعض الأبراء الزياريين كانوا يعتقدون في علة النجوم، إلا أن قابوس بن وشمكير كان لا يقرب المنجمين إليه، وربما كان يطاردهم في بلادهم. وتوجد لقابوس رسالة في بطلان احتكام المنجمين يقول فيها: "أعلم أن أضعف هذه العلوم هو الموسم بأحكام النجوم، إذ هو علم معلول الأصل، مختلف الأقاويل، مدخول الفرع، مزخرف الأباطيل، ولو لم يكن الأصل وأهيا لما سمته الفلاسفة فنكيا... وأما ما يزعمه أهل هذه الدعوى من أن الكواكب هي التي تأتي بالخير والشر لجميع البشر، لاختلاف حركاتها ومسيرها في السماء، فباطل، لأن سبب وصول الخير والشر إلى الناس ظاهر، وذلك أنا نرى الإساءة والإحسان من فعل الإنسان"<sup>(٤٠)</sup>.

وبرغم من أن قابوس بن وشمكير كان أمياً وشاعراً، ولا يعتقد في علم النجوم، إلا أنه تبع في علم الفلك وعموم الأثقال، حتى يقال إنه كتب في الأسطرلاب كتاباً، أعجب به صاحب بن عباد، وأطراها أبو إسحاق الصابئي<sup>(٤١)</sup>.

## رابعاً - المعطيات الاجتماعية:

لاشك أن الحياة الاجتماعية مرتبطة إلى حد كبير بالحالتين السياسية والعلمية، بل إن الحياة الاجتماعية كالمرآة لتعكس عليها دائماً آداب العصور، وتتفاعل معه، فيظهر لنا نتاج مترف أو خليع أو فقور أو لفق، كل ذلك نتيجة للحياة التي يحيهاها الشعب، والإحساسات التي تحسها الأمة.

والمعروف أن القرن الرابع الهجري هو القرن الذي قسمت فيه الدولة الإسلامية - كما ذكرنا - إلى دويلات شبه مستقلة لكل منها أميرها ووزرائها<sup>(٤٢)</sup> وكان أغلب الأبراء من غير العرب، فكانت لهم مجالس ذات التقاليد الخاصة المترفة<sup>(٤٣)</sup>. حتى إن الخلفاء أنفسهم في بغداد قد أخذوا كانوا من الترف والتعجب لم يعهدوا المسلمون من قبل<sup>(٤٤)</sup>.

وقد ارتقى الزياريون السلطة جنوداً هدفهم الإثراء، لذا كان الدور الذي لعبه فادتهم في التاريخ الإسلامي عسكرياً إلى حد ما، لاسيما بعد أن اعتدوا على بني جلدتهم من الديلم، واستندوا بعض الشيء على جماعات من الأتراك المرتزقة الذين كان استخدامهم سابقاً آنذاك. ويبدو أن الحياة في بلاد الديلم كانت بدائية وصعبة، إذ كانت ملائمتهم فقيرة ومرقعة، ويمثل هذه الفرص المحدودة، لم يكن هناك ما يثير العجب في أن تكون الحرب ديدناً لهم<sup>(٤٥)</sup>.

وشكل "الديلمية" و "الجيلايون" الخلفية القومية للدولة الزيارية، وقد أشادت المصادر العربية والفارسية في أكثر من مناسبة بقدرة الجندي الديلمي العالية على تحمل الصعاب، كما توهمت بشجاعته وقدرته على المقاومة، بالمقارنة مع الجنود الأتراك، حتى إن أبا الفضل بن العميد<sup>(٤٦)</sup> شهد لهم بالصبر على الجوع، وقبولهم بالقليل من الطعام في حال قلته<sup>(٤٧)</sup>.

ولقد كان لاعتناق الديلم الإسلام تأثير فاعل في إطلاق قوتهم، وتحريرها خارج منطقة الديلم. ولأنك أن الاختلاف عناصر المجتمع الزبيري وتباين أصوله، ونحول كثير منهم في الإسلام، أدى إلى نمو الحضارة نموا يتطلب داربة واسعة بكثير من شؤون الحياة، من فندسة وطب وفلك ونظم حكم وسياسة، ولغة وأدب، الأمر الذي انعكس بالإيجاب على الدولة الزبيرية التي انتشرت فيها ثقافات مختلفة لأمم مختلفة<sup>(٤٨)</sup>.

ولكن هذه الثقافات جميعا أخذت تتلقى رويدا رويدا وتمتزج بالثقافة العربية التي صبغت بالصبغة الإسلامية، وهي ما تعرف بالثقافة الإسلامية.

هذا هو العصر الذي نشأ فيه الأمير 'عنصر المعلى' فلم يكن غريبا أن يبرز اسمه، ويتفوق على أقرانه، فلا يستغرب نبوغه في عصره، ولا في بيئته، بل الغريب أن يكون العصر والوطن والبيت على هذه الحالة، ثم لا يظهر فيه هذا النابغ والفيلسوف.

#### التعريف بالمؤلف:

لم يرد في المصادر القديمة التي وصلت إلينا حتى اليوم ذكر بالتفصيل عن حياة الأمير 'عنصر المعلى' بحسب على الكثير من الأسئلة المطروحة أمام دارسيه، والغموض يكتنف الكثير من مراحل حياته، وكل ما لدينا نصوص مبشرة في هذا المصدر أو ذلك، وما هي إلا أسطر قليلة للغاية، لا تعطينا صورة نستطيع أن نستشف منها شيئا واضحا عن حياته الأولى، ومن حسن الحظ أن المؤلف استعرض تلقا من أخباره بين ثلثيا كتابه ومؤلف الكتاب هو الأمير كيكاموس بن اسكندر بن قابوس بن وشمكير بن زيار الخلف به 'عنصر المعلى' الذي ينتمي إلى أسرة عريقة في النسب، فنسبه ينتم إلى سلسلة طويلة من الأجداد كل واحد منهم له مكانته وشأنه، وزعامته المهيبة<sup>(٤٩)</sup>.

ومن خلال النصوص التي وردت إلينا من كتابه؛ نستطيع أن نتلمس بعض الأتساء عن تاريخ حياته تلقى الضوء على بعض مما خلفي علينا عن ميوله واتجاهاته، وتكوينه العلمي، منها ما ورد في مقدمة الكتاب حينما كان يخاطب ابنه كيكاشاه، ويفخر بأجداده الزبيريين الكبار بقوله: 'وقد كان أجدادك دائما ملوك الدنيا، وكان جدك الأعلى الملك شمس المعلى قابوس بن وشمكير حفيد أرغش فرهادان... وكان له ملك كيلان... وجدك أمي كانت بنت الأمير مرزبان بن رستم بن شروين مصنف 'مرزبان نامه' وجدها الثالث عشر قابوس بن قبال كان أبا أنوشيروان عادل. وأمك ابنة الملك الغلزي محمود بن ناصر الدين، وكان جدي حسن فيروزان ملك الديلم، فمن لطفتنا، واعرف قدر أصلك...'<sup>(٥٠)</sup>.

وهو الملك الزبيري السابع الذي حكم في كيلان (جيلان) ما بين عامي (٤١١-٤٦٦م/١٠٤٩-١٠٦٩م) وكان هذا الأمير على صلة كبيرة بالأسرة الغزنوية، حيث تزوج ابنة السلطان محمود الغزنوي. كما توجه إلى الهند في صحبة السلطان مسعود الغزنوي أثناء حملاته لنشر الإسلام هناك، ولذا فقد ذكر المؤلف في كتابه أنه شارك في الجهاد من أجل نشر الإسلام في كل من الهند وجورجيا وأرمينية، ولعل مشاركته في نشر الإسلام في كل من

جورجيا وأرمينية كانت أثناء توليه الحكم في كوهستان، ويعد أن تغلبي عن مصاحبة الغزنويين في الهند، فقد قيل بأنه ظل مقيمًا في الهند، بعد وفاة السلطان مسعود الغزنوي، مدة ثماني سنوات كان خلالها نديمًا للسلطان مودود بن مسعود<sup>(١١)</sup>.

وعلى كل حال فالأخبار المتوافرة لدينا والمتعلقة بحياة المؤلف، وفترة حكمه، ضئيلة للغاية في كتب التاريخ، كما أنه لم يشأ أن يذكر الكثير عن أخباره في كتابه قابوسنامه، بل إن أغلب المؤرخين يعرفونه بأنه مؤلف 'قابوسنامه' أكثر من تعريفهم إياه بأنه كان حاكمًا ومثلكا، ووسط هذا الغموض لم تعرف عنه إلا القليل النادر<sup>(١٢)</sup>.

ويجمع مؤرخوه أنه توفي سنة (٤٦٢هـ/١٠٦٩م) وله من العمر ثلاثة وستون عامًا، وأن ابنه كيلاشاه فارق الدنيا سنة (٤٧١هـ/١٠٧٨م)، ومع ذلك فهذه رواية وردت ضمن فصول كتابه وهو الباب (الرابع والأربعين) تقول 'وبدأت هذا الكتاب سنة خمس وسبعين وأربعمائة' ولكن الحقيقة أن البداية كانت سنة (٤٥٧هـ) وليس (٤٧٥هـ)<sup>(١٣)</sup>.

ويرى البعض<sup>(١٤)</sup> أن التاسع قد أخطأ في نقل العبارة فكتب خمس وسبعين، بدل سبع وخمسين، ويعتدل ذلك بحديثه كثيرا في حياته اليومية ويرجح أيضا أن تأليف الكتاب كان بين سنتي (٤٥٧-٤٦٢هـ) وأنه توفي بعد الفراغ من تأليف كتابه بفترة وجيزة.

وإذا كنا لم نهند إلى السنة التي ولد فيها الأمير 'عنصر المعالي' إذ لم يتحدث مؤرخوه عن سنة وفاته، ولكن ربما كان ميلاده حوالي سنة (٣٩٩هـ/١٠٠٨م) على اعتبار أنه توفي وله من العمر ثلاثة وستون عامًا، وأنه توفي سنة (٤٦٢هـ/١٠٦٩م).

بيد أن هذا شأن المؤرخين مع هؤلاء الرجال لا يهتمون بمولدكم، لأنهم لا يعرفون ما سيكون من أمرهم بين آلاف الملوك، حتى إذا برزوا في ميادين الفكر والفن وذاع صيتهم في الأفاق، ومضوا إلى جوار ربهم عرفوا بحياتهم، وأرخوا سنن وفاتهم، وكذلك كان حالهم مع عنصر المعالي. وعلى كل حال فإن الاهتمام بفكره وأبييائه أكيد وأكبر من تزيخ جسده، حتى إن مؤرخيه ذكروا اسمه مقرونا باسم كتابه، فاشتهر بأنه مؤلف قابوسنامه<sup>(١٥)</sup>.

وهو الكتاب الذي وضعه في أواخر أيامه نابعا من فكره ووجداته ؛ ليكون إماما ومرشدا ومعظما لإنه أصول الحياة وسياسة الملك، ويضع بين يديه لمار تجارب ثلاثة وستين عاما من العلم والتعلم، ومدفه الحقيقي للتأثير على عقليه ابنه كي يقول على أفكاره، ويؤمن بها، ويعمل بمقتضاها.

### ثقافته:

صمت المؤرخين مطبق حول مصادر ثقافة 'عنصر المعالي'، وربما حالت الحياة الرقيقة التي كان يحياها دون التعرض في كتابه لحياته الشخصية، وذلك يدلنا على أن الرجل تثقف ثقافة ذاتية أميبة. وأغلب الظن أن ليس في حياته من غريب يذكر، وأنه طوي أيامه بين الإفادة من العلم وقراءة آثار السابقين من العلماء، وكان حبه للدرس والتحصيل يدفعه دائما إلى الاجتهاد، وتكديب مشقة التحصيل، وتأليف كتابه القيم 'قابوسنامه' البت فيه أنه كان كاتبا مجيدا،

وفيلسوفاً بارعاً. ويبدو أن العلوم التي تلقاها في ريعان حياته ظلت راسخة في ذهنه حتى زمان نضجه، والدليل على ذلك أنه لما بدأ بتأليف كتابه كان قد تجاوز الخمسين من عمره - كما يعترف هو في كتابه - وكان يكتب بلا كتاب يحضره، ولا أصل يرجع إليه، بل كان يستحضر وعن ظهر قلب ما كان قد تلقاه من الثقافة منذ صباه، لاسيما وأن والده كان يجلب إليه المعلمين الذين مهدوا له طريق المعرفة بشتى أنواعها، فضلاً عن تجاربه الشخصية التي أشار إليها في مواطن متعددة من كتابه.

وكان الأمير "عنصر المعالي" مولعاً بتحصيل العلم على اختلاف أنواعه، وكان منهوماً بالمعارف مهما شديداً، ومن حسن الحظ أن مؤلفه حوى الكثير من سماته الشخصية، وذلك من خلال التصالح التي جاءت في كتابه "قابوسنامه"، حيث تعرفنا على بعض تفاصيل حياة المؤلف المعرفية التي لم يرد نكرها في كتب التاريخ، منها بأنه تعلم الفروسية والسباحة والرسم بالقوس في سن مبكرة بأمر من أبيه، حتى إن أباه أحضر له المعلمين لتلك الغرض<sup>(١٧١)</sup>، كما عرفنا أيضاً أنه ذهب لأداء فريضة الحج زمن الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٦هـ/ ١٠٣٠-١٠٧٤م)<sup>(١٧٢)</sup> وهو في سن الخمسين، إذ شكّلت منعطفاً مهماً في حياته، فزرقة الله التوبة، وأعرض عن التهور والشراب، وغلب عليه الزهد والورع<sup>(١٧٣)</sup>.

ولأنه إلى جانب كون "عنصر المعالي" كاتباً ذا أسلوب متميز - كما سنعرف عند الحديث عن كتابه - كان يقرض الشعر كذلك، ولكن قدرته على النظم كانت أقل بكثير من قدرته على الكتابة الشعرية، ولهذا جاء شعره بشكله إذا ما قيس بقصائده لقره<sup>(١٧٤)</sup>.

وهكذا ورث الأمير عنصر المعالي عن أسرته حب العلم والأدب فأكتب على الترس والتحصيل منذ صباه، وأكثم على ذلك إلى آخر أيام حياته، ولما أصبح يدنو أجله جمع ما حصل ووعى من تجاربه في الحياة وأقدمه إلى ابنه وخليفته "كيانشاه" قائلا له: "فأعرف الآن بابي أنني نكثت من كل علم وفن ومهنة عرفتها فصلاً في كل باب، وكل ما كان من عاداتي جعلته جملة في أربعة وأربعين باباً من أجلك، واعلم أن هذه كانت دائماً عاداتي من وقت الشباب إلى زمن الشيخوخة، وقضيت مدة ثلاث وستين سنة من العمر بهذه السيرة وعلى هذه التوتيرة"<sup>(١٧٥)</sup>.

ومنا يتبادر إلى الذهن سؤال، هل كان الأمير "عنصر المعالي" يستحق أن يطلق عليه لفظ عالم، الذي يجمع بين علوم شتى؟. والحق أنه يمكن اعتباره من المفكرين الواعين والمثقفين، أو الفلاسفة الذين يتوخون البحث عن الحقيقة وربطها بالواقع. فالفرق بين علم العالم وعلم العاصي من الناس، كما يقول أحد الباحثين<sup>(١٧٦)</sup>، هو أن العالمة تقتصر على معيئة الأثرياء، ولكن العلماء يحاولون أن يتعرفوا أسباب هذه الأثرياء، وبهذا يمكن اعتباره رجلاً شغوفاً بالمعرفة، لا يجد لها باباً إلا ولجّه.

ولكن إذا أريد بلفظة "العالم" غزارة المادة، وسعة المحصول، فهو دون ريب بعيد عن هذا، ولكن المطلع على أبواب قابوسنامه يدرك صق تفكير صاحبه، وروعة أسلوبه، وتصنّره بين أقرانه، ومدى انعكاس قراءته التاريخية والأدبية على معيئاته الثقافية، يعينه على ذلك



لكاء قوي، وطبع سليم، وليس قويدة تجافت عن ابتذال العامة وإسفافها، فجاء هذا العمل كمرآة صادقة للمجتمع الإسلامي، والحضارة الإسلامية، لاسيما فترة حكم الزياريين.

#### اسم الكتاب والهدف من تأليفه:

وكتاب قابوسنامه يعرف أحيانا باسم كتاب التصيحة، وقد أخذ الاسم الأول من اسم مؤلفه وهو قابوس معرب كيكابوس، أما الاسم الثاني فهو يتفق وطبيعة الكتاب والغرض من تأليفه، وقد وردت العبارة التالية في آخر مقدمة للكتاب: "علم بعد ذلك يا بني أن كتاب التصيحة هذا، وهو هذا للكتاب المبارك، قد وضعته على أربعة وأربعين باباً"<sup>(١٢١)</sup>.

ولهذا يرجح أن يكون الاسم القديم لهذا الكتاب هو "صيححت نامه" (كتاب التصيحة) ولكن هذا الاسم تواري وراء اسم مؤلفه فأصبح يعرف باسم قابوسنامه"<sup>(١٢٢)</sup>.

وقد ألف الأمير عنصر المعالي كتابه هذا ليكون بمثابة إرشاد ونصح لابنه الأمير كيلاشاه، يحثه فيه على التحلي بصفات الأخلاق، وأن يتجهج في حياته نهجا فاضلا، بل ويجعل من نفسه قدوة له، فقد ذكر في المقدمة شكوى الآباء من عدم امتثال الأبناء للنصح، فأراد بهذا للكتاب أن ينصح ابنه متفاداً طريق الرزق والدين والتشويق، حتى يؤثر في نفس ابنه وقبته، لعله يمثل لتصالحه ومع ذلك فالكتاب يخبر بالأخبار المتصلة بالأسرة الزيارية، إذ يعتبر المصدر الوحيد الذي يقدم لنا أسباباً حقيقية عن الظروف التي عايشها ثم قتل جده قابوس بن وشمكير وكيف قتل أيضاً "وشمكير بن زيار" بطريق القضاء والقتل، حينما سقط من على ظهر حصانه، عندما كان يقوم بالصيد<sup>(١٢٣)</sup>.

ومما يعنى من قدر الكتاب، أن جميع ما ورد به كان من واقع تجارب المؤلف وقراءاته وثقافته، وقد عرض علينا المؤلف أفكاره في خلط عجيب من الصنعة والبساطة، والشك والزيادة، والاستغفاف والعفاف، فراه بعالج لموضوعات الأخلاقية دون أن يتعرض لتأنيهاها التروجية، فيكتفي ببيان فائدة الصلاح والصوم حتى يقبل القارئ عليهما لما فيهما من نفع شخصي له. ويقول في كتابه بوجود اتباع أحكام الإسلام، لأنه لا توجد حكومة أقوى من حكومة الإسلام، وفي رأيه أن إزام الأتقياء بتأدية فريضة الحج يعتبر من أفضل الوسائل التي يمكن بواسطتها السياحة والتجوال في أنحاء الأرض، ويختم حديثه عن المسائل الدينية بأن ينصح ابنه بعدم التعمق في بحث الاختلافات المذهبية، لأن كثرة الأسئلة بشأنها، لا تبلغ صاحبها إلا الشك والريبة"<sup>(١٢٤)</sup>. ومن أودع ما كتبه أيضا نصيحته التي نصحنا فيها بأن نقبس حالتنا فيها بحال جارنا الفقير، لا بحال جارنا الغني، لأننا متى فعلنا ذلك شكرنا الله على ما وهبنا إياه من نعمة، ولا نلحد الغنى على غناه وثرانه، فخرج علينا بفكر سداه النصائح، ولحمته دقة الفكر والنظر"<sup>(١٢٥)</sup>.

ولا ندعو الحق إذا قلنا: إن الأمير 'عنصر المعالي'، في كتابه هذا، كأنما فارق طفولته وشبابه، وأصبح يجتجج إلى التفكير والتروي، بعدما أودع فيه صلوقاً من العزوم والمعارف، من

فقه، وأدب، وتاريخ وفلسفة، وطب، وعندسة، بسط فيها أفكاره وتاملاته التي أسرف فيها إسرائفا حتى بلغت أبواب كتابه أربعة وأربعين بابا، مقدما في تلك الكتاب والمؤرخين العظام.

### مضوى الكتاب :

كتاب 'أبوسنامه' هو مزيج من معارف وعلوم مختلفة ؛ فهو كتاب أقرب ما يكون إلى السياسة ونظم الحكم؛ منه إلى علمي التاريخ والاجتماع، كأنه مستودع ضخم من العلوم والمعارف السياسية والحياتية.

وحسبنا دليلا على دقة فكر ونظر الأمير 'عنصر المعالي' أنه كان لها حافلا مجريا حكيمًا، نهج في تربيته ولده نهجا عنيا والعميا، ولم يقلل ما كان جاريا في زمانه من عيوب وتقالص اجتماعية، ولم يسر وراء المثاليات النظرية التي لا تغير في واقع الأمر شيئا، فبصر ابنه بهجائي الخير والشر من حياته، ولم يفرض عليه، فسرا، التزام طريق بعينه، بل كان يعلم أن ابنه مثل أغلب شباب عصره، يحرم حول الملذات والشهوات، فطمه كيف يتجنبها، منكرًا له من وقت لآخر بمضار تلك الأعمال، وأن الخير كل الخير هو في الابتعاد عنها<sup>(١٧)</sup>.

ففي الباب الحادي عشر من كتابه؛ يحذر ابنه من الوقوع في ارتكاب الآثام، ولكنه يخلط وصيته لابنه بملحة لإباعة، فهو يحذره من أن شرب الخمر من الأمور المنهي عنها في الدين الإسلامي، ولكنه يؤكد لابنه أنه لم يستمع لتصحيحه بقوله: "أما حيث الشراب فلا أقول تعاضى لشراب، ولا استطيع أيضا أن أقول لا يشرب، لأن الشبان لا يرجعون عن فعلهم بقول أحد، فقد قيل لي كثيرا، ولم اسمع حتى منعتني رحمة الله التوبة بعد الخمسين"<sup>(١٨)</sup>.

وعلى الجملة يشتمل الكتاب بعد المقدمة على أربعة وأربعين باباً أو فصلاً، كل باب منها في مطلب مستقل، مطالب ترجع في معظمها إلى تيسير دقة الحكم، والحياة الخاصة بالأشراف ومن هم على صلة بهم من أهل العظم والفضل والفضيلة، فهو مزيج من الحكم والمواعظ والأشعار.

ويمكن تقسيم الموضوعات التي تناولها الكتاب إلى ثمانية موضوعات هي:

في الحكم.

في الوعظ والإرشاد.

في العلوم المتصلة بأمم الحياة، والحياة الاجتماعية.

في الأخلاق والتربية.

في طلب العلم وتحصيل الفضل.

في الرياضة كالفروسية.

في الأعمال والحرف، كالتجارة والطرب والفلاحة والصناعة.

في السياسة وإدارة المملكة.

في وسط هذه الأبواب أو الفصول كان الكاتب يورد حكايات بلغ عددها إحدى وخمسين حكاية، ليوضح بها آراءه ونصائحه، وذلك بأسلوب سلس شيق، يدل على تفوق المؤلف في سرد الحكايات والقصص، فهي بلا شك لقاح عقول العلماء ونتاج أفكار الحكماء.

فإذا تحدث المؤلف عن حكاياته ذكر ما ورد من أقوال، وأفعال، وحكم عن الخلفاء والأمراء، والسادة، وأيضاً جملة من حكماء اليونان أمثال: 'فيثاغورث' و'سقراط' و'أفلاطون' و'أبقرط' و'الإسكندر الأكبر'، ومن بينهم جملة من الساسانيين ووزرائهم، أمثال: 'أنوشيروان' و'بزرجمهر' و'شهرتو' بنت بزرجمهر الثالث التي وقعت أسيرة في أيدي العرب، وتزوجت بالحسين؛ وكذلك طائفة من أقوال آل الرسول عليهم السلام، كعلي، والحسن والحسين، وذكر المؤلف من الأمويين 'معاوية'، ومن العباسيين 'هارون الرشيد' و'المامون' و'المتوكل' و'القائم' كما ذكر طائفة من حكام فارس المسميين ووزرائهم، أمثال: 'صرو بن الليث' و'السلطان محمود' و'السلطان مسعود' الغزنويين، و'أبي الفضل قبلعي' و'الصاحب بن عباد' وأبي علي سميجور' و'ظفر بك' السجوقي' و'أنوشكين' و'الحسن بن الفيروزان' القشيري' و'شمس المعالي قابوس' و'شرف المعالي' وغيرهم ممن لا يتلوهن مبلغ هؤلاء في الأهمية ووضوح الشخصية<sup>(٢٨)</sup>.

وبذلك يستطيع القارئ في يسر وسهولة أن يتعرف على هذه الأقوال والأفعال، فضلاً عن التعرف على سير الملوك وآثار السلف ليروض نفسه على الأخذ بما فيها من سنة حسنة، وسيرة قريمة، وأدب كريم، وخلق عظيم، ويصل بها كلامه إذا حاور، وبلاغته إذا كتب. فلكتاب في مجمله مظهر راق لا يمتزج الثقافات المختلفة، لأنها في المشرق الإسلامي، وهو يدل على أن مؤلفه رجل متوقد الذهن، نقيب الفكر، يمثل ثقافة عصره خير تمثيل<sup>(٢٩)</sup>. وتواقع أن لكل حكاية هدفاً تهدف إليه، أو مشكلة تحل في آخرها، والمعالي التي تدور حولها الحكايات هي: 'المروءة' و'الأمانة' و'حب الخير' و'الشجاعة' و'السطارة' و'الجاسوسية' و'الاحتياك' و'العدالة' و'البلاغة' و'التفوق من الجهل' و'إدعاء العلم' وغير ذلك من المعالي الأخلاقية والحتمية الأخرى.

ويعتمد أشخاص الحكايات في حوارهم على الفقه والمنطق والعلوم الدينية والفلسفية، وتجارب الحياة. ويجري المؤلف حواراته وفكره ونظرياته على أسسهم بعبارات في غاية الجمال والبلاغة<sup>(٣٠)</sup>. ويضع 'عناصر المعالي' في كتابه دستوراً في أدب الحديث ينبىء عن شيء غير قليل من الحصافة وسداد الرأي فيقول لأبيه: 'ولا تطعن لسائك على من يستطيع أن يطلق عليك لسانه إذا أراد، ولا تكن أبداً ذاك وجهين، وابتعد عن ذوى الوجهين، وخف من التمام، لأن ما يفتقه في ساعة لا يمكن رتقه في سنة، يقول الحكيم: أحصل بعشر خصال لتنجو من بلايا كثيرة، أولاً: لا تحارب شخصاً أقوى منك، ولو كنت محتشماً وعظيماً، ولا تلج مع من يكون حاد الطبع، ولا تصحب البغلاء، ولا تناظر الجهلاء، ولا تشرب الخمر، ولا تجالس النساء كثيراً، ولا تفسس شرك لأحد حتى لا تذهب بماء كبريتك، وإذا أخذ عليك شخص عيباً، فاجتهد أن تعده عن نفسك، ولا تحمل نفسك على التكلف، ولا تكن كثيراً على أي شخص، ولا تلمه أيضاً، ولا تلتبس

الأخطاء لمن هم دوتك، وأصلح من شأن أباك لأهم ضياك، فإذا صرت ضياك صنع شأنك، وإذا أمرت بشقل، فلا تأمر به شخصين، فقد قيل : لا يقبل القدر بشخصين، كما أن البيت لا يكتب بمسنتين' ثم استشهد ببيت شعر قاله الشاعر 'الفرخي': البيت الذي فيه سيدتان، ترى فيه التراب دائما إلى الركبتين<sup>(١)</sup>.

ويمكن تقسيم حكايات 'قابوسنامه' إلى ثلاثة موضوعات هي :

١- حكايات عن أشخاص مجهولين.

٢- حكايات والعبية عن كيكاس .

٣- حكايات عن أشخاص غير معروفين.

أولا - حكايات عن أشخاص مجهولين وهي :

رئيس بخاري والتدريش في الحج، الرجل وغلان، الرجل الشيخ ، الخياط والجرة، الطراز وعابر السبيل، الشيخ والشاب، التاجر والبيع، صاحب القطيع والراعي، الملك والوزير المعزول، حكايات عن المتصرفين.

ثانيا - حكايات والعبية عن كيكاس وهي :

كيكاس وأبي الأسود، كيكاس ومجاهد العاجب، كيكاس ونعم السباحة، كيكاس وعبادات السلطان مودود ومثوك الثوم.

ثالثا - حكايات عن أشخاص معروفين وهي :

الخليفة لمتوك وغلان للفتح، للأطون والرجل الجاهل، محمد بن زكريا والجنون، خسرو برويز ووزيره بزرجهر، مارون الرشيد والتمير، بزرجهر والسرقة، الصاحب والفقيه الشافعي والشاب العلوي، الخليفة المأمون وتربة أنوشيروان، الصاحب بن عباد وضيغه، ابن مظة ونصر بن منصور التميمي، الخليفة المعتمد والرجل المجرم، التني والعجوز في بيت عائشة، شمس المعالي والغلان الجميل، السلطان مسعود ونوشكين، عمرو بن الليث وأزهر الحنار، شمس المعالي وعبد الله الجمالي، أحمد بن فريغون والراعي، كشتاسف في مدينة السلطانية، شهربانو ابنة ملك العجم، سقراط وتلاميذه، مهذب العيار وقشرة الشمامة، أرملة فخر الدولة والسلطان محمود، ذو القرنين ووصيته، معاوية والرجل المجرم، قاضي القضاة أبي العباس ترويانى والشجرة، فضلون بن مامان ومستشاره، فضلون وأبي البشير الحاجب، القاضي عبد الملك العكبري والمأمون، اصحاب بن عباد والكتيبة، السلطان محمود والخليفة القانر، الأمير أبي علي سميحور وكتابه، ربيع بن المطهر القصري والصاحب إسماعيل بن عباد وفخر الدولة، أبو الفضل البعسي وسهل الخجندی، السلطان طغرل بك والغرابي، السلطان محمود وأبي الفرج البستي، السلطان مسعود والعجوز المظلومة، فخر الدولة وقابوس بن وشمكير، الإسكندر ومقاتلة العدو الغافل، أبو الفضل الهمذاني العيار، الشبلي والصبيان في المسجد.

ولما كان الكتاب يحتوي على شكوى صاحبه من تناقص طاعة الأبناء لأبائهم، وحث ابنه فيه على أن ينهج في حياته نهجا فاضلا، مذكرا إياه بأنه ينتمى إلى أرومة ملكية فاضلة، كان حري بنا أن نستعرض أوراق الكتاب، وما احتوته من فصول (١٢).

ويتلو المقدمة محتويات الكتاب وهي على النحو التالي:

الباب الأول (في معرفة الله تبارك وتعالى).

الباب الثاني (في خلق الأنبياء ورسالتهم).

الباب الثالث (في شكر المنعم).

الباب الرابع (في لزوم الطاعة عن طريق الفكرة).

الباب الخامس (في معرفة حق الوالدين).

الباب السادس (في آداب الجوهر بلزوم الفضل).

الباب السابع (عن الحسن والقبح في الكلام).

الباب الثامن (في تصالح أتوشيروان لابنه).

الباب التاسع (في الشيوخة والشباب).

الباب العاشر (في فائدة الإفلال من الأكل وتنظيم الطعام).

الباب الحادي عشر (في ترتيب الشراب وشرائطه).

الباب الثاني عشر (في الضيافة والامتثال).

الباب الثالث عشر (في أنواع الندوة والشرطج).

الباب الرابع عشر (في إعتيق والحب).

الباب الخامس عشر (في التمتع بالحياة).

الباب السادس عشر (في فائدة الحمام الساخن وآدابه).

الباب السابع عشر (في النوم والاستجمام).

الباب الثامن عشر (في الصيد).

الباب التاسع عشر (في لعبة الكرة والصولجان).

الباب العشرون (في قتال الأعداء).

الباب الحادي والعشرون (في القنى وجمع المال).

الباب الثاني والعشرون (في حفظ الأمانيات والوفاء بالعهود).

الباب الثالث والعشرون (في شراء الرقيق).

الباب الرابع والعشرون (في شراء العقارات والمنزل).

الباب الخامس والعشرون (في شراء الخيول والدواب).

الباب السادس والعشرون (في الزواج وشروطه).

الباب السابع والعشرون (في تربية الأطفال).

الباب الثامن والعشرون (في اختيار الأصحاب).

الباب التاسع والعشرون (في الحذر من العدو).

- الباب الثلاثون (في العلو والعقاب).  
 الباب الحادي والثلاثون (في طلب العلم والفقه).  
 الباب الثاني والثلاثون (في التجارة).  
 الباب الثالث والثلاثون (في علم الطب).  
 الباب الرابع والثلاثون (في علم التجويد والهندسة).  
 الباب الخامس والثلاثون (في فن الشعر).  
 الباب السادس والثلاثون (في فن الغناء والموسيقى).  
 الباب السابع والثلاثون (في خدمة الملوك).  
 الباب الثامن والثلاثون (في منادمة الملوك وأدبها).  
 الباب التاسع والثلاثون (في الكتابة والإشياء وأدب الكتاب).  
 الباب الأربعون (في شرائط الوزارة).  
 الباب الحادي والأربعون (في صفات القائد وواجباته).  
 الباب الثاني والأربعون (في صفات الملك وواجباته).  
 الباب الثالث والأربعون (في الزراعة والقلاحة وأصحاب الحرف).  
 الباب الرابع والأربعون (في المروءة وطريق أهل التصوف وأهل الصنعة) (٤٣).  
 ونظراً لأن كتاب قابوسنامه يضم أربعة وأربعين باباً، وإحدى وخمسين حكاية، فسورة  
 نمادج لهذه الأبواب، ونماذج أخرى للحكايات  
 (الباب التاسع: في تشيخوخة والشباب)

يا بني! مهما كنت شاباً فلتكن لك راحة عقل الشيخ. لا الأول: نخل عن الشباب، ولكن  
 حافظ على شبابه، ولا تكن من الشباب الغامل، فالشباب الحصيف ما أعظمه، فقد قال  
 أرسطاطليمس: الشباب شعبة من الجنون، وكذلك لا تكن من الشباب الجاهل، فالبله لا يتولد من  
 الحصافة وإنما ينشأ البلاء من الجهل، وخذ حذرك من أيام الشباب قدر الطاقة، فإن أصبحت  
 كهلاً، فلن تستطيع التحكم في نفسك، وهكذا قال ذلك الشيخ: كم من السنين تحملت الحسرات  
 والغم، فعندما أصبح شيخاً، فلن تهواني الحسان، وعندما أصبحت الآن كهلاً، فإني الآخر لا  
 أهواهن، وإن أهواهن فلا يبق ذلك، وطالما كنت شاباً فلا تنس الله عز وجل، ولا تأمن بنو  
 الأجل، فالموت لا يفرق بين شاب وكهل، وهكذا قال الصعدي:

بيت

لا يرتبط الموت بالمشيب أو بالشباب

ولا أن يموت الشيخ ويعمر الشباب

الباب الثاني والعشرون: في إيداع الأمانة

إن يودع شخص لديك أمانة، فلا تقبل بأي حال مطلقاً، وإن قبلت فكن حطراً، وذلك لأن  
 قبول الأمانة قبول للبله.... وإن يعطك شخص أمانة، فعليك أن تردّها إليه مرة أخرى، امتثالاً  
 لأمر الله عز وجل في محكم تنزيله (أن تردوا الأمانات إلى أهلها) فطريق الرجولة والأمانة  
 والفتوة هو ألا تقبل أمانة، ولكن إن قبلت فلتحفظها، وتعيدها سالمة إلى صاحبها.

### الباب الخامس والثلاثون: في فن الشعر وشروط الشاعر

إن تكن شاعراً، فاجتهد أن يكون كلامك من السهل الممتنع، وتجنب الكلام الغامض، ولا تقل الشيء الذي تعرفه ولا يعرفه الآخرون، وإنما يحتاج إلى شرح وتوضيح، فالشعر ينشد من أجل الجميع، لا من أجل النفس.

ولا تلتصق بالأوزان والقوافي الجوفاء، ولا تنظم شعراً بلا صنعة وحسن ترتيب، فالشعر المباشر غير مقبول.

فإما أن تكون فيه صنعة وحركة كما يجب، وبه حرارة وخيلان كما يجب، سواء في طريقة النظم أو في تحريك الأحاسيس أو في الصوت حتى يكون مستحسناً من الخلق، وأن تكون تلك الصنعة متعلقة بقوتين الشعر مثل: الجنس والطباق والمتضاد والمشاكل والمتشابه، والمستعار والمكرر، والمرادف والمزدوج، والموازن والمضمون، والمضمر والمسلسل والمسجع والمستوي، والمرشح والموصل، والمقطع والمطلع والمسمط، والمستحيل ذي القافيتين، والرجز والمتقارب والمقنوب. وإن كنت ترغب في الارتفاع بكلامك وتضمن له الغلود، فليكن معظم حديثك مقروناً بالاستعارة، ولتقل الاستعارة المقبولة، ولتستخدم الاستعارة في المديح، وعندما تتلذذ غزلاً أو أغنية فلتكن سهلة لطيفة. وأن تكون قوافيها شائعة معروفة، ولا تضعه الكلمات العربية الباردة والغريبة.

ولتقل بما يتفق وتصحب الأحوال العاطفية والكلام اللطيف، ولتستعمل الأمثال المستحسنة كذلك التي يستحسنها كل من الخاص والعام. ولا تقل شعراً عريضاً ويستجسناً.

### الباب الثاني والأربعون: في صفات الملك والوجهة

ليها الغلام! إن تكن ذات يوم سلطاناً، فتكن زاهداً عفاً، واتبع عيبك ويترك عن حرمان المسلمين. ولتكن طاهر الذليل، لبطارة الذليل من الدين. ولتجعل رأيك في كل أمر خاضعاً لمنطق العقل، وأي عمل تريد إتيانه، فلتستشر فيه أولاً من يصرفك، فرائس الوزراء سلطان صغير، وإن تزوجها للتأخير، فلا تسلك طريق العجلة، وفي أي عمل تريد أن تخوض فيه فلتنتظر أولاً طريق الخروج، ولا تنظر إلى البداية إن كنت لا ترى النهاية، ولتسلك طريق المدارة في كل الأمور، وفي كل أمر لا يتم إلا بالمدارة، لا تمض فيه بقدر المدارة، ولا تستحسن الظلم، ولتنتظر إلى كل الأعمال والأقوال بعين الإنصاف، حتى تستطيع رؤية الحق والباطل في كل الأمور، فإن يعدم السلطان العين الميصرة للإنصاف والتعلل، فإن أمامه طريق الحق والباطل، ولتكن صادقاً فيما تقول دائماً، ولكن تكن قليل الكلام، قليل الضحك، حتى لا يتجرأ عليك الصغار، فقد قيل: أسوأ ما يصيب السلطان تجرؤ الرعية عليه، وعدم الطاعة من العائمية، والعطاء الذي يتصدق به فلا يصل إلى مستحقه!

وفي باب التاسع يتحدث عن الشيوخة والشباب فيقول: يابني كن لفظاً، ولا تغتر بالشباب، وانكر الله عز وجل في الطاعة والمعصية في أي حال تكون، واخش الموت، ولا تجعل كل صحبتك ومعاشرك مع الشبان، وجالس الشيوخ كذلك، واجعل لرفائك ولدماعك خليطاً من الشيوخ والشباب، لأن الشيوخ يعرفون أشياء لا يعرفها الشبان، ومهما كان الشبان يحدون

أنفسهم أعلم الناس فحذار أن تكون على شاكئة مثل هؤلاء الشبان، وقر الشيوخ، ولا تتحدث إليهم جزافاً، وكان دائماً رحيماً بالشيوخ<sup>(١٠١)</sup>.

ثم يعنى 'عصر المعالي' بالحديث عن مراحل العصر، فحث ابنه على اغتنام مرحلة عصره الوسطى، لأن أوائل العصر زمن الطلب، فإذا جاوز السبعين يجعل الغالب عليه نكرا لآخرة والتعبير للرحيل فيقول، 'وما قرأت في الكتاب، أن الرجل حتى الرابعة والثلاثين يزداد كل يوم في القوة والتركيب، وبعد ذلك يبقى هكذا حتى الأربعين لا يزيد ولا ينقص، كالشمس وقد بلغت كبد السماء، تكون بطيئة السير حتى الزوال، ومن الأربعين حتى الخمسين يرى كل عام في نفسه نقصاناً لا يكون قد رآه في السنة الماضية، ومن الخمسين حتى الستين يجد كل شهر في نفسه نقصاناً لا يكون قد وجدته في الشهر الماضي، ومن الستين إلى السبعين يرى كل أسبوع في نفسه نقصاناً لا يكون قد رآه في الأسبوع المنصرم، ومن السبعين إلى الثمانين يرى كل يوم في نفسه نقصاناً لم يكن قد رآه بالأحسن، وإذا جاوز الثمانين يرى في نفسه كل ساعة أما وعاء لا يكون قد رآه في الساعة الأخرى<sup>(١٠٢)</sup>.

#### حكاية عن الشيخوخة:

كان من بين حجاب والذي حاجب يقاتل له: الحاجب الكامل، وكان شيخاً قد تجاوز الثمانين فرأى أن يشتري حصاناً، فأحضر إليه السائل حصاناً مكتزاً وحسن المنظر، وإذا قولم مستقيمة، فرأى الحاجب الحصان وأهجم به، وسأل عن ثمنه، ولكن عندما رأى أمثاله، وجد الحصان ممسأ، فلم يشتريه، واشترى رجل آخر، فقلت له: يا حاجب، هذا الحصان الذي اشتراه فلان، لم لم تشتريه؟ قال: إنه رجل شاب ولا يدري شيئاً عن مناصب الشيخوخة، وهذا الحصان الكبير مجرد منظر، فإن يخدم هو بذلك، فله عذره، أما بالنسبة لي وقد خبرت آفة الشيخوخة وألمها، وأدركت ضعفها وعجزها، فكيف أكون معنوراً حين اشتري حصاناً عجوزاً؟.

#### أهمية فابوسنايه:

هناك حقيقة علمية ثابتة نطلقاً عند دراسة الحياة العلمية في العصر الإسلامي هي: أن علماء ذلك العصر قد أبدعوا في أكثر من مجالات العلوم المختلفة، فترى العالم آنذاك قد تبحر في علوم القرآن والحديث والتفقه والأدب والتاريخ والجغرافيا، بل تعدى ذلك إلى العلوم العقلية.

وهناك ظاهرة ملفتة للنظر في تاريخ الفكر الإسلامي، ولا يحدث أدنى صعوبة لتشكيل عليها، فظفرة فاحصة في كتب التراجم والسير والطبقات وكتب الفهارس التي اهتمت بإحصاء المصادر العربية ومؤلفيها، تجد العشرات من المؤلفين المسلمين الذين كتبوا في أكثر من فن، إلا أن الشهرة التي حصل عليها هذا العالم، أو ذلك قد لا تتعدى بضعة جوانب، بينما طويت أو نسيت الجوانب الأخرى بين ثلثايا الكتب، وأصبحت في حكم المجهولة.



ويبدو أن التجارب عمت كيكايوس\* أن نوال المعالي منوط بسهر الليالي، فنشأ جامعاً لرفه الرخاء الذي نشأ فيه، وخشونه الحروب التي تقلبت عليه مدة أبيه، وأكسبته تصاريف السياسة، وكانت للظروف القاسية، التي عاها في حياته السياسية، أثر بالغ في طبع مواهبه الأبية بذلك لطابع الفلسفي الذي غلب على نثره<sup>(١٠١)</sup>.

### وتبدو أهمية كتاب قابوسنامه في نقاط عدة أهمها:

صدق الكاتب فيما يكتب، فلم يكن يقدمه لملك أو أمير حتى يتملقه، أو يكتب غير ما يقصد، بل كان الكاتب ملكاً مهيباً، لذا يعد كتابه خالياً من التملق والرياء والتفاني. وكان أباً يكتب لابنه، فكان صادق الأحاسيس عندما يوجه النصيح والإرشاد لابنه ولذلة كيدته، كما كان صاحب تجربة واسعة وعلم وفير، مكنه كل ذلك من أن يحسن العرض والنصح، ويقدم الكثير من المعلومات والنصائح، مع إسناد بعض الحكم إلى قائلها، سواء من الفرس، أو العرب، أو اليونان.

كان المؤلف شاعراً إلى جانب كونه كاتباً، لذا أورد كثيراً من أبيات الشعر في ثنايا النثر وهو يعد من أوائل الكتاب التي لهدت هذا الأسلوب في التأليف، وتبعه في ذلك سعدي في 'الكنستان'، وقد كانت بعض الأشعار من تأليف الكاتب نفسه وبعضها من نظم غيره، ولكن من الملاحظ أن عصر السعدي قديماً كان يصرح أحياناً باسم الشاعر، وأحياناً يورد البيت دون ذكر صاحبه، كما أن الحق يوجب القول بأن أسلوبه القوي يفرق أسلوبه الشعري، وعلى هذا فإن الدارمين يعتبرون شعره وكما إذا ما قيس بقصاحة أسلوبه النثري وسلامته.

أورد المؤلف كثيراً من الأمثال والحكم التي كانت شائعة الاستعمال في عصره، أو التي اطلع عليها المؤلف في قراءاته، فألبتها في مواضعها من الكتاب، لتكون عوناً له على هداية ابنه، وحمله على تقبل النصيح والموعظة، ومن هذه الأمثال والحكم نسوق ما يلي:

كل طائر يطير مع شاكله

المرء في داره كالمك في مملكته

عصفور في اليد خير من طاووس مرتقب

من أتعس الأمور أن يحتاج الرقيب إلى من يرأفه

إذا أردت أن تدخل مكاناً، فانظر أولاً كيف تخرج منه.

مهما بلغ الأمر، فإن يؤمن الغط على الشمع 'الدخن'

الحيوان المجرب خير من الإنسان عديم التجربة.

ضاع الحمار وسرق الرسن.

أن تحظى بالقليل نقداً، خير من تواعد بالكثير أجلاً.

ليس في مقدر من نام في القبر أن ينام في الدار.

### منهج عنصر المعالي في كتابه:

يعد كتاب 'قابوسنامه' من الناحية التاريخية لبنا مليئا بالخبرة العملية الواعية، وهو أيضا من الكتب المهمة، في النثر الفارسي، التي أطلعتنا على الكثير من مظاهر تمدن والتحضّر والأوضاع الاجتماعية في عصره، بل ويمكن اعتباره خير مصدر للتعرف على الكثير من مظاهر الحضارة الإسلامية، قبل الغزو الصليبي للعالم الإسلامي.

ويعتبر نثر قابوسنامه من أفضل نماذج النثر في اللغة الفارسية، وأسلوبه يشتم بالإيجاز في اللفظ مع الإنباع في المعنى، وخلوه من المترادفات اللفظية، كما أن الألفاظ العربية المستعملة فيه جاءت عفواً ودون قصد، إذ لم يستعمل إلا ما كان سائداً في زمانه من ألفاظ كانت في متناول فهم الجميع، فالكتاب للتصريح والإرشاد، وعلى هذا يجب أن يكون واضحاً قريباً للمتل، حتى لا يضيع فكر القارئ في معرفة المصنات والصور البلاغية، ثم ينسى النصيحة وهي لب الكتاب وهدفه الأول، وليس معنى هذا أي ضغط أو وزن في الأسلوب، بل إنه أسلوب قوي سلس، يدخل في باب السهل الممتنع من الأساليب.<sup>(١٠٠)</sup>

ويرى البعض أن الأمير 'عنصر المعالي' قد أحيا الطريقة القديمة التي كانت سائدة قبل الإسلام، وهي تكليف كتب النصيحة للملوك والسلاطين والأمراء، وقد تبعه في ذلك عدد من الكتاب الفارسيين<sup>(١٠١)</sup>، إما عن طريق التكليف كتكتاب 'سياسة نامه' لنظام الملك، وتصححة الملوك المنسوب إلى حجة الإسلام أبي حامد الغزالي، أو عن طريق النقل والترجمة والتقديم والتأخير والحذف، من الكتاب العربية أو الفارسية الأخرى مثل 'الخلاص ناصري'<sup>(١٠٢)</sup>.

ونتيجة أيضا لشهرته الواسعة وتميزه في مجال النثر الفارسي، وفي طريقة سرد الحكايات والفصص المشوقة، نقلت عنه كثير من الكتب القديمة، ومنها 'حديقة الحقيقة' لسنان بن جوامع الحكايات' لمحمد عوفي، و'كارستان' للقاضي أحمد غفاري، و'مطلع الأتوار' لخصرو الشهلوي، و'روضة الأتوار' لمحقق سيزوار، وغير ذلك من الكتب التي ألفت بعده<sup>(١٠٣)</sup>. والحقيقة أن قابوسنامه لم يكن أول كتاب في بابيه يتميز بهذا اللون من الكتابة التاريخية، لاسيما في الأدب العربي والفارسي، فقد نحا هذا النحو كثير من المؤلفين الإسلاميين السابقين عليه، والتي اعتمدت إلى حد كبير على الأنبياء الفارسية القديمة، لاسيما الخاصة بالنصائح والرسوم والعادات الفارسية القديمة، أمثال: 'رسالة الصحابة' لابن المقفع<sup>(١٠٤)</sup>، و'عيون الأخبار' لابن قتيبة الديلمي، و'الآثار الباقية' للبيروني، و'ثمار القلوب في المضاف والمنسوب' للعلاني<sup>(١٠٥)</sup> و'القهرست' لابن التميمي، و'تاريخ طبرستان' لابن أسفنديار، وغيرهم كثير<sup>(١٠٦)</sup>.

وقد وصف بعض المستشرقين كتاب قابوسنامه وصفا دقيقا في كلمات موجزة، إذ قال المستشرق الإنجليزي 'إدوارد براون'<sup>(١٠٧)</sup> في حقه: فاز كتاب قابوسنامه بشهرة عريضة وهو بغير شك قمين بها، وأهل لها، لأنه ملئ بالحكمة والبراعة، غني بالحكايات والأمثلة، يضاف إلى هذا أنه كتاب منكمي، كتبه صاحبه بأسلوب صريح لا مواربة فيه، مستندا موضوعاته من تجاربه الكثيرة الناضجة وخبرته الطويلة الكاملة<sup>(١٠٨)</sup>.

ويعتبر كتاب 'قايوسنامه' من أعظم المصادر التي تناولت فكرة التصالح التي لا يستطيع باحث أن يغفلها، فقد نهج فيه نهجاً يدل على ثقته بعقله، وجمع فأوعى، فهو كتاب متنوع المعارف تفيض الفوائد، برز فيه الكم الهائل من المعلومات التي أوردتها، من حيث إحاطته بهذا الكم الكبير من التفاصيل الدقيقة التي يوردها.

والجدير بالملاحظة أن أغلب الحكايات التي ورد ذكرها في قايوسنامه؛ توجد في مجموعات الحكايات الفارسية السابقة عليه، دون أن تنسب إلى شخص بعينه، بينما نجدنا عند عنصر المعالي تنسب إلى أشخاص معروفين<sup>(١٤٦)</sup>، كذلك الحكاية التي جاءت في الباب الحادي والثلاثون، والتي تتعلق بحكمة لقاضي 'أبي العباس الروياتي' (قاضي طبرستان) وكيف استشهد في إحدى قضايا المعروضة عليه بشهادة الشجرة، والتي استدل فيها مهارته الفكرية في الإيقاع بالجانبي، وأن الشجرة التي وقعت عندما الجريمة سوف تأتي إلى مجسسه وتشهد بالحقيقة، الأمر الذي دعى الجاني إلى الاعتراف بالحقيقة<sup>(١٤٧)</sup>، بينما توجد نفس الحكاية مذكورة في باب الحكايات في كتاب 'التحرر الفارسي' دون أن تنسب إلى شخص معين<sup>(١٤٨)</sup>.

ومع ذلك فهناك حكايات نسبتها المؤلف لأحد من الناس، بينما نكرها من قبله منسوبة إلى أناس آخرين، مثال ذلك: الحكاية الشهيرة التي جاءت في قايوسنامه عن التهديد الذي أرسله السلطان 'محمود الغزنوي' إلى الخليفة 'العباسي' 'الذمار بالله'، عندما أراد السلطان أن يصدر إليه الخليفة منشوراً ينتدع إليه 'ما وراء النهر'، ولما امتنع الخليفة عن إجابته، هددته بأنه سوف يأتي على بغداد ويحرقها تحت إقدام الفيلة، فرد عليه الخليفة برسالة صدرها بعد (بسم الله الرحمن الرحيم) بالحروف 'أ. ل. م.' وفي آخر الكتاب (الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه محمد وآله أجمعين). ولم يلهم السلطان في البداية قصده من كتابة هذه الأحرف، حتى استطاع أحد حاشيته وهو 'أبو بكر القهستاني' أن يحل هذا التلغز، وأنه رقى إلى منصب أعلى بفضل مهارته في حل لغز رسالة الخليفة<sup>(١٤٩)</sup>.

بينما نجد أن تلك الحكاية وردت في 'شهنامة' الفردوسي (السابقة على قايوسنامه) ولكن أبطالها أناس آخرون، وخلصتها أن 'الفردوسي' تشاعر المشهور، وصاحب 'شهنامة'، وقعت الجفوة بينه وبين السلطان 'محمود الغزنوي' لعدم تقديره له في إنشاء شهنامته الرائعة، فكتب كتابا يهجو فيه السلطان، وتركه عند أحد أصدقائه، وأوصاه بعدم إذاعته إلا بعد أن يتمكن من الفرار إلى طبرستان والاحتكام بحاكمها<sup>(١٥٠)</sup>.

لما ذاعت تلك الرسالة اللاذعة، وقرأها السلطان محمود، استشاط غيظاً من قائلها، وأرسل إلى أمير طبرستان يطلب إليه تسليم الفردوسي، وهدده بأنه سوزحف عليه بأفياته، ويحرقه بالله وبياره، ويقتل شعبه ورجاله، إذ هو امتنع عن إجابته إلى مطلبه، فلما وصلت الرسالة إلى الأمير، اكتفى بأن يكتب على ظهرها الحروف الثلاثة 'أ. ل. م.' ثم بعث بها ثانية إلى السلطان، فلما لم يفهمها فسرها له أحد وزرائه أنه يقصد من ورائها، أنه سوف يحدث له ما حدث لأبرهة، عندما قصد مكة بأفياته في العام الذي ولد فيه النبي ﷺ، والتي نزلت فيها سورة 'الحيل' والتي جاء في مطلعها هذه الأحرف الثلاثة<sup>(١٥١)</sup>.

وكان مقصد صاحب طبرستان من التلميح بهذه الأحرف واقيا بالفرض حتى إنها أُنثت السلطان محمود، وعاد عن تهديده<sup>(١٠١)</sup>.

ويعلق برون على تلك الراوية بقوله<sup>(١٠٢)</sup> 'ولا شك أن إيداء المهارة في اقتباس الآيات القرآنية، أو التلميح إليها يعتبر من أجمل الصناعات التي يعجب بها المسلمون عامة، والتي تحتل مكانة أثرية في قلوبهم'.

وعلى أي حال تبدو القيمة العظيمة للكتاب، أوضح ما تكون، في اعتماد المصنف على السماع في إبراز بعض الأخبار، والمعارف التي يسوقها توضيحا لأثره، وهي في الغالب مستفادة من تجاربه الشخصية، وبعض حكاياته توجد في مجموعات الحكايات الفارسية، والتي في الغالب ينسبها إلى أشخاص معينين<sup>(١٠٣)</sup>.

وهي القصة التالية، التي يسوقها 'عنصر المعالي' نفسه، ما يدل على ذلك، إذ يقول: سمعت أن الشبلي رحمة الله عليه ذهب ذات يوم إلى مسجد، لكي يصلي ركعتين ويستريح بعض الوقت. وكان بالمسجد تلاميذ يدرسون، ومضافة كان الوقت وقت تناول الأطفال طعامهم. فجلس على مقربة من الشبلي رحمة الله عليه طفلان<sup>(١٠٤)</sup> أحدهما ابن غني والآخر ابن فقير، فوضع كل منهما زنتيه بجواره، فكان في زنبيل تولد للثني خبز وحنو، وفي زنبيل الفقير خبز لفظ، ثم أخذ الولد الثني ياكل الخبز والحلو، وكان الطفل الفقير يطلب منه قطعة من الحلو، فقال الطفل الثني: إن أعطتك قطعة من الحلو، فنتكن ثلثي! فقال: لكن لفلان، لتتبع حتى أعطيك الحلو، فأخذ ذلك المسكين يلوح ليأخذ الكلب، والطفل يعطيه الحلو، وهكذا فعل عدة مرات، والشيوخ الشبلي ينظر إليهما ويكفي، فقال المرثيون: أيها الشيخ ما أصابك حتى تتحبب هكذا؟ قال: انظروا كيف يفعل الطمع وعدم القناعة بالئس. ماذا كان يحدث لو أن ذلك الطفل فتح بخرزه الجاف وحده، ولم يطمع في حلو ذلك الطفل، ولما أحال نفسه كليا بهذه الصورة التي لا تليق<sup>(١٠٥)</sup>!

وأنت يا بني سواء أكلت زهدا أو فاسقا، فلنكن قاتعا غير طامع، حتى تكون أعظم وأظهر من في الدنيا، واعلم يا بني أنني في هذه الأربعة والأربعين بابا في هذا الكتاب، قد حدثك بكل ما أعرفه، وذلك قدر استطاعتي، وفي كل باب جعلت بعض الكلام بمثابة التصح والملاحظة لك<sup>(١٠٦)</sup>.

ورثة ملاحظة مهمة هي أن الأمير 'عنصر المعالي' كتب كتابه قابوسنامه باللغة الفارسية أسوة بما فعله جده لأنه 'مرزيان بن رستم بن شروين' صاحب 'مرزيان نامه'، والكتاب تم ترجمته إلى اللغة العربية<sup>(١٠٧)</sup>.

ولا عجب أن يعرف 'عنصر المعالي' الفارسية، وإنما المستغرب ألا يعرفها، فقد ولد من أبوين فارسين، فأبوه هو 'إسكندر بن قابوس بن وشمكير بن زيار' النيسابي، وأمه هي بنت السلطان محمود بن ناصر الدين 'الغزنوي'، وجده هو 'حسن فيروزان' ملك الديلم<sup>(١٠٨)</sup>.

وكان الفرس - لاسيما الديلم منهم - حريصين على الاحتفاظ بمفرداتهم من لغة، وعادات وتقاليدهم، فلا عجب إذاً أن يكون والده قد لقناه لغتهم الأصلية.

والمواقع أن الأبناء العرب كانوا يعكفون على تعلم الفارسية ويتقنونها، وأوضح مثال على ذلك 'العتابي' الشاعر العباسي المعروف (وهو عربي من تغلب)، وقد سأله رجل: ثم كتبت كتاب العجم ؟ فقال: وهل لمعالي إلا في كتب العجم والبلاغة، اللغة لنا والمعاني لهم<sup>(١٠٠)</sup>.  
وهي الكتاب ظاهرة تستثير الإعجاب، وهي أن صاحبه يعتمد على القصص التمثيلية الذي يستشهد بها في ثنايا كتاباته، فالكتاب يمتاز بالإيمان، لما يورده من طريق الأخبار، وملوح الفعالة، فهو ليس كتاب تاريخ بقدر ما هو كتاب أدب وأخلاق، جمع قسرا عظيما من الأخبار السياسية والأخلاقية.

### الجانب الديني والأخلاقي عند مناصر المعالي:

المطلع على كتاب 'لابوسنامه' يلحظ أن مؤلفه تأثر، إلى حد كبير، بالتعاليم والآداب الإسلامية الأصيلة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاضْلُوا وَتَوْ كَانُوا قُرْبَىٰ وَيَعِدُ اللَّهُ لَهُمْ أَجْرًا كَثِيرًا ۗ وَلَا تَرْجُوا أَنَّكُمْ تَأْتُونَهُمْ سَبْعًا بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۗ وَيَذَرُهُمْ فِي الْفِتْنَةِ وَالْمَنْكَرِ ۗ وَيَهَيِّئْ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ ۗ وَاللَّهُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ عَلِيمٌ ۗ وَمَا يَرَىٰ فِي الْأَحَادِيثِ التَّبَوُّبِ الَّتِي تَحْتَ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ.

وتحظى الثقافة الدينية في تكوين شخصية مناصر المعالي الفخرية، إذ كان حريصاً على أن يزين كلامه بالعديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والأشعار الفارسية والعربية التي تخدم الغرض الذي يكتب من أجله<sup>(١٠١)</sup>. الأمثلة التي يضربها لنا المؤلف عن آداب السلوك تبدو أحياناً لأدعة ماهرة، وفي بعض الأحيان تبدو نابعة من تجاربه الشخصية، فراه يطلب من ابنه أن يتعلم الحكمة حتى من الجهلاء، فإن العلم ضالة المؤمن، من حيث أخذها نفعه، وقد قال ابن عباس (رضي الله عنه) 'خذوا الحكمة ممن سمعتموها منه، فإنه قد يقول الحكمة غير الحكيم، وتكون لزيمة من غير رام'<sup>(١٠٢)</sup>. ولكنه في الوقت نفسه يحذره من الإغراق في التواضع، لأن كثيراً من الرجال قد أخفقوا بسبب ما امتازوا به من أدب جم<sup>(١٠٣)</sup>.

والفارئ يطالع فيه طرفاً من أخيار الرسول ﷺ، وأهل بيته، والخلفاء، وأكابر الفرس وحكامهم ووزرائهم، وعصائهم ورجال بلاطهم، كما يلتقي أيضاً بالكتاب والشعراء والقضاة والفقهاء والزهاد والمتصوفين، وكأنه يعيش وسط هؤلاء جميعاً<sup>(١٠٤)</sup>. ولكن حكاية هدف تسعى إليه، أو بها مشككة تحل في نهايتها، والمعالي التي تدور حولها هذه الحكايات هي المروءة، والأمانة، وحب الخير، والشجاعة، والشظافة، والجانوسية، والاحتياط، والعدالة، والبلاغة، والتفكير من الجهل، وإدعاء العلم، وغير ذلك من المعاني الأخلاقية. ويعتمد أشخاص الحكايات على الفقه والمنطق، والعلوم الدينية والفلسفية، وتجارب الحياة، وكلها أفكار نابعة من فكره ووجدانه، بأسلوب في غاية الروعة والبلاغة<sup>(١٠٥)</sup>.

وعلى الجملة فحكايات 'لابوسنامه' عبارة عن قصص واقعية وتاريخية، وبعضها أخلاقي وأحياناً يعزجها بالمزح، حتى لا يمل القارئ.

ويحرص 'عصر المعالي' على التأكيد لإبته على بيان أن الله تعالى لا يريد الإيمان من عباده إجباراً، وإتماً اختياراً، فإله سبحانه وتعالى يريد أن يعطي عباده فرصة الاجتهاد، وإصلا الفكر فيما يجب عليهم، وما لا يجب من الأضلال، هذه هي إرادة الله، فإله سبحانه وتعالى متفرد بالخلق، ولما كان الأفراد غير مجبرين على الإيمان، إذ لو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، إلا أنهم ارتضوا الإيمان، فلقد أن يعطوا بأحكام المشرع. ويقول عصر المعالي<sup>(١١٧)</sup> في الباب الأول وضوانه (في معرفة الله تبارك وتعالى) أعلم يا بني أنك في معرفة الله الخالق عاجز، إذ ليس للمعرفة إليه سبيل، وكل ما عداه صار معروفاً، وإنما تكون عارفاً له عندما تكون غير معروف، ومثال المعرفة كالمكتوش، والعرف كالتفاني، لما لم يكن في المكتوش قبول للتفني، لا يستطيع نقاش أن يتفني عليه. ألا ترى أن الشمع لما كان أكثر قبولاً للتفني من الحجر، تعمل منه الأختام ولا تعمل من الحجر؛ فطبعه يكون في كل معرفة قبول لتعرفان، والخلق غير قابل للمعرفة، فتأمل في نفسك ولا تتأمل في الخلق.

أما حديث تناول الشراب فينصح بهم تعاطي الشبذ، فيقول: فلا أقول تعاطي الشراب، ولا أستطيع أيضاً أن أقول لا تشرب؛ لأن الشباب لا يرجعون عن فعلهم بقول أحد، فقد قيل لي كثيراً وثم اسمع، حتى منحتني رحمة الله التوبة بعد المشيبي، فإذا لم تشرب يكون لك ربح الدارين، وتقال رضا الله تعالى، وتتجر من مائة الفلق، ومجانسة غير العقلاء، وفعل المحال<sup>(١١٨)</sup>.

ويرسم 'عصر المعالي' لإبته قواعد السلوك والمعاملة، وذلك في الباب الثاني والعشرين وهو بعنوان: (في إيداع الأمانة) فيقول: إذا استودعتك شخص أمانة فلا تقبلها، وإذا قبلتها فأحفظها، لأن قبول الأمانة التلباء، إذ إن عاقبة ذلك لا تخرج عن ثلاثة أشياء، إما أن ترد إليه الأمانة، كما أمر الله عز وجل في محكم تنزيله أن تزدوا الأمانات إلى أهلها فإن طريق المروءة والإنسانية والشهامة هي أن لا تقبل الأمانة، وإذا قبلتها تحافظ عليها وتعيدها إلى صاحبها سالم<sup>(١١٩)</sup>.

ومؤلف الكتاب ينصح إبته بكيفية التعامل مع الآخرين، لاسيما عند التحدث ومخالطة الناس، فإن الحديث ومخالطة الناس أمران يحتاجان إلى قدرة بارعة، فقد يحسن المرء الكلام في موضع قد يحسن فيه السموت، وقد يما قلوا 'حنف المرء في منطقه'، وهو يبين لنا ذلك وهو ينصح إبته في باب (طلب العلم) فيقول: إذا كنت عالم فتوى فكن دينا وكثير الدرس والحفظ، ومتعبدا وصائما، ولا تتجاوز عن ذلك، وكن ورعا طاهر الثوب، حاضر الجواب، نكت في أية مسألة، ولا تعمل بغير قول الثقات، ولا تعتمد على خبر الأحاد، ولا تتعصب كثيرا، ولا تتكلم عن تعصب، وإذا نظرت فانظر إلى الخصم، فإذا كانت لك قوته وعرفت أنك ترجحه في الكلام، فتدخل في المسائل، وإلا فتوقف عن الكلام، وإذا كانت المناظرة فقهية فقدم الآية على الخبر، والخبر على القياس، وتكلم بالممكنات، وقل الكلام مرعبا، ولا نقله أيترا، وكذلك لا تتكلم طويلا بغير جدوى<sup>(١٢٠)</sup>.

أما الأئمة التي يضرها المؤلف عن آداب المجتمع، فهو يقرر أنه من الواجب على المضيف ألا يكثر الاعتذار لضيفه عن كثافة ضيافته، لأن هذا يشعر الضيف بالمرح وضيق الصدر، كما يجب على المضيف ألا يؤنب خدمه على ما يبدو منهم من تقصير في حضور ضيوفه. فإذا انتهى من ذلك أوصى ابنه ألا يلعب "الترد" أو "الشطرنج" بالنداهم والفتشير، وأن يتجنب القسم وحلف الإيمان، ويحذر من إعارة النقود لأحد من أصدقائه، ما لم يكن وثقا منه، لأنه يمكن أن يحترها هبة، إذا لم يستطع ردها، طمعا في صديقه<sup>(١١١)</sup>.

ويلاحظ أيضا أن روح التصوف ظاهرة في كتابه، فنراه مثلا لا يترك مناسبة تمر دون أن يورد كثيرا من كلام الزهد والورع عند نصيحته لابنه، حتى إنه أفرد له بابا مستفيضا مليئا بحكايات أهل التصوف في كتابه، وذلك في الباب الرابع والأربعين وهو بعنوان: (في المروءة وطريق أهل التصوف وأهل الصنعة) إذ يقول: "اعلم يا بني أن من صفات الناس ثلاثة أشياء، لا تجد أحدا قط يقول إن هذه الأشياء الثلاثة ليست في... وأول هذه الأشياء الثلاثة العقل، وثانيهما الصدق، وثالثهما المروءة، ولا يوجد جسد ليست فيه هذه الصفات الثلاثة... وحقيقة التصوف بلجماع كل المشايخ، ثلاثة أشياء: التجريد، والتسليم، والتصدق... فاسع يا بني واجتهد حتى ترقى بقدر ما في وسعك واستطاعتك...".

ثم يستعرض حكاية مفادها أن صوفيين، ذات مرة، كانا يسيران معا، وكان أحدهما معهما ومع الآخر خمسة دناتير، فكان الصوفى ينشئ جسورا غير خائف، وحيثما وصل كان يستشر الأمن، كما كان يستسلم للنوم في أي مكان من الخوف، ولكنه مضطر لمصاحبه، إلى أن جاء وقت ووصلا إلى حافة بئر، وكان المكان مهيبا، وعرض بفرق عدة طرق، فلكل الصوفى المعدم طعامه وتام هائلنا، أما صاحب الخمسة دناتير فلم يستطع النوم، وأخذ يقول: ماذا أفعل! معي خمسة دناتير ذهبية وهذا المكان جد مخيف، لقد استسلمت أنت للنوم، أما أنا فقد جفاني النوم، أي أنني لا أستطيع النوم، كما لا أستطيع المضي! فلكل الصوفى المعدم: أعطني الدناتير الخمسة، فأعطاه إياها، فألقاها في قاع البئر، وقال: لقد تحررت، فتم مطمئنا واجلس وامض، فالمدعم قوي صد في المعارك<sup>(١١٢)</sup>.

وبعد، فقد أسفر البحث عن النتائج التالية:

١- كان ظهور الزياريين، في منطقة المشرق الإسلامي، هو الخطوة الأولى في سبيل استرجاع التراث القومي لتلابت الفارسية بصورة سافرة وعلمية، بل وحقة من حلقات التطوع الفارسي لاستعادة مجددهم القديم - والتي عرفت عند المؤرخين المسلمين بالشعبوية - بعد أن ظلت تلك الأماني حبيسة الصدور، فلما سحبت لدعتها الفرصة تفجرت وأعلنت عن نفسها وقد ظهر هذا جليا فيما دعا إليه "مرداويج بن زيار" من استعادة الأمجاد الفارسية البائدة، ومحاولا إزالة دولة العرب، وإقامة دولة الفرس.

٢- على الرغم من أن الدولة الزيارية دولة فارسية ديلمية؛ إلا أن الثقافة العربية ازدهرت فيها زدهارا وسعا، برغم أن السلطات العليا كانت في أيدي عناصر من أصول غير عربية.

٣- مؤلف الكتاب شخصية لها قيمتها السياسية، فقد كان أميراً من أمراء الأسرة الزيارية ولذلك فإن الآراء التي قدمها في كتابه آراء مستمدة من واقع عمله وتجاربه، ولم تكن مجرد آراء نظرية غير قابلة للتطبيق أو التجريب، بعكس ما كتبه غيره من المؤلفين الذين لم تتح لهم فرصة للعمل السياسي، كما ينسبنا الذي ألف رسالة في السياسة، أو الغزالي في كتابه نصيحة الملوك... وغيرها.

٤- لم يكن الأمير 'عصر المعالي' أول من نحا هذا النحو من التأليف، بل كان مقلداً إلى حد كبير لكتب الحكم، والنصائح الفارسية القديمة، والتي كان يتداولها العلماء، ويتأدب بها الناس.

٥- يتميز أسلوب 'قابوسنامه' بأنه سلس واضح بعيد عن الغموض، كما جاء خالياً من المصنعات البلاغية، وهو أسلوب أجمع الكل على فصاحته وجزالتها.

٦- يتجلى في كتاب 'قابوسنامه' أثر الثقافة الأدبية في تكوين شخصية 'عصر المعالي' الفكرية، إذ كان حريصاً على أن يزين كلامه بالعديد من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، والأشعار الفارسية والعربية التي تقدم الغرض الذي يكتب من أجله.

٧- ورد في 'قابوسنامه' بعض القصص، ولكنها اتسمت بالصرامة وتعد مرحلة من مراحل الانتقال من الحكاية، أو ما أطلق عليه فيما بعد اسم المغامات بعد ذلك.

٨- الكتاب يمتاز بالإيجاز، لما يورده من طريف الأخبار، ومبجج الفكاكة، وعلى الرغم من كونه كتاباً ليس تاريخياً إلا أنه جمع قسراً عظيماً من الأخبار السياسية والأخلاقية الحري بنا العمل بها.

٩- يعد كتاب 'قابوسنامه' ثباتاً مثيلاً بالخبرة الصافية الواضحة، فهو من الكتب المهمة في النثر الفارسي التي أضلعتنا على الكثير من مظاهر تمدن والتحضر والأوضاع الاجتماعية في عصره، بل ويمكن اعتباره خير مصدر للتعرف على الكثير من مظاهر الحضارة الإسلامية في القرن الخامس الهجري (١١م).

١٠- أورد 'عصر المعالي' كثيراً من الأمثال والحكم التي كانت شائعة الاستعمال في عصره، أو التي اطلع عليها في قراءاته، فغالبها في مواضيعها من الكتاب، لتكون عوناً له على مداية آيته، وحمله على تكليل النصح والموعظة.

ولعل أحسن ما يسترني ويشرح صدري أن أجد صدقاً طيباً لهذا العمل، وأن يكون حظ عليّ القبول والرضا الوفير لدى الجميع، والله ولي التوفيق.



## قائمة المصادر والمراجع

### أولاً - المصادر :

- \* ابن الأثير: عنى بن أبي الكرم (ت - ٦٣٠هـ).
- ١- الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية ط٤، بيروت، ١٩٨٨م.
- ٢- اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر بيروت، ١٩٨٠م.
- \* ابن اسفنديار: بهاء الدين محمد بن حسين بن اسفنديار (ت - ٧٥٠هـ)
- ٣- تاريخ طبرستان، ترجمة: أحمد محمد نادي، طبع المجلس الأعلى للثقافة، ط١، القاهرة ٢٠٠٢م.
- \* البيهقي: أبو الفضل محمد بن حسين (ت - ٤٧٠هـ)
- ٤ - تاريخ البيهقي، ترجمه إلى العربية د/ يحيى الخشاب، وصانق نشأت، مكتبة الأجلو المصرية القاهرة ١٩٥٦م.
- \* التعاليق: أبو منصور بن عبد الملك بن محمد التيسابوري (٤٢٩هـ).
- ٥ - تيمية الدرر في محاسن أهل العصر، تحقيق د. مفيد محمد قسيحة، دار الكتب العلمية ط١ بيروت ١٩٨٣.
- \* ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي (ت - ٥٩٧هـ)
- ٦- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دائرة المعارف العثمانية، ط١ حيدر آباد ١٣٥٩هـ.
- \* ابن خلدون شاه: محمد بن خاليد بن شاه بن محمود (ت - ٩٠٣هـ).
- ٧- روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، ترجمة د. أحمد عبد القادر الشاذلي، الدار المصرية للكتاب ط١ القاهرة، ١٩٨٨م.
- \* ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت - ٨٠٨هـ).
- ٨- العبر وديوان المبدأ والخير، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٠م.
- \* ابن خلكان: أبو العلاء شمس الدين أحمد بن محمد (ت - ٦٨١هـ).
- ٩- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.
- \* ابن الساعي: عني بن أنجب (ت - ٦٧٤هـ)
- ١٠ - تاريخ الخلفاء العباسيين، مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٩٣م.
- \* السمعاني: أبو سعد بن محمد بن منصور (ت - ٥٦٢هـ).
- ١١- الأنساب، وضع حوالتيه: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط١ بيروت ١٩٨٨م.
- \* السوسطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت - ٩١١هـ)
- ١٢- تاريخ الخلفاء تحقيق محمد يحيى الدين عبد الحميد، المكتبة المصرية بيروت ١٩٦٤م.

- \* ابن العربي: غريغوريوس أبو الفرج بن هارون (ت ٩٨٥هـ).
- ١٣ - تاريخ مختصر الدول، دار الأفاق العربية ط١، القاهرة، ٢٠٠١م.
- \* العروضي السمرقندي: التتائي العروضي السمرقندي (٥٥٠هـ)
- ١٤ - جهاز مقالة، ترجمة: عبد الوهاب عزام، ويحيى الخشاب، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ط١، القاهرة ١٩٤٩م.
- \* عنصر المعالي كيكايوس: اسكندر بن قابوس بن وشمكير بن زيار (٤٦٢هـ)
- ١٥ - كتاب النصيحة المعروف باسم (قابوسنامه)، ترجمة، د/ محمد صادق نشأت، د/ أمين عبد المجيد بدوي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط١ القاهرة ١٩٥٨م.
- \* ابن اللقبه الهمداني (من علماء القرن الثالث الهجري) أبو بكر أحمد بن محمد
- ١٦ - مختصر كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي ط١، بيروت، ١٩٨٨م.
- \* الغزويني: زكريا بن محمد بن محمود (ت - ٦٨١هـ).
- ١٧ - آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٤م.
- \* الفيرواني: أبو إسحاق إبراهيم بن علي (٤٥٣هـ).
- ١٨ - زهر الآداب وشجر الأكياف، تحقيق: محمد هاني الدين عبد الحميد، بيروت ١٩٧٢م.
- \* ابن كثير: عماد الدين أبو القاسم إسماعيل بن عمر (ت - ٧٧٧هـ).
- ١٩ - البداية والنهاية في التاريخ، دار الفكر العربي، ط١، القاهرة، ١٩٣٢م.
- \* المسعودي: علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت - ٣٤٦هـ).
- ٢٠ - مروج الذهب ومعادن الجوهر، شرح وتقديم د/ مفيد محمد قمبحة، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٨٥م. <http://Archivebeta.Sakhril.com>
- \* ابن مسكويه: أحمد بن محمد بن يعقوب (ت - ٤٢١هـ).
- ٢١ - تجارب الأمم، تحقيق: سيد كسروي، دار الكتب العلمية ط١، بيروت، ٢٠٠٣.
- \* المقدسي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت - ٣٨٧هـ).
- ٢٢ - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٧م.
- \* الترشظني: أبو بكر محمد بن جعفر الترشظني (٣٤٨هـ) - .
- ٢٣ - تاريخ بخاري : ترجمة : د/ أمين عبد الحميد بدوي ونصر الله مبشر الطرازي
- \* ياقوت الحموي: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت - ٦٢٦هـ).
- ٢٤ - معجم الأقباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأئيب، دار الكتب العلمية، ط١ بيروت، ١٩٩١م.
- ٢٥ - معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.
- \* اليزيدي: عبد الرحمن بن علي (من علماء القرن الخامس الهجري)
- ٢٦ - كمال البلاغة ( وهو رسائل شمس المعالي قابوس بن وشمكير ) المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٤١هـ -

## ثانياً - المراجع:

- \* إبراهيم سلمان الكوي (دكتور)  
١- البوهيون والحلافة العباسية، دار العروبة للنشر والتوزيع ط٤، بيروت، ١٩٨٢م.
- \* أحمد أمين  
٢- ضحى الإسلام (نشأة العلوم في العصر الأول) طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٨م.
- \* أحمد المعيد سليمان (دكتور)  
٣- تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، دار المعارف القاهرة ١٩٦٩م.
- \* إدوارد براون (مستشرق)  
٤- تاريخ الأدب في إيران، ترجمة: أمين الشوربى، طبع المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٥م.
- \* يدع محمد جعنة (دكتور)  
٥- من روائع الأدب الفارسي، دار النهضة العربية، ط٢ القاهرة ١٩٨٣م.
- \* حسن إبراهيم حسن (دكتور)  
٦- تاريخ الإسلام السياسي، دار الجول، ط٨، بيروت ١٩٩٦م.
- \* حسن أحمد محمود، وأحمد إبراهيم الطريف (دكتور)  
٧- العالم الإسلامي في العصور العباسية، دار الفكر العربي، ط٣، القاهرة ١٩٧٧م.
- \* حسن منعمنة (دكتور) <http://Archivebeta.Sakhril.com>  
٨- تاريخ الدولة البويهية، دار الجامعية، بيروت ١٩٨٧م.
- \* رضا زاهد شفق (دكتور)  
٩- تاريخ الأدب الفارسي، ترجمة محمد موسى شنداري، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٤٧م.
- \* شوقي ضيف (دكتور)  
١٠- تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات الجزيرة العربية، العراق، إيران)، دار المعارف ط٢، القاهرة، ١٩٨٣م.
- \* عباس العقاد -  
١١- تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة لظاهرة حتى نهاية الدولة الفاجوية، ترجمة د / محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة، القاهرة ١٩٨٩ م
- \* عبد الحميد سند الحنوي (دكتور)  
١٢- ابن قتيبة (العالم لتلك الأديب) سلسلة أعلام العرب العدد (٢٢) المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٣م.
- \* مصطفى الشكعة (دكتور)



## الهوامش

- (١) في العصر العباسي الأول نشأت الدولة الطاهرية التي أسسها طاهر بن الحسين في خراسان والتي استمرت من (٢٠٥-٢٥٩هـ / ٨٢٠-٢٧٢م) وقس العصر العباسي الثاني استتاع الفرس تكوين دويلات مستقلة لهم عن الخلافة العباسية حينما شعروا بضعف خلفائها، وهذه الدويلات هي: الدولة الصفارية التي أسسها يعقوب بن الليث الصفار، واستمرت من (٢٥٤-٢٩٦هـ / ٨٦٨-٩٠٨م) والدولة السامانية ومؤسسها نصر بن أحمد الساماني في ما وراء النهر وقد استمرت من سنة (٢٦١-٢٨٩هـ / ٨٧٤-٩١٨م) والدولة السلاجية وقد أسسها أبو الساج في قزوين واستمرت من (٢٦٦-٣١٨هـ / ٨٧٩-٩٣٠م) وكان ظهور هذه الدويلات تعبيراً حقيقياً عن القومية الفارسية التي بدأت تطفو على السطح منذ أواخر العصر العباسي الأول. محمد محمد عبد القادر الخطيب: دراسات تحثية في تاريخ الدويلات الإسلامية ج ١ ص ٢٣٩-٣٤٠، مطبعة الجبلاوي ط١، القاهرة ١٩٨٥م.
- (٢) طبرستان: بلاد جبئية تتنازل بالحصانة والمنعة على ما هو مشهور من أمراء، وهي بلاد معروفة والمعجم بأولوق تمارقاران وهي بين الري وقبرس وبحر الخزر. القزويني: آثار اليك وأخبار العباد ص ٤٧٣، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٤.
- (٣) هو الحسن بن علي بن الحسن بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ولد بالمدينة سنة (٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م) من جارية خراسانية. كان بئقيه الزيدية وأهل الدين بـ الإمام التاصر الكبير، وقد على طبرستان في عهد الداعي الكبير "الحسن بن زيد" والذي سعى إلى إقامة دولة شيعية في المشرق مستعينا في أول الأمر بعامل نيسابور محمد بن عبد الله الخجستاني الذي استولى على جرجان من القائم الساماني، ولكن ما لبث أن قلب عليه الخجستاني - بعد أن لوقع بينهما أصحاب الوشائيات - وسجنه ونقل به حتى لقد سمعه فلق بـ "الأطروش" ولم يلبث أن فر "الأطروش" إلى بلاد الديلم مستغلا حالة الفوضى في الدولة السامانية عقب وفاة القائم، وأقام بين قبائل الديلم ثلاثة أعوام فلقهم مبادئ المذهب الزيدي، و يدعوهم إلى الإسلام، ويبنو لهم المساجد، فأسلم منهم عدد كبير، ودانوا له بالطاعة والولاء بعد أن ضافوا ذراعا من قلم العباسيين، وحكامهم من الطاهريين، الذين كانوا يحكمون إقليم خراسان، وبسلط الديلم وسجستان، وكانوا شديدي الظلم والبطش. توفي سنة (٣٠٤ هـ / ٩١٧ م). ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ٤٩٥، دار الكتب العلمية ط٣، بيروت، ١٩٨٨م.
- (٤) الديلم: تقع بلاد الديلم في المنطقة الواقعة بين طبرستان والجبلاوي وبحر الخزر (بحر قزوين)، وهم قبائل فارسية تتكلم اللغة الفارسية بلهجة محلية، وقد استهزوا

- بالشجاعة والكرم، ووصلوا بالطيش، والعجلة، وقلة المبالاة، كما غلب عليهم الجهل والحمافة ومثرة النزاع فيما بينهم، كما تصفوا - أيضا - بالقسوة وغلظة الطبع والتأني على الاقياد، كما اشتهروا بالجمال حتى قال عنهم المقدسي: "والديلم حسان التحي والوجوه أيضا ولهم طلق".<sup>١٠</sup> وحين كتب المقدسي كتابه في القرن الرابع الهجري (١٠م) كانت بلاد الديلم تعني أقاليم طبرستان وجرجان وقوسم. المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢٨٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٧م. كسي لمستخرج: بلدان الخلافة الشرقية، ص ٢٠٧، ترجمة وتعليق: بشير فرسيس، وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٩٨٥م.
- (٥) ابن اسفنديار: تاريخ طبرستان، ص ٢٢٢، ٢٢٣، ترجمة: أحمد محمد نساوي، طبع المجلس الأعلى للثقافة، ط ١، القاهرة ٢٠٠٢م.
- (٦) ابن الأثير: الكامل: ج ٦ ص ٤٩٥.
- (٧) ابن خاورنشاها: روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، ص ٨٨، ٨٩، ترجمة د. أحمد عبد القادر الشاذلي، دار المصرية للكتاب ط ١ القاهرة، ١٩٨٨م.
- (٨) ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج ٥ ص ٩١، ٩٢، تحقيق: سيد كسروي، دار الكتب العلمية ط ١، بيروت ٢٠٠٣.
- (٩) رشيد عبد الله الجميلي: الزيلابون في جرجان وطبرستان، ص ١٤٩، ١٥٠ - مجلة كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، العدد التاسع، بغداد، ١٩٨٤م.
- (١٠) جرجان: مدينة كبيرة تقع في جنوب شرق بحر الخزر، ويتخذها جنوباً إقليم خراسان، وشرقاً إقليم خوارزم، و غرباً بحر الخزر وإقليم طبرستان وهي بلاد كثيرة الأنهار. المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٢٨٠ - ٢٨٥.
- (١١) همدان: أكبر مدينة بإقليم الجبال، بين طبرستان وأصفهان. ياقوت: معجم البلدان، ج ٥ ص ٤١٠.
- (١٢) أصفهان: ويقال لها "أصفهان" و"أسيهان"، وهي مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها، وهي من بلاد الجبل. القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٦٩.
- (١٣) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤ ص ٤٢٧، تحقيق: مفيد محمد قمحة، دار الكتب العلمية.
- (١٤) ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج ٥ ص ١٧٨. ابن الأثير: الكامل، ج ٧ ص ١٠٨، ١٠٩.
- (١٥) ابن مسكويه: التجارب، ج ٥ ص ٣٥٢.
- (١٦) ياقوت الحموي: معجم الأدياب ج ٤ ص ٥٦٩ معجم الأدياب أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأدياب، دار الكتب العلمية، ط ١ بيروت، ١٩٩١م.

- (١٧) السامانيون: تسبب هذه الدولة إلى أحدي الأسر الفارسية، وقد ظهر أمر هذه الأسرة في عهد الخليفة المأمون حيث نالت حظوة كبيرة عنده، فولاهم بلاد ما وراء النهر، ومن أشهر حكام هذه الأسرة إسماعيل بن أحمد الساماني، ونوح بن نصر الساماني. وقد ظهر في عهد هذه الأسرة العديد من العلماء الذين خدموا الثقافة الإسلامية. الترشيحي: تاريخ بخاري، ص ١١٣ ترجمة د/ أمين عبد المجيد بدوي ونصر الله مبشر الطرازي، دار المعارف ط ٣ القاهرة ١٩٦٥ م
- (١٨) ابن الجوزي: المنظوم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٧ ص ٢٦٤ دالسة المعارف العثمانية، ط ١ حيدر آباد ١٣٥٩هـ.
- (١٩) الدولة الغزنوية: هي إحدى الدول الإسلامية التي قامت في شرق الدولة الإسلامية، ويرجع ظهور الغزنويين إلى البيكنين كبير حجاب الأمير عبد الملك بن نوح الساماني، وكان البيكنين أحد الموالى الأتراك الذين اعتمد عليهم السامانيون في ضبط أمور دولتهم، فعلا شأنه وزاد طموحه حتى أصبح مقرباً من رجال الدولة، مما أتاح له نبواً مناصب رفيعة في الدولة. لمزيد من التفاصيل انظر: محمود عرفة محمود: للدول الإسلامية المستقلة في الشرق وعلاقتها بالخلافة العباسية، ص ٢٥٣، ٢٥٥، دار الثقافة العربية، القاهرة ٢٠٠٨ م.
- (٢٠) البيهقي: تاريخ البيهقي، ص ٢٢٦، ٢٢٧، ترجمة يحيى الغشتاش وصافي نشأت، مكتبة الأجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٦ م. <http://ArchWebbeta.com>
- (٢١) رشيد الجميلي: الزياريون، ص ١٦٤، ١٦٥.
- (٢٢) السلاجقة: يرجع أصل السلاجقة إلى لترك الذين كانوا يقيمون في الصحراء الواسعة التي تمتد من حدود الصين حتى شواطئ بحر قزوين، وقد كثرت هجرتهم إلى المناطق الإسلامية في إيران وقت انهيار الدولة السامانية حيث المراعي الوفيرة، وقد عرف السلاجقة بهذه التسمية نسبة إلى زعيمهم سلجوق بن دقاق الذي جمع شملهم ووحدهم تحت زعامته وخضعوا لحكم أبناؤه واحفاده من بعده، ومن أشهر ملوكهم طغرل بك وأب أرسلان وملك شاه. الحسینی: زبدة التواريخ في أخبار الأسراء والملوك السلجوقية، ص ٢٣، تحقيق د/ محمد نور الدين، دار الفراء، ط ١، بيروت ١٩٨٥.
- (٢٣) ابن الأثير: الكامل، ج ٨ ص ٢٥٠ - ٢٥٨.
- (٢٤) كان السلطان ملكشاه بن آلب أرسلان (٤٦٥-٤٨٥هـ/١٠٧٢-١٠٩٢م) ملكاً مظلوماً مهيباً، استولت جيوشه على كثير من البلاد حتى قيل إنه ملك من الأقاليم ما لم يملكه أحد من السلاطين، فكانت مملكته تشمل على جميع بلاد ما وراء النهر، وإيران والعراق، وآسيا الصغرى، والجزيرة، والشام، وكانت جيوشه غالبة راحة بين أرجاء

- مملكته الواسعة. الرواندي، راحة العصور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية،  
ص ٢٠١-٢٠٢. الحسيني: زبدة للتواريخ، ص ١٤٧-١٥١.
- (٢٥) ابن الفقيه الهذلي: كتاب البلدان، ص ٥٦٤، ٥٦٥. تحقيق، يوسف الهادي، عالم الكتب  
ط ١، بيروت ١٩٩٦ م.
- (٢٦) معجم البلدان، ج ٤ ص ١٣ - ١٦، دار صادر، بيروت ١٩٧٩ م.
- (٢٧) لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٠٩، ٤١٠ .
- (٢٨) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، ج ١ ص ٢٧٣، دار الجيل، ط ٨، بيروت ١٩٩٦ م.
- (٢٩) كان إقليم اديلم يخضع في الغالب لسيطرة مجموعة قبائل وأسر أمراء محليين، كانوا  
يتأسسونهم وكانوا يتمتعون باستقلال كبير ذلك لعنت الاتجاهات الشعبية دورا كبيرا في  
استقلال بعض الأمراء المتكلمين بولايتهم عن الخلافة العباسية. فمثل قيام الدولة  
العباسية واعتماد خلفائها على العناصر الفارسية بصورة كبيرة، أصبحت العناصر العربية  
بصورة تدريجية عن الوظائف والسيما العسكرية، وتبعاً لذلك بدأت النزعات القومية  
الفارسية تطفو على مسرح التاريخ لتزعم إلى الاستقلال على النفوذ العباسي، سدحوى  
أن كل المسلمين أحرار، ثم ما لبث أن تحولت إلى المناهضة بأن العرب أقل شأناً من غيرهم  
فظهرت الشعبية بوجهها الفريح منافية بعودة دولة العجم، وتكوين كيانات سياسية  
فارسية. إبراهيم سلمان الكروي: البويهيون والخلافة العباسية، ص ٤٦، ٤٧.
- (٣٠) ياقوت: معجم البلدان، ج ٤ ص ٩٥.
- (٣١) تاريخ طبرستان، ص ٨٩، ٩٠.
- (٣٢) نتيمة الدهر: ج ٤ ص ٧٣.
- (٣٣) ابن اسفلديار: تاريخ طبرستان، ص ١٣١-١٣٩.
- (٣٤) معجم البلدان: ج ٣ ص ٧٤.
- (٣٥) ياقوت: معجم البلدان، ج ٢ ص ٧٥.
- (٣٦) لمزيد من التفاصيل عن الحضارة الإسلامية في القرنين الرابع والخامس الهجريين،  
انظر، كتاب 'دولة آل زياد في طبرستان وجرجان وما جاورهما' لتعمة على مرسى.
- (٣٧) الشحات إبراهيم السيد: التطور السياسي والحضاري لدولة بنى زياد في جرجان  
وطبرستان، ص ١٦٥، رسالة ماجستير (غير منشورة) قسم التاريخ، كلية الآداب،  
جامعة المنصورة ١٩٩٣ م.
- (٣٨) نعمة على مرسى: مرجع سبق ذكره، ص ١١٥.
- (٣٩) الثعالبي: هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، كان أديباً فاضلاً  
صنف كتباً كثيرة، منها: 'نتيمة الدهر' و'سحر البلاغة' وكتاب 'مراض القلند' وإلى



غير ذلك من الكتب. القيرواني: زهر الآداب، ج ١ ص ١٦٩. ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ، ج ١٢ ص ٤٤.

(٤٠) الثعلبي: بتيمة الدهر، ج ٤ ص ٦٧.

(٤١) السابق: ج ٤ ص ٦٨.

(٤٢) التشنات إبراهيم: التطور السياسي، ص ١٦٧.

(٤٣) أبو الريحان البيروني: هو الأستاذ أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي، مؤلف شهير وكان البيروني "ذا حظوة عند الملوك والأمراء ولما بعدد كبير من الفروع العلمية كالرياضيات والفلك وعلوم النجوم، ولم يكن في نظرائه في زمانه أحق منه بعلم الفلك. باقوت: معجم الأبياء، ج ٥ ص ١٢٢. ابن الأثير: التبا في تهذيب الأنساب، ج ١ ص ١٩٧.

(٤٤) معجم الأبياء: ج ٥ ص ١٢٤.

(٤٥) السابق: ج ٥ ص ١٢٥.

(٤٦) بديع الزمان الهمداني: هو أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمداني المعروف ببديع الزمان، صاحب الرسائل الرفيعة والمقامات الفاتحة. وعلى متواله نسج العرب مرقماته واحتذى حذوه. وهو أحد النحباء وله الرسائل البديعة، والنظم المليح، سكن "هراة" من بلاد خراسان، وتوفي سنة (٣٩٨ هـ/١٠٠٧ م). الثعلبي: بتيمة الدهر، ج ١ ص ١٣٩. باقوت: معجم الأبياء: ج ٤ ص ٢٨٧. ثورني شيك: تاريخ الأدب العربي، ج ٥ ص ٣٤١.

(٤٧) القيرواني: زهر الآداب ونهر الأبياب، ج ٢ ص ٤١٧، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط ٤، بيروت ١٩٧٢ م..

(٤٨) لعروضي السمرقندي: جهاز مقالة، ص ١٤٦، ترجمة: عبد الوهاب عززام، ويحيى الخشاب، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ط ١، القاهرة ١٩٤٩ م.

(٤٩) الزيداني: كمال البلاغة (وهو رسائل شمس المعاني قابوس بن وشمكير) ص ٦٧ وما بعدها، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٤١ هـ.

(٥٠) حسن منبينة: تاريخ الدولة البويهية، ص ٨٣، الدار الجامعية، بيروت ١٩٨٧ م.

(٥١) محمد الخطيب: تاريخ الدويلات الإسلامية ج ١ ص ٣٢٩-٣٤٠

(٥٢) مصطفى الشكعة: بديع الزمان الهمداني، ص ١٤-١٥، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٥٩ م.

(٥٣) ورثت الحضارة الإسلامية حضارات الفرس والروم والسرمان، وورثت معها كل أساليب اللهو في هذه الأمم، إذ تجتمعت الأموال، وما تستدعيه من نوافل الشهوات والمجسور، وأصبح لكل ضرب من ضروب اللهو علم خاص ينقله أربابه وعشاقه، ويقرب أهله إلى الخلفاء والأمراء، حتى لرقص والغناء يذكر "المسعودي" في مروجته أن الخليفة "المعتد"

على الله العباسي قال لبعض من حضر من ندمائه: صف لي الرقص، وأنواعه والصفة المنددة من الرقص، وانكر لي شمائله، فقال: يا أمير المؤمنين أهل الأقاليم والبلدان مختلفون في رقصهم من أهل خراسان وغيرهم إلى آخر الرواية. والواقع أن الغناء انتشر في العصر العباسي انتشاراً عظيماً، حتى أصبح حاجة من حاجات المجتمع الضرورية، وأصبح المقينون والمغنيات في المحال العامة، وفي الشوارع وفي قصور الخلفاء، وفي بيوت الأغنياء، والقراء على السواء، ومثلت الكتب بالحكايات القساء، حتى إن صاحب الأغاني يذكر لنا أن أحد المغنين يغنى على الجسر فيجتمع السامعون حوله حتى يخاف من سقوط الجسر بهم، وأن بعضهم كان ينطح الحائط برأسه؛ من شدة الإعجاب بحسن الغناء. لمزيد من التفاصيل أنظر: المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤ ص ٢٤٩، ١٢٥٠ - الأصفهاني: الأغاني في أكثر من موضع طوال فتوات الكتاب.

- (٥٤) فهمي عبد الرزاق سعد: لغامة في بغداد، ص ٢٩.
- (٥٥) أبو الفضل بن العصيد: هو أبو الفضل محمد بن العصيد أبي عبد الله الحسين بن محمد الكاتب المعروف بابن العصيد، والعصيد لقب والده لقب بذلك على عادة أهل خراسان في إجرائه مجرى التنظيم، وكان أبيه فضل وأب، وأما ولده هذا فقد كان وزير ركن الدولة بن بويه لديلمي والد قضاء الجوزة. وكان متوسفاً في علوم الفلاسفة والنجوم، وأما الأب والمرسل فلم يقاربه فيه أحد في زمانه حتى سمي بالجاهل الثاني. قال عنه الثعالبى: بنيت الكتابة بعد الحميد وختمت بابن العصيد توفي سنة (٣٦٠هـ/٩٧٠م). الثعالبى: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج ٣ ص ١٨٣، تحقيق د. مفيد محمد قمبيح، دار الكتب العلمية ط ١ بيروت ١٩٨٣ - ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٥ ص ١٠٣ تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٦٨م.
- (٥٦) ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج ٥ ص ٢٢٢.
- (٥٧) لعة علي مرسى: دولة آل زيار في طهرستان وجرجان وما جاورهما، ص ١١٧، دارا لهداية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٥ م.
- (٥٨) لعة علي مرسى: مرجع سبق ذكره، ص ١١٨.
- (٥٩) عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية، ص ٥٦، ترجمة د / محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة، القاهرة ١٩٨٩ م.
- (٦٠) عنصر المعالي كيكارس: كتاب النصيحة المعروف باسم (قابوسنامه)، ص ٤٧، ترجمة، د/ محمد صادق نشأت، ود/ أمين عبد المجيد بدوي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ١ القاهرة ١٩٥٨ م

- (٦١) بديع محمد جمعة: من روائع الألب الفارسي، ص ٧٤، دار النهضة العربية، ط٢ القاهرة ١٩٨٣م.
- (٦٢) إدوارد براون: تاريخ الألب في إيران، ج ٢ ص ٣٤٦، ترجمة: أمين الشواربي، طبع المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٥م.
- (٦٣) بديع محمد جمعة: من روائع الألب الفارسي، ص ٧٥.
- (٦٤) بديع محمد جمعة: المرجع السابق، ص ٧٥، ٧٦.
- (٦٥) رضا زاده شفق: تاريخ الألب الفارسي، ص ٧٤، ترجمة محمد وموسى هنداري، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٤٧م.
- (٦٦) القائل بأمر الله: أبو جعفر عبد الله بن الغازر العباسي ولد عام (٣٩١هـ/ ١٠٠٠م) وأمه أم ولد اسمها بدر الدجى وقيل قطر الندى ولها الخلافة بعد موت أبيه القادر عمام (٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م) وكان ولي عهده في حياته. ابن نحية، التبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، ص ١٣٦. تحقيق عباس المزوي، بغداد، ١٩٤٦م. السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٦ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية ببيروت ١٩٦٤م.
- (٦٧) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٩٢.
- (٦٨) بديع محمد جمعة: من روائع الألب الفارسي، ص ٧٥.
- (٦٩) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٤٧.
- (٧٠) عبد الحميد سند الجندي: ابن كُتَيْبَة (المعالم للناقد الأديب) ص ١٨٨، ١٨٩ سلسلة أعلام العرب العدد (٢٢) المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٣م.
- (٧١) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٤٧.
- (٧٢) بديع محمد جمعة: من روائع الألب الفارسي، ص ٧٦.
- (٧٣) رضا زاده شفق: تاريخ الألب الفارسي، ص ٧٥.
- (٧٤) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٩٢.
- (٧٥) بديع محمد جمعة: من روائع الألب الفارسي، ص ٧٥، ٧٦.
- (٧٦) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٥٨، ٥٩.
- (٧٧) لمزيد من التفاصيل انظر كتاب قابوسنامه صفحات متعددة طوال فصول الكتاب.
- (٧٨) إدوارد براون: تاريخ الألب في إيران، ج ٢ ص ٣٥٣.
- (٧٩) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٢٨.
- (٨٠) السابق: ص ١٥٦، ١٥٧.
- (٨١) إدوارد براون: تاريخ الألب في إيران، ج ٢ ص ٣٤٧، ٣٤٨.
- (٨٢) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٤٨، ٤٩.
- (٨٣) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٨٥.

- (٨٤) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٨٧.
- (٨٥) بديع محمد جمعة: من روائع الأدب الفارسي، ص ٧٦.
- (٨٦) إدوارد براون: تاريخ الأدب في إيران، ج ٢ ص ٢٤٦.
- (٨٧) لم يكن الأمير 'عناصر المعالي' أول من تعا هذا النوع من التأليف، بل كان مقلداً إلى حد كبير لكتب الحكم والنصائح الفارسية القديمة، والتي كان يتداولها العلماء وينادب بها الناس مثل: كتاب 'كليلة ودمنة' الذي ترجمه 'ابن المقفع' من اللغة الفارسية القديمة، والذي كان قد نقل بدوره من اللغة الهندية، وحذا حذوه كثير من المؤلفين، وعرفت العربية في ضوئه التخصص على أسنة الحيوان والطير، ووضع الأمثال والحكم والخطب على أفواهاها، وبخاصة في عصور الاستبداد وتكعيب الأقواء وتحريم النقد، وكان الملوك يجعون تلك الكتب دستوراً لهم في حكم الرعية ونشر العدل، كما يوجد في نصحناج 'الحسن البصري' لفارسي، و'ابن قتيبة' في عيون الأخبار، و'الطبرطوشي' في سراج الملوك، حتى إن 'ابن عبد ربه' عكده فصلاً في كتابه 'العقد الفريد' تحدث فيه عن أمثال 'أحمد بن سفيان' و'بزرجمهر' مثلاً: 'إذا أشبهت عليك أمران، لم تدر في أيهما الصواب، فانتظر أقربهما إلى عواك فاجتنبه' وقوله: 'احذروا صولة التكريم إذا جاع، والتكليم إذا شبع' وغير ذلك من الأمثال التي نرى منها كثيراً في كتب الحكم والأخلاق. أحمد أمين: فجر الإسلام، ص ١٨٩، ١٨٢.
- (٨٨) حظى كتاب 'قابوسنامه' بشهرة عريضة بين قراء العربية، سواء من الأندلس أو من العامة، ونتيجة لما حظي به من اهتمام فقد ترجم إلى عدة لغات أجنبية، منها: الفرنسية، الإنجليزية والروسية، وترجم ثلاث مرات إلى اللغة التركية، ثم ترجم إلى اللغة العربية في عام ١٩٥٢، وذلك بفضل الدكتور أمين عبد المجيد بدوي.
- (٨٩) إدوارد براون: تاريخ الأدب العربي في إيران، ج ٢ ص ٢٤٨.
- (٩٠) كان 'ابن المقفع' على مقربة من الحياة الاجتماعية في الدولة العباسية، لاسيما في العصر الخليفة 'أبي جعفر المنصور' الذي كان شديد البشاش، فألف كتاباً في النصح، أسماه 'رسالة الصحابة' وهو لا يقصد به صحابة رسول الله، وإنما صحابة السيادة والرفقاء، والذي وجه فيه نقده للخليفة ويطأه بشيء من التصح والإرشاد. أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ٢ ص ٢٣٧.
- (٩١) جاء في الأدبيات الفارسية القديمة أن الملك 'بشليم' لما تجبر وطغى، وكان يقزو من حوله من الملوك والأمراء، وصار مؤيداً مطلقاً منصوراً، هلبته الرعية، ولما رأى ما هو عليه من الملك والسطة، عبت بالرعية، واستصغر أمرهم، وأساء السيرة فيهم، وكان في زمانه رجل فيلسوف يدعى 'بهبها'، فلما رأى الملك وما هو عليه من ظلم للرعية، فكر في وجه الحيلة حتى يصرفه عن فعله، وردد إلى العدل والإنصاف، فكتب كتاباً وجهه للملك مزج نقده له بكثير من المدح، بينما نسب أغلب الشدة التي يراها إلى غيره، ومن

- هنا ظهر ما يعرف في التاريخ بكتب التصالح، التي كان 'ابن المظفر' رائداً من روادها.  
أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ٢ ص ٢٣٦، ٢٣٧.
- (٩٢) تاريخ الأدب العربي في إيران: ج ٢ ص ٣٤٦.
- (٩٣) عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية، ص ٥٦، ترجمة د / محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة، القاهرة ١٩٨٩م.
- (٩٤) إدوارد براون: تاريخ الأدب العربي في إيران، ج ٢ ص ٣٤٩.
- (٩٥) لمزيد من التفاصيل حول تلك القصة، انظر قابوسنامه، ص ١٦٦، ١٦٧.
- (٩٦) إدوارد براون: تاريخ الأدب العربي في إيران، ج ٢ ص ٣٤٩.
- (٩٧) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٢٠٢، ٢٠٣.
- (٩٨) الفردوسي هو أحد شعراء الفرس المشهورين، والتي كانت له ثروة عظيمة أنفلقها على نظم الشهامة بناء على طلب من السلطان 'محمود الغزنوي'، واستغرق تأليفها ما يقرب من ثلاثين عاماً، ولكنه أصبح موضع نقمة السلطان، بسبب إبراف الفردوسي في مدح ملوك إيران القدماء. ولما كان السلطان سنياً متحسباً، لذلك أعطاه درهماً على كل بيت، بدلاً من دبلار كسكان وحده، فنظم إنشاعه ونظم أبياتا يهجو بها السلطان، فساعت العلاقات بينهما. بأن تواتر: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٨٠-٧٠، ترجمة حمزة طاهر، دار المعارف، ط ٥، القاهرة ١٩٨٣م.
- (٩٩) إدوارد براون: المرجع السابق، ج ٢ ص ٩٣.
- (١٠٠) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٢٠٢.
- (١٠١) الأدب في إيران: ص ٩٤.
- (١٠٢) إدوارد براون: المرجع السابق، ج ٢ ص ٣٤٨.
- (١٠٣) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٨٦.
- (١٠٤) السابق: ص ٤٨.
- (١٠٥) بنبع محمد جمعة: من روائع الأدب الفارسي، ص ٧٦.
- (١٠٦) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٤٧.
- (١٠٧) تاريخ طبرستان: تاريخ بغداد، ص ١٥٧، عبد الحميد سنن الجندی: ابن فتيبة، ص ٢٦.
- (١٠٨) سورة الأنعام: آية (١٥٢)
- (١٠٩) سورة المائدة: آية (١)
- (١١٠) سورة التحل: آية (٩٠)
- (١١١) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٣٩.
- (١١٢) عبد الحميد سنن الجندی: ابن فتيبة، ص ١٠٣.
- (١١٣) براون: الأدب في إيران، ص ٣٥٥.

- (١١٤) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٢٤، ٢٥.  
 (١١٥) السابق: ص ٢٨.  
 (١١٦) قابوسنامه: ص ٥٠.  
 (١١٧) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٦٢.  
 (١١٨) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ١٢٣.  
 (١١٩) السابق: ص ١٦٣، ١٦٤.  
 (١٢٠) السابق: ص ٩٥، ٩٦.  
 (١٢١) عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٢٣٠ - ٢٣٥.





## المغنيات ودورهن في دولة سلاطين المماليك

عصر أبناء الناصر محمد بن قلاوون

(٧٤١-٧٦٢هـ/١٣٤١-١٣٦١م)

د. حسن أحمد عبد الجليل البطاوي (\*)

هذا البحث يلقي الضوء على قضايا مهمة في تاريخ دولة سلاطين المماليك، وتختص هذه القضايا بالجوانب السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والفنية. فهي تقدم سبباً من أسباب الاضطرابات السياسية والعسكرية التي جرت في دولة سلاطين المماليك أثناء حكم أبناء الناصر محمد بن قلاوون.

ثم نتعرف البذور الأولى للتدهور الاقتصادي الذي أصاب البلاد وكان سبباً وراء سقوط تلك الدولة فيما بعد، والذي جاء جراء الانهيار السياسي والإداري للفترة موضوع الدراسة.

ثم إن الموضوع يقدم صفحة عن حالة اجتماعية عاشتها البلاد ممثلة في الحياة الخاصة للسلاطين، وأثر هذه الحياة على عوام الشعب. هذا فضلاً عن إلقاء الضوء على النشاط الفني في تلك الدولة خلال فترة الدراسة.

وفي البداية تجدر الإشارة إلى أن المغنيات هن الجوارى اللواتي يقمن بالغناء، وعرفت المغنيات في المصادر المعاصرة باسم المغاتى. وسماع المغاتى أي سماع المغاتى، والكلمة مستوحاة من الغناء المعروف بين أهل النهو واللعب، أو أرباب الملاهي. والغناء من الصوت هو ما طرب به، ويقال غنى فلان أغنية، وتغنى بأغنية حسنة، وجمعها الأغاني. ولما كان الغناء مرتبطاً بالموسيقى فإن كثيراً من المغاتى كن يجدن استخدام آلاتها<sup>(١)</sup>.

وأما الرقيق كانت المصدر الأساسي للجوارى اللواتي يصبحن مغاتيات فيما بعد، وكانت سلعتهن رنانة، فالعاملات في تكئين<sup>(٢)</sup> الجوارى يذهبن إلى أسواق الرقيق وينتقن الجوارى اللواتي ترأهن مناسبة للغناء، فتختبر صوتها، وتستفحص جمال وجهها وفنائها، ثم ترى مهارتها في استخدام آلات الطرب، وإذا كانت الجارية تحسن الغناء فإن ثمنها يتضاعف<sup>(٣)</sup>.

(\*) أستاذ مساعد تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب جامعة أسيوط.



وتدخل الجارية في مراحل متعددة من التدريب المستمر حتى تصبح مقيمة، فتنتظم القراءة والكتابة والأدب والشعر، فضلاً عن فنون أخرى تضيف إليها حسناً وظرفاً. وأما من تتفوق منهن على غيرها من الجواري في تحصيل ما تعلمته، علاوة على امتلاكها صورةً وصوتاً حسناً، فإنها تتحق بجواري الحاكم أو أحد الأمراء فيلمس نجمها، وإذا كانت ذات حظ أوفر فإنها تملك ثروة وتنفوذاً جراء التحاقها بدائرة السلطة<sup>(١)</sup>.

وأقبل سلاطين المماليك على سماح المغاني إقبالاً زائداً عن الحد، ولم يكن هؤلاء المماليك مستحدثين لهذا الأمر، وإنما ورثوه عن سابقهم من بني العباس والمغاضيين والأيوبيين. وشجعهم على ذلك توافر الجواري المغنيات داخل سلطنتهم، ولقد هم في ذلك أمراهم وكبار رجال الدولة والموسرون من الشعب<sup>(٢)</sup>. ولاتك أن اهتمام نوبي السلطة والتفوذ والمال في دولة سلاطين المماليك بالغناء والمغنيات رفع من قدر هؤلاء النساء، وحظين بالاهتمام والرعاية، وجمعن ثروات طائلة وتنفوذاً عريضاً.

وأصبح سوق الجواري الرجا، وزاد الإقبال على اقتنائهن، فتوافر عدد كبير من هؤلاء المغاني اللواتي اتسع نشاطهن في مختلف أرجاء دولة سلاطين المماليك. وترتب على ذلك اتجاه الدولة إلى تفتين عمل هؤلاء المغنيات، وإدراج نشاطهن ضمن الأنشطة الربحية والتي ينبغي أن تدفع من ترغيب في ممارستها ضريبة. ولما كانت هذه الضريبة غير شرعية فقد دخلت تحت كتمان الضمان<sup>(٣)</sup>. وعرفت الضريبة بضمان المغاني أو مقرر الملاهي والأفراح<sup>(٤)</sup>.

هذا وقد در ضمان المغاني أموالاً طائلة لهذه الجهة<sup>(٥)</sup>، فذكر المقرئ أن ضامنة المغاني تحصل عن فرح واحد خمسمائة درهم لما لوقتها، بحسب حال أهل العريس، هذا فضلاً عن المناسبات الأخرى التي تشارك بالغناء فيها<sup>(٦)</sup>. وأكد ابن حجر على هذا المعنى، فقال إن أهدأ لا يستطيع أن يقيم عرساً بدون دفع عشرين إلى ثلاثين منقال ذهب<sup>(٧)</sup>.

وحرصاً من الدولة في عهد عدد كبير من السلاطين على تحصيل الأموال من هؤلاء المغاني فإنهم أولوا ضمان المغاني عناية فائقة، وحرصوا على ترتيب العمل به، وإخضاعه للمراقبة الصارمة. وبلغ الأمر حداً أنه ما من مناسبة يقام فيها فرح إلا ودفع صاحبه مالا باسم مقرر الملاهي والأفراح. وجرى الأمر على أن واحدة من النساء تتولى مهمة ضمان المغاني، وذلك كونها سيدة ومحترفات الغناء هن من الجوارى، وغالبا ما كانت ضامنة المغاني واحدة من المغنيات اللواتي تقدم بها العصر فلم تعد مرغوبة للغناء. وكانت ضامنة المغاني تسجل أسماء المغنيات لديها، وعلى كل مغنية ضريبة مقررة تدفعها للضامنة<sup>(٨)</sup>.

وفرضت رقابة صارمة على المغنيات حتى لا يتقين بدون دفع الضريبة المقررة، وتولت الضامنة ورفيق عمل لديها مهمة المراقبة، فكان يذهبن إلى بيوت المغاني لسيلا للتأكد من وجودهن، وإن لم تكن واحدة منهن في منزلها اعتبرت في مهمة عمل، وتقرر عليها دفع الضريبة عن هذا العمل<sup>(٩)</sup>.

والواقع إن ضريبة المغاني كانت محل نقد من وجهة نظر كثير من الخاصة والعامّة، كما لم يقبل بعض السلاطين بوجود هذا النشاط. وكان الناصر محمد بن قلاوون واحداً من هؤلاء السلاطين فقد ألغى هذه الضريبة سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م عندما لمس الظلم الذي تسببه لبعض الناس، فضلاً عن الرذائل التي ترتكب مصحوبة بها، ولكن عاد العمل بها مرة أخرى بعد هذا التاريخ<sup>(١١)</sup>.

وتجدر الإشارة هنا إلى أمر مهم، وهو ارتباط الغناء باللهو، إذ إن طبيعة العصر كانت تلقي بظلالها على الغناء، وكذا على الاحتفالات عموماً والخروج إلى المتزهات. وكانت آراء الفقهاء وفتاواهم تنطلق صارمة تجاه الغناء وأربابه والمشاركين في مجالسه. والحقيقة إن الغناء في الأفراس والملاهي والاحتفالات ومواضع التلذذ والمجالس الخاصة كان مصحوباً في أغلب حالاته بوقوع تجاوزات ومفاسد أخلاقية؛ مثل شرب الخمر والحشيش وارتكاب الفواحش وغير ذلك. ولما كانت المغنيات يقمن بالغناء في هذه المناسبات فيتهن حملن وزر هذه الجرائم، وارتبط الغناء بالبقاء، وأصبحت المغنيات عوناً للهو والفجور<sup>(١٢)</sup>.

والحقيقة إن عامة الشعب أخذوا حظهم من سماح المغنيات، ولكن نشاط المغنيات وأثره البارز هو ذلك النشاط الذي لعبه في حجور أصحاب السلطة، واعتنى برصده مؤرخو تلك الفترة، وهو الذي ركزت الدراسة عليه هنا. فنجد الناصر محمد بن قلاوون، اعتنى بالجواري عموماً والمغنيات منهن على وجه الخصوص، فاشترى أعداداً كثيرة منهن، واختص بواحدة تدعى دينا، كانت حادثة في الغناء، وبلغ اهتمامه بها درجة جعلت البعض يقول إنه تزوجها<sup>(١٣)</sup>. وكذا أعجب بواحدة أخرى تدعى طغاي، وبلغ إعجابها بها حد الشغف، ثم تزوجها فكانت أقرب زوجاته إلى قلبه، وأنجب منها ولداً نوك، وهذا الولد فاق حبه في قلب والده حب إخواته الآخرين. ثم إن أبناء الناصر الآخرين أنجبهم من جواريه أيضاً، وعلى سبيل المثال، فإن أم ابنه أحمد مغنية تدعى بياض، وهي ليست إلا جارية كانت تجيد الغناء، فاشترها واخص بها وأنجب منها ولداً هذا، ولايستثنى من أولاده سوى الصالح صالح فإن أمه هي ابنة الأمير تنكز<sup>(١٤)</sup>.

وكذلك استك أسراء المماليك جواري مغنيات كثيرات، وانفقوا على شرائهن مبالغ طائلة. ومن ذلك أن الأمير بكتمر السالقي<sup>(١٥)</sup> أعجبته جارية تدعى خوبي، كانت بارعة في الغناء وضرب العود فاشترها بعشرة آلاف دينار مصرية. وأما الأمير بشتك<sup>(١٦)</sup> فإنه انتظر حتى وافته الفرصة بوفاء بكتمر السالقي، فاشترى جاريته خوبي بستة آلاف دينار، مضافة إلى ما كان عنده من الجواري اللواتي زاد عددهن عن ثمانين جارية<sup>(١٧)</sup>.

#### عصر أبناء الناصر محمد:

بدأ عصر أبناء الناصر محمد بن قلاوون بتولي ابنه أبي بكر السلطة بعد وفاة والده في ذي الحجة سنة ٧٤١هـ/مايو ١٣٤١م. وانتهى عصرهم بمقتل الناصر حسن في جمادى الأولى سنة ٧٦٢هـ/مارس ١٣٦١م، وهو آخر أبناء الناصر الذين تولوا السلطة، ثم خلفه عدد من أجداد الناصر.

وبالرغم من اهتمام المماليك بالمغنيات، اقتناءً وتربيةً وإيثاراً، فإن فترة حكم أبناء الناصر محمد هي الفترة الأبرز في تاريخ دولة سلاطين المماليك من حيث الإهتمام بالمغنيات، واللهو في حضرتهن، وهي الفترة التي لعبت فيها المغنيات دوراً بارزاً في تاريخ هذه الدولة، فامتلكن قلوب السلاطين المراهقين والشباب من أبناء الناصر، وتحكمت بعضهن في مور مهمة من مقدرات البلاد. وانعكست تدخلاتهن على جوانب عدة من أوضاع البلاد بصورة سلبية، وهو الأمر الذي سيتضح من خلال العرض التاريخي الآتي.

تولى أبو بكر السلطة بعد وفاة والده مباشرة، وكان شاباً بلغ عمره حوالي العشرين سنة. تشغل أبو بكر بالغناء والمغنيات، وتحولت مجتمه إلى مجالس مسكر وعريضة. فاختص بنظر من العلمان<sup>(١٠١)</sup> أسند إليهم مهمة إحصاء المغنيات لئلا يلهو ولندمائه. والخرط في لهوه بدون وعي، وعدم إدراك لموقعه أو لمسئوليياته، وتناقلت ألسن الناس إتحافات السلطان. وتحركت غائرة النفوس في صدور كبار الأمراء، ونصحوا بعضهم بالتخلي عن مصاحبة المغنيات، والبعد عن اللهو والسفاهة. ولكن السلطان أخذته العزة بالإثم، ولم يكن ذا أذن صاغية لتلك التصالح الرشيدة، واستمر على لهوه، بل زاد على ذلك فتجاهر بفسوقه. واتخذ سوء سلوك السلطان حجة عند بعض الأمراء وعلى رأسهم الأمير قوصون<sup>(١٠٢)</sup> لخلع السلطان. فخرجوا عليه وخلعوه في صفر سنة ٧٤٢هـ/يونيو ١٣٤١م. وبذلك خسر المنصور أبو بكر عرشه بسبب التمهاك في اللهو مع المغنيات، والشغالة بهن عن إدارة أمور البلاد<sup>(١٠٣)</sup>.

واختار الأمراء أخوه كجك ونصبوه سلطاناً، ولقبوه بالملك بالإشراف، وكان عمره حوالي خمس أو ست سنوات فقط. وهو ما يعني أنه كان طفلاً صغيراً أثناء سلطنته، وليس معنياً بأمر المغنيات، وما يجري في محيطهن من تجاوزات. هذا فضلاً عن أنه لم يستمر في السلطنة سوى خمسة أشهر وأياماً، وخلعه الأمراء، واختاروا أخاه أحمد بدلاً منه في أول شعبان سنة ٧٤٢هـ/يناير ١٣٤٢م، ولقبوه بالناصر<sup>(١٠٤)</sup>.

وكان الناصر أحمد هذا شاباً يافعاً عند توليه السلطنة، تزوج في حياة والده، ولم يكن والده راضياً عنه، فأرسله ليقوم في الكرك<sup>(١٠٥)</sup>، وظل مقيماً بها، إلا من زيارات قليلة قام بها إلى القاهرة، وبقي على حاله حتى بعد وفاة والده. وفي خلال إقامته في الكرك عرف عنه شغفه بشباب أهلها، وتمهاكه في معارفه الخمر. وعندما تسولى السلطنة كانت إقامته في الكرك أكثر من إقامته في القاهرة، وهناك استمر في لهوه ولعبه، واعتزل الناس من أجل ملذاته. وأما أمراء المماليك فإنتهم وجدوا حجتهم في سوء سيرة الناصر أحمد للخروج عليه وخلعه، فخلعوه في المحرم سنة ٧٤٣هـ/يونيو ١٣٤٢م، وأقاموا أخاه إسماعيل سلطاناً، ولقبوه بالصالح. وبذلك لم يدم الناصر أحمد في السلطنة سوى خمسة أشهر وأياماً<sup>(١٠٦)</sup>.

## المغنية اتفاق وثلاثة سلاطين:

ومع بداية حكم الصالح إسماعيل بدأت فترة هي الأكثر ظهوراً ونفوساً وأثراً للمغنيات في دولة سلاطين المماليك. وتميزت هذه الفترة بظهور مغنيات بعينها أصبحن نجمات مجتمع، ومشهورات عند الخاصة والعامة في كافة أرجاء الدولة. وعلى رأس هؤلاء المغنيات واحدة تدعى 'اتفاق'، تلك المغنية حظيت بمكانة مرموقة عند ثلاثة من السلاطين أبناء الناصر هم: إسماعيل وشعبان وحاجي، وتزوجت منهم جميعاً على التوالي كما سنوضح بعد.

وأشير في البداية إلى أن الصالح إسماعيل كان عمره قد تخطى السبع عشرة سنة حين تولى السلطنة، وأقبل على حسب الجوارى المغنيات، وأرباب الملاهي والمطربين عموماً، وانخرط في مجالس التهور مع هؤلاء، وحرص على اصطحاب هؤلاء الجوارى معه في رحلاته إلى أماكن التنزه والسرعات<sup>(٢١)</sup>. بل إنه جعل لوالدته موكباً مهيباً من تلك النساء عند خروجها معه إلى إحدى السرحات. وبلغ عند النساء المشاركات في موكب أم السلطان ما لشي امرأة في كامل زينتهن، يرتدين الثياب الأظلس الملون، ويضعن على رؤوسهن الطرايطير الجند المزصع بالجواهر واللآلئ. ويسير الخدم في صحبتهم منذ خروجهم من القلعة وحتى وصول الموكب إلى السرحة<sup>(٢٢)</sup>.

وأما السلطان نفسه، فإنه كان يبالغ في تدليل حظاياها، واللعب واللهو معهن، فيجلب لهن الخيول العربية الأصيلة، ويضعهن لركوبها والمراخ عليها، ويسمح لهن المجال لتسابقن بها، وتارة أخرى يركبهن بالكاملات الخريز ويعين الكرة<sup>(٢٣)</sup> يدل إن السلطان بالغ في اللهو واللعب مع جواريه إلى حد فاق الوصف، وكثر سفهه معهن في العواصم والأعياد وأوقات التنزه ومناسبات الأفراح<sup>(٢٤)</sup>.

وعلاوة على ما سبق فإن الصالح إسماعيل ملكه درب البذخ والإنسراف في الاتفاق على الجوارى المغنيات، وجعل لهن الرواتب، وأعمع عليهن بعدة أرزاق<sup>(٢٥)</sup>. وكان لا يفيض له جفن حتى يتأكد من حصولهن على إبعامته وهداياه، فصارت لهن مهابة في نفوس كبار موظفي الدولة، وصارت كلمتهن نافذة، فيقضين ما يرضين في قضائه من أمور الدولة، ويمنعن ما لا يرضين في قضائه، حتى وإن صدرت به مراسيم كبار الموظفين. واتجه أولوا الحاجات من أبناء الشعب إلى جوارى السلطان ليقتضين لهم حاجاتهم. وبلغ الأمر بالأمرير الحاج آل ملك نائب السلطنة<sup>(٢٦)</sup> أنه كان يتحسر على ما وصلت إليه البلاد من أوضاع مزرية، وما وصلت إليه نهاية السلطنة من انحطاط قدرها، في مقابل ما يلقته مغاني السلطان من نفوذ في إدارة أمور الدولة. وكان إذا جاءه أحد يطلب منه قضاء حاجة، كإقطاع أو مرتب أو غير ذلك، رد عليه في حمسرة ساخرة قائلاً: يا ودي! رح إلى باب الستارة لبصر طواشي، أو توصل لبعض المغاني تقضي حاجتك<sup>(٢٧)</sup>.

ثم إن الصالح إسماعيل كان يميل إلى الجوارى السود، فإذا كان قد أقبل على المغنيات عموماً، وأكثر منهن في بلاطه، وشغف بهن، فإنه فضل السوداء على من

دونها من ريفقاتها، وألحظ في جبهن<sup>(٣٦)</sup>. وبالرغم من إن الصالح إسماعيل أكثر من شراء الجواري حتى بلغت عدتهن خمسمائة جارية فإنه اقتص بالمغنية اتفاق، فصارت هذه المغنية إعجاب به درجة فائقة، واتفاق هذه جارية سوداء حائكة السوداء، كانت ماهرة في ضرب العود، فبلغت فيه درجة عالية، لا يفوقها فيه أحد، وامتلكت صوتاً جميلاً مع مهارة الغناء. فأقبل عليها السلطان، وسلف بها شغفاً زائداً، وألحظ في حبها وتساؤلها، حتى نجحت في امتلاك قلبه وملكه، ولما كان على هذه الحال من الشغف بها، فإنه لم يتردد في الزواج منها<sup>(٣٧)</sup>.

ولما كانت اتفاق على هذه الدرجة من المحبة والقرب من قلب السلطان الصالح إسماعيل، فإنه من الطبيعي أن يفتح أبواب خزان الدولة ليأخذ منها كل نفس من الجواهر والهدايا الثمينة وينعم عليها بتلك الهدايا. ومن العجب أن السلطان توقع التأميم والمعارضة من بعض العقلاء من كبار رجال دولته، فرتب لهذا الأمر الاحتياطات اللازمة التي تستر عليه أسراه وسلفه مع مغنيته، فاختار شخصاً تتوافر فيه الشروط المناسبة للقيام بمهام خاصة هي: حفظ سره مع اتفاق واستمر على سفيته، ثم يكون هذا الشخص مسئولاً عن إحدى الإدارات المالية الكبرى. ووجد السلطان ضالته في شخص جمال الكفاة ناظر الخاص<sup>(٣٨)</sup>، وجعل منه كاتب سره هواه مع المغنية اتفاق، وممولاً سخياً للأموال التي يحتاجها السلطان للاتفاق علىها. ولزادت أواصر الثقة بين السلطان وجمال الكفاة، ورأى السلطان أن يرفع قدره في القولة، ويزيد في رتبته، فجعله مشير الدولة. ثم تهادى السلطان في منحها لجمال الكفاة، فأمر كاتب سره علاء الدين على بن فضل الله العمري أن يكتب لجمال الكفاة في توقيعها 'الجناب العالي'. ولم يكن من المعتاد أن يكتب في مكاتبات الدولة وأوراقها لواحد من كتاب الديوان هذا اللقب، وإنما يكتب للأمرء أصحاب الوظائف الكبرى<sup>(٣٩)</sup>. ولذلك أثار هذا الأمر حفيظة كاتب السر، واعتبره خرقاً لتقاليد الدولة، ورفض أن يخط هذا اللقب بيده. وأما الصالح إسماعيل فإنه أصر على تنفيذ ما أمر به، فبلغ بذلك جمال الكفاة مرتبة لم يبلغها أحد غيره من كتاب الديوان في تلك الفترة من عصر دولة سلاطين المماليك<sup>(٤٠)</sup>.

ونجح جمال الكفاة في استغلال علاقة الصالح إسماعيل بالمغنية اتفاق على أحسن ما يكون الاستغلال، فطلب من الصالح أن ينقله من رتبة الكتاب إلى الإتحاق بجامعة الأمراء، وأن يكون أمير مائة مقدم ألف<sup>(٤١)</sup>. وهذا الأمر لم يحلم به كاتب قبله، ولم يكن هذا الطموح مشروعاً لكاتب في ظل نظام دولة سلاطين المماليك عسكرية الطابع. وما بلغه جمال الكفاة من طموح، وخروقات السلطان لتقاليد السلطنة، وانتهاك حرمتها، وتهديد أموالها من أجل مغنيته اتفاق، كل ذلك أثار حفيظة نفر غير قليل من أمراء المماليك على هذا الكاتب والسلطان معا. واشتغلوا في التأميم على جمال الكفاة، وتصدد الأخطاء له، كل ذلك والسلطان يحوطه برعايته، ولا يصدق فيه قالة السوء، أو ربما لا يريد أن يصدقها. ولم ينجح المتآمرون في التوقيع بين السلطان وجمال الكفاة إلا

عندما أئبنوا للسلطان أن هذا الرجل يغشي أسراره مع المغنية اتفاق، عندئذ خسر جمال الكفاة أمواله وحياته في صفر ٧٤٥هـ/يونيو ١٣٤٤م<sup>(٣١)</sup>.

والموافق إن اتفاق أخذت لب الصالح إسماعيل، فالتمس في لهوه ومذاته معها، تاركاً أوضاع البلاد في جوانب عدة في حالة اضطراب متزايد. فعلى الصعيد السياسي والأمني، تمردت قبائل عدة من عرب الصعيد والفيوم، وكذا تحت نحوهم قبائل أخرى في بلاد الشام. واضطربت الأوضاع الاقتصادية للبلاد، ما أدى إلى انهيار حالة العملة، وزيادة فرص غشها وزناً ونقاوة. وزادت الضرائب المفروضة على الشعب، وتضررت الحركة التجارية داخلياً وخارجياً، ولم يقبل البنداقية زيادة الضرائب المفروضة على تجارتهم، وانتظروا لحل الأوضاع تؤول إلى التحسن. ولما زادت الحال عما كانت عليه تقدموا بشكوى ينهون فيها إلى السلطان ما تكبهوه من خسائر جراء ما يدلفونه من ضرائب باهظة، ويرجوونه شمولهم بقطعه، وتخفيف هذه الأعباء عن كواهلهم<sup>(٣٢)</sup>.

ولم تفلح الجهود الإصلاحية التي تبناها الأمير الحاج آل ملك نائب السلطنة، فقد اصطدمت جهوده برغبة مغالي السلطان، الطامحات الجامحات، وكذا تعارضت جهوده مع رغبات بعض الأمراء الذين حرصوا على استمرار أوضاع البلاد على ما هي عليه من إشغال السلطان بمغاليه، ما يعود عليهم بالنفع، وتحقق ما يصبون إليه من أطماع<sup>(٣٣)</sup>.

ولم ينه هذا الاحتقان إلا سقوط السلطان الصالح إسماعيل فريسة للمرض، وتزايد عليه المرض حتى عجز عن الحركة. وفي ربيع الآخر ٧٤٦هـ/أغسطس ١٣٤٥م لفظ السلطان أنفاسه الأخيرة، وعمره آنذاك كان قد بلغ العشرين. واتفق الأمراء على تنصيب أخيه شعلان سلطاناً، ولقبوه بالكامل. ومن المؤسف أن هذا الفتى سار على نفس الدرب الذي سار فيه أخوه إسماعيل. واستهل سلطنته بالاستيلاء على جوارى أخيه، وخص نفسه بالمغنية اتفاق، وصرح بإعجابه بها منذ أن كانت تحت أخيه، فبانت عنده في أول ليلة له وهو على عرش السلطنة<sup>(٣٤)</sup>.

وجرت علاقة الكامل شعلان بالمغنية اتفاق مثلما كانت عليه علاقتها بأخيه إسماعيل، فقدم لها الهدايا الثمينة، وهد من العنارات والممتلكات وما شابه ذلك، فحققت ثروة طائلة، وكذا أصبحت سيدة ذات نفوذ واسع في بلاط السلطنة، بله في أرجاء البلاد كلها كما سنرى بعد.

وأما عن شراء اتفاق، فإن ما قدمه السلطان الكامل شعلان لها من هدايا نفيسه وثروات كانت مضرب الأمثال، ومثار عجب الخاصة والعامة، حتى قيل إنه لم يكن لامرأة في زمانها من الحظوة والسعادة مثلما كان للمغنية اتفاق. ومما قدمه لها السلطان من هدايا أنه أقام لها ديار بيت<sup>(٣٥)</sup> طوله اثنين وأربعين ذراعاً، وعرضه ستة أذراع، وألفق على تكلفته خمسة وتسعين ألف دينار مصرية، هذا فضلاً عما أضيف إليه من البشاعة والمخاد والمساتد<sup>(٣٦)</sup>، ومن جملة ما تملكه اتفاق من الأغراض باهظة الثمن أربعون بدلة ثياب مرصعة بالجواهر، وست عشرة بدلة بدابر زركش، وتمساون بدسة أخرى

مقلعة، بلغت قيمة بعضها عشرين ألف درهم، وأقلها قيمة بلغ ثمنه خمسة آلاف درهم، هذا بالإضافة إلى أشياء أخرى ذات قيمة عالية<sup>(١١٠)</sup>.

وإذا كان إسراف الكامل شعبان على المغنية اتفاق أمراً مثيراً للعجب، فإن ما يفوقه عجباً أنه خصها بجزء من الأموال التي صادرها من بعض الذين غضب عليهم من رجال دولته. ومن ذلك أنه في جمادى الأولى سنة ٧٤٦هـ/سبتمبر ١٣٤٥م ألقى القبض على أحد الرجال الأثرياء، وصدر الأمر بمصادرة ممتلكاته، واختار السلطان واحدة من دوره العظيمة، وقدمها هدية لمغنيته المحبوبة اتفاق<sup>(١١١)</sup>.

ومن المؤسف أن الكامل شعبان اتبع سياسة مصادرة الأموال لتوفير ما يلزمه ليكفمه بين يدي مغنيته المحبوبة، ويبقى مغنياً في لهوه مع اتساق ورفيقاتها. ومن المعروف أن الكامل شعبان كان يتلقى أموالاً طائلة لإرضاء شهواته مع جواريه، وعلى رحلات التنزه التي بالغ في الإفلاق عليها، وطالت مدة إقامته في أماكن التنزه، ما جعله في حاجة مستمرة للأموال، ومن ذلك على سبيل المثال، أنه خرج في مستهل فسي جمادى الآخرة سنة ٧٤٦هـ/٢٩ سبتمبر ١٣٤٥م إلى سرحة مسرياقوم، واصطحب معه حريمه، وأمر بنصب الخيام لهن في البساتين<sup>(١١٢)</sup> وأخلى لهن المناظر المخصصة للأمرء، فنزل أكثرهن بها. وفي هذه الرحلة اشغل السلطان بتحصيل مذاقته، والقنسى العماليك أثر منسلطهم، فأسرفوا في شرب الخمر، والمجاهرة بارتكاب الفواحش، وساعت سيرتهم في الناس<sup>(١١٣)</sup>.

وتابع الكامل شعبان السعي وراء شهواته فقرر الزواج بواحدة من بنات العماليك المعروفات بالجمال. وفي شعبان ٧٤٦هـ/سبتمبر ١٣٤٥م جرت الاحتفالات بمناسبة زواج السلطان، وكانت الفرصة مواتية لكي تضج القلعة سبعة أيام بولايها من الاحتفالات البهيجة التي أقامها السلطان. واجتمع في هذا العرس عدد ضخم من المغنيات، وعلى رأسهن اتفاق. وأطلق السلطان يده للاتفاق بسخاء على المغنيات، فحصلن على هدايا نفيسة من الذهب والفضة والحريز، هذا فضلاً عن هدايا أخرى يجبل وصلها. وبلغ نصيب ضامنة المغالي بمفردها من هدايا السلطان ثمانين ألف درهماً، بالإضافة إلى ما أخذته المغنيات الأخرى<sup>(١١٤)</sup>.

ولما كان السلطان يذوب عشقاً في مغنيته اتفاق، فإنه لم يدع فرصة أو مناسبة تفوته بدون أن يقدم لها هدية تعبر عن مكنون قلبه. فبعد خروجها من عرسها السابق ذكره بهدايا ثمينه، إذا بالكامل يقدم لها هدية في رمضان من نفس العام عبارة عن دولابن كانا ملكاً لأحد رجال الدولة، وعوض صاحبهما بثمانمائة وعشرين ألف درهم<sup>(١١٥)</sup>.

وما أن انتهى شهر رمضان سنة ٧٤٦هـ/يناير ١٣٤٦م حتى عاد الكامل شعبان إلى سياق عهده في إقامة الاحتفالات. ومن ذلك أنه أقام حفلاً ضخماً في ذي القعدة احتفالاً بزواج طوائفي من جارية من مماليكه. وحضر السلطان العرس، وكعادته اصطحب اتفاق ورفيقاتها، وألقى عنيهن في هذا العرس أموالاً طائلة، ونثر فيه الذهب على العروسين<sup>(١١٦)</sup>.

ولازلت المقنية اتفاق صاحبة المكائة لدى السلطان، فعندما صودرت أسواق الأمير قماري نائب طرابلس<sup>(٤١)</sup>، ووصلت خزائنه إلى القنعة في المحرم سنة ٧٤٧هـ/مايو ١٣٤٦م أخذ الكامل منها قماش نساء هذا الأمير وقدمه هدية لاتفاق وبعض المقنيات الأخريات. ثم خص اتفاق بثروة نائب طرابلس، والتي بلغت ما يصل وزنه إلى سبعين مثالا من الجوهر<sup>(٤٢)</sup>.

وبالغ السلطان في احتفاله بالمقنية اتفاق حدأ فاق الوصف، وانشق باللهو معها هي وصاحبها عن إدارة شؤون البلاد. ومن ذلك أن اتفاق أنجبت للسلطان ولدا في ربيع الآخر سنة ٧٤٧هـ/أغسطس ١٣٤٦م، ففرح بمولوده فرحاً عظيماً، ويبدو أنه كان في طريقة إلى إقامة احتفالات أسطورية تعجز عنها خزائن الدولة، وتثير حفيظة نفر من المماليك، لذلك نصحه الأمير أرغون العائلي<sup>(٤٣)</sup> زوج أمه ومدير دولته بالتوقف عما يسعى إليه، واختصر السلطان احتفالاته فجاءت في سبعة أيام. وأما اتفاق أم الولد<sup>(٤٤)</sup> فقد أقام السلطان لها بنسخاته وديار بيت، وغشاء مهد الولد، وقماطة، تكلفت ستة وثمانين ألف دينار. هذا فضلاً عما أنفق على أرباب الملاهي الذين شاركوه احتفاله بمولوده الكثير<sup>(٤٥)</sup>.

وبذلك قضى الكامل شعبان سلطنته شغوفاً باللهو والعب وسماع الأغاني، والميل إلى المقنيات، والوقوف تحت تأثيرهن، وسعى ما وسعه السعي نحو تحقيق رغباتهن. فخرج بهن إلى أماكن التزه والصيد وعب الكرة، وهن على أخصن ما يكون من الزينة، هذا مع عدم التزامهن بالأداب العامة التي انتقدتها المعاصرون<sup>(٤٦)</sup>. كما أطلق ليديهن في أخذ أموال الناس، كالبساتين والرزق والدوايب ونحوها. ومن ذلك على سبيل المثال أن المقنية اتفاق أخذت عدة مستلكات كالثملأ لأحد الأكرباء، وسارت أم السلطان على نهجها، فأخذت من هذا الرجل أيضاً بعض المستلكات الأخرى<sup>(٤٧)</sup>.

وأصبح من المتوقع أن تأتي نهاية السلطان الكامل شعبان جراء اتباعه شهواته، وانصرافه إلى اللهو والعب، والإسراف بسفه على المقنيات. كما سعى بكل جهده لإرضاء رغباتهن، وتنفيذ ما يطمحن إلى تحقيقه. ومن ذلك أنه اتخذ قراراً في نهاية سنة ٧٤٦هـ/مارس ١٣٤٦م بالخروج إلى الأراضي الحجازية أداء فريضة الحج مدفوعاً برغبة نساته. وسعى الكامل شعبان إلى إعداد تجهيزات أسطورية لهذه الرحلة، ولما كانت خزانة الدولة لا تفي بتغطية نفقاتها، فإن السلطان لجأ إلى مصادرة الأموال. ومع مطلع سنة ٧٤٧هـ/أبريل ١٣٤٦م اشتد في مطالبة أهل التواهي بتجهيز متطلبات سفره إلى الحجاز، والإسراع في توفير الأموال من مصر وبلاد الشام جميعاً<sup>(٤٨)</sup>.

والواقع إن السلطان وجد من بين أمراله مخلصين نصحوه بتأجيل حجه، وهؤلاء الأمراء مدفوعون بعنهم أن أوضاع البلاد الاقتصادية لاحتمل مثل هذه النفقات التي يعزّم السلطان إنفاقها، وأبلغوه أن الزراعة في البلاد قد تضررت وترجع إنتاجها، وأن بعض أعرابان خرجوا عن طاعة الدولة. ولكل هذه الأسباب لا يجب عليه أن يخرج إلى الحجاز، واقنع السلطان بمشورة ناصحيه، وترجع عن قرار سفره<sup>(٤٩)</sup>.



وجاءت الظامة على حياة السلطان وملكه من قبل نسائه، فقد رفضن فكرة تراجعه عن السفر، وأخذن في تقوية عزمه على متابعة الاستعدادات اللازمة. ومن المؤسف أن السلطان مال إلى رغبة نسائه، ولم يقدر أوضاع البلاد بما تستحق من الاهتمام. وخرجت كتبه إلى أرجاء الدولة، بإعلان الثواب لقرار سفر السلطان إلى الأراضي الحجازية، وبأمرهم بتجهيز ما يحتاج إليه. هذا القرار أزعج أمراء الدولة وكبار موظفيها، وعكس صفو الناس جراء ارتفاع الأسعار لهذا القرار، وتوقفت أحوال البلاد. وللمرة الثانية حاول عدد من عقلاء الأمراء إقناع السلطان بالتخلي عن السفر هذا العام، ولكنه لم يقو على مخالفة رغبة نسائه. وقرر عدد من الأمراء الخروج عن طاعة السلطان، وتبهم عدد آخر، وتزايد عدد الأمراء المتمردين، واشتعلت الفتنة بين السلطان وهؤلاء الأمراء، واشتبك المعسكران في قتال عنيف. وفي نهاية المطاف نجح الأمراء في الانتصار على السلطان، وألقوا القبض عليه، وقتلوه في جمادى الآخرة سنة ٧٤٧هـ/سبتمبر ١٣٤٦م. ثم نصبوا أخاه حاجي سلطاناً، ولقبوه بالمظفر، وعمره آنذاك حوالي خمس عشرة سنة<sup>(١٠٠)</sup>.

ولما كان شطط المغنية اتفاق وهوأما من الأسباب القوية التي أودت بالسلطان إلى التهلكة، ولثرت سلباً على أوضاع الدولة، فإنه مع جلوس المظفر حاجي على عرش السلطنة صدر الأمر بطردها من القلعة، ثم مصادرة ما بجوزتها من أموال، فأخذوا منها أربعين بدلة مكللة بالجواهر واللآلئ، والمائتين بدلة ممتعة، بلغ لمن ألقها مائتي دينار، ووصل أجودها إلى ما يزيد عن ألف دينار، واستردوا منها أيضاً ما أخذته من الناس<sup>(١٠١)</sup>.

وبعد أشهر قليل من تولي المظفر حاجي السلطنة سار في الطريق الذي سلكه إخوته الذين جلسوا قبله على العرش. ففي أوائل شوال سنة ٧٤٧هـ/يناير ١٣٤٧م تزوج ابنة الأمير تنكل، وهي أرملة أخيه شعبان، ثم في أواخر الشهر نفسه تخلع عن ثوب الحياء، وطلب المغنية اتفاق معزوفة أخويه إسماعيل وشعبان، وصعدت اتفاق إلى القلعة وجواربها يصحبها مع الخدام، وتزوجها السلطان في الخفاء، واحتفل بها السلطان احتفالاً بهيجاً، فكثف عن وجهها، وفرش تحت قدميها ستون شقة أطلس، وتر عليها الذهب. وتقدمت اتفاق المشهد فضربت بعودها، وشدت بصوتها، فأعجب السلطان بانغماسها، فأنعم عليها بأربعة فصوص وست لؤلؤات، قدر ثمنها بأربعمائة ألف درهم<sup>(١٠٢)</sup>.

ثم أمر المظفر بإعادة المرتبات التي قطعت عن اتفاق وجواربها وخدامها إسيهن. وأعاد مجالس الغناء إلى القلعة، وانهمك في النهو والإفلاق على أرباب المغاني. وشغف باتفاق شغفا شغله عما دونها من النساء، وملكت قلبه بفرط حبه لها. ولما رأى الأمراء ما دهم السلطان من هيامه بتلك المغنية صرحوا بانتقاسهم لملكه هذا، وغضب السلطان غضباً شديداً لما بلغه انتقاسهم إياه، ولولا تدخل بعض العقلاء منهم لاشتعلت الفتنة بين السلطان وأمرائه<sup>(١٠٣)</sup>.

وعلى كل حال، فإن نهاية سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦-١٣٤٧م شهدت تدهورا ملحوظا لاقتصاد دولة سلاطين المماليك، ولم يعد في استطاعة خزنة الدولة تحصيل النفقات الباهظة التي يتلقاها السلطان على مغنيته وجوارها ومجالس لهوه معهم. واتخذت الدولة إجراءات تشفوية لعلها تلبيد في إعادة الاقتصاد البلاد إلى نصابه الصحيح<sup>(٢١)</sup>.

ولم يعد أمام كبار الأمراء إلا التذلل بالنصح لدى السلطان ليعدل عن سلوكه تجاه مغنياته، وينتهي عن النهو والإسراف في الإنفاق عليهم. وأصفى السلطان إلى بعض من نكروه باحتمال وقوع فتنة لا تحمد عقباها على ملكه وحياته شخصيا، وأن هناك بعض الأمراء لا يأمّن لهم مكرًا. وقبل السلطان نصيحتهم على مضض، وظهر وكأنه وعى دروس الماضي مما جرى على بعض إخوته السابقين. ورسم السلطان بإخراج المغنية اتقاق، واثنتين أخريين من حظاياها، واحدة تدعى مسلمي، والأخرى معروفة بالكركية. فأخرجهن وهو مجبر على ذلك غير مخير، وضائق بهذا الأمر صدره. وأما هؤلاء المغنيات فقد خرجن بدون أن يحملن شيئا مما حصلن عليه من هدايا جوهر وزرکش. بل أجبرت اتقاق على تزج عصابتها عن رأسها، وهي عصابة مشهورة عند الخاصة والعامة بقيمتها الغالية، فقد صنعتها من الهدايا التي أخذتها من الصالح إسماعيل والكامل شعبان ثم المظفر حاجي. وكانوا جميعا أسخياء في هداياهم لها، فبلغت قيمة هذه العصابة ما يزيد على مائة ألف دينار مصرية<sup>(٢٢)</sup>.

وبرغم طرد اتقاق من القلعة، وابتعادها عن حجور السلاطين، فإنها لم تكن امرأة عادية ككل النساء. بل إنها ظلت تحتفظ بشيء جذب الرجال الغرورقون إليها. فتزوجها الوزير موفق الدين حبة الله بن سعد الدولة إبراهيم<sup>(٢٣)</sup>، وانتقل هذا الرجل موقعه في الدولة أسوأ استغلال، فخصص سبحانه كلف درهم من خزنة الدولة راتبها سنويا لزوجه اتقاق وخدامها ومن يولد بها. وظل هذا الراتب يصرف لها حتى بعد وفاة موفق الدين هذا في ربيع الآخر سنة ٧٥٥هـ/مايو ١٣٥٤م<sup>(٢٤)</sup>.

وظلت اتقاق مرغوبا فيها من الرجال حتى بعد تقدمها في السن، ففي شوال سنة ٧٦٦هـ/يوليو ١٣٦٥م وصل إلى مصر رجل يدعى حلي عبد الحكيم فارا من المغرب، ونعته المقرئ بسـالسلطان، فأكرمه السلطان الأتشف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون، وأجرى له الرواتب السنوية، وبعد استقراره في مصر زوجه السلطان من اتقاق، ثم لم يعد يعلم لها خبر بعد ذلك<sup>(٢٥)</sup>.

وعودة إلى المظفر حاجي ننظر أحواله بعد إجباره على التخلص من مغنياته، فإنه لم يعد إلى جادة الصواب، بل اتجه إلى نوع آخر من التسلية، قضى فيه وقته في لعب ولهو، فقد أنشأ حظيرة حمام، وجلب إليها أنواعا مختلفة منه، فبلغت تكلفة ذلك سبعين ألف درهم. وانشغل المظفر عن إدارة أمور السلطنة بما استجده من اللعب بالحمام. ثم قرب إليه نفر من عوام الناس، وجعلهم صحبته في حله وترحاله، وشاركهم في ألعابهم الساخرة. ووجد مسلك السلطان هذا انتقاد بعض الأمراء، واعتبره إنحرافا عن تقاليد السلطنة. وأما السلطان فإنه غضب من هؤلاء الأمراء، وثارت ثائرتة ضدهم، وقام إلى

الحمام فذبحه بيده، ولم يتملك تلاميذ أمره فصرح بتهديده للأمرء المعارضين لقلته أنه سينبجهم كما ذبح الحمام. وفي ربيع الآخر ٧٤٨هـ/يونيو ١٣٤٧م سنحت الفرصة للسلطان بتفويض تهديده، وتوجع في التخلص من بعض الأمرء، وبدى أن الأجواء قد صفت للمظفر، وأن بقية الأمرء جنحوا للسلم<sup>(٣١)</sup>.

ولما اعتقد المظفر حاجي أنه قد ملك زمام الأمور في البلاد عاد إلى سابق عهده من الانهماك في التهو والتعب، وجمع أرباب الملاهي وأقرط في تحصيل ملذاته أكثر من ذي قبل. ومن ذلك أنه في مستهل شعبان سنة ٧٤٨هـ/نوفمبر ١٣٤٧م رأى أن يخرج جماعة كبيرة من الأمرء في مهمة بعيداً عن القاهرة، فيخلو له الجو ويلهو على هواه. فتوجه جماعة من الأمرء إلى الصيد، وأخرج أرقطاي النائب<sup>(٣٢)</sup> إلى الوجه القبلي. وإمعاناً من المظفر في طلب المتعة، والاختلاء مع مغتايه وأرباب الملاعب، فقد حدد ميعاد عودة الأمرء من مهامهم في العشر الأخير من شهر رمضان. وانطلق السلطان إلى اللعب والتهو، وشارك بنفسه العبيد وأرباب الملاعب والأويسان وأرائل الطوائف أعبابهم، وقلدهم فيما يفتلون. فكان يقضي نهاره في اللعب مع هؤلاء، ويصعد إلى القلعة ليلاً ويصحبه المغتاي وأرباب الملاهي<sup>(٣٣)</sup>.

وفي هذه الفترة شفق المظفر حاجي بمغيبه تدعى كيدا، ونزات لديه منزلة اتفاق. وفتح خزائنه لإرضاء مغيبته، فاشترى لها أملاكاً بالقاهرة بلغت قيمتها مائة ألف درهم، وصاحبته في ليله ونهاره، وحله وترجأه. وتناقلت الأمن بيده السلطان مع مغيبته ورفقتها، ولما بلغت هذه الأخبار الأمرء الذين أخرجهم السلطان بعيداً عن القاهرة، فإتاهم أسرعوا في إنهاء مهامهم، وقرروا العودة قبل الميعاد الذي حدده السلطان لهم من قبل، فوصلوا القاهرة في أواخر شعبان<sup>(٣٤)</sup>.

وعلى الرغم من عودة الأمرء إلى القاهرة فإن السلطان لم يرتدع عن المسفه الذي الخرط فيه، وواصل سلوكه الطائش. ومن ذلك فإنه في أوائل شهر رمضان وصلت إلى القلعة أموال يبلغها اليحوي<sup>(٣٥)</sup> نائب دمشق بعد إلقاء القبض عليه ومصادرة ممتلكاته، فأخذ السلطان منها عشرين ألف دينار وأهداها إلى كيدا، ثم أعطاهما جلسة أخرى من الجواهر والألكن. ونثر الذهب على الجوارى والخدم، ثم ألقى ذهباً ولؤلؤاً على لاعبي الحمام والفراشين والعبيد، وألقى مالاً يبلغها جميعه عليهم، وكان يقدر بثلاثين ألف دينار وثلاثمائة ألف درهم، فضلاً عن الجواهر والحلي واللؤلؤ والزررکش والمصاغ، وقدر ذلك بما يزيد على ثمانين ألف دينار، ولم يترك من مال يبلغها سوى القماش<sup>(٣٦)</sup>.

وما فعله السلطان من سفه وسوء تدبير أثار حفيظة عدد كبير من أمرء العماليك، ولم يعد هناك مفر من وقوع تصادم بين الفريقين. ثم إن نجاح السلطان من قبل في التخلص من الأمرء المعارضين جعله يستهين بشأن هؤلاء الأمرء، واعتقد أن غضبهم سيهدأ بمجرد تهديده إياهم، أو ربما يضطر إلى التخلص من بعضهم ليبيث الرعب والحذر في نفوس الآخرين. ولكن الأمرء كانوا قد عقدوا العزم على التخلص

من المظفر قبل أن تطول يده أحدهم. وخرج كل فريق منهما بألة الحرب، واشتعلت القلعة وشوارع القاهرة بالفتنة، ولم تنته إلا وقد ألقى الأمراء القبض على السلطان، ثم عاجلوه بالذبح في الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة ٧٤٨هـ/ديسمبر ١٣٤٧م، واختاروا لأخاه حسن سلطاناً، ولقبوه بالناصر، وعمره آنذاك إحدى عشرة سنة<sup>(٢٧)</sup>.

وأما السلطان الناصر حسن هذا فإنه تولى السلطنة مرتين؛ الأولى انتهت بخلعه وتولية أخيه الصالح صالح في جمادى الآخرة سنة ٧٥٢هـ/يوليو ١٣٥١م، ثم تولاها في المرة الثانية بعد خلع الصالح في شوال سنة ٧٥٥هـ/أكتوبر ١٣٥٤م، واستمر سلطاناً حتى مقتله في جمادى الأولى ٧٦٢هـ/مارس ١٣٦١م. ولما كان الناصر حسناً في سلطنته الأولى صبياً صغيراً فقد تولى إدارة شؤون البلاد عدد من كبار الأمراء، وعلى رأسهم أرقطاي النائب، ومنجك اليوسفي، ثم شيخو العمري<sup>(٢٨)</sup>.

اتخذت إجراءات صارمة تجاه حواشي السلطان المظفر حاجي لتصحيح ما تم إتلافه على أيديهم، واسترداد ما أخذوه من أموال الدولة بغير وجه حق. وفتحت شاد التواوين<sup>(٢٩)</sup> باب التحقيقات مع عدد من هؤلاء الحواشي، واعترف الخدام على المغيبة كيذا أنها حصلت وحدها في مدة شهرين على نحو خمسة وثلاثين ألف دينار، ومائتين وعشرين ألف درهم. كما حصل بالي أرباب الملاهي على أموال طائلة، فضلاً عما حصل عليه العبيد والغراشين ومطيري الحمام<sup>(٣٠)</sup>.

وفي منتصف شهر رمضان سنة ٧٤٨هـ/ديسمبر ١٣٤٧م كان قد تم حصر الأموال التي أنفقها المظفر سفهاً بغير حق على المغالي وأرباب الملاعب، ثم بدأ موظفو الأموال بالدولة في تتبع هؤلاء المنتفعين واسترداد ما أخذوه من أموال. فبسي البداية كتبت أوراق بمرتبات أرباب الملاهي والخدام والعبيد والجواري، وصدر المرسوم بقطعها جميعاً. وأما الثروات التي أخذتها المغالي من باب الهدايا وما شابه ذلك، فإنها كانت على قائمة الأموال المطلوب استردادها، وجرى التحقيق مع المغيبات التواتي خارج القلعة، وجاءت على رأسهن مغيبة عرب الجيزة، وتدعى دبيعة. وكانت دبيعة هذه تصعد إلى القلعة، فتعني وترقص هناك. كما تم استدعاء ضامنة المغالي، وخضعن للتحقيق، ثم أكرمت تلك السيدتان بدفع مبالغ معينة من الأموال مقابل ما حصلن عليه من بيت المال<sup>(٣١)</sup>.

وأما الجواري التواتي بالقلعة فإنهن عُرضن للتفرقة بين من أعنت منهن، ومن هي على حالها. ورسم بترويج الحرائر منهن، ووُزعت الباقيات على الأمراء. ثم في شهر رمضان سنة ٧٤٨هـ/ديسمبر ١٣٤٧م أحبط بأموال المغيبة كيذا، كذا جرى مع بقية حظايا المظفر، ثم أُنزلن من القلعة<sup>(٣٢)</sup>.

وكانت الأوضاع المالية في الدولة ككل في حاجة إلى إعادة نظر، وليس الأمر قاصراً على حركة التصحيح والتطهير التي جرت لاسترداد الأموال المنهوبة من أرباب الملاهي وأرباب الملاعب وغيرهم من حواشي السلطان السابق. بل إن الأمر كان في حاجة إلى تغليب نفقات الدولة. وجلس الأمراء ليبحث الإجراءات الضرورية، واتفقوا على

تخفيف لكلف السلطانية، وتقليل المصروف بسائر الجهات. وبدأ موظفو الأموال في جرد وإحصاء حسابات الدولة، وكتابة أوراق بما على الدولة من نفقات<sup>(٨١)</sup>.

واستمر التوجه الإصلاحى اقتصادياً واجتماعياً، فعلى الصعيد الاقتصادى كان أرباب الأموال قد انتهوا في ذي الحجة سنة ٧٥٠هـ/فبراير ١٣٥٠م من ضبط أوراق الدولة، وحصر ما استجد عليها من التزامات منذ وفاة الناصر محمد بن قلاوون وحتى المحرم سنة ٧٥٠هـ/مارس ١٣٤٩م. فوجدوا أن جملة ما أئتم به وما خرج إقطاعاً من بلاد الصعيد وبلاد الوجه البحرى وبلاد الفيوم وأراضي السلطان وأراضي الرزق لصالح الخدم والجواري وغيرهن بلغ سبعمائة ألف ألف أردب، وألف ألف وستمائة ألف درهم كل هذه الأموال قد جرى تخصيصها لصالح أناس من الأمراء والخدم والنساء. وكثفت فحص تلك الأوراق ما وقع فيه نفر من كبار الأمراء من تجاوزات، ولذلك عندما قرأت الأوراق بحضورتهم، وكشفت تجاوزاتهم لم ينطق أحد منهم بكلمة<sup>(٨٢)</sup>.

وأما على الصعيد الاجتماعى، فإنه أيضاً في ذي الحجة سنة ٧٥٠هـ/فبراير ١٣٥٠م خرج الوزير منجك اليوسلى بتوجه إصلاحى اجتماعى، وذلك أنه رأى إنحرافاً فيما أحدثته عوام النساء في ملابسهن، فقد ذهبت كثيرات منهن إلى تقليد نساء السلطان وجواريهن اللواتي بالغن في الإنفاق على أزيائهن، وأحدثن قمصاناً غاليات الثمن، ويمتد طولها على المرأة حتى ينسدل ذيلها على الأرض. وأتت بعض القضاة بتحريم هذه الأزياء، وهذه الفتوى شجعت الوزير على الخروج إلى الشوارع وبيوت أرباب الملاهي لإرهاب النساء ومنعهن من ارتداء هذه الأزياء<sup>(٨٣)</sup>.

وامتدت سلطنة الناصر حسن الأولى ثلاث سنوات وتمتعة أشهر وأياماً، وتولى السلطنة وعمره إحدى عشرة سنة، وهو ما يعنى أن الفترة الأولى لحكمه كان ما يزال صبياً، ولم يكن قد بلغ من السن ما يجعله يسعى وراء شهوته، هذا فضلاً عن أنه أحبط بعدد من الأمراء الأقوياء الذين يتربصون به الدوائر، فوقع تحت حجرهم، وحتى عندما رشد نفسه فإنه لم يستطع الأفراد بالسلطنة من دونهم. وهذه الأمور منعت الناصر حسن من القيام بدور البطولة في مسلسل سقوط السلاطين أبناء الناصر محمد في مستنقع أرباب الملاهي. ولم تشهد سلطنة حسن الأولى تجاوزات من السلطان تجاه المغنيات وأرباب الملاهي، وحتى عندما أقام عدة احتفالات بمناسبة زواج إحدى أخواته وبعض مماليكه فإن هذه الاحتفالات لم تشهد ابتزازاً أو سفهاً أخلاقياً، مثلما كان يجري من إخوته السابقين. وخسر الناصر حسن سلطنته ولم يخسر حياته، فقد وقع ضحية الدخول في صراعات أمراء المماليك مع بعضهم البعض<sup>(٨٤)</sup>.

وأما الصالح صالح فإنه تولى السلطنة وعمره حوالي خمس عشرة سنة، وانقضت سلطنته وهو تحت حجر الأمراء، وبخاصة شيخو وصرغتمش<sup>(٨٥)</sup>. وعندما سعى للتحرر من قبضة الأمراء، فإن عاقبة ذلك لم تحمد له. ففي رمضان سنة ٧٥٥هـ/سبتمبر ١٣٥٤م اتجه الصالح إلى مرياقوس وأقام بها، واستدعى أرباب الصنائع والشغل بالثمن معهم، واتفق عليهم أموالاً كثيرة، فقام الأمير شيخو للسلطان

وأكثر عليه هذه الأمور، واعتقد الصالح خطأ أن بإمكانه التخلص من هذا الأمير، فكان تدميره في تدميره، وخرج عليه الأمير شيخو، وألقى القبض عليه وسجنه، وأعاد أخاه حسن إلى السلطنة<sup>(٨١)</sup>.

وتولى الناصر حسن السلطنة للمرة الثانية في أوائل شوال سنة ٧٥٥هـ/أكتوبر ١٣٥٤م، وكان قد تجاوز الثماني عشرة سنة. وأبى الناصر حسن إلا أن يكون مثل إخوته السابقين الذين هاموا بسماع المغنيات طربا، وانخرطوا في اللهو مع أرباب الملاهي. فأشارت عدة مصادر إلى أن السلطان الناصر حسن أقبل على النساء الجميلات، واقتنى منهن عددا كبيرا فاق الحد، وشغف بهن شغفا زادا، واشتهر سغفه بين الناس فعرفه القاضي والداني. والشغل باللهو والطرب، فضم إلى مجلسه النساء المغنيات وأرباب الملاهي، بل إنه اعتنى عناية خاصة بأرباب الفن من المغاني قاطبة، وكان إذا خرج في سفر اصطحب النساء معه<sup>(٨٢)</sup>.

وعلى الرغم من إن الناصر حسن لم يرد عنه أنه اقتص بوحدة من المغنيات، كبعض إخوته الذين ارتبطوا بمغنيات بعينهن، فإنه منك نفس الدرب الذي منكه إخوته السابقون في المجون مع أرباب المغاني، والسفاهة في الإنفاق عليهن. ومن عجيب الاتفاق أن هلك الناصر حسن جاء مفروضا بعلاقته بوحدة من النساء المغنيات. ففي جمادى الأولى سنة ٧٦٢هـ/مارس ١٣٦١م علم الناصر أن الأمير بلبغا الخاصكي ينكر عليه منحه إقطاعات كبيرة للنساء، وأن بلبغا يستعد للوثوب عليه، فأسرع السلطان بالقبض عليه وأهانته، ثم ثبت له أن بلبغا بريء، ولحق إن إيطي حظايا السلطان هي التي شغفت في بلبغا، فألجج عنه واعتذر له. وبعد أيام قاتل خرج بلبغا بالفعل عن طاعة السلطان، وأعلن تمرده عليه. وليس السلطان رداء الحرب ليحتمي ملكه وروحه، ولكنه كان أعجز عن أن يفعل ذلك، فقد انتصر بلبغا على السلطان وضربه، وألقى القبض عليه وقتله<sup>(٨٣)</sup>.

وكتب أحد شعراء العصر أبياتاً من الشعر، عرض فيها بأخلاقيات الناصر حسن، والسفاهة والمجون الذي ارتكبه، ونم تقريبه القينات وأرباب الملاهي. وكتب هذا الشاعر أبياته مستخدما أسماء سور القرآن الكريم للتعريض على ما منكه الناصر خلال سلطنته الثانية من أخطاء، وما جرى عليه من سوء خاتمة، فقال:

لما أتى للعاديات وزلزلت	حفظ النساء وما قرأ الواقعة
فلأجل هذا الملك أضحى لم يكن	وأنى القتال وفصلت بالقارعة
لو عامل الرحمن فلأ بكهفه	وبنصره في عصره للسابعة
من كانت القينات من أحزابه	قطع به الدخان نار لامة
تبت يدا من لا يخالف من الدعا	في النيل إذا بغضى يقع في النار <sup>(٨٤)</sup>

وهكذا انتهت فترة حكم أبناء الناصر محمد بن قلاوون، وبلغ عدد أبناء الناصر الذين تولوا السلطنة ثمانية، وتولى الناصر حسن السلطنة مرتين. ثم انتقلت السلطنة من بعدهم إلى عدد من أحفاده.

وارتبط هؤلاء السلاطين بالفناء والمقنيات، ومجالس اللهو، ويستثنى اثنان منهم هما: كجك وحسن في سلطنته الأولى، وذلك لصغر سنهما عند توليهما السلطنة.

وفي هذه الفترة اشتهرت مقنيات بعنبا، وذاع صيتها في أرجاء البلاد، وارتبطت بعلاقات قوية بالسلاطين الذين عاصروهن من أبناء الناصر. وبلغ حد الحميمية في العلاقة أن ثلاثة من أبناء الناصر هم: إسماعيل وتسعين وحساجي تزوجوا بالتعاقب بواحدة من هؤلاء المقنيات هي اتفاق.

ترك ارتباط السلاطين من أبناء الناصر بالمقنيات آثاراً سلبية على البلاد، فتأثرت الأوضاع المالية للدولة جراء إنفاق السلاطين ببذخ على المقنيات ومجالسهن حتى بلغ حد السفه، وعانت الدولة معاناة شديدة جعلت الأمراء القائلين على أمرها يتخذون تدابير تشفوية لمواجهة تلك الأزمة المالية.

وعلى الصعيد الاجتماعي سرت عدوى تقليد نساء الشعب للمقنيات ونساء السلاطين في أزيائهن، فخرجن عن المألوف من وجهة نظر المعاصرين. ووجهت انتقادات لاذعة إلى أزياء النساء، وصدرت فتاوى العلماء التي تمنع ما ابتدعته، وسعى بعض رجال الدولة لمواجهة مطالب النساء.

ثم إن أخطر ما تركه وجود المقنيات في بلاط السلاطين من أبناء الناصر هو أن كثيراً منهم دفع حياته ثمناً لزوجته، والإنصراف نحو اللهو مع هؤلاء المقنيات. لقد قدموا الحجة للأمراء الطامعين في النفوذ للقيام بالتمرد عليهم، ففقدوا عرشهم، بل منهم من فقد حياته أيضاً، وجرت أمور السلطنة في أيدي الأمراء الألقاباء فينتصبون من برونه منهم مطيعاً، أو خالفاً لمصلحتهم.

### المواهب

- (١) ابن منظور، لسان العرب، حققه عبد الله على الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، د. ت، مج ٥، ص ٣٢٠٩ - ١٣٢١٠ عبد السلام الترماني، الرق، ماضيه حاضره، عالم المعرفة، عدد ٢٣، الكويت، نوفمبر، ١٩٧٩، ص ٩٧ - ٩٨؛ محمد قنديل البقلى، الطرب في العصر المملوكي (الغناء - الرقص - الموسيقى) الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤، ص ١١٠ على السيد محمد، الجوازي في مجتمع القاهرة المملوكية، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٨٧، ١٨٨ جهور عبد النور، الجوازي، القاهرة، ١٩٤٧، ص ٥٦؛ لطفى أحمد نصار، وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩، ص ١١٤.
- (٢) انتقنين في الأصل هو تزيين المرأة للزفاف، ثم أطلق على تزيين الجارية وإصلاحها وتعليمها الغناء. عبد السلام الترماني، المرجع السابق، ص ١٠٣، ١٠٤، وقال ابن منظور في لسان العرب: التزيين التزين بألوان الزينة، وهي الزينة للرجل والمرأة، وتزين أي تزين لزفافها، والزينة الأمة المتينة، لأنها تزين، وقيل القينة الأمة مقبلة أو غير مقبلة، وقيل للمتينة قينة إذا كان الغناء صناعة لها. وذلك من غسل الإماء دون الحرار. ابن منظور، المصدر السابق، مج ٥، ص ٣٧٩٩.
- (٣) السبكي، معبد التعم ومهيد النعم، حققه محمد على التيجار وآخرون، ط٣، القاهرة، ١٩٩٦، ص ١١٤٤؛ ابن الإخوة، معالم القرية في أحكام الحساب، سمحه روبن ليوبي، كمبريدج، ١٩٣٧، ص ١٥٣؛ سعيد عبدالفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٧، ص ١٣٣.
- (٤) المقرئبي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ٢ تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٣٦ - ١٩٥٨، ج ٣، ٤ تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، ١٩٧٠ - ١٩٧٣، ج ٢، ص ٥٩٣ - ٥٩٤، ١٧١٥ عبد السلام الترماني، المرجع السابق، ص ٩٧ - ٩٨؛ على السيد محمد، المرجع السابق، ص ١٨٨ جهور عبد النور، المرجع السابق، ص ٥٦.
- (٥) سعيد عبدالفتاح عاشور، المجتمع المصري، ص ١٠٣ - ١١٠٤ قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣، ١١٣٦ أحمد عبدالرازق، المرأة في العصر المملوكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩، ص ١٤٢؛ عبد السلام الترماني، المرجع السابق، ص ٩٧ - ٩٨؛ لطفى أحمد نصار، المرجع السابق، ص ١١٤؛ محمد قنديل البقلى، الطرب، ص ٩.
- (٦) الضمان لغة هو الكفالة، أو الالتزام بالشيء، والضامن والضمين هو الكفيل أو الملتزم، وجمعه ضمان أو ضماناء، وتجمع أيضاً ضمن، بضم الضاد وتشديد الميم، وضمن الشيء أي كفل به، وضمنه أباه أي كفله، ويقال فلان ضامن وضمين أي كافل وكفيل، وضمنت



الشرء، أضمنه ضماناً، فلما ضامن، والشرء مضمون، ابن منظور، المصدر السماع،  
مج ٤، ص ٢٦١٠ - ٢٦١٢.

والضمان اصطلاحاً هو التزام شخص بتحصيل ضريبة من الضراب، أو مكس من  
المكوس التي يفرضها السلطان أو الأمير، ويتكفل هذا الشخص في مقابل توليه هذا  
العمل بدفع مبلغ مقرر من المال إلى الديوان المختص، في أوقات معلومة من السنة.  
وإذا زاد متحصل الضريبة عن المقدار المقرر دفعه للديوان أخذ الضامن الزيادة لنفسه،  
وإذا نقصت فعليه أن يكمل المقدار الذي نقص، القائلندي، صبح الأعشى في صناعة  
الإنشاء، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩١٢ - ١٩١٧، ج ٣، ص ٤٧٠.

- Rablo, H., the Financial System of Egypt A.H. 564-741=A.D.

1169-1341. London, 1972, pp. 136-138.

محمد قنديل البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، القاهرة، ١٩٨٤، ص ٢٢٥.

(٧) اللويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، (ج ٢٢ تحقيق فؤاد محمد شلتوت) القاهرة،  
٢٠٠٢، ص ١٢٢٩ اللويري السكندري، الإمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور  
المقضية في وقعة الإسكندرية، تحقيق عزيز سوريال عطية، حيدر أباد، ١٩٧٠، ج ٤،  
ص ١٥١ للمقريزي، المواظ والاعتبار بذكر الخطط والأثار، المعروف بالخطط  
المقريزية، تحقيق أمين فؤاد سيد، لندن ٢٠٠٢ - ٢٠٠٤، مج ١، ص ١٤٥ المقريزي،  
السلوك، ج ١، ص ١٨٦، ١٨٢.

(٨) الجهة تعني الضريبة، فيقال يبطل فلان جهات منكرة، وزادت أموال الجهة الغلانية أو  
نصبت، وغلان وكيل جهة محرمة. ومن ذلك أن القائلندي (صبح الأعشى، ج ٤،  
ص ٢٣) ذكر ديواناً باسم نقرس الجهات. ابن الحاج، المسجل، القاهرة، دت،  
ج ٢، ص ١٣١١ ابن حبيب، تذكرة النبي في أيام المنصور وبينه، تحقيق، محمد محمد  
أمين، القاهرة، ١٩٨٢، ج ٢، ص ٨٠؛ محمد قنديل البقلي، التعريف بمصطلحات صبح  
الأعشى، القاهرة، ١٩٨٤، ص ١٩٣ محمد مصطفى زيادة في تعليقاته على كتاب  
المقريزي، السلوك لمعرفة دولة المنصور (ج ١، القاهرة ١٩٣٦ - ١٩٥٨) ج ١، ص  
٣٧٣، ج ٢، وأضاف زيادة على غير الصواب أن الجهة المفردة هي الضريبة المقررة  
لديوان المفرد، وذلك عند تعقيقه على حوادث السبت العشرين من شوال ٦٤٨هـ/  
الخامس عشر من يناير ١٢٥١م. والمعروف أن السلطان برقوق الذي تولى سلطنته  
الأولى سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م، هو الذي أحدث الديوان المفرد (القائلندي، صبح  
الأعشى، ج ٣، ص ٤٢٧). وأعتقد أن الصواب هو أن الجهة المفردة هي الجهة المستقلة  
عن المعاملات الديوانية، ويباشرها ضامن مفرد، وأحياناً يرتب عليها مقطعون يأخذون  
حقوقهم منها. راجع المقريزي، السلوك، ج ٢، ص ١١٥١ الخطط المقريزية، مج ١،  
ص ١٢٤٠ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق محمد  
حسين شمس الدين، بيروت، ١٩٩٢، ج ٩، ص ٣٨.

(٩) المقريزي، السلوك، ج ٢، ص ١١٥٢ ج ٣، ص ٢٦٦.

- (١٠) ابن حجر، أنباء الغمر بأنباء العصر، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، ١٩٩٤ - ١٩٩٨، ج ١، ص ١٢٧.
- (١١) التويري السكندري، الإمام، ج ٤، ص ١٥١؛ المقرئ، السلوك، ج ٣، ص ١٢٦٦ الخطط، مج ١، ص ٢٨٦؛ ابن حجر، أنباء الغمر، ج ١، ص ١١٢٧ ابن ياس، بذائع الزهور قسي وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، ١٩٨٢ - ١٩٨٤، ج ١، ق ٢، ص ١٦٦.
- (١٢) التويري السكندري، الإمام، ج ٤، ص ١٥١؛ المقرئ، السلوك، ج ٣، ص ١٢٦٦ ابن ياس، المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٤٨٦.
- (١٣) ابن أبيك، كنز الدرر وجامع الغرر، ج ٩ الدرر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق هانس روبرت رويبر، القاهرة، ١٩٦٠، ج ٩، ص ٢٨٦ - ٢٨٧، ٢٩٠؛ للتويري، نهاية الأرب، ج ٣٢، ص ٢٢٩ - ٢٣٠؛ التويري السكندري، الإمام، ج ٤، ص ١٤٦ - ١٥٤؛ ابن حبيب، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٦٩ ابن دقماق، الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين عسي، بيروت، ١٩٨٥، ج ٢، ص ٧٤، ٧٥؛ المقرئ، السلوك، ج ٢، ص ١٥١، ١٥٢ الخطط، مج ١، ص ٨٩، ٢٣٩، ٢٤٠، ١٢٤١ مج ٢، ص ١٤٩٨ ابن تغري بردي، التجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٣٨، ٣٩، ٤٠؛ ابن ياس، المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٤٨٦.
- (١٤) ابن الحاج، المغنل، مكتبة دار التراث، القاهرة، د.ت.، ج ١، ص ٢٤٦، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٨٦ - ٢٨٧، ٣٢٠.
- (١٥) مؤرخ مجهول، تاريخ سلاطين المماليك، نشر Zettersteen، لندن، ١٩١٩، ص ٢١٧.
- (١٦) الشجاعي، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالح وأولاده، تحقيق بربارة شيفر، فيسبان، ١٩٧٨، ص ١١٠، ١١١، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١؛ الصفدي، أعيان العصر وأعيان النصر، تحقيق علي أبو زيد وآخرون، بيروت، ١٩٩٨، ج ١، ص ٦٣٠ - ٦٣٤ ج ٢، ص ٥٩٩ - ٦٠١؛ الصفدي، السوافي بالوفيات، ج ١٦، تحقيق وداة نقاضي، فيسبان، ١٩٨٢، ص ٤٤٧ - ٤٤٨؛ المقرئ، السلوك، ج ٢، ص ٢٣١، ٢٤٠، ٢٤١، ٥٧١، ٥٩٣ - ٥٩٤، ٦٨٠، ١٧٤٥؛ المقرئ، المغنل الكبير، تحقيق محمد البعلبوعي، بيروت، ١٩٩١، ج ٢، ص ٣١٠ - ٣١٢ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج ١، ص ٣٤٨ ج ٢، ص ١٢٢١ ابن تغري بردي، التجوم الزاهرة، ج ٩، ص ١٦٦ ج ١٠، ص ٦٧، ١٤٨، وتكلم هو الأمير المشهور نائب الشام، تسولي نهايته سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م، له إنجازات عديدة في مدة نهايته، فحصل على منزلة ومكانة عظيمة في الدولة ثم حصل عليها غيره، وظل نائباً للشام مقيماً في دمشق حتى ألقى للناصر القبض عليه وقتله في ذي الحجة ٧٤٠هـ/مايو ١٣٤١م. انظر ترجمة مطولة في الصفدي، الوافي، ج ١٠، ص ٢٦٠ وما بعدها. ابن تغري بردي؛ المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج ٤، تحقيق محمد أمين، القاهرة، ١٩٨٦، ص ١٥٦ - ١٦٧.

- (١٧) بكتمر المسالي من ممالك السلطان بيبرس الجاشنكير، ثم انتقل إلى ممالك الناصر محمد بن قلاوون، وقربه الناصر وعظم عهده، وزوج ابنته باين بكتمر. ولم يكن يسارق السلطان، وحج مع السلطان وتولى وهما في طريق عودتهم سنة ٧٢٢هـ/١٢٢٢م. الصلبي، الوالي، ج ١٠، ص ١٢٢ وما بعدها.
- (١٨) يشناك أحد ممالك الناصر محمد، وقربه الناصر بعد وفاة بكتمر المسالي، فنال حظوة ومكاتب، فتكبر وتجبر، ونقل على سيرته حتى وفاة الناصر، فألقي القبض عليه في أول سلطنة المنصور أبي بكر، ثم قتل في الحبس بالإسكندرية أول سلطنة الأشرف كجك في شهر ربيع الآخر سنة ٧٤٢هـ/سبتمبر ١٣٤١م. الصلبي، الوالي، ج ١٠، ص ٨٨ وما بعدها؛ ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مخرج للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الجزء ١، ١٩٩٧م، ج ١٨، ص ٤٢٧.
- (١٩) المقرئ، السلوك، ج ٢، ص ٥٦١؛ ابن حجر، الدرر، ج ٢، ص ١٩٥؛ ابن تغري بردي، التاج، ج ١٠، ص ١٦.
- (٢٠) لغلمان مردهما غلام، وهو الذي يتصدى لخدمة الخيل، وهو في أصل اللغة مخصوص بالصبي الصغير والمملوك، ثم غلب على هذا النوع من أرباب الخدم، وكانهم سموه بذلك لصغرهم في التلويح، وربما أطلق علي غيره من رجال الطست خاتاه وتسموه. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٧١.
- (٢١) قوصون واحد من أقرب الأبرام إلى الناصر محمد، ولم يكن أصله مملوكاً، زوجته السلطان واحدة من بناته. وبعد وفاة الناصر سلك ابنه أبا بكر حتى جعله سلطاناً، ثم سعى إلى خلعها، وأجلس أخاه كجك على عرش السلطنة. ولما أمر بقتل أبي بكر في قوصون كان ذلك سبباً لفروج عدد كبير أمراء الممالك الناصرية على استيلاء قوصون بالذلة، وكذلك انتفض ضده العوام. وألقي القبض على قوصون، ثم قتل في شوال سنة ٧٤٢هـ/مارس ١٣٤٢م. الصلبي، الوالي، ج ٢٤، ص ٢٠٧ وما بعدها.
- (٢٢) مؤرخ مجهول، المصدر السابق، ص ٢٢٤؛ الصلبي، الوالي، ج ١٠، ص ١٥٧ - ١٥٨؛ ابن كثير، المصدر السابق، ج ١٨، ص ٤٢٩؛ المقرئ، السلوك، ج ٢، ص ٥٦٦ - ٥٦٧، ٥٧٠؛ ابن تغري بردي، التاج، ج ١٠، ص ١٠ - ١١٢؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، حقله محمود الأرنؤوط، وأشراف على تحقيقه عبد القادر الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ١٩٨٦، ج ٨، ص ٢٣٦.
- (٢٣) الصلبي، الوالي، ج ٢٤، ص ٢٤٩؛ ابن كثير، المصدر السابق، ج ١٨، ص ٤٢٩؛ المقرئ، السلوك، ج ٢، ص ٥٩٢، ٥٩١؛ ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٥٨.
- (٢٤) ترك قطعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء، بين أبله وبهر القلزم (خليج العقبة) وبيت المقدس. بالقوت العموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، د. ت.، ص ٤٤٣.

(٢٥) الصلبي، السوالي، ج ٨، ص ٥٧ - ٦٠ ج ٩، ص ١١٢١ المقريزي، السلوك، ج ٢، ص ٥٧٢، ٦١٨، ٦١٩.

(٢٦) السرحات، الدلالة اللغوية للكلمة هي أنها أماكن الرعي التي تنطلق فيها الدواب لتأخذ حظها من نباتات الرعي. والمقصود بالسرحات إما هو خروج السلطان وأعرانه إلى الأماكن التي يتوافر فيها من المراعي الطبيعية أو الحضارية ما يكفي لتحيول التي تمثل عماد الأنشطة الاجتماعية للسلطان وحاشيته وهي: الترويح والصيد والفروسية. وبلغ عدد السرحات السلطانية في مصر المملوكية حوالي عشرين سرحة؛ ومن أشهرهم سرحة سرياقوس وسرحة أوسيم. عبدالعال عبدالنعم محمد الشاشي، السرحات السلطانية، أماكن الترويح والصيد والفروسية في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، ٥٦٧ هـ - ٩٢٢ هـ، الكويت، ١٩٩٤، ص ٢١ وما بعدها.

(٢٧) المقريزي، السلوك، ج ٢، ص ٦٧٨ - ٦٧٩ ابن تغري بردي، لنجوم، ج ١٠، ص ٨٠. - الثياب الأطنس هي ثياب حريرية منسوجة، ولفظ أطنس ليس عربياً، فالأطنس في الفارسية يعني الحرير. وتوعداً من الحرير يمثل بلعمان أحمد وجهبه، ويصرف في الإنجليزية Stain، وفي الفرنسية Atlas. رجب عبد الجواد إبراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس، دار الأفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٣٦.

- الطرايطر، مفردا طرطور، وهو غطاء الرأس، أو طاقية مرتفعة ترتديها النساء على رؤوسهن. فائزة محمود عبد الخالق التوتلي، الشوارب، جهاز العروس في مصر في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة للشرق، القاهرة، ٢٠٠١، ص ٢٩١.

- الخدام أو الخدام الخصيان هم الذين يعرفون بالفلووشية آنذاك، ونهم ألقاب كالأمن والمقرب والمؤتمن. ومنهم من له الإشراف على باب سنارة السلطان أو الأمير، ويسمى بالزمام دار أو الزمان دار. سعيد عبدالفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، مكتبة الأجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٤، ص ١٤٤٠ محمد قسديل البقلي، التعرف بمصطلحات صحب الأضي، ص ١١٦.

(٢٨) الكامليات الحرير ويقال الكوامل أيضاً، ومفردا كامنية، نوع من الملابس الخارجية كالباءة. سعيد عبدالفتاح عاشور، العصر المماليكي، ص ٤٤٩.

- لعب الكرة كانت رياضة موجودة في مصر قبل دخول الإسلام، وظلت موجودة حتى عصر سلاطين المماليك. وكانت عبارة عن كرة كبيرة من مادة كالفلين ونحوه، تلقى على الأرض ويتسابق الفرسان راكبين في التقاطها بالصولجان أو الجوكان فمن سبق منهم إلى إصابتها وأرسلها في الهواء كانت له الغلبة. ويبدو أن تلك اللعبة استمرت حتى نفس العينة في عصر سلاطين المماليك. نطفى أحمد نصار، وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر، انهيبة المصرية لعامة للكتاب، ١٩٩٩، ص ٢٤٤-٢٤٥.

(٢٩) المقريزي، السلوك، ج ٢، ص ٦٧٨ - ٦٧٩ ابن تغري بردي، لنجوم، ج ١٠، ص ٨٠.

(٣٠) أرزاق ومفردا رزق، هي المرثبات، سواء كانت يومية أو شهرية. سعيد عبدالفتاح عاشور، العصر المماليكي، ص ٤٢٥.

(٣١) الأمير الحاج آل ملك، هو آل ملك بن عبد الله، من كبار أمراء المماليك، وتولى وظائف كبرى، ومنها نيابة السلطنة، وتولى سنة ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص ٨٥-٨٨.

- نيابة السلطنة هي أعلى وظائف أرباب السيوف، وصاحبها سلطان مختصر، بل هو السلطان الثاني، فيحكم فيما يحكم فيه السلطان، وجميع نواب المملكة يكاتبونه فيما يكاتبون فيه السلطان. ويستخدم الجند من غير مشاوره السلطان، ويحق لأرباب الوظائف الجليلة كالوزارة وكتابة السر، وله عادات مهيبه في مراسم الدولة. القلشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ١٦ وما بعدها.

(٣٢) الصلبي، التوفي، ج٩، ص ١٢١٤؛ المقرئ، السلوك، ج٢، ص ٦٢٧، ٦٥٣، ١٧٦٧؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص ٧٤، ٧٥، ٨٠.

(٣٣) الصلبي، التوفي، ج٩، ص ١٣١؛ المقرئ، السلوك، ج٢، ص ٦٧٨، ٧١٥؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص ١١١٩؛ ابن تغري بردي، مورد الطائفة في من ولي السلطنة والخلافة، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز أحمد، دار الكتب المصرية، ١٩٩٧، ج٢، ص ١٧٧؛ ابن يونس، المصدر السابق، ج١، ص ١٠٥؛ ابن العباد الحبلي، المصدر السابق، ج٨، ص ٢٥٥.

(٣٤) المقرئ، السلوك، ج٢، ص ١٧١٥؛ ابن حجر، الدرر، ج١، ص ٨٠؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص ١١٩.

(٣٥) جمال اللغة اسمه إبراهيم، وولد الناصر محمد بن قلاوون وظيفته نظر الخصاص ونظر الجيش، ولم يتقل لأحد غيره الجمع بين الوظيفتين، واستمر على حاله في سلطنة كل من أبي بكر وكجك وأحمد وإسماعيل أبناء الناصر، ثم أضيفت إليه وظيفة نظر الدولة في سلطنة إسماعيل، حتى قيل إن هذا الرجل أصبح عبارة عن الدولة. ثم نكب وقتل في صفر ٧٤٥هـ/يونيو ١٣٤٤م. الصلبي، التوفي، ج٦، ص ١١٥ وما بعدها؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج١، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥، ص ١٩٣ وما بعدها.

(٣٦) ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، حققه محمد حسين شمس الدين، بيروت، ١٩٨٨، ص ٩٧-١٠٣، ١٠٦؛ ابن ناظر الجيش، تلخيص التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق روثلف قلبي، المعهد العلمي الفرنسي للأبحاث الشرقية بالقاهرة، ١٩٨٧، ص ٩١، ١٨٧.

- مشير الدولة هو أحد رجال المعدنين، ووظيفته القيام مقام السلطان إذا أراد استشارة أولى الرأي في دولته، كالخليفة وقضاة القضاة والوزير والأمراء مقبضين الأتوق وأتابكهم، فإن السلطان يخبر المشير بما يريد. ويقوم المشير بتداول الأمر مع هؤلاء الجماعة ولأحد بعد الأخر، إلى أن يتفقوا على رأي بدون تدخل السلطان. فيكون معنى المشير هنا أنه يحفظ هيبة السلطان، فإن السلطان إذا تكلم وردوا كلامه يكون تنكاساً لقره، وإن سكتوا حفظاً لكرامة السلطان ربما يحدث خلل في الأمر، فهذه قاعدة

المشير في الرأي والتدبير. ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف العمالكه وبيسان الطسرق  
والمسالكة، صححه بولس راويس، باريس، ١٨٩٤، ص ١٠٦.

٣٧ - علاء الدين علي بن يحيى بن فضل الله العمري تولى كتابة السر لتناصر محمد بن  
قلاوون وهو صبي صغير نيابة عن والده الذي كبر سنه. ولما توفي والده استقل بكتابة  
السر في سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٨م. وظل على حاله في أيام أبناء للتناصر: أبو بكر وكجك  
وأحمد وإسماعيل، وحاجي، وحسن، وصالح، ومحمد بن حاجي، وشعبان بن حسين،  
وتوفي في رمضان سنة ٧٦٩هـ/مايو ١٣٦٨م. ابن تقي بردي، المنهل الصافي، ج ٨،  
ص ٢٤٠ وما بعدها.

(٣٧) المغريزي، السلوك، ج ٢، ص ٦٦٢ - ٦٦٣.

(٣٨) أمير مائة مقدم ألف، هي أعلى مراتب أرباب السيف، وتكون عدته مائة فارس، وربما  
زاد العشرة والعشرين، وفي الحروب يكون مقمماً على ألف فارس، الغفغندي، صبح  
الأعشى، ج ٤، ص ١٤.

(٣٩) المغريزي، السلوك، ج ٢، ص ٦٦٢ - ٦٦٤.

(٤٠) المغريزي، السلوك، ج ٢، ص ٦٦٥، ٦٧١، ٦٧٩ - ٦٨٠.

(٤١) الصفي، الوافي، ج ٩، ص ١٢١٤. المغريزي، السلوك، ج ٢، ص ٦٦٧ - ٦٧٠.

(٤٢) الصفي، الوافي، ج ١٦، ص ١٩٠. المغريزي، السلوك، ج ٢، ص ١٧١٥ ابن حجر، الدرر،  
ج ١، ص ٤٨٠. ابن تقي بردي، النجوم، ج ١، ص ٩٧.

(٤٣) يرجح أن يكون معنى دابر البيت هو دابر السرير، ويكون عبارة عن نسيج من الحرير  
المطرز، ويحيط بأعلى أعمدة السرير. وما زال دابر السرير يستخدم بنفس الاسم في  
الأسرة ذات الأعمدة الموجودة في الريف المصري. أو ربما كانت لفظة دابر البيت  
مأخوذة من لفظة ديبيت الفارسية، وهو نوع من الأقمشة القليلة والتي عرفت بعد ذلك  
في العامية العربية باسم درابية وهي المفروش الأعلى للسرير، وهذا يكون من الحرير،  
ويجد بشمين الحشو. ويكون الحشو بسيطاً، ويتركز وجهها بالتطريز والخرز والتلؤلؤ.  
فايزة الوكيل، المرجع السابق، ص ٤٨.

(٤٤) البشخانه، كلمة فارسية معربة، مركبة من بشه ومعناها البعوض، ومن خاله ومعناها  
البيت، والمعنى الكلي بيت البعوض، وهي الناموسية التي تحمي صاحبها من التساموس  
والبعوض وسائر لهولم. رجب عبد الجواد إبراهيم، المرجع السابق، ص ٦٦.

- مفاد مفرداً مفرد، وهي ما يستخدمه الناس للراحة عند النوم أو الجلوس، ويبسود  
أنها كانت مثل تلك المعروفة في زماننا؛ حيث تحشى قطعة قماش وتوضع على كسب،  
وكان القماش المستعمل يختلف بحسب الحالة الاجتماعية، فقد يكون قماشها من الحرير  
أو المشتهر أو القماش العادي، وحشى بالقطن أو تحشى بوبرق الموز والتبذ الأبيض،  
وأولها تكون زرقاء أو بيضاء، أو بيضاء بكبس أحمر أو زيتي حرير، وأحياناً تطرز  
بالحرير الأحمر أو الأبيض، أو تكون من الدباج الأحمر المزركش بالذهب محشوة بريش

التعام، وكان للمخدرات أكياس من القماش لحفظها، وهذه الأكياس كانت مجسلاً حسباً لكتابة الأسماء بالتفريز. فائزة الوكيل، المرجع السابق، ص ٧٤-٧٥.

- المساند مفردة مستند، وهو وسادة تعمل للظهور، والتنهات العليا لهذه المساند منبهة بشدة. وهذا المسند للظهور له وظيفة في الأثاث محددة وواحدة، ولا يمكن أن يستخدم للتوم مثلاً، وذلك بخلاف بعض المخدرات التي يمكن أن تستخدم كمساند للظهور. فائزة الوكيل، المرجع السابق، ص ٨١-٨٢.

(٤٥) المقرزي، السلوك، ج ٢، ص ١٧١٥، ابن تغري بردي، النجوم، ج ١٠، ص ١١٩-١٢٠.

(٤٦) المقرزي، السلوك، ج ٢، ص ٦٨٥ - ٦٨٦.

(٤٧) المقرزي، السلوك، ج ٢، ص ٦٨٨ - ٦٨٩.

(٤٨) المقرزي، السلوك، ج ٢، ص ٦٩٠-٦٩١.

(٤٩) المقرزي، السلوك، ج ٢، ص ٦٩٢.

- والدولاب وجمعها دوليب، وهي الآلات العجنية المستعملة في الزراعة والصناعة عموماً، سواء صناعة السكر أو التسيج أو غيرها. سعيد عاشور، العصر المساليكي، ص ٤٢٣.

(٥٠) المقرزي، السلوك، ج ٢، ص ١٦٩٦، ابن تغري بردي، النجوم، ج ١٠، ص ١٠٠-١٠١.

(٥١) الأمير سيف الدين قماري، أبو بكر الساسي، ترقى في الوظائف حتى صار أستاذاً للدار للصلاح إسماعيل، وعندما تولى الكامل شعبان المملوكة ولاد نهاية شربانيس، وفي ذي الحجة سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٦م تلقى القبض عليه مجوسياً مقيداً، وكان آخر العهد به، فإنه نقل إلى سجن الإسكندرية، وقتل في سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦م. الصفي، الوافي، ج ٢٤، ص ١٢٠٦، ابن حجر، الدرر، ج ٣، ص ٢٥٦.

(٥٢) المقرزي، السلوك، ج ٢، ص ٧٠١.

(٥٣) أرغون العاتقي، هو أحد معاليك الناصر محمد بن قلاوون، تسولى وظيفة رأس توبة الجمداوية منذ أيام الناصر محمد. تزوج أرملة الناصر وهي والدة الصالح إسماعيل والكامل شعبان ابني الناصر محمد، وكان مدير الدولة في عهديهما، ثم تلقى القبض عليه بعد خلع الكامل شعبان، وسجن بالإسكندرية إلى أن قتل في سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م. الصفي، الوافي، ج ٨، ص ٢٣.

(٥٤) أم الولد هي الجارية أو الأمة التي تلد من سيدها، فتنسى أم ولد، وترتفع مكانتها عن الجارية التي لم تلد منه، ولا يجوز للرجل أن يبيع أم ولده، وإذا ماتت صارت حرة، وأما الأولاد الذين جاءوا منها فأحرار. عطية القوصي، الحضارة الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٥، ص ٩٣.

(٥٥) المقرزي، السلوك، ج ٢، ص ٧٠٢ - ٧٠٤، ٧٠٧، ابن حجر، الدرر، ج ١، ص ١٨٠، ابن تغري بردي، النجوم، ج ١٠، ص ١٠٤، ١٠٧.

(٥٦) وحى الرخم من إن الصفي (الوافي، ج ١٦، ص ٩٠) امتدح الكامل شعبان على خلاف باقي المؤرخين، إلا إنه اتفق معهم في أن السلطان كانت له ميول نحو الشعب والنهسو

- دائماً. المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٧١٢، ابن حجر، الدرر، ج ٢، ص ١١٩١ ابن تغري بردي، التنجوم، ج ١٠، ص ١١٢-١١٣؛ مورد الطائفة، ج ٢، ص ٨٠، ٨٤؛ ابن قاضي شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة، حققه عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٩٤، مج ٢، ج ١، ص ٤٨٩-٤٩٠؛ ابن العماد الحلبي، المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٦٠.
- (٥٧) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٦٥٣، ١٧١٢ ابن تغري بردي، التنجوم، ج ١٠، ص ١١١٣.
- (٥٨) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٧٠٧؛ ابن تغري بردي، التنجوم، ج ١٠، ص ١٠١-١٠٢، ١٠٦، ١٠٧.
- (٥٩) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٧٠٧؛ ابن تغري بردي، التنجوم، ج ١٠، ص ١٠٧.
- (٦٠) الصلبي، الوافي، ج ١١، ص ١٨٢-١٨٣؛ المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٧٠٨-٧١٤، ٧٤٤؛ ابن حجر، الدرر، ج ٢، ص ٢-٤؛ ابن تغري بردي، التنجوم، ج ١٠، ص ١٠٧-١١٣. وفي تحقيقه لكتاب السلوك (ج ٢، ص ٧١٤) وقع د/مصطفى زيادة في اضطراب خاص بتعديده عمر المظفر حاجي، فقد وجد بياضاً في مسطوطاته مكان عصر المظفر، فأكمل البياض محدداً عمره بحسن عشرة سنة، معتمداً على ابن حجر في الدرر الكاملة، وابن إياس في بدائع الزهور. ولم يكتبه دلإلية (في ما جاء في السلوك (ج ٢، ص ٧٤٤) عن عصر المظفر بعد مقتله، فقد حدده المقرئزي هنا بنحو عشرين سنة، ثم إسه من المؤكد أن المظفر حاجي ولد أثناء وجود والده في رحلة حجه سنة ٧٢٢هـ/١٣٢٢م، ولذا تسمى بحاجي نسبة إلى هذه المرحلة المقدسة، وعلى ذلك فإن عمره يوم توليه السلطنة يكون حوالي خمس عشرة سنة، ومن المعلوم أن مدة حكمه استمرت سنة وثلاثة أشهر وأياماً، فإن عمره يوم مقتله نحو ست عشرة سنة وأشهرًا. الصلبي، الوافي، ج ١١، ص ١٨٢-١٨٣؛ ابن العماد الحلبي، المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٦٢.
- (٦١) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ١٧١٥؛ ابن حجر، الدرر، ج ١، ص ٨٠.
- (٦٢) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٧٢٠-٧٢١؛ ابن تغري بردي، التنجوم، ج ١٠، ص ١٢٢.
- (٦٣) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ١٧٢١؛ ابن تغري بردي، التنجوم، ج ١٠، ص ١٢٤.
- (٦٤) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٧٢٢؛ ابن تغري بردي، التنجوم، ج ١٠، ص ١٢٥.
- (٦٥) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٧٢٥-٧٢٦؛ ابن حجر، الدرر، ج ١، ص ١٨٠، ج ٢، ص ١٤؛ ابن تغري بردي، التنجوم، ج ١٠، ص ١٢٥-١٢٦؛ ابن العماد الحلبي، المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٦٢.
- (٦٦) هبة الله بن سعد الدولة إبراهيم، كان لصرانيا وأسلم، فسمى نفسه عبدالله، تسولى نظير الخاص في سلطنة الصالح إسماعيل سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م، وتسولى نظير الجيش والوزارة الواحدة بعد الأخرى، ثم اجتمعت له الوظائف الثلاث جميعاً في سلطنة الصالح صالح. انظر ترجمته في ابن حجر، الدرر، ج ٤، ص ٤٠٠-٤٠١.
- (٦٧) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ١٩٢٠؛ ابن حجر، الدرر، ج ١، ص ٨٠.
- (٦٨) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ١٩٢٠؛ ابن حجر، الدرر، ج ١، ص ٨٠.



- (٦٩) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٧٢٦-٧٢١ ابن حجر، الدرر، ج ٢، ص ٤؛ ابن تغري بردي، التجوم، ج ١٠، ص ١٢٥-١٢٢.
- (٧٠) أرقطاي الثائب كان من مماليك الأشرف خليل بن قلاوون، وأصبح جمداراً في أيام الناصر محمد، تولى نيابة حمص، ثم نيابة صفد، واستدعاه الناصر إلى القاهرة سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٦م، وعزل نائب غيبة إذا غاب الناصر في الصيد، ثم انتقل أولاً أيام الناصر إلى طرابلس نائباً. واحتل في سلطنة الأشرف كجك، ثم أخرج عنه في سلطنة الصالح إسماعيل، وتولى نيابة حلب في سلطنة الكامل شعبان، ثم عزل بعد أشهر قليلة. ولما تسلطن المظفر حاجي رسم له نيابة مصر، وبعد خلع المظفر وسلطنة الناصر حسن طلب نيابة حلب بدلاً من نيابة مصر، فرُسم له بذلك. وتوفي في جمادى الأولى سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م. الصفدي، الوافي، ج ٨، ص ٢٢٢ وما بعدها.
- (٧١) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٧٣٩-٧٤٠، ابن تغري بردي، التجوم، ج ١٠، ص ١٣٢، ١٣٥.
- (٧٢) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٧٤٠، ٧٤١.
- (٧٣) يلبغا لليجوي نائب دمشق، كان واحداً من أقرباء الأبرار إلى الناصر محمد بن قلاوون، وظل أميراً لجليل النور في عصر أبناء الناصر فتولى نيابة حماة ثم دمشق، إلى أن غضب عليه المظفر حاجي، فالتقى القبض عليه، ثم قتل في جمادى الأولى ٧٤٨هـ/أغسطس ١٣٤٧م. الصفدي، الوافي، ج ٢٩، ص ٢٢-٢٦.
- (٧٤) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٧٤١ ابن تغري بردي، التجوم، ج ١٠، ص ١٣٦؛ ابن إياس، المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٥٦٥-٥٦٦.
- (٧٥) الصفدي، الوافي، ج ١١، ص ١١٨٤، ج ١٢، ص ١٦٦؛ المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٧٤١-٧٤٥؛ ابن تغري بردي، التجوم، ج ١٠، ص ١٣٦-١٣٨ ابن خلدون، ديوان المبدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والقهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٠م، ص ٥٦٠؛ ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٦٣.
- (٧٦) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٧٤٦، ٧٤٧، ٧٤٨، ٧٤٢، ٨٤٢، ج ٢، ص ٦٠-٦١.
- منجك اليوسفي هو أحد المماليك الكبار في دولة الناصر محمد بن قلاوون وليتأه، تولى وظائف عدة منها الوزارة والإستادارية في شوال سنة ٧٤٨هـ/يناير ١٣٤٨م. وكان قريباً في وظائفه معتمداً على أخيه بيهقاروس نائب السلطنة. وبعد تكة أخيه سنة ٧٥٢هـ/١٣٥٢م ألقى القبض عليه وسجن، ثم أخرج عنه سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م، واستقر في نيابة طرابلس، ثم ولى حلب في ربيع الآخر سنة ٧٥٩هـ/مارس ١٣٥٨م، ومات في سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٤م. الصفدي، الوافي، ج ٢٦، ص ١٨ وما بعدها؛ ابن حجر، الدرر، ج ٤، ص ٢٦٠-٢٦١.
- شيخو العمري هو أحد المماليك الناصرية محمد بن قلاوون، وأصبح واحداً من أمراء المشورة في سلطنة الناصر حسن، وصار متحكماً في أمور الدولة، ثم ألقى القبض عليه

وسجن في سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م. ولما تسلط الصالح صالح أفرج عنه في رجب سنة ٧٥٢هـ/أغسطس ١٣٥١م. وعاد التاصر حسن إلى السلطنة، ونقل شيخو قوياً قس دولته، فصار أتاك العسكر، ولقب بالأمير الكبير، وهو أول من سمي بهذا اللقب. طعنه أحد المماليك، ومات على إثر هذه الطعنة في ذي القعدة سنة ٧٥٨هـ/أكتوبر ١٣٥٧م. الصفي، الوافي، ج ١٦، ص ١٢٤ وما بعدها؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٦، ص ٢٥٧ وما بعدها.

(٧٧) شاذ الدواوين أو المشذ، مفتش، فيقال شاذ الدواوين أي الذي يقتس عس الدواوين ويراجع حساباتها، ومثله شاذ الجواني وشاذ الزكاة، ويسمى التفتيش شذ فيقال شذ الدواوين أي التفتيش عليها. سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص ٤٢٢.

- Rabie, op. cit., pp 150-153.

- (٧٨) المقرزي، السلوك، ج ٢، ص ١٧٤٥ ابن حجر، الدرر، ج ٢، ص ٢٨.
- (٧٩) المقرزي، السلوك، ج ٢، ص ٧٤٥-٧٤٦؛ ابن حجر، الدرر، ج ٢، ص ٣٨؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج ١٠، ص ١٤٩.
- (٨٠) المقرزي، السلوك، ج ٢، ص ١٧٤٦ ابن حجر، الدرر، ج ٢، ص ٣٨؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج ١٠، ص ١٤٩.
- (٨١) المقرزي، السلوك، ج ٢، ص ٧٤٨-٧٤٩ ابن تغري بردي، النجوم، ج ١٠، ص ١٥٠.
- (٨٢) المقرزي، السلوك، ج ٢، ص ٨٠٩-٨١٠.
- (٨٣) المقرزي، السلوك، ج ٢، ص ٨١٤-٨١٥.
- (٨٤) الصفي، الوافي، ج ١٢، ص ١٦٦-١٦٧؛ المقرزي، السلوك، ج ٢، ص ٨٢٢، ٨٤٠، ٨٤١.
- (٨٥) سرغتمش هو أحد المماليك الناصرية، وهو مدير دولة التاصر حسن بعد وفاة الأمير شيخو. ألقى القبض عليه وسجن بالإسكندرية إلى أن مات قس ذي الحجة سنة ٧٥٩هـ/نوفمبر ١٣٥٨م. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٦، ص ٢٤٢.
- (٨٦) الصفي، الوافي، ج ١٦، ص ١٥٦؛ المقرزي، السلوك، ج ٢، ص ٨٤٢، ٩٢٩-٩٣٠، ج ٣، ص ١.
- (٨٧) المقرزي، السلوك، ج ٣، ص ٦٢؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج ١٠، ص ١٢٤٧؛ ابن إيسا، المصدر السابق، ج ١، ص ٥٧٩.
- (٨٨) ابن كثير، المصدر السابق، ج ١٨، ص ٦٢٤؛ المقرزي، السلوك، ج ٣، ص ٦٠-٦١؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج ١٠، ص ٢٤٣-٢٤٥.
- (٨٩) ابن تغري بردي، النجوم، ج ١٠، ص ٢٤٧؛ ابن إيسا، المصدر السابق، ج ١، ص ١، ٥٧٩. وعطط هذا اسم أحد تماء السلطان، وكذا الدخان اسم مشيب من تدماته.



## ثورات العربان وأثرها في الاقتصاد المصري

زمن سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)

د. سيد محمود محمد عبد العال (\*)

يتناول هذا البحث ثورات العربان في مصر زمن سلاطين المماليك، مفهومها وأسباب قيامها، والأثر الذي تركته على الاقتصاد المصري في ذلك العصر، وذلك في مجال الإنتاج الزراعي والثروة الحيوانية والإنتاج الصناعي، وعلى النشاط التجاري الداخلي والخارجي، وحركة الأسواق والأسعار.

فقد شكّل العربان شريحة اجتماعية متميزة في مصر عصر سلاطين المماليك، حيث انتشرت القبائل العربية في بلاد الوجهين القبلي والبحري<sup>(١)</sup> وبخاصة في أقاليم الشرقية والبحيرة والمنوفية في الوجه البحري، وأقاليم قوس وأسبوط والأشمونين في الوجه القبلي<sup>(٢)</sup>.

وقد حمل العربان راية المعارضة وعبء المقاومة ضد سلطنة المماليك، دون شرايح المجتمع المصري جميعها، وعلى الرغم من الأساليب الوحشية التي استخدمها ضدهم المماليك؛ فلم تخمد ثورات العربان طوال العصر المملوكي، ولم تخل سنة من السنين من ثورة في الصعيد أو في الوجه البحري، وكانت هذه الثورات تستهدف ضرب المماليك ومهاجمة الأقطاع التي يحوزونها، والاستيلاء على المحاصيل الزراعية، وحرمان المماليك من خيرات البلاد<sup>(٣)</sup>.

ومن ثمّ اتسم عصر سلاطين المماليك بكثرة ثورات العربان، وانتفاضاتهم ضد الدولة المملوكية التي وصفها المصادر التاريخية المعاصرة بأنها نوع من "الفساد"<sup>(٤)</sup> أو "العيب"<sup>(٥)</sup> و"الفتنة"<sup>(٦)</sup> و"الخصيان"<sup>(٧)</sup> و"النفاق"<sup>(٨)</sup> و"الخروج على الطاعة"<sup>(٩)</sup> و"الأذى والضرر"<sup>(١٠)</sup>.

الأمر الذي يبين لنا أن المصادر التاريخية المعاصرة قد تبنت وجهة نظر الدولة في ثورات العربان وقتئذٍ، مما يفقدها في أغلب الأحيان الموضوعية، لأنها لم تتبن وجهة نظر الطرفين، لم تبحث عن وجهة نظر الطرف الآخر، وفي المقابل لا نجد أي مصدر تاريخي يعرض لوجهة نظر العربان بشكل صريح.

(\*) أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي بكلية الآداب جامعة القوم.

وهناك بعض المصادر التاريخية المعاصرة يمكن أن نعر فيها على إشارات جهة نظر العريان، مثل المؤرخ عبد الباسط بن خليل الذي استعمل الفعل ثار ومصدره ثورة قائلاً: كان عرب الصعيد في الثورة<sup>(١١)</sup> كما ذكر أيضاً 'وقعت بالاطفاحية فئنة وأمور ثار بها العريان'<sup>(١٢)</sup> وكذلك لفظ ثارت العريان<sup>(١٣)</sup> واستعمل المقرئ وببيروس الدوادار الفعل نفسه ليصف انتفاضة عرب الأحامدة<sup>(١٤)</sup> ثارت الأحامدة من عرب الصعيد<sup>(١٥)</sup> وثاروا في البلاد وأكثروا من الفساد<sup>(١٦)</sup> كما وردت بلفظ ثوران، من ذلك ما ذكره عبد الباسط بن خليل بسبب ما ذكرناه من ثوران الأحمدى<sup>(١٧)</sup> والإخماد ثوراهم<sup>(١٨)</sup>.

وقد أطلقت المصادر التاريخية المعاصرة على القبائل العربية - التي كانت تعيش في أجزاء مختلفة في الوجيهين القبلي والبحري - اسم العريان، وهو اسم مرادف لكلمة 'البدو'. ويرى بعض الباحثين أن تسبب في إطلاق اسم العريان أنهم كانوا يعيشون في طور الانتقال من حياة التنقل إلى حياة الاستقرار<sup>(١٩)</sup> ولأن اسم العريان جاء عنواناً للإخلاق بالأمن والاعتداء على الأمنين من أهالي القرى والمدن، ومن ثم عرفوا بذلك<sup>(٢٠)</sup> وبين لنا ذلك وجود نظرة انتقصت من شأن القبائل العربية وقتئذ، بحيث يصبح الحديث عنها أمراً غير ذي أهمية، وهذا يفسر لنا استخدام هذه المصادر كلمة 'عريان' بدلاً من 'العرب' دليلاً على ذلك.

## ARCHIVE

### أسباب ثورات العريان:

تعددت أسباب ثورات العريان، في العصر المملوكي، بين أسباب سياسية وأخرى اقتصادية أو اجتماعية. فقد جاءت ثورات العريان وانتفاضاتهم نتيجة عوامل اجتماعية ودينية متبادلة بينهم وبين المماليك. فمن جانبهم نظر العريان إلى المماليك على أنهم غريباء عن البلاد، وأنهم أحق بحكم مصر منهم. فقد ذكر المقرئ في 'أن عربان مصر أئمت من تملك أيبك لأنه مملوك قد مسه الرق'<sup>(٢١)</sup> لذا فما أن تولي عز الدين أيبك السلطنة عام ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م حتى ثار العريان ضده بقيادة حصن الدين بن ثعلب في عام ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م وقال: تحن أصحاب البلاد، ومنع الأجناد من تناول الخراج، وصرح هو وأصحابه: بأننا أحق بالملك من المماليك، وقد كفي أنا خدمنا بني أبوب، وهم خوارج خرجوا على البلاد، وأنفوا من خدمة الترك، وقالوا: إنما هم عبيد للخوارج<sup>(٢٢)</sup>. كما ذكر القلقشندي أن العريان كانت نفوسهم قد سمت إلى الملك خصوصاً الشريف حصن الدين بن ثعلب، وكان قد أئف من إمارة المعز أيبك التركماني<sup>(٢٣)</sup>.

ولم يكن هذا موقف العريان وحدهم من المماليك بل كان موقف معظم المصريين الذين كرهوا حكم المماليك الذين مسهم الرق. فقد ذكر ابن تغري بردي عن موقف المصريين من سلطنة عز الدين أيبك: 'وأما أهل مصر فتم يرضوا بذلك إلى أن مسات، وهم يسمعون ما يكره حتى في وجهه إذا ركب ومر بالطرقات، ويقولون: لا نريد إلا

سلطاناً رئيساً مولوداً على الفطرة<sup>(٢١)</sup> وهو ما يؤكد الميوسوي: 'وأما أهل مصر فلم يرضوا بذلك، ولم يزالوا يسمعون ما يكره إذا ركب ويقولون: لا نريد إلا سلطاناً رئيساً ولد على الفطرة'<sup>(٢٢)</sup> أي إنساناً حراً لم يمسسه الرق مثل المماليك.

ونظر المماليك بدورهم إلى العريان نظرة استعلاء واحتقار واستكفاف، وقد عبر عن هذه النظرة ابن فضل الله العمري بقوله<sup>(٢٣)</sup>: 'أما العرب بمصر في الوجهين القبلي والبحري فجماعات كثيرة وشعوب وقبائل، لكنهم على سعة أموالهم واتساع نطق جماعاتهم ليسوا عند السلطان في الذروة ولا السنام، إذ كانوا أهل حاضرة وزرع ليس منهم من ينجد ولا يتهتم، ولا يعرق، ولا يشام. لا يخرجون عن جدر الجدران على كل حال'. ويدل هذا على استهانة المماليك بالعريان، وإن ارتفعت مكانتهم وكثرت أعدادهم.

وقد عبر البوصيري<sup>(٢٤)</sup> أيضاً عن نظرة المماليك إلى العريان بقوله<sup>(٢٥)</sup>:

أساس لا خلاق لهم	الثوم شينتهم والثوم والتدبر
تثشوا ثم قالوا: إننا عرب	فقلت لا عرب أنتم ولا حضر
ولا عهدو لكم ترعي ولا نهم	ولا بيوتكم شعر ولا وبر
يشكو جميع بني الدنيا أنيهم	فهم بطرقهم الأحجار والحفر

وتوضح الآيات النظرة الضمنية من جانب البوصيري تجاه العريان، حتى اتهمه أحد الباحثين بالشعبوية، لأنه لم يكتف بدم العريان، ومدح المماليك الترك<sup>(٢٦)</sup> كذلك جاءت ثورات العريان، ضد السلطات المملوكية، نتيجة للتوضع الاقتصادي المتدهور بفعل سوء الطبيعة، وما ترتب عليها من أوبئة وبجاعات وفرض الضرائب على الرعية وإلزامهم بالسداد، مما أدى إلى تدميرهم وشنق عصا الطاعة، وانتشرت الاضطرابات والغلاقل والثورات التي كان يصعب على السلطات المملوكية حسمها إلا بالقهر والاستبداد<sup>(٢٧)</sup>.

يضاف إلى ذلك: حرمان العريان من الإقطاعات التي كانت تعد مورداً مالياً مهماً، فقد استولى الأيوبيون، والمماليك من بعدهم، على جميع أراضي مصر عن طريق نظام الإقطاع الحربي وإذا أعطى للعريان إقطاعات فإنها تكون في أطراف البلاد وغيرها، وهذا النوع من الإقطاع الذي عرف بـ'الاعتداد' كان ضعيف الإنتاج<sup>(٢٨)</sup>.

وقد قام صلاح الدين، في عام ٥٧٧هـ/١٢٨١م، بنزع ثلثي إقطاعات العريان في مصر<sup>(٢٩)</sup>، مما جعلهم يتقربون عليه ويتورون ضده ويرفعون لواء العصيان في مصر، وعلى الأخص في الصعيد، فجرد حملات عسكرية ضدهم فقتلت الآلاف منهم. وقد سارت على هذا النهج سياسة المماليك تجاه العريان حتى سقوط دولتهم.

وكان رد فعل العريان إزاء هذه السياسة قطع الطرق، وقد ذم السبكي هذا التصرف بقوله: 'ومن قبائحهم أنه إذا قطع السلطان إقطاع واحد منهم تسلط على قطع

الطرقات وأذية من لم يؤذ، وأخذ مال من لم يظلمه، ولا يتوقفون في سلك النداء لأجل هذا الغرض<sup>(٣٢)</sup>.

كما كان من سياسة المماليك فرض الرسوم المالية المجحفة، من أجل تجهيز الجيش المملوكي تجاه أعدائه، وكانت هذه السياسة عاملاً مباشراً في ثورات العربان، مثلاً حدث في عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م حين تجهز المماليك لحرب المغول، ففرضوا أموالاً على المصريين، وندبوا الوزير سنقر الأعصر<sup>(٣٣)</sup> ليجبي الأموال من الناس، فجبي منهم الأموال في أربعين يوماً، أو دون ذلك، فتحصل من هذه الحركة نحو مائتي ألف دينار وكسور<sup>(٣٤)</sup>، وسمي ذلك مقرر الخيالة<sup>(٣٥)</sup>.

كذلك كان تصف أمراء المماليك في تحديد أثمان المنتجات الزراعية واحتكارها والتلاعب في أسعارها أحياناً، من الأسباب التي دفعت العربان إلى القيام بالثورة ضد المماليك<sup>(٣٦)</sup>، وأدى احتكار بعض أمراء المماليك للخلال، وبخاصة بالوجه القبلي إلى الإضرار بالناس بكل أرجاء البلاد، فتزايدهم الغلاء بسببها، مثلاً حدث في عام ٨٧٤هـ/١٤٦٩م بسبب احتكار الأمير بشبك من مهدي لخلال الصعيد، ومنع المراكب من حملته إلى القاهرة<sup>(٣٧)</sup>.

من الأسباب التي أدت إلى ثورات العربان: سوء سلوك أمراء المماليك ضدهم، ومحاولات إذلالهم من خلال سبي نسائهم، وهي إهانة كبيرة دفعت هؤلاء العربان إلى قطع الطرق، والإغارة على القرى والمدن المصرية. وأوضح دليل على ذلك ما حدث في عام ٨٧٣هـ/١٤٦٨م، بعدما وصل بشبك من مهدي<sup>(٣٨)</sup> من بلاد الصعيد بعد ما نهبه، وحرب عدة قرى، وبيد شمل العربان، وسبي أزبعتة من نسائهم، وحبسهم في وكالة الأتابك قاتم، وتركهم دون طعام. فثار عربان الصعيد وقاموا بقطع الطريق، وأخذوا بعض المراكب المحملة بالخلال القادمة من الصعيد، وأخذوا ما فيها ثم قاموا بإحراق تلك المراكب، مما تسبب في ارتفاع أسعار القمح وبقيّة الخلال في القاهرة<sup>(٣٩)</sup>.

كما كان لاعتقال أحد زعماء العرب أثر مباشراً في قيام هؤلاء العربان بقطع الطرق والاستيلاء على الأموال. ففي عام ٧١٧هـ/١٣١٧م قام والي قوص باعتقال فياض أمير عرب بركة عيذاب<sup>(٤٠)</sup>، فقام هؤلاء العرب بقطع الطريق على رسول صاحب اليمن، والاستيلاء على الهدايا التي يحملها، وعلى أموال التجار، فجهزت الدولة حملة عسكرية لعربان بركة عيذاب وصنّت إلى سواكن<sup>(٤١)</sup>.

وكانت بعض الوقائع المشابهة، مثل قتل أحد شيوخ العربان، أو قتل أحد أبنائهم سبباً لثورة العربان، وقيامهم بأعمال التخريب. وقد حدث ذلك في جمادى الآخرة عام ٩١٩هـ/١٥١٣م، عندما حضر قاتصوه العادلي كاشف الشرقية وصحبه شخص من أولاد شيخ العرب ابن قرطام يسمى صالح. وهو من بني حرام، فسلخ جلده وحشاه تبناً، وأركبوه على فرسه، وألبسه زمطه على رأسه وكبرة حرير. وكان شاباً جميل الهيئة، فتأسف عليه الناس، فلما أعرضه علي السلطان شق ذلك عليه، ولم يكن يرسم

بسلخه قبل ذلك، فلما جرى ذلك ثارت العريان في البلاد وقطعوا جسر الحلفاية فراح على الأرض في غير مستحقه وكان ذلك ليالي الوفاء<sup>(١٧)</sup>.

وقد استغل العريان الأخطار الخارجية التي تعرضت لها دولة المماليك، وحاولوا الإفادة من التشتت المماليك بتلك الأخطار في الخروج على الدولة، والسيطرة على الأقاليم المصرية. مثلما حدث عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م، عندما هزم غازان المماليك في بلاد الشام فيذكر النويري "واشتد طمعهم إثر وقعة غازان"<sup>(١٨)</sup>. وفي عام ٨٧٣هـ/١٤٦٨م، كثر في هذه الأيام فساد العريان على غالب البلاد القبلية والبحرية حتى أخرجوها وكذلك غالب البحيرة، وذلك لاشتغال السلطان (قائمتاي) بتجهيز العساكر وتكفيتهم بالنفقة لأجل شاه سورا<sup>(١٩)</sup>.

ونلاحظ أن دولة المماليك الأولى (٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م) قد شهدت ثلاث ثورات عربية كبرى، وكان مركزها الصعيد: الأولى ثورة الشريف حصن الدين بن ثعلب عام ٦٥١هـ/١١٢٥٣م<sup>(٢٠)</sup>، والثانية ثورة عام ٧٠١هـ/١٣٠١م. ولم تذكر المصادر المعاصرة أسماء من قاموا بها ولكنها ذكرت أن بعض أمراء العرب تسموا بأسماء أمراء المماليك<sup>(٢١)</sup>. والثالثة كانت عام ٧٥٤هـ/١٣٥٣م بزعامة محمد بن واصل المعروف بالأحذب، من قبيلة عرك بالصعيد، وذلك في عهد الملك الصالح صالح<sup>(٢٢)</sup>.

وفي عصر دولة المماليك الثانية (٧٨٤-٩٢٣هـ/١٣٨٢-١٥١٧م) شملت ثورات العريان جميع أقاليم مصر، وبخاصة البحيرة والشرقية مع استمرارها في الصعيد، فلا يمر عام إلا ويخرج العريان على الدولة في أحد أقاليمها. وكان أكثر هذه الثورات فردية، وليست جماعية، مما سهل القضاء عليها من قبل المماليك الذين تميزوا بالبراعة القتالية<sup>(٢٣)</sup>.

### الوسائل التي استخدمها المماليك تجاه ثورات العريان:

وقد قاومت دولة المماليك تلك الثورات بتجريد العديد من الحملات العسكرية التي دمرت البلاد التي مرت بها. واستمرت الصراعات بين العريان والسلطات المملوكية حتى سقوط دولة المماليك. وقد ارتبطت هذه الحملات باستخدام القسوة والشدة المفرطة، وتعددت أساليب القتل من التوسيط<sup>(٢٤)</sup> والتسمير<sup>(٢٥)</sup> والعصر<sup>(٢٦)</sup> ونشر الأجسام وسلخ الجلود، ودفن الأحياء، وتعليق رؤوس القتلى في رقاب نسلهم، وبناء مآذن من رؤوس القتلى، وسبي النساء ومصادرة الأموال<sup>(٢٧)</sup>.

ولتهريب ذلك: لجأت السلطات المملوكية إلى استصدار الفتوى الشرعية التي تجيز قتل هؤلاء العريان، على اعتبار أنهم "مفسدون" و"خارجون على الطاعة" تجب محاربتهم، ففي عام ٧٠١هـ/١٣٠١م أحضر السلطان القضاء والفقهاء، واستفتاهم في



قتال العريان، فالتقوا بجوار ذلك<sup>(٤٠)</sup>. وكان المماليك يستخدمون هذه الفتوى سنداً شرعياً يبررون به أعمالهم الانتقامية ضد هؤلاء العريان والتي وصلت للإبادة الجماعية. فضلاً عن ذلك حرص المماليك في حملاتهم ضد العريان على أن يسبوا النساء الحررات انتقاماً منهم، بالرغم من تعارض هذا العمل مع الشرع الإسلامي الذي لا يبيح استرقاق المملمات<sup>(٤١)</sup> فبعد أن قضى المماليك على ثورة الشريف حصن الدين بن ثعلب عام ٦٥١هـ/١٢٥٣م، قاموا بسبي نساء العرب فحووا من الأسلاب والتمسوان والأولاد والخيول والجمال والمواشي ما عجزوا عن ضبطه، وعندما هزم المماليك عرب الغربية والمنوفية، من قبيلتي سنيس ولواتة<sup>(٤٢)</sup> أوقعوا بهم وسبوا حريمهم، وقتلوا الرجال<sup>(٤٣)</sup>، وبعد هزيمة ابن الأندب في الصعيد عام ٧٥٤هـ/١٣٥٣م على يد الأمير شيكو والمماليك سبوا حريمهم وأولادهم، فاسترقوا كثيراً منهم، وصار إلي الأجداد والقلمان منهم شيء كبير، باعوا منه عدداً كثيراً بالقاهرة بعد عودهم<sup>(٤٤)</sup>.

كما قام المماليك، في عام ٧٨٢هـ/١٣٨٠م، بعد هزيمة بدر بن سلام بإقليم البحيرة، بسن أسرا من أولادهم وتسليمها ما لا يحصى وقبضوا على أولاد بدر بن سلام، وتسلمه وبنته، وغير ذلك من بنات ونساء<sup>(٤٥)</sup>.

ولم يقتصر الأمر على عريان توجه البحري، بل شمل عريان الوجه القبلي، ففي عام ٨١٦هـ/١٤١٣م قدم الأمير فخر الدين الاستاذار من الصعيد، وأحضر من العبيد والإماء والحررات ثلاثي أسرتين، ثم وأهب منهن وباع بالفيهن وسلب النساء حليهن وكسوتهن، بحيث لا يسير عليهن إلى غيرها حتى يتركها أو يخل من يدهن حمار<sup>(٤٦)</sup>.

وكرر هذا الأمير الفعل نفسه، في عام ٨٢٠هـ/١٤١٧م، عندما قدم من الصعيد ومعه عدة بنات من أهل الصعيد استرقهن بعد الحرية، ففرق من خيارهن طائفة على الأعيان وظلوفن - على زعمهم - بملك اليمين، واختار لنفسه طائفة، وباع بالفيهن مع ما جلبه من العبيد<sup>(٤٧)</sup>.

وكذلك فعل الأمير أهردي الدوادار<sup>(٤٨)</sup> في عام ٨٩٢هـ/١٤٨٧م، عندما رجع من الصعيد منتصراً على العرب الحامدة فقتل منهم ما لا يحصى، وأسر نساءهم وأولادهم، وبعث بهم إلى مصر، فباعوهم كما يباع الرقيق من الزنج<sup>(٤٩)</sup>.

ولجأ المماليك إلى سياسة تقديم أصاغر أمراء العريان على أكابره، وكانت تهدف هذه السياسة إلى بث الخلافات داخل القبائل العربية وإشغالها بصراعات عربية - عربية بدلاً من أن ينطلقوا إلى السيادة على المماليك<sup>(٥٠)</sup>. وهي سياسة أفرق تسد بين العريان، أو ما يعرف بـ"عرب الطاعة" و"عرب المعصية"، واستخدام ما يعرف بـ"عرب الطاعة" في قتال عرب المعصية في مقابل جعلهم أمراء للعرب في هذه الأقاليم، ومنحهم بعض الاقطاعات.

وبدت ثورات البدو، شبة الدائمة أحياناً، خطيرة، وتكن المماليك استطاعوا دائماً التغلب عليها، ويرجع السبب في إخفاق هذه الثورات إلى الطبيعة المتنافرة، ومصالحها

المتناقضة إلى حد ما، فبعضهم ما زال في طور التنقل، بينما كان البعض الآخر نصف مستوطن، ومجموعة ثالثة مؤلفة من الفلاحين الذين أبقوا على تنظيمات أسلافهم العشائية<sup>(٢٠)</sup>.

كما اضطرت السلطات المملوكية، إزاء ثورات العربان، إلى استحداث بعض الوظائف العسكرية، مثل نيابة الوجه القبلي<sup>٢١</sup> ونيابة الوجه البحري. فقد كثرت الاضطرابات التي أحدثها العربان في الصعيد، ووصل الأمر إلى قتل كاشف الوجه القبلي، وقطع الطريق على التجار والمسافرين، كما كان لدى الدولة رغبة في إحكام السيطرة على أعمال الوجه القبلي، ووضعه في قبضة قوية. خاصة وأن هذه الفترة التسمت بضعف شخصية سلاطين المماليك من أبناء الناصر محمد بن قلاوون وأحفاده، ولقلة مهابة شخصية الكشاف والولاة<sup>(٢٢)</sup> فقد استحدثت السلطات المملوكية وظيفة جديدة وهي نيابة الوجه القبلي، ويعرف صاحبها بـ"نائب الوجه القبلي"<sup>(٢٣)</sup> الذي كان له الإشراف على شئون الوجه القبلي من الجزيرة شمالاً حتى أسوان جنوباً، وقد اتخذ من مدينة أسيوط مقراً له<sup>(٢٤)</sup> وكان له نائب يتخذ من مدينة أخصيم مقراً له<sup>(٢٥)</sup>.

وقد أوضحت الوثائق المملوكية الواجبات المفداة على عاتق نائب الوجه القبلي، فكان عليه "ألا يمكن أجداً من العرب، ولا الفلاحين أن يركب فرساً، ولا يمتلئهم من حمل السلاح ولا ابتياعه، ولا استعارته ولا استبداعه، لأنه يعده للخروج على الدولة، وعلى ذلك فقد وجب على نائب الوجه القبلي تحذير هؤلاء العرب من مخالفة هذه الأوامر وإلا تعرضوا للقتل من جانب الدولة"<sup>(٢٦)</sup>.

وكذلك أتت ثورات العربان بالوجه البحري، وبخاصة في إقليم البحيرة، إلى استحداث وظيفة نائب للوجه البحري. وله من المهام ما لنائب الوجه القبلي<sup>(٢٧)</sup> كما لجأت السلطات المملوكية، لكبح جماح العربان والقضاء على عصيانهم إلى تعيين حكام إداريين للأقاليم يتصفون بالقسوة والشدة، حتى إن الناصر محمد بن قلاوون (٧٤١هـ/١٣٠٩-١٣٤٠م) عندما عين كاشفاً لإقليم الشرقية قال له: "أريد منك أن تعمل عملاً أرضي به عنك في أهل الشرقية، وأكبرك بعدها، فقال له: "على أن أرضيك واسخط الله تعالى، فخلع عليه وركب إلى بلبيس، وشرع في كسب أهلها وبلادها، وابتدأ مهمته بقتل ستين شخصاً، وادعى أنهم من المعسدين، وأمعن في قتل الناس، حتى قيل: إن الرطب الذي يأتي من بلبيس لا يأكله أحد لا في الشرقية ولا في غيرها من كثرة الطير الذي يقف على جثث الموسطين ثم يطير على الخلل"<sup>(٢٨)</sup>.

#### أثر ثورات العربان على الاقتصاد المصري:

ترك الصراع بين العربان والمماليك أثره على جميع أوجه النشاط الاقتصادي في مصر وقتئذ، سواء على النشاط الزراعي أو الصناعي أو التجاري.

### أثر ثورات العربان علي الإنتاج الزراعي:

تعد الزراعة الحرفة الرئيسية للسواد الأعظم من الشعب المصري، فضلاً أنها المصدر الرئيس للثروة في مصر، عبر تاريخها، بصفة عامة، وعصر سلاطين المماليك بصفة خاصة لأنها المورد الأساسي لتنظيم الإقطاع الحربي الذي تقوم عليه دولة المماليك<sup>(١٧٧)</sup>. وقد تركت ثورات العربان أثرها السلبي علي الإنتاج الزراعي، حيث دمرت الزراعات، وآلات الري كالموالي<sup>(١٧٨)</sup> والدواليب، وقتلت الأبقار التي تقوم بإدارتها<sup>(١٧٩)</sup>. مثلما حدث في عام ٨٤٢هـ/١٤٣٨م، عندما قام عربان الصعيد بـ "هدم الدواليب"<sup>(١٨٠)</sup>. كما لجأ العربان إلي منع مياه الري من الوصول إلي الأرض الزراعية الأمر الذي يمنع زراعتها. من ذلك ما حدث عام ٧٤٥هـ/١٣٤٤م عندما قام عربان الفيوم لقطعوا المياه، حتى شرق أكثر بلاد الفيوم<sup>(١٨١)</sup>.

كذلك قام العربان بقطع الجسور<sup>(١٨٢)</sup> التي تحمي الأرض الزراعية من الغرق، مما تسبب في غرق الأرض المزروعة، وبالتالي عدم زراعة الأرض، أو غرق الزرع، أو غرق الجرون. وذلك كما حدث، في عام ٧٥٤هـ/١٣٥٢م، من قيام "عرب منقلوط والمراغة وغيرهم وقطعوا بعض الجسور بالاشمونين"<sup>(١٨٣)</sup>. ومثلما حدث في عام ٩١٢هـ/١٥٠٦م من قيام عربان الشرقية بقطع جسر سينت<sup>(١٨٤)</sup> والحطفاية علي الجرون حتى غرقت، وكان النيل قد انصرف علي لوفاء، وحصل بسبب ذلك الضرر الشامل وتوقف النيل عن الزيادة، لأجل المقاطع التي طبعت عليه<sup>(١٨٥)</sup>. وتكرر ذلك في عام ٩١٩هـ/١٥١٢م حيث "تارت العربان في البلاد وقطعوا جسر الحطفاية بالقيم الشرقية فساح علي الأرض في غير مستحقه وكان ذلك لئالي الوفاء"<sup>(١٨٦)</sup>.

فضلاً عن ذلك فقد اعتاد العربان أن ينتهزوا فرصة الفيضان - عندما تكسو مياه النيل أراضي الحياض - فيصبحون في مأمن من وصول قوات من العاصمة لردعهم، وعندئذ يقررون علي القرى، فيذبحون الفلاحين ذبح المواتي، ويستولون علي كل ما تصل إليه أيديهم من غلال وحيوانات<sup>(١٨٧)</sup>.

ولجأ العربان أيضاً إلي إحراق جرون القدة، كي يحرموا المماليك من الحصول علي الغلال. وقد ذكر ابن إياس في حوادث عام ٩٠٢هـ/١٤٩٦م: "ولما وقعت الفتن بمصر بين الأتراك، وقعت الفتن أيضاً بين العربان، وأحرقوا القمح والشعير وهو في الجرون، ونهب عدة بلاد، فوقع الغلاء بالنديار المصرية وانتهى سعر القمح إلي ألف درهم كل أردب، واستمر علي ذلك مدة طويلة"<sup>(١٨٨)</sup>.

وقام العربان بالاستيلاء علي الغلال الموجودة في الجرون<sup>(١٨٩)</sup> ونهبها. مثلما حدث في عام ٧٤٨هـ/١٣٤٧م، حيث كثر عيث العربان بأرض مصر، وكثر سفكهم للدماء ونهب الغلال من الأجران، مع هيف القدة<sup>(١٩٠)</sup>. وفي عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م قتل العربان كاشف الوجه القبلي وشنوا الغارات علي البلاد، وأمعنوا في نهب الغلال وقطع الطرق<sup>(١٩١)</sup>.

وكذلك قام عربان الوجه القبلي في عام ٧٥٢هـ/١٣٥١م بنهب الغلال، ومعاصر  
 المسكر وكبس البلاد وكثرت حروبهم وشروهم وآذاهم<sup>(٤٨)</sup>.

وقام الأحدب شيخ قبيلة عرك في الصعيد، في عام ٧٥٤هـ/١٣٥٥م، بالثورة  
 ضد المعاليك فكان يأتي في زمن الغلال فيغير بمن معه على أطراف البلاد، فيأخذ ما  
 يحتاج إليه من الغلال والميرة وغيرها، فقرأ من أيدي الفلاحين وغيرهم، وعجز الولاة  
 عن مقاومتها<sup>(٤٩)</sup> ونهب الغلال من الجرون<sup>(٥٠)</sup>.

كذلك أشارت المصادر المعاصرة، في حوادث عام ٧٨٠هـ/١٣٨٢م، إلى خروج  
 عربان البحيرة عن الطاعة وأنهم تهبوا الجرون<sup>(٥١)</sup> وهو ما تكرر في عام ٧٨٢هـ/  
 ١٣٨٤م حيث قدمت الأخبار من البحيرة، بأن سائر قبائل العربان تحالفوا على العصيان،  
 وخرجوا عن الطاعة، ونهبوا المغل من البلاد<sup>(٥٢)</sup>.

كما ذكر ابن تغري بردي، في حوادث عام ٨٧٢هـ/١٤٦٧م، حادثة وقعت في  
 قرية قليب أبيبار<sup>(٥٣)</sup> حيث نزل بدوي إلى أحد الجرون ليأخذ ما فيه من الغلال، وعندما  
 حاول الفلاح منعه، استل سكيناً وحاول ذبحه، ففر الفلاح فقبه البدوي وببده السلاح  
 ليتم قتله حتى دخل داره فالتقى الفلاح نفسه من داره إلى دار أخري، وسار إلى  
 الحرارية، فلما علم البدو أنهفاته، عاد إلى جهة جرن الفلاح ونادي بأعلى صوته: متى  
 راح من هذا الجرن الفلاح الواحد تهببت جميع أجاتكم وتوجه ليأتي بما يحمل القمح،  
 عليه ثم عاد بعد ساعة وأخذ يجمع ما بالجرون يتمامة وكما أنه واختلف في مقداره فقبل  
 ثلاثون إردياً وقبل ستة عشر، وقبل تزيد من عشرين، واستولى عليه ولم ينتطح في ذلك  
 شأن فهذا نوع من أعمال العربان بالغربية والمنوفية وقس على هذا، مع قلة محصول  
 الأرز بسائر الوجه البحري لاسيما القمح فإنه في غاية الخس<sup>(٥٤)</sup>.

وقد أدى الصراع بين العربان والمعاليك إلى فقد الأيدي العاملة في الزراعة؛  
 المتمثلة في الفلاحين الذين كانوا يقومون بهذا الصراع، حيث قتل من الفلاحين عدد كبير،  
 وبالتالي خراب البلاد المصرية. ففي عام ٧٠١هـ/١٣٠١م صدرت الأوامر لأمراء  
 المعاليك بوضع: "السيف في الكبير والصغير والجيل والحقير ولا يبقوا شيخاً ولا صبياً  
 ويحتاطوا على سائر الأموال"<sup>(٥٥)</sup> فأحاطوا ببلاد الصعيد وطرقه على حين غفلة من  
 أهله، ووضعوا السيف من الجزيرة بالبر الغربي والاطفيحية من الشرقي، فلم يتركوا  
 أحداً إلا قتلوه ووسطوا نحو عشرة آلاف رجل، وما منهم إلا من أخذوا ماله وسبوا  
 حريمه، وإذا أسكوا رجلاً يريدون قتله فيقول الرجل حضري، فيقولون له: قل (دقيق)  
 فإذا قالها (دقيق) يقتلونه، وإذا قال (دقيق) يتركونه فضلاً عن أسروه في تلك الحملة  
 من العربان المستقلين الذين يقدرون بنحو ألف وستمئة أسير لهم فلاحات وزروع.  
 وقد نزلت كارثة كبرى ببلاد الصعيد من جراء هذه الثورة، حتى خلت بك الصعيد من  
 أهلها بحيث صار الرجل يمشي فلا يجد في طريقه أحداً، وينزل القرية فلا يرى إلا  
 النساء والصبيان<sup>(٥٦)</sup>.

ومن ذلك ما أشار إليه ابن إساق في حوادث عام ٩٢٦هـ/١٥١٥م من أن الأمير قاتى باي قرا توجه إلى جهات الشرقية بسبب فساد العريان، فكان إذا ظفر بأحد من الفلاحين الضعفاء يوسطه أو يسلخه من رأسه على أقدامه، وربما صنع ذلك بجماعة من الأشراف وزعم أنهم من العريان العصاة<sup>(١٧٧)</sup>.

كذلك أدى هذا الصراع إلى هجرة كثير من أهل البلاد من الفلاحين إلى القاهرة كمتسولين في شوارعها للحصول على لقمة العيش، أو تصوص ومنسر يقومون بأعمال السرقة. وكانت تصدر الأوامر من السلطات المملوكية برجوع أهل الريف من الفلاحين والعريان إلى بلادهم، مثلما حدث في عام ٨٢٧هـ/١٤٢٤م، حيث تودي في القاهرة بخروج أهل الريف من القاهرة ومصر إلى بلادهم فلم يعمل بذلك<sup>(١٧٨)</sup>.

وقد أشارت المصادر المعاصرة، في عام ٨٥٥هـ/١٤٥١م، إلى أن كثيرا من أهل الأرياف والقرى ومن الأعراب تزاحموا بالديار المصرية<sup>(١٧٩)</sup> وقامت الناس في هذه الأيام من البلاد والشدائد والغلاء والجهد ما لا مزيد عليه، واتضع جانب أهل الديار المصرية رئيسها ووضعها، بل أشرفت القاهرة على الخراب، وتزع عنها خلائق من أهلها لا تدخل تحت الحصر إلى البلاد الشامية، وورد عليها من أهل القرى ومن الأعراب أمثال من خرج منها، وكثرت الفقراء منهم بالقاهرة حتى صاروا لوججا لوججا في الطرقات، ومات منهم خلائق كثيرة من شدة القحط<sup>(١٨٠)</sup> وهؤلاء عرفوا بـ"الحرافيش" و"الزعر" و"زعر العامة"<sup>(١٨١)</sup> فكانت تأمر السلطات بإعادتهم إلى بلادهم، كما كانت ترجع الفلاحين الأسرى إلى بلادهم ليس يروح الخلف والتي تزع من قلوب المماليك بقدر خوفهم من بوار الأرض الزراعية فيقل المحصول وبالتالي يقل دخل المماليك<sup>(١٨٢)</sup> وقد علق الأسيدي على وضع فلاحى مصر بين العريان والمماليك بقوله:

وصارت الفلاحين قفا بين اثنين لا يستطيعون أن يرضوا جهتين فأهل الدولة أمامهم يظنون منهم ما لهم وما ليس لهم، والعرب المحاربون من خلفهم وعن أيامهم وعن شمائلهم، لا يسعهم لكل أحد إلا الطاعة والإكرام، واستمر عليهم هذا الحال وطال ودام وخاض شهرا وعام، وتسحب أيضا من تسبب وخالط الأتوم، وبقي بعد ذلك من اضطر إلى الإقامة على الدوام، وآل الحال إلى أن غلب القوي الضعيف وضاع الملهوف، وضعف حال البلاد وتزايد الخراب<sup>(١٨٣)</sup> وأصبح حال الفلاح كأنه عند بعضهم أسير ذليل حقير لا بال له عندهم ولا روح<sup>(١٨٤)</sup>.

#### أثر ثورات العريان على الثروة الحيوانية:

أثر الصراع بين المماليك والعريان على الثروة الحيوانية الموجودة في مصر، والتي أصبحت مصدرا رئيسا للمماليك للحصول على الحيوانات وخاصة الخيل، إذ عند المماليك إلى تظيم أطراف هذه القبائل بالاستيلاء على كل ما تملك من الثروة الحيوانية. مثلما حدث في عام ٦٨٩هـ/١٢٩٠م حيث سار نائب السلطنة الأمير طرطنطاي<sup>(١٨٥)</sup> إلى

بلاد الصعيد فقتل جماعة من العريان، وحرق كثيراً منهم بالنار، وأخذ خيولاً كثيرة وسلاحاً ورهائن من أكابرهم. وعاد بمائة ألف رأس من الغنم، وألف ومائتي فرس، وألف جمل وسلاح لا يقع عليه حصر<sup>(١٠١)</sup>.

كما خرج الأمير سنقر الأصغر إلى الصعيد، في عام ٧٠٠هـ/١٢٠٠م، وأخذ سائر الخيول التي ببلاد الصعيد، فلم يدع بها فرساً لفلاح ولا بدوي ولا قاض ولا فقيه ولا كاتب، وتتبع السلاح الذي مع الفلاحين والعربان فأخذه عن آخره. وأخذ الجمال. وعاد من قوص إلى القاهرة، ومعه ألف وستون فرساً، وثماتمائة وسبعون جملًا، وألف وستمائة رمح، وألف ومائتا سيف، وسبعمائة درقة، وستة آلاف رأس من الغنم، فسكن ما كان بالبلاك من الشر، وذلت الفلاحون، وأعطوا الخراج<sup>(١٠٢)</sup>.

كذلك استولى المماليك من العريان، في عام ٧٠١هـ/١٣٠١م، حسب رواية التويري، على خمسة آلاف فرس وعشرين ألف جمل ومائة ألف رأس من الغنم وعدة كثيرة من الأبقار والجواميس والحمر ومن السيوف والرمح عدة كثيرة<sup>(١٠٣)</sup>. ويلاحظ أن المماليك عند تنفيذهم للمصاهرة حرصوا على إيقاع الحوطة على الخيول، لأنها كانت ذات أهمية كبرى في هذا الزمان، سواء في وسائل المواصلات أو الحرب أو التدريبات العسكرية أو الرياضة<sup>(١٠٤)</sup>.

فقد استغل المماليك الصراعات التي كانت تنشب بين العريان، وتتدخل للقضاء عليهم والاستيلاء على أسلحتهم، ففي عام ٦٨٦هـ/١٢٨٧م، وقع عداً بين عرب بني صورة بالمنوفية فاستغل المماليك ذلك فاستولوا على خيلهم وسلاحهم<sup>(١٠٥)</sup>، وعندما نشب قتال بين قبيلتي جابر ومزديش بأقليم البحيرة، في عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م، ووصل الخبر إلى السلطات المملوكية قامت بتجهيز حملة عسكرية ضدهم، وذلك لإخماد فتنتهم، وإطفاء جذرتهم وردع المعتدين منهم " فيذكر ببيرس الدوادر" فأخذنا مواشيهم من الجمال والأغنام<sup>(١٠٦)</sup> "وغنموا منهم جمالاً وخيلاً وأغناماً، وأسروا نساءهم<sup>(١٠٧)</sup>.

وفي عام ٧٥٤هـ/١٣٥٥م كبرت بك البحيرة، بعد ما كتب لمتوليها ومشايخها وأرباب أديارها أنهم لا يخفون أحداً من العرب، ولا من أولادهم ونسائهم، فأخذ الصالح والطلح. وقبض الأمراء على الخيول والسيوف، حتى لم يبق ببلاد البحيرة فرس ولا سيف، وأحضروا أصحابها إلى الوطاق. واستدعى الوالي ومشايخ العريان وعرضت الخيول، فمن عرف فرسه من الفلاحين رسم له ببيعها في سوق الخيل تحت القلعة، وحمل ثمنها إلى الديوان مما عثبه من الخراج. ورسم بمثل ذلك فيما يحضر من خيول فلاحي بقية النواحي، أي أن الفلاح يبيعهما ويورد ثمنها فيما عليه من الخراج، إما للأمير أو للجندي. فاستغل ذلك وعمل به، وسيفت خيول المفسدين، ومن لم يعرف له صاحب حمل إلى إسطبل السلطان<sup>(١٠٨)</sup>. وأخذ منها المفسدين، فوسط وسعر جماعات منهم، وسير إلى القاهرة مائة وخمسين رجلاً في الحديد، ومائة وعشرين فرساً، وسلاحاً كثيراً. وأرسل متولى البحيرة من خيل عربيها ستمائة وأربعين فرساً، فلم يتأخر في

الوجه البحري فرس واحد من خيول العريان. ورسم لقضاة البر وعدوله بركوب البغال والأكاديش<sup>(١١٤)</sup>. وحازوا من الخيل والسلاح شيئاً كثيراً<sup>(١١٥)</sup>، وصار بمال كثير ما بين مواشي وقماش، وحلى وتفود، وعروض وأقوات، ولزواد وروايا ماء. وسبوا حريمهم؛ فاسترقوا كثيراً منه، وصار إلى الأجناد والظلمان منهم شيء كبير، باعوا منه عدداً كثيراً بالقاهرة، بعد عودهم<sup>(١١٦)</sup>. وعرضت الدواب، فكانت ألفاً وثلاثمائة فرس، وألفاً وخمسمائة جمل، وسبعمئة حمار، وأغناماً كثيرة، سوى ما تهبه العبيد وأكلوه. وعرض السلاح، فكان مائة حمل رماح، وثمانين حمل سيوف، وثلاثين حمل درق<sup>(١١٧)</sup>.

وفي عام ٧٩٢هـ/١٣٨٩م سار الأمير ناصر الدين محمد بن الحسام الصقري إلى الصعيد، ليحضر الخيل والجمال والرقيق وغير ذلك من العريان وأهل البلاد<sup>(١١٨)</sup>. ناهيك عن منع العريان من دخول القاهرة راكبين الخيل، ومن ذلك ما حدث عام ٨٩٥هـ/١٤٨٩م من النداء "بأن أحداً من العريان لا يدخل القاهرة راكباً، ومن وجد راكباً بعد اليوم أخذ فرسه"<sup>(١١٩)</sup> وكان للحملات المملوكية ضد العريان أثرها السني في خراب الريف المصري.

#### أثر ثورات العريان على الإنتاج الصناعي:

وكان لهذا الصراع أثر ظاهر على الإنتاج الصناعي، وخاصة صناعة السكر، فقد نهبت معاصر السكر، وأخذت الأبقار التي تديرها، ونهبت حواصل المعاصر والقنود والسكر. ففي عام ٧٥٥هـ/١٣٥٤م قام أحد زعماء العريان، يسمى ابن الأحديب، بالاستيلاء على المعاصر والسواقي، ونهبت حواصل المعاصر والقنود والسكر والأصعال ونهب الأبقار التي تدير هذه المعاصر<sup>(١٢٠)</sup>.

كما هجم عدة من العريان، في عام ٨٩٤هـ/١٤٨٩م على الصناع الذين يعملون في صناعة الجبس بجبل المقطم، فحصل منهم تقاتل، وعلت العرب وقتلوا بعضاً من الجباسة، وسلبوا الباقيين بعد أن تعطلوا بجراح ونحوها<sup>(١٢١)</sup>.

#### أثر ثورات العريان على التجارة الداخلية:

وأثرت ثورات العريان على التجارة الداخلية في مصر، حيث قطعت الطرق البرية بطول البلاد المصرية، وتم الاستيلاء على المراكب التجارية من نهر النيل، ومنع وصول الغلال إلى القاهرة، وبالتالي ارتفعت أسعار السلع في القاهرة، وخاصة السلع الغذائية، مثل اللحوم والغلال والبقول<sup>(١٢٢)</sup>. فقد ذكرت المصادر التاريخية في حوادث عام ٦٩٢هـ/١٢٩٣م أن "العريان بالوجه القبلي تعرضوا إلى الفساد وقطع الطرقات وقتلوا بعض الوكلاء وخرجوا عن الواجب"<sup>(١٢٣)</sup>.

وذكر العيني في حوادث عام ٧٠١هـ/١٣٠١م أن عريان الصعيد قطعوا الطريق، وأولغوا إلى أن كانوا يدخلون مدينة أسبوط ومنفلوط ويتسمون تجارها، ويأخذون من كل واحد مبلغاً على زي الجالية<sup>(١٢٤)</sup> وهو ما يؤكد ابن تفرج بردي بقوله: "وتعدى شرهم في قطع الطريق إلى أن فرضوا على التجار وأرباب المعاش

بأسبوط ومنقوطة فرائض جبوها شبه الجالية<sup>(١٢١)</sup> وكانت أسبوط تمثل مركزاً مهماً من مراكز التجارة على نهر النيل، حيث كانت بداية طريق درب الأربعين<sup>(١٢٢)</sup> المار بالواحات إلى دارفور ومنها إلى الممالك الإسلامية في وسط وغرب إفريقيا<sup>(١٢٣)</sup>. وذكر المقرئ في حوادث عام ٧٤٤هـ/١٣٤٣م أن عربان الصعيد "لقتلوا وقطعوا الطريق"<sup>(١٢٤)</sup>، وفي عام ٧٤٨هـ/١٣٤٩م قدم الخبر بكثرة حشود العريان بالصعيد وبلاذ الفيوم، وشدة فسادهم، وتعذر السفر من قطعهم الطرقات على المسافرين<sup>(١٢٥)</sup>.

ولم يقتصر قطع العريان للطرق على الصعيد، فقد قام عربان الوجه البحري بالدور نفسه، ففي عام ٧٨٢هـ/١٣٨٠م هاجم بدر بن سلام مدينة دمنهور قاعدة أصال البحيرة، ففتك فتكاً ذريعاً في دمنهور، ونهب أسواقها، وأخرب بيوتها، وقتل جماعة من أهلها<sup>(١٢٦)</sup>.

كما ذكر ابن الفرات، في حوادث عام ٧٩٢هـ/١٣٩١م، قيام عرب الزهور بالوجه البحري بقطع الطريق على المسافرين وأخذ أموالهم<sup>(١٢٧)</sup>، فقد كانوا يقطعوا الطريق بالشرفية وحصل للناس منهم ضرر عظيم<sup>(١٢٨)</sup>.

كذلك اعتدى بنو حرام على أهل الخائكة في عام ٨٧٦هـ/١٤٧١م، وفرضوا على نوار الخائكة وحوالياتها قدرًا مضموناً من المال، وجبوا منه نحواً من ثلاثمائة دينار وستين دينار، وهددوا الناس إن رفضوا حالهم إلى السلطان بالنهب والقتل<sup>(١٢٩)</sup> وهو ما أكده ابن الصيرفي من أن أهل الخائكة شكوا "ما نزل بهم من عرب بني حرام، فإنهم أخذوا من كل دار شيئاً مضموناً، ومن كل حالوت كذلك، ومن كل مصصرة كذلك، ومن كل طاحون، وجاء ما أخذوه من أهل الخائكة نحواً من ثلاثمائة دينار وستين ديناراً، وشاع هذا وتواتر، وصاروا في وجل، فإنهم هددوهم أنهم إن شكوهم للسلطان ينهبونهم ويقتلونهم"<sup>(١٣٠)</sup>.

وفي المقابل جردت السلطات المملوكية حملة عسكرية ضدهم، وكان من خطتهم أن يمنع سائر المسافرين في البر والبحر، ومن خرج من مصر كان عقابه الشنق؛ وذلك منعا لوصل أية أخبار عن هذه التجريدة إلى العريان<sup>(١٣١)</sup>، وبالتالي كان للمماليك أيضاً دور في التأثير السلبي على طرق التجارة البرية والنهرية في الوجه القبلي.

#### أثر ثورات العريان على الملاحة في نهر النيل:

بعد نهر النيل شريان الحياة في مصر عبر تاريخها، وكان له دوره في حركة التجارة بين شطري مصر، الوجه القبلي والوجه البحري، وربطهما بعاصمة البلاد<sup>(١٣٢)</sup>، وقد كان لثورات العريان وبخاصة في الصعيد، دورها في شل حركة التجارة في نهر النيل، سواء كانت تجارة داخلية من مدن وقرى مصر إلى العاصمة، أو تجارة خارجية استخدمت النيل طريقاً للوصول إلى خارج مصر كتجارة الكرم



فلم يعد نهر النيل طريقاً مأمونة للتجارة والسفن التي تحمل البضائع في كل الأحوال، إذ كثيراً ما هاجم العربان المراكب والسفن النيلية التي تحمل الغلال وغيرها من البضائع واستولوا على ما بها، ومن الطبيعي في تلك الأحوال أن يتخوف التجار من جلب تجارتهم إلى القاهرة<sup>(١٣٧)</sup>. وحدث في عام ٦٥١هـ/١٢٥٣م أن ثار العربان بالصعيد وقطعوا الطريق برا وبحرا، فامتنع التجار وغيرهم من السفر<sup>(١٣٨)</sup>، كما قام عربان الصعيد في عام ٨٧٣هـ/١٤٦٨م بقطع الطريق، وأخذوا بعض مراكب المغل (الغلال) القادمة من الصعيد، ونهبوا ما فيها، ثم يحرقون المراكب، مما جعل أسعار القمح وبقية الغلال ترتفع في القاهرة<sup>(١٣٩)</sup>.

وقد أشار ابن إيسا في حوادث عام ٨٧٦هـ/١٤٧١م إلى وقوع فتنة كبيرة بين بني حرام وبني وائل، وكثر الفساد من العربان بالشرقية، حتى امتنع مرور الناس من الأسفار إلى الشرقية، من كثرة القتل وقطع الطريق وسلب أثواب المسافرين<sup>(١٤٠)</sup> بل وتزايد الأمر أن هجم العربان من بني حرام وبني وائل على القاهرة حتى وصلوا إلى رأس خط الحصينة، ونهبوا التكاكين وسلبوا أثواب الناس<sup>(١٤١)</sup>. كما ذكر في حوادث عام ٩٠٢هـ/١٤٩٦م، امتناع الناس من الأسفار إلى الشرقية والغربية لتزايد فساد العربان في الطرقات<sup>(١٤٢)</sup>.

وذكر ابن إيسا أيضاً في حوادث عام ٩١٢هـ/١٥٠٦م أن العربان بالشرقية قد قطعوا الطريق على القفل الذي جاء من المحلة ونهبوا كل ما فيه، وكان فيه حمل مال للمسلطان فأخذ مع جملة ما أخذ<sup>(١٤٣)</sup>.

#### أثر ثورات العربان على التجارة الخارجية:

لم يبق دور العربان في التأثير على طرق التجارة الداخلية، بل تجاوزها إلى طرق التجارة التي تربط مصر بالعالم الخارجي، مثل الطريق من عيذاب إلى قوص<sup>(١٤٤)</sup>، فقد كان تجار الكارم يعبرون الصحراء من عيذاب إلى قوص، أو من عيذاب إلى أسوان<sup>(١٤٥)</sup> على ظهور الإبل، ثم يركبون النيل إلى ساحل مصر والقسطنطينة. كان هؤلاء التجار يتجاوزون إلى أدلاء القوافل الذين لا بضنون، ويعرفون الطريق بعلمات لا يدركها غيرهم، ويعرفون موارد الماء وأنواعها، وقد قاسى تجار الكارم كثيراً على يد هؤلاء الأدلاء الذين كانوا يرغمون التجار على دفع مبلغ يسمونه الجمالة (العادة) بالإضافة إلى الأجر الكبير الذي يتقاضونه<sup>(١٤٦)</sup>.

كما هاجم العربان القوافل التجارية بين عيذاب وقوص ونهبوها، ومن ثم فقدت عيذاب مكانتها التجارية<sup>(١٤٧)</sup> مما أدى إلى إزدياد نفوذ البدو في الصحراء الشرقية إلى أن قضى نهائياً على الطريق البري التجاري<sup>(١٤٨)</sup>، وذلك لعجز المماليك عن تأمين قوافل الكارم، وتحول النشاط التجاري إلى ميناء الطور على خليج السويس، وتحولت سياستهم إلى تأمين الطريق البحري الجديد<sup>(١٤٩)</sup>. أما السبب الرئيس الذي أدى إلى ضعف هذا

الطريق، فهو تخلص نفوذ مصر في المناطق الجنوبية، وزيادة عصبية البدو في تلك الطريق، وكثرة فسادهم، فقد عبروا الصحراء وهاجموا القوافل التجارية المتجهة من عيذاب إلى قوص، ونهبوها وقتلوا أصحابها<sup>(١٠٤)</sup> مما أثر على تجارة الكرام<sup>(١٠٥)</sup> التي كانت تمر عبر أراضيها<sup>(١٠٦)</sup>، لذا كان من الوجبات الملقة على عاتق نائب الوجه القبلي كما جاءت في مراسيم تعينه الاهتمام بتجار الكرام وإكرامهم؛ لأنهم "سما كل نادي، رفاق كل ملاح وحادي، ولا بد أن يتحدث السمار، وتتداول بينهم الأسمار، فأجعل شكرنا دأب أمتهم، ومنأحلية أعناقهم، ومنأحنا سببا لاستجلاب رفاقهم، فهم من مواد الإرفاق، وجواد ما يحمل من طرق الألفاق"<sup>(١٠٧)</sup>.

واعتدي عربان صحراء عيذاب، في عام ٧١٥هـ/١٣١٥م، على رسل ملك اليمن، وأخذوا منهم الهدية واستولوا على أموال التجار، مما جعل الملك الناصر يبعث حملة عسكرية لتأديبهم بقيادة الأمير علاء الدين مغلطاي<sup>(١٠٨)</sup>. وكرر عربان صحراء عيذاب نفس الفعل في عام ٧١٦هـ/١٣١٦م، فأعتدوا على رسل ملك اليمن والتجار، وأخذوا جميع ما معهم، فأخرجت السلطات السلوكية حملة عسكرية لتأديبهم وصلت إلى سواكن وقد رجعت تلك الحملة في تاسع جمادى الآخرة عام ٧١٧هـ/١٣١٧م<sup>(١٠٩)</sup> كما قام العربان في عام ٧١٩هـ/١٣١٩م بالفساد في ثغر عيذاب وقتلوا الشام المقيم بها<sup>(١١٠)</sup>.

ومن الطرق التجارية التي تأثرت بثورات العربان، طريق مصر والثوبة، وتعد لسوان أهم مراكزها، وقد تعرضت لهجمات نهب وسلب من القبائل العربية، وبخاصة من بني الكنز<sup>(١١١)</sup>.

وتأثر الطريق بين مصر والشام بثورات العربان أيضا، وقد اعتنى سلاطين المماليك بتوفير الأمن فيه، ليكون السفر آمنا، فهاجم السلطان الظاهر بيبرس البندقداري (٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م) بتأمين هذه الطريق حتى "أن المرأة تسافر من القاهرة إلى الشام بمفردها راجية أو ماشية لا تحمل زاد ولا ماء"<sup>(١١٢)</sup>. وكان عربان الشرقية يقومون بدرك هذا الطريق في خمس عشرة منزلة، من جهة مصر منزلة السعيدية وأخرها من جهة الشام منزلة رفح، وكانت عدتهم ألف وسبعائة فارس لهم أخيار، وبعد الروك الناصري عام ٧١٥هـ/١٣١٥م، تضرر العربان من اتساع الدرك، فعملت عنهم السلطنة منزلتين، وهما رفح والزعفة، وصار آخر أدراكهم منزلة تعرف بالخروبة<sup>(١١٣)</sup>.

وكان لثورات العربان أثرها السيئ على حركة التجارة والمسافرين على هذه الطريق. وضطعت الحركة التجارية بين مصر والشام منذ عام ٨٧٥هـ/١٤٧٠م، فقد كانت القوافل تحتاج إلى قوة عسكرية كي تحميها عند اجتيازها الصحراء من القاهرة إلى غزة خوفا من هجمات العربان<sup>(١١٤)</sup>.

ففي عام ٨٧٦هـ/١٤٧١م كثرت الفساد من العريان بالشرقية، حتى امتنع مرور الناس من الأسفار إلى الشرقية، من كثرة القتل وقطع الطريق وسلب أثواب المسافرين<sup>(١١١)</sup>، وفي عام ٨٧٦هـ/١٤٧١م كانت الطريق من قطيا<sup>(١١٢)</sup> إلى القاهرة مخيفة بواسطة العريان المفسدين<sup>(١١٣)</sup> بحيث لا يقدر واحد يعيش أقل من مائتي جمل أو أكثر، خوفاً من العريان وفسادهم<sup>(١١٤)</sup>.

وأدت زيادة غارات العريان في عهد السلطان المملوكي المؤيد شيخ (٨١٥-٨٢٤هـ/١٤١٢-١٤٢١م)، مع عوامل أخرى، إلى حدوث أزمة اقتصادية وارتفاع الأسعار في القاهرة<sup>(١١٥)</sup> فقد ذكر المقرئ في حوادث عام ٨١٨هـ/١٤١٥م أنه في هذا الشهر تزايد ضرر لقطاع الطريق في عامة أرض مصر، قهلبها وبحريها، لخروج العريان عن الطاعة، وتدهيبهم على المسافرين في البر والبحر، وقتل كثير من الناس فامتنع خروج الأجناد إلى النواحي، وعجزوا عن قبض مغلاتهم من قلة مهابة العريان للسلطنة، وقوة تجرنهم<sup>(١١٦)</sup>، وفي عام ٨٢٥هـ/١٤٢٢م كثرت فساد لهاته وهوارة ببلاد الصعيد، وقطعهم للطرق على المسافرين وشنهم الغارات على البلاد، وإحراقهم عدة نواحي بما فيها<sup>(١١٧)</sup>، وفي عام ٨٤٩هـ/١٤٤٥م كان العريان بالقبض الشرقية يقطعون الطريق ويقصدون في الأرض<sup>(١١٨)</sup>.

وأثرت ثورات العريان في الأسعار، فقد أدى لعدم الأمن في الطرقات إلى أن يمنع التجار من نقل بعض الأصناف، فاشتت في الأسواق مع الاحتياج إليها، مما أدى إلى ارتفاع أسعارها. فقد ذكر عبد الباسط بن خليل، في حوادث عام ٧٤٨هـ/١٣٤٩م، أن ارتفع سعر الغلال بمصر لشدة احتراق النيل وقلة ماله حتى تأخر حمل الغلال في المراكب، وكثرت عيث عريان الوجه القبلي، وغيره، وسفكهم لدماء بعضهم البعض ولدماء الناس، وتهب الغلال من الأجران، مع هيف الغلة<sup>(١١٩)</sup>.

كذلك كان العريان يستولوا على المال الموجود في بيوت المال الموجودة في الأقاليم (الأعمال)<sup>(١٢٠)</sup>، كما حدث في عام ٦٥٣هـ/١٢٥٥م، إذ قام عرب الصعيد بالاستيلاء على الأموال من بيوت المال، وجبوا الجزية من أهل الذمة في تلك الأعمال<sup>(١٢١)</sup>.

#### أثر ثورات العريان على نظام الإنطاع المصري:

ولعل أهم آثار ثورات العريان على الاقتصاد المصري، كان على نظام الإنطاع الحربي الذي ساد مصر منذ قيام الدولة الأيوبية، وبلغ ذروته في العصر المملوكي<sup>(١٢٢)</sup> وبعد المورد الرئيس لدخل سلاطين المماليك وأمرائهم وجنودهم، وكان الخراج عسوماً المصدر الرئيس لدخل الدولة في عصر المماليك<sup>(١٢٣)</sup> ولأن الامتناع عن دفع الخراج يعني ضرب نظام الإنطاع في مقتل، وحرمان المقطوعين من موارد دخلهم وهم من الأمراء

والجنود، ومن ثم إضعاف الجيش المملوكي. وهذا ما حرص العربان عليه حتى يقضوا على دولة المماليك<sup>(١٧٦)</sup>.

فقدما ثار الشريف حصن الدين بن ثعلب، عام ٦٥١هـ/١٢٥٣م، قال: نحن أصحاب البلاد، ومنع الأجناد من تناول الخراج<sup>(١٧٧)</sup>، وفي عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م طمع العرب في مغل الأمراء والجند، ومنعوا الحقوق، فأصلح تلك البلاد حتى أخذ الناس منهم كاملاً<sup>(١٧٨)</sup>. وأشار ابن أبيك الدوادار، في حوادث عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م، إلى أن العربان "تسلطوا تسلطاً عظيماً حتى منعوا الجند والأمراء إقطاعاتهم وخراجاتهم بجميع الصعيد"<sup>(١٧٩)</sup>، وأكد بيبرس الدوادار أنهم "منعوا الحقوق واعتمدوا الحقوق. وقطع رأيتهم الطريق وهاشوا على الأجناد، وثاروا في البلاد وأكثروا من القساة"<sup>(١٨٠)</sup>.

كما قام عربان الصعيد، في عام ٧٠١هـ/١٣٠١م، "ومنعوا حقوق الجند والأمراء من المقل"<sup>(١٨١)</sup> وهاشوا على الأجناد<sup>(١٨٢)</sup>، ومنعوا الخراج<sup>(١٨٣)</sup>. وذكر المقرئ في عام ٧٤٥هـ/١٣٤٦م أن عربان الفيوم "منعوا الخراج"<sup>(١٨٤)</sup> وعندما ثار عربان الصعيد بقيادة الأندب، في عام ٧٥٤هـ/١٣٥٣م، "كسروا مغل الأمراء والأجناد"<sup>(١٨٥)</sup>.

وهكذا صار الصراع بين العربان والمماليك نحو محاولة كل طرف حرمان الطرف الآخر من مصدر قوته، في بلد يعتمد اقتصاده على الزراعة، فإذا كان الأيوبيون، ومن وراءهم المماليك، قد حرّموا العربان من الإقطاعات سوى الإقطاعات ضعيفة قليلة الدخل، وصاروا يسيطرون على كل الأراضي المصرية عدا أرض الوقف وبعض الأملاك قليلة، فإن العربان حاولوا في كل ثوراتهم حرمان المماليك أيضاً من هذه الإقطاعات، من خلال منع إيراداتها من الوصول للمماليك. ومن ناحية أخرى حرص المماليك على الانتقام من هؤلاء العربان لئلا الانتقام وسلبهم كل ما يجوزون من أموال وغلال وحيوانات. وتمثلت المصادر التاريخية المعاصرة بكثير من حوادث استيلاء أمراء المماليك على ثروات العربان الصامتة والناطقة.

وحرص المماليك، عند إخراج التجريدات ضد العربان، على ألا تكون وقت حصاد المقل (الغلال) حرصاً عليه. وقد أشار المقرئ في ذلك في حوادث عام ٧٤٦هـ/١٣٤٧م "وفيها نأقت العربان بالوجه القبلي والفيوم، وكثرت حروبهم وقطعهم الطرقات فلم يمكن خروج العسكر إليهم، فإنه كان أوان المقل خوفاً عليه"<sup>(١٨٦)</sup>.

#### أثر ثورات العربان على نظام الوقف:

وآثر نظام الوقف<sup>(١٨٧)</sup> بشدة، ومن المعطوم أن عصر سلاطين المماليك يعد العصر الذهبي للوقف، فقد خضعت له كثير من الأراضي الزراعية<sup>(١٨٨)</sup> التي تعرض لها العربان وقد حدث في عام ٨٦٤هـ/١٤٥٩م أن بني حرام<sup>(١٨٩)</sup> من قبائل العرب بالقيم الشرقية قاموا بنهب قرية "مخلص"<sup>(١٩٠)</sup> مما جعل نقيب الأشراف يأخذ جماعة من الأشراف، وشكوا إلى السلطان أبنال العلامي لقال: من فعل ذلك؟ فقالوا: قرية كذا، وقرية

كذا، وسموا له المفسدين، فلما طال سكوته، قال الأمير بردك الدويدار<sup>(١٨٩)</sup>، أذهبوا، حتى يكشف السلطان عن هذا الأمر فاتفصوا علي ذلك<sup>(١٩٠)</sup>.

#### الخلاصة :

ويتضح لنا - مما سبق - أن العربان شكلوا شريحة اجتماعية متميزة في مصر، في عصر سلاطين المماليك، حيث انتشرت القبائل العربية في بلاد الوجهين القبلي والبحري، وبخاصة الشرقية والبحيرة والمنوفية وقوص وأسوط والأسمونين. وأن العربان حملوا راية المعارضة وعبء المقاومة ضد سلطنة المماليك دون شرايح المجتمع المصري جميعها، بحيث تميز عصر سلاطين المماليك بكثرة ثورات وانتفاضات العربان ضد الدولة المملوكية، والتي تعد سمة بارزة من سمات العصر المملوكي. وكشفت الدراسة تحيز المصادر التاريخية المعاصرة لوجهة نظر الدولة، واعتبرت ثورة العربان نوع من 'الفساد' و'العبث' و'الفتنة' و'العصيان' و'الغلق' و'الخروج على الطاعة' و'الآثي' و'الضرر'.

وأوضحت الدراسة موقف السلطات المملوكية من ثورات العربان، حيث قابلت تلك الثورات بحجريد العديم من الحملات العسكورية التي تسببت في تدمير البلاد التي مرت بها. وقد ارتبطت هذه الحملات باستخدام القوة والشدّة المفرطة، وتعدد أساليب القتل من التوسيط والتسمير والحصر ونشر الأجسام وسلخ الجلود، ودفن الأحياء، وتعليق رؤوس القتلى في رقاب نساءهم، وبناء مآذن من رؤوس القتلى، وسبى النساء ومصادرة الأموال.

وكشفت الدراسة عن لجوء السلطات المملوكية إلى استصدار الفتوى الشرعية التي تجيز قتل هؤلاء العربان على اعتبار أنهم 'مفسدون' و'خارجون على الطاعة' تجب سحارتهم، فأقتوهم بجواز ذلك. وكان الحصول على هذه الفتوى سندا شرعيا يبرر الأعمال الانتقامية التي يقوم بها المماليك ضد هؤلاء العربان، والتي وصلت حد الإبادة الجماعية.

كما كشفت الدراسة عن آثار ثورات العربان السلبية على الاقتصاد المصري وبخاصة الإنتاج الزراعي حيث تم تدمير الجسور وإغراق الأرض الزراعية بمياه الفيضان وتكسير آلات الري وحرق الغلال في الجرون.

كذلك كشفت الدراسة حجم الثروة الحيوانية الكبير وبخاصة من الخيول والإبل والأبقار والأغنام؛ التي تم الاستيلاء عليها من العربان، بحيث لم تستطع المصادر المعاصرة أن نعدنا بأرقامها لأنها تخرج عن الحصر.

فضلا عن ذلك فقد أثر هذا الصراع على الإنتاج الصناعي، وخاصة صناعة السكر حيث نهبت معاصر السكر، وأخذت الأبقار التي تديرها ونهبت حواصل المعاصر والقنود والسكر

بالإضافة إلى ذلك فقد أثرت ثورات العربان على التجارة الداخلية في مصر، حيث قطعت الطرق البرية بطول البلاد المصرية، وتم الاستيلاء على المراكب التجارية من نهر النيل، ومنع وصول الغلال إلى القاهرة وبالتالي ارتفاع أسعار السلع في القاهرة، وخاصة السلع الغذائية مثل التمور والخلل والبقول.

كما أوضحت الدراسة أن تأثير ثورات العربان لم يقتصر على التجارة الداخلية وطريقها، بل امتد تأثيرها إلى التجارة الخارجية وطرقها، سواء طريق عيذاب إلى قوص والخاص بتجارة الكارم، أو على الطريق بين مصر والنوبة، أو على الطريق بين مصر والشام مما ساهم في إضعاف التجارة الخارجية بالاشتراك مع المياسة الاحتكارية للمماليك، والحصار الاقتصادي من جانب الغرب الأوروبي، وحركة القرصنة على الشواطئ المصرية، ومحاولة إيجاد طرق بديلة بعيداً عن سيطرة المماليك.

كذلك كان لثورات العربان تأثيرها على نظام الإقطاع الحربي الذي ساد مصر منذ قيام الدولة الأيوبية، والذي بلغ ذروته في عصر المملوكي، وكان يعد المورد الرئيس لدخل سلطين المماليك وأمراءهم وجنودهم. كما كان الخراج يعد المصدر الأساسي لدخل الدولة في عصر المماليك، والاستتاع عن دفع الخراج معناه ضرب نظام الإقطاع في مقتل وحزمان المقتلعين من موارد دخلهم وهم من الأمراء والجنود وبالتالي إضعاف الجيش المملوكي.

بالإضافة إلى ما سبق من تأثير ثورات العربان على الاقتصاد المصري، فقد تأثر نظام الوقف الذي خضعت له كثير من الأراضي الزراعية، بسبب اعتداءات العربان من قتل الفلاحين، وغرق الأرض، ونهب الغلال، وبالتالي الأثر المبيد على الجهات المعوقف عليها هذه الأراضي. كما أدى الصراع بين العربان والمماليك إلى تدمير البنية البشرية لسكان مصر في عصر كانت المجاعات والأوبئة بمثابة معول هدم لهذه البنية البشرية من ناحية أخرى.

## هوامش البحث

- (١) إبراهيم أحمد زرقاته: القبائل العربية في مصر عند المقرئبي، ضمن كتاب دراسات عن المقرئبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧١، ص ٨٥؛ أحمد مصطفى الصغير: المجتمع المصري في العهد المملوكي وأثر الحياة السياسية فيه، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨، ص ٦٢. نظر الخرائط الملحقة بالدراسة أرقام ١ و ٢ و ٣ و ٤.
- (٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المملوكي في مصر والشام، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٩٤، ص ٢٢٣.
- (٣) حبشي سيد نصر: المجتمع المصري في الشعر المملوكي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، ١٩٨٠، ص ١٦.
- (٤) أوردت المصادر المعاصرة مصطلح الفساد بمشتقاته مثل "فساد العربان"، و"كثير فسادهم" و "أكثرنا من الفساد" و"غلبة الفساد" و"كثير فساد لهامة وهوارة" و"المفسدين" و"مفسدي العرب" و"العرب المفسدين" و"الأعراب المفسدين"، ابن تيمية: السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، كتاب الهلال، عدد ٣٦٧، القاهرة، ١٩٨١، ص ١٦٧ بريس النوادر: زبدة الفترة في تاريخ الهجرة، تحقيق زبيدة حبيد حجاز، الطبعة الثانية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ج ٩، ص ٣٩١؛ التنويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢٢، تحقيق فهد محمد شنتوت، دار الكتب والوثائق القومية، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢، ص ١١٦؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مج ٩، ج ٢، تحقيق مسطفيون رزيق وجمال عز الدين، بيروت، ١٩٣٩، ص ١٢٦٣؛ ابن دسوقي: الجواهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، جامعة أم القرى، مكة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص ٣٩٥؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، بيروت، ١٩٧٩، ج ٥، ص ٤٥٠؛ المقرئبي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٤، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب، القاهرة، ص ٣٥٢، ١٦٠٣؛ ابن حجر: إنباء تغرر بأبناء العمر، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى للثلاثون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٩، ج ٣، ص ٩١؛ العنوي: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج ٤، تحقيق محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢، ج ٤، ص ١٧٣؛ ابن الصيرفي: إنباء العصر بأبناء العصر، تحقيق حسن حبشي، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٢٨٦؛ عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل في ذيل الدول، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ٢٠٠٢م، ج ١، ص ٢٢٨؛ ١٢٩؛ ابن إيس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الآثار، القاهرة، د. ت. ، ج ١، ق ١، ص ٤٤٣؛ ق ٢، ص ٢٨٨، ج ٣، ص ٣٤٦؛ ج ٤، ص ٢٥٨، ٤٥١؛ ج ٥، ص ٤٧.

- (٥) مثل 'صحت العربان' و 'صحت عربان الوجه القبلي' و 'قد كثر صيهم وعظم فسادهم' ولإنيهم بالغوا في العتو والفساد. المعريزي: السلوك، ج ٣، ص ٦٣٨، ج ٤، ص ١٦٧٨ ابن الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ أهل الزمان، تحقيق حسن حبش، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٠، ج ١، ص ٢٢٢؛ عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج ١، ص ١٤٤
- (٦) مثل: 'خدمت فتنة العرب' و 'الفتنة الواقعة' و 'وقوع الفتنة' و 'مال عربان الصعيد إلى الفتنة' و 'كانت الفتنة ونفاق العربان'. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦، ص ٥١؛ التويري: نهاية الأرب، ج ٣٢، ص ٢٤١؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٢، ص ٤٢؛ عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج ١، ص ١٤١؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٥٥١.
- (٧) مثل 'عصيان الشريف حصن الدين بن لعلب' و 'تظاهر بالعصيان' و 'الظهورا بالعصيان' و 'كانوا يتجاهرون بالعصيان' و 'كان قبل عصيانه' و 'العربان العصاة' و 'عصاة العربان' و 'عصوا على الخلافة' و 'أزدنوا عصيانا فوق عصيتهم' و 'ما شهر منهم من العصيان والتفاني والدعوان'. زكريسين: تاريخ سلاطين المماليك، لندن، ١٩١٩، ص ١١٠٧؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج ٩، ص ٣٩١؛ التحفة الملوكية في الدولة التركية، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، دار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص ٣٧؛ التويري: نهاية الأرب، ج ٣٤، ص ١٢٣٩؛ ج ٣٢، ص ١١٦؛ ابن تغري بردي: حوادث الدهور في ماضي الأيام والشهور، ج ٦، تحقيق فهد محمد شلتوت، المجلس الأعلى للعلوم الإسلامية، القاهرة، ١٤١١هـ/١٩٩٠م، ص ١٢١؛ التجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٣٥٢؛ عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج ١، ص ١٢٦٢؛ ابن إياس: بدائع، ج ١، ق ١، ص ١٥٥٠؛ ج ٥، ص ٢٥، ٩٦، ٢٥٦، ٤٥١.
- (٨) وذلك مثل: 'تظاهروا بالنفاق والعصيان' و 'فيه وصل الخبر بنفاق العربان بالوجه القبلي' و 'نفاق عربان الصعيد' و 'تألفت العربان بالوجه القبلي والقيوم' و 'تألفقة العربان بالصعيد' و 'إن العرب تألقوا' زكريسين: تاريخ سلاطين المماليك، ص ١١٠٧؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج ٩، ص ٣٩٩؛ التحفة الملوكية، ص ٣٣؛ المعريزي: السلوك، ج ٢، ص ٦٥٦، ٦٩٥؛ عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج ١، ص ٢١٨.
- (٩) فذكرت 'خرجوا عن الطاعة' و 'فيه خرج عربان الوجه القبلي عن الطاعة' و 'العرب الخارجة عن الطاعة' المعريزي: السلوك، ج ٢، ص ٩٠٧؛ ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج ١، ص ١٨٥؛ عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج ١، ص ١٩٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٥٥٠؛ ق ٢، ص ٢٣٥.
- (١٠) 'وقيه كثر أذى عرب الأطلحية وضررهم' عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج ١، ص ٢١٤.
- (١١) عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج ١، ص ٢١٠.
- (١٢) عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج ١، ص ٢٠٠.



- (13) عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج ١، ص ١٧٥.
- (14) الأحامدة: بطن من جرم (يفتح الجيم وسكون اراء المهملة وميم في الآخر) طين من القحطانية. القلقشندي: نهاية الأرب، ص ١١٤؛ فلاح الجمان، ص ٨٣-٨٤.
- (15) المقرئزي: الملوك، ج ٤، ص ٣١٦.
- (16) بيبرس النودار: زبدة الفكرة، ج ٩، ص ٣٩٢؛ العيني: عقد الجمان، ج ٤، ص ١٧٣؛ ابن إياس: بدائع، ج ٣، ص ١٤٣.
- (17) عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج ١، ص ٢٢٧.
- (18) بيبرس النودار: التحفة الملوكية، ص ١٦٠.
- (19) محمود محمد الحويري: مصر في العصور الوسطى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٦، ص ٢٦١.
- (20) سعيد عبد الفتاح عائشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٦١؛ محمود محمد الحويري: مصر في العصور الوسطى، ص ٢٦١.
- (21) المقرئزي: البيان والإعراب، ص ٩.
- (22) المقرئزي: الملوك، ج ١، ص ١٣٨٦؛ البيهقي والإعراب، ص ٣٨. جمال الدين الشيبان: تاريخ مصر الإسلامية، الجزء الثاني العصور الأيوبية والمملوكية، دار المعارف، الطبعة الثانية، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ١١٧-١١٨؛ أحمد مصطفى الصغير: المجتمع المصري، ص ٦٢؛ عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك في مصر، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٨، ص ١٤٣-١٤٤؛ طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر دراسة للأسباب التي أهدت حكم دولة سلاطين المماليك في مصر، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨، ص ٦٧-٦٨.
- Poliak (A. N.), "Les révoltes populaires en Egypte à l' époque des mamelouke ", *Revue des Et. Islam.* 1934, pp. 251-273;
- Garcin (Jean-Claud), "Note sur les rapports entre bédouins et fellahs à l'époque mamluke" , *Annales Islamologiques*, (IFAO), XIV, PP. 147-163.
- (23) القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة ألساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة، ١٩٥٩، ص ١٣٩.
- (24) ابن تغري بردي: التنجيم الزاهرة، ج ٧، ص ١٣.
- (25) السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧ م، ج ٢، ص ٥٨.
- (26) ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨، ص ١٠٧-١٠٨.

(27) شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن عبد الله بن صهاج بن مائل الصنهاجي، أصله من قلعة حماد بالمغرب، ولد بدلاص إحدى قرى إقليم البهنسا وقرية تابعة لمركز ناصر - محافظة بني سويف الآن، حيث كانت أمه من دلاص، وأبوه من أبو صير الملقب - قرية تابعة لمركز الواطى - محافظة بني سويف - لذا أطلق على نفسه الدلاصيري، واشتهر بالبوصيري، وانتقل إلى القاهرة، وتعلّم صناعة الكتابة، وياشر ببينيس بإقليم الشرقية، ثم انتقل إلى الإسكندرية، وانضم إلى الطريقة الشاذلية وتعلّم على يد أبو العباس المرسي خليفة أبو الحسن الشاذلي مؤسس الطريقة الشاذلية، وظل بالإسكندرية حيث وافته المنية بها في عام ٦٩٦هـ/١٢٩٧م ومسجده مجاور لمسجد أبو العباس المرسي بميدان المساجد الآن ويعرف بالأياصيري، لمزيد من التفاصيل انظر :-

ابن أبيك الصفاي، الوافي، ج-٣، ص ١٠٥-١١٢، رقم ١١٠٤٥؛ المقرئزي، المقلي الكبير، ج-٥، ص ٦٦١-٦٦٩ رقم ١٢٢٦٢ ابن شاكر الكشي، فوات الوفيات، ج-٣، ص ٣٦٢-٣٦٩، رقم ٤٥٦؛ ابن تفرج بردي، اللؤلؤ الشافي، ج-٢، ص ٦٢٢ رقم ١٢١٣٩؛ ابن العماد الحلبي، شذرات الذهب، ج-٥، ص ٤٣٢؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج-١، ص ١٥٧؛ عبد الطيف حمزة، الألب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية، ص ١٠٤-١٢٠؛ الحركة الفكرية في مصر في القرنين الأيوبي والمملوكي الأول، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٢٧٤.

(28) البوصيري: ديوان البوصيري، تحقيق محمد سيد كيلاني، القاهرة، ١٩٥٥، ص ١٣٨.

(29) مدح البوصيري المماليك بقوله:

ترك لزيّنت الدنيا بذكرهم فهم لها الحلبي إن غلبوا وإن حضروا  
حكمت طوافهم حسنا بواطنهم فهم سواء أسروا القول أو جهروا  
بيض لوجوهه بجن الليل إن ركبوا إلى الوضي ويضوء الصبح إن سفروا

ديوان البوصيري، ص ١٣٦؛ حبشي سيد نصر: المجتمع المصري في الشعر المملوكي، ص ٣٤.

(30) محمود السيد: تاريخ القبائل العربية، ص ٢٤٨.

(31) ابن الطويرتزقة المقلتين في أخبار الدولتين، بناء وتحقيق أيمن فؤاد سيد، بيروت، ١٩٩٢، ص ١٨٦؛ القلقشندي: صبح الأعلى، ج ٣، ص ٤٥٧-٤٥٨؛ السيد الهار العريضي: الإقطاع الحربي، ص ١٩.

(32) المقرئزي: الملوك، ج ١، ص ١٧٢؛ حسنين محمد ربيع: التظلم المالية في مصر زمن الأيوبيين، القاهرة، ١٩٦٤، ص ١٢٩؛ محمد فتحى الشاعر: الشرقية في عصري سلاطين الأيوبيين والمماليك، ص ٥١.

(33) السبكي: معبد النعم ومبيد التظلم، تحقيق محمد علي التجار وأخران، القاهرة، ١٩٤٨، ص ٥٤-٥٥.

(34) سقر بن عبد الله الأصغر المنصوري فلتون تولي الوزارة مرتين وتوفي عام ١٢٧٠هـ / ١٣٠٩م. انظر: الصفاي: ثلثي وفيات الأعيان، ص ٨٨، رقم ١٢٢٩ ابن تغري بردي: المعنل الصفاي، ج ٦، ص ٩٦-٩٨، رقم ١١٢٤.

Abd Ar-Raziq (Ahmad), ' Le vizirat et les vizirs d' Egypte au temps des Mamluks ', An. Isl. XVI, le Cairo, 1980. No. 20,22.

(35) ابن ياس: بدائع، ج ١، ق ١، ص ٤٠٩.

(36) بيبرس النوادار زيادة الفكرة، ج ٩، ص ٣٧٧.

(37) أحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والسلام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦م، ص ١٢٩ في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٥، ص ١١٧.

(38) المسخاري: الضوء اللامع، ج ١٠، ص ١٢٧٢ ابن ياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ١٤٢ عبد الفتاح يوسف عرابي: قوص في عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير، كلية الآداب بسوهاج، ١٩٩٠، ص ١٤٨ ماهر أحمد مصطفى: صعيد مصر في عصر المماليك لجراسية، الطبعة الأولى، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٤، ص ٥٢.

(39) يشبه من مهدي الظاهري جقمق، تولي نيابة الترجه لقبلي عام ٨٧١هـ/١٤٦٦م وكانت له حروب مع عرب هولة، وساعد الاشراف قاينباي في تولي السلطنة وأصبح الرجل الثاني في الدولة وله العديد من المنشآت المعمارية في القاهرة والإسكندرية، وقاد حملة عسكرية ضد الغزاة التركمانية في شمال العراق وقتل بمدينة الرها عام ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م. المسخاري: الضوء اللامع، ج ١٠، ص ٢٧٢-٢٧٤، رقم ١٠٧٧.

(40) ابن تغري بردي: منتخبات من حوالت الدعور، ج ٣، ص ١٦٩٥ ابن الصيرفي: إنباء القصر، ص ٤٤-٤٥: عبد الباسط بن خليل الحنفي: نيل الأمل، ٦، ص ٣٥٦ ابن ياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ١٢٥ البيومي إسماعيل الشربيني: مصاندة الأملاك، ج ١، ص ١٥٣ ماهر أحمد مصطفى: صعيد مصر، ص ٥٢.

(41) عيذاب: بالفتح ثم السكون، وذال، وأخره باء موحدة، بليدة علي بحر القلزم في درسي المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد. عن أهمية ميناء عيذاب في خدمة التجارة. انظر: - ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ١١٧١ أحمد دراج 'عيذاب'، مجلة نهضة أفريقية، السنة الأولى، العدد ٩، ١٠ (يونيو - أغسطس)، ١٩٥٨: عطية القوي، تجارة مصر في البحر الأحمر، منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٦، ص ١٢٨ - ١٣٠ هسئين محمد ربيع 'البحر الأحمر في العصر الأيوبي'، ندوة البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة ١٠ - ١٥ مارس ١٩٧٩، القاهرة، ١٩٨٠، ص ١٠٥ - ١٢٣ بشير إبراهيم بشير، 'عيذاب حياتها الدينية والأبوية'، مجلة الدراسات السودانية، جامعة الخرطوم، ص ٥٣، ج ٢، يوليو، ١٩٧٩ السيد عبد العزيز سالم، البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٣، ص ٣٩ - ١٨٠ رجب محمد عبد الحلیم، 'ميناء

عذاب ووادى العلافى وأثرهما فى علاقة مصر بالسودان حتى نهاية القرن ٩ هـ / ١٥ م ، ندوة الحدود المصرية السودانية عبر التاريخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٢٢٧ - ٣٠٥.

(٤٢) التويرى: نهاية الأرب، ج ٣٢، ص ٢٤٠.

(٤٣) ابن إياس: بدائع، ج ٤، ص ٣٢٤-٣٢٥.

(٤٤) التويرى: نهاية الأرب، ج ٣٢، ص ١٦.

(٤٥) ابن الصيرفى: إنباء الناصر ببناءه، ص ٩.

(٤٦) التويرى: نهاية الأرب فى قرون الأرب، ج ٢٩، تحقيق محمد ضياء الدين الرئيس، الهيئة

المصرية العامة للكتاب للقاهرة، ١٩٩٢، ص ٤٢٧-٤٢٨؛ بيبرس المنصورى: لتحتفة

الملوكية، ص ١٣٧؛ ابن فضل الله العمري: لتعريف بالمصطلح الشريف، ص ٢٤٣-١٢٤٤

مسالك الأبحار فى ممالك الأبحار قبائل العرب فى القرنين السابع والثامن، تحقيق

نورو تيكراف فوشسكى، الطبعة الأولى، المركز الإسلامى للبحوث، بيروت،

١٤٠٦هـ/١٩٨٥، ص ١٦١؛ المقرئى: السلوك، ج ١، ص ٣٨٧-٣٨٨؛ العيسى: عقد

الجمان، ج ١، ص ١١٠٨. أحمد صفاق سعد: تاريخ مصر الاجتماعى والاقتصادى،

ص ٤٧٧-٤٧٨؛ محمود محمد الحويرى: مصر فى العصور الوسطى، دار عين، القاهرة،

١٩٩٦، ص ٢٦١-٢٦٢؛ حياة ناصر العجى: أحوال العامة فى حكم المماليك، ط ٢،

الكويت، ١٩٩٤، ص ١٦؛ أحمد مختار العادى: قيام دولة المماليك الأولى فى مصر

والشام، ص ١٣٠-١٣٢ فى تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ١١٨-١١٩؛ محمود

محمد السيد: القبائل العربية فى عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، مؤسسة شباب

الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٨، ص ١٣١-١٣٢؛ أحمد لطفي السيد: قبائل العرب فى

مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨، ص ٧١؛

Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages,

fourth edition, London, 1925, pp.259-260.

(٤٧) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج ٩، ص ٣٤٧؛ مختار الأبحار، ص ١١٩؛ ابن تغرى

بردى: لتجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١١٤.

Garcin (Jean-Claud), "Note sur les rapports entre bédouins et

fellahs", P. 148.

(٤٨) ابن دساق: الجوهر الثمين، ص ٣٩٥-٣٩٦؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج ٥،

ص ٤٥٠؛ المقرئى: السلوك، ج ٢، ق ٣، ص ٩١٠؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١،

ق ١، ص ٥٥٠-٥٥١؛

Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p.

320, Poliak (A. N.), " Les révoltes populaires en Egypte à l'

époque des mameloukes P. 260.

(٤٩) أحمد مختار العادى: فى تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ١١٧.

(50) التوسيط؛ وهو أن يعري الشخص من أسراب ويضرب بالسيف بقرة تحت السرة ليأتمس إلى نصفين وتنتهار أسماء المحتوم عليه إلى الأرض. عاشور: العصر المماليكي، ص ٤٢٤.

(51) التسمير: عقوبة تقضي بتعرية المحتوم عليه من الثياب، ثم يربط إلى قضبتين على شكل صليب، وتلقى أعضائه في الخشب بواسطة مسامير حلاقة تربطه بالخشب. عاشور: العصر المماليكي، ص ٤٢٣.

(52) العصر: وهو عقاب المذنب بألة العصر المسماة المعصرة، وهي عبارة عن خشبتين مربوطتين ببعضهما ويوضع بينهما الجزء المراد عصره في المذنب ثم تشد الخشبتان بشدة فيؤدي ذلك إلى أضرار بالغة بالجمد والعظام المعصورة بينهما. دهقان: معجم الألفاظ التاريخية، ص ١١٢ ماجد: تقم المماليك، ج ١، ص ١٣٤.

(53) لادم مختار الحادي: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ١١٧ علاء طه رزق: المسجون والعقوبات في مصر عصر سلاطين المماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ١٥٨.

وقد اتى البوصيري على ما فعله المماليك بالعربان متفانرا بقوله:

فمعضر ففقت أوصالهم لظفا	لما بلغها شمس ولا أبر
ومعشر بالقلبا طاراتا رؤسهم	عن التجوم لقلنا أنها أكر
ومعشر وسطوا مثل الدلاء ولم	تربط حبال بها يوما ولا بكر
ومعشر مروا فوق الجياد وقد	شدت صومهم الأكراب والشمر
وأخرون فدوا بالمال أنفسهم	وقالت للناس خير من عسى عور
موتات سوء تلقوها بما صنعوا	ومن وراء تلقبهم لها مقر

ديوان البوصيري، ص ١٣٥.

(54) ابن تاري بردي: الهجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١٥٠.

(55) البيومي الشريفي: مصادرة الأملاك، ج ١، ص ١٩٥.

(56) سنيس: يضم السين المهملة وسكون النون وضم الهاء التوحدة وسين مهملة في الآخر.

وهي البطن الخامس من طيء. ومن سنيس طائفة بالجيزة حول سفرة ومنشأة دهنور وما والاها. والإمارة الآن بالديار المصرية في الخراطة في بني يوسف، ومقرهم بمدينة سقا بالأعمال الغربية. نظر: الفلقندي؛ فائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار لكتاب المصري، ط٢، القاهرة، ١٩٨٢، ص ١٨٧؛ المقرزي: البيان والإعراب، ص ٧-٨.

كانت الإمارة في عمل المنوفية الصل للثاني المنوفية لأولاد نصير الدين من لواته ولكن إمرتهم في معنى مشيخة العرب، وكانت الإمارة في عمل الغربية في أولاد يوسف من الخراطة من سنيس من طيء من كهلان من القبطانية ومقرتهم مدينة سقا من الغربية. الفلقندي: صبح الاعشى، ج ٤، ص ٧١.

(57) المقرزي: السلوك، ج ١، ص ٢٨٧.

- (58) المقرئزي: السلوك، ج ٢، ص ٩١٢.
- (59) ابن إيس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٢٦٨.
- (60) المقرئزي: السلوك، ج ٤، ص ٢٧٤-٢٧٥.
- (61) المقرئزي: السلوك، ج ٤، ص ٣٩٦.
- (62) البردي الأشرفي قاينباي وابن صه وتزوج أخت زوجته، واستقر في الدوادية الكبرى وأضيف إليه الوزارة. المخاوي: الضوء اللامع، ج ٢، ص ٣١٥، رقم ١٠٠٢.
- (63) ابن إيس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٤٠. وقد حاول أحد الباحثين تمييز سلوك المماليك ذلك بزواج الشغار المأذنين بعض القبائل آنذاك، مما جعل نظرة المماليك إلى تلك التسمية الأسيرات لم تعد كونهن جواري. أنظر: علي السيد علي: الجواري في مجتمع القاهرة المملوكية، سلسلة تاريخ المصريين رقم ١٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٢٣.
- (64) ابن الصوري: نزهة الفوس، ج ١، ص ٢١٣.
- (65) آشور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبد الهادي عطية، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٥، ص ٣٧٣.
- (66) المقرئزي: السلوك، ج ٣، ق ١، ص ١٣٤. ابن حجر: إنباء النسر، ج ١، ص ١٧٦.
- (67) كان نائب الوجه القبلي يختار من أمراء المماليك مفسدي الألواف، وهم أعلى رتبة عسكرية في الدولة المملوكية، وهو في رتبة مقدم العسكر بإخرة في الممالك الشامية، وفي رتبة نائب الوجه البحري، بل أعظم حظراً منه. ومقر إقامته مدينة أسيوط. القلقشندي: صبح الأضنى، ج ٤، ص ٢٤-٢٥، الخالدي: المنصحة الرفيع، ورقة ١٤٢-١٤٣، عائور: العصر المماليكي، ص ٣٤٠؛ الأيوبيون والمماليك، ص ١٣٠ محمد عبد الغني الأنسري: نائب السلطنة المملوكية في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، رقم ١٥٨، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٨٠.
- (68) ابن دقماق: الانتصار، ق ٥، ص ٢٢؛ القلقشندي: صبح الأضنى، ج ٤، ص ٢٦.
- (69) ابن دقماق: الانتصار، ق ٥، ص ٢٥.
- (70) القلقشندي: صبح الأضنى، ج ١١، ص ٤٢٨، ٤٣٠، ٤٣٣.
- (71) القلقشندي: صبح الأضنى، ج ١، ص ٢٥، ٦٥، ج ١١، ص ١٢٨ ضوء الصباح المسفر، ص ٢٦٥-٢٦٦.
- (72) اليوسفي: نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق أحمد حطوط، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٦، ص ٢٥٤-٢٥٥.
- (73) محمد جمال الدين سرور: دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧، ص ١٢٨٣ سعيد عبد الفتاح عائور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص ١٢٨٣ الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٠، ص ١٣١١ مصر في عصر دولة المماليك البحرية، ص ١٩٧-١٩٨.

- (74) السواقي: مفردها الساقية وهي آلة قديمة عرفها الفلاح المصري منذ أقدم العصور. وهي تتكون من دواب أو عجلة أي قرص خشبي مستدير ومسنن يصنع من خشب السنط يحيط به حبل، وتربط به أوان من الفخار أو الخشب المثقوب بالصفيح تعرف بالقوايس ويتحرك الدواب بعجلة مسننة أخرى تدور حول محور يحرك هذه العجلة الأخيرة الدواب من البقر والجاموس أو الخيول. التالاسي: المع القوانين المضنية، نشر كلود كاهن، دمشق، ١٩٦١، ص ٤٨؛ الألفوي: الطالع السعيد، ص ٢١٢؛ المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ١٥٦؛ أوليم نظير: الزراعة في مصر الإسلامية، ص ٤٢؛ Lane-Poole, Social life in Egypt, 1883, pp. 50-51.
- (75) اللقشندى: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٢٠٨؛ أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي، ص ٤٢٢.
- (76) المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ١١٢٢.
- (77) المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٦٦٨.
- (78) الجسور: عبارة عن سد ترابي على حافة النهر أو الترعَة. حيث ترجع أهمية الجسور في أنها تعمل على حماية الأراضي الزراعية والبلاد من مياه الفيضان، وتتحقق أقصى فائدة ممكنة منها. وانقسمت الجسور في مصر إلى نوعين: النوع الأول: الجسور السلطانية؛ وهي التي يعم تغنيها كل الأراضي. وكانت الدولة تعين أحد الأمراء للاهتمام بهذه الجسور أطلق عليه "كاشف الجسور" أو "مكلف التراب" والنوع الثاني: الجسور البلدية؛ وهي تخدم ناحية تون أخرى وعلى آخر هذه الناحية الانتماء بها. انظر: ابن ممتلي: قوانين الدواوين، ص ٢٢٢؛ اللقشندى: صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤٤٨-٤٤٩؛ المقريزي: الخطط، ج ١، ص ١٦٢-١٦٣؛ ابن شافين القاهري: زبدة كلفنا العمالك، ص ١٢٩؛ قاسم عبده قاسم: النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨، ص ٢٢.
- (79) المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٨٩٦.
- (80) سنيت: إحدى نواحي إقليم الشرقية. انظر: ابن ممتلي: قوانين الدين، ص ١٤٥. وتعرف منذ العصر العثماني باسم "سنيت" هي تتبع مركز بناها بالقنوبية. محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ق ٢، ج ١، ص ١٩.
- (81) ابن ياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٩٦.
- (82) ابن ياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٢٢٤-٢٢٥.
- (83) سعيد عبد الفتاح عاتور: المجتمع المصري، ص ٥٢-٥٣.
- (84) ابن ياس: بدائع الزهور، ج ٢، ص ٢٧.
- (85) وهي أماكن درس الغلال من الفصح والفول والشعير.
- (86) المقريزي: السلوك، ج ٢، ق ٣، ص ٧٢٨.
- (87) المقريزي: السلوك، ج ٢، ق ٣، ص ٧٧٠.

- (88) المقرئزي: السلوك، ج٢، ق٢، ص٨٥٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٦٢؛ عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج١، ص٢١٨-٢١٩؛ ابن ياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٤٠.
- (89) السخاوي: النيل لتمام على تاريخ الإسلام، ج١، ص١٣٣.
- (90) ابن ياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٥٠.
- (91) ابن ياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٢٣٥.
- (92) ابن ياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٢٧٩.
- (93) احدى قرى إقليم المتوفية ومقر عمل أبيار وجزيرة بني نصر، وهي مدينة كبيرة، عاصمة جيليلة أهلها ولها أسواق وقياسر ومشهور بصناعة النسيج، حيث يعمل بها القماش الفاخر المعروف بـ "القماش الأبياري" مما يضاهي عتابي بغداد، ويلفوق القماش السكندري. الطوطا: مباحث الفكر، ص١١٧؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص١٤١٠؛ ابن دسوقي: الانتصار، ق٥، ص٩٩؛ الجيعان: التحفة السنية، ص١١١؛ عن مبارك: الخطط التوفيقية، ج٨، ص٢٨-١٣٠؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ق٢، ج٢، ص١١٩.
- (94) ابن تغري بردي: منتخبات من حوادث الدهور، نشر وأبم بيروت، ج٢، ص٦٥٣-٦٥٤؛ نظير حسان سعادوي: صور ومظالم من عصر المماليك، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٦، ص٤٤-٤٥؛ مجدي عبد الرشيد بحر: القوية المصرية في عصر سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين رقم ١٧٠، القاهرة، ١٩٩٩، ص٢٢٩-٢٣١.
- (95) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٥٠.
- (96) المقرئزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٩٢٠-٩٢٣؛ العيني: عقد الجمان، ج٤، ص١٧٣-١٧٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٤٩-١٥٤.
- Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, pp. 300-301.
- (97) ابن ياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٤٥١-٤٥٢.
- (98) المقرئزي: السلوك، ج٤، ص٦٧٢.
- (99) السخاوي: التبر المسبوك، ص٢٤٦-٢٤٧.
- (100) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٢٦٨.
- (101) احمد مختار العبادي: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص١١٧.
- الدعارة أو الزعارة والزعر: أيضا جمع زاعر، وهو الثمن والمحتال والعيال والحرفوش والمشرد. محمد قنديل البقري: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص١٧٠ علاه طه زرق: عامة القاهرة في عصر سلاطين المماليك، الطبعة الأولى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٢، ص٤٦، ص٥٠.
- (102) حنفي محمود خطاب: الحركات الداخلية في الدولة المملوكية الأولى، ص٢٣.



(103) الأسيدي: التيسير والاعتبار والتحرير والاختيار، تحقيق عبد القادر أحمد ظليمات، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٩٤.

(104) ابن العاج: المنخل، ج ٣، ص ٣٩.

(105) الأمير حسام الدين طرطاي بن عبد الله المنصوري تولى نيابة السلطنة للمنصور

قلاوون والأشرف خليل الذي قُتله عام ٦٨٩هـ/١٢٩٠م. الصفاحي: تالي وفيات

الأعيان، ص ٩٤، رقم ١٢٣٩ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج ٦، ص ٢٨٦-٢٨٨،

رقم ١٢٤١ محمد عبد القوي الأشرف نائب السلطنة المملوكية، ص ٢٧٠-٢٧١.

(106) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٩٠، المقرئ: السلوك، ج ٢، ص ٧٥١.

(107) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج ٩، ص ٣٧٩ مختار الأخبار، ص ١١٦ المقرئ:

السلوك، ج ١، ق ٢، ص ١٩٤ العيني: عقد الجمان، ج ٤، ص ١٣٩-١٤٠.

(108) التويري: نهاية الأرب، ج ٣٢، ص ١٦٦ سبجول: تاريخ سلاطين المماليك، ص ١١٠٧

بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج ٩، ص ١٤٢ العيني: عقد الجمان، ج ٤، ص ١٧٢-

١٧٤.

(109) البيومي الشريبي: مسامرة الأملاك، ج ١، ص ١٩٥.

كان السلطان المملوكي يوزع الخيل على أمراءه مرتين في العام. الأولى عند خروجه

إلى مراكب خيوله على القرط في الربيع، والثانية: عند لبعه الكرة بالميدان، فينعم على

الأخصاء من أمراءه بما يتنازه من الخيول على قدر مراتبهم، بحيث يحصل بعضهم على

مائة فرس في السنة، وكل من مات له فرس من ممتلكه منع إليه عوضه، وربما

أُعم بالخيول على أكابر الأمراء المستولن عند الخروج إلى الصيد، النظر- القلقندى:

صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٥٤ السيد البار العربي: الإطاع العربي بمصر زمن سلاطين

المماليك، نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٦، ص ١٢٥ سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر

المماليكي، ص ٤٢٨: أمال العمري: وثائق بيع وشراء خيول من العصر المملوكي،

مجلة معهد المخطوطات العربية، مج ١٠، ج ٢، نوفمبر ١٩٦٤، ص ٢٢٦-٢٢٧،

البيومي إسماعيل الشريبي: مسامرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين

المماليك)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين رقم ١١٠، القاهرة،

١٩٩٧، ج ١، ص ٢٧-٢٨.

Ayalon, "The System of Paymen in Mamluk Military

Society", JRAS, 1946, pp. 268-270.

(110) المقرئ: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٧٠٠-٧٠١.

(111) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج ٩، ص ٣٧٦ العيني: عقد الجمان، ج ٤، ص ١٢٢.

(112) بيبرس الدوادار: التحفة المملوكية، ص ١٦٠ ابن إيس: بدائع، ج ١، ق ١، ص ٤٠٧.

(113) السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٩٠٩-٩١٠.

(114) المقرئ: السلوك، ج ٢، ق ٣، ص ٩١٠.

(115) المقرئ: السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٩١٠.

- (116) المقرئزي: السلوك، ج ٢، ق ٣، ص ٩١٢.
- (117) المقرئزي: السلوك، ج ٢، ق ٣، ص ٩١٢.
- (118) المقرئزي: السلوك، ج ٣، ص ٧٢٢.
- (119) عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج ٨، ص ١٩٠.
- (120) المقرئزي: السلوك، ج ٢، ق ٣، ص ١٩٠٧ ابن حجر: إنباء الفهر، ج ٢، ص ٤٥.
- (121) عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج ٨، ص ١٢٨.
- (122) حياة ناصر الحجي: أحوال العامة في حكم المماليك، ص ٢٠٣.
- (123) مفصل بن أبي الفضائل: الشهب السيد، ج ٢، ص ١٥٦٢ بيريوس النوادر: مختار الأخبار، ص ٩٣.
- (124) العيشي: عقد الجمال، ج ٤، ص ١٧٤.
- (125) ابن تفرج بردي: التنجيم الزاهرة، ج ٨، ص ١٤٩.
- (126) درب الأربعين: سمي هذا الطريق بهذا الاسم لأن القوافل تطلعه في أربعين يوماً من أسبوط إلى دار فور. أنظر: - محمد بن عمر التونسي: تشييد الأمان بسيرة ملك العرب والسودان، تحقيق خليل محمود عسائر ومصطفى محمد مسعد، مراجعة محمد مصطفى زهادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ٤١-٥٢.
- (127) شوقي عبد القوي عثمان: التجارة بين مصر وإفريقيا في عصر المماليك، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ١٧٠. محمد رجب عبد الحليم: العروبة والإسلام في دار فور في العصور الوسطى، ص ٨٣-١٨٤ ماهر الخط مصطفى: صعود مصر في عصر المماليك الجراكسة، ص ١٢٨. <http://Archivbeta>
- (128) المقرئزي: السلوك، ج ٢، ق ٣، ص ٦٥٦.
- (129) المقرئزي: السلوك، ج ٢، ق ٣، ص ٧٢١.
- (130) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٢٦٦.
- (131) المقرئزي: السلوك، ج ٢، ص ١٧٢٥ ابن حجر: إنباء الفهر، ج ١، ص ٤٢١.
- (132) ابن القرات: تاريخ ابن القرات، مج ٩، ج ٢، ص ٢٥١.
- (133) عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج ٧، ص ٣٣.
- (134) ابن الصيرفي: إنباء الفهر، ص ٤٢٧-٤٢٨.
- (135) العيشي: عقد الجمال، ج ٤، ص ١٧٥.
- (136) عن أهمية نهر النيل في التجارة. انظر: - سعد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية وأثرها الحالية، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٨، ص ١١٣-١٢٣ أحمد مختار العبادي والسيد عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، بيروت، ١٩٧٢ إبراهيم حسن سعيد: البحرية في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٤٧-٦٤.
- (137) قاسم عبده قاسم: النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨، ص ٨٤.

- (138) المقرئ: السلوك، ج ١، ص ٢٨٦.
- (139) ابن تقي بريدي: منتخبات من حواشي الدهور، ج ٣، ص ٦٦٥، ابن الصيرفي: إنباء النهصر، ص ٤٤-٤٥ عبد الباسط بن خليل الحنفي: نيل الأمل، ٦، ص ١٣٥٦ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٥؛ البيومي إسماعيل الشربيني: مصفحة الأملاك، ج ١، ص ٥٣؛ ماهر أحمد مصطفى: سعيد مصر، ص ٥٢.
- (140) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٧٠-٧١.
- (141) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ١٧٢؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: التدوير الاقتصادي في دولة سلاطين المماليك في ضوء كتابات ابن إياس، ضمن كتاب ابن إياس (دراسات وبحوث)، إشراف أحمد عزت عبد الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٧٥.
- (142) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٣٤٦.
- (143) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ١٠٤.
- (144) قرص: بالضم ثم السكون، وصاد مهينة، مدينة كبيرة عظيمة واسعة قسبة الصعيد، تعد أعظم مدن الصعيد الأعلى، ومن أهم المراكز التجارية في الصعيد، لذا فإن أهلها أرباب ثروة واسعة.
- الظر: بالقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٤١٣ ابن إياس: نزهة الأُمم في العجائب والحكم، نشر محمد زليهد، مكتبة المنهاج، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٢٢٥.
- (145) محمود محمد الحويري: أسوان في العصور الوسطى، ص ١١١-١١٤.
- (146) محمد عبد القوي الأنطري: تجار التوابل، ص ٢٩٥، <http://www.egyptology.com>.
- (147) محمد محمود الحويري: أسوان في العصور الوسطى، ص ١١٢؛ عثمان عطا: الأزمان الاقتصادية، ص ١٢٠؛ رجب محمد عبد الحليم: ميناء عذاب ووادي العاتق، ص ٢٧٦.
- (148) هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة أحمد رضا محمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤، ج ٣، ص ١٣١٨؛ نعيم زكي فهمي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣، ص ١٤٣.
- (149) محمد عبد القوي الأنطري: تجار التوابل، ص ٨٢.
- (150) محمود محمد الحويري: أسوان في العصور الوسطى، ص ١٢٤.
- (151) عرفت مصر ومنطقة الشرق الأدنى في العصور الوسطى مجموعة من التجار الذين يتاجرون فيما عرف بالكارم أي التوابل. عطية القوسي: "أضواء جديدة على تجارة الكارم من واقع وثائق الجنيزة"، المجلة المصرية للدراسات التاريخية، المجلد الثاني والعشرون، ١٩٧٥، ص ١١٧؛ محمد بركات الببلي: "بداية الكارم ومخاضها في العصر الفاطمي"، مجلة الموزخ المصري، العدد ١٢، يوليو ١٩٩٤، ص ١٩٤.
- Golten, "New lights on the beginning of the Karim Merchants", J. R. A. S. Vol. 1, 1958, P. 173;

١ شوقي عبد القوي عثمان : تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، عالم المعرفة، العدد ١٥١ يوليو ١٩٩٠، الكويت، ص ٢٧٠-٢٧١ محمد عبد القوي الأشقر: تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٢٩-٣١

(152) Peter Thorau, The Lion of Egypt Sultan Baybars I and the Near East in the Thirteenth Century, London, 1987, p. 171

(153) المقفلسندي: صبح الأعشى، ج ١١، ص ٤٣٧.

(154) المقريزي: السلوك، ج ٢، ق ١، ص ١٤٥-١٤٦ كرم الصاوي باز: ممالك التوبة في العصر المملوكي اضمحلالها وسقوطها والرد في انتشار الإسلام في السودان وادي النيل، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ١٢٤.

(155) السلوك، ج ٢، ق ١، ص ١٦٢؛ كرم الصاوي باز: ممالك التوبة في العصر المملوكي، ص ١٢٤-١٢٥.

(156) المقريزي: السلوك، ج ٢، ق ١، ص ١٩٤.

(157) محمود محمد الحويري: أسوان في العصور الوسطى، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠، ص ١١٣٥ طبعة القوي: تاريخ دولة التول الإسلامية، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦، ص ١٠٢-١٠٣.

(158) المقريزي: المخطوط، ج ١، ص ١٣٦٧ محمد فتحو الشاعر: الشرافية في عصري سلاطين الأيوبيين والمماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٧، ص ٨٩.

(159) ابن أبيك التوفار: اثر الفخر، ص ١١٤.

(160) إبراهيم لابندوس: مدن إسلامية في عهد المماليك، ترجمة علي ماضي، بيروت، ١٩٨٧، ص ١٧٩ عثمان علي محمد عطا: الأزمات الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي وأثرها السياسي والاقتصادي والاجتماعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين رقم ٢١٣، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ١٢٠.

(161) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٧١.

(162) قطية أو قطية: بالفتح ثم السكون وياء مفتوحة، قرية في طريق مصر والشام في شبه جزيرة سيناء من ناحية الشمال الغربي بالقرب من ساحل البحر، أبو القدا: تقويم البلدان، باريس، ١٨٤٠، ص ١١٠٨ المقفلسندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ١٤٠٦ عادل عبد الحافظ: قطية جسر مصر الشرقى في العصور الوسطى، مجلة التاريخ والمستقبل، تصدرها قسم التاريخ كلية الآداب - جامعة المنيا، يوليو ٢٠٠٩، ص ١٨٥-٢٠٧.

(163) عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج ٧، ص ٣٠.

(164) ابن الصيرفي: إنباء الهجر، ص ٤١٩.

- (165) حياة ناصر الحجي: الأوضاع السياسية والاقتصادية في حكم المؤيد شيخ في سلطنة المماليك (٨١٥-٨٢٣هـ / ١٤١٢-١٤٢٠م)، المجلة العربية للعلوم الإنسانية- جامعة الكويت، العدد ٣٦، عام ١٩٨٩، ص ٢٨.
- (166) المقرئ: السلوك، ج ٤، ص ٢١.
- (167) المقرئ: السلوك، ج ٤، ص ٦٠٣.
- (168) ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٤، ص ٣١٩-٣٤٠.
- (169) عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج ١، ص ١٤٤.
- (170) وجد في كل إقليم (عمل) من الأقاليم المصرية \* بيت مال \* يجمع فيه ناظر المال بالعمل موارد الدولة من الخراج الزائد عن المقرر للمطعنين، وغير ذلك من الموارد المالية. إبراهيم علي طرخان: لتنظيم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٨. ص ٢٤٩ مسجد عبد الرشيد بحر: القرية المصرية، ص ٥٤.
- (171) العيني: عقد الجمان، ج ١، ص ١٠٨.
- (172) إبراهيم علي طرخان: تنظيم الإقطاعية، ١٩٦٨، ص ١٢.
- (173) عاصم بدر الدين أبو غازي: دراسة بيلومانية في وثائق لبيع من أملاك بيت المال في عصر المماليك الجراكسة، رسالة دكتوراه غير منشورة، آداب القاهرة، ١٩٩٥، ص ١٧٢.
- (174) إبراهيم طرخان: تنظيم الإقطاعية، ص ٣٣٧.
- (175) المقرئ: السلوك، ج ١، ص ٣٨٦.
- (176) العيني: عقد الجمان، ج ٤، ص ١٣٨-١٣٩.
- (177) ابن أبيك النوادر: كنز الدرر وجامع القرر، ج ٩، الدرر الفائز في سيرة الملك الناصر، تحقيق هانس روبرت رومر، المعهد الألماني للآثار، القاهرة، ص ٦٢.
- (178) بيبرس النوادر: زبدة الفكرة، ج ٩، ص ٢٩٢ العيني: عقد الجمان، ج ٤، ص ١٧٢.
- (179) العيني: عقد الجمان، ج ٤، ص ١٧٤.
- (180) العيني: عقد الجمان، ج ٤، ص ١٧٢.
- (181) مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، ص ١٠٧.
- (182) المقرئ: السلوك، ج ٢، ص ٦٦٨.
- (183) المقرئ: السلوك، ج ٢، ص ٩٠٧.
- (184) المقرئ: السلوك، ج ٢، ص ٦٩٥.
- (185) الوقت: هو الحس، وهو صنفه محرمة، لا تباع ولا تشتري ولا تورث. انظر: الطرابلسي: الإسعاف في أحكام الأوقاف، القاهرة، ١٩٢٩، ص ١٣ الخصاص: أحكام الأوقاف، القاهرة، ١٩٠٤، ص ٢٠ عيسى الصلبي: عطية الرحمن في أوصاف الجوامع والأطيان، القاهرة، ١٣١٤، ص ٤-١٦ ابن نجيم: الرسائل الزينية، تحقيق خليل الميس، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٠، ص ٢٣١.

- (186) محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٠.
- (187) بنو حرام: بطن من جذام من القحطانية بالشرقية بنو حرام، القحطاني: صبح الأعشى، ج ١، ص ١٣٣٣ نهاية الأرب في نسب العرب، ص ١٣٣١، المقرئ: البيان والإعراب، ص ٦٣.
- (188) بنفس: قرية قديمة كانت تقع ضمن إقليم الشرقية، ثم إقليم ضواحي القاهرة في العصر المملوكي، وهي إحدى قرى محافظة القليوبية الآن. أنظر: -ابن معالي: قوانين، نشر عزيز سوريال عطية، القاهرة، ١٩٤٠، ص ١١١٠ ابن دقماق: الانتصار، ج ٥، ص ١٤٥ ابن الجيعان: التحفة السنوية بأسماء البلاد المصرية، نشر موريتز، القاهرة، ١٨٩٢، ص ٩؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، ق ٢، ج ١، ص ٥٥.
- (189) الأمير بربك الأشرقي إنقال: ملكه في عام ٨٢٩هـ قرهاه واعتقه وعمله خزنداره وزوجه ابنته الكبرى ثم دوادره، فلما تسلطن عمله دوادراً ثالثاً، ثم نقله إلى الدوايرية في سنة ٨٥٩هـ، وتوفي عام ٨٦٨هـ بالسقاوي: الضوء اللامع، ج ٢، ص ٢-٥، رقم ٢٠.
- (190) البغاعي: إظهار العسر لإسراة أهل العسر. تحقيق محمد سالم بن شديد العوفي، حجر للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٩٢، ج ٣، ص ١٤٢-١٤٣ سيد محمود محمد عبد العال: تغابة الأشراف في مصر عصر سلاطين المماليك، مجلة الموزع العربي، العدد ١٨، مارس ٢٠١٠، ص ٣٠٣.

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

## قائمة المصادر والمراجع

### أولاً: المصادر العربية :-

- الإبريسي: أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس المعروف بالشريف الإبريسي من علماء القرن السادس الهجري.
- نزعة المشتاق في اختراق الأقاليم، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د. ت .
- الأشقرى: كمال الدين أبي الفضل جعفر بن ثعلب الأشقرى، ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م .
- الطالع السعيد الجامع أسماء تجماء الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن، القاهرة، ١٩٦٦ .
- الأسدي: التيسير والاعتبار والتحرير والاختيار، تحقيق عبد القادر أحمد طليعات، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٦٨
- أبن ياس: أبي البركات محمد بن أحمد الحنفي، ت ٩٣٠هـ/١٥٢٤م .
- بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤ .
- نزعة الأمم في العجائب والحكم، تحقيق محمد زيهوم محمد عزب، مطبولى، القاهرة، ١٩٩٥ .
- أبن أبيك النوادري: أبو بكر بن عبد الله، ت ٧٣٦هـ/١٣٣٥م .
- كنز الدرر وجامع الخرز .
- ج٨: ' الدررة الذهبية في أخبار الدولة التركية ' تحقيق أرناؤخ غازمان، القاهرة، ١٩٧١ .
- ج٩: ' الدرر الفلغرى في سيرة الملك المنصور ' تحقيق هانس روبرت رومر، القاهرة ١٩٦٠ .
- أبن أبيك الصفي: صلاح الدين أبو الصفا خليل بن أبيك، ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م .
- الوالى بالولايات، صدر منه ٢٢ جزء والباقي مخطوط، نشر جمعية المستشرقين الألمانية، فيسبادون.
- البغاسي: إبراهيم بن عمر، ت ٨٨٥هـ/١٤٨٠م .
- إظهار العصر لأسرار أهل العصر، تحقيق محمد سالم بن شديد العوفي، القاهرة، ١٩٩٢ .
- الבוيسري: شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد، ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م .
- ديوان البوسيري، تحقيق محمد سيد كيلانى، القاهرة، ١٩٥٥ .
- بيبرس النوادري: ركن الدين بن عبد الله المنصورى، ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م .
- النحلة الملوكية في الدولة التركية، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .
- مختار الأخبار، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٣٣ .
- زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق زبيدة محمد عطا، دار عبيد للدراسات والبحوث، القاهرة، ٢٠٠١ .
- أبن تغري بردي: جمال الدين يوسف بن تغري بردي، ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م .

- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق محمد أمين جـ١، ٢، ٤، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥-١٩٩٤.
- التلخيص الشافي على المنهل الصافي، جزاءن، تحقيق فهيم محمد شلتوت، منشورات مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى، القاهرة، ١٩٨٤.
- حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق فهيم محمد شلتوت، المجلس الأعلى للثقافة الإسلامية، الجزء الأول، ١٩٩٠.
- مورد التطفة فيمن ولي السلطنة والخلافة، تحقيق تيبيل محمد عبد العزيز، دار الكتب المصرية ١٩٩٧.
- التجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٦ جزء، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٩-١٩٧٢.
- التونسي: تشهيد الأغان بسيرة ملك العرب والسودان، تحقيق خليل محمود صانكر ومصطفى محمد مسعد، مراجعة محمد مصطفى زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٧.
- ابن نيمية: السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، كتاب الهلال، عدد ٣٦٧، القاهرة، ١٩٨٦.
- ابن الجيعان : شرف الدين أبو النقاء يحيى علم الدين شاكر، ت ٨٨٥هـ/١٤٨٠م .
- التنقلة لسنية بأسماء الناجح المصريين، نشر موريتز، بولاق، ١٩٩٨م .
- ابن حبيب : الحسن بن حيرة ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م .
- تذكرة النبي في أيام المنصور وبنوه، تحقيق محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦-١٩٨٦.
- ابن حجر العسقلاني : أحمد بن علي، ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م .
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٦ .
- إنباء العمر بأبناء العمر، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى للثقافة الإسلامية، القاهرة ، ١٩٩٦-١٩٩٧.
- الحميري : محمد بن عبد المنعم، ت ٧٢٧هـ/١٣٢٧م .
- الأروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط٢، بيروت، ١٩٨٤ .
- ابن خلكون : عبد الرحمن بن محمد، ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م .
- تاريخ ابن خلدون، بيروت، ١٩٧٩ .
- الخادي : عبد الله بن لطف الله محمد بن بهاء الدين، ت ٩٣٧هـ/١٥٣٠م .
- كتاب المقصد الرفيع المنشأ الهادي إلى صناعة الإنشاء، مخطوط مصور بجامعة القاهرة ، تحت رقم ٢٤٠٤٥.
- ابن خلكان : أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م .
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨.



- ابن دقماق : إبراهيم بن محمد بن أيمن العلاءي، ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م .
- الجواهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، الرياض ١٩٨٦ .
- الانتصار بواسطة عقد الأمان، دار الأفاق الجديدة، بيروت، د. ت .
- الدمشقي : شيخ ثريوة شمس الدين محمد بن أبي طالب، ت ٧٢٧هـ/١٣٢٦م .
- نخبة الدرر في عجائب البر والبحر، نشر Merben، لبيج، ١٩٢٢ .
- السبكي : تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م .
- معبد التعم ومبهد التعم، تحقيق محمد علي التجار وآخرين، القاهرة، ١٩٤٨ .
- السفاوي : شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد، ت ٩٠٢هـ/١٤٩٧م .
- التبر المسبوك في نيل الملوك، القاهرة، ١٨٩٦ .
- وجيز الكلام في النيل على دول الإسلام، ٤ أجزاء، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٥ .
- السيوطي : عبد الرحمن بن أبي بكر، ت ٩١١هـ/١٥٠٥م .
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٧ .
- ابن شاكر الكتبي : محمد بن شاكر بن أحمد، ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م .
- فوات الوفيات، تحقيق إسماعيل عيسى، بيروت، ١٩٧٢ .
- ابن شاهين الظاهري : غريون الثاني خليل بن شاهين، ت ٨٧٣هـ/١٤٦٨م .
- زبدة كشف الممالك وبينان الطرق والمسالك، نشر برنارد رابن، باريس، ١٨٩٤ .
- الشجاعى : تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحين وأولاده، تحقيق برباره شيفر المعهد الألماني للآثار الشرقية بالقاهرة، ١٩٧٨ .
- ابن الصيرفي : علي بن داوود الجوهري، ت ٩٠٠هـ/١٤٩٤م .
- إنباء النهصر بأبناء العصر، تحقيق حسن حبشي، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٢ .
- نزعة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٠ .
- ١٩٩٤ .
- ابن الطوير : عبد السلام بن حسن القيسراني، ت ٦١٧هـ/١٢٢٠م .
- نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، بناء ونشر أمين فؤاد سيد، بيروت، ١٩٩٢ .
- عبد الباسط بن خليل بن شاهين الظاهري، ت ٩٢٠هـ/١٩١٤م .
- نزهة الأساطين ليهن ولي مصر من السلاطين، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٧ .
- نيل الأمل في النيل على الدول، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة المصرية، صيدا- بيروت، ٢٠٠٢ .
- ابن عبد القاهر : محيي الدين بن عبد القاهر، ت ٦٩٢هـ/١٢٩٣م .
- الروض للزاهر في سيرة الملك القاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦ .

- الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، تحقيق أيمن فؤاد سيد، السدار العربية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦ .
- العيني : بدر الدين محمود بن أحمد، ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م.
- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان مواد عام ٦٤٨ - ٧٠٧هـ، تحقيق محمد محمد أسين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧ - ١٩٩٢ .
- أبو الفدا : عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر الأيوبي، ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م.
- المختصر في أخبار البشر، ٤ أجزاء، القاهرة، ١٣٢٥هـ -
- تلويح البلدان ، دار صادر، بيروت، د. ت.
- ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات، ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م.
- تاريخ ابن الفرات ، أجزاء ٧ ، ٨ ، ٩ ، تحقيق قسطنطين زريق، نجلاء عز الدين، الجامعة الأمريكية، بيروت، ١٩٣٦-١٩٤٢م.
- ابن فضل الله العمري : أبو العباس أحمد بن يحيى، ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م.
- التعريف بالمصطلح الشريف ، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨ .
- مسالك الألبان في مسالك الأمصار، قبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجري، تحقيق دوروثيا كرا فولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، ١٩٨٥م.
- القزويني : زكريا بن محمد بن محمود، ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م.
- آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، د. ت.
- القزويني : أبو العباس أحمد بن علي، ت ٨٢١هـ/١٤١٨م.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة، ١٩١٩ - ١٩٢٢ .
- ضوء الصبح المسفر وجنى ثدوح المنمر، ج ١، نشر محمود سلامة، القاهرة، ١٩٠٦ .
- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة، ١٩٥٩ .
- قائد الجمان في التعريف عرب الزمان، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٨٢ .
- ابن كثير الدمشقي : عماد الدين إسماعيل بن عمر، ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م.
- البداية والنهاية، ١٤ جزء، دار الكتب العلمية، ط ٣، بيروت، ١٩٨٧ .
- مجهول : تاريخ سلاطين المماليك، نشر زرتستين، لندن، ١٩١٩ .
- مفضل بن أبي الفضائل، ت ٨٨هـ/١٤م.
- التهج السديد والدر الثريد في تاريخ ما بعد ابن العميد، نشر بلوشيه، ١٩١٩ .
- المقريزي : أحمد بن علي، ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م.
- السلوك لمعرفة دول الملوك ٤ أجزاء تحقيق محمد مصطفى زيادة ومسعود عبد الفتاح هاشور، القاهرة، ١٩٣٦ - ١٩٧٣ .
- المواعظ والاعتبار لذكر الخطط والآثار، مكتبة الآداب، القاهرة، د. ت.
- إغارة الأمة بكشف الفسقة، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٤٠ .

- البيان والإعراب عما بأرض مصر من الإعراب، تحقيق عبد المجيد عابدين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩.
- ابن ممتلي : الأسد بن ممتلي، ت. ١٢٠٩هـ/١٢٠٩م.
- قوانين الدوليين، تحقيق عزيز سوريال عطية، القاهرة، ١٩٤٣.
- النابلسي : عثمان بن إبراهيم النابلسي الصفي، ت. بعد عام ٦٤٣هـ/١٢٤٥م.
- لمع القوانين المضنية، نشر كلود كاهن، دمشق، ١٩٦١.
- ابن ناظر الجبش : عبد الرحمن بن محب الدين محمد التميمي، ت. ٧٨٦هـ/١٣٨٤م
- تلقيف التعريف للمسطح الشريف، تحقيق رونلف فسلي، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٧.
- النويري : أحمد بن عبد الوهاب، ت. ٧٣٢هـ/١٣٣١م.
- نهاية الأرب في فنون الأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، جزء ٣٣، القاهرة، ١٩٢٢ - ٢٠٠٠.
- النويري السنكسري : محمد بن قاسم بن محمد، ت. بعد عام ٧٧٧هـ/١٣٧٥م.
- الإتمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقتضية في وقعة الإسكندرية، أجزاء، تحقيق أنين كومب وعزيز سوريال عطية، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٩٦٨ - ١٩٧٦.
- ياقوت : أبو عبد الله الرومي، ت. ٦٢٦هـ/١٢٢٩م.
- معجم البلدان دار صادر، بيروت، ١٩٨٤.
- المشترك وضعاً والمفروق صفةً، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٦.
- اليونيني : قطب الدين أسن الفتح موسى بن سليمان، ت. ٧٢٦هـ/١٣٢٦م.
- ذيل مرآة الزمان، ٤ أجزاء، حيدر آباد، ١٩٥٥.
- تاليا: المراجع العربية والمعربة :-
- إبراهيم أحمد زرقانه: القبائل العربية في مصر عند المقرئبي، ضمن كتاب دراسات عن المقرئبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧١
- إبراهيم حسن سعيد ، البحرية في عصر سلاطين المماليك ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣ .
- إبراهيم علي طرخان:تنظيم الإقطاعية في الشرق الأوسط ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
- \_\_\_\_\_ مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
- أحمد لطفى السيد:قبائل العرب في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨.
- أحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٦٩ .
- \_\_\_\_\_ في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٩٥ .

- أحمد مصطفى الصغير: المجتمع المصري في العهد المملوكي وأثر الحياة السياسية فيه، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨.
- أشوتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبد الهادي عبلة، دار فكتيبة، دمشق، ١٩٨٥.
- البيومي إسماعيل الشربيني: مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين المماليك)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧.
- السيد عبد العزيز سالم: البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٣.
- أمال العمري: وثائق بيع وشراء خيول من العصر المملوكي، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج ١٠، ج ٢، نوفمبر ١٩٦٤.
- جارسان: ازدهار والتهيار حضارة مصرية 'قوص'، ترجمة بشير السباعي، القاهرة، ١٩٩٦.
- جمال الدين الشيبان: تاريخ مصر الإسلامية، ط ٢، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٠.
- حبشي سيد نصر: المجتمع المصري في الشعر المملوكي، رسالة دكتوراه، كلية اللغة العربية جامعة الأزهر، ١٩٨٠.
- حياة ناصر الحجوي: الأوضاع السياسية والاقتصادية في حكم المزيدي شوخ فسي سلطنة المماليك (٨١٥-٨٢٣هـ/١٤١٢-١٤٤٢م)، المجلة العربية للعلوم الإنسانية- جامعة الكويت، العدد ٣٦، عام ١٩٨٩.
- \_\_\_\_\_ أحوال الخانية في حكم المماليك، ط ٢، الكويت، ١٩٩٤.
- سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر في عصر دولة المماليك البحرية، القاهرة، ١٩٥٩.
- \_\_\_\_\_ المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٦٢.
- \_\_\_\_\_ الظاهر بيبرس، القاهرة، ١٩٦٣.
- \_\_\_\_\_ العصر المماليكي في مصر والشام، ط ٣، القاهرة، ١٩٩٤.
- \_\_\_\_\_ الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة، ١٩٦٠.
- السيد البار العريضي: الإقطاع العربي بمصر زمن سلاطين المماليك، نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٦.
- شوقي عبد الفتاح عثمان: التجارة بين مصر وأفريقيا في عصر المماليك، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠.
- عبد الرحمن عبد التواب: قايتباي المحمودي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٨.
- عبد الفتاح يوسف عرابي: قوص في عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير، كلية الآداب، سوهاج جامعة أسيوط، ١٩٩٠.
- عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك في مصر، مكتبة الأجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٨.

- \_\_\_\_\_ طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر، مكتبة الأجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨.
- عثمان علي عطا: الأزمات الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي، القاهرة، ٢٠٠٢.
- عطية القوصي: تاريخ دولة الكلوز الإسلامية، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١.
- علام طه رزق: السجون والعقوبات في مصر عصر سلاطين المماليك، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٢.
- \_\_\_\_\_ عامة القاهرة في عصر سلاطين المماليك، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٣.
- علي إبراهيم حسن: دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ط ٢، القاهرة، ١٩٤٨.
- علي السيد علي: الجوارح في مجتمع القاهرة المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨.
- عصام بدر الدين أبو غازي: دراسة ديموغرافية في وثائق البيوع من أملاك بيت المال في عصر المماليك الجراكسة، رسالة دكتوراه غير منشورة، أديب القاهرة، ١٩٩٥.
- قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٧٩.
- \_\_\_\_\_ التيل والعجماق المصري في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨.
- كرم الصاوي بلا ممالك التوبة في العصر المملوكي اجتماعاتها وسقوطها وآثره في انتشار الإسلام في السودان وادي النيل، مكتبة الأجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٦.
- لايدوس: مدن إسلامية في عهد المماليك، ترجمة علي ماضي، بيروت، ١٩٨٧.
- ماهر أحمد مصطفى: صعود مصر في عصر المماليك الجراكسة، الطبعة الأولى، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٤.
- مجدي عبد الرشيد بحر: القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩.
- محاسن محمد الوفاء: الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية، القاهرة، ١٩٩٩.
- محمد بركات ديبلي: "بداية الكلم ومعناها في العصر الفاطمي"، مجلة المؤرخ المصري، العدد ١٣، يوليو ١٩٩٤.
- محمد جمال الدين سرور: دولة بني قاتون في مصر، القاهرة، ١٩٤٧.
- \_\_\_\_\_ دولة الظاهر بيبرس في مصر، القاهرة، ١٩٩٣.
- محمد عبد القني الأشقر: تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي، القاهرة، ١٩٩٩.
- \_\_\_\_\_ نائب السلطنة المملوكية في مصر، القاهرة، ١٩٩٩.
- محمد فتحى الشاعر: الشراعية في عصري سلاطين الأيوبيين والمماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٧.

- محمد قنديل البقلى ، التعريف ومصطلحات صبح الأعشى ، القاهرة ، ١٩٨٤ .  
 - محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ، القاهرة ، ١٩٨٠ .  
 - محمود محمد الحويري: أسوان في العصور الوسطى، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠ .  
 - \_\_\_\_\_ مصر في العصور الوسطى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٦ .  
 - محمود محمد السيد: القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٨، ص ١٣١-١٣٣ .  
 - هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، ترجمة أحمد رضا، القاهرة ، ١٩٩٤ .  
 - نظير حسان سخاوي: صور ومقال من عصر المماليك، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٦ .  
مُلْتَمَأُ: المراجع الأوروبية ١-

Abd Ar-Raziq ( Ahmad )

- ، " Le vizirat et les vizirs d' Egypte au temps des Mamluks " ,  
 An. Isl. XVI, le Caire , 1980.  
 Ashtor (Elyaho) ,  
 - Histoire des prix et des salaires dans l'orient Medieval , Paris ,  
 1969 . .  
 - A social and Economic History of the near east in the middle  
 ages , London , 1976 .  
 Ayalon , " The plague and its effects upon the Mamluk army " , B. S. O.  
 A. S. , XV, 1953 .  
 - Studies on the transfer of the Abbasid caliphate form Bagdad to  
 Cairo , in Arabica, vol. XII , 1960 .  
 - " The System of Paymen in Mamluk Military  
 Society " , JRAS, 1946,  
 Garcin (Jean-Claud) , " Note sur les rapports entre bédouins et fellahs à  
 l'époque mamluke " , Annales Islamologiques, (IFAQ), XIV, PP. 147-163,  
 .  
 Fischel (W. ) ,  
 - " The spice trade in Mamluk Egypt " JESHO , vol. 1 , 1958 .  
 Lane-Poole, Social life in Egypt, 1883 .  
 \_\_\_\_\_ , A History of Egypt in the Middle Ages, fourth  
 edition, London , 1925

---

Peter Thorau, *The Lion of Egypt Sultan Baybars I and the Near East in the Thirteenth Century*, London, 1987 .

Poliak (A. N. )," Les révoltes populaires en Egypte à l' époque des mamelouke ",*Revue des Et. Islam*,1934,pp. 251-273





خريطة رقم (١) نقلا عن البري: القبائل العربية في مصر، ص ٣١٩.

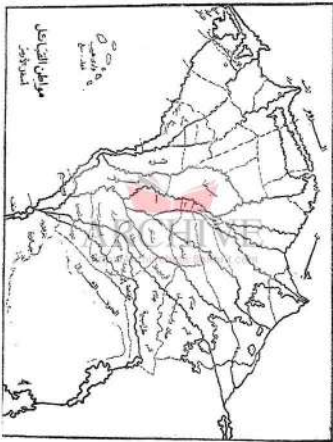




خريطة رقم (٢) تفلأ عن البري: القبائل العربية في مصر، ص ٢٢١.



خريطة رقم (٣) نقلًا عن البري: القبائل العربية في مصر، ص ٣٢٢.



خريطة رقم (٤) نفلا عن البري: القبائل العربية في مصر، ص ٣١٧.

## السلام بين الحقوق والواجبات في الإسلام

د. محمد أحمد محمد الشحري (\*)

### المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين محمد بن عبدالله، صلوات  
ربي وسلامه عليه .. وبعد.

ففي الوقت الذي كادت فيه الحضارة المادية، بكل ما فيها من سطوة وقوة مدمرة، قيمين  
على مجريات الحياة في شق صورها، وبدا للكثيرين أن القيم العليا والمثل بدأت تنداعى، لا يجد المرء  
أمامه إلا إعادة قراءة الصفحات الخالدة في تاريخ الإسلام، والقيم التي أرساها في سبيل إقامة  
المجتمع الفاضل، ومن تلك القيم العظيمة: قيمة السلام والسبل الموصلة إليه، كالعداقة، والإحسان،  
والمساواة، والود والرحمة.

ومن نافذة القول ينبغي أن نعرف أن السلام في الإسلام لم يكن دعوة نظرية مجردة، بل هو  
قيمة جوهرية في حياة المسلمين أخذوها من دينهم. ومن عبارة سيدهم ﷺ، في معاملته،  
ومعاهداته، وأقواله، وأفعاله ﷺ، ومن القيم الإسلامية العليا التي ينشأ ﷺ في نفوس أصحابه عند قيام  
المجتمع الفاضل. أو دولة الإسلام الأولى في المدينة المنورة.

وعاش المسلمون في العصر النبوي وما تلاه، وفي فترات مختلفة من تاريخهم، هذه القيمة  
العليا كواقع معاش، فالجانب النظري لابد من تطبيقه على أرض الواقع، لكي يتبين قوة هذا المبدأ  
وبلغائه.

ولعل انتشار الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها في مدى زمني لم يتجاوز مائة عام، للدليل  
ساطع على ماتع به الإسلام من قيم استطاعت أن تغلغل في النفوس، وتوائم بين الحقوق  
والواجبات، وتصل في يسر إلى أقطاب أهل البلاد المفتوحة، فمن غير المتصور أن انتشار الإسلام بهذه  
السهولة قد جاء بمد السيف، كما يدعي ذلك المستشرقون ومن شايعهم من المستعربين، فالقوة قد  
تسيطر على القيم أو بلد، لكن العقيدة لا يمكن أن تصل إلى أهالي الإقليم أو البلد إلا من خلال  
التوافق النفسي، وسهولة تلك العقيدة، وتطبيق مفاهيم الإسلام وقيمه على أرض الواقع.

(\*) أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر بالقاهرة.

وهل رأيت الدنيا ديناً يدخل قلوب أقرام كنادوا له وهاجوه، ودمعوا جزءاً كبيراً من حضارته، وإنما أعني غزوات المغول التي اكتسحت أمامها الأعظم واليابس، ودمرت حضارة الخلافة الإسلامية في بغداد سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م، فأكثر قبائل المغول أسلمت بعد ذلك، بل أصبحت أحد أجنحة الإسلام في المشرق، وما كان ذلك إلا نتيجة لما وجدته هؤلاء المغول من قيم إسلامية عليا، ومثل سامية، كلها في إطار عقيدة مسلمة استطاعت أن تخترق القلوب.

على كل حال فإن هذا البحث يتناول قيمة السلام بين الحقوق والواجبات في الإسلام، وبطبيعة الحال لم يستوعب البحث كافة الحقوق والواجبات لتساعها وكثرتها في تاريخنا الإسلامي، فكان الإثام بمضمون الموضوع وجوهه هو الأساس في هذا الموضوع وفق الشاؤون التالية، والتي راعيت فيها إدراج نماذج تطبيقية من حياة المسلمين في العهد النبوي، والخلافة الراشدة.

الأول: السلام في الإسلام.

الثاني: الإنسانية في ظل الحضارة الإسلامية.

الثالث: الحقوق والواجبات في الإسلام.

الرابع: من أسس المجتمع الفاضل في الإسلام.

أ- المواضع.

ب- صحيفة الواحدة.

ج- المعاهدة مع نصارى لبنان.

<http://Archivebeta.Bahyit.com>

الخامس: السلم والحرب في الإسلام.

ختاماً أسأل الله سبحانه والتوفيق والسداد ، وأن يعمُ السلام العادل وطننا العربي والإسلامي وتكون قدوة للعالمين في هذا الشأن.

والله من وراء القصد.

## السلام في الإسلام:

اجتمعت كل الشرائع على ضرورة تركية النفس بمعامد الأخلاق، واعتبار ذاتك مُصمّما لعقيدة التوحيد، ولزم كل الأنبياء عليهم السلام هذا المنهج الإلهي الرشيد، حتى جاء عاتم السنين محمد بن عبدالله، صلوات الله وسلامه عليه، بشرعته الخالدة، التي ضمت بحسان الأخلاق، وقد ورد عنه ﷺ أنه قال: «إنما بُعثت لأتّمم مكارم الأخلاق»<sup>(١)</sup> وأكملها الله بما ليس بعده كمال، فكانت جامعة لغورها مائة من تدبيلها أو تحريفها، وكانت القيم الإسلامية في قمة ما شرع الله، وما كقره العقل واستقرت عليه عمارة هذه الحياة، فبمّ سلّمت من الشوائب، ومُنعت من النقص، وتصدرت كل مآشرع الله للسايقين من الصالحين، حتى تليق بالعقول بعد نضجها، والأفهام بعد اكتمالها، والترسيخ الأمامة الإسلامية قِيَمًا وتعلّمًا، فهي عبر الأمم، وآخر الأجيال، المتناسب مع رسالتها القيادية لإسعاد البشرية وهداية العالمين<sup>(٢)</sup>

وهذه القيم شكلت جوهر الحضارة الإسلامية المعطاءة، ومن هذه القيم تبرز قيمة السلام، الذي يُشكل مرتكزاً رئيساً في الحضارة الإسلامية، وقد وضح ذلك بصورة جلية في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فحججنا لفظ: السّلم<sup>(٣)</sup> ومشتقاته يسرد في القصص آيات الكرم ١٣٨ مرة<sup>(٤)</sup>، من ذلك قول الله سبحانه وتعالى ﴿وَلَمَّا جَاءَ السَّلَامَ فَأَجْتَمَعَهَا وَيَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ إِيَّاهُ هُوَ السَّلَامُ الْعَلِيمُ﴾<sup>(٥)</sup> وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الْمُخْلِصُونَ فِي السَّلَامِ كَافَّةً﴾<sup>(٦)</sup> بل إن الجنة أطلق الله عليها اسم: «دار السلام» في قوله سبحانه: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ يَدْخُلُونَهَا وَمِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَمِنْهُمُ الْمُؤْمِنَاتُ﴾<sup>(٧)</sup> كما أن السلام اسم من أسماء الله الحسنى قال تعالى ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقَدِيمُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُتَعَبِّدُ﴾<sup>(٨)</sup> وغير ذلك من الآيات التي ورد فيها ذكر السّلم والسّلام.

كما أنّ الإنسان المسلم يتعم صلواته كل يوم بقوله: «السلام عليكم ورحمة الله»، ويمتد السنة النبوية أهمية السلام، ففي الحديث: «إذا دخلتم بيوتكم فسلموا على أهلها، فإن الشيطان إذا سلم أحدكم لم يدخل بيته»<sup>(٩)</sup> فهذا على المستوى الشخصي، كي يكون السلام والأمن النفسي سجة من سجاتها المؤمن، وهدىنا في حياته.

وإذا نظرنا في تاريخنا الإسلامي وحضارة الإسلام، نجد صور رائعة نشيت دعائم السلام في النفوس، فعلى سبيل التمثيل لا الحصر، جعل الإسلام للجار حقوقاً حتى لو كان مشركاً أو يهودياً، فرسول الله ﷺ يقول: «الجاران ثلاثة: جار له حق واحد، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق، فالجار الذي له ثلاثة حقوق: الجار المسلم ذو الرحم، له حق الجوار، وحق الإسلام، وحق الرحم، وأما الذي له حقان: فالجار المسلم له حق الجوار وحق الإسلام، وأما الذي له حق واحد فالجار المشرك»<sup>(١٠)</sup>.

وقد ذكر الغزالي أن مجاهد بن جبر قال: كنت عند عبد الله بن عمر، وولادته له يسلم  
شاة، فقال: يا غلام إذا سلحت فإبدا بجاننا اليهودي، حتى قال ذلك مراراً، فقال له: كم تقول  
هذا؟ فقال: إن رسول الله ﷺ لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه<sup>(١١٦)</sup>.

لمن حق الجار أن يهداه بالسلم، ويعوده في المرض، ويعرجه في المصيبة، ويهتته في الفرح،  
ويصفيح عن زلاته، فهذا من شأنه بث الطمأنينة والأمن النفسي. إضافة إلى ذلك دعا الإسلام إلى  
الصدق والأمانة والتعاون في الخير الخاص والعام، والاتحاد بين أبناء المجتمع، وحث المسلمين على  
البحر في هذه الصفات قولاً وعملاً، ومن شواهد ذلك قول الله سبحانه وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا  
اللّهَ وَكُونُوا مَعَ الصّٰدِقِينَ﴾<sup>(١١٧)</sup>، وقال سبحانه: ﴿لَا تَدْرِي لَّيْلَةً يَأْتِيكُمْ أَنْ تَوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ آخِيهَا . . .﴾<sup>(١١٨)</sup>  
وقوله سبحانه: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللّٰهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ الْأُنۡسَابُ﴾<sup>(١١٩)</sup>، والشواهد القرآنية  
في هذا الشأن كثيرة، وجميعها تدعو للكرام الأخلاق، والعمل على بناء الفرد والمجتمع، للوصول إلى  
الطريق القويم.

كما فتح الإسلام باب التألف والتواد، وغلبه على التباغض والتباعد، وحث على العفو  
والصفح والتسامح، ولذا كان لابد من الاستجابة لدعوة التعارف الإنساني العام القائم على  
التسامح، لتلاقي القلوب على غير عنادة وإحس، فالإسلام يدعو للتسامح غير اللذليل، فهو يسنن  
الإنسانية، سواء كانت بين الأحرار أم كانت بين الجماعات والمذلل.

هذه القيم، التي خرجنا بعضاً منها، عاشها المسلمون واقعياً ملموساً، قرأت الدنيا لأول  
مرة ديناً ينشئ حضارة<sup>(١٢٠)</sup>، من غير أن يعصب على غيره من الأديان، يجعل السلام قاعدة  
أساسية من قواعده، يضرب المثل الأعلى في تعاملاته مع غير المسلمين<sup>(١٢١)</sup>. وهذه النظرة الحضارية  
السامية لم تعرفها حضارة سابقة، أو تالية للحضارة الإسلامية، لكونها وازنت بين المادة والروح  
توازناً دقيقاً، فالناس قبل الإسلام كانوا على قسمين:

الأول: لفتى عليه تقاليدته بالمادية الخسنة، فلا هم له إلا الحطوط الجسدية، كاليهود  
والمشركين.

الثاني: تحكّم عليه تقاليدته بالروحانية الخالصة، وترك الدنيا وما فيها، كالنصارى والصابئة، وطوائف  
من وثني الهند<sup>(١٢٢)</sup>.

أما الأمة الإسلامية فقد جمع الله لها في دينها بين الحقين: المادي، والروحي، في وسطية  
عادلة تعدد من أهم صفات المؤمنين، والمسلم مطالب بالتوفيق بين مطالب الروح والجسد: قال تعالى  
﴿وَأَتِمُّوا صِلَاتَكُمْ لِكُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلِّ تَمَاسُكٍ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحُوا اللَّهَ حِينَ قَامَ السُّجُودُ . . .﴾<sup>(١٢٣)</sup>

وهذا التوازن الإيماني الدقيق وضع حثاً للإنسان وحقوقه، وظهرت مبادئ الإسلام جليسة  
في هذا الشأن، من حيث قبولها لاحترام العقائد الأخرى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾<sup>(١٢٤)</sup> والالتزام التام

بالمعقود والمعاهدات، والوفاء بما، وهذا الالتزام لم يفعله المسلمون بمحاكمة الظروف عارضة، بل نابعة من صلب عقيدة الإسلام وتعاليمه التي تلزم المسلمين بذلك، فالعلاقة التي يقررها الإسلام بين الجميع داخل إطار المجتمع الإسلامي هي علاقة ود، ورحمة، وتعاون، وأمن وسلام. والقاعدة السني تقوم عليها حياة الأفراد والجماعات داخل المجتمع الإسلامي هي: قاعدة التماسك بين الحقوقي والواجبات، فيقرر الإسلام أن العاية المقدرة للجميع هي: امتداد وإغاء الحياة، والوجه بكل نشاط فيها وبكل لمة وكل عمل إلى الله سبحانه خالق الكون، ومن ثم ينهي كل نشاط فردي وجماعي، كما ينهي كل نظام إلى النجحة الطبيعية والخصية المتمثلة في: السلام الكلي الذي ينسق بين مختلف النوازع والاتجاهات<sup>(١١٠)</sup>.

فهذا هو الصعيد الثاني الذي يقوم على الأمن والسلام للمجتمع الحضاري، كما حدده الإسلام في الجانب الاجتماعي والحلقي، وفي هذا الإطار يقول أحد المستشرقين<sup>(١١١)</sup>:

«كانت أخلاق العرب المسلمين في أدوار الإسلام الأولى أرقى كثيراً من أخلاق الأرض قاطبة، ولاسيما الأمم النصرانية، وكان عدلهم واعدالهم وراقتهم وسامحيتهم نحو الأمم المغلوبة، وولائهم بمعهدهم، ونيل طاعتهم مما يستوجب النظر، وبالنسب متولط الأمم الأخرى، لا سيما الأمم الأوروبية أيام الحروب الصليبية»<sup>(١١٢)</sup>.

كما يقول لوثروب ستودارد الأمريكي: «ما كان العرب قط أمة تحب إراقة الدماء، وترغب في الاستلاب والتدمير، بل كانوا على العكس من ذلك أمة عوجودة جميلة الأخلاق والسجايا»<sup>(١١٣)</sup>.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

كما أوضح بعض هذه الجوانب سير توماس آرتولد، فذكر الكثير من تسامح المسلمين وعدلهم وخصاصهم الحسنة<sup>(١١٤)</sup>.

وكلام بعض المستشرقين الذي ذكرنا طرفاً منه، لا نتخذة حجة أو برهاناً، لأن الحقائق الإسلامية، وشواهد التاريخ الإسلامي، يراهين قولها مستمدة من ذاتها، لا من أمر خارج عنها.

وقبل أن نختم هذه النقطة، ينبغي أن نوضح أن هذه الصورة الواضحة، من انحطاطة الإسلامية قد بلغت الدرجة المثالية العالية في الاتجاه القيمي والأخلاقي والعملية، وذلك على عكس المدينة الحديثة التي نشرت طائفة من الأمراض الجسمية سُميت بأمراض المدينة، فزادت نسبة الإصابة بالسرطانات، وضغط الدم وتصلب الشرايين والجلطة والدبحة في العصر الحديث، إضافة إلى طائفة أخرى من الأمراض السياسية والاجتماعية، أغلبها انحصاراً: المذهب الكيبالي<sup>(١١٥)</sup> في السياسة، فهي لا تزال ترى أمراً مشروعاً أن تهب ثروات جماعات أخرى، وترى أن تسرق جماعة أخرى، حتى بعد إلغاء الرق الفردي، فتذهب مناداهم بحقوق الإنسان مدني، لكونها تطبق وفق المفرد فحسب!<sup>(١١٦)</sup>.



فإذا فسنا حضارة الإسلام في أحد جوانبها الأخلاقية، عندما كانت تسود المساواة والحرية والعدل مع جميع أفراد المجتمع بما فيهم غير المسلمين، بهذه المدينة الزائفة المرتبكة التي نعيش فيها على الوهم، والاضطراب النفسي، لم نتردد في الحكم بأن حضارة الإسلام قدمت للعالم أجمع مبادئ خلقية، ومثلاً علياً، وقيماً سامية، أعلاها السلام العام والخاص، والأمن بكل أشكاله وصوره.

### الإنسانية في ظل الحضارة الإسلامية:

كانت نظرة الأمم القديمة إلى الإنسان الذي لا ينتمي إلى جنسها، نظرة دونية، فهي تستعد شعوب الأرض، ولا حتى لهم في شيء من الكرامة والعزة والأخلاق والعقل أو الإرادة، فالإغريق "قدماء اليونان" نظروا إلى أنفسهم أنهم أممي البشر، ولهم خصوصاً بكل الصفات الإنسانية من عقل وإرادة، وأن غيهم من سائر البشر لم يشاركوهم في كرم صفاتهم الإنسانية، وأنهم في الخليفة لا يعدون كثيراً عن طبقات الحيوانات، وتحدوا من الصفات الممتازة التي خلق عليها الإغريق، فكانوا يطلقون على من عداهم من سائر الشعوب الأخرى اسم: البرابرة، إيحاء منهم إلى أن حرية كل الشعوب الأخرى لا تستطيع أن تنسج إلى مرتبتهم، وكانت نظرة الاحتقار هي نظرهم للأمم الأخرى، بل كان أرسطو يؤكد أن هؤلاء البرابرة لم يُخلقوا إلا ليعربوا بالعصى، ويستعبد لهم وشعبهم شعب اليونان<sup>(٩٧)</sup>.

وبهذا أرسطو إلى أبعد من ذلك، فاعتقد أن الحياة لا يمكن أن تسير سيرها الطبيعي إلا إذا استرق اليونانيون ما عداهم من البرابرة، فيقومون بخدمة سادتهم. فالبدأ عند اليونانيين القدامى أنه لا مساواة بين البشر على الإطلاق، فالأحرار - اليونانيون فقط - هم كل شيء، والشعوب الأخرى في خدمتهم، ولا شيء لهم.<sup>(٩٨)</sup>

كذلك الحال عند الرومان الذين أقاموا أنفسهم أوصياء على الإنسانية كلها، وسطروا سلطاتهم بيد السيف والقهر على الكثير من شعوب الأرض، واستعملوا في سبيل ذلك كل الوسائل، واعتبروا غير الروماني في طبقة أدنى من طبقة الرومان، وليس لهم الحقوق التي يتمتع بها هؤلاء، وإنما خلق هؤلاء ليكونوا رقيقاً بخدم فقط، وليس لهم الحق في التطلع لما وراء ذلك. وانطلاقاً من هذا المنطلق وضعوا نوعين من القوانين الأول: القانون المدني وهو خاص بالشعب الروماني فحسب، والثاني: قانون الشعوب، وهو خاص بسكان البلاد الواقعة تحت احتلال الرومان.<sup>(٩٩)</sup>

ونفس الوضع سار عليه اليهود الذين قالوا: لهم شعب الله المختار، فحق لهم من الحقوق ما لا يحق لغيرهم، فاستباحوا لأنفسهم أن يغشوا غير اليهودي، في الوقت الذي حرموا أن يغش اليهودي يهودياً مثله، وذلك لكون غير اليهودي لم يُخلق إلا ليكون خادماً لليهودي، كما تنص تعاليمهم على أن اليهودي يجب أن يُصنف اليهودي إذا تخاصم إليه مع غير اليهودي، سواء أكان

إضافه لليهودي بمن أم يعبر حق. <sup>(٣١)</sup> فهذه هي النظرة التي رسخها الأمم السابقة على الإسلام للإنسان.

فكان من أهم ما حرصت عليه رسالة الإسلام: احترام الإنسان، وحقوقه والحفاظ عليه، من خلال الرسالة الخالدة التي بشر بها رسول الله ﷺ، وجعلها العرب المسلمون إلى العالم، والتي تتشمل فيها بوضوح وجلاء الوعة الإنسانية، التي تؤصل احترام الإنسان أي كان، دون النظر إلى دينه، أو لونه، أو ثروته، أو جسده، وشواهد الكتاب والسنة، ثم معاملة الكثير من أئمة الأمر من المسلمين فيها الدليل على ذلك.

فالوعة الإنسانية في الإسلام لم تكن وليدة فلسفات قديمة، اتبناها العرب المسلمون من الشرق أو الغرب، وإنما كانت متأصلة فيهم، بما أوحاه إليهم القرآن الكريم والسنة النبوية الطاهرة، فبشروا بها في كل مكان، فالتزمت بهم الأمم، وغلقت عن مواردهم.

فالقرآن الكريم أكثر من ذكر كلمة: الإنسان، وبني آدم، والناس، والعسائين، والإنس، والعباد، التي لا يخص المسلمين وحدهم، فكلمة الإنسان ذكرت في القرآن في ٧٣ آية <sup>(٣٢)</sup> من ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ <sup>(٣٣)</sup> ولجوها من الآيات ذات الدلالة الواضحة على لكرام الله سبحانه وتعالى للإنسان **قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَخَلَقْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾** <sup>(٣٤)</sup>

والإسلام في رسالته جمع الإنسانية حول القرآن الكريم، ودعا الناس جميعاً دعوة عامة للخضوع لحائقي الناس، وتعبادته وحدهم، ولذلك جاء الخطاب للناس جميعاً في آيات قرآنية عديدة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَكُمْ تَمَتُّونَ﴾ <sup>(٣٥)</sup>، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ <sup>(٣٦)</sup>.

والخطاب في هذه الآيات للإنسانية بأحكام الإسلام، لا فرق بين أبيض وأسود، بل الجميع مخاطبون بذلك الأحكام الإسلامية، وقد ذكر المفكرون أن كل نص قرآني يمتد النداء فيه يا أيها الناس، يكون الخطاب فيه للناس جميعاً، غير محص بسبب دون قبيل، لأن العنوان فيه للإنسانية كلها، وكل من يتصف بها داخل في الخطاب <sup>(٣٧)</sup>.

وإذا كانت رسالة الإسلام لها ذلك العموم فإنها جاءت لإصلاح الجميع، فعاملت الأجناس كلها، وعممت بينهم أحكامها، فلا توجد أحكام خاصة لفرد دون فرد، أو لجماعة دون أخرى قال ﷺ: «...ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحر على أسود، ولا أسود على أحر إلا بالتقوى» <sup>(٣٨)</sup>.

فسموت أحكام الإسلام بذلك بين الناس في المعاملة، فالجزومية الشريفة عندما تسرق، وتشعر قريش بأنها متحذ، تلجأ إلى الواسطة، فتكلم أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ، ليشفع لها،

ليغضب رسول الله ﷺ ويقول: «أشنع في حد من حدود الله ﷻ ثم قام قائلاً: يا أيها الناس إنما حل من قبلكم ألمكم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف فيههم أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت فأسنمة يدها»<sup>(٣٨)</sup> فاناس أمام القانون سواء، والمراكز الاجتماعية لا تعطل قوة القانون وسيادته، فالظفرين في المعاملة القانونية أدنى ويسوّدي إلى ضياع الأسم وهلاكها، كما أن تطبيق القانون من شأنه بث الأمن بين جميع الناس.

وقد حرص رسول الله ﷺ على ذلك، فجدده بمااسب من يستعمله علسى عمل من الأعمال، كى لا يشعر ذلك العامل أنه فوق القانون، أو أن له حفا فوق حقوق الناس.

لقد صح أن النبي ﷺ بعث رجلاً من بني أسد يقال له: ابن اللثية، ليجمع زكاة بني سليم، فلما عاد إلى المدينة قال للنبي ﷺ: هذا لكم، وهذه - يعني أموالاً أخرى - أهديت إلي. فقال رسول الله ﷺ: «فهل جلست في بيت أبيك وأملك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقاً» ثم عطب ﷺ الناس فقال: «أما بعد ... فإني أستعمل رجلاً منكم على أمسور مما ولايتي الله، فبأنى أحدكم فيقول: هذا لكم، وهذه هدية أهديت لي، فهلا جلس في بيت أبيه وأمه، حتى تأتية هديسه إن كان صادقاً، هو الله لا يأخذ أحدكم منها شيئاً غير حق، إلا جاءه الله بحسنة يوم القيامة، فأعرفن أحداً منكم لقي الله يحمل بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تهر - ثم رفع يديه حتى روى بياض إبطيه - فقال: اللهم هل بلغت»<sup>(٣٩)</sup>.

فالأجل لإساءة الهدأ والقصة والنقل، لايد من المساراة العامة أمام القانون، فهذه التطبيقات العملية يتشتر الأمن والعدل، فدأيش المسلمون هذه القيم من خلال تطبيق عملي فعاش، وعلى هذا النهج الكرم سار الصحابة والخلفاء الراشدين ﷺ جميعاً، فقد ثبت أن عمر بن الخطاب ﷺ كان يخصص ثروة عماله قبل أن يوليهم أعضاض، ليتمكن في أي وقت من محاسبتهم ومعرفة ماقد يكون اكتسه أحدهم عن طريق استغلال نفوذه، أو حصل على ماله بطريق غير مشروع، أو اشغل علسى الناس، فلم يفرق في ذلك بين قوي وضعيف، ولم يستثن أحداً من ذلك، فيسذكر «السلاوي» أن «عمر ابن الخطاب» كان يكتب أموال عماله إذا ولاهم، ثم يقاسمهم مازاد على ذلك، وربما أحسده منهم، فقد كتب إلى عمرو بن العاص: إنه قد فشت لك فاشية من مناع ورفيق وآية وحيوان، لم تكن حين وليت مصر. فكتب عمرو إليه: إن أرحنا أرض مردوع ومقجر، فنحن نصب لفضلاً عما نكفله الأخذ بالحق، وقد سؤت بك ظناً، ووجهت إليك «محمد بن مسلمة» ليفاسحك مالك، فأطلعه طلعة، وأخرج إليه ما يطالك، وأخذه من الغلظة عليك، فإنه يرح الحظاف. فقسده ماله»<sup>(٤٠)</sup>.

وليت أن عمر بن الخطاب ﷺ مرّ ببناء يبنى بحجارة وجص فقال: لن هسفا ؟ فسذكروا عادلاً له على البحرين فقال: أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها، وشاطره ماله»<sup>(٤١)</sup>.

فيطبق هذه القواعد والقوانين: نستظيم أمور الناس، وبأمن الجميع.

ومما يعين بالروعة الإنسانية في الإسلام، نجد أن أصل التكوين الإنساني واحد، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۗ﴾ (٢١)

فلا يمكن ولا يصح أن يُحرق إنسان للونه، ولا لإقليمه، ولا لأنه غير متحضر، بل إنه لا يُحرق الإنسان أحماء الإنسان أبداً، والشاوت بين الناس إنما هو بالفضيلة والتقوى، والعمل الصالح والإخلاص فيه، وعدم الاعتداء على الآخرين.

فالقرآن الكريم جعل اختلاف الناس شعبياً وقبائلاً للتعارف والتعاون، لا للتباغض والشقاق، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَحَسَنَاتِكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۗ﴾ (٢٢)

واختلاف الشعوب غاية كما أرادها الله سبحانه: التعارف، وهذا التعارف له طواهر منها: اللقاء على مودة وترحم في أمن وسلام، ثم التعاون على أن ينفع الإنسان بكل خبرات الأرض، وبالتالي لا يوجد تعارف على أساس السلب والنسب والاحتقار، فأساس العلاقات الإنسانية بكل صورها: الاحترام والتعاون، أما إذا كان الأساس قائماً على الإرهاق النفسي، وعدم الاحترام، فإن ذلك يكون استمداً واسترقاقاً<sup>(٢٣)</sup>.

وقد ضرب الإسلام المثل الأعلى في معاملته مع غير المسلمين، فليهم أن يعتقدوا ما شاءوا من معتقدات من غير إكراه ولا إرهاب، فالإسلام يقرر «لا إكراه في الدين»<sup>(٢٤)</sup> بل يذهب به فرط احترامه للحرية إلى حماية العقيدة الدينية لمخالفه، دون أن يعتدي على أحد، فقاعدته في ذلك «وأمرنا أن نتركهم وما يدعون»<sup>(٢٥)</sup> وقد روي عن النبي ﷺ الكثير من الأقوال التي تحث على رعاية أهل الذمة من ذلك قوله ﷺ «من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه»<sup>(٢٦)</sup> وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفاته: «أوصي الخليفة من بعدي بدمعة رسول الله ﷺ، وأن يوفي ضم بعهدهم، وأن يقاتل من ورأهم، ولا يكلفون فوق طاقتهم»<sup>(٢٧)</sup>.

فهذه نظرة الإسلام للإنسان بصفة عامة، هدفت إلى تحقيق الأمن والحفاظ على حياة الإنسان، وعلى دينه، وعلى ماله<sup>(٢٨)</sup>، فتحقق العدل والسلام بين الناس جميعاً.

### الحقوق والواجبات في الإسلام:

ورد استعمال كلمة الحق في لغة العرب بمعان متعددة، منها: أنه اسم من أسماء الله تعالى، ومنها البوت والوجوب، وال لزوم، والأمر المقضي، والحزم، والعدل، والإسلام، وفي شرح العقائد الحق عرفاً: الحكم المطابق للواقع، يُطلق على الأقوال، والعقائد والأديان، والمذاهب، باعتبار اشتغالها على ذلك، والحق نقيض الباطل<sup>(٢٩)</sup>.

وقد ذكر الفقهاء - القدامي - معنى كل من حق الله وحق العبد - فالقراي يقول: إن حق الله هو أمره، ولحمه، وإن حق العبد هو: مصالحه<sup>(٤٦)</sup>، أي أن كل الأوامر التي أمرنا بها الله عز وجل، واللواهي التي نمانا عنها هي حقوق له سبحانه، وأن حقوق الناس هي الأمور التي نتحقق بها مصالحهم<sup>(٤٧)</sup>.

وقد ذكر الشاطبي (ت ٧٩٠هـ/١٣٨٨م) أن كل حكم شرعي ليس بحال عن حسق لله تعالى، وهو: جهة العبد فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وعبادته: امتثال أوامره، واجتناب نواهيه بإطلاق، فإن جاء مظاهره أنه حق للعبد مجرداً - كالتقصص فالعفو عنه حق للعبد - فليس كذلك بإطلاق، بل جاء على تغليب حق العبد في الأحكام الدنيوية.

كما أن كل حكم شرعي فيه حق للعباد، إما عاجلاً، وإما آجلاً، بناءً على أن الشريعة إنما وضعت لمصالح العباد، وعادقم في تفسير حق الله: أنه ما فهم من الشرع أنه ولا حسرة فيه للمكلف، كان له معنى معقول، أو غير معقول. وحق العبد: ما كان راجعاً إلى مصالحه في الدنيا، فإن كان من المصالح الأخروية، فهو من جملة ما يُطلق عليه أنه حق لله، ومعنى العبد عندهم أنه مالا يعقل معناه، على الخصوص، وأصل العبادات راجعة إلى حق الله، وأصل العادات راجعة إلى حقوق العباد<sup>(٤٨)</sup>.

وقد تناول الفقهاء المحدثون المعنى الاصطلاحي للحق فقالوا: إن المقصود به مصلحة<sup>(٤٩)</sup> مستحقة شرعاً، أو هو اختصاص بطور بدالشرع سلطة وكلياً، أو هو مصلحة تابعة للشخص على سبيل الاختصاص والاستثناء، يقرها الشرع الحكيم<sup>(٥٠)</sup>.

أما المقصود بالواجب في اللغة: فيعني اللازم، يقال: وجب الشيء وجوباً إذا ثبت ولزم، والوجوب: الثبوت، والواجب والقرض عند الشاطبي «ت ٢٠٤هـ» سواء، وهو: كل ما يعاقب على تركه، وفرق بينهما أبو حنيفة «ت ١٥٠هـ» فالقرض عنده أكد من الواجب<sup>(٥١)</sup>.

وقد ذكر الفقهاء أن الواجب ما يتأب على فعله، ويعاقب على تركه، فالصلاة والزكاة والحج، وعبد الحكام، وحكمه بأحكام الشريعة الإسلامية، والمساواة أمام القانون، كلها أمور واجبة، يتأب من رحمت الله إذا فعلها، ويعاقب إذا تركها<sup>(٥٢)</sup>.

### أصل الحقوق والواجبات في الإسلام:

الحقوق والواجبات في الإسلام ليس لها منبع أو أصل سوى الشريعة الإسلامية، وأحكامها المستفظة من الكتاب، والسنة، والإجماع بمعنى اتفاق المجتهدين من علماء أمة محمد ﷺ على حكم شرعي في عصر غير عصر الرسول، ثم القياس وهو: إثبات مثل حكم معلوم في معلوم آخر، لاشتراكهما في علة الحكم عند المثل<sup>(٥٣)</sup>.

فلا واجب إلا ما أوجبه الله عز وجل في شريعة الإسلام، ولا حق إلا ما جعله الشريعة حقاً.

فالشريعة الإسلامية قد اشترطت في استعمال الإنسان لحقوقه، ألا يضر بمصالح الغير، وأن يكون ذلك مطلقاً مع مصلحة الجماعة، فإذا كانت حرية الانتفاع بالملك تؤدي إلى الإضرار بالغير، فلها تمنع، حتى تكون في حدود منع الضرر، وفق قاعدة «لا ضرر ولا ضرار»<sup>(٢٢١)</sup>، وقد طبق رسول الله ﷺ ذلك، وفضى برفع الضرر<sup>(٢٢٢)</sup>.

كذلك الحال بالنسبة لاحترام الشخصية الإنسانية في ظلال الإسلام، فلا شخصية إنسانية إلا مع الحرية، حرية الإقامة، والانتقال، والدين، وحرية الفكر والرأي، وحرية الدولة، لذلك كان الإسلام والتحكيم يقضيان لا يمتنعان، فليس لإنسان أن يتحكم في غيره، ولا للدولة أن تتحكم في الناس، ولكن لتحكم عليهم إن اشتقوا أو تجاوزوا حدودهم. وحتى العقوبات في الإسلام لا تنحى إلى تقييد الحرية، لأن التقييد دائماً منع للحركة، والحركة هي الحياة، والإسلام دين الحياة، ولكن مسا معنى الحرية؟ إن الحرية التي تفسر بالانطلاق من القيود الإنسانية والأدبية ليست حرية، ولكنها لون من ألوان الانفلات الأخلاقي، لأن الحرية مستولية، والإنسان الحر هو الذي تجعله فيه المعاني الإنسانية العالية، ويضبط نفسه، فلا تنطلق إلى اللذائز من الأمر، ولا ينطلق وراء أهوائه وشهوته، ولا يكون عبداً لها، فالحر يتبعها بالسيادة على نفسه، وإطلاق إرادته، ويغلبه من قيود شهوته، والأمة أو الدولة يجب أن يكون فيها المعاني التي تكون في الحرية، لأن الدولة شخصية معنوية تصصف في المعاملة بما ينصف به الشخص الجليلي، فلا يمكن أن تكون دولة حرة، أو أمة حرة لتلك السبي لفرض أن غيرها عبداً، أو أن لها من الحقوق على غيرها أكثر مما لها<sup>(٢٢٣)</sup>.

وهكذا في كل الحقوق، لا فرق بين الحقوق العامة التي تثبت لكل الأفراد، والحقوق الخاصة التي يستأثر بها أصحابها دون بقية الناس<sup>(٢٢٤)</sup>، وقد وضع الأصوليون أنواع الحقوق في الشريعة الإسلامية وفضلوا القول في ذلك<sup>(٢٢٥)</sup>.

ومن دافعة القول في هذا الشأن - أعني الحقوق والواجبات في الإسلام - أن الإنسان الذي يعرف أن له حقاً معيناً، ينبغي أن يدرك أن عليه واجباً، وذلك ما حلقته الشريعة الإسلامية، بتأصيل مبدأ العدالة<sup>(٢٢٦)</sup> التي تشكل ميزان الاجتماع في الإسلام، والتي يقوم بها بناء الجماعة، فكل نسق اجتماعي لا يقوم على العدالة منهار، مهما تكن قوة التنظيم فيه، لتكون العدالة الدعامة، والنظام والسيريق السليم لكل بناء، لذلك كانت آية معاني القرآن الكريم<sup>(٢٢٧)</sup> «قوله الله تعالى: ﴿لَنْ أَلْفِتُكُمْ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَكَيْتَابِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَنَهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ بِطَلْقِكُمْ لَكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾»<sup>(٢٢٨)</sup> فالعدل في الإسلام مقصد أصي، وينبج في اتجاهات مختلفة مع النفس، ومع الآخرين، وفي الأحكام والأفضية والشهادات، وأمام القانون، وفي العدالة الاجتماعية.

كما أن العدالة هي طريق الرقي إلى الله قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَاؤُكُمْ عَلَىٰ الْإِتِّدَابِ وَلَا يُغْنِيَنَّكُمْ غِيظُكُمْ عَلَىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلَّا تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (٢٤٧).

والعدالة ذات شعبتين، الأولى: العدالة النفسية، بأن يقدر كل إنسان لنفسه من الحقوق بمقدار ما يقدره لغيره، على ألا يبرد على الناس في حق، وقد يفرض على نفسه الزيادة في الواجب لا في الحقوق، وهذه العدالة النفسية هي التي توجد الاتصال المستمر، والتي تقوي بناء الجماعة، وتنفذ ديناً من غير قهور، ولا حكم مسطر، بل يكون الحكم من ذات الضمير، فقد ورد عن رسول الله ﷺ قوله: «ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار» (٢٤٨).

الثانية: العدالة التي تنظمها الدولة، ولن نستطيع تنفيذها إلا إذا كانت قائمة على أساس من العدالة النفسية عند الحاكم والحكوم على سواء (٢٤٩). وعلى هذه القيم كان تأسيس المجتمع الفاضل في الإسلام.

### من أسس المجتمع الفاضل في الإسلام:

الجمع في الإسلام مجتمع معنوي، أي أن العلاقات الاجتماعية فيه بُنى على الروابط الأدبية في نواحي وتراحم، لا على أساس من العلاقات المادية فقط، وهذا هو الفرق الجوهرى بين الحضارة الإسلامية في جوهرها، والحضارات المادية الأخرى، ذلك لتكون العلاقات المعنوية التي تقوم على المودة والرحمة والأمن النفسي، هي التي يقوم عليها بناء الجماعة الإنسانية. وهي الروابط التي تربط آحاد الناس بعضهم.

فالجمع المادي الذي بُنى على الاجتماع أو على الاقتصاد، فهو مثل الأحجار المترصنة التي يجاور بعضها بعضاً من غير ارتباط وثيق بين أجزائها، ومهما يكن فيه من تسليق هندسي، لا يمكن أن يكون متلاحماً متصلاً وإنه ينهار لأقل عاصفة تنور.

أما الجمع المعنوي القائم على أساس من العلاقات الروحية الرابطة بين أجزائه، ذلك الجمع المتوازن بين المادة والروح، فهو مجتمع متماسك قوي غير قابل لأن تصدع ليئته، لأنه مترابط الأجزاء بما لا يقبل الانقطاع، مادام يُهدى بالروح والدين، وقد يكون غير منسق اقتصادياً أو هندسياً، لكنه قوي متين راسخ الأساس، والاعوجاج الذي قد يبدو فيه لا يكون دليل الضعف دائماً، بل قد يكون الاعوجاج الذي يبدو ظاهراً من أسباب قوة الجسم، وقد يكون التسليق المصطنع، الذي يُعنى بالظهور دون المخبر، دليل الضعف وليس دليل القوة.

ولذلك كان الأساس في كل نظام وضعه الإسلام بالقرآن الكريم والسنة النبوية، أن يقوم على الدين وتوجهاته، وذلك لما يغذي نفوس الأعداء للاجتماع، ونفوس الجماعات لتألف (٢٥٠).

والشريع الإسلامي - المدني - للعلاقات بين الأفراد في الأمة؛ يسوم على أساس أن الروابط التي تجمع الناس هي روابط إنسانية في المقام الأول، أي يحكمها المستوى الإنساني بمقتضى الميزة، وأساس الروابط الإنسانية في القرآن الكريم هو: الإيمان بالله وحده، لتكون الإيمان وحده يتطوى على الإيمان بالقيم العليا، والمثل الرفيعة، والتي يسمي الإنسان العابد إلى الانقراض منها بعبادته<sup>(٧٦)</sup>، حتى تصح هذه القيم دهنًا له في سائر حياته.

والجتماع الفاضل في ظلال الإسلام، ووفق القيم التابعة من الإيمان بالله، وحسب قواعد الرسول ﷺ، فأمن الناس، وعرفوا ما هم من حق، وما عليهم من واجب، فعمَّ الأمن ذلك المجتمع.

وفي سبيل إقامة هذا المجتمع؛ كانت هناك خطوات تطبيقية من جانب النبي ﷺ عندما هاجر إلى المدينة المنورة، وبدأ في إرساء قواعد المجتمع الفاضل. ومن هذه الخطوات العملية في هذا النسخ:

### - المواخاة

بعد استقرار النبي ﷺ في المدينة، أعلن المواخاة بين المسلمين من المهاجرين والأنصار، فذكر «ابن إسحاق» أن النبي ﷺ قال: «تآخروا في الله أخوين أخوين»، ثم أخذ يهد على من أي طالب ﷺ فقال: هذا أخي، ثم آخى بين باقي الصحابة، فكان حمزة بن عبدالمطلب وزيد من حارة أخوين، وجعفر ابن أبي طالب، وعبد الله بن جيل أخوين، وهكذا آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار<sup>(٧٧)</sup>، وهم النواة الأولى والمركزة الرئيسة للمجتمع الإسلامي الأول.

وتكمن أهمية هذه الخطوة الجوهرية في أنها تشر الأمن والسلام بين المهاجرين الذين تركوا أوطانهم وديارهم، والأنصار الذين أحسنوا استقبالهم. وإذا كان العرب قد عرفوا الحلف القائم على التضامن، فإن الإخاء الذي تم كان أعمق من أي حلف، فالإخاء كان له صفة اجتماعية عميقة، تتبعها التزامات مادية<sup>(٧٨)</sup>، وفوق كل ذلك إخاء في الله قائم على أساس رسالة الإسلام السماوية، وما تنص عليه من حقوق وواجبات، وفوق أي عصبية قبلية، أو انتماء لعرق أو جنس، فالكامل داخل الإسلام سواء، وقد ذكر «ابن سعد» أن المواخاة بين المهاجرين والأنصار كانت على الحسب والمؤاساة، وكانت بين المهاجرين على الفوارق<sup>(٧٩)</sup> حتى نزل قول الله تعالى: ﴿وَأَوْكُوا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾<sup>(٨٠)</sup>.

والمواخاة تقوم على الاتصال الفردي، فطرف المجموعة إلى المراد، يرتبط كل منهم بغيره آخر، بصرف النظر عن قبليته أو عشيرته، ويجعل مسؤولية حماية المهاجرين على أفراد من الأنصار، فيهي رابطة الأخوة الدينية ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾<sup>(٨١)</sup> كما أن مبدأ المواخاة من شأنه أن يطفى أي عصبية قبلية من شأنها أن توجب الخلافات بين أبناء المجتمع الواحد، فطرف الأفراد ترك لهم حرية التصرف، لكنها لا تشبههم، لأن العلاقة عميقة الجذور بالرسول ﷺ وبالإسلام، وكان تأثير مبدأ



المزاخمة على الانتصار لرباً، لأنه يلقى عليهم مسؤولية إيجابية في الحماية، وتوثيق الصلة بالإسلام، وتتيح للرسول ﷺ توسيع نطاق وقوة روابطه بالانتصار، وبذلك تكونت الأسرة الإسلامية الموحدة المتعاونة، ونسي كل فرد أرومه ومجده، وتطلع إلى رباط الإسلام الذي ألق بين معتقيه، فكان العرض من المؤاخاة: اجتماعي ونفسي<sup>(٢٧)</sup>، وأتى ذلك ثمارة إذ أمن الجميع، ولبت المثل الأخلاقية التي دعى إليها الإسلام، لتكون والقها معاشاً على الأرض .

### || صحيفة المواطنة:

ثم كانت الخطوة التالية لإقامة المجتمع الفاضل، والتي تمثلت في الصحيفة التي كتبها النبي ﷺ بين المسلمين من المهاجرين والأنصار، مع اليهود، وفيها وادع النبي ﷺ يهود المدينة، وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم.

وهذه الصحيفة الخالدة تعدُّ نبراساً لجميع الأمم في مختلف الأزمنة، لأنها حددت إطاراً عاماً لكل من يقطن في المدينة التي كانت تضم طوائف من اليهود والمشركين، ولكسي يتحقق الأمن الخاص والعام، والسلام الاجتماعي، فلا بد من وضع نظام يحفظ لكل الطوائف التي تعيش داخل المدينة حقوقها، حتى ولو كانت غير مسلمة، فالكل يعيش في وطن واحد هو المدينة المنورة، وعندما يأتي أي محضر لن يفرق بين فرد وآخر، لذا لابد أن يتعاون الجميع لهد هذا المحضر.

فكانت الصحيفة الجامعة والميثاق القويمة والدمور العظيم للعلاقة بين أفراد المجتمع جمعاً.

فرسول الله ﷺ في سبيل متابعة اليهود لتوضيح معالم الدين، ونشر الدعوة الإسلامية في المدينة المنورة، وإقامة المجتمع الفاضل، كان لابد أن يهد السبل لتحقيق ذلك، فالتفتى الأمر معالجة مختلف القضايا بما يكفل سلامة الجميع، وأمن الأفراد والجماعات، وتأمين الوطن، فانتشار الإسلام بين الناس لا يتوقف على مجرد سمو مادته وسلامة أفكاره، وإنما لابد أن يظهر نجاح هذه المساعي هنا السمو في التطبيق العملي لها، على أرض الواقع، وتأسيس قاعدة مبنية لظُل الجميع.

فكانت الصحيفة إحدى الخطوات الجوهرية لتحقيق ذلك الأمر، فبصرف كل فرد ماله وما عليه، فهي الدمور الذي بين الخطوط الرئيسة لتنظيم الدولة والمجتمع من الداخل، ولتنسيق العلاقة بين الجميع في إطار من التود والتعاون، وبذلك يشعر الجميع بالأمن والسلام.

فسبقت تلك الوثيقة دستاير العالم - حتى الحديث عنها والمعاصر - في كونها حددت الإطار العام لحقوق وواجبات جمع أفراد المجتمع، فلا تنهك حرمة إنسان، ولا حرمة، ولا ماله، ولا دمه... الخ ما نصت عليه الوثيقة والتي كان من توصيها:

١- أن المسلمين أمة واحدة من دون الناس، وأن المهاجرين من قريش على ربعتهم، يتعاقلون<sup>(٢٨)</sup> بينهم، وهم يقدون عانهم<sup>(٢٩)</sup> بالمعروف والتوسط بين المؤمنين.

- ٢- بمر عوف على ربهتهم يتعاقبون معاقبتهم الأولى، وكل طائفة تقدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وكذلك الحال لبني الخارث وبين ساعدة وبين جشم، وكافة طوائف المدينة.
- ٣- أن المؤمنين لا يبركون مُفْرَحاً بينهم<sup>(١٨٠)</sup>، أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل<sup>(١٨١)</sup>، وألا يخالف مؤمن مؤمن مؤمن مؤمن.
- ٤- أن المؤمنين المثلين أيديهم على كل من يبي منهم أو يبي دسيسة<sup>(١٨٢)</sup> ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم، وألا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافرأ على مؤمن.
- ٥- أن ذمة الله واحدة، يحير عليهم أذناهم، وأن المؤمنين بعضهم مؤمن بعض دون الناس.
- ٦- إنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين، ولا متناصر عليهم.
- ٧- أن يسلم المؤمنين واحدة، لا يسلم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم.
- ٨- أن اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.
- ٩- أن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مسوا بينهم وأنفسهم إلا من ظلم وإثم، فإنه لا يوفع إلا نفسه، وأهل بيته.
- ١٠- أن على اليهود طوائف اليهود القاطنين في المدينة، فهم مثل بني عوف.
- ١١- هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم.
- ١٢- أن يترى حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأن الجار كالفسخ غير مضار ولا آثم.
- ١٣- أنه ما كان من أهل هذه الصحيفة من حدث أو شجار يخالف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأثره.
- ١٤- لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وإثم، وأن الله جبار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله ﷺ<sup>(١٨٣)</sup>.

ومن خلال بعض النصوص التي أوردناها من الصحيفة، يتبين الأساس القوي للعلاقة بين أفراد المجتمع الواحد، المسلمين مع بعضهم، ثم تحديد العلاقة مع الطوائف الأخرى، والتي تكفلت لهم الصحيفة بالأمن والأمان، والأحرية، وأن الجميع وحدة واحدة ضد من هاجم المدينة، وأن التعاون بين الجميع في الإنفاق حال تعرض المدينة لأي هجوم واجب على الجميع، وأن عهد الله واحد للجميع، وأنه لا حامية لظالم أو آثم، وأن الوطن حرم آمن لرعية هذه النبوة.

- وهذا الدستور - الصحيفة - الذي صيغ لينظم القواعد الأساسية لتبوء المدينة ورعيها، بعد أن نزل الوحي بقسم كبير من القرآن الكريم، يُعدُّ دليلاً على أن القرآن الكريم بالنسبة لتدبير الدولة، هو الإطار العام لها، فيه المبادئ، وبه الروح، والقاصد والضوابط والغايات،

وذلك لا يمنع من وضع دستور يضبط القواعد وينظم الحقوق، ويحكم العلاقات بين الأفراد، والجماعات، ويصوغ ذلك صياغة محكمة الدلالة بحدود، بما لا يعارض مع الإطار العام.

- كما أن نص هذه الصحيفة بما تضمنته، أمر يدعو إلى العزة، فحضارة الإسلام وقبل هذه الصحيفة وما حددته بدقة، يدل على أن الفكر السياسي الإسلامي في ذلك الوقت، قد وصل إلى درجة كبيرة من السمو، فاستوعب الإسلام كافة الطوائف الموجودة في المجتمع، وذلك بتحديد دقيق فيه أمان للفرق والجماعة، والوطن، فضلاً عن روح التكافل والتضامن بين الجميع، وإذا نظرنا إلى الإطار الزمني والمكاني للصحيفة، نجد أن هذه الوثيقة سبقت كافة الأمم في رعاية الدين بتوضن تحت لوائها، وضمنت لهم حقهم في العيش الآمن، حتى لو كانوا غير مسلمين.

- كما أن الصحيفة تظهر اهتمام الرسول ﷺ بأمر العدالة وتنظيم القضاء، فقد خصها الصحيفة بعدد من الأحكام، بحيث يمكن القول إنهما كانا من أبرز النقاط التي استهدفت الصحيفة تأمينا، وذلك وابع إلى إدراك الرسول ﷺ لأهمية العدالة والقضاء لكل مجتمع سليم، وأن تقدمهما من أبرز العيوب، وألوى أسباب الفتن والاضطراب، ونص القرآن الكريم على جعل القضاء في الأمور المشددة بالأمن العام إجبارياً، وحسنه في يد الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿وَأَقِمْ وَرِثَةَ آبَائِكُمْ حَتَّىٰ يَحْكُمَوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ لَمْ لَا بَعْضُوكَ فِي الْقِسْمِ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾<sup>(١١٣)</sup>

<http://Archivebeta.Sakhrif.com>

- وبذلك نظام النبي ﷺ دعائم المجتمع الإسلامي الفاضل في المدينة المنورة، فتأسس وترسخ كيان الأمة من الداخل، والعمل على توحيدها، هو الأساس الأول في قيامها ومن ثم تطورها وازدهارها. فكانت إدارة الرسول ﷺ في المدينة تهدف إلى تكوين أمة مترابطة فيما بينها، للأفراد فيها حرية العمل والتنظيم، وللسلطة المركزية حق الاهتمام بالعدالة، والأمن العام والقضاء، وأمور الحرب والسلام، على أن تكون القوى والأخلاق الإسلامية الفاضلة أساس أعمالهم وتصرفاتهم.

### المعاهدة مع نصارى نجران:

ولتحقيق السلام العام في المدينة وما حوفا، نجد أن رسول الله ﷺ يعمل على نشر الأمن بصورة أفضل، لتطم طوائف من غير المسلمين، فكانت الوثيقة الدستورية لنصارى نجران - باليمن - لتكون عهداً وميثاقاً لكل من يتحل ويتبين بالنصرانية عبر الزمان والمكان، فيبعد أن أم الله على المسلمين فتح مكة سنة ٦٢٩هـ/٦٢٩م، والذي تجلت فيه سماحة الإسلام مع من تاصوه

العناء<sup>(٨٥)</sup>، وأمن الجميع، واستتب الأمر للإسلام في معظم أرجاء الجزيرة العربية، وجاءت الوفود تترى على النبي ﷺ في العام التاسع للهجرة، والذي أطلق عليه عام الوفود<sup>(٨٦)</sup> بعقد النبي ﷺ في العام العاشر للهجرة، معاهدة مع نصارى نجران، هذا نصها: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما كتب محمد النبي ﷺ لأهل نجران - إذ كان عليهم حكمه - في كل ثمرة، وفي كل صغره ويسقاه ورقين، وأنزل ذلك كله لم على ألفي حلة من حنل الأرابي في كل رجب ألف حلة، وفي كل صفر ألف حلة، مع كل حلة أوقية من الفضة، فما زادت على الخراج أو نقصت عن الأوقية فإحساب، وما نقصوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض أخذ منهم بإحساب.

وعلى نجران مائة رُسلٍ ومعهم مائة عشرين يوماً فما دون ذلك، ولا تحبس رسلي فوق شهر، وعليهم عارية ثلاثين درعاً، وثلاثين فرساً، وثلاثين بعيراً إذا كان كيداً باليمن ومعرفة، وما هلك مما أعاروا رسلي من دروع أو خيل أو ركاب، أو عروض، فهو ضمن علي رسلي حتى يردوه إليهم. ونجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله عيسى أمواتهم وأنفسهم وأرضهم، وملتهم وشأنهم وشاهدتهم وعشيرتهم وبمعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يغير أسلف من أسفنته، ولا رهب من رهبانته، ولا كاهن من كهنته، وليس عليه دية، ولا دم جاهلية، ولا يحسرون ولا يمسون، ولا يقطع أرضهم جيش، ومن سأل منهم حقاً فينبههم النصف غير طائلين ولا مظلومين، ومن أكل ربا من ربي قتل، فلعني منه بريته، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر، وعلى مالي هذا الكتاب جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله أبداً، حتى يسألني الله بأسره، ما تصحوا وأصلحو ما عليهم غير متظلمين بظلم<sup>(٨٧)</sup>.

وهذه الوثيقة التاريخية العظيمة التي حددت بدقة حقوق وواجبات المسلمين تجاه نصارى نجران وحقوق وواجبات نصارى نجران تجاه المسلمين، تشكل دستوراً لطبيعة العلاقة التي ربطت بين الطرفين، واشترطت من ضمن شروطها: الحرية الدينية لنصارى نجران، وأمنهم، وتأمين دور عبادتهم، وأمواتهم وأنفسهم، وما تحت أيديهم، وفق ما ألزمت الوثيقة، وتتوالى العهود والمواثيق بين النبي ﷺ وكثير من القبائل، وبخاصة في العام التاسع الذي عُرف بعام الوفود، وكلها لتنظيم السلم وحسن الجوار. ثم بعد انتقال النبي ﷺ إلى الرقبة الأعلى، جاء وفد نجران إلى أبي بكر الصديق خليفة رسول الله، فأجارهم بالمهد الذي كتبه النبي ﷺ<sup>(٨٨)</sup>، وهكذا عاش الجميع وفق هذه المعاهدات والمبادئ التي اشتملت عليها.

### السلم والحرب في الإسلام:

وتمثل هذه القواعد مع غير المسلمين، التي وضع أساسها رسول الله ﷺ، استقر الأمن في الجزيرة العربية، وعمّ السلام بين المسلمين، وغير المسلمين، لأن القاعدة الموضوعية صارت أساساً لتكهنه خلفاء رسول الله ﷺ من بعده، فالخليفة أبو بكر الصديق ﷺ ١١-١٣هـ/٦٣٢-٦٣٤م "بوصي جند الإسلام في بداية الفتوحات الإسلامية، بأهل الذمة، ولا يعتدوا عليهم"<sup>(٨٩)</sup> ثم

بأن زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ١٣-٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٤م لم يضرب أروع الأمثلة في هذا الصدد، عند عقد معاهدة مع الصغرى في إيلياء - القدس - تضمنت عدم الحرية الدينية الصريحة دون إجبار أو ظلم<sup>(١٧)</sup>.

وهذه النقطة أعني هذه المعاهدة، وما كان عليه خلفاء الرسول في هذا الشأن، تبين أن الأصل في الإسلام هو السلم العام، وأن الحرب لا تقتل القاعدة في الإسلام، بل إن المسلمين لا يلجأون إلى الحرب إلا باعتبار غيرهم، فهم لا يبعثون إلا العمل على نشر الإسلام وتعاليمه بالطريقة السلمية، فكان المسلمون يهرون أهل البلاد بين الإسلام، أو أن يعاهدوا معهم على العيش معاً في سلام، حتى يجد الدين الفرصة، ليطلع الناس على أوامره وقيمه، دون إكراه، ولا يلجأ المسلمون إلى الحرب إلا إذا كانوا مضطرين لذلك، وجهور الفقهاء على أن الباعث على القتال هو رد الاعتداء على المسلمين، ذلك لأن الدعوة إلى السلم في القرآن مطلقة غير مقيدة، بينما إباحة القتال تجديدها في كل نصوص القرآن مقيدة بأنها مقابلة الاعتداء بثلثه، فإله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾<sup>(١٨)</sup> - ويقول سبحانه: ﴿وَأَن جَنَحْتُمَهَا إِلَىٰ فُجِئْتُمَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾<sup>(١٩)</sup> ويقول عز من قائل: ﴿فَإِنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِمْ مِّمَّا تَوَلَّوْا إِلَيْكُمْ مِنَ السِّلْمِ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾<sup>(٢٠)</sup>.

لهذه النصوص كلها تدعو إلى السلام دعوة مطلقة غير مقيدة، وهي تدل على أن كل من يلتزم السلم لا يقتل، والأصل في العلاقات في الإسلام بين الجماعات يقوم على: التواد، والتراحم، والتعاون، وما فرض القتال، على المؤمنين إلا لكونه ضرورة ملزمة تلقى بقدر الضرورة، فبلا سواد القتال لذاته، فما جاء الإذن بالقتال إلا لرد الاعتداء على الحرية الدينية، ومنع الفتنة<sup>(٢١)</sup>.

وإذا فرغت الحرب على المسلمين، فإن لها آداباً يجب أن تحترم، فلا يجوز التمثيل بالقتلى، ولا يقتل إلا من قاتل، وعدم حرق الشجر، وعدم التعرض للمسلمين، ولا للنساء والأطفال ولا الشيخوخة فهذه آداب حرص عليها المسلمون في حروبهم<sup>(٢٢)</sup>، ووفاء قادة الإسلام بعهودهم في أوقات الحرب خير شاهد في هذا السياق<sup>(٢٣)</sup>، فعندما اشتدت وطأة الروم على جيش أبي عبيدة عامر بن الجراح في الشام، لوقعة اليرموك، رد المسلمون على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا: شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم، فقال أهل حمص: لسولايتكم وعدتكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم<sup>(٢٤)</sup>، وكان أبو عبيدة قد كتب معهم كتاباً يحثهم، وحماية كتابهم ودور عبادتهم وما تحت أيديهم، فلما أحس بخطورة الموقف من الروم، رد عليهم ما أخذ منهم قائلًا لهم: ونحن لكم على العهد، لكنهم رفضوا، وساعدوا المسلمين حتى كتب الله لهم النصر<sup>(٢٥)</sup>.

والمناذج في التاريخ الإسلامي التي تؤكد على الوفاء بالعهد، واحترام حقوق وواجبات رعايا المسلمين، وحقوق وواجبات المسلمين أنفسهم كثيرة، ولها الدلالة على صدق المسلمين ووفائهم بعهدهم في كل ما التزموا به.

فالأساس الذي وضعه لهم النبي ﷺ في هذا الشأن مائلٌ أمامهم، إضافة إلى ذلك، جمع المسلمون رسول الله ﷺ وهو ينصف من نفسه، فهو القدوة والمثل الأعلى، فقد ورد عنه ﷺ في هذا الصدد أنه قال: «إنه قد دنا مني حقوق من بين أطهركم، وإنما أنا بشر، فأبما رجل قد أصبت من عرحه شيئاً فهذا عرحي فليقتص، وأبما رجل كنت أصبت من بشره شيئاً فهذا بشري فليقتص، وأبما رجل كنت أصبت من ماله شيئاً، فهذا مالي فليأخذ، واعلموا أن أولاكم في رجل كان له من ذلك شيء فأخذه أو حلتني، فلقبت ربي وأنا محتلٌ لي، ولا يقول رجلٌ إني أعاف العداوة والشحناء من رسول الله، فإنما لينا من طبعي، ولا من حلفي»<sup>(١١٠)</sup>.

يمثل هذا النهج تحقق السلام، ويمثل هذه العادة ساد الإسلام الدنيا، وعلى هذا السبب سار أصحاب رسول الله ﷺ، فدانت لهم الدنيا، وتحقق السلام للإنسانية في أوضح صورة، فكما سبق أن ذكرنا إن الإسلام دين قيم وروابط سلوكية مفادية ودعوية، تكون هذه القيم والسياسات مرتبطة بوحى السماء، وهذه القيم يتصل بعضها بحياة الأفراد، ويتصل بعضها الآخر بحياة الجماعات، فإذا قلنا إن الحضارة لا بد أن تقترن بنسق معين من الحياة، فإن الإسلام عساون، بقيمه وروابطه، على أن يعطي حياة أهله وحضارته بعض مميزات ذلك النمط المتشرك، بل إن الإسلام امتاز بأن أعطى نظاماً متكاملاً للحياة، سواء من وجهة نظر الفرد، أم وجهة نظر الجماعة، وهذا النظام شمل علاقات الأفراد، وكثيراً من نواحي الحكم ذاته، وقد يكون من أبرز القيم التي استند إليها نظام الحياة الإسلامية فكرة القيمة الذاتية للإنسان الفرد، واستنادها إلى فكرة المسؤولية الفردية في نطاق الحرية، ثم فكرة الإخاء العام التي تجعل المسلم في أي قطر يشعر بأنه ينتمي إلى جماعة المسلمين على أساس من المساواة، والتي كانت من وراء «حسن المشاركة» الذي تستشعره جماعة المسلمين على اختلاف اللغة أو الجنس، أو حتى الولاء الوطني أو السياسي، وقد يوجد مثل هذا الحس المشترك بين جماعات من أهل الأديان الأخرى، ولكنه لا يبلغ قوة «حسن المشاركة» بين المسلمين. ثم فكرة العدل الذي ينبع من قاعدة المساواة بين الأفراد - وقد ذكرنا نماذج لذلك في ثنايا البحث - وبميز التفاوت بينهم على أساس العمل، وفضائل الأعمال المستقلة في التقوى، وهذه قاعدة تشعر المسلم بروح الإنصاف، وهي أساس تماسك البنية الاجتماعية التي أرسى دعائمها الإسلام، وقد رأينا سماحة الإسلام مع غير المسلمين، ومعاهدتهم والوفاء بها، مع عدم التمييز على أساس من العنصر أو الدين أو المال، وذلك جعل الناس يدخلون في دين الله أفواجا - على مر العصور وحتى الآن - على أساس من التكافل والاندماج، ومهد لأن يكون نظام الحياة والحضارة في الإسلام نظاماً جامعاً رحباً، واسعاً في معاييرها، التي لا يغيرها الزمن ولا تشكلها الظروف<sup>(١١١)</sup>.

ونخلص من خلال ماسبق إلى النتائج التالية:

- ١- قدرة الإسلام على تحقيق السلام العادل، بمعناه الحقيقي بين مختلف الأمم والشعوب.
- ٢- أن العدل القائم على الحل أساس تحقيق السلام، وهو ما حفظه الإسلام في تاريخه الطيد-نظرياً وعملياً-
- ٣- المساواة أمام القانون للجميع إحدى الركائز الرئيسة، لتحقيق السلام الخاص والعام، فالكسل أمام القانون سواء.
- ٤- إن حرية وحقوق الإنسان عايشها المسلمون، ومن دخل في عهدهم من أهل الأديان الأخرى فترات طويلة من تاريخ الإسلام، مع حرص ولاة الأمر على تحقيق هذه المبادئ والقيم.
- ٥- أن الإسلام سبق كافة الأمم، وحتى الأمم المعاصرة، في ميدان احترام الإنسان وحقوقه، في صراحة ووضوح، فلم تكن شعاعات مرفوعة، لظروف معينة، بل كانت واقعاً معاشاً وديناً عاماً.



## الشواهد

(١) ابن حنبل: أبو عبد الله محمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ)؛ السنن، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ١١٠/١٤ وقد ذكره بلفظ: صالح الأخلاق ح ٨٩٥٢، الحاكم النيسابوري: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن حنبل (ت ٤٠٥هـ)؛ المستدرک علی الصحیحین فی الحديث، دار المعرفة، بيروت، رد ط ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ٦١٣/٢ نسخة مصورة عن ط القاهرة، السهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (ت ٤٥٨هـ)؛ السنن الكبرى، دار المعرفة، بيروت، رد ط ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ١٩١/١، ١٩٢، القمي: أبو الحسن علي بن أبي بكر (ت ٨٠٧هـ)؛ كشف الأستار عن زوائد الزوار علی الكتب الستة، تحقيق: حبيب السورن الأعظمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط الأولى، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ٢٢٠/٣ ح ٢٧٤٠.

(٢) محمد عبدالواحد أحمد: القيم الإسلامية بحث منشور في مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية التوجيه الاجتماعي في الإسلام، مطابع الدجوي، القاهرة، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، ص ٣.

(٣) السلم والسلام، الصلح والأمان، والإسلام والسلام، الحلوص من الشوئب.

عقرو: التعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط ٣، ١٩٦٣، ج ١، ص ٤٦٣.

(٤) ناجي معروف: أصالة الحضارة العربية، دار الثقافة، بيروت، ط ٣، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ص ١٩٦.

(٥) سورة الأنفال: آية ٦١.

(٦) سورة البقرة: آية ٢٠٨.

(٧) سورة الأنعام: آية ٢٢٧.

(٨) سورة الحشر: آية ٢٣. <http://Archivebeta.Sakhril.com>

(٩) قال العراقي: أخرجه الخليلي في "مكارم الأئمة" بقره ضعف، وهو من حديث جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: أتت أبا الفضل عبد الرحيم بن الحسين (ت ٨٠٦هـ)؛ ألغى عن حل الأستار، تحقيق: الشرف عبد القمود، مكتبة طرية الرياض، ط الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ٢٠٠/٢.

(١٠) القمي: كشف الأستار، ٢/ ٢٢٩. ح ١٨٩٦ من حديث جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ

(١١) انظر: الغزالي: أبا حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ)؛ إحياء علوم الدين، تقديم: بلوي طائفة، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، رد ط (٢) ٢١٤/٢.

(١٢) سورة التوبة: آية ١١٩.

(١٣) سورة النساء: آية ٥٨.

(١٤) سورة لقمان: آية ٢.

(١٥) الإسلام هو الدين الوحيد الذي أنشأ لوراً من الحضارة عُرف باسمه وهو: الحضارة الإسلامية على حين أن غيره من الديانات السماوية لم يبلغ هذه الدرجة، ولا هذا المستوى من الأثر الإنساني والتاريخي، فاليهودية مثلاً لم تنشأ عنها حضارة يهودية بالمقهور الحديث للكلمة، وكذلك المسيحية لم تنشأ عنها أو مسماها



- حضارة مسيحية ذات طابع غير أو موحد، وكذلك للذاهب غير المساوية لم تقم بأي منها حضارة خاصة بكرة، وإن كان بعضها قد عثى بحضارات أقدم منه أو معاصرة له.
- انظر: سليمان حزين؛ مفهومات الحضارة الإسلامية، بحث منشور في مؤثر مجمع البحوث الإسلامية، التوجيه الإجماعي في الإسلام، مطابع الدجوي، القاهرة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٦م، ص ١٧.
- (١٦) انظر لمصوب بعض التعالقات الواردة في هذا الشأن من خلال هذا البحث ص ١٣، ١٤، ١٦.
- (١٧) جابر قبيصة: الدخول إلى القيم الإسلامية، بحث منشور في المؤثر الذي عقد في القاهرة بمناسبة حصول القرن الخامس عشر للهجرة بعنوان: دراسات في الحضارة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ٦٨.
- (١٨) سورة القصص: آية ٧٧.
- (١٩) سورة الكافرون: آية ٦.
- (٢٠) سيد قطب: السلام العالمي والإسلام، دار الشروق، القاهرة، ط ١، ١٩٥٥، ص ٢٠١٠.
- (٢١) جوستاف لوبون - حضارة العرب، ترجمة: محمد عادل (عجم)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط ١، ص ٤٣٠.
- (٢٢) المقصود بالحروب الصليبية: الحروب التي عادت ورجعت في بلاد الشرق الإسلامي، عقب صرخة البابا أوربان الثاني في مؤتمر كبير مرت سنة ١٠٩٥م، وتعد تلك الحروب من أكثر وأطول المواجهات العسكرية بين العرب الأوربي والمسلمين، فقد استمرت هذه الحروب ما يقرب من قرنين في القسرة من ٤٨٨: ١٢٩٠هـ/١٠٩٥: ١٣٩١م، ومع أن الذي أزمى شيلة الحروب غير محدد على وجه الدقة، إلا أن الفترة الزمنية المحددة، لا تعني سوى الدور الحاسم والنشط لهذه الحروب.
- انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية - صفيحة مشتركة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى، مكتبة الأناجيل المصرية، القاهرة، ط ٦، ٢٠٠٢م، ج ١، ص ٢٥، حسن حشني: الحرب الصليبية الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة، ط ١، ١٩٨٥م، ص ٥.
- (٢٣) توفيق سوادرة: حاضر العالم الإسلامي، ترجمة: عجاج تويهن، وتعليقات الأمير شكيب أرسلان، القاهرة، ط ١، ١٣٥٢هـ، ص ٣٤.
- (٢٤) انظر: سير توماس آرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: حسن إبراهيم حسن، وآخرين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ١، ١٩٠٦م، ص ٧٥-٨٢، وغيره.
- (٢٥) القذهب الكيماويلي: مذهب سياسي ظهر في أوروبا الغربية، صاحبه الإيطالي ميكافيلني ت ١٥٢٧م الذي يرى أن الحاكم لابد أن يكون طامعاً ومستبداً، ولا يمكن أن يكون غير ذلك إذا أراد أن يحقق أهدافه، فلا يتم وزناً لعهد لشعبه على نفسه، أو وعداً اليوم به، إذا كان الولاء بالعهد يُعرجه للخطر، فالناس أشترار مناكيد لا يترمون العهد، وهو سعي الحاكم - في حل من أن يتسلط بعهد أو وعد، والغاية تسور الوسيلة القدرة أو مجموعة الوسائل القدرة التي يلجأ إليها الحاكم للمحافظة على كيان الدولة، فالقوانين المختلفة وضعت لتقوم على ضوئها العلاقات بين الأفراد فحسب، أما السياسة فلا مكان فيها للأخلاق، ويجوز لمن يريد إنشاء دولة قوية وتدعيمها أن يلجأ إلى الرقيلة والحداع والسطش والفسوق، ويجمع الجرائم، ويسرى

مكيافيللي أنّ الحاكم لا حرج عليه في أن يأمّر في حق الدين والفضيلة الإنسانية، بدلاً عن ذلك استخدم عبارات تنطوي على احتقار البشر، وسوء الظن بالإنسان، يوشّح مكيافيللي هذه الآراء في كتابه "الأمير".  
 النظر: عبد العزيز محمد السندي، أورويسا في مقلّح العصور الحديثة، ١٠ آذار المعارف، القاهرة، ط الأولى، ١٣٩٣هـ/ ١٩٩٩م، ص ٥٤: ٥٨.

(٢٦) النظر: مختار القاضي: أثر المذهب الإسلامية في الحضارة العربية، المجلس الأعلى للدراسات الإسلامية، القاهرة، رد ط (رد ت) ص ٥، ٦.

(٢٧) النظر: محمد عبد الله فواز: مبادئ القانون الدولي العام في الإسلام، مطبعة الأزهر، ط (١٩٥٢م، ص ٢.

(٢٨) النظر: محمد ركعت عثمان: الحقوق والواجبات والعلاقات الدولية في الإسلام، دار السبائك، القاهرة، رد ط (رد ت) ص ٣٦، ٣٧.

(٢٩) النظر: محمد عبد الله فواز: مبادئ القانون الدولي... ص ٢.

(٣٠) محمد ركعت عثمان: الحقوق والواجبات... ص ٣٩.

(٣١) ناجي معروف، أسئلة الحضارة العربية، ص ١٩٧.

(٣٢) سورة المين: آية ٤...

(٣٣) سورة الإسراء: آية ٧٠.

(٣٤) سورة البقرة: آية ٢١.

(٣٥) سورة النساء: آية ١٧٤.

(٣٦) محمد أبو زهرة: الفروع الإسلامية، ط (١٩٧١هـ)، ط (١٩٧١م)، ص ٢٢.

(٣٧) هبلا الخليليت جسر من غبطة النبي ﷺ في حصة السواد، وأخرجه الإمام أحمد في "المسند" ج ٣٨، ص ١٢٠، ح ٢٣٤٨٩، من طريق أبي شعرة، وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، النظر: الهيثمي، أبا الحسن علي بن أبي بكر، ٨٠٧هـ: مجمع الزوائد، وضع القوائد، دار الكتب العلمية، بيروت، رد ط (رد ت) نسخة مصورة عن ط القاهرة، ج ٣، ص ٢٦٦.

(٣٨) البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل المعفي، ٢٥٦هـ: الجامع الصحيح، صحيح البخاري، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، رد ط (رد ت) \* باب الحدود، ج ٣، ص ١٢٠، ح ٣٤٧٥، ٣٠٤٠، وفيه "الكنزي في حد... ١٧٨٨م، مسلم بن الحجاج القشيري، ٢٦٦هـ: الجامع الصحيح، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ج ٣، ص ٢٠٠، ح ١٦٨٨، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣٩) أبو يوسف القاضي: يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري، ١٨٢هـ: الخراج، دار المعرفة، بيروت، رد ط (رد ت) ص ٨٢، وأخرجه البخاري في: الجامع الصحيح، ج ٣، ص ٣٠٠، ح ٣٥٩٧، ٦٩٧٩، ٧١٧٤، ٧١٩٧، ومسلم في: الجامع الصحيح، ج ٣، ص ٢٣٢، ح ١٨٣٢، من حديث أبي حنيفة الساعدي رضي الله عنه.

(٤٠) الملازي: أحمد بن يحيى بن جابر، ٢٧٩هـ: فروع البلدان، تحقيق: صلاح الدين النجد، النهضة للنشر، القاهرة، رد ط (رد ت) ج ١، ص ٢٥٧.

(٤١) ابن قتيبة الدينوري: أبو محمد عبد الله بن مسلمة (٢٧٦هـ): عون الأبحار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، رد (ط) ١٩٧٣م، ج ١/ص ٥٣. والحديث بالذكر في هذه المسألة أن الإسلام لم يبحر على تلك الكيف الفردية والخاصة، ليلي في النفس ميلها الفطري العميق إلى التملك، ولكن الإسلام وضع الحدود لشققة هذا الحق، بحيث لا يؤدي أحداً في معاش، وأن يكون سبيل ذلك طهارة العمل، وعدم إحصاء حقوق الآخرين، نظر: محمد أبو زهرة، المجمع الإسلامي في ظل الإسلام، ص ٢٩

(٤٢) سورة النساء: آية ١

(٤٣) سورة المحرمات: آية ١٣.

(٤٤) محمد أبو زهرة: المجمع الإسلامي... ص ٢٤.

(٤٥) سورة البقرة: آية ٢٥٦.

(٤٦) نظر: محمد أبو زهرة، المجمع الإسلامي... ص ٤٥.

(٤٧) أبو يوسف: الخراج، ص ١٢٥. والخلفون أخرجهم أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ): السنن، تحقيق: محمد مهدي عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، (رد ط) رد (ت) ج ٣/ص ٩٥، ج ٣٠٥٢، "والسنيقي": السنن الكبرى، ج ٩/ص ٢٠٥.

(٤٨) أبو يوسف: الخراج، ص ١٢٥.

(٤٩) وذلك من المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، الذي تجلّى في تحقيق مباحات العباد ورفع الأذى والفساد عنهم والمباح التي يترجمها الإسلام أساساً للتشريع، وتشتمل عليها الشريعة في تصويبها وكتابتها ترجع إلى المحافظة على حصة أمية هي: المحافظة على النفس والنفس، والنسب، والعقل، والمال.

نظر: أبو زهرة: المجمع الإسلامي... ص ٣٤. محمد علقه: الإسلام مقاصده وأحكامه، مكتبة الرسالة، عمان، ط الأولى، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ١٠٦، وما بعدها.

(٥٠) عن معاني الحق في معاني اللغة النظر: ابن منظور: أبا الفتح محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ): لسان العرب، إعادة حق، تحقيق: محمد الحسين الطهطاوي، القاهرة، ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م، ج ١١/ص ٣٣٢. الفيروزآبادي: محمد الدين محمد بن يعقوب الشوزلي (ت ٨١٧هـ): القاموس المحيظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، رد (ط) ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ج ٣/٢١٤ نسخة مصورة عن ط القاهرة، الزبيدي: أبا الفتح محمد بن محمد المرتضى (ت ١٢٠٥هـ): تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد العظيم الطحاوي، مصطفى حجازي، وزارة الإرشاد، الكويت، ط الأولى، ١٩٦٨م، ١٩٨٧، ج ٥/ص ١١٣، ج ٢٥/ص ١٦٦، ١٦٧.

(٥١) القرطبي: أبو العباس أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن (ت ٦٨٤هـ): المعروف، سنن، (رد ط) ١٣٠٢ هـ، ج ١/ص ١٧٩.

(٥٢) محمد وأخت عثمان: الحقوق والواجبات... ص ١٢. وقد ذكر تعليقات العلامة قاسم الأنصاري على تعريف القرطبي، لتحق، ورد عليه في ذلك.

(٥٣) الشافعي: إبراهيم بن موسى بن محمد العفرائطي (ت ٧٩٠هـ): الوصايا في أصول الأحكام، تعليق: عبد الله دراز، دارة: المكتبة الشامية الكبرى، القاهرة، رد (ط) رد (ت)، ج ٢/ص ٢٧٠، ٢٧١.

(٥٤) ذكر محمد وأخت عثمان قولاً عن عيسوي أحد في: المدخل للغة الإسلامي أنّ من يعو عن الحق بالمصلحة يريد الأعم من المصلحة للأمة، فالمصلحة عنده شاملة للمصلحة للأمة كحسب التمسك، وللمصلحة للعبوة كحق حرية الرأي، وللمصلحة الاختيارية الشرعية وهي التي ليس لها وجود إلا بتكساب الشارع الحكيم كحق الطلاق وحق الحضانة النظر: الحقوق والواجبات... ص ١٠.

(٥٥) النظر: محمد وأخت عثمان: المرجع السابق، ص ١٤.

(٥٦) النظر: محمد وأخت عثمان: المرجع السابق، ص ١٥.

(٥٧) عن معنى الواجب وما قبله في النظر: ابن منظور: لسان العرب، «سادة وجب»، ج ٢/ص ٢٩٢، الطور والبادي: القاموس المحيط، ج ١/ص ١٣٥، الزبيدي: تاج العروس، ج ٤/ص ٣٣٣.

(٥٨) النظر: محمد وأخت عثمان: الحقوق والواجبات، ص ١٦.

(٥٩) الأصل في هذه القاعدة قول النبي ﷺ «لا ضرر ولا ضرار» ومعناه: لا يجوز للمره أن يضر أخاه ابتداءً، ولا جزاءً، والضرار معناه: مقابلة الضرر بضره، النظر: محمد عقلة: الإسلام مقاصده وعصائمه، ٢٤، والحديث أخرجه «ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن عبد بن يونس ٢٧٥هـ»: السنن تحقيق محمد قزلا عبد الباقي المكتبة العلمية، بيروت، (٢٠٠٤) نسخة مطبوعة عن ط الباني الخليلي، القاهرة، ج ٣/ص ١٥٩، ج ٢٣٤٦ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما «حسن النبي ﷺ وأجرجه الحكام»: المستدرک، ج ٢/ص ٦٦، والبيهقي في السنن الكبرى، ج ٩/ص ٦٩ من حديث أبي سعد الخدری عن النبي ﷺ.

(٦٠) ورد في مصنف أبي ذر عن حمزة بن عبدية أنه كان له رجل في حائط وحل من الأضراس، وضع الرجل أهله، فكان حمزة بن عبدية يدخل إلى الحائط، فيتأذي به الرجل، ويشق عليه، فطلب إليه أن يبعها منه فأبى، فطلب أن يباذله فأبى، فأبى النبي ﷺ فذكر له ذلك، فطلب إليه النبي ﷺ أن يبعه فأبى، فطلب إليه أن يباذله فأبى، قال فبها في ذلك كذا وكذا مزوجة فأبى، فقال رسول الله ﷺ: أنت مضار. ثم قال للأصمعي: اذهب فاقنع محمد.

القرطبي: أبو عبد الله محمد بن فرج المالكي (ت ٤٩٧هـ): القضية رسول الله صلى الله عليه وسلم، دار الوحي، حلب، ط ٢٠٠٢، ٢٠١٤، ١٩٨٢م، ص ١١٥، ١١٦.

(٦١) النظر: محمد أبو زهرة: التصحح الإنساني، ص ١٢٠، ١٢١.

(٦٢) النظر: محمد وأخت عثمان: الحقوق والواجبات، ص ١٨.

(٦٣) النظر: الشاطبي: الموافقات، ج ٢/ص ٢٧٧، وما بعدها.

(٦٤) ذكرنا مبدأ العدالة على سبيل التمثيل، لا المحصر.

(٦٥) محمد أبو زهرة: التصحح الإنساني، ص ٧٦.

(٦٦) سورة النحل: آية ٩٠.

(٦٧) سورة المائدة: آية ٨.

(٦٨) الحديث أخرجه «كذلك البخاري» في صحيحه كتاب الإيمان باب السلام من الإسلام، ورواه يعقوب عن حمزة بن يسار رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، «وقيل إنّ هذا من كلام عثمان بن ياسر وأخرجه التواتر في مسنده، كما في كشف الأستار، ج ٣٠، مع اختلاف في ترتيب الأمور الثلاثة المذكورة، وقال البزار، ورواه غير

وإمام مولوداً على عماد بن ياسر رضي الله عنهما، والسيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ): الجامع الصغير في حديث الشجر المباركة، مطبعة الخليلي، القاهرة، (رد ط) ١٩٥٤م، ج ١/ص ١٣٦، المطاوي: عبد الرؤوف بن علي (ت ١٠٣١هـ): بعض التصدير شرح الجامع الصغير، دار المعرفة، بيروت، ط ٢، ١٣٩١هـ/١٩٧٢م.

- (٦٩) النظر: محمد أبو زهرة - المجمع الإنساني، ص ٧٧.
- (٧٠) النظر: محمد أبو زهرة - المجمع الإنساني، ص ٥٦.
- (٧١) محمد الهي: منج القرآن في تطوير المجمع، دار الفكر، القاهرة، ط الأولى، ١٣٩٣هـ-ص ٧٧.
- (٧٢) عن المؤلفات النظر: ابن هشام، أبا محمد عبد الملك بن هشام: السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا، وآخرين، مطبعة الخليلي، القاهرة، ط ٢، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م، ج ١/ص ٥٠٤، ٥٠٥، ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع البصري، المعروف بكاتب الواقدي، (ت ٢٣٠هـ): الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، (رد ط) ج ٢/ص ٤٥، البلازي: أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ): أنساب الأشراف، تحقيق: محمد عبد الله، دار المعارف، القاهرة، (رد ط) ١٩٥٩م، ج ١/ص ٢٧٠.
- (٧٣) إبراهيم شعوط، محمود محمد زيادة: الحلقة الثالثة في الإسلام، القاهرة، ط ٢، ١٣٨٥هـ/١٤٠٥م، ص ٥٩، صالح أحمد العلي: دولة الرسول في المدينة، دراسة في فكرها وتطبيقاتها، سلسلة تاريخ العرب والإسلام، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ط ٤، ٢٠٠٤م، ص ٩٠.
- (٧٤) الطبقات الكبرى: ج ١/ص ٢٧٠.
- (٧٥) سورة الأنازل: آية ٧٥.
- (٧٦) سورة الحجرات: آية ٢٧.
- (٧٧) إبراهيم شعوط، محمود زيادة: الحلقة الثالثة، ٥٩: صالح العلي: دولة الرسول... مرجع سابق، ص ٩٤.
- (٧٨) يتعاقبون: يتدفقون، النبوة، الملائكة، القبة، ومخالفة الرجل، محبته وهم الأقارب من جهة الأب، السليم يشركون في دفع دينه. النظر: المعجم الوسيط، مرجع سابق، ج ٢/ص ٦٣٩.
- (٧٩) عاليهم: العاقب: الأسوي أي أسوهم. النظر: المعجم الوسيط - ٦٥٧/٢.
- (٨٠) مُفَرَّجاً: مُفَرِّجٌ: من ألقنه الدين، ولا يجد قضاءه. النظر: المعجم الوسيط - ج ٢/ص ٧٠٤.
- (٨١) عقل: دبة. النظر: المعجم الوسيط، ج ٢/ص ٦٣٩.
- (٨٢) دسيسة: الدسيسة العطية الجزيلة. النظر: المعجم الوسيط، ج ١/ص ٢٩٣.
- (٨٣) النظر عن الصحيفة عند: ابن هشام - السيرة النبوية، ج ١/ص ٥٠١، ٥٠٢. أي عبدة: القاسم بن سلام الطبري (ت ٢٢٤هـ): الأموال، تحقيق: محمد حامد القاضي، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، (رد ط) ١٣٥٣هـ، ص ٢٠٢-٢٠٥، وقد جمع محمد عبد الله هذه المعاهدات في كتابه: الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، القاهرة، (رد ط) ١٩٥٦م، ص ١٥.
- (٨٤) سورة النساء: آية ٦٥.
- (٨٥) عن فتح مكة وما قام به النبي ﷺ من العفو والتسامح، النظر: ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢/ص ٤٠٩، الطبري: أبا جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ): تاريخ الرسل والملوك، تاريخ الطبري، اهتمام: أبي صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الأردن، ط الأولى، (رد ط) نسخة تامة في مجلد واحد، ص ٤٣٢، ابن عبد البر:

يوسف بن عبد الوارث القرظي (ت ٤٦٣هـ): الثبوت في اختصار المغازي والسيرة، تحقيق: شوقي حنيف، المجلس الأعلى للدراسات الإسلامية، القاهرة، (رد ط) ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ص ٢٢٤، ابن الأثير: (أبا الحسن علي بن محمد الجزري الشيباني) ت ٦٣٠هـ: الكامل في التاريخ، اعتناء: أبي صهيب الكرمي، بيت الإلكسار الدولية، الأردن، ط الأولى (١) ت) نسخة تامة في مجلد واحد، ص ٢٥٤.

(٨٦) عن عام الوفود النظر: ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢/ص ٥٦٠، العقري: أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وريح (ت ٢٨٤هـ): تاريخ العقري، دار صادر، بيروت، (رد ط) ت) ج ٢/ص ٧٩.

(٨٧) انظر نص الوثيقة عند: أبي يوسف: الخراج، ص ٧٢، ٧٣، ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢/ص ٥٩٦.

(٨٨) انظر: أبا يوسف: الخراج، ص ٧٣.

(٨٩) راجع وصايا أبي بكر الصديق في هذا الشأن عند: الطبري: تاريخ، ٤٩٤.

(٩٠) وما جاء فيها: «هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل يثرب من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكتائبهم وصلاتهم، وسقيها وربتها وسائر مملكتها، أنه لا تسكن كتائبهم ولا تسبهم، ولا يتفص منها ولا من خيرها، ولا من صليهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون عيسى بنهم، ولا يضار أحد منهم...» والدلالة واضحة من خلال النص الذي آتت الأمان والحريية والحماية على التصاريح وأموالهم وكتائبهم، وأولادهم. انظر نص عهد الأمان عند: الطبري: تاريخ، ٦٢٩.

(٩١) سورة البقرة: آية ٢٠٨.

(٩٢) سورة الأفعال: آية ٩١.

(٩٣) سورة النساء: آية ٩٠.

(٩٤) محمد أبو زهرة: الفتح الإسلامي، ص ٩١، ١١٤.

(٩٥) عن آداب الحرب عند المسلمين راجع وصايا الخلفاء للقادة عند: الطبري: تاريخ، ص ٤٩٤، ٦٢٩، محمد وأخت عثمان: الخلق والواجبات... ص ١٩٠ وما بعدها.

(٩٦) عن معاهدات قادة الفتح الإسلامي مع أهالي البلاد المنسوخة انظر: الطبري، ج ٤/ص ١٠٩، ١٥٢، ١٥٥، ١٦٢-١٦٣.

(٩٧) فتح البلدان، ج ١/ص ١٦٢.

(٩٨) أبو يوسف: الخراج، ص ١٣٨، ١٣٩، البلاذري: فوج البلدان، ج ١/ص ١٦٣.

(٩٩) الحديث أخرجه «الطبراني» سليمان بن أحمد بن أيوب النخعي، ت ٣٦٠هـ: المعجم الكبير، تحقيق: حادي عبد المجيد، وزارة الأوقاف، بغداد، ط ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ج ١٨/ص ٢٨٠، والمعجم

الأريب، تحقيق: محمود الطحان، مكتبة المصنف، الرياض، ط الأولى، ١٤٠٧هـ/

١٩٨٧م، ج ١٣/ص ١٠٤، من حديث الفضل بن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ والعقبلي أبي

جعفر محمد بن عمرو (ت ٣٢٢هـ): الشفاء الكبير، تحقيق: عبد المعطي قلعبي، دار الكتب

العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ج ٣/ص ٤٨٢، وقال القاضي في مجموع الروايات، ج ٩/

ص ٢٦: رواه الطبراني، وأبو يعلى بن حمزة في إسناده أبي يعلى، عطاء بن مسلم، وقد وثقه ابن حبان، ووضعه

خوذة يمانية رجال أبي يعلى ثلاث، وفي إسناده الطبراني من لا أعرفهم.

سليمان حزين: معلومات الحضارة الإسلامية، ص ٢٤، ٢٥.

## مصادر البحث ومراجعته

## أولاً المصادر

- ابن الأثير: أبو الحسن علي بن محمد أبي الكرم الخوري الشيباني (ت ٦٣٠هـ).
- ١- الكامل في التاريخ ، ابي حنيفة ، ابي حنيفة الكرمي ، بيت الأفكار الدولية ، الأردن ، ط الأولى ، (د.ت) نسخة تامة في مجلد واحد.
- البخاري: الإمام أبو عبدالله محمد بن إسماعيل الخفيف (ت ٢٥٦هـ).
- ٢- الجامع الصحيح ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة (د.ت).
- البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ).
- ٣- أسباب الأشراف ، ج ١ ، تحقيق: محمد حميد الله ، دار المعارف ، القاهرة (د.ط) ، ١٩٥٩م.
- ٤- فتح البلدان ، تحقيق: صلاح الدين السعد ، النهضة المصرية ، القاهرة (د.ت).
- البهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (ت ٤٥٨هـ).
- ٥- السنن الكبرى ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.
- الحاكم النيسابوري: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن حنبل (ت ٤٥٥هـ).
- ٦- المستدرک علی الصحیحین فی الحديث ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م مصورة عن طبعة الحد.
- ابن حنبل: الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ).
- ٧- "السنن" تحقيق: محمد الأثرع ، دار إحياء التراث العربی ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط الأولى ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م.
- أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ).
- ٨- "السنن" تحقيق: محمد يحيى الشبراخيت ، دار الكتب العلمية ، بيروت (د.ت).
- الزيدي: أبو القيس محمد بن محمد الرضائي (ت ١٢٠٥هـ).
- ٩- تاج العروس من جواهر القاموس - ج ٤ تحقيق: عبدالعليم الطحاوي ، ج ٢٥ تحقيق: مصطفى حجازي ، مطبعة حكومة الكويت ، وزارة الإرشاد والأبناء ، الكويت ، ط ١٩٦٨م ، ١٩٨٧م.
- ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع المصري "المعروف بكتابه الوائدي" (ت ٢٣٠هـ).
- ١٠- الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت ، (د.ت).
- السويطي: جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ).
- ١١- الجامع الصغير في حديث المشو النادر ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٥٤م.
- الشاطبي: إبراهيم بن موسى بن محمد الشاطبي القرطبي (ت ٧٩٠هـ).
- ١٢- اللواتق في أصول الأحكام ، تحقيق: عبدالله دراز ، وابنه محمد عبدالله دراز ، مكتبة التجارسة الكسوي ، القاهرة (د.ت).
- الطبراني: سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي (ت ٣٦٠هـ).
- ١٣- المعجم الأوسط ، تحقيق: محمود الطحان ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ط الأولى ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- ١٤- المعجم الكبير - تحقيق: حمدي عبد الحميد السليبي ، وزارة الأوقاف ، بغداد ، ط ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.
- الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣٢٠هـ).

- ١٥- تاريخ الرسل والملوك ، اعتصام: أبي صهيب الكرمي ، بيت الأفكار الدولية ، الأردن، الطبعة الأولى، (د.ت) نسخة ٥٨٤ في مجلد واحد.
- ابن عدنان: يوسف بن عدنان النبري (ت ٤٦٣هـ).
- ١٦- النور في احصاء الغازي والسوا، تحقيق: شوقي ضيف، المجلس الأعلى للشتون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٣هـ.
- أبو عبيد: القاسم بن سلام الهروي (ت ٢٢٤هـ).
- ١٧- الأموال ، تحقيق: محمد حامد القلي ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٣٥٣هـ.
- العراقي: الخلف أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين (ت ٨٠٦هـ).
- ١٨- تلخيص عن حبل الأسفلت ، تحقيق: أشرف عبد القصود، مكتبة طويبة، الرياض، ط الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- العقيلي: أبو جعفر محمد بن عمرو (ت ٣٢٢هـ).
- ١٩- الضعفاء الكبير، تحقيق: عبد العطي قلعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- العزالي: أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ).
- ٢٠- إحياء علوم الدين، تقديم: بدوي طه، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة (د.ت) الفيروزآبادي: محمد الدين محمد بن بطرب الشوزاي (ت ٨١٧هـ).
- ٢١- القاموس المحيط، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م نسخة مصورة عن ط بولاق، القاهرة ١٣٠١هـ.
- ابن قية الدينوري: أبو محمد عبدالله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ).
- ٢٢- عيون الأخبار ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣م.
- العراقي: أبو العباس أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن (ت ٦٨٤هـ).
- ٢٣- الفروق، تونس، ١٣٠٢هـ.
- القرطبي: أبو عبدالله محمد بن فرح المالكي (ت ٤٩٧هـ).
- ٢٤- أفضية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دار الوحي ، حلب ، ط ٢ ، ١٤٠٢هـ.
- ابن ماجه: أبو عبد الله محمد بن يزيد (ت ٢٧٥هـ).
- ٢٥- السنن، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة العلمية، بيروت، (د.ت) نسخة مصورة عن ط السبي الحلبي - القاهرة.
- مسلم: الإمام مسلم بن الحجاج القشيري (ت ٢٦١هـ).
- ٢٦- الجامع الصحيح، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ط ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- الشاربي: عبد الرؤوف بن علي (ت ١٠٣١هـ).
- ٢٧- إنبه القدير شرح الجامع الصغير ، دار المعرفة، بيروت، ط ١٣٩١هـ/ ١٩٧٢م نسخة مصورة عن ط المكتبة التجارية، القاهرة، ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٦م.
- ابن منظور: أبو الفضل محمد بن الكرم (ت ٧١١هـ).
- ٢٨- لسان العرب، تحقيق: محمد الحسيني، الطبعة الأمنية، القاهرة، ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م.



- ابن هشام: أبو محمد عبدالله بن هشام (ت ٢١٨هـ).
- ٢٩- السيرة النبوية، لمحقق: مصطفى السقا، وإبراهيم الإبراهيم، وعبدالحق شلبي - مطبعة الحلبي، القاهرة ط٢، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م.
- المجلسي: أبو الحسن علي بن أبي بكر (ت ٨٠٧هـ).
- ٣٠- كشف الأستار عن زوائد السوار على الكتب الستة لمحقق: حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط الأولى، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- ٣١- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الكتب العلمية، بيروت (ط ٢) (ت) نسخة مصورة عن ط مكتبة القدس، القاهرة.
- اليعقوبي: أحمد بن إسحاق بن جعفر (ابن واضح) (ت ٢٨٤هـ).
- ٣٢- تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م.
- أبو يوسف القاضي: يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأصبهاني (ت ١٨٢هـ).
- ٣٣- الحراج، دار المعرفة، بيروت (ط ٢) (ت).

### ثانياً: المراجع العربية والمحربية

- إبراهيم شعوط، محمود محمد زباد.
- ١- أسئلة ثلاثية في الإسلام، القاهرة، ط٢، ١٣٨٥هـ.
- سير توماس آرنولد.
- ٢- الدعوة إلى الإسلام.
- ترجمة حسن إبراهيم حسن، وعبدالمجيد قباين، وعبدالحق الشراوي، النهضة المصرية، القاهرة ط٤، ١٩٤٦م.
- جابر قمحة
- ٣- المدخل إلى القيم الإسلامية.
- بحث منشور في المؤتمر الذي عقد بالقاهرة بمناسبة القرن الخامس الهجري، بعنوان: دراسات في الحضارة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- جورجفاب لويون.
- ٤- حضارة العرب.
- ترجمة: محمد عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (د.ت).
- حسن حسني.
- ٥- الحرب الصليبية الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٨م.
- سعيد عبدالفتاح عاشور.
- ٦- معركة الصليبية «صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى»، مكتبة الأجللو المصرية، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٢م.
- سليمان حزين.

- ٧- محرمات الحضارة الإسلامية، بحث منشور في مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية «التوجه الاجتماعي في الإسلام»، مطابع الدجوي، القاهرة، ١٣٩١هـ.
- سيد قطب.
- ٨- السلام العالمي والإسلام، دار الشروق، القاهرة، ط١٥، ٢٠١٠م.
- صالح أحمد العلي.
- ٩- دولة الرسول في المدينة «دراسة في تكوينها وتنظيمها».
- سلسلة تاريخ العرب والإسلام، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ط٢، ٢٠٠٤م.
- عبد العزيز محمد الشماوي.
- ١٠- أوروبا في مطلع العصور الحديثة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م.
- لوتروب ستروارد.
- ١١- حاضر العالم الإسلامي، ترجمة: عجاج نويهض، وتعليقات الأسو: شبكي أرسلان، القاهرة، ١٣٥٢هـ.
- محمد البهي.
- ١٢- منهج القرآن في تطوير المجتمع، دار الفكر، القاهرة، ط١، ١٣٩٣هـ.
- محمد حيد الله.
- ١٣- الوثائق السياسية لجمعية التوعية والحلقة الزائفة، القاهرة، ١٩٥٦م.
- محمد رأفت عصاف.
- ١٤- الحقوق والواجبات والعلاقات الدولية في الإسلام، دار القضاء، القاهرة (د.ت).
- محمد أبو زهرة.
- ١٥- المجتمع الإسلامي في ظل الإسلام.
- بحث منشور في مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية «التوجه الاجتماعي في الإسلام» - مطابع الدجوي، القاهرة، ج٢، ١٣٩١هـ.
- محمد عبد الله دوز.
- ١٦- مبادئ القانون الدولي العام في الإسلام، مطبعة الأزهر، القاهرة، ١٩٥٢م.
- محمد عبدالواحد أحمد.
- ١٧- القيم الإسلامية.
- بحث منشور في المؤتمر الذي عقد بالقاهرة، بمناسبة القرن الخامس عشر الهجري، القرية المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- محمد عقله.
- ١٨- الإسلام مقاصده وخصائصه، مكتبة الرسالة، عمان، ط الأولى، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- عبد القاضى.
- ١٩- أثر المدينة الإسلامية في الحضارة العربية، مجلس الأعلى للثقافة الإسلامية، القاهرة (د.ت).
- ٢٠- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط٣، (د.ت).

---

لأبي معروف،  
٢١- أمثلة الخطابة العربية ، دار الطائفة، بيروت ، ط ٣ ، ١٣٩٥هـ.



**ملك حفنى ناصف "باهثة البادية"  
ودورها في الحياة الاجتماعية المصرية (١٨٨٦-١٩١٨)**

د. محمد عزيز محمد (\*)

إن تاريخ الشخصيات المهمة قديما وحديثا ليس من حق البشرية تجاهله ؛ لأنه جزء من تاريخ البشرية في المجتمع والعصر الذى عاشت فيه لأن تلك العبقريات السياسية والاقتصادية والاجتماعية هي ثمرة من ثمار هذا المجتمع إذ ذلك، فلا يجب أن نغفل الظروف المحيطة بالشخصية ؛ إذ أنها تؤثر في تحديد الشخصية وتشكيلها. ولعل أحد أسباب دراسة شخصية ملك حفنى ناصف ' باحثة البادية ' هو محاولة توضيح الفكرة التي انطبعت في أذهان الناس عن ضوضاء موقفاها تجاه قضية المرأة وحريتها إلى درجة اتهام البعض بأنها كانت ضد تحرير المرأة وأنها كان لها مواقف متشددة تجاه المدينة الغربية وبمهاجمة كل ما هو غربي.

والواقع أنه كلما نجد إنسانا ضاعت حسناته مع سيئاته ولم تأخذ أعماله حقيها في الكتابات متلما حدث لملك حفنى ناصف، وبالرغم مما أحيى بها فإننا لا ننكر أنها كانت إحدى رائدات الحركة النسائية في مصر والعالم العربي. لقد أهتمت ملك بقضية المرأة اهتماما كبيرا وبذلت كل الجهود للدفاع عن حقوقها على عكس اتهامات البعض لها في هذا الشأن. فبعد دراسة واعية واستقراء مستفيض لتاريخ المرأة الطويل، ولمكانة المرأة في الكتاب والسنة، ونقد وتحليل لكل الآراء التي تناوشت هذه القضية، وولفت ملك تدافع عن بنات جنسها واضعة نصب عينها القرآن والسنة. ولم تكن ملك امرأة عادية تطلب بحقها في المجتمع بل أنها رائدة وصاحبة فكر متميز، حيث كان لها القدرة على النقد وقوة الحجة ورؤية سديدة لكل ما تصدت له من قضايا فكرية واجتماعية.

لقد كانت ملك حفنى ناصف مسلمة مؤمنة شديدة التعاطف بدينها ومن خلال الدين تكتب وتبحث وهي تستوحى في أدبها السياسي والاجتماعي والخلفي وأنها إذ تدعو المرأة إلى التهوض وفق القيود فهي تريدنا أن نفعل ذلك من خلال فهمها لجوهر الدين. وقد دخلت ملك في تفاصيل أدق إذ بحثت في مجال الزينة والأزياء فحددت مايجوز وما لايجوز ارتداؤه كذلك لتبهد الدين عن السلوك اليومي وعلاقة المرأة بزوجها، لذلك اختلطت لديها العاطفة الدينية بالمعاني القومية والاجتماعية.

(\*) مدرس التاريخ الحديث والمعاصر كلية الآداب - جامعة سوهاج.

لقد كانت ملك حفنى ناصف نافذة، فكانت تنتقد كل ماتجده مناقياً لمفهومها وذوقها وأن احتكاكها بجميع شرائح المجتمع وخصوصاً النسائية منها، جعلها تتحسس فى الصق المشاكل التى تبقى فى الظل وكما تطرح للبحث أو تتناولها أقلام الرجال، وهى لا تكفى بدور النافذة الوالفة بعيداً عن موضوع نقدها بل تتابع الرسالة وتقرح مآثره مناسباً للإصلاح وتبديل الأوضاع من خلال قلمها. لقد تركز النقد الاجتماعى لملك على أحوال المرأة فتراها تضع قواعد لسلوك الزوجين كما أنها تعدد أسباب التسلسة الزوجية ومسائل علاجها.

إن ملك حفنى ناصف لم تكن نافذة فحسب بل إنها كانت مصلحة فهى لم توجه النقد فى سبيل ذاته بل إنها تتوخى من ورائه تغيير الأحوال وإصلاح الأمور. إذا فغابتها صريحة وتحاول أن تكون عادلة فهى لا تتحيز للمرأة ضد الرجل أو العكس بل إنها تقف مع الحقيقة ومع الحالة الفضلى التى تسوق إليها من يخاطبهم وقد وجدت فى الخطابة والكتابة الوسيلة الفضلى لشرح غايتها ورسم الطريق الجديد. فى الواقع أن ملك حاولت أن ترسم معالم الطريق بل أنها سنت شرائع تتألف من عشرة بنود تضم فى مجملها إصلاحات تربوية إذ أنها كانت مؤمنة بأن الأساس الصحيح يكمن فى نواة التربية الصحيحة وتتطلب منه القاعدة التربوية فيما بعد لتتحدد ألتراحتها للإصلاح .

لا عجب بالتالى عندما اتجهت ملك حفنى ناصف بأفكارها هذه، داهية إلى الإصلاح وتحسين أوضاع المرأة والعائلة. وعلى الرغم مما قيل عنها فى هذا الشأن فقد كانت الأجواء مدهة بفضل مصلح رقاد سيد للنهضة بقنايه الجريئ " تحرير المرأة " ثم أممك بيدها ووقف فى صفها فينصرها وهو يتطلع إلى نقد ويتأمل صورة المجتمع الجديد الذى يدين له بالكثير إنه " قاسم أمين " ذلك الرجل الذى كان سابقاً فى كل مقال وكل ماكتب. وتتلقى معه باحثة البداية فى الكثير من أفكارها وأرائها خصوصاً بوجوب إصلاح المرأة وفتح أبواب التعليم أمامها وجعل التربية متوفرة لها كما يتفق المصلحان الرائدان فى أرائهما حول تحسين شئون العائلة والأحوال الزوجية.

فى هذا الجو وتلك الظروف نشأت ملك حفنى ناصف متأثرة بظروف العصر الذى عاشت فيه وأحواله لتؤثر فى ذلك المجتمع بأفكارها ومبادئها التى اتسمت بالعقل والرزاق بما يتفق مع ظروف ذلك المجتمع وطبيعته.

#### المولد والنشأة :

ولدت ملك حفنى ناصف<sup>(١)</sup> بحى الجمالية بالقاهرة فى ٢٥ ديسمبر عام ١٨٨٦م. <sup>(٢)</sup> وملك هى ابنة الأديب والعالم اللغوى حفنى بك ناصف، يقال إن ولادة ملك صادقت يوم زواج الأمير حسين كامل <sup>(٣)</sup>. وكانت عروسه تدعى الأميرة ملك، لذلك سميت ملك بهذا الأسم الذى شاع فى ذلك الحين <sup>(٤)</sup>.

كان حفنى ناصف ( ١٨٥٥ - ١٩١٩م ) أديباً وشاعراً تتلمذ على يد جمال الدين الأفغانى وصاحب الشيوخ محمد عبده <sup>(٥)</sup> وقاسم أمين. وكان حفنى ناصف من محررى صحيفة الوقائع المصرية، كما كان يكتب فى الأهرام والطنطايف والجوائب

المصرية وغيرها من صحف هذا الزمان. وقد اشغل حفتى ناصف بالقضايا الوطنية والاجتماعية، بجانب تخصصه الأساسى فى علوم اللغة وكان حفتى ناصف أستاذاً لجبل من المفكرين البارزين. وقد تخرج من مدرسة الأزهر، وعمل مدرساً فى مدرسة الصبيان والفرس، ثم اتدب للتدريس فى مدرسة الحقوق، ثم عين قاضياً، ثم مفتشاً للتعليم، وشارك فى تأسيس الكثير من الهيئات العمية، وكان حفتى ناصف من مؤسسى الجامعة المصرية. وهو جزء من النخبة الفكرية التى حركت الحياة الاجتماعية فى أواخر القرن التاسع عشر، ودعت إلى الإصلاح، كان حفتى ناصف من المهتمين البارزين بقضايا المرأة كمنخّل رئيسى للإصلاح، الأمر الذى تلمسه فى حياته الشخصية وعلاقاته بأبنائه وبناته، كما تلمسه فى حياته العلمية. ففى خطبة له فى مدرسة للبنات قال "إن الله تعالى لما أوجد العالم جعل من كل شيء زوجين اثنين، وأوجد من كل نوع شكين ليستم بذلك كمال الإبداع، ويحصل ما أرواه الله سبحانه وتعالى من بقاء تلك الأوسوع. والشريعة المقدسة إذ جئت على الاعتناء بشأن النساء، إلا أننا نرى أكثر الشرقيين متساهلين فى أمرهن صفحاً عن تربيتهن وتهذيبهن ويقول "الإنسان يتربى فى ثلاث من المدارس متتاليات مدرسة الأمهات، مدارس الفنون والمهن ثم مدرسة الزمان، وأسس هذه المدارس مدرسة الأمهات،، فينبغى تهذيبهن ليقترنح الأبناء إلى إصلاح المعاش والمعاد وينهجوا من أول أمرهم مناهج الرشاد، وهذا هو سبب تأخر أبنائنا الشرقيين وتقدم أمثالهم من الغربيين". أما أم ملك فهى سنية عبد الكريم جلال (١٨٦٩-١٩٤٢م) وكانت حسب رواية أبنائها كوكب منعومة، تيس تعليمها رسمياً لكنها تلقى فى بيتها ككثير من فتيات هذا العهد اللاتى كان يتعلمن القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم على أبوى معلمات فى المنازل. وكانت ملك هى الأخت الكبرى لسبع من البنات والبنين، البنات هن - بعد ملك - حنيفة (١٨٩٨-١٩٧٣م) وكوكب (١٩٠٥-١٩٦٥) والأولاد هم جلال الدين (١٨٨٩-١٩٦٠م) ومجد الدين (١٨٩١-١٩٧٨م) وعصام الدين (١٩٠٠-١٩٧٠م) وصلاح الدين (١٩٠٢-١٩٧٧م). وقد عمل جلال الدين محامياً ثم قاضياً، وكان مجد الدين أستاذاً بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول، وعمل فى المجلس الأعلى للآداب والفنون، وعملت حنيفة بالتدريس وتدرجت فى الوظائف إلى أن أصبحت مفتشة فى وزارة التعليم، ودرس عصام الدين الزراعة فى ألمانيا وعمل مدرساً وله مؤلفات عن تاريخ الأنيان، وعمل صلاح الدين وكيلاً لوزارة الصحة، وسافرت كوكب عام ١٩٢٢م فى أول بعثة للبنات لدراسة الطب فى إنجلترا وعادت بعد عشر سنوات وأصبحت مديرة لإحدى المستشفيات (١).

وهكذا نجد أن ملك حفتى ناصف قد نشأت فى منزل لها فيه - غير أبيها وأنها - ستة من الإخوة بينهم أختان كلهم يصغرونها، وكانت أمهم مريضة معزلة، أغلب الوقت وأبوهم دائب العمل، فأحصت ملك نحوهم جميعاً بمسئولية كبيرة ومبكرة. فلم تكن ملك فحسب أختاً كبرى لأبنائها الستة، بل كانت واقعياً وفى ظل مرض الأم واعترافها

والتشغال الأب الدائم كما يقول شقيقها مجد الدين تمارس دور الأم لأشقائها الذين كانت ملك تكبرهم بما يتراوح بين ثلاث سنوات لأكبرهم وتسعة عشر عاماً لأصغرهم (١).

من ناحية أخرى فقد أثر وجود ملك في هذا المنزل المؤمن بقضية العلم بشكل أصيل على طبيعة فكرها وعلى مواقفها من الحياة، حيث كانت الفتيات في بيت حفنى ناصف على قدم المساواة مع أشقائهم من الذكور في ملوك شتى مسالك المعرفة، وهو موقف لم يتخذه الأب نتيجة للتأثر بالفكر مستوردة، بقدر ما اتخذته لكونه في ذاته رجل علم، مؤمناً بالإصلاح القائم على احترام الذات والأصول. من هنا سنلمس فيما بعد، كيف كان المولف الفكري لملك حفنى ناصف في التعامل مع الغرب موقف يتميز بقدر كبير من الثقة بالذات والانفتاح والحوار البعيد عن الذوبان في الآخر. ومن هنا أثر ذلك على تعليمها. فبدأت ملك تعليمها في المرحلة الابتدائية في المدرسة السنوية (٢). وكان التعليم فيها في كل المواد باللغة الفرنسية. وكانت ملك حفنى ناصف من خريجات الدفعة الأولى، وحصلت على الشهادة الابتدائية من تلك المدرسة عام ١٩٠٠ م (٣). ثم التحقت ملك بعد ذلك بضم المعلمات السنوية، التي تحول التعليم فيه جسيماً إلى اللغة الإنجليزية. وتوقفت ملك في هذه المرحلة الدراسية لتحصل في نهايتها على شهادة الدبلوم من المعلمات السنوية عام ١٩٠٢ م (٤). وقد تسلمت ملك هذه الشهادة عام ١٩٠٥، حيث إن نظام وزارة المعارف العمومية آنذاك "التربية والتعليم حالياً" كان ينص على أن لا تسلم شهادة الدبلوم هذه إلا من أمضى في التمرين على القريش سنتين كاملتين، لتصل ملك في ذات المدرسة في نفس العام، وهي لم تتعد الخامسة عشر من عمرها. (٥)

كان من المدرسين الذين تلقت ملك تعليمها على أيديهم، وذاع صيتهم بعد ذلك، "حسن صبرى" الذي أصبح رئيساً للوزراء أما بعد، والشيخ "أحمد إبراهيم" الذي أصبح فيما بعد أستاذاً للشرعية بكلية الحقوق، ومن الأجناب كانت من كسارتر، صيد مفتشات اللغة الإنجليزية فيما بعد. ولقد درست ملك وتعلمت اللغات الثلاث (العربية - الإنجليزية - الفرنسية). وكانت تستعين في دراستها العربية بوالدها حفنى ناصف، وفي دراستها الإنجليزية بأبوية إنجليزية من سيدات التربية تدعى من جونسون، أما دراستها الفرنسية فقد استعانت ملك بسيدة فرنسية تزوجت بمحام إنجليزي في المحاكم المختلطة بالقاهرة، عرفت بسمر ديفونشير. وكانت ملك في مراحل تعليمها لكل تلك اللغات الثلاث تفتت أمهات الكتب وأكثرها ثراء لتقوم بقرائنها وتفحصها حتى تتكلم تلك اللغات. (٦)

بدأت ملك جهادها المبكر في بيت أبيها الصغير، وكانت تكرس أجازتها الصيفية لإعادة تنظيم البيت والقيام بكل ما يلزمه من حياكة وترتيب حتى تسافر على أيديها، وكذلك إكمال ما ينقص من أدوات وإعداد ملابس العام لوالديها وإخوانها ومن يعملون بالمنزل. كانت ملك تعلم إخوانها دون أن تشعرهم فتلقى عليهم في شكل حكايات ما كان يدور حولها في المدرسة وما تصيبه من ألوان المعرفة، وتناولهم الكتب ليراجعوا عليها

ما حفلته منها، ثم تحاول أن تثير بينهم المناقشة فيمن يحفظ الشعر منهم أو تنظيماً فوسعت مداركهم. وكانت إذا غابت دائماً الاتصال بهم عن طريق المراسلة والتليفون فيما بعد، فكانت ملك لبيت أبيها وأخواتها خير صديق وخير معين، وكاتوا بحبوتها كصديقة، فكان أصحابهم يرونهم بكون طويلاً، عقب فراقها ويتهللون لحضورها. وكان من أحسن صفات ملك الحنان، فإتها كانت تحب والدها لدرجة التضحية، فكان إذا مرضت له وبداً سافر قامت مقامه. (١٠) هذا الدور الرعوي، كانت ملك تمارسه في دوائر أوسع من أسرتها ومن أجل إصرار ملك في القضاء على العادات والتقاليد الجامدة التي حرمت أبداً من التعليم، كانت ملك تزور بيوت أصحابها ومعارفها، وما تزال بهن حتى ترسلن بناتهن إلى المدرسة السنية، على أن ترعى ملك أولئك الصغيرات رعاية خاصة. وبذلك دخل هذه المدرسة في عهد ملك كثيرات ممن كانوا أهلن ببقية في البيت، أو يؤذن إرسالهن إلى المدارس الأجنبية، التي كانت إذ ذاك لا تلقن التلميذات شيئاً من لغة البلاد أو تاريخها أو قوميتها أو دينها فينشأن نشأة أجنبية بحتة.

كان تعليم البنات في عهدنا موضع التعبير الجازم من السواد الأعظم من الناس، إلا أن ملك كانت تقرأ عن مشاهير النساء في الإسلام، وكذلك في المراجع التي كانت تطلبها من أبيها، ثلاثاً من دروس هذه البطولات مع البطولات النسائية المعاملة في الأدب الغربي، فشرعت ملك أن تعد نفسها لرسالة جسيمة، وهي محاربة العادات والتقاليد الظالمة التي تحظ من شأن المرأة، وأن تلمم بالعلم والإصلاح منارة للمرأة المصرية والعربية المسلمة لتفض عنها غير الجهل والتخلف (١١).

وعندما نجحت ملك في الشهادات الدراسية، ضلّت في القسم العالي الذي تخرجت فيه، ونظمت في صغرها شعراً نشرته الجرائد، لتشجع الآباء. فلقد كان لشخصيتها العظيمة التي ميزتها كأم ومعلمة بين أخواتها وبين تلميذاتها، أثره في أن تكسب ملك يوماً بعد يوم مزيداً من الحب والثقة، حتى أن ارتباط بعض التلميذات بالمدرسة كان كأنه ارتباط بها نفسها للدرجة التي دفعت بعضاً من الطالبات بلغ عددهن نحو ٧٥ خمس وسبعين طالبة، إلى ترك المدرسة عندما تركتها ملك عقب زواجها عام ١٩٠٧م من عبدالستار الجاسل الذي رفض استمرارها في العمل وأن ترحل معه إلى الفيوم (١٢).

وعندما تزوجت ملك حفنى ناصف (١٣)، وانتقلت إلى قصر الجاسل بالفيوم، تجولت بين الأعراب وجدتهم في حالة بدائية لا يعرفون العظم ولا النظافة ولا الصحة، ولا الإنسانية، إلا بالسماح، ولمست فيهم البؤس والفساد والرجعية، كما لمست عظم تأخر المرأة وظلم الرجل وأتاليته، ولم يكن أمامها إلا أن تختار أحد أمرين إما اليأس والقعود والاستسلام، وإما الأمل والنهوض والكفاح، فأختارت الأمر الثاني، وارتضت التضحية الكاملة كشأن الأحرار من أصحاب المبادئ والأفكار. وأضطرت ملك بعد ذلك إلى إرسال بنوهم وبناتهم إلى بعض مدارس الفيوم والقاهرة وإلى إعطاء المتخلفين منهم الفرصة



في مكتب بالقرية وفي عشايتها بصحبتهن وملبسهن وتغذيتهن، ورفع مستواهن بما كانت تقوم به شخصياً دون عون<sup>(١)</sup>.

وقد أسست ملك حفني ناصف، اتحاد النساء التنهذيي، وكان يضم كثيراً من السيدات من مصر والبلاد العربية الأخرى، وكذلك بعض الأجنبيات، وكان هذا الاتحاد مصدر توجيه للسيدات والفتيات ومركز إشعاع لهن. كما أسست ملك حفني ناصف جمعية للتعمير على غرار الصليب الأحمر (تأسس الهلال الأحمر بعد ذلك بقليل) لإرسال الأدوية والأطعمة والملابس والأغذية إلى الجهات المنكوبة بمصر، وإلى البلاد العربية كلما دعت الحاجة إلى ذلك. وعلى أثر الاحتلال الإيطالي لليبيا عام ١٩١١م، زاد نشاط هذه الجمعية، نتيجة للمجازر التي ارتكبتها الاحتلال الإيطالي، ضد أهالي طرابلس الغرب، واشتد بهؤلاء الأهالي الحاجة إلى المأوى والذاد، حيث جمعت ملك حفني كثيراً من التبرعات لمنكوبي طرابلس<sup>(٢)</sup>. ويذكر في هذا الصدد أن ملك حفني ناصف قد خاضت بيديها مائة بدلة للجرحى هناك في ليبيا، فلما سئلت عن ذلك، ولماذا لا توجر من يخيط تلك الملابس، أجابت "يُحسن أن نخص ببعض التعب ليزداد شعورنا بالواجب تجاه أهاليها في طرابلس الغرب"<sup>(٣)</sup>. أيضاً أسست ملك حفني ناصف، مدرسة حديثة للتعليم السيدات مهنة التمريض، ولقد أنشأت ملك هذه المدرسة في منزلها، الكائن حينئذ في شارع أفراس الأجيال بالمنيرة، وعلى حسابها الخاص، بما في ذلك الأدوات الضرورية، ومكافآت المدرسات والعاملات. وكانت ملك في هذه الجمعيات تسند رئاستها إلى غيرها كحرم علي باشا شعراوي لكيلا تُفسد عن المقامات وتقرح للعمل التطوعي في المجالات الأخرى<sup>(٤)</sup>. كما وضعت ملك حفني ناصف برنامجاً لمشغل للفتيات، وملجأ للمعوزات بالفقير، وكانت ملك حفني ناصف تملك خمسة وثلاثين فدانا بالفقير، اشترتها بحرمانها الذي أضرته، مما أخذته من والدها، ومن بيع الجواهر التي أهدتها إليها بعض الأميرات والمصريات الكبيرات. وقررت ملك أن تهب هذه المساحة من الأرض للمشغل والملجأ معاً. وقد آل نصف هذه الأرض مع كل ما تبقى لديها من مصوغات إلى زوجها عبد الستار الباسل الذي كان يملك وحده ألفين من الأقدنة. وإذا كانت ملك حفني ناصف قد حققت كثيراً من أهدافها وطموحاتها فإنها لم تستكمل تطبيق هدفها وطموحها في استكمال إنشاء ذلك المشغل والملجأ، لأن الموت دهمها وهي في ربيع شبها في الثانية والثلاثين من عمرها<sup>(٥)</sup>.

تعد ملك حفني ناصف، بحق واضعة الحجر الأساسي للنهضة النسائية في مصر، وقد استفادت من الجهود التي بذلتها رواد تحرير المرأة من الرجال المدافعين عن المرأة وفي مقدمتهم قاسم أمين، كما كانت ملك حفني ناصف من أشهر خطيبات ذلك الزمن، حيث نجحت ملك في تجميع النساء حولها، وخطبت فسيون لتسوعيتهن، وحشدن على المطالبة بحقوقهن، وكانت ملك تنادي بالتعليم الإلزامي في المرحلة الأولى، وفتح آفاق العلم أمام الفئات ومساولتها بالفتن، كما كانت ملك تتشدد الرجال أن يعرفوا عن الأساليب

الرجعية والتزمت في معاملة نساءهم، حتى يستطعن تنشئة الأجيال الجديدة على الحرية والمساواة فيما بينهم<sup>(٢٢)</sup>.

ولقد كان ارتباط زوجها بحزب الأمة - حيث كان أحد مؤسسيه - قد أتاح لها ذلك فرصة استخدام نادى الحزب، حيث بدأت أولى محاضراتها عام ١٩٠٩م فيما يعتبر أحد أكبر التجمعات الجماهيرية للنساء في ذلك الوقت، إذ كانت مئات السيدات يتواجدن فى النادى لسماع خطبتها<sup>(٢٣)</sup>. وفى عام ١٩١١م، عندما دعى محمد سعيد باشا - رئيس النظار حينئذ - إلى عقد المؤتمر المصرى الأول<sup>(٢٤)</sup>، بحضور جميع طوائف القطر المصرى، لبحث مختلف الإصلاحات والتوجيهات، التى يجدر بالأمة والحكومة انتهاجها، وكان هذا فى واقع الأمر، أول برلمان مصرى، يمثل الأمة تمثيلاً حقيقياً، ويبحث حاجاتها بحثاً مدروساً مفصلاً شاملاً لكافة الأمور والإحصاءات. اختيرت سينما روكسى بمصر الجديدة مقراً لعقد هذا المؤتمر، ولم يكن هناك تمثيل للمرأة، لذا بادرت ملك حفنى ناصف، بتقديم خطبة للمؤتمر بعنوان "التقدم للمرأة المصرية، متضمنة برنامجاً لإصلاح حال الأمة حيث قالت " لو كان لى حق التشريع لأصدرت اللائحة الآتية"<sup>(٢٥)</sup>.

المادة الأولى : حق البنات فى تعليم الدين والقرآن والسنة النبوية الشريفة.

المادة الثانية: جعل التعليم الابتدائى إلزامياً للبنات والسماح لهن بالتعليم

الثانوى.

المادة الثالثة : تعليم البنات التدبير المنزلى علماً وعملاً وقانون الصحة وتربية

الأطفال والامعافات الوقتية

المادة الرابعة: تخصيص عدد من البنات لتعليم الطب بأكمله، وكذلك فن التعليم

حتى يقمن بكفاية النساء وحاجاتهن.

المادة الخامسة :إطلاق الحرية فى تعليم العلوم العالية لمن تريد منهن.

المادة السادسة: تعويد البنات من صغرهن الصدق فى القول، والجد فى

العمل، وغير ذلك من الفضائل.

المادة السابعة : اتباع الطريقة الشرعية فى الخطبة، فلا يتزوج إثنان قبل أن

يجتمعا بحضور محرم.

المادة الثامنة : اتباع عادة نساء الأتراك بالآستانة فى الحجاب والخروج.

المادة التاسعة : ضرورة حماية مصالح الوطن.

المادة العاشرة : على إخواننا الرجال تنفيذ مشروعنا هذا.

وتجدر الإشارة إلى أن مطالب ملك هذه، كانت فى الحقيقة تعبيراً عن الأفكار

التى حوتها الصحافة النسائية، على مدى عقدين من الزمان. وقد تمت مناقشة هذه

المطالب فى اليوم الأخير من انعقاد هذا المؤتمر.<sup>(٢٦)</sup>

وقد أثار خطاب ملك هذا، ردود فعل في المجتمع المصري، فقد تناوله الكتاب بالشرح والنقد والتحليل، وقررت بعض فقراته في مادة النصوص الأدبية بالمدارس الثانوية<sup>(٢٧)</sup>.

على أية حال فإننا نلاحظ في خطاب ملك حفنى ناصف، أنها قد نهجت نهجاً ذا صبغة اجتماعية أساساً في الإصلاح، ولمست قضايا تتعلق بمسائل الهوية فيما يتعلق بالتفاعل بين المجتمع والثقافة الوطنية والوافدة والمواطنة ( فيما يتعلق بحقوق المرأة في التعليم والعمل )، وإعادة ترتيب علاقات السلطة داخل العائلات. وقد بدأ ذلك واضحاً في مقالاتها التي نشرت في الجريدة تحت اسم " النسائيات " أو في البرنامج الذى وضعته لإصلاح حال المرأة وأعلنته أمام مؤتمر عام متضمناً فيما تضمن تعليم البنات التعليم الابتدائى والثانوى، وجعل التعليم الابتدائى إجبارياً فى كل الطبقات، وتخصيص عدد من البنات لتعليم الطب، والحث على أن تذهب النساء سواء فى المدن أو فى القرى لحضور الصلاة وسماع الوعاظ، وأن يضمن للمرأة حرية التصرف بالمال، وحرية الإمساك بالمعروف أو التسريح بالإحسان، وأن يكفل لها حرية الرأى وحرية التعبير. كذلك كانت ملك على وعى بطبيعة السلطة وعلاقتها داخل المنزل وخارجه، فدعت الآباء والأزواج لنبذ الاستبداد، حتى تنشأ الأجيال الجديدة محبة للاستقلال والدستور على حد تعبيرها. بل إنها فى دعوتها لقضايا اجتماعية، مثل العزوف عن التقاليد الغربية فى البيوت، وتوجيه المصريين إلى الاقتران بالمصريات لا بالأجنبيات، أشارت إلى أن هذا فى حد ذاته نوع من كبح طغيان المد الاستعماري من أن ينتشر داخل البيوت ومن ثم داخل الأمة ككل ورغم أن ملك عاشت وعاشت فترة المد السوطنى فى بداية القرن العشرين وعاصرت مصطفى كامل مثل هدى شعراوى، إلا أننا نلاحظ فى كتاباتها عزوفاً عن الخوض فى تفاصيل الحالة السياسية بمفرداتها التقليدية ( الأحزاب - الانتخابات )، فقط كانت دعوتها العامة نحو المحافظة على مصلحة الوطن والاستغناء عن الغرب بقدر الإمكان.

وقد أكد هذا شقيقها مجد الدين حفنى ناصف حيث قال " وهى أصلاً لا تكتب فى السياسة ولا فى الحماسة، ولكن قلمها كلما دعى إليهما يلبي فى قوة وإقدام"<sup>(٢٨)</sup>. فعندما حاولت سلطات الاحتلال الإنجليزي، ضرب الوحدة الوطنية المصرية، بإشعال الخلاف بين المسلمين والأقباط، باختيار بطرس غالى باشا رئيساً للحكومة المصرية<sup>(٢٩)</sup>، قابلت الصحف المصرية ذلك بمعارضة شديدة، مما دفع سلطات الاحتلال إلى إعادة العمل "بقانون المطبوعات"<sup>(٣٠)</sup> لفرض الرقابة على الصحف "وردد الجرائد التى تجاوزت الحدود" كما يدعون، فقامت ثورة احتجاج على إعادة العمل بهذا القانون، شاركت فيها المرأة المصرية بكتاباتها فى الصحف والمجلات، وكان فى مقدمة هؤلاء ملك حفنى ناصف، حيث عارضت ملك هذا القانون. وقد أوضحت ملك أنه إذا كان هدف الحكومة معاقبة الصحفيين "المتهورين"، فإن فى قانون العقوبات ما يكفى من مواد تعطى للحكومة الحق فى معاقبة الصحف "المتهورة" ورأت ملك أن عدم استعمال الحكومة "حينئذ" لهذا

القانون أدى إلى فوضى الصحافة وأنه مع مرور الوقت اعتقدت -أى الصحافة - أنها فوق القانون. ونتيجة لتنفيذ قانون المطبوعات أعلنت ملك أستياءها من هذا القانون، حيث رأت فيه ملك قتل لحرية التعبير عن الرأي. ثم طالبت ملك بالغاء ذلك القانون. وقد نشرت ملك قصيدة تهاجم فيها هذا القانون جاء في بعض أبياتها : (٢١)

ستسلبون غداً أغلى نفائسكم      حرية ضاع في تحصيلها العمر  
حرية طالما منوا بها كذباً      على بنى النيل في الآفاق وافتخروا  
أتصبرون وهذه بدء بطشهم      وأول الغيث قطر ثم ينهمر

عدا ذلك لا نجد تفسيراً دقيقاً لهذا الموقف، الذى انتهجته ملك حفنى ناصف، فى عزوفها عن الخوض فى قضايا من قبيل حقوق المرأة السياسية بشكل مفصل. وربما تجدر الإشارة هنا إلى ما أورده مجد الدين حفنى ناصف فى طبعة عام ١٩٦٢م من كتاب " آثار باحثة البادية " من أن الشيخ أحمد السكندرى فى كتابه " الوسيط فى الأدب العربى " حيث قال " إنها بدأت تضع كتاباً فى حقوق المرأة، أنجزت منه ثلاثة مقالات، الأولى فى المقارنة بين المرأة المسلمة الشرقية والمرأة الغربية والثانية فى حقوق المرأة المالية، والثالثة فى حقوق المرأة السياسية خاصة فيما يتعلق بحقوقها الانتخابية. والحق أن مجد الدين حفنى ناصف لم يذكر أنه عثر على مخطوطة هذا الكتاب، ولم يعلق على ما نقله عن الشيخ " أحمد السكندرى " فى هذا الشأن. لكن إذا صح هذا الأمر، فإن ملك كانت على وشك الخوض فى قضايا أكثر تفصيلاً، فيما يتعلق بحقوق المرأة الاقتصادية والسياسية مثل حق الانتخاب وتولى الوظائف العامة، ولكن القدر لم يمهلها. (٢٢)

**ملك حفنى ناصف فى المحافل الدولية :**

كانت ملك حفنى ناصف تمتاز بثقافتها العربية العريضة، وإجادتها فى الوقت ذاته اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وسعة اطلاعها على كثير مما كتب فى الموضوعات الاجتماعية (٢٣)، لذلك لم تقتصر جهودها فى الدفاع عن قضايا المرأة على الصعيد المحلى، بل إنها بذلت جهوداً مضمينة فى سبيل إعلاء شأن المرأة العربية والمسلمة لترفع من قدرها بين مختلف دول العالم فقد راسلت ملك حفنى ناصف أميرة " بهوبال " المسلمة بالهند وهى سيدة كانت لها رؤيتها الإصلاحية الواضحة المرتكزة إلى أسس إسلامية والتي لمسها أحد المسئولين الإنجليز. وهو السير ريتشارد وود وضمنها فى تقرير رسمى نشرته الحكومة الإنجليزية. وقد قدمت ملك لها المشاريع لرفع مستوى المرأة هناك، مبدئة بتعليم الفتيات المسلمات. وكانت ملك تنوى السفر إلى الهند للإشراف على تنفيذ ذلك المشروع ولكن المنية عاجلتها. كذلك راسلت ملك حفنى ناصف السيدة " خالدة أديب " التركية التى أصبحت فيما بعد أول وزيرة فى البلاد الإسلامية الحديثة، إذ اختارها كمال أتاتورك وزيرة للمعارف العمومية " التربية والتعليم الآن " فى أول وزارة شكلها أتاتورك. وعلى أثر إعلان الدستور العثمانى وعزل السلطان عبد الحميد، قامت ملك بزيارة تركيا لتلتقى بخالدة أديب فى أسطنبول، وتباحثت وإياها فى سبل رفع شأن المرأة المسلمة وعن طريقها نشرت ملك حفنى ناصف سلسلة من

المقالات في هذا الشأن في جريدة "جون تورك" تركيا الفتاة". أيضا أضافت ملك حفنى ناصف الكاتبة الإنجليزية مسز "شارلوت كمرون" وتباحثا معا في سبيل رفع شأن المرأة. وبعد هذه المباحثات قامت تلك الكاتبة بتأليف كتابها "شتاء امرأة في إفريقيا" *Awoman,s Winter in africa* وخصصت تلك الكاتبة فصلاً بعنوان "قناة السويس" دافعت فيه عن المرأة المسلمة، كما أوضحت لها ملك حفنى ناصف في مباحثاتها معها. وقد أعجبت تلك السيدة الإنجليزية ببلاغة ملك حفنى وفصاحتها وسعة اطلاعها وثقافتها المتنوعة، فقالت عنها في كتابها المشار إليه "إنها لتناقشك في فلسفة دارون وسبنسر بشكل يدعو إلى الإعجاب" وظلت علاقة ملك حفنى ناصف بمسز شارلوت كمرون فيما بعد بالمراسلة. (٣٤) كما أضافت ملك حفنى ناصف الكاتبة الأمريكية "اليزابيث كوبر" بعد زيارتها لمصر وفي مقابلة ملك لها تباحثا في شئون المرأة وسبل رفع شأنها وقدرها، وقد شجعتها ملك على تأليف كتاب أسمته "المرأة المصرية" *The Egyptian Woman* أهدته إلى ملك ونشرته في أمريكا وإنجلترا، وسائر البلاد التي تتحدث بالإنجليزية. وظلت ملك حفنى تبذل جهودها في هذا السبيل لصالح المرأة المصرية والعربية المسلمة حتى أصبحت ملك معروفة في الصحافة الأمريكية. (٣٥) كما التقت ملك حفنى ناصف بالسيدة "ديفو نشير" الفرنسية التي كانت متزوجة من محامى مصرى يعمل لدى المحاكم المختلطة بالقاهرة. وبعد وفاته أنتقلت هذه السيدة الفرنسية إلى العمل في إحدى شركات السياحة الكبرى، وفي مقابلتها لملك حفنى تباحثا في شئون المرأة والوسائل التي يجب اتباعها للاهتمام بالمرأة وإعلاء قدرها. وكانت ملك شغوفة بأدبها الفرنسى وثقافتها العالية، وعن طريقها تعرفت ملك على السائحات الأجنبات النابهات، حيث كانت ملك حفنى ناصف تدعوهن وتمحو ما في ذهنهن من تشويش في عقولهن ضد المرأة الشرقية بصفة عامة. وكانت كثيرات من أولئك يكتبن عن ملك في بلادهن الكثير من المقالات، وألقين هناك المحاضرات عن ملك كنموذج للمرأة العصرية المثقفة الواعية المجاهدة في سبيل رفعة شأن المرأة العربية والمسلمة.

ويذكر في هذا الصدد، أن ملك حفنى ناصف وهى فى قمة توهجها الأدبى ونشاطها فى المحافل الدولية، يحاول حمد الباسل (٣٦) شقيق زوجها منعها من الكتابة، ونشرها مقالاتها، وأشعارها فى الصحف، بحجة أنه يخشى عليها من الغزل، ولكنها تنفيذا لما قالته "عاهدت نفسى على الأخذ بيد المرأة المصرية، ويعز على أن أتخلى عن هذا العهد، وإن كان تنفيذه شاقاً". لذلك أخذت ملك تكتب تحت اسمها المستعار وهو "باحثة البادية".

#### ملك حفنى ناصف وتحرير المرأة :

لقد اتسمت خطوات ملك من أجل إصلاح أحوال المرأة وإعطائها مزيداً من الحرية، بالهدوء الفكرى، والاستناد إلى المنطق والعقل فى آرائها مع شىء من التحفظ فى منح الحرية للمرأة، إلى درجة أن بعض المفكرين قد اتهمها بأنها ضد حرية المرأة

(٣٧). وذلك لأن العاطفة الدينية كانت مختلطة عندها بالمعاني القومية والاجتماعية، فدائماً ما كانت تربط آرائها الإصلاحية، بالنواحي الدينية، مما دفع البعض إلى القول " أنه لا ينقصها سوى العمة لتصير شيخاً، وأنها حيث تكتب لا تفارقها آثار الدين ونزعات الوطنية، والشرقية، والعروبة" (٣٨).

لقد كانت ملك تنادى باتباع الوسطية في التعامل مع حقوق المرأة وحريتها. وكانت من المنادين أيضاً بمنح الحرية للمرأة تدريجياً حتى لا ينهار السلم الاجتماعي، ويواجه ذلك الإصلاح بالمقاومة الشديدة في مجتمع شرقي محافظ، فيحدث ما لا تحمد عقباه. وهذا كان واضحاً في مواقف ملك في قضايا تحرير المرأة مثل موقفها من الحجاب والسفور، وموقفها من الحضارة الغربية. ولكن ملك كانت أكثر وضوحاً ودفاعاً عن حق المرأة في قضايا العمل والتصدي لاستبداد الرجل وعنفه ضد المرأة.

**موقف ملك حفنى ناصف من انحطاط شأن المرأة فى المجتمع وأسباب ذلك :**

لم تكتف ملك حفنى ناصف بالدفاع عن قضية تعليم المرأة بل أنها كانت رائدة ضمن رواد وقادة حركة الإصلاح الاجتماعي وصاحبة برنامج خاص حيث حملت كل كتاباتها موجة عارمة من الانتقادات لما كانت تراه من مفساد فى مجتمعها وخاصة أنها كانت ترى أن المرأة جاهلة خاملة وحياتها منصرفه الى الامور السطحية والاسراف فى المظهر دون الاشتراك الفعال فى النواحي الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية فى المجتمع. كما أنها رأت الرجال من جانبهم لا يحترمون المرأة ويعاملونها بأنانية وتسلط وتحمل ملك الرجال تبعات أعمالهم وأفعالهم.

<http://Archivebeta.Sakhr.it.com>

**وقد أرجعت ملك أسباب انحطاط شأن المرأة فى المجتمع إلى :-**

**١- تسلط الرجل وازدواجيته :-**

أرجعت ملك حفنى ناصف أسباب انحطاط شأن المرأة المصرية والعربية، إلى مدى تسلط الرجل بالمرأة فتقول " إننا معشر النساء لا يزال ظلم الرجل يرهقنا، واستبداده يأمر وينهى... إذا أمرنا الرجل أن نحتجب أحتجبنا، وإذا صاح الآن يطلب سفورنا أسفرنا، وإذا أراد تعليمنا تعلمنا، فهل هو حسن النية فى كل ما يطلب منا ولأجلنا، أم هو يريد بنا شراً... على الرجل أن يدعنا نمحص آراءه، ونختار أرشدها، ولا يستبد فى تحريرنا " كما استبد فى " استعبادنا " إننا سئمنا استبداده، إننا لا نخاف من الهواء ولا من الشمس، وإنما نخاف عينيه ولسانه" (٣٩).

دأبت ملك على توجيه سهام نقدها للرجال والنفاق الاجتماعي الذى يمارسونه ضد المرأة بتمييزهم بين المرأة الوطنية والمرأة الأجنبية، وإدعاءات التمرد التى يروجونها ولا ينفذونها (٤٠). وتهاجم ملك حفنى ناصف ازدواجية الرجل الشرقي فى تعامله مع المرأة الشرقية من ناحية والمرأة الغربية من ناحية أخرى، فتري أن أغلب رجالنا الذين زاروا البلاد المتمدينة، رأوا كيف يحترم الرجل الأوروبى زوجته.. فعادوا ينادون بوجوب تعليم المرأة، ويصرحون بأنهم من أنصارها. ولكن لا يلبث أن يذهب

كلامهم في الهواء لأهم إذا اجتمعوا بسالحة أفرنجية أو امرأة غريبة، تلتفوا لها كثيراً، فساعدها في النزول من عربتها، وأمسكوا لها حقيبتها، ورفعوا لها الطرابيش إجلالاً لها. في حين أن أحدهم يستكف أن يركب مع امرأته في عربة واحدة إذا سافرت أو انتقلت إلى مكان آخر تركها ونفسها، كأنه لم يكن هو صاحب الأكسار الحديثة القائل بمساعدة المرأة، لقد نفسه توجهه مك للمتعمين والمدنيين الذين تبقى نساؤهم في حال من الجهل وسوء الخلق، دون أن يهتموا بتغيير هذا الحال الفاسد داخل بيوتهم، وهم يدعون الإصلاح خارجه. (١١)

وترجع ملك حفني ناصف المساواة التي تظهر في المرأة إلى استبداد الرجل، لأن المرأة تكوم بتقاليد الرجل، ولهذا فهي تطالب الرجال بضرورة إصلاح أحوالهم، حتى تتصلح أحوال السيدات، فتقول للرجال "إذا كانت فيكم بقية غيرة وحمسة، وتحبون وطنكم كما تدعون، فأصلحوا أحوالكم لتصلح نساؤكم وسنوا سنة صالحة لأبنائكم وبناتكم من بعدكم يكن لكم أجرها يوم الدين.... واجعلوا من أنفسكم صراطاً تتبعه زوجاتكم. فإن كنت أيها الرجل عاقلاً فلتكن زوجتك مثلك. وإن كنت خليعاً فامرأته خليعة وإن أسرفت أسرفت وإن فترت فترت وهذا بحكم المعاشرة في الخلق والعادة بالطبع وإرضاء الزوج من جهة أخرى" (١٢).

وفي احتقاد ملك حفني ناصف أن الرجل لو خلف قليلاً من كبريائه وعلم أن امرأته مساوية له في جميع الحقوق المشتركة، وعاملها معاملة اللد لللد، أو على الأقل معاملة الوصي لليتيم، لا معاملة السيد للعبد، لما رأى شيئاً هذا الضداد الذي يشكوه، ولأطاعته حبا فيه لا خوفاً منه، ولا يجهل أن الاستبداد يأتي بعض المراد.

وفي هذا الصدد يذكر أن ملك حفني ناصف قد واجهت صعاب عديدة مع زوجها عبد الستار الباسل، وهذا يتضح من كلام أخيها سجد الدين عن حياتها فيقول "بالقضاء شهر العسل، انقضت فرحة ملك مع عبد الستار الباسل، لأنها علمت سبقه الزواج بأخرى وهي ابنة عمه ولها منه بنت وحيدة، ولم ينجب عبد الستار الباسل من ملك مما دعاه إلى إجراء عملية جراحية لملك بدعوى ضرورة إنجاب الولد ليرثه. ولكنها اضطرت ملك طوال حياتها. (١٣) اجتمعت لملك حينذاك، معاناة وضع الزوجة الثانية مع معاناة الحرمان من الأطفال مع المرض الذي بدأت نوباته تهاجمها، ومن ذلك أيام عرق النساء التي لشد في تخفيفها العلاج الحديث، فلجأت أسرتها إلى علاج بدوي كان يتضمن الكسي بمسامير ضخمة فوق موضع الألم دون تخدير. هذه الأيام مع الكتمان ربما كانت هي الأسباب التي اجتمعت للتضع حداً لحياة ملك حفني ناصف القصيرة التي توفيت عام ١٩١٨م عن ٣٢ عاماً. (١٤)

على أية حال، فقد وقف بعض أتباع الحركة النسائية (١٥) في هذه الفترة، مواقف متباينة من رأى ملك حفني ناصف في مسألة استبداد الرجل للمرأة ودوره في الحفاظ للمرأة وتدنيها، فتؤكد نوبية موسى ما ذكرته ملك، عن دور استبداد الرجل في تدني وضعية المرأة، فتري أن "الرجال سبوا إلى إضعاف المرأة طمعاً في امتلاكها،

وكان في هذا السعي تأخرهم من حيث لا يشعرون " وتؤكد نبوية موسى على مبدأ ملك حفنى ناصف بأن إصلاح المرأة مرتبط وصلاحي الرجل فتقول " أن الرجل والمرأة لا يصلح أحدهما إلا بصلاحي الآخر...." في حين نجد أن مى زيادة، نتيجة لاحتكاكها بالصفوة من الرجال وتقدير هؤلاء لها فقد دافعت عن الرجل، فتري أن ظهور الحركة النسائية يعود الفضل فيه للرجل. فتقول " إذا ذكرت الحركة النسائية ذكر أن الرجل كان موجدتها، ومؤيدها إلا أنه مازال ساعياً إلى تنشيطها.. " كما أنها لا ترى فضلاً في تربية المرأة ووجوب تعليمها وارتقائها إلا ويكون من قلم الرجل إذ ليس بين النساء من تكتب. وترد مى زيادة على كلام ملك حفنى ناصف في القول بأن الرجل هو المسئول عن تدهور وضعية المرأة، فتدافع عن الرجل وتشتترط على الرجل ضرورة قبول مساواة المرأة به فتقول عن الرجل " إنه ملك عزيز، هو الأب، والأخ والصديق، والخطيب، والزوج، فإذا سقط سقطنا معه، وإذا ارتفع كنا بارتفاعه عظيماً، لذلك نريد له خيراً ونجتهد في تأييد دولته بشرط أن ينصب عرشنا قرب عرشه، وأن نقف إلى جواره وقف المثيل إلى جوار المثيل، نريد أن نكون متساويين في الحقوق الأدبية والمدنية، ما دنا متساويين في الواجبات والمسئولية، بل إن واجباتنا ومسئوليتنا تفوق ما عليه من مسئولية وواجب " (٦).

من الواضح أن موقف مى زيادة من استبداد الرجل، لم يكن حاداً، فقد كانت ترى أن الرجل هو سبب نهضة المرأة، أكثر من كونه سبب تخلفها، وتدنى وضعيتها. ولعل السبب في ذلك، أنها كانت تحتك بصفوة رجال المجتمع من الكتاب والمفكرين أمثال العقاد - طه حسين - لطفى السيد - سلامة موسى - مصطفى صادق الرافعى، الذين كانوا يداومون على حضور صالونها الثقافي، فلم تكن مى زيادة ترى في الرجال سوى الوجه المضىء، ولم تتعرض له بالاضطهاد مثل ملك حفنى ناصف.

## ٢- الجمود الدينى عند المرأة :

أنتقدت ملك حفنى ناصف الفهم الخاطئ للقرآن، وتؤكد على أهمية الفهم المستنير له، وترى أنه ليس في القرآن ما يحرم على المرأة تحصيل العلم، والتأمل في الحياة أو ممارسة العمل. وطالبت ملك حفنى ناصف بتعليم الدين الإسلامى في مدارس البنات تعليماً صحيحاً، وقد طالبت ملك كذلك، بضرورة ذهاب النساء سواء في المدن أو القرى لحضور الصلاة وسماع الوعاظ في المساجد، حيث أكدت ملك على أهمية الواعز الدينى لدى الجنسين، وقارنت ملك بذهاب نساء النصارى واليهود جماعات وفرادى للصلاة في الكنائس والمعابد وسماع الوعظ الدينى، وأنهم يستفيدون من ذلك كثيراً. فكيف نرضى بأن نسبق في هذا السبيل، والإسلام رحب الصدر شديد الحرص على حرية المرأة وقد وضعت ملك حفنى ناصف ضوابط لذهاب المرأة لاستماع الوعاظ والصلاة في المسجد، بأن يخصص في كل مسجد باب للنساء ومقصورة أو حاجز يصلين فيه، بحيث يسمعن كلام الخطيب ويفقهنه، ولا يختلطن بالرجال. وليكن موعد دخولهن



المسجد وانصرفهن منه سابقاً بنصف ساعة أو متأخراً مثلها عن موعد دخول الرجال وانصرفهم. (٤٧).

لقد تعجبت ملك حفنى ناصف من كراهية المجتمع المصرى لكل ما هو جديد حتى لو كان نافعا، وبمهاجمة كل مقترح، بإحداث البدع قبل أن يثبت صحته دعواه أو خطئها. إلا أن ملك لم تهاجم القديم أو التقليد بشرط أن يكون منه فلاحاً للمجتمع. لقد طالبت ملك بحرية التفكير والتأمل فى الحياة، ودعوة العقل إلى التفكير والابتكار وتطوير الأفكار لمصلحة المجتمع. كما نوهت ملك حفنى ناصف إلى الضرر العقلى والفكرى الذى يقع فيه المفكر أو المبدع عندما لا يعن أفكاره الجديدة خيفة من أن يرميه مخالفوه فيها ويتهمونه بالثرثرة والادعاء ويصيبه ذلك بالجبن جراء ذلك.

### ٣- العادات والتقاليد الخاطئة :

تنتقد ملك حفنى ناصف، بعض العادات والتقاليد الاجتماعية، فتؤكد على ضرورة منع النساء من المشى فى الجنازات، ومن الاجتماع للطم، والندب والصراخ والتعديد بالطريقة القبيحة، التى لا وجود لها إلا فى مصر.. وغير خاف علينا أن النساء شديداً الانفعال والتأثر، فإن أطلق لهن العنان فى ملازمة هذه العادات خمدت نفوسهن، وفسدت عزائمهن، ومرضت أجسامهن، وعقولهن، فمن حسن النظر الابتعاد بهن عن مسلك الضرر" (٤٨). كذلك عابت ملك حفنى ناصف على بعض السيدات من إفراطهن فى التبسم وانخفاض الصوت إلى درجة تخرجهن عن اللائق، حيث أكدت ملك على أن " المرأة الضاحكة - بلا سبب، والخفيفة إلى حد الطيش، والواظنة الصوت إلى حد الهمس، كلهن مفرطات فيما يجب أن يكن عليه... إنما أعنى أن تصحب البشاشة الوقار، والخفة الحزم، وهدوء الصوت البيان " (٤٩).

اهتمت ملك بمسألة تربية المرأة اهتماماً كبيراً، ورأت أن الغرض من تربيتها هو تقريبها من السعادة بقدر الإمكان، وإعدادها لأن تكون عضواً حياً نافعاً فى جسم الأمة، وتهيئتها للقيام بأعباء الزوجية والأمومة. وترى ملك من أن نقص تربية الأبناء، هو نتيجة جهل الأم فتقول " إننا نعلم أن نقص تربيتنا الأولى، وتربية إخواننا الشبان، لاشك نتيجة جهل أمهاتنا، فهل نعرف الداء ولا نداويه؟! إن المدارس مهما اجتهدت فى تثقيف عقول النشء، وتهذيبه فإن المنزل له تأثير خاص فى الأطفال، وإذا شعر تلميذ أن أمه عالمة أو لها نصيب من علم ما، فإنه يسعى ليربها، أنه أهل لحبها وتقديرها إياه، فيجتهد لتحصيل العلم وإدراك المعارف المختلفة، لتكون الصلة شديدة بينه وبينها.... وبالتالي فإن التربية الحسنة هى التى تعود الإنسان من صغره احترام غيره، إذا أستحق الاحترام، حتى لو كان عدواً، فالتعليم لم يفسد أخلاقيات الفتيات، وإنما هى التربية الناقصة، تلك التربية فى الحقيقة، يجب أن تكون فى أعمال البيت لا المدرسة" (٥٠).

ومن هنا تلقى ملك بالمسئولية على نمط التربية الذى يتلقاه النشء فى إحداث الإصلاح المنشود على الصعيد الاجتماعى والأخلاقى، فهى تعتبر أن التربية الخاطئة هى

المسئولة عن سائر عاداتنا السيئة، وفيها عدم احترام النساء " شبابنا لم يتعودوا احترام النساء، وذلك نقص في التربية الاجتماعية يجب أن يتداركوه " (٥١)

وترى ملك حفنى ناصف، بضرورة تكاتف البيت والمدرسة، فى عملية التربية حتى لا يكون عمل البيت معوقاً لعمل المدرسة، فينبغى أن يخفف المنتقدون من حدتهم، عند انتقاد مدارس البنات، لأن بيوتهم ونظامها أدعى إلى الانتقاد منها، والأمهات الجاهلات أكبر حجر عثرة فى سبيل نجاح المدارس، وذلك لأن معلمات المدارس تبذل جهد الطاقة فى تثقيف عقول التلميذات، وتعويدهن الفضائل، ولكن تلك الدروس، إن لم تدعمها الممارسة والمشاهدة، لا تلبث أن تزول لأن ما تقدمه المدرسة لنفع التلميذات، ينقص فى البيت، ولا سيما فى مسألة الأخلاق (٥٢). وعلى الرغم من ذلك فإن ملك حفنى ناصف قد أشارت إلى مشكلة كبيرة توجد فى مدارس البنات، وهى أمر إسناد تعليم البنات وتربيتهن إلى مدرسات أجنبيات. واعتبرت ملك أن ذلك بمثابة عقبة كؤود أمام تربية البنات فى مدارسهن، نتيجة لاختلاف الدين والعادات والتقاليد بينهن وبين الناظرات والمعلمات الأجنبيات. لذلك اقترحت ملك بضرورة إسناد الأمر إلى الوطنيات، فإن لم نستطع فعلينا أن نختار الأجنبيات، ممن تتوافر فيهن شروط الحكمة والأدب، ومن يصح فيهن أن يكن قدوة حسنة للتلميذات (٥٣).

#### موقف ملك حفنى ناصف من مسألة زواج المرأة :

تنتقد ملك حفنى ناصف، مسألة الزواج فى مصر، لأنه يسير على طريقة عقيدة نتيجتها فى الغالب، عدم الوفاء بين الزوجين، لأن الرجل لا يرى زوجته، فإذا سعد طالعهما اتفقا قلباً وقالياً، ورضى كل منهما بالآخر، أما البائس الذى قدر له أن يعاشر حمقاء، أو جاهلة أو مسرفة فيا ويحه، كذلك الفتاة إذا فوجئت ببعل مدمن، أو سييء السمعة، فيا طول ما تقاس من العناء، فمسألة الزواج عندنا هى ككل أمورنا نحن الشرقيين، فكلها للقضاء والحظوظ، وما شئت من المترادفات، فى حين يرى عقلاء الأمة أنه لا بد للخطيبين من الاجتماع والتكلم قبل الزواج. وهو رأى سديد لم يكن النبى (ص) وأصحابه يفعلون غيره. وهو متبع عند جميع الأمم بأسرها. وقد أدى عدم رؤية الخاطب لخطيبته قبل الزواج، إلى زواج العديد من الرجال بالأجنبيات، وإذا لم نعمل على تدارك هذا الخلل فى مجتمعنا، فلن يلبث أن يحتلنا نساء الغرب، فنقع فى احتلالين، احتلال الرجال واحتلال النساء، وثانيهما أشد من أولهما (٥٤).

كما اهتمت ملك حفنى ناصف بمناقشة مسألة تحديد الحد الأدنى لسن الزواج لدى الفتيات وذلك من منظور وظيفى، يعنى بقدرة الفتاة على تحمل مسئولية الأسرة " وإنى لا أوافق بعض الأطباء، على أن سن البلوغ يجب أن يكون بعينه هو سن الزواج. إذ بالله ماذا تفهم فتاة فى الثانية عشرة من معنى الزواج، وماذا تعلم من أمور البيت، وماذا تعمل لو رزقت بأولاد... " (٥٥).

لذلك ترى ملك حفنى ناصف ضرورة تحديد سن الزواج، فعلى ملاءمة سن الزوجين يتوقف كثير من الوفاق، والمحبة، والواجب ألا تتزوج الفتاة إلا متى سارت أهلاً للزواج الكفاء لتحمل مصاعبه، ولا يجوز ذلك قبل السادسة عشرة، وتزويج الصغار فيه شقاء الأمة من عدة وجوه، عناء في الزوجية نتيجه دائماً الشقاء أو الانفصال، وكثرة وفيات الأطفال لضعف النسل، وإصابة النساء بالأمراض العصبية، والأمراض النسائية الأخرى، وزواج مختلف السن، إضعاف للنسل، وشقاء للزوجين، وقلب لنظام الطبيعة الدقيق، كذلك يأتي عدم الوفاق، نتيجة لجهل أحد الزوجين بالآخر، وزواج مختلف الطباع، كعالم وجاهلة، وبالعكس، أو غنى وفقير، ومختلف الدين والبلد، والطمع في الغنى بغير نظر إلى الأخلاق، والزواج القسرى، فكل ذلك من أسباب عدم الوفاق، وفشل الحياة الزوجية<sup>(٦)</sup>.

كما نالت قضية تعدد الزوجات اهتماماً كبيراً من جانب ملك، ربما لأنها تجربة تعرضت لها شخصياً، أو لأنها تجربة رأتها متكررة في المجتمع البدوي الذي عاشت فيه ولمست أثارها النفسية والاجتماعية على المرأة والأسرة ككل. وقد اجتهدت ملك حفنى ناصف في عرض مشكلة تعدد الزوجات من سائر جوانبها مركزة على تأثيراتها المعنوية والاقتصادية والأخلاقية على الأسرة، وتميز طرحها بحس أنثوي تجسد في مراعاة الأبعاد النفسية والعاطفية في علاقة الزواج كعلاقة قائمة على الأبعاد المعنوية والدواخل في الأساس، فتقول ملك حفنى ناصف رائية التي يتزوج زوجها بأخرى " يا لله أليس لها قلب يتأثر وشعور يمس وعواطف تتور... " (٧).

لذلك اتخذت ملك حفنى ناصف موقفاً حاداً من قضية تعدد الزوجات، حيث هاجمت ملك بضراوة تعدد الزوجات، وترى فيه مفسدة في كل شيء فففيه مفسدة للمال ومفسدة للأخلاق ومفسدة للأولاد ومفسدة لقلوب النساء. أما من حيث مفسدة للمال، لأن الرجل فضلاً عن تحمله أعباء أسرتين وقيامه بلوازمهما، يرى كل زوجة من اثنتين تجتهد في التبذير لتعجزه عن الأنفاق على الأخرى، أو لتمنعه من الزواج بأخرى. كذلك تعدد الزوجات مفسدة للأخلاق، لأن زوج الضرائر دائماً يحتال لتطمع كل واحدة في حبه. أيضاً تعدد الزوجات مفسدة للأولاد، لأن كل ضرة تغرس كراهيتها لضررتها في نفوس أولادها، فيشب الطفل وقد أشرب كره إخوته لأبيه وأمه بلا مبرر سوى ما زرعه أمه في عقله من مبادئ هدامة، فمهما فعلت امرأة الأب لترضى ابن زوجها، ومهما أحسنت معاملته، فإنه لا يفتأ يتهمها بكراهيتها له، وبأن ما تفعله معه من خير ومعروف، إنما هو لخوفها من أبيه أو مداراة لما في قلبها منه. ومفسدة لقلوب النساء، لأن الأولى تكرهه بلا شك لإغضابه إياها وجرحه لعواطفها، والثانية لا تصافيه مطلقاً مادام متعلقاً بغيرها (٨).

وتؤكد ملك حفنى ناصف على مدى كراهية النساء للضرة، فتقول أنها سألت بعضهن، وقد تزوج زوجها بأخرى " هل تحبين زوجك الآن كما كنت تحبينه قبل زواجه من غيرك؟ فكان جواب كل من سألتهن ملك بالسلب والنفى. كما سمعت الباحثة من

أخريات أنهن في الحقيقة كن يفضلن أن يرين نعوش أزواجهن محمولاً على الأعناق على أن يرينهم متزوجين بأخريات فيا الله إلى هذا الحد يبلغ بغض المرأة للضرة ؟ " (٥١)

لهذا ترى باحثة البادية، أن ابتلاء المرأة بضرة قد يحولها إلى إنسانة شريرة، لأن الضرة تطفئ سراج بهجتها وتلهب مكانها نار حقدتها، وتزرع محله بذور شرورها، فإن لم تكن تقيه يوسوس لها الشيطان، ويعطمها أساليب الانتقام والكيد. وكثيراً ما دست امرأة السم لزوجها أو لضررتها أو لابن ضررتها، فكان القضاء عليهم جميعاً، وكثيراً ما عمدت للوشاية بها عند زوجها (٥٢). " وفي مقارنة ملك حفنى ناصف بين وضع المطلقة ووضع الضرة رأت ملك حفنى ناصف، أن الطلاق أخف ألماً ووطأة من الضرة، حيث رأت أن الأول (الطلاق) فيه شقاء وحرية والثانى (الضرة) فيه شقاء وتقييد.

وبعد أن تكشف ملك حفنى ناصف، مساوئ تعدد الزوجات، فإنها ترى أن الدين لم يسمح بتعدد الزوجات، بهذه الصورة المفتوحة، كما يفعل الرجال، وإنما جعل له شروطاً وقيوداً، لو اتبعت لما عانى منها النساء البائسات. ومن ناحية أخرى ترى ملك أن المستوى العلمى والأخلاقى والاقتصادى، يسهم فى تقليل تعدد الزوجات. لهذا كله اقترحت ملك ضرورة السعى إلى تقليل تعدد الزوجات لغير داع بقدر الاستطاعة لأن شقاء النساء، وأختلاف الإخوة الناشئين من جراء هذه العادة، وما يتبع ذلك من الشقاق، كل ذلك يكون من أسباب التفكك الأسرى مما يؤثر بالسلب على المجتمع ككل. (٥٣).

وفي نهاية هذا المبحث يمكن لنا أن نستنتج أن ملك حفنى ناصف ترفض مسألة تعدد الزوجات، لأن به إخلال بكرامة المرأة، كما أنه يسهم فى العديد من المشكلات الاجتماعية. وبالتالي يمكن القول إن الحركة النسائية ممثلة فى ملك حفنى ناصف استطاعت أن تعبر عن نفسها فى قضية تعدد الزوجات، وأن ترفض فكرة زواج الرجل بأكثر من امرأة ووضع القيود والإجراءات التى تحد من زواج الرجل بامرأتين أو أكثر ما لم يكن هناك داع لذلك. بهذا يمكن القول إن ملك حفنى ناصف قد وضعت الأساس للفهم المنصف لوضع المرأة فى الحياة، ونادت ملك بالمساواة بين الجنسين، على أساس من الحب والاحترام المتبادل حتى تستقيم الحياة الزوجية وينصلح حال الأمة.

#### موقف ملك حفنى ناصف من قضية الحجاب :

اتخذت ملك حفنى ناصف موقفاً وسطاً من الحجاب فهى لا تريد التشدد فى الاحتجاب، ولا تدعو إلى سفور الغرب فتقول " لا أريد أن نرجع لحجاب جدتنا، ذلك الذى يصح أن يسمى وأدا لا حجاباً، فقد كانت السيدة تقضى عمرها بين حوائط منزلها لا تسير فى الطريق، إلا محمولة على الأعناق، ولا أريد سفور الأوربيات، واختلاطهن بالرجال فهو مضر بنا " (٥٤). لذلك ترى ملك حفنى ناصف أن حبس المرأة المصرية تفريط، وحرية الغربيين إفراط، ولا نقتبس منه إلا حالة المرأة التركية الحاضرة " حينئذ " فهى وسط بين الطرفين، ولم تخرج عما يجيزه الإسلام، وهى مع ذلك مثال الجد والاحتشام. وترفض ملك تشديد الاحتجاب على المرأة المسلمة، وترى أن الحجاب لا

ينبغي أن يمنع المرأة عن شراء حاجاتها، وأستنشاق الهواء النقي، ولا عن تلقي العلم، ولا يكون مساعداً على فساد صحة المرأة فتقول " هناك قوم يشددون في تقدير الحجاب، فيحسبونه للمرأة مؤدياً، ويمنعون زيارة جارتها، يضيقون عليها، بحيث لا تستنشق إلا هواء بيتها الضيق الدائرة، فتفسد صحتها، وتكسل عن الحركة، ومنهم من يفتخر بأن امرأته لم تبرح بيتها طوال عمرها، وهؤلاء أيضاً متطرفون، لأن المرأة لها رجلان يجب أن تتحركا، وعينان يجب أن تبصرا، فإذا صاحبها أبوها أو أخوها أو زوجها مثلاً في نزهة وأراها محاسن الطبيعة، ودقائق الموجودات، وجدد قواها، بالحركة، وأستنشاق الهواء الجيد، وهي بمظهرها محتشمة، فلا يخرج في ذلك عن معنى الحجاب" (١٣).

وترى ملك أن الحجاب لا يمنع المرأة من التعليم فتقول " أن النساء المسلمات واسعات الاطلاع لم يحل الحجاب بينهن وبين التعليم..". إلا أن ملك تنتقد الاختلاط الشديد بناءً على تقسيم المجتمع إلى ثلاث طبقات، طبقة الأغنياء ينتشر فيها الاختلاط والسفور، وهذا فيه مفسدة، وطبقة العامة "الفقراء" وينتشر فيها الاختلاط في العمل، من أجل العيش وتشرع الآداب من أجل هذه الطبقة. وترفض ملك الاختلاط السائد بين العامة، وترى أن أفضل طبقة هي طبقة الوسط فهي أحسن الطبقات أدباً، وأكثرها حشمة ووقاراً. وإذا كانت ملك ترفض الاختلاط الشديد، فهي أيضاً ترفض الاحتجاب الشديد، لأنه يقلل من تجارب البنت، وقوة إرادتها، وترفض ملك تقليد الغربيين في مسألة السفور، حتى لا نفقد قوميتنا، وهويتنا فتقول: "إننا لو سلمنا بما يقترحه الكتاب من ضرورة تقليد الغربيين في أمور معاشنا ولباسنا، مما لا يوافق روح الشرق، فإننا نندمج فيهم، ونفقد قوميتنا بمرور الزمن وهذا هو ناموس الخون، إذ يفنى الضعيف في القوى" (١٤).

وإذا كانت ملك حفنى ناصف تنتقد سفور الغرب، فإنها لا ترفض السفور بمعنى الخروج من المنزل وكشف المرأة لوجهها وكفيها، ولكنها ترفض الانتقال الفجائي كما رفضه قاسم أمين، لأن نساء مصر متعودات الحجاب، فلو أمرتهن بخلعه لرأينا ما يجلبه على أنفسهن من الخزي، والتغير الفجائي من أسباب البلاء، وتكون النتيجة شراً على الوطن والدين، فينبغي أن نهى المرأة للسفور، فلو أننا متريبات على السفور، ولو أن رجالنا مستعدون له لأقررت بالسفور لمن تهواه، ولكن جموع الأمة غير مستعدة له الآن "حينئذ"، وذلك لأن خروجنا بغير حجاب لا يضر في نفسه إذا كانت أخلاقنا، وأخلاق رجالنا على غاية الكمال، وأظن أن هذا مستحيل أو بعيد الحصول، فإذا حصلت هذه النماذج على هذا الشرط فلا أعترض عليه. ولكن الوقت لم يحن لرفع الحجاب فعلموا المرأة تعليماً حقاً، وربوها تربية صحيحة، وهذبوا النشأ وأصلحوا أخلاقهم، بحيث يصير مجموع الأمة مهذباً، ثم اتركوا لها شأنها تختار ما يوافق مصلحتها ومصلحة الأمة" (١٥).

وبناءً على ذلك تذكر مي زيادة بأن ملك حفنى ناصف كانت من أنصار السفور مبدئياً، ومن رأيها أن كل ما تحتاج إليه المرأة، ولا تجده بين النساء كالطبيب البارع، أو الأستاذ الماهر.. الخ. يجوز أن نستعين بالرجل، وجاهرت بأنها لو كانت واثقة من كمال

المرأة، وتهذيب الرجل لما ترددت في إباحة السفور، ولا ينبغي أن نفهم دعوة ملك حفنى ناصف للسفور، أكثر من كون هذا السفور، هو ظهور الوجه والكفين، والخروج من المنزل سواء للتعليم أو العمل، وهو نفس ما دعا إليه قاسم أمين من قبل.

إن موقف ملك حفنى ناصف من الحجاب والسفور لم يخرج عن الإطار العام لموقف الإسلام من قضية الحجاب، وعندما كانت ملك حفنى ناصف تتكلم عن السفور، لم تكن به أكثر من سفور الوجه، ورفض النقاب، والإسلام لم يحرم ظهور الوجه والكفين.

وعلى الرغم من موقف أقطاب الحركة النسائية في تلك الفترة أمثال ملك حفنى ناصف وهدى شعراوي ونبوية موسى وغيرهن، المسابير للإسلام، من قضية الحجاب، إلا أن سفور وجههن في تلك الفترة، كان يمثل البدايات في التمرد على النقاب، والاحتجاب المنزلي، وغالباً ما تكون البدايات صعبة، حتى يتأقلم الناس والمجتمع على الوضع الجديد - السفور - ولهذا كان موقف قاسم أمين نظرياً، ومواقف أقطاب الحركة النسائية نظرياً وعملياً يشكل ثورة على السائد في تلك الفترة. ولكن إذا نظرنا إليها الآن تبدو مجرد مطالب متواضعة في إطار ما حصلت عليه المرأة، ولكن يظل التاريخ دائماً يذكر أهمية البدايات التي تمثل في الغالب ثورة على السائد والمعهود.

#### موقف ملك حفنى ناصف من عمل المرأة:

شهد أوائل القرن العشرين بداية المطالبة بحق المرأة في العمل، فبعد أن حققت المرأة نجاحاً ملموساً في مجال التعليم، كان من الطبيعي أن ينتقل أهتمامها إلى اقتطاف ثمرة هذا التعليم وهو العمل، وكانت رموز التنوير التي حاربت من أجل تعليم المرأة، هي نفسها التي خاضت المعركة من أجل المرأة إلى حق العمل وعلى رأسها قاسم أمين في كتابه " تحرير المرأة " والشيخ محمد عبده، والشيخ مصطفى عبد الرازق. وقد انضم إلى هذه الباقية عدد من الرائدات المصريات، ضمن المعركة من أجل الأجيال القادمة، ومن أجل تقدم هذا الوطن وكان في مقدمتهم ملك حفنى ناصف (١٦).

أهتمت ملك حفنى ناصف بالدفاع عن حق المرأة في العمل، فنجدها ترفض مسألة تصنيف العمل، وإعلاء شأن الرجل على المرأة وتؤكد ملك حفنى ناصف في الدفاع عن وجهة نظرها في أصالة حق المرأة في العلم والعمل انطلاقاً كعادتها من الأرضية الاجتماعية، التي تشكل القاعدة الأعم في مصر، وبأسلوبها السهل تقول " ولما كانت أشغال منزلنا قليلة، لا تشغل أكثر من نصف النهار، فقد تحتم أن نشغل النصف الآخر بما تميل إليه نفوسنا، من طلب العلم، وهو ما يريد أن يمنعنا منه الرجال، بحجة أننا نشاركهم في أعمالهم. لا أريد بقولى هذا أن أحث السيدات على ترك الاشتغال بتدبير المنازل وتربية الأولاد إلى الانصراف لتعلم المحاماة والقضاء، وإدارة القاطرات كلاً، ولكن إذا وجدت منا من تريد الاشتغال بإحدى هذه المهن، فإن الحرية الشخصية تقضى بأن لا يعارضها المعارضون." (١٧).

وتتهم ملك حفنى ناصف الرجل في أنه السبب وراء ضعف المرأة، بعد أن استعبدها قروناً طويلة، حتى خيم على عقلها الصدا، وعلى جسمها الضعف ثم يتهمها

بعد ذلك بأنها خلقت أضعف منه جسماً وعقلاً. ولا تذكر ملك حفنى ناصف أن الرجل متفوق في بعض الأعمال، ولكن لو تركت للمرأة حرية القيام بهذه الأعمال، لتفوقت مثله<sup>(٦٨)</sup>. ومن أجل اهتمام ملك حفنى ناصف بضرورة عمل المرأة، فقد اقترحت تعليم المرأة المصرية كل ما يلزم لحسنها من الصناعات الضرورية كالتفصيل والتطريز، وطالبت بضرورة فتح مدرسة لتخريج هؤلاء الصانعات لأننا في شدة الحاجة إليها. وكان مما قالته " كيف ترضى أمة عددها أننا عشر مليوناً نسمة (تعداد سكان مصر حينئذ) بأن لا يكون فيها إلا النزر، فيمن يعرفن تفصيل ثوب لائق بعروس أو مترفة أليس من العار أن نحتاج في كل شيء إلى الأجانب حتى في خدمة أنفسنا<sup>(٦٩)</sup>."

وتعترف ملك، بأن الأم مهما تعلمت وبأى حرفة اشتغلت فلا ينبغي أن ينسبها ذلك أطفالها في البيت، لأن تربية الأولاد أخص بها لضرورة معاشرتها لهم في الرضاعة، وما بعد الولادة، تعرف أطوارهم، وتقف على أحوالهم، وكذلك فهي أشفق بهم من الرجال<sup>(٧٠)</sup>.

#### موقف ملك حفنى ناصف من الحضارة الغربية :

رفضت ملك حفنى ناصف، تقليد الحضارة الغربية، وخاصة في المسألة النسائية، حيث ترى ملك، بأنه لا يليق بنا نحن النساء المسلمات خاصة، التشبه بنساء الغرب، فضلاً عما حدده لنا الدين الإسلامي، وأن الفطرة الغريزية فينا لا تبيح لنا أن نسعى وراء التقليد الغربى. وقد وضعت ملك حفنى ناصف قيوداً على تقليد الحضارة الأوروبية والتعامل مع المستعمر، وكان هذا موقف انتقائى منها فتقول " إننى أدعو الكتاب والباحثين للتفكير فى إيجاد مدنية خاصة بالشرق تتلاءم وطبائع بلاده، ولا تعوقنا عن اجتناء ثمار التمدن الحديث وذلك لأننا إذا اتبعنا كل شيء غربي، قضينا على مدنيتنا، والأمة التى لا مدنية لها ضعيفة هالكة لا محالة " وترى ملك حفنى ناصف أن علينا أن ننقل عن الغرب ما يتوافق مع الشريعة الإسلامية والآداب الشرقية، وترى أن من دلائل تأخرنا أن أكثرنا يقلد المرأة الغربية، بغير نظر إلى موافقة عاداتها للشرع الإسلامى والآداب الشرقية. وهنا نلاحظ أن ملك حفنى ناصف، تتخذ موقف التيار الإسلامى سبيلاً لها فى موقفها من الحضارة الغربية. كانت ملك تتابع مظاهر التحديث الشكلى الذى يأخذ به المجتمع، لاسيما الطبقات العليا، وتستنكره داعية إلى نمط من التحديث، يتوافق مع روح الشرق على حد تعبيرها مقترحة فى ذلك الأخذ بالعلم الغربى والاستفادة منه وتطويعه فى إطار هذه المدنية الشرقية، التى دعت إليها، محذرة فى الوقت نفسه، من أن الاندماج اللواعى فى المدنية الغربية، هو أمر منذر بالفناء<sup>(٧١)</sup>.

وتذهب ملك حفنى ناصف إلى أننا إذا أردنا أن نكون أمة بالمعنى الصحيح تحتم علينا أن لا نقتبس من المدنية الأوربية إلا الضرورى النافع بعد تمصيره، حتى يكون ملائماً لعاداتنا وطبيعة بلادنا، نقتبس منها العلم والنشاط والثبات وحب العمل، نقتبس منها أساليب التربية والتعليم، وما يرقينا حتى نبذل من ضعفنا قوة، وإنما لا يجوز فى عرف الشرع والاستقلال أن نندمج فى الغرب، فنقضى على ما بقى لنا من القوة

الضعيفة أمام قوته المكتسحة الهالكة. وتطالب ملك حفنى ناصف المرأة العربية بضرورة اتباع نهج المرأة الغربية فى تحصيل العلم والمعرفة، والعمل، مستعينة فى ذلك بثبات العزم وقوة الإرادة. وملك فى ذلك لا تدعو إلى الانغلاق، أو الانفصال عن التجارب العالمية الأخرى، فقط تدعو إلى الوعى بالمصالح الوطنية، وإعطائها الأولوية وقد انتقدت ملك، منهج التحديث القائم على التغريب والمحاكاة وما يؤدى إليه من تشويه فى بنية الأجيال الجديدة، بما يجعلها غير قادرة على الفعل الحضارى الأصيل أو القيام بأعباء نهضة المجتمع. وميزت ملك فى هذا السياق، بين قبول المنتج الثقافى والمنتج المادى للغرب، مؤكدة أن الحفاظ على الهوية هو الحد لما يمكن اقتباسه من الغرب، لأنها قضية وجود أو فناء. وفى ذات الوقت، فإن النهضة رهينة ببناء حضارة تجمع بين الذاتية والعصرية (٧٢).

إن ملك لا ترفض سائر معطيات المدنية الأوربية، بل ترفض تحديداً التقليد الأعمى، الذى تمثل آنذاك فى مظاهر البهرجة، والترف، وانتشار المسكرات وغيرها من العادات الخبيثة (٧٣).

لقد أدركت ملك حفنى ناصف خطورة محاربة الإصلاح باسم الدين، فأعربت عن تعصبها للدين والإصلاح معا " إن الأديان لم تخلق لجلب البؤس، وإنما خلقت لإسعاد البشر ". وأخذت ملك تبين بالحجج الباهرة كيف أن الإسلام دين كل إصلاح، وكيف يرتكب التخلف والانحطاط باسمه، وكانت ملك فى تعصبها للإسلام رائعة حقاً، نرى ذلك فى أبسط المظاهر أحياناً، مثلما تنعى على الناس استعمال ألفاظ " صاحب العزة " و"صاحب الجلالة"، لأن صاحب العزة وصاحب الجلالة هو الله وحده سبحانه وتعالى. لقد استطاعت ملك أن تمزج مزجاً طيباً بين تعصبها للدين، وتعصبها للقومية، فهى تهاجم التعليم فى مدارس الراهبات، على أساس من التعصب للقومية وللدين معا، وهى تهاجم الزواج بالأجنبيات على نفس الأساس، وكانت ملك بدافع تعصبها للقومية تعترض على رجال مصر وتزوجهم بالشركسيات والتركيات والكرديات أيضاً. وكانت ملك لا ترى فى هذا الزواج سوى ضياع للقومية والانتماء له، ورأت أن الزواج الأمثل، لا يكون إلا بزواج المصرى من مصرية، ذلك الزواج الذى يعمق الوطنية، ويغرس الانتماء الحقيقى للوطن والوطنية.

أفاضت ملك فى تبيان فضائل القومية، وفضائل الإسلام فى شتى المناسبات، فكانت ملك بذلك أول كاتبة عربية فى العصر الحديث، استطاعت أن تربط بين مفهوم شامل ومتعمق للتراث كتراث ومفهوم واسع للجديد والمدنية الحديثة كمدنية.

#### ملك حفنى ناصف وقضية تعليم المرأة :

طالبت ملك حفنى ناصف بضرورة تعليم المرأة لتشعر باحترامها لنفسها ولغيرها فالمرأة تخرج للتعليم للتزود بالعلوم والمعارف وليس بهدف مزاحمة الرجال. وتوجه ملك حفنى ناصف حديثها للرجال وتطمئنهم من عدم مزاحمة النساء لهم وتطلب ملك من الرجال أن يكفوا عن دعواهم بالشفقة على المرأة من الخروج لدور العلم



وتحمل المشاق وتبين لهم أن المرأة لا تريد أن تكون محلاً لإشفاقهم إنما تريد أن تكون أهلاً لاحترامهم. أظهرت ملك حفنى ناصف اهتماماً خاصاً بالعلم، فترى أن العلم نور للعقل على أى حال سواء عمل به أم لم يعمل، فلو لم يكن للعلم لذة فى ذاته لما اشتغل بتحصيله الملوك، وهم واثقون أنهم لن يكونوا مهندسين ولا بحارة ولا سائقى قطارات. ولهذا فإن ملك حفنى ناصف ترى أن العلم ضرورى للبنات أيضاً<sup>(٧٤)</sup>.

وبسبب الظروف الاقتصادية السيئة التى كان يعانى منها الشعب المصرى حينئذ طالبت ملك حفنى ناصف بالإكثار من مجانية التعليم، وجعل التعليم الأولى "الإلزامى"<sup>(٧٥)</sup> إجبارياً على قدر الإمكان فى مدارس البنات الموجودة حينئذ أو إنشاء غيرها لهذا الغرض، وكانت مما قالته ملك حفنى ناصف فى هذا الصدد " أن كثيراً من الفقيرات يحب أهلن أن يعلموهن فلا يجدون لهن فى المجانية مكاناً، تكون النتيجة تركهن بلا تعليم، ولا تهذيب، فتنشئن جاهلات، وتكن أعضاء مشلولة فى جسم الأمة المصرية. وإذا لم تقم نظارة المعارف، بتعليم الفقيرات من الشعب، فواجب ديوان الأوقاف أن يخصص لهن من الأموال الخيرية ما يفى بالحاجة، ولا ننسى أن نذكر الجمعيات الخيرية، وأغنياء الأمة بتعليم الفقراء من أبنائها وبناتها ليساعدوا على ترقى الأمة فى معارج الفلاح"<sup>(٧٦)</sup>.

وترفض ملك حفنى ناصف، خوف بعض الرجال من مزاحمة المرأة لهن فى مجال التعليم "لأن المرأة ما زالت فى مراحلها الأولى، وأننا لا نزال فى الدور الأول من التعليم، ولا تزال عاداتنا الشرقية، تثبتنا من الاستمرار على الدرب الكثير، فليهنأ بوظائفهم ماداموا يرون مقاعد الحقوق والهندسة، والطب والجامعة، خالية منا، فليقروا عيوناً ولينعموا"<sup>(٧٧)</sup>.  
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

وفى تناولها لقضية التعليم، اهتمت ملك "بنوعية التعليم". وهو أمر أملتة خبرتها كمعلمة، تعلمت فى مدارس أجنبية ووطنية، ثم اشتغلت بالتدريس. فى هذا الإطار كانت ملك دائمة الدفاع عن المدارس الوطنية.. رغم مشكلاتها - من منطلق أنها هى المنوطة بحفظ محددات الهوية من تاريخ وأخلاقيات، بينما المدارس الأخرى تقدم الثقافة الغربية. ولقد طالبت ملك حفنى ناصف بالفصل بين البنين والبنات فى جميع مراحل التعليم، لأنه مغاير للطريقة الحديثة بأوروبا من الجمع بين الجنسين فى مدرسة واحدة. إلا أن ملك نادى بتوحيد مناهج التعليم،<sup>(٧٨)</sup> وأن تتفق هذه المناهج فيما يصح الاشتراك فيه كمكارم الأخلاق ومحاسن الصفات ولكى يستعد كل فيما يخص له.

وهكذا تناولت ملك حفنى ناصف قضايا المرأة بالنقد والتحليل ووضع بعض الحلول لمشاكلها، وما يواجهها من الصعاب فى المجتمع على أسس علمية، ومن منطلق تعاليم الدين السمحة، وهى بذلك لم تخرج عن الخط الذى سار عليه الرواد الأوائل، بل أنها نظرت إلى القضية بنظرة مستقبلية لما ينبغى أن تكون عليه المرأة المسلمة.

**ملك حفنى ناصف ومناهج التعليم :****- مشكلات تعليم اللغة العربية :**

تنتقد ملك حفنى ناصف طرق تعليم اللغة العربية، التى كانت سائدة فى عصرها، كما عابت على مدرسى اللغة العربية فى المدارس، طريقة تدريسهم لهذه اللغة، وأنه لا هم لهؤلاء المدرسين سوى أن يشحنوا أذهان التلاميذ بمختلف القواعد، متعلقة فى ذلك بقولها " إن تلميذ الشهادة الابتدائية، يعجز عن كتابة خطاب صحيح أو التكلم بلغة فصلى، مع أنه يقضى أربع سنوات فى حفظ كتب النحو والتمرن عليها " ورأت ملك حفنى ناصف، أن تلميذ هذه المرحلة، يحتاج إلى سنة أو سنتين على الأكثر لتعلم مبادئ النحو فى هذه المرحلة السنوية المبكرة. ولقد وضعت الباحثة علاجاً، لتغلب على مشكلة تعلم النحو وقواعده، حيث إنها رأت أن يتم تعويد التلاميذ على سماع العبارات الصحيحة، وأن يكثر اطلاعهم على كتب اللغة المضبوطة الشكل، متينة الأسلوب، وأن ذلك يؤثر فى أذهانهم، ويربى فيهم ملكة اللغة، ويستعيضوا بالذوق الخاص فيها عن كثرة القواعد الثقيلة الجافة. ولم يفت ملك أن تؤكد على أن رأيها هذا، لا يعنى أن نستغنى عن قواعد النحو كلية، فقد يلجأ إليها عند الضرورة، وإنما هدفت من وراء علاجها هذا هو الإكثار من قراءة الكتب الصحيحة المفيدة للغة، والإقلال من حفظ قواعد النحو وضرورة التمرين والتطبيق على المحفوظ منه. كما انتقدت ملك حفنى ناصف مناهج التعليم فى المدارس ووصفتها بأنها غير وافية لأداء الغرض، فضلاً عن أنها مليئة بالحشو، وقد سئم التلاميذ منها لكثرة أوامرها ونواهيها، وأن التلميذ المعيد أكثر الناس شؤماً واشمئزازاً منها. لذلك طالبت ملك حفنى ناصف بضرورة تغيير المناهج الدراسية بين سنة وأخرى، ووضع كتب جديدة تشوق التلميذ، وتسترعى انتباههم وتزيد من نشاطهم، لأن هذه المناهج، كما رأت ملك، ما هى إلا مناهج للحفظ والتلقين ولا تساعد على الفهم أو الاستنتاج (٧٩).

**- الموسيقى :**

رأت ملك حفنى ناصف أن العالم المتمدن يتقن العزف على الآلات الموسيقية وأن المصريين مع رفقتهم الطبيعية، إلا أنهم يهملون تعلم الموسيقى، لذلك طالبت ملك، بضرورة تقرير المناهج الموسيقية فى المدارس لتدريسها، والأخذ بكل ما هو حسن فيها ولا يجب أن يقتصر الأمر على تعلم البيانو وحده. ولقد عدت ملك فوائد تعليم السيدات المصريين لفن الموسيقى، منها أنها تسهم فى تحسين حال المجتمعات النسائية فى مصر، وأنها تشغل أوقات فراغهن بشيئ مفيد يرفه الحس وينمى المشاعر (٨٠).

**- العربية الدينية :**

انتقدت ملك حفنى ناصف طريقة تعليم الدين فى المدارس، لأن هدفها ينصب على تحفيظ بعض سور القرآن الكريم دون تفسير لمعناها أو توضيح أسباب نزولها، لذلك طالبت ملك بوجود تعليم القرآن فى جميع مراحل التعليم من الابتدائى حتى المدارس العالية مع تفسير معنى كل سورة وأسباب نزولها، وتبيان ما فى هذه السور

من الإعجاز وما تشتمل عليه من روائع الحكم والفوائد. كما طالبت ملك حفنى ناصف بضرورة جعل بعض دروس القرآن الكريم، أن تكون تحريرية، يكتب فيها التلاميذ معانى السور مثل كتاباتهم لموضوعات الإنشاء كما انتقدت ملك حفنى ناصف أيضاً أسلوب المعلم فى تعليم القرآن الكريم لتلاميذه حيث قالت "لا وظيفة للمعلم إلا الجلوس ساكناً أو الإشارة لتلميذ آخر بالقراءة .." ورأت ملك أن هذه الطريقة فى حفظ القرآن الكريم أشبه بالطريقة البيغائية بغير فهم لمعنى، مما يفسد عقول التلاميذ ويميت قوة التبصر والتعقل لدى التلميذ. أما عن الحديث الشريف والسنة النبوية، فرأت ملك حفنى ناصف أنها غير موجودة بمناهج المدارس بالمرّة، واعتبرت ملك أن ذلك يعد عيباً جسيماً، لذلك طالبت بضرورة تقرير موضوعات من الحديث الشريف والسنة النبوية لتدريسها بمختلف مراحل التعليم، حتى لو على سبيل الفهم واستيعاب معناها ومضمونها وليس الحفظ والتلقين<sup>(١)</sup>.

#### ملك حفنى ناصف وقضية المعلم :

رأت ملك حفنى ناصف أن وظيفة المعلم، هى وظيفة الأنبياء والرسل، ومن أهم المهن والوظائف قاطبة، ولا بد من أن ينال المعلم حقه من العناية والاهتمام، ليكون أول اهتمامات الحكومات لما له من أثر عظيم فى حياة الشعوب والأمم، إذ أنه هو الباعث فيها الحياة، وهو الذى يكشف عن المواهب والملكات الخفية بين التلاميذ، ومساعد لل قوى الفعلية على التطور والنضوج. كما أن المعلم هو قدوة التلاميذ وإمامهم المتبوع، لأنه كما يشربهم علومه ومعارفه، فإنه يشربهم كذلك أخلاقه وتسرّى فيهم طباعه وسلوكياته. ونتيجة للأهمية التى ينالها المعلم والرسالة السامية التى يقوم بأدائها، رأت ملك حفنى ناصف ضرورة اختيار المعلم على أسس سليمة، حتى يصبح أهلاً لتلك المهنة السامية فتقول " ليس كل من يجمع صبياناً، ويلقى عليهم الدروس يسمى معلماً، وليس كل من ينجح فى تأدية مواد الامتحان يصح أن ينصب معلماً، بل للتعليم استعداد خاص وقدرة مدفونة فى صدور بعض الأفراد لا فى سائر المتعلمين، على ذلك يجب انتقاء المعلمين ممن خلقوا للتعليم بالفطرة، ومن المميزين على غيرهم فى النبوغ والأخلاق ..". وفى سبيل رفعة شأن المعلم وتوفير الحياة المادية الكريمة له، انتقدت ملك حفنى ناصف الأجر الضئيل، الذى يتقاضاه المعلم، وما يترتب على ذلك من انتقاص القيمة السامية لهذه المهنة، التى تتطلب مهاماً خاصة ومقومات متفردة. رأت ملك حفنى ناصف أن هذه الأجور الضئيلة للمعلمين إنما تؤثر تأثيراً سلبياً على تربية النشء، فقد يؤدى ذلك إلى انصراف كثير من المعلمين النابغين بعيداً عن هذه المهنة سعياً وراء المال والشهرة. فتقول "لن يرغب النابغون كثيرو الآمال والأحلام فى المستقبل، فى وظيفة المعلم الشاقة البعيدة عن مظاهر الجاه والأبهة، ما لم يجذبهم إليها جاذب النفع والمال ..". أثنت ملك حفنى ناصف على جهود الحكومة فى إنشاء المدارس، لتخريج المعلمين والمعلمات على الطرق الحديثة فى التعليم. كما أثنت على قرار الحكومة حينئذ بالمساواة فى معاملة الجنسين فى الامتحانات الموضوعية، وكذلك فى توظيفهم فى مهنة

المعلم، مما يترتب على ذلك من العدالة والمساواة بينهما، لأنها بتوحيد المعاملة تقرر (أى الحكومة) أن المرأة قرينة للرجل وكفاء له فى معادلتها فى الحقوق مثلما تعادله فى الواجبات. لاحظت ملك أن الفتيات الحضريات المترفات قليلات الجدد، وليست لديهن الملكة والاستعداد للقيام بمهنة التدريس. لذلك طالبت بضرورة ترغيبهن وتشويقهن لتلك المهنة السامية، مع ضرورة منحهن المكافآت عند ظهور نتائجهن الحسنة وإثبات قدراتهن فى أداء تلك المهنة، وصرف ما يخص من مرتباتهن لهن عند تركهن المدرسة، منتقدة ملك فى ذلك قانون المعاشات الذى كانت تتبعه الحكومة حينئذ، والذى لم يكن يتجاوز فى نهايته الكبرى سوى العشرين جنيهاً، والذى كان كما رأت ملك أحد أسباب عزوف الفتاة عن الاستمرار فى مهنة التدريس حتى سن الستين، مستندة فى ذلك إلى إحساس الفتاة بضياعها لمستقبلها مقابل أجر زهيد (١٠).

### موقف ملك حفنى ناصف من البعثات العلمية للخارج :

انتقدت ملك حفنى ناصف النظام الذى تتبعه وزارة المعارف العمومية ( التربية والتعليم الآن ) فى موضوع البعثات العلمية ونظامه خاصة تلك البعثات المرسلة إلى إنجلترا. رأت ملك حفنى ناصف أن الفتيات اللاتى يتعلمن فى مصر هم أفضل علماً وقدرة على ممارسة مهنة التدريس، من أولئك الذين يرسلن إلى إنجلترا بدعوى أن الفتيات المتعلمات فى مصر يدربن على سائر فروع التعليم ومواد العلوم المختلفة، ويمكنهن التدريس باللغة العربية أو بالإنجليزية إذا طلب منهن ذلك، وهن لطول ممارستهن التلميذات ولتخرجهن بينهن، أدرى بأخلاقهن وبمنازع تربيتهن، أفضل ممن يأتين من إنجلترا لا يعلمن من عادات البلد وتقاليده شيئاً، أو ممن يبعثن فى الإرسالية لتعلم فرع واحد من التعليم لا يمكنهن تدريس غيره. وقد استندت ملك فى رأيها هذا على أن هؤلاء الفتيات يرسلن لإنجلترا عقب نيلهن الشهادة الابتدائية مباشرة، أى فى السن الذى تنضج فيه مداركهن، مما يجعل هؤلاء الفتيات أكثر تقبلاً للثقافة الأجنبية وعادات البلاد وتقاليدها المرسلة إليها، أكثر من تقبلهم لثقافتهم العربية وبيئتهم التى نشأوا فيها، مما يؤثر بالسلب على عقول التلاميذ ونشأتهم الثقافية، بل والتربوية أيضاً نبهت ملك إلى تفريق الوزارة فى معاملة المعلمات المصريات اللاتى تعلمن فى مصر، والمعلمات المصريات اللاتى تلقين تعليمهن فى الخارج. حيث كانت أجور المعلمات المصريات اللاتى تعلمن فى مصر رغم كفاءتهن، أقل بكثير من المعلمات المصريات اللاتى تعلمن بالخارج، وكذلك أغلب المعلمات الأجنبية كانت أجورهن مرتفعة للغاية. وقد رأت ملك أن هذا التفريق فى المعاملة قد يؤدى إلى عوامل عكسية تؤثر بالسلب على تلك المهنة السامية بدون مبرر. وقد يحملن كثيرات منهن على ترك التعليم كلية.

وضعت ملك حفنى ناصف حلاً جذرياً للمساواة فى المعاملة وهو أن يكون ميزان الترقى هو الكفاءة وليس التخرج فى البلاد الأجنبية، وتثبت تلك الكفاءة بعد التمرين عملياً على التعليم سنة أو سنتين فى مدارس مصر، وهذا يحدث لخريجات مصر فقط، ولا يحدث لمثلهن فى الخارج " خريجات مصر هن وحدهن النابغات فيه فإنهن لا ينلن

شهاداتهم (الدبلومات) إلا بعد أن يمضين سنتين تمريناً عملياً بعد نجاحهن في الامتحانات. أما الأجنيبات وخريجات مصر في الخارج فلا يؤدين أي تمرينات. وفي هذا التباين في المعاملة والتفريق في المساواة من الغبن الفاحش على الوطنيات على ما فيه من الظلم والتصف بدون مبرر. "إلا أن ذلك لا يعنى أن ملك حفنى ناصف تعرض على إرسال الفتيات المصريات إلى الخارج لتلقى العلوم والاستزادة منها، ولكنها نبهت الحكومة والوزارة إلى ضرورة اتباع الحيطة والحذر في مراقبة هؤلاء الفتيات المرسلات للخارج في بعثات علمية، وذلك لظروف المرحلة السنوية التي يسافرن فيها أولئك الفتيات، والتي تكون في الغالب من سن اثني عشر إلى ستة عشر سنة. ويكون هؤلاء الفتيات بلا رقابة في بلاد يجهلن فيها هؤلاء الفتيات عادات وتقاليد أهلها. وقد ينبهر هؤلاء الفتيات من حرية المرأة هناك وتحررها من القيود، واختلاف طبائعهم وعاداتهم عن مجتمعاتنا، وهذا يدعو أسر هؤلاء الفتيات إلى التخوف من إرسال بناتهن ضمن تلك البعثات، مما يوجب على الوزارة وضع أسس ومعايير علمية مدروسة للحفاظ على بناتنا من الانسياق وراء المدنية الغربية انسياقاً أعمى، مما يؤثر على عقول بناتنا عند عودتهم للتعليم في المدارس المصرية.

**وفساء ملك حفنى ناصف :**

أصيبت ملك حفنى ناصف بالحمى الإسبانية التي أنهكت قواها، فأفقدتها الحياة لتفارق الدنيا في يوم السابع عشر من أكتوبر عام ١٩١٨م، وهي في سن الثانية والثلاثين من عمرها. وشيعت جنازتها من شبرا، وصلى عليها في جامع أولاد عنان بميدان باب الحديد (رمسيس)، وسارت الجنازة من ذلك المكان سيراً على الأقدام حتى مدافن الأسرة بالإمام الشافعي. وفي هذه الجنازة انقلبت مدينة القاهرة رأساً على عقب، لأن النساء شاركن الرجال في تشييع هذه الجنازة الكبيرة، فكانت جمهرة الكبراء ورجال الفكر وطلبة المدارس الثانوية والعليا، تسير في جنازتها يتقدمها مندوب من قصر السلطان لتقديم العزاء الشخصي (لأن المندوب لم يكن ليسير بصفة رسمية في جنازات النساء) وكذلك رئيس الوزراء والوزراء وكبار الموظفين، وبعض النزلاء الأجانب، ومراسلي الصحف الوطنية والأجنبية، وكانت السيدات يملأن الشرفات على طول الطريق وهن يبكين بكاءً مرأ على الفقيدة، وقد ظللن حزينات على هذا المصاب الأليم المفاجئ. (٨٣)

وكان حفل تأبينها أشبه بمظاهرة لمطالب المرأة، كما تنوعت كلمات الرثاء، فعنها يقول أحمد لطفى السيد " أنها أفضل سيدة قرأنا كتاباتها في عصرنا الحاضر "حيثئذ"، بل تعطينا صورة الكاتبات العربيات اللاتي تفوقن على كثير من الكتاب "وقد نعتها جريدة السفور بقولها " لسنا نعظم أن تاريخنا الحديث شهد حسرة الناس لموت سيدة، كما شهد حسرتهم لموت باحثة البادية" (٨٤).

وقد رثاها أيضاً الشاعر خليل مطران في حفل تأبينها بالجامعة المصرية فقال: (٨٥)

تجديد ذكراك على الدهر  
أدرکه أعلى من النصر  
جدت فحیی طلعة الفجر

یا آية العصر حقیق بنا  
جاهدت لكن النجاح الذى  
بدت تباشیر الحياة التى

كما رثاها الشيخ مصطفى عبد الرازق فى حفلة تأبينها. وعدد عبد الرازق فى خطبته هذه، جهود باحثة البادية فى المجال الاجتماعى، وما بذلته من تضحيات فى سبيل إعلاء شأن المرأة المسلمة والعربية، موضحاً نبوغها وموهبتها الفطرية، وسعة إدراكها، وكان مما قاله عبد الرازق فى هذا الشأن " كان صوت باحثة البادية قوة لأنصار الإصلاح، فلما خفت أحسست بمكان البلاد خالياً، كان صوت باحثة البادية فى إصلاح حال المرأة عندنا، أقرب الأصوات إلى قلوب النساء، وأقواها تأثيراً. كانت تريد للمرأة المصرية، أن يملأ العلم عقلها، ويملاً الإيمان قلبها، لتغلب بقوى العلم والإيمان، كل ما يقف فى سبيل حرمتها ورفيها... "كذلك رثتها صديقتها" مى زيادة " فى حفل تأبينها. وقد نشر هذا الرثاء فى مجلة الهلال، وكانت مما ذكرته فى شأن الباحثة " أن لباحثة البادية مركزاً فريداً فى الحركة الفكرية عندنا بعد أن قام قاسم أمين، يقول بتحرير المرأة وبإعطائها ما لها من حقوق أدبية واجتماعية، قامت باحثة البادية تؤيد كلامه مظهرة أهلية المرأة وكرامتها، ودرجة الارتقاء العالية التى يمكنها الوصول إليها. قامت هذه المرأة العبقرية ابنة الرجل (العبقرى) تدرس أحوال البيئة المصرية، فكان لها من ذكائها الفطرى مرشداً أميناً، ومن إحساسها العميق منبه مخلص، ومن قلمها العربى الصميم أبلغ ترجمان وخير رسول. رأت الباحثة حاجة قومها إلى الإصلاح، وظلت تكتب وتخطب ناشدة الإصلاح"<sup>(٨٦)</sup>. أيضاً رثتها السيدة هدى شعراوى فى خطبة الافتتاح فى حفل تأبينها بالجامعة المصرية وكان مما ذكرته " كانت الباحثة أول مصرية دفعها النبوغ وساقها النبل والفضل والإخلاص الى هذه الدار لنلقى عليك نتائج اختباراتنا، وخلاصة أفكارها ومعلوماتها للنهوض بكن فى معترك الحياة الى مدارك النجاح والفلاح، شارحة لكل تلك العطل التى تهدد حياتنا القومية، وآدابنا الشرقية ولم تقتصر على وصف الداء وتشخيصه، بل وقفت بكن على الدواء الناجح لكل داء"<sup>(٨٧)</sup>.

كما خصصت المجلات والصحف لفترة طويلة بعد وفاتها صفحات كاملة للتأبين، ولم يبخل شاعر أو كاتب أو خطيب لم يوف ملك حقها من الوفاء والتكريم والثناء على مجدها وتاريخها الحافل. كما كرم ملك حفنى ناصف بعد وفاتها، العديد من الجهات الرسمية، حيث كانت الجامعات والمدارس والصحف والإذاعة، تحتفل بذكرها كل عام. كما احتفلت بها مدارس البنات قاطبة فى عام ١٩٥٨م بذكرها الأربعين لوفاتها بصفة رسمية، وذلك بتوجيه من وزارة التربية والتعليم، بناءً على توصية من المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، الذى أوصى أيضاً فى تلك المناسبة مصلحة البريد بإصدار طابعين تذكارين لملك ولأبيها، غير أن الطابعين لم يصدرا لضيق الوقت. أيضاً هناك العديد من المدارس والشوارع التى تحمل اسمها تخليداً لذكرها وتقديراً لدورها فى الحياة الاجتماعية المصرية.<sup>(٨٨)</sup>

## خاتمة :

بعد هذا العرض عن شخصية ملك حفنى ناصف، ودورها فى الحياة الاجتماعية المصرية، يمكننا أن نتساءل هل غيرت ملك من أحوال المرأة فى عصرها ؟ وهل أثمرت دعوتها تلك ؟ من الملاحظ أن ملك لم تكن تقف وحدها، كان قاسم أمين الذى خاض غمار المعركة الكبرى معاصرا لها، دعا الى السفور وفسر دعوته إزاء الجمود والرجعية، بأنه يمكن أن يكون سفورا تدريجيا، ولكنه دعا إلى تأليف جماعة من مائة تنزع نساؤهم وبناتهم الحجاب دفعة واحدة لتنفيذ الدعوة. أما ملك فكانت ترى أنه من طبيعة الأشياء أن نتدرج كثيرا ونتأنى فى موضوع الحجاب والسفور إلى أن تحصن المرأة بالعلم.

إن دعوة ملك هذه من أجل الدفاع عن المرأة وحقوقها، كانت دعوة وسطية اتسمت بالعقل والهدوء الفكرى الملائم لظروف المجتمع المصرى وتقاليدده فى تلك الفترة، فلم تكن دعوتها حربا بين جنسين، بل إن أكثر مكاسب المرأة كانت نتيجة لجهود متضافرة من النساء والرجال على السواء، فنضجت حركة تحرير المرأة وأصبحنا نرى المجتمع كله وحدة متماسكة، أية مشكلة فيه هى مشكلة تصيب المجتمع كله وأى خلل فيه يصيب الكيان كله بالمرض والفوضى، وهكذا بفضل ملك حفنى ناصف وأمثالها ممن تزعمن الحركة النسائية فى الشرق العربى، لم تأخذ الدعوة صورة من صور الانحراف أو المبالغة ولا صورة من صور الخلل أو العنف، وإنما سارت الحركة ببركة الدين الإسلامى الحنيف فى مدار واضح وإلى غايات لا يختلف حول جوهرها رجال ولا نساء.

لقد دعا رفاة الطهطاوى وعلى مبارك ومحمد عبده وقاسم أمين، كما دعت عائشة التيمورية وملك حفنى وهدى شعراوى وغيرهن من السيدات العربيات إلى تعليم المرأة. ولو أن العمر امتد بملك لأدت للمرأة أضعاف ما قدمت، ولكن يكفينا أنها كانت رائدة فى الميدان، فلم تحمل امرأة قبلها على عاتقها دعوة الإصلاح فى أحوال المرأة بمثل هذا الوضوح والتخصص والحماس. وهل نريد من رائدة نسائية فى زمانها عدا عليها الموت قبل أوانه أن تقدم أكثر مما قدمت. ويمكن القول إن المكاسب التى حصلت عليها المرأة من جراء مشاركتها فى ثورة سنة ١٩١٩م إنما تحققت نتيجة لجهود دعاة الإصلاح رجالا ونساء وكان من بينهن ملك حفنى ناصف فى دفاعها عن حقوق المرأة ومحاولات إصلاح أحوالها وأوضاعها فى المجتمع. ومما لا شك فيه أن هذه المكاسب لم تكن من جهاد ملك وحدها ولكن بعضه يعود إليها إن الإصلاح لا يمكن أن يتم نتيجة مجهود فرد إنما يتم نتيجة تضافر آلاف الجهود ويثمر بعد أن يرويه عرق الملايين.

على أية حال فإننا لا ندرى ولا نعلم ماذا كان يمكن أن تفعله رسالة امرأة فى مكان باحثة البادية لو بلغت بأفكارها مدى أبعد فالقدر لم يمهلها حيث إنها توفيت وهى فى ريعان شبابها عن عمر يناهز اثنين وثلاثين عاما لكن البذرة التى غرستها لاتزال

مستمرة في أجيال من النساء، كما أن أسمها سوف يبقى خالدا مادامت كلماتها وآرائها  
الإصلاحية باقية.





## الهوامش

- <sup>1</sup> عاشت ملك حفنى ناصف فى أطراف الصحراء فى بادية الفيوم، وذلك بعد زواجها من عبد الستار الباسل شيخ قبيلة الرماح بالفيوم فى مارس ١٩٠٧م، حيث ذهبت ملك للحياة معه فى الصحراء. وهناك نادت ملك بتعميرها وأطلقوا عليها باحثة البادية : فاطمة محمد علوان إبراهيم : قضايا المرأة فى مجلس النواب المصرى من سنة ١٩٢٤ - ١٩٥٢م رسالة ماجستير غير منشورة نوقشت بكلية البنات، جامعة الأزهر سنة ٢٠٠٥م ص ١٤٩، ١٥٠.
- <sup>2</sup> ( مجد الدين حفنى ناصف " آثار باحثة البادية " ملك حفنى ناصف " ( ١٨٨٦ - ١٩١٨ ) تجميع وتبويب، تقديم دكتورة سهير القلماوى، وزارة الثقافة والارشاد القومى - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - الطبعة الأولى سنة ١٩٦٢م. ص ١١.
- <sup>3</sup> ( هو الشقيق الأكبر للملك فؤاد بن الخديوى إسماعيل وسلطان مصر من سنة ١٩١٤م إلى سنة ١٩١٧م.
- <sup>4</sup> ( جورجيت عطية إبراهيم : هدى شعراوى : الزمن والريادة، الجزء الأول، دمشق - دار عطية للنشر سنة ١٩٩٨م ص ٦٦.
- <sup>5</sup> ( كان والد ملك " حفنى ناصف " قد تأثر بأفكار الشيخ محمد عبده بعد حضوره لدروسه فى الأزهر الشريف وأصبح صديقاً له. كما أن أن ملك حفنى ناصف قد تأثرت تأثراً شديداً بصديق والدها الشيخ محمد عبده، حيث عاصرتة ملك وهو يشتغل بالقضاء والتعليم وبالإستزادة من العلم فى مصر وخارجها وبممارسة الإصلاح ومقاومة الفساد والطغيان، فتشبعت ملك بروحه، واتخذته مثلاً أعلى. وكانت قراءتها له تشغله منها هذه الهمة، لأن هذه القراءات كانت عربية إسلامية فى إطار من التمدن الغربى. : مجد الدين حفنى ناصف : المرجع السابق ص ٤٣، محمد خلف الله أحمد : محاضرات عن حفنى ناصف كاتباً وباحثاً، جامعة الدول العربية معهد الدراسات العربية العالية سنة ١٩٦١م ص ٩ وما بعدها.
- <sup>6</sup> ( هند مصطفى على محمد الشلقانى : الإصلاح السياسى فى خطاب المرأة المصرية ( ١٨٩٢ - ١٩٥٢م ) دراسة فى خطابه ملك حفنى ناصف وهدى شعراوى، رسالة ماجستير غير منشورة، نوقشت بكلية الإقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة - نوفمبر ٢٠٠٤م ص ١٩٧.
- <sup>7</sup> ( مجد الدين حفنى ناصف : المرجع السابق ص ٤٣، ملك حفنى ناصف :. النسائيات، الجزء الأول، القاهرة، دار التقدم للنشر والتوزيع د.ت ص ١١.
- <sup>8</sup> ( كانت المدرسة السنية فى الأصل، تسمى بالمدرسة السيوفية، التى أنشأتها زوجة الخديوى إسماعيل " حشمت آفت هانم أفندى " فى أول يناير ١٨٧٣م، ثم أهملت هذه المدرسة، بعد عزل الخديوى إسماعيل من الحكم، حتى تسلمتها نظارة المعارف عام ١٨٨٩م، وأطلق عليها اسم المدرسة السنية ويحمل خريجاتها الشهادة الابتدائية أسوة بالبنين.

<sup>9</sup> ذكر في كتاب " آثار باحثة البادية " وكذلك الكثير من المصادر والمراجع، أن ملك كانت أول فتاة مصرية حصلت على الشهادة الابتدائية من المدرسة السنوية عام ١٩٠٠م. إلا أن أميرة خواسك، أوضحت في كتابها " معركة المرأة المصرية للخروج من عصر الحريم " أن خريجات الدفعة الأولى من المدرسة السنوية عام ١٩٠٠م، كان إلى جانب ملك حفنى ناصف كل من فيكتوريا عوض وأولجا بلتش : أميرة خواسك : معركة المرأة المصرية للخروج من عصر الحريم، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ٢٠٠٠م ص ١٦ .

<sup>10</sup> ( وزارة التربية والتعليم : متحف التعليم، لوحة رقم ( ٨٥٩ ) بيان بأسماء الرعيل الأول من الحاصلات على دبلوم معلمات السنوية. وفي هذه اللوحة إشارة إلى حصول ملك حفنى ناصف وفكتوريا عوض على شهادة الدبلوم من المعلمات السنوية عام ١٩٠٣م. بيان بأسماء الرعيل الأول من الحاصلات على دبلوم معلمات السنوية :

السنة	الأسم
١٩٠٣	فيكتوريا عوض - ملك حفنى ناصف
١٩٠٤	آسيا عبد الفتاح
١٩٠٥	نور الهدى عبد الله
١٩٠٦	نبوية موسى - بهية حسونة - أديل دياب
١٩٠٧	تفيدة على - حبيبة نصار - كاترين وهينتى
١٩٠٨	أمينة إبراهيم - نبيهة على - روقية رمضان
١٩٠٩	فردوس على - حميدة محمد - فكرية منسى - جليلة صادق - فينيس فورتوناتا نيازي
١٩١٠	تقريزي ديابي - فاطمة منصور - لبيبة مصطفى

متحف التعليم : لوحة رقم ( ٨٥٩ ) .

- <sup>11</sup> ( ملك حفنى ناصف : النسائيات، الجزء الأول المرجع السابق ص ١٠ .
- <sup>12</sup> ( مجد الدين حفنى ناصف : المرجع السابق ص ٢٩٧، ٤٣، ٤٢ .
- <sup>13</sup> ( ملك حفنى ناصف : النسائيات، الجزء الأول، المرجع السابق ص ١١ .
- <sup>14</sup> ( مجد الدين حفنى ناصف : المرجع السابق ص ٤٣، ٤٤ .
- <sup>15</sup> ( أشرف غريب أحمد محمد : الحركة النسائية فى مصر فى النصف الأول من القرن العشرين، رسالة ماجستير غير منشورة نوقشت بكلية التربية - جامعة عين شمس - قسم التاريخ ٢٠٠٩م ص ١٠٦ .

<sup>16</sup> ( كان زواج الباحثة من النقلاات الهامة فى حياتها، فرغم أنها رفضت الكثير من الخاطبين تمسكاً بإتمام التعليم والعمل فى التدريس، فقد جاء زواجها نتيجة وساطة قوية من قبل صديق والدها الشيخ عبد الكريم سلمان وكان هذا رئيس المحكمة الشرعية العليا كما زامل حفنى

ناصر كآحد محررى الوقائع المصرىة؁ وقد أختار ملك لمن عرفه لوالدها بأنه أحسن الرجال خلقاً وعربى أصىل وأدبى مطلع؁ وهو عبد الستار الباسل ووجه قبىلة الرماح بالفىوم؁ وقد وافق حفى وأبنته على الزواج لما علماه عن أخلاق الزوج ومكانته؁ ثم انتقلت ملك إلى أملاك زوجها فى الفىوم وأطلق عليها " باحثة البادىة " : هند مصطفى على محمد الشلقانى : المرجع السابق. ص ٢٠٠.

١٧ ( مجد الدين حفى ناصر : المرجع السابق ص ٤٨ - ٥١ .

١٨ ( عمر رضا كحالة : أعلام النساء فى عالمى العرب والاسلام؁ الجزء الخامس؁ بىروت؁ مطبعة الرسالة؁ الطبعة العاشرة؁ سنة ١٩٩١م ص ٧٦؁ أشرف غرىب أحمد محمد: المرجع سابق ص ١١٠.

١٩ ( مجد الدين حفى ناصر : المرجع السابق ص ٥٢؁ ٥١.

٢٠ ( ملك حفى ناصر : النسائىات الجزء الأول المرجع السابق ص ١٥.

٢١ ( محمد رجب البىومى : النهضة الإسلامىة؁ الجزء الخامس؁ القاهرة؁ سلسلة البحوث الإسلامىة؁ المجلس الأعلى للشئون الإسلامىة سنة ٢٠٠٠م ص ١٤٨؁ أشرف غرىب أحمد محمد : المرجع السابق ص ١١٠.

٢٢ ( سامىة حسن الساعاىى : المرأة والمجتمع المعاصر؁ الناشر الدار المصرىة السعودىة للطباعة والنشر والتوزىع - القاهرة - سنة ٢٠٠٦ ص ٥٩؁ ٦٠.

٢٣ ( Beth baron: thewomens Awaking In Egypt (New haven : yale uni .

http://Archivebeta.stanly press 1994)p.174-175

٢٤ ( هو المؤتمر الذى دعى إىه محمد سعىد باشا؁ رداً على المؤتمر القبطى الذى عقد فى أسىوط فى الفترة من ٥ - ٨ مارس سنة ١٩١٠م للإعلان عن بعض المطالب الخاصة بهم. وقد عقد المؤتمر المصرى الأول فى الفترة من ٢٩ إبرىل إلى ٤ مايو ١٩١١م؁ وطبعت أعمال ذلك المؤتمر فى مجموعة طبعتها المطبعة الأمىرىة العربىة فى ٢٠٤ صفحة من القطع الكبىر؁ كما طبعت لها ترجمة فرنسىة كاملة: مجد الدين حفى ناصر: المرجع السابق. ص ٥٢ - ٥٣؁ محمد محمد حسىن : الاتجاهات الوطنىة فى الأدب المعاصر؁ الجزء الأول؁ القاهرة؁ مكتبة الآداب؁ د.ت ص ١١٨.

٢٥ ( آمال كامل السبكى : الحركة النسائىة فى مصر ماىبن الثورتىن " ١٩١٩-١٩٥٢م" القاهرة الهيئة المصرىة العامة للكتاب سنة ١٩٨٦م ص ٩٧؁ ٩٦ .

٢٦ ( رفضت هذه المطالب برمتها؁ حىث لم يكن لهذا المؤتمر أى سلطة تشرىعىة أو تنفيذىة؁ وكانت أهمىته تكمن فى كونه سجلاً للبرامج المآختلفة؁ ولىس أداة تنفيذىة : وزارة الشئون الاجتماعىة؁ الإدارة العامة لشئون المرأة : ندوة قضاىا المرأة المصرىة بىن الواقع والمستقبل بحث للدكتورة فرآندة حسن بعنوان " رؤىة متكاملة لتحقيق مشاركة المرأة فى الحىاة السىاسىة " (التحدىات وإجراءات المواجهة) ١٨ - ١٩ فبرارى ١٩٩٧م ص ٥ كذلك :

Beth baron : op.cit: p.175

- 27 ( أشرف غريب أحمد محمد : المرجع السابق ص ١٠٨ .
- 28 ( هند مصطفى على محمد الشلقاني : المرجع السابق ص ٢١٦ .
- 29 ( جاء تعيين بطرس باشا غالى رئيساً للوزراء خلفاً لحكومة مصطفى باشا فهمى الذى استقال فى ١١ نوفمبر ١٩٠٨م لأحتواء غضب الشعب المشتعل من حادثة دنشواى .
- 30 ( كان أول ظهور لهذا القانون فى ٢٦ نوفمبر ١٨٨١م، إبان الثورة العرابية، للحد مما وصلت إليه الصحافة فى دعوتها إلى الحرية، وكان يخول لوزارة الداخلية حق إنذار الصحف، وتعطيلها مؤقتاً أو نهائياً بدون محاكمة، أو بدون قرار من مجلس النظار، أو بدون إنذار سابق، وقد اشتمل هذا التشريع على ٢٣ مادة. : أشرف غريب أحمد محمد : المرجع السابق ص ١٠٦، ١٠٧ .
- 31 ( ملك حفنى ناصف : النسائيات، الجزء الأول ، المرجع السابق ص ١٣ .
- 32 ( مجد الدين حفنى ناصف : المرجع السابق ص ٣٨ ، درية شفيق : المرأة المصرية من الفراغة إلى اليوم القاهرة، سنة ١٩٥٥م ص ٩٠ .
- 33 ( كان ذلك بفضل شقيقها مجد الدين حفنى ناصف، الذى ربما كان أول مصرى متخصص فى الدراسات الاجتماعية فى مدرسة العلوم الاجتماعية فى باريس بعد تخرجه من السوربون فى العقد الثانى من القرن العشرين : سامية حسن الساعاتى : المرجع السابق ص ٥٩ .
- 34 ( كانت مسز " شارلوت كمرون " عضو الجمعية الجغرافية الملكية بلندن والتي زارت مصر ومرت بالفيوم حيث أستقرت ملك هناك بعد زواجها من عبد الستار الباسل : ملك حفنى ناصف : النسائيات الجزء الأول المرجع السابق ص ١٤ .
- 35 ( ملك حفنى ناصف : النسائيات، الجزء الأول، المرجع السابق ص ١٤ .
- 36 ( حمد الباسل من زعماء الحركة الوطنية بمصر عام ١٩١٩م، مغربى الأصل، ولد بمصر عام ١٨٨١م. منشأه نشأة بدوية، كان عمدة لقبيلة الرماح بالفيوم، خلفاً لوالده محمود بن حمد. كان حمد أحد أعضاء الجمعية التشريعية، اشترك مع سعد زغلول فى الحركة الوطنية، ونفى معه إلى مالطة عام ١٩١٩م، أختير وكيلاً للوفد المصرى، وألف كتاباً أسماه " نهج البداوة " . توفي عام ١٩٤٠م. : أشرف غريب أحمد محمد : المرجع السابق ص ١١٠ .
- 37 ( مجلة العربى، عدد يونيو سنة ٢٠٠٠م مقال لإقبال بركة بعنوان : باحثة البادية " ملك حفنى " هل كانت ضد تحرير المرأة ؟ ص ٢٧ .
- 38 ( أشرف غريب أحمد محمد : المرجع السابق ص ١١٠، ١١١ .
- 39 ( أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ٤٤، ٤٥ .
- 40 ( هند مصطفى على محمد الشلقاني : المرجع السابق ص ٢١١ .
- 41 ( ملك حفنى ناصف : النسائيات، الجزء الأول ، المرجع السابق ص ٧٣ ، ٧٤ .
- 42 ( نفسه : ص ٢٢، ٢٣ .
- 43 ( أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ٤٧ .
- 44 ( هند مصطفى على محمد الشلقاني : المرجع السابق ص ٢٠٠ .

45 ( من المعروف أنه في مرحلة تاريخية ما، كانت ملك حفنى ناصف مع رموز أخرى على رأسها هدى شعراوى ونبوية موسى ومى زيادة، جزء من النخبة المثقفة ذاتها، وأعضاء فى جمعيات نسائية بعينها، أنشئت بمبادرات فردية، كان لملك الدور الأكبر فيها من ذلك " الاتحاد النسائى التهنيدى " حيث كانت المصريات والأوروبيات يجتمعن معاً لتبادل الأحاديث والمعلومات بشكل غير رسمى. فضلاً عن جمعية الرقى الأدبية للسيدات المصريات، التى أستهدفت إعداد وتقديم المحاضرات المخصصة للنساء :هند مصطفى على محمد الشلقانى : المرجع السابق ص ١٨٧.

- 46 ( أحمد محمد سالم : المرجع السابق : ص ٤٧ ، ٤٩ .
- 47 ( مجد الدين حفنى : المرجع السابق ص ١٦٠ ، ١٦١ .
- 48 ( أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ٨٩ .
- 49 ( مجد الدين حفنى ناصف :: المرجع السابق ص ٦٤ ، ٢ .
- 50 ( أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ٢٦١ .
- 51 ( هند مصطفى على محمد الشلقانى : المرجع السابق ص ٢٠٥ .
- 52 ( أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ٢٦٢ .
- 53 ( مجد الدين : حفنى ناصف : المرجع السابق ص ١٤١ ، ملك حفنى ناصف :النسائيات الجزء الأول المرجع السابق ص ٢٠ .
- 54 ( أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ٤١٢ ، ٤١٣ .
- 55 ( ملك حفنى ناصف : النسائيات الجزء الأول المرجع السابق ص ٤٥ ، هند مصطفى على محمد الشلقانى : المرجع السابق ص ٢٠٥ .  
<http://Archivebea.sakhi.com>
- 56 ( أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ٤١٣ .
- 57 ( هند مصطفى على محمد الشلقانى : المرجع السابق ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .
- 58 ( ملك حفنى ناصف : النسائيات الجزء الأول المرجع السابق ص ٤٤ .
- 59 ( مجد الدين حفنى ناصف : المرجع السابق ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ٤٢٩ .
- 60 ( ملك حفنى ناصف : النسائيات، الجزء الأول، المرجع السابق ص ٤٢ .
- 61 ( مجد الدين حفنى ناصف : المرجع السابق ص ١٢٧ .
- 62 ( أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ١٧١ ، ١٧٢ .
- 63 ( ملك حفنى ناصف : النسائيات الجزء الأول ، المرجع السابق ص ٢٨ .
- 64 ( أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ١٧٢ ، ١٧٣ .
- 65 ( ملك حفنى ناصف : النسائيات الجزء الأول، المرجع السابق ص ٢٨ ، ٢٩ .
- 66 ( أميرة خواسك : المرجع السابق ص ٨١ .
- 67 ( ملك حفنى ناصف : النسائيات الجزء الأول ، المرجع السابق ص ١٠٩ .
- 68 ( أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ٣٧٨ .

- 69 ( مجد الدين حفنى ناصف : المرجع السابق ص ١٢٨ .
- 70 ( أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ٣٧٨ .
- 71 ( نفسه : ص ١٠٢ ، ١٠٣ .
- 72 ( هند مصطفى على محمد الشلقانى : المرجع السابق ص ٢١٦ ، ٢١٥ .
- 73 ( نفسه : ص ٢١٠ .
- 74 ( ملك حفنى ناصف : النسائيات ، الجزء الأول ، المرجع السابق ص ٧٩ .
- 75 ( "التعليم الالزامى" هو الخد الأدنى من التعليم الذى يجب أن يناله أبناء الأمة جميعا فيمحو أمية المواطنين ويكسبهم قدرة التميز العقلى والتوافق الاجتماعى . وقد أبدت مصر قدرا من الأهتمام بهذا التعليم منذ عام ١٨٦٧م عندما أصدر على مبارك لائحة رجب الشهيرة لنشر التعليم الالزامى وتعميقه لكن هذه التجربة لم تكلل بالنجاح ، حتى جاء الانجليز ودعا اللورد كرومر إلى نشر التعليم الأولى فى الكتاتيب وفصول محو الامية : Lord loyld : Egypt since Cromer vol 1 London 1937 p.160
- 76 ( مجد الدين حفنى ناصف : المرجع السابق ص ١٢٥ ، أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ٢٩٤ .
- 77 ( أحمد محمد سالم : المرجع السابق ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .
- 78 ( Abu -Alfutouh Redwan:old and new forces in Egypt Education . new york 1951 p.111
- 79 ( مجد الدين حفنى ناصف : المرجع السابق ص ١٥١ ، ١٤٩ .
- 80 ( ملك حفنى ناصف : النسائيات ، الجزء الأول ، المرجع السابق ص ١٢٩ ، ١٣٠ .
- 81 ( جريدة الوطن : عدد ١٦ فبراير سنة ١٩١٨ م .
- 82 ( الأهرام : عدد ٥ يناير سنة ١٩١٨ م .
- 83 ( مجد الدين حفنى ناصف : المرجع السابق ص ٦٦ ، ٦٥ .
- 84 ( جريدة السفور : عدد ٢٤ أكتوبر سنة ١٩١٨ م ، أشرف غريب أحمد محمد : المرجع السابق ص ١١١ ، إملى نصرالله : نساء رائدات من الشرق ، الجزء الثانى الدار المصرية اللبنانية ، طبعة أولى سنة ٢٠٠١م ص ٧٢ ، يوسف نوفل : شاعر الشعب وشاعر النيل (حافظ إبراهيم) القاهرة الدار المصرية اللبنانية سنة ١٩٩٧م . ص ٥ .
- 85 ( جريدة الوطن : عدد ٢ مايو سنة ١٩١٩ م .
- 86 ( جريدة الهلال : فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٩١٨ .
- 87 ( ملك حفنى ناصف : النسائيات ، الجزء الثانى ، دار الهدى للطبع والنشر والتوزيع د . ت ص ٣٨ .
- 88 ( مجد الدين حفنى ناصف : المرجع السابق ص ٦٧ ، ٦٦ .

## المصادر والمراجع

أولاً : وثائق غير منشورة :

وزارة التربية والتعليم : متحف التعليم، لوحة رقم ( ٨٥٩ ) بيان بأسماء الرعييل الأول من الحاصلات على دبلوم معلمات السنية.

ثانياً : مذكرات وذكريات شخصية :

١- مجد الدين حفنى ناصف : آثار باحثة البادية " ملك حفنى ناصف " ١٨٨٦-١٩١٨ م جمع وتبويب مجد الدين حفنى ناصف تقديم دكتورة سهير القلماوى.وزارة الثقافة والارشاد القومى - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - الطبعة الأولى سنة ١٩٦٢م.

٢- ملك حفنى ناصف:النسائيات الجزء الأول والثانى،دارالهدى للطبع والنشر والتوزيع د. ت.

ثالثاً : المراجع العربية :

١- أمال كامل السبكي : الحركة النسائية فى مصر ما بين الثورتين " ١٩١٩-١٩٥٢م" القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٦م.

٢- إملى نصرالله : نساء والدات من الشرق،الجزء الثانى الدار المصرية اللبنانية، طبعة أولى سنة ٢٠٠١م.

٣- أميرة خواسك : معركة المرأة المصرية للخروج من عصر الحريم الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٠م.

٤- جورجيت عطية إبراهيم : هدى شعراوى الزمن والريادة، الجزء الأول، دمشق دار عطية للنشر سنة ١٩٩٨م.

٥- درية شفيق : المرأة المصرية من الفراغة إلى اليوم القاهرة سنة ١٩٥٥م.

٦- سامية حسن الساعاتى : المرأة والمجتمع المعاصر الناشر الدار المصرية السعودية للطباعة

والنشر والتوزيع القاهرة سنة ٢٠٠٦م.

٧- عمر رضا كحالة : أعلام النساء فى عالمى العرب والأسلام، الجزء الخامس، بيروت، مطبعة الرسالة الطبعة العاشرة سنة ١٩٩١م.

٨- فرخندة حسن : رؤية متكاملة لتحقيق مشاركة المرأة فى الحياة السياسية " التحديات وأجراءاتها المواجهة " وزارة الشؤون الاجتماعية الادارة العامة لشئون المرأة ندوة قضايا المرأة المصرية بين الواقع والمستقبل ١٨-١٩ فبراير سنة ١٩٩٧م .

٩- لطيفة محمد سالم : المرأة المصرية والتغير الاجتماعى القاهرة سنة ١٩٨٤م .

١٠- محمد خلف الله أحمد : محاضرات عن حفنى ناصف كاتبا وباحثا، جامعة النول العربية،معهد الدراسات العربية العالية سنة ١٩٦١م.

١١- محمد رجب البيومى : النهضة الإسلامية الجزء الخامس القاهرة سلسلة البحوث الإسلامية المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ٢٠٠٠.

١٢- محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، الجزء الأول القاهرة مكتبة الآداب د.ت.

١٣- يوسف نوفل : شاعر الشعب وشاعر النيل ( حافظ إبراهيم ) القاهرة الدار المصرية اللبنانية سنة ١٩٩٧م.

#### رابعاً: الرسائل الجامعية :

- ١- أشرف غريب محمد أحمد : الحركة النسائية في مصر في النصف الأول من القرن العشرين رسالة ماجستير غير منشورة نوقشت بكلية التربية جامعة عين شمس سنة ٢٠٠٩م.
- ٢- فاطمة محمد علوان إبراهيم : قضايا المرأة في مجلس النواب المصري من سنة ١٩٢٤ - ١٩٥٢م رسالة ماجستير غير منشورة نوقشت بكلية البنات جامعة عين شمس سنة ٢٠٠٥م.
- ٤- هند مصطفى على محمد الشلقاني : الإصلاح السياسي في خطاب المرأة المصرية سنة ١٨٩٢-١٩٥٢م دراسة في خطابي ملك حفني ناصف وهدى شعراوي رسالة ماجستير غير منشورة نوقشت بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة نوفمبر سنة ٢٠٠٤م.

#### خامساً: الدوريات :

- ١- الأهرام : عدد ٥ يناير سنة ١٩١٨م.
- ٢- السفور : عدد ٢٤ أكتوبر سنة ١٩١٨م.
- ٣- الهلال : عدد ٢٥ نوفمبر سنة ١٩١٨م.
- ٤- الوطن : عدد ١٦ فبراير سنة ١٩١٨م، ٢ مايو سنة ١٩١٩م.
- ٥- مجلة العربي عدد يونية سنة ٢٠٠٠م مقال لإقبال بركة : باحثة البادية \* ملك حفني ناصف

\* هل كانت ضد المرأة؟. <http://Archivebeta.Sakhrit.com>

#### سادساً : المراجع الأجنبية:

- 1-Lord loyid : Egypt since Cromer vol 1 London 1937
- 2-Beth baron: thewomens Awakening in EgyT (New haven : yale university press 1994).
- 3-Abu -Alfutouh Redwan: old and new forces in Egypt Education new york 1951.





## الهندوس في شرق إفريقيا البريطانية

( ١٨٨٤ - ١٩٦٣ )

د. أحمد عبد الدايم محمد حسين (\*)

تعد تجربة الهند، في النمو الاقتصادي والتقدم التكنولوجي، تجربة رائدة بين دول العالم الثالث الآن. بيد أن الكثيرين لا يعرفون شبكة العلاقات الهندية المعقدة ببقية أطراف العالم. ولا يدركون تلك الأطراف الفاعلة في الهند نفسها، ومدى تشابك واتساع علاقاتها الإقليمية والدولية. وبحكم أن الهندوس يمثلون ٧٥% من سكان الهند، وبحكم أن الدراسات التي أنجزت عن شرق إفريقيا لم تميزهم عن بقية الهنود هناك، وجاءت في معظمها لتتهم بالفترة السابقة للاستعمار، وبحكم إرتباطهم الشديد ببريطانيا، وبحكم ذكائهم وجرأتهم وانتشارهم حول العالم، وأنها تشرح جانباً من تلك القوة التي تتمتع بها الهند الآن وتفسرها، كان لا بد لنا أن نفرّد هذه الدراسة عن: " الهندوس في شرق إفريقيا البريطانية ١٨٨٤ - ١٩٦٣"، لتتعرّف عليهم وعلى الدور الكبير الذي لعبوه في تاريخ تلك المنطقة، منذ بداية الاستعمار البريطاني لها وحتى حصولها على الاستقلال. ولنتناقش تلك المشكلات التي نشأت عن علاقاتهم بالقوى الاستعمارية وبسكان المنطقة الأصليين، وكيف استفادوا وأثروا وتأثروا بتلك العلاقات خلال تلك الفترة وما بعدها.

ولعل ما يميز دراستنا للهندوس في شرق إفريقيا البريطانية، خلال الفترة من ١٨٨٤ - ١٩٦٣، أنها تكشف لنا الكثير والكثير عما يستغلّ فهمه في تاريخ تلك المنطقة، وغيرها من المناطق التي هاجر إليها الهندوس فيما بعد. وأن تاريخهم فيها ما هو إلا انعكاس لما يحدث في الهند من صراعات داخلية بين الهندوس والمسلمين، ولما يحدث من توافقات وتنسيقات بينهم وبين بريطانيا. فاختيارنا لتلك الفترة، هو اختيار للفترة التي استعمرت فيها بريطانيا كل من زنجبار وكينيا وأوغندا، وحازت فيها ألمانيا على تنجانيقا ورواندا وبورندي. لكن حينما أقصيت ألمانيا عن مستعمراتها الإفريقية، بعد الحرب العالمية الأولى، أضيفت تنجانيقا لبريطانيا، وأضيفت رواندا وبورندي إلى الكونغو البلجيكي. وبهذا أصبحت شرق إفريقيا البريطانية تضم كلا من تنجانيقا وأوغندا وكينيا، بعد ضم زنجبار إليها. ومن ثم فإن دراستنا للهندوس في شرق إفريقيا البريطانية ستشمل

(\*) أستاذ مساعد تاريخ حديث ومعاصر بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية جامعة القاهرة.

المناطق الثلاث، بما فيها فترة تبعيتهم للمستعمرة الألمانية، باعتبار أن زنجبار كانت تابعة لكينيا حتى الاستقلال، ولم تنضم لتنجانيقا وتكون دولة تنزانيا الحالية، إلا سنة ١٩٦٤.

وتنطلق الدراسة من الامتيازات التي حصل عليها الهندوس في شرق إفريقيا البريطانية، لنشرح لنا الغموض الموجود في العلاقة بينهم وبين الانجليز من ناحية، ولتميز الهنود السيخ والمسلمين عن الهندوس من ناحية ثانية، لنقول بأن الانفصال الذي حدث بين الهند وباكستان فيما بعد (سنة ١٩٤٧) كانت ملامحه موجودة في شرق إفريقيا من قبل. ناهيك عن أن الدراسة تفتح لنا آفاقاً جديدة في خصوصية العلاقة بين الهندوس وشرق إفريقيا. ومن ثم راحت تطرح على نفسها عدداً من الأسئلة ستحاول الإجابة منها: هل هناك صلة بين قدوم الهندوس لشرق إفريقيا والاحتلال البريطاني لها؟ وهل قوة العلاقة بين الهندوس في الهند البريطانية هو الذي جعل وضعهم مميزاً في شرق إفريقيا؟ وكيف كانت حياة الهندوس الاجتماعية والاقتصادية والسياسية هناك؟ هل انفصلوا عن الهند تماماً؟ أم أنهم ظلوا مرتبطين بها وبتقاليدها الثقافية؟ وكيف كانت طموحاتهم السياسية هناك؟ وهل أثرت تلك الطموحات على اقتصادهم وبقائهم في شرق إفريقيا بعد الاستقلال؟ لذا تنقسم الدراسة إلى ستة محاور رئيسية، تتمثل في الآتي:

المحور الأول- الجذور التاريخية للوجود الهندوسي في شرق إفريقيا.

المحور الثاني - علاقة الهندوس بالانجليز في شرق إفريقيا البريطانية.

المحور الثالث- المجتمع الهندوسي في شرق إفريقيا.

المحور الرابع- أحوال الهندوس الاقتصادية.

المحور الخامس- أحوالهم السياسية.

المحور السادس- هويتهم الثقافية.

المحور الأول- الخلفية التاريخية للوجود الهندوسي في شرق إفريقيا :-

إذا كان الهندوس يمثلون غالبية سكان الهند نفسها، وينقسمون حسب المكانة والوضع الاجتماعي إلى أربع طبقات رئيسية: البراهمة والكشترى والويشا والشودرا، فإن غالبية الهنود في شرق إفريقيا هم من الهندوس أيضاً. وإذا كانت توجد إمكانات لتمييزهم باللحم، بحكم أن ديانتهم تحرم عليهم حلاقتها، فإن الأرشيف الاستعماري يعج بالصور التي تميزهم عن بقية الهنود هناك. بل يثبت بأنهم ينتمون إلى الطبقات الثلاث الأولى، بحكم أن الفقراء لم يتمكنوا من المجئ للمنطقة<sup>(١)</sup>، وأنهم ليسوا الهنود الوحيدين هناك. بل يوجد السيخ والإسماعليون، بما يمثل مجموعهم سويماً ٢% من سكان المنطقة<sup>(٢)</sup>.

وتعود علاقة الهندوس بشرق إفريقيا لعصور موعلة في القدم، بحكم علاقات الهند البحرية مع إفريقيا الشرقية<sup>(٣)</sup>. حينما اكتشفوا، منذ ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة،

أهمية الرياح الموسمية في الإبحار إليها. وهذا ما أتاح لهم ولغيرهم من الهنود الآخرين، فرصة المتاجرة مع المنطقة في الأرز وجوز الهند وقصب السكر والموز والخبز والتوابل والمحاصيل والقطن واليابام<sup>(٤)</sup>. ويرجح البعض بأن استقرارهم بصفة دائمة هناك، قد جاء في ركاب العرب منذ القرن الثامن الميلادي. فقد اعتمدوا عليهم في النواحي المالية وأعمال الصيرفة وإقراض النقود<sup>(٥)</sup>. بل إن أقرب دليل سجل الروابط القديمة بين الهندوس وشرق أفريقيا ومناطق النيل، وجد في الكتب الهندوسية القديمة المقدسة، بوراناس<sup>(٦)</sup>. وحينما زار فاسكو داجاما ساحل شرق إفريقيا، سنة ١٤٩٨ ذكر بأنه وجد العديد من تجارهم مستقرين بموانئ إفريقيا الشرقية<sup>(٧)</sup>. محددًا أوصافهم بأنهم من أصحاب اللحى الطويلة، ولا يأكلون لحوم البقر<sup>(٨)</sup>. وهو الذي اقترح الاستعانة بالمستكشف الهندوسي، كانجي مالام، عند وصوله إلى مومباسا<sup>(٩)</sup>. ويقطع أحد التقارير البريطانية لسنة ١٨١١ بأنهم كانوا تجاراً أثرياء في زنجبار. وهناك مصادر تقول بأن متاعبهم لم تنته إلا بعد استقرار السلطان سعيد (١٨٠٦-١٨٥٦) فيها<sup>(١٠)</sup>، وأنهم قدموا بكثرة من ولاية جوجارات Gujarat وتاميل نادو Tamilnadu وكوتشي سنة ١٨٣٠<sup>(١١)</sup>، وأن تدفقهم على المنطقة قد استمر طوال الفترة من ١٨٣٠ - ١٨٩٠.

ويعد كوبلاند أول من قدم إحصاءً لعددهم هناك، وأنهم في حدود ٥٠٠ هندوسي، وأن الهنود المسلمين في حدود ٦٠٠ إلى ٧٠٠ فرد<sup>(١٢)</sup>. وأن السلطان سعيد قد جاء بـ ١٢٠٠ هندوسي من عمان لشرق إفريقيا سنة ١٨٤٠. إضافة للـ ٥٠٠ الموجودين هناك<sup>(١٣)</sup>. لدرجة أن القنصل البريطاني في زنجبار قدر عددهم سنة ١٨٥٩ بحوالي ألفي هندوسي من بين ٥٠٠٠ - ٦٠٠٠ هندي. في حين قدره جون كيرك سنة ١٨٧٠ بحوالي ٢٠٠ هندوسي من جملة ٣٦٥٧ هندي<sup>(١٤)</sup>. في الوقت الذي قدر في بقية أملاك سلطان زنجبار بحوالي ٢٧٤ هندوسياً. بما يعنى أنهم كانوا أكبر عددًا في المناطق الساحلية والداخلية، عكس بقية الهنود الذين تركزوا في زنجبار، وكانوا قلة في بقية أملاك السلطان. ويشير البعض بأن عددهم قد ارتفع في زنجبار، سنة ١٨٧٤، إلى حوالي ٣١٤ من جملة ٤١٩٨ هندياً<sup>(١٥)</sup>. وفي الجملة فإن نقص عدد الهندوس عما كان عليه في عهد السلطان سعيد أو في عهد خلفه، يمكن تفسيره بثلاثة أسباب: أولها: ربما يكون مرتبطاً بتقدير كيرك نفسه. حيث جاء مقصوداً على أملاك السلطان فقط، ولم يتم بإحصاء بقية أعدادهم في شرق إفريقيا ككل. ثانيها: لم يتم تقدير أعداد الهندوس الموجودين في مناطق العرب المزارعة الساحلية. تلك المناطق الخاضعة للحماية البريطانية، وكانت جاذبة لهم. ثالثها: لم يتم إضافة أعداد الهندوس الموجودين بمناطق الداخل الإفريقي بشكل متعمد، على اعتبار أنها غير تابعة لزنجبار، دفعاً وتحريضاً على استعمارها.

ويبدو أن العرب والسواحليين ميزوا الهندوس باسم باتيانى Panyani بمعنى تاجر، عن بقية الهنود. وأنهم في نظر الرحالة الأوربيين كانوا قومًا يحبون المال وجمع

الثروة. واصفين إياهم بأنهم يهود شرق إفريقيا. وأن المال يتدفق إلى جيوبهم، كما يتدفق الماء منحدرًا من شلال شاهق. في حين ميزهم الانجليز، فيما بعد، بأنهم قوم هادئون، حسنى السمعة، يميلون للعزلة عن بقية طوائف المجتمع الأخرى<sup>(١٦)</sup>.

ويعد السلطان سعيد من أشهر الحكام العرب الذين هينوا للهندوس بيئة مستقرة في شرق إفريقيا. وهو أول من تعاقد مع مؤسسه مملوكة لهندوسي يدعى وات بهيما Watt Bahima سنة ١٨١٧. وذلك لجباية الجمارك بمبلغ ٧٠ ألف ريال ماريا تريزا. وأنه هو الذي حول ذات الامتياز لهندوسي آخر يدعى سوجي توبان، بمبلغ ٨٤ ألف ريال نمساوي، حينما فسخ عقد بهيما. وارتفع إلى ١٠٠ ألف ريال في عهد ابنه جيرام. بل بقي الامتياز في تلك الأسرة الهندوسية منذ سنة ١٨١٩ ولمدة ٤٠ سنة فيما بعد<sup>(١٧)</sup>. بل كان وضعهم الاقتصادي المميز قد جعل كريستي طبيب برغش (١٨٧٠-١٨٨٠) يشير إلى أنهم كانوا الحكام الحقيقيين لزنجبار<sup>(١٨)</sup>. فضلاً عن امتهان بعضهم لحرف النجارة والبناء والحدادة وغيرها. وكان أحدهم، جيرام سوجي، زعيماً للجالية الهندية ككل، وكان نفوذه أكثر من السلطان سعيد نفسه<sup>(١٩)</sup>. بل استمر نفوذه في عهد السلطان برغش<sup>(٢٠)</sup>.

وأغلب الهندوس في شرق إفريقيا هم من فئة المرابين والسماسرة والتجار، القادمين من كوتش Kutch ومناطق البنجاب والجنوب والبنغال. تاجروا في كل شيء<sup>(٢١)</sup>، وواجهوا صعوبات كبيرة، كذلك الابتزازات التي تعرضوا لها في عشرينيات وثلاثينيات القرن ١٩ على يد المزارعة في ممبسة. وكذلك التي فرضها السلطان سعيد في شكل جمارك قدرها ٢٠% مقابل ٥% قبل سنة ١٨٣٣<sup>(٢٢)</sup>. وتميزوا عن الهندوس الآخرين بأنهم كانوا يحرقون موتاهم في كرنجاني Kringani. وكانت إقامتهم في البداية إقامة مؤقتة. في حين كان وضعهم الاجتماعي في زنجبار مميزاً. فقد عاشوا في القسم العربي من المدينة، ولم يسكنوا القسم الخاص بالسواحيليين<sup>(٢٣)</sup>. وتقيدوا بدياناتهم تقيداً صارماً. وتحدثوا اللغة السواحيلية، بل أصبحت اللغة الأولى لبعضهم، لكونها لغة الاقتصاد والمجتمع في شرق إفريقيا<sup>(٢٤)</sup>. بما يدل على ذكائهم في مداهنة العرب والسكان الأصليين على السواء. وهذا الذكاء سيجعلهم يتحولون للغة الانجليزية فيما بعد، حينما يمسك البريطانيون بزمام الأمور في شرق إفريقيا. ولما كانوا في الأساس رعايا بريطانيين، حيث تحولت الهند سنة ١٨٥٧ من مستعمرة تابعة لشركة الهند الشرقية البريطانية لتصبح مستعمرة تاج، فإنهم رفضوا طلب السيد سعيد وخلفائه بالتوقيع على عريضة يعلنون فيها أنهم رعايا السلطان، خوفاً على أسرهم وتجارتهم في الهند<sup>(٢٥)</sup>. لكن مع إقامة حكام ممبسة المزارعة لمعاهدات تجارية مع أمريكا وبريطانيا في ثلاثينيات القرن ١٩، وما أعقبها من معاهدات تجارية أخرى، شعروا بأن شرق إفريقيا تفتح أمامهم فرص الثراء السريع، فضلاً عن تحولها لمكان آمن لاستقرار أسرهم<sup>(٢٦)</sup>.

### المحور الثاني - علاقة الهندوس بالانجليز في شرق إفريقيا البريطانية:

استمرت عملية التوسع البريطاني في شرق إفريقيا، منذ بداية ثمانينيات القرن التاسع عشر، حتى حسمها مؤتمر برلين ١٨٨٤/١٨٨٥. وتم تقسيم المنطقة بالفعل حسب الاتفاق الألماني البريطاني سنة ١٨٨٦، فأصبحت تنجانيقا تابعة لألمانيا، وأصبحت زنجبار وكينيا وأوغندا تابعة لبريطانيا (انظر الخريطة التالية). لكن لم تستقر الأمور لبريطانيا في المنطقة إلا مع نهاية القرن ١٩<sup>(٢٧)</sup>. وبعد الحرب العالمية الأولى انتقلت أمور تنجانيقا إليها، لتشكل مع المناطق السابقة ما سمي بـ شرق إفريقيا البريطانية. واستمر وجودها هناك حتى استقلال آخر دولة من دول المنطقة سنة ١٩٦٣.

#### خريطة شرق إفريقيا سنة ١٩٠٥



نقلا عن: Bernhard Gijbels: GERMAN COLONIALISM AND THE BEGINNINGS OF INTERNATIONAL

WILDLIFE PRESERVATION IN AFRICA, GHI BULLETIN SUPPLEMENT 3 (2006), P.125.

والسؤال الذي يطرح نفسه: هل هناك علاقة بين الهندوس والبريطانيين في تلك المنطقة؟ وما شكل هذه العلاقة؟ وكيف نمت وتطورت؟ وما نتائجها؟ الإجابة تقول بأن العلاقة بين الطرفين بدأت قوية، وتخللتها بعض مشاكل، لكنها انتهت عند الاستقلال أقوى مما كانت عليه. وحتى نفهم تلك العلاقة جيدا يمكن تفصيلها في أربعة أشكال رئيسية:

الشكل الأول: الدور الذي لعبه الهندوس في خدمة المشروع الاستعماري البريطاني في شرق إفريقيا. فبالنظر لأعداد الهندوس في شرق إفريقيا، البالغ سنة ١٨٤٤ حوالي ٥٠٠ شخص، وأخذاً في الاعتبار ما أشار إليه برتون سنة ١٨٥٩ بوجود ٥٠ هندوسياً في مومبا، و ٢٠ في تانجا ومثلهم في بانجاني، و ٥٠ في كيلوا، فإن هذا يعنى كثرة عددهم بالداخل الأفريقي. ونظراً لكونهم رعايا بريطانيين بالأساس، كان من الطبيعي أن

يكونوا جسراً لبريطانيا لاستكشاف المنطقة قبل قدوم الرحالة البريطانيين إليها. ولعل حديث الرحالة سبيك وبيرتون وجرانت عن ترحيب الهندوس واحتفائهم بالمكتشفين الذين زاروا شرق ووسط إفريقيا، خلال خمسينيات وستينيات القرن ١٩<sup>(٢٨)</sup>، يعد خير دليل على هذا الدور الذي لعبوه في خدمة هذا المشروع الاستعماري في شرق إفريقيا قبل أن يبدأ.

ويظهر هذا الدور الخطير حينما ألقى السيد خليفة بن سعيد (١٨٨٨-١٨٩٠) زمام القيادة لاثنتين من أخصائه الهندوس. حيث تشير التقارير بأنهما كانا يقدمان له النصائح الضارة فيأخذ بها. وعلى حد وصف الوثائق الانجليزية كان أحدهما، كاشومار، متآمراً عجوزاً لكل نفوذ أوروبي. وأما الآخر، بيراديفجي، فقد كان خادماً هندوكياً وضيقاً. وكان الاثنان يشكلان مصدر قلق للقنصل البريطاني في زنجبار، السيد إيوان سميت. حيث كان السلطان يفضي للرجلين بكافة المسائل السرية التي يبحثها معه. وهما يحتانه على نقض عهوده التي قطعها للقنصل. وكان اعتماد السلطان على نديمين وضيعين من رجال قصره يؤدي إلى إثارة كراهية المشايخ العرب العميقة له. لكون هذين الرجلين قد أثارا الشكوك فيهما، وجعلا السلطان يهمل القضايا التي يرفعها هؤلاء المشايخ. حيث حرّمهم من مظاهر التشريف والامتيازات. لهذا رفعوا لإيوان سميت سنة ١٨٨٩ شكوى موقعة من ١٢ شيخاً، **يعنون تخوفهم من خراب البلد بسبب تسلط مستشاريه الشريرين، وأعلنوا وقوفهم مع خلع السلطان.** لذا نصح إيوان سميت في ١١ مارس ١٨٨٩، عبر خطابه للورد سالسبوري، بأنه لا سبيل إلى إزالة التوتر الذي ازداد حدة بين السلطان وبين رعاياه، إلا بالتخلص من مستشاريه السيئين. وقد استطاع إخراج بيراديفجي الهندوسي إلى بومباي، بمقتضى أمر سلطاني في ٢ مارس ١٨٨٩، خول للقنصل البريطاني حق ترحيل أي بريطاني يكون مسلكه خطراً على سلام زنجبار. ومع ذلك غضب السلطان غضباً شديداً على ترحيله، لدرجة جعلته يرفض توديع إيوان سميت عند عودته إلى بريطانيا، ظل فيها من أبريل حتى ديسمبر ١٨٨٩، بل ويرسل لسالسبوري خطاباً يطلب فيه عدم إعادته ثانية لزنجبار<sup>(٢٩)</sup>. والقصة بهذا الشكل تحتمل أمرين : أولهما، أن هذين الهندوسيين قد لعبا دوراً رئيسياً في إمساك الانجليز بزمام الأمور في زنجبار. فلكونهما رعيتين بريطانيتين في الأساس، يرجح بأن هناك مكرًا وحيلة في المسألة. فمن المحتمل أن الانجليز كانوا يتفقون مع السلطان على شيء، ويطلبان من عملاهما الهندوسيين مخالفة ما اتفق عليه، ليستخدم كذريعة للتدخل في شئون الرجل ولعزله عن أنصاره. ثانيهما، أن الرجلين بنفوذهما الكبير داخل زنجبار؛ قد أجبا الصراعات الداخلية ضد السلطان. فكان استفزازهما للمشايخ العرب قد اضطرهم لطلب عزل السلطان من بريطانيا. وربما يكون هذا التآجيج والتدبير بهذا الشكل مقصوداً للوصول إلى تلك النتيجة. بل بعد أن تحقق بريطانيا رغبتها في الواقعة بين السلطان وأعوانه تعمل على إنقاذ صنيعتيها، بترحيلهما إلى الهند بشكل رسمي.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، حيث تشير الوثائق إلي أن الهندوس ساعدوا في احتلال أوغندا، وأنهم أسهموا في تطور الإدارة البريطانية في شرق أفريقيا، خلال الخمسة والثلاثين عاما الأولى من حكم البريطانيين لتلك المنطقة. وأنهم أسهموا في بناء كثير من المناطق الأخرى هناك، بما جعلهم يطلبون من الإدارة البريطانية المساواة في المعاملة مع البيض<sup>(٣٠)</sup>. بل إن دورهم في هذا الأمر جعلهم يطلبون، باعتبارهم رعايا بريطانيين، محاكم مستقلة خاصة بهم. فكان لهم ما طلبوه بمقتضى مرسوم ديسمبر ١٨٩٢، الذي خول للمحكمة القنصلية حق الفصل في القضايا بينهم وبين رعايا سلطان زنجبار الذي قبل بالحماية البريطانية، فحصلوا على أحكام جائرة ضد العرب والإفريقيين على السواء<sup>(٣١)</sup>.

الشكل الثاني: المشاركة في تنفيذ المشروعات البريطانية. فمع أن الهندوس قد جاءوا في بداية الفترة الاستعمارية بحثاً عن فرص عمل وسبل حياة أفضل، إلا أنهم جاءوا كعمال في الأساس، ليس فقط لبناء سكك حديد كينيا- أوغندا منذ عام ١٨٩٦، ولكن أيضاً للعمل في المزارع والمناجم، وجنوداً في القوة العسكرية المنشأة هناك، وموظفين في الإدارة الاستعمارية. لذا كانت علاقاتهم بتلك الإدارة في أحسن صورة<sup>(٣٢)</sup>. وفي هذا الإطار لم يخدموا الاستعمار الإنجليزي فقط، بل ساعدوا الألمان في عمليات صيد الأفيال وفي توطيد أقدامهم في المنطقة<sup>(٣٣)</sup>. خاصة أنه حينما سيطر الأوربيون على اقتصاد شرق إفريقيا<sup>(٣٤)</sup>، شرعوا بمعونة الهنود بصفة عامة، والهندوس بصفة خاصة، في فهم المنطقة وكيفية الاستفادة منها. ومن ثم عاد هذا على الهندوس بمزايا اقتصادية<sup>(٣٥)</sup>. فتعاملوا في المستعمرة الألمانية بالمارك الألماني منذ سنة ١٨٩١<sup>(٣٦)</sup>. وحينما زادت قوتهم الاقتصادية التجارية في عشرينيات القرن العشرين لم يكن القانون الاستعماري يسمح للهندوسي بأن يكون وسيطاً وتاجراً في نفس الوقت. بل كان عليه الترخيص بأي منهما<sup>(٣٧)</sup>.

الشكل الثالث: ارتفاع عددهم في مناطق الساحل والداخل على السواء. فمع قدوم المستعمرين الأوربيين ارتفع عددهم في كينيا إلى حوالي ٥٠٠ هندوسي. وعاش بعضهم قرب دار السلام. بل تساوى عددهم مع الهنود الآخرين في بعض مناطق الساحل، مثل تولياني Tuliani وبنياس Banias وكوالى وكيتمانجو Kitmangao وباتيا وسمانجا Samanga وكيلوا وليندي وبجامايو. ولكن بصفة عامة كان الهندوس الأكثر عدداً في زنجبار. بل جلبوا عائلاتهم واستقروا في معظم أنحاء شرق إفريقيا<sup>(٣٨)</sup>. وبرغم عدم القدرة على تمييز عدد الهندوس من بين الـ ٣٢٠٠٠ عامل الذين جاءوا لبناء خط حديد كينيا- أوغندا، ولا القدرة على التعرف على من بقى منهم بعد انتهاء الخط سنة ١٩٠٢ للعمل بالإدارة الاستعمارية والتجارة<sup>(٣٩)</sup>، ولا عدد من توفي منهم ضمن الهنود المتوفين (٢٤٩٣ متوفى)<sup>(٤٠)</sup>، ولا عدد من عاد منهم للهند ثانية في ديسمبر ١٩٠١، من



(حوالي ٦٧٠٠) <sup>(٤١)</sup>، إلا أن صورهم ولحاهم المميزة في أرشيف الصور الاستعماري، يشير إلى هذه الزيادة الكبيرة في أعدادهم. ولعل اللقطة التالية تلخص هذا الأمر.

لقطة لعمال هنود يبنون سكة حديد شرق إفريقيا ١٨٩٦-١٩٠١



Report of The High Level Committee on The Indian Diaspora, PP.91

نقلا عن :

وبرغم الإخطار التي تعرض لها الهندوس في عملية إنشاء السكك الحديدية، من افتراس الحيوانات الاستوائية لبعضهم، ومن إصابتهم بأمراض المناطق الحارة المختلفة، كالملاريا والدوسنتاريا <sup>(٤٢)</sup>، وتأثرهم بطواعين سنوات ١٩٠٥ و ١٩٠٦ و ١٩١١ و ١٩١٢ و ١٩١٣، إلا أن أعدادهم تضاعفت ضمن أعداد الهنود التي تضاعفت في الفترة من ١٨٨٤ - ١٩٢٠، من ٦٠٠٠ إلى ٤٥٠٠٠ هندي <sup>(٤٣)</sup>. بل تضاعفت ثانية خلال الفترة من ١٩٢١-١٩٣١ <sup>(٤٤)</sup>. فسكنوا الإحياء الهندية، واستفادة من العلاقة مع بريطانيا. ومثلوا دور الوسطاء ومقرضى المال ووكلاء الأعمال، لدرجة أدهشت البريطانيين أنفسهم <sup>(٤٥)</sup>. بل اشتهرت عائلات هندوسية كثيرة هناك، كالباتلز Patels ولوهانا Lohana وشاهاز Shahs <sup>(٤٦)</sup>. بل ذهبوا إلى أوغندا منذ سنة ١٩٠٣، وتضاعف عددهم بها حتى بلغ سنة ١٩٣١ حوالي ٨٣٥٨ هندوسياً مقابل ٥٠١٦ هندياً مسلماً. وهو الأمر الذي جعل البعض يطلق على شرق إفريقيا أنها أمريكا الهنود، وأن رحيلهم عنها كفيل بانهارها الاقتصادي تماماً <sup>(٤٧)</sup>.

وإذا كان الواقع القاسي للهند هو الذي شجع هجرة الهندوس لشرق إفريقيا، إلا أن العقود ذات الخمس سنوات التي قدمها الانجليز لهم، كانت هي البوابة التي فتحت المنطقة أمامهم. فقبل أن يأتوا لبناء سكة حديد شرق إفريقيا، فقد جاءوا منذ سنة ١٨٩٠ ليعملوا في زراعة البن والسكر وفي مزارع المطاط. ومع استقرار الحكم البريطاني، فتحت المنطقة ذراعها لهم <sup>(٤٨)</sup>. بل لم يقتصر الأمر على هجرة هندوس الهند

إليها فقط، بل جاءها هندوس من جنوب إفريقيا خلال حرب البوير ١٨٩٩-١٩٠٢<sup>(٥٩)</sup>. ووصلها أفواج من الحرفيين والكتبة وصغار التجار<sup>(٥١)</sup>. لكن حينما ارتفعت أعدادهم بصورة كبيرة، بدأت الإدارة البريطانية تفرض قيودا على هجرتهم، وعلى تملكهم للأراضي. وراحت تعزلهم مع بقية الهنود في أحياء خاصة بهم<sup>(٥١)</sup>. وهو الأمر الذي جعلهم يقومون بتهديب رأس مالهم في الفترة من ١٩٢١-١٩٢٢<sup>(٥٢)</sup>. ولعل مغادرتهم بأعداد كبيرة، ضمن الهنود الذين تركوا كينيا في الفترة من أبريل ١٩٢١ حتى مارس ١٩٢٢ - حيث غادرها ٥٤٣٥ هندي بالمقابل دخلها ٣٦١٢ فقط<sup>(٥٣)</sup> - يشرح تأثير تلك القيود التي فرضها البريطانيون على نشاطهم خشية ازدياد تأثيرهم ونفوذهم أكثر فأكثر. وربما تكون مرتبطة بتزايد وتيرة الحركة الوطنية في الهند وضرباتها لبريطانيا هناك، واستخدام بريطانيا لهؤلاء العائدين ومصالحهم كورقة للضغط على بني جلدتهم لتهدئة ثورتهم.

الشكل الرابع: غلبة جو الصداقة والتعاون مع الإدارة الاستعمارية البريطانية. فبرغم أن البعض يقولون بأن جو الصداقة هذا، قد ساد الفترة الاستعمارية الأولى حتى سنة ١٩٠٣، غير أن القيود التي فرضها البريطانيون عليهم لم تنه تلك الصداقة أبدا. فإذا كانت تلك الإدارة قد فرضت قيودا على هجرتهم، بعد وصول دفعات من المستوطنين البريطانيين في الفترة من ١٩٠٢-١٩٠٥، فإن هذا لم يمنعهم من أن يجتمعوا في ممبسة ليطالبوا بالسماح لهم بتخصيص أراض في المرتفعات، بل ويكرروا ذات الطلب سنة ١٩٠٨<sup>(٥٤)</sup>. ومع أن الإدارة الاستعمارية رفضت كلا الطلبين، إلا أن العلاقة استمرت جيدة بين الطرفين لدرجة جعلتهم يطلبون مزيداً من الخدمات الاجتماعية<sup>(٥٥)</sup>.

ورغم أن سن قانون أراضي التاج لسنة ١٩١٥، قد أثر على الهندوس وغيرهم من الهنود<sup>(٥٦)</sup>، ورغم حظر دخولهم<sup>(٥٧)</sup>، بحجة أعمال التخريب التي يمارسونها، والخوف من ردود فعل الإفريقيين في كينيا وتنجانيقا وأوغندا تجاهها<sup>(٥٨)</sup>، إلا أن استمرار تدفق أعدادهم<sup>(٥٩)</sup>، رغم إجماع الأوروبيين في هذا الشأن<sup>(٦٠)</sup>، يشير إلى أن جو الود والصداقة قد استمر قائما بين الطرفين. ربما خشية أن تؤدي مشاكلهم في شرق إفريقيا إلى مشاكل بين الهند وبريطانيا نفسها<sup>(٦١)</sup>. فحين فرضت صعوبات كثيرة تعارض منحهم امتيازات على شاكلة تلك الممنوحة للأوروبيين سنة ١٩٢١<sup>(٦٢)</sup>، وعرضت مشاكلهم على المؤتمر الإمبراطوري المعقود في ذات السنة<sup>(٦٣)</sup>، وضح بأن هناك صعوبة في إزالة الحظر المفروض على هجرتهم سنة ١٩٢٢<sup>(٦٤)</sup>. بل إن برقية حاكم كينيا، بضغط من قبل المستوطنين البيض، لوزير الدولة لشؤون المستعمرات في الأول من فبراير ١٩٢٣، تشير إلى طلبه باستمرار تلك القيود المفروضة على هجرتهم<sup>(٦٥)</sup>. ومن ثم فإن جو الصداقة والمودة بين الطرفين لم يمنع فرض القيود على عليهم. لكن

استمرار جو الصداقة هذا، كان يسمح بالتلاقي بين الطرفين، فلم تتحول العلاقة بينهما طيلة الفترة الاستعمارية لحالة العداء والكراهية الشديدة أبداً.

فقد رتبت السلطات الاستعمارية المجتمعات في شرق إفريقيا على النحو التالي؛ الأوروبيون في المقدمة، يليهم الهنود، ثم العرب، ثم الإفريقيين<sup>(٦١)</sup>. وكان الدور الأساسي الذي لعبه الهندوس في بناء مركز تجاري وسيط بين الأوروبيين وغيرهم، واستخدامهم من قبل الإدارة الاستعمارية ككبش فداء في أوقات الأزمات<sup>(٦٢)</sup>، قد جعل وجودهم هناك أمراً مهماً طوال الفترة الاستعمارية. أضف إلى هذا، أن الوجود البريطاني في الهند قد أتمن للهندوس استمرار تلك المكانة المميزة في شرق إفريقيا، بحكم أن غالبية سكان الهند البريطانية من الهندوس. لكن بعد استقلال الهند سنة ١٩٤٧، واختيار الهندوس الجنسية الهندية، وتفضيل الهنود المسلمين للجنسية الباكستانية، تبين بأن وضع الهندوس في شرق إفريقيا ليس له علاقة بالترتيبات البريطانية في الهند نفسها، بقدر ما هو متعلق بدورهم ونشاطهم الاقتصادي هناك. فقد أتضح بأن الدور الذي يقومون به في الترويج للسلع البريطانية بين هندوس موزمبيق وجنوب إفريقيا<sup>(٦٣)</sup>، وتهديد الكثيرين منهم بالرحيل عن شرق إفريقيا، غير متعلق برحيل بريطانيا عن الهند، بل متعلق بالقيود التي فرضها الانجليز عليهم بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، تخفيفاً للكراهية التي أبداها الإفريقيون تجاههم<sup>(٦٤)</sup>. وهكذا استمر الاستخدام البريطاني لهم ككبش فداء، ليحول الغضب الأفريقي من البريطانيين ليصب باتجاههم. هروباً من سلسلة الوعود بالحكم الذاتي سنة ١٩٢٣<sup>(٦٥)</sup>، ومن وعود بالاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية.

وربما كان نجاح الهندوس في دور الدوبلير الذي يتلقى الضربات بدلاً من البطل الرئيسي للراوية، كان سبباً رئيسياً في جعل البريطانيين يستبقونهم في شرق إفريقيا حتى موعد تسليمهم باستقلال المنطقة. ولعل وجودهم في كل المدن الرئيسية لتنجانيقا وزنجبار وكينيا وأوغندا، حسب تقديرات سنوات ١٩٥٧ و ١٩٥٩، يلخص هذا الاستمرار في الحضور الكبير<sup>(٦٦)</sup>. وهذا ما جعل العلاقة تتوثق بين الطرفين، لدرجة جعلت الجيل الثاني من الهندوس في شرق إفريقيا يركز على أن تكون مشاريعه الجديدة في المملكة المتحدة. بعد أن غيرت الحكومة الهندية سياستها تجاههم بعد استقلال الهند في ١٩٤٧. فقبل الاستقلال لعب القوميون، مثل غاندي، دوراً ضد التمييز في المجتمعات الاستعمارية. أما بعد الاستقلال فقد حلت سياسة اللامبالاة على يد نهرو<sup>(٦٧)</sup>. لهذا فإنهم قرروا ترك المنطقة والرحيل إلى بريطانيا، حينما استقلت دول شرق إفريقيا خلال الفترة من ١٩٦١-١٩٦٣، ووضعت حكوماتها المستقلة قيوداً عليهم خلال ستينيات القرن العشرين<sup>(٦٨)</sup>. فكان وصف الإفريقيين للهندوس بنعوت مثل 'الصوص'، و'المكتنزون' و'المستغلين'، بالإضافة لسياسة الأفارقة، قد جعلهم يقررون الرحيل عن شرق إفريقيا. ولما كانت علاقتهم جيدة ببريطانيا فقد هاجروا إليها مفضلين

إياها على الهند وطنهم الأم. بل وصل معدل الهجرة إليها في الأسبوع الواحد ما بين ٤٠٠ - ٥٠٠ هندوسي. وتقلصت أعدادهم بصورة كبيرة في كل المنطقة<sup>(٧٤)</sup>. بل صدر لهم قانون مهاجري الكومنولث سنة ١٩٦٨، ذلك القانون الذي ساعدهم في الرحيل لبريطانيا<sup>(٧٥)</sup>. فلو كانت العلاقة بينهم وبين البريطانيين سيئة خلال الفترة الاستعمارية، لكان هناك عدم تفضيل من جانبهم للاستقرار بها، مفضلين إياها على بلدهم الأم، أو لكانت بريطانيا نفسها ترفض هجرتهم إليها. وربما كان هذا الاستمرار للوجود الهندوسي في بريطانيا هو الذي يفضح تلك العلاقة الخفية بين بريطانيا والهند. بل أيضا ويكشف الدور الذي تلعبه الهند في خدمة المشروعات الغربية في منطقة جنوب شرق ووسط آسيا، ليس فقط عبر العلاقات الرسمية، بل عبر الجماعات الهندوسية التي تعيش في بريطانيا والدول الغربية.

### المحور الثالث- المجتمع الهندوسي في شرق إفريقيا البريطانية :

تكون المجتمع الهندوسي في شرق إفريقيا عبر هجرة طوعية باختيارهم، وهجرة إجبارية تولاهما وكلاء الاستعمار البريطاني<sup>(٧٦)</sup>. بل تشير الروايات إلى أن منطقة شرق إفريقيا أصبحت في العصر الفيكتوري هي المنفذ الرئيسي للهجرة الهندوسية. وأن المجتمع الهندوسي هناك أسهم في تطوير الزراعة، والإشراف على أعمال المنفعة العامة، ومثلوا قطاع العمالة الماهرة، وكانوا حاضرين في كتابات الرحالة والدبلوماسيين والمبشرين، وأن دورهم في تأسيس الحكم البريطاني في شرق إفريقيا كان كبيرا<sup>(٧٧)</sup>. وأنهم كانوا كذلك في مستعمرة شرق إفريقيا الألمانية<sup>(٧٨)</sup>. وحتى نتعرف على ملامح المجتمع الهندوسي في شرق إفريقيا أكثر لابد من الحديث في خمسة أمور:

الأمر الأول: خصوصية المجتمع الهندوسي في شرق إفريقيا، فمع أن الهندوس شكلوا فصيلاً رئيسياً داخل المجتمع الهندي في تلك المنطقة<sup>(٧٩)</sup>، إلا أنهم نظموا مجتمعاً مستقلاً خاصاً بهم هناك. فقد كان العمال الهندوس، على سبيل المثال، لهم خصوصية داخل العمالة الهندية التي جاءت لبناء خط حديد أوغندا خلال الفترة من ١٨٩٦ - ١٩٠٢<sup>(٨٠)</sup>. وكان معظمهم قد جاء ابتداءً من عام ١٨٩٦ من ولاية البنجاب، وعاد أكثر من ٩٠% منهم إلى الهند في نهاية عقودهم سنة ١٩٠١. وهذا لا يعني أن الهندوس لم يعد لهم وجود في شرق إفريقيا بعد هذا التاريخ. فقد جاءها تجار كثيرون يبيعون لهؤلاء العمال، وحينما اجتذبتهم مناطق الداخل توغلوا فيها بطلب من الإدارة الاستعمارية<sup>(٨١)</sup>. بل زادت أعدادهم في خمسينيات القرن العشرين بما يتجاوز نصف عدد الهنود المقدر بـ ١٩٨ ألف، كانوا يعيشون في أوغندا وتنجانيقا وزنجبار وكينيا<sup>(٨٢)</sup>. ومع اقتراب استقلال شرق إفريقيا في بداية الستينيات، تجاوز عددهم أيضاً نصف الـ ٣٦٠ ألف هندي القاطنين هناك. ونتيجة الضغوط الكبيرة التي مورست عليهم من قبل الحكومات الإفريقية بعد الاستقلال تركها الكثيرون منهم وارتحلوا لأوروبا وأمريكا وغيرها<sup>(٨٣)</sup>.

واحتفظ المجتمع الهندوسي في شرق إفريقيا بخصوصياته، حيث جاءت طبقة البراهمة في قمة الترتيب الاجتماعي، في حين جاء الاتوتوشابول Untouchables في المؤخرة<sup>(٨٤)</sup>. وسكنوا المدن بأمر الحكومة البريطانية، واستأجروا مجالهم فيها بنظام ٤٩ سنة أو ٩٩ سنة. وعاشوا مثل اليهود في حارات خاصة بهم (جيتو). وأقاموا مدارس خاصة بهم للمحافظة على ثقافتهم<sup>(٨٥)</sup>.

وإذا كان البراهمة قد أتوا في المقدمة، بحكم ترتيبهم الهيراركي داخل المجتمع الهندوسي، إلا أن أعدادهم قليلة مقارنة بعدد العمال الفنيين والتجار الذين صحبوهم لإمدادهم بالسلع والخدمات الأخرى. ومن ثم لم تستطع الموجة لشرق إفريقيا لا الطبقات الهندوسية الفقيرة، ولا الأغنياء والمتعلمون تعليماً جيداً<sup>(٨٦)</sup>. ووفر الانجليز الفرصة لانتقال أسر هندوسية بكاملها للمنطقة. وخير مثال لذلك، الدراسة التي اعتمدت على تاريخ عشرين أسرة هندوسية، عاشت هناك لمدة ثلاثة أجيال، ما بين ثمانينيات القرن التاسع عشر وستينيات القرن العشرين، كأسرة وهانا، وعائلة وهانا سندريجي Sunderji ونانجي ديومرداس Damordas وكيشفاجي Keshavji. بل ذهب كثيرون من رجال الأعمال الهندوس ليستقروا مع زوجاتهم وعائلاتهم هناك، خلال الفترة من ١٩٢٠ - ١٩٦٠. فقد كانت النجاحات التي حققها أقرباؤهم منذ ثمانينيات القرن ١٩، هي المحرض الرئيسي لانتقالهم، فضلاً عن الاستقرار والحماية التي وفرها الانجليز لهم. ناهيك عن الفرص التجارية التي وفرتها المنطقة لتجارة المنسوجات القطنية والعاج والتوابل المربحة. فقد كانت الهند نفسها غير مشجعة للاستمرار فيها. ناهيك عن أن الكثيرين ممن جاءوا في بداية العصر الاستعماري مع آبائهم كأطفال، عادوا في عشرينيات القرن العشرين ليصطحبوا بقية أسرهم. ولعل تمييز الزيادة في عدد الهندوس من بين الهنود خلال الفترة من ١٨٨٤ - ١٩٦٣<sup>(٨٧)</sup>، يشير إلى قدرة المنطقة على جذب الهنود بصفة عامة، والهندوس بصفة خاصة. وإذا أخذنا تعداد سنة ١٩٤٨ في كينيا كمؤشر على الوضع الاجتماعي للهندوس، لوجدناه يشير إلى وجود محامين ومدرسين وأطباء بينهم، غير أن غالبيتهم يعملون بالتجارة. وأن أربعة أخماسهم يعملون بالتجارة أو الصناعة، والباقي في الوظائف والحرف الأخرى. وبالنسبة للعمال والحرفيين وموظفي الإدارة الاستعمارية، فقد كانوا يعملون سبعة أيام في الأسبوع، من الفجر حتى آخر النهار. ولا يشكون من أقسى المهام وأشقها، ويقنعون بأجور ضئيلة<sup>(٨٨)</sup>.

وحافظ المجتمع الهندوسي على خصوصيته في شرق إفريقيا. فقد التفت الهندوس حول عقيدتهم الدينية، وتقيدوا بتقاليد مجتمعاتهم وطقوس دينهم الصارمة. ومع أن بعضهم أتقن السواحيلية إلا أنهم تمسكوا بخصوصيتهم اللغوية<sup>(٨٩)</sup>. لهذا فإنهم لم يستطيعوا تطوير تنظيماتهم الاجتماعية هناك. فقد أجبرتهم معتقداتهم على بقاء ارتباطهم بالهند. وربما كان الهندوس أغنياء ومؤثرين، ولكنهم في النهاية كانوا مجتمعاً

منعزلاً هناك. فضلاً عن أنهم مثلما كانوا في الهند، عاشوا في شرق إفريقيا. فقد نقلوا تنظيماتهم الاجتماعية الهندية بصورة كربونية لتلك المنطقة. فقد كان لهم رئيس ونائب لكل قرية، وهناك رئيس للعشيرة. وكانوا مرتبطين بعادات زواجهم من أقاربهم. وكانت جمعيات الباتيدار Patldar Associations هي التي تدير شئونهم. وانتظموا في عدد من الجمعيات التي حافظت على هويتهم. وشكل عدد أعضاء جمعية كمبالا الهندوسية في أوغندا العدد الأكثر من بين تلك الجمعيات. ناهيك عن أنهم، ولكونهم أثرياء، بنوا قاعة احتفالات كبرى يجتمع فيها كل هندوس أوغندا، وبنوا ملجأ للأطفال، وتحملوا تكلفة تعليم كل الفقراء من أطفالهم<sup>(٩٠)</sup>. وحافظ الهندوس على اتصالاتهم المستمرة بالهند وزنجبار وعمان ومدن عالمية أخرى كثيرة<sup>(٩١)</sup>. وبرغم وجود جمعيات خاصة بهم، إلا أن الجمعية الهندية المركزية بنيروبي ظلت تمثل كل المجتمع الهندي في شرق إفريقيا<sup>(٩٢)</sup>. ونخلص من هذا الأمر بأن شرق إفريقيا كانت هي البوابة الرئيسية لاتساع شبكة العلاقات الدولية والإقليمية للهندوس. وأن خصوصيتهم هي التي جعلت الأطراف الأخرى هناك تتعامل معهم بحرص وحذر واحترام لها.

الأمر الثاني: علاقة المجتمع الهندوسي ببقية الهنود، فبرغم أن خصوصية المجتمع الهندوسي قد أحدثت الاتساق والتعاون داخل طائفتهم في كل شرق إفريقيا، خصوصاً بعد تحول تنجانيقا للحكم البريطاني بعد الحرب العالمية الأولى، إلا أن علاقات هذا المجتمع ببقية الهنود كانت علاقة قوية ووطيدة، خصوصاً بينهم وبين الشيخ البنجاب<sup>(٩٣)</sup>. فقد ظلت الصداقة موجودة وقائمة بين الطرفين في أوغندا، وغيرها من بلدان شرق إفريقيا طوال الفترة الاستعمارية<sup>(٩٤)</sup>. بل تشير الكتابات إلي أنه خلال تقسيم البنجاب ١٩٤٧ وفقد الكثير من عائلات الشيخ أراضيهم، رحب الهندوس بالمرتحلين منهم لشرق إفريقيا واستقبلوهم استقبالاً جيداً، وصارت العلاقات وطيبة بينهم منذ تلك الفترة وحتى الاستقلال، لدرجة أنهم بعد انقلاب الإفريقيين على الطرفين، ساعدوهم في تفضيل الهجرة إلى المملكة المتحدة وكندا والولايات المتحدة الأمريكية<sup>(٩٥)</sup>، وأستراليا ونيوزيلندا وبعض بلدان أوروبا، عن الهند عام ١٩٦٥<sup>(٩٦)</sup>.

في حين تراوحت العلاقات بينهم وبين بقية الهنود من المسلمين بين الشد والجذب. ففي أحيان كثيرة كان يسودها التوتر والانقسامات، وأحياناً أخرى كان يغلب عليها المودة والتعاون. بعضها مرتبط بظروف التنافس بين الطرفين على خيرات شرق إفريقيا، وبعضها جاء انعكاساً لحالة الصراع بينهما في الهند نفسها. ولعل تدخل مدير عام إنشاء الخط الحديدي والنزول بنفسه إلى مخيم العمال الهنود - خلال الفترة الاستعمارية المبكرة، لقمع الاضطرابات بين الهندوس والمسلمين، وفصلهم عن بعض خلال الاشتباكات المستمرة التي تجرى بينهم بالعصي والحجارة، لدرجة أن اثنين من الهندوس حاولا قتله - يعد خير مثال لهذه التشاحنات بين الطرفين. بل صدرت أحكام كثيرة بالسجن، لمدد مختلفة، للهندوس وغيرهم من العمال المتمردين<sup>(٩٧)</sup>. وبرغم أن

حالة الهدوء والانسجام القائمة في الهند، حتى عشرينيات القرن العشرين قد عكست نفسها في الهدوء والاستقرار بين الطرفين في شرق إفريقيا، ورغم أن سكانهم في أحياء واحدة، وإرسال أبنائهم لمدارس شبه واحدة، قد ألف بينهم في فترات كثيرة، ورغم أن التقاءهم مع المسلمين في الأندية الرياضية كرمز للوحدة المجتمعية، إلا أن حالة الصراع في الهند منذ الثلاثينيات عكست نفسها في النفور والفرقة بينهما. بل ازدادت الفجوة بينهما بعد فصل باكستان عن الهند سنة ١٩٤٧ (٩٨).

الأمر الثالث: الاهتمام بالرعاية الصحية. فقد تكفل المجتمع الهندوسي في شرق إفريقيا في البداية بالحفاظ على صحة أبناءه ومعالجتهم من أمراض المنطقة. ففي نهاية سنة ١٨٩٤ أنشأ الهندوس مرفقاً صحياً في زنجبار، تألف من موظفين من أهل جوا ومفتشين هنديين، و٤٠ كناساً و٣٢ زبالاً (٩٩). ولعل قرارهم بالاستقرار في شرق إفريقيا نتيجة للأمراض التي تعرضوا لها، ووفاة الكثيرين منهم خلال رحلة الذهاب والعودة، من وإلى الهند، يعد قراراً وقائياً جيداً في أواخر القرن التاسع عشر (١٠٠). لكن على الساحل وفي مناطق شرق إفريقيا الداخلية اهتمت الإدارة البريطانية بإجراء تحسينات لمراقبتهم التعليمية، وقامت بتوفير الرعاية الطبية لهم (١٠١). خصوصاً بعد سكانهم في حارات ضيقة، وتأثير ذلك على تدهور حالتهم الصحية، وانتشار مرض الطاعون بينهم سنة ١٩٠٥ (١٠٢). فكان من الطبيعي أن يسعى الإنجليز إلى مساعدتهم قبل أن تنتقل الأمراض لمناطق سكنى الأوربيين.

الأمر الرابع: تعليم الهندوس في شرق إفريقيا. ففي مارس ١٨٩١ افتتحت مدرسة إيوان سميث الهندية الكبرى، ليدخلها أبناء الهندوس والمسلمين الهنود سوياً. بل كانت إدارتها تحت قيادة لجنة منتخبة من قبل هندوس ومسلمين (١٠٣). هذا بالإضافة إلى دخول أطفالهم المدارس التي فتحتها الإدارة البريطانية في كينيا. ناهيك عن قيام البريطانيين بإعانة مدرسة الهندوس الحرة للبنات بمساعدة قدرها ٨٧٤ روبية سنة ١٩٢٤. بل ظلت الإدارة الاستعمارية تعين مدارسهم حتى سنة ١٩٦٣. فضلاً عن جهودها في إنشاء مدرسة مفتوحة لكل طوائفهم منذ سنة ١٩١٣، وافتتاحها لمعاهد للتعليم الفني في نيروبي وممبسة ومعهد المهاتما غاندي (١٠٤).

وبخصوص تعليمهم في أوغندا، فقد قاموا بإدخال أبنائهم في مدرسة البعثة التبشيرية في كمبالا سنة ١٩٠٢، ومدرسة جنجا سنة ١٩٢٥. ناهيك عن قيامهم بإنشاء مدارس هندية صغيرة خاصة بهم. عملت الحكومة الاستعمارية على إعانتها منذ سنة ١٩٣٣ وحتى سنة ١٩٤٩. وفي تنجانيقا اهتموا بإقامة مدارسهم بأنفسهم في ظل الإدارة الألمانية. لكن حينما تولت بريطانيا إدارة المنطقة ساعدتهم سنة ١٩٢٥ بـ ٥٠% من تكاليف إنشاء مدرسة مركزية كبيرة في دار السلام (١٠٥).

وبالنسبة للتعليم العالي للهندوس، فكان هذا يتم في الهند وإنجلترا وجامعة ماكيريري في أوغندا، تلك التي كان يذهب إليها كل رعايا بريطانيا في شرق إفريقيا.

فضلاً عن تشكيل المجلس الاستشاري للتعليم الهندي سنة ١٩٥١. الذي قام بإنشاء لجنة مهمتها اختيار الطلاب المبعوثين سنوياً لاجتياز. فضلاً عما قدمته الهند لهم من رعاية بعد استقلالها سنة ١٩٤٧. فقد خصصت عام ١٩٤٩ منحاً دراسية لأبنائها الهندوس، ناهيك عن منحها الثقافية<sup>(١٠٦)</sup>. وهذا ما يدل على استمرار العلاقة مع الهند على طول الخط. وهو معاكس لما حدث في العلاقات الاقتصادية بينهم وبين الهند.

الأمر الخامس: مكانة المرأة الهندوسية. فبرغم ما قيل عن علاقة الهندوس بالانجليز، وأنهم وفروا المناخ الذي ساعدهم في اصطحاب أخواتهم وزوجاتهم وبناتهم للإقامة في شرق إفريقيا إقامة دائمة<sup>(١٠٧)</sup>. غير أنه لا أحد ينكر بأن السلطان برغش، سلطان زنجبار، كان هو السبب في هذا الاصطحاب الهندوسي للزوجات والأسر. فحينما كان سفر الهندوسيات لتلك المنطقة من المحرمات، لكونها غير آمنة على النساء، ما اضطرهم لترك زوجاتهم لرعاية أسرهم الموسعة في الهند، راح السلطان برغش يشجعهم على جلب زوجاتهم لمملكته، في بداية ثمانينيات القرن ١٩. بل قيل بأنه أرسل مبعوثاً خاصاً إلى السفينة التي حملت أول امرأة هندوسية إلى زنجبار سنة ١٨٧٩. وأنه أعطاهما ٢٥٠ شلناً عربوناً للمحبة، وتعبيراً عن نواياه الطيبة. بل جعل زنجبار القديمة مكاناً لإقامة زوجات التجار الهندوس، وزودها بأنابيب المياه والصنابير، وضمن للهندوسيات الحركة فيها بحرية<sup>(١٠٨)</sup>. لكن هذا التشجيع جذب حالات فردية وأعداد قليلة جداً.

من هنا، فإن القفزة الكبيرة لانتقال الهندوسيات لشرق إفريقيا؛ جاءت مع الاحتلال البريطاني لها. فقد شجعت الإدارة الاستعمارية هذا الأمر وحفزت عليه، أملاً في ضمان بقاء الهندوس في خدمة المشروعات البريطانية هناك. واحتفظ المجتمع الهندوسي في شرق إفريقيا بتقاليد، بتفضيل الأسر الهندوسية لزواج أبنائها من هندوسيات. لكن حينما تقدم عمر تلك الأسر في تلك المنطقة، ترك أمر الزواج بهندوسيات شرق إفريقيا لصالح الزواج بهندوسيات من الهند نفسها. بما يعنى قطع الطريق على تلك الفتيات عن الزواج من خارج طبقتهم داخل الترتيب الهيراركي الهندوسي. وهو الأمر الذي اجتاحته له الأسر الهندوسية فيما بعد، فعادت لتفضيل هنديات شرق إفريقيا. وهو ما أدى في نهاية المطاف إلى تدهور العلاقات الاجتماعية والعائلية مع الهند. فلم تعد لها أهمية كبيرة في استجلاب الزوجات منها. ومن ثم لعب شرق إفريقيا دوراً كبيراً في تقريب الفوارق بين الفئات الهندوسية. واستطاعت بالفعل تغيير كثير من التقاليد التي حافظت عليها الأسر الهندوسية التي هاجرت قبل بداية القرن العشرين<sup>(١٠٩)</sup>. بل كان هندوسيوها يتزوجون من هندوس موزمبيق وجنوب إفريقيا<sup>(١١٠)</sup>.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد. فقد ظهر تأثير الهندوس القوي بالغرب. ولعل ما فطه رجل الأعمال الهندوسي بهارات، يعد خير مثال للتغير الذي حدث لهم في شرق إفريقيا. فقد عاش بهارات في دار السلام، ودرس في المملكة المتحدة. وهناك وقع في



حب فتاه هندية من شرق إفريقيا ومن غير طائفته، لكنها تتحدث الجوجاراتية مثله. ولما كانت مهمة إقناع والده بالزواج من خارج طبقتة - خصوصاً مع رفض إخوته لهذا الزواج، وتحذيرهم من تأثيره على دينه وأطفاله - مهمة غير سهلة، لذا استغرق عدة سنوات في عملية إقناع والده وأسرته بهذا الزواج، كونه أول هندوسي يكسر التقاليد<sup>(١١١)</sup>. وخلاصة الأمر عن مكانة المرأة نجلها فيما انتهى إليه حالها هناك. فبعد أن كان عدد النساء قليلاً في بداية الفترة الاستعمارية، وصلن في نهايتها، لأن يكون الفارق بينهن وبين الرجال الهندوس لصالحهن، فعددهن أكثر<sup>(١١٢)</sup>. وهذا يدل على أن المنطقة أصبحت جاذبة للمرأة الهندوسية ومشجعة على زيادة تناسلها وبقائها فيها.

وثمة نتائج أربع نخلص بها من هذا المحور: أولها، احتفاظ المجتمع الهندوسي بتقاليده وعاداته وخصوصياته بشكل كبير ومدesh. ثانيها، هناك قدر كبير من التماسك بينهم وبين بقية الهنود الآخرين. ثالثها، لم يقف هذا المجتمع حجر عثرة في طريق الحداثة وتطور نفسه تعميمياً وثقافياً وعلاجياً. رابعها، أن المرأة فيه تمثل جزءاً أصيلاً في احتفاظه بتقاليده، وملحاً مهماً من ملامح هويته الوطنية.

#### المحور الرابع- أحوال الهندوس الاقتصادية :

رغم أن الآلاف من الهندوس قد جاءوا لشرق إفريقيا، في بداية العصر الاستعماري كعمال لبناء خط حديد أوغندا، إلا أن معظم هؤلاء العمال عادوا للهند سنة ١٩٠١<sup>(١١٣)</sup>. ومن ثم فإن الهندوس الذين بقوا هناك، والذين هاجروا إليها طوعاً، قد شكلوا قوة اقتصادية كبيرة في المنطقة. ونظراً للمكانة الاقتصادية الهامة التي حققها الهندوس في شرق إفريقيا سنتعرف على هذه البراعة والقوة في خمسة ملامح رئيسية:

الملح الأول: البراعة الاقتصادية لأفرادهم وقدرتهم على افتتاح الشركات. فقد برع الأفراد الهندوس في كيفية الحصول على الثروة والأرباح، وفي مضاعفتها واستثمارها هناك. ولم تكن تلك الصفة قد اكتسبوها من البريطانيين في منطقة شرق إفريقيا، بل تميزوا بها قبل الاحتلال البريطاني لها. فعلى سبيل المثال لم يخرج امتياز الجمارك من بيت جيرام سوجي الهندوسي إلا مرة واحدة سنة ١٨٧٦، ولمدة خمس سنوات: لشاريا توبان الهندي الاسماعيلي. لكنه عاد للهندوس مرة ثانية سنة ١٨٨٠، وظل فيهم حتى سنة ١٨٩٠. حيث انتهى بإعلان الحماية البريطانية على كينيا، وقيام جهة الإدارة بوضع تنظيم الجمارك تحت إشرافها الكامل<sup>(١١٤)</sup>. بل إنهم في ظل نفوذ شركة الهند الشرقية في مختلف أنحاء شرق إفريقيا، هيمنوا على التجارة والمالية في زنجبار ومختلف مناطق الداخل<sup>(١١٥)</sup>.

بل إن تاريا توبام Taria Topam نفسه، كان تلميذاً لدى سويجي جيرام Jairam Sewji الهندوسي، مما ينم على العلاقة الاقتصادية الجيدة التي جمعت بين الهنود بصفة عامة في تلك المنطقة. فقد أشركه مع هندوسي آخر يدعى سيوا حاجي بارو Sewa Haji Paroo، ليس فقط لفتح متاجر له في الداخل، ولكن لتنظيم القوافل

إليها أيضاً. وهكذا أنشئت **Allidina Visram** في بداية عام ١٨٩٠. وكل منهم قد استقل وفتح شركات خاصة به. وقام بفتح فروع لها فيما بعد. حتى جاءت سنة ١٩٠٩ وأصبحت لكل منهم إمبراطوريته التجارية المستقلة. بل إن أحدهم فتح أكثر من ٤٠ فرعاً في جميع أنحاء شرق إفريقيا وتمكن من إقامة العديد من المصانع<sup>(١١٦)</sup>.

وكانت معظم الشركات الهندوسية تتخذ من زنجبار مقراً لها، مع وجود وكالات فرعية لها في الداخل. وبعد تقسيم شرق إفريقيا بين ألمانيا وبريطانيا، وجدت تلك الشركات في القسمين. بل إنه حينما ألغى الألمان الضرائب المفروضة على جميع البضائع المستوردة، عدا المشروبات الروحية والسلاح، في أول فبراير ١٨٩٢، اجتذب هذا الإجراء العديد من الهندوس لنقل تجارتهم إلى دار السلام وغيرها من مدن المستعمرة الألمانية، وأقاموا أسواق خاصة بهم<sup>(١١٧)</sup>. ناهيك عن مشاركة الهندوس في صناعة الملابس والمنسوجات القطنية في معظم أنحاء شرق إفريقيا منذ نهاية الحرب العالمية الأولى<sup>(١١٨)</sup>. بما يعد تحولاً اقتصادياً عاماً في تاريخ الهندوس. حيث ظل نشاطهم يقتصر، طيلة القرون السابقة، على جلب المنسوجات من الهند<sup>(١١٩)</sup>. وحينما تحولوا للاهتمام بالصناعة لم يملكوا ورشاً صغيرة لإنتاج الملابس في شرق إفريقيا فحسب، بل امتد الأمر لمعظم أنحاء الجنوب الأفريقي<sup>(١٢٠)</sup>.

الملح الثاني: إنشاء البنوك، فنظراً للاستقرار الذي وفره الانجليز لهم، أقدموا على خطوة اقتصادية هامة ألا وهي افتتاحهم لعدد من البنوك هناك. ففي سنة ١٨٩٦ أنشأوا أول بنك هندوسي في شرق إفريقيا، هو البنك الأهلي الهندي **The National Bank of India**. وهذا البنك كان مقصوراً، منذ سنة ١٨٩٢، على زنجبار فقط. هذا بالإضافة إلى قيامهم بفتح فرع جديد له في ممبسة<sup>(١٢١)</sup>. وافتتحوا فرعاً آخر له في نيروبي سنة ١٩٠٤. وأصبح هذا البنك أحد ثلاثة بنوك تدير أعمال المال والإعمال في شرق إفريقيا سنة ١٩١١. وزادت فروعها في كل من ممبسة ونيروبي وناكورو وكيسومو<sup>(١٢٢)</sup>. وهذا ما جعلهم يتحكمون في النشاط التجاري في معظم مدن شرق إفريقيا. وخير مثال لذلك، تحكمهم في تجارة مومبسة<sup>(١٢٣)</sup>. هذا في الوقت الذي شاركت فيه بعض العائلات الهندوسية الميسورة نسبياً في إقامة شكل من أشكال الخدمات المصرفية منذ سنة ١٩١٦، بفائدة ما بين ٦-٩% سنوياً. وهذا ما دعا لأن يكون لبعض شركاتهم ممثلين في مدن مختلفة في أنحاء العالم<sup>(١٢٤)</sup>.

الملح الثالث: نشاطهم التجاري الكبير. فقد برع الهندوس في مجال تجارة الجملة والتجزئة والتصدير للخارج. ففي مجال تجارة التجزئة ظل اسم الدوكاوالا **dukawalla** يعنى الهندي صاحب المتجر<sup>(١٢٥)</sup>. ولتستدل على دورهم في هذا المجال، نستعين بتقرير رفعه السير هسكث عن زيارته لمدينة مبال سنة ١٩٠٩. فقد تحدث فيه عن حانوت يملكه أحدهم يدعى هيرالال، بأنه مملوء بالأطعمة المحفوظة والصابون والأقفال وألواح الساج والنحاس والسلك والدراجات والدبابيس وأثواب من القماش البفتة، كلها

مستوردة من بريطانيا. وأنه رأى من البضائع الألمانية والنمساوية؛ الأحذية بأشكالها المختلفة، والشاي والسكر والدقيق والبويات ومصابيح العواصف والشماسي. وشاهد من البضائع الفرنسية المرايا والسجائر. ومن السويد والولايات المتحدة رأى الكبريت وغاز الكيروسين والساعات السويسرية. وهذا يعنى اعتماد تجارة الهندوس على البلدين الاستعماريين، بريطانيا وألمانيا، بشكل كبير. هذا في الوقت الذي راح فيه نشاطهم في خمسينيات القرن العشرين لا يقتصر على الحي التجاري الخاص بالهنود فقط، بل كانت لهم محال تجارية كبرى في الشوارع الرئيسية، حيث توجد المؤسسات الأوربية. وكان أثرياء التجار ومتقوهم يملكون عددا كبيرا من دور السينما والفنادق والجراجات ونوادي ومنتزهات وبيوتاً ريفية أنيقة. أما خارج المدن فتغلغوا في الأرياف، فملكوا دكاكين صغيرة تسمى دوكا Duka يبيعون فيها للإفريقيين بسعر جذاب<sup>(١٢٦)</sup>. لهذا كان أكثر من ٥٠% من ذكورهم في أوغندا سنة ١٩٤٨، على سبيل المثال، يعملون في تجارة التجزئة والجملة.<sup>(١٢٧)</sup>

وفيما يختص بتجارة الصادرات والواردات، فقد استوردوا الكاجو والسهم والفول السوداني والقطن ولب جوز الهند المجفف من هندوس موزنبيق<sup>(١٢٨)</sup>. وكانوا وشركاتهم في سنة ١٩١٦، يتاجرون في السلع الرئيسية، في المنسوجات والملابس والعاج والذهب والمواد الغذائية كالذرة والفاصوليا والحبوب والذهب<sup>(١٢٩)</sup>. وكانوا في أوغندا يتاجرون في القطن والبن. وبلغوا درجة من الثراء هناك، مما فرض على حكامها البريطانيين العموميين الاجتماع بهم كل عام<sup>(١٣٠)</sup>. بل وصل الأمر في عموم شرق إفريقيا سنة ١٩١٠، بأن أصبحت التجارة والحرف كلها في أيديهم، وفي أيدي بنى جلدتهم من بقية الهنود<sup>(١٣١)</sup>.

المنح الرابع: نشاطهم الزراعي المتميز. وقد ظهر هذا النشاط المتميز حينما أرسلت شركة شرق إفريقيا البريطانية السيد فينجرالد لبحث الإمكانيات الزراعية في شرق إفريقيا سنة ١٨٩١. فأوصى باستقدام المزارعين الهنود إليها للعمل في المشروعات الزراعية الاستعمارية. فجاء الفلاحون والمزارعون الهنود في البداية، كمهاجرين يهتمون بزراعة المحاصيل النقدية المربحة. لكنهم بمجرد وصول المستوطنين الأوربيين إليها تعرضوا لمضايقات شديدة<sup>(١٣٢)</sup>. لهذا شاركوا في اجتماع ممبسة سنة ١٩٠٥. وطالبوا فيه بالسماح لهم بتخصيص أراض في المرتفعات، وعادوا فكرروا طلبهم سنة ١٩٠٨. غير أن كلا الطرفين قد رفض<sup>(١٣٣)</sup>.

وكانت تجربة الهندوس في زراعة القطن قد جعلتهم يمتلكون كثيرا من المحالج سنة ١٩١٤. وهو الأمر الذي جعلهم يصدرونه للغرب واليابان خلال الفترة من ١٩٢٢ - ١٩٣٠. فضلا عن أنهم كانوا رواد صناعة السكر في شرق إفريقيا. حيث أقام أحدهم، نانجي كاليداس، أول مصنع للسكر في لوجازي سنة ١٩٢٣. ثم ما لبث أن افتتح مصنعا

آخر في كاكيرا. وفي سنة ١٩٥٢ بلغ إنتاج هذه المصانع ٦٠ ألف طن. وكان نصف إنتاج تلك المصانع يستهلك محلياً، والباقي يصدر للخارج (١٣٤).

وشارك الهندوس في إقراض مزارعي القرنفل العرب، لكن حينما تفاقمت ديونهم في بداية القرن العشرين، انتقلت ملكية تلك الزراعات إليهم. غير أن تقرير سنة ١٩٢٣ قد أشار إلى عدم اهتمامهم بزراعة القرنفل. مما أدى إلى قيام الإدارة الاستعمارية بمنع انتقال تلك الملكية لهم سنة ١٩٣٤. وهو الأمر الذي فرض عليهم العودة للمشاركة في الإنتاج سنة ١٩٣٧ (١٣٥). وبلغ من قوتهم الاقتصادية الزراعية أن اشترتوا ممتلكات الرعايا الألمان المعروضة في الفترة ١٩٢٠ - ١٩٢٤، بعد أن عرضها البريطانيون للبيع بالمزاد العلني. فانتقلت نسبة كبيرة من مزارع البن والسيسال إلى أيديهم. وهذا ما يفسر زيادة أملاكهم بصورة كبيرة بعد سنة ١٩٣٦. بل أصبحوا، مع بقية الهندوس الآخرين، يمتلكون ٩٠% من الأملاك الخاصة في دار السلام (١٣٦).

الملح الخامس: تنوع علاقاتهم الاقتصادية الدولية وفتورها مع الهند. فقد ارتبط الهندوس في بداية العصر الاستعماري بدولتي الاستعمار الرئيسيتين في شرق إفريقيا، إضافة لبلدهم الأم الهند. لكن يبدو أن تأثرهم بفترة الكساد العظيم، وغزو الجراد لشرق إفريقيا في مستهل ثلاثينيات القرن العشرين، واستمرار عدم تحسن الأحوال الاقتصادية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية (١٣٧)، قد جعلهم يركزون خلال الفترة من ١٩٢٠ - ١٩٦٠ على شرق أفريقيا والمملكة المتحدة واليابان. حينما تأكد لهم بأن الهند قد خسرت المنافسة العالمية في صناعة النسيج لصالح اليابان ثم أوروبا. ومن ثم كانوا سبباً في أن تفقد الهند مكانتها في سوق شرق أفريقيا خلال عملية تحولها إلى دولة صناعية كبرى. بالمقابل كانت شرق أفريقيا تحت قيادتهم تخطو خطواتها الأولى في التصنيع الأولي، خصوصاً في إنتاج المنسوجات (١٣٨).

ومن ثم لم يكن تدهور العلاقات بين الهندوس في شرق إفريقيا والهند بعد الحرب العالمية الثانية في أمور الزواج فقط، بل في العلاقات التجارية واستيرادهم للمنسوجات. وهذا التدهور بدأ منذ ثلاثينيات القرن العشرين، حين اعتمدوا على المنسوجات اليابانية التي كانت تباع في أسواق شرق أفريقيا بسعر رخيص للغاية. بل إن بعضهم، منذ سنة ١٩٣٥، فتح فروعاً لشركاتهم في اليابان. بل انقطعت الشبكات المصرفية بين الطرفين. وهذا ما يفسر لماذا بدأ الجيل الثاني من هندوس شرق أفريقيا في التركيز على المشاريع الجديدة في المملكة المتحدة، خصوصاً بعد قيام الحكومة الهندية بتغيير سياستها تجاههم بعد استقلال الهند في ١٩٤٧. وبعد أن حلت سياسة اللامبالاة على يد نهرو. واكتفت بنصيحتها لهم بتحديد الأماكن التي يقيمون فيها. ناهيك عن التشكيك في تحايل التجار الهندوس عليهم، وإرسال نوعيات رديئة وأقل مما طلبوه. إلي جانب قيود في التصدير للهند أكثر من تلك التي تعترض طريقهم خلال تصديرهم لجنوب إفريقيا وانجلترا وكندا وأمريكا. لذا تجنب الكثيرون منه هذا الصراع مع الهند،

وأوقفوا تجارتهم معها. وهذا ما جعلهم يشعرون بأنهم أصدق من هندوس الهند. ومن ثم تعززت في شرق أفريقيا فكرة الجماعة الجوجاراتية كما هي في الهند. بل اعتقدوا بأنهم تميزوا بالصدق عنهم في ثمانية أعشار كلامهم<sup>(١٣١)</sup>. وهذا ما جعل الذين واجهوا مشاكل في شرق إفريقيا بعد الاستقلال؛ يفضلون البلاد الغربية على الهند. وإذا أخذنا طردهم من أوغندا مثالا لقوتهم الاقتصادية، لوجدنا أن تحكهم الاقتصادي هو الذي جعل الإفريقيين يقومون بهذا الأمر. حيث قيل بأن طردهم جاء اعتراضاً على شركاتهم التي تصدر الأخشاب وتستنزف الغابات الاستوائية، مما اعتبره الأهالي امبريالية هندية في شرق أفريقيا. بل استمر هذا الطرد لهم خلال فترتي عيدي أمين (١٩٧١-١٩٧٩) وميلتون أوبوتي (١٩٨٠-١٩٨٥)<sup>(١٣٠)</sup>.

#### المحور الخامس - أهوالهم السياسية :

برغم أن اهتمام الهندوس الأول قد انصب على الاقتصاد وتكوين الثروات، ورغم أنهم جاءوا رعايا لبريطانيا، إلا أنهم اهتموا أيضاً بالسياسة. فقد برز نشاطهم السياسي منذ سنة ١٩٠٠. حينما كونوا مع بقية الهنود جمعية هنود ممبسة. وانتشرت الجمعيات المشابهة لها في نيروبي، وفي كل المراكز الحضرية في كينيا وأوغندا وتنجانيقا. ويبدو أن ممبسة كانت هي المركز الرئيسي للنشاط السياسي الهندوسي. فمثلما تأسست فيها أولى الجمعيات السياسية، تأسس فيها أيضاً المؤتمر الوطني الهندي لشرق إفريقيا East Africa Indian National Congress سنة ١٩١٤، ومنها تفرعت فروعها الأخرى في أوغندا وتنجانيقا<sup>(١٣١)</sup>. ومثلما كان الهندوس مؤسسين ومتحكمين في نظيره في الهند، كانوا هم أيضاً المتحكمون والمؤسسون له في شرق إفريقيا. وحتى يمكننا معرفة نشاطهم السياسي أكثر نبلوره في سبع لقطات رئيسية :

اللقطة الأولى: كفاحهم من أجل التمثيل النيابي. وهذه اللقطة تثبت دورهم المميز في الكفاح من أجل الحصول على مقاعد لتمثيل الهنود في المجالس التشريعية التي أنشأتها الإدارة الاستعمارية في شرق إفريقيا. ومع أنهم لم يحظوا بالمقعد الذي حصل عليه الهنود في أول مجلس تشريعي يشتركون فيه سنة ١٩٠٩، حيث حصل عليه أحد الهنود المسلمين يدعى جيفانجي، إلا أنهم ساندوا تلك الخطوة مطالبين بالمزيد من المقاعد. وبعد تغير اسم محمية شرق إفريقيا إلى محمية كينيا حصلوا على مقعدين سنة ١٩٢٠. وفي هذا الإطار كونوا مع بقية الهنود الآخرين الرابطة الهندية، التي طالبت بالتمثيل المتساوي بينهم وبين البيض. بل بعثت في أوائل ١٩٢٠ بوفدين لكل من نائب الملك بالهند ولورد ملنر وزير المستعمرات، فسمح بانتخاب شخصين بدلاً من تعيينهما، وألغى كافة القيود على هجرتهم. لكن إصرار اللورد ملنر على عزلهم في المدن لتجنب مشاعر الكراهية بين الأجناس، أدى إلى رفض انتخاب العضوين الهنديين بالجمعية التشريعية<sup>(١٣٢)</sup>.

ومع أن طلبهم قوبل بالرفض من قبل حزب المحافظين، إلا أنهم حصلوا على حقوق واضحة المعالم منذ سنة ١٩٢١. بحيث صيغت هذه الحقوق ضمن وثيقة رسمية في ٢٠ يوليو ١٩٢٣. فقد وافقت الإدارة البريطانية في كينيا، حسب قرار المؤتمر الامبراطوري سنة ١٩٢١، على انتخاب خمسة أعضاء بدلاً من أربعة. ويبدو أن رعاية حكومة الهند لهم إلى جانب ضغوطهم، هي التي لعبت الدور الأهم في الحصول على تلك الامتيازات. فقد كانت الإدارة البريطانية تخشى من أن إعطاء المزيد من الحقوق لهم، سيتسبب في إحداث توترات وقلق بين الإفريقيين عبر كافة مناطق شرق إفريقيا<sup>(١٤٣)</sup> وتشير إحدى الوثائق البريطانية صراحة إلى الدور الذي لعبه نائب الملك في الهند، والضغوط التي مارسها ممثلوا الجمعية الوطنية الهندية في يوليو ١٩٢٣، وغيرهم من المسؤولين البريطانيين، في حصول الهندوس، وغيرهم من بقية الهنود على مزايا سياسية وامتيازات في شرق إفريقيا<sup>(١٤٤)</sup>.

وما يعنينا هنا، هل استفاد الهندوس من تلك الامتيازات أم لا؟ الإجابة تقول بأنهم حصلوا على ثلاثة من خمسة مقاعد برلمانية حصل عليها الهنود في كينيا<sup>(١٤٥)</sup>. ورغم أنه اشترط على الهندي الذي يدخل الجمعية التشريعية أن يكون حاصلاً على مؤهل تعليمي عال، ورأس مال يبلغ ألف جنيه، أو دخل يبلغ ١٥٠ جنيهاً إسترلينياً، وأن يجيد اللغة الانجليزية كتابة وقراءة<sup>(١٤٦)</sup>، وبرغم رفع رسوم التأمين على المهاجرين الرجال منهم لتصل ١٠٠ جنية و ٥٠ جنية<sup>(١٤٧)</sup>، وبرغم أن بقية الشروط التي طبقت عليهم جعلت ١٠% منهم فقط تنطبق عليه تلك الشروط<sup>(١٤٨)</sup>، ورغم مناقشة موضوع تمثيلهم كثيراً<sup>(١٤٩)</sup>، إلا أن حصولهم على المقاعد الثلاث يعد نجاحاً كبيراً، مقارنة بالممثلين عن الأجناس الأخرى. وبرغم أن هذا سبب صعوبة بالغة للمرشحين الهنود في الدوائر الكبيرة والمتسعة عليهم، حتى وإن انحصر الأمر بين أفراد طائفتهم المنتشرين في مختلف المناطق<sup>(١٥٠)</sup>. ورغم التمكين الذي حصلوا عليه في المجلس التشريعي<sup>(١٥١)</sup>، إلا أن الكراهية التي قوبلوا بها من قبل المستوطنين البيض، إعتراضاً على تلك الامتيازات، جعل الممثلين الهندوس الثلاثة، والهنديان الآخرين، يقاطعون المجلس التشريعي حتى سنة ١٩٣١<sup>(١٥٢)</sup>.

أما بالنسبة للنواب الهندوس في تنجانيقا وأوغندا وزنجبار؛ فإنه بحلول عام ١٩٤٦ كان يتم ترشيح ما بين ٢-٣ هندي للمجلس التشريعي الأوغندي<sup>(١٥٣)</sup>. واثنين من ستة أعضاء يمثلون مختلف الطوائف في زنجبار<sup>(١٥٤)</sup>. لكن مع كل الصعوبات التي واجهت الهندوس في حصولهم على حق التمثيل البرلماني، إلا أنهم ظلوا يحتفظون بمقاعد ثلاثة من بين خمسة مقاعد مخصصة للهنود في كينيا، وممثل واحد في المجالس الأخرى. ولعل انتخابات عام ١٩٤٨، والسنوات التي تلتها<sup>(١٥٥)</sup>، تعد خير دليل على هذا البروز السياسي للهندوس، وعلى البروز العددي والنوعي أيضاً. فلا يمكن أن يحصلوا على هذا العدد من المقاعد، إلا إذا كانوا أكثرية، وإلا إذا كانوا أثرياء ولديهم تعليم جيد.

اللغة الثانية: مطالبتهم بالحكم الذاتي. وصل الأمر بالهندوس، بدعم من ممثلي مجلس الوزراء البريطاني، أن تزعموا بقية الهنود للمطالبة بأن تكون شرق إفريقيا الألمانية وطناً ومستعمرة لهم بعد نهاية الحرب الأولى سنة ١٩١٨<sup>(١٥٦)</sup>. بل يشير أحد التقارير إلى أن الليبراليين البريطانيين أشاعوا كثيراً خلال الفترة الاستعمارية عن محاولة الهنود إقامة إقليم هندي مستقل في شرق إفريقيا. بل تحدثت الحكومة البريطانية في ورقتها البيضاء سنة ١٩٢٣ بصراحة حول هذه المسألة<sup>(١٥٧)</sup>. فمنذ تلك السنة بدأ القادة السياسيون الهنود يطالبون بالمساواة الكاملة بين الهنود والأوروبيين<sup>(١٥٨)</sup>. بل عقد المؤتمر الوطني الهندي اجتماعاً حضره مندوبون عن هنود كينيا وأوغندا وتنجانيقا وزنجبار في ١١ ديسمبر ١٩٢٠، معتبرين كينيا، تاريخياً واقتصادياً، مستعمرة هندية لا بد أن تتبع حكومة الهند، ولا تكون مستعمرة تابعة للتاج أو تابعة لوزارة المستعمرات. غير أن هجوم مؤتمر الجمعيات الأوربية، الذي عقد في نيروبي في الأول من يناير ١٩٢١، غير اتجاه الحديث بالسعي للصلح بين الجاليتين، الهندية والانجليزية، أملاً في تهدئة ثورة الهند ضد الحكم البريطاني<sup>(١٥٩)</sup>. ولعل الضغوط التي مارسها الهندوس في تلك الفترة قد جاءت تيمناً بالثورة التي قامت ضد الحكم البريطاني في الهند في بداية العشرينيات. ولعل استجابات بريطانيا في كلا المنطقتين كان هدفه تهدئتهما وقطع الصلة بين الهندوس والمسلمين في كليهما.

اللغة الثالثة: دورهم في نشر الوعي السياسي. فقد لعب الهندوس نفس الدور الذي لعبوه في جنوب إفريقيا. فحينما أسسوا المؤتمر الوطني الهندي في شرق إفريقيا سنة ١٩١٤، قلدتهم الإفريقيون في هذا النشاط السياسي، بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى<sup>(١٦٠)</sup>. وهذا الذي جعل بريطانيا تحرض ضدهم وتضع القيود على هجرتهم. بل استخدمت استجابتها لمطالبهم البرلمانية ذريعة لتأجيج الأحقاد الإفريقية ضدهم. ومن ثم صارت العلاقة بينهم وبين الفريقين غير جيدة، في أوائل عشرينيات القرن العشرين. وهو الأمر الذي استغله اللورد ملنر في المطالبة بعزلهم في المدن لتجنب مشاعر كراهية الإفريقيين لهم. ناهيك عن القيود التي وضعوها عليهم، بخصوص التعليم والملكية، خوفاً من سيطرتهم على المستعمرة<sup>(١٦١)</sup>.

ولما كان الهندوس قد لعبوا الدور الأهم في المؤتمر الهندي في شرق إفريقيا منذ سنة ١٩٢٧، فإنهم أصحاب التأثير الحقيقي في نشر الوعي السياسي بين الإفريقيين<sup>(١٦٢)</sup>. ناهيك عن دورهم في تكوين الرابطة الأفرو آسيوية سنة ١٩٢٧<sup>(١٦٣)</sup>. بل إنهم ونتيجة للدور الذي قاموا به في إقراض الإفريقيين في كينيا خلال الفترة من ١٩١٩-١٩٤٧، بما فيهم الصوماليين<sup>(١٦٤)</sup>، والإثيوبيين المقيمين هناك، جعل الناس ينظرون إليهم على أنهم أحد أهم وسائل وأدوات التوعية السياسية في شرق إفريقيا. وإن انحصر دورهم في إطار نقل تجربتهم في المقاومة السلمية للإفريقيين<sup>(١٦٥)</sup>. وربما

كان للضغط على بريطانيا في أكثر من مكان، بالاتفاق والتنسيق مع الحركة الوطنية الهندية الأم.

اللقة الرابعة: تأسيس ورعاية الحركة العمالية والنقابية. كان نيهال سينغ مانجو **Nihal Singh Mankoo** ، (توفي سنة ١٩٢٥)، أحد أفراد الدفعة الأولى من الهندوس البنجاب، الذين ذهبوا إلى كينيا سنة ١٨٩٥، واستقر قرب محطة فوي قرب نيروبي. وفي سنة ١٩٢٢ ظهر دوره في العمل النقابي، وتحديداً في إنشاء الاتحاد الحرفي للسكك الحديدية<sup>(١٦٦)</sup>. لذا يعد مؤسس الحركة العمالية في كينيا. فهو الذي شكل مع فريد كوبي اتحاد شرق أفريقيا التجاري كأول نقابة مركزية هناك. وهو الاتحاد الذي طالب بالحقوق المتساوية لجميع الناس. وظهر أثر كفاحه في اهتمام توصيات ديفونشاير سنة ١٩٢٢ بالحركة العمالية ومطالبها، غير أنها لم تنفذ<sup>(١٦٧)</sup>. وحينما توفي نيهال سينغ برز نجله سينغ ماخان سينغ **Makhan Singh** (١٩١٣-١٩٧٣) كمهندس للحركة النقابية الكينية. فهو الذي أسس اتحاد كينيا للأعمال التجارية في أبريل ١٩٣٥<sup>(١٦٨)</sup>. ومن تأثير الهندوس الفعال في الحركة النقابية راح الإفريقيون يقلدونهم في تأسيس الاتحادات العمالية الإفريقية عبر مناطق شرق إفريقيا<sup>(١٦٩)</sup>. بل ظل سينغ ماخان سينغ الهندوسي هو المؤجج والمعرض على الإضرابات العمالية والنضال النقابي طوال الفترة الاستعمارية. ففي سنة ١٩٣٧ أعاد تسمية اتحاده السابق ليكون اتحاد شرق إفريقيا للتجارة والعمل. بل أوصله طموحه السياسي، سنة ١٩٥٠، إلى السجن بتهمة عدم تسجيل الاتحاد التجاري. ولم يطلق سراحه إلا عام ١٩٦١. ومع ذلك فإن هذا التاريخ النقابي لم يشفع له. فقد ظل منبوذاً من حكومة كينيا المستقلة، وتوفي سنة ١٩٧٣ بأزمة قلبية عن عمر يناهز ٦٠ سنة. ويعد من أهم الشخصيات التي خدمت الهندوس على نطاق واسع في الحياة العامة الكينية. فقد كان أحد أعضاء المجلس التشريعي والبلديات، وكان مميزاً في مجال الرياضة، خصوصاً الهوكي والكريكيت وسباقات السيارات والجولف<sup>(١٧٠)</sup>.

اللقة الخامسة: دورهم في مقاومة اتحاد شرق إفريقيا. فقد عمل الهندوس، مثل بقية الهنود، على إفشال أي إمكانية لإقامة اتحاد بين مستعمرات ومحميات شرق إفريقيا ووسطها، حين عرضت تلك الفكرة في العشرينيات، لشعورهم أن إنجاز هذا المشروع سيؤدي إلى القضاء على ما يتمتعون به من حقوق مدنية<sup>(١٧١)</sup>. بل أعلنت الجالية الهندية في أوغندا وتنجانيقا خلال الفترة من ١٩٢٤-١٩٣٠، أنهم سيقاطعون عملية الدخول في أي اتحاد مع كينيا. لكونهم لا يريدون التورط في المشاكل العنصرية التي تجتاح كينيا. وخوفاً من أن تصبح مصالحهم تحت رحمة المستوطنين الأوربيين المقيمين في كينيا، ونظراً لتلك الضغوط أعلنت الإدارة الاستعمارية بأن الوقت غير ملائم لقيام اتحاد بين أقسام شرق إفريقيا الثلاثة<sup>(١٧٢)</sup>. وفي عام ١٩٥٠ تزعم سينغ ماخان الهندوسي الدعوة لإضراب عام، غالبية من الأفارقة، ضد اتحاد شرق إفريقيا. واستمر هذا



الإضراب لمدة عشرة أيام. واقتصر في البداية على نيروبي، ثم امتد لمناطق أخرى. وانتهى الأمر باعتقال سينغ ماخان وترحيله في وقت لاحق إلى الهند، لكنه نجح في إجبار بريطانيا على التخلي عن عدم عرض المشروع بتلك الطريقة مرة أخرى<sup>(١٧٣)</sup>.

اللقطة السادسة: دورهم في مقاومة السلطات البريطانية. فرغم أن علاقات الانجليز بالهندوس ظلت طيبة حتى الاستقلال، إلا أنها لم تخل من منغصات. فقد شاركوا على سبيل المثال سنة ١٩٢٥ في الإضراب الذي نسقوه مع بقية الهندوس ضد إدارة تنجانيقا البريطانية. لقيامها برفع ضريبة الأرباح عما كانت عليه في عهد الألمان، ولعدم توليهم أية وظائف كبيرة في الإدارة أو القضاء أو غيرها من المناصب الحكومية. بالإضافة لقيامها بفرض اللغة الانجليزية بدلاً من الجوجاراتية في دفاترهم. لهذا فإنهم أعلنوا الإضراب العام في دار السلام، وغلقوا محالهم التجارية ومنشأتهم الأخرى. بما أحدث ضجة في المدينة، لكونهم يمتلكون كل المحلات والمخازن التجارية هناك. فأجبروا الحاكم العام لتنجانيقا، السير رونالد كاميرون، على تشكيل لجنة قررت استبدال ضريبة الأرباح بضرائب على المهن والأعمال<sup>(١٧٤)</sup>. ولعل دورهم السياسي المناهض للاستعمار البريطاني قد عبر عنه السياسيون المرتبطون بالحركة السياسية الهندية. فقد جاء هؤلاء إلى شرق إفريقيا دون عائلاتهم. ومع أنهم قد عكسوا تجربة غاندي في توحيد المسلمين والهندوس عبر الحركة الوطنية، وأحدثوا تقارباً هندياً بصورة كبيرة، إلا أن استقلال باكستان عن الهند سنة ١٩٤٧ قد أعاد الفرقة والخصام بين الفريقين في شرق إفريقيا. فقد أصبح ولاء الهندوس للهند، وولاء المسلمين لباكستان<sup>(١٧٥)</sup>. ومن ثم تعد الفترة ما قبل ١٩٤٧ هي الفترة المثالية للتعايش السلمي بين الهندوس والمسلمين إلى حد ما. حيث بدأت مشاعر التنافر والخلاف بين الفريقين تزداد بشدة منذ ثلاثينيات القرن العشرين وصاعداً، بحكم الفرقة والتباعد الذي حدث بين المسلمين والهندوس في الهند نفسها<sup>(١٧٦)</sup>. فضلاً عن أن استقلال الهند قد جعلها داعمة لطموحات مواطنيها الهندوس والإفريقيين في الاستقلال عن بريطانيا. خصوصاً في عهد رئيس وزراء الهند الأول جواهر لال نهرو ١٩٤٧-١٩٦٤. تلك الفترة التي لقي فيها الهندوس رعاية واهتماماً إفريقياً جيداً<sup>(١٧٧)</sup>. ومن ثم فإن الهند هي التي تسببت في رعاية مواطنيها الهندوس هناك. فقد قامت الحكومة الهندية سنة ١٩٤٨ بتعيين وكلاء لها في شرق إفريقيا للاهتمام بمشاكل مواطنيها الهندوس هناك<sup>(١٧٨)</sup>. وهذا ما يخالف ما قال به أثرياء الهندوس من المهتمين بمصالحهم الخاص، فقد اعتبروا أن فترة نهرو غير نافعة لهم اقتصادياً. في حين كانت عكس ذلك على المستوى السياسي. حيث لعبت دوراً مهماً في تقوية مطالبهم السياسية.

اللقطة السابعة: موقف الأفارقة منهم. فقد تباينت العلاقات بين الهندوس والإفريقيين خلال الفترة الاستعمارية. فتارة اتخذهم الأفارقة بمثابة رموز للتوعية السياسية لهم بعد الحرب الأولى وحتى الثلاثينيات. وتارة أخرى نفروا منهم باعتبارهم

مستغلين لهم. غير أن البريطانيين كان لا يرضيهم هذا التقارب بين الطرفين. فسعوا لنبث الفرقة والشحناء بينهما. فنجحوا في الوقيعة بينهما خلال العشرينات ثم نهاية الأربعينيات. ولعل أعمال الشغب التي قام بها الأفارقة سنة ١٩٤٩ ضدهم، تعد خير مثال لهذا الأمر. بل إن البعض فسّر كراهية الإفريقيين للهنود عموماً بثلاثة أسباب: أولها، الرغبة في إزالة احتكارهم لحلج الأقطان، حتى نجحوا في ذلك سنة ١٩٥٢. ومع ذلك ظل أكثر من ١٢ محلجاً يملكها هندوس وهنود آخرون. ثانيها، احتفاظ الهنود بقيمتهم الثقافية منفصلة عن الإفريقيين. ثالثها، رعاية البريطانيين لهم اقتصادياً وسياسياً<sup>(١٧٩)</sup>.

وبرغم أن استقلال الهند لم يخدم الهندوس كثيراً في شرق إفريقيا، إلا أن تبني أول رئيس وزراء، جواهر لال نهرو، لقضية مواجهة الاستعمار ومكافحة العنصرية وتعزيز حركة عدم الانحياز، قرب الإفريقيين من الهنود، وصب مباشرة في مصلحتهم باعتبارهم رعاياها<sup>(١٨٠)</sup>. بل ظلت شعبية غاندي، حيث بنى له تمثال على مخرج نهر النيل، كشخص دافع من أجل حقوق السود في أفريقيا، بمثابة رمز من رموز الكفاح ضد الامبريالية<sup>(١٨١)</sup>. غير أن حصول الإفريقيين على قدر من التعليم، خصوصاً بعد الحرب العالمية الثانية، قد جعلهم يعارضون هجرة الهندوس إليها، لاعتقادهم بأنهم احتكروا الوظائف والأعمال وتجارة التجزئة والجملة دونهم. ولعل ما أشار إليه تقرير اللجنة الملكية لشرق إفريقيا سنة ١٩٥٦، برغبة الإفريقيين في التخلص من الأجناس التي يفضلها الاستعمار عليهم، يفسر تلك القيود التي فرضت عليهم خلال تلك الفترة. بما أدى في النهاية إلى ازدهام الأحياء الهندية<sup>(١٨٢)</sup>. وجاءت سياسة الأفارقة Africanisation هي الحل الأمثل للإدارة الاستعمارية لإزالة الاحتقان بين الطرفين<sup>(١٨٣)</sup>. وهذا ما جعل الهندوس يهاجرون من شرق إفريقيا في أعقاب استقلال كينيا وأوغندا وتنزانيا بعد تبني تلك السياسة بشكل كبير<sup>(١٨٤)</sup>.

من هنا، فإن بروز الحركة الوطنية الإفريقية، في بداية خمسينيات القرن ٢٠، قد جعل القلاقل بشأن المستقبل السياسي تتسرب للهنود. ومع أن بعضهم تعاطف مع الإفريقيين، إلا أن الكثيرين منهم كانوا ضدها. بل دخل بعضهم في خدمة البوليس الاستعماري للقضاء على الثورة الإفريقية، المتمثلة في ثورة الماو ماو في كينيا. وخير مثال لذلك الثقة التي أعطاها البريطانيون لآبا بانت Apa Pant، أول مأمور هندوسي لمنطقة نيروبي، وغيره من الهندوس. لدرجة جعلت أكبر التنظيمات السياسية الإفريقية، بقيادة جومو كينيا، تتعهد لهم بعدم الهجوم عليهم في كينيا، كنوع من التكتيك الوقتي الذي استخدمه الأفارقة مع الهنود حتى نالوا الاستقلال<sup>(١٨٥)</sup>.

لكن حينما حصلت أقطار شرق إفريقيا الثلاثة على استقلالها في بداية ستينيات القرن العشرين ♥، تم التحول ضد الهنود، عدا تنزانيا بقيادة جوليوس نيريري الذي تعهد ببناء مجتمع متعدد الأجناس، بل بدأ يقرب منذ سنة ١٩٦٤ بعض القادة الهندوس مثل Karimjee، مانحاً إياهم بعض الوظائف الرسمية<sup>(١٨٦)</sup>. أما في كينيا فالأمر مختلف.

فحين قامت ثورة الماو ماو في أكتوبر ١٩٥٢ أعلن هنودها بأنهم ضد العنف الذي يستخدمه الثوار. وحينما استقلت كينيا سنة ١٩٦٣ كانت ذاكرة الإفريقيين لا تزال حية بموقفهم ضد الثورة. من ثم راح الهندوس يفضلون الهجرة لبريطانيا على البقاء في شرق إفريقيا. ومن ثم كانوا غالبية الـ ٨٢ الف هندي الذين حصلوا على جوازات السفر البريطانية. ومن بقى منهم ضمن الـ ٥٠ الف هندي، بقوا كمواطنين كينيين فقط. وفسر البعض موقف الإفريقيين منهم، بأنه لم يكن ناتجاً عن موقفهم من الحركة الوطنية الإفريقية فقط، بل لسيطرتهم على معظم النشاط الاقتصادي. ففي نيروبي بمفردها، سيطروا على كافة المحال والبازارات. ناهيك عن أن فرض الحكومة الكينية لبرنامج الأفرقة بعد الاستقلال، وعدم تجديد الرخص التجارية لغير الإفريقيين، إلا بشرط الحصول على الجنسية الكينية، وتطبيق هذه السياسة في الوظائف الحكومية والتعاقدات وفي الأعمال التجارية - هو الذي جعل كثيراً من الهندوس يفضلون الهجرة إلى المملكة المتحدة وأمريكا الشمالية<sup>(١٨٧)</sup>. ومع ذلك لم يسلم من بقى منهم من الأذى. فالنخبة السياسية، بدءاً من الرئيس كينياتا ونائب الرئيس والنخب السياسية الأخرى، شجعت الهجوم الخطابي ضد هؤلاء الذين أصبحوا مواطنين كينيين. بل كانت تطرد وترحل الكثيرين منهم عمداً<sup>(١٨٨)</sup>.

#### المحور السادس - هويتهم الثقافية :

برغم أن فترة الحكم البريطاني في شرق إفريقيا تجاوزت الثمانين عاماً، وبرغم أن الهندوس تعرضوا فيها لعدد من المتغيرات، إلا أنهم احتفظوا فيها بثوابتهم الراسخة على طول الخط. ومن ثم فإننا نقسم هذا المحور إلى قسمين:  
 القسم الأول: يتعلق بالثوابت. حيث ظهرت هذه الثوابت في عدة ملامح رئيسية:  
 الملمح الأول، في الزواج من هندوسيات. فقد كان التجار الهندوس في البداية يرفضون أخذ زوجاتهم معهم<sup>(١٨٩)</sup>. ولما كانت السلطات العربية الحاكمة، قبل الاحتلال البريطاني للمنطقة، تدرك بأن بقاء الأمر كما هو عليه سينفر المزيد من الهندوس من القدوم إليها، راحت تشجعهم على جلب زوجاتهم معهم. لهذا بدأت هجرة المرأة الهندوسية لشرق إفريقيا سنة ١٨٧٩<sup>٧</sup>. ومع هذا يمكن القول بأن الوجود الفعلي والكبير للمرأة الهندوسية هناك، قد ارتبط بالاستعمار البريطاني للمنطقة. ولما كان من عاداتهم الزواج من بنات طائفتهم، لذا عادوا إلى الهند ليتزوجوا من هندوسيات. بل ظل هذا التقليد مستمراً، حافظت على الأسر والعائلات الهندوسية في شرق إفريقيا. ناهيك عن الاحتفاظ بالأسر الموسعة والممتدة قدر الإمكان<sup>(١٩٠)</sup>. وربما كانت تقاليد المرأة الهندوسية من ارتداء الفساتين الطويلة وللزى الهندي التقليدي، عبارة عن فساتين وسراويل وقمصان<sup>(١٩١)</sup>، وتفضيلها للبقاء في المنزل، وعدم الاختلاط، هو الذي جعل الرجال يفضلونها على غيرها، باعتبارها رمزاً للهوية الهندوسية في شرق إفريقيا<sup>(١٩٢)</sup>.

ومن ثم كانت الممارسة العامة بين الهندوس في شرق إفريقيا لتحديد واختيار العرائس من الهند، هي تفضيل الزواج من عائلة معروفة في قراهم الهندية، فيما سمي بنظام الزواج المرتب، بناء على افتراض شائع بأن هندوسيات الهند أكثر قدرة على التكيف هناك، ومع الالتزام بالقواعد والمعايير التي وضعها الشيوخ<sup>(١٩٣)</sup>. لهذا عانى الهندوس طويلاً من القيود التي فرضتها حكومات شرق إفريقيا بعد الاستقلال، فكان إصرارهم على التمسك بأن يكون الزواج مقصوراً على طائفتهم فقط، قد جعل الحكومة الأوغندية، على سبيل المثال، تحاول تغيير تلك العادة كخطوة نحو الاندماج العرقي. ومن ثم كان رفضهم للزواج من الإفريقيين بعد الاستقلال سبباً رئيسياً من أسباب طردهم من أوغندا<sup>(١٩٤)</sup>.

الملح الثاني: في الطعام. فبرغم أن استبقاء بعض الهندوس لزوجاتهم في الهند قد أجبرهم على تغيير نمط طعامهم، حينما راحوا يأكلون خارج منازلهم أو يحصلون على طعامهم عن طريق آخرين<sup>(١٩٥)</sup>، إلا أن غذاءهم لم يتغير هناك طوال الفترة الاستعمارية. فظل غذاءهم نباتياً. بل كان محدداً رئيسياً ومميزاً للطائفة عن بقية الهنود الآخرين، من التاميل والإسماعيليين والسيخ. بل امتدت طقوسهم في المأكل مع امتدادهم في الكونغو الفرنسية والكونغو البلجيكية<sup>(١٩٦)</sup>. ولما كانوا لا يأكلون اللحوم، فقد انعكس هذا في المطاعم الهندية هناك بصفة عامة، والمطاعم الهندوسية بصفة خاصة<sup>(١٩٧)</sup>. فكان مطبخهم يعتمد على الخادمت من نفس الطائفة. حيث كانت معظم العائلات الهندوسية نباتية لا تستهلك الخمر ولا اللحوم<sup>(١٩٨)</sup>.

وتشير بعض الكتابات إلى أن طعام الهندوس قد أثر أحياناً في وضعهم الاقتصادي في شرق إفريقيا. فبعض ممن فتحوا شركات في ممبسة وجينجا Jinja سنة ١٩٠٥، حينما جاءوا بدون أسرهم، اضطروا إلى إغلاق شركاتهم. لأنهم لم يتقبلوا الأطعمة المصنوعة لهم من قبل السكان المحليين، كونهم كانوا نباتيين صارمين strict vegetarians. في حين لم تظهر مشاكل الطعام في نيروبي أو ممبسة أو زنجبار بسبب الوجود الهندوسي العائلي. وجاء هذا الأمر نتيجة أن العائلات الأولى المهاجرة لشرق إفريقيا كانت نباتية ولا تشرب الكحول ولا تأكل خارج المنزل<sup>(١٩٩)</sup>.

الملح الثالث: في المعابد والاحتفالات الدينية. لما كانت الديانة الهندوسية تنقسم إلى آلاف الفرق، بل أوصلها البعض إلى مئات الآلاف، وأنها عبارة عن ديانات وضعية بشرية تقام طقوسها في المعابد<sup>(٢٠٠)</sup>، فهذا هو السبب الذي جعل هناك معبداً هندوسياً في كل بلدة في شرق إفريقيا<sup>(٢٠١)</sup>. حيث أنشئ معظمها خلال النصف الأول من القرن العشرين<sup>(٢٠٢)</sup>. ولو أخذنا أوغندا مثلاً لتلك المعابد، لوجدنا أنها تنتشر في جينجا وكمبالا. بل يوجد في جينجا وحدها ثلاثة معابد<sup>(٢٠٣)</sup>.

وتشبت الهندوس بديانتهم طوال إقامتهم في شرق إفريقيا. فكانوا يقصدون البقر ويحرقون موتاهم ويقيمون أعيادهم، كعيد ديوالي. ففي هذا المهرجان، على سبيل

المثال، كانوا يضيئون منازلهم والشوارع الرئيسية في المساء. وكانوا يقيمون الحفلات التي يتزاورون فيها بأبهى الثياب، لإبسین العمائم القرمزية والذهبية. ويأكلون الحلويات ويشربون المرطبات، ويخدمون سوياً، ويرقصون ويغنون. وكانوا يرون بعضهم بعضاً في نفس الفئة الدينية والاجتماعية والعرقية والاقتصادية. ونظراً لدور الأجداد والسلف في حياتهم؛ فقد كانوا يحيون ذكرى أجدادهم الأوائل الذين هاجروا إلى شرق إفريقيا<sup>(٢٠٤)</sup>. بل كانوا يحتفظون بقيمتهم الثقافية منفصلة عن المجتمعات الأخرى. وكان هذا سبباً في كراهية الإفريقيين لهم، وفي أعمال الشغب التي قاموا بها ضدهم<sup>(٢٠٥)</sup>. ورغم أن هذه التقاليد الثقافية قد سببت الألفة بين الهندوس في شرق إفريقيا، إلا أنها تسببت أيضاً في مزيد من الانقسام بينهم وبين الإفريقيين<sup>(٢٠٦)</sup>.

الملح الرابع، في الاحتفاظ بالعادات والتقاليد الثقافية الأخرى، حافظ الهندوس على تقاليدهم في التحية والاحترام، بأن يقوم الزائر بلمس أقدام كبار السن، تحية واحتراماً لهم<sup>(٢٠٧)</sup>. وتشير إحدى الكتابات إلى أن بعض الأسر كانت تبقى أفرادها في الهند حتى سنة ١٩١٦. في حين حافظت غالبية الأسر، التي جاءت إلى شرق إفريقيا، على تقاليد دفن الموتى وحضور الجنائز وتعليم أطفالهم القانون الهندوسي Mithakshara المطبق في ولاية جوجارات، ومساواة جميع الذكور في العائلة. بل أصبحت مهمة المنازل الهندوسية في شرق إفريقيا هي إعادة إنتاج الثقافة الهندية هناك<sup>(٢٠٨)</sup>.

واحتفظوا بثقافتهم في شكل وطرز الأثاث والأرائك الهزازة التقليدية، وبتعليق صور للآباء والأجداد مزينة بالزهور الياضعة في مكان بارز في المنزل. بل اختار بعضهم ختام حياته في ولاية جوجارات، رغم أن كثيرين منهم لم يزر الهند طيلة حياته، لكنها ظلت وطنه المنشود. وبعضهم ساهم مساهمات سخية في دعم القرى الهندية التي أتوا منها، كبناء مستشفى أو مدرسة أو دار للأيتام<sup>(٢٠٩)</sup>. بل إن إقامتهم لدور السينما ومحلات الفيديو الهندية<sup>(٢١٠)</sup>، يعد خير دليل على محافظتهم على تلك التقاليد ونشرها في الأجيال الجديدة. بل يعد افتتاح الهندوس لمطاعم خاصة بهم، وترويجهم لأفلام بوليوود تأثيراً مباشراً مقصوداً في ثقافة المنطقة. فقد أصبح لأفلامهم وصلات الديسكو الخاصة بهم شعبية كبيرة هناك، خصوصاً في نيروبي وكمبالا<sup>(٢١١)</sup>.

القسم الثاني: يتعلق بالمتغيرات. فنظراً لطول الفترة التي استقروا فيها في شرق إفريقيا البريطانية، كان لا يمكن أن يقاوموا التأثير الغربي مهما تمسكوا بتقاليدهم وثقافتهم. لذا حدثت تغيرات في هويتهم الثقافية وفي بعض التقاليد المهمة في حياتهم. ويفسر البعض تلك التغيرات بثلاثة مؤثرات رئيسية: أولها، تأثيرهم بالتعليم الغربي واحتكاكهم بالصفوة الأوروبية الحاكمة. ثانيها، تأثيرهم بالاحتكاك السواحيلي. ثالثها، الابتعاد عن موطنهم الأصلي ومصالحهم الاقتصادية<sup>(٢١٢)</sup>. ويمكن استقراء هذه التغيرات في ثلاثة أمور:

الأمر الأول: في شكل الطعام والزواج لدى الجيل الثاني والثالث. فإذا كان الجيل الهندوسي الأول قد احتفظ بعادات الطعام والشراب والزواج خلال الفترة من ١٨٨٤ - ١٩٢٠، ونقلها للجيل الذي ولد خلال الفترة من ١٩٢٠ - ١٩٦٠، وصولاً إلى الجيل الثالث الذي تغير ثقافياً في الفترة من ١٩٦٠ وصاعداً<sup>(٢١٣)</sup>، إلا أن التغيير الذي حدث كان في طريقة وشكل هذا الطعام وفي نوعيته. فإذا كان الجيل الأول قد احتفظ بثوابته في هذا الأمر، إلا أن الجيل الثاني أصبح يأكل اللحوم ويشرب الكحول. ناهيك عن تفضيلهم للأكل خارج المنزل مبتعدين عن آرائهم النباتيين. وحدث هذا بحكم الاحتكاك بالأوروبيين والعرب والإفريقيين. بل أصبح طعام الهندوس قليل التوابل وكثير الزيوت. وفيما يختص بالزواج، فقد فضلت الأجيال التالية الزواج من هنديات ولدن في شرق إفريقيا. في حين كان أبائهم يعودون للهند ليتزوجوا هندوسيات. أما الجيل الثالث ففضل العيش مع الصديقات مثل الأوروبيين، ولم يقبل على الزواج الرسمي<sup>(٢١٤)</sup>. وكان تفضيل الهنديات المولودات في شرق إفريقيا قد شجع على كسر حدود الطبقات داخل قيود الطائفة الهندوسية. ومع ذلك ظل الطلب على المرأة الهندوسية من الهند كبيراً في بعض الفئات<sup>(٢١٥)</sup>.

الأمر الثاني: التأثير الأوروبي. يمكن القول بأن الثقافة واللغة الهندوسية لم تبقى إلا في النظرة والدين. وفيما عدا ذلك فقد حدث تغير كبير. لطول الفترة الاستعمارية، وللتأثير الأوروبي الواضح. فخلال الفترة من ١٩٢٠ - ١٩٦٠، على سبيل المثال، نمت المدارس الهندية في شرق إفريقيا، ولم تحتفظ بالجوجاراتية إلا للصف الرابع الابتدائي. حيث قدمت الإنجليزية كلغة ثانية. وهذا ما جعل الهندوس يجيدون اللغتين معاً. وهذا كان خطوة جيدة نحو مواصلة التعليم الجامعي في المملكة المتحدة. ومن هنا جاء تأثير الثقافة الأوروبية<sup>(٢١٦)</sup>.

بل يمكن القول بأن تأثير الأوروبيين في هندوس شرق إفريقيا، في التعليم وفي اللباس كان كبيراً. ويرجع البعض إلى أن طلبهم حماية الانجليز لهم، هو الذي جعلهم يظهرون رغبتهم في إظهار هذا التأثير فيهم، فأبرزوه في كتابة الاتفاقات التجارية باللغتين، الإنجليزية والجوجاراتية. وفي قراءتهم للصحف والمجلات الإنجليزية. بل بلغ الأمر أحياناً، إلى أن يتحدث رب الأسرة بالجوجاراتية، في حين يتحدث أطفاله بالإنجليزية. ورغم هذا التأثير البارز، ورغم أن الهند أصبحت دولة خارجية بالنسبة لهم، إلا أن أدب الشتات أبرز أهمية الوطن الأم في وعيهم. لكن فكرة الوطن في حد ذاتها فقدت أهميتها لديهم<sup>(٢١٧)</sup>.

الأمر الثالث: إنشاء الصحف. فقد تأثر الهندوس بالصحافة الاستعمارية. ومن ثم راحوا يؤسسون صحافتهم الخاصة. فقاموا بتأسيس أول صحيفة هناك في مومبسة في عام ١٨٩٩، عن طريق هندوسي حقق ثروة خلال فترة بناء سكة حديد شرق إفريقيا، يدعى جيفانجي Jeevanjee. وظلت هذه الصحيفة أسبوعية منذ سنة ١٩٠٢ حتى

صارت يومية سنة ١٩١٠، إلى أن توقفت عن النشر سنة ١٩٢٣. وعاد نشاطهم الصحفي سنة ١٩٥٣ حينما ساعدوا في تأسيس السديلي أوغندا أرجوس *daily Uganda Argus* (٢١٨). وظهرت صحف هندوسية أخرى في مختلف أنحاء شرق إفريقيا. كتب بعضها باللغة الجوجراتية، بهدف المحافظة على هويتهم هناك. في حين راح قليل منها يصدر باللغة الانجليزية باعتبارها لغة المال والإعمال (٢١٩). ونخلص من ذلك إلى نتيجتين هامتين : أولهما، أن ثوابت الهندوس ظلت راسخة طول فترة بقائهم الممتدة حتى بعد الاستقلال، بل لا زالت الجماعات الباقية منهم هناك إلى اليوم، تحتفظ بمثل تلك الثوابت وتعضها حتى الآن. ثانيهما، أن طول الفترة الاستعمارية أدخلت بعض المتغيرات التي ميزتهم عن أقرانهم من هندوس الهند. وربما كان هذا التغيير الذي حدث لهم، جعلهم أكثر قدرة على التعايش وسط المجتمعات الغربية فيما بعد. وهو الذي جعل الهند تستخدمهم كورقة تستفيد منها في علاقاتها مع الغرب حتى الآن.

#### خاتمة :

- انتهت الدراسة إلى عدد من النتائج الهامة نجملها في الآتي :
  - خلصت الدراسة إلى أن الوجود الهندوسي في شرق إفريقيا كان وجوداً مميزاً. فقد كانوا على درجة من الذكاء والفطنة في مسايرتهم لكل النظم السياسية التي حكمت المنطقة. فمثلما توافقوا مع العرب قبل سنة ١٨٨٤، توافقوا مع البريطانيين أيضاً طيلة الفترة من ١٨٨٤-١٩٦٣، والألمان ١٨٨٤-١٩١٨، فضلاً عن توافقهم مع كل الإدارات الاستعمارية التي حكمت المنطقة.
  - حلت الدراسة قوة العلاقة بين الهندوس والانجليز طوال الفترة الاستعمارية. وقالت بأنهم كانوا الجسر الذي اعتمد عليه الانجليز في مشروعهم الاستعماري في تلك المنطقة. وأنهم كانوا عماد الإدارة الاستعمارية في العمالة والتجارة والزراعة. لكنها أشارت إلى أن المكانة الاقتصادية التي حققوها جعلتهم هدفاً لضربات المستوطنين الأوروبيين والإفريقيين على السواء. وهي التي خلقت الأحقاد لدى الانجليز وجعلتهم يدسون لهم بين الإفريقيين، ليفقدوهم تلك المكانة الاقتصادية المتميزة. لكنهم لعلمهم بحاجتهم للحماية والرعاية، لم يعطوا على تلك الدسائس البريطانية. بل إنهم قرروا الرحيل عن المنطقة بمجرد رحيل البريطانيين عنها، لإحسائهم بأنهم فقدوا عنصر الحماية الرئيسي لهم هناك.
  - أبرزت الدراسة الدور الذي قام به الهندوس في نشر الوعي السياسي في شرق إفريقيا. فقد تبني الإفريقيون طريقتهم في تشكيل التنظيمات السياسية، وفي تشكيل النقابات العمالية، وفي نشر الوعي القومي بين بني جلدتهم. وقالت بأن كفايحهم

الطويل من أجل التمثيل النيابي، وفي المطالبة بالحكم الذاتي في المنطقة، هو الذي سبب غضب الانجليز منهم. وأنه كان انعكاساً للضربات التي وجهتها الحركة الوطنية الهندية لبريطانيا في الهند. وهذا ما جعلها تحتاط للأمر بنشر الفرقة بين طائفتي الهندوس والمسلمين في الهند وشرق إفريقيا معاً. فضمنت بذلك بعض الاستقرار النسبي لفترة.

• ناقشت الدراسة المجالات الاقتصادية التي برع فيها الهندوس. وأوضحت أنهم برعوا في كل نواحي النشاط الاقتصادي تقريباً. فقالت بأنهم حققوا ثروات، وأقاموا شركات، وأسسوا بنوكاً ومصاريف، وأن حضورهم كان مميزاً في هذا المجال، لدرجة سببت أحقاد الإفريقيين والانجليز على السواء، وأنهم تفوقوا على الانجليز أنفسهم. بل كان هذا التفوق سبباً في ابتعادهم عن فكرة الوطن والشعور بالألفة معه.

• ركزت الدراسة على خصوصية المجتمع الهندوسي في شرق إفريقيا. وحددت في أمور الطعام والشراب والملبس والزواج والدفن والعقائد، وفي التمسك بقيمهم الدينية وبتقاليدهم الاجتماعية. غير أن الدراسة ألمحت إلى أن تلك الخصوصية المعبرة عن هويتهم، قد تعرضت لتغيرات كبيرة خلال الفترة الاستعمارية، خصوصاً في الجيل الثاني والثالث هناك. وأن شرق إفريقيا كانت انعكاساً لما يحدث في الهند، ثقافياً وسياسياً.

• غير الارتباط بين الهندوس ووطنهم الأم. فقد كانوا طيلة القرن التاسع عشر مرتبطين به أشد الارتباط. لكن الدراسة قالت بأن هذا الأمر قد تغير مع طول الفترة الاستعمارية، ومع النجاحات التي حققوها في شرق إفريقيا. فبرغم أن بعضهم قد ارتبط سياسياً بالهند، إلا أنهم انقطعوا عنها اقتصادياً، حتى وصل الأمر في نهاية العصر الاستعماري إلى تفضيلهم التجارة مع دول ومناطق أخرى، وتفضيلهم الهجرة لبريطانيا وجنسياتها والإقامة بها؛ عن الرجوع لموطنهم الأصلي. ومن ثم فإن وجودهم الحالي في شتى مناطق العالم، خصوصاً الغربية، قد وسع من شبكة العلاقات الدولية للهند. وأتاح لها التعرف، عبر هؤلاء، على عوالم جديدة ونماذج حديثة ما كان للهند أن تطلع عليها لو رجع هؤلاء إلى الهند بعد حصول شرق إفريقيا على الاستقلال.



## هوامش الدراسة

- (١) ابراهيم الفارس: الهندوسية  
<http://audio.islamweb.net/audio/index.php?page=FullContent&audiold=195741>
- (٢) Gijbert Oonk:- The Chinging Culture of The Hindu Lohana Community In East Africa, Contemporey South Asia, 13(1), March 2004,P.9.
- (٣) Aga Khan :- India in Transition A Study in Political Evolution ,Bennett, Coleman and Co, Ltd. Bombay and Calcutta, NEW YORK, 1918, PP.11,12 .
- (٤) N. M. Nayar , Book Reviews :- Harnessing the Trade Winds: The Story of Centuries Old Indian Trade with East Africa Using the Monsoon Winds. D'Souza, Blanche. Zand Graphics,Nairobi, Kenya. Available from African ,Book Collective, Oxford, UK/Michlgan,State University Press, East Lansing, MI,USA. 2008, CURRENT SCIENCE, VOL. 98, NO. 2, 25 JANUARY 2010, PP.264,265.
- (٥) ل. و. هولينجزورث :- الأسويون في شرق افريقيا، ترجمة عبدالرحمن صالح، ، سلسلة الفكر العالمي، جمعية الوعي القومي، سبتمبر ١٩٦١، ص ص ١٩ - ٢١.
- (٦) India-East Africa Ties: Mapping New Frontiers, Africa Quarterly ,Indian Journal of African Affairs, Volume 49 No. 1, February-April 2009, P.49.
- (٧) بنيان سعود تركي :- الجالية الهندية في شرق افريقيا بين هامرتون والسيد سعيد (١٨٣٢-١٨٥٦) ، مجلة المؤرخ المصري ... دراسات وبحوث في التاريخ والحضارة، كلية الاداب، جامعة القاهرة، العدد الثالث عشر، يوليو ١٩٩٤، ص ص ١٢ ، ١٥-١٧.
- (٨) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ١٩ - ٢١.
- (٩) India-East Africa Ties:Op.CiT. , P.17.
- (١٠) ل. و. هولينجزورث :- :- المرجع السابق، ص ص ٢٣ - ٢٧.
- (١١) Chandani Patel:- Indians in East Africa: Literature, homelessness, and the imaginary, postamble 3 (2) 2007, PP.59,60.
- (١٢) بنيان سعود تركي :- :- المرجع السابق، ص ٤٥.
- (١٣) ل. و. هولينجزورث :- :- المرجع السابق، ص ص ١١٢-١١٤ .

**Chhaya Goswami Bhatt :- India and Africa Unique Historical Bonds and Present Prospects, with Special Reference to Kutchis in Zanzibar, Centre for African Studies, University of Mumbai ,Working Paper: No. 5, PP.13-16.** (١٤)

**ibid, PP.16,17.** (١٥)

**ل. و. هولينجزورث :- :- المرجع السابق، ص ص ١١٢-١١٤ .** (١٦)

**بنيان سعود تركي :- :- المرجع السابق، ص ص ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ .** (١٧)

**ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٢٣ - ٢٧ .** (١٨)

**بنيان سعود تركي :- المرجع السابق، ص ص ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ - ٢٤ .** (١٩)

**India-East Africa Ties: Op.CiT, P.17.** (٢٠)

**بنيان سعود تركي :- المرجع السابق، ص ص ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٤١ ،** (٢١)

**٤٣ ، ٤٤ .**

**Chhaya Goswami Bhatt :- Op.CiT., 5, PP.13-16.** (٢٢)

**ibid, PP.8-10.** (٢٣)

**ibid, P.19.** (٢٤)

**بنيان سعود تركي :- المرجع السابق، ص ص ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٤١ ،** (٢٥)

**٤٣ ، ٤٤ .**

**Chhaya Goswami Bhatt :- Op.CiT, PP.13-16.** (٢٦)

**أحمد عبدالدايم محمد حسين :- الوجود العربي في منطقة البحيرات الأفريقية الكبرى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مجلة كلية الآداب، جامعة حلوان، العدد ٢١ ، يناير ٢٠٠٧ . ص ص ٥٣٤-٥٣٧ .** (٢٧)

**ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ .** (٢٨)

**نفسه، ص ص ٢٥ - ٢٨ .** (٢٩)

**CAB/24/158/ CP . 99 (23) CABINET:- Indians in Kenya,** (٣٠)

**Memrandum By The Secretary of State for The Colonies , Printed for the Cabinet. February 1923, PP.3,4**

**ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٧٩-٨١ .** (٣١)

**Nandini PATEL:- A Quest for Identity: The Asian Minority In** (٣٢)

**Africa, Publications of the Institute of Federalism Fribourg Switzerland, 2006 ,P.3**



- CAB/24/161, CP. 334 (23):- Indians in Kenya, *Printed for the* (٥٢)  
*Cabinet. 20 July 1923, PP.4,5.*
- CAB/24/158/ CP . 99 (23) CABINET:- Indians in Kenya, (٥٣)  
*Memrandum ...Op.Cit, PP.5,6.*
- CAB/24/161, CP. 334 (23):- Indians in Kenya, *Printed for the* (٥٤)  
*Cabinet.20 July 1923, P.2.*
- ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٦٨-٧٤. (٥٥)
- CAB/24/161, CP. 334 (23):- Indians in Kenya, *Printed for the* (٥٦)  
*Cabinet. 20 July 1923, PP.7-9.*
- Ibid* ,PP.9-12. (٥٧)
- CAB/24/158/ CP . 99 (23) CABINET:- Indians in Kenya, (٥٨)  
*Memrandum... Op.Cit, P.1*
- Ibid*, P.2. (٥٩)
- Ibid*, PP.2,3. (٦٠)
- Ibid*, PP.4,5. (٦١)
- Dispatch of Lord Milner, about East Africa Protectorate,. Downing (٦٢)  
Street, May 21, 1920. Appendix I of CAB/24/158/ CP . 99 (23)
- CABINET:- Indians in Kenya, *Memrandum... Op.Cit, PP.8-10*
- Resolution OF Imperial Conference,1921, Appendix II of (٦٣)
- CAB/24/158/ CP . 99 (23) CABINET:- Indians in Kenya,  
*Memrandum... Op.Cit, PP.10,11*
- Mr. Churchill's Speech at The Kenya and Uganda Dinner, (٦٤)  
January28, 1922 .Appendix IV of CAB/24/158/ CP . 99 (23)
- CABINET:- Indians in Kenya, *Memrandum... Op.Cit, P.13.*
- Paraphrase Telegram from the Governor of Kenya to the (٦٥)  
Secretary of State for the Colonies.—(Dated February 1, 1923.),  
Appendix VII of CAB/24/158/ CP . 99 (23) CABINET:- Indians in  
Kenya, *Memrandum... Op.Cit, PP.16,17.*
- Hassan J. Ndzovu:- Muslim Relation in The Politics of (٦٦)  
Nationalism and Secession in Kenya, University of Illinois, Urbana-  
Champaign,Program of African Studies Northwestern University. Moi  
University, Kenya PAS Working Papers, Number 18, P.6.

- Susana Pereira Bastos:- Indian Transnationalisms in colonial and postcolonial Mozambique, Stichproben. Wiener Zeitschrift für kritische Afrikastudien, Nr. 8/2005, 5. Jg ,P.277 .** (٧٧)  
**ibid,P.294.** (٧٨)
- Asian Immigration into Great Britain, ELK, 3. Kursarbeit , March. 7, 2006 .** (٧٩)
- Mr. Churchill's Speech:- Op.CiT, P.13.** (٨٠)
- Josef Gugler:- Urbanization in East Africa (Revised November 1968), PP.6,7** (٧١)
- G.Oonk:- After Shaking ...Op.CiT,PP.83-85..** (٧٢)
- Susana Pereira Bastos:- Op.CiT ,P.297.** (٧٣)
- Nandini PATEL:- Op.CiT ,P.7.** (٧٤)
- Randall Hansen:- The Kenyan Asians, British Politics and The Commonwealth Immigrants Act, 1968, The Historical Journal, 42, 3 (1999),PP.809,810 .** (٧٥)
- Dr. Thomas Abraham :- Indian Diaspora – Emerging Organizational and Political Structure, Role and Responsibility, International Symposium on Diaspora Politics, Center for Basque Studies, University of Nevada, Reno ,April 27-29, 2006,P.1.** (٧٦)
- Aga Khan :- Op.CiT, PP.116,117 .** (٧٧)  
**ibid,PP.147-155.** (٧٨)
- Maj Jodi Vittori and Kristin Bremer:- Islam in Tanzania and Kenya : Ally or Threat in The War on Terror? ,U.S. Air War College, PP. 7-9** (٧٩)
- Ryan T.C.I:-The Monetizaion of Kenya : 1824 to 1924, Money in Africa Conference , 9-11 March 2007, P.5.** (٨٠)
- Chandani Patel:- Op.CiT, P.61.** (٨١)
- Stephen Morris:- Indians in East Africa : A Study In a Plural Society , The British Journal Of Sociology , Volume 7 , Issue 3, (Sep.1956),P.194.** (٨٢)
- (٨٣) بسبب سياسات ما بعد الاستقلال لم تتجاوز اعداد الهنود عموما في شرق افريقيا في السبعينيات ٢٠٠ الف هندي. منهم ١٠٠ الف في كينيا ومن ٨٠ - ٨٥ الف في تنزانيا وحوالي

Report of The High Level Committee on The Indian من ١٢ - ١٤ الف في اوغندة.. للمزيد انظر،  
Diaspora, <http://www.indiandiaspora.nic.in/diasporapdf/chapter8.pdf> , P.99.

Stephen Morris:- Op.Cit.,P.197. (٨٤)

(٨٥) تتكون مجتمعات شرق افريقيا من أفارقة وعرب وأربيون وهنود بمجموع ١٨٣٠٠٠٠٠ فرد. مجموع الافارقة يقدر بـ ١٨ مليون والعرب ٧٩ الف، والاوربيون ٥٠ الف والهنود

Stephen Morris Op.Cit.,PP.196,197. أنظر، ١٩٨ الف،

Ibid,P.195. (٨٦)

G.Oonk:- After Shaking ...Op.Cit.,PP.74-77. (٨٧)

ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ١٢-١٤. (٨٨)

Chhaya Goswami Bhatt :- Op.Cit., P.19. (٨٩)

Stephen Morris:- Op.Cit.PP.202-206. (٩٠)

G.Oonk:- After Shaking... Op.Cit.,PP.77,78. (٩١)

Stephen Morris:- Op.Cit.,PP.196,197. (٩٢)

Report of The High Level Committee on The Indian Diaspora, (٩٣)

<http://www.indiandiaspora.nic.in/diasporapdf/chapter8.pdf> , PP.94,95

Vidya Bhushan Rawat:- Mabira's resistance to Monopoly of (٩٤)

.Mehtas in Museveni's Uganda, [www.manukhsi.blogspot.com](http://www.manukhsi.blogspot.com)

John Parr:y:- Dialogue with Sikhism in the Diaspora, JMP Feb. (٩٥)

2009, PP.1,2..

Dr. Thomas Abraham :- Op.Cit., 2006,PP.2,3.(٩٦)

Patterson, J. H. (John Henry):-The Man-Eaters of Tsavo and (٩٧)

Other East African Adventures ,1867-1947, The Project Gutenberg

Literary Archive Foundation, Release Date: March, 2003 ,PP. 50-60.

Nandini PATEL:- Op.Cit. ,P.5 (٩٨)

ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ١٣٢. (٩٩)

G.Oonk:- After Shaking... Op.Cit.,PP.74,75. (١٠٠)

Dispatch of Lord Milner, about East Africa Protectorate,. Downing (١٠١)

Street, May 21, 1920. Apper:dix I of CAB/24/158/ CP . 99 (23)

CABINET:- Indians in Kenya, Memrandum... Op.Cit, PP.8-10.

ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٧٢، ١٣٢، ٢١٦، ٢١٧. (١٠٢)

نفسه، ص ٦٣. (١٠٣)

نفسه، ص ص ١٢٣-١٢٩. (١٠٤)

- (١٠٥) نفسه، ص ص ١٢٩ - ١٣٣.
- (١٠٦) India-East Africa Ties: Op.Cit., P.50.
- (١٠٧) G.Oonk:- After Shaking ....Op.Cit.,PP.76,77.
- (١٠٨) Ibid,PP.76,77.
- (١٠٩) Ibid,PP.82,83.
- (١١٠) Susana Perelra Bastos:- Op.Cit.,P.287.
- (١١١) G.Oonk:- After Shaking... Op.Cit.,P.81.
- (١١٢) Ibid,P.80.
- (١١٣) Patterson, J. H. (John Henry):- Op.Cit.,PP. 18-28.
- (١١٤) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ٢٧.
- (١١٥) Susana Pereira Bastos:- Op.Cit.,P.278 .
- (١١٦) Ibid,P.280 .
- (١١٧) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٧٢ ، ١٣٢ ، ٢١٦ ، ٢١٧.
- (١١٨) William Gervase Clarence-Smith:- The cotton textile industry of Sub-Saharan Eastern Africa in the longue durée, SOAS, University of London,PP.1,2.
- (١١٩) Ibid,PP.4,5.
- (١٢٠) <http://Archivebeta.Sakhril.com> Ibid,PP.11,12.
- (١٢١) Ryan T.C.I:- Op.Cit, P.5.
- (١٢٢) Ibid, PP.7,8.
- (١٢٣) Chandani Patel:- Op.Cit., P.62.
- (١٢٤) G.Oonk:- After Shaking... Op.Cit.,PP.77,78.
- (١٢٥) Nandini PATEL:- Op.Cit. ,P.3
- (١٢٦) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ١٢-١٤ ، ٦٨ ، ٦٩ .
- (١٢٧) Stephen Morris:- Op.Cit.,PP.196,197.
- (١٢٨) Susana Pereira Bastos:- Op.Cit ,P.287.
- (١٢٩) G.Oonk:- After Shaking... Op.Cit.,PP.77,78.
- (١٣٠) Stephen Morris:- Op.Cit.,P.209.
- (١٣١) Ibid,P.195.
- (١٣٢) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٥٧ - ٥٩.
- (١٣٣) نفسه، ص ص ٧٤-٧٦.
- (١٣٤) نفسه، ص ص ٦٨-٧٤.

- (۱۳۵) نفسه، ص ص ۱۰۰ - ۱۰۷ .
- (۱۳۶) نفسه، ص ص ۶۵ - ۶۶ .
- Henry F. Morris:- Government Publications relating to Kenya (۱۳۷)  
(including the East Africa High Commission and the East African  
,Common Services Organization)1897-1963, Government  
Publications relating to African Countries prior to Independence,  
Publication no. Micrform Academic Publisher96995, School of  
Oriental & African Studies, University of London,1976, P.6.
- G.Oonk:- After Shaking ...Op.Cit.,P.80. (۱۳۸)
- Ibid,PP.83-85.. (۱۳۹)
- Vidya Bhushan Rawat:- Op.Cit. (۱۴۰)
- Report of The High Level Commettee... Op.Cit., P.96 (۱۴۱)
- ل. و. هولینجزورث :- المرجع السابق، ص ص ۷۶ - ۷۹. (۱۴۲)
- CAB/24/161 CP. 337 (23):- INDIANS IN KENYA, *Printed for the* (۱۴۳)  
*Cabinet. July 1923,*
- CAB/24/161, CP. 334 (23):- INDIANS IN KENYA, *Printed for the* (۱۴۴)  
*Cabinet.20 July 1923, P.1.*
- Ibid, P.2. (۱۴۵)
- Parallel Statement In Connection with the 1921 Outline of (۱۴۶)  
Policy., Appendix 111 of CAB/24/158/ CP . 99 (23) CABINET:-  
Indians in Kenya, Memrandum... Op.Cit, P.12
- Indians Overseas ,A guide to source materials in the India Office (۱۴۷)  
Records for the study of Indian emigration ,1830-1950,P.29.
- Paraphrase Telegram from the Secretary of State for the Colonies* (۱۴۸)  
*to the Governor of Kenya.(Sent 5 P.M., September 5, 1922*  
*.),Appendix V of CAB/24/158/ CP . 99 (23) CABINET:- Indians in*  
*Kenya, Memrandum... Op.Cit, PP.13,14.*
- Confidential Dispatch from the Duke of Devonshire to the* (۱۴۹)  
*Governor of Kenya, dated December 14, 1922, Appendix VI of*  
CAB/24/158/ CP . 99 (23) CABINET:- Indians In Kenya,  
Memrandum... Op.Cit, PP.15,16



(١٥٠) وفقا لتعداد عام ١٩٢١ بلغ مجموع الهنود في كينيا حوالي ٢٢٨٢٢ ،  
CAB/24/161, CP. 334 (23):- Indians in Kenya, *Printed for the  
abinet. 20 July 1923, PP.5-7.*

CAB/24/161, CP. 334 (23):- Indians in Kenya, *Printed for the* (١٥١)  
*Cabinet. 20 July 1923, PP.4,5.*

(١٥٢) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٩٥-٩٨ .

(١٥٣) Indians Overseas , Op.Cit.,P.30.

(١٥٤) Ibid,P.30.

(١٥٥) Ibid,P.26.

CO 822/3064:- Problems of establishing a cancer research (١٥٦)  
centre at Aga Khan Hospital, 1963.

Report of The High Level Committee on The Indian Diaspora, (١٥٧)

<http://www.indiandiaspora.nic.in/diasporapdf/chapter8.pdf> , P.97

CAB/24/161, CP. 334 (23):- Indians in Kenya, *Printed for the* (١٥٨)  
*Cabinet. 20 July 1923, PP.4,5.*

(١٥٩) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٨٠-٩٢ .

\* تالف على شاكلة المؤتمر الوطنى الهندى الذى عقد اجتماعه الاول فى الهند فى بومباى  
١٨٨٥ . وفكرته تعود للبريطانيين وليس للهندوس بما يثير الشك والريبة فى الهدف من  
تاسيسه تبنى المقاومة السلمية ضد الحكم البريطانى، الذى استعمر الهند رسميا سنة ١٨٥٧ ،  
بعد انتقال السلطة من شركة الهند الشرقية البريطانية الى التاج البريطانى. ومن تاسس  
المؤتمر وعاش هناك فى حجر الانجليز . للمزيد انظر، عبدالمنعم النمر: كفاح المسلمين فى  
تحرير الهند، مكتبة الاسرة، القاهرة، ٢٠٠٥ . ص ص ٤٦ ، ٤٧ ، ٧٣ .

Report of The High ...Op.Cit., P.96 (١٦٠)

(١٦١) ل. و. هولينجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٧٦ - ٧٩ .

(١٦٢) Indians Overseas , Op.Cit.,PP.11-23.

(١٦٣) Hassan J. Ndzovu:- Op.Cit., PP.7-10.

E. R. Turton:- The Isaq Somali Diaspora andA Poll- (١٦٤)

Taxagitation in Kenya, 1936-41, African Affairs, Vol. 73, No. 292  
(Jul.,1974),PP.339,345.

Abduaziz Y. Lodhi:- Settlements in India, Nordic Journal of (١٦٥)  
African Studies 1(1): (1992, P.83.

- Punjabis in Eastern Africa, II AS News letter, 43, Spring, 2007. (١٦٦)
- India-East Africa Ties: Op.Cit., P.19. (١٦٧)
- Punjabis in Eastern Africa, II AS News letter, 43, Spring, 2007. (١٦٨)
- Report of The High Level... Op.Cit. , P.96 (١٦٩)
- Punjabis in Eastern Africa, II AS News letter, 43, Spring, 2007. (١٧٠)
- ل. و. هولینجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٦٣ ، ٦٤ (١٧١)
- نفسه، ص ص ٩٨-١٠٠. (١٧٢)
- Indians Overseas , Op.Cit., PP.11-23. (١٧٣)
- ل. و. هولینجزورث :- المرجع السابق، ص ص ٦٧ ، ٦٨. (١٧٤)
- نفسه، ص ص ١١٤ ، ١١٥. (١٧٥)
- Zeinoul Abedien Cajee:- Islamic History & Civilisation in South Africa: The Impact of Colonialism, Apartheid, and Democracy (1652-2004), the Symposium on "Islamic Civilisation in Eastern Africa", Islamic University of Uganda, Kampala, Uganda, 15-17 December 2003, PP.7,8. (١٧٦)
- J. Peter Pham:- India's Expanding Relations with Africa and Their Implications for U.S. Interests, American Foreign Policy Interests, 29, 2007, PP.341-343. (١٧٧)
- Indians Overseas , Op.Cit., PP.11-23. (١٧٨)
- India-East Africa Ties: Op.Cit., PP.17-19. (١٧٩)
- Ibid, P.19. (١٨٠)
- Vidya Bhushan Rawat:- Op.Cit. (١٨١)
- ل. و. هولینجزورث :- المرجع السابق، ص ص ١٠٧ - ١١١. (١٨٢)
- Anthony Lester:- East Arican Asians Versus The United Kingdom: The Inside Story, 23rd October 2003 , PP.1-3. (١٨٣)
- Ibid , PP.1-3. (١٨٤)
- Report of The High Level Commettee... Op.Cit. P.97. (١٨٥)
- \* استقلت تنجانيقا رسميا في ديسمبر ١٩٦١. في حين حصلت كينيا على استقلالها سنة ١٩٦٣. (١٨٦)
- Report of The High Level Commettee... Op.Cit. , P.98. (١٨٦)
- Ibid. (١٨٧)
- Nandini PATEL:- Op.Cit. , PP.8-10. (١٨٨)

- Gijsbert Oonk:- The Chinging Culture... Op.Cit.,P.9. (١٨٩)**  
 ♥ حيث حضرت أول امرأة هندوسية تدعى بهاتيا Bhatia ، إلى زنجبار تبتعتها امرأة أخرى تدعى Vania سنة ١٨٨٢.
- Gijsbert Oonk:- The Chinging Culture... Op.Cit.,P.10. (١٩٠)**
- India-East Africa Ties: Op.Cit., P.49. (١٩١)**
- Asian Immigration into Great Britain, ELK, 3. Kursarbeit , March. (١٩٢)**  
 7, 2006 .
- Nandini PATEL:- Op.Cit. ,P.6 (١٩٣)**  
 Ibid ,P.5 (١٩٤)
- Gijsbert Oonk:- The Chinging Culture ...Op.Cit.,P.9. (١٩٥)**
- East African Indian Cuisine, Saturday April 10, 2010 (١٩٦)**  
<http://www.slowfoodhk.com/files/East%20African%20Indian%20Cuisine>
- Asian Immigration into Great Britain, ELK, 3. Kursarbeit , March. (١٩٧)**  
 7, 2006 .
- G.Oonk:- After Shaking ...Op.Cit.,P.79. (١٩٨)**
- Gijsbert Oonk:- The Chinging Culture .Op.Cit.,PP.11,12,20,21. (١٩٩)**  
 ابراهيم الفارس: الهندوسية،  
<http://Archivebeta.Sakhril.com>  
<http://audio.Islamweb.net/audio/Index.php?page=FullContent&audioid=195741>
- India-East Africa Ties: Op.Cit., P.49. (٢٠١)**
- Punjabis in Eastern Africa,II A S News Letter , 43 , S p r i (٢٠٢)**  
 n g, 2 0 0 7 .
- Vidya Bhushan Rawat:- Op.Cit. (٢٠٣)**
- Chandani Patel:- Op.Cit., PP.8-10,62,64. (٢٠٤)**
- India-East Africa Ties: Op.Cit., PP.17-19. (٢٠٥)**
- Chandani Patel:- Op.Cit., PP.63,64. (٢٠٦)**
- Gijsbert Oonk:- The Chinging Culture... Op.Cit.,P.10. (٢٠٧)**
- G.Oonk:- After Shaking... Op.Cit.,PP.77,78. (٢٠٨)**  
 Ibid,P.79. (٢٠٩)
- Asian Immigration into Great Britain, ELK, 3. Kursarbeit , March. (٢١٠)**  
 7, 2006 .
- India-East Africa Ties: Op.Cit., P.7 (٢١١)**

- 
- Gijsbert Oonk:– The Chinging Culture Op.Cit.,PP.7,8. (212)**  
**Ibid,PP.7,8. (213)**  
**Ibid,PP.11,12,20,21. (214)**  
**G.Oonk:– After Shaking ...Op.Cit.,P.80. (215)**  
**Ibid, P.80.. (216)**  
**Ibid,PP.85–86.. (217)**  
**Isaac Esipisu and Nixon Kariithi:– New Media Development in (218)**  
**Africa,PP.4–8.**  
**Report of The High Level Commettee... Op.Cit., P.96 (219)**





## المستوطنات الإسرائيلية في القدس وادعاء الحقوق التاريخية

د. كريمان محمود إبراهيم (\*)

تقدم هذه الدراسة نموذجاً لماهية المجتمع الإسرائيلي الذي تركز أيديولوجيته على فكر المستوطنات، فإسرائيل كدولة ما هي إلا مستوطنة كبيرة، تضم تحت جناحيها هذا الكم الهائل من المستوطنات الأصغر، وما ألحق بها من مهام وأهداف أمنية وعسكرية وأيديولوجية وسياسية. تلك السياسة التي تسارعت وتيرتها بغرض فرض واقع جديد، وخاصة في مدينة القدس، تحت ادعاءات وحجج عديدة. لم تكن هذه الأيديولوجية القائمة على فكرة الإحلال هي أيديولوجية أو سياسة حزب ما أو شخصية ما، وإنما هي السياسة الرسمية للدولة لها مؤسساتها المنوط بها تنفيذها فلكي تنشأ مستوطنات جديدة لا بد من تهجير واقتلاع المزيد من الفلسطينيين من أرضهم ودورهم، والإحلال محلهم. وكان من ثمار هذه السياسة: قلب النظام الجغرافي والديموغرافي، لا سيما في مدينة القدس، وأهمية الاستيطان لا تكمن فقط في رصد محاولة الآخر للاستيلاء على ما بحوزة الغير، ولكن باعتباره عقبة من أصعب العقبات التي تعترض مسعى السلام، وليس من المبالغة أبداً نعتها بأنها وجدت أصلاً لإعاقة ومنع أي تسوية.

<http://Archivebeta.Sakhrif.com>

لماذا القدس:

الأنها عاصمة الأديان الثلاث مهد المسيح عليه وعلى أمه السلام، ومنها عرج محمد عليه الصلاة والسلام إلى السماء، وهي أمانة عمر وبيعة صلاح الدين، فيها تدق أجراس كنيسة القيامة ومن مآذن مسجدها الأقصى يسمع صوت الأذان الله أكبر.. فبقية شامخة جميلة، إنها عبق التاريخ أو قل عروس التاريخ، قل ما شئت، إنها عظيمة تستمد عظمتها من تاريخها، ويستمد التاريخ منها سطوره وحكاياته، وتتجلى عظمتها تلك في قدرتها الفريدة على تجسيد هذا الماضي، ليبدو وكأنه كاننا بيننا نتحسسه نفرح لفرحه ونتألم لألمه، فتخرج الآهات ممزوجة بدماء الأبرياء، فشهداء اليوم والأمس، الأمس القريب والأمس البعيد مرتبطون ارتباطاً وثيقاً، فقبل أن تتحرر القدس من الغزو الصليبي الغاشم عام ١١٨٧م كانت هناك حالة حمل وهي أطول فترة حمل شهدتها التاريخ، إذ امتدت لما يزيد على السبعة قرون وحينما جاء المخاض أسفر عن الولادة المشنومة للحركة الصهيونية فخرجت من رحم الصليبية.

(\*) أستاذ مساعد بكلية الآداب جامعة حلوان.

وفي هذا الصدد يقول س. آر كوندرا C.R Kondr\* في كتابه عن تاريخ المملكة اللاتينية في القدس: إن المشروع الصهيوني هو نفسه المشروع الفرنجي بعد أن تمت علمنته<sup>(١)</sup>، ولعل تغليف الصهيونية لأطماعها، بنفس الدعاوى الصليبية، ليقدّم دليلاً واضحاً على أنها اعتمدت منذ نشأتها على النهج الصليبي، فحينما خرج الصليبيون لسفك دماء المسلمين والاستيلاء على ثرواتهم، كانت دعواهم أنها "إرادة الله" واعتبروا أنفسهم أنهم "جنود المسيح"، وها هي الصهيونية تتخفى خلف دعاوى دينية، تارة "كشعب الله المختار"، وتاريخية تارة أخرى "كأرض الميعاد"!

ولعل صعوبة فهم تاريخ القدس عاصمة الأديان الثلاثة يبدو في تلك التعددية الدينية التي تحمل في طياتها وبين جنباتها هذا الكم من التحديات الكامنة، فالقدس عاصمة دينية وتاريخية وسياسية واقتصادية، تعرضت لمؤامرات عديدة لتزوير هويتها وطمس معالمها، تمهيداً لتهويدها ومن ثم الادعاء بالحق التاريخي، وكان لدى إسرائيل مخطط واضح في هذا الشأن، يعود إلى ما قبل تأسيس الدولة منذ ١٨٩٧م عندما أقر مؤتمر بازل إنشاء إسرائيل بعد خمسين عاماً، وإسرائيل الكبرى بعد مائة عام<sup>(٢)</sup>، ويرتكز هذا المخطط على قاعدتين أساسيتين.

#### ١- تهويد الأرض. ٢- تهويد السكان.

ففيما يتعلق بتهويد الأرض: صدرت مجموعة من القوانين التي تعود للحقبة البريطانية لمصادرة الأرض، أهمها قانون الطوارئ، وقانون أملاك الغائبين (أي إذا غاب الشخص سبع سنوات تسلب منه أرضه)، وطرد الفلسطينيين العربي من أرضه. ذلك أن سياسة الإبعاد مورست كثيراً تحت حجج وأهية كذريعة الغائبين المشار إليها، أو الحجج الأمنية مثل: تملك فلسطيني جنسية أخرى فتسقط مواظنته بالقدس<sup>(٣)</sup>.

أما سياسة تهويد السكان فمورست بواسطة التفريغ السكاني للمنطقة بإحلال يهود محل العرب، وذلك بطرد السكان العرب وزيادة الاستيطان اليهودي<sup>(٤)</sup> فيغيب بذلك العنصر اليهودي في المدينة على العنصر العربي، وبالتالي يسهل صياغة المدينة على أسس ديمغرافية وسكانية جديدة، ومن هنا بدأ النزوح اليهودي من شتى البقاع إلى أرض فلسطين مصحوباً بسمفونية موسيقية تعزف على أوتار الحقوق التاريخية والدينية، وهنا حدث التزاوج التاريخي بين اليهود النازحين والأجانب المقيمين، حينما تلاقت على أرض فلسطين مطامع الصهيونية بالاستعمار الأوروبي الممثل في بريطانيا، فاتفقا على إقامة دولة يهودية في فلسطين، ولا يخفى علينا أن جزء من هذا الإنجاز يعود أيضاً لما سبق وأن روج له الكتاب اليهود وبكثير من المبالغة حول مسألة الاضطهاد حتى يبرروا دعوتهم العنصرية.

ويأتي على رأس هؤلاء: زفي هيرش كاليشر (١٧٩٥-١٨٧٤) الذي دعا في كتابه "البحث عن صهيون" إلى أن حل المشكلة اليهودية يأتي عن طريق تهجير اليهود إلى فلسطين<sup>(٥)</sup>، و"موسى هيس" ١٨١٢-١٨٧٥ في كتابه "روما والقدس" الذي رأى فيه أن

اندماج اليهود في المجتمعات الأوروبية لا يشكل حلاً عملياً للمسألة اليهودية، ونادى بأن "الجنس اليهودي من أقدم وأعرق الأجناس البشرية، وإليه ترجع وحدة اليهود لأن "الجنس اليهودي حفظ صفاءه عبر القرون"<sup>(٦)</sup> وأخيراً نجح هرتزل بعد نشر كتيبه "دولة اليهود" في إقامة أول حركة يهودية عالمية تمثلت في المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في بازل في عام ١٨٩٧، وكان ضمن مقترحات البرنامج تشجيع الهجرة المنظمة، وعلى نطاق واسع، إلى فلسطين والحصول على اعتراف دولي بشرعية التوطن في فلسطين<sup>(٧)</sup>. وفي المؤتمر الصهيوني السابع في ١٩٠٥ وبعد وفاة هرتزل - في نفس العام - أخذ المؤتمر قراراً بأن الحركة تهدف لإقامة الوطن القومي لليهود في فلسطين.

ومن عام ١٩٠٥ إلى عام ١٩١٤، عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، كان التوطن اليهودي يزداد في فلسطين في صمت وإحاح، حتى وصل عدد المستوطنين الجدد إلى ١٢ ألفاً يعيشون في تسع وخمسين مستعمرة. ولقد كانت الحرب العالمية الأولى نقطة تحول تاريخية وفرصة ذهبية للحركة الصهيونية<sup>(٨)</sup>، تمكنت من استغلالها وتسخيرها لخدمة أهدافها، فبمساعدة بريطانيا - التي انتدبت على فلسطين بقرار من عصبة الأمم عام ١٩٢٢ - فتحت أبواب الهجرة اليهودية غير المقتنة إلى فلسطين<sup>(٩)</sup> وغدت الوكالة اليهودية وكأنها دولة داخل الدولة ففتحت باب الهجرة على مصراعيه.

وكما استغلت الحركة الصهيونية الحرب العالمية الأولى، حدث نفس الأمر بالنسبة للحرب العالمية الثانية، ولكن بشكل أكثر دقة وتنظيماً، فعصفت في هذه المرة لربط مصالحها بمصالح الحلفاء. وعندما انعقد مؤتمر "بلمور" عام ١٩٤٢ كشفت الصهيونية النقاب عن أطماعها، وأن هدفها هو إنشاء دولة يهودية في فلسطين، وليس وطناً قومياً<sup>(١٠)</sup>.

وعلى الرغم من أن الأمم المتحدة أقرت، في المادة الأولى من ميثاقها، بحق الشعوب في تقرير مصيرها<sup>(١١)</sup>، إلا أن قرار جمعيتها العامة - الذي جاء بعد ذلك في نوفمبر عام ١٩٤٧ والخاص بتقسيم فلسطين - كان منافياً لهذا الحق، وفي هذا الشأن قدم العديد من فقهاء القانون الدولي أدلتهم القانونية التي تثبت ذلك<sup>(١٢)</sup> لكن تم تجاهلها عن عمد، والخطير في هذا القرار الذي قسم فلسطين إلى دولتين عربية وأخرى يهودية، وعمل على تدوين القدس، أنه أعطى للصهيونية مساحة واسعة لتنفيذ مخططاتها الاستعمارية في الاستيلاء على القدس ومن ثم تهويدها، وكما أشرنا أن مخطط تهويد القدس يرجع لمؤتمر بازل ١٨٩٧، لكن التطبيق العملي لهذا المخطط بدأ فعلياً منذ يونيو ١٩٦٧<sup>(١٣)</sup> وتحديداً في السابع من يونيو ١٩٦٧، حينما حاصرت قوات جيش الدفاع الإسرائيلي المدينة ودخلتها من بوابة الأسد، وعلت هتافات اليهود - والتي اتسمت بالتحدي - عند الحائط الغربي مردين لن نخرج من هنا" أو لن يحدث ذلك أبداً مرة أخرى، في سياق تذكرهم للهولوكوست. أما الجنرال موشيه ديان فقد وقف أمام الحائط وأعلن: "لقد عدنا إلى أكثر أماكننا قداسة .. لقد عدنا ولن نتركها قط مرة أخرى"، ثم أصدر



أوامره بفتح جميع البوابات وإزالة الأسلاك الشائكة والألغام من المنطقة المنزوعة السلاح إذ رأى أنه لن يحدث تراجع مرة أخرى<sup>(١٤)</sup>.

وقد تطور ادعاء إسرائيل بملكية المدينة، تطوراً خطيراً، باحتلالها الضفة الغربية وقطاع غزة وشبه جزيرة سيناء ومرتفعات الجولان، إلى جانب القدس، وذلك في نهاية حرب الأيام الستة، ويعد هذا مخالفاً لكل من قوانين لاهاي التنظيمية الصادرة عام ١٩٠٧، ولاتفاقية جنيف لعام ١٩٤٩. وطبقاً للقانون الدولي لم يكن مسموحاً بضم الأراضي التي يتم الاستيلاء عليها عسكرياً، وكان بعض الإسرائيليين ومن بينهم ليفي أشكول على استعداد لإعادة الأراضي المحتلة إلى مصر وسوريا والأردن، نظير معاهدة سلام مع العرب، بيد أنه لم يكن من الوارد قط إعادة مدينة القدس القديمة إلى العرب، إذ أدخل على الخطاب الصهيوني الذي كان علمانياً لدرجة التحدي في الماضي - عنصر تسام روحاني، فقد قال المتطرفون في إلحادهم إنهم خبروا قدسية مدينتهم المقدسة. وعبر أبا إيبان مندوب إسرائيل في الأمم المتحدة عن ذلك بقوله: إن أورشليم تقع خارج نطاق، وفوق وقبل ويعد جميع الاعتبارات السياسية، وأيضاً قيل أنه من المحال على الإسرائيليين النظر إلى الأمر بموضوعية، لأنهم قد التقوا بالروح اليهودية عند الحائط<sup>(١٥)</sup>. وكان ليفي أشكول قد أعلن، عشية الغزو، أن القدس "عاصمة إسرائيل الأبدية"<sup>(١٦)</sup>.

ولم يقتصر الأمر عند حد الإعلان، بل تبعه مجموعة من الإجراءات لتهويد القدس، ولذا فإنه ليتسنى لنا فهم عملية تهويد القدس، لا يجب النظر إليها على أنها تمت بشكل عشوائي، وإنما باعتبارها مخططاً له أهدافه الواضحة، التي تتمثل في تأسيس القدس الكبرى الموسعة اليهودية الخالصة ككتلة استيطانية ضخمة تمزق، وإلى الأبد، الوحدة الجغرافية للضفة الغربية، كما جاء في إحدى وثائق حزب النيكود<sup>(١٧)</sup>. وفي هذا السياق كان لا بد من طمس المعالم العربية في القدس<sup>(١٨)</sup> حتى ولو تعدى ذلك مخطط التفريغ السكاني إلى ما هو أعظم، كالانقضاء على المعالم الأثرية الإسلامية والمسيحية، ومحاولة إما تهويدها أو القضاء عليها<sup>(١٩)</sup>.

صحيح أن المجتمع الدولي، الممثل في الأمم المتحدة، حاول وقف هذا العبث، فأصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة عدة قرارات أدانت فيها إسرائيل، وعدت إجراءاتها بأنها غير شرعية وطالبتها بإلغائها، ويأتي على رأس هذه القرارات: قرار رقم ٢٢٥٣ الصادر سنة ١٩٦٧، وقرار مجلس الأمن رقم ٢٥٢، وغيرها من القرارات التي لا يتسع المجال لحصرها، لأن إسرائيل في كل الأحوال لم تدع لتلك القرارات<sup>(٢٠)</sup> سواء فيما يتعلق بالقدس أو فلسطين، أو حتى بجيرانها. وهذا بدوره يلقي بظلال من الشك والريبة تجاه هذه المؤسسة الدولية، وماهية علاقتها بإسرائيل، فالرفض التام لم يعرض الكيان الصهيوني لأي عقاب من قبل المجتمع الدولي، في حين أن دولاً أخرى يقابل رفضها لتنفيذ قرارات الأمم المتحدة لما هو أبعد من الإدانة والشجب، إلى حد التدخل العسكري كما حدث في أفغانستان والعراق!؟

ومن جانبها كانت إسرائيل تسابق الزمن من أجل فرض واقع معين على القدس، يضع الأمم المتحدة وقراراتها في موقف العاجز، وكما سبق وأن ذكرنا أن العملية لم تكن عشوائية، إنما هو مخطط منظم، ففي نفس يوم الغزو تقدم "تيدي كوليك" إلى ديان للإشراف على تطهير المنطقة منزوعة السلاح، ومثله مثل ديان رأي أهمية "خلق واقع" يؤسس الحضور الإسرائيلي الدائم في القدس، حتى لا يكون أمر الجلاء عنها - استجابة لطلب المجتمع الدولي - وارداً، وفي مساء العاشر من يونيو، وبعد توقيع اتفاقية وقف إطلاق النار، وجه إنذاراً إلى ٦١٩ فرداً من سكان حي المغاربة بإخلاء منازلهم، ثم قامت البلدوزرات وحولت المنطقة التاريخية، التي هي أقدم الأوقاف في القدس، إلى أنقاض، وأشرف كوليك على هذا العمل الذي كان مخالفاً لاتفاقيات جنيف، بهدف إيجاد مساحة كبيرة تتسع لآلاف الحجاج المتوقع توافدهم على الحائط الغربي. وكانت تلك القطعة هي الأولى فقط في عملية طويلة مستديمة (للتجديد الديني)، وهو تجديد مؤسس على هدم القدس التاريخية العربية، وتغيير مظهرها وشخصيتها تغييراً كلياً<sup>(٢١)</sup>، ولذا صدرت مجموعة من التشريعات عملت على تدخل السلطات الإسرائيلية في كافة شؤون القدس، فعمدت إلى تهويد التعليم العربي، وتهويد القضاء<sup>(٢٢)</sup>. وفي ٢٨ يونيو قام الكنيست بضم القدس الشرقية إلى الكيان الصهيوني، لتصبح بذلك المدينة القديمة والقدس الشرقية جميعاً جزءاً من دولة إسرائيل، وكان ذلك مخالفاً صريحة لاتفاقية لاهاي<sup>(٢٣)</sup>.

ولم تكتف إسرائيل بذلك، بل عمدت إلى إزالة الأحياء العربية ومصادرة أراضيها، وإقامة أحياء سكنية بأسماء يهودية، مواصلة بذلك خطة إبادة المقدسات الإسلامية والمسيحية للقضاء على الارتباط الديني بين المسلمين والمسيحيين وبين مقدساتهم، وهذا بدوره يؤدي لتشويه الطابع الحضاري للمدينة، وليس أدل على ذلك من الحفريات التي قامت وتقوم بها السلطات الإسرائيلية بالقرب من المسجد الأقصى، بحثاً عن الهيكل المزعوم، والحفريات الأخرى قرب حائط المبكي، والتي أحدثت بالفعل تصدعات فضلاً عن مصادرة "باب المغاربة" وهو الباب المؤدي إلى بيت المقدس<sup>(٢٤)</sup>.

ومرة أخرى أصدرت الأمم المتحدة، في يوليو ١٩٦٧، قرارين تدعو فيهما إسرائيل إلى إلغاء ذلك "التوحيد"، والامتناع عن أي خطوات من شأنها تغيير وضع القدس. وقد كانت الحروب وتوابعها بدأت تلتفت انتباه العالم إلى مأساة اللاجئين الفلسطينيين المنتزعين من أوطانهم، وبعد عام ١٩٦٧ لاذ آلاف آخرون منهم بالفرار من المناطق المحتلة، ومكثوا في حالة من الوهن والعجز في المخيمات التي أقيمت لهم في الدول العربية المجاورة، ثم جاء قرار مجلس الأمن الشهير، رقم ٢٤٢ في ٢٢ نوفمبر عام ١٩٦٧، بوجوب انسحاب إسرائيل من المناطق التي احتلتها أثناء حرب "الأيام الستة"، وأيضاً بوجوب الاعتراف بسيادة وسلامة أراضي كل دول المنطقة واستقلالها السياسي، إلا أن معظم الإسرائيليين من اليهود في العالم، والذين شغفوا من جديد بـ "الحيز المقدس"، لم يعترفوا بشرعية تلك القرارات<sup>(٢٥)</sup>.

ومن المفارقات أن "خلق الوقائع المادية"، من قبل إسرائيل، بالاستيلاء على الأرض وبناء المستعمرات في المناطق، بقصد زيادة نسبة السكان اليهود، أدى إلى نتيجة عكسية تمثلت في التقليل من الهجرة وزيادة السكان الفلسطينيين، وليس أدل على ذلك من أن معدل النمو السكاني السنوي، في القدس الشرقية، جاء مختلفاً عما هو عليه في بقية الضفة الغربية، وقد جرى تقدير متوسط لنسبة النمو السكاني في القدس الشرقية، للسنوات ١٩٦٧ - ١٩٨٠، فكان ٣% قياساً إلى ١.٤ - ١.٥% في الضفة الغربية. وفي مايو ١٩٦٧ كان عدد سكان القدس الشرقية ٨٠ ألف نسمة، وأصبح عددهم في سبتمبر من نفس العام ٦٧ ألف نسمة، ومع نهاية عام ١٩٨٢ بلغ عددهم ١٢٠ ألف نسمة (أي ١٤% من مجموع سكان القدس الشرقية والضفة الغربية معاً) <sup>(٢٦)</sup> وظل النمو السكاني في القدس الشرقية ثابتاً في حدود ٣% سنوياً، وهو أعلى من النمو السكاني اليهودي، مما أدى إلى تغيير طفيف في بنية المدنية الديمغرافية، فقد نقصت الأغلبية اليهودية بنسبة ٣-٤% في ستة عشر عاماً. أما فيما يتعلق بالنمو السكاني في القدس الكبرى خارج حدود بلدية القدس، فتشير التقديرات إلى معدل نمو متشابه قدره ٣% في المنطقة المحيطة بالمدينة. وفي عام ١٩٦٩ كان ٣٧% من مجموع سكان المناطق الجنوبية، في الضفة الغربية، يقطنون في منطقة القدس الكبرى <sup>(٢٧)</sup>.

لمواجهة ذلك عمدت إسرائيل، في ظل غياب آليات دولية فعالة لردع العمل الصهيوني إلى حرق المسجد الأقصى في ٩ أغسطس ١٩٦٩، ولم تكن عوامل القلق والحوادث المتبادلة بين الجانبين، والتي سبقت هذا الحادث، هي كل ما أدى إليه، ولكن ظل المخطط الإسرائيلي لتهويد القدس هو الدافع والمحرك لمثل هذه الأحداث. وقد جاء رد الفعل العربي، للدفاع عن عروبة وأسلمة القدس، ليسجل بداية الإرهاصات الأولى لتحرك عربي وإسلامي منظم، تمثل في عقد مؤتمر قمة عربي في الرباط في ٢٤/٩/١٩٦٩، والذي انبثق عنه تكوين لجنة دائمة تسمى "لجنة القدس"، تتولى متابعة القرارات التي يصدرها المؤتمر الإسلامي؛ الذي أصدر سلسلة من القرارات أدان فيها حرق المسجد الأقصى، هذا بالإضافة للقرارات العديدة التي أصدرتها جامعة الدول العربية.

وهذا ما يدفعنا للتساؤل عما فعلته هذه القرارات والمؤتمرات لحماية القدس، وهل وفرت لها الضمانات اللازمة؟! لا سيما وأن قوة القرار لا تكمن في صدوره، بقدر ما تكمن في القدرة على تفعيله، وفي هذا الصدد ظلت القرارات العربية قيد التنفيذ لما اتسمت به من ضعف وعدم جدية.. وهذه هي المعضلة الحقيقية التي سيقود فهمها لحل إشكالية الدور العربي لإنقاذ القدس من التهويد، والذي اتسم باللامنهجية واللا استراتيجية، مقابل العمل الإسرائيلي المنظم والمتواصل في هذا المجال!، وهذا ما مكن رئيسة الوزراء الإسرائيلية "جولدا مائير" من نسف قرارات المؤتمر الإسلامي؛ عندما أعلنت عن عزم الحكومة الإسرائيلية ترميم المسجد الأقصى على نفقتها <sup>(٢٨)</sup>، وتزامن ذلك مع ما أثبتته التحقيقات

من أن من قام بهذا العمل لم يكن عميلاً يهودياً ولكنه استرالي من أتباع طائفة مسيحية متطرفة<sup>(٢٩)</sup>.

ويعتبر النظر عن صدق هذه التحقيقات من عدمه، فإن ما يعيننا هنا هو النهج الإسرائيلي الذي استمر يحقق النجاح تلو الآخر، فهو بالإضافة لسياسته التدريجية في تنفيذ مخططة الاستراتيجية، فإنه قادر أيضاً على استيعاب الأزمات الكبرى التي يمكن أن تقلب المجتمع الدولي ضده، ويحولها لصالحه، لينتهي الأمر بتعاطف معظم وأهم الأطراف معه، وفي هذا الإطار لا يمكن أن نلقي باللوم على إسرائيل ومخططاتها، أو على المجتمع الدولي والأممي وتعاطفه معها. إن كل ما فعلته إسرائيل أنها حلمت أو قل توهمت ثم حولت هذه الأوهام لأيديولوجية، ولقوة حية وفعالة، ونكيان يمارس وجوده وحقوقه تحت مظلة قانونية، وبذلك تكون قد نجحت في فرض أطماعها على المجتمع الدولي، لدرجة أنها جعلت من أمن إسرائيل الشغل الشاغل لهذا المجتمع<sup>(٣٠)</sup>، في مقابل حق عربي سطره التاريخ، وتنطق به الأرض والوثائق وشعوب العالم، ليتحول هذا الحق لوهم لوهم القوى العربية، ومحدودية نضالها وعدم مقدرتها على تفعيل قراراتها.

### فكرة المستوطنات:

هي فكرة قديمة تعود إلى ما قبل القرن الماضي، عندما طرح لورنس أوليفانت - عضو البرلمان الإنجليزي - (١٨٢٠-١٨٨٨) فكرة إنشاء مستوطنة يهودية شرق الأردن شمال البحر الميت، مشجعاً استعمار اليهود لفلسطين، وكان هذا الطرح من خلال كتابه "أرض جلعاد" الذي نشر عام ١٨٨٠. وفي عام ١٨٧٨ كانت مجموعة من يهود القدس قد تمكنت من تأسيس مستوطنة بتاح تكفا، وفي ١٨٨٢ تم إنشاء ثلاث مستوطنات هي: ريشون ليتسيون، وزخرون يعقوب، وروش بينا، وفي عام ١٨٨٣ أسست مستوطنة يسود همعليه وعفرون، ومستوطنة حديرا عام ١٨٨٤، وفي عام ١٨٩٠ أسست مستوطنات رحوبوت ومشمير هارون. وبعد المؤتمر الصهيوني العالمي الثاني، عام ١٨٩٨، وصل عدد المستوطنات اليهودية لـ ٢٢ مستوطنة، واستمر هذا العدد في التزايد، ولكن الانطلاقة الكبرى في هذا المجال جاءت بعد الإعلان عن قيام إسرائيل في مايو ١٩٤٨<sup>(٣١)</sup>.

وتعد الفترة ١٩٤٨-١٩٦٧ فترة تأسيس الكيان الصهيوني لتتطلب بعدها أخطر وأوسع مرحلة في بناء المستوطنات، وهي تشمل الفترة من عام ١٩٦٧-٢٠٠٨، بعد احتلالها لبقية القدس وفلسطين<sup>(٣٢)</sup>. وساعدت بعض الإدارات مثل الصندوق القومي اليهودي (الكيرن كايمت)، وإدارة الاستيطان في الوكالة اليهودية<sup>(٣٣)</sup> على توفير الأموال اللازمة للمهاجرين<sup>(٣٤)</sup>. والحقيقة أن مشاركة كل مؤسسات ووزارات الدولة الإسرائيلية، في تنفيذ عملية الاستيطان، هو ما قاد لنجاحها<sup>(٣٥)</sup>.

ولما كان هدفهم زيادة عدد اليهود في القدس؛ فقد دفعهم ذلك للتركيز بعد عام ١٩٦٧ أي بعد احتلال القدس الشرقية ٢٨ يونيو ١٩٦٧، لاخترق البلدة القديمة وأحياء القدس الشرقية، وبالفعل وصلت كثافتهم العددية نسبة أعلى من الفلسطينيين، ذلك أن

الهدف كان يتجه لخفض نسبة المواطنين الفلسطينيين في القدس كلها لما لا يتجاوز ٢٠%. وفي عام ١٩٨٦ وصل عدد المستوطنين الصهاينة في الأحياء الاستيطانية، حول القدس القديمة، لـ ١٤٨.٠٠٠ مستوطن، مقابل ٣٥١.٠٠٠ مواطن عربي، أما إجمالي الصهاينة في كل القدس فوصل لـ ٧١.٥% من إجمالي سكان المدينة، أي ٣٣١.٠٠٠ مستوطن داخل الحدود الإدارية للقدس<sup>(٣٦)</sup>.

وتزامنت خطة الزيادة السكانية للمستوطنين في القدس، مع الزيادة المكانية لها بعدما نجحت إسرائيل في توسيع حدود بلدية القدس الشرقية، والتي كانت تضم عند احتلالها عام ١٩٦٧ (٦.٥ كم) بضم أراضي من الضفة الغربية إليها ما يعادل (٧٠ كم)، وبذلك أصبحت حدود البلدية الجديدة تضم (١٠.٨ كم) (القدس الشرقية والغربية) أي ٢٨% من الضفة الغربية وذلك لفرض غالبية ديموغرافية يهودية في قسمة المدينة، وبذلك يتم عزل واستثناء المناطق الفلسطينية الآهلة مثل: الرام وأبو ديس والعيزرية ومخيم قلنديا. ولاستكمال هذا المخطط؛ كان لابد من أن تتم عملية الإخلاء والطرده للفلسطينيين سكان البلدة القديمة، وهكذا تتم عملية عزل القدس الكبرى عن الضفة الغربية، تمهيداً لضمها لإسرائيل - وهو المخطط الذي بدأ فور الاحتلال في ٢٨ يونيو ١٩٦٧. أما الخطة التالية في الاستراتيجية الإسرائيلية لتهود القدس، فقد اعتمدت على استيطان استعماري في البلدة القديمة والأحياء المحيطة بها، وإنشاء أحياء يهودية وشبكة طرق لربط القدس الشرقية بالمنطقة اليهودية الآهلة بالسكان، وفي هذا الصدد أعربت إدارة تيدي كوليك عن قلقها تجاه النمو السكاني الفلسطيني في القدس، وأصبح من المتعارف عليه اعتبار الأراضي المملوكة للفلسطينيين مناطق خضراء أو غير مستعملة، لتبرير مصادرتها. واعتماداً على قانون الأراضي واستعمائها للمنفعة العامة، وهو القانون الصادر عن الانتداب البريطاني عام ١٩٤٣، فإن وزير المالية يعد مكلفاً بمصادرة الأراضي ذات الملكية الخاصة لأغراض المنفعة العامة، ولذلك جرى بين عامي ١٩٦٧ - ١٩٩٦ مصادرة حوالي (٢٣٥٠٠) دونم من الفلسطينيين في القدس الشرقية<sup>(٣٧)</sup>.

وفي إطار توسيع ما يسمى بحدود القدس شرقاً وشمالاً، لإحكام السيطرة عليها، صودرت الأراضي لإقامة المستوطنات بداخلها وحولها، فصادرت ٤٠% من مساحة القدس العربية، وطرقت سكانها، وأنشأت الحي اليهودي مكان حارة الشرف "المغاربة" الفلسطينية - التي يرجع تأسيسها إلى عهد الفاتح صلاح الدين - كما أقامت حولها ١٥ مستوطنة تحيط بالمدينة المقدسة من جميع الجهات.

وفي الشمال، والشمال الغربي، أقامت مستوطنات النبي يعقوب، وصودرت أراضيها الفلسطينية عام ١٩٦٨، وراموت وصودرت أراضيها عام ١٩٧٠، والجامعة العبرية من عام ١٩٢٤ - ١٩٦٧، ففي عام ١٩٢٤ صودر جزء من أراضيها، وفي عام ١٩٦٧ صودر المزيد من الأراضي، وريخس شعفاط (جبعات هاشعفاط) وصودرت أراضيها عام ١٩٧٠ وتأسست عام ١٩٩٠، رامات أشكول (جبعات همفتار) صودرت أراضيها عام

١٩٦٨ وتأسست في نفس العام، بسجات زئيف ويسجات عومر، عطرورت صودرت أراضيها وأسست عام ١٩٧٠، التلة الفرنسية. وفي الجهة الجنوبية هناك مستوطنات جيلو صودرت أراضيها عام ١٩٧٠، وتأسست عام ١٩٧١، منتزه كندا\*، جفعات همتوس وتأسست عام ١٩٩١، وهار حوماه صودرت أراضيها عام ١٩٩٠ وتأسست عام ١٩٩١<sup>(٣٨)</sup>.

أما من الشرق، فهناك مستوطنات معاليه أدوميم\* ومقدار اللتان تدخلان مع مستوطنة جفعات زئيف، في الشمال ضمن حدود القدس الكبرى، أما مستوطنة معاليه أدوميم فقد أقيمت في ٨ أغسطس ١٩٧٩ كمستوطنة دينية، وفي عام ١٩٩٢ تقرر تحويلها إلى مدينة، وأصبحت أول مدينة إسرائيلية في الضفة الغربية، تقع في إطار ما يسمى القدس الكبرى، على طريق القدس - أريحا، وعلى بعد ٦ كم إلى الشرق من القدس، ومستوطنة كيدار (نينوت أدميم) وأقيمت في ١٩ يناير ١٩٨٥، أما مستعمرة ميشور أدوميم فقد شرع في إقامتها كمعسكر عام ١٩٧٤، وقررت الحكومة الإسرائيلية أن تكون منطقة صناعية متخصصة في الصناعات الثقيلة، ثم تحولت عام ١٩٧٧ إلى مستوطنة صناعية دائمة، باقتراح من موشي دايان وزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق، في إطار إكمال الطوق الشرقي لما يسمى القدس الكبرى، وهي تقع على طريق القدس أريحا على بعد حوالي ١٣ كم إلى الشرق من القدس، وفي ٢٦ يوليو ١٩٨٢ أقيمت مستوطنة غنتوت (علمون) وهي تقع إلى الشرق من القدس، وفي عام ١٩٩٥ أقيمت قرية داود غرب باب الخليل في أراضي المنطقة الحرام، وذلك بهدف دمج قسيمي مدينة القدس الشرقية مع القدس الغربية. أما الأراضي التي أقيمت عليها عام ١٩٩٥، فكانت قد صودرت من أملاك عربية وأملاك الكنيسة، أما مستوطنة جبل أبو غنيم فقد صدر قرار من الحكومة الإسرائيلية ببناء هذه المستوطنة في جبل أبو غنيم بالقدس الشرقية عام ١٩٩٧، بهدف طمس عروبة المدينة المقدسة، وإحكام الطوق الاستيطاني حولها وداخنها<sup>(٣٩)</sup>.

وبذلك تمكنت إسرائيل من إحاطة المدينة المقدسة بطوق استيطاني عزلها تماماً عن محيطها الفلسطيني، ففصلت المستوطنات الشمالية القدس عن شمال الضفة الغربية، حيث محافظات رام الله ونابلس وباقي المحافظات، أما المستوطنات الجنوبية فعملت على عزل القدس عن محافظات بيت لحم والخليل، ولم تكف إسرائيل بذلك، إذ صاحب هذه الإجراءات الاستيطانية ممارسات لا إنسانية مثل: منع سكان الضفة الغربية من الدخول إلى مدينة القدس، ووضع أمام من يريدون الدخول إليها، أو الذهاب للمسجد الأقصى، مجموعة من العراقل القاسية تمثلت في: الحواجز العسكرية المتعددة والمنتشرة على طول الطريق المؤدية إلى القدس<sup>(٤٠)</sup>.

وفي النهاية، ساهمت كل هذه الإجراءات، ليس فقط في عزل مدينة القدس وضواحيها عن محيطها الفلسطيني بل وقطع التواصل الجغرافي بين أنحاءها، والحيلولة

دون إقامة دولة فلسطينية ذات سيادة، هذا خلاف تشويه النمط العمراني للقدس العتيقة والقرى الفلسطينية المحيطة بها، بالإضافة لالتجاه لهدم المسجد الأقصى<sup>(٤١)</sup>. وبعد إقامة هذا العدد من المستوطنات إلى حدود القدس الإدارية؛ أصبح عدد الصهاينة في عام ١٩٩٢ في شرق القدس، ولأول مرة في التاريخ، أعلى من عدد المواطنين الفلسطينيين إذ بلغ عدد المستوطنين مائة وستين ألفاً، مقابل مائة وخمسة وخمسين ألف عربي فلسطيني. أما في كل القدس، فبلغ عدد المستوطنين اليهود أربع مائة وسبعة آلاف مستوطن، مقابل مائة وواحد وستين ألف مواطن فلسطيني ما اعتبره الصهاينة نسبة زائدة لأعداء الفلسطينيين الذين يتكاثرون بمعدلات طبيعية هي الأعلى في العالم، ما أدى لارتفاع نسبتهم عام ٢٠٠١ إلى ٣٢%، مقابل ٢٧% مطلع السبعينات، وحتى عام ٢٠٠٠ كانت الغالبية الساحقة من سكان البلدة القديمة هي من الفلسطينيين البالغ عددهم ٣٣.٠٠٠، مقابل ٣٠٠٠ مستوطن صهيوني<sup>(٤٢)</sup>.

وعلى الرغم من مواقف الدول العربية الراضة للاستيطان، وإقامة المستوطنات باعتباره أمر مخالف لقواعد القانون الدولي، إلا أن إسرائيل استمرت في سياستها الرامية إلى إفراغ الأراضي المحتلة من أصحابها الشرعيين وإحلال المستوطنين محلهم، ولم تسهم مواقف العرب ومفاوضاتهم لوقف بناء هذه المستوطنات إلا إلى زيادة وتيرتها، بهدف خلق واقع حي يخضع القدس كلياً للمخطط الإسرائيلي.

## ARCHIVE

### المستوطنات في مشروعات السياسة الإسرائيلية

تعاطت الحياة السياسية الإسرائيلية جملة مشاريع هامة؛ كان إنشاء المستوطنات الإسرائيلية في القدس أحد أهم نتائجها:-

#### ١- مشروع ألون ١٩٦٧\*

جاء هذا المشروع بعد حرب حزيران ١٩٦٧ بحوالي شهر، ويرغم أن يقال ألون اعتمد في مشروعه على أفكار بن جوريون، إلا أن مشروعه كان أكثر تفصيلاً ووضوحاً، وقد اشتهر هذا المشروع لاحقاً بأنه أول المشاريع الإسرائيلية التي وضعت لحل معضلة الأراضي المحتلة ودعا ألون في مشروعه لضم بعض المناطق للدونة كجزء لا يتجزأ من سيادتها، وفيما يتعلق بالقدس؛ حث على العمل على إقامة ضواحي بلدية مأهولة بالمستوطنين اليهود في شرق القدس، علاوة على إعادة تعمير وإسكان سريعين للحي اليهودي بالبلدة القديمة من القدس، الأمر الذي ترجم عملياً على مدى السنين الماضية، لدرجة أن المدينة المقدسة أصبحت محاطة تقريباً بالمستوطنات اليهودية<sup>(٤٣)</sup>.

#### ٢- وثيقة غاليلي ١٩٧٣\*

طرحت هذه الوثيقة، التي تضمنت أفكار زعماء حزب العمل، على مركز الحزب في ١٦ أغسطس ١٩٧٣، وغدت أساس برنامج الحزب في انتخابات الكنيست التي جرت في كانون أول، ديسمبر ١٩٧٣، ودعت الوثيقة فيما يتعلق بالقدس إلى مواصلة الإسكان

والتنمية الصناعية في القدس وضواحيها بهدف تثبيت الأقدام فيها، وإلى استغلال الأراضي التي وصفها بأنها "أراضي دولة"، في نطاق المنطقة الواقعة شرقي القدس، كما دعت الوثيقة إلى تطبيق قرار الحكومة الصادر في ١٣/٩/١٩٧٠ بشأن التوطين في منطقة النبي صموئيل<sup>(٤٤)</sup>.

### ٣- مشروع يعقوبي ١٩٨٨\*

طرح هذا المشروع في منتصف كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٨، ويرغم أن جاد يعقوبي يحسب من معسكر اليسار، ويصنف على أنه من المعتدلين، إلا أن طرحه لا يختلف عن طرح الليكود وهذا دليل آخر على أن القيادة الإسرائيلية، مهما اختلفت انتمائاتهم الحزبية إلا أنهم يلتقون في مسار واحد وهو: عدم الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني. وجاء طرح يعقوبي لجملة نقاط دعى إسرائيل لعدم التفريط فيها والتمسك بها في أية مفاوضات مستقبلية، وذكر القدس بأنها لن تكون موضوعاً للحوار مع الفلسطينيين وسيتم بحث أية ترتيبات ممكنة تستهدف مراعاة الحساسية الدينية للعرب في القدس، ولكن في تاريخ متأخر، عندما يكون دافع التعايش السلمي بين الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي قد تطور<sup>(٤٥)</sup>، تماماً حينما اتفقت خطة كل من إسحق شامير وإسحاق رابين، مايو ١٩٨٩، والمسماة بـ "مبادرة السلام الإسرائيلية" حول القدس، إذ جاء بها "القدس كعاصمة لإسرائيل ليست أمراً مطروحاً للنقاش"<sup>(٤٦)</sup>.

### ٤- مشروع شارون ١٩٨٩\*

قدم هذا المشروع رسمياً في ٢٩ مارس ١٩٨٩، رداً على الانتفاضة، بمحاولة إيجاد حلول - هي في الواقع أوهام - للمشاكل القائمة بين الجانبين، ومن هنا كان طرحهم لموضوع الحكم الذاتي للفلسطينيين طرحاً غير جاد، ففي هذا الإطار ذكر شارون أن "الحكم الذاتي هنا لا يخص الأرض وإنما السكان... والقدس ستبقى موحدة دون أي مكان للآخرين فيها"، ودعا هذا المشروع إلى تعزيز وتوسيع الانتشار الاستيطاني في منطقة القدس الشرقية، وغزو البلدة القديمة من القدس بكثافة استيطانية، وذلك بعد إغلاق ومصادرة معظم المؤسسات الوطنية الفلسطينية في القدس وغيرها وإبعاد رؤساء الانتفاضة المعروفين في منطقة القدس الشرقية<sup>(٤٧)</sup>. واختتمت كل هذه المشاريع بإجماع الحكومة الإسرائيلية ممثلة في حزبيها الكبيرين الليكود والتجمع، على التصريح بأن "القدس الكاملة عاصمة إسرائيل الأبدية مدينة موحدة، بسيادة إسرائيلية غير قابلة للتقسيم،" هذا ما جاء في البند السادس من وثيقة الخطوط الأساسية للحكومة الائتلافية الموسعة<sup>(٤٨)</sup>.

ولعل ما سبق يوضح مدى الإجماع الإسرائيلي، بكل أطرافه، على تنفيذ مخططاته وإن وجدت خلافات في وجهات النظر المتعلقة بالمسائل الرئيسية في القضية الفلسطينية؛ فيمكن السيطرة عليها وتوجيهها في الإطار الذي يخدم مسار المصلحة الإسرائيلية، ويجهض في نفس الوقت المحاولات الفلسطينية الرامية للوصول إلى حقوقها، وليس أدل



على ذلك مما ذكره كل من شامير أمام مؤتمر "التضامن اليهودي مع إسرائيل" والذي عقد في القدس في ٢٠ مارس ١٩٨٩، من أن "القدس ستبقى موحدة وتحت السيادة الإسرائيلية في أي تسوية يتم التوصل إليها"، وشمعون بيرس رئيس حزب العمل والقائم بأعمال رئيس الوزراء، من أن "مدينة القدس ستبقى موحدة والمستوطنات القائمة لن تحل، وسيتم ضمان حرية الحركة وحرية العبادة في الأماكن المقدسة"<sup>(٤٩)</sup>.

وهكذا، فإن تصريحات القيادة الإسرائيلية فيما يتعلق بقضية القدس بأنها عاصمة إسرائيل الأبدية، الموحدة الخاضعة للسيادة الإسرائيلية وغير القابلة للتقسيم، تكون قد تلاقت مع إجراءات السلطة الإسرائيلية التي دعمت دوماً تلك التصريحات، منذ الإعلان عن ضم القدس الشرقية العربية رسمياً، وتوحيد القدس الشرقية والغربية، لتصير مدينة القدس الموحدة عاصمة إسرائيل الأبدية. وحتى عام ١٩٨٩ عندما انفجرت الانتفاضة الفلسطينية، كانت تصريحات القيادة الإسرائيلية أكثر حسماً وصرامة في موضوع القدس.

### القدس ما بين التفعيل والتصعيد:

كانت هناك دوماً محاولات يائسة لتفعيل القرارات الدولية الخاصة بالقدس، في ظل تصعيد مستمر للاستيطان اليهودي بها، ذلك أنه من العبث التصور بأن عملية تصعيد الاستيطان اليهودي، في القدس، كان وليد لحظة ما كعام ١٩٨٠ - تاريخ إعلان ضم القدس الشرقية - ، أو حتى عام ١٩٦٧ - تاريخ احتلالها - وإنما جاء في إطار مشروعها العنصري "القدس الكبرى"، الذي دخل حيز التنفيذ منذ اليوم الأول لاحتلال إسرائيل للقدس الشرقية، والذي خطط له أن يحقق خلال خمسين عاماً تهويداً كاملاً للمدينة يشمل تغيير الطابع الديمغرافي "السكاني" للمدينة، لتصبح ذات أغلبية يهودية مطلقة، وتتمشى هذه السياسة، جنباً إلى جنب، مع التخلص من كل ما يؤكد على الحق التاريخي لغير اليهود وذلك باجتثاث المعالم الدينية والتاريخية الإسلامية والمسيحية على حد سواء.

وفي إطار ذلك رفضت إسرائيل الالتزام بوثيقة جنيف التي قدمت، وبشكل أفضل، مشروع تسوية دائمة لقضية القدس<sup>(٥٠)</sup>، أو حتى الاعتراف بالقرارات الدولية والتي بلغت ١٩ قراراً، اعتبرت جميعها القدس أرضاً محتلة. ودعم ذلك بقرار صدر عن الكنيست، أواخر عام ٢٠٠٧، بعدم التنازل عن شرقي القدس في أي حل تتوصل له حكوماتهم، إلا إذا حصل على غالبية ثلثي الأعضاء، أي ٨٠ من أصل ١٢٠ عضواً، ما يبدو أنه غير ممكن في ظل وجود حكومة أكثر يمينية وتطرفاً مما في السابق<sup>(٥١)</sup>. ونفس النهج كان مع قرارات مجلس الأمن رقم ١٨١، ٢٤٢، وقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ٣٠٣، والصادر في ٩ ديسمبر ١٩٤٩، والذي منح القدس، مدينة الديانات السماوية الثلاث، وضعاً دولياً خاصاً، مع التأكيد على حماية الأماكن المقدسة فيها، وعلى احترام الخصوصيات الدينية والثقافية والاجتماعية لجميع سكانها، لكن إسرائيل لم تكف بعدم احترامها للقرار عندما

تمادت لأبعد من ذلك حتى باتت الصلاة في المسجد الأقصى محرمة حتى على أبناء القدس الذين تقل أعمارهم عن الـ ٥٠ عاماً، ولم يكن أبناء الطائفة المسيحية بأحسن حال من المسلمين، ذلك أن الأحكام العرفية المفروضة على المدينة منذ عام ١٩٦٧ لم تنتههم<sup>(٥٢)</sup>.

وبعد ضمها القدس في ١٩٦٧، وتوسيع نطاق سياستها الاستيطانية، أصدرت الأمم المتحدة العديد من القرارات التي أدانت إسرائيل في هذا الشأن، واتسمت هذه القرارات بأنها كانت مؤيدة على نطاق واسع، حتى تلك الدول التي عرفت بتأييدها لإسرائيل؛ لم تجد بداً من المشاركة في استنكار سياسة إسرائيل بخصوص القدس. فبعد أقل من شهر واحد على وقف إطلاق النار، في يونيو ١٩٦٧، وافقت الجمعية العمومية في ٤ يوليو ١٩٦٧ بأغلبية ٩٩ صوتاً، وامتناع عشرين دولة عن التصويت، على مشروع قرار باكستاني (رقم ٢٢٥٣) نص على أن "الجمعية العامة تعتبر الإجراءات التي اتخذتها إسرائيل لتغيير وضع القدس غير مشروعة". وفي ١٤ يوليو ١٩٦٧ كررت الجمعية العامة بالأغلبية مطالبتها لإسرائيل بإلغاء جميع الإجراءات التي اتخذتها إزاء القدس، والامتناع عن القيام بأي عمل يكون من شأنه تغيير وضع القدس مذكراً بقرارها رقم ٢٢٥٣ في ٤ يوليو ١٩٦٧<sup>(٥٣)</sup>.

ومن جانبه اتخذ مجلس الأمن عدة قرارات، ففي ٢٧ أبريل ١٩٦٨ أصدر قراراً طالب فيه إسرائيل بالامتناع عن القيام بعرض عسكري في القدس. وفي ٢١ مايو ١٩٦٨ أعرب في قرار له، عن أسفه لعدم تقييد إسرائيل بالقرارات التي أصدرها المجلس بشأن القدس<sup>(٥٤)</sup>. وفي دورتها عام ١٩٧٥ أصدرت الجمعية العامة أربعة قرارات هامة، جاء الرابع فيها بخصوص القدس، فنص على اعتبار كافة الإجراءات التي اتخذتها السلطات الإسرائيلية لتغيير الأوضاع السياسية الأساسية، والشعائر الدينية لسكان القدس، وفي مسجد الحرم الإبراهيمي في مدينة الخليل لاغية وغير مشروعة، وطالب القرار إسرائيل بالكف فوراً عن الاستمرار في هذه الإجراءات، وصوت لصالح هذا القرار ٨٢ صوتاً ضد ٥ أصوات. والجدير بالذكر أن الجمعية العامة أقرت في هذه الدورة، ولأول مرة في تاريخ الصراع العربي - الإسرائيلي اعتبار الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية. ومن هنا اتسم رد الفعل الإسرائيلي لقرارات الدورة في مجملها بالعنف والاستخفاف. برغم أن القرار مؤيد بالأغلبية، بل وتجاوز الثلثين بكثير<sup>(٥٥)</sup>.

أما جلسة مجلس الأمن المنعقدة في مارس ١٩٧٦، فقد شهدت تحركاً ملموساً إزاء هذه الإشكالية حينما تقدمت الدول الخمس (بينين - داهومي، باكستان، غانا، بناما، تنزانيا) بمشروع قرار تضمن ثلاثة عناصر هي:

- ١ - الإعراب عن الأسف لأن إسرائيل لم توقف عملياتها لتغيير معالم مدينة القدس.
- ٢ - مطالبة إسرائيل بالامتناع عن اتخاذ أية إجراءات ضد سكان المناطق المحتلة.
- ٣ - دعوة إسرائيل لاحترام ومراعاة حرية الأماكن المقدسة الواقعة تحت الاحتلال، والتوقف عن التنقيب والحفريات في الأراضي العربية.

إلا أن الولايات المتحدة الأمريكية، باستخدامها الفيتو، أوقفت صدور القرار برغم أن مندوبيها أدان في خطابه سياسة إسرائيل الاستيطانية<sup>(٥٦)</sup>.

لم تستطع الأمم المتحدة، حيال ذلك، فعل شيء، فلم تسمح لها إسرائيل بممارسة أية سلطة إدارية على القدس. كما أنها اعتبرت أن إسرائيل ألحقت القدس بها باللجوء للقوة العسكرية والاحتلال بالرغم من قراري مجلس الأمن ١٨١، ٢٤٢، وقرار الجمعية العامة ٣٠٣ الذي نص على أن أي إجراء تتخذه حكومة ما لا يمكن أن يمنع الهيئة المشرفة\* من الحفاظ على وضعية مدينة القدس كما تبنتها. فقد باتت هذه الهيئة معطلة منذ عام ١٩٩٤، وسريان اتفاقية أوسلو<sup>(٥٧)</sup> التي تم التوقيع عليها في عام ١٩٩٣، والتي أعطت للقدس وضعاً دولياً خاصاً<sup>(٥٨)</sup>، إذ وصل عدد المستوطنين آنذاك في القدس لـ ١٥٣ ألفاً، وفي وع ذلك اعتبرت دائرة العلاقات القومية والدولية في منظمة التحرير، أن الحملة الإسرائيلية المتصاعدة في القدس تشكل "اضطهاداً دينياً يمارسه الاحتلال بحق المسلمين والمسيحيين، وانتهاكاً فاضحاً لكافة الأعراف والقوانين الدولية التي كفلت الحرية الدينية" مطالبة المجتمع الدولي بتحمل مسئولياته الأخلاقية تجاه الشعب الفلسطيني وحماية المقدسات الإسلامية والمسيحية في القدس المحتلة من خطر التهويد المتواصل<sup>(٥٩)</sup> باعتبار إسرائيل البلد الوحيد الذي يجعل من الدين والأيدولوجية سبباً لطرد شعب من أرضه وإحلال كل من يقول بأنه من الدين اليهودي مكانه، ولا يوجد اتفاق موقع يقر بعودة الست ملايين فلسطيني، الذين شردوا في أنحاء المعمورة، إلى وطنهم. أما قرار الأمم المتحدة بعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى قراهم وبلداتهم، وتعويضهم عما خسروه<sup>(٦٠)</sup> فشأنه شأن غيره من القرارات التي لم تخرج إلى حيز التنفيذ.

وسبق لمركز القدس الفلسطيني للحقوق الاجتماعية والاقتصادية؛ أن حذر من تصعيد نوعي في الاستيطان اليهودي بالقدس المحتلة، يستهدف تهويد البلدة القديمة بالكامل وتشديد قبضة الاحتلال على المدينة المقدسة<sup>(٦١)</sup>. كما ذكرت تقارير حقوقية فلسطينية أن التصعيد الإسرائيلي في القدس المحتلة، والذي كان هدم منازل المقدسيين أحد أشكاله، هو الأخطر منذ احتلال المدينة عام ١٩٦٧، وحذرت التقارير من مشاريع استيطانية هي الأكبر منذ عام ١٩٤٨ وصودق عليها وتهدف إلى زيادة عدد اليهود في المدينة، وتركزت عمليات الهدم داخل أسوار البلدة القديمة والأحياء المتاخمة لها في الضواحي والبلديات الواقعة على الحدود البلدية المصطنعة للقدس. وخاصة في العيزرية وجبع وفحماس، ومناطق انتشار العشائر البدوية شرق القدس وعلى امتداد مناطق الخان الأحمر. وبينما يجري التضييق على الفلسطينيين بوضع قيود صارمة على تراخيص البناء، ترعى البلدية ووزارة البناء والإسكان الإسرائيليتين، مشاريع البناء الاستيطاني الضخم في البلدة القديمة وسلوان وجبل الزيتون، والشيخ جراح ورأس العمود وفي المستوطنات القائمة على أراض فلسطينية<sup>(٦٢)</sup>.

وكانت المحكمة العليا الإسرائيلية قد قررت، في وقت سابق، عدم إمكانية منح تراخيص بناء، أو فتح أي ملف تنظيم هيكل، لأي من الأبنية التي شيدها المقدسيون في البلدة القديمة، مستندة إلى مخطط هيكل أقرته الحكومة الإسرائيلية بعد عام ١٩٦٧، ومنعت بموجبه إضافة أي بناء للأبنية الموجودة داخل البلدة القديمة في القدس، بحجة عدم المساس بالطابع التاريخي والديني للمدينة المقدسة. وفي المقابل فإنه قد تم استثناء الحي اليهودي في البلدة القديمة، الذي وضعت له مخططات هيكلية مختلفة، تسمح له بإقامة مئات الوحدات الاستيطانية الجديدة<sup>(١٢)</sup>.

ولا يخفى الهدف الكامن خلف كل هذه الإجراءات وهو: تفريغ القدس من سكانها العرب، وعزلها نهائياً عن الضفة الغربية، على اعتبار أنها موضوع غير قابل للتفاوض بشأنه، ذلك أن تهويد المدينة سيقود للوصول للهدف الأسمى وهو: هدم المسجد الأقصى<sup>(١٤)</sup>، وتتماشى عملية الهدف، بشكل ممنهج ومنظم مع عمليات الاستيلاء على منازل المقدسيين والحفريات عند أساسيات المسجد الأقصى، والأنفاق التي باتت تهدد مبناه، بالإضافة للتأثير على الوجود الحضاري الإسلامي وأسرته<sup>(١٥)</sup>. وفي النهاية لم تسفر كل هذه الحفريات تحت الأقصى الشريف عن أثر يهودي واحد، حسب ما ذكره عالما آثار صهيونيان مرموقان، شككا في صحة نصوص تضمنتها التوراة بشأن مكانة القدس لدى اليهود، واستبعدا بناء الهيكل في عهد سليمان<sup>(١٦)</sup>.

والسؤال الذي يفرض نفسه في هذا المقام: لماذا كل هذا التحدي الإسرائيلي لقرارات المجتمع الدولي الممثل في أمم المتحدة، لعدم جدية هذه القرارات، ما دفع إسرائيل للتمادي في هذا المجال، طالما أن رفضها التام والمستمر لا يعرضها لأي نوع من أنواع العقوبات من قبل هذا المجتمع، أم لأن التعاطي العربي لهذه القضية اتسم بالتراخي ومحدودية النضال، بعد أن وضعوا ردود أفعالهم في قوالب جامدة تمثلت في: الملتقيات والقمم التي خرجت بمواقف موحدة إزاء الانتهاكات الإسرائيلية المتتالية، ولكنها افتقدت الفاعلية مقابل عمل جاد وحاسم لقوات الاحتلال الإسرائيلي، لتحقيق هدف بعينه وهو: فرض الأمر الواقع على الجميع من خلال تكريس احتلالها لمدينة القدس!؟

### الموقف الدولي:

تباين الموقف الدولي إزاء موضوع الاستيطان ما بين مؤيد ومعارض، فقد عارضته دول أوروبا، وعبرت في أكثر من مناسبة بأنه غير شرعي وعقبة أمام السلام، لكنها لم تستطع اتخاذ مواقف ملزمة، بسبب الضغوط الأمريكية التي اتسمت بمعارضة شكلية للاستيطان، دون أن ترقى لممارسة فاعلة تجبر إسرائيل على التوقف. ففي ٢٦ مارس ١٩٧٦، وقفت أمريكا ضد مشروع قرار يدين العمليات الإسرائيلية في القدس، بالرغم من أن خطاب مندوبيها "وليم سكرانتون" قد تضمن إدانة لسياسة إسرائيل الاستيطانية في الأراضي المحتلة، واعتبرها خرقاً وانتهاكاً لقواعد القانون الدولي، وعقبة في طريق

المباحثات نحو السلام. ومع ذلك فإن الولايات المتحدة مارست حق النقض، يوم ٢٦ مارس ١٩٧٦، وأوقفت صدور هذا القرار<sup>(٦٧)</sup>.

ومنذ ١٩٩٠ أخذ الكونجرس الأمريكي بجاري الكنيست، عندما تبني قرار مجلس الشيوخ رقم ١٠٦، الذي أعلن فيه أن الكونجرس يؤمن بشدة بأن القدس ينبغي أن تبقى مقسمة وأن تحترم بها حقوق كل الجماعات العرقية والدينية، واتبع الكونجرس هذا بإصدار قرارات عديدة، كان أخطرها قانون الكونجرس بشأن القدس، الصادر في ٢٤ أكتوبر ١٩٩٥ والذي احتوى على مغالطات عدة أبرزها: أن القدس كانت عاصمة الشعب اليهودي لأكثر من ٣ آلاف عام، وأنها كانت مركزية لليهودية، وقد ذكرت في التوراة ٧٦٦ مرة، والزعم بأنها لم تذكر بالاسم في القرآن، وأن القدس هي مقر الحكومة الإسرائيلية، بما فيها الرئيس والبرلمان والمحكمة العليا<sup>(٦٨)</sup>.

أما بريطانيا فإنها تنظر للقدس على أنها عاصمة لدولتين، ولديها في القدس الشرقية قنصلية عامة، وقنصل عام ليس معتمداً لدى أية دولة، وهذا تعبير عن وجهة النظر البريطانية بأنه ليس لأي دولة سيادة على القدس، أما بشأن المستوطنات فقد عدتها بريطانيا غير قانونية، بموجب القانون الدولي، وهذا يشمل المستوطنات في كل من القدس الشرقية وفي الضفة الغربية، وأن التوسع فيها عقبة أمام عملية السلام، وفيه انتهاك للالتزامات الإسرائيلية بموجب مؤتمر أنا بوليس وخارطة الطريق<sup>(٦٩)</sup>. كما عارضت المملكة المتحدة والاتحاد الأوروبي هدم البيوت وطرد السكان من القدس الشرقية<sup>(٧٠)</sup>. وفيما يتعلق بفرنسا فقد أعربت مؤخراً على لسان وزير خارجيتها، عن أسفها لاستمرار السياسة الإسرائيلية الاستيطانية في القدس الشرقية المحتلة<sup>(٧١)</sup>.

وبرغم ذلك فإن إسرائيل مستمرة في مسلسل التحدي، ماضية في طريقها لتحقيق هدفها المنشود، فكما لم تلتزم لا باتفاقية أوسلو، ولا بوثيقة جنيف من أجل السلام في الشرق الأوسط<sup>(٧٢)</sup> بهدف وضع المجتمع الدولي أمام واقع معين، وهو ما أكدت عليه هآرتس في تقريرها الذي أشار إلى أن "المستوطنات اليهودية، داخل أحياء القدس القديمة تهدف إلى خلق وضع غير قابل للتغيير، سيمنع أي إمكانية تسوية لموضوع القدس في إطار حل الدولتين"<sup>(٧٣)</sup>.

ولا ننسى أن القدس تضم أكبر عدد من المستوطنات، ومن المساحة الكبرى من حيث الأراضي الاستيطانية، والبالغة ٤٥٦١٥ دونما، أي ما نسبته ٥٦.١٤ من مساحة المنطقة العمرانية للمستوطنات في الضفة الغربية<sup>(٧٤)</sup> وفي النهاية تظل إسرائيل الدولة العبرية الوحيدة بين الدول الأعضاء في الأمم المتحدة التي لا تملك حدوداً معلنة، بحيث تستمر في ضم الأراضي الفلسطينية، وهي الوحيدة التي اشترطت الأمم المتحدة لقبولها عودة اللاجئين الفلسطينيين، وقيام دولة عربية، ولم تحترم أي من الشرطين<sup>(٧٥)</sup>.

ولأنها القدس، ولأنها جزء من فلسطين التي هي جزء من الكيان العربي، ولأن أحد طرفي النزاع هو الأقوى، والأكثر تنظيماً وتنسيقاً مع القوى العظمى، باعتباره امتداداً

لجذور الاستعمار الغربي للمنطقة، مقابل طرف ليس ضعيفاً فحسب، وليس مقتداً للتنظيم فحسب، بل إن منافساته غير الشريفة، التي مورست بدعوى الدفاع عن هذه القضية، هي التي أضرت بالقضية وأدخلتها في هذا النفق المظلم، حتى غدا هولاء في معظم الأحيان لا يعلمون ماذا يريدون، أو ماذا يفعلون. وهنا نتذكر قول المولى عز وجل: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾. صدق الله العظيم.



## الهوامش

- \* هو صهيوني ومؤسس صندوق استكشاف فلسطين.
- ١- د. عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٨، ص ١٣١-١٣٢.
  - ٢- فارس شرعان، دفاعاً عن القدس، طبعة أولى، ١٩٩٢، ص ٤٣.
  - ٣- جريدة النبا ٣/٣/٢٠١٠، عدد ٨٩، ندوة بعنوان ممتلكات الكنيسة الأرثوذكسية في القدس.
  - ٤- غازي فلاح، أسئلة الجغرافية العربية الفلسطينية، شئون فلسطينية، عدد ٢٠٩، ١٩٩٠، ص ١٥.
  - ٥- عبد الوهاب كيالي، المطامع الصهيونية التوسعية، مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، ١٩٦٦، ص ١٥ - ١٨.
  - ٦- أسعد عبد الرحمن، المنظمة الصهيونية العالمية، رسالة ماجستير منشورة، مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، ١٩٦٧، ص ١٧.
  - ٧- وليم فهمي، الهجرة اليهودية إلى فلسطين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤، ص ٢٠.
  - ٨- أحمد بهاء الدين، إسرائيليات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص ١٤.
  - ٩- ياسر أبو شبانة، النظام الدولي الجديد بين الواقع الحالي والتصور الإسلامي، دار السلام، ط أولى، ص ٩٢. <http://Archivebeta.Sakhril.com>
  - ١٠- د. صلاح العقاد، قضية فلسطين المرحلة الحرجة ١٩٤٥-١٩٥٦، معهد الدراسات العربية، ١٩٦٨، ص ١٥.
  - ١١- ميثاق الأمم المتحدة، المادة الأولى، الفقرة الثانية (إنماء العلاقات الودية بين الأمم على أساس احترام المبدأ الذي يقضي بالتسوية في الحقوق بين الشعوب بأن يكون لكل منها تقرير مصيرها).
  - ١٢- عبد الرحمن الصالحي، مسألة تدويل القدس، شئون فلسطين، عدد ٢٠٢، يناير ١٩٩٠، ص ٤٩.
  - ١٣- فارس شرعان، دفاعاً عن القدس، عمان، ط أولى، ١٩٩٢، ص ٤٣.
  - ١٤- كارين أرمسترونج، القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث، ترجمة د. فاطمة نصر، د. محمد عناني، ١٩٩٨، ص ٦٣٩-٦٤٢.
  - ١٥- كارين أرمسترونج، المرجع السابق، ص ٦٤٣.
  - ١٦- نفس المصدر، ص ٦٤٣.

- ١٧- حسن شرين، فلسطين من الحروب التوسعية لتحقيق إسرائيل الكبرى حتى انتفاضة الأقصى وتوابعها ١٩٤٨-٢٠٠٢، ج٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٣، ص ١٠٢٥.
- ١٨- غازي فلاح، أسئلة الجغرافية العربية الفلسطينية، شؤون فلسطين، عدد ٢٠٩، ١٩٩٠، ص ١٥٥.
- ١٩- Domini QUE Vidal, l'etter de Jerusalem, lemond diplomatique, decembre, ٢٠٠٦.

- ٢٠- ياسر أبو شبانة، المرجع السابق، ص ٥٢.
- ٢١- كارين أرمسترونج، مرجع سابق، ص ٦٤٥.
- ٢٢- أنور محمود زناني، محاولات التهويد والتصدي لها من واقع النصوص والوثائق والأحصاءات، مركز دراسات الوحدة العربية، فارس شرعان، المرجع السابق، ص ١٢١.

- ٢٣- د. أحمد يوسف القرعي، توسيع بلدية القدس الكبرى في مخطط تهويدها، الأهرام ٢٣/١٠/٢٠٠٣، كارين أرمسترونج، المرجع السابق، ص ٦٤٥، ٦٤٦.

\* محاولاً بذلك طمس الهوية العربية للقدس في تحد سافر لتاريخ عروبة القدس، برغم أن اليبوسيس (وهم بطن من بطون العرب الأوائل الذين نشأوا في الجزيرة العربية) هم أول من أسس مدينة القدس عام ٣٠٠٠ ق.م وأول من سكنوا أراضيها واستوطنوها وأقاموا أبنيتها وشيدوا معالمها وجعلوها حاضرة ملك لهم، وأكثر من هذا فالمدينة منذ نشأتها وحتى اليوم عربية اللسان حتى سادت في البلدان اللغة الكنعانية ثم الآرامية وكنتاها مشتقة من اللغة العربية القديمة، وظلنا ساندتين حتى حلت اللغة العربية الحديثة بدخول العرب المسلمين إلى البلاد، ولعل أسماء القدس على مر الحقب التاريخية تؤكد عروبتها ومن هذه الأسماء: ييوس، نسبة لليبوسيين، كما أسماها الكنعانيون أورسالييم أو مدينة السلام، والتسمية العبرية التي عرفت فيما بعد أورشلليم مشتقة منها، وأسامها اليونانيون بروساليم، وكانت في أوائل الفتح الروماني تدعى هيروسلما ثم صارت هيروسالما ومن هنا أخذت الاسم الأوروبي جيروساليم، ومن عام ١٣٩ ميلادية وطيلة العهد المسيحي سميت المدينة (إيلياء) ومعناها بيت الله، أما القدس فكانت معروفة منذ أوائل الفتح الإسلامي أي منذ ق الرابع وحتى اليوم، أنظر أحمد يوسف القرعي، عروبة القدس، مناظرة تاريخية مع شارون، الأهرام ٢٤/٥/٢٠٠٥، و د. حسن ظاظا، القدس مدينة الله.. أم مدينة داود، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٧٠، ص ٧-٣٥.

- ٢٤- وكالة القدس [www.quds.net.com](http://www.quds.net.com)، عبد الرحمن الصالحي، المرجع السابق، محمود زناني، المرجع السابق.

٢٥- كارين أرمسترونج، المرجع السابق، ص ٦٤٨، د. أحمد يوسف القرعي، المقال السابق.



- ٢٦- ميرون بنفينستي، الضفة الغربية وقطاع غزة بيانات وحقائق أساسية، ترجمة ياسين جابر، دار الشروق، عمان، الأردن، ط أولى، ١٩٨٧، ص ١٨٨، ٣٠.
- ٢٧- نفس المصدر، ص ٣١.
- ٢٨- د. حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٣١.
- ٢٩- كارين أرمسترونج، المرجع السابق، ص ٦٦٠.
- ٣٠- التوزيع الديمغرافي في القدس، المركز الفلسطيني للإعلام [www.palestine.info](http://www.palestine.info)
- ٣١- محمد محفوظ جابر، الاستيطان الصهيوني في القدس ومستقبل المستوطنات فيها، دار فضاءات للنشر، الأردن.
- ٣٢- نفس المصدر، انظر أيضاً **Israeli settlements, Palestine monitor Factsheet-Updated, ١٧ Dcember ٢٠٠٨, p١-٤.**
- ٣٣- نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٩٧٢/٢/١٦.
- ٣٤- يديعوت أحرنوت ١٩٧٥/٥/٢٢ نقلًا عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت.
- ٣٥- دافار ١٩٧٥/٦/٣، ترجمة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت.
- ٣٦- التوزيع الديمغرافي في القدس، مصدر سابق.
- ٣٧- د/ أحمد يوسف القرعي، المقال السابق، د/ أسعد عبد الرحمن، استراتيجية ابتلاع القدس.. هل من مغيث؟، صحيفة الاتحاد الإماراتية ٢٨/٤/٢٠٠٦، **Palestine-Israel Journal, August, ٢٠٠٩, p٤.**
- \* شيدت الحكومة الإسرائيلية هذا المنتزه الضخم في منطقة اللطرون إلى الجنوب من القدس على أنقاض القرى الفلسطينية المدمرة في ١٩٧٥ على مساحة ٥٠٠٠ دونم، انظر: المستوطنات الإسرائيلية في القدس، اللجنة الملكية لشئون القدس [www.rcjar.org.jo](http://www.rcjar.org.jo)
- ٣٨- الاستيطان في القدس، مجلة المعرفة [www.aljazeera.net](http://www.aljazeera.net)، انظر أيضاً محمد محفوظ جابر، الاستيطان الصهيوني في القدس ومستقبل المستوطنات فيها، دار فضاءات، الأردن، رائف نجم "رئيس جمعية حماية القدس" الكشف عن مخططات اليهود، برنامج بلا حدود (تهويد القدس) ٢٠٠٩/٩/٢.
- \* ستلعب هذه المستوطنة دوراً هاماً في خطة رئيس الوزراء الإسرائيلي أرينيل شارون عام ٢٠٠٥ وهي الخطة التي أطلق عليها اسم "إي - ١" لخلق تواصل جغرافي بين مستوطنة "معاليه أدوميم" والقدس الشرقية تمهيداً لترسيم حدود ثابتة في المستقبل انظر: يديعوت أحرنوت ٢٠٠٥/٣/٢١.
- ٣٩- اللجنة المركزية لشئون القدس، المستوطنات الإسرائيلية في القدس [www.rcja.org.jo](http://www.rcja.org.jo)، انظر أيضاً: رائف نجم، المصدر السابق.
- ٤٠- المركز الفلسطيني للإعلام [www.palastine.info](http://www.palastine.info)، أحمد يوسف القرعي، توسيع بلدية القدس الكبرى في مخطط تهويدها: الأهرام ٢٣/١٠/٢٠٠٣.

- ٤١- رائف نجم، المصدر السابق.
- ٤٢- المركز الفلسطيني للإعلام، مصدر سابق، أحمد يوسف القرعي، المقال السابق.
- \* نسبة إلى يغنال ألون أحد أبرز شخصيات حزب العمل زعيم كتلة "أحدوت هعنودا" في الحزب وأحد قادة البالماخ البارزين سابقاً.
- ٤٣- أسعد عبد الرحمن، نواف الزور: الفكر السياسي الإسرائيلي قبل الانتفاضة.. بعد الانتفاضة، دار الشروق، ط أولى، ١٩٩٠، ص ١٠، منير الهور، طارق موسى: مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية ١٩٤٧-١٩٨٥، دار الجليل، عمان، ص ٨٢، تریز حداد، القرارات والمبادرات الخاصة بالقضية الفلسطينية ١٩٤٧-١٩٨٨، عمان، ص ٧٦.
- \* عرفت تلك المبادئ باسم "وثيقة غاليلى" نسبة إلى "يسرائيل غاليلى" منظر حزب العمل المعروف، انظر نص وثيقة غاليلى بمجلة شؤون عربية حزيران، يونيو ١٩٨٣، تونس، الجامعة العربية، ص ٣٤٣، سعيد التيم، الحكم الذاتي فكرة تجاوزتها الأحداث، صحيفة الرأي الأردنية ١٩٨٩/١/١.
- ٤٤- د. أسعد عبد الرحمن، المرجع السابق، ص ١٦.
- \* نسبة إلى جاد يعقوبي وزير الاتصالات الإسرائيلي وأحد زعماء حزب العمل الداعين إلى تسوية جديدة للقضية الفلسطينية انظر د. أسعد عبد الرحمن، المرجع السابق، ص ٣٦.
- ٤٥- صحيفة الجيروزليم بوست الإسرائيلية ١٩٨٩/١/١٥.
- ٤٦- صحيفة معاريف ١٩٨٩/٤/١١.
- \* نسبة إلى أرئيل شارون وزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق.
- ٤٧- يديعوت أحرنوت ١٩٨٩/٩/٣٠ <http://Archivebeta.Sak>
- ٤٨- وثيقة الاتفاق للحكومة الإسرائيلية انظر هآرتس ١٩٨٩/١٢/٢١.
- ٤٩- صحيفة دافار ١٩٨٩/٣/٢٤.
- ٥٠- Vers L'israélisation de la veille de Jerusalem, The international Soliday movement ٢٦/٨/٢٠٠٥, Palestine monitor Factsheet, op-cit, p.٧
- ٥١- تقرير عن تهويد القدس وإغلاق مؤسسة الأقصى، اللجنة العربية لحقوق الإنسان ٢٠٠٩/٤/١٧.
- ٥٢- التقرير السابق.
- ٥٣- المستوطنات الإسرائيلية في الأراضي المحتلة منذ عام ١٩٦٧، عرض وتحليل خيرية قاسمية، د. علي الدين هلال، إبراهيم كروان، معهد البحوث والدراسات العربية، ص ٥١.
- ٥٤- نفس المصدر، ص ٥١.

- ٥٥- نفس المصدر، ص ٤٩-٥٠.
- ٥٦- نفس المصدر، ص ٥٠.
- ٥٧- "تتكون الهيئة المشرفة من الدول الخمس الأعضاء في مجلس الأمن وقد أنيط بها تطبيق القرار رقم ٣٠٣.
- ٥٧- اللجنة العربية لحقوق الإنسان، تقرير: تهويد القدس وإغلاق مؤسسة الأقصى ٢٠٠٩/٤/١٧.
- ٥٨- Vers L'Israélisation de la Veille de Jerusalem, the international soliday movement ٢٦/٨/٢٠٠٥.
- ٥٩- تقارير حقوقية، تصعيد استيطاني لرفع عدد المستوطنين في الضفة والقدس إلى مليون؛ جريدة الشرق الأوسط عدد ١١١٠١، ٢٠٠٩/٤/٢٠.
- ٦٠- اللجنة العربية لحقوق الإنسان، التقرير السابق.
- ٦١- مؤسسة القدس الدولية، المؤتمر السنوي السابع، ٢٠١٠.
- ٦٢- جريدة الشرق الأوسط، العدد السابق.
- ٦٣- نفس المصدر.
- ٦٤- عوني صادق، جرائم الحرب ومخططات تهويد القدس، صحيفة الخليج الإماراتية ٢٠٠٥/٦/٩.
- ٦٥- Dominique vidal, letter de Jerusalem lemond diplomatique, decembre ٢٠٠٦. <http://Archivebeta.Sakhril.com>
- ٦٦- انظر معارف ١٩٩٨/٦/٧ نقلًا عن هيثم الصادق، مشروع صهيوني ديمغرافي جديد لتهويد المدينة، صحيفة الوطن القطرية، ٢٠٠٥/٦/٦.
- ٦٧- خيرية قاسمية، المرجع السابق، ص ٥٠، -Israel settlements and the two-state solution, Palestine-Israel, journal, August ٢٠٠٩, p. ١-٤.
- ٦٨- أحمد يوسف القرعي، تهويد القدس بين الكنيست والكونجرس الأمريكي (٢)، الأهرام ٢٠٠٥/٥/١٩.
- ٦٩- وزارة الخارجية البريطانية [www.fco.gov.uk](http://www.fco.gov.uk)
- ٧٠- نفس المصدر.
- ٧١- ٢٠٠٩, p.٢ - Palestine-Israel journal, August ٢٠٠٩, كوشيزيوكد معارضة بلاده لبناء مستوطنات في القدس الشرقية، مجلة الرياض [www.alriyadh.com](http://www.alriyadh.com).
- ٧٢- Versl' Israël isation de la ville de Jérusalem, the international soliday movement ٢٦/٨/٢٠٠٥.
- ٧٣- هآرتس نقلًا عن [www.qudsday.com](http://www.qudsday.com).

٧٤- علي بدوان، الخارطة الاستيطانية في القدس والضفة الغربية، صحيفة البيان الإماراتية  
٢٠٠٥/٩/١٨.

٧٥- اللجنة العربية لحقوق الإنسان، تقرير تهويد القدس وإغلاق مؤسسة الأقصى،  
٢٠٠٩/٤/١٧، ص٦.





## تطور قضية واحة جغبوب

١٩٠٤ - ١٩٥١ م

د. نادية ماجد عبد الرحمن بري (\*)

لفت نظري بقوة موضوع قضية واحة جغبوب منذ فترة بعيدة، إذ إنها قضية شارك في صنعها في النصف الأول من القرن علي أقل تقدير، أطراف دولية مثل بريطانيا وإيطاليا، وأطراف أخرى محلية مثل الحكومة المصرية في عهد أحمد زيزر باشا. كما أن هذه القضية انشغل بها الرأي العام المصري للغاية، حين كانت مطروحة علي بساط النقاش بين هذه الأطراف الدولية والإقليمية. ويعود سبب اهتمام المصريين بمسألة واحة جغبوب - علي الرغم من صغر مساحتها نسبياً - الي طبيعة تكوين الشخصية المصرية خلال تراكم آلاف السنين، والتي لا تقبل التفريط في شبر واحد من أرض بلادها. من ناحية أخرى؛ تعد قضية واحة جغبوب، في الأساس، نتاج الحقبة الاستعمارية الكريهة الماضية، وحسابات المصالح بين إنجلترا وإيطاليا وليس مصالح مصر أو ليبيا. لكل هذه الأسباب تعد قضية واحة جغبوب واحدة من القضايا المهمة الجديرة بالدراسة، في مجال التاريخ الحديث والمعاصر.

وتهدف هذه الدراسة الي الكشف عن جوانب هذه القضية وتتبع تطوراتها خلال فترة زمنية محددة، كما تهدف الي تحليل مصالح القوي الدولية التي صنعتها. أما عن الفترة الزمنية لموضوع هذه الدراسة، فقد فضلنا أن نبدأ بعام ١٩٠٤، الذي شهد أول محاولة لتحديد حدود مصر الغربية بين سلطات الاحتلال الإنجليزي والدولة العثمانية، ثم نتبعنا بالدراسة والتحليل تطور قضية واحة جغبوب، حتي توقفنا بها عند إستقلال ليبيا في عام ١٩٥١.

وقد استخدمنا في دراسة هذه القضية قواعد منهج البحث التاريخي، من حيث جمع وتحليل المادة العلمية، واستخلاص الحقائق التاريخية والنتائج الموضوعية التي يحتاجها دارس التاريخ الحديث والمعاصر، وكذلك القارئ العام. وعلي الرغم من أن عدداً من الكتابات التاريخية المعاصرة تحدثت من قريب، والبعض الآخر من بعيد، عن قضية واحة جغبوب، إلا أن المكتبة العربية تفتقر حتي الآن، لدراسة مستقلة ومباشرة حول تطور هذه القضية، ومن ثم تنفرد دراستنا هنا بالتركيز علي تتبع جوانب المسار التاريخي الذي

(\*) أستاذ مساعد بكلية التربية للبنات بجدة جامعة الملك عبد العزيز المملكة العربية السعودية.

سلكته واحة جغبوب، منذ ١٨٤٠ وحتى عام ١٩٥١، بين الأطراف الدولية والإقليمية. كما أننا أعقبنا تتبع هذا المسار بخاتمة لأهم النتائج التي توصلنا إليها.

ومن الجدير بالذكر أنه يوجد داخل مصر كثير من الواحات مثل (سيوة والفرافرة والخارجة والداخلة وغيرها) ولهذه الواحات قيمة إيكولوجية عالية تتمثل في: الحفاظ على التنوع البيولوجي والطبيعي بما تضمنه من نباتات وحيوانات نادرة. أما واحة جغبوب، موضوع دراستنا هنا، فهي تبعد عن واحة سيوة غرباً بنحو ٦٥ كيلو متراً، وتشارك معها في نفس المنخفض الجغرافي، كما تم إخراجها في منتصف عشرينيات القرن الماضي من خريطة مصر إلى خريطة الأراضي الليبية، وقت إستعمار إيطاليا لها، وبعد ما يمكن تسميته بصفحة سرية بين الاستعماريين الإنجليزي والإيطالي، ونفذتها الحكومة المصرية بعد محاولة إقناع الرأي العام المصري آنذاك، بأنها استبدلتها بقرية السلوم.

وتقع واحة جغبوب هذه بين خطي عرض ٢٩-٤٠ و ٢٩-٥٠ شمالاً، وبين خطي طول ٢٤، ٢٥ شرقاً، ضمن سلسلة من المنخفضات المنتشرة في منطقة واسعة تبلغ مساحتها الكلية حوالي ٣٥٠ ميلاً، وترية هذه المنخفضات طميية ملحة، ينمو في بعضها نباتات صحراوية، وفي بعض الأحيان تشغلها بحيرات ملحية ضحلة، ويوجد بسلسلة هذه المنخفضات عدد من العيون العذبة، والتي يعتمد على مياهها السكان المحليون في الشرب والزراعة المحدودة، وبعض هذه العيون حارة وبها نسبة عالية من أملاح المغنسيوم والجير.<sup>(١)</sup>

وتتكون سلسلة هذه المنخفضات من مجموعة متفرقة من الأحواض، تفصل بعضها عن بعض التلال الرملية، وتشرف عليها من الناحية الشمالية حافة تتكون من طبقات من الصخور الرسوبية الأفقية شديدة الانحدار، ويتخللها مجموعة من الأودية العميقة نسبياً، وتحدها من ناحية الجنوب الكثبان الرملية، وبعض بقايا التكوينات الصخرية التي تظهر على هيئة تلال منعزلة.<sup>(٢)</sup>

وتعد أرض واحة جغبوب، موضوع الدراسة، واحدة من أحواض هذه المنخفضات، وهي تقع على بعد حوالي ٢١٣ كيلو متراً جنوب غرب مدينة السلوم، وتبلغ المساحة الكلية لهذه الواحة نحو ٧ كيلو مترات مربعة، وفي قرية الجغبوب حدائق جميلة وخاصة من ناحية الشرق، وهناك بعض الحدائق الأخرى المتفرقة والواقعة بين منازل هذه البلدة، كما أن بها زاوية وجامع السيد السنوسي الكبير، مؤسس الطريقة السنوسية، ويتجه إليه بالزيارة كثير من الناس من أهل هذه الطريقة، وكل الدروب والمسالك، الموصلة إلى هذه الواحة، تحمل اسم مسرب الإخوان نسبة إلى السنوسيين، وهي مركز مهم لعدد من القبائل، ومياهها متوسطة وصالحة للشرب.

ومن الجدير بالذكر أنه: في زمن سلاطين المماليك؛ قام عدد منهم بتوطين بعض قبائل الصحراء الليبية على حدود مصر الغربية بهدف: الحد من غارات القبائل الأخرى القادمة من عمق الصحاري الليبية على التخوم المصرية، وحصر أعمال الشغب، وإحكام السيطرة على هذه الحدود الطويلة. وقد اتخذت عدد من السلطات المصرية المتعاقبة نفس

هذه الإجراءات، كلما شعرت بالتهديد القادم من عمق الصحراء علي تخوم مصر الغربية، كما اهتموا بمساواة المهاجرين الليبيين من القبائل المختلفة، الذين إستوطنوا الواحات الحدودية، بإبناء مصر من سكان هذه التخوم. ومن الثابت تاريخياً أنه عندما تعرضت مصر للحملة الفرنسية؛ كان لسكان منطقة درنة الليبية، وسكان واحة جغبوب بصفة خاصة، موقف مساند للمصريين في مواجهة هذه الحملة، إذ خرجت حملة ليبية شعبية من منطقة درنة واحة جغبوب، لكي تناصر ثورات المصريين ضد القوات الفرنسية.

لكن العلاقات البدوية المتذبذبة، على الحدود الغربية لمصر، ظلت من بين العوامل السياسية بل أهمها تأثيراً، وانعكاسها على صعوبة تحديد شكل خريطة حدود مصر الغربية. كما ظلت غارات بعض هولاة البدو تشكل خطراً بالغا على استقرار هذه الحدود، وكثيراً ما تعرضت قوافل التجارة بين الجانبين، في منطقة الحدود هذه لعمليات النهب والسطو<sup>(٣)</sup>.

وفي عصر محمد سعيد باشا: استوطن واحة جغبوب عدد من اتباع الحركة السنوسية، وهي حركة دينة سياسة، أسسها سيدي محمد بن علي السنوسي في عام ١٨٣٥ تقريباً. ولد محمد السنوسي في مستغانم في الجزائر في أواخر القرن الثامن عشر، وعندما حج الي مكة أقام فيها فترة من الوقت، وأصبح خلال فترة إقامته هذه مؤيداً لزعيم الفرقة القادرية في مكة. وبعد وفاة مؤسس هذه الفرقة القادرية وانقسام أنصارها، أصبح محمد بن علي السنوسي، لتفوقه في علوم الدين، زعيماً لجماعة منهم، وبني أول زاوية له علي جبل أبو قبيس بالقرب من مكة، ثم غادرها في وقت لاحق متوجهاً إلى منطقة برقة الليبية، وبني بأحد نجوعها ما عُرف بالزاوية البيضاء، لكي يحتمي بها وأنصاره من أي عمل قد يقوم به العثمانيون ضده. ثم غير مقره فجأة إلى واحة جغبوب التي تتميز بموقعها الفريد، وظل بها حتى توفي ودفن فيها عام ١٨٥٩. وتابع خلفائه نشر دعوته بين السكان المحليين، حتى أصبحت الحركة السنوسية، مع نهاية القرن التاسع عشر، ذات شعبية كبيرة في منطقة برقة، بل أصبحت - وپرغم وجود حركات دينية أخرى - الأكثر أهمية بين سكان الصحراء الغربية الكبرى، خاصة وأن أغلب الحركات الدينية الأخرى كانت تركز نشاطها علي سكان المدن، في حين كانت الحركة السنوسية تنتشر وتتوسع بين سكان القرى والواحات وقبائل هذه الصحراء<sup>(٤)</sup>.

وعلاوة علي موقع واحة جغبوب الجغرافي، كان من أسباب انتقال السنوسيين إليها، وجعلها في - وقت مبكر من نشاطهم - مركزاً لحركتهم هو:

- ١ - بعدها عن أيدي السلطات العثمانية، التي بدأت في ذلك الوقت تنظر إلي الحركة السنوسية بعين الشك.
- ٢ - رغبة السنوسيين في نشر دعوتهم بين سكان هذه الواحة والواحات القريبة منها.
- ٣ - الابتعاد عن المناطق التي انتشر فيها آنذاك مرض الطاعون مثل: ساحل برقة والجبل الأخضر<sup>(٥)</sup>.



وتعود أولى محاولات ترسيم خط الحدود، بين مصر والأراضي الليبية، الي الفرمان الذي منحه السلطان العثماني لمحمد علي طبقاً لمعاهدة لندن ١٨٤٠، والذي تولي بموجبه محمد علي باشا حكم مصر هو وورثته في نطاق حدودها القديمة، ووفقاً لما هو موضح في الخريطة الملحقة بهذا الفرمان. وبعد أن تم لبريطانيا احتلال مصر في عام ١٨٨٢، وبناءً علي طلب من الحكومة البريطانية، بدأت كل من السلطات الإنجليزية والتركية في التفاوض بينهما، بهدف ترسيم الحدود الغربية لمصر، وذلك في أعقاب خلافات شديدة في وجهات النظر نشبت بين الجانبين منذ عام ١٩٠٣، وخاصة عندما طالبت تركيا آنذاك بأن تمت سيادتها في الأراضي المصرية حتي مرسى علم، في حين تمسكت بريطانيا بتبعية كامل جبل السلوم لمصر طبقاً لمعاهدة ١٨٤٠. ولقوة نفوذ إنجلترا الدولي وحاجة الدولة العثمانية لمساندتها في مواجهة الطامعين الآخرين في أملاكها، قبلت الحكومة العثمانية بوجهة النظر البريطانية في هذه المفاوضات، التي انتهت بين الجانبين بتوقيع اتفاقية في عام ١٩٠٤، اعترفت فيها تركيا بأن جبل السلوم ضمن الأراضي المصرية، بناءً علي هذا اضطرت السلطات العثمانية في ليبيا، عام ١٩٠٧، الي سحب كل المخافر والنقاط العسكرية التي أقامتها شرق السلوم<sup>(٦)</sup>. ومن الواضح أن هذه الاتفاقية لم تشمل واحة حغبوب أو كل حدود مصر الغربية، بل اقتصر علي الجزء الشمالي من هذ الحدود، وعلي وجه التحديد منطقة السلوم.

ومنذ وقوع الاحتلال الإيطالي لليبيا: تحولت الحركة السنوسية من حركة دينية دعوية بحتة، الي حركة جهادية أيضاً، تسعى الي طرد الإيطاليين، وأصبحت الواحات الداخلية والحدودية تمثل الملاذ الآمن لهؤلاء الجهاديين. ومع قيام الحرب العالمية الأولى، وانضمام إيطاليا لصف إنجلترا في هذه الحرب، ظهر العديد من المشاكل علي الحدود المصرية الليبية، وامتدت المناوشات بين السنوسيين والإيطاليين الي أطراف هذه الحدود، بل وتكررت المناوشات بين قوات السيد أحمد الشريف والقوات الإنجليزية، بين جانبي هذه الحدود. وكان السيد أحمد الشريف مدفوعاً في هذا من جانب الألمان، لإثارة القلاقل ضد الوجود الإنجليزي في مصر.

ومع احتدام معارك الحرب العالمية الأولى، بين دول الوسط بقيادة ألمانيا ودول ائتلاف بقيادة إنجلترا، أخذ الساسة الإنجليزي يفكرون في محاولة استمالة أحمد الشريف لجانبهم، عن طريق السماح له بأن يمد نفوذه علي بعض واحات الصحراء الغربية، وهي وعود شفهية لم ترق الي الإقرار الرسمي من جانب الإنجليز له بملكية هذه الواحات، كما أنها جاءت تحت ضغوط الحرب، ومن الإجراءات التي اضطرت اليها الحكومة البريطانية لإعادة ترتيب أوراقها، في مواجهة تفوق الألمان في سنوات الحرب الأولى، وحتى دون أن يلتفت إليها السيد أحمد الشريف نفسه<sup>(٧)</sup>.

واستمر أحمد الشريف، بحكم ميوله العثمانية، في التعاون مع الأتراك والألمان ضد الإنجليز، الذين إشتدت عداوته لهم بعد أن انضمت إيطاليا اليهم رسمياً في تلك الحرب.

وكثيراً ما طالبت السلطات البريطانية من أحمد الشريف أن يقف علي الحياد، في ذلك الصراع الدائر بين دول الوسط (ألمانيا وحلفائها) ودول الوفاق - الحلفاء فيما بعد - (بريطانيا وحلفائها). ثم قامت هذه السلطات، وبالتنسيق مع الإيطاليين، بشن حملة عسكرية واسعة علي قوات السيد أحمد الشريف إنتهت بهزيمة وتشتيت قواته، وعلي أثر ذلك توقفت، لفترة من الوقت، حركة الجهاد الليبي من جانب السنوسيين ضد إيطاليا في منطقة برقة<sup>(٨)</sup>.

ولعب الإنجليز والإيطاليون لعبة آخري لشق صفوف السنوسيين، وإضعاف شوكة السيد أحمد الشريف، حين قرروا وبالتنسيق بينهما التصالح مع أحد زعماء الحركة السنوسية، وهو السيد إدريس السنوسي، في أثناء زيارة له في مصر في أوائل عام ١٩١٦، وبالفعل نجحت السلطات الإنجليزية في إقناع إدريس السنوسي بجدوي الصلح، واستمالتة الي جانبها. ومن أجل إخماد الحروب الحدودية التي تشنها القوات التابعة لأحمد الشريف، تفاوض الإنجليز مع السيد إدريس السنوسي طوال النصف الأول من عام ١٩١٦، حتي إنتهت هذه المفاوضات، في ٢٥ يوليو ١٩١٦، بتوقيع إدريس السنوسي والبريطانيين علي اتفاق، تلخص فيما يلي:

(١) فتح طريق التجارة عند السلوم واتخاذ ميناء السلوم مركزا للتبادل التجاري، علي أن يكون طريق الإسكندرية - السلوم الطريق الوحيد الذي تمر منه السلع إلي برقة.

(٢) أن يكف السنوسيون عن إنشاء زوايا لهم في الأراضي المصرية، حتي وإن كان غرضهم جمع التبرعات من المصريين المنتمين إلي المذهب السنوسي.

(٣) أن يتولي السيد إدريس السنوسي، بطريق الوكالة، إدارة واحة جغبوب الداخلة في الأراضي المصرية.

(٤) أن يقوم إدريس السنوسي بإبعاد ما اسماهم هذا الإتفاق بالمفسدين والعاثين بالأمن، ومحدثي الشغب والقتل، والذين كانوا يكذبون صفو العلاقات بين الشعبين المصري والليبي في جغبوب، وأن لا يسمح السيد إدريس السنوسي لأي من أنصار الحركة السنوسية بالإقامة في سيوة، أو الدخول من أي جهة أخرى الي الأراضي المصرية، وأن يتعهد بالمحافظة علي الأمن والنظام علي الحدود.

(٥) أن تسمح السلطات البريطانية للسنوسيين التابعين للسيد إدريس السنوسي، بالحصول علي المؤن الغذائية وانغلال من مصر.

وبهذا الاتفاق زال شبح المجاعة عن السنوسيون، وعاد الهدوء إلي حدود مصرية الغربية، حتى جرت المفاوضات الإنجليزية الإيطالية حول تعديل هذه الحدود في وقت لاحق. وفي الحقيقة: علينا أن ننظر الي هذه المفاوضات التي جرت بين السيد إدريس السنوسي والإنجليز، من منظور توازنات الحرب العالمية الأولى، وخاصة بعد أن نجح الحلفاء في ضم إيطاليا إلي صفوفهم في هذه الحرب، بموجب معاهدة لندن ٢٦ إبريل

١٩١٥، والتي وافق الحلفاء بموجبها علي أن تنقل إلي إيطاليا جميع الحقوق والامتيازات المخولة للدولة العثمانية في الأراضي الليبية، وهذا كان يعني أن يتعهد الحلفاء، في حالة الانتصار، علي دول الوسط بتثبيت قدم إيطاليا في كامل الأراضي الليبية التي كانت تحت السيادة العثمانية.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، ويرغم أن إيطاليا لم تقم بدور حاسم فيها، فقد ثبتت من أقدامها بالفعل في ليبيا، بل وتطلعت أيضاً الي تثبيت ما حصل عليه السيد إدريس السنوسي من الإنجليز، في واحة جغبوب، من وضع خاص إبان تلك الحرب. علاوة علي هذا أخذت إيطاليا تخطط لمفاوضة الإنجليز حول تعديل الحدود المصرية الليبية لمصلحتها، واخضاع أراض جديدة لنفوذها في السلوم، وفي الواحات الواقعة علي أطراف هذه الحدود.<sup>(٩)</sup>

ومن الواضح أن مخطط إيطاليا الحربي والسياسي كان قد إعتد منذ بداية غزوها للأراضي الليبية علي ضرورة سيطرة قواتها العسكرية علي مناطق الحدود الغربية والشرقية من ليبيا. ويتضح ذلك بشكل بين منذ حرص هذه القوات علي النزول بطبرق وساحل زواره، خلال المراحل الأولى للحملة علي ليبيا عام ١٩١١، وذلك للسببين التاليين:-

(١) تأكيد مبدأ السيادة الإيطالية علي هذه المناطق والمبادرة بالسيطرة عليها قبل قيام أي نزاع أو تنافس دولي حولها.

(٢) التحكم في هذه المناطق الحدودية لمنع تسرب الأسلحة والإمدادات إلي المجاهدين. والتطويق العسكري المستمر لها، وعزل حركة المقاومة ضدها داخل الصحراء، وبعيداً عن مناطق تمركز المستوطنين الإيطاليين في الساحل.

كما كانت الحكومات الإيطالية، ومنذ نجاحها في إحتلال ليبيا، تري أن من حقها إدخال السلوم وجغبوب، وغيرها من مناطق الحدود المصرية الليبية، ضمن نفوذها. وتحت ضغط الوجود العسكري الإيطالي المكثف، في منطقة برقة وعلي الحدود المصرية الليبية، اضطر المندوب السامي البريطاني كتنشر، الي الإعتراف للسلطات الإيطالية بخروج منطقة بردية الحدودية من السيادة المصرية، لكنه وقف بقوة في وجه أطماع إيطاليا في منطقة السلوم.

عندئذ اقترحت الحكومة البريطانية علي إيطاليا الدخول في مفاوضات بين الجانبين، من أجل التوصل لاتفاق حول ترميم الحدود الأراضي المصرية الليبية. وفي الحقيقة، وفي ضوء المواءمات والتسويات الإستعمارية الجارية آنذاك، كانت بريطانيا علي استعداد للتنازل عن جغبوب، في مقابل تمسكها بالسلوم ضمن الأراضي المصرية. فالسلوم كانت محطة هامة علي طريق القوافل التجارية والذي يقود الي واحة سيوة، والتي واحة الكفرة حيث يتمركز أنصار الحركة السنوسية<sup>(١٠)</sup>. في حين وجهت إيطاليا اهتمامها إلي واحة جغبوب منذ البداية لكونها مركزاً دينياً مهماً من الناحية المعنوية لكثير من السنوسيين، وخاصة أثناء تصاعد حركة الجهاد في الجبل الأخضر ضد القوات الإيطالية<sup>(١١)</sup>.

وفي تلك الأثناء كانت إيطاليا تحاول التوسع في الحبشة والصومال، وقد أدى هذا النشاط الإيطالي المحموم في أفريقيا، الي تخوف الحكومة البريطانية من عدم اعتراف إيطاليا بوقوع مصر تحت نفوذها، ومن ثم مناوئتها لها، أو انضمام إيطاليا الي الدول الأوربية المناوئة، بصفة عامة، لتوجود الإنجليزى في مصر، وهذا يفسر لنا لماذا أبدت السلطات البريطانية رغبتها في الدخول مع الجانب الإيطالي في مفاوضات ترسيم حدود مصر الغربية، وفي نفس الوقت أبدت استعدادها في هذه المفاوضات للتنازل عن واحة جغبوب، خلال ما عُرف بعد ذلك بمشروع ملتر - شلويبا ١٩٢٠. (١٢)

وقد بدأت هذه المفاوضات في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وضمن التسويات التي تمخضت عنها تلك الحرب، وبعد رسالة بعث بها، في إبريل ١٩٢٠، السير سبرلنج أحد كبار موظفي الخارجية البريطانية، إلي باكارى ( من رجالات الحكومة الإيطالية )، اقترح عليه فيها الدخول في مفاوضات سرية، لوضع نهاية لأزمة الحدود المصرية الليبية. وطالب سبرلنج في رسالته السلطات الإيطالية بان تعترف بأن الحكومة المصرية لها مصلحة أساسية في تطوير ميناء السلموم، واقترح بناءً علي ذلك أن يبدأ خط الحدود بين الجانبين من أكثر المعالم ملائمة ووضوحاً علي شاطئ البحر المتوسط، عند النقطة التي تقع في منتصف المسافة بين السلموم وبردية، علي مسافة ١٠ كيلو مترات شرقاً من السلموم، وأن يستمر تعيين هذا الخط بالتالي في الاتجاه الجنوبي حتى ما يعرف بممر مسرب شفرزن، ماراً بسيدى عمر حتى بئر شقة ومنطقة النخيل، ويتوجه الخط بعد ذلك علي طول مسرب حتى مشارق واحة ملقاً. ومن خلال هذا المقترح تكون واحة جغبوب قد دخلت في نطاق الأراضي الليبية.

وعلي أثر ذلك سافر وزير الخارجية الإيطالية إلي لندن، للتعجيل بإتمام الاتفاق مع ملتر، لكن استقالة هذا الوزير الإيطالي المفاجئة، في ٢٠ من يونيو ١٩٢٠، أدت إلي توقف التوقيع علي مشروع الاتفاق، بل رفضته الحكومة الإيطالية التالية، التي أعلنت عن رغبتها في الحصول علي مساحات أخرى من الأراضي الحدودية مع مصر، كما طالبت ببعض الإيضاحات حول الآبار والمراعى الواقعة علي هذه الحدود (١٣).

ومع نهاية الحماية البريطانية علي مصر، وصدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢، أصبح إقرار مشروع إتفاقية ترسيم الحدود المصرية الليبية، من الناحية الظاهرية، في يد الحكومة المصرية، ولكن من الناحية العملية في يد السلطات الإنجليزية. وبناءً علي ذلك قام وزير خارجية إيطاليا، في ١٤ إبريل ١٩٢٤، بتوقيع اتفاق مع أحمد خشبة باشا وزير خارجية مصر، يقضى بإبعاد القوي الوطنية المصرية عن التدخل في شئون ليبيا، والتوقف عن مساندتها للقوي الوطنية الليبية المناهضة للإيطاليين (١٤).

في هذه الأثناء قام موسوليني بمقابلة شميرلين وزير خارجية بريطانية، ونقل اليه غضبه الشديد من الحكومة المصرية، وخاصة رئيسها سعد زغلول، لأنه يؤجل إتمام اتفاق الحدود، ولأنه عاد من رحلته في أوربا إلي مصر دون المرور علي روما، كما أعلن موسوليني أنه لو فشلت المفاوضات سيحتل جغبوب بالقوة. وفي هذه الأثناء اغتيل السير

لي ستاك سردار الجيش المصري، واضطرت علاقة حزب الوفد مع بريطانيا، وأعلن سعد زغلول استقالة وزارته.

ومن جانبه صرح ثروت باشا بأن مصر ليست مقيدة بمفاوضات لندن وروما السابقة، حول ترسيم حدود مصر الغربية، علي أساس أن مصر لم يكن لها دخل في هذه المفاوضات، وعلي إثر ذلك قرر مجلس الوزراء، في ١٣ سبتمبر ١٩٢٤، تقوية الحامية العسكرية بواحة سيوة. وردت إيطاليا علي ذلك في يناير ١٩٢٥، بأن حشدت قوات عسكرية كبيرة في منطقة بردية القريبة من السلوم، وعندما استفسرت الحكومة المصرية عن سبب هذه الحشود، ردت الحكومة الإيطالية بأنه إجراء احتياطي، وموجه ضد المناهضين الليبيين لها، والذين ينطلقون من الواحات المنتشرة علي الحدود المصري الليبية.

ويبدو أن الحكومة الإنجليزية تخوفت أنذاك من أن يمتد تحرك الجيش الإيطالي الي منطقة السلوم وغيرها من المناطق المصرية الحدودية، وتجد نفسها في مواجهة غير مستعدة لها مع إيطاليا، ولذلك قام اللورد اللنبي، في مارس ١٩٢٥، بنقل نص المشروع الإنجليزي الإيطالي - الذي كان قد تم بلورته عام ١٩٢٠ - إلي عبد الخالق ثروت، لكي يسعى لتنفيذه مع الجانب الإيطالي. ونجح عبد الخالق ثروت في تأليف لجنة مشتركة بين الجانبين المصري والإيطالي، سميت بلجنة الحدود الغربية (المصرية الإيطالية المشتركة)، حيث تولي رأستها عن الجانب المصري إسماعيل صدقي باشا، وعن الجانب الإيطالي المركزي نجروتوكاميازو.

وقد توقفت المفاوضات، أكثر من مرة، بسبب اختلاف وجهتي النظر بين الجانبين المصري والإيطالي حول واحة جغبوب، التي تمسك بمصريتها إسماعيل صدقي باشا. ومن الغريب أن الإنجليز كانوا يدفعون المصريين للتنازل عن هذه الواحة للإيطاليين، وقد تحدث الجنرال اللنبي حول واحة جغبوب، وعن عدم قدرته علي إقناع أعضاء مجلس الوزراء المصري بأن جغبوب هذه تافهة ولا قيمة لها، وأنها من وجهة نظره (لا تساوي عظام بعير)، وطالب اللنبي السلطات الإنجليزية في مصر مناقشة هذا الموضوع مع صدقي باشا وزير الداخلية، الذي إعتبره مؤهل أكثر منه شخصياً بإقناع زملائه داخل مجلس الوزراء المصري بالتساهل مع الجانب الإيطالي، لإتمام اتفاق ترسيم الحدود المصرية الليبية. وكان الجانب الإيطالي يتمسك بنصوص مشروع (منتر - شالويا)، وأبدي مندوب إيطاليا رغبته في تنفيذ هذا المشروع، لكن الجانب المصري كان يعتبر ذلك المشروع لاغياً وغير ملزم له، علي اعتبار أنه تم بين الإنجليز والإيطاليين قبل حصول مصر علي إستقلالها، في تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢، وصمم الوفد المصري علي أن واحة جغبوب ملك لمصر، في حين تمسك الجانب الإيطالي باعتبارها ملكاً لإيطاليا، طبقاً لما جاء في مشروع منتر - شالويا لعام ١٩٢٠.

ولحل قضية واحة جغبوب، طلب صدقي باشا، في منتصف ١٩٢٥، من هندرسون وزير خارجية بريطانيا استدعاء خبير مساحة من إحدى الدول المحايدة (السويد أو سويسرا) لدراسة مدى حاجة مصر من الناحية الدفاعية لهذه الواحة. وعندما تولى تشمبرلن وزارة الخارجية البريطانية، شعر بشي من الحيرة تجاه طلب إسماعيل صدقي لخبير مساحة من إحدى هذه الدول المحايدة، وتساءل عن جدوي هذا المطلب، وفيما إذا كان يعكس رغبة حقيقية لدى الحكومة المصرية في الحل، أم أنه مجرد مماثلة للتهرب من تحمل مسؤولية الإقدام على ترك واحة جغبوب للإيطاليين. ولما تعذر إحضار خبير مساحة من إحدى الدول المحايدة إستعانت الحكومة المصرية بخبير مساحة إنجليزي يدعي سنكس، الذي قدم في ١٤ أغسطس ١٩٢٥ الي الوفد المصري تقريراً عن نتائج عمل لجنته المساحية كان أهم ما جاء فيه، أن مفتاح الدفاع عن مصر، من جهة الغرب، يكمن في الاحتفاظ بالسلوم وليس بواحة جغبوب<sup>(١٥)</sup>. أي انه حمل نصيحة غير مباشرة للحكومة المصرية بالتنازل عن جغبوب للإيطاليين، وإنجاز الإتفاق معهم علي أساس مشروع منتر - شالويبا.

في حين أشار إسماعيل صدقي، في تقريره، الي أن ترك جغبوب جرح للعزة القومية، ومصر تطالب بها لأنها من ضمن الأراضي المصرية، أما إيطاليا فتريدها لتضمها الي مستعمرتها فقط، كما أن لجنة سنكس اعترضت علي إعطاء بردية لمصر مقابل جغبوب. وأن لجغبوب أهمية دينية، حيث إنها مكان تقده طائفة كبيرة من المسلمين - السنوسيين - وإذا سقطت في يد الطليان اعتبر ذلك إسقاط لهذه الطائفة. كما أن لها أهمية حربية: فهي مفتاح غارات البدو علي مصر، وهي السبيل الوحيد للتمسك بواحة سيوة وهي في قبضة المصريين<sup>(١٦)</sup>.

ومن الواضح أن هم الوفد المصري الأكبر، في تلك المفاوضات مع الإيطاليين، انحصر في إبعاد الأطماع الإيطالية عن السلوم وعن الهضبة المحيطة بها، وخاصة بعد أن تمركزت قوات إيطالية في بردية الواقعة غرب السلوم. أما الوفد الإيطالي فكان هممه الأول هو الاحتفاظ بواحة جغبوب، التي يوجد بها ضريح مؤسس الحركة السنوسية، والذي تتبعث منه - حسب وجهة نظرهم تعاليم متشددة ضد سياستهم في ليبيا، وتخلق لهم كثيراً من المشكلات.

كما كانت حجة الطليان، التي عبر عنها وفداهم في المحادثات المصرية الإيطالية، أنهم ورثة الأتراك في ولاية طرابلس، وأن واحة جغبوب داخله ضمن هذه الولاية، بل إن بعض الكتب الجغرافية المقررة من مدارس وزارة المعارف المصرية نفسها، وضعت جغبوب داخله ضمن هذه الولاية، وفي خريطة طرابلس، وأن تلك الكتب راجعتها لجان مصرية من هذه الوزارة واعتمدها<sup>(١٧)</sup>.

وإزاء عدم قدرة إسماعيل صدقي علي تحمل المسؤولية التاريخية تجاه الموافقة علي ترك واحة جغبوب الإيطاليين، علي الرغم أن مساحتها لا تزيد عن ٧ كيلو مترات مربعة،

فقد قرر الاستقالة من رئاسة اللجنة المصرية المشكلة لحل هذه القضية مع الجانب الإيطالي. لكن هندرسون رفض تأجيل المفاوضات بسبب استقالة صدقي، بل وطالبه بالإستمرار في رئاسة هذه اللجنة.

وفي غضون ذلك جري لقاء بين إسماعيل صدقي والسير لويد جورج، طالب فيه هذا الأخير صدقي بإظهار قدر من المرونة تجاه الإيطاليين، والاعتراف بأن واحة جغبوب تابعة لهم. وتحت ضغوط بريطانيا وجه عدد من وزراء الحكومة المصرية خطابات شخصية الي إسماعيل صدقي، أعلنوا فيها عن استعدادهم لتفويض صدقي باشا لتوقيع اتفاق ترسيم الحدود الغربية مع الإيطاليين علي أساس مشروع منتر - شالويبا، وبشرط إمداد السلوم بالمياه من بئر وادي الرمنة داخل الأراضي الليبية.

لكن صدقي باشا ظل متردداً في الإقدام علي خطوة اعتراف بالتنازل عن واحة جغبوب لإيطاليا، وظل يناور حتي لا يظهر أمام الرأي العام بأنه وافق علي سلخ واحة جغبوب من السيادة المصرية، وقد غضب زيور باشا من تردد صدقي هذا، وأصدر تعليماته بالتوقيع العاجل علي الاتفاق المصري الإيطالي لترسيم الحدود الغربية<sup>(١٨)</sup>. وبالفعل في ٦ ديسمبر ١٩٢٥ أعلنت الحكومة المصرية عن موافقتها علي قبول مشروع منتر - شالويبا تحت مسمى "اتفاق الحدود الغربية"، الذي وقعه رئيس الحكومة المصرية زيور باشا عن مصر، أمام المريكيز لازارو عن إيطاليا في ٢٦ ديسمبر ١٩٢٦، وهكذا قبلت حكومة أحمد زيور بناءً علي توجيهات بريطانيا، التنازل عن واحة جغبوب، وأن تدخل هذه الواحة ضمن نطاق أراضي برقة ليتمكن الطليان بذلك من احتلالها<sup>(١٩)</sup>.  
وتضمن هذا الاتفاق ما يلي<sup>(٢٠)</sup>:-

١ - يبدأ خط الحدود بين أراضي برقة الإيطالية والأراضي المصرية من نقطة الشاطئ شمال السلوم بمسافة تبعد ١٠ كيلو متر عن (بيكريرنت) ومنها يتجه بشكل قوس دائرة مركزها بيكريرنت ونصف قطرها ١٠ كيلو مترات من النقط المذكورة حتي يلتقي بمسرب الشفرزن ومن هناك رأساً يتبع الخط من الغرب مارا بسيدي عمر ويئر شفرزن ويئر الشقة وهنا يترك الخط مسرب الشفرزن ويسير رأساً غربي طريق القوافل القديم الذي يتجه نحو الجهة المعروفة بملاذ (سيدي إبراهيم) ثم يتبعه غرباً مسرب الأجوان حتي يلتقي مسرب الفزات في الجهة المعروفة ومنها رأساً غربي مسرب الغرب يسير خط رأساً غربي مسرب المجروم حتي حد واحة ملقاة، حتي تدخل واحة الجغبوب تحت السيادة الإيطالية.

٢ - تعيين سلطات لكل من الحكومتين في ظرف ٣ شهور لجنة مختلطة لتحدد خط الحدود علي الأرض ووضع العلامات الإرشادية الدالة علي ذلك.

٣ - تعهدت الحكومتان المصرية والإيطالية بضمان حرية مرور القوافل الإيطالية والمصرية المتوجهة من السلوم إلي الجغبوب وأن لا تدفع هذه القوافل أية رسوم أو ضرائب.

٥ - رغبة في توفير مياه الشرب لسكان السلوم، تتنازل إيطاليا عن بئر الرملة وعن المنطقة المحيطة به. علي أن تلتزم الحكومة المصرية بتخصيص مقدار كاف من مياه هذا البئر لسد حاجة السكان الإيطاليين في المناطق القريبة منه.

٦ - تعهد إيطاليا ومصر باتخاذ الوسائل اللازمة لمنع غارات البدو.

٧ - تعين الحكومتان لجنة مختلطة لتسوية:

أ - جنسية سكان المنطقة.

ب - رسوم المرعى والسقاية والبذر بما يتعلق بالسكان الرحل الذين ينتقلون على خط الحدود.

ت - النظام الجمركي للتجارة على قاعدة التساهل من الجانبين.

ث - المسائل القضائية الخاصة بالأشخاص الرحل لتقرير مقرات لمحاكمة الخارجين علي القانون من بين هؤلاء.

٨ - كل خلاف يقع في تطبيق هذا الاتفاق يعرض على لجنة تحكيم تؤلف

من مندوبين عن الطرفين وتصدر القرارات بالأغلبية.

٩ - يعتمد الاتفاق ويكون تبادل الاعتماد بروما في أقرب وقت.

ومن المفارقات المثيرة للدهشة أن مشروع هذا الاتفاق عرض علي مجلس الوزراء المصري، وتمت الموافقة عليه في عهد وزارة صدقي نفسه عام ١٩٣٠، كما صدق عليه مجلس النواب المصري في جلسته في ٤ فبراير ١٩٣٢، واستغرق التصديق عليه عقد ٤ جلسات استماع، وتحدث فيها بعض النواب بما يفيد أنه لم يسبق ان كان للحكومة المصرية الحق في واحة جغبوب طيلة عهد محمد علي. كما أن هذه الواحة ليس لها أهمية لمركز مصر الحربي لقلته مياهها، وانكشاف موقعها. وفي جلسة التصويت علي مشروع الاتفاق تم تأييده بأغلبية الأصوات (٩٠%) ضد ٤ أصوات. وأشارت بعض الأصوات المعارضة داخل مجلس النواب الي أنه توجد خطابات متبادلة بين السنوسيين والسلطات المصرية، يستدل منها علي أن هؤلاء السنوسيين كانوا يديرون واحة جغبوب بتكليف من الحكومات المصرية.

ثم انتقل المشروع لمجلس الشيوخ لإقراره، وغرض علي لجنة الشؤون الخارجية التي ناقشته خلال الفترة من ١٥ وحتى ٢١ يونيو ١٩٣٢، وعهدت هذه اللجنة إلى أحمد نجيب براده بعمل تقرير حول مشروع هذا الاتفاق، كان أهم ما جاء فيه النقاط التالية:

١ - إن تخطيط الحدود يتم الاتفاق عليه للمودة بين الدولتين، ومحافظة علي علاقات حسن الجوار.

٢ - قبلت إيطاليا أن تترك لمصر بئر الرملة حتي يتوفر الماء الكافي لعربان هذه المنطقة المصرية.

٣ - ما كانت المفاوضات بين لجنة الحدود المصرية، وبين اللجنة الإيطالية، تتم إلا علي أساس استبعاد جغبوب عن مصر، مهما قدمت الحكومة المصرية من التأكيدات واتخذت من التدابير.



وفي تقريرها أيضاً، أشارت لجنة أحمد نجيب براهيم الي أن المنطقة الواقعة علي الحدود، من جهة مصر وحتى برقة، لم يثبت أنها كانت خاضعة لسلطة والي طرابلس العثماني، ولا هي في نفس الوقت تحت الإدارة المصرية. كما أشار تقرير هذه اللجنة الي أن إنجلترا تجاهلت، عند تولية سمو الخديو عباس حلمي الثاني، أن تذكر في فرمان التولية أن مصر بحدودها هي نفسها المبينة في الخريطة السابق إرسالها مع فرمان توليه المغفور له محمد علي باشا عام ١٨٤٠. وفي ضوء هذا التقرير وافق مجلس الشيوخ، في جلسة ٢١ يونيو ١٩٣٢، علي هذه الاتفاقية، ومن ثم دخلت الي مجال التنفيذ من جانب الحكومة المصرية، في حين كانت السلطات الإيطالية في ليبيا تعمل بها علي الأرض منذ وقت طويل.

وإذا كانت بعض التقارير والأصوات المصرية، آنذاك، رأت عدم أهمية موقع واحة جغبوب الجغرافي والحربي لمصر، فإن السلطات الإيطالية في ليبيا كانت ترى في هذا الموقع أهمية حربية وإستراتيجية قصوي، تعينها في القضاء علي حركات المقاومة الليبية المشتعلة ضدها، وذلك لأسباب عديدة منها: - أن واحة الجغبوب تعد المدخل الأهم لمنطقة برقة من ناحية مصر ومسيطرة علي القوافل. كما أنها مركزاً وسطاً لخطوط القوافل بين برقة ومصر والسودان. ومنها تستمد حركة المقاومة الليبية المون والسلاح والمال القادم من مناطق مختلفة من العالم الإسلامي عن طريق مصر. كما رأت القيادة العسكرية الإيطالية في ليبيا، أن إخضاع واحة جغبوب لقبضة القوات الإيطالية سوف يساعد كثيراً في تطويق وإضاف حركة عمر المختار، وعزلها في منطقة الجبل الأخضر<sup>(٢١)</sup>.

ولذا، وقبل أن يتم إقرار الاتفاق، بين الجانبين المصري والإيطالي، علي تبعية واحة جغبوب لإيطاليا قررت السلطات الإيطالية في ليبيا، في صيف ١٩٢٦، احتلال هذه الواحة بحجة وقف تهريب الأسلحة الي المقاومين الليبيين، وقاد حملة الاحتلال هذه الجنرال موميللي الذي نجح خلال زحف قواته في إتجاه واحة جغبوب، في إشغال قوات عمر المختار في معارك جانبية في أنحاء متفرقة من الجبل الأخضر حتي لا تذهب هذه القوات للدفاع عن هذه الواحة، وقد نجحت هذه المناورة الأمر الذي سهل لموميللي احتلال واحة جغبوب دون مقاومة، في فبراير ١٩٢٧<sup>(٢٢)</sup>.

وكان سكان منطقة برقة من الليبيين يتخوفون من نتائج احتلال الجيش الإيطالي لواحة جغبوب، حيث خشوا إنقطاع إتصالهم بمصر وتوقف حركة التجارة معها ومع السودان وقلب أفريقيا، ولذا وقبل تنفيذ تلك الحملة، حاول عدد من كبار هؤلاء السكان الإتصال بالسيد إدريس السنوسي، لكي يتدخل ويمارس نفوذه لدي السلطتين الإيطالية والإنجليزية، لوقف خطط احتلال جغبوب، إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل. كما أن الحكومة المصرية في ذلك الوقت عجزت نتيجة لوقوعها تحت نفوذ الإنجليز، عن منع احتلال واحة جغبوب، بالرغم من أن كثيراً من المصريين كتبوا في جريدة الأهرام عدة مقالات، بنددون فيها بالأعمال الوحشية التي تقوم بها القوات الإيطالية ضد إخوانهم الليبيين<sup>(٢٣)</sup>.

وفي الحقيقة أوقع احتلال واحة جغبوب، من قبل القوات الإيطالية، ضربة قاصمة بهيبة الحركة السنوسية، التي كافحت طويلاً ضد هذه القوات في أنحاء الأراضي الليبية، كما تمكنت السلطات الإيطالية من إحكام قبضتها علي طول خط الحدود مع مصر. وبعد أسابيع قليلة من احتلال هذه الواحة، أقام الإيطاليون نقاط حراسة متعددة علي طول الخط الممتد من مساعد وحتى جغبوب، كما قام الجنرال موميللي بحملات تطهير عديدة للتجمعات السكانية الواقعة علي هذا الخط، وأصبح في استطاعة القوات الإيطالية محاصرة وتجويع الأهالي، حتي يتوقفوا عن مساندة حركات المقاومة الليبية<sup>(٢٤)</sup>.

أما عن ردود فعل حركات المقاومة الليبية تجاه احتلال الجيش الإيطالي لواحة جغبوب، فقد طالب المجاهد عمر المختار القبائل الليبية بضرورة محاربة هذا الاحتلال، كما أصدر رضا السنوسي، من جالو، عدة نداءات إلى الزعماء المجاهدين، طالباً منهم عرقلة هذا المخطط الاستعماري تجاه الجغبوب. في حين أقام الإيطاليون الاحتفالات وأرسلت التهاني الي قادة هذه الحملة، لنجاحهم في تنفيذ خطة احتلال الجغبوب ومراقبة الحدود الليبية المصرية، والإيقاع بالمجاهدين الليبيين<sup>(٢٥)</sup>.

ومن اللافت للنظر، في قضية واحة جغبوب، مدي ضيق كثير من المصريين من المصير الذي آلت اليه هذه الواحة، ونتائج هذا علي حركة الجهاد الليبية. فقد عبرت الصحف المصرية، وخاصة تلك المناهضة لما عُرف في التاريخ المصري المعاصر بوزارات القصر، في أكثر من موقف جام غضبها علي سياسة أحمد زيور تجاه قضية واحة جغبوب. كما انتقدت هذه الصحف بقوة سياسة إيطاليا، في إفريقيا بصفة عامة، وفي ليبيا بصفة خاصة. وكانت صورة إيطاليا في معظم هذه الصحف هي صورة الاستعماري الكريه، الذي يسعى لاستعمار بلدان قريبة لقلوب المصريين، سواء من خلال محاولة احتلاله لأريتريا أو الصومال، وهي بلدان كانت أجزاء من الإمبراطورية المصرية في عصر الخديو إسماعيل، او من خلال محاولته الفاشلة لاحتلال الحبشة التي منها يستمد نهر النيل معظم مياهه، ثم احتلاله عام ١٩١١ لليبيا هذا البلد المتاخم لحدود مصر الغربية. وتفسر لنا هذه الصورة القبيحة لإيطاليا، في عيون المصريين، تطوعهم في حركة المقاومة ضد الإحتلال الإيطالي لليبيا، وتقديم كافة أشكال المساندة للمجاهدين الليبيين، ووقوفهم موقفاً معادياً من إيطاليا، خلال الفترة بين عامي ١٩١١ - ١٩١٣، وسمحوا لحركات المقاومة، أن تتخذ من الأراضي المصرية ملازماً آمناً لهم، وقاعدة ينطلقون منها لمقاومة هذا الإحتلال الإيطالي<sup>(٢٦)</sup>.

وفي عام ١٩٢٦ وصفت صحيفة الأخبار أبناء تنازل حكومة زيور باشا عن واحة جغبوب؛ بأنه أشبه ببيع جلد الدب قبل صيده، واعتبرته بيعاً شائناً، أقدمت عليه الوزارة الزيوارية، التي لم تخش الله ولا رهبة التاريخ، وأنه عار أحدثته الحكومة المتمدنة، في حين يقدم أبناء برقة الأبرار الأمجاد دليلاً جديداً للعالم، بأنهم لا يسلمون المدائن إلا على الموت، وعلقت هذه الصحيفة علي ما آلت اليه قضية جغبوب بقولها: - " وهكذا يشاء القدر أن تذهب الجغبوب على النحو الذي قدره المستعمرون وأشياعهم"<sup>(٢٧)</sup>.

وشنت جريدة البلاغ هجوماً قوياً علي وزارة أحمد زيور حيث كتبت تقول " أما البئر الذي يقولون عنه في السلوم فهي لا تفيدنا في شيء لأن ماؤه منح لا يصلح للشرب ولا يعني شيئاً للجيش المصري، ويؤكد جريمة الوزارة الخرفاء، لأنه يثبت عليها أنها قد نزلت عن حق المصريين وأخذت حقاً إيطالياً، ولو لم تكن جغوب أرضاً مصرية لما كان هناك وجهة لطلب البئر مع إيطاليا، أما محور الخلاف فهو هل جغوب أرض مصرية أم لا؟ فإذا ثبت أنها غير مصرية فلا معنى كذلك للمطالبة بالبئر ولا موافقة إيطاليا، ونحن نسأل لماذا تعطينا إيطاليا بئر في جهة السلوم سواء كان ماؤه ملح أو عذب سواء كانت له فائدة مساوية للجغوب أم تراها تعطينا البئر من أرضه لأنها تعتقد أن الجغوب حق من حقوقنا، أم هي تعطينا آياه لأنها تعتقد أنها تطلب منا ما ليس لها بحق وأنها تعتمد على القوة لا على الحجة والبرهان، أما الوزارة التي فرطت في استقلال بلادها وحقوقها لا يكثر عليها أن تتنازل عن أي قطعة من أرضها وأن تكون دائماً عوناً للأجنبي على قومها، وعلى هذه القاعدة تخرج مصر خاسرة من كل، وتصبح وظيفة الوزارة المصرية أن تسهر على مطامع الإنجليز لا على حقوق المصريين (٢٨) .

وعلفت مرة أخرى جريدة البلاغ علي قضية واحة جغوب، وعلى تصرفات الوزارة الزبورية بقولها: - " إن تصرف الحكومة لا يبرره عقل ولا يحلله قانون وأن الحكومة الدستورية لا تمتلك أن تتنازل عن شيء من أملاك الدولة فما بالك بحكومة قد حكم عليها مجلس النواب وانتزع منها ثقته فأصبحت لا تمثل أشخاصاً، لعل الحكومة تستند إلى المادة ٤٦ من الدستور، ولكن هذه المادة تنص على أن معاهدات الصلح والتحالف والتجارة وجميع المعاهدات التي يترتب عليها أي تعديل لأراضي الدولة أو نقص من حقوق سيادتها أو تحميل حزاميها شيئاً من النفقات أو ما بين حقوق المصريين العامة والخاصة لا تكون نافذة إلا إذا وافق عليها البرلمان، وبما أن البرلمان أسقط هذه الوزارة في هذين التاريخين ١١/٢١ فكل عمل يأتيه لا يقره المجلس ولا يعترف بصحته، وبناء عليه أصبح كل اتفاق بين هذه الوزارة وبين الدول أطلال لا قيمة لها بقانون وقد أخبر المجلس سفرا الدول لذلك، أن حكومة الفوضى والثورة تريد أن تتوج مخالفتها لقوانين البلاد والدستور والحرية بعمل ترتاح له النفوس وتضطرب من القلوب تريد أن تنتهز فرص الفوضى والاضطراب الذي حل بالأفكار من جراء تصرفاتها، تريد وهي في النزاع أن تسلب واحة جغوب من صلب الوطن وتهبها للطلبان غنيمَةً بارادتها فعلت ذلك، لا بد من محاكمتها أمام مجلس الخصوص حتى تنال جزاء ما اقترفت يداها، أن المادة ٦٢ لا تحل الوزارة من المسؤولية وإن تلك اللوم التي تريد أن تعطيها للحكومة الإيطالية ذات موقع حربي من الأهمية لمكانة وقد بين ذلك كثير من إخواننا الوطنيين فإذا سلمناها الدولة أجنبية فقد سلمنا مفاتيح حدودنا العربية وأصبحنا مهددين حتى عقر دارنا، ونكون قد أسأنا إلى إخواننا الوطنيين أكبر إساءة أن هذه الواحة كانت منبعاً للنهضة الوطنية والإسلامية وكل شمال إفريقيا فإذا سمحنا للإيطاليين بالوصول إليها كان جرماً عظيماً أمام الوطن والتاريخ وأمام جيراننا

والعالم الشرقي أجمع، ان مصلحة بلادنا المحافظة على شرف الوطن وعدم تعكير الصلات الودية بيننا وبين ذلك الشعب الكريم الذي دافع عن حقوقه وحرية بكل بسالة<sup>(٢٩)</sup>.

ومرة أخرى تكتب البلاغ تقول: إن للجغوب أهمية كبيرة فهي قلعة مصوية إلى قلب الحدود المصرية ومركز ديني ذو أهمية عظمى بالنسبة للسنوسيين، فهل تقدر الوزارة معنى تصرفاتها هذه؟ هل تفهم أنها تفرط في أرض الوطن وأن مثلها مثل القائد الذي يسلم حصنه فيتخلى عنه ويتركه للعدو خيانة وغدرا؟ وهل تفهم الوزارة أن القائد الذي يفعل كل ذلك ينتهي بأن يحاكم، وأن يكون الحكم عليه صارماً، تظن أن الوزارة تفهم كل ذلك ولكنها تعتقد أن اليوم الذي يحاسبها فيه البرلمان لن يجي لأن الأمة لن تسترد سلطانها فليس لنا إلا أن نقول لها إنها مخطئة وأن يوم الأمة قريب وسيعلم الظالمون أي منقلب ينقلبون<sup>(٣٠)</sup>.

قد بين نص الاتفاق مقدار ما تنازلت مصر عنه ومبلغ ما تتبعه والشعوب لا تنظر إلى التنازل عن جزء محدود من أرضها نظرة رضى وهذا الشعور ممثل في الدستور المصري الذي حظر هذا التنازل في مادته الأولى التي قالت 'ملكها لا يجزأ ولا يعزل عنه شيئاً) وقد أراد البعض أن يدافعوا عن هذه النظرية بقولهم إن إيطاليا دولة كبيرة لا يسع مصر أن تعاندها وأن في إرادتها احتلال الجغوب عنوة وليس في وسع مصر أن تقاومها ومع أن التاريخ يمثل هذه الحوادث فإن الضمير العام لا يؤيدها، وكان رأينا في أول الأمر أن تبذل الهمة لحل الخلاف من دون نقل ملكية حرساً على شعور الأمة المصرية وكان ردنا أن إيطاليا لا تطمع في الجغوب لذاتها على كل حال ليست من الممتلكات التي فيها منافع اقتصادية وهي واحة صغيرة وإنما طالبت بها بحجة الرغبة في حماية حدودها من الذين يغيرون عليها من المصريين ورغبة مصر أيضاً في حماية حدودها لا تخشى مصر على حدودها من الاعتداء الإيطالي فقد رأينا والحالة هذه أن توجه الجهود من الجانبين إلى اتفاق يصون حدودها غير أن لمصر بعد هذا الاتفاق مرجعاً آخر وهو البرلمان فله الكلمة الأخيرة<sup>(٣١)</sup>.

إن خسارة مصر بالتنازل عن هذه الواحة كبيرة من الجهة الأدبية باعتراف الجميع بالتنازل عن الجغوب للطلبان، ومن الجهة المادية باعتراف العسكريين والفنيين بأن تسليم الجغوب الذي يعد بمثابة قلعة في مقدمة الحدود المصرية، فسواء أخذنا بالرأي الأول أو الثاني فالخسارة على مصر مادياً وأدبياً<sup>(٣٢)</sup>.

إن تنازل مصر لإيطاليا عن هذه الواحة من قبيل أن تنال مصر استقلالها فأصبح تنازل مصر عنها معلقاً على شرف الدولة إذ الإنجليز هم الذين يصفون إرث محمد علي وخلفائه بإعطاء الجغوب للإيطاليين ليس سوى شطر صغير من برنامج كبير وصعته السياسة الإنجليزية لتصفية جميع المسائل المصرية وإذا كنا قد عرفنا عن هذه التصفية شيئاً كثيراً من الآن فإنه ليحق لنا أن نقف متسائلين ويعد هذا كله ماذا تطلبون؟<sup>(٣٣)</sup>.

تريد الوزارة أن توقع هذه المعاهدة وتحمل تبعيتها على التبعيات الخطيرة وتريد أن تضيع حق مصر في الجغوب، فتقول بلسان صحيفتها ومعلوم أنه مهما يكن الرأي في

الجغوب وتبعيتها لمصر فإن الواقع أنه ليس لمصر في جغوب لا إدارة ولا بوليس وهل تجنى منها ضرائب وهل كان لإيطاليا قضاء وبوليس وإدارة بل هل لمصر قضاء وبوليس وإدارة في كل جهات الصحراء الشرقية إن نية التسليم في جغوب ظهرت في عهد الوزارة الحاضرة فإن هذه الوزارة لم تتكالب في الدفاع عنها أو أن تتظاهر بالرغبة في مناقشة الدعاوي الإيطالية.

يعني أن تسأل هنا ماذا أفادنا الدفاع عن مصر من كل اعتداء أو تدخل أجنبي بالذات أو بالواسطة ومن أين جاءنا الاعتداء على حدودنا إلا عن طريق هؤلاء المدافعين عنا فالإنجليز الذين احتفظوا بحق الدفاع عن مصر في ٢٨ فبراير فتحوا حدودنا الغربية لإيطاليا<sup>(٣٤)</sup>.

إن زيور باشا لا يجهل أن لو امتنع عن النزول عن جغوب لكان هذا الامتناع حائلاً بين إيطاليا وبين الطمع في تسامح الجمهور المصري إذا قامت تحتل جغوب بالقوة في مثل هذه الحالة تعترف إيطاليا أن الوزارة وقد توقفت قيادة الامتناع من النزول لابد من أن يؤيدها الجمهور<sup>(٣٥)</sup>.

لقد كان كل ما طلبه المصريون من زيور باشا وزملائه من مسألة الجغوب ألا يوقعوا اتفاق يتضمن النزول عنها ولم يقتصر المصريون على هذا المطلب وحده عبثاً فهم يعرفون أن إنجلترا لا تزال قلقة على المركز الذي تطلبه لنفسها من مصر وتسعى لتسوية الاتفاق فإذا كان هذا موقف إنجلترا بالذات أفلا تكون هذا الحال أشد انطباقاً على إيطاليا في مسألة جغوب، ولكن زيور باشا لم يتردد في مرضاة الإنجليز ومرضاة أغراضه الشخصية ومصالحه الغير وقد أثرت هذه المشكلة على كرامة المصريين<sup>(٣٦)</sup>.

وقد احتجت اللجنة السعودية للسيدات على اعتداء الوزارة على الدستور بتنازلها عن واحة جغوب لحكومة إيطاليا ذلك التنازل الذي لا يصبح الدستور فيه له أي سلطة حتى البرلمان نفسه يحرمه واللجنة بهذا الاحتجاج تسجل على الوزارة المعتدية جرماً جديداً وتعتبر إنجلترا مسئولة عن بتر أراضي مصر<sup>(٣٧)</sup>.

إن الوزارة الجديدة تجاهلت وضعفت ضعفاً لم يسبق لغيرها أن حققتة والغريب أن هذه الوزارة دستورية إذ أنها وليدة إرادة الأمة والأغلبية وهي تتجاهل أحكام الدستور، وتقول أن الوزارة الجديدة هي ربيبة فضائل سعد قد نسيت سعد وما ترك لها من خطط ومناهج تشير عليها أن سعد لم يكذب يعلم أن جغوب قد سقطت حتى ذهب من مرقدته، وصرح بأن مصر لا يسعها أن تدعن لهذا وأن أهمية جغوب ليست من الواجهة الدينية فقط بل من الواجهة العسكرية، وأنه يرى هذا الاتفاق مثلما يراه أي مصري<sup>(٣٨)</sup>.

إن صيانة كرامة الأمة مهمة مفروضة على الزعماء في الظاهر ولكن ما هي قيمة إرادة الزعماء إذا لم تكن بإرادة الأمة كلها؟

لقد تناولت إحدى الصحف في روما هذه المسألة فقالت أن تفسير المندوبين المصريين للاتفاق يعد غريباً وأنه يجب أن يفهموا أن شروط الاتفاق تقيد الشعب نفسه لاسيما إذا كان داخلاً في الحياة الدولية بواسطة ممثله، ثم قالت إن إيطاليا لا تزال الراغبة

في إقامة العلاقات الودية في مجال الاقتصاد بينها وبين مصر ونحن نظن أن توقيع رئيس الوزراء يفيد الشعب المصري إلى الاعتراف باتفاق يهدد سلامة حدوده، فليس في وسع أحد أن يجهل أن اتفاق الجغبوب يعرض سلامة مصر على الخطر وأن كل تمسك من جانب المندوبين المصريين في هذه الدائرة إنما هو تمسك بحق مصر<sup>(٣٩)</sup>.

وقد عابت بعض الصحف على تصرفات الوزارة في حقوق الشعب، أما واحة جغبوب فإن هذا الاتفاق باطل قانوناً ولا يحرم الواحة من تبنيتها لمصر فستظل مصرية ديناً وخلقاً وطابعاً وإذا فصلتها القوة عن مصر فأرواح ساكنيها متصلة بها ومصر وأهلها معلقون بها وسيأتي يوم ويعود المستعمرون إلى عقر دارهم، وأما الوزارة فيكون موقفها عظيماً أمام الأمة المصرية ولن نتسامح معها فيما ارتكبته في حقنا<sup>(٤٠)</sup>.

فلم يكن من الدستور ولا من الحكمة في شيء أن تتولى وزارة غير نيابية كالوزارات التي ألفها زيوار باشا منذ نوفمبر ١٩٢٤، أن خطأ الوزارة المصرية في توهمها بأن المفاوضات مع دولة أجنبية تعوضها شيئاً من كرامتها المسلوية أو تسلي من كرامتها المسلوية تسلي ذرة من منزلته المعلوم<sup>(٤١)</sup>.

فنحن لا نريد أن نقيم حرباً حول القبة المقدسة في الجغبوب ولا يمكن أن نذود عن عيونها التابعة لنا، ولا أن نتخذ منها قلعة وهي الحصن الذي منحته الطبيعة لحدودنا الغربية، فكل ذلك إرادة إيطالية وخليفتها إنما نحن نريد أمراً واحداً أن لا يكون مفتاح الأمن والسلام في يد دولة أجنبية، لا يمكن لأحد أن يتوقع مصير انصدام معها، إن هذه المسألة لا تهتم أبناء مصر على السواء بل تهتم الأجيال المقبلة، يدعى الطليان ملكية الجغبوب ثم لا يقيمون دليلاً غير دعوى ملكية الأتراك مورثيهم أرض برقة، وهم في هذه الدعوة لم يجدوا التاريخ معنياً فإن نفس الجغبوب حديثة الظهور بل هي أحدث من استقلال مصر على يد محمد علي<sup>(٤٢)</sup>.

وقد روع الجمهور السكندري لنبا توقيع المعاهدة التي تنازلت بمقتضاها الحكومة المصرية عن واحة جغبوب، وكان الوزارة أرادت أن ترضي سادتها الإنجليز قد بادر الإيطاليون إلى احتلالها احتلال عسكري بجندهم وعساكرهم ومدافعهم وصارت قلعة حربية لهم ولنفرض أن البرلمان رفض التصديق على هذه الاتفاقية فكيف العمل إذا لاسترداد الجغبوب وقد حصنها الإيطاليون؟. أنعمد إلى إعلان حرب تفقد فيها الأموال والرجال وما لسنا في حاجة إلى فقده، لو أن الوزارة رفضت التصديق قائلة أن البلاد ليس فيها برلمان، هذا ما كنا نرجوه من هذه الوزارة الضعيفة التي سحبت منها الثقة وحكم عليها بالسقوط<sup>(٤٣)</sup>.

أما عن موقف الصحف الأجنبية من تطور قضية واحة جغبوب فقد اختلف كثيراً عن الصحف المصرية. فقد أشارت جريدة روما في عدد ٧ ديسمبر ١٩٢٥ إلى الاتفاق بين إيطاليا ومصر لترسيم الحدود بقولها: "إن المقامات الأساسية في مصر قد قابلت هذا الاتفاق بالارتياح، وهذا سيساعد على تعزيز العلاقات السياسية والتجارية بينهما وستستفيد الجالية الإيطالية هناك".

وقال جورنال دي إيطاليا " أن هذا الاتفاق يجعل لمصر مكانة دولية، وهذه أول مرة منذ شهر فبراير ١٩٢٢ تتفاوض مصر مع دولة أجنبية وتتفق معها على حل المسائل السياسية، وهذا يزيد مكانة مصر" (٤٤).

أما جريدة التايمز اللندنية فقد كتبت في ديسمبر ١٩٢٥ تقول: " إن السلوم مهمة لأنها تستخدم محطة للطيران في طريقها إلى القاهرة، وتكون مخفراً أمامياً يستخدم لأغراض إدارية وعسكرية وبذلك تزداد قيمتها لمصر فالاتفاق الذي جاء في غاية العدل وكان الفضل الأعظم فيه لثلاثة من الرجال، وكان لابد لزيوار باشا من أنه يقف في وجهه المعارضة فكثير من الساسة المصريين المدفوعين بعاطفة وطنية خالية من التبصر أو بروح العداة لحكومة زيوار باشا تجاهلوا أن لم يكن لمصر أي نوع من السيطرة علي جغيوب وأن أملاك إيطاليا لها أهم من أملاك مصر لها" (٤٥).

وسردت جريدة التايمز في مقال لها تاريخ مسألة جغيوب، وأشارت الي أن الفضل في هذا الإتفاق إنما يعود الي ما اتصف به زيور باشا من الحكمة والشجاعة، أما خط الحدود الجديد فكاد أن ينطبق علي الخط الذي وقع في اتفاق ملنر - شالويبا، وليست جغيوب سوى واحة بسيطة ذات أهمية إستراتيجية ضعيفة، ولكن إيطاليات تمسك بها كل التمسك لأغراض حربية وسياسية" (٤٦).

ونشرت التيمز أيضاً: وصف لاحتلال الإيطاليين لواحة الجغيوب احتلال سلمياً والارتياح العظيم الذي لقيته تسوية مشكلة الحدود وقالت أنه صار يرجى الآن أن تقيد المساعي السنوية تقيداً، وأن لهذا الاحتلال شأن عظيم ومن عوامل زيادة هيبة الإيطاليين.

ونشرت التايمز أيضاً تلوغرافاً لمكاتبها في القاهرة تضمن نبذة عن الكتاب الأخضر الذي نشرته الحكومة المصرية، وأشار إلي الخارطة التي وضعت في عهد محمد علي، ونشرت في الكتاب المذكور تبين أن الجغيوب لم تكن داخلية ضمن الأراضي المصرية بمقتضى فرمان الصادر من الباب العالي لمحمد علي، لكن الجهات الرسمية المصرية أدخلتها في الأملاك المصرية بحث كرومر وكتشنر وتساهل الأتراك" (٤٧).

وترجع مخاوف المصريين من الاحتلال الإيطالي لليبيا في الأصل الي اعتقادهم أن ليبيا لم تكن هي وحدها المستهدفة، علي الرغم من تصريح عدد من الصحف الإيطالية بأن الجيش لم يكن له منذ عام ١٩١١ أية مطامع في مصر، وأن إيطاليا لم تفكر في الإقدام علي أي عمل يهدد مصالح إنجلترا في مصر والسودان. وفي الحقيقة لم تأت مخاوف المصريين من فراغ، بل كانت لها ما يؤكدها علي أرض الواقع. ففي صيف ١٩٣٧، علي سبيل المثال، أخذت الأخبار تتحدث عن وجود حشود إيطالية الحدود المصرية، لكن الصحف الإيطالية نفت هذا الخبر في حينه. وأيضاً جريدة (الجورنالي دورياتي) التي كانت تصدرها آنذاك الجالية الإيطالية في القاهرة كذبت ما نشرته الصحف المصرية حول هذه الحشود. وأكدت أن الأسلاك الشائكة التي تمتد علي الحدود بين مصر وليبيا من ساحل البحر إلي جغيوب أقيمت أثناء حكم المارشال جرازياتي عام ١٩٣٣،

لمنع تهريب الأسلحة لتسهيل إخماد حركة العصيان، لقد شعر الإيطاليون بأن المصريين علي بيته بما تنوي به إيطاليا، في هذا الوقت عرض إسماعيل صدقي اتفاقية تعقد بعدم الاعتداء مع إيطاليا، نظراً لما يتطلبه من نفقات كبيرة وعدم استطاعة الحكومة المصرية تقديم هذا لكن توتر العلاقات البريطانية أنهى هذا الاقتراح، لكن الوضع تدهور علي الحدود بعد فشل محادثات جنيف وبدأ الطرفان يتأهبان لمواجهة الطرف الآخر ١٩٣٧، لذلك أتخذت الحكومة المصرية احتياطاتها في تعزيز قوات مصرية علي الحدود .

في هذا الوقت وصنت أنباء إلي القاهرة تؤكد إن إيطاليا تقوم باجتذاب بدو الصحراء الغربية، وخاصة بعد أن عانوا في الشتاء السابق من الفقر والضعف، مما أقلق الحكومة المصرية والبريطانية الأمر الذي عبرت عنه جريدة (المانشستر جارديان) بقولها: - " تقرر إرسال قوات مصرية إلي مراكز حربية علي الحدود الليبية، وعد هذا الإجراء هو النذير الأول للصدام بين الطرفين في الصحراء الغربية " (٤٨).

ثم مرت سنوات الحرب العالمية الثانية، وجري فيها ما جري من حروب بين إنجلترا وإيطاليا علي الأراضي المصرية الليبية، الواقعة علي ساحل البحر المتوسط ودون أن تمتد إلي واحة جغبوب، ودون حتي أن تفكر القوات الإنجليزية في استعادتها من يد الإيطاليين. وبعد توقف القتال في هذه الحرب طابقت مصر طبقاً لما نقلته جريدة (الموند) بإستعادة واحة جغبوب، " لا من قبل التوسع الأقليمي بل تعديلاً للحدود، وهو تعديل يستند إلي حقوق تاريخية لا تحتل النزاع " (٤٩).

وفي ٢ يناير ١٩٤٥ تقدمت مصر إلي الحلفاء بمذكرة تطالب فيها بأن تمثل في أي مؤتمر صلح يعقد في المستقبل. ومع أن مصر لم تدع بصفة رسمية لأي من هذه المؤتمرات، فقد وعدا الحلفاء بالاستماع لوجهة نظرهما. وقد تقدم ممثل مصر في مؤتمر باريس في ٢١ ديسمبر ١٩٤٦ ببيان عبر فيه بشكل خاص عن رغبة مصر في تعديل الحدود مصر الغربية بحيث تعود واحة جغبوب للسيادة المصرية.

وعندما عقدت الدول الأربعة الكبرى إجتماعاً فيما بينهم في لندن، لبحث مصير المستعمرات الإيطالية في إفريقيا، تقدمت الحكومة المصرية بمذكرة، في ١٢ سبتمبر ١٩٤٥، عبرت فيها عن اهتمامها بليبيا وأريتريا، كما طالبت بوجود استشارتها في حل مشكلة المستعمرات الإيطالية في أفريقيا وخاصة في مستقبل ليبيا، واقترحت أن يجرى استفتاء للسكان في ليبيا لتحديد موقفهم، وهل يفضلون الحصول علي الاستقلال أو الاتحاد مع مصر؟

وقد أشتركت مصر فعلاً في مؤتمر صلح مع إيطاليا، في ٢١ أغسطس ١٩٤٦، وطالبت فيه بتعديل الحدود مع ليبيا واستعادة الجغبوب، وتحريك خط الحدود في الجزء الشمالي من الغرب قبل استقلال ليبيا وإخضاعها لوصاية هيئة الأمم المتحدة، وأكدت مصر تبعية جغبوب لها عن طريق خرائط لعام ١٧٧٠ و ١٨٦٠، والتقارير الإيطالية ١٨٤٠-١٨٩٠، ووثائق المتحف البريطاني ١٨٦٦، وأيضاً موسوعة (دي سان مارتن)



الجغرافية التي تكشف أن هضبة السلوم بامتدادها من رأس المالح إلي بردية، تتبع مصر من قديم الزمان. (٥٠)

ومن المثير للغربة، أن الحكومة الإيطالية بعد الحرب العالمية الثانية، علي إعتبار أنها أصبحت صديقة للحلفاء، طالبت بأن تدير شؤون ليبيا طبقاً لنظام الوصاية الذي أقرته هيئة الأمم المتحدة، لكن الدول العربية المستقلة آنذاك رفضت هذا المطلب، ووقفت جامعة الدول العربية بقوة تطالب بسرعة حصول ليبيا علي استقلالها عن إيطاليا عام ١٩٥١. ومنذ قيام المملكة الليبية توقف الحديث حول قضية جغبوب.

### الخاتمة.

يتبين لنا، من خلال الدراسة، الأهمية الجغرافية لواحة جغبوب، التي تعتبر مفتاح سيوة من جهة الغرب. كما يتبين لنا أن المصالح الاستعمارية، لكل من إنجلترا وإيطاليا، هي التي أوجدت في حقل التاريخ الحديث والمعاصر قضية هذه الواحة، حيث كانت ضغوط إنجلترا ونفوذها علي الحكومات المصرية واضحة لا لبس فيها، حتي أذغت حكومة أحمد زيور باشا، أواخر عام ١٩٢٦، وتنازلت لإيطاليا عن واحة جغبوب عندما كانت هذه الأخيرة قابضة علي زمام ليبيا. كما كشفت الدراسة عن أن إسماعيل صدقي، الذي يفترى عليه البعض، لم يكن في وسعه أن يتحمل المسؤولية التاريخية المترتبة علي إبداء موافقته علي التنازل عن واحة جغبوب لإيطاليا، ولذا رفض أن يوقع علي هذا التنازل، الأمر الذي قبله زيور باشا بسبب مصالح حزبية ضيقة. <http://A>

كما يتضح لنا أن الرأي العام المصري والصحافة المصرية قد صبت جام غضبها في حينه علي الحكومة الزيورية لتنازلها عن واحة جغبوب لمصلحة إيطاليا. أما وعندما استقلت ليبيا وأصبحت هذه الواحة ضمن أراضيها فقد سكت هذا الرأي العام عن هذه المسألة، وذلك لشعور عربي أصيل يري أن هذه الواحة مازالت في الوطن العربي ولم تأخذها معها إيطاليا بعد أن غابت بلا رجعة شمس الإستعمار.

وأخيراً، أوضحت هذه الدراسة في ضوء مقالات الصحافة المصرية، الصادرة آنذاك، أن الحزن الذي عكسته هذه المقالات إنما مرجعه التخوف من حجم الضرر الذي أصاب حركة الجهاد الليبية، نتيجة التنازل عن واحة جغبوب لإيطاليا خلال فترة استعمارها لليبيا، حينما نجحت القوات الإيطالية في قطع طرق إمدادات المجاهدين الليبيين بعد تمركزها علي أرض هذه الواحة، منذ عام ١٩٢٧.

## الهوامش

- (١) إبراهيم أحمد رزقانه، محاضرات في جغرافية المملكة الليبية، ص ١٢.
- (٢) الهادي مصطفى أبو لقمة، الجماهيرية، دراسة في الجغرافيا، ص ١٩٩-١٢٠.
- (٣) عبدالعظيم أحمد مهيد، مصر وليبيا بين عامي ١٩٥٦-١٩٧٣، ص ١٣-١٥.
- (٤) محمود العرفاوي، مخاض الأمبريالية والفاشية الإيطالية عسر ولادتها ودفنها في ليبيا، ص ٧٠-٧٢.
- (٥) سليمان محي الدين، السنوسية - العربية - المهدية (دراسة مقارنة بينهم)، ص ٣٢.
- (٦) محمد عبدالفتاح محسن، حدود مصر الدولية، ص ٣٥٥-٣٥٩.
- (٧) مصطفى علي هويدي، الحركة الوطنية في شرق ليبيا خلال الحرب العالمية الأولى، ص ٥٩-٦٥.
- (٨) المصدر السابق، ص ٧٠.
- (٩) محمد رفعت عبدالعزيز، العلاقات المصرية الليبية، ص ١٠٨-١١١.
- (١٠) غيروغ فون غرانفيتس، تاريخ الحرب الليبية الإيطالية، ص ١٤٨-١٤٩.
- (١١) خلفه محمد التليسي، معجم معارك الجهاد في ليبيا ١٩١١-١٩٣١، ص ٢٠٢.
- (١٢) محمد عبدالفتاح محسن، حدود مصر الدولية، ص ٣٤٦.
- (١٣) محمد رفعت عبدالعزيز، العلاقات المصرية الليبية، ص ١١١-١١٢، نفس المصدر السابق.
- (١٤) نفس المصدر السابق.
- (١٥) صفاء شاكر، إسماعيل صدقي، الواقعية السياسية في مواجهة الحركة الوطنية، ص ٨٢-٨٣.
- (١٦) محمد رفعت عبدالعزيز، العلاقات المصرية الليبية، ص ١١٤-١١٥.
- (١٧) إسماعيل صدقي، مذكراتي، ص ٧٢-٧٤.
- (١٨) صفاء شاكر، إسماعيل صدقي، الواقعية السياسية في مواجهة الحركة الوطنية، ص ٨٥-٨٧.
- (١٩) يوسف سالم البرغثي، حركة المقاومة الوطنية بالجبل الأخضر ١٩٢٧-١٩٣٢، ص ١٢٥.
- (٢٠) المصدر السابق، ص ١٣٠ وما بعدها.
- (٢١) يوسف سالم، حركة المقاومة الوطنية بالجبل الأخضر ١٩٢٧-١٩٣٢، ص \*\*\*\*.
- (٢٢) أنجلوديل بوكا، الإيطاليون في ليبيا، ص ١٣٦-١٣٧.
- (٢٣) محمد علي التركي، حركة الجهاد العربي الليبي في الفترة ١٩٢٧-١٩٣٤، ص ١٤٣.
- (٢٤) أنجلوديل بوكا، الإيطاليون في ليبيا، ص ١٣٧-١٣٨.
- (٢٥) محمد علي التركي، حركة الجهاد العربي الليبي في الفترة من ١٩٢٧-١٩٣٤، ص ١٥٢-١٥٣.

- (٢٦) الأهرام، يونان نبيب رزق، حرب الحبشة إيطاليا، العدد ٥٦٦، سنة ٢٠٠٤.
- (٢٧) الأخبار، آخر الأخبار عن الجيوب، العدد ١٧٨٨، سنة ١٩٢٦.
- (٢٨) البلاغ، مسألة الحدود الغربية، العدد ٨١٧، سنة ١٩٢٥.
- (٢٩) البلاغ، الوزارة غير الشرعية، العدد ٨١٥، سنة ١٩٢٥.
- (٣٠) البلاغ، مسألة الحدود الغربية (هل تقدر الوزارة المسنونة فيها، العدد ٨١٩، سنة ١٩٢٥).
- (٣١) المقطم، واحة جيوب وامضاء الاتفاق على الحدود، العدد ١١١٨٢، سنة ١٩٢٥.
- (٣٢) الأهرام، سياسة التصفية (اتفاق الجيوب)، العدد ١٤٨٥٦، سنة ١٩٢٥.
- (٣٣) الأهرام، سياسة التصفية (اتفاق الجيوب)، العدد ١٤٨٥٦، سنة ١٩٢٥.
- (٣٤) البلاغ، جريمة الجيوب، العدد ٨٢٣، سنة ١٩٢٥.
- (٣٥) البلاغ، جريمة الجيوب، العدد ٨٢٣، سنة ١٩٢٥.
- (٣٦) البلاغ، نزول الوزارة عن الجيوب جريمة جديدة، العدد ٨٢١، سنة ١٩٢٥.
- (٣٧) الأهرام، اللجنة السعدية للسيدات، العدد ١٤٨٥٩، سنة ١٩٢٥.
- (٣٨) الدفاع الوطني، البيان الوزاري (الجيوب)، العدد ٥٩٤، سنة ١٩٢٨.
- (٣٩) وادي النيل، مسألة الحدود الغربية، العدد ٥١٧٧، سنة ١٩٢٦.
- (٤٠) الأهرام، الأزمة الوزارية المصرية، العدد ١٤٨٥٧، سنة ١٩٢٥.
- (٤١) البلاغ، مسألة الحدود الغربية، العدد ٨١٦، سنة ١٩٢٥.
- (٤٢) الأهرام، حول واحة جيوب، العدد ١٤٨٥٥، سنة ١٩٢٥.
- (٤٣) البلاغ، التنازل عن جيوب صدها في الإسكندرية، العدد ٨٢٢، سنة ١٩٢٥.
- (٤٤) الأهرام، تلغرافات خصوصية للأهرام، العدد ١٤٨٥٦، سنة ١٩٢٥.
- (٤٥) الأهرام، عدد ١٤٨٦٠ لسنة ١٩٢٥.
- (٤٦) نفس المصدر عدد ١٤٨٥٨ لسنة ١٩٢٥.
- (٤٧) المقطم، عدد ١١٢٣٣ لسنة ١٩٢٦.
- (٤٨) الأهرام، ثمن الصداقة والتحائف، يونان نبيب رزق، الحلقة ٦١٣، سنة ٢٠٠٥.
- (٤٩) الدفاع الوطني، لماذا تطلب مصر الاشتراك في مؤتمر الصلح، العدد ٦٠٧٩، سنة ١٩٣٦.
- (٥٠) حدود مصر الدولية، محمد محسن عبد الفتاح، ص ٣٧٩-٣٨٠.

## قائمة بأهم مصادر الدراسة

### ١- المذكرات:

اسماعيل صدقي: مذكراتي، تحقيق سامي أبو النور .

### ٢- الدوريات

الأهرام العربي: سامر المفتي (من زرزورا وزرزار إلي سيوة) مسلسل الواحات المفقودة، العدد ٢٨٢، ٢٠٠٢.

وادي النيل ( يومية ) أعداد عام ١٩٢٦.

الأهرام ( يومية ) : سنوات ١٩٢٥ - ١٩٢٧ - ١٩٣٢.

يونان نبيب رزق: ثمن الصداقة والتحالف/ حلقة ٦١٣ / السنة ٢٠٠٥، الأهرام.

يونان نبيب رزق: حرب الحبشة - إيطاليا/ حلقة ٥٦٦ / السنة ٢٠٠٤، الأهرام.

المقطم ( يومية ) : ١٩٢٦، ١٩٢٥.

الأخبار ( يومية ) : ١٩٢٦.

البلاغ يومية : سنوات: ١٩٢٥، ١٩٢٦، ١٩٢٧.

### ٣- المراجع العامة:

١- أنجيليو ديل بوكا: الإيطاليون في ليبيا، ترجمة محمود علي التائب.

٢- خليفة محمد التليسي: معارك الجهاد في ليبيا ١٩١١-١٩٣١.

٣- محمد رفعت عبد العزيز: العلاقات المصرية الليبية في النصف الأول من القرن ال ٢٠ (١٩١١-١٩٥١) دكتوراه في الفلسفة ١٩٨٦.

٤- أحمد المهدي حمد: الحركة الوطنية خلال الفترة (١٩٣٢-١٩٤٢) ١٩٩٥.

٥- عبد العظيم أحمد حميدة: مصر وليبيا بين عامي ١٩٥٦-١٩٧٣، رسالة دكتوراه.

٦- محمد علي التركي: حركة الجهاد العربي الليبي في الفترة من بداية ١٩٢٤ - ١٩٢٧.

٧- يوسف سالم البرغثي: حركة المقاومة الوطنية بالجبل الأخضر ١٩٢٧-١٩٣٢.

٨- غيورغ فون غرنفيتس: تاريخ الحرب الليبية الإيطالية.

٩- سليمان محي الدين سليمان فتوح: دراسة مقارنة (السنوسية - العربية - المهدية) في دور كل منهم في مقاومة الاستعمار.

١٠- أنجيلو بتشولي: إيطاليا وما وراء البحار - الجزء المتعلق بليبيا في الجانب العسكري، ترجمة: عبد الرحمن العجيلي.

١١- المبروك علي الساعد: مقاومة الليبيين للأحتلال الإيطالي ١٩٢٨ - ١٩٢٩.

١٢- وليم س. أسكيو: أوربا والغزو الإيطالي لليبيا ١٩١١-١٩١٢، ترجمة: ميلاد المقرحي.

١٣- محمود العرفاوي: الإمبرياله والفاشية الإيطالية عسر ولادتهما ودفنها في ليبيا ١٨٨٢ - ١٩٤٢، ترجمة: عمر الطاهر.

١٤- الهادي مصطفى أبو نقمة وآخرون: الجماهيرية دراسة في الجغرافيا.

١٥- مصطفى علي هويدي: الحركة الوطنية في شرق ليبيا خلال الحرب العالمية الأولى.

- 
- ١٦- مجيد خدوري: ليبيا الحديثة (دراسة في تطورها السياسي)، ترجمة نقولا زيادة.  
١٧- إبراهيم أحمد رزقانة: محاضرات في جغرافية المملكة الليبية.  
١٩- صفاء شاكر: اسماعيل صدقي، الواقعية السياسية في مواجهة الحركة الوطنية.  
٢٠- أحمد محمد عبد الفتاح محسن: حدود مصر الدولية.

